

موسوعة

عصر الطين والبرك

ونظامه العاصي والارمني

نور ساذ الكور

محمود رزق سليم

المجلد الرابع

الناشر

مكتبة الآداب

٤٩ ميدان الأوبرا - ق ٨١٩٨٠٠

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

عصر الأئمة
ونشأته
العلمي والأدبي

تأليف الدكتور

محمود زور سليم

المجلد السابع

وهو القسم الأول من الجزء الرابع

في أثر البيئة المصرية في الشعر

الطبعة الأولى

١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

مقدمة

في

التعريف بمنهج البحث ، ومعنى البيئية ، وأبواب الكتاب وفصوله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

- ١ -

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير الخلق أجمعين .
وبعد . هذا هو المجلد السابع من موسوعتي « عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى
والادبى » . ويتألف منه ومن المجلد الثامن التالى ، الجزء الرابع من هذه الموسوعة ،
الذى به ينتهى بحثنا الشامل ، فى العصر المذكور .

وموضوع الجزء الرابع ، بمجلديه ، هو « أثر البيئة المصرية فى الشعر فى عصر
المماليك » . حارلت فيه - بعد دراسة البيئة المصرية من أهم نواحيها - الربط
بينها وبين النتاج الشعرى فيها ، لإيضاح مدى تأثيرها فى شعرائها ، ومبلغ استجابة
هؤلاء الشعراء لوجوبها .

وفى المجلدات السابقة طرقت بحثنا شتى وأبوابا متنوعة ، كانت دراسات
لهذه البيئة . وفى الجزء الرابع الذى أقدم الآن قسمه الأول إلى القراء - أعنى
المجلد السابع - أزيد الأمر وضوحا بدراسات وجيزة لنواحي البيئة ، ثم أبسط
القول فى نتائجها الشعرى .

وقد يرى القارئ تغيرا فى منهج البحث فى هذا الجزء ، يميزه عن الأجزاء
السابقة ، وفى الحق كان لكل جزء من الأجزاء الأربعة منهج ، لعله يتفق مع
طبيعة موضوعه ، ويعين على حسن تناوله .

ومنهجى فى الجزء الرابع - وهو المنهج الذى أشرت إليه - هو ربط البيئة
بشعرها ، أو ربط الشعر ببيئته ، دفعنى إلى انتهاجه ما استبد بخاطرى من ضرورة .

العمل لاستجلاء الشخصية المصرية أو بعض جوانبها ، وبخاصة في عصر سلاطين المماليك ، لمعرفة مدى يقظة الشعب فيه نفسياً وعقلياً .

وكانت منذ حين ، قد برزت « النظرية الإقليمية » ، وأثارت جدلاً ومناقشة ، وتعصب لها بعض الرواد تعصباً كاملاً ، ورأى ضرورة دراسة الأدب بعامة ، والأدب المصرى بخاصة ، على أساسها وحدها . وذلك لقدرتها على إبراز معالم الأدب وإيضاح خصائصه وربطه بأسبابه البيئية ، وكذلك لقدرتها على إبراز معالم الشخصية التى أنتجت ، إلى غير ذلك من الأسباب .

وتأثرت البحوث الأدبية - ولا ريب - بما أثير حول هذه النظرية . واتجه بعضها إلى دراسة الأدب على أساس ربطه بمسبباته البيئية .

وهذا البحث الذى أقدمه ، فى الجزء الرابع بمجلديه ، وإن كان دراسة تفصيلية لشعر مصر فى عصر المماليك ، يقوم على أساس هذا الربط وحده ، ولكن توسلاً إلى هدف أسمى وأهم ، وهو الوقوف على مدى يقظة شعب مصر فى العصر المذكور - كما أشرت .

وإذا كان اشتراك شعب من الشعوب ، فى فتح أو غزو أو دفع عدو ، أو كان اشتغاله بعلم أو صناعة أو تجارة ، يدل فيما يدل عليه ، على مستوى الحياة التى يحياها ، وعلى نوعها ، وعلى مدى اليقظة الإنسانية التى يتمتع بها ، فإن نشاطه الأدبى ، وبخاصة فى ميدان الشعر ، يدل على هذا المستوى وهذه اليقظة دلالة أوسع وأعمق وأصل . إذ أن الشعر رجوع الحياة العاطفية الوجدانية - فى أغلب أمره . وهو أقوى اتصالاً بأعمق المشاعر الإنسانية وأمتع الأحاسيس النفسية . والحياة العاطفية الوجدانية للإنسان هى الحياة الحقيقية التى يحياها . والشعراء ، فى جملتهم ، من الشعب وإلى الشعب . ومن ثم كان الشعر فى أكثر أمره ، من أصدق الأدلة على مدى اليقظة الحقيقية للشعب .

لهذا اتجهت إلى دراسة الشعر فى مصر ، فى عصر المماليك ، مع ربطه بأسبابه البيئية ، لاثنتين مدى اتصاله بها ، ومدى استجابته لها وتعبيره عنها ، وتسجيله

لأحداثها المادية والمعنوية . ومن هنا أتبين مدى اليقظة الفكرية والعاطفية التي كان يحياها الشعب المصري حينذاك ، فأحكم له أو عليه .

ودراسة الشعر على أساس ربطه بأسبابه البيئية ، تعين على كشف مهمة التقليد والمحاكاة ، ومعرفة مدى صدقها . إذ أنها تبرز بوضوح لا يعتريه غموض ، وبصدق لا يعتوره شك ، حالة الشعراء ، وهم يترجمون عن بيئتهم ، أكانوا صادقين في شعورهم وخواطرهم نحوها ، متأثرين حقاً بأحداثها ، أم كانوا يستعIRON وتجارب الآخرين ، ويتمصون عواطفهم .

وإذا اتجهنا في هذا البحث نحو البيئة ، فدرسناها في شيء من التفصيل ، وعقبنا على ذلك بعرض شعرها مع الربط والتعليل ، وظفرنا من وراء هذا المنهج بنتائج محدودة ، لا نقول إن الشعر والأدب ثمرة لعوامل البيئة وحدها ، فإن ثمة عوامل أخرى ، قد يكون لها أثر كبير في توجيه الشعر والأدب ، والوصول بهما إلى مستواهما ، وذلك كالمواهب الفردية والدراسات الأجنبية غير الوافدة .

وعلى هذا نفترق عن نظرية « الإقليمية » ، بعض الافتراق . فإنها تقصر عوامل الأدب على العوامل المحلية دون سواها ، وتزد إلبها كل مظاهره ، وتتجاهل مواهب الفرد ، وتوسع في مجال الموازنة ، مصررة على أن تميز محلة عن أخرى .

ونحن لا نتعصب لمنهج بعينه . ولكننا نشعر أن دراسة البيئة والكشف عن أحداثها وعواملها ومؤثراتها المختلفة ، والبحث عن مدى أثرها في شعر شعرائها ، وعن مبلغ استجابة هذا الشعر لوجها ، توصلنا إلى فهم شخصية الشعب وخصائصها ، في إحدى حقبة ، وفهم مستواه من الحياة الصحيحة ، نشعر أن هذه الدراسة مجدية مثمرة ، تؤدي إلى أفضل النتائج وأدقها وأصدقها .

وقد تنبه القدماء إلى أهمية البيئة ، باعتبارها المؤثر في حياة الأدب . فابن سلام الجمحي - مثلاً - في طبقاته يقسم الشعراء - غالباً - بحسب الفوارق الإقليمية ،

فيجعل - مثلا - شعراء المدينة طبقة ، وشعراء مكة طبقة ، وشعراء الطائف طبقة وهكذا . - والقاضى أبو الحسن الجرجاني فى وساطته يشير إلى أثر البيئة والموطن بجوار الطباع والخلق ، فى الشعر لفظا وأسلوبا - وابن رشيق فى عمدته ، يرى من حق أهل البادية أن يذكروا الرحيل والماء والجل والصحراء ... الخ . ومن حق أهل الحاضرة أن يتحدثوا عن الصد والهجران والشراب والندمان والقصور الغناء ... الخ^(١) .

وفى العصر الحديث دعا المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل إلى ضرورة دراسة الأدب المصرى مستقلا عن غيره^(٢) . ولهج الدكتور طه حسين بضرورة دراسة البيئات المختلفة ، مستقلة كل بيئة عن الأخرى ، دون نظر إلى التبعية السياسية ، توصلا لفهم شخصياتها الأدبية ، ويرى أن الفرد من آثار أمته^(٣) . - وتركز النظرية الإقليمية أخيرا لدى الأستاذ أمين الخولى ، ويتعصب لها ، ويرى وجوب اتباعها وحدها منهجا فى الدراسات الأدبية ، إذا أردنا الكشف عن خصائص الأدب^(٤) .

واعتقد أن الدعوة إلى دراسة الأدب - ومنه الشعر - على أساس الإقليمية أو البيئة ، والربط بينها ، وجدت استجابة كبيرة وقبولا حسنا لدى جمهور الباحثين المحدثين . فقد اتسمت بحوث كثير منهم بالاتجاه إليها واصطناعها ، اصطناعا جزئيا أو كليا ، وفى مدى ضيق أو متسع . بحسب مقتضيات ظروفهم . ومنهم من اتجه إلى دراسة الأدب المصرى . ومنهم من اتجه إلى دراسة غيره .

(١) راجع كتاب « مناهج الدراسة الأدبية » للدكتور شكرى فيصل ص ١٠٦ وما بعدها . وطبقات ابن سلام مقدمة ص ١٩٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٩ . والوساطة للجرجاني ص ١٨ تحت عنوان « أثر الحضرة فى الشعر » ، - والعمدة لابن رشيق ص ج ا تحت عنوان « باب المبدأ والخروج والنهاية » .

(٢) راجع كتابه « نورة الأدب » .

(٣) راجع كتابه الأدب الجاهل ومقدمته .

(٤) راجع كتابه وإلى الأدب المصرى .

ومن هؤلاء الأستاذ عمر الدسوقي في كتابيه «الأدب الحديث» . و «النابعة الذيباني» . والدكتور سيد نوفل في كتابه «شعر الطبيعة في الأدب العربي» . والمرحوم الدكتور محمد كامل حسين في كتابيه «أدبنا العربي في عصر الولاية» . و «أدب مصر الفاطمية» . والدكتورة نعام أحمد فؤاد في كتابها «الذيل في الأدب المصري» . والدكتور زكي المحاسنى في كتابه «شعر الحرب في أدب العرب في العصر الأموى والعباسى» . والدكتور أحمد الحوفى في كتابيه «أغانى الطبيعة في الشعر الجاهلى» . و «الحياة العربية في الشعر الجاهلى» . والدكتور محمد مصطفى هدارة في كتابه «اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى» . والأستاذ الجليل أحمد الشايب فى كتابه «تاريخ الشعر السياسى إلى منتصف القرن الثانى» . والدكتور شوقى ضيف فى كتابه «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» . والمرحوم الأستاذ عباس العقاد فى كتابه «شعراء مصر وبيتانهم فى الجيل الماضى» .

- ٢ -

الببئة :

ونعنى بالببئة بعامة ، وطن المرء الذى يولد فيه ، وينتسب إليه ، ويدرج بين ربوعه ، ويعيش فى جوه وفوق أرضه وتحت سماءه وبين أهله . فتفتتح عينه على مرأته ، ويقتب خاطره على أحداثه ، وينطلق لسانه فيتكلم بلغته ، ويرى فى قومه عادات فيعتادها من صغره ، وتقاليد فيتبعها منذ نعومة أظفاره ، وتعاليم فيسترشد بها ، ودينا فيعتنقه ، وقيا خلقية فيتمسك بها .

ويشب بين أفراد أسرته ، وبين بنى وطنه ، فتربطه بهم مشاعر كريمة ، تتأصل جذورها فى أعماق نفسه ، وتصله بهم صلات يكونها الإلف والمصلحة المشتركة ، والشعور بضرورة تبادل الحماية ، وبمحتمة التعاون ، وبالتجانس النامى فى طيات نفسه وإفانف شعوره .

وهم لا ينفسكون عنه ، وهو لا ينفك عنهم ، يجلس فى مجالسهم ، ويمشى فى أسواقهم ، ويطعم من طعامهم ، ويشرب من شرابهم ، ويتزيا بأزيائهم . ويتلهى

بملاهم . وينال قسطه من الرزق بين أيديهم ، وحظه من الثقافة والتجربة في معاهدهم ، بمقدار ما تتيحه له ظروفه وظروفهم ، وبمقدار ما يسنح لهم من الثقافة المحلية أو الوافدة .

وهكذا ينشأ المرء في هذا الوطن ، الذى فيه ولد أو نما أو جرب ، وتعلم واختبر ، ولا حظ وأفاد ، ورزق وعمل ، وشارك ونافس . ومعارفه الأولى منه ، ومشاعره الأصيلة عنه .

هذا الوطن أو المنشأ . هو الذى نعنيه بالبيئة الكبرى . وهو - كما ترى - مجتمع ألوان من الحياة ، ومشبك أنواع من المقومات الإنسانية ، كبيرة العدد ، ذات أثر بالغ في حياة المرء ونفسيته ، وفي تفكيره وشخصيته ، وفي سلوكه ونتاجه .

ومن هنا تنشأ أهمية هذه البيئة بالنسبة للفرد . فهى ذات أثر فعال في تكوين خلقه وتوجيه أفعاله وإنشاء عاداته ، ورسم طريق تفكيره . وهذه أمور تعيش وراء النتاج الأدبي الصحيح ، وهى دعائمه الأولى وحوافزه السكامة .

ومن هنا أيضا تنشأ أهميتها بالنسبة لحياة الجماعة البشرية كلها ، التى تعيش مع هذا الفرد فى وطنه . فإن آثارها فيه وفيها ، آثار مشتركة غالبا . وتدل فى نتائجها - عادة - على روح هذه الجماعة دون غيرها ، وتتسكلم عن إرادتها دون سواها .

ودراسة مجموع نتاج أفراد هذه الجماعة ، فى الأدب مثلا . تؤدي إلى فهم روحها وإرادتها ، ومن ثم إلى معرفة شخصيتها وإلى تقديرها . وهذه المعرفة من أهم أهداف البحوث الأدبية .

والفرد - إلا ما شذ - هو فى جملة سلوكه واحد من هذه الجماعة التى يعيش فيها ، وشريك لها - غالبا - فى أحاسيسها وفى عواطفها وتفكيرها وأهدافها . وبذلك فهو يدل بجملة سلوكه عليها ، ويشير بنتاجه إليها نتيجة للمشاركة الوجدانية

الضرورية ، التى تدفع إلى سرعة الاستجابة بحافز من المتابعة الغريزية ، ونتيجة أيضاً لشعور الفرد بأنه عضو فى هذه الجماعة التى ينتمى إليها (١) .

وتتشعب عوامل البيئة المؤثرة فى الإنسان - الشاعر مثلاً - والموجهة له ، تشعباً كبيراً . فمنها طبيعة بلاده ، وأحداث السياسة ووقائع التاريخ فيها ، والديانات المنتشرة بها ، وأحوالها الاقتصادية التى تتحكم فيها ، والألوان الثقافية التى تلقاها ، والمستوى الحضارى الذى بلغته ، إلى غير ذلك .

ولما كان من العسير . الإلمام الشامل بجميع هذه العوامل والمؤثرات ، وبيان عملها وآثارها فى اتجاه الشعراء . وتفصيل النتائج الشعرى المستجيب لهذا الاتجاه ، قصرنا الدراسة على أربعة عوامل بيئية رئيسية ، نعتقد أنها جماع العوامل كلها . وهى العامل الطبيعى ، والسياسى ، والثقافى ، والاجتماعى . وتوسعنا فى مفهوم « العامل » . واعتبرناه « بيئة » مستقلة . ولماذا تحدثنا عن البيئة الطبيعية فالسياسية فالثقافية فالاجتماعية .

والبيئة الطبيعية:

نعنى بها ما يتصل بموطن الشاعر من شكل أرضه ومناخه وموقعه . أرضه وما فيها من علو أو انخفاض وجبل وسهل وصحراء وماء ، وخصب وجذب ، وزرع وضرع . ومناخه وماله من تطرف أو اعتدال ، ورطوبة أو جفاف ، ورياح ونسيم ، وما يعرض فيه من صفاء وعبوسة ، ومن رعد وبرق ، ومن سحاب ومطر . وموقعه ومدى صلته بمواقع غيره من الأوطان ، وماله من أهميته فى التجارة أو الحرب مثلاً ، وما يحف به من بحار أو بحيرات ، وما يحده من جبال أو أنهار أو صحراوات إلى غير ذلك .

(١) راجع كتاب « كيف يعمل العقل » لسرل برت تعريب الأستاذ محمد خلف الله ١٥٥ ،

وهذه البيئة الطبيعية وما يتصل بها من الموقع الجغرافي ، كانت ، وما تزال ، صاحبة التكييف الأول المبكر لنفسية الأديب وطريقة تفكيره وتفسيره للحياة من حوله ، وحله لمعضلاتها ، لأن الأديب قصاره -- ولا سيما قبل أن يتعمق في الثقافة -- أن يعرف حقائق الكون من أجزاء بيئته التي يتنفس فيها ، ومن محتوياتها . وتتأثر نفسه بعواملها البارزة لحواسه . كما تتربى عاطفته وتثور ، وتتكون عاداته وأخلاقه ، لأول مرة ، في أحضان هذه البيئة ، نتيجة لما تخلقه فيه مظاهرها ، وتبعثه في أعماقه وباطنه . وهذه أهم دعائم أدبه وحوافزه . ومن هنا كان للبيئة الطبيعية آثار قوية مبكرة في تكوين خصائص أدبه .

ومع اعترافنا بأن البيئة الطبيعية ليست وحدها صاحبة جميع الآثار المكونة لامتزجة شعوبها وطبائعهم ، نذكر - على سبيل المثال - أن حياة الصحراء الشاسعة الواسعة ، التي لا تحجب الأبصار فيها هضاب ولا مرتفعات ، وتراعى سماؤها صحو صافية ، تتألق نجومها وتتألا كواكبها . ويجابه فيها ساكنها وجه الطبيعة مكشوفاً واضحاً فسيحاً ، تبعث فكره حرراً ، وتنطق لسانه طلقاً ، وتعوده الشجاعة والصبر لما فيها من المشاق ، وتحجب إليه السكرم لما يعتورها من الجذب .

والبيئة الزراعية الغنية بنباتها الزاهر وزرعها المثمر وشجرها الظليل ، تدعو إلى القناعة والتسامح ، وفيها تصفو النفوس وتتضح الضمائر ، ويزيد الإيثار . وهي ترغب في الإيواء والمعونة ، وتعود الرضا والمواودة والاتكال ، بل ربما أماتت في بعض النفوس حوافز الكفاح^(١) .

وحياة البلاد الجبلية التي تحد فيها الأبصار ، وتحسر الأنظار ، وتتعرج الممرات ، وتضيق الطرقات ، ويكثر الوعر ، ويشق السير ، تدعو إلى اليقظة والحذر ، وإلى

(١) راجع « النابذة الديباني » الدسوقي للأستاذ عمر ، مقال « تحت عنوان » الصحراء » .

الحيلة والترقب . وتدفع إلى التوجس والالتواء والغموض ، وقلة الكلام وكثرة العمل .

وهكذا ترى أن البيئة الطبيعية ذات آثار هامة في تكوين أمزجة الشعوب وطبائعها - وإن لم تكن وحدها - وبذلك يختلف شعب عن غيره ، ويفترق قوم عن قوم آخرين . وبذلك أيضا يختلف أدب عن أدب .

ويقول «سرل برت» ، بعد أن تحدث عن الفوارق بين الشعوب بسبب اختلاف الجنس :

« إذا أردنا فروقا بينة بين قوم وآخرين ، فلنبحث عنها في الطبع والمزاج . وهنا لا نجد مقاييس علمية نستعين بها ولكننا نعتمد على الملاحظة وما تكونه من فكرة عامة . وهما دليلان غير مأمونين . وعلى هذا فلنرجع إلى ثلاثة الأجناس الأوربية العظيمة .

إن السامح الإنجليزي تبدو له هذه الفروق المزاجية واضحة رائعة . فأولئك الأجناس الجنوبيون ذوو الشعر الأسود ، قوم سريعو التأثر ، محبون للاجتماع كثيرو الكلام . قليلو التريث ، مندفعون ، يفيضون حركة وحسن بديهة . وهم - بدورهم - إذا وصلوا إلى إنجلترا ، قالوا إنه يخيل إليهم أنهم أتوا إلى شعب من الغمائل الشمعية . فالشمال ذو الشعر الأصهب يبدو لهم مخلوقا أبكم بلغمى المزاج مستقلا متحفظا . والمادح الراضى - بالظبيع - يصفنا بأننا رجال عمل أقوياء صامتون إلى حد ما . فإذا ما استثيرت نفوسنا ، صدرت عنا أعمال قوية عظيمة . وإذا عبرنا عن هذه التفرقة في لغة علماء النفس الحديثين ، قلنا إن الجنوبي منبسط ، والشمال منطو أو منقبض . فالأول يظهر ما يباطنه ، ميالا للتفتح سريع الإجابة للعالم الخارجى . والثانى يكبت انفعالاته ويبدو مشغولا بنفسه ، مركزا تفكيره فيها ،^(٢)

(٢) راجع « كيف تعمل العقل » لسرل برت « تعريب الأستاذ محمد خلف الله ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

ويوضح سرل برت حديثه أيضا ببيان صدى هذه الأمزجة أو الطبايع ، في
النتاج الفني ، فيقول :

« وفنون الرسم والبناء والشعر والموسيقا ، تميل - في كلتا إيطاليا وفرنسا -
نحو النوع الكلاسيكي . أما في ألمانيا وإنجلترا ، فتغلب على هذه الفنون الناحية
الرومانسية . ففنون المجموعة الأولى شكلية عقلية ذات تقاليد ، تعبر عن نفسها
في وضوح واتزان وهدوء . أما الثانية فجاجة غير متزنة ، تقوم على التأمل الباطني ،
وتندفق في ثورة ومبالغة . وفن الأولى فن عام . فـ قوم يعبرون عن شعورهم
لغيرهم في طلاقة وصراحة . أما فن الثانية فخاص فردي متصوف متمرد -
وأحيانا في غير نظام - على القيود الاجتماعية وفن إيطاليا صاف مشمس
كناخها . ولكن فن الشمال مثل جو الشمال ، معتم متقلب . والواقع أن
الكثيرين يعتقدون أن جو الممالك المختلفة ومناخها ، مسئول عن أمزجتها
وطبايعها ،^(١) .

ويذكر سرل برت . أن « بكل ، في كتابه « تاريخ الحضارة ، أرجع الفروق
بين الأجناس إلى البيئة الطبيعية . ويرى أن الاسكتلنديين أشداء نشيطون ،
لأنهم يعيشون في الجبال ، وأن الزوج كسالى مبذرون ، لأنهم يسكنون المناطق
الحارة الوفيرة الخيرات ^(٢) »

ولا نغلو إذا قلنا إن الأديب والشاعر . معجمه الأول بما فيه من مفردات
وتراكيب ، وما يحمله من تصورات وأخيلة وتشبيهات ، وما يدور حوله من
موضوعات « منتزع من هذه البيئة ، وضرب من ضروب وحياها . وإن أدبه المبكر
انعكاس لمفردات بيئته وأساليبها وموضوعاتها كما بدت في مرآة نفسه . نعتقد
أن هذه مسائل احتلت مكانها من البدهيات .

(٢) المصدر السابق ص ١٧٠

(١) المصدر السابق ص ١٦٦ ، ١٦٧

وإنك لترى - مثلاً - ساكن الصحراء يكثر في حديثه - أو أدبه - من ذكر البید والرمال والحرار والففار والحصی والسماء والنجوم والأسود والذئاب والإبل والخیل والماشية ، والرحیل والخيام والأطناب . . . إلى غیر ذلك وتشغله موضوعاتها ، وينزع تشبیهاته وأخیلته من صفاتها وحرکاتها وأعمالها .

وعلى هذا الغرار ، ترى ساكن الشواطئ يكثر من ذكر البحار والأمواج والاصطخاب والسفائن والأسماک والصيد والشباك . وساکن الحقل تدور في أحاديثه الساقية والناعورة ، ويجرى الماء والربى والنهر والجدول والغدير ، ويبدو النبت والشجر والورق والثمر . . . إلخ

والبيئة السياسية :

هى ما يكتنف الوطن من عوامل السياسة الداخلية والخارجية ، وارتباطاته بغيره من الأوطان . وما يتصل بذلك كله من أحداث ووقائع وأخبار وصلات . ترى كلها نحو تقرير أحوال الوطن في حاضره وفي مستقبله ، وإلى تحقيق أهدافه فيها من ناحية حكمه وعلاقته بغيره .

ولسكل وطن في داخل أسواره نظم للحكم قائمة ، وأشكال وأوضاع رئيسية مقررّة ، تتناول هيئة الحكومة التى تشكل عليها وعلاقاتها بالشعب . سواء أكانت مكتوبة مسطورة ، أم جرى بها العرف وحفظتها التقاليد .

وهذه النظم والأوضاع ، هى مناط النظر السياسى في داخل الوطن ، ومجال الرأى والتدبر بين أبنائه . وقد ينجم الخلاف ويشدّ الجدل حول طوائف الشعب بعضها وبعض ، أو بينها وبين حكامها المتمسكين زمام الأمور فيها . وقد يفترون فرقاً تتنافس ويناهض بعضها بعضاً . ويندفع كل منهم بحسب نيته وطويته ، ويسعى إلى هدفه ، سواء أكان هذا الهدف هو وصوله إلى الحكم والقبض على ناصية الأمور ، ليصرفها بحسب رأيه وهواه أم كان رغبة في إقرار نظام معين .

وقد يصل الأمر بينهم إلى الكيد والانتهاز ، وإلى بذل الحيلة وجمع الاتباع واصطناع الأنصار ، وإلى التأويل والافتراء ، بل وإلى شن الحروب الأهلية .

وقد يسالم الشعب ويهادن حكامه . وقد يستسلم ويضعف ويكبت ويسكت . ويترك الأمور في يد حاكم ظالم أو ملك مستبد ، أو متغلب غشوم ، يستأثر بدوره بالرأى والقوة والمال والجاه ، ويصطنع معه من مفاليك الاتباع من يسلطهم على الشعب بسياطه ، ولا تعنيه إقامة عدل ولا دفع مظلمة ، ولا بناء مرفق ، ولا سعى تقدم ولا نشر لرخاء ، ولا جمع لكلمة ، ولا إحقاق لحق .

وقد لا يسالم الشعب ولا يهادن ، بل يتسكتل أمام الخطر الجاثم في داخل الوطن ، والرايض فوق قلبه لا يريم ، ولا يدعه يتنفس . فيتلام أبنائه ، ويتعاون رجاله ، وتتآلف صفوفه ، ويقفز من بينهم من يرشحه القدر إلى مكان القيادة ، فيجمع الكلمة ويوحد الصف ويقوى الجبهة ، ويقود الكتيبة ، ليصل إلى الهدف .

ولكل وطن أيضاً أهداف سياسية خارج حدوده ، تتناول فيما تتناوله ، صلة الوطن بغيره من الأوطان قريبا وبعيدا . ولإقرار هذه الصلات ، توفد الوفود ، ويرسل القصاد والسفراء ، وتبعث الرسائل ، وتهدى الهدايا ، وتقدم المعونات ، وتقام المؤتمرات ، للوصول إلى الأهداف أيضاً .

وترتبط هذه الأهداف بمشينة الشعب أو بمشينة حكامه . وتحرك هي ، أو تحركها ، رغبة في فتح وغزو ، أو رحلة إلى كشف وإصلاح ، أو سعى إلى تأديب وردع ، أو نهوض إلى دفع عدو ودرء خطر ، أو مكافحة لمستعمر وطامع ، أو استجابة لنداء صديق ، أو استغاثة حليف .

لذلك كله ، تدبر الأموال ، وتفرض الضرائب ، ويجمع السلاح ، وتخزن الذخيرة ، ويعلم الجند ، وتكتب الكتب ، وتجهز الجيوش ، وتدبر الخطط ، ويبذل الرأى ، وتعمل الحيلة ، وتشن الحروب الخارجية .

وترتبط السياسة الخارجية للوطن ، بسياسته الداخلية ارتباطاً وثيقاً . وكل منهما ذات أثر بعيد في الأخرى .

في هذا المدار وما يتصل به ، يعيش الشاعر ، فيتصل إحساسه بما يجري فيه . وما هو إلا أحد أفراد مجتمعه ، وهو عضو من أعضائه ، يحيا معه وسط أحداثه السياسية ، ويصيبه منها عادة ما يصيب سواه . ولا بد أن يكون لذلك صدهاء في شعره . فيسجل أو يصف أو يحرض أو ينقم أو يشور أو نحو ذلك .

والبيئة الثقافية :

هي الوسط التعليمي ، والظروف التهذيبية التي نشأ فيها الأدباء ، وتأثروا بها ، والنظم التي ساروا عليها وأخذوا بها في دراساتهم ، ونوع الدروس التي تلقوها والتي ازدادوا بها علماً ، وازدادت عقولهم بها نمواً وتهذيباً . والأساتذة الذين تلقوا عنهم ، والعلوم التي برع فيها أو تخصص هؤلاء الأساتذة ، وما يتصل بذلك من دور كتب ، ووسائل تشجيع للعلماء والطلاب على السواء . هذا إلى ثقافة النظراء المعاصرين والأنداد المنافسين .

وهذه البيئة ذات أثر بالغ في الأدباء كتاباً وشعراء . فإذا كانت البيئة الطبيعية أو الاجتماعية مثلاً - تزود الأديب بالغذاء الروحي والعاطفي ، فإن البيئة الثقافية تزبد عليهما مده بالغذاء الفكري وخيال الشاعر إنما يصرفه قائدان هما العاطفة والفكر .

وكلما كان كل منهما على مقدار واسع من القوة والدقة والعمق ، قبضاً للخيال مسرحاً فسيحاً يحول في أرجائه ، فتطفر إلى صفحته صور يبتكر ويبدع فيها ، ما شامت له قدرته وبراعته . ثم ينقشها على اللسان فيوحى بالوان من الحكمة وضروب من البيان ، جملاً مطربة وصوراً معجبة .

ويقرر بعض المفكرين أن الناس جميعاً متساوون في الذكاء ، وأن مواهبهم الكامنة لا تحتاج في تنبيهها وإيقاظها إلا إلى شيء من التربية (١) .

والتجارب المتكررة على الأفراد والشعوب ، تحقق صدق هذه النظرية إلى حد بعيد ، وتبرهن على أن عامل الثقافة قد يرجع عوامل البيئات الأخرى ، الجغرافية وغيرها ، في تكوين النفسية والعقلية معا . ومن ثم في تكوين النتاج الأدبي . فكثير من الأمم عاشت تحت خصائص الجنس وسلطان البيئة الطبيعية ، وما نشأ في مجتمعاتها من عادات وتقاليد ، انتقلت - أو تمنتقل - إلى حالة جديدة من النفسية والعقلية ، بتأثير ما طرأ عليها أو انضج فيها من ألوان الثقافة ، وأنها بسببها تحولت - أو تتحول - شخصيتها إلى شخصية جديدة ، ذات دعائم ومقومات جديدة .

وكذلك نستطيع القول عن الفرد . فبعض زنوج إفريقية يعلمون في بعض البلاد الأوروبية ، وقيمون في تلك البلاد ردحاطويلا ، ويتقفون بثقافتها ويتعلمون علوم أهلها ، فغدا بعضهم وهو لا يفترق عن زميله الأوربي في عقليته ، فضلا عن عاداته وعاطفته (٢) .

ويشير الأستاذ العقاد - رحمه الله تعالى - إلى ضرورة دراسة بيئات الشعراء تيسيراً لنقدهم . ويشيد بأثر البيئة الثقافية . ويبدو أنه ينسب إليها أكثر عوامل الأدب والمؤثرات فيه . فيقول ، وهو يتحدث عن مصر الحديثة :

« ومعرفة البيئة ضرورية في نقد كل شعر ، في كل أمة ، في كل جيل . ولكننا ألزم في مصر على التخصيص ، وألزم من ذلك في جيلها الماضي على الأخص . لأن مصر قد اشتملت منذ بداية الجيل إلى نهايته على بيئات مختلفات ،

(١) كيف يعمل العقل س ١٩٠

(٢) المصدر نفسه س ١٩٠ وما بعدها .

لا تجمع بينها صلة من صلات الثقافة غير اللغة العربية ، التي كانت لغة الكاتبين والناظمين جميعاً . وهي حتى في هذه الجامعة ، لم تكن على نسق واحد ، ولا على مرتبة واحدة ، لاختلاف درجة التعليم في أنحائها وطوائفها . بل لاختلاف نوع التعليم بين من نشئوا على الدروس الدينية ، ومن نشئوا على الدروس العصرية ، واختلافه بين هؤلاء جميعاً ، وبين من أخذوا بنصيب من هذا وذاك (١)

ويقول أستاذنا المرحوم محمد عبد المطلب ، عن صلة ثقافة الشاعر بثقافة معاصريه وارتباطها بها وأثرها فيها :

« درجة كل امرئ في عقله تابعة لطبقته وأبناء عصره . فإن كانوا ذوى ألباب كان ذالبا وإن كانوا جهالا كان من الجهال . ثم هو في تأثره بهم واستمداده ، إما أن يكون في عامة حاله ، بحيث ترتفع تصوراته ومداركه ، فتراه واسع الفكر سامي الإدراك ، صادق النظر ، بعيداً عن سفاسف الجهالة ، في الكلام وغير الكلام . وربما اختط لنفسه طريقاً مستقلاً به ، وهزعا ينفرد فيه ، حتى إنه ليخيل إليك أنه أمة وحده ، لا يستمد من أحد ، على حين أنهم ينبوع عقله ومدد بحره . وإما أن يستمد من حوله في نحو خاص من أنحاء القول والعمل ، ثم يتفرغ له حتى يصير كأنه من عند نفسه لما تصرف فيه .

والشاعر فرد من هؤلاء الأفاضل . فتأثره بغيره من أهل طبقته أو بمن قبلهم ، إما أن يكون في تكوين ملكته وتربية عقله ، والنهوض من درك الجهالة إلى شرف العرفان . وقد لا ترى فيه من الآثار أكثر من هذا .

وإما أن يكون في نهج معين كأن يتبع شاعراً في طريقته وينسج على منواله ، كما فعل ابن أبي ربيعة في تقليده امرأ القيس . والغالب في الشعراء أن يجمعوا بين الحالين ، (٢)

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ٣ ، للمرحوم الأستاذ العقاد .

(٢) الأدب العربي وتاريخه الجاهلي لمحمد عبد المطلب ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

هذا ، وسترى أن شعراء مصر الحديثة ، انقسموا أنواعاً ومدارس ، اختلفت اتجاهاتها . بسبب اختلافهم الثقافي . وسنشير إلى ذلك في فصل « التمهيد » .

ومهما يكن من أمر ، فالثقافة لها خطر كبير في تكوين الشاعر وتوجيهه . ولا نقول إنها وحدها المنفردة بتوجيهه والتأثير فيه . ولا ريب أن الثقافة الواسعة الأفق ، تنتج أدبا واسع المدى ، يبدو فيها العقل الحصيف والذوق اللطيف ، والنظر الثاقب والرأى الصائب ، والذهن المتفقد المبتكر ، والتصور الدقيق .

إلا أن الثقافة العلمية ، إذا أخذت بتلابيب الشاعر ، وتشبثت بفكره ، واستأثرت بعقله ، استغرقت حواسه واستهلكت الكثير من عاطفته وخياله . وأرسلته خلف الحقائق يتبعها وحدها ، يجمعها ويحللها ، ويختبرها ويعلمها . وبدا - لذلك - أدبه ذا قيمة خطيرة في عالم الفكر ، ولكن نزايه السباحة والظرف ، والركة واللطف ، وتغيب عنه البشاشة أو تكاد . ذلك لأنها قللت من عمل العقل الباطن الذي هو جماع وجداناته ومنبع فنه .

والبيئة الثقافية تزود اللسان باللغة وأدواتها ووسائلها الصحيحة ، فتكسب الشاعر مقدرة على التعبير بما تضعه أمام عينيه من نماذجها . وهي توضح له ما خفي عليه من أسرار بيان لغته . وتضع بين يديه حقائق الـكون وحوادث التاريخ ، فيجد فيها وفي غيرها ، مدداً لأدبه لا ينضب .

ولذا كثير ما يبدل الأدب ، لا بما فيه من أفكار وآراء فحسب ، بل بما فيه من معان جزئية وطرق تصوير ، على ما تعيه ذاكرة الأديب من الحقائق والمعارف .

والبيئة الاجتماعية :

قد تكون بعواملها الهامة المتعددة ، أقرب البيئات إلى نفس الشاعر . وقد تكون أوسعها أثراً في توجيهه ونتاجه . كما أنها البيئة التي تنهض فيها عوامل كثيرة

من عوامل البيئات الأخرى ، فتتصل بعواملها ، ويتكون من الجميع عوامل مشتركة أو موحدة ، يكون لها في مجموعها ، أوضح الآثار .

وهي البيئة الشعبية الفسيحة التي تتجلى للشاعر فيها أحاسيس الشعب ومشاعر طبقاته . وتتكشف له فيها نفسيات الأفراد وتشابك وتهادف . وفي غمارها يستطيع الشاعر أن ينبطن الأمور ، ويتعمق المشاعر ، ويعلل التصرفات ويحلل الشخصيات .

وتتشعب مكونات هذه البيئة تشعبات لا حد لها . فهي تناول النظم الإدارية المستقرة المطردة في الدولة ودواوينها ، وتقاليدها المرعية في مواكب الحكام وحفلاتهم واستقبالاتهم وزيارة أضيافهم . وتتصل بطبقات الشعب وطبيعة كل طبقة ، وصلة كل منها بالأخرى ، وبالروابط التي تربطها وبمدى التعاطف والمودة بينها ، وبسريان روح التعاون بين أفرادها ، وشعور كل منهم بواجبه نحو مجتمعه ، ونهوضه إلى أدائه .

وتتعلق بالناحية الاقتصادية ودخل الدولة ومرتق الأفراد وصناعاتهم وتجاراتهم وحرفهم ووسائل تعايشهم ، وآلامهم وطريقتهم في التنفيذ عنها ، وآمالهم وحيلهم في بلوغها ، وعلاقاتهم العامة وصلاتهم الخاصة ونظام أسرهم ، ومدى نظر الرجل إلى المرأة ، والمرأة إلى الرجل ، وهما عماد الأسرة .

وتتعلق أيضاً بنهوض الدولة والجماعات والأفراد ، أو تراخيهم في إنشاء المرافق العامة من أبنية وعمائر وجداول ومصارف ومساجد ومنازه . . إلى غير ذلك .

وتتصل بالمستوى الثقافي والحضارى الذى بلغته الأمة ، وطريقتها وألوانها وأهدافها في كل ما تتعاطاه من شعاراتها وملابسها ومطاعمها ومشاربها ، واتصالها بوزاراتها وتعارفها وموداتها وتزواجها وتناسلها وأفراحها ومآتمها . ومدى ما يشيع بينها من عادات وقيم خلقية وفضائل تتمسك بها ، أو مجونيات ومبازل ومفاسد تأنس لها وتستروح إلى تعاطيها .

هذا ، إلى ما يعترى هذه البيئة من حوادث ووقائع عامة ، تمس شغاف القلوب وتتصل بمواطن الإحساس عند كل فرد ، فضلا عند الأديب . فيألم لنفسه ولقومه أو يفرح ويسر . وذلك كحوادث الجذب والقطط والغلاء النازل ، والوباء المتفشى ، والزلازل المدمرة ، والهزائم الفاجعة . وكنمو الثروة وزيادة الدخل وكثرة المحصول واطراد الرخاء ، والنصر والظفر بالعدو ، وسلامة الوطن ، إلى غير ذلك .

ويرجع بعض الباحثين الفروق بين الشعوب في المزاج والطبائع ، وما يصدر عنهما ، إلى العادات والتقاليد .

ويقول سرل برت :

« إن العلة الأساسية في الفروق بين الشعوب إنما هي العادات والتقاليد التي تتوارث من الماضي على مر العصور . قد شكل جيلا بعد جيل ، بوساطة المنزل والمدرسة والأدب القومى وكل العوامل الدقيقة في الحياة اليومية (١) ، .

ويقول :

« الآن أظن أن النقطة التي نستطيع التسليم بها هي أنه لا الجنس وحده ، ولا البيئة الجغرافية وحدها ، بمستطاعة تعليل التفاوت البين بين المدينيات المتعاقبة . فيكفى أن نتذكر كيف غلبت اللغة والعوائد الرومانية على نصف ممالك أوروبا ، لنرى كيف تنتشر خصائص الشعب الواحد ، وراء الجنس أو البقعة التي أنبتتها (٢) ، .

ويقول أيضا :

« وعلى هذا فالفروق الموجودة بين الممالك الآن تعتمد في أساسها على هذه العناصر التي ترجع إلى التقاليد . فإذا ما أخذ شعب ما ، مدينية جزء من أقاصى العالم ،

كما أخذ اليابانيون مثلاً ثقافة الغرب وأمريكا — استطاع ، ولو في الظاهر ، أن يغير خصائصه تغييراً كلياً ، (١) .

ويقول أيضاً :

« إن العرف والأنظمة والعادات التي يتخذها قوم ما — لأنها تنبعث من طبيعتهم الأساسية أو تراثهم — تأخذ هي بدورها في التأثير على ذلك الطابع وتقويته ودعمه عن طريق التقاليد المتجمعة . وأخيراً عندما يشعر الشعب بوجوده ، يبدأ في تحديد أغراضه الخاصة به والتحدث عنها . وبهذا المعنى يصبح العقل القومي واعياً وشاعراً بنفسه معاً ، (٢) .

ونقول إن تعبير الشعب عن طريق شعره « من أصدق الوسائل للدلالة عليه .

والخلاصة :

أنا — في الحق — نرى أن لكل بيئة من ألوان البيئة الكبرى ، آثاراً في تكوين الشاعر وأخلاقه وعاداته ، ونفسيته وعقليته . بل وفي خياله وعقله الباطن . ولا نستطيع بطريقة حاسمة قاطعة أن نحدد أثر أى البيئات في فكرة أو تجربة وجدانية ، أو عمل أدبي . ولعل إحدى البيئات أشد أثراً وأوضح ، ولكنها ليست وحدها صاحبة الأثر كله .

وليس معنى ذلك أيضاً أن ننسى الخصائص الفرد ومواهبه الفطرية ، واكتساباته من غير بيئته . بل نعترف بها وبنسبتها مع آثار بيئته ، وإن لم يستعص علينا إرجاعها إليها . فإن الفنان من حيث ذكاؤه العام ، ومن حيث موهبته الخاصة ، رجل مزود بهبات فطرية نادرة . غير أن الفرق في الدرجة لا في النوع . فالمقدرة على خلق العمل الفني — كالمقدرة على تذوقه — لا تتوقف

على ملهكة إضافية منعزلة عن مجرى حياتنا اليومية ، وهى فى درجاتها العليا ليست إلا إحدى ثمرات الحياة العقلية الطبيعية ،^(١) .

- ٣ -

وشعر مصر فى عصر سلاطين المماليك - وهو موضوع البحث - نعتقد أنه نتاج ضخيم ، وآلاف مؤلفة من الأبيات والمقطوعات والأقصائد القصيرة والطويلة ، طارق بها شعراؤها كل باب ، ونظموها فى شتى الفنون والأغراض - كما سترى - . ولربوا بها كثيرا من نداءات البيئة .

ونعتقد أن الموجود منه بين أيدينا قليل من كثير ، وسهم من جعبة . وأن كثيرا منه عبث به أيدي الضياع والنسيان . ومنه ما فقد ، ومنه ما حمل ونقل وسرق . وفى سير كثير من الشعراء ما ينبئ بأن لهم دواوين مليئة فياضة ، وأنها تتكون من كذا مجلدا . ولكننا لانجد لها أثرا . وذلك كالسراج الوراق وأبى الحسين الجزار .

والبقية الباقية من هذا الشعر - تترامى فى بعض الدواوين المطبوعة كديوان ابن نباتة المصرى ، وصفى الدين الحلى - وإن لم يكن من صميم شعراء مصر - وتترامى فى بعض الدواوين المخطوطة كديوان ابن حجر العسقلانى وبرهان الدين القيروانى وتبقى الدين بن حجة الحموى - وتترامى فى بعض المجموعات وكتب المختارات الشعرية كالتذكرة الصفدية وألحان السوابع - كلاهما بإصلاح الدين الصفدى ، وكتأهيل الغريب لتبقى الدين بن حجة الحموى . وهذه المجموعات لاتزال مخطوطة - وتترامى فى خلال بعض كتب التاريخ والتقويم وموسوعاتهما كخطاط المقرئى وسلوكة والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن بن تغرى بردى ، ونهاية الأرب للنويرى ، وبدائع الزهور لابن إياس الحنفى . وأكثر هذه الموسوعات مطبوع - وتترامى أيضاً بين

(١) كيف يعمل العقل ص ٢١٣ .

سطور بعض المؤلفات الأدبية أو العلمية الأخرى ، كحسن المحاضرة للجلال السيوطى وهو مطبوع - وكنز أانة الأدب وثمرات الأوراق ، وكلاهما للتنقى بن حجة وهما مطبوعان . ومثل كوكب الروضة للجلال السيوطى ، وهو مخطوط . إلى غير ذلك مما تراه فى مراجع البحث .

وهذه البقية هى التى اعتمدنا عليها فى بحثنا هذا ، واستمددنا منها النصوص . ونحن ، وإن وصلنا ، اعتمادا عليها إلى أحكام أدبية ، نعتقد أيضا أنه لو أعيدت الدراوين الشعرية المغتربة ، وعثر على المفقود من دواوين الشعراء ، وجمع شعر هذه الفترة جمعاً أدنى إلى الدقة والضبط والتحقيق والملاءمة ، لعاد ذلك كله على إعادة الدراسة من جديد للوصول إلى أحكام أكثر صوابا وأصح تعليلا ، وأقدر على إبراز معالم الشخصية الشاعرة ، ومن ثم خصائص الشخصية المصرية .

وكل هذه دراسات ضرورية جداً ، لسد الثغرات الواضحة فى تاريخ مصر وتاريخ عقلية شعبها ونفسيته وإبراز خصائصه المميزة له .

وعصر سلاطين المماليك فى مقدمة فترات التاريخ المصرى الطويل ، التى يرمى فيها شعب مصر بالجمود والخنول ، وبقناعاته فى أدبه بالتقليد والمحاكاة والركون إلى الصناعة اللفظية . ولهذا هو فى حاجة قصوى إلى الدراسة وإلى معاودة الدراسة ، حتى نصل بالدليل القاطع الحاسم إلى الحكم له أو عليه . من أجل ذلك رصدت هذه الموسوعة كلها ، لمحاولة إبراز معالم هذا العصر ، فى شتى نواحيه .

والجزء الرابع بمجلديه ، السابع والثامن ، خصص لدراسة شعره ، على أساس ربطه بالبيئة كما أشرت . وقد بذلت الجهد فى الاطلاع على نصوصه ، وجمع المتماثلات منها فى صعيد واحد ، ودراسة كل مجموعة ، والاستنباط منها ، وإيضاح ما فيها من فكرة أو عاطفة ، مع الوقوف عند بعض النصوص الهامة بالشرح

والتحليل والنقد الدقيق وبيان المحاسن أو المساوىء . وذلك بعد دراسة البيئة ،
ومع ربطه بها .

وأعتقد أننى بما صنعت ، قد طفت فى نواحى العصر باحثا منقبا ، فجلوت
غامضا ، وكشفت خبيثا ، وبدأ لى شعراء العصر أبناء لمصر بررة ، والسنة عنها
ناطقة معبرة . وأنهم ، على الرغم مما حاق بهم من المثبطات والمعوقات التى من
شأنها أن تقعد الهممة وتكبث الخاطرة وتعقل اللسان ، انطلقوا فنطقوا ، وعبروا
فصدقوا . وكانوا لمصر صوتا أكد حياتها ، وأبرز شعبها حيا يقظا ، عاش بأفكار
وعاش بمشاعر . وأن الأحداث لم تمر به وهو عنها لاه ، وأن الأيام لم تلج بابها ،
وهو عنها غافل ، على الرغم مما اصطلىح عليه من الأرزاء ، وعاناه من
الشفاء .

وبعد هذه المقدمة التى أوضحت فيها أساس منهج البحث وفصلت فيه القول
عن البيئة ، وعرفت فيه بعض التعريف بشعر العصر ، عقدت « تمهيدا » للبحث ،
فى فصل مستقل . جلت فيه جولة كبيرة فى أرجاء الأدب العربى ، فى بيئات شتى .
ووقفت عند كل بيئة منها فى دراسة عاجلة موجزة ، أوضحت فيها عواملها
وتجاوب الشعر معها . وذلك من باب التمثيل والتدليل على صواب المنهج . وأنه من
المستطاع اصطناعه فى دراسات أدبية منتجة ، تتناول أية بيئة من بيئات الأدب
العربى .

وتكون البحث بعد ذلك من بابين وخاتمة .

والباب الأول : لدراسة البيئات المصرية . وقد أوجزت فيه القول بإيجازا
مناسبا ، اعتمادا على ماسبق تفصيله من موضوعات فى مجلدات هذه الموسوعة .
وهو ذو أربعة فصول .

الفصل الأول . فى وصف البيئة الطبيعية . وقد عنيت فيه برسم صورة واضحة

تقريبية لطبيعة البلاد المصرية ، كما كانت تتراءى فى عصر المماليك . وقد يبدو لأول وهلة أن طبيعة البلاد وأجزائها ومناظرها ، لا يعترىها التغير على مدى الأعوام والأيام ، إلا يحدث طبيعى خارق ، يغير من وجه الأرض . وهذا حق . غير أننا لحظنا أن ثمة أشياء فى هذه الطبيعة قد تتغير أشكالها ومראئها على مدى العصور ، لأن يد الإنسان تتدخل فى تغييرها . لذلك نشعر أنه من الواجب فى مثل هذا البحث أن نصور طبيعة البلاد - بقدر المستطاع - كما كانت تتراءى للأنظار فى العصر الذى نصف بينات شعره .

ولذا ، أشرت إلى موقع مصر على البحر المتوسط ، وهو البحر الرومى . وعلى البحر الأحمر ، وهو بحر القلزم . وأشرت إلى شواطئها ومناخها وتضاريسها وجبالها وبحيراتها وصحراواتها ومجرى النيل فيها ، وما يتصل به من منبع ومصب وفروع وجزر ، وأشرت كذلك إلى ما كان هنالك من حدائق وبساتين ومنازه وخلجان وقناطر وجسور . بل أشرت إلى المدن والجبال والأهرام وأبى الهول .

وهذه المنشآت والآثار ، من صنع العلم والحضارة ، وليكنها تثبت منذ إنشائها أمام العين ، فتراها ماثلة بإطراد ، خالدة مع الزمن ، حتى إنه ايستقر فى النفس أنها جزء لا يتجزأ من طبيعة البلاد .

ولعل بعض ما ذكرت من أجزاء الطبيعة المصرية . لم يتناولها الشعر بالذكر ولا الوصف ، ولم يتجه إليه الشعراء بالحديث . وليكننى اضطرت إلى تسجيله استكمالاً لصورة طبيعة مصر ، من شتى زواياها ، ما استطعت وبالقدر المناسب . وإلى جانب ذلك بينت أهمية الموقع فى الرحلة والتجارة والعلم والغزو وأشرت إلى ما خلفه هذا الموقع بذلك فى شعب مصر من عادات وتقاليد .

وتحدثت عن النيل وبينت أهميته بالنسبة لهذا الشعب ، ومبلغ تعلق الشعب به وتقديره له ، واهتمامه بأنبائه وأنباء فيضانه ومقياسه ووفائه ، وما أورثه ذلك كله من عادات وصفات .

الفصل الثانى : فى وصف البيئة السياسية والواقع أننا فصلنا الحديث عن هذه البيئة فى المجلد الأول من موسوعتنا هذه ، لذلك أوجزنا القول هنا ، وبيننا طبيعة تكوين دولتى الممالك البحرية والجركسية وكيفية استيلائهم على الحكم فى مصر بعد الأيوبيين ، وكيف تتابع سلاطينهم على عرشها ، وكونوا جميعا طبقة حاكمة مترفعة . واختصوا أنفسهم بأسباب القوة والغلبة ، وكيف نهضوا بأعباء السياسة والحرب والدفاع عن البلاد ضد الطامعين : وأشارت إلى سياستهم الخارجية ومبلغ ملاءمتها مع رغبات الشعب وأهدافه ، وإلى حروبهم مع التتار والفرنجية الصليبيين ثم العثمانيين ، وإلى أنهم حافظوا على استقلال هذه الرقعة من الوطن العربى الكبير — مصر والشام وحلب والحجاز — وما كان يتبعها . وأشارت إلى موقف الشعب من هذه السياسة .

كذلك تحدثت عن سياستهم الداخلية وعن حرمانهم الشعب كثيرا من حقوقه ، وعن فرضهم الضرائب المرهقة وتوهم بموقف الشعب من ذلك ، وأشارت إلى الفن الداخلية وثورات العربان التى تعتبر من أبرز المقاومات الشعبية .

ونوهت بمواقف بعض رجال الدين إزاء ظلم الحاكمين ، وكان هؤلاء الرجال — إلى حد كبير — أسنة الشعب وذادته ، إلى غير ذلك ،

الفصل الثالث : فى وصف البيئة الثقافية ، وقد تحدثت فى المجلدين الثالث والرابع من هذه الموسوعة عن هذه البيئة فى كثير من التفصيل ، لذلك أوجزت هذا القول فيها مبرزاً أهم نواحيها .

وقد أوضحت الأسباب التى أدت إلى قيام حركة إحياء علمية بمصر ، جعلتها دارة العلم والأدب بعد العراق ، ومقصدا لطلابها من مشارق الأرض ومغاربها فى شتى بقاع العرب والمسلمين . وتحدثت عن الحركة التعليمية ومراحلها ونوهت بالمدارس وأهميتها وألوان العلوم بها . وأشارت إلى النتائج العلمى والأدبى .

الفصل الرابع : فى وصف البيئة الاجتماعية ، وقد تحدثت فيه عن طبقتى الأمة

وعن كثير من عاداتها وتقاليدها ورسيمياتها وشعبياتها. وعن وظائف الدولة وأهمية الخلافة وألوان الوظائف. وأشارت إلى حسنات العصر ومساوئه. وأفصحت عن كثير من مظاهر الترف والبذخ، وعن ألوان من ملامى الشعب ومبازله وألعابه إلى غير ذلك.

والباب الثانى : فى بيان أثر هذه البيئات المختلفة فى الشعر ، ومعرفة مدى استجابته لمؤثراتها . وهو - فى الواقع - لباب هذا البحث جميعه وجوهره . وقد عقدت فيه كذلك أربعة فصول متتابعة بحسب تتابع فصول الباب الأول . ثم عقيبت على هذه الفصول جميعها ، بفصل خامس لبيان أثر هذه البيئات فى النواحي الفنية للشعر ، فاستقام بذلك فى هذا الباب خمسة فصول .

الفصل الأول منها : فى بيان أثر البيئة الطبيعية المصرية فى الشعر ، وقد قدمته ببيان عن أثر هذه البيئة فى أخلاق المصريين وعاداتهم وتقاليدهم ، وطرق تفكيرهم وتعبيرهم . وأشارت إلى محبة المصريين لبلادهم وتقديسهم لنهرها المبارك نهر النيل العظيم . وتلمست أثر هذه الطبيعة الجميلة الكريمة الحانية فى شعر مصر حينذاك ، فوجدت شعراءها قد تغنوا بها وترنموا بأبيادها وأشادوا بفضلها ، لقد ارتبطت بها عواطفهم ، ولهجوا بحب مصر والنيل وتقديسهما ، وأفصحوا عن حبهما بل وعشقهما والوجد بهما والتشوق إليهما . وكما تأثرت حياتهم تأثراً بالغاً بنهر النيل وبفيضانه ونقصانه وطغيانه ، تأثر شعرهم وكان صدى صادقاً لأحوال النيل وفيضانه ووفائه ، ومظهرها لعواطفهم نحوه ولمشاعرهم إليه .

وفى هذا الفصل عرضت الكثير من مقطوعاتهم وقصائدهم فى الحديث عن مصر والتغنى بالنيل ، وفى وصف ربييعيات مصر ومنازلها ومشاهدها المختلفة ، وأشارت إلى ما قالوه فى مقياس النيل ووفائه وكسر سد خليجه ، وما وصفوا به جزيرة الروضة ، وخواطيرهم عن الأهرام وأبى الهول .

واخترت في ذلك كله ، جملة من أشعار جمال الدين بن نباتة ، والزين بن الوردى والصلاح الصفدى ، والشهاب بن فضل الله العمرى ، والعلاء الداعى . والبرهان القيراطى ، والشهاب المنصورى ، وغيرهم من شعراء مصر . وقد عرَضْتُها عرضاً مرتباً بحسب الموضوعات .

وقد وقفت عند بعض هذه النصوص وقفة أطول ، فيها مزيد من الدراسة والتحليل ، ومن الاستحياء والتفصيل .

وقفت مثلاً عند قصيدة رائية طريفة للشهاب بن حجر العسقلانى الذى ذهب إلى حج بيت الله الحرام ، فلاحقه وهو في طريقه حب مصر واشتياقه إليها ، فأخذ يتغنى بها ويذكر معاهدها ويشيد بفضلها ويبدئها أشواقه إليها .

ووقفت مثلاً عند قصيدة فائية جيدة للأديب الشاعر شمس الدين النواجى نظمها عام ٨٥٥ هـ في وفاء النيل وكان النيل قد شح في عامه السابق ، فشرقت الأرض وانتشرت الجذب وعم الغلاء وقلق الناس . فلما وفى النيل بعد ، تهملت النفوس وابتهجت القلوب واستبشر الناس وشكروا الله على آلائه . وانطلق النواجى يغرد بذلك تغريد الطير الفرح على فننه ، ويعبر عنه تعبیر المبتهل العابد والمسبح الخاشع ، حتى بدت قصيدته الطويلة تسيح تسيحة متبتل ، أو ترنمة مهمل . وهى وحدها خير رد على من ينكر على شعراء مصر في هذه الحقبة حبهم للنيل وتقديسهم له وتسجيلهم لفضله وشكرهم لآياديه ، وذلك لانصرافهم عنه إلى الصناعة لللفظية والحلية الأسلوبية .

ووقفت كذلك عند قصيدة « سرحة النيل » للشاعر المصرى اللبق غفر الدين ابن مكانس الذى أثار عشقه وهيامه إحدى سرحات النيل . فنظم فيها سرحيته العصماء التى تغنى فيها بجمالها ومحاسنها تغنى العاشق الوامق والمحِبُّ الواله . إلى غير ذلك .

والفصل الثانى : في بيان أثر البيئة السياسية المصرية في الشعر . وقد تحدثت

فيه عن مبلغ صلة الشعراء بهذه البيئة ، ومبلغ رعايتها لهم . وأشارت إلى أنهم لم يجدوا منها التشجيع الكافي للنهوض بحياتها ، ولم تعمل على تقريبهم تقريباً يدعوهم إلى الاستجابة لوجوبها . وأنهم انقسموا أنواعاً ، فمنهم أرباب الوظائف في ديوان الإنشاء كابن عبد الظاهر والتقي بن حجة . ومنهم أرباب الوظائف في القضاء والتدريس ونحوهما ، كابن حجر العسقلاني والبهاء السبكى . ومنهم المحترفون حرفاً دنيا كالجزارة والوراقة والحامية كأبي الحسين الجزار والسراج الوراق ومنهم من استنم للأشعر والتكسب به كالحال بن نباتة . وبينت أن هذا التقسيم الذي أدت إليه صلات البيئة السياسية بالشعراء كان له كبير الأثر في نتائجهم السياسي . وأبرزت من باب التمثيل والموازنة موقف كل من الشعراء من الدين عبد الظاهر ، وجمال الدين بن نباتة . لقد كان الأول أحدر رؤساء ديوان الإنشاء ، فاتصل بحكم وظيفته السياسة ورجالها وحوادثها فترجم عنها . وعاش الثاني محروماً بعيداً عن مناصب الدولة ، فانهصرف عن دنيا السياسة ولم يترجم عنها بشيء من شعره إلا لما لا يناسب قدره ومنزلته في الشعر . وأشارت إلى مخاوف الشعراء من بطش الحكام والرؤساء ، وأثر ذلك في تلوين شعرهم وتوجيهه نحو وصف المعارك والحروب وأدوات القتال ، ممزوجاً للسلطين بالمدح والإطراء ، والأعداء بالهجو والازدراء . وألمعت إلى انضاح معالم السياسة العامة والنزعات الشعبية في شعر الشعراء ، وأنها كانت تتجه نحو حماية الإسلام وبلاد العرب والمحافظة عليها من أعدائها التتار والصليبيين وغيرهم .

وتتبعت في إيجاز حوادث التاريخ المصري من أول العصر إلى آخره تتبعاً زمنياً مسلسلاً ترتيباً ، مشيراً إلى ما كان له منها أهمية وصدى في الشعر . ووقفت بخاصة عند بعض المعارك الحاسمة وسجلت شيئاً مما قيل فيها من الشعر قصائد ومقطوعات ، مع الدرس والتحليل المفصل ، والمطابقة بين أقوال الشعراء ووقائع السياسة والحرب ، والاتجاهات الشعبية . - ومن باب التمثيل وقفت عند غزو الملك الظاهر بيبرس لبلاد سويس - وهي أرمينية الصغرى أو قيلقية - وفتحها سنة

ستمائة وأربع وستين هجرية . وقد كان يحكمها أمراء الأرامن الذين طالما ماثوا التتار والصليبين . وقد سجل هذا الفتح الشاعر محي الدين بن عبد الظاهر . ووقفت أيضا عند غزو الملك الظاهر المذكور مدينة البيرة التي عبر من أجلها نهر الفرات بجنده فوق خيولهم ، فكان حدثا ساحرا رائعا ، وطلب بها التتار وتبع قلوبهم حتى أبادهم . فثارت حماسة الشعراء لهذا النصر المبين ، وتملأوا لهذه الشجاعة الخارقة ، وسجل الحادث منهم كثيرون كان من بينهم محي الدين بن عبد الظاهر ، وبدر الدين محمد بن يوسف المهندي والشهاب محمود الحلبي وناصر الدين بن النقيب وموفق الدين الوزان . -

ووقفت أيضا عند غزو الملك المنصور قلاوون مدينة حمص واستيلائه عليها من التتار عام ٦٨٠ هـ . فحمد له هذا الظفر الشاعر محي الدين بن عبد الظاهر ، وابنه علاء الدين بن محي الدين بن عبد الظاهر ، وناصر الدين بن النقيب وغيرهم غلدوه في أشعارهم -

ووقفت أيضا عند ذلك الحدث التاريخي الرائع والمعركة الحاسمة في تاريخ الإسلام والعروبة ، وأعنى بها فتح مدينة عكا واستردادها من يد الصليبيين على يد الملك الأشرف خليل بن قلاوون عام ٦٩٠ هـ ، فلم تقيم لهم قائمة بعد ، حتى العصر الحديث . وقد سجلها أكثر من شاعر من بينهم ابن ضامن الضبع ، وشهاب الدين الحلبي وشمس الدين بن الصائغ ، وبدر الدين محمد المنبجي البزاز .

وفي عام ٧٠٢ هـ في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون وقعت بينه وبين التتار موقعة « مرج الصفر » المشهورة التي قضى فيها جيش مصر قضاء نهائيا على التتار ، ومن بعدها لم تقيم لهم أيضا قائمة تذكر نحو مائة عام ، وأزال خطرهم نسبيا عن الوطن العربي . وقد تبارى الشعراء في وصف المعركة وتسجيل وقائعها والإشادة بأبطالها ومنهم علاء الدين بن عبد الظاهر والبدر المنبجي . ونظم فيها الشاعر الأديب جمال الدين أبو بكر قاضي عجلون مطولة جيدة تقع في نحو من مائة وخمسة عشر بيتا . وهكذا .

ولم أغفل على مدى العصر وحوادثه الدور الذى قام الزجل أو الشعر العامى، وقد كان له نشاط ملحوظ فى أبواب الشعر . وسد فراغا أحيانا لم يسده الشعر فى الميدان السياسى . - وكذلك لم أغفل أى لون شعرى آخر له متات بالبيئة السياسية ، ويترجم عن شىء يتصل بها ، ويكون رجعا لحدث من أحداثها وذلك كمرأى الملوك ومدائح الأمراء .

والفصل الثالث : فى بيان أثر البيئة الثقافية المصرية فى الشعر . وقد ألمعت فيه إلى الشعراء العلماء وما أفادوه من الثقافة وأثر ذلك فى شعرهم . وإلى الشعراء الآمين وموقفهم أمام ما فاتهم من الثقافة . ثم إلى الشعراء المتقنين وما كان لهم من فضل فى مجال العلم والأدب والشعر ، متحدثا عن أسباب نشاط الشعر بتأثير من الثقافة ، منوها بأن منها الرغبة فى إظهار العلم والولوع بالبديع وانتعاش النقد الأدبى انتعاشا نسبيا .

ثم أخذت فى إيضاح نتائج ذلك فى باب الشعر ، فتحدثت عن نظم العلوم ، وعن الأسئلة والأجوبة العلمية ، وعن الألغاز والأحاجى ، وابتداع البديعيات ، ونظم الحكمة والمثل والنصيحة ، وعن الشعر الفلسفى والمذهبي ، وعن الشعر القصصى والتنبلى ، وعن الاستجازات والإجازات العلمية والأدبية . وفى كل لون من هذه الألوان ترى روح العصر ورجع البيئة وأثر الثقافة ، كما ترى فى أكثر هذه الألوان نتاجا شعريا واسعا المدى غزيرا .

وقد وقفت عند بعض النصوص وقفة أطول وأوسع دراسة وتحليلا ، ومنها على سبيل المثال أرجوزة الشاعر نضر الدين بن مكانس المسماة « اللطائم والأشناف » ، فتحدثت عنها وعمما تحتويه من القصص الحكيمة ومن الأمثال والحكم . ومنها مسرحيات الأديب شمس الدين بن دانيال المسماة « طيف الخيال » ، فتحدثت عن كل مسرحية منها حديثا مناسبا .

والفصل الرابع : فى بيان أثر البيئة الاجتماعية المصرية فى الشعر ، أشرت فيه

إلى تأثير الشعراء البالغ بالبيئة الاجتماعية وعواملها ، على الرغم من عدم تشجيعها لهم ، إذ كانت هناك عوامل اجتماعية أخرى هيئت لهم سبيل القول . وذلك كالعلاقات الشخصية والإيحاء الشخصي ، والرغبة في النقد الاجتماعي وحب التسلية في أوقات الفراغ . وأشارت إلى ما انبثق من ذلك كله من ألوان الشعر كالنقد الاجتماعي ، والشعر البديعي ، والإخوانيات وأشعار المجون والمباذل والخمريات والغزل ، وما إلى ذلك .

وتحدثت عن أغراض شعرية أخرى أبرزتها ظروف المجتمع ، كالمديح النبوى وشعر الزهد والتصوف والشكوى وتسجيل الحوادث العامة ووصف أدوات المجتمع .

وفي خلال هذا الحديث وقفت عند بعض النصوص في كثير من التحليل المفصل المعلن . ومن ذلك قصيدتان لشرف الدين البوصيرى الأولى في نقده مستخدمى دواوين الدولة وما تفشى بينهم من ألوان النزاع والفساد والادعاء والسرقة . والثانية في نقد الأسرة المصرية وما يذنب بين أفرادها من الخلاف بسبب ما تشبث به من التقاليد والعادات المرذولة . واستطردت إلى ذكر ما فقدوا به الأتراك والمماليك والسلاطين والطوائف الدينية ، وما نقدوا به التعليم والمعلمين ، والتصوف والمتصوفين والرؤساء والفضاة وحملاتهم على الظلم والاستبداد وتندبهم باختصاص بعضهم بالرزق دون بعض ، وباستشراء الرشوة وخطرها .

وعند حديثي عن المديح النبوى ديماني الأسباب الاجتماعية التي أدت إلى ازدهاره في هذا العصر ، أشرت إلى بردة البوصيرى التي كانت من بواكير هذا الفن فيه ، وكان لها أثر ضخم في نشاط فن المديح النبوى وفي نظم البديعيات اللذين كثر فرسانهما . فن رجال المديح النبوى : ابن نباتة والشاب الظريف وابن دقيق العيد وابن الوردي والشهاب الحلبي والفتح بن سيد الناس . ومن رجال البديعيات : الصفي الحلبي والعز الموصلي والتقي بن حجة ..

وبإزاء ما كان هناك من مديح نبوى ومن زهد وتصوف ، كان هناك المجون والخريبات والغزل ، ومن رجالها : ابن عبد الظاهر والفخر بن مكائس والشاب الظريف والبرهان القيراطى وابن دانيال الموصلى وصدر الدين بن الوكيل وغيرهم .

والفصل الخامس ، فى بيان النواحي الفنية لهذا الشعر . وقد تحدثت فيه عن الصفات التى غلب على الشعر اتسامه بها أو لمعت فيه لمعانا لافتا تحت تأثير عوامل البيئات المختلفة . ومن ذلك توخى السهولة والجنوح إلى الوضوح فى التعبير ، واصطناع البديع . مع بيان الأسباب الاجتماعية والثقافية ونحوها التى عاونت على توجيه الأساليب هذا الاتجاه . وأشارت فى دراسة وتفصيل وفى تدليل وتمثيل ، إلى اعتماد التعبير على الوصف والتصوير والتشخيص والقوالب البيانية . كما تحدثت عن الفكاهة والنكتة باعتبارهما من سمات الأساليب .

وكانت المعارضات والمناقضات والسرقات الشعرية ، انبجافات واضحة فى أساليب الشعراء . فتحدثت عنها وعن دواعيها وأسبابها . كما تحدثت عن مطولاتهم ومقطوعاتهم . وعن الأوزان والقوافى ، وما اتصل بها من التواشيح والأزجال .

وكما أوضحت فى كثير من مراحل حديثى محاسن هذا الشعر ، أوضحت هنا فى هذا الباب كثيرا من عيوبه وسيئاته كاللحن واستعمال الدخيل والخروج عن متن اللغة ، واصطناع العامى من الألفاظ والعبارات والأمثال . ولم أغفل ، وأنا أتحدث عن ذلك ، بيان الأسباب والعوامل التى كان لها دخل فيه . إلى غير ذلك .

بهذا كله يتم البحث وقد أجملت فى خاتمته ما انتهيت إليه من النتائج التى بدت بدوا بارزا فى خلاله منذ أول سطورره إلى آخرها . وقد تبين أننى طفت فى نواحي العصر باحثاً منقباً فى أكثر زواياه ، فبينت معالمه وجلوت غوامضه ، وكشفت عن كثير مما تردد فيه من أفكار وخواطر ، وما جاش فيه من عواطف

ومشاعر . إننى جلت جولة واسعة فى أرجاء شعره ، وما خلفه شعراؤه فى دراوينهم وغير دراوينهم من قصائد ومقطوعات وأبيات ، فرايتهم أبناء مصر البررة ، وأسدتها الناطقة ، وتراجمتها المستجيبة المعبرة . وعلى الرغم مما حاق بهم من المشبطات والمعوقات التى من شأنها أن تقعد الهمة وتسكب الخاطرة وتعقل اللسان ، انطلقوا فنطقوا ، وعبروا فصدقوا . وكانوا لمصر صوتا أكد حياتها وأبرز شعبها حيا يقظا عاش بأفكار وعاش بمشاعر . وأن الأحداث لم تمر به وهو عنها لاه ، وأن الأيام لم تلج بابه وهو عنها غافل ، على الرغم مما اصطاح عليه من الأزرار ، وما عاناه من ألوان الشقاء .

يحدثنا بذلك هذا الشعر الذى قرأناه واستوحيناه ، مع العلم بأنه بقية مما تركوا ، وقبسات مما خلفوا . ولا أدري ماذا كان يكون حكمنا على العصر وأدبه ، وعلى شعره وشعبه ، لو أظفرتنا الأقدار بما ضاع منه وما غاب مع الاحتجاب .

وهذا البحث درسنا مصر الشاعرة فى عصر المماليك دراسة مفصلة محللة معللة ، مبرزين عوامل بيئاتها المختلفة ، رابطين بين كل لون من الشعر وبين عوامله المؤثرة فيه ، بالقدر المستطاع مشيرين إلى مواطن القوة فى هذا الشعر ، وإلى مواطن الضعف ، معللين لها معا .

وهذا البحث هو رسالتى فى الدكتوراه التى تفضل فأشرف عليها الأستاذ الكبير عمر الدسوقي فكان له فضل عظيم فى نجاحها . وقد أجريت بها هنا من التغيير والحذف والإيجاز ما اقتضاه النشر .

وبعد ، فالحمد لله على ما وفقنى إليه من خدمة تاريخ بلادى مصر العزيزة ، وتجلية أحد عصورها الأدبية . ولن يكون بحثى هذا آخر بحث يتناول العصر المذكور فى موضوعه ، بل إننى به فتحت الباب على مصراعيه لبحوث أخرى أرجو أن تكون أكثر توفيقا . وحسبى أننى عبت أمامها الطريق وأوضحت المعالم وحددت الأهداف . والله المعين والموفق .

تمهيد

في

بيان أثر بيئات مختلفة في نتائجها الشعرى

تمهيد

في

بيان أثر بيئات مختلفة في نتائجها الشعرى

أشرنا فيما سبق إلى ما نعينه بالبيئة . ورأينا أن أدب المجتمع الواحد تؤثر فيه ألوان من البيئات المختلفة . وركزنا الحديث في بيان معنى كل بيئة - البيئة الطبيعية ، والسياسية ، والثقافية ، والاجتماعية - إذ رأيناها ، في الجملة ، جماع البيئات التي تؤثر في أدب مجتمع من المجتمعات .

وأشرنا كذلك إلى تأثيرات إجمالية نظرية ، لكل بيئة من البيئات الأربع . وفي هذا الفصل نوضح ما أجملناه هناك نظريا ، بتطبيقات عملية من مواطن ومن عصور متعددة . وهي تطبيقات تعين على الربط والموازنة .

أولا : في البيئة الطبيعية^(١)

وما من موطن إلا وهو بيئة طبيعية لسكانه . له عليهم فضل الإيواء وتقديم الغذاء والماء . وبالمقام والإلف وطيب الصلة ، تم الروابط النفسية والعلاقات العاطفية بينهم وبينه . حتى تراءى حسناته إليهم حسنا ، ونعمه عليهم جمالا وفضلا . فيعنى به شعراؤه ويشيدون ، ويتزعمون بأدبه ويرددون ، ويفيضون في الحديث عنه ، ويعرقون في التعرف على أجزائه وأطرافه ، وينعتونها ويصفون أحوالها ويسجلون كل ما يتصل بها ، من شكل ولون وحركة وحس . ويتخيلون عنها

(١) راجع نهاية الأرب ج ١١ ففيه كثير من أشعار العرب في أوصاف الطبيعة ونباتها .

ما شاءت لهم نفوسهم العاشقة لها الوالدة بها ويخلعون عليها من مشاعرهم مشاعر ،
ومن أحاسيسهم أحاسيس . وبذلك كله يخلدون بها ويخلدون وطنهم ويخلدون أنفسهم .
وهذا قدر مشترك بين شعوب الأرض قديماً وحديثاً ، بعيداً وقريباً ،
شرقيها وغربيها . مع تفاوت ، لا بد منه ، في المستوى والعمق والاتجاه .

ولعل عرب الجاهلية في مقدمة أمم الأرض التي عشقت طبيعة بلادها ، وأثرت
هذه الطبيعة في حياتهم تأثيراً كبيراً . أثرت في حياتهم الاجتماعية ، فطبعتهم على
الحرية والاعتزاز بالنفس والاعتماد عليها ، إذ ينشأ الحدث مطالباً بالكد والعمل
وبالكسح في سبيل حياته والمحافظة عليها . ونشأتهم على سماحة الفكر ووضوح
القول وصراحة الحديث ، لا امتداد صخاريها وتكشفت معالمها .

وقد حصرت أكثرهم داخل جزيرتهم ، قبائل مترحلة ، تطوف أنحاءها وتجوّب
أرجاءها ، طلباً لمواطن العشب والكلأ . ومع القبيلة نساؤها وأطفالها وإبلها
وشاؤها وكلابها . أشيوخها الرأي والنصيحة ، ولشبانها المراقبة والإصلاح . ومهم
إلا جند يتسمون بالشجاعة والفروسية ، ويتصفون بالمغامرة والفدائية .

وفي وسط هذه الصحراء الواسعة ، والبيداء الشاسعة ، قد تتعرض القبيلة
لمعتد يعتدى عليها ، أو آثم يسيء إليها فيزود عنها رجالها ، ويدفعون كيد أعدائها ،
ويمكنون لها في العزة والكرامة ، ويحرسون مجادتها ، ويعلنون ذكرها ، ويحفظون
أعراضها وأموالها .

هكذا عاش العربي في بیدائه ، وهو ينتقل منها إليها ، ويلاقيها أنى سار ،
لا يستطيع انقاء بردها إذا اشتد ، ولا هجيرها إذا انقذ . تجابهه ويحاربها دون
حجاب . فأورثته ذكاء وبديهة ، ودفعته إلى العمل والسرعة فيه ، والوصول إلى
هدفه ، ورققت إحساسه ، وأرهفت شعوره ، فعاش بعاطفة جياشة منفعلة ، له
مثل عليا اقتضتها طبيعة البادية ، وواقع الحياة فيها . فتغنى بها وسعى حثيثاً إليها ،
وذلك كالكرم والنجدة وإغاثة الملهوف والوفاء بالوعد والشجاعة والصبر

والذكر الحسن . وعودته الحرية والطلاقة ، فلم تعرقل تفكيره ، ولم تعقل لسانه ولا تعبيره . (١)

وهكذا ترى الطبيعة الصحراوية فرضت على العرب أخلاقا خاصة ، وألزمتهم بتقاليد لا يستطيعون عنها حولا ، صارت لهم على مر السنين جبلة وطبيعة وفطرة . وقد انعكست هذه الطبيعة الخشنة على نفس العربي قوة وصرامة وجلدا : (٢)

وأما شعراء القبيلة ، فيتغنون بمجدها ، ويشيدون بكرمها ، ويسجلون حوادثها ومآثرها ، ويناخون بشعرهم عنها ، ويكيدون به لأعدائها .

وهم في خلال أشعارهم هذه ، يصفون ما يسرون فيه من صحراء مضيئة ، ورمال مشقية ، وما يطرّفونه من وهادها ونجودها ، وما يسطلون به من وهج الهجير فيها ، أو ما يستظلون به من سماء صافية ذات شمس ضاحية ، أو قر سافر ، أو سماء محجبة ذات سحب كهام ، أو ملبدة ذات غارض مطر .

ويهتزون لرعد الصاخب ، وبرقها المضيء ، وضبابها الضارب ، ومطرها النازل ، ونباتها المستجيب ، وطيرها الغرد .

ويصفون ما يصحبهم من الخيل والإبل وكلاب الحراسة والصيد ، وما يلاقونه من حمر أو ثيران وحشية ، أو ذئاب ضارية . إلى غير ذلك مما جعل شعرهم أصدق مرآة لبيئته ، يرى فيه الرئي ملاحظها ومعالمها وصورها المختلفة .

ولم يكتف الشعراء بالوصف السافر والنعت المباشر ، بل أعملوا الخيال وسرحوه غير بعيد ، وغذوه بذخاير من مشاعرهم الكامنة ووجداناتهم المستترة . وعقدوا التشبيه وانزعوا الماثلة ، ولاءموا المشاركة .

ولقد كان للصحراء أثر قوى في هذا الشعر ، فهي التي أوحى للشاعر بأسلوب

(١) راجع النابتة الديباني للأستاذ عمر الدسوقي ص ٤٥ وما بعدها .

(٢) راجع الفتوة عند العرب للأستاذ عمر الدسوقي ص ٢١ - طبع لجنة البيان العربي .

القصيدة وعناصرها ، وبما فيها من وحدة فكرية . فالشاعر الراحل إلى غرض من أغراضه ، أول ما يهيج الشعر في نفسه ، مروره على ديار أحبته ورؤية ما لها من آثار ودمن ، فينطلق يخاطبها ويذكر بوقوفه عليها ذكرياته الماضية ، ثم يلتفت من حوله فيجد ناقته - مثلا - التي تصاحبه وتبلغه مقصده وتؤنسه في رحيله ، فينطلق وكأنه يخاطبها ويناجيها ، فيصفها وينعت محاسنها ويذكر عاداتها وأخلاقها ، ويشبهها بالثور الوحشي أو الحمار الوحشي أو الظبي الشارد . ويستطرد إلى وصف هذا الثور أو غيره ، ثم يعود ويستدير إلى ناقته بعد استطراده ، فتكون قد أوصلته ناقته إلى مقصده ، فيذكر هذا المقصد ، قتالا أو مدحا أو اعتذارا أو نحو ذلك .

وإذا كانت القصيدة لا ترتبط أجزاءها ، ولا تتواصل معانيها الجزئية في أبياتها المتتابعة ، فإن بينها هذه الوحدة الفكرية ، بل الشعورية التي تجعل منها كلا مترابطا في نفس الشاعر ، كما أوحى به إليه بيئته .^(١)

والشاعر بذلك كله يصف واقع حياته وواقع بيئته ومشاهدها . وهكذا ترى مبلغ مشاركة الطبيعة الصخرية في توجيه الشاعر في فنه .

وقد وصف أوس بن حجر سحابة دانيا يلمع برقه ويهطل مطره فقال :

يامن لبرق أبيت الليل أرقبه	في عارض كيباض الصبح لماسح
دان مسف فوق الأرض هيدبه	يكاد يدفعه من قام بالراح
فمن بنجوته كمن بمحفله	والمستكن كمن يمشى بقرواح
كأن ريقه لما علا شطبا	أقرب أبلق ينفي الخيل رماح
فالتج أعلاه ثم ارتج أسفله	وضاق ذرعا بحمل الماء منصاح
كأنما بين أعلاه وأسفله	ريط منشرة أو ضوء مصباح

(١) راجع الناقبة الذيباني للأستاذ عمر الدسوقي ص ١٥٢ في سياق الفصل رقم ٢ من الصحراء .

كأن فيه عشارا جلة شرفا شعنا لهايم قد همت بإرشاح
بحا حناجرها هدلا مشافرها تسم أولادها في قرقر ضاح
هبت جنوب بأرلاه ومال به أعجاز مزن تسح الماء دلاح
فأصبح الروض والقيعان عمرعة ما بين مرتثق منها ومنصاح (١)

بات الشاعر طول ليله يرقب هذا البرق ، وقد بدا من خلال سحب أبيض
كبياض الصبح يلعب . وقد دنا ما تدلى منه ، حتى ملأ سطح الأرض ، وانتشر في
وهده ونجده ، وكاد يلمسه بكفه ويدفعه وبزيمه عنه ، كل من قام . فاستوى في
ذلك من كان في مرتفع من الأرض أو منخفض ومسيل منها ، ومن كان مطمئنا في
كنهه وبيته ، ومن مشى في أرض مستوية ظاهرة .

وقد بدت له أوائل هذا السحاب ، لما سمت إلى جبل شطب ، كأها خواصر
فرس أبلق ، ارتفع بياض تحجيلة إلى نخذه . وهو يسير على عجل . رماحا يطرد
الخيول ويسابقها وكأنما ربطت بين أعلاه وأسفله ملاءات منشورة . أو جمع بينهما

(١) العارض : السحاب العارض في الأفق - الداح : اللامع - المسف : الداني القريب - الهيدب :
ما تدلى من السحاب - النجوة : ما ارتفع من الأرض - الحفل : مجتمع الماء - القرواح : بكسر
القاف ، البارز الذي لا يستره من السماء شيء - ريقه : بفتح فكسر وتشديد ، أوله - شطب : بفتح
فكسر ، اسم جبل - الأقرباب : الخواصر جمع قرب بضم أوله - الأباقي : الفرس السود المبيض ،
أو ما ارتفع تحجيلة إلى الفتحة - النج : اختلط صوته - المنصاح : بضم أوله ، الفائض الجارى على
الأرض - الربط : جمع ربطة نوع من الملاءات - العشار : جمع عشاراء وهي الناقة التي مضى على حملها
عشرة شهور أو ثمانية ، أو هي كالنفساء من النساء ، والعشار أيضا النوق تسمى به حتى ينتج بعضها ،
والبعض ينتظر نتاجه - الحلة : المسنة - الشرف : بضمين جمع شارف ، وهو المسن الهرم من النوق -
الشعت : المتفرقة أو الملبدة الشعر - الهايم : الغزيرة الابن مفردا لهموم كصفور - همت بإرشاح :
كادت تفلطم فصيلها - القرقر : بفتح القافين ، الأرض المظمنة اللينة - المزن : جمع مزنة وهي السحابة
الماطرة - الدلاح : الكثير الماء - المنصاح : بضم أوله المشتق : وعكسه المرتثق .

راجع الأبيات في شعراء النصرانية ص ٤٩٣ - ومختارات ابن الشجرى ج ٢ ص ٤٨ - وتنسب
الأبيات أيضا لعبد بن الأبرص - راجع أغاني الطبيعة ص ٣٤ للدكتور أحمد الحوفي .

ضوء مصباح وذلك لاتصالهما أحدهما بالآخر ببياض من ضوء أو ضباب.

وقد اشتد بينه صوت الرعد قويا خشنا متواصلا . كأنه صوت نوق هرمة ملبدة الشعر غزيرة اللبن ، كاد فصيلها ينفصل عنها . فهي إليه شديدة الحنين وعليه صارخة الحنان . فغالب صوتها واسترخت مشافرها ، لأنها تتحسس أولادها الراعية في أرض مستوية لينة فسيحة واضحة إلخ .

والآيات نموذج من الشعر الجاهلي الجيد ، في سماح اللفظ وملاءمة الجرس وقرب الخيال . وإن تحملته ألفاظ غريبة غرابة الصحراء ، وصلدة صلادة صخرها ، كالقرواح والمنصاح واللهايم والقرقر والدلاح . إلخ . إلا أن ذلك لا يبدو صنعة فيه ولا تكلف ، أو فيه الصنعة الجارية مجرى الطبع .

وبين الآيات وحدة تشدد بعضها إلى بعض . وهي وحدة المعنى ووصف هذا البرق والسحاب وصفاً منسقا مرتباً ، يرسم تطور صورته من لدن بدايته إلى نهايته ، ومن لدن أخذ الشاعر يرقبه بالليل حتى دنا منه وملأ بمياهه البقاع ، واتصل أعلاه بأسفله ، ورعد فيه الرعد ، وسحت مياهه فأمرعت منها القيعان .

ولعل هذا النهج - وهو نهج أوس بن حجر - لم يكن نهجا مطرد الاتباع في الجاهلية . إذ جرى أغلب شعرائها على وحدة البيت وعلى نمط مما أشرنا . أما أوس فقد كان معنياً بنهذيب شعره .

ونرى تشبيهاته منزعة من بيئته ، لقد استخدم أدواتها وأجزائها في إيضاح صورته وإبراز معانيه . فشبّه - مثلاً - ريق السحاب لما علا الجبل فكساه بياضا ، بأقرب جواد أبلق يطرد الخيل . وصور ما يصل أعلاه بأسفله ، بالريط المنشرة ، أو بضوء المصباح . وما يدوى فيه من أصوات الرعد ، بأصوات النوق التي تسم أولادها ، وتناديها وقد بحث حناجرها ...

ووصف طرفة بن العبد ناقته في معلقته المشهورة بنحو ثمانية وعشرين بيتاً .
وكاد يستنفد في الوصف جميع أجزائها وصفاتها . فقد وصف عظامها ووثاقه خلقها
واكتناز لحمها وضخامة نخاعها ، وفقارها المتداخلة وعلو جسمها وطول عنقها ،
وصلابة جمجمتها ، وتبسط خدها ، وضخامة مشفرها ، ولمعان عينيها ، وشدة
عدوها ، إلى غير ذلك .

ونجى في هذا المقام منها بهذه الأبيات :

وإني لأمضي الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغدى
أمون كألواح الإران نصاتها على لاجب كأنه ظهر برج
جمالية وجناء تردى كأنها سفنجة تبرى لأزعر أربد
تبارى عتاقا ناجيات وأتبعن وظيفا وظيفا فوق مور معبد (١)

وهكذا ترى طرفة يستعين على إذهاب همه إذا اعتراه ، بناقته الضامرة
السريعة المأمونة العثار الشبيهة في تماسكها وصلابتها بألواح التابوت — تابوت
السادة —

وهو يزجرها بمنسأته — عصاه — ليوجهها إلى طريق واسع واضح ، مخطط
كظهر البرجد — الكساء —

وهي تبارى عتاق الإبل — أو الخيل النجبية — متبعة ساقا بساق ، وهي
تسير فوق طريق مذل لسكثرة وطئه ..

(١) راجع المعلقة ، وفيها الأبيات ، في جبهة أشعار العرب ص ١٧٣ — واحتضار الهم : حضوره —
والعوجاء : الناقة الضامرة — والرقال : السرعة في سيرها — والأمون : الناقة المأمونة العثار — والإران :
التابوت — واللاجب : الطريق — والبرجد : الكساء — والجمالية : الشبيهة في قوتها بالجل — والوجناء :
العظيمة الوجنات لقوتها — وتردى : تسير بين عدو ومشي — والسفنجة : النعامة — وتبرى : تتعرض —
والأزعر : الذي قل ريشه وتفرق : أو الذي لا شعر له — والعتاق : الخيل النجبية — والناجية : الناقة
السريعة — والوظيف : ما بين الرسغ والركبة — والمور المعبد : الطريق المزل الموطن والمستوى —
ونصاتها : زجرتها .

ووصف امرؤ القيس في معلقته ، الليل وطوله ، ورأى نجومه وكأنها ثابتة
لا تتحرك ، فقال :

فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار القتل شدت يبيذل
كأن الثريا علقت في مصامها بأمراس كتان إلى صم جندل^(١)

ووصف جواده الذي يصاحبه في رحلات صيده ومغامراته ، ووصف
ضخامته وسرعته وحركته فقال :

وقد أغتدى والطير في وكنانها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مسكر مفر مقبل مدبر معا بكلمود نحر حطه السيل من عل
كبيت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفراء بالمتنزل^(٢)

وذكر البرق الواض الذي يضيء سناه :

أصاح ترى برقاً أريك وميضه كلع اليدين في حبي مكمل
يضيء سناه أو مصابيح راهب أمال السليط بالذبال المقتل^(٣)

وذكر مطره الذي اقتلع الدوح :

فأضحى يسح الماء حول كتيقة يكب على الأذقان دوح السكنهبل^(٤)

وذكر الطيور الفرحة بالمطر : والسباع الغرقى فيه :

(١) المغار القتل : المشدود القتل - ويذل : اسم جبل - والثريا : نجم - والمصام : الموضع والموقف - والأمراس : الجبال ، وهي جمع مرس بفتحين ، والمرس جمع مرسة بثلاث فتحات وهي الجبل : - وسم الجنادل : صب الحجارة .

(٢) الوكنات : الأعشاش - والمنجرد : القصير الشعر - وقيد الأوابد : قيد الوحوش : يعني فرسه لسرعته كأنه قيد لها في طرادها - والهيكل : الضخم - والكيت : الأجر المسود - والبد : الصوف المتبلد - والصفواء : الحجر الصلد الضخم .

(٣) الحبي : السحاب يسرف من الأفق على الأرض ، أو هو الذي بعضه فوق بعض - والمكمل : السحاب كأن عليه غشاء - والسليط : الزيت .

(٤) كتيقة : مكان - ودوح السكنهبل : شجر عظام .

كأنى مكأى الجواء غدية صبحن سلافا من رحيق مفلقل
كان السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى أنابيش عنصل (١)

وعلى هذا الغرار وصف شعراء الجاهلية أجزاء بيتهم الطبيعية ومشاهدها المختلفة ، كما تراءت لعيونهم ، وكما أحبتها نفوسهم .

ومن ذلك وصف الحارث بن عباد للسحاب وريح الجنوب . ووصف خفاف ابن ندبة للبرق والسحاب والغيث والسيل ، ووصف عدى بن زيد العبادى للبرق ، ووصف النابغة الذبياني للسحاب والمطر . ووصف أبى دؤاد وزهير وعبد بنى الحسحاس والأعشى وساعدة بن جؤبة وتأبط شرا ، والمسيب بن علس وغيرهم (٢).

وقد صور النابغة الذبياني معركة بين الثور الوحشى وكلاب الصيد . تصويرا بديعا فى رأيته الممتعة « عوجوا فحجوا » .

ووصف الأعشى الروضة . والصمة بن عبد الله ربيع نجد وصيفها . وخفاف ابن ندبة الضباب والسيل . وذكروا فى أشعارهم العرار والنخيل والشجر والكرم والحماط والزنبق والقرنفل والفلفل والحنظل ، إلى غير ذلك (٣).

وقد اهتموا بوصف هذه الأشياء ، لما لها من صلة وثيقة بحياتهم ، وعلاقة متينة بمعيشتهم . لقد صارت جزءا منهم ارتبطوا بها وارتبطت بهم . فمن حقها عليهم أن يذكروها ، بل أن يتغنوا بها ، بل أن يخلدوها . - وقد فعلوا .

وهدأت جنوة شعر الطبيعة ، منذ جاء الإسلام . إذ شغل الشعراء بالدعوة

(١) المسكأى : جمع مكأه ضرب من الطير - والسلاف : الحمر - والأنابيش جمع أنبوش وهو أصل البقل أو الشجر المقتلع بأصله وعروقه - تراجع الأبيات فى جبهة أشعار العرب ص ٨٧ .

(٢) راجع أغاني الطبيعة للدكتور الحوق ص ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٠ وما بعدها - راجع أيضا نهاية الأدب ج ١١ .

الدينية . ثم فتحت في عهد عمر - رضى الله عنه - الأفطار المجاورة للجزيرة العرب : الشام ومصر والعراق وفارس . ونزحت جوارى العرب إلى هذه الأمصار الجديدة ، وأخذوا في استيطانها . فرأوا فيها مشاهد جديدة لم يألّفوها في جزيرتهم ، وبيئات طبيعية فاتنة غنية ملئت حسنا وجمالا ، بأنهارها الجارية ، ورياضها الضاحكة وثمارها المواتية ، بين جبال وسهول وشواطئ . فعاد العرب إلى تغنيهم بمفان الطبيعة ، ولما سكن على سنة القدماء ، من الوقوف بالأطلال ووصف الناقة ومشاق الرحيل ، ووصف الوحش الذى يصادفهم في الطريق .

لقد أخذت هذه الظاهرة تعود إلى مسرح الشعر العربى ، واشتد بروزها في عهد بنى أمية .

ولم يتجه الشعراء اتجاها يذكر إلى مفان الطبيعة الجديدة المتفتحة أمام نواظرهم في الأمصار والحوضر . لقد اتجهوا بدلا منها ، إلى مناظر البادية وما فيها من رحلة وديار وإبل ونوق ووحش وغيره . .

ذلك حق الوطن الأول ! وميراث الآباء والأجداد ، ووديعة الماضى ، جذبت خواطرهم إلى الاقتداء بالأسلاف ، وبعث عهودهم مرة جديدة .

ولماذا لا يبعثونها في هذا المجال ، وقد أصرت الدولة والناس على بعثها ، في مجالات القبلية والعصبيات والحزبيات والمفاخرات ونحوها . . . ؟ لقد كادت تكون الحياة الأموية حياة جاهلية ، بما بعث فيها من ذلك ، وشجع عليه الخلفاء .

ولقد أصبح الشعر الجاهلى - وما يشبهه - في مقدمة وسائل الثقافة وميدان النقاش والجدل ، وموضع الدرس والموازنة والنقد . فكان لذلك - كما ذكرنا - أثر في جذب خواطر الشعراء حينذاك إلى تأثر القديم ومحاذاته ، في الاهتمام بالبادية ومحتوياتها وصورها . . . غير أنهم - في جملتهم - لم يبلغوا في مجال الصدق مبلغ الأسلاف . ولم يندمجوا الاندماج النفسى الذى اندمجوه . ولعل

أصدقهم ذو الرمة في وصف ناقته ، وقيس ليلي في بعض غزلياته. (١)
فقد أطال ذو الرمة في وصف الناقة وأحاط به إحاطة شاملة ندل على امتزاج
شعوره وخاطره بها . أما قيس ليلي فقد كان يمزج غزلياته هذه بوصف الطبيعة ،
حتى ليدر أنه يعيشها فيذكرها كلها ذكر حبيبته ، أو يذكر حبيبته كلها
ذكرها . يقول .

ألا هل طلوع الشمس يهدي تحية إلى آل ليلي أو دنو غروبها
ويقول :

وما طلع النجم الذي يهتدى به ولا الصبح إلا هيجا ذكرها ليا

ومهما يكن من شيء ، فهذا عمر بن أبي ربيعة ، يفتتح إحدى قصائده بقوله :
قف بالديار عفا من أهلها الأثر عني معالمها الأرواح والمطر
بالعرصتين فمجرى السيل بينهما إلى القرنين إلى ما دونه البسر (٢)
وهذا الفرزدق يصف الذئب ، وقد صادفه في طريقه ، بهذه الأبيات .
وأطلس عسال وما كان صاحباً دعوت لنارى موها فأتاني
فلما دنا قلت أدن دونك إننى وإياك فى زادى لمشتركان
فبت أسوى الزاد بينى وبينه على ضوء نار مرة ودخان
فقلت له لما تكشر ضاحكا وقائم سيفى من يدى بمكان
تعش فإن واثقتنى لا تخوننى نكن مثل من ياذئب يصطحبان
وأنت امرؤ ياذئب والغدر كئتما أخين كانا أرضعا بلبان (٣)

(١) راجع وصف الطبيعة وتطوره الأستاذ عمر الدسوقي وآخرين تحت عنوان « العصر الأموى » -
وراجع شعر الطبيعة فى الأدب العربى للدكتور سيد نوفل ص ١١٧ وما بعدها .
(٢) راجع ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ٧ ط المطبعة البينية - وقيل إن القرنين جبلان - والبسر :
ماء لبنى عقيل .

(٣) راجع ديوان الفرزدق - والأطلس . المغبر لونه إلى سواد - والعسال . المهز - والموهن
نحو نصف الليل أو بعده بساعة .

وهكذا تخيل الفرزدق في الذئب شخصا يحاطبه ويدعوه موهنا ليأتيه ،
ويدعوه إلى مشاركتة زاده . واقسم هذا الزاد بينه وبينه ، قاعدین حول النار
يستدفئان . ولحظ منه توثبه للغدر والفتك ، فهدأ من توثبه ، لا خوفا منه ،
ولكن حرصا عليه . وطلب إليه موادعته وموائفته ، ليعيشا صاحبين ، مع أن
من خلق الذئب الغدر . . .

وينحو الأخطل نحو النابغة الذبياني في بعض قصائده - فضلا عن ديباجته -
فشبه ناقته مثله ، بالثور الوحشي ، ثم استطرد فصور معركة بين الثور و كلاب
الصيد ، في قصيدة رائية ، كأنها رائية النابغة ، لو لا خمرياتها . ومطلعها .
تغير الرسم من سلمى بأجفار وأقفرت من سليمان دمنة الدار^(١)
فيصف فيها الناقة . ويشبهها بالثور ثم يستطرد في وصفه قائلا :

كأنها برج رومي يشيده لز بخص وأجر وأحجار
أومقفر خاضب الأظلاف جادله غيث تظاهر في ميثاء مبكار
فبات في جنب أرطاة تكفئه ربح شامية هبت بأمطار
يجول ليلته والعين تضربه منها بغيث أجش الرعد نيار
إذا أراد بها التغميض أرقه سيل يدب بهدم الترب موار
كأنه إذ أضاء البرق بهجته في أصفها نية أو مصطلى نار
أما السراة فمن ديباجة لفق وبالقوائم مثل الوشم بالفار... الخ^(٢)

(١) الأجفار : موضع في ديار بني تغلب - والدمنة : آثار الدار والناس وما سودوا .
(٢) راجع ديوان الأخطل : وجهرة أشعار العرب ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ - والأخطل شاعر بني
أمية للدكتور السيد مصطفى غازي - ولزه : شدته وألصقه : والمقفر : الذي خلا من أهله ، أو ذهب
طعامه وجاع - وتظاهر : تعاون وتكاثر : والميثاء : الأرض السهلة : والمبكار : الأرض التي تعجل
في إدراك نباتها : والأرطاة : شجرة عظيمة والجمع أرطى : والنيار : الواضح المضيء : والموار :
(م ٤ - عصر الممالك)

ويصف ذو الرمة الهاجرة وحرها بقوله :

وهاجرة حرها واقـد نصبت لحاجبها حاجـي
تلوذ من الشمس أطلاؤها لياذ الغريم من الطالب
وتسجد للشمس حرباؤها كما يسجد القس للراهب^(١)

ولما انتقل الملك إلى بني العباس ، واتخذوا بغداد عاصمة لهم ، أخذ العرب يدخلون في دور حضارى واسع النطاق ، يقوم على دعائم من مدنية الإسلام وآداب العرب ، وحضارة الفرس وعلوم اليونان ، وغيرهم .

واتسع أفق الثقافة وزاد الرخاء ، وكثر المانحون من الرؤساء . وأقبل الناس على حياة الترف ومجالس الأانس وأنشئوا العمار والقصور والحدايق والبساتين والبرك وأجريت الجداول ، وعمرت مشاهد الطبيعة بالحيوان الأليف ، والطير المغرد ، والنبات الجميل ، والزهر الباسم ، والشجرة المظلة .

واستهوت هذه الطبيعة الجميلة ، فيمن استهوتهم بأزهارها ورياضها وغيثها وبرقها ومجالى الجمال فيها ، الشاعر الكبير أبا تمام ، فاحتفى بالربيع واحتفل بمقدمه ، وصدر بأوصافه بعض مدائحه . فذكر رقة حواشى الدهر ، وتسكس الثرى في حليه ، وبذل المصيف ، وجدة الشتاء وفضل يده . وذكر المطر ، وقد أعقبه الصحو النضر والندى ، وقد ادهنت به لمم الثرى فمكأنه عذاره . .

رود أبو تمام ، لو يعمر حسن الروض لقستمر به بهجة الأيام . وطلب إلى

= الكثير الحركة ، والبهجة : الحسن - ولأصفهانية : نوع من الثياب مصبوغ بالزعفران - والسراة : بكسر أوله أعلى كل شئ . ، والمراد ظهر الثور : والهبق : على وزن جبل أو كتف ، الشديد البياض : والقار : الزفت أو شئ أسود يطل به .

(١) راجع نهاية الأرب ج ١ ص ١٧ ط دار الكتب - وحاجبها : ما اطرد من رملها وطال ، أو ما انتشر من ضوء الشمس فيها - والأطلاء : أبناء الوحش -

صاحبيه أن يرسلنا نظريهما في الأرض ليشهدا صورها البديعة ، ومرايتها الفاتنة ،
من نهار مشمس طلع به زهر الربا فأقر . ومن كل زهراء تترقب بالندى فكأنهما
عين تتحدر . . . إلى غير ذلك من مشاهد الطبيعة ، ومفاتيح الربيع وألوانه
الزاهية يقول :

رقت حواشي الدهر فهي تمر مر وغدا الثرى في حليه يتسكسر
بذلت مقدمة المصيف حميدة ويد الشتاء جديدة لا تكفر
ويذكر المطر :

مطر يذرب الصحو منه وبعده صوريكاد من النضارة يقطر
وندى إذا ادهنت به لمم الثرى خلت السحاب أناء وهو معذر

ويدعو صاحبيه لرؤية هذا الجمال ، ومنه النهار المشمس المقمر :

يا صاحبي تقصيا نظريكما تريا وجوه الأرض كيف تصور
تريا نهارا مشمساً قد شابه زهر الربا فكأنما هو مقمر . الخ^(١)

وينهج البحترى نهج أبي تمام ، ويضرب على أوتاره في عشق الطبيعة المائلة
لعينيه ، فيجلو فيها شعرة فائنا . فيه من روحه فيض ، ومن نفسه قبس . ومن
مشاعره استيحاء . ويعيش ردحا في جو هذه الطبيعة الزاخر بالجمال يصف سخيا
وغيثا . ويرى أن صوت رعدا ارتجاج وحنين . وأنها صادقة الوعد . وأن مطرها
سفع دمع من غير وجد . ونسيمها نسيم ورد . وصوتها زئير أسد . ولحها لمع
سيوف الهند . الخ

(١) راجع ديوان أبي تمام — وشعر الطبيعة في الأدب العربي ص ١٦٩ — والحواسي :
الجواب — وتتمرر : تمور وتتحرك — والهم : جمع لمة بكسر أوله ، وهي الشعر المجاوز شحمة
الأذن — والمعذر: الذي بدأ غدراه ، والغاز جانب القحية .

ذات ارتجـاز بحنين الرعد مجرورة الذيل صدوق الوعد
مسفوحة الدمع لغير الوجد لها نسيم كنسيم الورد
ورنة مثل زئير الأسد ولمع برق كسيوف الهند
جاءت بها ريح الصبا من نجد فانتشرت مثل انتشار العقد
فراحت الأرض بعيش رغد من وشى أنوار الربا في برد
كأنما غدراتها في الوهد يلعبن من حبابها بالنرد^(١)

وينطلق البحرى . فينطلق معه الربيع . ويضحك مقبلا عليه يختال ، وينبه
النيروز أوائل الورد ، ويفتقه برد الندى ، فكأنه يبتث حديثا كان
مكتما . . . الخ . يقول :

أناك الربيع الطلق يختال ضاحكا من البشر حتى كاد أن يتكلم
وقد نبه النيروز في غسق الدجى أوائل ورد كن بالأمس نوما^(٢)
يفتقها برد الندى فكأنه يبتث حديثا كان قبل مكتما^(٣)

وفى كثير مما ترى تشخيصا . خلع فيه الشاعر أحاسيسه وأخيلته على موصوفه
وأسند إليه ما بسند إلى الإنسان . لقد رأى فى تفتيق الندى للورد حديثا ،
ورأى فى ورق الشجر ، لباسا له موشى . . . الخ

ويسلط ابن المعتز حاسته البصرية على مشاهد الطبيعة ، بما لها من أشكال
والوان فتوحى إليه بضروب من الخيال والتصور ، يتأنق فى إبرازها ببراعة
الصناع . وأبرز أدروانه إلى ذلك ، التشبيه . . . فالهلال منجل صيغ من فضة .

(١) راجع ديوان البحرى — والارتجـاز : التضويت والإنشاد ونظم الرجز — والوشى :
نقش الثوب — والبرد : الثوب — والوهد : الأرض المنخفضة — وحباب الماء ، بفتح أوله
فقاقيعه — والنرد : إحدى اللعب .

(٢) النيروز والنوروز أول يوم من السنة القبطية .

(٣) راجع ديوان البحرى .

والثريا هودج فوق ناقة . والقمر في النجوم ملك في مواكبه ، والشمس تتلو
البدر ، فهما قد حان من ماء وخمر . والصبح يتلو المشتري ، وهو عريان يمشى
في الدجى بسراج ... يقول :

في الهلال :

انظر إلى حسن هلال بدا يهتك من أنواره الخندسا
كنجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الدجى نرجسا^(١)

وفي الثريا :

كأن الثريا هودج فوق ناقة يحث بها حاد إلى الغرب مزعج
وقد لمعت حتى كأن بريقها قوارير فيها زئبق يترجج
وفي القمر :

قمر بدا لك مشرقا في ليلة حسن الدجى أذباله عن ذيله
وفي الشمس والبدر :

حتى رأيت الشمس تتسلو البدر في كبد السما
فكأنه وكأنها قد حان من خمر وما
وفي الصبح :

والصبح يتلو المشتري فكأنه عريان يمشى في الدجى بسراج^(٢)

وهكذا سار كثير من شعراء العباسيين في الطريق ، ووصفوا بدائع الطبيعة
ومحاسن جمالها .

(١) يهتك : يكشف ويفضح — والهندس : بكسر أوله وثالثه ، الليل المظلم والظلمة .

(٢) ديوان ابن المعتز — وشعر الطبيعة في الأدب العربي للدكتور سيد نوفل .

وانتقل الشعر مع العرب إلى بلاد الأندلس ، حيث الطبيعة المازدهرة الغنية ، والأرض الخصبة الثرية ، والأنهار الجارية الوفية ، والجداول الرقراقة المضية . . . وحيث الأجواء المعتدلة ، والأنسام الوافية . والأمطار الحانية ، والسواحل الممتدة ، والهضاب العالية ، والجبال المخضرة ، والسهول الفسيحة ، والمراعي المعشبة ، والنبت الناجم ، والثمر الدائم ، والفاكهة الشمية ، والكروم الحلوة ، والأطياف المغردة ، والشجر الباسق ، والماشية والأنعام . . . إلى غير ذلك .

فوجد الشعر في طبيعة البيئة ، مراحا غير مراحه القديم ، وسعة من العيش بعد ضيق ، ومرحاً من الحياة بعد ضنك ، وتبسّطاً من الأيام بعد قبض . فتبسّطت أساريه ، وتفتحت قسماه ، وهش للحياة وبش . وتأثر بهذه الطبيعة الموانية تأثراً بالغاً ، نقله من قسوة الصحراء إلى لين المدينة ، ومن صرامة البادية إلى رقة الحاضرة . وتم ذلك شيئاً فشيئاً ، حتى سلسلت عبارته ، وعذبت ألفاظه ، وغاضت عنه الغرابة والصلابة ، وتمشّت في أرجائه وحواشيه الموسيقى العذبة الوديعه ، وطبع بطابع هذه البلاد ، وظهرت فيه المجزوءات والموشحات ، وبدأت فيه الرقة واللفظ ، والرّفاهة والتزف . وصار للغة والأدب بذلك حياة جديدة . وأصبح الشعر أغاني نفسية هزجة ، وألحانا وجدانية متتابعة ، وأقبل الناس جميعاً عرباً وغير عرب ، على لغته السمحة ، فنسخت اللغات الوطنية . وأقبلوا على الشعر ينظمونه أفانين . وكأن الناس أصبحوا وقد طبعوا على قوله والتغنى به ، وما واتهم الفرصة لذلك ، يحدون به فرادى وجماعات ، ويتعنون به عمالاً وصناعاً وزرّاعاً .

ومن أبدع ما تغنوا به عظامر طبيعة بلادهم ومشاهدها الجميلة الوسيمة ، التي راقّت عيونهم ، وأمتعت نفوسهم ، وجذبت حواسهم ، بأشكالها المغرية ، وألوانها الزاهية ، وجودها الجزل ، وخيرها العميم ، وكرمها الغامر . حتى بدت أمام عيونهم روضة الدنيا وجنة الأرض .

وأخذت آثار البيئة تبدو آياتها عليهم ، رويداً رويداً ، لبالح تأثرهم ببيئتهم

العربية الأولى . حتى إذا تم لهم الاستقرار وطاب بهم المقام ، اتضحت هذه الآثار عليهم ، وصارت أندلسية خالصة ، إلا ما اقتضته العربية المشتركة ، ومعجمها في اللفظ والأسلوب . وجرى أكثر شعرائهم على وصف الطبيعة في سمائها ونجومها وسحابها وبروقها ورعدها ومطرها ، وأرضها وجبالها وسهولها وأنهارها وجداولها ، ومدنها ورياضها وحقولها ، وفاكهتها وزهرها وشجرها وثمرها وطيرها ، وغير ذلك .

واندج كثير منهم في هذه المفاتن ، واهتزج بها اهتزاجا نفسيا بالغاً ، لم نشهد له نظيراً في شعراء المشرق . فأجادوا تصويرها ، وتعمقوا بعاطفتهم وإحساسهم في نواحيها ، وأنشثوا منها أحياء نابضة ، وشخصاً محسوسة ، ومزجوا أنباءها بأنبيائهم ، وخصائصها بخصائصهم ، وشبهوا بها واستعاروا منها .

ومنهم على تتابع عصورهم : ابن شهيد وابن هاني وابن زيدون وابن خفاجة الأندلسي وصاف الطبيعة .

يصدح الحمام باكياً على فراق إلفه ، فيرى فيه ابن شهيد زميلاً له وشريكاً في آلامه ووجده ، فيناجيه قائلاً :

وقلت لصداح الحمام وقد بكى	على الغصن إلفاً والدموع تجود
ألا أيها الباكي على من تحبه	كلانا معنى بالخلاء فريد
فصفق من ريش الجناحين واقفا	على القرب حتى ما عليه مزبد
وما زال يبكي وأبكيه جاهداً	وللشوق من دون الضلوع وقود

وتفتن مناظر الروض عيني ابن هاني ، فيرى كأن نور الشمس ينشر فيه سبائكها الذهبية ، وكأن كمثوس الراح تسرى بعقبها ورياحها في خلاله ، فيقول :

ألم تريا الروض الأريض كأنما	أسرة نور الشمس فيه سبائك
كأن كمثوسا فيه تسرى براحها	إذا علمتها الساريات الحوائك

كأن الشقيق الغض يكحل أعينا ويسفك في لبانه الدم سافك^(١)،

ويعتزج الولوج بالطبيعة والتعلق بمحاسنها ، بالولوج بالمحبة والتشوق إلى أيامها ومفاتها ، عند ابن زيدون . إذ يذكر حبيبته بالزهره ، فيمزج مشاعره نحوها ، بمشاعره نحو الطبيعة :

والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا	إني ذكرتك بالزهره مشتاقا
كأنه رق لى فاعتل إشفاقا	وللنسيم اعتلال فى أصائله
كما شقت عن اللبات أطواقا	والروض عن مائه الفضى مبتسم
بتنا لها حين نام الدهر سراقا	يوم كأيام لذات لنا انصرمت
جال الندى فيه حتى مال أعناقا	نلهو بما يستميل العين من زهر
بكيت لما فى فجال الدمع رقرقا ^(٢)	كأن أعينه إذ عاينت أرقى

وقد ابتعد ابن خفاجة الأندلسى عن دنيا السياسة ومقتضياتها . وعزف عنها وأخذ إلى حياة من الدعة . أطلق فيها مشاعره تتجاوب مع مشاهد الطبيعة الجميلة التى ولعت نفسه وملكت عليه حسه . فاتخذها معشوقة ، وهب لها خواطره ووجداناته ، ووجه إليه كل مخاطباته ومناجاة فهى عرسه الحلوة العطرة المزدانة وحبيبته السمحة المستجيبة . ففسيمها عليل وظلها ظليل ونورها طرف متنبه . وماؤها مبتسم وبرقها راية وسحابها كتيبة وأيكتهاريا متهادية ، وأراكتها معطوفة شاكرة ، وحمامها مرجع ، والروض نشوان من الصبا . . الخ . يقول :

(١) راجع شعراء الطبيعة ص ٢٥٤ — والأرض ، الروض الممجب للعين الذكى الخلق للخير — والساريات : السحب — والحوائك : الناصجة — واللبات : جمع لبة بفتح أوله ، وتشديد ثانية مع فتحه وهى النحر وموضع القلادة من العنق .
(٢) راجع ديوان ابن زيدون — والزهره : بلد بالأندلس — والرقراق : المتحرك .

أحسن المدامة والنسيم عليل والظل خفاق الرواق ظليل
والنور طرف قد تنبه دامع والماء مبتسم يروق صقيل
وتطلعت من برق كل غمامة في كل أفق راية ورعيل
حتى نهادى كل خوطة أيكه ربا وغصت تلعة ومسيل
عطف الأراكة فأنثت شكراله طربا ورجع في الغصون هديل
فالروض متهز المعاطف نعمة نشوان يعطفه الصبا فيميل الخ^(١)

واستقر الإسلام بمصر وتوطنت العربية رويدا رويدا بعد الفتح العربي . وما زالت حتى انتشرت بها المحادثات والمحادثات ، وغلبت على اللغات الوطنية ، شأنها هنا شأنها هناك في بلاد الأندلس . وتفتحت خواطر الأدباء بها والشعراء . وما زالوا حتى صنعوا لمصر شعرا عربيا ينم عنها ويدل عليها مما أوحى به إليهم وألهمت خواطرهم .

وزاد اتضاح هذه الظاهرة في عهد الفاطميين وما والاه . وأغرم شعراء مصر كما أغرم سواهم بطبيعة بلادهم ، وأخذوا يغنونها ويمزجون أهازيجهم عنها بالحب والخمر والطرب ، ومنهم أبو الفتح بن قلاقس وتميم بن المعز وابن سناء الملك والقاضي الفاضل وابن الساعاتي ثم البهاء زهير والجمال بن مطروح وغيرهم .

ويصور لك ابن قلاقس وجه الصباح يشق بضوئه غلالة الظلماء حينما ينحل عقد الجوزاء ، ويترك أزهار الربا متوجة بالأنداء ، ويجري إليك النسيم ، في فضل رده ، وينطق لك الحمام على منابر أيكه . . الخ .

شق الصباح غلالة الظلماء وانحل عقد كواكب الجوزاء

(١) ديوان ابن خفاجة الأندلسي . — والرعي : جماعة الخيل — والخوطة : الفصن الناعم — والأريكة : واحدة الأيك وهو الشجر الملتف الكبير — والثلعة : ما ارتفع من الأرض أو ما انخفض منها ، ضد ، وهي مسيل الماء أيضا ، وما اتسع من فوهة الوادي — والأراكة : الأيكة .

وتسكلت تيجان أزهار الربا بغرائب من لؤلؤ الأنداء
وجرى النسيم فجر فضل رداؤه متمرسا بمساقط الأنواء
وعلا الحمام على منابر أيكه يمدى فصاحة ألسن الخطباء (١)

وهذه الأبيات التي نظمها البهاء زهير متغنيا بأرض وطنه مصر العزيزة . وقد ملك عليه الشوق إليها قلبه وخلق الحنين لبه . إثر فراق مازاق ، وابتعاد دون ميعاد . فما هدأت له أحشاؤه ، ولا رقات أجفانه ، واندفعت يديها في بعباده ما اختلج في نفسه من الأشواق ، ويكشف لها ما استكن في قلبه من حب . وتلك إحدى نوازع الوطنية الصميمة التي يولدها الإلف وطول الصحبة وطيب المقام وجمال الصلة ، بين المرء ووطنه وأهله ، ناعما بين طبيعته الحانية ، وعشائره الوافية . والأبيات من النوادر المبكرة في بابها ، أي في حب مصر والوفاء لها والشوق الأصيل إليها والاتجاه العاطفي نحوها . يقول :

سقى واديا بين العريش وبرقة من الغيث هطال الشآبيب هتان
وحيا النسيم الرطب عني إذا سرى هنالك أوطانا إذا قيل أوطان
بلاد متى ما جئتها جئت جنة لعينك منها كل ما شئت رضوان
تمثل لي الأشواق أن ترابها وحصبائها مسك يفوح وعقيان
فيا ساكني مصر تراكم علمتم بأني مالى عنكم الدهر سلوان
وما في فؤادي موضع لسواكم ومن أين فيه وهو بالشوق ملان
عسى الله يطوى شقة البعد بيننا فتهدأ أحشاء وترقا أجفان (٢)

ونفض الشعر العربي في مصر نهضة عظيمة في العصر الحديث ، على يد عدة

(١) شعر الطبيعة ص ٢٨٧ .

(٢) المنتخب لطه حسين وآخرين ج ٢ ص ١٠٣ ط سنة ١٩٤٦ م — والشآبيب : جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر — والهنان : الكثير الانصباب — والعقيان : الذهب .

أفذاذ من شعرائها كالبارودى وحفى ناصف وإسماعيل صبرى وحافظ إبراهيم
وأحمد شوقى ومحمد عبد المطلب وعلى الجارم وعلى محمود طه وأحمد محرم والكاشف
وغيرهم من الأعلام .

ونضج شعر الطبيعة المصرية على يد بعضهم بما أوحتهم إليه من أسرارها ،
وأثارته في نفوسهم من أخبارها وعاونت الثقافات الأجنبية المنتشرة ، وآدابها
ومعارفها ، على هذا النضج . فضلا عن انتشار الثقافات العربية المختلفة .

وقد لفتت آيات الربيع خاطر البارودى ، فذكر بها مواسم لهُوه في عصر
الشباب ، وطفق يصف هذه الآيات ما بين أغصان مأتجة بيد الصبا كأنها طيور
مرفرفة بأجنحة خضر ، وندى فوق الشقيق كدما مع خد ، وشمس مغازلة بأشعتها
الذهبية كشرار على حجر ، ومرعى اللفظ وشى ديمة ، ومرعى الخطوة أجوع مثر ،
حتى بدت المروج لعينه سماء تروق بأنجم زهر .

وقد ماجت الأغصان بين يد الصبا كما رفرفت طير بأجنحة خضر
كأن الندى فوق الشقيق مدامع تجول بخد أو جمان على تبر
إذا غازلتها لمعة ذهبية من الشمس رفت كالشرار على الحجر
ففى كل مرعى لحظة وشى ديمة وفى كل مرعى خطوة أجوع مثر
مروج جلالها الزهر حتى كأنها سماء تروق العين بالأنجم الزهر^(١)

وما زال الشاعر حتى ملك عليه الريف المصرى لبه ونبه خاطره ووجه حسه^(٢) .
فوصف صباحه المشرق الندى وتنفس النوار به ، والطيور المتكلمة فيه بلغاتها
ورأى بطاحه عطرة كأن بكل قرارة منها عطارا ، وذلك لزهرا الرفاف على
الغصون . ومعه الطير الغرد والجدول الزخار والرياح الطيبة المعتدلة مع الهواجر

(١) الجان : اللؤلؤ - والبشى : نقش الثوب - والديمة : مطر يدوم فى سكون بلا رعد
وبرق - والأجوع : الرملة الطيبة المنبت لا وعوثة فيها .

(٢) راجع « فى الأدب الحديث » للاستاذ عمر الدسوقي ج ٢ ص ١٥٣ .

القصيرة وقد انتشرت أشجار النخيل بأسقة كأنها العمدة والمنار ، وقد عقدت سعفها
في أعاليها وعلت ، وبدت بها عراجين بسرهما كفتائل تمشت النار في أعاليها . . .
الخ . قال :

رف الندى وتنفس النور وتمكمت بلغاتها الأطيّار
وتأرجحت سر البطاح كأنما في بطن كل قرارة عطار
زهر يرف على الغصون وطائر غرد الهدير وجدول زخار
ونواسم أنفاسهن طويلة وهواجر أعمارهن قصار
والباسقات الحاملات كأنها عمد مشعبة الذرا ومنار
عقدت ذلاذل سوقها في جيدها وسمت فليس تنالها الأبصار
فأصولها للسباحات ملاعب وفروعها للثيرات مطار
يبدو بها زهر تخال إهانه فتلا تمشت في ذراها النار . . الخ^(١) .

وأمعن شوقي في وصف الطبيعة المصرية ، وأفاض في وصف كثير من معالمها .
وحسبنا هنا أن تنوه بوصفه للجزيرة وبمطولاته البارعة في وصف النيل ومناجاته ،
ووصف حضارة الدول على جانبيه . وبقرائمه في مخاطبة الآثار المصرية ومنها
عصاؤه في مناجاة أبي الهول . وبقصيدته المنقطعة النظير في وصف مملكة النحل .
ولشوقي في مناجاة الربيع المصري ووصف مجاليه وآياته ، أبيات في أكثر
من مناسبة .

ومنها أبياته الجيدة في مطلع قصيدته التي ردّها على تحية الذين كرموه في حفلة
تكريمه عام ١٩٢٧ م .

مرحباً بالربيع في ريعانه وبأنواره وطيب زمانه

(١) ديوان البارودي ج ٢ ص ٥٩ و ٦٠ ط بولاق سنة ١٩٥٣ - ورف : برق وتلاذ -
والسرر : بضم ففتح جمع سرّة بضم أوله وتشديد ثانيه مع الفتح وهى ، مكان السر من الصبى الذى
تقطعه القابلة ، وهو هنا على التشبيه - والقرارة : ما اطمان من الأرض - والذلاذل : أسافل
القميص - والثيرات : النجوم - والأزهر : البسر الملون - والإهانة : عرجون البلخ -

رفت الأرض في مواكب آذا روشب الزمان في عنفوانه
نزل الروض ضاحك البشر بمشى فيه مشى الأمير في بستانه... (١)
ومن مناجاته للنيل :

من أى عهد في القرى تتدفق وبأى كف في المدائن تغدق
ومن السماء نزلت أم فجرت من عليا الجنان جداولاً تترقق
وبأى عين أم بأية مزنة أم أى طوفان تفيض وتنفق
وبأى نول أنت ناسج بردة للضفتين جديدها لا يخلق
تسود ديباجا إذا فارقتها

فإذا حضرت اخضوضر الإستبرق... الخ (٢)

ومن مناجاته لأبي الهول :

أبا الهول طال عليك العصر وبلغت في الأرض أقصى العمر
فيالدة الدهر لا الدهر شب ولا أنت جاوزت حد الصغر
إلام ركوبك متن الرمال لطي الأصيل وجوب السحر
تسافر منتقلا في القرون فأيان تلقى غبار السفر
أبنيك عهد وبين الجبال نزولان في الموعد المنتظر... الخ (٣).

وحافظ إبراهيم - وإن لم يكن في المقدمة بين وصاف الطبيعة المصرية - مع أنه شاعر النيل - أفلتت منه بعض أبيات دال فيها على تأثيره بمشاهدة الطبيعة . ومنها قصيدته الرائية الجيدة التي نظمها بمناسبة رحلته إلى إيطاليا عام ١٩١٣ م . وجمع فيها بين وصف مشاهد مصرية وغربية ، مع الموازنة بينهما . ومن أبداع قوله وصفه منظر البحر الثائر تحت السفينة « اسبيريا » ووصف بركان فيزوف ، وشمس إيطاليا وشمس مصر . ولعله أوحده شعراء العربية في هذا الاتجاه . وقد بدأ القصيدة بببيت هو منها كأنه العنوان . فخذ عن العاصف وشدته ،

والبحر وثورته ، وتوالى أمواجه ، وتلاعبه بالسفينة ، رثبات السفينة وقوة عزيمتها ، قال :

عاصف يرتنى وبحر يغير أما بالله منهما مستجير
وكأن الأمواج وهى توالى محنقات أشجان نفس تثور
أزبدت ثم جرجرت ثم ثارت ثم فارت كما تفور القدور
ثم أوفت مثل الجبال على الفلك ولللك عزمة لا تخور
تترامى بجؤجؤ لا يسالى أمياه تحوطه أم صخور
أزعج البحر جانبيها من الشد فجنب يعلو وجنب يغور
ويوازن بين شمس مصر وشمس إيطاليا ، وبين جو مصر وجو إيطاليا. فيقول
فى طرافة :

شمسهم عادة عليها حجاب فهى شرقية حوتها الخدور
شمسنا عادة أبت أن توارى فهى غربية جلاها السفور
جوهم فى قلب واختلاف غير أن الثبات فيهم وفيه
جوننا أثبت الجواء ولكن ليس فينا على الثبات صبور^(١)
وقد ساق حب المطابقة إلى هذه الدعوى التى ادعاها الشاعر فى الشطر الأخير ،
ولا أساس لها من الصحة . وليست هذه هى المرة الوحيدة التى يوقع حب المطابقة
هذا الشاعر الكبير ، ، ويورطه فى مزاعم غير صحيحة فى إطلاقها . فقد أراد أن
يمدح مرة المرحوم أحمد لطفي السيد ، فقال له :

يا كاسى الأخلاق فى بلد عن الأخلاق عار

(١) راجع ديوان حافظ - جرجرت : صوت وزجرت : والجرجرة صوت البعير فى حنجرته ،
وصب الماء فى الخلق - والجؤجؤ : الصدر ،

ثانيا : فى البيئة السياسية

والأحداث السياسية فى الوطن ، من أمس الأحداث بعواطف أهله ، ومن أوثقها صلة بمشاعرهم . ولاعجب ففى ذات هتات بصميم حيانهم المادية والمعنوية . فإذا كانت ذات صلة بمطامعهم ومشاربهم وبثروة بلادهم وخيرات وطنهم ، ففى ذات صلة بحرينهم وكرامتهم وشرفهم وأعراضهم . ولذلك ترى لها رجعا بعيدا وصدى بارزا فى شعر شعرائهم ، أو ينبغى أن يكون لها هذا الرجوع والصدى .

إلا أن الحرية السياسية إذا كانت مكفولة للشعراء وغير الشعراء فى أحد الأوطان ، أو غامر الشعراء وقامروا بمصائرهم ، ولم يبالوا حاكما ظلما أو أميرا جائرا ، كان ذلك أدعى إلى انطلاقهم وإلى اندفاع أسنتهم بالقول السائغ فى هذه الأحداث يسجلونها ويسجلون وقائعها وتفصيلها واتجاهاتها . وما يكون لذلك من أدلة وعلل ، وما تضطر إليه من مناقشة أو مجادلة ومحاجة . وحينئذ ترى نتائجهم مرآة صادقة لبيئتهم السياسية وما يتصل بها من حماسة ونفر ووصف وغيره .

فإذا لم تكن هناك حرية متاحة أو مغامرة جادة ، كان ذلك أوعى إلى كبت المشاعر وسجن الحواطر . فيخسر الأدب والتاريخ بذلك خسارة لا تعوض . وحينئذ لا ننظر باللون السياسى فى الشعر إلا من جانب واحد ، هو الجانب الذى يرتضيه الحكام القائمون والأمراء المحكمون .

ويتناول شعر البيئة السياسية أحداث الوطن فى داخله وخارجه . كما يمتد إلى كل لون من الشعريكون الحاكم ، وتصرفه محرراً أساسيا يدور حوله . لذلك يدخل فيه المديح وما قد يحمر إليه من نفر أو هجاء أو رثاء أو نحوه .

ويربط الأستاذ عمر الدسوقي بين شعر البيئة السياسية فى مصر ، وبين وصف الطبيعة المصرية والتغنى بها ربطا طريفا ويرى أن شعراء مصر فى العصور المتأخرة

لم يلتفتوا إلى الطبيعة المصرية وما فيها من جمال وفتنة ، اعدم شعورهم الوطنى أو إحساسهم القومى لأن هذا الشعور أو الإحساس من شأنه أن يدفع إلى الإعجاب بطبيعة البلاد فحبتها والتعلق بها . (١) وهو تعليل جميل .

وشعر البيئة السياسية فى الجاهلية . يتمثل أوضح ما يتمثل ، فيما نظمه شعراؤها فى معاركهم القبلية .

وقد يعتبر هذا الشعر القبلى لونا من الشعر الاجتماعى ، لأنه نتيجة انزاع فى مجتمع واحد ، ولكن إذا اعتبرنا أن كل قبيلة كانت تعيش كأنها دولة صغيرة ومجتمع مستقل ، بدا لنا النزاع المحتمل بين القبائل ، نزاعا سياسيا ، وبدأ شعره لونا من الشعر السياسى . فلا بأس من التوسع فى اعتباره هكذا ، على هذا الأساس .

فقد كان العرب حينذاك يعيشون قبائل متفرقة منازعة ينجم الخلاف بينها لأنفه الأسباب بسبب أرض أو مرعى أو مفاخرة أو مراهنه أو استعلاء أو نأر أو عشق أو نحو ذلك . وكثيرا ما كان يقوم على أثر هذا الخلاف حروب مبررة ومعارك دامية يخوضونها أبطالا صناديد وفرسانا مغاوير . وقد تشدد شدتها وتطول مدتها ، حتى تصل إلى أربعين عاما — مثلا — كحرب البسوس وحرب داحس والغبراء ، وتجد هذه الحروب والمعارك لدى شعراء القبائل المحتربة استجابة سريعة حادة متحمسة ، وتهز خواطرهم هزا عنيفا ، فينظمون فى وصفها ووقائعها وانتصاراتها وبطولاتها .

وكان الشعراء فى قبائلهم ألسنتهم الداعية وصحفهم المنشرة ومقاوهم الزادة ، يسجلون ويخلدون ويهددون ويتوعدون ، دفاعا عن شرف القبيلة وعرضها ومالها .

يقول ابن رشيق : « كانت القبائل من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها . وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون فى

الأعراس . ويتباشر الرجال والولدان . لأنه حماية لأعراضهم وذب عن أحسابهم
وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكورهم ، (١)

ومن أشهر حروب الجاهلية - كما أشرنا - حرب داحس والغبراء ، وكانت
بين عيس وذبيان ، بسبب رهان بين هاتين الفرسين .

ومن أشهر حروب الجاهلية أيضاً حرب البسوس . وكانت بين بكر وتغلب
ابني وائل . وكان كليب التغلبي ذا زهو وصلف وتيسه ، وكان فارساً صنديداً
اجتمعت له معد كلها ، وجعلوا له قسم الملك وتاجه ونجيته وطاعته . وبلغ من بغية
أن كان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه . ولا تورد إبل مع إبله ، ولا توقد
نار مع ناره . وكان قد تزوج جلييلة بن مرة بن ذهل بن شيبان . وأخوها جساس
ابن مرة . وكان لجساس خالة تدعى «البسوس» بنت منقذ التميمية ، وكانت قد نزلت
في حماه . ففرت إبل لكليب فتفلتت ناقة البسوس واختلطت بإبله فوردت معها
على حوضه ، فرآها كليب فأناكرها ، وصوب إليها قوسه فأصمأها وخرم ضرعها .
فنفرت الناقة وهي ترغو . وانتهت إلى البسوس ، فصرخت هذه وقذفت خمارها
عن رأسها وصاحت «واذلاه واجاراه» وأنشأت تقول :

لعمري لو أصبحت في دار منقذ لما ضم سعد وهو جار لأبياتي ... الخ
فلما سمعها جساس سكتها وقال : «والله لية تلبن غداً جمل عظيم أعظم عقراً
من ناقتك» . وترقب جساس فرصة في كليب فطعنه فأذراه .

وكان المهلهل أخو كليب شاعراً وفارساً ، ولكنه كان منصرفاً إلى معاقرة
الخمر والنساء اتسكلاً على أخوه كليب . فلما قتل كليب هاجت هائجته وثارت
فأثرته . وأخذ يجمع للفتك ببني بكر . ويندب أخاه ويرثيه بأكثر من مريثة ،
ومن أبيانه :

كليب لا خير في الدنيا ومن فيها إذا أنت خليتها فيمن يخليها .. الخ

(١) العمدة لابن رشيقي ج ١ ص ٤٩ باب احتواء القبائل بشعرائها .

وتعددت لقاءات بنى تغلب بقبيلة بنى شيبان البكرية ، ومن انحاز إليها من قبائل بكر ، وتكررت أيامهم ، ومن بينها يوم واردات ويوم الذنائب ويوم عنيزة ، وكانت لتغلب على بكر وقد وصفه كليب ووصف غيره من الأيام في قصيدة طويلة أولها :

أليتنا بذى حسم أنيرى إذا أنت انقضيت فلا تجورى
وكان الحارث بن عباد البكرى قد انقبض في أهل بيته عن مشاركة بنى شيبان في الحرب ، وقال : « لا ناقة لي في هذا ولا جمل » . حتى اجتمعت إليه قبائل بكر ، بعد أن أثنى فيهم التغليبيون ، وقالوا له : « فنى قومك » ! فأرسل الحارث - ابنه أو ابن أخيه - بجير آ إلى مهلهل . وقال له : « قل له إنى اعتزلت قومي لأنهم ظلموك وخليتك وإياهم . وقد أدركت ثارك وقتلت قومك » . فأنابه بجير ، فقتله مهلهل وقال له : « بوشسع نعل كليب » . فلما علم الحارث بقتله ، قال : نعم القتل ودى بين الأخوين . ثم علم بأن المهلهل قتله بشسع نعل كليب ، فهاج وغضب وثار واستعد لحربه . وكان فارساً مغواراً وله فرس اسمها « النعامة » ، فانطلق ينشد :

لهف نفسى على بجير إذا ما جالت الخيل يوم حرب عضال
ويقول :

قتلوه بشسع نعل كليب إن قتل الرجال بالشسع غال
يا بجير الخيرات لا صلح حتى نملأ البيد من رءوس الرجال

ويقول :

قربا مربوط النعامة منى لفتت حرب وائل عن حبال .. الخ (١)
واقتراد الحارث بن بكر وحمل على التغليبيين حتى هرب مهلهل وتفرقت

(١) الحرب العضال : الشاقة المعيبة - والشسع : قبال النعل ، بكسر القاف ، وهو زمام بين الأصبع الوسطى والتي تليها - ولقتت الحرب : كناية عن استعدادها للشر والامتداد ، ولقتت الناقة قبلت اللقاح . - والحبال : أن يحمل الناقة فلا تلقح .

قبائل تغلب وكادت القبيلتان تفتيان في حرب مبيدة طاحنة حمقاء استمرت زهاء أربعين عاماً (١) .

ومن أشهر حروب الجاهلية أيضاً حروب امرئ القيس الشاعر - ابن أخت مهلمل - ضد بني أسد . وكان أبوه حجر مملكا عليهم يدينون له بالطاعة ، كما دانت قبائل مضرية كثيرة لإخوته من أمراء كندة اليمنيين .

وكان حجر قد ظلم بني أسد واستبد بهم وضربهم بالعصا حتى سموا « عبيد العصا » . فناروا به وقتلوه . وكان قد أوصى بمتاعه لمن لا يجزع عليه من بنيهِ . فكلهم جزع وبكى ، ما عدا امرأ القيس . وكان الخبر قد انتهى إليه وهو بدمون يلعب الزرد . فلم يأبه للناعى ، حتى انتهى من لعبه . ثم التفت إلى الناعى ، وقال له : « ضيعنى صغيراً وحملنى دمه كبيراً . اليوم خمر وغداً أمر ، لا صحو اليوم ولا سكر غداً ، وأنشده :

خليلي ما في اليوم مصحى لشارب ولا في غد إذ ذاك بالكاس نشرب
وقال :

أرقت لبرق بليل أهل يضىء سناه بأعلى الجبل
أتانى حديث فكذبته بأمر تززع منه القل
بقتل بني أسد ربهم ألا كل شيء سواه جلل . . الخ
وبموت حجر بدأ امرؤ القيس عهداً جديداً من عهود حياته الواقعية والشعرية . وهب للأخذ بتأرابيه من بني أسد . وجمع لهم السلاح والجنود مستعيناً بأعمامه وغيرهم . ومثل شعره في هذه الحقبة تطورات الحرب وألوان الاتصال بينه وبين بني أسد وغيرهم من اقتضت الحرب الاتصال به .

(١) خزنة الأدب للبندادى ج ٢ في الشاهد ١١٠ - والعقد الفريد ج ٣ « كتاب الدرر الثانية في أيام العرب ووقائعها » .

ووفد عليه وفد بنى أسد وفيهم الشاعر عبيد بن الأبرص ، والمهاجر بن خدّاش
وقبيصة بن نعيم ، رغبة في مصالحته ؛ فأبى إلا الحرب ، فطلبوا النظرة حتى تضع
الحوامل فقال لهم : « أما النظرة فقدأ وجبت لها الأجنة في بطون أمهاتها وإن أكون
لعطبا سديا . وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك ، تحمل في القلوب حنقا ،
وفوق الأسنة علفا :

إذا جالت الخيل في مازق تصافح فيه المنايا النفوسا
فانصرفوا عنه وقبيصة يقول له :

لعلك أن تستوخم الموت إن غدت كئائبنا في مازق الموت تخطر
ودهم أمرؤ القيس بنى كنانة يحسبهم بنى أسد - وكان هؤلاء قد رحلوا -
فقال له بنو كنانة لسنا لك بشأر ، فقال يذكر بنى أسد ، ومعهم علباء بن الحارث
قاتل أبيه :

ألا يالطف هند إثر قوم هم كانوا الشفاء فلم يصابوا ... الخ
وما زال حتى رأى أتباعه من بنى بكر وتغلب ، أنه قد بلغ ثأره . فلم يقتنع .
فانصرفوا عنه . فأمدّه « مرثد الخير بن ذى جدن الحميري ، - وهو أحد أقبال
اليمن ، وكانت له به قرابة - بنحو خمسمائة مقاتل . ثم استأجر أناسا .
وظفر بنى أسد ، كما قال في شعره :

يادار ماوية بالحائل فالسهب فالخبتين من عاقل
ومنها قوله :

قولا لدودان عبيد العصا ما غرّم بالأسد الباسل
قد قرت العينان من مالك ومن بنى عمرو ومن كاهل
ومن بنى غنم بن دودان إذ نقذف أعلام على السافل
ومنها :

نطعنهم سلكى ومخلوجة لفتك لأمين على النابل ... الخ

وقد أنكر عليه عبيد بن الأبرص قائلا :

يا ذا الخُـ____ وفنا بقتل أيمه إذلالا وحينما
أزعمت أنك قد قتلت سرائنا كذبا ومينا... الخ
إلى آخر هذه القصة. (١)

وعلى هذا الغرار ، مضت أيام العرب ووقائدها ، بين قبائلها . ومنها ما كان بين
الأوس والخزرج ، وبين العرب والعجم .

وفي خارج إطار هذا النزاع القبلي ، نجد بعض شعراء الجاهلية ، يقصدون أمراء
العرب بالحيرة أو الشام ، يمتاحون كرمهم ، ويثشدون عطاءهم ؛ ويشيدون
بمكارمهم ، كالنابغة وعلقمة وحسان ، في رحيلهم إلى المناذرة والغساسنة .

ويتمثل شعر البيئة السياسية في صدر الإسلام ، في الشعر الديني الذي نظمته
الطرفان المتنازعان في سبيل الدعوة الجديدة : المسلمون من جانب ، والمشركون
من جانب . يتبادلون المفازر ، ويصفون الحروب .

واستمر ذلك حتى دخل العرب في دين الله أفواجا . فاتجه الشعر إلى الحديث
عن الفتوحات ، وعن الأحداث الجلي في عهد عثمان وعلى ، رضى الله عنهما .

ولنا أن نعتبر هذا الشعر - أيضا - من وحى البيئة الاجتماعية ، على أساس
أن النزاع الديني ظاهرة من ظواهر المجتمع ، وحالة من حالات أهل محلة واحدة .
ولكننا نرى أيضا إلى جانب ذلك ، أن الدعوة الإسلامية لم تكن كأي نزاع
ديني في مجتمع واحد . لأنها امتدت إلى أصول الحكم وقواعد السياسة ، وقوضت

(١) راجع سيرة امرئ القيس في شعراء النصرانية ج ١ ص ٦ - وفي الأدب العربي وتاريخه
في الجاهلية لمحمد عبد المطلب - وفي العقد الفريد « أيام العرب » - وفي خزنة الأدب للبغدادى -
وفي كتب المقاتلات .

والسلبى : يضم فسكون ؛ الطغنة المستقيمة - والخلوحة : الطغنة ذات اليمين وذات الشمال - واللام
السهم عليه ريش - والنابل : الخاذق بالنبل أى ضرب النبال .

دعائم النظام القبلى ، ووحدت العرب فى دولة ، وجعلت لهم خلافة ، إلى غير ذلك مما لونها باللون السياسى إلى حد بعيد .

وخير من يمثل هذه الحقيقة من شعراء المسلمين ، حسان بن ثابت الأنصارى ، الذى كان حينذاك شاعر الرسول عليه الصلاة والسلام .

ومن قوله يرد على أبى سفيان ، فى همزيته :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى مغلغة فقد برح الخفاء
بأن سيوفنا تركتك عبداً وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله فى ذلك الجزاء
فإن أبى ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاه

وكان عبد الله بن الزبعرى ، قد هجا المسلمين بعد غزوة أحد ، وذكر هزيمتهم ، ووجه حديثه إلى حسان وهو قريعه ، فقال :

يا ذرأب البين أسمعت فقل إنما تنطق شيتنا قد فعل
ويقول :

أبلغنا حسان عنى آية فقريض الشعر يشفى ذا العلل
ويقول :

ليت أشياخى ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل . . . الخ
فأجابه حسان من بحره وروبه ، يسفمه ويرد عليه قوله :

ذهبت بابن الزبعرى وقعة كان منا الفضل فيها لو عدل
واقصد نلتهم وولنا منكم وكذلك الحرب أحيانا دول

إذن شددنا شدة صادقة فأجأناكم إلى سفح الجبل ... الخ (١)

ومهما يكن من شيء فمذا حسان بن ثابت الأنصارى يسجل غدر الأنصار
بعثمان بن عفان الخليفة في يوم مقتله ، ويعيرهم بعدم النهوض لمعاونته ضد الثائرين
عليه في يومه الايوم - وقد كانت الثورة بسبب سياسة عثمان - مستثنياً منهم
بنى عمرو بن عوف التي وفّت بنذرهما بمعاونتها لأبي عبد الله الزبير في تلك الحادثة .
فقال حسان مصوراً بعض جوانب اليوم ، وبعض مشاهد الحادث :

أوفت بنو عمرو بن عوف نذرهما وتلوث غدرنا بنو النجار
وتخاذلت يوم الحفيظة إنهم ليسوا هنالك من الأخيار
ونسوا وصاة محمد في صهره وتبدلوا بالعز دار بوار
أتركتموه مفرداً بمضيعة تلتابه الغوغاء في الأمصار
لهفان يدعو غائباً أنصاره يا ويحكم يامعشر الأنصار
هلا وفيتم عندها بعهودكم وفديتم بالسمع والأبصار
جيرانه الأدنون حول بيوته غدروا ورب البيت ذى الأستار
إن لم تروا مدداً له وكتيبة تهدي أوائل جحفل جرار
فعدمت ما ولد ابن عمرو منذر حتى ينيخ جموعهم بصرار (٢)

قد أسس الإسلام إذن ، من قبائل العرب دولة موحدة منظمة ، وقرر لها
دعائها السياسية والاجتماعية أرقى ما تكون الدول وتؤسس . فكان لذلك صدى
في شعر البيئتين السياسية - ولا ريب - فقد حول النزاع القبلي الصريح إلى نزاع
حول الدولة .

(١) راجع ديوان حسان بن ثابت ، حرف الهمزة واللام - والمختلة : الرسالة المحمودة من بلد
ألى بلد - والأسئل : جمع أسئلة ، وهى الرماح - وأجأه : أرغمه على الحرب .
(٢) ديوان حسان بن ثابت - والصرار : كسحاب أو كتاب ، واد بالحجاز .

وختم عصر صدر الإسلام بهذه الفتن الطاغية والخلافات المستعرة ، فقتل عثمان ووقع الخلف بين علي ومعاوية وانتهى الأمر بأن حارب المسلمون بعضهم بعضاً ، ثم وقعت خدعة التحكيم ، وانشق جيش علي شعبتين ، ثم قتل علي غيلة . وخلص الملك لمعاوية ، فأنس دواته الأموية عام ٤٠ هـ .

وورثت هذه الدولة الجديدة رقعة من الأرض واسعة ، وممالك فسيحة فتحت في عهد عمر رضي الله عنه . وهي جنات في الأرض أنشأها الله : مصر والشام والعراق وفارس . فعملت على توسيعها والإضافة إليها حتى امتد ملكها من الأندلس والمحيط الأطلسي إلى أواسط آسيا وحدود الهند والصين .

وكانت مثقلة بأسباب الفتن والعصبيات والحزبيات ، وعمل بنو أمية على تغذية العصية ، فعادت العصية جذعة متشعبة ، بين اليمنيين والمصريين ، وبين العرب والعجم ؛ بل وبين بعض العلماء وبعض . وصارت الحزبية مدار سياسة الناس والدولة . وبرزت أربعة أحزاب قوية متنافسة كان لكل منها أثره في كيان الدولة وحياة الناس . وهي متنافسة يناهض بعضها بعضاً ، ولكل منها رأي في الحكم والخلافة ، ولكل منها أتباعه وأشياعه ، ولكل منها خطباؤه وشعراؤه ، كالأخطل من شعراء بني أمية ، وكالكهميت من شعراء آل البيت ، وكعبيد الله بن قيس الرقيات من شعراء آل الزبير ، وكالطرماح بن حكيم من شعراء الخوارج . وامتزجت في أشعارهم الآراء السياسية والمدح والفخر والحماة والهجاء إلى حد كبير .

وكانت حجة الأمويين في أحقية الخلافة والملك أنهم طلاب ثار عثمان ، وأنهم من قريش ، وأنهم أكفاء وأهل حزم وحسن تدبير وكرم وبراعة . لذلك نجد شاعرهم « الأخطل » يمدح عبد الملك بن مروان ، فيصف بني أمية بالأصالة والذود عن الحق ، والصبر على المكروه ، وحسن الرأي وسعة الحيلة ، وعناية الله

بهم ، وقسوتهم على أعدائهم ، حتى يستسلموا لهم ، فيحلبوا عليهم ، يقول :

في نبعة من قریش يعصبون بها ما إن يوازي بأعلى نبتها الشجر
حشد على الحق عيافو الخنا أنف إذا أملت بهم مكروهة صبروا
وإن تدجت على الآفاق مظلمة كان لهم مخرج منها ومعتصر
أعطاهم الله جـداً ينصرون به لا جد إلا صغير بعد محتقر
لم يأسروا فيه إذا كانوا موالية ولو يكون لقوم غيرهم أسروا
شمس العداوة حتى يستفاد لهم وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا (١)

وتقوم حجة العلويين وآل البيت في أحقية الخلافة والملك على أنهم من بيت
الرسول عليه السلام ، وأقرب الناس إليه . وأنهم من صميم قریش ، وأن
الحديث الشريف يقول : الخلافة بين قریش ، وأنهم أبلوا في نصرة النبي والدين
أحسن البلاء وينفون حجة الأمويين في قولهم : إن النبي لا يورث . . .

وفي هذه المعاني دارت أشعار شعرائهم ، ويقول السكيت من إحدى هاشمياته
وهي مطولته البائية المشهورة :

يقولون لم يورث ولولا تراثه لقد شركت فيه بكيل وأرحب
وعك ولختم والسكون وحمير وكندة والحيان بكر وتغلب

ويقول مبينا بلاء آل البيت في نصرة الرسول عليه السلام :

هم شهدوا بدرأ وخير بعدها ويوم حنين والدماء تصيب
وهم رموها غير ظئر وأشبها عليها بأطراف القنا وتحذبوا

(١) ديوان الأخطل . - والشعر السيابي للأستاذ أحمد الشايب ص ٨ - والأخطل شاعر بني أمية
للدكتور السيد مصطفى غازي ص ١١٧ - والنبعة : واحدة النبع وهو شجر اللقيش واليهام يثبت في قلة
الجل - وهي هنا على التشبيه - يعصبون بها : يشدون بها ويحمون - الأنف : الأبهة - والمعتصر :
المخرج - والشمس : بضم أوله جمع أشمس وهو الجوح الأبى .

فإن هي لم تصلح لحي سواهم فإن ذوى القربى أحق وأقرب.. الخ (١)

وكان عبد الله بن قيس الرقيات يحتج لقريش وينادى بالاعتزاز بها ، على أن تكون الأمور بيد آل الزبير ، منكرًا أن يعتمد بنو أمية على العينية . ساخطا على هذه الفرقة القرشية :

حبذا العيش حين قومي جميع لم تفرق أمورها الأهواء
قبل أن تطمع القبائل في ملك م قريش وتشمت الأعداء
أيها المشتكى فناء قريش بيد الله عمرها والفناء
إن تودع من البلاد قريش لا يكن بعدهم لحي بقاء
ويمدح مصعب بن الزبير فيقول :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قوة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء ... (٢)
ويقول في بني أمية :

أنا عنكم بني أمية مزور وأتم في نفسي الأعداء
ومن الطريف أن تدور الأيام دورتها ويضطر عميد الله بن قيس الرقيات هذا
إلى مدح عبد الملك بن مروان بعد مقتل مصعب فيقول :

إن الأغر الذي أبوه أبو العاصي عليه القباب والحجب
يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب (٣)

(١) هاشميات السكيت ص ٢٠ ، ٢١ - والشعر والشعراء لابن قتيبة - والأغاني - ورموها : عطفوا عليها ولزموها ، وقد رثت الناقة ولدها ، عطف عليه ولزمته - والظئر : العاطقة على ولد غيرها ، المرضعة له في الناس - وأشبأوا عليها : عطفوا عليها وأعانوها - وتحذبوا : تعافوا وتعطفوا .
(٢) الشعر السياسي للأستاذ الشاذ ص ٢١١ وما بعدها ، والمنتجب للدكتور طه حين وآخرين ج ٢ ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

فينقده عبد الملك ويقول له : تمدح مصعبا بأنه شهاب من الله ، وتمدحني كأنتي
ملك العجم . . .

ويركن شعراء الخوارج إلى التمسك بتقوى الله والتعلق بتعاليم القرآن
الكريم وبأنه لأفضل لأمرى على آخر إلا بتقوى الله ، ولا دخل للنسب ولا الحصب
ولا الجاه في ولاية الحكم . وأن الخلافة يليها الآتي ولو كان عبدا حبشيا ،
وكانوا إلى الحماسة والفداية أقرب .

وهذا أحد شعرائهم : « الطرماح بن حكيم » يقتاد جواده ويقذف بنفسه في
المهاالك فرارا من بطش الخلفاء ، مغامرا في سبيل نصرة مبادئه ومبادئ حزبه
حتى الموت . وهو نموذج لكثير من أبطال الخوارج . يقول :

وإني لمقتاد جوادى وقاذف به وبنفسي العام إحدى المقاذف
لا كسب مالا أو أوول إلى غنى من الله يكفيني عداة الخلائف
فيارب إن حانت وفاتي فلا تكن على شرجمع يعلى بخضر المطارف
ولسكن قبرى بطن نسر مقيله بجو السماء في نسور عواكف . الخ (١)

وحل العباسيون في الملك والخلافة محل الأمويين ، إذ دالت دولتهم عام
١٣٢ هـ . ولم تدل معهم العصية ولا الحزبية وبرزت المناهضة بين العباسيين
والطالبين ، وبين العرب والعجم « الشعوبيين » . وكان لذلك صدى في الشعر .

ويحتج مروان بن أبي حفصة للعباسيين على الطالبين بقانون الميراث
الإسلامي ، فيقول إن بني البنات لا يرثون كما يرث الأعمام . ومعنى ذلك أن
العباسيين أحق بالخلافة من الطالبين .

ولما عقد المهدي البيعة لابنه الهادي ، قال مروان بن أبي حفصة يمدح المهدي :

(١) المنتخب ج ١ ص ٧٢، ٧٣ - والشرح : الكرسي المستطيل - والمطارف : الوسائد الحريرية .

يا ابن الذى ورث النبی محمدا دون الأقارب من ذوى الأرحام
الوحى بين بنى البنات وبينكم قطع الخصام فلات حين خصام
مال للنساء مع الرجال فريضة نزلت بذلك سورة الأنعام
أنى يكون - وليس ذاك بكائن - لبنى البنات وراثۃ الأعمام (١)

فغضب الطالبون من مروان ، ورد عليه شاعرهم محمد بن يحيى بن أبى مرة
التغلبى يقول :

لم لا يكون وإن ذاك لسكائن لبنى البنات وراثۃ الأعمام
للبنات نصف كامل من ماله والعم متروك بغير سهام (٢)

ودعبل الخزاعى كان شيعيا يمدح العلويين ويهجو العباسيين . ويقول متعجبا
متوجعا ، فى مدحة مدح بها على بن موسى الرضا ، بخراسان :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات
آل رسول الله بالخيف من منى وبالركن والتعريف والجرات
أرى أيتهم فى غيرهم متقسما وأيديهم من فيهم صفرات
بنات زياد فى القصور مقيمة وآل رسول الله فى الفلوات (٣)

وضعفت نزعات السياسة رويدا رويدا ، وخبت جذوة مناهضتها للعباسيين
على الأسس السابقة . واستعان العباسيون بالفرس ثم الترك فى أعمال الدولة
وحمايتها . فدخلت عناصر جديدة . قضت على العصديات والنعرات العربية . واتجه
الشعراء حينذاك أكثر مما اتجهوا إلى خدمة الدولة والسير فى ركاب الخلفاء والملوك

(١) الشعر السياسى الأستاذ الشاذى ص ٦ - والمنتخب للدكتور طه حسين وآخرين ج ٢ ص ١٩٢ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الشعر السياسى ص ١١ .

والرؤساء والقادة ومدحهم والمناخنة عنهم والإشادة بأعمالهم ووصف فتوحاتهم وتمجيد شجاعتهم ، إلى غير هذا مما يشبهه .

واتصل - مثلاً - أبو نواس بالرشيذ والأمين . واتصل أبو تمام بالمعتصم ، والبحترى بالمتوكل ، والمتنبى بسيف الدولة الحمداني ، وصارت مدائحهم لهؤلاء سجلاً لكثير من أعمالهم في سبيل الدولة .

وقد كانت قصيدة أبي تمام في وصف فتح عمورية ، أعجوبة من أعاجيب المدح السياسي ، ونموذجاً رائعاً لوصف غزوة تمت في سبيل الدولة وفي سبيل دينها ، وفي سبيل عزتها ونفوذها . ومثلاً من أمثلة اتصال شعراء المدح بصميم العمل الرسمي .

وكان المنجمون قد أرادوا المعتصم على أن يؤجل موعد غزو المدينة إلى وقت أكثر مناسبة ، حسبما قرءوا في الطالع . . . فأبى واستخار الله وغزاها ، فقيض له الحظ النصر الكامل ، ففتحها ودك حصونها وأشعل النار فيها ، واستسلم له أهلها صاغرين . .

ويهزأ أبو تمام من المنجمين وكتبهم في مطلع قصيدته فيقول :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الفصائح لاسود الصخائف في متونهم جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماع لامعة بين الخنيسين لا في السبعة الشهب
أين الرواية بل أين النجوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
ويصف الحرب وبعض مشاهداتها فيقول :

لقد تركت أمير المؤمنين بها للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
غادرت فيهم بهم الليل وهو ضحى يشله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلايب الدجى رغبت عن لونها أو كأن الشمس لم تغب . الخ (١)

(١) ديوان أبي تمام - وهبة الأيام للبديعي نشر المرحوم محمود مصطفى .

والمتمني في مدح سيف الدولة الحمداني ، ووصف مغازيه أكثر من قصيدة ،
ومنها بائيته التي مطلعها :

فدياك من ربع وإن زدتنا كربا فإنك كنت الشرق للشمس والغربا
وفيها يذكر محاربة سيف الدولة للروم ، وفرارهم أمامه ، ويمدحه
ويذكر جهاده :

هنيئاً لأهل الثغر رأيك فيهم وأنتك حزب الله صرت لهم حزباً
وأنتك رعت الدهر فيها وربيها فإن شك فليحدث بساحتها خطباً
فيوماً بخيل تطرد الروم عنهم ويوماً بجود تطرد الفقر والجداً
سراياك تترى والدمستق هارب وأصحابه قتلى وأمواله نهبي
أنى مرعشا يستقرب البعد مقبلاً وأدبر إذ أقبلت يستبعد القربا
كذا يترك الأعداء من يكره القنا ويقفل من كانت غنيمته رعباً (١)

وأغلب شعر البيئة السياسية في الأوطان العربية ، يبدو أنه مشى على هذه
السنة أمداً طويلاً ، في جملة أمره حتى العصر الحديث . أعنى عصر النهضة بمصر .
بدأ هذا العصر بمجيء الحملة الفرنسية على مصر ، فبدأ اتصالها بالخارج الذي
كانت قد انقطعت عنه ، وانقطعت عنها أخباره منذ أمد طويل .

وقد كانت أهم دعائم النهضة استمرار اتصال مصر بالخارج بالبعثات التعليمية
واستيفاد الأساتذة ، وبالترجمة والنقل من الآداب والمعارف الأوروبية . ثم بانتشار
التعليم والمطابع والصحف ، وإقبال الشعب على الثقافة بأنواعها ، وإقبال
قاداته على تنبيهه وإيقاظه إلى حقوقه وواجباته السياسية والوطنية ، إلى
غير ذلك .

ولقد كان لذلك أثر كبير في يقظته السياسية ومطالبة الحاكين بمراعاة حقوقه

(١) ديوان المتنبي .

وضرورة اشتراكه في الحكم درءا للظلم ومنعاً للجور وضماناً لتحقيق المصلحة العامة . وتيسيراً لترقية مستوياته ، وتوصلاً إلى مستقبل أعز وأكرم .

وفي سبيل هذه الغايات الوطنية النبيلة ، قامت ثوراته المتتابعة من لدن ثورة عرابي عام ١٨٨٢ م إلى ثورة جمال عبد الناصر المباركة عام ١٩٥٢ م . وقد شهدت الأمة عدداً من أفذاذها وأعلامها الوطنيين الأبطال ، ممن عملوا على إسعادها ورفع شأنها وكسب حقوقها ومكافحة المستعمرين والحكام الفاسدين والمستغلين .

وانتهت ثورة عرابي بالاحتلال الإنجليزي المشؤم ، الذي ظل جاثماً على أنفاس المصريين أكثر من سبعين عاماً ، حتى طرده رجال ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ م بقيادة جمال عبد الناصر .

وكانت مصر في أوائل الاحتلال ذات صلة اسمية بتركيا ، وذات تبعية شكلية لها ، فكان يتداول عقول بعض أبنائها وقلوبهم ، الرغبة في الاستقلال ، والإبقاء على الصلة بتركيا ، توصلاً إلى إخراج المحتلين الإنجليز من أرضها .

وطالب أبنائها في ثوراتهم المتتابعة بإصدار دستور يجعل الشعب مصدر السلطات ، ليقضى بذلك على حكم الفرد الذي كان إحدى ذرائع الاحتلال . وصدر الدستور أكثر من مرة . وشهدت البلاد عدة هيئات نيابية في مناسبات عدة .

بسبب هذه الحالة قامت الأحزاب السياسية بمصر ، وتعددت وتعاادت وتنافست ، وتطورت بينها المنافسة حتى صارت سعيها إلى الحكم والوظائف وما زالت الأحزاب ذات أثر في حياة البلاد ومعايشها واتجاهاتها ، بل وصحفها وتعليمها وتعليماتها ، حتى قضت عليها جميعاً ثورة ٢٣ يوليو .

أعتقد أن الشعور بمصر في هذه الحقبة إلى يومنا - على الرغم من ظروف السياسة وصعابها - كان مرآة لهذه الحياة السياسية . ووجدت البيئة السياسية في شعرائها قلوباً مستجيبة وألسنة معبرة . وأن مجرّع مانظموه في المجال السياسي ،

يعبر إلى حد كبير ، عن هذه الحياة ، بآمالها وأحلامها ، وأدواتها ووسائلها ، وبماسادها من وفاق أو خلاف ، أو تعاون أو ائتمار ، أو هدف عام أو خاص . وما كان يتخللها من ثورات أو مفاوضات ، أو نحو ذلك .

ويضيق نطاق هذه الواجهة ، عن أن ترسم صورة صحيحة مكتملة ، لشعر البيئة السياسية في هذه الحقبة ، بل هذا يستأهل رسالة مستقلة . ونعتقد أن ماحظيت به البيئة السياسية من نتائج الشعراء ، أوسع مدى وأفسح دائرة ، مما كان منه في العصور الماضية .

ولعلك إن ترى شاعراً من شعراء مصر الحديثة ، عاش متوارياً جملة ، عن المجال السياسي ، ولم يدل بدلوه في الدلاء . إما بشعر سياسي خالص لوجه السياسة يشرح فيه وجهة نظر ، ويسوق أدلة . أو يصف حادثة وطنية ، وما صاحبها من المشاعر . أو يتجه إلى حزب معين فيمجّد بعض أعماله ، أو إلى الأحزاب جميعها فيخطبها في أمر يعمها ، وإما بشعر فيه مديح أو هجاء أو رثاء أو حماسة ، يصور فيه بطلاً وطنياً أو جباناً مارقاً إلى غير ذلك .

ومن لدن عرابي حتى اليوم ، والشعر الوطني والقومي ، وما يتصل به من الأغاني والأناشيد ، ينظم معبراً عن نزعات البلاد ووقائع سياستها رسالتها . وكذلك الشعر الهادف إلى الوحدة ، والداعي إلى جمع شمل العرب ، أصبح ، منذ ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ م ، في مقدمة ألوان الشعر التي يقبل عليها الشعراء لأنها تلمس من الجمهور المصري والعربي ، شغاف قلبه وأعصابه ، ويعبر عن آماله وعن عميق مشاعره ودقيق خواطره .

وقد خاض شعراء مصر ، غمار السياسة ، بشعرهم ، مستجيبين لنداء يهتفهم ، ومنهم : البارودي وشوقي وصبري وحافظ وعبد المطلب والجارم والرافعي ومحمّد الكاشف .

ويتفاوتون في العقيدة والمبدأ ، وفي الاتجاه والوسيلة ، وفي الظروف والملايسات . فليسوا جميعاً سواء .

لقد كان البارودي أحد المبكرين . وكان - وهو الشاعر الفحل ، والرائد الأسبق للشعر الحديث - فارساً مغواراً ، ومحارباً صنديداً ، وضابطاً في الجيش ومشاركاً في الثورة العراقية ، وأحد رجالها البارزين . وقد خاض جملة من الحروب عاناها وكابدها بنفسه . فوصفها ووصف معالمها ومشقاتها وبلاءه فيها ، ومن هنا كانت حماسياته ونفرياته ممزوجةتين . وقد وصف الحروب التي عاشها والثورة التي شارك فيها ، وتحدث عن دوره من وجهة نظره . إلى غير ذلك . .

يقول من قصيدة في وصف حرب إقريطش :

فالبدر أكدر والسماء مريضة والبحر أشكل والرماح دوان
والخيل واقفة على أرسائها لطراد يوم كرهته ورهان .. الخ (١)
ويعرض بالحاكم المستبد ، فيقول مهدداً متوعداً :

يا أيها الظالم في ملكك أغرك الملك الذي ينفد
أصنع بنا ما شئت من قسوة فالله عدل والتلاق غد
ويحاول أن يبرىء نفسه من تبعته في الثورة العراقية ، ويصف مبادرته إليها ثم تخاذل أصحابه ، وحنثهم بمواثيقهم ونصحه لهم :

دعوني إلى الجلي فقامت مبادرا وإني إلى أمثال تلك لسابق
فلما استمر الجدد ساقوا حمولهم إلى حيث لم يبلغه حاد وسائق
فلا رحم الله أمراً باع دينه بدنيا سواء وهو للحق راق

(١، ٢) راجع ديوان البارودي شرح الشيخ شريف ج ١ ص ١١٩ - راجع « في الأدب الحديث »
للأستاذ عمر الدسوقي ج ١ تحت عنوان « الشعر السياسي » - والأرسان : جمع رسن بفتحين الحبل ،
وما كان من زمام على الأنف .

على أننى حذرتهم غب أمرهم وأنذرتهم لو كان يفقه مائق (١)

وكان شوقي قبل عام ١٩١٤ م ، موظفاً بقصر الخديوى عباس الثانى ، ومقرباً إليه ، فكان بحكم مركزه هذا شاعر القصر يصدر عما يصدر عنه صاحبه . وكان عباس قد ترجح بين الحملة على الإنجليز وبين موادعتهم ، كما تقلب بين الرغبة فى تحقيق المطالب الوطنية ومعاونة زعمائها ، وبين إغفالها وإغفالهم .

فكان شعر شوقي فى هذا الميدان رجحاً - فى جملة - لسياسة عباس ولهاواه .

ولكنه بعد أن نفى إلى الأندلس ، وعاد إلى مصر ، وابتعد بحياته عن حياة القصر ، وتغيرت به أوضاع الحياة ، ولم يعد مرتبطاً بمنصب يخشى عليه من الضياع ، اتجه بجمع نفسه إلى الشعب ، فكان - فى جملة - شاعر الشعب فى هذا الميدان ، يرجع مشاعره ، ويعنى خواطره .

سافر سعد زغلول إلى أوروبا للمفاوضة ، فأطلق عليه أحد الشبان طلقاً نارياً ، وهو فى محطة القاهرة فأصابه . فرجع ولم يسافر ، وحمل للمعالجة . وضجت البلاد لهذا العدوان الآثم ، والتاعت التباعا بالغما . وخشيت على زعيمها آنذاك أن يناله الأذى ، وهو رمز آمالها .

وقد عبر شوقي عن شعورها إزاء هذا الحادث . كما صورته تصويراً جميلاً ، ورد فيه ما يردده الشعب من أحلام وآمال . قال فى نونيته :

نجما وتمائل ربانها ودق البشائر ركبائها
ويقول :

نجما نوحها من يد المعتدى وضل المقاتل عدوانها

(١) راجع ديوان البارودى ، شرح الجارم ، ج ١ ص ٢٥٣ - وج ٢ ص ٣٣٧ .

وقى الأرض شر مقاديره لطيف السماء ورحمائها
ونجى الكنانة من فتنة تهددت النيل نيرانها
وينعى على الشباب الجاهل اللاعب بالنار دون روية أو فطنة ، فيقول :
أرى مصر يلهمو بحمد السلاح ويلعب بالنار ولدانها
وراح بغير مجال العقول يجيل السياسة غلبانها
ويقول مخاطباً سعداً :

ويا سعد أنت أمين البلاد قد امتلأت منك أيمانها
فإن شئت فأروض وإن شئت دع فأنث الحقوق وميزانها
ولن ترتضى أن تفقد القناة ويبتز من مصر سودانها ... الخ (١)
ولما استفحل الخلف بين الأحزاب وعانت البلاد منه ما عانت ، عنفهم شوقى
تعنيفاً قاسياً ، فى قصيدة نظمها فى الذكرى السابعة عشر لمصطفى كامل ، فقال وهو
يعبر بذلك عن شعور الجماهير .

إلام الخلف يا قومى إلا ما وهذه الضجة الكبرى علاما
وفيم يكيد بعضكم لبعض وتبدون العداوة والخصاما
وأبن الفوز لا مصر استقرت على حال ولا السودان داما
وأبن ذهبتم بالحق لما ركبتهم فى قضيته الظلاما
لقد صارت لكم حكما وغنا وكان شعارها الموت الزؤاما .. الخ (٢)
واشوقى فى مجال السياسة أبيات وطنية سائرة منها قوله فى وصف الوطن
وجهه :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

(١) الشوقيات ج ١ ص ٣٣٢ - وصحيفة الأهرام لإثر الحادث .

(٢) الشوقيات ج ١ ص ٢٧٤

ومنه في حكم الفرد :

زمان الفرد يا فرعون ولى ودالت دولة المتجبرينا

ومنه في طلب الدستور ، مخاطبا الملك فؤدا :

فعجل يا ابن اسماعيل عجل وهات النور واهد الحائرنا

ومنه في الاحتياط لاسكراسى النيابة :

دار النيابة قد صفت أرائكم لا تجلسوا فرقا الأحجار والخشبا
إلى غير ذلك .

وفى مرائيه لأعلام الجهاد الوطنى سطور وطنية ناطقة معبرة عن خواطر
مصر وعمما يجيش بصدر أبنائها .

وكان شوقى - كمصر - ذا هوى فى العروبة والشرق والإسلام . ولم يقصر
عند كل مناسبة أن يظهر عواطفها إزاء هذه النواحي الثلاث . وفى عام ١٩٢٦ م
أقيمت حفلة لإغاثة منكوبى سوريا ، فنظم شوقى هذه القصيدة :

سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق
ومعذرة البراعة والقوافى جلال الرزء عن وصف يدق
ويقول :

وبى مرامتك به الليالى جراحات لها فى القلب عمق
ويقول ، وترى نزعة العروبة والوحدة فى أبياته :

نصحت ونحن مختلفون دارا ولكن كلنا فى الهم شرق
ويجمعنا إذا اختلفت بلاد بيان غير مختلف ونطق^(١)

ولحافظ إبراهيم في باب الشعر السياسي والوطني باع طويل وصرامة وصرامة .
وبخاصة قبل أن يوظف بدار الكتب ويحرص على وظيفته حرصاً عاق قلبه
ولسانه ، وكبت مشاعره الوطنية في صدره ، فندر إفصاحه عنها .
ومن أكثر قصائده الوطنية التساعاً وحرقة ، وأدقها تعبيراً عن مشاعر قومه ،
قصيدته في حادثة دنشواي المشهورة ، بعد صدور الحكم فيها . وقد سخر فيها من
الإنجليز سخرية شديدة وقال :

ليت شعري أتلك محكمة التفتيش عادت أم عهد نيرون عاداً
كيف يحلوا من القوى التشفي من ضعيف ألقى إليه القياداً
إنها مثله تشف عن الغيظ ولسنا لغيظكم أنداداً
وينعى على المدعى العمومي إبراهيم الهلباوي ، الذي أبدى الاتهام ، وكان
- وهو المصري - في صف أكاذيب الإنجليز . فكان هو موضع السخط من الشعب .
قال الشاعر يخاطبه :

أيها المدعى العمومي مهلاً بعض هذا فقد بلغت المراداً
قد ضمننا لك القضاء بمصر وضمننا لنجلك الإسعاداً
فإذا ما جلست للحكم فاذكر عهد مصر فقد شفيت الفؤاداً
لا جرى النيل في نواحيك يا مصر م ولا جادك الحيا حيث جادا
أنت أنبت ذلك النبت يا مصر م فأضحى عليك شوكا قتاداً
إلى قوله : أنت جلادنا فلا تنس أنا قد لبسنا على يدك الحداداً (٢)

ثالثا — فى البيئة الثقافية

وأثر الثقافة فى توجيه الآداب والشعر ، واضح ملموس ، سواء أكانت الثقافة محلية أم وافدة أجنبية ، واستجابتهما لأنواع الثقافة ، ظاهرة لا تنكر .

وقد كان للعرب فى جاهليتهم ، إمارات فى أطراف الجزيرة ذات حضارة ومدنية - كإمارات المناذرة فى الشرق ، وإمارة الغساسنة فى الشمال (١) ، وملك التبابعة فى الجنوب « اليمن » - فضلا عن مكة وعن المدينة « يثرب » ، الواقعتين على طريق تجارى قديم .

وكانت مكة ، بوجه خاص ، ونظراً لسوقها ووقوعها فى كنف البيت الحرام ، مركزاً للحركة التجارية قوية (٢) .

وبذلك على مبلغ حضارة الغساسنة ، أبيات حسان بن ثابت والنابعة الذبياني ، فيهم :

يقول حسان بن ثابت يمدحهم :

يمشون فى الحلل المضاعف نسجها مشى الجمال إلى الجمال البزل

ويقول :

يسقون درياق الرحيق ولم تكن تدعى ولائدهم لنقف الحنظل (٣)

ويقول النابعة الذبياني فى مدحهم :

(١) راجع أمراء غسان لنولدكه ، تعريب الدكتور بيدلى وآخر ، وبخاصة ص ٣٥ وما بعدها .

(٢) راجع تاريخ الفلسفة فى الإسلام للأستاذ ت . ج دى بور ، تعريب الأستاذ أبى ريدة ص ٣ و٤ .

(٣) البزل : جمع بازل وهو البعير الذى طلع نابيه . — والدرياق : التبراق والخمر — والرحيق : الخمر أو أطيبها أو أفضلها . — والنقف : شق الحنظل ،

رفاق النعمال طيب حجازاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب
تحييمهم بيض الولائد بينهم وأكسية الإضرخ فوق المشاجب (١)
أما حضارة اليمن ، فقد تحدث عنها القرآن الكريم في قوله تعالى : « لقد كان
لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، ...
فكانت البلاد ذات زرع وضرع ، وبناء وهندسة . وقد أقيم فيها سد مأرب
المشهور ، الذي هدمه سيل العرم ، في نحو عام ١١٥ قبل الميلاد .
وقد كشفت حديثاً بعض النقوش اليمنية ، وتبين منها شيء من تاريخ سكان
اليمن القدماء ، الذين كونوا بها دولا ذات حضارة من معينية وسبئية وحيرية ،
يرجع تاريخها إلى ما قبل الميلاد بعشرات السنين . وقد كانت لهم قدم راسخة في
المدنية ، وعرفوا بالبذخ والترف . لقد كانت حضارتهم وليدة التجارة ، وكانت
ترد إليهم السلع من الهند والصين وجزر الهند الشرقية وسواحل إفريقية . وكانوا
يفدون بها إلى الشام وإلى سواحل البحر المتوسط ، فأفادهم ذلك غنى وثروة (٢) .

أما أغلب عرب الجزيرة العربية ، فقد كانوا يعيشون في أرجاء الجزيرة ،
أميين لا يقرءون ولا يكتبون ، إلا قليلا منهم . وكانوا مع هذا ، على شيء من العلم
الضروري ، الذي تقتضيه حياتهم ومعيشتهم ، في وسط هذه الصحراء الواسعة ،
وذلك كعلم النجوم والطب عن طريق التجربة ، ومعرفة الأنساب ، وحفظ
الأخبار والسير والفراسة والرجز ، ونحو ذلك .

واعتقادنا أن هذه الألوان الثقافية ، كانت فردية ، ولم تكن عامة في متناول
كل إنسان . ويبدو أن التجربة والخبرة كانت أهم وسائل الثقافة . لذلك نجم من

(١) الحجة . معقد الإزار . وهو الوسط والخاصرة - ويوم السباسب ، هو يوم السمانين وهو
من أعياد النصراني وكان من أيامهم - والإضرخ : الخز الأحمر - والمشاجب : ما يعلق عليه الثياب .
(٢) راجع « النابغة الذبياني » لعمر الدسوقي ص ٧ و ١٣ و ١٤ و ٢٤ و ٢٥ و راجع هامشها .

بينهم حكماء عقلاء ، وشعراء ممتازون ، يدل شعرهم على عقل حصيف ، وحس مرهف ذى ثقافة ومعرفة .

ولعل أثر الثقافة الجاهلية فى الشعر ، يبدو فى هذه المحاجة ، التى وقعت بين عبيد بن الأبرص وامرئ القيس - إذا صحت روايتها - ولعلها أقدم محاجة أو ملاءزة أدبية ، نسبت لأديب :

وقد قيل إن عبيد بن الأبرص ، كان يوجه السؤال إلى امرئ القيس ، عن شئ يعمله عليه بصفات غامضة واسعة الاحتمالات ، فيجيبه امرؤ القيس ، مفصحا عن حقيقة المسئول عنه .

وكانا قد تلاقيا . فقال له عبيد : وكيف معرفتك بالأوابد ، ؟ . فقال : وقل ما شئت تجدنى كما أحببت ، . فقال عبيد :

ما حية ميتة قامت بميتها درء ما أنبت سنا وأضراسا
فأجابه امرؤ القيس :

تلك الشعيرة تسقى فى سنايلها فأخرجت بعد طول المسكك أكدا سا
فقال عبيد :

ما السوء والبعض والأسماء واحدة لا يستطيع لهن الناس تمسا سا
فأجابه امرؤ القيس :

تلك السحاب إذا الرحمن أرسلها روى بها من محول الأرض أيباسا^(١)

ولعل أثر الثقافة أو التجربة ، باد أيضا فى حكمة زهير بن أبى سلى . وبخاصة فى معلقته . وهى تدل على رجاحة عقل . ودقة نظر ، وعمق فهم لطبائع الناس وأخلاق المجتمع وحاجاته . مع معرفته بالله وباليوم الآخر . ويعد بعض حكمه من إرهاصات النبوة الجديدة .

(١) راجع شعراء النصرانية ج ١ ص ٩ ط بيروت - والدرداء : التى لا أسنان لها .

يقول زهير في معلقته :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم
ويقول :

ومن يغترب يحسب عدواً صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومهما تكن عند امرئ من خليفة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم ... الخ^(١)

وبدهى أن أثر الثقافة في الشعر ، لا يقتصر على بروزه في شعر ثقافي ذي
موضوعات علمية أو أدنى إلى العلم . فإن خطر الثقافة عظيم ، فهو يعين على خلق
المعاني وتوليدها ، ويساعد على حسن إخراجها ودقة تصويرها ، فضلاً عن تنبيه
الخواطر إلى الموضوعات الكبرى والأحداث الهامة ، وإثارة العاطفة ، وإفساح
المجال أمام الخيال .

إلا أنه لا شك أن ندرة الثقافة وانتشار الأمية وضعف اختلاط العرب
حينذاك بغيرهم من الأمم ، كان له أثر في النتاج الشعري ، بدأ أحياناً في ضخالة
المعاني وقربها وسطحياتها ، وفي سذاجة التشبيهات وحسيتها ، وفي قلق الارتباط
بين أبيات القصيدة الواحدة ، إلى غير ذلك . وإن عجز الشعر بالألفاظ الغريبة .
إلا أنه لا شك أيضاً أن الأساليب الجاهلية بتراكيب جملها وعباراتها
والملازمات الصوتية فيها نمت عن ذوق وموسيقا كانت في جملة الأسباب التي قيضت
لها سلطاناً وفرضت لها نفوذاً على أذواق الشعراء بعد العصر الجاهلي ، فظلت لهم
نموذجاً يحتذى ومثالاً يقتدى به ، زمناً طويلاً .

(١) راجع ديوان زهير بن أبي سلمى ، وكتب المعلقات . ونهاية الأرب ج ٣ ص ٥٩ - والخليفة :
الحلق والطبيعة - والنسم نغم البعير .

وأقبل الشعب العربي يجمع نفسه على الثقافة في العصر العباسي بألوانها المختلفة من محلية لغوية وأدبية ودينية، ومن وافدة مترجمة عن اليونانية والفارسية والهندية في علوم المنطق والفلسفة والحكمة والفلك والطب والتنجيم وغيرها. وبتوالي الأيام اكتسب الشعب الحكمة العلمية ومقدرة عقلية، وبدأت آثار الثقافة الجديدة على شعر شعرائه .

بدأت في الشعر بعامة، في جميع بيئاته. وبدأت في موضوعاته ومعانيه وأفكاره. بدأت - مثلاً - في الموضوعات فابتدع شعر العلوم والقصص وشعر الحكمة والفلسفة. وبدأت في المعاني والأفكار والتصورات، فابتسكرت ودقت وعمقت وربت، وهذبت وولدت، ودخلت المعاني العلمية والمصطلحات ميدان الشعر، ولونت معانيه بألوانها، إلى غير ذلك. وبدأت في الأساليب فدخلها التصنيع والهندسة والتعقيد واصطناع البديع والتأنق في تخير اللفظ وثرقيقه وإبعاده عن الغرابة والصلابة والحوشية^(١).

ولعل أبا تمام والمتنبي وأبا العلاء أمثل النماذج للتدليل على ذلك .

وقبل أن نعرض عليك شيئاً من شعرهم . نذكر أن هناك نوعاً من الشعر جديداً ظهر في هذا العصر نتيجة مباشرة لانتشار الثقافة العلمية والإقبال على التعليم وشعر العلوم وذلك بنظم حقائقها شعراً في مزدوجات أو أراجيز، حرر الناظمون فيها أنفسهم من ربة القوافي التقليدية. ويبدو أن الرغبة الأساسية من هذا النظم، كانت تهدف إلى تيسير التعليم على الناشئة، والمحافظة على العلم وحقائقه، إذ الشعر أسهل في الحفظ وأقرب استحضاراً من النثر. وقد نظموا في علم النجوم والطب والنحو والتاريخ والفرائض والفلسفة وعلم الحيوان^(٢).

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي لشوقي ضيف ص ٩١ وما بعدها . انظر الفصل الثالث والرابع والخامس .

(٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري للدكتور محمد مصطفى هدارة ص ٣٥٧ وما بعدها .

ويرى بعضهم أن الشعر التعليمي بدأ قبل ذلك ، في العصر الأموي . إذ كانت مجالس العلم والأدب واللغة قد انتشرت ، واتجهت أو اتجه بعض العلماء إلى العناية باللغة وجمع متونها وإبراز قواعدها . وكانوا يشافهون الأعراب لذلك ويستقدمونهم أو يقدمون عليهم ، وبرز حينذاك الرجاز من أمثال العجاج وابنه روبة ، فاصطنعوا الأراجيز وملتوها بالكمالات الغريبة ، حتى لتعتبر متونا لغوية . ويتضح أن هدفها إحياء اللغة ونشرها^(١) .

ويبدو أن القصد إلى حفظ حقائق العلم ، بطريق نظمها شعراً ، كان من عمل العصر العباسي . وامل أبان بن عبد الحميد اللاحق من السابقين إلى ابتكار هذا النوع من الشعر ، أو من المكثرين منه . فقد نظم في الفرائض وفي تاريخ الفرس والعقائد الفارسية والهندية وفي الأسفار والأساطير الأجنبية . ويقال إنه نظم كتاب السندباد - وهو من أصل هندي - ونظم كلیلة ودمنة وما فيها من حكم على السنة الحيوان في أربعة عشر ألف بيت^(٢) .

ومن شعر أبان في فريضة الصوم :

هذا كتاب الصوم وهو جامع لكل ما قامت به الشرائع
من ذلك المنزل في القرآن فضلا على من كان ذا بيان
ومنه ما جاء عن النبي من عهده المتبع المرضي . . الخ^(٣)
ومن نظمه لكلیلة ودمنة .

هذا كتاب أدب ومحنة وهو الذي يدعى كلیلة دمنه
فيه دلالات وفيه شعر وهو كتاب وضعته الهند
فوضعوا آداب كل عالم حكاية عن ألسن البهائم . . الخ^(٤)

(١) التطور والتجديد في الشعر الأموي لشوق ضيف ص ٣٤٠ ، وما بعدها .

(٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٣٦١ . - وفهرست ابن النديم .

(٣) المصدر السابق ص ٣٦٠ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٦٢ .

وقد وجد هذا الشعر التعليمي رواجاً كبيراً لدى الأندلسيين - كما سنشير إليه بعد - .

وتمثل أرجوزة الشاعر الكبير أبي العتاهية المسماة « ذات الأمثال » ناحية من نواحي الشعر التعليمي الذي ظهر في العصر العباسي ، ويعتبر أثراً مباشراً لانتشار الثقافات .

وهي في مجموعها قصيدة تهذيبية تتضمن المواعظ والحكم والنصح والتحذير . ويقف فيها أبو العتاهية من الناس موقف المعلم من تلاميذه ، ويدل بها على مدى عقله وثقافته ، فضلاً عما أخذ به نفسه من الزهادة والنسك بعد حياة لاهية أكثر فيها من التجربة . وهو يقول فيها :

ما انتفع المرء بمثل عقله وخير ذخر المرء حسن فعله
إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة المرء أي مفسده
أصحب ذوي الفضل وأهل الدين فالمرء منسوب إلى القرن . . الخ (١)

أما أبو تمام فقد اتضحت ثقافته عصره على شعره بأكثر من مظهر في أغراضه المختلفة :

ومن ذلك لطف تصويره كقوله في أبي دلف العجلي .
جم التواضع والدنيا بسوددها تكاد تهتز من أطرافها صلفاً
وقوله في وصف شتاء خراسان الفارس :
يمسى ويضحى مقبياً في مباتيه وبأسه في كلى الأقوام مرتحل
وقوله في هجاء أبي المغيث - وكان قد مدحه مراراً بمتاحاً كرمه ، فخرمه ولم يعطه ، وحجبه عن مجلسه ، فدب اليأس في نفسه منه فهجاه ، فكان مما قاله :

هب من له شيء يريد حجابَه ما بال لا شيء عليه حجاب
ما إن سمعت ولا أراي ساءعاً أبدأ بصحراء عليها باب
من كان مفقود الحياء فوجهه من غير بواب له بواب

ومن مظاهر ثقافته ، حكمه ، وقد مهد بها السبيل أمام المتنبي وأبي العلاء .
ولم تكن صادرة عن فلسفة خاصة ومبدأ مكتمل ، ولكنها منزعة من المناسبات ، في
مقام مديح أو هجاء أو رثاء أو غيره . ولكنها تدل على عقلية واسعة أفرقتها الثقافة .
ومن حكمه قوله في الحظ :

ينال الفتي من دهره وهو جاهل ويكدى الفتي في دهره وهو عالم
ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا هل يمكن إذا من جهل من البهائم
ومن قوله في الصبر :

ومن لم يسلم للنوائب أصبحت خلائقه طرا عليه نوائب
ومنها قوله في لون من الشجاعة :
إن الأسود أسود الغاب همها يوم الكريهة في المسلوب لا السلب
ومنها قوله في التنقل :

فإني رأيت الشمس زبدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

ومن مظاهر ثقافته : استدلالاته العقلية على قضاياها الشعرية كقوله :
لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العنى
وقوله :

ليس الحجاب بمقص عنك لي أملا إن السماء ترجى حين تحتجب

ومنها إغرابه في الخيال ، كقوله يمدح بحب القتال :
كأن به غداة الروع وردا وقد وصفت له نفس الشجاع
وكقوله في العطايا :

تكاد عطاياه يحن جنونها إذا لم يعوزها بنعمة طالب^(١)
ولأبي تمام مظاهر أخرى كثيرة تدل على سعة تأثير الثقافة المعاصرة فيه .

وللمتنبي في باب الحكم والأمثال ما يربو على كل شاعر ، وتتصل حكمه وأمثاله
بنواحي الخلق والمجتمع والسياسة وطبائع الناس .
ومنها قوله :

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظن أن الليث يبتسم
أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم من شحمه ورم
وما انتفاع أخى الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم
وقوله :

ذو العف يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
وقوله :

عش عزيزاً أومت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
وقوله :

كل حلم أنى بغير اقتدار حجة لاجيء إليها اللثام
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام^(٢)
وقد عنى بعضهم بجمع حكم المتنبي . وقد جمعها صاحب الرسالة الحاتمية وأورد

(١) ديوان أبي تمام - وأخبار أبي تمام للصولي - والورد : الحمى .

(٢) ديوان المتنبي .

بجوارها حكم أرسطو المشابهة .

وكان المعري شاعر أفيلسوفا مؤلفاً ذا رأى وعقيدة . وهو من أكرم ما أنتجت الحركة الثقافية العباسية القائمة على علوم العرب والعلوم المترجمة . وكان زاهدا عفا كريم النفس ، وكان متشائماً يبغض الحياة ويدعو إلى الزهد فيها . وقد نعى على أبيه لأنه سبب وجوده . ولم يتزوج لئلا يكون سبباً في إشقاء غيره ، وكان حائراً كثير التساؤل عن حقيقة الأديان ، وكان متكلماً في الأخلاق والمجتمع ناقدا للأوضاع ، عطوفاً على الحيوان لا يأكل منه ما أحل ، نباتياً يجتزىء بالقليل .

وكان شعره صدى لكل أولئك ، وصدى للحياة الواقعية التي يحياها . وبدهى أنه لا يمثل بذلك نزعات العصر الذي يعيش فيه . غير أنه بما أفاد من الثقافة والعلم ، وبما حصل من المعرفة ، وبما درس من أحوال المجتمع ، وجه تفكيره وجهة كان لخصائصه الذاتية أثر فيه وفيما انتهى إليه من مبادئ .

ومن شعره في جنابة أبيه :

هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد

ومن عطفه على الحيوان :

تسريح كفك برغوئا ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجا

ويقول في اختلاف الناس :

خلق الناس للبقاء فضلت أمة يحسبونهم للنفاذ

إنما ينقلون من دار أعما ل إلى دار شقوة أو رشاد

وفي أديان الناس :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتمت ويهود حارت والمجوس مضلله

اثنان أهل الأرض . ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له (١)

(١) اللزوميات وغيره من دواوين أبي العلاء .

وفيلسوف ابن الفارض نزعة التصوف . ويقول - هو ومن ينهج نهجه - بوحدة الوجود ، أى لا وجود إلا الله سبحانه . ولا موجود مستغن بذاته إلا وجود الله . أما العالم فليس وجوده من ذاته ولا بذاته ولا لذاته ، ولا قوام له بذاته . وإنما هو عندهم شأن ، من شئون الله . وبعضهم يعبر بأنه فعل من أفعاله . ولذلك ما ثم إلا الله وأسماءه وأفعاله .

ويقول بوحدة الشهود . وهى عندهم حال تستولى على بعض الصوفية ، يفقد صاحبها التمييز بين نفسه وبين ذات الله ، أو بين المخلوقات وبين الله ، فيرى أن الحوادث هى الله ، وأن الله يخاطبه بها (١) .

ويعبر ابن الفارض عن وحدة الوجود بقوله ،

وفي الصحر بعد المحولم أك غيرها وذاتي بذاتي إذ تحلت تجلت

ولما طاب المقام بعرب الأندلس فى بلادهم الجديدة الممتعة الخصبة الطيبة الهواء الجارية الماء ، وأمنوا على أنفسهم عادية الأعداء ، التفتوا إلى ألوان الثقافة وأنواع المعرفة يتسارسونها ويثقفون عقولهم بها ، ويتزودون بها خبرة فى الحياة وفهما للأمر . ونقلوا إلى بلادهم تباعا ، كتب المشاركة فى العلوم الشرعية والعربية ، ولم يعانون الترجمة والنقل كما عانها المشاركة ، اكتفاء بما نقلوه عنهم ، ولأنهم لم يختلطوا بأمم ذات حضارة سابقة لها كتب قيمة ، كالأمم التى خالطهم المشاركة .

وما زالوا حتى انتشرت ببلادهم العلوم والمعارف . وغلبت عليهم النزعات الأدبية أكثر من سواها ، فلم يتعمقوا فى فلسفة ، ولم يتمسكوا بمذهب ،

(١) راجع الفلسفة الإسلامية للأستاذ ت . ج . دى بور ، تعريب الأسناذ محمد عبد الهادى أبو ريدة ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

إلا من ندر من الخاصة . يقول المقرئ : « وكل العلوم لها عندهم خطر إلا الفلسفة والتنجيم . فإن لها حظا عظيما عند خواصهم . ولا يتظاهر بها خوف العامة . فإنه كلما قيل : فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم ، أطلقت عليه العامة اسم « زنديق » ، وقيدت أنفاسه . فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره إلى السلطان ، أو يقتله السلطان تقربا لقلوب العامة ، ... الخ (١) »

وهذه العبارة تمثل في جملتها عامة الحال في الأندلس . فقد كان كثير من ملوكها وفقهاءها متعصبين ضد هذه العلوم ، ولم يبح الاشتغال بها إلا أخيرا . ويبدو مما مر أن الثقافة الأدبية - كما نوهنا - كانت صاحبة السيادة في تلك البلاد . ولهذا لم يبرز من بين شعرائهم فيلسوف كالمعري ، أو حكيم كالمتنبي ، أو مصنع كأبي تمام . وعاش شعرهم في جملته سهلا سمحا غير بعيد الغور ، قريب التناول ، مقبولا من السمع ، مشوقا للنفس ، لما امتلأ به من هاجساتها وعواطفها .

وقد تجلى أثر الثقافة هناك في مظاهر متعددة - فضلا عن تجليه في بشاشة الأدب والشعر وسعتهما - ومنها ما نظمته الشعراء في التصوف والحكم والأمثال ، وفي حقائق العلوم وهذه فنون - كما رأينا - سبقهم بها المشاركة . ولكن الأندلسيين فاقوهم في نظم العلوم حتى صاروا أسانذة هذا الفن . ويبدو أن سبب ذلك أن علماء الأندلس كانوا شعراء أو العكس . وهم نمط مما ستجده بمصر في العصر المملوكي . لقد اجتمع لهم من العلم والمعرفة ، ومن المقدرة على نظم الشعر ، ما أوحى إليهم بتقييد شوارد العلوم وضبطها وضبط قواعدها في قوالب شعرية تحفظها من الضياع وتعين على استحضارها وتعلمها .

ونظم ابن هاني* في الحكمة فقال :

إنا وفي آمال أنفسنا طول وفي أعمارنا قصر

(١) فتح الطيب للمقرئ ص ١٠٢ ج ١ في الباب الأول من القسم الأول .
(م ٧ - عصر الماليك)

لنرى بأنفسنا مصارعنا لو كانت الأبواب تعتبر
مما دهانا أن حاضرننا أجفاننا والغائب الفكر .. الخ

ومن نظم حقائق العلوم : أبو طالب عبد الجبار ، نظم أرجوزة في التاريخ^(١)
وأحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، نظم أرجوزة في تاريخ بني أمية
بالأندلس^(٢) ، وأرجوزة في العروض^(٣) . والشاطبي نظم قصيدة حزر الأمانى ،
في القراءات . وابن مالك الأندلسي نظم الكافية والخلاصة المعروفة بالألفية ،
في النحو . إلى غير ذلك .

ومهما قيل في هذا اللون من الشعر فهو نظم ثقافى على كل حال .

ولا تعتبر أراجيز التاريخ من الشعر القصصى أو ملاحمه ، لمزايلتها الخيال
الشعرى والتصورات الأدبية الجميلة ، ووصف المعارك بما تتطلب من الحماسة ،
وتمجيد البطولات ، إلى غير ذلك .

وكانت الثقافة في مصر قد ركدت ركودا كبيرا في العصر العثماني ، بعد هذا
الانتعاش الواسع الذى شهدته في عصر المماليك . فقد عنى العثمانيون عناية كبيرة
بتجريد مصر من كل دعائم النهوض . فأخذوا أموالها وكتبها ورجالها وأهل الفن
فيها وأوقافها ، حتى أقفلت مساجدها ودور التعليم فيها . وجنوا بذلك على آدابها
بعمامة ، فصارت ضحلة ضيقة متعثرة .

ثم قيضت لمصر في عصرها الحديث أسباب النهضة على نحو ما بينا فيما سبق .
فانتشر التعليم وفتحت المدارس وأرسلت البعثات إلى الخارج وترجمت كتب
أجنبية ، وانتشرت الصحف والمطابع ، وطُبعت مخطوطات عدة ودواوين شعرية .

(١) الذخيرة لابن بسام .

(٢) العقد الفريد ج ٣ .

(٣) العقد الفريد ج ٤ .

وأُسست الجامعات ، ونظمت الدراسات العليا وقررت مجانية التعليم . وبذلك اتسع أفق الثقافة وجمعت بين القديم والجديد ، والشرق والغربى . وحفلت بها دور التعليم والنوادر وقاعات المحاضرات ، وعمرها أعلام العلم والأدب والثقافة من كل لون . وبرزت العناية باللغة العربية الفصحى باعتبارها اللغة القومية .

كان لهذا صدى فى محيط الشعر - ولارىب - كان يقظة فى الأذهان وإثراء فى الأفكار ، وانطلاقا فى الأقلام ، واتجاها إلى التعبير عن حاجة البلاد فى كل نواحيها ، وعدم الوقوف أمام صنعة أو تصنيع ، وإن لم يخل الشعر جملة من الاهتمام بالقدماء ، والاقتداء بهم فى بعض مسالك الشعر .

ونضحت آثار الثقافة على الشعر فى جميع ميادينها . فى الميدان السياسى والاجتماعى - كما رأينا - ووجدت أغراض جديدة كمخاطبة الآثار وشعر القصة والشعر التمثيلى ، وكالشعر الوطنى والقومى والأغانى والأناشيد الوطنية .

غير أن آثار الثقافة لم تظهر فى حكمة تساق أو مثل يضرب ، أو فلسفة تشرح . - وإن لم يخل الشعر جملة من هذه الاتجاهات - غير أن جد الحياة السياسية وجد الحياة الاجتماعية الجديدتين ، لم يدعا مجالا للتخصص فى مثل هذه الأغراض .

وأوضح ما بدا أثر الثقافة فى انطلاق الأفكار ومحاولة التجديد ، وفى ابتكار المعانى ، ودقة التعبير عن حاجات الأمة . مع الخضوع - خضوعا ما - لبعض أساليب القدماء ومناهجهم ، بتأثير ثقافتهم القديمة ، أو الصلة التى تربطنا بهم .

وقد تعددت - مثلا - معارضا شعرائنا للأقدمين . ومن ذلك قصيدة توفيق البكرى فى رثاء أبيه . فإنه عارض بها قصيدة المتنبي فى رثاء جدته ، التى مطلعها :

ألا لا أرى الأحداث مدحا ولا ذما فما بطشها جهلا ولا كفها حلما

ويقول البكرى :

سقت رحمة الله الضريح وما ضما وروت به هاما وروت به عظمًا
يعز على العلياء أن يسكن الندى ترابا وأن نلقى به الحسب الضخما (١)
وعارض شوقي بردة البوصيرى فى مدح الرسول عليه السلام التى أولها :
أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
فقال شوقي :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي فى الأشهر الحرم
وعارض شوقي ابن زيدون فى قصيدته التى مطلعها :
أضحى التنائى بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجا فينا
فقال شوقي :

يانائح الطلح أشباه عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا
وعارض شوقي سينية البحرى فى وصف إيوان كسرى التى مطلعها :
صنعت نفسى عما يدنس نفسى وترفعت عن جدا كل جبس
فقال شوقي أندلسيته التى مطلعها :
اختلاف النهار والليل ينسى اذكرا لى الصبا وأيام أنسى
إلى غير ذلك .

وبتأثير الثقافة القديمة ظل بعض شعرائنا يتحدث عن الحيا والغيث ، وعن
الفاة والجل والهودج ، وعن الديار والمنازل ، وعن اللوى والرقتين . .
ومن الطريف أن يحى شوقي أم عباس فى عودتها من الخارج إلى مصر ،
بقصيدة عصماء يبدوها بقوله :

أرفعى الستر وحيى بالجبين وأرينا فلق الصبح المبين
 وقفى الهودج فينا ساعة نقتبس من نور أم الحسين
 واتركى فضل زماميه لنا نتناوب نحن والروح الآمين
 قد سقينا بمحياك الحيا ولقينا حول يمينك اليمين . الخ (١)
 واصطنع البارودى بعض ألوان البديع على نمط مسلم بن الوليد وابن المعتز .
 ومنه قوله :

هذى الجزيرة فانظر هل ترى أحدا ينأى به الخوف أو بدنو به الطمع
 وقوله :
 ونادى المنادى للصلاة بسحرة فأحيا الورى من بعد طى إلى نشر
 وقوله :

دهر يغر وآمال تسر وأعمـمار تمر وأيام لها خدع
 غير أننا إذا نشدنا الحكمة والمثل وجدناهما عند كثيرين من شعرائنا هؤلاء ،
 ينتزعونها من الملابسات ومقامات القول ، على نمط أكثر العباسيين . وهما على
 كل ، نتيجة الثقافة العامة لا الخاصة ، أو ثقافة التجربة لا ثقافة النظر والدرس .
 ومن حكم البارودى .

إن الحياة لثوب سوف تخلعه وكل ثوب إذا مارت ينخلع
 وقوله :

والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر وإنما صفوه بين الورى لمع
 لو كان المرء فـكر فى عواقبه ماشان أخلاقه حرص ولا طمع (٢)
 ومن حكم شوقى قوله - وقد انتزعه من المناسبة :

(١) الشوقيات ج ١ ص ٣١٩ .

(٢) ديوان البارودى .

من مات فى فزع القيامة لم يجد قدما تشيع أو حفاوة ساع
قاله فى رثاء المنفلوطى الذى مات يوم أطلق طلق نارى على زعيم البلاد
إذ ذاك سعد زغلول فشغل الناس بالحادث ولهوا عن وداع هذا الكاتب الكبير .
وكان المنفلوطى فقيرا حسن التجميل أمام الناس ، يضغط أعصابه ليبدو أمام
الناس غنيا مثرى ، حذرا من الإشفاق . فقال شوقى :

ولرب بؤس فى الحياة مقنع أربى على بؤس بغير قناع
ولشوقى فى سياق رثاء الزعيم مصطفى كامل :

دقات قلب المرء قائمة له إن الحياة دقائق وثوان
فأرفع لنفسك قبل موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثان
إلى غير ذلك من أمثاله .

وشوقى وغيره ممن يذهبون مذهبه فى الحكمة ، يصرون فيها عن روح دينية
كريمة ، هى سمة من سمات المجتمع المصرى .

وإلى جانب ذلك نشعر بمحاولة الشعراء أن يحددوا فى المعانى والتصويرات .
ولا ريب أنهم أجادوا ذلك فى ميدان السياسية والاجتماع ، لامتلاء بيئتهما بكل
جديد .

ويصور شوقى جهل المتعالم هذا التصوير الجديد :

والجمل لا يلد الحياة مواته إلا كما تلد الرمام الدودا
لم يخل من صور الحياة وإنما أخطاه عنصرها فمات وليدا (١)

وقد نوهنا فيما سبق ، بالشعر القصصى والتمثيلى ، ويعتبران نصرا للأدب
المصرى الحديث وما كان ذلك إلا بسبب تعاظم الثقافات والاطلاع على أدب
الغرب والأدب اليونانى .

(١) أبيات شوقى عن الموقيات .

ويعتبر من الشعر القصصى ، مطولة شوقي ، صدى الحرب ، (١) التى يصف فيها الوقائع التى جرت بين الدولة التركية واليونانية ، وكانت حينذاك ذات صلة بمشاعر مصر . ومنها « كبار الحوادث فى وادى النيل ، لشوقي أيضاً ، التى وصف فيها حوادث مصر ودولها من لدن الفراعنة حتى زمنه (٢) . ومنها « عمرية ، حافظ و « علوية ، عبد المطلب . وملحمة محرم الكهري فى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام .

ومن الشعر التمثيلى . قمبيز . ومصرع كليوباترا . ومجنون ليلى ، وغيرهما لأحمد شوقى . وقيس ولبنى لعزیز أباطة .

وبتأثير الثقافة الجديدة ، اهتم النقاد المحدثون بتوجيه الشعراء نحو العناية بهذيب شعرهم وصوغه على قواعد وفى اتجاهات معينة . فمنهم من دعا إلى العناية بالمعنى والفكرة ، وإلى وحدة القصيدة دون وحدة البيت . ومن دعا إلى العناية بالشكل والقالب ، أى بطريقة التصوير لأن ذلك هو مجال الفن ومجلاه . ومن دعا إلى الاهتمام بالمضمون أولاً ، على أن ينتزع من الحياة الواقعة ومن ملابسات الأمة . ومن دعا إلى الانطلاق من الوزن القافية ، والوقوف باللفظ أو التعبير عند تمام الدفقة الشعورية ، وإلى غير ذلك من ألوان المناهج .

وفى رأينا أنه لم ينهض حتى اليوم مذهب بعينه يحدد القواعد والأهداف ، مدعوم بأدلته القوية ، بحيث يأخذ بتلابيب الشعراء بعامة ، ويقهرهم على اعتناقه وتحذيه ، على أساس أنه المذهب الذى تتطلبه البيئة الحاضرة .

وعلى كل فقد كانت هناك ثمرة من حركة النقد ، عبر عنها الاستاذ عمر الدسوقي ملخصاً ، فقال :

(١) أولها ، سيفك يعلو الحق والحق أغلب .

(٢) أولها ، همت الفلك واختواها الماء .

« وكانت الثمرة الطبيعية لكل هذه الآراء في النقد وفي توجيه الشعراء أن تعددت مدارسهم . فمدرسة أثرت الشعر التقليدي العربي في روحه ومعانيه ، وتشبيهاته وأخيلته ، وموضوعاته وصياغته ، وإن لم تنج من التأثير بمظاهر الحضارة والنهضة القومية وتوجيه النقد . ومن هؤلاء : عبد المطلب وتوفيق البكري والجارم وإسماعيل صبري ، وحافظ إبراهيم ، وأحمد محرم .

ومدرسة جمعت بين القديم والجديد ، أخذت من الأول حسن الصياغة وطريقة القصيدة ، وتأثرت بالشعراء القدامى في موسيقاهم ومعانيهم ، وعارضتهم ، وأخذت من الجديد بطرف في الموضوعات ، والتشبيهات ، وأحيانا في القالب ، وانفعلت بحوادث عصرها ، من مثل شوقي ومحمود طه المهندس .

ومدرسة قلدت ثم جددت باعتدال دون خروج في الجملة على قواعد اللغة ، من أمثال مطران والعقاد والمازني وأبي شادي ، والصيرفي وشيبوب .

ومدرسة أثرت أن تنحو النحو الغربي . وتهجر كل ما يمت إلى الشعر العربي بصلته . ومن هذه المدرسة شعراء المهجر . وأقرب المصريين إليهم شكري .

أما شعراء الشباب ففيهم نزعات كثيرة لم تتركز بعد ، وهم يقلدون عدة مدارس غربية تقليدا لم يصدرُوا فيه عن حاجة طبيعية ، أو ضرورة اجتماعية أو سياسية ، كما فعل شعراء أوربا . بل أمعنوا في التجديد والتقليد . فصار منهم الرمزيون ، والسراليون ، والواقعيون ، والصوريون . إلى غير ذلك من المذاهب التي ما أنزل الله بها من سلطان في مصر (١) .

(١) في الأدب الحديث ج ٢ ص ٢٣٣ في نهاية الفصل الثالث .

رابعاً — في البيئة الاجتماعية

البيئة الاجتماعية أفسح البيئات أمام الشعر ، وأشدّها تأثيراً فيه . إنها تتيح له آفاقاً عدة . وتفتح أمامه أبواباً للقول لاحتصر لها وفيها سعة من الحرية وفرصة للانطلاق . ويغلب أن يكون تعبيره عنها أوسع مدى ، ومظاهر آثارها عليه أوضح بياناً .

وبتأثير البيئة الاجتماعية يتجه الشعر اتجاهات خاصة ، ويطرق أبواباً بعينها . وإذا كان الشعر الجاهلي قد عبر فأحسن التعبير ، عن ألوان بيئته ، وكان حسن الاستجابة لدواعيها ، فإنه عبر فصديق ، ونطق فأجاد ، عن بيئته الاجتماعية . لقد عودت هذه البيئة الصحراوية أهلها ، على تقاليد وعادات ونظم ، نطق بها الشعر وبينها .

لقد كان من عاداتهم - مثلاً - عشق المرأة وعشق ديارها من أجلها ومن أجل ما لها من الذكريات فيها . لذلك وقفوا على ديارها بعد رحيلها وساءلوا وساءلوا دمتها ونفوسها - وربما وقفوا على الديار لغير ذلك - (١) ووصفوا عادات المرأة وبخاصة المرأة المترفة الناعمة . والمعو إلى تأثير المرأة في نفوسهم عند الحروب - على الرغم من أنه كان من عادة بعض القبائل وأد بعض بناتها لدما منهن أو لخوف العار أو الفقر .

وعلمتهم بيئتهم الصحراوية وحياتهم القبلية وحياة الترحل أن يكونوا كرماء ويحبوا الكرم ويمجدوه ويدعوا إلى إكرام الضيف وغوث الملهوف والمحافظة على الجار والدفاع عنه . لأن كلا منهم عرضة لنزول الحاجة وانقطاع السبيل به والاضطرار إلى الاستغاثة والاستجارة .

ونشأنهم على الشجاعة والشهامة والاعتماد على النفس في هذه البوادي التي

لا حكومة فيها ولا شرطة ولا جيش منظم ، فاضطر كل فرد أن يكون جندي نفسه ، وكل قبيلة أن تكون كتيبة نفسها .

وإلى جانب هذا تحلوا بالعفة والحلم والعدل ، وحب الحرية والإباء ، والوفاء ، وكانوا يتمدحون بهذه الأخلاق والصفات ويفتخرون بها . كما افتخروا بحسبهم ونسبهم .

وإن كان قد شاع بينهم حب الخمر والتمتع بالنساء والمقامرة واتخاذ الرقيق والجواري ، فقد كان منهم من يتخذ المقامرة مثلاً فرصة للكرم . فيجود بما يربحه ويكرم به .

وإلى جوار هذه العادات ، كانت الوثنية دين عامتهم ، ولكنها الوثنية المبسطة الساذجة التي تفيء إلى الوجدانية عند المناسبة (١) وقليل منهم المتأله واليهودي والنصراني .

ووجدت عاداتهم وتقاليدهم هذه ، وغيرها صدى في شعر شعرائهم .

وهذا امرؤ القيس يفتتح معلقته المشهورة بذكر أحبابه ومنازلهم ، ويقف باكباً ويستوقف صاحبيه عليها ، قائلاً :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فومل
فتوضّح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجت من جنوب وشمال (٢)
وهكذا فعل النابغة في افتتاح إحدى قصائده :

عوجوا خيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحبون من نوى وأحجار
أقوى وأقفر من نعم وغيره هوج الرياح بهابى الترب موار (٣)

(١) النابغة الذبياني للأستاذ عمر الدسوقي ص ٤٩ ، ٥٠ تحت عنوان الصحراء ص ٤٥

(٢) معلقات العرب للدكتور طبانة .

(٣) شعراء الصراية . وجمهرة أشعار العرب - والنوى : الحفير - دول الخيمة أو الخباء . -
ينعم عنه السيل - والهابي : تراب القبر ، والتراب - النائر - والموار : الكثير الحركة .

ويصف الأعرشي المرأة المترفة فيذكر بياضها وطول شعرها وأسنانها المصقولة ومشيتها المترتبة ، وهي عائدة من زيارة جارتها . روسواس حليها ، وتراخي جسدها من شدة الترف والنعومة :

غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوجل
كأن مشيتها من بيت جارتها من السحابة لا ريث ولا عجل
تسمع للحلي وسواسا إذا انصرفت كما استعان بريح عشرق زجل
ليست كمن يكره الجيران طلعتها ولا تراها لسراجلار تحتفل
يكاد يصرعها لولا تشدها إذا تقوم إلى جارائها العكسل^(١)
وامرؤ القيس يضوع المسك من صاحبتيه كأنه النسيم المعطر برائحة القرنفل :
إذا قامت تضوع المسك منهما نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل
وكانت صاحبته إذا أضحت ترى فتيت المسك فوق فراشها ، وهي تنام حتى
الضحى ، وذلك دليل الترف والدلال والسيادة .

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نثوم الضحا لم تنتطق عن تفضل^(٢)
وكانوا يستبسلون في القتال استجابة لتحريضها ، وخافة أن يسببها الأعداء .
يقول عمرو بن كلثوم في معلقته :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
يقن جيانا ويقان لسنم بعولتنا إذا لم تمنعونا^(٣)
وكان تعلقهم بالكرم وحب الكرماء مضرب الأمثال ، ويصف حسان بن
ثابت أبناء جفنة - الغساسنة - بقوله :

(١) ديوان الأعشى الكبير الدكتور محمد محمد حسين - والفراء : البيضاء - والفراء : النامية الشعر الطويل - والعوارض : صفحات العنق - والوجي : الخاف - والعشرق : نبات - والزجل : الذي له صوت .

(٢) الحياة العربية للدكتور الحوفي ص ٢٩٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٢١٥ .

يغشون حتى ما نهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل (١)
ويفتخر بالكرم والشجاعة والآبناء :
أنا الجففات الغر يلعبن في الضحا وأسيفنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق فأكرم بنا خلا وأكرم بنا ابننا (٢)
وأمر حاتم الطائي غلماناه بأن يشبوا النار ، وأن يوسعوا فيها لتكبر وتعلو ،
حتى تجلب الضيفان . ويحبب إليهم أن يعجلوا بإشغالها :
إذا ما البخيل الحب أخمد ناره أقول لمن يصلى بنارى أو قدوا
توسع قليلا أو يكن ثم حسبنا وموقدها البادى أعف وأحمد (٣)
ويفتخر حسان بن ثابت بسيفه ولسانه :
لساني وسبني صارمان كلاهما ويبلغ مالا يبلغ السيف مذكور
ويتمدح عنزة بشجاعته وفرسيته وعفته :
وحليل غانية تركت مجدلا تمكو فريسته كشدق الأعم
سبقت يداى له بعاجل طعنة ورشاش نافذة كلون العندم
إذ لا أزال على رحالة ساج نهد تعاوره الحكمة مكلم
طورا يجرد للطعان وتارة يأوى إلى حصد القسى عرمم
ينبرك من شهد الواقعة أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم (٤)
وفي أبيات رقيقة مترفة يصف حسان بن ثابت معاقرة الخمر مع أصحابه بخلق :
لله در عصاة نادمتهم يوما بخلق فى الزمان الأول

(١) ، (٢) ديوان حسان

(٣) الحياة العربية للدكتور الحوقى ص ٣١٥ .

(٤) معلمات العرب للدكتور طباطبة ص ١٨٥ - تمكو : تصفر - والفريضة : واحد الفريس وهى
أوداج العنق - الشدق : طفطة الفم من باطن الخد - الأعم : يريد الفرس - النافذة : القناة أو الطعنة -
والنهد : الفرس الجميل الجسم - والحكمة : الشجعان مفردا كى .

يمشون في الحلال المضاعف نسجها مشى الجمال إلى الجمال البزل
ولقد شربت الخمر في حانوتها صهباء صافية كطعم الفلفل
يسعى على بكأسها متنطف فيعلنى منها وإن لم أنهل
إن التي ناولتني فرددتها قتلت قتلت فهايتها لم تقتل
كلتاها حلب العصير فعاطنى بزجاجة أرخاها للمفصل (١)

ويجمع طريقة بن العبد لذاته - وهي الخمر والحرب والنساء - في قوله :

ولولا ثلاث هن من عيشة الفنى وجدك لم أحفل متى قام عودى
فنهن سبقي العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وكرى إذا نادى المضاف محبنا كسيد الغضا نهته المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب بهيكنة تحت الخباء الممدد (٢)

ويسجل طريقة عاداتهم في الدعوة العامة إلى الوليمة في المشتاة :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر
حين قال الناس في مجلسهم أقتار ذاك أم ربح قطر
بجفان تعترى نادينا من سديف حين هاج الصنبر
كالجواي لا تنى مترعة لقرى الأضياف أو المبحضر (٣)

ويذكر زهير بن أبي سلمى « الله » في شعره ، « ويوم الحساب » :

فلا تكشمن الله بما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم (٤)

(١) ديوان حسان بن ثابت .

(٢) معلقات العرب - والكميت : الخمر فيها سواد وحررة - والمحب : الفرس يبعد ما بين رجله
بنير اعوجاج - وسيد الغضا : يريد الأسد - والبهكنة : الشابة الفضة اللينة .

(٣) الأغاني .

(٤) معلقات العرب للدكتور طبانة .

ويقسم النابغة « بالله » للنعمان ليذهب ريده .

حلقت فلم أترك لنفسك ربة وليس وراء الله المبرء مذهب
وكان أمية بن أبي الصلت متأها ، وكان أكثر من ذكر الله في شعره
في الجاهلية :

الحمد لله عسانا ومصبحنا بالخير صبحنا ربي ومسنا
رب الخيفة لم تنفد خزائنه مملوءة طبق الآفاق سلطانا .. الخ

وتطلع بنو أمية إلى الحجاز - بعد أن استقر بهم المقام بدمشق واتخذوها دار
خلافة - فوجدوا بها بقية من الصحابة وناشئة من أبناء المهاجرين والأنصار ، الذين
يعيشون على مجد آبائهم ، ممن بنوا بسواعدهم وجهادهم وتقديتهم دولة العرب والإسلام .
وأنهم لا بد متطلعون إلى الملك متكلمون في السياسة مناهضون للدولة . فرأوا من
حسن النظر بعده أن يشغلوا بالهم بما يقعدهم في عقر ديارهم خاملين وادعين ،
لا يتطلعون إلى ملك ولا يناهضون دولة . فأغدقوا عليهم المال والرواتب وأجزلوا
لهم في العطاء (١) . فذاق هؤلاء طعم النعمة - وكانوا قد بدءوا قبل هذا يذوقونها -
وجنح بهم الثراء إلى الترف ، وأغرتهم البلمية بطلب اللذة . فشغلوا بالمسامرة
والمعاقرة (٢) ، ولهو بالمنادمة . وفرغت قلوبهم من حب المجد والرياسة إلى العشق
والمغامرات . فطابت لهم مجالس الأانس ومحافل الرقص والغناء ، وكثر من حولهم
المعينون والمساعدون . واتضح ذلك في المدينة أكثر من سواها .

وهكذا أقبل الحجازيون منهم على حياة ترف ومجون سافرة متنقلة ، وأقبل

(١) الشعر الفنائ في الأمصار الإسلامية للدكتور شوقي ضيف ج ١ ص ٣٢ وما بعدها نفراد
الفكر العربي . وعمر بن أبي ربيعة عصره وحياته وشعره لجبرائيل جبور ج ١ - طبع بيروت سنة ١٩٣٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٧ عن الأغاني ج ١٥ ص ١٥ - وعمر بن أبي ربيعة لجبرائيل جبور ج ١ ص
٦١ وما بعدها .

أهل البادية منهم على حياة عشق عفة غالبا ، إذ لم ينالوا من أسباب الغنى والترف ما ناله أهل الحواضر . فكان للفاقة والحرمان أثر في اتجاه كثير منهم إلى التقوى والتعفف^(١) . والشعراء منهم يرتادون زوايا هذه الحياة ، ويعبون بما يحب منه قومهم ، فكان شعرهم صدى لحياتهم هذه .

ونشأ في الحاضرة - مثلا - عمر بن أبي ربيعة ، غزلا صريحا رقيقا ، وقصصيا محاورا ، يتعقب النسوة ، ويطلع عليهن في مآمنهن ، ويلقي بعض معشوقاته منهن في خدورهن ، ثم يعود واصفا قاصا مشبعا بذلك نفسه وفنه ، ومصورا حياته وحياة اللاهين من أبناء الحجاز ، ومتنبها إلى نفسية المرأة وحركاتها وإشارتها ، مدركا لأهوائها وعواطفها وخلقاتها^(٢) .

ونشأ في البادية - مثلا جميل بثينة - أوقيس ليلى - عاشقا صدق في عشقه . ومحبوا وهب نفسه لحبه ، وعفيقا لم يفجر ، ومتأبيا لم يفحش ، وعذريا لم يسف ولم يمن . وأودع في شعره ماضور به حياته وحياة أمثاله من أعفاء نجد والبادية .

ويصف عمر بن أبي ربيعة في رائيته ، مغامرته بزيارة معشوقته ليلا في دارها بين حبيها ، يقول :

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت مصابيح شبت بالعشاء وأنور
وغاب قير كنت أرجو غيوبه وروح رعيان ونوم سمر
ونفضت عن النوم أقبلت مشية السحباب وركني خيفة القوم أزور
فحييت إذ لاقيتها فتولدت وكادت بممكنون التحية تجهر
وقالت وعضت بالبنان فضحتني وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر .. الخ
وقبع عمر في خدر معشوقته ، إلى أن تقضى الليل إلا أقله ، فاحتارا كيف

(١) راجع جبرائيل جبور في كتابه عن عمر بن أبي ربيعة ج ١ ص ١٨٩ .

(٢) مقدمة ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٨ ط بيروت سنة ١٩٦١ م .

يرحل ، ثم أخبرت أختيها ، ثم خرجن وهو بينهما إلى أن جاوز الحى . . . ويقص
عمر هذه القصة تقول معشوقته يقول :

أقص على أختي بدء حديثنا ومالى من أن تعلمنا متأخر
لعلهم ما أن تبغيا لك مخرجا وأن ترجبا صدرا بما كنت أحصر
فقامت كشيئا ليس فى وجهها دم من الحزن تذى عبرة تتحدر
فقلت لأختيها أعينا على فى أنى زائرا والأمر للأمر يقدر
فأقبلنا فارتاعنا ثم قالتا ألقى عليك الهم فالخطب أيسر
يقوم فيمشى بيننا متسكرا فلاسرنا يفشو ولا هو يظهر
فكان يحنى دون ما كنت أتقى ثلاث شخوص كاعبان ومعصر... الخ (١)
ويصور جميل بثينة ولوعه وحبه وأصاله عشقه فيقول .

أقول لداعى الحب والحجر بيننا ووادى القرى لبيك لما دعانيا
فلم تنكر الداعى ولكن حبها أصيل ويبل كالذى كنت باليا
فما أحدث النأى المفروق بيننا سلوا ولا طول اجتماع تقاليا
كأن لم يكن نأى إذا كان بعده تلاق ولا يكن لا إخال تلاقيا
خليل إن لم تبكيا لى التمس خليلا إذا أنزفت دمعاً بكى ليا
ويقول :

وأنت التى إن شئت كدرت عيشتى وإن شئت بعد الله أنعمت باليا
وأنت التى مامن صديق ولا عدى يرى نضوماً أبقيت إلا رثى ليا (٢)

وقبضت للشعوب فى عصر بنى العباس حرية واسعة ومساواة حرموها من
قبل ، فى عصر بنى أمية الذين كانوا متعصبين للعرب . فازداد بسبب ذلك ،

(١) ديوان عمر بن أبى ربيعة ط بيروت

(٢) ديوان جميل للدكتور حسين نصار ،

اختلاطهم وامتزاجهم بالمجاورة والمعاملة والمصاهرة ، ونتج من بعد من الجميع ، جيل عباسى ، إسلامى الدين ، عربى اللغة ، فارسى الحضارة ، يونانى العلم . وأخذت عصية العرب تتوارى ، وتخمد فيهم جذوة التباهى بكرم الأصل والنجار . وأخذوا يدخلون فى طور حضارى واسع النطاق بعيد الآفاق ، انتشرت فيه ألوان الثقافة والمترجمات عن يونان وغيرها ، فى علوم مختلفة - وفق ما أشرنا - واتسعت الدواوين وغزتها النظم الفارسية . تغيرت أشكال الدولة فى الزى والشعار وطرق المعيشة بما يناسب مستواها الحضارى ، وانفسح المجال أمام صناعتها وفنونها ، وبُنيت العمار والقصور والبساتين والبرك . وأقبل كثير من الناس على النعيم والتمتع بملاذ الدنيا . وظهرت مفاسد جديدة وانتشرت المجونيات والتبذل ، ومجالس الخمر والأنس والمنادمة والغناء والطرب . ورحلات الصيد والرياضة . وانهز بعضهم فرصة حرية الرأى فكشفوا عن سريرتهم ودخيلة أفكارهم ، فظهر الزنديق والشعوبى والمتطرف . وظهرت العصية بين العرب والعجم .

وأقبل الشعراء يصورون فى أشعارهم هذه الحياة الجديدة الحضارية بمحاسنها ومساوئها . فوصفوا قصورها وبساتينها ومجالس أنسها وبركها ومصايدها وصناعاتها وأدواتها ، وما يجرى بها من مجون وخلاعة وتهتك وتهالك على الخمر ، أوتها لك على الزهد . وتغزلوا بالماضى والمؤنث ، واتجه بعضهم إلى الأدب المكشوف . وأنوا فى كل أولئك بالرائع الممتع من حر الشعز ورققه . وهذبوا لفظه ورققوا أسلوبه بما يلائم الحياة المترفة ، وأنوا عن الغريب الجاف ، ونعى بعضهم على مسلك الجاهليين فى مفتتح قصائدهم من الولوع بمساءلة الدار ومخاطبة الأطلال .

ولم تخل الحياة حينذاك من كريم بذال يمدح ، وشجاع صوال يمجّد ، وعافل رزين يطرى . ومخلص أمين يثنى عليه ، ووفى حر يصادق ويحب ، ونزيه عف يود ويقدر ، ودمت مواضع يحل ويقتهى به .

وأبو نواس الذى اشتهر بمقارفة الخمر والنهالك على شربها ، استبدل وصفها
بذكر الأطلال والديار فى مفتتح قصائده أحياناً ، فقال :

ألا فاسقنى خمرأً وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سرأً إذا أمكن الجهر
ويقول :

لا تبك لىلى ولا تطرب إلى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد
ويقول واصفاً سكيراً :

ومستطيل على الصهباء باكرها فى فتية باصطباح الراح حذاق
فكل كف رآه ظنه قدحاً وكل شخص رآه قال ذا ساق
وهو الذى يقول فى عزة النفس :

ومستعبد لإخوانه بثرائه لبست له كبرأً أبر على الكبر
إذا ضمنى يوماً وإياه محفل يرى جانبي وعراً يزيد على الوعر.. الخ (١)
ومن مكشوف غزل بشار قوله :

يا عجباً للخلاف يا عجباً بنى الذى لام فى الهوى الحجر
حسبى وحسب الذى كلفت به منى ومنه الحديث والنظر
أوقبله فى خلال ذاك وما بأس إذا لم تحل لى الأزر
أوعضة فى ذراعها ولها فوق ذراعى من عضها أثر.. الخ (٢)
ريتهزل ابن الرومى فى « وحيد » ، المغنية فيقول :

يا خليلي تيمتني وحيد فقوادي بها معنى عميد
غادة زانها من الغصن قد ومن الظبي مقلتان وجيد

(١) ديوان أبو نواس - والصهباء : الخمر .

(٢) ديوان بشار .

ومن دقيق وصفه لها واصوتها قوله :

تتغنى كأنها لا تغنى من مكنون الأوصال وهي تجيد
لا تراها هناك تجمّظ عين لك منها ولا يدر ويريد
من هدر وليس فيه انقطاع ويجو وما به تبليد
مد في شأو صوتها نفس كما ف كأنفاس عاشقها مديد
وأرق الدلال والغنج منه وبراء الشجا فكاد يبيد
فتراه يموت طورا ويحيا مستلذ بسيطه والنشيد
فيه وشى وفيه حلى من النغ م مصوع يختال فيه القصيد . . (١)

ويصف ابن الرومي صانع الرقاق :

ما أنس لأنس خباز امررت به يدحو الرقاقة مثل اللحم بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر (٢)

ويصف البحترى بركة للمتوكل الخليفة العباسي ، وما يبدو فيها من المحاسن
وهو شعر حضاري وإن اتصل بشعر الطبيعة :

يامن رأى البركة الحسناء رؤيتها والآنسات إذ لاحت مغانيها
بحسبها أنها من فضل رتبتهما تعد واحدة والبحر ثانيها
ما بال دجلة كالغيري تنافسها في الحسن طورا وأطوارا تباهاها
ويقول يصف مياهها :

تنصب فيها وفود الماء معجلة كالخيل خارجة من جبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة من السباتك تجري في مجاريها

إذا علتها الصبا أبدت لها حبكا مثل الجواشن مصقولا حواشيها.. الخ (١)

ومنذ بدء عصر النهضة الكبرى بمصر ، انتعشت حياتها السياسية ، وتعددت فيها وسائل النهوض الثقافي الحضارى ، وأخذ مجتمعها يزج عن كاهله مخلفات الماضى الثقيلة ، ويحاول جاهدا الوصول إلى مستوى أكرم وأسعد وأنبى . وذلك بإقامة وسائل الحضارة ، واصطناع أسباب المدنية الحديثة . ومنها نشر التعليم وإنعاش التجارة وإنشاء الصناعات وإقامة السدود والحواسر ، وشق الترع وتنمية الزراعة بالوسائل الحديثة ، وتسويق البضائع ، وتجميل المدن وفتح ميادينها وشق شوارعها ، وتزويدها بالبساتين والحدائق والشجر ، وتأسيس دور الكتب والمتاحف والخيالة والمسرح ، فضلا عن تعدد المطابع التى عكفت على طبع الصحف ، وطبع الكتب قديمها وجديدها .

وقد بلغت مصر فى حياتها المعاشية بفضل ثورتها الأخيرة إلى مستوى حضارى أسمى ، ومن عناصره الثقافة والثروة والتحرر والابتداع والجد والتعاون . وقد نبتت بها مشكلات اجتماعية كثيرة منها ما وجد سبيله إلى الحل ، ومنها ما لا يزال محل النظر . وقد تناولها الكتاب والخطباء والشعراء بالحديث المفصل الطويل ، بين مؤيدين ومعارضين .

ومن هذه المشكلات : سفور المرأة وحجابها ، وتعليم البنات ، وتوظيف المتعلمة ، ونياحة المرأة ، ومشاكل التعليم وأهدافه ومناهجه . وإصلاح القوانين ومنها قوانين الأحكام الشخصية ، ومحو الأمية ، والاهتمام بشئون العمال والفلاحين والدعوة إلى التجديد ، وتقويم الأخلاق ، والدعوة إلى المحبة والتعاون ، والقضاء على العادات المستزلة ، والعناية بسعادة الأسرة والطفل والحدث والمريض والمشرذ ، وتحري العدالة والمساراة بين النظراء من موظفى الدولة ومن غيرهم . وتوزيع

(١) ديوان البحرى ص ١٦ طبع الجوائب - وجبك الماء بضمين الجعد التكر منه - - واجوشن : اندرع ، مفردا جوشن .

الثروة بالطريقة الاشتراكية العادلة المنتجة، وموضوع زيادة النسل وصلته بالثروة العامة . والنزاع بين القصصى والعامة . وإنهاض القانون الشعبية. إلى غير ذلك .. ولم تخل هذه الحياة من مبادئ الحضارات ومجاناتها وتقليد الأوربيين فيها . ولقد وجدت هذه المشاكل أو أكثرها صدق فى الشعر الحديث . وشارك شعراء مصر فيها بالرأى والحث والتوجيه والنقاش ، بأوفى نصيب . وصار كتاب الشعر صفحة مشرقة وسجلا رائعاً للنهضة الحضارية ولنزعات المجتمع . ومن أطرف ما نظمه حافظ إبراهيم ، فى الدعوة إلى النهوض والتجديد أبيات من قصيدته فى حفل تكريم شوقي وهى قوله :

ملأنا طباق الأرض وجدا ولوعة	بهند ودعد والرياب وبوزع
وملت بنات الشعر منا موافقا	بسقط اللوى والرقتين ولعلع
وأقوامنا فى الشرق قد طال نومهم	وما كان نوم الشعر بالمتوقع
تغيرت الدنيا وقد كان أهلها	يرون متون العيس أين مضجع
وكان بريد العلم عيرا وأنفا	منى يعيها الإيجاف فى اليد تطلع
فأصبح لا يرضى البخار مطية	ولا السلك فى تياره المتدفع
وقد كان كل الأمر تصويب نبلة	فأصبح بعض الأمر تصويب مدفع
ونحن كما غنى الأوائل لم نزل	نغنى بأرماح وبيض وأدرع
عرفنا مدى الشئ القديم فهل مدى	لشئ جديد حاضر النفع تمتع
لدى كل شعب فى الحوادث عدة	وعدتنا ندب التراث المضيع (١)

ومن اجتماعيات حافظ : اللغة العربية تنعى حظها . والحملة على فوضى الرأى وعدم الثبات عليه . والمنافقة والطمع غير المشروع . وتحيته للناشئين . ومعاضدة الجامعة . والدعوة إلى العناية بالأطفال والعميان ، وإلى تعليم البنات . وهو صاحب هذا البيت المشهور :

(١) ديوان حافظ ج ١ ص ١٣٠ .

والأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

وإلى جانب ذلك كانت لحافظ مبادئ ومجربيات وخبريات لا بأس من أن
نذكر منها هذه الآيات :

أوشك الديك أن يصيح ونفسى بين هم وبين ظن وحس
يا غلام المدام والكاس والطاس وهيء لنا مكانا كأس
ويقول :

واسقنا يا غلام حتى ترانا لا نطبق الكلام إلا بهمس
خمرة قيل إنهم عصروها من خدود الملاح في يوم عرس^(١)

ويمثل إسماعيل صبرى بغزله دوراً من أدوار الغزل ، في المجتمع المصرى
الجديد ، وذلك في قصيدته الغزلية التى منها هذه الآيات :

يالواء الحسن أحزاب الهوى أيقظوا الفتنة فى ظل اللواء
فرقتهم فى الهوى ثاراتهم فاجمعى الأمر وصوفى الأبرياء
إن هذا الحسن كالماء الذى فيه للأنفس رى وشفاء
لا تذودى بعضنا عن ورده دون بعض وأعدلى بين الظماء الخ^(٢)

يقول الأستاذ العقاد - رحمه الله - : « وكان إسماعيل صبرى قد تلقى
العلم فى فرنسا واطلع على آدابها وآداب الأوربيين فى لغتها . وكان من الاتفاق
العجيب أنه اطلع على الآداب الفرنسية وهى فى حالة الذوق الفاهى من بعض
الوجوه ، لأنها كانت تدب على الأكثر الأغلب بتلك الرفاهة الباكية التى كان
يمثلها لامرئين وإخوانه الأرقاء الناعمون . »

(١) ديوان حافظ ص ٢٤١

(٢) ديوان صبرى ص ١٠٧

وقال أيضاً : « فنهنا ذوق وكياسة ، وليس هنا عشق وحرارة . وإن تذكرنا هذه الأبيات بعاشق يهوى معشوقاً يقف عليه نفسه ويطلب إليه أن يقف عليه نفسه . وإنما تذكرنا بنديم قاهرى فى سهرة من سهرات الطرب يلتف مع صحبه بغانية أو مغنية ، يتلطف فى الزانى إليها والثناء عليها . ولا يشعر من وراء ذلك بلوعة ولا غيره من المنافسين ، قناعة منه بالراحة بين الأحزاب ، والعدل بين الظاء ، ، (١) .

ويذهب الدكتور شوقي ضيف إلى أن هذا الغزل روحانى غير ملتاث برغبات الجسد ، وفيه تقديس للجمال وتصوير له فى خشوع . ومن ثم فلا بأس عنده من أن يفتن به غير الشاعر من رواد ناديه ، وأن ينعموا به ويستظلوا بلوائه (٢) . ويعارض هذا رأى الأستاذ عمر الدسوقي ، ويتساءل كيف أن صبرى « المهذب الرقيق الحاشية رجل النادى الذى اشتهر بأنه لا يفحش ، يطلب من محبوبته أن تنزع الثوب عن جسمها أمام الندامى ، لا بل أمام الملائ أجمعين ليروا تكوين سكان السماء . . . ولا شك أن هذه فلتة من فلتات صبرى ، ما فطن إليها ، (٣) .

والأستاذ الناقد يشير إلى بيت الشاعر من هذه القصيدة :

وانزعى عن جسمك الثوب بين الملائ تكوين سكان السماء
وأعتقد أن الدافع ليس روحانياً كما يقول الدكتور شوقي ضيف ، فأى روحانية هذه التى بين رجل وامرأة غريبة عنه ، ثم أى روحانية هذه التى تدعو إلى التجرد للنظر فى محاسن الجسد .

وأعتقد أن الدافع لا يعدو أن كان الشاعر واقعاً تحت تأثير البيئة وتقاليدها وأوضاعها حينذاك . وقد كانت ترى فى المرأة « العامة » التى تخطر أمام أنظار

(١) شعراء مصر للرحوم الأستاذ العقاد ص ٣٤ و ٣٥ .

(٢) دراسات فى الشعر العربى المعاصر للدكتور شوقي ضيف :

(٣) فى الأدب الحديث ج ٢ ص ٢٨٠ .

الرجال ، .. راقصة أو مغنية أو ممثلة أو لاعبة أو عضواً في النادي .. أنها وجمال للجميع ، وأنها نهب مقسم بين الناظرين ، لا يليق أن يختص بها دونهم واحدهم . ولا تزال هذه النظرة قائمة في مجتمعنا حتى اليوم .

هذا ، وإسماعيل صبرى قصير الباع في الشعر الاجتماعي ، لا تكاد تجد في ديوانه قصائد تتم عن اندماج مشاعره بمشاعر المجتمع على مستوى شوقى وحافظ . ولعل أجد ما نظمه في هذا الميدان قصيدته التي قالها على لسان « فرعون » ، يخاطب المصريين ويستنهضهم إلى العمل وهي التي يقول فيها :

لا تقربوا النيل إن لم تعملوا عملاً فثأؤه العذب لم يخلق لكسلان
ردوا الحجر كدداً دون مورده أو فاطلبوا غيره رياء لظمان
وابنوا كما بنت الأجيال قبلكم لا تتركوا بعدكم خيراً الإنسان . الخ (١)

وكان الشاعر محمد عبد المطلب مدرساً يعانى شقاء المعلم في عمله ، ويشعر بما كانت تعانيه طائفة المعلمين من عنت وإرهاق ، وإنكار الفضل وعدم التقدير ، وبما كانت تناسيه من الحرمان لدى الدولة والمجتمع ، ولدى الخاصة والعامة معاً ، فلم تظفر بحقوقها أو مساواتها بغيرها من الطوائف المماثلة .

وفي حفلة أدبية أقيمت عام ١٩٢٤ م بنادى طلبة مدرسة المعلمين العليا نظم قصيدته في موضوع المعلم وفي مشأله .

وقد بدأ بأبيات غزلية رقيقة ، كأنما أراد بها أن يثبت لنقادته قدرته على نظم الشعر الحضارى الغزل - فضلاً عن تعلقه ببدييته . قال :

على النيل من سيف الجزيرة جؤذر هفاتها والحسن بالتيه يأمر
مدل بريعان الصبا فهو ينثنى دلالاتها الجمال ويخطر الخ

والواقع أن أستاذنا كان في غزله مقلداً للقدماء في افتتاحياتهم .
وقد أفاض في وصف شقاء المعلم وبين للناس دأبه المضنى وعمله المتواصل
وحقه المهموم :

بنى مصر ما بال المعلم كاسفاً يرى الناس فيها يكبرون ويصغر
سبيل النبئين الكرام سبيله يعم به الدنيا صلاحاً فتعمر
سلوا عنه جنح الليل كم بات متعباً تنام حواليه النجوم ويسهر
سلوا عنه عيناً قرح السهد جفنها يخط عليها في الظلام ويسطر .. الخ (١)

ولعل شوقي أكثر شعراء مصر الحديثة استجابة لأحوالها الاجتماعية
وعواطف مجتمعيها ، وأوضحهم أداء لصورها الحضارية فله قصائد في : المديح
النبوى ، وهو تعبير كريم عن مشاعر أهل مصر تجاه رسولهم الكريم .
ومنها :

سلوا قلبي غداة سلا وتابا لعل على الجمال له عتابا ... الخ
ومنها :

ولد الهدى فالكائنات ضياء رفم الزمان تبسم وثناء ... الخ
ومنها :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم ... الخ
وقد حلت من قلوب الجماهير المصرية العربية محلها ، وغناها المغنون .
وله قصائد في وصف آثار مصر :
منها :

أبا الهول طال عليك العصر وبلغت في الأرض أقصى العمر ... الخ

ومنها :

درجت على الكنز القرون ومشيت على الدن السنون ... الخ
ومنها :

قنى يا أخت يوشع خبرينا أحاديث القرون الغابرينا ... الخ
وله قصائده فى العمال :

أيها العمال أفنوا العمر كدأ واكتسابا .. الخ
وفى تحية الشباب وتكريمهم وحفزهم إلى العمل من أجل الوطن :
بأبى وروحي الناعمات الغيدا الباسمات عن اليتيم نصيدا ... الخ
وفى انتحار الطلبة :

ناشئ فى الورد من أيامه حسبته الله أبالورد عشر ... الخ
وفى تكريم المعلم :
قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا ... الخ
وفى تكريم الأزهر :
قم فى فم الدنيا وحى الأزهر وانثر على سمع الزمان الجوهرا ... الخ
وفى وصف الصحافة الحديثة :

لكل زمان مضى آية وآية هذا الزمان الصحف ... الخ
وفى تكريم المؤلفين من أصدقائه :
أنا من بدل بالكتب الصحابا لم أجد لى صاحباً إلا الكتابا ... الخ
وفى وصف البال :

حف كأسها الحبيب ففى فضة ذهب .. الخ

وفي السفور والحجاب :

صداح ياملك الكنا روبا أمير البلبل... الخ
ويضيق المقام دون استيعاب محاسن شوقي في هذا الباب - وهو وحده يعتبر
مرآة ناصعة لكثير من أوضاع المجتمع المصرى الجديد ، وما اعترك فيه من
الآفكار ، وما تشابك فيه من العواطف .

بهذه الأمثلة المتعددة ، التى سقناها فى هذه الوجيزة ، من أوطان وعصور
مختلفة ، نعتقد أننا دللنا على مدى ما كان لبيئاتها من آثار ضخمة فى الشعر ، وأن
هذه البيئات صاحبة الأثر الأول والأكبر فى النتاج الشعرى . مع اعترافنا بما يكون
لكل شاعر على حدة من خصائص ذات أثر . وأن الشعراء بنتاجهم هذا كانوا
أبناء بيئاتهم البررة الأوفياء الذين عبروا عنها وسجلوا أحداثها وصوروا حياتها
بما فيها من عواطف وأفكار .

ومصر موطن من هذه المواطن ، وعصرها المملوكى أحد عصورها الطويلة :
وهانحن أولاء نحاول فى الفصول القادمة أن ندرس بيئاتها الأربع فى العصر
المذكور ، دراسة فيها تفصيل وإحاطة مناسبة ، ونتلص أثرها فى نتاج شعرائها ،
لنعرف إلى أى مدى كانت استجابتهم لها وتأثرهم بوحياها ، وإلى أى مدى - تبعاً
لذلك - بلغ مستوى حياتهم وحياتها .

الباب الأول

في

وصف البيئات المصرية

وفيه أربعة فصول

الفصل الأول

في

في وصف البيئة الطبيعية

طبيعة مصر :

مصر بالأمس - في عصر الممالك - هي مصر قبل الأمس ، وكما هي اليوم ، في طبيعتها التي خلقها الله عليها ، طبيعة موقعها ومناخها وفصولها ونباتها ، وتضاريسها ، ونبيلها . لم تتغير على مدى السنين إلا لاما وغرارا في بعض أجزائها .

اللهم إلا في عصور ما قبل التاريخ يوم كانت أرضها هضبة عالية واسعة فسيحة ، قليلة السكان مبعثرة القطان تتضام أجزاءها ، وتلاءم أطرافها . وتمتد فيها صحراء مترامية رملية ، إلى جهة الغرب ، ذات تلال وواحات وأغوار ، تتصل اتصالا مباشرا بصحراء إفريقية الكبرى ، وصحراء مترامية أخرى ، إلى جهة الشرق ، ذات صخور وجبال ، تتعالى كلها شارفت ساحل البحر الأحمر - الذي يفصلها عن آسيا - حيث تمتد عليه شواطئها الشرقية . وكان يسمى بحر « القلزم » ، وفي شمال أحد خليجيّه - وهو خليج السويس - كانت تتصل بصحراء سيناء ، حتى فصلت بينهما قناة السويس التي حفرت في العصر الحديث .

وتأخذ هذه الهضبة في الانخفاض في اتجاهها الشمالي نحو البحر المتوسط - « البحر الرومي » - حيث تمتد شواطئها الشمالية .

ثم حدث - على ما يرويه بعض علماء الجغرافية - تشقق في هذه الهضبة - التي هي جزء من الهضبة الإفريقية الشاملة - وذلك بفعل زلزال شديد ، صدع أرضها ،

وشق سطحها ، وأقام بين جزئها أخدوداً ضيقاً ، هياً للماء المنحدر من أعاليه في الجهات الاستوائية والحبشية ، أن يتدفق فيه ، فيملاً شعابه ويكون لنفسه مجرى ، ويسيل منحدرأ نحو الشمال ، مارأ بصعيد مصر ، ثم إلى وجهها البحري ، مكوناً في أرضه دلتاه ، صاباً في البحر المتوسط « جهة رشيد » ، ثم تفرع منه إلى الشرق فرع آخر ، اتجه شمالاً نحو البحر المتوسط أيضاً صاباً فيه بجوار دمياط .

ومن طمى النهر وغرينه كسا النهر جانبيه ودلتاه طبقة خصبة . وكان لها منه على مدى الأيام الغذاء والكمساء . ويبدو أن النهر تعددت في دلتاه فروعها ، وشقت منه جداول عدة كانت تسمى خلجاناً^(١) . وسنشير إليها .

هذا الماء أو النهر هو النيل المبارك السعيد ، الذي أجراه الله - منذ أجراه - لمصر حياة لها ، ومدا لوجودها ، ورزقا ميسراً لسكانها ، وأمنأ وجمالاً لقطانها . لقد وهب النيل لمصر بمائه وطميه ، الرى والخصب والطعام والثروة . لقد نجم على جانبيه النبات ، واخضر العشب . ونما الشجر وازدهر ، وهوم الطير وبني أعشاشه . ونزح الحيوان فاغتذى وروى عطاشه . واطمأن الإنسان ووفدت جماعاته ، لتعيش بجوار النيل على حفافيه ، وتقاربت شعباً وحد الوطن المشترك بينهم ، وجمع البلد الواحد بين قلوب أفرادهم^(٢) .

ويجرى النيل في مصر آنياً من السودان مرفوداً من الحبشة . فيمر على أسوان في شق من الأرض ضيق ، حوله من كل جانب من جانبيه جبل هو جزء من الهضبة التي أشرنا إليها . ويستمر معه الجبلان إلى الشمال ، وهو يسير نحو دلتاه ، كأنهما حارسان . ويفصل كل جبل عن شاطئه القريب منه فاصل ضيق من أرض زراعية أخصبها النيل وكساها وسقاها .

(١) راجع صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٢ — وخطط المقرئى ج ١ ص ١١٢ وما بعدها .

(٢) كتاب مؤتمر النيل — بحث للدكتور سليمان حزين ص ٣٠ .

ونقل لك هنا شيئاً في وصف طبيعتها ، معتمدين على ماكتبه علماءها في العصر المملوكي فمن ذلك :

قول المقرئى عن تضاريسها :

« ويكتنفها في العرض إلى منتهاها جبلان أحدهما في الضفة الشرقية من النيل ، وهو المقطم . والآخر في الضفة الغربية منه . والنيل امتشرف فيما بينهما . وهما جبلان أجردان غير شائخين ، يتقاربان جداً في وصفهما من لدن أسوان إلى أن ينتهيا إلى الفسطاط . ثم يتسع ما بينهما ويتفرج قليلاً . ويأخذ المقطم منها مشرقاً ، والآخر مغرباً ، على رواب في مأخذيها وتفرج في مسلكيهما . فتتسع أرض مصر من الفسطاط إلى ساحل البحر الرومى الذى عليه الفرماوتنيس ودمياط ورشيد والإسكندرية (١) . »

ويقول القلقشندي : « والمقطم يسامت الفسطاط وربما أطلق على جميع الجبل . ويليه من جهة الشمال « البحاميم » ، وهى الجبال المتفرقة المطلة على القاهرة من جانبها الشرقى . وسميت كذلك لاختلاف ألوانها (٢) . »

ويقول المقرئى : « فضل ما بين عرض مدينة أسوان التى هى أوغلها في الجنوب ، وعرض مدينة تنيس التى هى أوغلها في الشمال ، تسعة أجزاء ونحو سدس جزء ، (٣) - »

ويبدو أنه يعنى بالجزء ، ما نعنيه في عصرنا بالدرجة العرضية .

وفي منخفضاتها الشمالية توجد عدة بحيرات منها بحيرة الفيوم ، ويعبر عنها بالبركة وهى بحيرة خلوة بالقرب من الفيوم . قيل : وفيها أسماك كثيرة تتحصل من صيدها جملة كثيرة من المال . وبها من آجام القصب والطرفاء والبردى

(١) خطط المقرئى ج ١ ص ٢٣

(٢) صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٠٩ و ٣١٠ و ٣١١

(٣) خطط المقرئى ج ١ ص ٢٤

ما يتحصل منه المال الكثير^(١) .

وبحيرة بوقير وماؤها ملح ، وتقع بين الإسكندرية ورشيد ، وبها سمك كثير ومن أنواع الطير كل غريب . وبجوانبها الملاحات التي يحمل منها الملح إلى بلاد الفرنج وغيرها . هذا ، وقد غلب الرمل عليها فجفت في زمان صاحب صبح الأعشى . ومات ما كان يصاد منها من السمك البورى ، وانتهى ما كان يتحصل منها من الملح المنعقد بسواحلها^(٢) .

وبحيرة نستروه . وماؤها ملح ، وتقع بالقرب من البرلس . وسميت باسم قرية قريبة منها اسمها نستروه . وكانت تغل سمكا في كل عام بنحو عشرين ألف دينار^(٣) .

ويبدو أنها هي بحيرة البرلس الحالية .

وبحيرة تنيس . وماؤها ملح أيضاً ومتصلة بالبحر الرومى . ويصب فيها بحر أشموم المتفرع من فرع دمياط ، فيعذب لذلك ماؤها أيام زيادة النيل . وتقع شرق الدقهلية إلى جهة البحر^(٤) .

ويبدو أنها هي بحيرة المنزلة الحالية .

ونما بمصر من النبات على جانبي النيل وخليجانه ، وفي أرضه وبساتينه ، كثير من أنواعه لا تعد ولا تحصى .

وقد ذكر الفلقشندي من زروع مصر مايلي :

البر والشعير والذرة والأرز والباقلى والحمص والعدس والبسلا والجلبان واللوييا والسهم والقرطم والخشخاش والخروع والسلجم وبزر السكتان والبرسيم . وغير ذلك من الحبوب المقتاتة وغيرها .

وقال : وبها قصب السكر في غاية الكثرة . والبطيخ ، والفناء على اختلاف أنواعها . والملوخيا ، والقلقاس ، واللفت ، والبادنجان ، والدباء ،

(١) و٢١ و٤) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٧ ، ٣٠٨

(٤) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٧ و٣٠٨

والهليون ، والقنبيط ، وأنواع البقول المختلفة كالثوم ، والبصل والكراث والفجل وغيرها .

وقال : وأما رباحينها ففيها الآس والورد والبنفسج والرجس والياسمين والنسرين والبان واللينوفر ، وأزهار الحمضات ، والريحان الفارسي على اختلاف أنواعه . والمنثور فيها بقلة ، وإنما كثر بالإسكندرية . إلى غير ذلك من الأنواع التي يشق استيعابها .

وقال : وأما فواكهها ففيها الرطب والعنب والتين والرمان والخوخ والمشمش والقراصيا والبرقوق والتفاح والكمثرى ، والسفرجل بقلة ، واللوز الأخضر ، والنبق والتوت والفرصاد والموز . ولا يوجد فيها الجوز والفستق والبندق والإجاص إلا مجلوبا بعد جفافه . وإن زرع بأرضها شيء من ذلك لم يفلح . والزيتون فيها بقلة . ولا يستخرج منه زيت البتة . وإنما يؤكل ملحاً .

وفيها من الحمضات : الأترج والحماض ، والكباد ، والنارنج ، والليمون ، على اختلاف أنواعها .

وقال : وأما أصناف المطعوم ، ففيها ما يستطاب من الألبان والأجبان والعسل ، الذي لا يساوى حسناً ، ولا يشبهه غيره من سائر الأعسال ، والسكر الكثير من المكرر ، والتبغ ، والوسط ، والنبات . ومنها يجلب إلى أكثر البلاد . قال في مسالك الأبصار : وقد نسي به ما كان يذكر من سكر الأهواز .

وقال : وبها من أنواع الحلوى والأشربة المتخذ ذلك من السكر والأشربة الفائقة ما لا يوجد في غيرها من الأقاليم .

وقال : وبها من لحم الضأن والبقر والمعز ، ما لا يعادله غيره في قطر من الأقطار لطافة ولذة

وقال : ومن محاسنها - محاسن مصر - أن فاكهتها لا يدوم نوع منها في جميع السنة ، فيمل ، بل أتى كل نوع منها في وقت ، فتتشوق النفوس إلى طلبه . ويكون

لقدومه بهجة . ولا يعترض على ذلك بدوام أكل الجنة . فإن الجنة أكلها لا يمل بخلاف مآكل الدنيا . ولأهل الرفاهية بذلك فرحة ، وتتغالى فيه في ابتدائه ، مع أنه يجتمع في الحين الواحد من الفواكه والرياحين ما لا يحتاج معه في زمنه إلى غيره .

وقال : قال المذهب بن ماقى في «قوانين الدواوين» :

« بعثت غلاما لى ليحضر من فكهى القاهرة ما وجد من أنواع الفاكهة والرياحين ، فأحضر لى منها الورد والنرجس والبنفسج والياسمين والمنثور والمرسين والريحان والطلح والبلح والجمار والخيار والبطيخ الأخضر والباقلى ، والتفاح ، والفقوس ، والأترج ، والنارنج والأشياء ، والليمون ، والقرهندى الأخضر ، والعنب والحصرم (١) » .

وروى المقرئى قال :

ومن محاسن مصر أنه يوجد بها فى كل شهر من شهر السنة القبطية صنف من المأكول والمشوم ، دون ماعداه من بقية الشهور . فيقال : رطب توت . ورماني بابيه ، وموزها توت ، وسمك كيهك ، وماء طوبة ، وخروب أمشير ، ولبن برمهات . وورد برمودة ، ونبق بشمش ، وتين بثونة ، وعسل أيلب ، وعنب مسرى (٢) » .

وروى هذه الرواية صاحب صبح الأعشى عن بعض الجوالين فى الآفاق الذى طاف أكثر المعمور من الأرض - واختلف عن المقرئى فى خروب أمشير ولبن برمهات ، فعكسهما . فقال : خروب برمهات ولبن أمشير (٣) .

وقال المقرئى فى ذكر خلجان النيل :

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣١١ و ٣١٢ ، ٣١٣ .

(٢) خطط المقرئى ج ١ ص ٤٤

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣١٣

« قال أبوزهم : كانت الجنات بحافتي النيل من أوله إلى آخره من الجانبين ، ما بين أسوان إلى رشيد ، وسبعة خلج : خليج الإسكندرية ، وخليج سخا ، وخليج دمياط ، وخليج سدوس ، وخليج منف ، ، وخليج الفيوم ، وخليج المنهى ، متصلة لا ينقطع منها شيء ، وزروع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخرها مما يبلغه الماء : وكان جميع أرض مصر كلها تروى يومئذ من ستة عشر ذراعا ، لما قد دبروا من قناطرها وجسورها ، (١) .

وقال أيضاً

ومن محاسنها - محاسن مصر - أن صيفها خريف لكثرة فراكمه ، وشتاءها ربيع لما يكون بمصر حينئذ من القرظ والكتان (٢) ، ود أن الذي ينقطع من الفواكه في سائر البلدان أيام الشتاء يوجد بمصر ، (٣)

وقال أيضاً

« وأرض مصر ذات أجزاء كثيرة ، ويختص كل جزء منها بشيء دون غيره . وعلّة ذلك ضيق عرضها ، واشتغال طولها على عرض الإقليم الثاني والثالث . فإن الصعيد فيه من النخل والسنبط وآجام القصب والبردى ومواضع إحراق الفحم وغير ذلك شيء كثير . والفيوم فيه من النقائع وآجام القصب ومواضع تعطين الكتان شيء كثير . وأسفل أرض مصر فيه من النبات أنواع كثيرة كالقلقاس والموز وغير ذلك . وبالجملّة فكل بقعة من أرض مصر لها أشياء تختص بها وتتفضل عن غيرها ، (٤) .

أما مواشها ووحوشها وطيورها ، فقد ذكرها القلقشندي فقال :

« أما مواشها ، ففيها الإبل المستجادة ، والبقر العظيمات القدود ، والأغنام

(١) الخطط ج ١ ص ٣٦ تحت عنوان « ذكر طرف من فضائل مصر » .

(٢ و٣) الخطط ج ١ ص ٤٤

(٤) - الخطط ج ١ ص ٦٩

المستطابة اللحوم ، والخيول المسومة . والبغال النفيسة ، والجر الفارحة ، مما ليس له نظير في إقليم من الأقاليم ، ولا مصر من الأمصار .

وأما وحوشها . ففي براريها الغزلان ، والنعام ، والأرانب ، والثعالب ، والضباع ، والذئاب ، وغير ذلك . ويجلب إلى سلطانها الفيلة والزرافات ، وغيرها من الوحوش من البلاد القاصية ، والسباع من بلاد الشام من مملكته لتسكون في إسطبلاته زينة لمملكته .

وأما طيورها ففيها من الطيور الدواجن في البيوت : الدجاج ، والإوز والحم . ومن الطيور البرية : الصقر والعقاب والنسر والكركي ، واللغلم والأوز التركي ، والمرزم والبجع والبشون والجرج ، والحجل والكروان ، والسماني ، والبلبل . وسائر أنواع العصفير ، والأنواع المختلفة من طيور الماء .

ويجلب إلى سلطانها سائر أنواع الجوارح الصائدة ، على اختلاف أجناسها من أقاصى البلدان . ويقع التغالى في أثمانها للغاية القصوى . . الخ^(١)

هذه بعض خيرات مصر ، وأجزاء طبيعتها ، ومشاهدها ، كما تراءت في العصر المملوكى وقبله . وما تزال ماثلة فيها حتى يومنا هذا ، إلا ما ندر ، مما تناولته يد الطبيعة نفسها أو يد التهذيب ، فغيرت منه بالزيادة أو النقص :

وبسبب هذه الخيرات والثروة العظيمة ، وبسبب موقع مصر ، هذا الموقع المتوسط ، بين الشرق والغرب ، وبين الشمال والجنوب ، في دنيا العالم القديم ، مما جعلها مراً تجارياً هاماً ، وجعلها مراداً للسياحة والرحلة والتجارة بل ولطلب العلم ، وبالجمله بسبب أهمية موقعها هذا كانت - وما تزال - موضع طمع الطامعين ولهج الغزاة الفاتحين من كل حذب وصوب ، من حول حدودها ، أو بعيداً عنها .

وفي العصور الغابرة غزاها - مثلاً - من الشرق العماقة والفرس والعرب .
ومن الغرب الليبيون ، ومن الشمال المقدونيون واليونان والرومان . ومن
الجنوب النوبيون .

وفي العصور المتوسطة ، دهمها الفاطميون من الغرب وأسسوا فيها دولتهم
التي ظلت زهاء قرنين وأكثر ، ووليها بعدهم الأكراد ، وأخذت في هذه الأثناء
تشتد حملات الصليبيين عليها ، وهم في الجملة أهل أوربا وبخاصة الفرنسيون
والإنجليز .

ولما آلت سلطنتها إلى أمراء المماليك ، عانت مع الحملات الصليبية الوافدة
إليها من أوربا ، حملات التتار الوافدة إليها من الشرق ومن قلب آسيا وبلاد
الصين ، ثم ظهرت في الأفق دولة العثمانيين النازلة من آسيا الصغرى . نصبرت
مصر لهؤلاء الأعداء الثلاثة صبرا طويلا وكاختمهم كفاحا نبيلًا ، حتى تغلب
العثمانيون عليها أخيراً .

اضطر أهل مصر ، إذن ، بحكم موقعها ، وبحكم هذا الطمع في بلادهم ، أن
يعيشوا منذ عصور الفراعنة حتى نهاية العصر المملوكي - وكما يعيشون في لحظتهم
الراهنة - ذادة مكافحين يناخون دون أرضها ويجاهدون الغزاة عنها ، ويردون
الطامعين فيها ، لذلك امتلأ تاريخهم بالحروب وأنبيائها ، وفاضت حياتهم بالقتال
وأخباره ، وأكثر ما حاربوا كانوا في أرض فلسطين والشام ، وفي سبيل بلادهم
العزيزة يحملوا كل تضحية في النفس والمال ، وكل بذل في الرأي والحيلة ، وكل
مغامرة في سبيل أهدافها وإعلاء شأنها ، والحفاظ عليها كريمة حرة عزيزة ، وعلى
ثروتها موفورة ذاخرة ، ساعين ما استطاعوا إلى إقرار السلام ، والدعوة إلى
التعاون والتفاهم والمودة ، عاملين على المشاركة في بناء حضارة الإنسان .

ولا عجب فصر لهم مصدر العطف والحنان ، ومصدر الأمن والاطمئنان .
لهم فيها الهواء والماء والملبس والغذاء ، والمأوى والوقاء ، بل لهم فيها الأمل الذي

ينشدونه ، والحلم الذى يحملونه . . ولهم فيها الرفيقة الوفية والأبناء . والأهل والصهر والأقرباء . والخلصان والأفياء . ولهم فيها مراحات اللهو والذكرى ، ومراتع الصبا وأربع الشباب .

هكذا كانت مصر فى عصر المماليك . هى أرض طيبة ، ونيل مبارك ، وخصب منتشر . ورخاء مقبل ، ونبت صاعد ، وشجر وارف ، وزهر ضاحك ، وثمر ناضج ، وطير مغرد ، وحيوان طبع ، وإنسان أمل عامل ، وعابد متوكل خاضع ، وشعب واع يقظ قانع ، وشكره لله دائماً ، على ما وهب من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، مع مسالة للصدق ، ومقاومة للعدو . دون منافقة فى إلف ، ولا فجور فى خصومة ، ولا دعوة إلى شر ، ولا نكول عن خير .

قال الفلقشندي عن مصر :

« أما محاسنها ، فلا شك أن مصر ، مع ما اشتملت عليه من الفضائل ، وحفت به من المآثر ، أعظم الأقاليم خطراً وأجلها قدراً ، وأخفها مملكة ، وأطيبها تربة ، وأخفها ماء ، وأحسنها ثماراً ، وأعد لها هواء وألطفها ساكناً .

ولذلك ترى الناس يرحلون إياها وفوداً ، ويفدون عليها من كل ناحية ، وقل أن يخرج منها من دخلها ، أو يرحل عنها من ولجها ، مع ما اشتملت عليه من حسن المنظر وبهجة الروق ، لاسيما فى زمن الربيع ، وما يبدو بها من الزروع التى تملأ العين وسامة وحسناً ، وتروق صورة ومعنى (١) ،

ومصر واقعة فى المنطقة المعتدلة الشمالية ماعدا جزءاً يسيراً فى جنوبها واقعاً فى المنطقة الاستوائية ، ولهذا تجد مناخها معتدلاً فى جملته ، ويميل إلى الدفء فى أغلب أيام السنة ، مع سماء صافية تتألاً بنجومها . إلا أن بعض أسابيع فصل

الصيف يشتد حرها ويتطرف ، وبعض أسابيع فصل الشتاء يزيد بردها ويشد وتغيم سماؤها . ولكن هذا يسير ومحتمل بجانب المناخ المعتدل الدافئ الذى يصاحب أغلب السنة كما أشرنا . وهذا لا يمنع القول إن السواحل أكثر اعتدالا من الأماكن البعيدة عنها ، وبخاصة المواطن النائية فى صحاروات مصر ، فإنها إلى التطرف أميل ، وإلى القارية أدنى . فيزيد حرها أغلب الصيف وبردها أكثر الشتاء . وبلاد الصعيد فى جملة أمرها أبعد عن الاعتدال إذا قُرنت ببلاد الوجه البحرى .

والملاحظ بناء على ما شرحنا ، أن فصول السنة على جانبي النيل ، لا تفترق فى مناخها افتراقا متباينا ، فهى فى جملة أمرها قريبة التماثل والتشابه . ولعل لذلك كله أثره فى اعتدال مزاج الشعب المصرى فى جملته أيضاً ، وعدم ميله إلى التطرف الشديد فى معالجة أموره ومشاكله ، وجنوحه أولا إلى الملاينة والمصانعة والتفاهم فى مسألة وموادعة ، حتى إذا ما استنفد الجهد صبره ، واستغرق المشكل حيلته ، اشتد وعنف ، بعد أن رق ولطف .

ولا يفقد أبداً أمله ، وإن بلغ مشارف اليأس . هكذا عوده النيل ، فإنه مهما نقص فلا بد له من فيض ، ومهما تأخر فلا مناص له من قدوم ، ومهما شرقت معه الأرض ، فلا بد له من معاودتها بالوفاء ...

نهر النيل :

وليس بمستغرب أن يسوس النهر العظيم أخلاق الشعب الكريم ، وأن يطبعه بطابعه . وسترى كيف كان أثره الضخم فى نفوس أديبائه وشعرائه ، لقد سرح بخيالهم كل مسرح وراح به كل مراح ، وأطافه كل مطاف . فتصوروه حبيبا شغل قلب عروسه ، ومولا كريما يحب بالفضة والذهب ، وملسكا راعيا يتفقد أحوال رعيته ، إلى غير ذلك مما ستقصه عليك فى حينه .

وہ وسلم الجغرافيون والمؤرخون القدامى -- وهم يتحدثون عن النيل ومنابعه --
من سرحات الخيال ومداعبات العاطفة .

ولعل الذي نسميه نحن اليوم خيالاً ووهماً ، كان في تقديرهم حينذاك ضرباً
من الحقيقة . وهذا غاية ما يذهب النفس من السحر والبحر .

ولقد تتابعت حديثاً رحلات الكشف إلى منابع النيل ومساقط مياهه في كل
ناحية . ودارت حوله من كل جانب ، حتى رأى الكاشفون هذه المنابع على
حقيقتها رأى العين ، وصوروها عن خبرة ومعاينة ، ووضعوا لها المصورات
الموضحة الدقيقة . وأصبحت المعلومات عن النيل في هذه الناحية ، من مقررات
العلم ومسلّماته . وبجملها أنه ينبع من المنطقة الاستوائية ويمر على بحيراتها ويدخل
أرض السودان في منطقة بحر الجبل . ويسير إلى الشمال باسم النيل الأبيض ، إذ
يلتقي بالنيل الأزرق وسوبات وعطبرة ، ويتلقى منها المياه القادمة من الحبشة ،
وهي مياه فيضانه . ويصادفه عدة جنادل صخرية في طريقه . ويدخل مصر بالقرب
من حلّفا ، سائراً نحو الشمال . حيث يتفرع إلى فرعيه فرع رشيد وفرع دمياط ،
اللذين يصبان في البحر المتوسط .

والمنبع الاستوائي هو المنبع الدائم حيث تسقط الأمطار الاستوائية
الدائمة . والمنبع الحبشي هو المنبع الموسمي الذي يسقط فيه الأمطار الموسمية
الصيفية هناك على جبال الحبشة ، بغزارة ، فتتحت وهي منهمة جبالها وصخورها
السوداء وتحيلها إلى هذا الغرين العجيب المخصب .

أما القدماء فقد ذهبوا مذاهب ، وهم مسحورون بجلال النيل كما سحر الأدباء
والشعراء . وهم معذرون في تصورهم وفي تقديرهم . فمن أين يأتي هذا النهر المبارك
العظيم ، وبهذا الفيض الغامر من الماء العذب المخصب ، فيهب الحياة والرزق ،
ويبشر بالأمل والسعادة ؟ لا بد أنه يأتي من جهة مباركة مقدسة ... لا بد أنه يأتي
الجنة . فهو إذّاك ورثها ...

إن شعراء مصر - إلى وقتنا هذا - يقول أحدهم :

النيل العذب هو الكوثر والجنة شاطئه الأكبر

لقد ذكر المقرئى ، أو نقل ، أن النيل ينبع هو ونهر الفرات من سدرة المنتهى . وروى ما حدث به ابن عبد الحكم عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أنه قال : « النيل مصر سيد الأنهار . سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب . فإذا أراد الله أن يجرى نيل مصر ، أمر كل نهر أن يمدده . فتمده الأنهار بمائها . وجر الله له الأرض عيونا ، فأجرته إلى ما أراد الله عز وجل . فإذا انتهت جريته ، أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره . (١) »

وروى عن كعب الأحبار أنه قال : « أربعة أنهار من الجنة وضعها الله في الدنيا : النيل نهر العسل في الجنة . والفرات نهر الخمر في الجنة . وسيحان نهر الماء في الجنة . وجيحان نهر اللبن في الجنة . (٢) »

وروى أن المسعودى قال : « نهر النيل من سادات الأنهار وأشراف البحار ، لأنه يخرج من الجنة ، على ما ورد به خبر الشريعة (٣) . »

وروى المقرئى هذه القصة الطريفة ، وهى قصة رحلة كشف قديمة لمنابع النيل . فقال ما ملخصه :

« كان الوليد^(٤) بن دؤمغ العمليق قد خرج فى جيش كفيف ، يتنقل فى البلدان ويقهر ملوكها ، ليسكن ما يوافقهم منها . ثم سنج له أن يخرج ليقف على مصب النيل ، فيعرف ما بحافتيه من الأمم . فأقام ثلاث سنين يستعد لخروجه . وخرج فى جيش عظيم ، فلم يمر بأمة إلا أبادها . ومر على أمم

(١) الخطط ج ١ ص ٨٠ ، ٨١

(٢) المصدر نفسه ص ٨١

(٣) المصدر نفسه ص ٨١

(٤) ذكره صبح الأعشى فى ج ٥ ص ٤٨٥ .

السودان وجاوزهم . ومر على أرض الذهب ، فرأى فيها قضباناً نابثة من ذهب . ولم يزل يسير ، حتى بلغ البطيخة التي ينصب ماء النيل فيها من الأنهار التي تخرج من تحت جبل القمر (١) . وسار حتى بلغ هبكل الشمس . وتجاوزه حتى بلغ جبل القمر . وهو جبل عال - وإنما سمي جبل القمر ، لأن القمر لا يطلع عليه ، لأنه خارج من تحت خط الاستواء - ونظر إلى النيل يخرج من تحته ، فيمر في طرائق وأنهار دقاق ، حتى ينتهي إلى حظيرتين ، ثم يخرج منهما في نهرين حتى ينتهي إلى حظيرة أخرى . فإذا جاوز خط الاستواء ، مدته عين ، تخرج من ناحية نهر مكران بالهند . وتلك العين تخرج أيضاً من تحت جبل القمر ، إلى ذلك الوجه . ويقال إن نهر مكران مثل النيل يزيد وينقص وفيه التماسيح والأسماك التي مثل أسماك النيل ... (٢)

ويبدو أن المراد بالحظيرتين والحظيرة ، البحيرات .

وروى المقرئ كذلك فقال : « وذكر قوم من أهل الأثر أن الأنهار الأربعة ، تخرج من أصل واحد من قبة في أرض الذهب ، التي من وراء البحر المظلم ، وهي سيحون وجيحون والفرات والنيل وأن تلك الأرض من أرض الجنة . وأن تلك القبة من زبرجد ، وأنها قبل أن تسلك البحر المظلم أحلى من العسل وأطيب رائحة من الكافور ، (٣) »

ويستمر المقرئ في نقل آراء الجغرافيين أو أشباه الجغرافيين ممن تحدثوا عن منابع النيل وحدسوا مساقطها ومخارجها ، ثم يخلص منها جميعاً بأن يقرر رأيه الذي انتهى إليه في هذا الموضوع ، على ضوء الآراء المتقدمة ، فيقول :
« والذي تحصل من هذا القول أن النيل يخرج من جبل القمر ، وأن زيادته إنما هي من فيض البحر عند المد . فأما كون مخرجه من جبل القمر فسلم ، إذ

(١) القمر : بفتح أوله وثانيه ؛ أو بضم أوله وسكون ثانيه .

(٢) الخطط ج ١ ص ٨٤

(٣) المصدر نفسه ص ٨٤ .

لا نزاع في ذلك . أما كون زيادته لا تكون إلا من ردع البحر له بما حصل فيه من المد ، فليس كذلك . نعم ، توالى هبوب الرياح الشمالية على وفور الزيادة ، وردع البحر له إعانة على الزيادة . ومن تأمل النيل علم أن سيلا سال فيه ، ولا بد . فإنه لا يزال أيام الشتاء وأوائل فصل الربيع ، ماؤه صافيا من السكرة . فإذا فرغت أيام زيادته وكان في غاية نقصه تغير طعمه ، ومال لونه إلى الخضرة . وصار بحيث إذا وضع في إناء يرسب منه شبه أجزاء صغيرة من طحلب . وسبب ذلك أن البطيخة التي في أعالي الجنوب تردها الفيلة ونحوها من الوحوش ، حتى يتغير ماؤها ، فإذا كثرت أمطار الجنوب في فصل الصيف ، وعظمت السيول الهابطة في هذه البطيخة ، فاض منها ما تغير من الماء ، وجرى إلى أرض مصر . فيقال عند ذلك « توحم النيل » . ولا يزال الماء كذلك حتى يعقبه ماء متغير ويزاد عكره بزيادة الماء . فإذا وضع منه أيام الزيادة شيء في إناء ، رسب بأسفله طين لم يعمد فيه قبل أيام الزيادة . وهذا الطين هو الذي تحمله السيول التي تنصب في النيل حتى تكون زيادته منها . ، (١)

ولما تحدث القلقشندي عن النيل ، أراح نفسه بادى ذى بدء وقال : « أما ابتداءه وانتهاءه ، فاعلم أن ابتداه من أول الخراب الذي هو جنوبي خط الاستواء ، المقدم ذكره ، ولذلك عسر الوقوف على حقيقة خبره » . (٢)

ثم قال : « وقد ذكر الحكما أنه ينحدر من جبل القمر » بفتح القاف والميم كما هو المشهور . وإما بضم القاف وسكون الميم ، كما نقله في « تقويم البلدان » عن ضبط ياقوت في « المشترك » . وابن سعيد في « معجمه » . (٣)

(١) المصدر نفسه ص ٩٠ راجع أيضا مسالك الأبصار ج ١ ص ٦٧ - راجع أيضا ما كتب عن النيل في حسن المحاضرة .

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٨٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٩٠ ، ٢٩١ .

ثم نقل الفلقشندي أقوالاً أخرى في وصف منبعه وانحداره ومجراه وتنقله وجناده وفروعه ، إلى غير ذلك . (١)

وهكذا ترى مبلغ تصوراتهم وخيالاتهم عن النيل وما يتصل به .

فيضانه ومقياسه :

وللنيل - كما نوهنا - موسم فيضان في كل عام . يرتفع في إبانها ماؤه في مجراه رويدا رويدا في يوليو وأغسطس وسبتمبر ، ويبلغ عادة في سبتمبر أقصى ارتفاع له . ويثبت في أكتوبر ونوفمبر أو يأخذ في النقص رويدا ، ثم ينقص إلى أن يشح ويبلغ نهاية نقصه في إبريل ومايو ويونيو . وهي شهور التحريق .

وسبب فيضانه - كما نوهنا أيضا - هبوط الأمطار الغزيرة على بلاد الحبشة في موسم الصيف لهبوب الرياح الموسمية الصيفية عليها ، آتية من جهة الشرق مارة بالمحيط . فتتملى وديان الحبشة بالماء وهي روافد النيل وأهمها النيل الأزرق . فتتدفق في مجراه ، وتربو على مياه منبعه الدائم الاستوائى .

وكانوا في العصر المملوكي - كما اعتادوا - يضبطون مواعيد الفيضان والوفاء بالشهور القبطية ، لاطراد الحساب بها واتساق مواعيدها . ويبلغ النيل حد الوفاء عادة في شهر مسرى .

وقال المقرئ :

« ويبتدىء النيل بالتنفس والزيادة بقية بثونة . وهو حزين - وأبيب - وهو تموز - ومسرى - وهو آب . فإذا كان الماء زائداً ، زاد شهر توت كله ، وهو أيلول ، إلى انقضائه ، (٢) .

(١) المصدر نفسه ص ٢٩٠ ، ٢٩١

(٢) الخطوط ١ ص ٩٥ ط مطبعة النيل عام ١٣٢٤ هـ

وكان اعتماد الزراعة في مصر ، على مياه الفيضان وارتفاعها . فإذا بلغ الماء ستة عشر ذراعاً عم أراضى الحياض ، ولم تشرق الأرض ، وإذا نفص عنها خيف الشرق والجذب والقحط والغلاء ، وإذا زاد عنها إلى ثمانية عشر ذراعاً خيف الغرق والبوار والأوبئة .

فإذا عم الماء الأرض بفيضانه وغطاها ، ثم نفص وتراجع ، انكشفت الأرض ، ثم أخذت سيلها إلى الجفاف ، ويزرعها الزراع ، وينتظرونها إلى وقت الحصاد .

وهذا الرى ، وهو رى الحياض ، تشير إليه رسالة عمرو بن العاص إلى سيدنا عمر ، ويصف بها أرض مصر ، يقول :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء . طولها شهر . وعرضها عشر . يكتنفها جبل أغبر . ورمل أعفر ، يخط وسطها نهر مبارك الغدوات . ميمون الروحات . تجرى فيه الزبادة والنقصان . كجرى الشمس والقمر له أوان . . . يدر حلابه ويكثر فيه ذبابه . . ثمرة عيون الأرض وينابيعها . حتى إذا اصطخب بجواجه . وتعظمت أمواجه . فاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض ، إلا في صغار المراكب وخفاف القوارب . وزوارق كأنهن في الخيال . ورق الأصايل . فإذا تكامل في زورته ، نكص على عقبه كأول ما بدأ في جريته ، وطأ في درته ، فعند ذلك تخرج أهل مله محفورة . وذمة مخفورة . يحرثون بطون الأرض . ويبذرون بها الحب . يرجون بذلك النماء من الرب . لغيرهم ماسعوا من كدهم ، فناله منهم بغير جد هم . فإذا أحرق الزرع وأشرق ، سقاه الندى . وغذاه من تحت الثرى .

فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤاؤة بيضاء . إذ هي عنبرة سوداء . فإذا هي زمردة خضراء . فإذا هي ديباجة رقشاء . فتبارك الله الفعال لما يشاء ، (١) .

ومهما قيل في هذا النص ، فهو يصور حالة مصر والأرض الزراعية فيها ،
وفضان النيل إليها وتغطيته لها وسقيها وكسوتها بالطمى ، ثم تكشف مائه عنها ،
وزرعها ، ثم ظهور نباتها أخضر ، وزهورها ذات ألوان .

ولها بذلك أربعة أدوار . مرة تكون أرضها لؤلؤة بيضاء ، حينما يعلوها الماء
ويعمها ، فتلمع تحت أشعة الشمس ببيضاء ناصعة ، وتصبح قراها في وسط هذا الماء
الغامر ، كالجزر في البحر ، تصل بينها الزوارق كالخسائم البيضاء أو غيرها ،
لقلاعها المشورة .

ومرة تكون عنبرة سوداء ، حينما يتكشف من فوقها الماء وينحسر عنها عائداً
إلى مجرى النيل بعد تغطية وري ظلاً أسابيع متعددة ، تسرب منها بقاياها ، لنقص
مياهاه وانقطاع فيضه ، فتعود إلى مجراه ، فيخرج الزراع ليبذروا الحب ، وهم يرجون
الثمار أو النماء من الرب .

ومرة تكون زمردة خضراء ، وذلك إذا نبت النبات ، ونجم الزرع ، أخضر
نضراً لبناً ، كالحياة الجديدة الآملة . ويظل النبات هكذا زمناً ، إلى أن يقترب
من إبان نضجه

ومرة تكون ديباجة رقشاء ، وثوباً مزخرفاً فيه ألوان بهيجة وأشكال بديعة
وتهاويل معجبة ، وذلك حينما تبدو الأوراق الخضراء ، والأزهار المتفتحة الملونة ،
والثمار الناضجة .

وقد ذكر المسعودى مصر فقال : « وصف الحكماء مصر فقالوا : ثلاثة أشهر
لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة
أشهر سبيكة حمراء .

فاللؤلؤة البيضاء ، زمان النيل ، والمسكة السوداء ، زمان نضوب الماء عن
أرضها ، والزمردة الخضراء ، زمان طلوع زرعها ، والسبيكة الحمراء ، زمان هيج
الزرع واكتهاله (١) .

وهذا الوصف . هو الوصف نفسه الذى جاء فى رسالة عمرو بن العاص ،
على وجه التقريب .

ولم تكن مصر تعرف فى قديمها الرى الصيفى « المستديم » بل عرفت ذلك فى
العصر الحديث . فبنت السدود على النيل — وما تزال تبنيها — وخزنت المياه
فى جزء من مجراه ، أو فى بحيرات صناعية متصلة به . ومن ثم استطاعت أن
تستفيد من مياه فيضانه أكثر من قبل ، وأن تتحكم فيها ، ولو إلى حد ، وأن تنظم
دورات زراعية فى الأرض ، متوالية يكثر بها المحصول ، ويتنوع . بدلا من
الاقتصار على دورة واحدة كل عام .

ولكن فى العصور الماضية — وفى جملتها العصر المملوكى — كان المتبع هُورى
الحياص وهو مرتبط ارتباطاً كلياً بمواعيد فيضان النيل ووفائه ونقصه وتخلقه
وتراجعه . ولهذا اهتموا بمراقبته مراقبة دقيقة .

ورثوا هذا الاهتمام من أسلافهم . فقد أقاموا للنيل مقياساً يتبين عنده زيادة
مائه ونقصه . وتعلقت نفوسهم بهذا المقياس علواً وانخفاضاً . فإذا علا الماء عنده
زفت البشرى وعمت الفرحة وقرب الأمل فى اليسر والرخاء . وإذا نقص أو لم
يف فى موعد الوفاء ، تبلبلت الخواطر وخيف الجذب وتوقع القحط والغلاء .
وإذا زاد عن حده خشى الغرق وعمت الشكوى .

ولمقياس النيل تاريخ حافل . وقد أفردته بالبحث فى باب طويل ، صاحب
« تقويم النيل » ، ويستخلص مما رواه ، ومأراه المقرئى ، وأبو المحاسن ،
والسيوطى وغيرهم ما يلى (١) .

١ — أن مصر عرفت «مقياس النيل قبل دخول الإسلام إليها . ومنها «مقياس

(١) راجع تقويم النيل لأمين سامى ج ١ ص ٦٥ وما بعدها . وخطط المقرئى ج ١ ص ٩٢
تحت عنوان «مقياس النيل وزيادته وحسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٢٠ تحت عنوان « ذكر المقياس » .
(م ١٠ — عصر المماليك)

منف ، ، قيل إن يوسف عليه السلام هو الذى بناه . ومقياس إخميم ، وقيل إن دلوكة المملكة العجوز أقامته ببلاد إخميم ، وقيل أقامت مقياساً آخر فى أنصنا .

٢ - أنه بنى بمصر عدة مقاييس بعد دخول الإسلام إليها . ومنها : مقياس قيل إن عمرو بن العاص بناه عند أسوان ، ثم عند دندرة ، ثم عند أنصنا . وقال المقرئى إنه بناه ببحلوان . - ولعله بنى عدة مقاييس فى جهات متعددة . ومنها مقياس بناه عبد العزيز بن مروان والى مصر ، ببحلوان عام ٨٠ هـ . ومنها مقياس بناه أسامة بن زيد التنوخى - وكان عاملاً على خراج مصر - بجزيرة الروضة - فى خلافة الوليد بن عبد الملك . ثم أبطل . وبنى مقياساً غيره فى الروضة أيضاً عام ٩٧ هـ فى خلافة سليمان بن عبد الملك . ومنها مقياس أقامه الخليفة المأمون بالروضة أيضاً بدلا من مقياس أسامة الذى هدمه الماء ، وذلك عام ١٩٩ هـ . وقد أتمه الخليفة المتوكل العباسى عام ٢٤٧ هـ وهو أكبر المقاييس . وقد بنى فى ولاية يزيد بن عبد الملك على مصر . وقدم من العراق محمد بن كثير المهندس فتولى بناءه . - ومنها مقياس يقال إن أحمد بن طولون بناه فى الجزيرة أيضاً .

هذا وأهم المقاييس قبل الإسلام ، مقياس منف . وبعد الإسلام مقياس المتوكل بالروضة .

ومقياس الروضة هذا هو الذى ظل مستعملاً طول عصر المماليك . وقد أمر الأشرف قايتباى عام ٨٨٦ هـ ، بتجديد بعض أماكنه وإصلاح أساسه (١) .

وقد روى المقرئى فى وصف المقياس ، ما يلى ، قال :

« والمقياس عمود رخام أبيض مشتمن ، فى موضع ينحصر فيه الماء عند أنسيابه إليه . وهذا العمود مفصل على اثنين وعشرين ذراعاً . كل ذراع مفصل على أربعة

وعشرين قسماً متساوية تعرف بالأصابع . ماعدا الاثنى عشر ذراعاً الأولى ، فإنها مفصلة على ثمان وعشرين أصبعاً ، كل ذراع . والأذرع الأولى هي السفلى ، .

وقيل في سبب اختلاف تقسيم أذرعه ، ما يلي : - وقد ذكره المقرئى نقلاً عن القضاعى عن الحسن بن محمد بن عبد المنعم . ونقله السيوطى أيضاً :

« لما فتحت العرب مصر . عرف عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ما يلقى أهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن حده في مقياس لهم . فضلاً عن تقاصره . وأن فرط الاستشعار يدعوهم إلى الاحتكار . وأن الاحتكار يدعو إلى تصاعد الأسعار ، بغير قحط .

فكتب عمر إلى عمرو ، يسأله عن شرح الحال . فأجابه :

« إني وجدت ما تروى به مصر ، حتى لا يقحط أهلها ، أربعة عشر ذراعاً . والحد الذى يروى منه سائرنا حتى يفضل عن حاجتهم ، ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ، ستة عشر . والنهائيتان الخوفتان في الزيادة والنقصان - وهما الظماً والاستبحار - اثنا عشر ذراعاً في النقصان . وثمانية عشر ذراعاً في الزيادة ، .

هذا ، والبلد في ذلك الوقت ، محفور الأنهار معقود الجسور عندما تسلبوه من القبط ، وخميرة العبارة فيه .

فاستشار أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، علياً رضى الله عنه ، في ذلك . فأشار أن يكتب إليه ، أن يبنى مقياساً ، وأن ينقص ذراعين من اثني عشر ذراعاً ، وأن يقر ما بعدها على الأصل ، وأن ينقص من كل ذراع بعد الستة عشر ذراعاً أصبعين . ففعل ذلك ، وبناه بجلوان .

فاجتمع له بذلك كل ما أراد من حل الإرجاف ، وزوال ما منه كان يخاف . بأن جعل الاثنى عشر ذراعاً أربع عشرة ، لأن كل ذراع أربع وعشرون أصبعاً . فجعلها ثمانية وعشرين ، من أولها إلى الاثنى عشر ذراعاً . يكون مبلغ الزيادة على

الاثنى عشر ثمانيا وأربعين إصبعا . وهى الذراعان . وجعل الأربع عشرة ست عشرة . والست عشرة ثمانى عشرة ، والثمانى عشرة عشرين ^(١) .

وهذا التقدير لمناسيب مياه الفيضان ، لم يثبت تماماً فيما بعد ، وطراً عليه تغيير وتعديل بلا ريب .

الاحتفال بوفاته :

وقد وكل بالمقياس من يلاحظ ارتفاع الماء عنده باستمرار ، إذا حان موسم الفيضان . ويبشر الناس بكل زيادة ، ويصعد إلى السلطان بأخبارها بين الحين والحين .

واشتهر طيلة عصر المماليك اسم « ابن أبى الرداد » وكان مختصاً بمراقبة المقياس والبشارة بمناسيب الماء عنده .

وأصل ابن أبى الرداد هذا ، يرجع إلى الفقيه عبد الله بن عبد السلام بن أبى الرداد المؤذن ، وكان أصله من البصرة ، فقدم إلى مصر وحدث بها . فلما بنى المتوكل مقياس الروضة عام ٢٤٧ هـ ، أمر ألا يتولى أمره إلا رجل من المسلمين ، فاختار القاضى بكار بن قتيبة ، بن أبى الرداد الفقيه ، لمراقبة المقياس ، وأجرى عليه الرزق .

وقد توفى ابن أبى الرداد المذكور فى عام ٢٦٦ هـ ، وبقي عمله ورثاً فى ذريته ، فظلوا يتوارثونه واحداً بعد آخر ، وظلوا كذلك طول العصر المملوكى .

وكان للنداء بالزيادة أثر هام فى حياة الناس والدولة معاً . والمعتاد أن حد الوفاء هو ستة عشر ذراعاً ، وعندها يستحق الخراج . وإذا لم يبلغ الماء هذا الحد ، كان الشرق ، وإذا زاد على ثمانية عشر ذراعاً كان الغرق .

(١) راجع خطط القرى ج ١ ص ٩٢ تحت عنوان « مقياس النيل وزيادته » - وحسن المحاضرة لسبوطى ج ٢ ص ٢٢٠ تحت عنوان « ذكر المقياس » .

وكانوا يضبطون مواعيد الفيزان بالشهور القبطية^(١)، ويقع الوفاء - كما ذكرنا - عادة في مسرى . فيحتفل السلطان أو من ينوب عنه بعيد وفاء النيل . وتختلف أبهة الاحتفال وعظمته والعناية به باختلاف الأيام والظروف والشخصيات المختلفة .

وكان الاحتفال تقليداً من تقاليد الدولة . فبرأس السلطان بنفسه هذا الاحتفال - كما فعل برقوق عام ٨٠٠ هـ ، والمؤيد شيخ عام ٨١٦ هـ والناصر بن قايتباى عام ٩٠٣ هـ ، والظاهر خشقدم عام ٨٧٠ هـ ، وكما شارك فيه قانصوه الغورى عام ٩١٧ هـ - .

أر ينوب السلطان نائباً عنه - والمعتاد أنه ينوب عنه نائب سلطنته أو أتابكى جنده . وقد يندب أميراً آخر من كبار أمراءه كالاستادار أو الدوادار .

ويجرى الاحتفال - عادة - نهاراً . ولعلها المرة الوحيدة التي احتفل بهذا العيد ليلاً ، فيها ، وذلك عام ٩٠٣ هـ الذى رأس الاحتفال فيه الناصر محمد ابن قايتباى .

ويجرى الاحتفال بأن يركب السلطان أو مندوبه ، سفينة تتبعها سفن أخرى كثيرة ملأى برجال الدولة والجنود ، تسير بهم إلى جهة المقياس بجزيرة الروضة ، فيشاهدونه ويشاهدون الماء عنده ومدى ارتفاعه ، ويخلقون عمود المقياس - أى يطلونه بالخلق ، وهو نوع من العطور - ويدورون إلى موضع السد وهو فى فم الخليج الكبير - خليج أمير المؤمنين - فيكسر السد على مرأى منهم ، فتتدفق مياه النيل فى الخليج . ثم يأكلون ويشربون ويلهون أحياناً بضروب من اللو ثم يعودون . وتسكس بعد ذلك سدود خلجان أخرى من خلجان النيل ، ويخلع السلطان الخلع ويهدى الهدايا .

(١) راجع بدائع الزهور لابن إياس فى خلال حوادث كل عام - وراجع النجوم الزاهرة لأبى المحاسن فى أعقاب كل عام . وراجع أيضاً تقويم النيل لأمين سائى .

وفي مناسبات الفيزان والوفاء وأعياده ، ينظم الشعراء مقطوعاتهم وقصائدهم وما توحى به إلى خواطرم هذه الأيام الحافلة السعيدة ، كما تكتب البشارات النثرية بعبارات منظومة أدبية شاعرية . وتبعث إلى الجهات لتقرأ فيها إعلانا بالفيزان والوفاء .

وفي بعض السنين أمر السلطان بقراءة القرآن الكريم في ليلة الاحتفال بجوار المقياس . وأمر بمبيت قضاة الشرع هناك .

واعتاد الناس في يوم عيد الوفاء أن يخرجوا في سفن نيلية يرتادون بها خلجان مصر ، أو يتجمعون على جانبيها طلباً للهو والمتعة والتفرج والعبث . وإذا لم يف النيل في ميعاده ، صدر أمر السلطان فيخرج القضاة والناس للاستسقاء ، أو لقراءة القرآن والحديث والدعاء ، طلباً للوفاء ، واستشفاعاً إلى الله لإجراء الماء .

وفي عام ٨٦٦ هـ تأخر ماء الفيزان عن حد الوفاء في ميعاده . فأفتى الشيخ أمين الدين يحيى الأقصرائي - أحد أعلام علماء الدين حينذاك - للسلطان خشققدم ، سلطان العصر ، بأن يستعين ببنى العباس صغاراً وكباراً ، وأن يضعوا في أفواههم ماء . ثم يمجوه في إناء ويصب في فسقية المقياس ففعلوا فزاد . . . (١) .

وكما يستسقون طلباً للزيادة يستسقون طلباً للهبوط إذا طغى الفيزان وخيف الضرر . كما وقع في عام ٧٦١ هـ .

خلجانه وقناطره :

يقول المقرئ :

• اعلم أن النيل إذا انتهت زيادته ، فتحت منه خلجان وترع . يتخرق الماء

(١) بدائع الزهور ج ٢ ص ٧٤ ، ٧٥ - وتقوم النيل ج ١ ص ٢٢٣ .

فيها يمينا وشمالا ، إلى البلاد البعيدة عن مجرى النيل . وأكثر الخلجان والترع والجسور والأخوار ، بالوجه البحرى . أما الوجه القبلى وهو بلاد الصعيد ، فإن ذلك قليل فيه ، وقد ذهبت معاملة ودرست رسومه من هنالك ، (١) .

وهو يعنى بالخلجان ، الجداول التى تشق فى إحدى النواحي ، وتستمد المياه من النيل ، أو من خليج آخر .

قال المقرئى :

« والمشهور من الخلجان . خليج منجا . وخليج منف . وخليج المنهى . وخليج أشموم طنّاح وخليج سردوس . وخليج الإسكندرية . وخليج دمياط . وخليج القاهرة . وبحر أبى المنجا . والخليج الناصرى ظاهر القاهرة ، (٢) ، وقد أشرنا من قبل إلى رواية له أخرى عنها .

وقد ردد المقرئى قول ابن عبد الحكم عن أبى زهم السماعى : فقال : « كانت مصر ذات قناطر وجسور بتقدير وتدبير ، حتى إن الماء ليجرى تحت منازلها وأفنيها ، فيحبسونه كيف شاءوا ويرسلونه كيف شاءوا ، (٣) .

ونعتقد أن حبس الماء هنا لرى الناس ولضروراتهم ، لا لسقى الأرض وزرعها زراعا عاما للغلات الأساسية .

وعدد المقرئى مرة أخرى نقلا عن ابن الحكيم ، هذه الخلجان بشىء من التغيير . ونعتقد أيضاً أن هذه هى الحالة الغالبة فى مصر ، التى كانت أيام المماليك . فقد تعددت خلجان النيل حينذاك . بقصد إيصال الماء إلى الجهات النائية عن النيل ، ثم لحبس جزء منها لسقى الناس وضروراتهم ، على مدى أيام السنة . علما بأن مدينة كالفسطاط كانت تسقى من ماء النيل مباشرة ، لقربها منه ، ومدينة

(١) الخطط ج ١ ص ١١٢ تحت عنوان « ذكر الخلجان التى شقت من النيل »

(٢) الخطط ج ١ ص ١١٢ .

(٣) الخطط ج ١ ص ١١٢ .

كافة هرة ، كانت تستعين بالآبار في بعض أيام السنة ، لبعدها عن ماء النيل . وتشرب من مائه بخاصة في أيام دخوله في الخليج (١) .

وفوق هذه الخليجان كانت تقام القناطر ، وقد تقام على جانبي إحدى القناطر محال للبيع والشراء والتفرج . وعلى جانبي هذه الخليجان كانت تنشأ الحدائق والبساتين والأبنية والعمائر ، والأسواق ، وتكثر الزروع ، ويزدحم الناس من السكان والمارة والمرتاذين . وقد يتصل ما بين قنطرة وأخرى بالمباني أو البساتين أو الأشجار المظلة .

وروى المقرئى قال : « اعلم أن قناطر الخليج الكبير عدتها الآن أربع عشرة قنطرة ، وعلى خليج فم الخور قنطرة واحدة ، وعلى خليج الذكر قنطرة واحدة ، وعلى الخليج الناصرى خمس قناطر ، وعلى بحر أبى المنجى قنطرة عظيمة ، وبالجزيرة عدة قناطر » (٢) .

وعلى سبيل المثال نذكر لك ما سجله المقرئى عن « قناطر الأوز » . وتصويره نعتبره نموذجاً لما كان لغيرها ، على وجه الإجمال ، ويرسم منظر أ من مناظر ذلك الزمان . قال :

« هذه القناطر على الخليج الكبير ، يتوصل إليها من الحسينية . ويسلك من فوقها إلى أراضى البعل وغيرها ، وهى أيضاً مما أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة خمس وعشرين وسبعائة . وأدركت هناك أملاً كامطلة على الخليج بعد سنة ثمانين وسبعائة . وهذه القناطر من أحسن متنزهاة أهل القاهرة ، أيام الخليج ، لما يصير فيه من الماء ، ولما على حافته الشرقية من البساتين الأنيقة . إلا أنها الآن قد خربت . وتجاه هذه القنطرة منظر البعل — التى تقدم ذكرها عند ذكر مناظر الخلفاء — وبقيت آثارها إلى الآن . أدركناها يعطن فيها الكتان . وبها عرفت

(١) الخطط ج ٢ ص ١٨٦ .

(٢) الخطط ج ٣ ص ٢٣٧ .

الأرض التي هناك فسميت إلى الآن بأرض البعل . وكان هناك صف من شجر السنط ، قد امتد من تجاه قناطر الأوز ، إلى منظرة البعل ، وصار فاصلا بين مزرعتين ، يجلس الناس تحته في يومى الأحد والجمعة ، للنزهة . فيكون هناك من أصناف الناس رجالهم ونسائهم ، مالا يقع عليه حصر . ويباع هناك ما كل كثيرة .

وكان هناك حانوت من طين ، تجاه القنطرة ، يباع فيها السمك ، أدركتها وقد استؤجرت بخمسة آلاف درهم فى السنة ، عنها يومئذ نحو مائتين وخمسين مثقالا من الذهب ، على أنه لا يباع فيها السمك إلا نحو ثلاثة أشهر ، أو دون ذلك ولم يزل هذا السنط إلى نحو سنة تسعين وسبعائة . فقطع . وإلى اليوم تجتمع الناس هناك . ولكن شتان بين ما أدركنا وبين ما هو الآن . وقيل لها قناطر الأوز . (١)

وقال المقرئى فى سياق حديثه عن قنطرة الحاجب ، وكانت على الخليج الناصرى الذى حفره الناصر بن قلاوون . وكانت تصل ما بين أرض الطبالة إلى منية السيرج . أى من جهة بركة الرطلى إلى أقاصى شبرا الآن ، - قال المقرئى :

« ولما عمرت هذه القنطرة ، اتصلت العمائر فيما بينها وبين كوم الريش ، وعمر قبالتها ربع ، عرف برقع الزيتى . وكان على ظهر القنطرة صفان من حوانيت ، وعليها سقيفة ، تقى جر الشمس وغيره . » (٢)

وقد عنينا بالتنبؤ بالخلجان والقناطر هنا ، عقب حديثنا عن النيل ، لأنها تتم طبيعته ، وتعتبر جزءاً من البيئة الطبيعية المصرية ، لصلتها الوثيقة بمياه

(١) الخطط ج ٣ ص ٢٤٠ .

(٢) الخطط ج ٣ ص ٢٤٦ .

النهر وبقيضانه ونقصانه ، وما ينشأ حوله من البساتين ، وما يؤسس من المنازه العامة والخاصة ، ذات الزروع والأشجار والأزهار . وإن كانت مظهراً من مظاهر الحضارة والمدنية ، ذا صلة بالحياة والبيئة الاجتماعية

منازه مصر والقاهرة :

ومنازه مصر والقاهرة كثيرة كانت حينذاك ، عدا الخللجان والقناطر . وكان القاهري إذا احتاج إلى فرجة في النيل مشى مسافة بعيدة بظاهرها بين المباني التي خارج السور ، إلى موضع يعرف بالمقس . وجوها لا يبرح كدرا بما تثير الأرجل من التراب . (١)

وأحسن موضع في ظواهرها للفرجة أرض الطبالة ، لا سيما أرض القرط والسكتان . وكان يجرى في هذه الأرض خليج ينور نوار السكتان على جانبيه (٢)

وكانت بركة الفيل في ظاهر القاهرة وكانت دائرة كالبدر . والمناظر فوقها كالنجوم . واعتاد بعض السلاطين أن يركب فيها بالليل ، ويسرج أصحاب المناظر على قدر همتهم وقدرتهم فيكون بذلك لها منظر عجيب (٣)
قال المقرئ :

« وقد دخلت في الخليج الذي بين القاهرة ومصر ، ومعظم عمارته فيما يلي القاهرة . فرأيت فيه من ذلك العجائب ، وربما وقع فيه قتل بسبب المسكر ، فيمنع فيه الشرب . وذلك في بعض الأحيان . وهو ضيق . عليه في الجهتين مناظر كثيرة العمارات بعالم الطرب والتهمك والمخالعة . حتى إن المحترمين والرؤساء لا يجيزون العبور به في مركب . وللسرج على جانبيه منظر فتان . وكثيراً ما يتفرج فيه أهل السمر بالليل » . (٤)

(١) و (٢) الخطط ج ٢ ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٣) الخطط ج ٢ ص ٨٨ - وج ٣ ص ٢٦٢ .

(٤) الخطط ج ٢ ص ١٩ .

وخليج أمير المؤمنين ، أو الخليج الكبير ، وهو الذى يحتفل بكسره سده يوم الاحتفال بعيد الوفاء . حفر فى عهد سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - عام ٢٣ هـ أيام حكم عمرو بن العاص . وكان يصل النيل ببحر القلزم - البحر الأحمر - ويبدأ من مصر ويمر على القاهرة وتجرى فيه السفن ، لتقرب بين الحجاز ومصر ، أيام الفيضان . وفى طريقه يمر على بستان « المشتى » . قال المقرئ :

« وما برح هذا الخليج منزها لأهل القاهرة يعبرون فيه بالمراكب للنزهة ، إلى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج المعروف الآن بالخليج المصرى . » (١)

وقال : « قال جامع سيرة الناصر محمد بن قلاوون : وفى سنة ٧٠٦ هـ رسم الأميران بيبرس وسلار بمنع الشخاتير والمراكب من دخول الخليج الحاكى ، والتفرج فيه ، بسبب ما حصل من الفساد والتظاهر بالمنكرات ... الخ . » (٢)

وقال عن الخليج الناصرى ما يجمله . « يخرج من بحر النيل ويصب فى الخليج الكبير . أنشأه الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٢٥ هـ من النيل مارا بناحية سرياقوس . وصار هذا الخليج موطن أفراح ، ومنازل هو ، ومغنى صبايات ، وملعب أنراب ، ومحل تيه وقصف ، فيما يمر من المراكب وفيما عليه من الدور . وما برحت مراكب النزهة تمر فيه بأنواع الناس على سبيل اللهو ، إلى أن منعت المراكب منه وكانت عليه جملة من القناطر ... الخ . » (٣)

ومن أهم منازله القاهرة « بركة الرطلى » . وكانت من جملة أرض الطبالة . وعرفت ببركة الطوايين ، فقد كان يضرب فيها الطوب . فلما حفر الخليج الناصرى مر بجوارها ، وصب فى الخليج الكبير ، من مجرى أرض الطبالة . فروى ماؤه

(١) الخطط ج ٣ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٢) الخطط ج ٣ ص ٢٣٣ :

(٣) الخطط ج ٣ ص ٢٤١ .

أرض هذه البركة وملأها . وكان في إحدى زواياها نخل كثير وبحوار النخل شخص يصنع الأبطال الحديد، فنسبت إليه البركة وقيل : « بركة الرطلى » ، وبقيت النخيل مدة طويلة . وأقيم جسر بين البركة والخليج . فعمر المكان وتتابع الناس فبنوا الدور حول البركة حتى لم يبق بدائرها مكان خال . وصارت المراكب تعبر إليها من الخليج الناصري ، وتدور تحت البيوت مشحونة بالناس في أحوال من اللهو يقصر عنها الوصف . وتظاهر الناس في المراكب بأنواع المنكرات .

فإذا نضب ماء النيل وتراجع ، جفت البركة وزرعت بالقرظ وغيره . وكان الناس يجتمعون فيها حينذاك بكثرة في يوم الأحد والجمعة . قال المقرئ : « وأدركت بهذه البركة من بعد سنة سبعين وسبعائة إلى سنة ثمانمائة أوقاتا انكفت فيها عمن كان بها أيدي الغير ، ورقدت عن أهلها أعين الحوادث ، وساعدهم الوقت إذ الناس ناس ، والزمان زمان . . . الخ »^(١)

أقول : وقد ظلت هذه البركة على شئ كثير من عمارها وزهوها وزينتها ، وكان يسكن بالقرب منها كثير من أعيان الناس وظلت منزلها للقاهريين ، إلى أن أبطل ملاحها السلطان الأشرف طوماي باي في آخر الدولة ، زمان اشتباكها مع العثمانيين ، فلهذا البركة الخراب والبوار .^(٢)

ومن المنازة « بركة الحبش » . قال المقرئ : إننا من أشهر برك مصر . وكانت في ظاهر القسطنطينية جنوبها بين الجبل والنيل . قال : « وظلت عامرة إلى وقتنا هذا ،

وقال : « وأحسن ما وصفت به بركة الحبش قول عيسى بن موسى الهاشمي أمير مصر وقد خرج إلى الميدان الذي بطرف المقابر . فقال لمن معه : « أتأملون الذي أرى ، ؟ قالوا : « وما الذي يرى الأمير ، ؟ قال : أرى ميدان رهان . وجنان

(١) راجع الخطوط ج ٣ ص ٢٦٣ ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٢) راجع بدائع ابن أبياس تاريخ القوي وطومان باي ،

نخل . وبستان شجر ، ومنازل سكنى . وذروة جبل . وجبابة أموات ، ونهرا
عجاجة . وأرض زرع ، ومراعى ماشية ، ومرتع خيل ، وساحل بحر ، وصائد
نهر . وقانص وحش . وملاح سفينة . وحادى إبل . ومقازة رمل . وسهلا وجبال .
فهذه ثمانية عشر منزها فى أقل من ميل فى ميل . ، (١)

ومن أحب المنازه إلى القاهريين جزيرة الروضة . . وهى الجزيرة البارزة
فى مجرى النيل بين الفسطاط والجيزة . وهذه الجزيرة لها تاريخ حافل عظيم . وقد
اهتم بها العالم الكبير جلال الدين السيوطى ، فألف فيها مؤلفا قويا اسمه « كوكب
الروضة » ، لا يزال إلى اليوم مخطوطا . وقد حشد فيه كل المعلومات التى استطاع
جمعها عن الروضة وتاريخها والملوك والأمراء الذين اهتموا بها ، والأبنية التى
بنت عليها ، والصناعات التى قامت فيها ، والبساتين التى أنشئت فى نواحيها ،
والزروع والثمار التى نضجت فى أرضها ، ومبلغ صلتها بالنيل وفيضانه ومقياسه ،
وما قيل فى ذلك كله من أحاديث وأخبار وسير ومن شعر ونثر . فهو كتاب
جامع عظيم النفع ، يغنى عن أسفار ودراوين . وقد اعتمدنا كثيرا على أخباره ،
وانتفعنا بما أورده من النصوص الشعرية ، وسيتبين لك هذا ، فى الفصل الأول
من الباب الثانى ، من هذا البحث .

وتلخص أخبار هذه الجزيرة فى أنها كانت تسمى « الجزيرة » فقط أو « جزيرة
مصر » . واتخذها الناس وبعض الأعيان بل الأمراء والسلاطين منزها ومفترجا
يرتاضون فيه ، بل يقيمون . وقد أنشأ بها الإخشيد منزها خاصا سماه « المختار » ،
وعمره بالبساتين والدور والخزائن . ثم أنشأ بها الأفضل شاهنشاه بن أمير
الجيوش بدر الجمالى ، مكانا نزها سماه « الروضة » ، وتردد إليها كثيرا . فصارت
الجزيرة كلها تعرف بالروضة . ثم إن الخليفة الفاطمى الأمر بأحكام الله أحب
حسنا بدوية تسمى « العالية » رغبت عن سكنى قصورة ، فبنى لها فى الروضة ،

مكاناً نزهاً جديداً بجوار المختار سماه « الهودج » . وكان بها مكان آخر يسمى «المشتهى» من المنازه التي أنشأها الفاطميون (١) . وهذه الجزيرة هي التي بنى فيها الملك الصالح نجم الدين الأيوبي « قلعة الروضة » وأسكن فيها عماليكه ، وسماه « البحرية » .

وقال تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج في كتابه « إبقاظ المتغفل و اتعاط المتأمل » :

« وإنما سميت جزيرة مصر بالروضة لأنه لم يكن بالديار المصرية مثلها . وبحر النيل حائز لها ودائر عليها . وكانت حصينة وفيها من البساتين والثمار ما لم يكن في غيرها . ولما فتح عمرو بن العاص مصر ، تحصن الروم بها مدة . فلما طال حصارها وهرب الروم منها خرب عمرو بن العاص بعض أبراجها وأسوارها ، وكانت مستديرة عليها ، واستمرت إلى أن عمر حصنها أحمد بن طولون في سنة ٢٦٢هـ ولم يزل هذا الحصن حتى خربه النيل » (٢) .

وقال علي بن سعيد في كتاب « المغرب في حلى المغرب » :

« الروضة أمام القسطاط ، فيما بينها وبين مناظر الجيزة . وبها مقياس النيل . وكانت متزهة لأهل مصر . فاخترها الملك الصالح بن الملك الكامل سرير السلطنة ، وبنى فيها قلعة مسورة بسور ساطع اللون محكم البناء على السمك ، لم تر عيني أحسن منه . وفي هذه الجزيرة كان « الهودج » الذي بناه الخليفة الأمر ، لزوجه البدوية التي هام في حبها » (٣) .

وقال زين الدين بن الوردى في كتابه « فريدة العجائب وفريدة الغرائب » ، ما نصه :

(١) راجع الخطط ج ٣ ص ٢٨٩ .

(٢) كوكب الروضة للسيوطي ورقة رقم ١١

(٣) كوكب الروضة للسيوطي ورقة رقم ١١ .

« وقبالة القسطاط الجزيرة المعروفه بالروضة . وهى جزيرة يحيط بها بحر النيل من جميع جهاتها . بها فرج ونزه ومقاصف وقصور ، ودور وبساتين . وتسمى هذه الجزيرة « دار المقياس » . وكانت فى أيام بعض ملوك مصر ، يحتاز إليها على جسر من السفن ، فيه ثلاثون سفينة . وكان بها قلعة عظيمة تخربت . وبها المقياس ، يحيط به أبنية دائرة على عمد ، وفى وسطه فسقية عميقة ، ينزل إليها بدرج من الرخام دائرة ، وفى وسطها عمود رخام قائم ، وفيه رسوم أعداد الأذرع والأصابع ، يعبر إليها الماء من قناة عريضة » (١) .

وروى المقرئى أن جميع الجزر التى فى النيل ، حدثت فى الإسلام ، ماعدا جزيرة الروضة (٢) .

هذا . ومن منازله القاهرة ومفترجاتها أيضاً « الأزبكية » ، التى أنشأها الاتابكى الأمير أربك بن ططخ ، منذ عام ٨٨٠ هـ . وسنذكر إليها وإلى « بركة الرطلى » ، أيضاً ، إشارة قريبة ، عند حديثنا عن البيئة الاجتماعية .

بحار مصر :

وتقع البلاد المصرية على بحرين عظيمين . إذ تمتد سواحلها الشمالية على البحر المتوسط الذى تقع عليه السواحل الشمالية لإفريقية ، والسواحل الجنوبية لأوربا . ويتصل بالمحيط الأطلسى عن طريق مضيق جبل طارق . ويمتد البحر المتوسط شرقا حتى تقع عليه السواحل الغربية لآسيا .

وتمتد السواحل الشرقية لمصر ، على البحر الأحمر ، الذى ينتهى من ناحية الشمال بخليج السويس والعقبة . ومن ناحية الجنوب إلى مضيق باب المندب الذى يصله بالمحيط الهندى .

(١) المصدر نفسه ورقة رقم ١١ .

(٢) المصدر نفسه ورقة رقم ١٢ .

بحر الروم :

هو ما يطلق عليه الآن « البحر المتوسط » . وفي العصور الوسطى ، عرف
ببحر الروم أو البحر الرومى ، وقد أضيف إلى الروم ، اسكنى أمهم عليه من
شماليه . وقد يقال له أيضاً : « البحر الشامى » ، لوقوع سواحل الشام عليه .

وهو حد مصر الشمالى ، وتطل عليه - آنذاك - عدة بلاد ، منها الإسكندرية
ودمياط وتنيس والفرما والعريش وغيرها . هو نهاية مصب النيل .

ومخرجه من جهة الغرب ، بين الأندلس والمغرب ، سائرا إلى القسطنطينية .
ويقال إن الإسكندر الجبار حفر مجراه من المحيط الغربى . وأن جزيرة الأندلس
وبلاد البربر ، كانت أرضاً واحدة ، وكثر بين أهلها النزاع ، فخر زقاقاً بينهما ،
وعقد عليه قنطرة ، وضع على طرفيها حراساً ، لا يسمحون بالمرور إلا بإذن .

فإذا خرج بحر الروم من هذا الزقاق ، مر مشرقاً إلى بلاد البربر وشمال
المغرب الأقصى ، إلى وسط بلاد المغرب ، على إفريقية وبرقة والإسكندرية
وشمال التيه وأرض فلسطين ، والسواحل من بلاد الشام . ثم يعطف إلى أنطاكية
فبلاد القسطنطينية .

وقيل إن فيه مائة وسبعين جزيرة عامرة ، فيها أمم كثيرة . منها صقلية
وإقريطش .

وبعد الإسكندرية يسير شرقاً إلى مصب فرقة النيل الشرقية . وبعدها إلى
رشيد (١) .

بحر القلزم .

هو ما يطلق عليه الآن « البحر الأحمر » . وفي العصور الوسطى عرف ببحر

(١) الخط المقيزى ج ١ ص ٢٦ تحت عنوان البحر الرومى - وصبح الأعشى ج ٣ ص ٢٢٤
وما بعدها .

القلزم - بضم القاف والزاي - والقلزم واحد القلازم ، وهى الدواهي والمضايقات .
ومنه د بجر القلزم ، لأنه مضيق بين جبال . وعرف بذلك أيضاً ، لأنه كان بساحله
الغربي فى شرق أرض مصر ، مدينة تسمى د القلزم ، ، فسمى هذا البحر باسمها .
وقد خربت .

وبجر القلزم خليج من المحيط الشرقى ، يجاوزه إلى بلاد اليمن ، ماراً على
سواحل مهرة ، أول بلاد اليمن ، ويمتد من شمالها على سواحل اليمن ، حتى
ينتهى إلى مدينة عدن - فرضة اليمن - ثم إلى باب المندب ، وهو فرضة بين جبلين .
ثم يمتد شمالاً إلى الجحفة ، وهى ميعات الإحرام لأهل مصر ، ثم يتصل بدينج .
ثم يجاوز مدين حتى يقارب أيلة ، وهى من كور مصر ، حتى ينتهى إلى فرضة
الطور ، وهى مكان حط وإقلاع لمراكب الديار المصرية وما يصل إليها من اليمن
وغيرها . ويمر فى الشمال حتى يصل إلى فرضة السويس . وهى مكان حط وإقلاع
لليار المصرية أيضاً . وعنده ينتهى بر العرب ببحر القلزم . ثم يمتد موازياً لبلاد
الصعيد ، حتى ينتهى إلى مدينة د القلزم ، التى ينسب إليها هذا البحر ، ويقابلها من
بر الحجاز أيلة ، ثم يسامت الطور ، ثم يمتد إلى القصير ، وهى فرضة قوص . ثم
عذاب فرضتها أيضاً . إلى سواحل السودان ، حتى يصير عند سواكن . وما يزال
يمتد حتى يصل إلى رأس جبل المندب ، وهناك يضيق ثم يتصل بالمحيط . . . (١)

هذا ، وكان بحر القلزم د البحر الأحمر ، ، طريقاً من طرق مصر ، إلى
الحجاز واليمن ، فى عصر المماليك . سواء أكان ذلك للحج أم الزيارة أو طلب العلم
والمجارة . أو غير ذلك .

ويعتبر من أهم الممرات التجارية بين الشرق والغرب ، وطريقاً لاستيراد
سلع الهند وشرق إفريقيا وغيرهما إلى مصر . وقد استفادت منه مصر فائدة

(١) الخطط المغربية ج ١ ص ٢٤ تحت عنوان بحر القلزم - وصبح الأعشى ج ٣ ص ٢٤٢ .
(١١ م - عصر المماليك)

ضخمة . إذ أكسب موقعها أهمية تجارية كبيرة . درت عليها أرباحا مالية طائلة .

ومنذ عهد السلطان الأشرف الغورى ، أخذ هذا الطريق يفقد جزءا كبيرا من أهميته بالنسبة لمصر ، وذلك بسبب كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، إذ أخذت السفن تدور حوله آتية من الغرب ، قاصدة إلى سواحل الهند وشرق إفريقية وغيرها .

وكان بحر الروم « البحر المتوسط » ، طريقا لاتصال مصر بالشام وسواحل إفريقية الشمالية ، وسواحل البندقية والأندلس ، ونحوها من ثغور جنوب أوروبا . وكان امتدادا لطريق البحر الأحمر إلى بلاد الغرب .

ولكنه كان مصدر خطر على مصر ، أيام الحروب الصليبية . وعن طريقه وفد صليبيو أوروبا إلى سواحل الشام ومصر ، أكثر من مرة ونزلوا بدمياط وغربوها . وتلصصوا منه هم وقراصنة القبارصة ، في سواحل الإسكندرية فنهبوها وعاشوا فيها فسادا أكثر من مرة ، في العصر المملوكى .

والملاحظ أن بحار مصر ، لم تحظ بعناية كبيرة من شعرائها ، حينذاك ، مع أن البحار ومرائنها وشرائطها وأمواجها وتياراتها والسفن التى تنهادى على سطحها من أجمل مشاهد الطبيعة المصرية .

ويبدو أن سبب ذلك ، اضطراب معلومات الناس حينذاك عن هذه البحار . كما أن الحركة العلمية والأدبية ، كانت مركزة ، إلى حد كبير ، فى مدينة القاهرة البعيدة عن هذين البحرين ، وأن البارزين من الأدباء والشعراء كانوا يعيشون فيها ، كدأبهم الغالب فى أكثر العصور ، وهو المعيشة فى العواصم ، حيث رجال الحكم ومرادات الجاه .

ومع ذلك سنظفر بأبيات طريفة - فيما بعد - للأديب شهاب الدين بن حجر

العسقلاني يصف فيها سفينته وهو ذاهب إلى حج بيت الله الحرام ، بالبحر الأحمر .

كما أننا سننظر بأبيات أخرى لشعراء آخرين في وصف « سفن النيل » .

مدن مصر .

وتنتشر مدن مصر وقراها ، على ضفتي النيل ودلتاه وشواطئ بحرها ، وهي أيضا مظهر حضارى ، أو مشهد من مشاهد حياتها الاجتماعية . ولكنها تربض في أماكنها لا تنتقل ، وتقع في مواطنها ثابتة لا تريم ، فتكسب بطول المقام وإلف العين ، صفة الطبيعة الخالدة ، وتصبح قطعة من البيئة الطبيعية .

ويزدها ما تقع عليه من النهر وجداوله ، أو البحر وثنياته ، لصوقا بطبيعة البلاد ، ويضفي عليها ذلك كله جلالة وقسمة -

ومن أشهرها لذلك العهد :

القاهرة :

العاصمة الخالدة ، مقر الحكومة المصرية اليوم ، وعاصمة الجمهورية العربية المتحدة الفتية . ومركز الثقافة العربية والإسلامية الحديثة ، ومنتدى السياسة العربية المسكخة .

وهي - اليوم - ممتدة من سفح المقطم إلى النيل ، مع اتساع كبير إلى الجنوب في اتجاه حلوان ، وإلى الشرق في اتجاه عين شمس والمأظنة .

وهي اليوم - في عصرنا الحديث الثورى - من أكبر مدن الشرق وأجملها ، وأمنها مدنية وحضارة . وهي أكثرها دور تعليم وجامعات ، وأفتنها مباني ومنشآت ، فضلا عما بها من مخلفات العصور الماضية وآثارها ، وبذلك جمعت بين قديمها والتالد ، وحديثها الطريف .

ويقول عنها تقي الدين المقرئى ما ملخصه :

« إن القاهرة المعزية ، رابع موضع انتقل إليه سرير السلطنة ، من أرض مصر ، في الدولة الإسلامية . وكان قبلها في الفسطاط فالعسكر فالقطائع . إلى أن قدم القائد جرهر الصقلي بعساكر مولاه المعز لدين الله الفاطمي . فبنى القاهرة حصنا ومعقلا . وصارت دار خلافة ينزلها الخليفة بجرمه وخواصه . إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية ، فسكنها من بعدهم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ثم من وليه من أسرته على مصر . »

وكان صلاح الدين قد بنى قلعة الجبل . ويبدو أن أول من سكنها من ملوك الأيوبيين هو الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب . ومن ثم صارت هذه القلعة مقر الحكم وسكن الملوك إلى نهاية العصر المملوكي .^(١)

ويقول المقرئزي أيضا ، نقلا عن ابن عبد الظاهر في كتابه « الروضة البهية الزاهرة » ، وعن غيره ، ما ملخصه :

« وفي الحقيقة ، القاهرة المعز التي أنشأها القائد جوهر ، عند قدومه من حضرة مولاه المعز لدين الله أبي تميم معد ، إلى مصر في شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، إنما هي ما دار عليه السور فقط . غير أن السور الذي أداره القائد جوهر ، تغير وعمل ، منذ بنيت إلى زماننا هذا ، ثلاث مرات . ثم حدثت العائرفيا وراء السور من القاهرة ، فصار يقال لداخل السور : « القاهرة » . ولما خرج عن السور : « ظاهر القاهرة » . »

ويقول أيضا ما ملخصه :

« والآن تطلق القاهرة على ما حازه السور الحجر الذي طوله من باب زويلة الكبير ، إلى باب الفتوح وباب النصر . وعرضه من باب سعادة وباب الخوخة ، إلى باب البرقية والباب المحروق . »

(١) راجع الخطط المقرئزية ج ٢ ص ١٥٧ تحت عنوان « ذكر القاهرة القاهرة المعز لدين الله » .

ثم لما توسع الناس في العمارة بظاهر القاهرة . وبنوا خارج باب زويلة ، حتى اتصلت العماير بمدينة فسطاط مصر . وبنوا خارج باب الفتوح وباب النصر ، إلى أن انتهت العماير إلى الريدانية . وبنوا خارج باب القنطرة ، إلى حيث الموضع الذى يقال له « بولاق » ، حيث شاطئ النيل . وامتدوا بالعمارة من بولاق على الشاطئ إلى أن اتصلت بمنشأة المهراني . وبنوا خارج باب البرقية والباب المحروق ، إلى سفح الجبل بطول السور . صار حينئذ العامر بالسكنى على قسمين : أحدهما يقال له ، « القاهرة » ، والآخر يقال له « مصر » .

فأما مصر ، فإن حدها على ما وقع عليه الاصطلاح في زمننا هذا الذى نحن فيه ، من حد أول قناطر السباع ، إلى طرف بركة الحبش القبلى ، مما بلى بساتين الوزير ، وهذا هو طول حد مصر . وحدها في العرض من شاطئ النيل الذى يعرف قديما بالساحل الجديد ، حيث فم الخليج الكبير وقنطرة السد ، إلى أول القرافة الكبرى .

وأما حد القاهرة ، فإن طولها من قناطر السباع إلى الريدانية ، وعرضها من شاطئ النيل ببولاق ، إلى الجبل الأحمر . ويطلق على ذلك كله « مصر » والقاهرة .

وفي الحقيقة القاهرة المعز التى أنشأها القائد جوهر عند قدومه من حضرة مولاه المعز لدين الله أبى تميم معد ، إلى مصر فى شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، إنما هى ما دار عليه السور فقط . ، (١)

وقد ملأها رجال العصر المملوكى - ملوكا وأمراء ورؤساء وأعيانا - بكثير من العماير والمنشآت ، ومنها المساجد التى هى دور تعليم وعبادة . وسنشير إليها بعد .

(١) راجع الخطط المقيزية ج ٢ ص ١٧٧ تحت عنوان « ذكر حد القاهرة » ، وص ١٧٩ تحت عنوان « ذكر بناء القاهرة » .

وقد خصص المقرئى أكثر كتابه ، الخطط ، للحديث عن القاهرة وأجزائها وعمائرهما إلى زمانه - وقد توفى المقرئى عام ٨٤٥ هـ فذكر المساجد والمدارس ودور الكتبة والزوايا والشوارع والحارات والأزقة ، والمسالك والأبواب والمناظر والقصور ، والجداول والقناطر والجسور ، وغير ذلك .
ومن بين ما كتبه عنها كثير من معالمها فى العصر المملوكى .

الإسكندرية :

يقول المقرئى عنها ما ملخصه : هذه المدينة من أعظم مدائن الدنيا وأقدمها وضعا ، وقد بنيت غير مرة . فلما كانت أيام اليونانيين ، جددوها الإسكندر بن فيليبش المقدونى ، فعرفت به ، . (١)

وتقع الإسكندرية على ساحل بحر الروم . وقد شهدت عصورا مختلفة . وكانت مركز علم وفلسفة ودين ، فى بعض هذه العصور . وبنيت فيها منارتها العجيبة ، وزودت بمكتبتها الشهيرة قديما . وأقيم فيها عمود السوارى المعروف . وكانت أحد مراكز العلم كذلك فى عصر المماليك . ومن أوسع مدن مصر عمرانا حينذاك ، وأحد ثغورها التى تتجرع مع الغرب .

وقد زارها كل من الأشرف قايتباى ، والأشرف الغورى ، زيارة حافلة . وكانت هدفا للصوف الفرنجة وقرصنة قبرص وغيرهم فى العصر المملوكى .

تنيس :

كانت فى جزيرة وسط بحيرة تعرف ببخيرة تنيس - قرب دمياط - ويكون ماؤها فى أكثر الأيام ملحا ، لدخول ماء بحر الروم إليها عند هبوب الرياح الشمالية .

(١) خطط المقرئى ج ١ ص ٢٣٢ تحت عنوان ذكر مدينة الإسكندرية - راجع أيضا تقويم البلدان لأبى الفداء .

بليس :

قصة الحوف . وكان بها أشجار ونخيل كثير ، وهى قاعدة الولاية بالحوف .
ويمر بها من الأنهار الآخذة من النيل حال زيادته ، نهر يعرف ببهر ابن سنجاء .
قال المقرئى :

« وقد خربت منذ عهد الحوادث بديار مصر ، بعد سنة ست وثمانمائة ، بعد
ما أدركنها وبها عمارة كثيرة ، وفيها عدة بساتين . وأهلها أصحاب يسار ونعم
سنية . » (١)

دمياط :

كانت مدينة مسورة على البحر الرومى ، عند المصب الشرقى للنيل . ثم خربت ،
وبنى بالقرب منها بليدة تسمى « المنشية » . وهى ذات أسواق وحمامات ، وكان
خراب دمياط عام ٥٦٤٨ . وكانت أسوارها من منشآت المتوكل الخليفة العباسى .
وكان خرابها بسبب هجوم الفرنجة عليها المرة بعد المرة ، وبخاصة فى العام المذكور .
فاضطر أرباب الدولة إلى هدمها ، تعويقا لهجوم الفرنجة ، ثم إنها جددت
فيما بعد .

ويقول المقرئى :

« وأما دمياط الآن ، فإنها حدثت بعد تخریب مدينة دمياط ، وعمل هناك
أخصاص . وما برحت تزداد إلى أن صارت بلدة كبيرة ، ذات أسواق وحمامات
وجوامع ومدارس ومساجد . ودورها تشرف على النيل الأعظم . ومن ورائها
البساتين ، وهى أحسن بلاد الله منظرأ » (٢) .

رشيدي :

بليدة على غربى النيل ، عند مصبه فى البحر . ومصب النيل فى البحر عند

(١) تقويم البلدان لأبى الفداء ص ١١٩ - وخطط المقرئى ج ١ ص ٢٩٦ .

(٢) تقويم البلدان ص ١١٧ - وخطط المقرئى ج ١ ص ٣٤٤ ، وما بعدها ، ص ٣٦١ .

رشيد خاصة يسمى « الأرمنية » ، وتخافه المراكب عند طلوعها فيه من البحر .
ورشيد على مرحلة شرق الإسكندرية . وهي ثغر جليل على ضفتي النيل
والبحر الملح^(١) .

المحلة :

مدينة كبيرة ذات أسواق . وهي قصبة كور الغربية من الديار المصرية .
ويقال إن في بلاد مصر مائة قرية يقال لكل منها : المحلة (٢) .

أسيوط :

إحدى قصبات الصعيد . قيل إن في جبتها جبل الطير . وحديثه أن يحج إليها
الطير في كل سنة ، ويترك منها واحداً ملعقاً في شقيف (٣) .

أسوان :

قال المقريزي : « أسوان في آخر بلاد الصعيد . وهي ثغر من ثغور الإقليم
يفصل بين النوبة وأرض مصر . وكانت كثيرة الحنطة وغيرها من الحبوب
والفواكه والخضراوات والبقول . وكانت كثيرة الحيوان من الإبل والبقر
والغنم . ولحمانها غابة في الطيب والسمن . وكانت أسعارها أبداً رخيصة ، وبها
تجارات وبضائع تحمل منها إلى بلاد النوبة . ولا يتصل بأسوان من شرقها بلد
إسلامي . وفي جنوبها جبل به معدن الزمرد . وهو في بركة منقطعة عن العمارة .
وعلى خمسة عشر يوماً من أسوان ، معدن الذهب . ويتصل بأسوان من غربها
الواحات . ويسلك من أسوان إلى عيذاب ، ويتوصل من عيذاب إلى الحجاز
وإلى اليمن والهند (٤) » .

(١) ، (٢) تقويم البلدان ص ١١٧ ،

(٣) المرجع نفسه ص ١١٣ .

(٤) الخطط ج ١ ص ٣١٩ تحت عنوان « ذكر مدينة أسوان » .

(٥) راجع هذه المدن وأخبارها في الخطط المقرية ج ١ ، وفي تقويم البلدان لأبي الفداء .

هذا ومدن مصر المشهورة في تلك الحقبة كثيرة العدد . ومنها أيضاً : أنصنا
والجيزة وحلوان وقوص وأسنا . . .

جبال مصر :

ذكرنا في مطلع حديثنا عن طبيعة البلاد المصرية ، أن أرضها هضبة عالية
يشقها نهر النيل هضبتين ، وتترأى أجزاء من هاتين الهضبتين جبالا .
وقد عرف الأقدمون بعض هذه الجبال وتحدثوا عن أخبارها . وننوه هنا
بشيء من ذلك .

قال المقرئى ما ملخصه : أن أرض مصر بأسرها محصورة بين جبلين آخذين
من الجنوب إلى الشمال قليلى الارتفاع — والمقرئى يعنى بأرض مصر نيلها وما
حواله من الأرض الزراعية والمدن العامرة — ويقول : وأحدهما أعظم من الآخر .
والأعظم منهما هو الجبل الشرقى المعروف بجبل لوقا . والغربى جبل صغير وبعضه
غير متصل ببعض . والمسافة بينهما تضيق في بعض المواضع ، وتوسع في بعضها .
وعلى عدم نباتهما بعلى ، منها : أنهما مالخان . وأن قوة طين مصر تجذب منهما الرطوبات
الموافقة في التكوين ولأن قوة الحرارة تحلل منهما الجوهر اللطيف العذب . وكذلك
مياه الآبار منهما مالحة . وذكر أن هذين الجبلين يحفان ما يدفن فيهما . فإن أرض
مصر بالطبع قليلة الأمطار —

وقال : وتتعدد أسماء هذين الجبلين بحسب مواضعهما من الإقليم ، فيطل على
الفسطاط وعلى القاهرة الجبل المقطم^(١) .

جبل المقطم :

يتحدث المقرئى عن جبل المقطم حديثاً غريباً . فيذكر أن أوله من الشرق
من الصين حيث البحر المحيط . وأنه يمر على بلاد الططر ، ويمتد إلى السند إلى

(١) الخطط المقرئية ج ١ ص ١٩٨ تحت عنوان ذكر الجبال .

جيحون . . الخ . حتى ينتهى إلى لبنان فالشام ، حتى يصل إلى بحر القلزم من جهة ، ويتصل من الجهة الأخرى ويسمى المقطم -

ويبدو أن المقرئى بهذه الدرة يربط سلاسل جبال آسيا بمقطم مصر ، ويرى أنها جميعا جبل واحد يتشعب ويمتد بأسماء مختلفة . ولذلك استمر مع امتداد المقطم على جانبي النيل حتى أوصله إلى جبال المغرب .

وقال : إنه عرف بمقطم بن مصر ايم بن بيسر بن حسام بن نوح عليه السلام . وقيل إن مصر ايم بن بيسر ، كما كشف ما فى هذا الجبل من كنوز مصر وفيها الذهب والزرجد والفيروز وغير ذلك ، وقد وصف له عمل الصنعة - يعنى الكيمياء - جعل أمرها إلى رجل من أهل بيعة يقال له مقيطام الحكيم ، فكان يعمل الكيمياء فى الجبل الشرقى ، فسمى به المقطم .

وروى عن السكندى فى فضائل مصر أن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - سار فى سفح الجبل المقطم ومعه المقوقس فقال له :

ما لجبلكم هذا أقرع ليس به نبات كجبال الشام ، فلو شققنا فى أسفله نهرا من النيل وغرسناه نخلا فقال المقوقس : « وجدنا فى المكتب أنه كان أكثر الجبال أشجارا ونباتا وفاكهة (١) .

الجبل الأحمر .

قال المقرئى ماملخصه . هذا الجبل مطل على القاهرة من شريقها الشمالى ويعرف باليحموم . قال القضاى : اليحموم هى الجبال المتفرقة المطلة على القاهرة من جانبها الشرقى وجباها ، وتنتهى هذه الجبال إلى بعض طرق الجب ، وقيل لها اليحموم لاختلاف ألوانها ، واليحموم كلام العرب ، الأسود المظلم - وروى المقرئى عن ابن عبد الظاهر أنه قال عند ذكر الجبل الأحمر أن القضاى ذكر أن اليحموم هو الجبل المطل على القاهرة ، ولا أرى جبلا يطل على القاهرة غيره (٢) .

(٢١) الخطط ج ١ ص ١٩٨ تحت عنوان ذكر الجبل المقطم وص ٢٠١ وذكر الجبل الأحمر - وحسن المحاضرة ج ١ ص ٦٧ ،

جبل يشكر :

يقول المقرئ ماملخصه : وهذا الجبل فيما بين القاهرة ومصر - يعنى الفسطاط - عليه الجامع الطولونى .

قال القضاعى : جبل يشكر بن جديلة بن لحم ، وهو الذى عليه جامع ابن طولون . ويشكر بن جديلة قبيلة من قبائل العرب احتطت عند الفتح بهذا الجبل ، فعرف بجبل يشكر لذلك .

وقال ابن عبد الظاهر : « وكان هذا الجبل يشرف على النيل ، وليس بينه وبين النيل شئ . وكان يشرف على البركتين ، أى بركة الفيل والبركة التى تعرف اليوم ببركة قارون » .

وعلى هذا الجبل كانت تنصب المجانيق التى تجرب قبل إرسالها إلى الشغور . وقال المقرئ ماملخصه : « ويجاوره جبل الكباش » وكان قديماً يشرف على النيل من غربيه ، ثم لما اختط المسلمون مدينة الفسطاط بعد فتح أرض مصر ، صار الكباش من جملة خطة الحمراء القصى (١) .

آثار مصر :

أغرمت بعض الأمم - فى القديم والحديث - بصنع الآثار ، كالأبنية والنماثيل والأدوات والحيوانات والمناظر المختلفة ، التى ترمز إلى معان خاصة ، لها فى حياة الأمة شأن وأثر ، فى العقيدة أو المدنية أو الصناعة أو نحو ذلك .

وتعيش هذه الآثار مع الأمم ، وتتتابع عليها الأيام ، وتحول عليها السنين ، وهى قائمة فى مكانها لا تريم ولا تتحرك . وتعتاد العين رؤيتها فى مكانها الثابت ، وتسكتسب بمرور الزمن قداسة وإعجاباً ، قد لا يكونان لها حين بنائها وصنعها . بل اكتسبتهما من الدوام والاستمرار والإلاف ، والصبر على مقاومة عوادم التلف .

(١) المخطوط ج ١ ص ٢٠١ تحت عنوان « جبل يشكر » - وحسن المحاضرة ج ١ ص ٦٩

وتصبح بهذا الوضع كأنها جزء لا يتجزأ من طبيعة البلاد ، مع أنها في أصل بنائها دليل على دين أو سياسة أو حضارة .

وكثيراً ما تصبح مصدر وحي وإلهام لأدباء الشعب وشعرائه ، فيحوكون من حولها الأساطير ، ويستوحون منها الحكم والأمثال .

والأهرام وأبو الهول من أشهر آثار مصر الخالدة . وهما من صنع الفراعنة القدماء . وهما دليل حضارة مصرية واسعة ، وفن دقيق ، وحياة روحية عميقة .

وقد رسخا على وجه الأرض في صحراء مصر ، آلاف السنين ، لم ينل منهما القدم ، ولم تمسهما يد البلى ، بل قاما ومثلا مثول الجبال ، حتى أصبحتا قطعتين غاليتين من طبيعة هذه البلاد .

وكانا موضع تفكير المصريين في عصر المماليك^(١) - شأنهما في كل عصر - وإليك شيئاً من ذلك :

الأهرام :

يقول المقرئى : « اعلم أن الأهرام كانت بأرض مصر كثيرة جداً . منها بناحية بوسيد . شيء كثير ، بعضها كبار وبعضها صغار ، وبعضها طين ولبن ، وأكثرها حجر . وبعضها مدرج ، وأكثرهما مخروط أملس .

وقد كان منها بالجيزة تجاه مدينة مصر ، عدة كثيرة كلها صغار ، هدمت في أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، على يد قراقوش . وبني بها قلعة الجبل ، والسور المحيط بالقاهرة ومصر والقناطر التي بالجيزة .

وأعظم الأهرام ، الثلاثة التي هي اليوم قائمة تجاه مصر . وقد اختلف الناس في وقت بنائها ، واسم بانها ، والسبب في بنائها . وقالوا في ذلك أقوالاً متباينة أكثرها غير صحيح ، ... الخ^(٢) .

(١) راجع حسن المحاضرة للجلال السيوطي ج ١ تحت عنوان « عجائب مصر القديمة » و « ذكر الأهرام » ص ٣١ و ٣٣

(٢) الخطط المقرئية ج ١ ص ١٧٩ و ١٨٠

وقد أورد المفريزي بيانات وأخباراً كثيرة عن بناء الأهرام ، وأسباب بنائها وطريقته ، وعن أجزائها وأبعادها وأبوابها وحوائطها وممراتها ، إلى غير ذلك . وكلها مسائل تحتاج إلى مراجعة وتحقيق واسع .

ويقول شهاب الدين بن فضل الله العمرى - المتوفى عام ٧٤٨ هـ :

« وسن ذلك الأهرام بمصر ، وأجلها الهرمان بجيزة مصر ، وقد أكثر الناس القول في سبب ما بنيا له ف قيل : هياكل للكواكب ، وقيل : قبور ومستودع مال وكتب ، وقيل : ملجأ من الطوفان ، وهو أبعد ما قيل فيهما ، لأنها ليست شبيهة بالمساكن .

وأقربها إلى الصحة - والله أعلم - أنها إما هياكل كواكب ، وإما مواضع قبور . ولقد فتح أكبرها في زمان المأمون حين قدم مصر ، فلم يظهر منه ما يدل على ما رضع له . وعلى السنة الناس أنه وجد ذهباً ، فوزنه وحسب مقدار ما أنفق فوجده سواء بسواء ، لا يزيد أحدهما على الآخر بشيء ، لعلمهم السابق أنه سينفق عليه مثل هذا المقدار . فوضع هذا المقدار بإزاء ما ينفق عليه . ووجدت هذا في كثير من الكتب . فراجعت التواريخ الصحيحة والكتب المسكون إليها ، فلم أجد المأمون وجد به شيئاً ، ولا استفاد زائدا عما يعلم به الناس علماً .

وأدل الأدلة على أن أحدهما هيكلك بعض الكواكب ، أن الصابئة كانت تأنى حقيقة تحج الواحد ، وتزور الآخر ، ولا تبلغ به مبلغ الأول في التعظيم . والله أعلم بحقيقة أمرها وجليه أحوالها .

وهي أشكال لهبية ، كأن كل هرم لهبة سراج ، آخذة في أسافلها على التربع ، مسلوقة في عمود الهواء ، آخذة في الجو حتى إلى التثليث . ولولا استدارة سفلى أبلوج السكر لشبهناها به ونحتمل أن يكون هذا الشكل موضوعاً لبعض الكواكب لمناسبة اقتضته .

ولقد أصعدت غير مرة ، ماراً على الأهرام بجميع بلاد الجيزة ، ورأيت منها ما دثر بعضه ، وما دثر كله . فإذا هي مصفحة البناء ، شيئاً على شيء ، لا فسحة

في أوساطها ، كما تكون مساحات الدور بين الجدران . وإنما هي بناء ملتصق على بناء ، بعضها فوق بعض .

ووجدت بعض الأهرام مبنية بالطوب . وهذا أكبر دليل على أنها لم تتخذ ملجأ من الطوفان ، .

وقال : « على أن الهدم قد شرع في قلع هذه الآثار ، ونقل أحجارها إلى الأبنية والمساكن ، نبه لها الدهر طرفاً غافياً وقلباً غافلاً . فأصبحت هاوية الأركان تابعة السكان ، فلقد صدق عليها المتنبي قوله :

أين الذي الهرمان من بنيانه من قومه ما يومه ما المصراع
تتخلف الآثار عن سكانها حيناً ويدركها الفناء فتتبع

وأن فيها لبرة المعتبر ، وتذكرة المذكر . وآية لمن أناب . وبصرة في الدنيا لمن يلد للفناء ويعمر للخراب ، (١) .

أبو الهول :

يقول شهاب الدين بن فضل الله :

« ومن ذلك أبو الهول . وهو اسم لصنم يقارب الهرم الكبير . في وهدة منخفضة تقع دونه شرقاً بغرب . لا يبين من فوق سطح الأرض إلا رأس ذلك الصنم وعنقه ، أشبه شيء برأس راهب حبشي عليه غفارية . على وجهه صباغ أحمر إلى حوة . لم يحل على طول الأزمان وقديم الآباد . وهو كبير ، لو كان شاخصاً كله لما قصر عن عشرين ذراعاً طوله ، في غاية مناسبة التخطيط .

ويقال إنه طلسم يمنع الرمل عن المزدرع . وزاد تحسين هذا القول إليهم وتصويره لهم ، أنه على نهاية الرمل إلى جهة المزدرع .

(١) مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ج ١ ص ٢٣٥ .

وفى أبى الهول يقول أبو منصور ظافر الحداد :

تأمل هيئة الهرمين وانظر وبينهما أبو الهول العجيب
كعمارتين على رحيل بمحبوبين بينهما رقيب
وفيض البحر عندهما دموع وصوت الريح بينهما نجيب
وظاهر سجن يوسف مثل صب تخلف وهو محزون كئيب (١)

ويقول المقرئى - ناقلاً عن القضاعى وابن المتوج أيضاً - ما ملخصه :
« هذا الصنم بين الهرمين عرف أولاً ببلمب . وتقول أهل مصر اليوم أبو الهول .
وهو صنم الهرمين ، كبير من الحجارة لا يظهر منه سوى رأسه فقط . ويقال إنه
طلسم ، ثلثا يغلب على إبلين الجزيرة . وجثته مدفونة تحت الأرض . ويقضى القياس
بالنسبة إلى رأسه أن يكون طوله سبعين ذراعاً فصاعداً . وفى وجهه حمرة ودهان
يلسع ، عليه رونق الطراوة . وهو حسن الصورة مقبولها ، عليه مسحة بهاء وجمال
كأنه يضحك تبسماً .

ويقابله فى بر مصر قريباً من دار الملك صنم عظيم الخلقة والهيئة متناسب
الأعضاء ، كما وصف ، وفى حجره مولود وعلى رأسه ماجور . الجميع من صوان
ماتع . يزعم الناس أنه امرأة وأنها سرية أبى الهول المذكور . وهى بدرب
منسوب إليها .

ويقال إن أبى الهول طلسم الرمل يمنع عن النيل ، وأن السرية طلسم الماء
يمنعه عن مصر . وقد نزل فى سنة ٧١١ هـ أمير يعترف « ببلاط » فى نفر من
الحجارين والقطاعين ، وكسروا الصنم المعروف بالسرية ، وقطعوه أعتاباً وقواعد ،
ظناً أن يكون تحته مال ، فلم يوجد سوى أعتاب من حجر عظيمة ، ... الخ .

(١) المصدر نفسه ص ٢٣٨ - وسجن يوسف شمال الأهرام على بعد منه فى ذيل خرجة من جبل
فى طرف الخارج - قاله صاحب المسالك .

وقال ما نصه : « وفي زمننا كان شخص يعرف بالشيخ محمد صائم الدهر من جملة صوفية الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء ، قام في نحو من سنة ٧٨٠ هـ لتغيير أشياء من المنكرات . وسار إلى الأهرام وشوه وجه أبي الهول وشعته . فهو على ذلك حتى اليوم . ومن حينئذ غلب الرمل على أراض كثيرة من الجيزة . وأهل تلك النواحي يرون أن سبب غلبة الرمل على الأراضى فساد وجه أبي الهول . والله عاقبة الأمور (١) » .

وتنتهى بذلك جولتنا حول بلاد مصر وبيئتها الطبيعية وأهم أجزاء هذه البيئة ، ومشاهدها ومناظرها . وهى مشاهد ومناظر تشعرك بالجلال وتوحى إليك بالقداسة ، وتحفزك إلى المحبة ، لما فيها من هدوء ووداعة ، وما تنسم به من نقاء وطهر ، وما تتصف به من حسن وفتنة وجمال . وما تتعطف به عليك من سماحة وكرم ، فى غير من . كما فهمها وتصورها أبناؤها حينذاك ، مع خيال وأسطورية . وهى تغاير البيئة البشرية التى يحتدم فيها نزاع البشر وقتالهم حول المنفعة وتختلف فيها القيم ، وتصنع فيها التاريخ عوامل كثيرة لا حد لإحصائها ، أهمها نوازع الغرائز والأخلاق .

هذه البيئة السياسية - هى التى ننتقل إليها فى الفصل التالى ، فنحدثك عن طرف منها .

(١) خطط المقرئى ج ١ ص ١٩٧ - راجع أيضاً حسن المحاضرة ج ١ ص ٣١ تحت عنوان « ذكر عجائب مصر قديمة » .

الفصل الثاني

في

وصف البيئة السياسية^(١)

١ - قيام الدولة

وليت دولة المماليك حكم البلاد المصرية وما يتبعها من الأمصار ، في المدة الواقعة بين سنتي ٦٤٨ هـ - ٩٢٣ هـ . وقسمها بعض المؤرخين دولتين هما : البحرية من سنة ٦٤٨ هـ إلى ٧٨٤ هـ ، والجركسية من سنة ٧٨٤ هـ إلى ٩٢٣ هـ . وبدأ نشوء المماليك البحرية ، لما تربع على عرش مصر ، الصالح نجم الدين الأيوبي عام ٦٣٦ هـ ، واشتري لنفسه نحو ألف مملوك ، وبني لهم قلعة في جزيرة الروضة بالقرب من المقياس وسماهم « البحرية » . وعنى بتربيتهم تربية عسكرية ، ثم اتخذ منهم جنداً وحرساً . وقد حفظوا له اليد ، وذكروا له الصنيع ، وكانوا عند حسن ظنه ، إذ دافعوا عن ملكه وبلاده دفاع المستبسل المستميت .

ولما غزا الصليبيون البلاد المصرية عام ٦٤٧ هـ ، ونزلوا في دمياط وخرّبوها ، وساروا منها مع النيل إلى الجنوب ، التقى بهم جنود الصالح هؤلاء يقودهم أمراؤهم ، وهم في مقدمة جيش كبير عاوناه أهل البلاد معاونة كبرى . فهزموهم في موقعي

(١) أوجزنا الحديث عن البيئة السياسية في هذا الفصل اعتماداً على ما فصلناه عنها في المجلدين الأول والثاني من هذه الموسوعة .

« المنصورة ، و « فارسكور ، و حملوهم خسائر فادحة ، وأسروا أحد كبار قوادهم وهو « لويس التاسع ، ملك فرنسا ، وسجنوه في دار القاضي نضر الدين بن لقمان ، بالمنصورة ، كما هو مشهور .

ومات الصالح على فراشه قبيل المعركة . فكتم خبر موته ، ودبرت زوجته « شجرة الدر ، الأمر ، حتى عاد ابنه المعظم « توران شاه ، الذي كان مقيماً في حصن كيفا

وعاد « توران شاه ، وأتم المعركة . ثم وقع بينه وبين زوجة أبيه « شجرة الدر ، وأمراء البحرية ، نزاع أدى إلى قتله ، واختيار « شجرة الدر ، سلطنة على البلاد . فلبثت قليلاً ثم تنازلت عن السلطنة لأحد كبار أمراء البحرية وهو « عز الدين بن أيبك ، الجاشنكير ، بعد مشورة الأمراء . فكان أول ملوك البحرية . وما عثم أن تزوج شجرة الدر . وكان ذلك في ربيع الآخر عام ٦٤٨ هـ .

وتوال ملوك البحرية تباعاً ، فكان من أبرزهم :

١ - المظفر قطز : وقد استطاع أن يوقع بالنتار في موقعتين حاسمتين هما « عين جالوت ، و « بيسان ، وقد حسم بهما شر التتار عن مصر بصفة نهائية .

٢ - الظاهر بيبرس : ويعتبر المؤسس الحقيقي لعظمة الدولة البحرية . وكان من قبل من ممالك الصالح الأيوبي . وقد قاد جيوش قطز في حربه مع التتار . ووعده قطز بولاية حلب ، ثم لم يبر بوعده ، فتآمر بيبرس على قتله ، وأعلنه أتباعه سلطاناً على مصر مكان قطز .

وكان قوى الشكيمة حاسم الرأي غيوراً على الإسلام ، بطلاً فارساً مغوراً . فأكسب الملك هيبة ورهبة . وقد تمت في عهده أمور على جانب كبير من الأهمية ، منها إخضاع بلاد الشام والقضاء على الخارجين فيها . ودحر التتار وإذلال الفرنجة وهزيمة السلاجقة . وقد غزا وفتح جملة بلاد على طول طريقه الساحلي وغيره ،

إلى بلاد الأكراد . وفتح بلاد سبيس وعبر الفرات بخيوله إلى البيرة طلباً للتتار ، وغزا بلاد السودان واحتاز جزءاً منها . وهكذا امتدت سلطنة مصر في زمانه امتداداً كبيراً .

وقد أقام بمصر خلافة عباسية ثانية ، بقيت إلى آخر العصر ، وعدد قضاة الشرع ، فنصب من كل مذهب من المذاهب السنية الأربعة قاضى قضاة - هذا عدا ما أنشأه من العمار والمراقب النافعة .

٣ - المنصور قلاوون ، ويعتبر من أعظم ملوك الدولة البحرية ، وقد بنى « البيمارستان ، المنصوري المشهور ، وغزا جملة غزوات موفقة ، ومن فتوحاته ، فتح طرابلس وحسن المرقب وحمص .

٤ - الأشرف خليل بن قلاوون ، وقد غزا وفتح جملة بلاد وحصون . ومنها مدينة عكا آخر قلاع الصليبيين في الشرق ، ومنها قلعة الروم .

٥ - الناصر محمد بن قلاوون ، وقد حكم البلاد نحو ٤٢ عاماً ، وقد استقرت مصر في أيامه ، وهابتها الملوك وأهدوا إلى سلطانها ، ودانت له بلاد الشام ، وفر التتار من بأسه . وبعد أن هزموه في موقعة « سلبية » ، كر عليهم في موقعة « مرج الصفر » ، كرة صادقة هزمهم بها هزيمة منكرة .

وامتلاً عصره برجال العلم والأدب . وقسم الإقطاعات تقسيماً جديداً عرف « بالروك الناصري » ، وحفر الخليج الناصري عام ٧٢٥ هـ .

وانتقل الملك عام ٧٨٤ هـ إلى الظاهر برقوق ، وكان جركسيا . وبه بدأت الدولة الثانية وهي الدولة الجركسية ، وعاشت إلى الفتح العثماني عام ٩٢٣ هـ .

واتبعت سياسة الدولة السابقة ، في المحافظة على استقلال البلاد ، وصيانة ممتلكات السلطنة المصرية ومكافحة أعدائها في الخارج من التتار والصليبيين والسلاجقة ، ثم العثمانيين .

وقد كانت الفتن الداخلية ومؤامرات العربان من أهم أسباب القلق واضطراب الأمن في داخل البلاد ، وذلك في الدولة البحرية . فزاد أمرها في الدولة الجركسية زيادة كبيرة . فضلاً عن اندلاع الفتن والفرقة والطائفية بين جماعات المماليك — وهم جند الدولة — وقد أدى ذلك في النهاية إلى اضطراب الدولة وضعفها ثم القضاء عليها .

وأهم ملوك الجراكسة :

- ١ - الظاهر برقوق : كان قاسياً فأنسكا وقد عمل على رد جيوش « تيمورلنك » ، التتري عن حلب . وأعدم كثيراً من منافسيه في الملك .
- ٢ - المؤيد شيخ المحمودى : وهو الذى بنى جامعته المشهور بالقاهرة بجوار بابي زويلة .

٣ - الأشرف قايتباى : ولعله أعظم ملوك الجراكسة . حكم زهاء ثلاثين عاماً . وحفظ السلطنة سليمة بالرغم من كثرة الخارجين عليه . وقد غزا بلاد العثمانيين وأدبهم واحتل منهم مدينة « قيسارية » ، وأدب العربان النافرين ضده . وفللسيوف الفرنجة . فضلاً عن منشأته النافعة التى منها برجه بالإسكندرية . وكان مشغولاً بفرض الضرائب وجمع الآتاوات .

٤ - الأشرف قانصوه الغورى : الذى تولى السلطنة فى أخرج أوقاتها ، وقد تألبت عليها أعداؤها فى الخارج ولاسيما العثمانيون ، وتذاءبت عليها الفتن فى الداخل ولاسيما من الجند . وقد لقي العثمانيون فى معركة^(١) « مرج دابق » ، عام ٩٢٢ هـ وقضى عليه فيها .

٥ - الأشرف طومانباى : الذى ولى السلطنة بعد الغورى . وكان العثمانيون زاحفين على الشام ومصر . وقد لقيهم مستبسلين مستميتاً فى الدفاع عن البلاد ، فى معركة

(١) مرج دابق شمال حلب .

« الريدانية » ، وغيرها . ولكنهم هزموه أخيراً وشنقوه على باب زويلة (١) .

٢ - أجناس المماليك

وقد كان وجود الرقيق ظاهرة اجتماعية ، انتشرت في عصور مختلفة وفي أمم متعددة . وذاعت بين الأمم الإسلامية في عصورها الوسطى . وعاون على ذبوعها كثرة الحروب وتفاقم الفتن في غرب آسيا ووسطها . فكثيراً يتم الأطفال وفرار الجوارى ، وهانت فلذ الأكباد فعرضت في الأسواق ، وراجت أعمال النخاسين .

وكثر استخدام الرقيق التركي والجركسى والمغولى والفارسى والكردى وغيره . وانتشر استخدام الرقيق في مصر منذ ولاية أحمد بن طولون . وأصبحت مصر والشام سوقاً فسيحة لبيعه ، وأقبل سلاطينها وأمرأؤها على شرائه ، وغالى بعضهم في ذلك ورفع أثمانه . ونظراً لما كان ينتظره من المستقبل الباهر ولما كان يغدق عليه من عناية وعز وجاه ، ولما كان يرتقب له من إمارة أو سلطنة ، أقبلت الآباء تعطى أبناءها للنخاسين طوعية واختياراً ، لبيعهم في مصر .

وقد حرص سلاطين المماليك وأمرأؤهم - في الدولتين البحرية والجركسية - على الاستكثار من الرقيق واقتنائه . واعتاد السلاطين شراء المماليك الجدد وتربيتهم تربية عسكرية واتخاذهم جنداً للدولة ، فكان منهم جنودها السلطانية . وقد يدفع الحظ بأحدهم وتوهمه شجاعته ومهارته وذكاؤه إلى العتق ثم إلى رتب الإمارة فالسلطنة (٢) .

(١) راجع في تاريخ دولتي المماليك : المجلد الأول من هذه الموسوعة . وبدائع بن إياس وسلوك المقرئى . والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، وتاريخ دولة المماليك في مصر للسيد ولیم موير .
(٢) راجع ما كتبه عن هذا الموضوع في المجلد الأول .

وسلاطين الدولة البحرية ينسبون في جملتهم إلى الجنس التركي . وسلاطين الدولة الجركية ينسبون في جملتهم إلى الجنس الجركي . ولكن بينهم جميعاً سلاطين ليسوا من الجنسين المذكورين . فقطز خوارزمي ، وكتبغا المنصوري من التتار . ولاجين وخشقدم روميان .

والأتراك والجرأكة قبائل متفرقة . فالمنصور قلاوون - مثلاً - من القبجاق ، من قبيلة برج أغلي . وهم فرع من الأتراك تنقلوا حتى استقروا بحوض نهر د إئل ، - الفلجا - جنوب روسيا الحالية (١) .

وقال المقرئ في عن الجراكسة : « إنهم من اللاض والروس . وهم أهل مدائن عامرة وجبال ذات أشجار ، ولهم أغنام وزروع . وكلهم في مملكة صاحب مدينة « سراي » قاعدة خوارزم . وملوك هذه الطوائف لملك « سراي » كالرعية . فإن واروه وهادوه كف عنهم . وإن لاغزاهم وحصرهم . وكل مرة قتلت عساكره منهم خلائن ، وسبت نساءهم وأولادهم وجلبتهم رقيقاً إلى الأفطار . فأكثر المنصور قلاوون من شرائهم ، وجعلهم وطائفة اللاض جميعاً في أبراج القلعة وسماها « البرجية » (٢) .

وقال المقرئ في موضوع آخر : « وبلغت عدة الممالك السلطانية في أيام الملك المنصور قلاوون ستة آلاف وسبعمائة . فأراد ابنه الأشرف خليل ، تسكيل عدتها عشرة آلاف مملوك . وجعلهم طوائف ، فأفرد طائفتي الأرمن والجر كس وسماها « البرجية » ، لأنه أسكنها في أبراج بالقلعة وأفرد جنس الخطا والقبجاق وأنزلهم بقاعة عرفت بالذهبية والزمردية » .

(١) راجع تراجم سلاطينهم وأمرائهم في كتب الأعلام كالقدر والمنهل والضوء . فضلاً عما كتب عنهم في السلوك والنجوم والبدائع . وراجع أيضاً هامش السلوك ج ١ ص ٦٦٣ — وصبح الأعشى ج ٤ ص ٤٥١ و ٤٥٦ و ٤٦٧ و ٤٦٨ .

(٢) راجع خطط المقرئ ج ٣ تحت عنوان « ذكر دولة الممالك الجراكسة » . وصبح الأعشى ج ٤ ص ٤٦٥ — وهامش السلوك في آخر ترجمة قلاوون .

ثم قال : ثم شغف الملك الناصر محمد بن قلاوون بحباب الممالك من بلاد
أزبك وبلاد توربزو وبلاد الروم وبغداد . وبعث في طلبهم وبذل الرغائب للتجار
في حملهم إليه ودفع فيهم الأموال العظيمة (١) .

وعنى المنصور قلاوون بتنشئة الممالك تنشئة عسكرية دقيقة ، وعنى بطعامهم
وشراهم ولباسهم ومبذيتهم وأسلحتهم إلى غير ذلك . واطردت العناية بهم
والاستيثار من شراهم في عهد بنى قلاوون ، حتى بلغ عدد من اشتراه منهم
الناصر بن قلاوون - على ماروى - نحو اثني عشر ألف مملوك . وبلغ عدد
جيوشه من هؤلاء المدربين نحو أربعة وعشرين ألفاً .

واقتردى كثير من الأمراء بسلاطينهم في اقتناء الممالك ، واتخاذهم حرساً .
وقد روى ابن حجر العسقلاني أن يلبغا الناصرى - الذى كان مملوكاً للناصر حسن
حفيد قلاوون ، ثم أعتقه ورقاه إلى الإمارة - استكثر من الممالك الجلبان وبالغ
في الإحسان إليهم والإكرام ، حتى صاروا يلبسون الطرز الذهبية العريضة ،
ويركب معه منهم نحو ألف نفس . إذا وقعت الشمس عليهم تكاد من شدة لمعانها
تخطف البصر . وبلغت عدة ممالكه ثلاثة آلاف . وكان يسكن الكباش بالقرب
من قناطر السباع . فكان موكبه من أعظم المواكب (٢) .

٣ - طبقنا الأمة

وكانت الأمة المصرية في العصر المملوكى تتألف من طبقتين متميزتين : الطبقة
الحاكمة ، والطبقة المحكومة .

أما الطبقة الحاكمة فهى هؤلاء الممالك - من الأتراك أو الجراكسة - الذين

(١) خطط القرى ج ٣ تحت عنوان : الطبايق بساحة الإيوان .

(٢) الدرر الكامنة ج ٣ رقم ١٢١٨ فى ترجمة يلبغا العبرى :

وصفناهم آنفاً ، وهم طبقة طارئة على البلاد توطنت فيها ، وتجددت عن طريق الشراء من الخارج ، طول العصر ، وكان منهم السلطان ، والأمراء ، وعامة الجند .

وأما الطبقة المحكومة - أعنى طبقة الشعب - فكان منها التجار وذوو الرفاهة والنعمة واليسار ، ومنها الباعة والسوقة والزراع والصناع والعمال ، ومنها طلاب العلم والفقهاء المتعممون ، - وسنشير إلى ذلك فيما بعد أيضاً .

وهذه الطبقة هي عامة الشعب المصرى من الجنس العربى . ويبرز بها كثير من العربان والأقباط ، ورواسب من اليهود والنصارى والروم والعجم والكرد والمغاربة ، وأوشاب من الترك والجرس والتتر .

ويختار السلطان عادة من بين الأمراء عن طريق الشورى أو القوة . وقد يحى عن طريق الوراثة . ويقام له حفل عظيم يبايع فيه بالسلطة ، على نحو ما بينا فيما سبق .

وهو بدوره يرقى الأمراء ويعين الموظفين ويدير حركة الدولة ، وتتركز في يديه إدارتها .

وقد استأثر الأمراء بوظائف الدولة الرئيسية . واستعانوا في القضاء برجال الدين من المتعممين . وفي الكتابة ونحوها برجال القلم من المتعممين أيضاً . فكانت وظائف القضاء والكتابة وفقاً على هؤلاء . وهم من أبناء الشعب^(١) .

واستأثرت كذلك بالجندية . وبملكية الأراضى الزراعية إذ قسمتها إقطاعات يفرقها السلطان بحسب مشيئته وفقاً لمراتب الأمراء والجند .

والطبقة المحكومة ليس لها من أمر الحكم شئ . فهي تفلح الأرض وتسقى الزرع وتدر اللبن وتجنى الثمر ، لأهله من أصحاب الإقطاعات . أو تتجر وتعمل ، ثم تؤدى الضرائب التى تفرض عليها . وليس لها أن يسلك أحد منها فى سلك

(١) تحدثنا عن وظائف الدولة وناصب الأمراء وغيرهم فى المجلد الاول .

الجندية ، ولا أن يملك الأرض الزراعية أو يؤجرها من السلطان . وإن كان قد سمح لأفرادها بأن يتعلموا في المساجد (١) : وأن يملكوا الدور ، وأن يؤجروها ، وأن يزاولوا البيع والشراء . وأن يحترفوا ما شاءوا من الحرف ...

٤ - موقف الدولة بين مسلمي العالم

وفي الوقت الذي سيطر فيه هؤلاء المماليك على مصر ، وحكموها هي وما يتبعها بقوة السلاح والفروسية . عاصرتهم أمم إسلامية عدة ، تقلبت بها الأحوال واختلفت صروف الزمان .

وكان التتار قد قضوا على الخلافة العباسية البغدادية نهائيا منذ عام ٦٥٦ هـ ، وأخذوا يحكمون العراق وما والاها شمالا وشرقا . وأخذوا يركزون هجماتهم على بلاد السلطنة المصرية في الديار الشامية والحلبية . وبذلك دب النزاع بينهم وبين سلاطين مصر ، وظلت الحروب والوقائع سجلا بين الفريقين زمنا طويلا .

وعانت الدول الإسلامية في أواسط آسيا من هؤلاء التتار ما عانت ، وزالت دول وجدت أخرى . وكان التتار ونذيين من قبل ، فما عتموا بعد سنين أن أسلم بعضهم وتصر بعض . وانقسموا فيما بينهم دويلات ، تناحرت وتنازعت .

ثم كانت دول الإسلام في المغرب قد اضطرب جبلها وانتكحت فتلها ، وتوالت محنها . وكانت بلاد الأندلس قد وقع بعضها غنيمة في يد البربر من ناحية ، وضغط الفرنجة على جوانبها من ناحية أخرى ، حتى صار بأسها بينهما شديدا ، وتفاقت بين أهلها العداوات حتى تنازعوا فاقتملوا .

وهكذا ترى ما كان يعانيه العالم الإسلامي ودوله من الشقاء . وتطلع سلاطين المماليك حينئذ ، فرأوا أن الله سبحانه وتعالى ، قد وهب لهم من مصر ملسكا كبيرا

(١) تحدثنا عن الحركة العلمية والتعليمية بتفصيل في المجلدين الثالث والرابع من هذه الموسوعة .

وأصبحوا به أقوى ملوك المسلمين على الأرض : ورأوا أن الأقدار قد ناطت بهم
أمانتين كبيرتين ، عليهم أن ينهضوا بهما : وهما مكافئة التتار الطامعين في الوطن
العربي ، المقبلين على الفتك بالمسلمين والعرب . ومكافئة الصليبيين الذين كانوا
إلى ذلك الحين ، لا تزال أطعمهم تراودهم لاحتلال أجزاء من الوطن
العربي أيضا .

وبجوار ذلك كان عليهم النهوض بإحياء علوم الدين ، حتى يعيشوا منها
ما طمست معالمه ، ويجددوا منه ما بلى ، ليعوضوا العالم الإسلامي عما فقدته من
أسفار العلم وذخائر الإسلام شرقا وغربا .

ورأوا أنهم بنموضهم بذلك كله يدعمون بناء ديارهم ، ويرفعون صرح
ملكوتهم ، ويحلون من قلوب المسلمين والعرب أرفع محل وأفضل منزل .

وقد رأينا كيف أقام الظاهر بيبرس خلافة عباسية قاهرة بمصر ، وكسب
بذلك لها كسبا أدبيا عظيما ، ولقت قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها
إليها ، وربطها بها ، فكانت القاهرة - بلا مبالغة - عاصمتهم الروحية .

وعمل سلاطين المماليك - في جملة أمرهم - على دوام الصلة بينهم وبين البلاد
العربية والإسلامية ، بعامة ، واحتفظوا - ما استطاعوا - بالديار الحلبية
والشامية والحجازية ، منضمة إلى البلاد المصرية تحت راية سلطنة واحدة ، بل
وأضافوا أحيانا إليها أجزاء من شرق ليبيا وشمال السودان وضيفاف الفرات
وشمال حلب .

هـ - معالم السياسة الخارجية

كما سبق تترأى لك معالم السياسة الخارجية للدولة المملوكية . وتتلخص
في محاربة أعداء مصر والطامعين في بلاد سلطنتها . وأبرزهم التتار والفرنجة
والصليبيون وبعض أمراء التركان ، ثم العثمانيون الذين أخذ نجمهم في الصعود

رويدا رويدا ، حتى أخذوا يهددون الدولة المصرية بصفة جادة ، منذ عهد الأشرف قايتباي .

التتار :

فلما فرغ هولاكو التتري من فتح العراق أرسل يهدد ملك دمشق الناصر — من بقايا الأيوبيين — ويراوده على تسليم دمشق . وفي إحدى رسائله إليه يقول :

أين المفر ولا مفر لها رب ولنا البسيطان الثرى والماء...^(١)
وأخذ في الزحف فعلا على مدن الشام وحلب ، فأسقطها مدينة بعد أخرى ، ودخل في طاعته كثير من حكامها ، وفر آخرون من وجهه .

فشعر سلطان مصر حينئذ — المظفر قطز — بخطر الغزو التتري ، يقترب من مصر ويهدد سلطنتها . وبخاصة عندما وافته الأخبار بأن طلائع التتار قد بلغت ظواهر دمشق ، وأنها أخذت في النهب والسلب ، وفي القتل والأسر ، بدون روية وبغير وازع .

وتلقى قطز إنذارا من هولاكو ، وتهديدا مماثلا ، دعاه فيه إلى التسليم والطاعة . وقد أرسل هولاكو إنذاره مع أربعة من أمرائه ، وقد وصف بين سطوره مقدار سطوته وقوته ، ومبلغ بأسه وشدته ، وبسالة جنده وقادته ويقول :
« يا أهل مصر ، أنتم قوم ضعاف ، فصونوا دماءكم منى ، ولا تقاتلوني فتندموا »^(٢) .

عندئذ جمع قطز أمراء دولته واستشارهم في الأمر ، فأجمعوا على محاربة

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ، في ترجمة الخليفة المعتمد بالله . وسلوك المقرئ ج ١ ص ٤١٥ ،
(٢) بدائع الزهور لابن إياس ج ١ ص ٩٦ — وسلوك المقرئ ج ١ ص ٤٢٧ وفيه نص الرسالة .

التتار ، وردهم عن بلاد مصر وسلطنتها . وجمعوا عدداً ضخماً من الجنود بينهم كثير من عربان الشرقية والغربية ، وعاونهم أهل البلاد بالمال والرجال جهاداً في سبيل الله والوطن .

وفي أواخر شعبان عام ٦٥٨ هـ خرج قطز ، ومعه الأمير بيبرس في جيش لجب عظيم ، وأمر بإعدام رسل هولاءكو . وسار إلى الصالحية ففلسطين ، حتى بلغ مجنده عين جالوت . فالتقوا بجموع هولاءكو وكتائبه الضخمة فانتصروا عليهم انتصاراً رائعاً ، وهزموهم هزيمة ساحقة ، وتبعوا فلولهم إلى ديسان ، فكانت بين الفريقين هناك معركة طاحنة أثنى المصريون فيها في رقاب التتار وأبادوهم وغنموا منهم غنائم لا تحصى .

وقد نجحت في هاتين المعركتين شجاعة المماليك وأمراهم وبخاصة الأمير بيبرس الذي نجلى بمواجهته العسكرية .

وقد استطاع بيبرس بعد قليل أن يتخلص من سلطانه قطز ويقفز مكانه على عرش السلطنة عام ٦٥٨ هـ نفسه . فاعتلت عليه البلاد الشام بعض الاعتلال إذ خرج بها عليه الأمير سنجر الحلبي ، وأعلن بنفسه سلطاناً عليها ، فأدبه بيبرس هو ومن معه .

وعاود التتار الزحف على الشام فجرد بيبرس جيشاً قوياً استعداداً للقائهم . وجاءته الأنباء أن التتار بلغوا الفرات وملكوا «البيرة» ، فلقبهم على ضفافه في موقعة عظيمة دارت رحاها عليهم ، فقتل منهم خاق كثير وأسر عدد كبير ، وذلك عام ٦٧٠ هـ .

وفي عام ٦٧٥ هـ عاودوا الزحف خفف إليهم بيبرس واتجه إلى حلب ولقيهم في معركة حامية أثنى فيهم بها إثنائاً شديداً وفر ملكهم «أبغا» ، فاتبعه بيبرس إلى «البلستين» والتقى به مرة أخرى ، فانتصر بيبرس بعد أن قتل من جنود التتار

نحو مائة ألف نفس ، وهرب د أبغا ، إلى جهة زبيد ، ويبرس يطارده . ثم عاد يبرس إلى د قيسارية ، وحاصرها حتى استسلم له أهلها .

واستطاع يبرس في معاركه هذه مع التتار — ومع الفرنجة كما سننوه — أن يفتح جملة من المـدـن والحصون كانت في أيديهم أو يغزوها ، ومنها : البيرة ، والكرك ، وحمص ، وقيسارية ، وأرسوف وصغد ويافا ، والشقيف ، وأنطاكية ، وحصن الأكراد وصافيتا وبلاد سديس .

وسيرت المناشير بهذه الفتوح إلى شتى الأمصار ، مكتوبة بأساليبها الأدبية البارة ، بأقلام الناجمين من كتاب الإنشاء . ونظم فيها ، أو في بعضها ، القصائد والمقطعات كما سيأتي بيانه . (١)

وآلت السلطنة بعد قليل إلى الملك المنصور قلاوون . وفي عام ٦٧٩ هـ أيام ولايته أغار التتار بزعامة الأمير د منكوتمر ، أخى ملكهم د أبغا ، على مدينة حلب . خفف إليهم المنصور في عدد ضخم من جنده على ظهور الخيل . فجلا التتار عن حلب فارين من وجهه قبل أن يلحق بهم . ثم عادوا إليها فأغذ المنصور السير إليهم فتلقوا على د المرج الأصفر ، في أوائل عام ٦٨٠ هـ فانهمزم التتار شر هزيمة بعد موقعة دامية . وأوقع فيهم المنصور السبي والغنم .

وفي عام ٦٩٩ هـ في عهد السلطنة الثانية للناصر بن قلاوون أخذ التتار في الزحف على مدينة حلب مرة ثانية بقيادة ملكهم د غازان ، بن أرغون بن أبغا بن هولاكو ، بجند يبلغ نحو مائتي ألف . فخرج الناصر محمد إلى لقائه بجند كثيف

(١) مما يذكر من مواقف يبرس وحميته للإسلام والمسلمين ، أنه لما زحف هو لأكو ملك التتار يريد حلب ، اضطرب ملكها الناصر الأبوي وعظم خوف أمرائه وعسكره . وكان لديه حينذاك يبرس . فأخذ أحد الأمراء ، وهو زين الدين الحافظي يعظم شأن هولاكو ويشير به بدم الدخول معه في حرب ، بأن يدارى بالدخول في طاعته ، فصاح به الأمير يبرس وضربه وسبه وقال له : « أنتم سبب هلاك المسلمين » . ثم فارقه إلى خيمته . وبعد قليل التحق بالظفر قطز في مصر وقاد معه الحملة ضد التتار فهزمهم في عين جالوت — سلوك المقریزی ص ٤١٩ حوادث عام ٦٥٧ هـ .

وتلاقى الفريقان في «سلبية» قرب بعلبك، فدارت الدائرة على الناصر وجيشه ففر مهزوماً إلى بعلبك، ونهب التتار عتاده وذخيرته وأثخنوا في جنده وفلوله. وبهذا النصر تهيأ «غازان» لدخول دمشق وامتلاك الشام جملة. فتحول إليها، يخاف أهل دمشق وتشاوروا في الأمر واستقر رأيهم على طلب الأمان. وأوفدوا إلى «غازان» وفداً لذلك، فيه جمع من علماء الدين منهم بدر الدين بن جماعة، وزين الدين الفارقي، وتقي الدين بن تيمية الحراني ونجم الدين بن الصرصري وعز الدين بن تركي وعز الدين بن الفلانسى وجلال الدين القزويني وغيرهم. فأمنهم غازان.

ثم إن «غازان» حاصر قلعة دمشق مدة فلم يستطع الاستيلاء عليها لمناعتها، فرحل عنها. وعهد بنبابة دمشق إلى الأمير «قفجق»، أحد الأمراء المصريين، وكان نائباً من قبل على الشام من قبل المنصور لاجين فخرج عنه وزين للتتار غزو الشام.

وعاد الناصر إلى القاهرة ولم يهدأ له بال فجهز جنداً كثيفاً زحف به على دمشق، فأظهر له نائبها «قفجق» الخضوع. ثم عاد إلى القاهرة.

وما لبث حتى أعاد التتار الكرة على ضفاف الفرات عام ٧٠٠هـ، فخرج الناصر محمد بن قلاوون للقائهم. فلما بلغ غزة بلغه أن نائب حلب كسرهم كسرة حاسمة فروا على إثرها هاربين. فعاد إلى القاهرة.

وفي عام ٧٠٢هـ تواترت الأخبار عن حلب أن أحد أمراء «غازان» وهو «قطلو شاه» قد دخلها فجأة بجملته من جنده واحتلوها. فبعث إليهم الناصر عدة من الجنود لإجلالهم، ثم هب الناصر بجموع كثيفة، فيها كثير من العربان، وسار بهم إلى الشام. وكان «غازان» نفسه قد قارب «حماة» فالتقى الجمعان في «مرج راهط» (١) فدارت بين الفريقين معركة هائلة انفرط على إثرها عقد التتار

(١) يسمى أيضاً «مرج الصفر» أو «شعب» راجع العبر لابن خلدون.

ودارت الدائرة على « غازان » وجنوده . كانت هذه الموقعة إحدى المواقع الحاسمة بين التتار ومصر

وعاود التتار عبثهم بحملات حلب . فهم الناصر بتأديبهم فتراجعوا خوفا منه ، وبعد قليل وقف تيار اعتدائهم نسييا ، حتى صار إلى السلطنة المصرية « برقوق » .

وفي عهد السلطان الظاهر برقوق هذا ، ظهر ملك للتتار قوى الشكيمة قاسى القلب محب للتدمير شبيه بهولاكو ، وهو « تيمورلنك » . وقد جمع جموعا كثيفة من أتباعه ، وزحف بهم من قلب آسيا ناسلا إلى غربها ، فبلغ تبريز وخرابها وقتل أهلها . ودهم بلاد التركان والأكراد وزحف متجها إلى بغداد .

وبعد قليل كر تيمورلنك ثانيا على بلاد الأكراد ، ثم حاصر البصرة . كل هذا وبرقوق أخذ في الاستعداد للقاءه . ثم خرج بجملة جنده إلى الشام فبلغ دمشق في ربيع الآخر عام ٧٩٦ هـ . ومنها رحل إلى حلب . فعلم أن جنود « تيمورلنك » قد بلغت إلى « ألبيرة » على الضفة اليسرى لنهر الفرات ، فعبره برقوق بجنود مصر ليلا - وقيل إنهم كانوا ينفخون القرب ويجعلونها تحت بطون الخيل فيعبرون بها إلى الضفة اليسرى - . فأوقعوا بجنود التتار إيقاعا جزئيا وغنموا منهم أشياء كثيرة . ولكنهم لم يلتقوا في معركة حاسمة . ورحل « تيمورلنك » بلا منازلة . فعاد برقوق إلى مصر .

وآلت السلطة بعد برقوق إلى ابنه الناصر فرج عام ٨٠١ هـ . وفي عهده اعتدى جند « تيمورلنك » على بغداد . فاجتمع لصدده صاحبها القان « أحمد بن أويس » ومعه « قرايوسف » أمير التركان . وكسروا الجند كسرة بالغة وذلك عام ٨٠٢ هـ . فلما انكسروا قصدوا مدينة « ملطية » وكانوا نحو سبعة آلاف نفس . ثم بعثوا إلى نائب حلب يطلبون إليه أن يخلى لهم مكانا لنزلهم . فهب نائب حلب ومعه نائب حماة بجنودهما ودارت بين العسكرين دائرة الحرب فانهمز النائبان هزيمة منكرة

وسمع سلطان مصر الناصر فرج بأنباء هذه المعارك ، فرسم لنائب الشام وصفد وطرابلس بأن يجمعوا ما استطاعوا من الجند ويجمعوا شطر حلب ويقيموا بها .

وفي أوائل عام ٨٠٣ هـ بلغ السلطان أن جنود تيمورلنك بلغوا مدينة «سيواس» وقتلوا أهلها ودفنوا بعضهم أحياء وأحرقوا البعض الآخر . وأن ملك بني عثمان والقان أحمد بن أويس وقرأ يوسف توجهوا إلى مدينة «برصا» هاريين من جهة التتار .

ثم توالى الأنباء بأن تيمورلنك امتلك مدينة «عينات» وغيرها ، وأنه اقترب من حلب . ثم أرسل رسله إلى نائب حلب ، فضرب النائب أعناقهم وأخذ يستعد للقاء التتار ، وحصن مدينته بالمدافع والمكاحل والجنود . ولكن تيمورلنك استطاع أن يدهمه هو ومدينته ، وبطش به وبأهلها بطشا شديداً ، حتى كانت القتلى أكروما مكيدة في شوارع المدينة . فطلب نائب حلب منه الأمان ، فأمنهم تيمورلنك وصارت المدينة وقلعتها في يديه .

وسرى الألم والحزن في نفوس المصريين لما أصاب حلب وأهلها . وأخذ السلطان فرج في الاستعداد للقتال . ثم خرج بجند كثيف إلى غزة فدمشق . والتقى بالتتار فهزم طائفة منهم هزيمة منكرة فولوا الأدبار ، ثم وقع الخلف في صفوف أمراء السلطان فعاد بهم إلى مصر .

وكان ذلك مشجعاً للتتار . فزحفوا ثانية على دمشق ووقعت بينهم وبين أهلها معارك عدة ، ثم أرسل إليهم «تيمورلنك» ، لاتفاهم معه . فذهب إليه القاضي «تقي الدين بن مفلح» ، الحنبلي ، ومعه خمسة من أعيان المدينة . وبعد لآي أمن التتار المدنية ، ففرح أهلها وفتحوا أبوابها لهم . وبذلك سقطت دمشق في يد تيمورلنك . وما عثم أن فرض عليها الضرائب الباهظة وجباها له القاضي ابن مفلح . وجمع له ما لهم ودوابهم . ثم إنها لم تقنعه ، واعتذر له ابن مفلح ، فلم يقبل ووضعه في القيد

هو وأعوانه . . . وقسم تيمورلنك المدينة بين أعوانه فنزلوا بأنفسهم إلى نواحيها فجبوا الضرائب وجمعوا المال والدواب ، وقتلوا وهتكوا وعذبوا ما شاء لهم هواهم ، وأذاقوا المدينة بذلك سوء النكال . ثم أمر تيمورلنك بإحراق المدينة فأحرقت وأصبحت أطلالا بالية . وهذا جزاء الخوف والاستسلام والاختلاف . . .

واستمر ذلك نحو ثمانين يوما . ثم طلب تيمورلنك إلى السلطان فرج إطلاق سراح أحد أمرائه - وكان مأسورا لديه منذ أيام برقوق - وهو «إطلمش» ، وكان من أقاربه . واعتذر له تيمورلنك عن إساءاته فأطلقه الناصر فرج على أن يطلق تيمورلنك ما عنده من الأسرى ويرحل عن بلاد الشام . فأطلقهم ورحل جملة إلى بلاد الشام .

حينئذ أرسل الناصر فرج الأمير «نوروز الحافظي» ، نائبا من قبله على الشام ليصلح أحوالها ويدير أمورها ، ويعيد إليها الأمن والرخاء .

ومن لطف الله بالشام وبمصر أن هلك تيمورلنك ومات في عام ٨٠٤ هـ - وقيل عام ٨٠٧ هـ - (١) بعد أن ملك من أواسط آسيا إلى حدود الشام .

وهذأت فتن التتار بعد ذلك وركدت ريحها نسيها ، بعد أن لبثت زهاء قرنين وهي شجا في حلق مصر والشام ، وخطرا ماثلا على سلطنة المماليك .

الصلبيون :

أما الصليبيون فقد كانوا شغلا شاغلا لسلطين مصر في هذه الحقبة ، كما كان التتار سواء بسواء . وربما كانوا أكثر شغلا لباهم منهم ، ذلك لأنهم مسيحيون وظلوا على مسيحيتهم ، أما التتار فقد كانوا وثنيين ثم أسلموا ، وأسلم كثير منهم ، وتفرقوا وكونوا دولا إسلامية .

والصلبيون أفاقون طامعون جملة في الاستيلاء على بلاد العرب والمسلمين

(١) راجع ابن إياس حوادث عام ٨٠٤ هـ - وعجائب المقدور لابن عربشاه .
(م ١٣ - عصر المماليك)

منذ أمد ، وما كانت الحروب التي وقعت بينهم وبين جيوش مصر في العهد المملوكي إلا امتداداً لتلك الحروب الصليبية التي اشتهرت في تلك العصور الوسطى مبتدئة في عهد الفاطميين فالأيوبيين ، ثم امتدت في خلال العصر المملوكي (١)

وقد وفدوا إلى هذه البلاد من أنحاء أوروبا وبينهم أجناس مختلفة ، يقودهم بعض المغامرين من الملوك والقواد والرهبان من الإنجليز والفرنسيين وغيرهم ، يلبسون لباس الدين ويسترون أطعمهم تحت مسوحيه .

وكانوا قد أسسوا لهم مستعمرات ، وملكوا مدناً على سواحل البحر الأبيض ببلاد الشام وحلب ، صارت مباءة الأوربيين . وقد جهز سلاطين مصر في استردادها وإجلائهم عنها ، فكانت الحرب بينهما سجالاً .

ومن أشهر من قادهم من سلاطين المماليك الظاهر بيبرس ، فقد حاربهم واسترد منهم كثيراً من المدن التي انتزعوها فيما سلف أو أسسوها مستعمرات لهم . ومن بينها صفد وأنطاكية وقيسارية وأرسوف وطبرية ويافا والشقيف وبغراس والقصير وحصن الأكراد والقرين وحصن عكا وصافيتا والمرقبة وحلب ونياس وطرسوس ، وكان اشتغال بيبرس بمحاربتهم واقعاً على وجه التقريب ما بين سنتي ٦٦٤ هـ ، ٦٧٥ هـ (٢) .

ولما ولي الملك المنصور قلاوون أمر السلطنة فتح مدينتي المرقب وجبلية وحاصر طرابلس عام ٦٨٨ هـ ونصب عليها المجانيق ودخلها عنوة بعد ٣٤ يوماً (٣) وأعد العدة لفتح عكا التي تعصت على من قبله ، وجهز لها جيشاً كثيفاً . ولما بدأ يخرج به من مصر دهمه المرض فمات بعد قليل (٤) .

(١) راجع تاريخ هذه الحروب في كتاب « تاريخ دولة المماليك في مصر للسير ولهم موير » ص ١٠ تحت عنوان « مختصر تاريخي للحروب الصليبية » ،
(٢) راجع سلوك المقرئ في حوادث هذه الأعوام .
(٣ ، ٤) العبر لابن خلدون ج ٥ ص ١٤٠ وراجع أيضاً تشریف الأيام والعصور .

وخلفه ابنه الأشرف خليل فأعاد تجهيز الجيش، وسار به نحو عكا في عام ٦٩٠ هـ ونصب حولها ٧٥ منجنيقاً ، وحاصرها عدة أيام حصاراً عنيداً ثم اقتحمها عنوة وهدم أسوارها . ثم سار من بعدها إلى جبتي وبيروت فافتتحهما . ويعتبر بعض المؤرخين سقوط مدينة عكا ومدن الساحل في يد سلاطين مصر عام ٦٩١ هـ نهاية للحروب الصليبية^(١) .

على أنه ثمة وقائع أخرى تلت هذه الحروب ، وهي تصور لنا - مع ما سبق - قصة هذه السياسة الخارجية للدولة ومدى اهتمامها بها واتصالها بأطرافها . ومن ذلك :

هجوم فرنجية جزيرة قبرص على ميناء الإسكندرية عام ٧٦٧ هـ وبقيادة حاجبهم في أسطول عظيم ، يقال إنه بلغ سبعين مركباً مليئة بالعدد والعدة والخيول والفرسان . فباغت سكانها ونضحهم بالنبل وأحرق باب المدينة واقتحمها ، ففر أهلها منها وأصابهم في فرارهم كثير من الأذى والسوء من عربان ضواحيها . أما فرسان قبرص فقد نهبوا من المدينة ما استطاعوا حمله ، وأسروا من أسروا . ثم عادوا إلى سفنهم وأقلعوا إلى حيث أتوا .

وكان نائب المدينة إذ ذاك قد فارقها للحج . وسلطان مصر إذ ذاك أيضاً ، الأشرف شعبان حفيد قلاوون ، ونائب سلطنته « يلبغا العمري » ، فكتب كتيبة حين علم الخبر ، وساقها إلى الإسكندرية ، فوجدت هؤلاء اللصوص قد رحلوا عنها . فأمر بإصلاح ما أفسدوه . وهم بتشديد عمارة بحرية قوية . ولكن الأيام لم تعاونه^(٢) .

وروى ابن إياس في هذه الواقعة أن نائب الإسكندرية جمع عدداً من عربان

(١) راجع سلوك المقرئى وبدائع الزهور في تاريخ الأشرف خليل .

(٢) العبر لابن خلدون ج ٥ ص ٤٥٤ ، والبدائع ج ١ ص ٢١٤ .

البحيرة والتقوا بالفرنجة القبرصيين في معركة حامية ، فانكسر النائب ومن معه وفروا من وجههم ، فأحرقوا باب رشيد ودخلوا منه إلى المدينة ، وعاثوا فيها فساداً ونهبوا وسلبوا وقتلوا كثيراً من المسلمين . ثم فروا قبل مجيء السلطان إليهم من القاهرة (١) .

وما يذكر أيضاً أن السلطان الأشرف برسباى بعث في عام ٨٢٩ هـ تجريدة قوية إلى قبرص ففتحتها وأسر ملكها - جينوس بن جاك - وجرء به إلى القاهرة مصفداً في الأغلال ، ومعه عدد من جنوده . وكان ملكهم راكباً وعليه خوذة وسلاحه . فأمر الأشرف برسباى بأن تعلق هذه الخوذة على باب مدرسته بسوق الوراقين لتكون عبرة وذكرى (٢) .

وفي عهد الأشرف قايتباى أخذت جموع من الفرنجة يتلصصون على سواحل مصر الشمالية ويباغتونها من حين إلى آخر ، وينهبون ما تصل إليه أيديهم ، ويأسرون من التجار وغير التجار من يقع لهم . وأكثروا من التلصص على سواحل الإسكندرية ودمياط .

فاهتم الأشرف قايتباى للأمر . وأخذ يعين لهم آناً بعد آناً ، تجريدة بحرية تتبع آثارهم ، وترجع منهم ما استطاعت إرجاعه مما سلبوه ، وتعمل على قطع دابرهم .

وفي عام ٨٨٠ هـ وقعت إحدى حوادثهم في مدينة الإسكندرية . إذ أغاروا عليها واحتالوا حتى أسروا عدداً من تجارهم . ومن بينهم بعض أخصاء السلطان ، وحملوهم إلى بلادهم . فأمر السلطان بالقبض على جميع تجار الفرنجة بشعر الإسكندرية ، وبعث أحد خواصه ، وهو دقيت الساقى ، لتنفيذ الأمر .

(١) البدائع حوادث عام ٧٦٧ هـ .

(٢) راجع قصة هذه الواقعة ودخول جينوس مصر ووقوعه أمام برسباى . في المهمل الصافي

في « برسباى » .

فاضطلع به وقبض عليهم ، وأمرهم بأن يرسلوا ملوكهم بما فعله السلطان بهم ليسكون
عبدة وعظة ؟ ولكي يطلقوا سراح تجار الإسكندرية ، شرطا لإطلاق سراحهم هم . -
فتم الأمر وفق مشيئة السلطان^(١) .

وفي عهد السلطان الغورى ٥٩٠٦ هـ - ٩٢٢ هـ ، نشط البرتغاليون إلى إيذاء
مصر بدافع من حقدهم عليها بسبب ما تجبیه من الضرائب على البضائع المارة بها
بين الشرق والغرب ، إذ كانت مصر هي الطريق الوحيد بين الجهمتين . فأخذوا
في التلصص على الشواطئ المصرية وغير المصرية من سواحل البحر الأحمر
وشرق إفريقيا وجنوب آسيا ، يتلمسون السفن المصرية والمتاجر المصرية
ليلحقوا بها سوء . وكان من نتائج نشاطهم كشف طريق رأس الرجاء الصالح
الذى هدد مصر في مورد من أهم موارد ثرائها .

وقد استغاث بالغورى عدد من أمراء الهند والعرب ، ممن تربطهم بمصر
روابط اقتصادية ودينية . فاضطر الغورى إلى إنشاء عمارة بحرية عظيمة بقيادة
أحد أمراءه ، لرد عدوان البرتغاليين وغيرهم من الفرنجة في شرق إفريقيا وبلاد
العرب والهند ، فظلت تكافحهم سنوات ولاكنها لم تقلع أخيرا في رد عدوانهم^(٢) .

العثمانيون:

ومن أنسكى ما ابتليت به السلطنة المصرية ، قيام دولة الأتراك العثمانيين ، التى
أسست على أنقاض الدول السلجوقية ثم الدول التتارية المتبعثرة ، وملككت بلادا
في الأناضول وأرمينية وشمال الفرات ، وأخذت في التوسع في جميع الاتجاهات
من حولها ، وطمعت في أرض العرب .

(١) راجع ترجمة قايتباى في بدائع الزهور .

(٢) راجع ترجمة الغورى في بدائع الزهور ج ٥ - وتاريخ دولة المماليك للسير ولیم مویر

لقد أخذ النزاع بينهم وبين مصر يحتدم شيئاً فشيئاً ، منذ عهد الأشرف قايتباى ٨٧٢ هـ - ٩٠١ هـ . إذ عاونوا بعض الأمراء الخارجين عليه . فجرد على الخارجين حملة كسرت شوكتهم . ثم تنبه للعثمانيين أنفسهم ، فخار بهم أكثر من مرة وانتصر عليهم ، وعادت جيوشه ظافرة غائمة تسوق في أصفادها عديداً من أسراهم .

ولقد خرجت إليهم في عام ٨٩٣ هـ حملة مصرية كبيرة العدد بقيادة الأتابكى « أوزبك بن ططخ » ، فأوقعت بهم وهزمتهم هزيمة منكرة ولوا بعدها مدبرين ، واستولت منهم على مدينة « أدنة » .. أطنا .

وخرجت إليهم حملة أخرى عام ٨٩٥ هـ ، فبلغت في زحفها إلى آسيا الصغرى - موطنهم الأصلي - واستولت على مدينة « قيسارية » . ثم تصالح الفريقان وتبادلا الأسرى .

وهكذا دفع قايتباى غائلة العثمانيين عن الوطن العربى ، ووقى مصر والشام وحلب وغيرها شرهم .

ولكن خطرهم من بعد قايتباى أخذ يستشرى ويشتد ، ولم يحسمه حاسم . حتى كانت الطامة الكبرى التى أصابت مصر على يدهم . إذ أوقع سلطانهم سليم الأول بجيش مصر فى موقعة « مرج داق » ، عام ٩٢٢ هـ . وكان يقوده سلطانها الأشرف الغورى ، الذى مات فى المعركة . ومن ثم زحف جيش العثمانيين على حلب فالشام ثم على مصر ، فلقية بها سلطانها الجديد الأشرف طومان باى . وبعد معارك قاسية ووقائع طاحنة منها موقعة « الريدانية » ، تم للعثمانيين فتح هذه البلاد فى أراثل عام ٩٢٣ هـ .

استقلال البلاد وبسط نفوذها :

ويتجلى لك من هذه الوجزة ، مدى مجاهدة سلاطين المماليك ، ومبلغ مكابذتهم

المشاق في محاربة الطامعين في سلطنة مصر وما يتبعها من البلاد . هادفين إلى المحافظة عليها وعلى استقلالها وعاملين على بسط نفوذها خارج حدودها .
وعلى الرغم من أن طبقة المالك . طبقة طارئة على البلاد المصرية ، ومتجددة تجددت مستمرا عن ضيق الخارج - كما نوهنا - لم تقاوم جماهير الشعب وجودهم مقاومة تذكر .

ويبدو أنهم اكتسبوا بالتوطن وبالدين المشترك - الذي هو دين البلاد أو أغلبية الساحقة - صفة المصرية . واتخذ سلاطينهم وأمرأهم هذه البلاد وطنهم ، لا يعرفون لهم وطنا سواه . ولا بدع . فقد جلبوا إليه ونشئوا فيه ، وشبوا تحت سنامه وفوق أرضه ، وملا هواؤه صدورهم حياة وحركة ، وحاطتهم نعمه أينما ساروا ، واتسع لهم صدره بما لم يتسع به لهم صدر غيره ، وآل إليهم حكمه بحسب تقلبات الأحوال وتصاريف الأقدار ، إذ انتقل إليهم سهلا يسرا عقب الدولة الأيوبية ، فكان في جملته امتدادا لحكمهم .

فلا غرابة إذا أن نصبوا أنفسهم ذادة عنه ومدافعين ، وحاطوا استقلاله بكل ضرب من ضروب الصيانة . وغزوا باسمه في كل مكان يحيط به ، ونشروا رأيته على كثير من الآفاق المجاورة ، وأدخلوا في حوزته جملة من البلاد ، وأحسنوا سمعته بين دول العالم المعروفة حينذاك بصفة عامة ، وبين دول المسلمين بصفة خاصة . فانتشر بذلك صيت مصر شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . وامتد ملكها في بعض أيامهم ، بل وفي معظم أيامهم إلى بلاد المغرب غربا ، والنوبة جنوبا ، والحجاز والشام وحلب وضياف القررات شرقا ، وإلى قبرص وغيرها من جزر البحر المتوسط شمالا .

لقد حافظوا على استقلال هذه البلاد ، ويطشوا بكل من بغى عليه ، أو اعتدى على طرف من أطراف هذا الوطن العظيم . لذلك شغلوا أنفسهم وجزءا كبيرا من زمنهم بالحروب الخارجية .

وحافظوا على بلاد الشام وحلب بصفة خاصة . وكانت حروبهم لهذين البلدين وفي سبيلهما وفي ربوعهما . اعتبروهما جزءا لا يتجزأ من مصر ، فالمعتدى عليهما معتد عليها . وعنوا بهما عنايتهم بها . ونسقوهما نسقا إداريا مماثلا لنسقتها . وقسموهما « نيابات » يليها أجل أمراء مصر ، وكان نائب دمشق أكبر نواب السلطنة بعد نائب السلطان بالقاهرة .

ومن أجل البلاد الشامية والحلبية ، اعتركوا مع التتار والصليبين . وحاربوا دونهما أمراء التركمان وملوك فارس وبغداد ، وأمراء الأرمين وغيرهم ممن حفزتهم الأطماع إلى الاعتداء عليهما أو على أى جزء آخر من بلاد السلطنة .

الاهتمام بالوطن العربي والإسلامي :

وهكذا ترى مبلغ حرصهم على مصر وما يتبع سلطنتها . وهى إذ ذاك جزء كبير من الوطن العربي الواسع . لقد حفظوه موحداً بمجموع الأطراف ملتئم الشمل ، يشعر سكانه فى كل قاصية منه ، أنهم سكان محلة واحدة .

ولم يقف بجهودهم عند هذا الحد ، بل كانوا يمدون يد المعونة إلى كل من لجأ إليهم أو استنجد بهم من أمراء المسلمين وملوكهم .

نذكر - على سبيل المثال - الظاهر بيبرس . فقد عاون الخليفة المستنصر العباسى على رد عرش آبائه من التتار ، فجهزه بجيش . ولكن التتار تغلبوا عليه فى النهاية وهزموه^(١) .

وساعد السلطان برقوق ، القان أحمد بن أويس صاحب بغداد فى زمانه ، ضد التتار^(٢) .

(٢، ١) راجع ترجمة بيبرس وبرقوق فى بدائع الزهور لابن إياس ، وفى سلوك المقرئى .

وبعت الغورى عمارته البحرية لمعاونة ملوك المسلمين بالهند ، والعرب بسواحل المحيط ، على الفرنجة البرتغاليين ، العابثين بشواطئهم وتجارتهم - كما أشرنا - .

وأرسل الغورى أيضاً رسله ، إلى ملوك الفرنجة يلفت نظرهم إلى ضرورة الرفق بمسلى الأندلس وضرورة السكف عن إيدائهم ، في نظير أنه يعامل الفرنجة المقيمين في سلطنته معاملة حسنة . وهددهم بالإساءة إلى هؤلاء الرعايا ، إذا لم يستجيبوا إلى نداءه . لقد فعل ذلك حينما استغاث به صاحب الأندلس من حصار الفرنجة له (١) .

هكذا أتاحت فرص عدة لهؤلاء السلاطين ، بوءوا فيها مصر مركز الزعامة الحربية والسياسية والأدبية ، بين الأمم العربية والإسلامية وغيرها في عصورهم الوسطى . وجعلوها موضع هيبة وإعظام من الدول الأخرى .

وقد كان من نتائج ذلك ، نشوء العلاقات والصلات بين مصر وغيرها من الدول . وترتب على هذا إرسال الرسل وتبادل القصاد والسفراء بينهما . وعلى سبيل المثال نذكر :

١ - من رسل مصر وسفرائها :

الأمير برسباى أمير آخور ثان ، بعثه الملك الأشرف إينال إلى السلطان محمد الفاتح يهنئه بفتح القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ .

والأمير يشبك الجمالى ، بعثه الأشرف قايتباى عام ٨٧٨ هـ إلى ابن عثمان ملك الروم أيضاً برسالة تتضمن الود والصدقة .

(١) راجع ترجمة الأشرف الغورى فى بدائع ابن لياس ج ٥ .

وتغرى بردى الترحمان ، بعثه الأشرف الغورى عام ٩١١ هـ إلى البترك لينع عبث الفرنجة بسواحل مصر .

والطواشى بشير ، بعثه الأشرف الغورى إلى بلاد اليمن والهند ، ليدعوا ملوكها إلى التعاون مع عسكره على قتل الفرنجة - البرتغاليين - بسفن التجارة في المحيط الهندى .

ب - ومن رسل الدول إلى مصر :

رسل أرسلهم صاحب اليمن إلى الناصر بن قلاوون عام ٧١٢ هـ ومعهم هدايا نفيسة .

ورسل أرسله صاحب ماردين إلى الظاهر برقوق عام ٧٨٨ هـ يخبره بتحركات تيمور لىك التترى ، واستيلائه على تبريز وغيرها من المدن والبلاد .

ورفد بعثه بايزيد الأول ملك العثمانيين ، إلى الناصر فرج بن برقوق عام ٨٠٣ هـ ومعهم هدايا قيمة للسلطان وأمرائه ، ليحذره من تيمور لىك .

ورسل بعثه السلطان محمد الفاتح ملك العثمانيين إلى الأشرف إينال يخبره بفتحه مدينة القسطنطينية . وذلك عام ٨٥٧ هـ . وقد زينت القاهرة لهذه البشرى وعم أهلها الفرح العظيم .

ورسل قدم من لدن صاحب الهند الملك غياث الدين إلى الأشرف قايتباى ، ومعهم هدايا قيمة للسلطان وللخليفة المستنجد بالله يوسف ، طالباً من الخليفة تقليداً له بولايته على إقليم الهند^(١) .

(١) راجع أخبار هؤلاء القصاد فى المجلد الثانى من موسوعتنا هذه - وفى بدائع الزهور لابن إياس ، حوادث التواريخ المذكورة .

٦ - موقف الشعب من السياسة الخارجية

ولك أن تسأل : ما موقف الشعب من هذه السياسة ؟ .

لقد كانت هذه السياسة والاتجاهات البادية فيها ، والحروب التي شنت في سبيلها ، تهدف إلى حفظ كيان السلطنة المملوكية وعدم المساس بسكانها وأرضها وخيراتهما ، وإبقاء استقلالها وكرامتها .

وهي سياسة ، وإن بدت في صالح حكامها ، تدور ، في الحق ، حول الدفاع عن الأرض العربية والتي أغلب سكانها من المسلمين ، سواء أكانوا بمصر أم في البلاد التابعة لسلطنتها .

وهي تتفق ومصالح الشعب ورعاية حياته ومرافقه ، والحرص على حاضره ومستقبله فالمصلحة المشتركة نقطة الالتقاء . ولا سيما إذا وضعنا في الاعتبار ، ما سبقت إليه الإشارة ، وهو أن الممالك ، بالرغم من أنهم غرباء ، لم يشعروا بهذه الغربة . وهم وإن كانوا لم يندمجوا في صفوف الشعب ولم يصابهروا طبقاته مصاهرة تذكر ، يدل سياق الحوادث على أنهم اتخذوا مصر وطناً لهم - كما نوهنا - وارتضوها دار إقامة . عشقوها وجرى عليهم من المشاعر ما جرى على سكانها ، وأحسوا بضرورة المحافظة عليها والذود عن كيانها .

وقد وضعتهم الأقدار ذادة عن المسلمين ، وعن الوطن الإسلامي ، في إحدى فترات تاريخه الحرجة . هذا إلى أنهم أقاموا حكومتهم - في جملة نظمها لا في تفصيلها - على النظم والتعاليم الإسلامية . وكان لعلماء الدين عندهم كلمة مسموعة ورأى مطاع ومشورة نافذة . وكانوا يفتشون إليهم الآونة بعد الأخرى لعرض فكرة أو دراسة مشكلة أو طلب نصيحة . وكثيرا ما كانوا ينطون تحت كلبتهم .

وقد روى أن عز الدين بن عبد السلام - (٦٦٠ هـ) - كان من أكبر الدعاة الذين حرصوا الملك المظفر قطز على قتال التتار الكفرة ، وصددهم عن ديار

المسلمين . وقد اتصل جبله بجبل الظاهر بيبرس ، وقيل إن بيبرس كان منقما تحت كلمته .

ويقول تاج الدين السبكي :

« إن التتار لما دهمت البلاد عقيب واقعة بغداد ... وجبن أهل مصر عنهم ، وضائق بالسلطان - يعني المظفر قطز - وعساكره الأرض ، استشاروا الشيخ عز الدين - رحمه الله - فقال : « اخرجوا وأنا أضمن لكم على الله النصر . » فقال السلطان له : « إن المال في خزائني قليل . وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار » . فقال الشيخ عز الدين : « إذا أحضرت ما عندك وعند حريمك ، وأحضر الأمراء ما عندهم من الحلى الحرام ، وضربته سكة نقدا ، وفرقته في الجيش ولم يبق بكفائتهم . ذلك الوقت اطلب القرض . وأما ما قبل ذلك فلا . » فأحضر السلطان والعسكر كلهم ما عندهم من ذلك بين يدي الشيخ .

- وكان الشيخ له عظمة عندهم وهيبة ، بحيث لا يستطيعون مخالفته ، فاستلوا أمره فانتصروا . » (١)

ومن الضروري أن ننوه لك بموقف رجلين آخرين من رجال الدين - ورجال الدين ألسنة الشعب وذادته - ونحن بصدد الحديث عن السياسة الخارجية وموقف الشعب منها .

هذان الرجلان هما تقي الدين بن تيمية ، وجلال الدين السيوطي .

وابن تيمية - (٧٢٨ هـ) - أحد فحول علماء الدين في هذه الحقبة ، ذوى الآراء الحرة والأفكار الجريئة ، ومن وهبوا أنفسهم لإصلاح الجماعة الإسلامية بل الإنسانية . وقد كانت آراؤه سببا في نشوء حركة فكرية عظيمة كان لها نتاج على جليل .

(١) طبقات الشافعية لتاج الدين السبكي ج ٥ في ترجمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام .

وقد كتب ابن تيمية رسالة سياسية جلية أرسلها إلى «سرجواس» ملك جزيرة قبرص . وتسمى «الرسالة القبرصية» . (١)

والرسالة موجهة إلى ملك مسيحي خارج الدولة يحكم جزيرة ، مافىء حكمها بين الآن والآن ، يغيرون على شواطئ مصر ويتلصصون على سواحلها . وكان يعيش في هذه الجزيرة كثير من المسلمين .

والرسالة - وإن كانت في ثوب نصيحة - تتناول كثيراً من العلاقات السياسية القائمة آنذاك .

ويبدو أن الملك سرجواس ، كان قد طغى وبغى ، وظلم من قبله من المسلمين . فبعث ابن تيمية إليه ينذره ويحذره ، أملاً في أن يقلع عن طغيانه وبغيه .

وقد كتبها في جرأة وبغير رفق ، كأنه قائد يبعث إنذاراً إلى عدوه . وطفق فيها يحدثه عن الله وأنبيائه وعن حكمة الخلق ، وعن منشأ الشرك ، وعن ضلال الرؤساء عن الشرع ، وعن بنى إسرائيل وقسوة قلوبها وعصيانها ، وعن المسيح وتمرد بنى إسرائيل عليه . ويحدثه عن ضرورة رعاية العدل والإنصاف بين رعيته من المسلمين . ونبهه إلى ما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام ، مع نصارى زمانه من رعاية وحسن معاملة . وأخذ يهدده بأن يقع به مثل ما وقع للشتار الذين لم تغنهم كثرتهم أمام جنود المسلمين . . . الخ . (٢)

وتشعرك الرسالة بسعة باع بعض رجال الدين حينذاك ، ومبلغ اشتراكهم أحياناً في سياسة بلادهم الخارجية .

وجلال الدين السيوطى - ٩١١ هـ - الذى ترك رصيداً ضخماً في ميدان العلم والتأليف ، أدلى بدلوه في الدلاء . وكان هو الآخر أحد أسنة الحق والشعب .

(١) تقع هذه الرسالة في نحو ٤٠٠ سطر . ومنها نسخة مطبوعة بدار الكتب المصرية تقع في ٣٣ صفحة تقريباً .

(٢) راجع هذه الرسالة والحديث عنها في المجلد السادس من هذه الموسوعة .

وقد بلغه أن ملوك التكرور المسلمين . قد تفشى الظلم منهم للرعية وانتشرت محاباتهم لاتباعهم على حساب رعيته . وقد تجاوزوا في أحكامهم حدود الله وأحكام الشريعة واتبعوا الهوى ، وصار قضائهم - على مابدا - يحكمون بغير ما أنزل الله ، وفشت فيهم عادات ليست من الدين في شيء ، ويظنون أنها من الدين .

لهذا كتب السيوطي إليهم ، وبخاصة إلى ملكهم محمد بن صعفر ، صاحب أكر ، وإلى إخوته . ينصحهم ويردهم إلى حكم الله ويذكرهم بقوته سبحانه ، وبأنه أحق أن يخشوه ويتقوا عذابه . . الخ (١) .

من هذا وذاك ، يتبين لك ملامح كثيرة من الاتجاه السياسى لشعب هذه البلاد ، وهو يرمى إلى المحافظة عليها والحرص على تمتدكاتنا من أعداء المسلمين والعرب . والدفاع عن البلاد العربية والإسلامية ، والإبقاء الدائم على العلاقات الودية والأخوية بين مصر وبين العرب والمسلمين فى شتى بقاع المعمورة .

وهى سياسة تتفق فى جملتها ومصالح الطبقة الحاكمة . فلم يكن هناك خلاف بينهم بسببها ، ولهذا لم تكن هناك مناهضات أو معاكسات للسياسة الخارجية . لقد نصب السلاطين أنفسهم ذادة ومدافعين عن الإسلام والعروبة ، فكان هذا هو المخدر الذى نوم الشعب عن مناهضة هؤلاء الغرباء ومقاومة وجودهم حكاماً فى بلاده .

بل كان الشعب ينهض فى كثير من الأوقات لمعاونتهم وقت الحرب ، فيقدم المال والرجال والطعام والدواب وما إلى ذلك من ضروب المعاونة .

٧- معالم السياسة الداخلية

أما السياسة الداخلية ، فقد كان الأمر مختلفاً . وقد أشرنا إلى استئثار الطبقة الحاكمة بكل أسباب القوة والغلبة ، واستبدادها بكل وسائل المال والجاه والرأى ، دون الشعب . فقصروا مناصب الدولة الرئيسية - العسكرية - على أنفسهم . ولم يستخدموا من أبناء الشعب إلا من دعت إليه الحاجة الماسة ، وذلك فى مناصب القضاء والكتابة وما إليهما ، مما لا يحسنه طبقة الماليك .

فقد كان القضاء - فى جملته - شرعياً ، تنبع فيه أحكام الشريعة الغراء بحسب المذاهب الأربعة ، لهذا اضطروا إلى اتخاذ القضاء ونوابهم من بين علماء الدين . . وكانت الكتابة فى ديوان الإنشاء وفى دواوين الدولة باللغة العربية ، فاضطروا إلى اتخاذ الكتاب والمنشئين من أبناء الشعب الذين يجيدون الكتابة .

وكان التعليم فى المساجد تعليماً دينياً عربياً ، فاتخذوا العلماء معلمين ، وكذلك اتخذوا الخطباء والأئمة والمفتين ، وكل هؤلاء من أبناء الشعب ، ومن خريجي المساجد ، المتعممين . .

وفتحوا المساجد أمام الشعب ، يتعلم فيها من تلهج نفسه بالتعليم . ووقفوا عليها الأوقاف ، وأغدقوا عليها المال ، ورتبوا الدروس - كما سنشير إليه - .

ولكنهم إزاء ذلك ، لم يسمحوا لأحد من أبناء الشعب بالاندماج فى صفوف الجيش ، ولا أن يتعلم تعليماً عسكرياً فى طباق القلعة كالماليك . وملكوا الأرض الزراعية إقطاعاً ، يوزعها السلطان على أمرائه وجنوده . وأطلقوا لأنفسهم العنان فى فرض الضرائب المرهقة ، وإقامة المصادرات الظالمة (١) .

(١) راجع موضوعات الجندية والوظائف والإقطاع والضرائب والمصادرات فى المجلد الثانى من هذه الموسوعة .

ولأنه كان ييدهم كل وسائل القوة - كما نوهنا - لم يكن الشعب ليستطيع معهم أن يصيب نجاحاً لو حدثته نفسه يوماً بمقاومتهم أو استنكار وجودهم .
على أن حكومتهم - وإن كانت فريدة بين الحكومات في شكلها وتكوينها وتعاقبهم عليها - كانت مسبوقة بحكومات من قبلها أجنبية في أصلها ، عن البلاد - كالفاطميين والأيوبيين - استأثرت أيضاً بما استأثرت هذه به دون الشعب . فلم يكن الأمر جديداً عليه ...

وما دمتنا بصدد الحديث عن البيئة السياسية ، لا نرى مناصاً من الإشارة إلى أمرين ، يصور كل منهما جانباً من جوانب هذه البيئة ، وهما الفتن الداخلية وثورات العربان .

الفتن الداخلية (١) :

لم تخل الدول التي حكمت مصر في العصور الوسطى من قيام الفتن والمؤامرات الداخلية التي تحركها أطباع الرؤساء في الحكم . ولكن الفتن التي قامت في عصر دولتي المماليك كانت من الكثرة بحيث لا نكون مبالغين إذا قلنا إن مصر لم تشهد صراعاً بين حكامها ومتملكي زمام الأمور فيها كما شهدته في العصر المملوكي . ولعل طبيعة حكومة المماليك وتكوينها ذات دخل في استئثار هذه الفتن وتفاقمها وإطرادها . فإن المملوك الذي ورد إلى هذه البلاد رقيقاً ، لا يمنعه مانع من أن يحلم بالملك ووصوله إليه في يوم من الأيام . وقد رأى بعينيه نماذج لذلك ماثلة . وقد ربي على الشجاعة والفروسية وأخذ بأسباب الفتوة ، ومارس أعمال الحرب والقتال . وكانت مواهب المملوك في هذه المجالات ذات شأن كبير في تقديره وفي تقدمه وترقيته ، بل وفي جمع الأتباع من حوله إذا أصبح أميراً . ومن ثم يستطيع

(١) أخبار هذه الفتن في بدائع الزهور وسلوك المقرئ والنجوم الزاهرة . في التواريخ المبينة في كل منها وفي تراجم الملوك المذكورين بها .

أن يعد العدة ويعمل الحيلة ويجمع الاتباع والأشباع ويأتمر ويشير الفتنة حتى يصل إلى هدفه . وكانت السلطنة أحب الأهداف ولذلك وبسببها كثيرا ما كان القتال يحدث بين المتنازعين وتجرى الحروب والمعارك الأهلية .

ولا شك أن هذه الفتن كان لها دخل كبير في تأخر البلاد نسيا ، عما كان يمكن أن تتقدم إليه من رخاء ومدنية وسعادة . وقد كثرت هذه الفتن في العهد الجركسي كثرة ملحوظة . وأدت الخلافات المحترمة بين الأمراء المتنازعين في سبيل الإطباع ، بل وبين الجنود أنفسهم وطوائفهم في سبيل الاستئثار بالنفع والحصول على المال ، إلى تضعف الجيش وتفتيت القوى ، حتى كانت كارثة الاحتلال العثماني . وإليك أخبار بعض هذه الفتن ، على سبيل المثال :

وقد بدأت سلسلة هذه الفتن والمؤمرات من أول عهد الدولة بالحكم . وافتتحتها شجرة الدر الأيوبية التي تأمرت على زوجها «عز الدين بن أيك» أول سلاطين البحرية ، فقتلته عام ٦٥٥ هـ . ومنها مؤامرة بيبرس على سلطانه المظفر قطز إذ اغتاله أثناء عودتهم من معركتهم الظافرة مع التتار ، ٦٥٨ هـ . ومنها مؤامرة الأمير «بيدر» عام ٦٩٣ هـ على اغتيال السلطان الأشرف خليل بن قلاوون . وبعد اغتياله استقر رأى اتباع بيدرا على سلطنته واقبوه «بالمك الأجد» . غير أن اتباع الأشرف قتلوا «بيدر» في ليلته . ومنها الفتنة التي قامت عام ٦٩٣ هـ وبين الأميرين «كتيبغا المنصورى» و«سنجر الشجاعى» وكان سلطانهما الناصر محمد بن قلاوون صغير السن إذ ذاك . فتنازعا واحتربا في سبيل الاستئثار به وبالحكم معه . فقتل الشجاعى وخلع الناصر ، وتولى «كتيبغا» السلطنة . ومنها الفتنة التي وقعت عام ٧٦٢ هـ بين السلطان الناصر حسن بن الناصر بن قلاوون ، وبين مملوكه «يلبغا» وكان قد رقاها السلطان فأصبح في مصاف كبار الأمراء . ولكن وقعت العداوة بينه وبين سيده فجمع كل منهما لزميله واقتتلا . ثم قبض على السلطان وخنق . وانفرد «يلبغا» بالحل والعد في عهد السلطان المنصور محمد (م ١٤ - عصر المماليك)

ابن حاجي الذي خلف عمه حسنا . ومنها الفتنة الطائشة الشعواء بل الثورة الجائحة الحقاء التي أثارها الأمير « منطاش » ملوك الظاهر برقوق ، ضد سيده هذا ، وكان سبباً في قلق سلطنته . وفر منه إلى بلاد الشام حيث ظل يعيث ضده فيها ، حتى شدد السلطان عليه وقتل . ومنها الفتن الجائحة التي وقعت في عهد قايتباي بين أميرين من كبار أمراءه وهما أقبردى الدوادار ، وقانصوه خمسمائة . ومنها مؤامرة الأمير طومان باي ضد السلطان الناصر محمد بن قايتباي عام ٩٠٣ هـ إذ أعد له كميناً بالجيزة ودعاه إلى النزول عنده ليقضى ساعة هنيئة ، ثم اغتاله ووثب هو على السلطنة وتلقب بالعاذل . ومنها فتن المماليك الجلبان ومشاغباتهم في عهد الغوري - وقبله - بسبب روايتهم ، حتى إن السلطان هددهم بالنزول عن عرشه ، فلم يزدادوا إلا شراسة وإصراراً ، وكانوا بسبب عداوتهم للمماليك القرانصة ، من أسباب فشل حملة الغوري ومن أسباب هزيمته في مرج دابق .

ثورات العربان :

وهي لوز من الفتن الداخلية . وإن كان القائمون بها من العربان أو البدو الضاربين في أطراف البلاد بالشرقية والغربية والبحيرة والوجه القبلي ، وفي صحراء الشام وبادية بلاد العرب . وقد تعددت فتنهم وثوراتهم وشغلوا بالسلطاين واستنفدوا من الدولة مجهوداً كبيراً في المال والرجال . ويغلب عليهم فيها طابع النهب والسلب وأخذ ما بيد الأتراك من مال وجاه . فيغيرون على الطريق ويقطعون المسالك . ويفجئون المدن ، بتدبير من رؤسائهم وأمراءهم . وإليك طرفاً من أخبارها .

فمنها في عام ٦٥١ هـ ثورة عريان الصعيد والوجه البحري بقيادة الأمير الشريف « حصن الدين بن ثعلب » وكان بجحة « دهروط » وهي ديروط . فقطعوا الطريق على السابلة . وتلصصوا على الشواطئ وقالوا « نحن أصحاب البلاد

وصرحوا بأنهم أحق بالملك من الممالك ، . وبلغت عدتهم ١٢ ألف فارس . وقد قامهم الترك بقيادة الأميرين د فارس الدين أقطاي ، المستعرب ، د وفارس الدين أقطاي ، الجمدار ، وشتتوا شملهم وشنقوا عدماً منهم وسجنوا زعيمهم (١) .

وفي عام ٦٩٩ هـ في عهد الناصر بن قلاوون اختلفت قبيلتا جابر ومرديس بالبحيرة وأغاروا على أجزائها وأحرقوا ما فيها ، فأرسل إليهم الناصر حملة تأديبية بقيادة الأمير د بيبرس ، الدوادار المنصوري ، فكسروهم وأجلوهم وغنموا منهم وسبوا (٢) .

وفي عام ٧٥٤ هـ ثار عربان الصعيد بقيادة أحدهم واسمه د ابن الأحذب ، شيخ قبيلة د عرك ، وأشاعوا الفساد ونهبوا الغلال . وذلك في عهد الصالح صلاح الدين ، فخرج إليهم بنفسه ومعه حملة بقيادة الأمير د طاز ، د شيخو العمري ، وغيرهما ، فقتلوا منهم نحو النصف غير الأسرى ، وغنموا خيلاً وجمالاً وغنماً وسيوفاً . ثم طلب ابن الأحذب الأمان من السلطان فأمنه (٣) .

وفي عام ٧٨١ هـ في عهد المنصور على بن الأشرف شعبان ، سطا نحو خمسة آلاف عربي من عربان البحيرة على مدينة دمنهور بزعامة كبيرهم د بدر بن سلام ، فنهبوا الأسواق والبيوت والقرى من حولها فأرسل إليهم حملة بقيادة الأتابكي د برقوق ، فشتتوا شملهم وقتلوا منهم نحو ألف وأسروا نساءً وصغاراً ، وغنموا مالا ودواب (٤) . ونظم القيم خلف الغباري زجلاً في هذه الواقعة .

وفي عهد الأشرف قايتباي تعددت فتن العربان وثوراتهم في الشرقية والبحيرة والصعيد . وكان منها في عام ٨٧٥ هـ ثورة عربان الشرقية . وكان من شيوخهم د عيسى بن بقر ، فعزله قايتباي وعين مكانه قريبه د صقر بن بقر ، . وبعث جنداً

(١) السلوك ج ١ ص ٣٨٦ .

(٢) بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٢ ، ٢٠٠ .

(٣) البدائع ج ١ ص ٣٤٠ و ٣٤١ ،

إليهم بقيادة الأميرين د تمر ، حاجب الحجاب ، و د قانصوره الخفيف ، الإينالى .
فعادوا فى صفر عام ٨٧٦ هـ وقبضوا على طائفة من المفسدين العرب وفيهم
د موسى بن عمران ، من رؤسائهم ، وغيره فأعدمهم السلطان (١) .

ومنها فى عهد قايتباى ثورة عربان البحيرة عام ٨٧٧ هـ فأدبهم الأمير د أزبك
ابن ططخ ، . وما هدأت هذه الفتنة حتى ثار عرب الشرقية من بنى وائل وبنى
حرام . فخرج لتأديبهم الأمير د يشبك الدوادر ، فى شوال عام ٨٧٩ هـ . وفى
العام المذكور ثار عرب عزالة بضواحي الجيزة ونهبوا خيول المالك وقتلوا
جماعة من غلمانهم وأطلقوا السجناء ، فساق السلطان عليهم جنداً لم يظفروا منهم
بطائل . ثم وفد إليه شيخهم د مهنا بن عطية ، وشفع فيهم بعضهم فأمنه السلطان
وعفا عنه (٢) .

وفى عهد الغورى ثار العربان مراراً منها مرة فى الشرقية عام ٩٠٧ هـ . واعتدى
عربان مكة بزعامة د الجازانى ، على ركبى الحجاج المصرى والشامى وقتلوا عدداً
من رجالها ونهبوا المال وعروا النساء وذلك عام ٩٠٨ هـ . وفى العام المذكور ثار
عربان الشرقية والغربية وبلاد الصعيد ، قيل : وكادوا يملكون البلاد من أيدى
مقطعيها د فخر د عليهم الغورى حملات تأديبية . (٣) إلى غير ذلك من أخبار
هذه الفتن .

(١) راجع أخبار فتن العربان فى عهد قايتباى ، فى بدائع بن لياس ، فى ترجمة قايتباى ج ٢
ص ٩٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٤ إلى ١٣٧ ؛ ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٦٢ . ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٤٣ ، ٢٤٠ .

(٢) بدائع الزهور فى سياق حوادث الأعوام المذكورة .

(٣) راجع البدائع ج ٥ فى تاريخ النورى .

٨ - موقف الشعب من السياسة الداخلية

لكن على الرغم من أن أسباب الوعي القومي ، من ثقافات وتجارب وصلات أخرى ، مما له أثر في يقظة المشاعر الوطنية - على نسق مما نراه في العصور الحديثة - لم تكن قد قيضت للشعب حينذاك - سنرى في شعر البيئة الاجتماعية ، نصوصا شعرية ، تكشف بوضوح عن أشياء كانت تعتلج في صدور الجماهير ، وفي نفوس الناس ، عبر عنها بعض شعرائهم بها .

لقد كانوا يضيقون ذرعا بالأتراك وباستبدادهم وجورهم ، وباختصاصهم أنفسهم بأسباب الرزق دونهم . وبتقلبهم في النعيم ، مع حرصهم وشدة بخلهم وقسوة قلوبهم على الرعية . .

وكانوا ينفقون على فتن الجنود وعيشتهم المستمر . ولا سيما نزولهم إلى الأسواق ونهبهم بضائعهم وهجومهم على المنازل وسرقة ما فيها ، وإفلاقهم راحة المسارة وخطف عمائهم وما بأيديهم .

وكانوا يثيرون ويضجون بالشكاية بين الحين والحين . وبخاصة عند فرض الضرائب المرهقة الظالمة .

غير أن هذه الحوادث قليلة ، ولم يتبلور الأمر في مرة ، حتى يصبح رأيا عاما ، يمكن أن يكون له تأثير في تسيير دفة الحكم .

وقد أشرنا إلى فتن الأمراء ومؤامراتهم ، طمعا في سبيل السلطنة أو المناصب والحكم . وأشرنا إلى أن الائتمار كان يتطور أحيانا إلى الاشتباك والقتال ، وإلى قيام حرب أهلية مهلكة ، كثيرا ما كانت تقع معاركها في ميدان الرميطة بالقلعة ، أو حول القلعة . إذ كانت قلعة الجبل مقر الحكم ومبيت السلطان . وتقع أحيانا في جهات أخرى .

وينقسم المحتربون قسمين متنازعين ، وليس الشعب أو فئة منه ، طرفا من

أطراف هذا النزاع . دائماً تحتدم المعركة بين بعض الأمراء وبعض ، ولا صلة للشعب بهذا الاعتراك ، ولا يد له فيه . بل كان حكمه والتحكم فيه والسيطرة عليه ، هي محل النزاع بين هؤلاء الأمراء .

ويبدو أن جماهير الشعب كانت تنظر إلى طوائف هذه الطبقة نظرة واحدة - في جملة الأمر - ولا تفضل طائفة على أخرى ، ولا تؤثر فرداً على آخر ، بل هم جميعاً في نظرهما سواء .

لذلك ما كان يشير اهتمامها - في هذه المعارك والمؤامرات الداخلية - انتصار هذا أو ذاك . ولا كان يقع في أملها أن يظفر أمير من المعتركين بآخر . لأنهم في نظرها سواء . وهما بالنسبة إليها كرجل واحد ، غالبهم ومغلوبهم . ومن ثم فهي لا تنصر فريقاً منهما على سواء .

وأغلب الظن أن الجماهير ، كانت تقف من هذه الحروب الأهلية ، موقف المشاهد المتفرج بها ، مكثفة بالأم مكتوم تحتفظ به ، وشائعات مضطربة تطلقها . . .

وكانت هذه الفتن والحروب كثيرة كثيرة لافته -- كما أشرنا -- ومع ذلك لم يتضح لها أثر يذكر في النتاج الشعري أو الأدبي إلا نادراً ، وذلك كالفتن التي وقعت في أيام الملك الأشرف شعبان حفيد قلاوون وأدت إلى قتله ، فقد سجلها في زجلية فريدة ، قيم الرجل في زمانه خلف الغبارى . وكالفتن التي وقعت بين الملك المؤيد شيخ المحمودى والأمير نوروز الحافظى نائب الشام حينذاك ، وأدت إلى وقوع الحرب بينهما ، وقتل الأمير نوروز ، فقد سجلها شاعره تقي الدين بن حجة الحموى في بعض قصائده .

أغلب الظن أيضاً أن العلاقة الشخصية - لا الروح الجماهيرية العامة - كانت الحافز إلى نظم هذا الرجل أو الشعر .

ولنا أن نستدل من ندرة هذا الاتجاه في الشعر أو الزجل ، على ضعف صلة جماهير الشعب بهذا الضرب من النزاع الداخلي .

أما فنن العربان ، فإن جماهير الشعب كانت - ولا ريب - نائمة عليها أشد النقرة . ونعني بجماهير الشعب ، الزراع والصناع والعمال وأرباب الحرف والباعة والسوفة والتجار وعامة المثقفين ونحو ذلك ، وهي الجماهير التي منها تتكون الأغلبية العظمى للشعب .

وكانت فنن العربان ، تحمل بين أسبابها بعض الدوافع التي نستطيع وصفها بأنها دوافع وطنية ، إذ كانوا يقولون « إن البلاد بلادنا » . وكانت أهدافهم العامة ، الثورة على الأتراك - الطبقة الحاكمة - والانتفاض عليها ، ومكايدها .

ولكن ثوراتهم كانت تنحصر من الناحية العملية ، إلى إلحاق الأذى بسكان الريف والمدن - وهم جماهير الشعب - ومفاجأتهم بين الوقت والآخر ، ونشر الرعب والفرع بينهم ، ونهب ما بأيديهم من الغلات والدواب وغيرها . لهذا كانت ثوراتهم - كما أشرنا - موضع نقمة من هؤلاء السكان .

ولو أتيج لهذه الثورات ما يجعلها عامة وشاملة ، تضم إلى العربان جماهير الشعب ، مع التركيز وحسن القيادة وتوجيه الضربات إلى العنصر التركي أو الجركسي الحاكم ، توجيهها مباشرة ، لسكان المسألة وجه آخر .

وسقوى أن الزجل قد سجل أنباء بعض هذه الفتن والثورات ، ووصف ما تخلصها من فساد وعبث ، وما كان فيها من نهب وسلب ، وما أشاعته من قلق وخوف .

وقد سجلها الزجالون وروح السخط عليها بادية ، وعلامات الغضب على القاميين بها واضحة ، وإزجاء المديح للأتراك الذين قاموهم وردوا عبثهم وقضوا على فتنهم ، بارز .

واعتقد أن روح الشعب وشعوره نحوها ، هو الذى أملى ذلك على الزجاين .

وكانت الضرائب من أهم ما يثير ثائرة جماهير الشعب ، وذلك لفداحتها وظلمها وللطرق التعسفية التى كانت تجبى بها أحيانا .

وقد بدت هذه الثورة فى صور مختلفة .

منها : النهسائح التى يقدمها بعض العلماء إلى السلطان .

وللشيخ محيى الدين النووى نصيحة ثمينة ، وجهها إلى الملك الظاهر بيبرس ، طلب فيها أن يرفق بالرعية ويعدل بينها ، ويلغى المكوس التى فرضها عليها .

وقيل إن الظاهر لما خرج إلى قتال التتار بالشام ، أخذ فتوى من علماءها ، بأنه يجوز له أخذ مال من الرعية ليستنصر به ، ووقع العلماء بالفتوى ما عدا النووى ، فلما طلب إليه السلطان التوقيع امتنع . وقال له :

« إني سمعت أن عندك ألف مملوك ، لكل منهم حياصة من ذهب ، وعندك مائة جارية لكل منهن حق من الحلى ،

وطلب إليه أن ينفق ذلك أولا على الجهاد ، ثم يفتيه بالأخذ من مال الرعية .

وأرسل النووى نصيحته هذه - أو رسالته - مع الأمير بدر الدين يبيلك أمير الشام حينذاك إلى السلطان .

فلما اطلع عليها السلطان ردها ، وأنكر ما جاء فيها ، وأجاب عليها إجابة خشنة أعترض بها على هذه النصيحة . فلما وقف النووى على إجابة السلطان ، أرسل إليه رسالة جديدة ، فند فيها مزاعم السلطان واعتراضاته .

ويفهم من هذه الرسالة الجديدة أن اعتراضات السلطان تتلخص فيما يلى :

أولا : أن ما يفرضه من الضرائب ، حق للجنود لأنهم يقومون بواجب الجهاد ، بينما قعدت عنه الطوائف الأخرى .

وقد رد النووى بأن الجهاد ليس مختصاً بالأجناد . والجهاد فرض كفاية . فإذا قرر له السلطان أجناداً مخصوصين ، أنفق عليه من بيت المال . وتفرق باقي الرعية لمصالح العامة من الزراعة والصناعة وغيرها . ولا يحل للسلطان أن يأخذ شيئاً من الرعية ، مادام بيت المال عامراً بالمال - وقد كان عامراً .
ثانياً : أنه يرفض نصيحة الشيخ ، ويرى أنه كان أولى به أن يتقدم بها إلى الكفار . . .

وقد رد النووى متهمكاً على السلطان بقوله : كيف يقاس ملوك الإسلام وأهل الإيمان والقرآن ، بطغاة الكفار ؟ وبأى شيء كننا نذكر طغاة الكفار ، وهم لا يعتقدون شيئاً من ديننا ؟ .

ثالثاً : أخذ يمن عليه بأنه قام مع جنوده بأعباء الجهاد وطرده الأعداء ، وأنه فتح كثيراً من البلاد والحصون .

وقد رد النووى على ذلك بأن حمد للسلطان جهاده ، وأن هذا هو واجبه ، وأن ثوابه مدخر له عند الله . وأن جهاد السلطان لا يعنى من تقديم النصيحة الواجبة إليه .

رابعاً : هدهد بأنه سينتقم من الرعية ، بسبب هذه النصيحة .

وقد رد النووى على ذلك ، بسخرية لاذعة ، وبأنفة وكبرياء . قائلاً : « وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا ، وتهديد طائفة من العلماء ، فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه . وأى حيلة لضعفاء المسلمين الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ، ولا علم لهم به ، وكيف يؤخذون به لو كان فيه ما يلام عليه .

وأما أنا نفسي ، فلا يضرني التهديد ولا أكثر منه ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان . فإني أعتقد أن هذا واجب على وعلى غيرى . وما ترتب على الواجب ، فهو خير وزيادة عند الله تعالى . إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هي دار القرار . وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد .

وقد أمرنا رسول الله صلى عليه وسلم ، أن نقول الحق حيثما كنا . والآنخاف في الله لومة لائم . ونحن نحب السلطان في كل الأحوال ، وما ينفعه في آخرته ودينه ، ويكون سبباً لدوام الخيرات له ، ويبقى ذكره على مر الأيام ، ويخلد به في الجنة ، ويجد نفسه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، (١)

وهكذا ، ترى هذا الشيخ العظيم ، يقف من السلطان هذا الموقف الصلب ، والسلطان في جبروته وعنفوان قوته . ما هابه ولا خشى وعيده ، ورمى في وجهه بكلمة الحق سافرة صارخة ، جريئة مدوية . خوفاً على الرعية ، وحفاظاً على الدين ، وصونا للحق .

ومنها أيضاً : وقوف بعض قضاة الشرع وعلماء الدين ، في وجه السلطان ، عندما يجمعهم مجلساً لئستشيرهم في فرض ضريبة جديدة . فكان بعضهم يمانعه في حزم وعدم تردد ، وفي إصرار . وفي أكثر الأحيان كان لذلك أثره في منع الضريبة أو تخفيفها .

وقد حدثناك قريباً ، عن موقف الشيخ عز الدين بن عبد السلام من السلطان المظفر قطز حينما أراد فرض ضريبة على الرعية ، ليستعين بها على قتال التتار ، وذلك عام ٦٥٨ هـ .

ومن الحوادث الماثلة :

أن السلطان قايتباي ، احتاج في عام ٨٩٦ هـ إلى مال ينفق منه على تجارده ضد العثمانيين . فجمع القضاة الأربعة ، وطلب إليهم إقراره على فرض ضريبة ، مقدارها إيجار سنة على الأوقاف ، وعلى الأملاك بمصر والقاهرة ، سواء أكانت

(١) راجع حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٩ - وفيه نص الرسالة الثانية للنووي - أما الرسالة الأولى فلم يسجل منها شيء .

أماكن أم أرضاً مزروعة ، أو حمامات أو طواحين أو أفراناً أو مراكب أو غير ذلك .

وبعد جدال شديد ، وتوقف ، وأخذ ورد ، اتفقوا على فرض إيجار خمسة أشهر فقط .

وأن السلطان قانصوه الغورى ولى السلطنة عام ٩٠٦ هـ والخزائن الشريفة خاربة على عروشها ، والجنود يشورون في وجهه طلباً للنفقة والرواتب . فجمع مجلساً من الأمراء والخليفة والقضاة ، وطلب إليهم إقراره على الاستيلاء على أموال الأوقاف وعلى أرضها . وبعد جدال عنيف ، استقر رأى على أن يأخذ من ريع الأوقاف سنة كاملة ، ومن إيجار الأملاك بالقاهرة وغيرها عشرة أشهر معجلة .

ومنها أيضاً ثورة جماهير الشعب نفسها على هذه الضرائب المرهقة . وكانت هذه الثورة نادرة . ومن أشدها ما كان في زمن السلطان الغورى ، بسبب الضريبة التى قررها على أملاك القاهرة وغيرها ، ومقدارها إيجار عشرة أشهر عدا إيجار سنة كاملة من ريع الأوقاف - وهى الضريبة التى أشرنا إليها فى السطور السابقة .

وقد كانت طريقة الجباية تعسفية وكان فيها السجن والتعذيب والتزوير ، وسلط السلطان على الشعب عدد امن الأمراء الغلاظ لجمع هذه الضريبة . ولما طالبوا بها أصحاب الأملاك ، أخذ هؤلاء يطالبون بها السكان ، ليدفعوها معجلة ، ليؤافوا بها الجباة ، ويمنعون عن أنفسهم الإيذاء .

فاتسعت بذلك دائرة السخط والغضب ، وتجمهر القاهريون إثر صلاة يوم الجمعة - ٨ المحرم عام ٩٠٧ هـ - وتعقبوا الأمراء وهم خارجون من الصلاة ، وبخاصة الأتابكى دقيت الرجبى . وطالبوهم بالرحمة والعدل ، وبمخاطبة السلطان لتخفيف هذه الضريبة الفادحة .

وقد أخذ الأمير وقتاً ، وغيره من الأمراء ، في التفقت من الجماهير وعدم الإصاحبة إليهم ، فأخذوا في رجمه هو ومن معه ، فأصيب بعضهم ، وأعمل المماليك السيف في الشعب ، حتى تفرق شمله .

وتكرر الحادث في اليوم التالي ، وتعرضت الجماهير للأمير أزدمر المهندار ، فوعدهم بالتوسط لدى السلطان الغوري ، لتخفيف الضريبة . وكانت النتيجة أن اكتفى السلطان بفرض إيجار سبعة أشهر ، بدلا من عشرة .

من هذا وذاك تدبّن لك ملامح الاتجاه الشعبي بشأن السياسة الداخلية . — فضلا عن السياسة الخارجية .

وسترى حينما نعرض لدراسة الشعور في البيئتين السياسية والاجتماعية ، هدى لهذه الاتجاهات جميعها ، مع التعليل والتعليق عليه .

الفصل الثالث

في

وصف البيئة الثقافية (١)

تمهيد :

لنكن نتحدث عن البيئة الثقافية ، ينبغي أن نعرف أولا ، أن البلاد المصرية عريقة ، منذ عصورها الأولى الغابرة ، في ميادين العلوم والآداب والفنون ، وفي مضمار الحضارة والمدنية . وبدأت آثار اشتغالها بذلك في ميادين شتى من ميادين حياتها ، في معابدها وهياكلها وآثارها ومخططاتها ، وفي أهرامها وأبي هولها ، وفي نقوشها وبرديها . وفي مدارسها ومصنوعاتها ، مما نتحدث عنه كتب التاريخ والآثار الماثلة حتى اليوم .

هذا كله غنى عن البيان ، وغنى عن التعريف . وقد كانت مصر في ذلك ، معلمة العالم الأولى . أو على أقل تقدير ، إحدى معلماته البارزات .

ولاريب أنها انفردت دون سائر معلماته بألوان من العلوم والفنون ، والفلسفات والصناعات ، لونت حضارتها ، فصارت نسيج وحدها ولم تشاركها في ذلك معلمة أخرى .

وتوالت عليها تباعا عصور موأتية معاونة ، تفسح لها الطريق في مضمار رسالتها الإنسانية التي دأبت على تبليغها للناس . ومنها عصور معوقة مشبطة ، تغلق أمامها السبيل ، فتنهنه من نشاطها ، وتحد من عجلتها .

(١) فصلنا الحديث تفصيلا وأفيا عن موضوعات الثقافة وما يتصل بها ، في المجلدين الثالث والرابع من هذه الموسوعة . ولهذا أو جزنا الحديث هنا إيجازا مناسبا للمقام ، وسطرنا مادعت إليه ضرورته .

ولكنها في كل حالة ، تكمن في طواياها ، نواياها الفطرية ، ورغباتها الطبيعية ، وتصميمها الأكيد في الانطلاق في ميادين العلم الفسيحة ، انتهى* لنفسها وللناس ، ما يرجون من السعادة والرفاهية والخير . وهي في ذلك تترقب الفرص وتتحين المناسبات .

ومنذ أن بنى بها مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط ، بعد الفتح العربي ، وهي تشهد ألوانا من حلقات العلم والأدب ، تتسع وتضيق ، وفقا لمقتضيات الظروف . وأخذت تصطبغ في اتجاهاتها الثقافية ، بالألوان الإسلامية والعربية . وشارك في ذلك كله مسجد عمرو ومسجد ابن طولون من بعده .

وغزا الفاطميون البلاد المصرية عام ٣٥٨ هـ . ومنذ ذلك الوقت ، وحركة العلم فيها دائبة ، ونشاط الأدب فيها لا يهدأ .

وأسس الفاطميون قاهرتهم المعزية العتيدة . وفي وسطها أقاموا الجامع الأزهر المجيد ، واتخذوا منه دار عبادة ، ودار دراسة ، ودار دعاية لمذهبهم الشيعي .

وقفوا على أثره ، بإنشاء جامع الحاكم بأمر الله ، وغيره من الجوامع في مدينة القاهرة . وشهدت البلاد منذ ذلك الحين ، عددا من أبنائها النابهين ، يبرزون في مجالات العلم والأدب ، وفي ميادين الكتابة والشعر ، وفي آفاق الصناعة والفن ، فضلا عن ذخيرتها من الكتب .

واتسع نطاق التعليم في عهد الأيوبيين ، الذين استولوا على حكم البلاد ، بعد الفاطميين ، منذ عام ٥٦٧ هـ . فأسسوا عددا جديدا من مدارس العلم في القاهرة وغيرها .

وقد عنوا بنشر فقه المذاهب السنية الأربعة ، وحديث الرسول عليه الصلاة

والسلام ، ومذهب الأشاعرة ، وعفوا آثار المذهب الفاطمي . وقضوا على كثير من مؤلفات علمائه ودعائه .

ويعتبر العصر الأيوبي في مجملته ، امتدادا للعصر الفاطمي ، من ناحية النشاط العلمي والأدبي — فيما عدا المذهب الشيعي وفلسفته — وشهد العصر الأيوبي ، فيما شهد ، عددا جديدا من رجال العلم والأدب ، ومن أهل الإنشاء والشعر ، من أبناء هذه البلاد ، لا يقفون عن نظراتهم من أبناء الأمصار العربية والإسلامية المعاصرة لهم ، إن لم يفوقوهم ويزيدوا عليهم في إتقان الصناعة وسعة الإنتاج .

وحسبك أن تعلم أن من بين مخضرمي الدولتين الفاطمية والأيوبية ، القاضي الفاضل عبد الرحيم البيهقي الكاتب الشاعر العظيم ، والسياسي الكبير ، وزير صلاح الدين الأيوبي ، وقد انعقد له لواء الزعامة الأدبية ، بما استن من مناهج في الكتابة والشعر ، ظلت مرجعية من بعده ، متبعة ، مئات السنين . (١)

مصر دارة العلم والأدب

ومنذ فتح العرب مصر ، انتشر فيها الإسلام ولغته العربية ، وأخذت آدابها تصطبغ بصبغة إسلامية عربية . وتبعث — في جملتها — آداب العواصم الإسلامية الحاكمة .

وقد تكون إقليمية الآداب المصرية ، بدت في عدة مظاهر ، ضرورة نشوئها في هذا المهر — أعني البلاد المصرية — وربما في الموضوع . إلا أن الإقليمية لم تتضح في الأسلوب ، وفي المعاني الجزئية ، وطريقة تصويرها ، وطريقة معالجة الموضوع . وظلت اللغة بما لها من تقاليد وأوضاع ، أثيرة في التعبير . وبخاصة بسبب هذا الراسب الغائر في أعماق النفس العربية ، الذي يجب إليها محاكاة القدماء .

(١) راجع مقدمة ديوان القاضي الناضل ، للرحوم الدكتور أحمد بدوي .

وفي الحق ، كانت اللغة المشتركة ، وأساليبها الموروثة ، وآدابها القديمة ، وأساليب القرآن الكريم ، ومناهج الفكر الإسلامي في معالجة الموضوع ، ذات آثار ضخمة ، في تضاؤل إقليمية الآداب القومية ، في كل مصر من الأمصار العربية المفتوحة .

ولكن مما لا ريب فيه أن دولة الخلافة العباسية ، لما قيضت لها أسباب القوة والوحدة ، في قرنها الأولين — على وجه التقريب — كانت آدابها وآداب بغداد — العاصمة — من السعة والسمو والقوة ، بحيث كانت نموذجا وقدوة لآداب غيرها من الأمصار التابعة .

فلما انفصلت هذه الأمصار عنها ، أخذت الظاهرة تتغير وتتحول . وبدأ هذا التحول منذ العصر الفاطمي يتضح رويدا . وطرأت أفكار ومذاهب وفلسفة وحضارة ذات ألوان ، تفارق إلى حد كبير ، ما كان منها في بغداد . بل أخذت روح المنافسة والتسابق وحب التفوق ، تبرز ، في تناول العلوم والآداب .

ومن هنا أخذت الإقليمية تتضح في هذه العلوم والآداب . واستمر لها هذا ، في العصر الأيوبي ، حتى قوى ساعدها في العصر المملوكي .

بدأت دولة سلاطين المماليك عام ٦٤٨ هـ . فشهدت المصرع الأخير لدولة الخلافة العباسية ، وشهدت سقوط عاصمتها بغداد ، على يد التتار الوثنيين ، بقيادة ملكهم هولاكو ، وذلك عام ٦٥٦ هـ .

وبسقوط بغداد ، وزوال دولة الخلافة ، ضاق ميدان العلم والآداب بها . وقد أباد التتار عددا لا يحصى من علماء بغداد وأدبائها ، وفر من وجههم آخرون . وأتلف التتار آلاف مؤلفة من ذخائر العلم والآداب ونتاج الفكر العربي الإسلامي ، مما جهد فيه أبناء هذه الدولة العظيمة ، زهاء خمسة قرون . وبذلك قضى التتار على نتائج جهاد علمي متواصل في هذه القرون ، أو عملوا على إخفائه

أو تشويهه . وهو حلقة مجيدة في سلسلة المعرفة الإنسانية .

وتلفت المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، يبحثون لهم عن ملجأ يلجئون إليه ، ودائرة رحمة الصدر حانية تحتضن علومهم وآدابهم . وتكون مركزاً لها ومحوراً لأمصارها المختلفة ، القاصية منها والدانية . فلم يجدوا غير مصر وسلطانها المملوكية وشعبها البر الكريم .

ورافق ذلك هوى في نفس هذا الشعب ، إذ التأمت هذه الرسالة مع ما هو كامن في طواياه من زمن بعيد ، من نوايا فطرية ، ورغبات طبيعية ، وتصميم أكيد ، في أن يكون أداة إنسانية سامية ، تتخذ العلم والآداب وأسباب الحضارة ، وسيلة فعالة للترفيه عن الناس ، وإسعاد البشرية ، وتيسير الخير لها .

هذا ، فضلاً عن العامل الجديد الطارئ على الحياة المصرية ، منذ الفتح العربي والذي أصبح أهم العوامل جميعاً ، التي تدفعها للسير قدماً في طريقها القويمة ، طريق الخير . والذي تعلقت به نفوس الغالبية الكبرى من سكانها ، وأصبح حافزاً أساسياً للفرد والمجتمع في سلوكهما ، وأعنى بذلك العامل : الإسلام .

وقد أراد الله سبحانه وتعالى ، أن يقيم من دولة المهاليك — في هذه الآونة العصيبة من تاريخ المسلمين — حاجزاً منيعاً ، في سبيل تدفق سيل التتار ، كما رأيت .

وكان ذلك بدافع من عصية مصر للإسلام والمسلمين . وبدافع حماسة شعبها الدينية ، التي حفزت إلى مقاومة أعداء الإسلام أو الغرب ، من تتار و صليبيين ، أو عثمانيين وغيرهم .

وكان من حسن سياسة سلاطينها حينذاك . أن فسحوا في مصر مكاناً للخلافة عباسية جديدة . بوءوا فيها أحد سلاسل خلفاء بني العباس . فأعادوا بذلك للخلافة شيئاً من سيرتها . ووجهوا بعملهم هذا أنظار المسلمين والعرب . في شتى أمصارهم (م ١٥٠ - عصر المهاليك)

إلى مصر . واقتوا قلوبهم وأرواحهم إلى القاهرة ، باعتبارها عاصمتهم الجديدة ، ومتبوا خلافتهم المجيدة . . .

واكتسبت مصر بذلك . مكانا في الحياة الإسلامية ، وفي المجال العربي ، جديدا . وأصبحت عاصمتها مركزا تطيف به قلوب المسلمين قاطبة . وصارت أبوابها الحصن والحصين ، والركن الركين ، الذي يلوذ بأكنافه ذوو الحاجات العليا من أبناء البلاد الإسلامية ، ملوكا وأمراء ، وعلماء وأدباء ، وغيرهم .

وعاونها على الترحيب بهم وبآمالهم ، خيرها الموفور ، وجناها الرطب ، وماؤها العذب ، وصدرها الرحب ، وكرمها الخصب . ففاء إلى حماها كثير من الناس . ويسقط الطير حيث يلتقط الحب . . .

بذلك استعدت مصر لأن تكون مركز العلوم والآداب الإسلامية والعربية . وأن ينتقل إليها النشاط في ذلك بعد العراق . وأن تحل القاهرة محل بغداد . وأخذت من ثم ، تملك الزمام ، وتقتعد مقعد الزعامة . وهيا لها أهلها وسلطانها ، ماعونها على بلوغ هذه الغاية .

ولم تكن بلاد المغرب والأندلس ، في هذه الظروف ، بأسعد حالا من العراق الذي وقع فريسة لعبث المحتلين . فقد أخذت الفتن تتفاقم فيها ، وتتجدد بين أهلها وحكامها ، حتى فتكت بها ، وأطمعت فيها أعداءها .

أما الشام . فقد كانت - كما علمت وفي جملة أمرها - في عداد بلاد السلطنة المصرية . وهي ، وإن ظلت مسرحا واسعا للفتن ، وللحزوب الدامية ، بين السلاطين وأعدائهم ، شاركت مصر ، إلى حد كبير ، في حمل رسالة العلم والأدب ، وصارت دمشق وحلب وغيرهما من عواصم الشام ، مركزا لها ، مع تأثرها بالثقافات المصرية .

ولا نغلو إذا قلنا إن هذا العصر ، عصر ازدهار الثقافة المصرية ، التي فرضت نفسها على كثير من الأمصار العربية .

شهادة ابن خلدون :

ويحسن أن نعرض عليك ما يبجله العلامة ابن خلدون (٨٠٨ هـ) ، في مقدمته تحت عنوان « فصل في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع » .

لقد وازن ابن خلدون في هذا الفصل ، بين أهل المغرب ، وعلم أهل المشرق قبيل عهده ، وإلى عهده ، ونوه بانتشار العلوم والصنائع في المشرق . وبخاصة في القاهرة . قال :

« وقد بقيت فاس وسائر أقطار المغرب ، خلوا من حسن التعليم ، من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان . ولم يتصل بسند التعليم فيهم . ففسر عليهم حصول الملكة والخذق في العلوم . وأيسر طرق هذه المملكة ، فتق اللسان بالمحاوراة والمناظرة في المسائل العلمية . فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها .

فتجد طلاب العلم منهم ، بعد ذهاب الكثير من أعمارهم ، في ملازمة المجالس العلمية ، سكوناً لا ينطقون ولا يفاضون . وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة . فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم .

ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل ، تجد ملكته قاصرة في علمه ، إن فارض أو ناظر أو علم . وما أتاها القصور ، إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده . وإلا فنظمهم أبلغ من حفظ سواهم ، لشدة عنايتهم به . وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية ، وليس كذلك .

وما يشهد بذلك في المغرب ، أن المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ، ست عشر سنة وهي بتونس خمس سنين .

وهذه المدة بالمدارس ، على المتعارف ، هي أقل ما يتأتى فيها لطالب العلم ، حصول مبتغاه من الملكة العلمية ، أو اليأس من تحصيلها . فطال أمدّها في المغرب لهذه المدة ، لأجل عسرها من قلة الجودة خاصة ، لا مما سوى ذلك .

وأما أهل الأندلس ، فذهب رسم التعليم من بينهم ، وذهبت عنايتهم بالعلوم ،
لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئتين من السنين ،
ولم يبق من رسم العلم فيهم ، إلا فن العربية والأدب . واقتصروا عليه .
وانحفظ سند تعليمه بينهم ، فأنحفظ بحفظه .
وأما الفقه بينهم فرسم خلو وأثر بعد عين . وأما العقلیات فلا أثر ولا عين .
وما ذاك إلا لانقطاع سند التعليم فيها ، بتناقص العمران ، وتقلب العدو على
عائمها ، إلا قليلا بسيف البحر ، شغلهم بمعايشهم أكثر من شغلهم بما بعدها . والله
غالب على أمره .

وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه ، بل أسواقه نافقة ، وبحوره زاهرة ،
لاتصال العمران الموفور ، واتصال السند فيه . وإن كانت الأمصار العظيمة التي
كانت معادن العلم ، قد خربت ، مثل بغداد والبصرة والسكوفة .
إلا أن الله تعالى ، قد أдал منها بأمصار أعظم من تلك . وانتقل العلم منها إلى
عراق العجم بخراسان وما وراء النهر من المشرق . ثم إلى القاهرة وما إليها من
المغرب ، فلم تزل موفورة . وعمرانها متصلا ، وسند العلم بها قائما .
فأهل المشرق ، على الجملة ، أرسخ في صناعة تعليم العلم ، بل سائر الصنائع .
حتى إنه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق ، في طلب العلم ، أن عقولهم
على الجملة . أكمل من عقول أهل المغرب ، وأنهم أشد نباهة وأعظم كياسا ،
بفطرتهم من نفوس أهل المغرب ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة
الإنسانية . ويتشيعون لذلك ويولعون به . لما يرون من كيسهم في العلوم والصنائع .
وليس كذلك . وليس بين قطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار ، الذي هو
تفاوت في الحقيقة الواحدة . . الخ (١)

(١) مقدمة ابن خلدون ، تحت عنوان « فصل في أن التعليم للعلم من جهة الصنائع » .

النشاط العلمى

أسبابه ووسائله

أشرنا فى مناسبة سابقة إلى والتعليم العسكرى، الذى اختصت به طائفة المماليك ولم يسمح لأحد من أفراد الشعب بالاندماج فيه والتخرج به .

وكان مكانه قلعة الجبل وطباقيها . وتدرج برأيه على تحفيظ شيء من القرآن الكريم ، وتعلم القراءة والكتابة . ثم القيام بالتدريبات الرياضية المختلفة ، التى تهدف إلى تقوية الجسم وتكوينه تكويناً يساعده على الأعمال العسكرية وحركات القتال . ثم مزاولة أعمال الفروسية والمهارة والفتوة . مثل ركوب الخيل ورمى النشاب واستعمال القسي والطعن بالرماح ، والضرب بالسيوف ، إلى غير ذلك من أدوات القتال والحرب .

أما النشاط العلمى الذى نقصده هنا ، فهو الاشتغال بالعلوم والآداب الإسلامية العربية . وقد احتضنته الدولة إلى حد كبير . وحفزت إليه همم العلماء واتخذت من الوسائل ما ييسر له أن يؤتى أكله المطلوب .

وقد دفع إلى ذلك — كما أشرنا — الاحتلال التترى للعراق . وإبادة العلماء وإتلاف النتاج العلمى والقضاء على الحضارة العباسية .

وكذلك الاحتلال الصليبي لسواحل الشام . والخوف على الدين الإسلامى الخفيف ، أن يقضى عليه وعلى تراثه ، هؤلاء الصليبيون .

كان لهذا كله ، رد فعل عظيم فى الدولة المملوكية . فجنحت إمكانياتها لصدعادية هؤلاء الأعداء جميعاً . فشنّت عليهم الحروب . ودارت بينهم وبينهم رحي القتال .

وإلى جانب ذلك ، قاموا بحركة إحياء علمية ، دعما لدولتهم ، وبعثا لشباب الدين وقونه ، وإعادة لمجد علومه وإبقاء لسلسلتها موصولة الحلقات ، للأجيال القادمة .

واستعانت البلاد بمن فر إليها من علماء المشرق والمغرب ففسحت لهم في كنفها ، ورحبت بهم في ربوعها . فتولى كثير منهم التأليف أو التدريس أو الفتوى . أو غير ذلك . سواء أكان في مناصب رسمية أو غير رسمية .

واستمر وفود هؤلاء العلماء مطردا على وجه التقريب ، إلى مصر والشام - طيلة العصر . فعاون ذلك على دفع نشاط الحركة العلمية والتأليفية .

وقد بلغت مصر بأبنائها وبالوافدين عليها ، كثيرا من أهدافها في مجال البحث العلمي والأدبي .

ومن الوافدين - على سبيل المثال - : ابن خلكان الإربلي^(١) . وابن مالك الأندلسي^(٢) . وابن أبي حجلة المغربي^(٣) . وابن منظور الإفريقي^(٤) . وابن خلدون المغربي^(٥) .

ومن فر إلى مصر : كمال الدين بن العديم ، هجر مدينة حلب ، هاربا من التتار إلى الناصر محمد بن قلاوون فأقام بمصر حتى مات .^(٦)

(١) راجع فوات الوفيات ج ١ - وطبقات السبكي ج ٥ - والنجوم الزاهرة ج ٧ - وحسن المحاضرة ج ١ في المؤرخين - وشذرات الذهب ج ٥ .

(٢) راجع السلوك ج ١ ص ٦١٣ - وف - فوات الوفيات ج ٢ - وطبقات السبكي ج ٥ - والنجوم الزاهرة ج ٧ - وشذرات الذهب ج ٥ .

(٣) راجع المهمل الصافي ج ١ - والدرر الكامنة ج ١ رقم ٨٢٦ - وحسن المحاضرة ج ١ في باب الشعراء ،

(٤) راجع الدرر الكامنة ج ٤ رقم ٧٢٥ - وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٥٥ - وشذرات الذهب ج ٦ ص ٧٦ - وجورجي زيدان ج ٣ .

(٥) راجع الضوء اللامع ج ٤ رقم ٣٨٧ - وحياة ابن خلدون للخضر حسين - وابن خلدون لمحمد عبد الله عنان .

(٦) تاريخ اللغة العربية لجورجي زيدان ج ٣ .

وكذلك كمال الدين المعروف بابن الأستاذ — المتوفى عام ٦٦٢ هـ — رحل إلى مصر من حلب ، لما دهمها التتار ، واشتغل مدرسا بالمدرسة الشيعونية ^(١) .
وهاجر من حران إلى دمشق عام ٦٦٧ هـ ، والد ابن تيمية الحراني ، ومعه ولده هذا — تقي الدين المشهور — وكان إذاك ، حدثا صغيرا . فشب وتعلم ، ونما وتفقه . ثم كان بمصر والشام ، مدرسة جامعة ، ذات فكرة وذات هدف ، وذات جهاد ووسيلة في سبيلهما ^(٢) .
وذكر في كتاب « طبقات الحنابلة » ، لمحمد جميل شطى ، عدد من العلماء الذين هاجروا من بغداد ، فراراً من التتار حينما دهموها .

وقد كانت غيرة السلاطين والأمراء ، على الدين ، وحماستهم له ، وتمسك كثير منهم بأهدابه ، في مقدمة الأسباب التي دفعتهم إلى المعاونة لتجديد علومه .
وقد عظموا أهل العلم ، وقدموهم في مناسبات كثيرة ، واستشاروا بعضهم مراراً في أمور الدولة العليا ، وسمعوا لشكاياتهم ، وأجابوا ملتمساتهم . بل توجس بعضهم خيفة منهم — كما رأينا عند إشـارتنا إلى الشيخين الجليلين : العز بن عبد السلام ، ومحبي الدين النووي .

وروى أن الملك الظاهر بيبرس ، حضر مرة إلى دار العدل في قضية بينه وبين أحد الأمراء ، أمام القاضي ابن بنت الأعز ، فقام الناس تعظيماً له ، إلا القاضي ، فقد أشار إليه السلطان بعدم القيام ^(٣) .

وروى أن الملك المنصور لاجين ، حضر إليه مرة ، الشيخ تقي الدين بن دقيق

(١) السلوك ج ١ ص ٥٢٣ — وحسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٣ — وطبقات السبكي ج ٥ — والنجوم الزاهرة ج ٧ ،

(٢) الدرر الكامنة — فوات الوفيات ج ١ — وطبقات ابن مفلح — ومختصر طبقات الشطى — وجملاء الصينين للكلوسي — وجورجي زيدان ج ٣ ،

(٣) حسن المحاضرة للجلال السيوطي ج ٢ ص ٧٤

العبد الفشيرى ، فقام إليه السلطان ، وقبل يده . فلم يزد الشيخ عن قوله له :
« أرجوها لك بين يدى الله » .^(١)

وروى أن الملك الظاهر برقوقا ، لما أنشأ مسجده ، وقرر فيه شيوخا يتولون
التدريس ، كان من بينهم الشيخ علاء الدين السيرامى ، مدرس الحنفية وشيخ
الصوفية . وقد بالغ برقوق فى تعظيمه ، حتى فرش له سجادته بيده .^(٢) إلى
غير ذلك .

وشعر العلماء بمسئوليتهم ، ولا سيما أن الظروف قد واتتهم . فمن شعب
متعلق بهم سامع لإرشادهم ، ملتزم لنصيحتهم وملوك ورؤساء يهابونهم .
وقد فسحوا له من جنابهم ، وأسسوا لهم دور التعليم وأوقفوا عليها الأوقاف ،
ورتبوا لشيوخها الرواتب ولطلابها المعونات ، من مال وطعام وكسوة ومسكن
فى بعض الأحيان .

فرأى العلماء فى هذه الفترة الحاسمة الخطيرة ، من تاريخ العالم الإسلامى ، أن
يغذوا السير ، ويقبلوا على التدريس والتعليم ، وعلى الفتوى والتأليف . واندفعوا
بحماسة بالغة ، ونفوس متوثبة ، حتى قاموا بحركة إحياء علمية جليلة ، هى مشار
العجب ومحل الفخر لمصر .

وانخذوا اللغة العربية أداة للتعبير فى المخاطبة والدرس والتأليف وغير ذلك .
كما اضطرت الدولة إلى اصطناعها فى دراوينها ، ورتبت أمر رسائلها العليا ، فكانت
تكتب بأساليب أدبية ، بدجها كتاب « ديوان الإنشاء » .

دور التعليم :

وإنشاء دور التعليم يعتبر وسيلة أساسية لتنشيط الحركة العلمية ، ونشر العلم ،

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ١١٣ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٦٣ .

وذلك لما تضمنه من المدرسين والطلاب ، ولما يقرر فيها من المناهج والدروس .
وهى البعثات الطبيعية التى ينبت فيها العلم وينمو ويزدهر .

وتتمثل دور التعليم حينذاك ، فيما أنشئ من المدارس والمساجد ، وما شيد
من الخوانق والأربطة والزوايا . سواء أكانت فى القاهرة أم غيرها من البلاد .
لتدرس فيها علوم الدين ومذاهب فقه أهل السنة ، وما يتصل بها .

وكان إلى جوارها ، مكاتب صغيرة ملحقة ، لتعليم الصغار مبادئ القراءة
والكتابة ، وشيئاً من العلوم الأولية مع تحفيظ القرآن الكريم .

وقد فتحت هذه الدور التعليمية ، ليتعلم فيها من يشاء من أبناء الشعب . وهذا
التعليم هو ما نسميه « بالتعليم الشعبى » .

وكانت مدارسها بمثابة جامعات علمية عظيمة الشأن ، نعتقد أن الجامعات
الحديثة تقتبس شيئاً من نظمها .

وقد كان التعليم فيها بالمجان . ولا يرهق فيها الطالب بتحديد سن معينة ، ولا
يرغم على الاستماع لشيخ بذاته ، ولا يكلف حضور درس معين ، بل كان حراً
إلى حد بعيد ، فى اختيار درسه وشيخه ، وفقاً لميوله الشخصية .

هذا فضلاً عما كان يدر عليه من ألوان البر والمعونة ، وعما هبى له من دور
الكتيب المختلفة .

وقد بدا حرص كثير من الشيوخ ، على بعض طلابهم ، فمكثوا لهم من
ملازماتهم . كذلك حرص بعض الطلاب على شيوخهم فدأبوا على ملازمتهم .
وبهذا أخذ العلم ينتقل من جيل إلى جيل ، وأصبح الشيخ يورث عليه تلميذه ، وأضحى
التلميذ يخلف شيخه ، وربما زاد عليه .

ولم يكن إنشاء دور التعليم - المساجد والخوانق ونحوها - سياسة عامة للدولة ، مرسومة

مقررة بتخطيط محدد ، كما هو الشأن في العصر الحديث . ولكن قصاره أنه كان رغبة فردية للسلطين يتنافسون في إبرازها زلنى إلى الله وصدقة على الشعب ، لا لأن ذلك حق الشعب ينبغى أن يؤدى إليه .

ومهما يكن من أمر ، فقد ملئوا القاهرة وغيرها ، بهذه الدور ، واقتدى بهم الأمراء والرؤساء . وبلغ ما أنشئ في القاهرة وحدها ، نحواً من سبعين مدرسة . وكان هناك مدارس في الإسكندرية ومنية بنى خصيب ومنفلوط ، وأسيوط وبوتيج وإخميم وسوهاج وقوص وإسنا وأسوان وبلبيس ، ودمياط ورشيد والمحلة وغيرها . فضلاً عن خوانق الصوفية ونحوها (١) . ومن مدارس القاهرة : المدرسة الظاهرية أنشأها بيبرس . والمنصورية أنشأها المنصور قلاوون . والمارستان المنصوري أنشأه قلاوون أيضاً . والصاحبية أنشأها بهاء الدين بن حنا - ومنها مدرسة برقوق ، ومدرسة المؤيد وغيرها .

وجرت العادة بافتتاح هذه الدور ، باحتفال يتقدم فيه المنشىء في ركب ، ويتصدر بالدار مجلساً ، ويشرع أحد الشيوخ في إلقاء درس - فقها أو حديثاً مثلاً - ثم تمنح المنح وتمد الموائد ويسقى الشراب . وقد يلتقى بعض الشعراء أحياناً مناسبة للمقام .

وقد أنشأ الملك الظاهر بيبرس مدرسته الظاهرية ، التي بخط بين القصرين . وتم بناؤها عام ٥٦٢ هـ . وجعلها وأوقف عليها أوقافاً طائلة ، وألحق بها خزانة كتب عظيمة ، وبني بجوارها مكتبة لتعليم الصبية القرآن الكريم ، وأجرى عليهم الطعام والشراب ورتب للمدرسة دروساً في فقه المذاهب الأربعة ، وفي القراءات .

واحتفل بافتتاحها احتفالاً شائعاً ، تناظر فيه العلماء ، وتبارى الشعراء ،

(١) راجع : «الاتصار» لابن دقاق ج ٥ - وخطط المقرئى ج ٤ - وتقوم النيل لأمين سامى ج ١ ص ٢٠٢ - وحسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ - وغيرها من كتب التاريخ العام - وفيها تفصيل لأخبار المدارس .

ومدت الموائد الحافلة . وكان شعراؤها ثلاثة :

أبو الحسن الجزار ومن شعره :

ألا هكذا يبنى المدارس من بني ومن يتعالى في الثواب وفي الثنا

والسراج الوراق ، ومن شعره :

ملك له في العلم حب وأهله فله حب ليس فيه ملام

وجمال الدين يوسف بن الخشاب ، ومن شعره :

قصد الملوك حماك والخلفاء فاخر فإن محلك الجزاء ..

فلما فرغوا من إنشادهم ، أفيضت عليهم الخلع (١) .

وقد بقي إلى جانب هذه المدارس الجديدة - عدد من المدارس والمساجد المنشأة من قبل ، كالجامع الأزهر ، وجامع ابن طولون ، وجامع الحاكم بأمر الله ، ظلت الدراسة فيها مزدهرة زمناً طويلاً .

واهتم منشئو هذه الدور التعليمية ، بأن تبقى مفتحة الأبواب ، عامرة بطلاب العلم ورواد المعرفة ، فأوقفوا عليها أوقافاً طائلة من دور ورباع وأسواق وغيرها ، وجعلوا انظرها إلى ذريتهم من بعدهم - وربما لكي تستفيع هذه الذرية (٢) .

غير أنه كثيراً ما عبثت الأيدي بهذه الأوقاف . فكان لذلك أثر في اضطراب سير الدراسة بهذه المدارس .

وكانوا يحرون على الطلاب - أحياناً - خبزاً يومياً ويهدون إليهم أردية صيفية وشتوية ، ويوزعون عليهم الكعك ونحوه في عيد الفطر ، واللحوم في عيد النحر ، ويعد لهم الطعام في رمضان .

(١) راجع خطط المقرئ ج ٤ - وحن المحاضرة ج ٢ ،

(٢) راجع أخبار هذه الأوقاف في المجلد الثاني من موسوعتنا هذه .

ويجرون لرواتب على الشيوخ والمدرسين ، وعلى الطلاب المقيمين ،
ويعاونونهم بألوان من البر في المناسبات .

خزائن الكتب :

وكثيراً ما كانت تزود دور التعليم ، بمكتبات تضم ذخائر العلم والأدب ،
لتعاون الشيوخ والطلاب معا على جهادهم العلى .
وكان بعض السلاطين مولعا باقتناء الكتب ، كالناصر حسن بن الناصر
ابن قلاوون .

وكذلك بعض الرؤساء . فقد روى أن القاضي نجم الدين يحيى بن حجي -
وكان من أعيان الرؤساء بمصر والشام - لما مات وجد عنده أكثر من ثلاثة
آلاف مجلد من الكتب النفيسة (١) .

ومن خزائن الكتب التي اشتهرت بالقاهرة حينذاك : خزانة جامع الحاكم
بأمر الله ، زوده بها الأمير بيبرس الجاشنكير وخزانة جامع الخطيرى ببولاق
زوده بها منشؤه الأمير عز الدين إيدمر الخطيرى وخزانة القبة المنصورية ،
وقيل إنها كانت تحتوى على عدة أحمال من الكتب النفيسة فى مختلف العلوم ،
وقفها المنصور قلاوون . وخزانة جامع المؤيد شيخ ، وقد حول إليها مئات
من الكتب كانت بقلعة الجبل ، وأضاف إليها نحو خمسمائة مجلد أهداها إليه
كاتب سره الناصرى بن البارزى . وخزانة المدرسة المحمودية التى أنشأها
الأستادار جمال الدين محمود - قيل إنها كان بها كتب الإسلام من كل فن . إلى
غير ذلك (١) .

(١) بدائم الزهور ج ٢ حوادث ربيع الأول عام ٨٨٨ هـ

(١) راجع الخطط المقرزية ج ٤ ص ١٣٢ ، ٢٤٢ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ .

الاتجاه التعليمي :

وكان أكثر هذه الدور التعليمية مؤسسا بمدينة القاهرة ، إذ كانت مقر السلطان ومجتمع الأمراء ، وقاعدة الجند ، ومحل الدواوين . ومهوى الرؤساء ، ومثابة الطامحين ، ومراح الجاه .

وقيدت الحركة التعليمية في هذه الدور ، بالاتجاه الذي يرسمه منشئوها . ولكن اتجاهاتهم كانت تلتقي عند هدف واحد . وهو إحياء علوم الدين الإسلامي ، وتجديد شبابها وقوتها .

ويتضح لنا هذا ، من أخبار المدارس . إذ كان يذكر بينها أن منشئ مدرسة كذا ، قرر بها درسا في فقه الحنفية - مثلا - أو درسا في التفسير ، أو الحديث ، وأكثرها من دروس الدين .

ولا غرابة في ذلك . ففضلا عن الهدف الذي أشرنا إليه من هذا النشاط التعليمي ، كانت العلوم الدينية وما يتصل بها من فنون اللغة العربية ، هي وسائل الثقافة الأولى ، في الأمم العربية والإسلامية ، في تلك العصور .

ولم تكن علوم أخرى ، تذكر بجوارها ، وتسمو في الأهمية إلى ما سمت هي إليه . وقد كانت هناك بجوارها علوم أخرى كالطب والهندسة والفلك . ولكنها لم تبلغ ما بلغته علوم الدين واللغة . وكان الأمر - في تلك العصور الماضية ، مختلفا اختلافا واضحا ، عما نشهده في عصرنا الحديث ، من الاهتمام الضخم الأصل بهذه العلوم الكونية .

وعلى سبيل المثال ، كان يدرس بالجامع الأزهر ، علوم الدين بمذاهبه الأربعة ، والحديث والتفسير واللغة والأدب والوعظ . وانقطع لطلب العلم نحو ٧٥٠ طالبا ، من أمم شتى ما بين عجم وزيالعة ، ومن أهل ريف مصر ، ومغاربة . وذلك حتى عام ٨١٨ هـ - على ما رواه المقرئ . وقد قال أيضا :

« فلا يزال هذا الجامع عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقيه ، والاشتغال بأنواع الفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر ، . على أنه لا بد من وقفة قصيرة ، إزاء مؤسسة علمية ، أقيمت في ذلك الزمان ، وتعتبر أعجوبة من أعاجيبه ومحمدة من محامده . ونعني بها المارستان المنصوري الذي أنشأه المنصور قلاوون عام ٦٨٢ هـ .

وهو مستشفى عظيم ، أنفق عليه قلاوون من مال مصر ، أموالاً طائلة ، وأوقف عليه نحو ألف ألف درهم سنوياً .

وكان ينقسم جملة أقسام ، منها : قسم للحميات ، وآخر للرمم ، وآخر للجراحة . وآخر للأمراض النسوية ، وآخر للإسهال .

وجهاز بصيدلية تطبخ فيها أنواع الأدوية . وزود بما يحتاج إليه من أدوات وأسرة وموظفين ،

وقد أسست به قاعة تلقى بها دروس الطب على الطلاب . وضمت إليه خزانة كتب قيمة .

هذا . وقد كانت سياسة مصر ، خلال تلك العصور ، ترمي إلى الترحيب بأبناء العرب والمسلمين ، على تبين أوطانهم - كما رأيت - فكانوا يفدون إليها بغية العلم وغيره . وكانت لا تفرق بينهم وبين أبنائها ، بل تفسح لهم من صدرها ، وتوسع لهم في رحابها ، وتغدق عليهم من العلم والمال ووسائل الراحة ، ما يعينهم على بلوغ إرتبهم ^(١) .

(١) راجع أخبار المساجد والمدارس ، في خطط المقرئ ج ٤ - وفي الانتصار لابن وفان ج ٤ - وفي المجلد الثالث عن موسوعتنا هذه .

مواد التعليم :

وقد أشرنا إلى أن علوم الدين واللغة كانت في مقدمة المواد التعليمية .
وكان من بينها فقه المذاهب الأربعة وعلوم الحديث وتفسير القرآن الكريم .
وأصول الفقه ، والقراءات ، وعلم الكلام ، والصرف ، ودروس الوعظ . .
ويليها في الأهمية مواد اللغة العربية ، كالآداب والنحو والبلاغة ، ثم
المعقولات من منطق وطب وفلك وتقويم ورياضة .

وعنوا عناية بارزة ، بفنون التاريخ ، كالتاريخ العام ، وتاريخ مصر
والقاهرة ، والسيرة النبوية ، وسير الأعلام ، وتراجم الرجال والطبقات ،
وتاريخ الخطط ، واتضح هذا في مؤلفاتهم .

ونقل ابن دقاق أن جامع ابن طولون ، كان يدرس في عهد الملك حسام
الدين لاجين - عام ٦٩٦ هـ - الفقه والحديث والقرآن والطب . وأن الجامع
الأزهر اتسع فيه نطاق الدراسة - عام ٦٦٥ هـ - فتناولت الحديث والعلوم
العقلية والنقلية .^(١)

وروى المقرئ عن عبد الرحمن بن الصائب الحنفي ، أنه أدرك بجامع
غمر بن العاص بمصر ، بضعا وأربعين حلقة ، لإقراء العلم ، لا تكاد تخلو حلقة
منها من التدريس أثناء اليوم . وذلك قبل وباء عام ٧٤٩ هـ .^(١)

وذكر السير وإيم موير ، قال :

« إنه بنى في عهد المماليك مدارس وكليات لتعليم الناس علوم الطب والفلسفة
والفنون والعلوم الرياضية والطبيعية » .^(٢)

(١) التعاليم في مصر ، ص ٤ ، ٥ ،

(٢) تاريخ دولة المماليك للسير وإيم موير ، تعريب محمود عابدين وسليم حسن ، ص ١٨٩ .

الكتب الدراسية :

وباستقراء تراجم الأعلام ، نستطيع القول إن من الكتب التي كانت موضع العناية ، حينذاك ، للحفظ والدراسة : المنهاج الأصلي للنووي . والشاطبيتان في القراءات . والعمدة لحافظ الدين الذسني في أصول الفقه ، والكافية لابن الحاجب في العربية . ومختصر القدوري في الفقه . والأربعون حديثاً النووية . وتلخيص المفتاح في البلاغة . والجعبرية في الفرائض . والخزرجية والهداية لابن الجزري . والكنز في فقه الحنفية . وألفية ابن مالك في النحو . ومختصر أبي شجاع . ونظم قواعد الإعراب لابن الهائم . وإيساغوجي في المنطق . وفصيح ثعلب في متن اللغة . وكتب الحديث ومنها موطأ مالك وصحيح البخاري ، وصحيح مسلم .

اختيار الشيوخ :

وكانت هناك عناية عظيمة ، باختيار الشيوخ لتولى التدريس ، من بين المشهورين ، ومنهم على سبيل المثال :

بالمدرسة السلاجية : تقي الدين بن رزين . وتقي الدين دقيق العيد القشيري . وبرهان الدين الخضر السنجاري . وتاج الدين بن بنت الأعز . وتقي الدين بن بنت الأعز . والبهاء السبكي وبرهان الدين بن جماعة . والسراج البلقيني .

وبالمدرسة السكلمية ، وهي دار الحديث : أبو عمرو ففتح الدين بن سيد الناس . وبدر الدين بن جماعة . والحافظ زين الدين العراقي ، وسراج الدين ابن الملقن .

وبالمدرسة الظاهرية القديمة : تقي الدين بن رزين لفقه الشافعية . ومحب الدين بن العديم لفقه الحنفية . والحافظ شرف الدين الدمياطي للحديث . وكمال الدين القرشي للقراءات .

وبالمدرسة الظاهرية الجديدة « مدرسة برقوق » : علاء الدين السيرامي ، وقد

ولى مشيختها وتدرّس فقه الحنفية . وأوحد الدين الرومى لفقه الشافعية وشمس الدين بن مكيّن لفقه المالكية ، وصلاح الدين بن الأعمى لفقه الحنابلة . وأحمد زادة العجمى لتدرّس الحديث . ونظر الدين الضرير لتدرّس القراءات . وسراج الدين البلقينى للتفسير والوعظ .

وبالجامع المؤيدى : شهاب الدين بن حجر العسقلانى لفقه الشافعية . ويحيى بن محمد البجائى المغربى لفقه المالكية ، وعز الدين عبد العزيز البغدادى لفقه الحنابلة ، وبدر الدين محمود العنتابى لتدرّس الحديث . وشمس الدين محمد بن يحيى للقراءات . وشمس الدين محمد بن سعد الديرى لفقه الحنفية ، وقد ولى مشيخة الصوفية بالجامع (١) .

مراحل الدراسة وإجازاتها :

وتنقسم مراحل التعليم الشعبى - بحسب استنباطنا - ثلاثاً، وكل منها غير محدود بسن معينة ولا بمدة محددة ، وهى :

الأولى : مرحلة الصغر ، وفيها يدخل التلميذ مكتباً يحفظ فيه القرآن الكريم ويعلم شيئاً من الخط والإملاء ونحوهما .

والثانية : فى بدء الشباب وفيها يكب الطالب على كتب العلم كالفقه والحديث والأصول والنحو والصرف ، ومنها المتون وبعض الكتب التى سبق لنا ذكرها . فيحفظ الطالب منها ما وسع جهده وقدرت عليه طاقته وسمت إليه همته ، وعاونه عليه استعداداه . ثم يعرض محفوظاته على شيوخ من جلة عصره . فإذا اقتنع أحدهم بما عرضه عليه فاختره ووجده حافظاً جيد الحفظ ، منحه إجازة عراضة ، وهى شهادة باجتيازه المرحلة الثانية .

(١) راجع أخبار المدارس فى حسن المحاضرة ج ٢ . والانتصار ج ٤ ، والمخطوط ج ٤ - والمجلد الثالث من موسوعتنا هذه .

(م ١٦ - عصر المماليك)

وكلما جمع الطالب من هذه «الإجازات» عدداً أكبر كان ذلك أدعى إلى تقديره ، وأدل على سعة مجهوده ومبلغ إقدامه على ارتياد العلم . ويعد ما حفظه من الكتب والمتون في فنون مختلفة رصيذاً علمياً وذخيرة هامة تعينه وترشده وتعدّه المرحلة التالية ، وهم أهم المراحل .

والثالثة : في إبان الشباب وينبع وقوته . وهي أهم المراحل كما ذكرنا ، ويعكف فيها الطالب على الدراسة والبحث الواسع العميق المستوعب ، ويدخل ميدان الجدل والمناقشة معاً ، وطور الفهم والتساؤل والموازنة والحكم . حتى يستقيم لسانه ويثبت جنانه ويحصف عقله ويتفتق ذهنه وتجد قريحته ويستنير رأيه . ويستقصى في سبيل ذلك كتباً عدة في الفقه أو الحديث أو النحو أو القراءات أو نحوهما استقصاء ، دراسة وفهماً ، على شيخ أو أكثر من شيوخ العلم ، يختاره أو يختارهم بمحض رغبته وملء حرية . وكلما كان الطالب له شيوخ كثيرون ، ومن الشيوخ الممتازين كان ذلك أدعى إلى تقديره وأيسر إلى بلوغه أربته من العلم ، وأدل على جديته في طلبه . - ومن الطريف أن تعلم أن الشيخ محي الدين النووي كان وهو طالب يحضر اثني عشر درساً في اليوم (١) .

وإذا أتم الطالب دراسة مادة من مواد العلم كالفقه مثلاً أو الحديث في أحد كتبه اختبره فيها شيخه اختباراً موكولاً إلى مشيئته وإرادته ، لا دخل لأحد غيره فيه . والشواهد العملية تدل على دقة هذا الاختبار ومراعاة الأمانة العلمية فيه . فإذا نجح الطالب في اختبار شيخه منحه الشيخ «إجازة» بالفتوى ، أو التدريس أو رواية الحديث مثلاً أو القراءات أو غير ذلك . ويحرص الطالب الممتاز عادة على أن يجمع الكثير من هذه الإجازات العلمية التي تتعدد بتعدد شيوخه عادة . وكثيراً ما ترى الطالب فيما بعد يؤلف «معجماً» لشيوخه الذين درس عليهم ويتحدث عن علاقته بهم وعن تاريخهم ومحاسنهم .

(١) راجع ترجمته في طبقات الحفاظ للذهبي .

وكما اتجه كثير من الطلاب إلى إجادة فقه أحد المذاهب الأربعة والتخرج فيه، اتجه كثيرون أيضاً إلى إجادة الحديث رواية ودراية . واعتمدوا في ذلك اعتماداً كبيراً جداً على مشافهة شيوخ الحديث الحفاظ الذين يحفظونه مشافهة عن شيوخهم بسند موصول ، وربما بعدة روايات وأسناد . ولهذا نالت طبقات الحفاظ والرواة في هذا العصر وكثر عددهم في كل طبقة .

وكانت « إجازات العراضة » و « الإجازات العلمية » بالفتوى أو التدريس أو رواية الحديث تكتب بعبارة أدبية بارعة يراعى فيها السجع والمحسنات البديعة المتبعة في الأساليب الأدبية إذ ذاك . كانت هذه الإجازات بأسلوبها ، لا بموضوعها ، مظهراً من مظاهر الأدب في ذلك العصر (١) .

وفيها يشهد الشيخ بأن تلميذه قد عرض عليه ، أو قرأ وفهم كتاب كذا . وأنه أجاد ما حفظه حفظاً ، أو أجاد ما فهمه فهماً ، ويضفي الشيخ على تلميذه آيات الحمد والثناء ، ويأذن له في « الإجازة العلمية » بمزاولة التدريس أو الفتوى أو رواية الحديث مثلاً ، ويوصيه بالتخلق بصفات العلماء . وتكتب الإجازة بالفتيا بخط خاص وعلى ورق خاص (٢) .

وينبغي ملاحظة شيئين :

الأول: أنه ما من متعلم مثقف في هذا العصر إلا وقد أخذ من هذه الدراسات الدينية العربية بنصيب، بل كان لابد له من أن يتمذهب بأحد المذاهب الأربعة ، وأن تضم نسبته إلى مذهبه ، إلى اسمه ، فيقال فلان بن فلان الشافعي ، مثلاً أو الحنفي .

وكل ذى علم أو فن من غير العلوم الدينية ، كالمنطق والطب والفلك ، لابد

(١) راجع صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٢٧ ، ٣٢٢ - وديوان ابن الوردي ص ١٧٤ وبهما أنواع من الإجازات .

(٢) راجع صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٢ .

له أن يمر بهذا الضرب من التعليم الذى قوامه علوم الدين ثم علوم اللغة . فيأخذ منه بنصيب ، ثم يلقى عنانه إلى ما يريد التخصص فيه من الطب أو الفلك أو المنطق مثلاً .

ترى ذلك ماثلاً بوضوح فى تراجم الأعلام الذين برزوا فى غير العلوم الدينية أو العربية ، فإن قصة حياتهم تروى فيها عادة خط سيرهم فى هذا التعليم أولاً . حتى علماء العربية الذين تخرجوا فى النحو أو البلاغة ، أو أدباء العربية الذين برعوا فى الكتابة أو الإنشاء ، كان لابد لهم من اجتياز مراحل التعليم الدينى أو بعضها على الأقل . وترى هذا ماثلاً أيضاً فى تراجمهم .

الثانى : أن ثمة إجازة أخرى غير ما ذكرناه وهى « الإجازة الأدبية » ، وهى إذن برواية آثار أدبية ومؤلفات نثرية أو شعرية .

وهذا الضرب ليس من الإجازات العلمية . ولكنه لون من ألوان المجاملات بين الأصدقاء وضرب من ضروب التقدير ومظهر من مظاهر الصداقة بين صديق وصديق ، أى المجيز والمجاز .

وهذا الضرب يسبقه عادة « استدعاء » أو « استجازه » ، أى طلب إجازة . يتقدم به الصديق طالب الإجازة إلى المجيز يسأله أن يأذن له فى رواية آثاره الأدبية ، فيسكتب له الآخر هذه « الإجازة » ، إذناً بالرواية فيصبح وكأنه راوية من رواة أدبه .

والاستجازه والإجازة فى هذا المجال ، رسالتان يتقارضان الصديقان فيهما الثناء والتقدير ، ويتبادلان الحمد وذكر المآثر . ويكتبانها بالأسلوب الأدبى البديعى المتبع حينذاك .

ومن أمثلتهما استجازه صلاح الدين الصفدى لابن نباتة برواية آثاره الأدبية « وإجازة » ابن نباتة له بذلك^(١) .

(١) راجع خزائن الأدب باب التورية . والوفى بالوفيات ج ١ - والدرر الكامنة ج ٤ رقم ٥٨٥ .

نشعر بما سبق بيانه أن العلماء قد وجدوا أسبابا عدة ووسائل كثيرة أتيت لهم تحفز إلى النشاط العلمى ، وهى لهم من فجاج العمل والدأب ما وسعه الجهد ذلك الحين ، وما يشجع على المضى قدما فى إحياء علوم الدين وما إليها من وسائل المعرفة .

ففتحت المدارس وأوقفت عليها الأوقاف الدارة ورتبت الأجور والرواتب للعلماء والطلاب وأغدقت المعونات بين الآونة والأخرى ، وزودت المدارس بدور الكتب ، ورفعت منازل العلماء . إلى غير ذلك مما رأيت وسمعت . وأدى ذلك إلى منافسة كريمة بينهم كان لها أثر عظيم فى نتاج علمى جليل .

وقد دأب العلماء على التعليم وتخرج الطلاب - كما رأيت ولترى - وكذلك دأبوا على التأليف والتصنيف ، حتى أصبحت البلاد المصرية مراح العلم ومورد الأدب وميدان الفن .

ونقل إليك ما شهد به العلامة ابن خلدون « ٨٠٨ هـ » ، وما سجله فى مقدمته عن مبلغ العلوم والفنون ، ومبلغ العناية بهما فى البلاد المصرية ، لعمده ، قال :
ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم ، إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر ، لما أن عمرانها مستبجر ، وحضارتها مستحكمة ، منذ آلاف السنين . فاستحكمت فيها الصنائع ، وتفننت . ومن جملتها تعلم العلم . وأكد ذلك وحفظه ، ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين فى دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب . وهلم جرا .

وذلك أن أمراء الترك فى دولتهم يخشون عادة سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم ، لماله عليهم من الرق أو الولاء ، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته ، فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط . ووقفوا عليها الأوقاف المغلة ، يجعلون فيها شركا لولدهم ، بنظر عليها أو نصيب منها . مع ما فيها غالباً من الجروح إلى الخير ، والتماس الأجور فى المقاصد والأفعال . فكثرت الأوقاف لذلك .

وعظمت الغلات والفوائد وكثر طالب العلم ومعلمه ، بكثرة جرايتهم . وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ، ونفقت بها أسواق العلوم ، وزخرت بحورها . والله يخلق ما يشاء ، (١) .

تشجيع المؤلفين :

غير أننا بالرغم مما سبق بيانه ، لم نجد من الحوادث والوقائع ما يدلنا على أن المؤلفين من العلماء وجدوا ما يشجعهم على التأليف والمضى فيه ، تشجيعاً يناسب ما بذل لهم في النواحي الأخرى ، وما هيء لهم من الوسائل التي أشرنا إليها . ونعني أنهم لم يجدوا تشجيعاً مغرياً ينمض في نفوسهم عامل الإقدام ويغريهم بالمغامرة الواسعة في سبيل التأليف ووفرته وجودته : سوى الوظائف التي كانوا يلونها .

وربما صادفتنا بعض وقائع التشجيع . ولكنها في جملتها أرىحية فردية ، وهوى وقى وهزة إلى الجود وجيزة مقتضية ، لا تقاس على نظائرها في العصور السابقة .

ومن هنا نشعر شعوراً قوياً بجلال هذا الإقدام العجيب من العلماء الذي اقتحموا به ميدان التأليف واضطلعوا بأعبائه . فأية قوة نفسية تلك التي كانوا يدخرونها بين ضلوعهم . وأية شجاعة قلبية تلك التي كانوا يحتازونها بين حناياهم . إن بعضهم ، بل كثير منهم ، يعتبر هاوياً من هواة التأليف ، فقد تعددت مؤلفاته في شتى العلوم حتى بلغت المئات . مما لا مثيل له في عصور أخرى .

على أننا - وقد اعترفنا بضعف هذا العامل - عامل التشجيع المادى للمؤلفين . - باعتباره حافزاً من حوافز الاشتغال بالتأليف ، وأنه لا يرقى في

(١) راجع مقدمة ابن خلدون تحت عنوان « فصل في أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتظم الحضارة » - وتقوم النيل ج ١ ص ٣٠٢ ومصر والنيل ص ١٥ ، لأمين سائ .

جملته إلى مستوى غيره من الخوافز ، لا نرى مناصاً إنصافاً للعصر ، من أن نذكر لك بعض نماذج هذا التشجيع . فمن ذلك :

ما ذكره ابن أبي حجلة المغربي عن كتابه « ديوان الصبابة » . فقد قال في مقدمته : إنه احتفظ لنفسه بهذا الكتاب بعد تأليفه حتى يرزله مرسوم شريف من الملك الناصر حسن بطلبه فقدمه إليه .

وكذلك روى ابن أبي حجلة عن كتابه « سكر دان السلطان » فإنه ألفه للسلطان الناصر حسن أيضاً .

وكلا الكتابين في جملتهما ، من كتب الأدب . — ولم يشر المؤلف عما شجعه به السلطان من التشجيعات المادية .

وذكر السيوطي أنه ألف كتابيه « الأساس في فضل بني العباس » و « رفع البأس عن بني العباس » ، للخليفة المتوكل على الله أبي العز عبد العزيز « ٣٠٠هـ »^(١) . وألف المؤرخ أبو بكر بن أبيك كتابه « كنز الدرر وجامع الغرر » للسلطان الناصر محمد بن قلاوون^(٢) .

وروى أن السلطان الأشرف الغوري ألفت له كتب . ومنها كتاب « نفائس المجالس السلطانية في حقائق الأسرار القرآنية » لحسين بن محمد الحسيني . وكتاب « السكوكب الدرر في مسائل الغوري » . وقد نشر الكتابان ملخصين عام ١٩٤١م باسم « مجالس الغوري » .

وروى جورجى زيدان ، أن محمداً القوصوى الطبيب ألف للغورى بإشارة منه كتابه الطبي « كمال الفرحة »^(٣) .

وروى جورجى زيدان أيضاً أن عماد الدين موسى بن محمد اليوسفي المصري

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٢ .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٩٢ ،

(٣) جورجى زيدان ج ٣ ص ٢٥٤ .

١٧٥٩هـ ، ألف للسلطان الظاهر جقمق كتابه « كشف الكروب في معرفة الحروب وهو في الفنون العسكرية .

وروى أيضاً أن محمد بن لاجين الحسامي الطرابلسي الرماح ألف كتابه في الفروسية وهو بغية القاصدين في العمل بالمبادئ ، للأمير سيف الدين المارديني الذي كان نائب حلب .

وأن حسن بن عبد الله العباسي ألف كتابه « آثار الأول في تدبير الدول ، للسلطان المظفر بيهرس الجاشنكير المنصوري .

وأن محمود بن إسماعيل الجيزي ألف كتابه « الدرة الغراء في نصائح الملوك والولاة والوزراء ، للملك الظاهر أبي سعيد جقمق العلائي .

وأن شهاب الدين الأشرفي ألف كتابه « البرهان في فضل السلطان ، للسلطان الظاهر خشقدم (١) .

وهذه المؤلفات التي ذكرها جورجى زيدان ليست في صميم العلوم أو الآداب الإسلامية . ومع ذلك فلم يشر المؤلف عما أعطى هؤلاء المؤلفون من المنح المادية لقاء مؤلفاتهم .

هذا ومن الكتب التي ألف أيضاً للسلطين أو الأمراء :

« سيرة الملك المؤيد شيخ » : كتبها شمس الدين بن ناهض الفقاعى ما بين نظم ونثر ، للملك المؤيد وقدمها إليه عام ٨١٨هـ (٢) .

« سيرة الملك الظاهر جقمق » كتبها له شهاب الدين بن عربشاه . ورأيت منها نسخة مصورة تصويراً شمسياً .

« روض المناظر » . كتبه قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة المتوفى عام

(١) راجع جورجى زيدان ج ٣ ص ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ١٨٢ تباعاً .

(٢) خزانة الأدب لابن حجة ص ٨٠ .

٥٨١٥، إجابة لرغبة الأمير عماد الدين محمد نائب السلطان بقلعة حلب . وبهذا الكتاب حديث عن المخلوقات والمشاهير وغير ذلك (١) .

• تذكرة الملوك إلى أحسن السلوك ، ألفه أحد الفضلاء برسم السلطان الغورى . وبه سير ملوك ووزراء وقضاة (٢) .

نتائج النشاط العلمى

أجيال العلماء والأدباء والمؤلفين :

وتتابعت طبقات العلماء ، وتناالت أجيال الأدباء ، على مدى العصر وتوالى أيامه . وهذه نتيجة طبيعية لحركة التعليم الدائبة ، ولوفود الطلاب إلى دور التعليم من كل حذب وصوب ، وعنايتهم بتحصيل العلم وفهمه .

وقد زخر العصر بالعدد الوافر ، من علماء المذاهب الأربعة ، والعلماء المجتهدين ذوى الآراء . وزخر بكثير من المتصوفة وأهل الكلام والمنجمين والفلاسكين والمؤرخين . وغيرهم . وكذلك تتابعت طبقات المؤلفين من بينهم .

وكان أكثرهم عدداً علماء الدين ورجال المذاهب وحفاظ الحديث ، يليهم رجال الأدب واللغة وعلومها ، ثم غيرهم .

وكتب سير الأعلام والطبقات ، خير شاهد على ما نقول . وهى وفيرة زاخرة بسيرهم ، عامرة بأخبارهم .

ومنها فوات الوفيات لابن شاکر الكتبى . والوفى بالوفيات للصفدى ، والدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى ، والضوء اللامع للسخاوى ، وعقد الجمان للبدر العينى .

ومنها طبقات الشافعية للتاج السبكي ، وطبقات الحفاظ لشمس الدين الذهبي ،
وطبقات النحويين واللغويين للجلال السيوطي ، وطبقات الحنفية لعبد القادر
القرشي ، وطبقات الخنابلة لابن رجب البغدادي الدمشقي . إلى غير ذلك .

وهذه الكتب مليئة بأنباء علماء مصر في هذه الحقبة . ومن بينها ما ترجم
لأعلام فترة من فتراتها خاصة . وذلك كالدرر الكامنة ، فهي في تراجم أعيان المائة
الثامنة ، وكالضوء اللامع ، فهو في أعيان القرن التاسع .

ومن باب التعريف بهذه الأسفار الزاخرة ، نذكر لك - على سبيل المثال -
واحداً منها : وهو الضوء اللامع .

مؤلفه شمس الدين السخاوي تلميذ القاضي المؤرخ شهاب الدين بن حجر
العسقلاني . ويقع الكتاب في اثني عشر جزءاً . وموضوعه تراجم أعلام
القرن التاسع الهجري الذين عاشوا فيه وشهدوا جزءاً منه . وهو حلقة هامة
في سلسلة كتب تراجم أعلام العصر المملوكي : وهو الحلقة التالية لكتاب ابن
حجر العسقلاني المسمى « الدرر الكامنة » الذي ترجم فيه لأعيان المائة الثامنة .

ويحتوي كل جزء منه على نحو ألف ترجمة . وتبلغ جملة تراجمه نحواً من
خمسة عشر ألف . وكلهم من رجال قرن واحد فقط وهو التاسع الهجري .
وبينهم كثيرون عن رأي السخاوي أو سمع بهم من معاصريه ، إذ أنه عاش في القرن
التاسع المذكور ومات عام ٩٠٢ هـ . فأدى بكتابته هذا جميلاً لا ينسى لمعاصريه إذ خلد
ذكرهم وسجل محامدهم . ولولاه لضاع اسم كثير منهم كما ضاع غيرهم .

وحقيقة أن السخاوي جمع في كتابه هذا بين أصناف شتى من الأعلام فيبينهم
السلطان والأمير والقاضي والوزير والكتاب والشاعر والفقيه والمجتمد والشافعي
والحنفي والمصري والشامي والحجازي ، وغير هؤلاء وهؤلاء من ألوان الرجال في
كل فن وكل صناعة وكل منصب وكل موطن ، ممن عاش في القرن التاسع الهجري
فهو كتاب جامع عظيم .

ونصيب علماء مصر وأدبائها وطبقات فقهاؤها وأفذاذها في كل علم وفن وصناعة هو نصيب الأسد، فقد خلد الرجل أسماء مئات منهم نبغوا وبرزوا في قرن واحد وهو القرن التاسع.

وتحدث في ترجمة كل منهم عن اسمه ولقبه وكنيته وموطنه ومسكنه ودراسته وشيوخه وتخرجه في علومه أو صناعته، ووظائفه التي تقلب فيها ووقائع حياته وأخلاقه ومسراته ومساءاته، وأقاربه وأبنائه وتلاميذه ووفاته ومدى أهمية هذه المؤلفات، إلى غير ذلك من مقتضيات الترجمة الفنية العاجلة.

وحقيقة أيضاً أن الرجل لم تطرد تراجمه على هذا الغرار دائماً، ولكنه اتبع هذا المنهج في كثير من هذه التراجم، وبخاصة في تراجم أئداده ومعاصريه الذين عاشوا معه تحت سماء القاهرة، وفيمن عاشوا وعاصروا شيخه ابن حجر أيضاً - توفي عام ٨٥٢هـ - وهذا على وجه التقريب.

وبعد فهذا الكتاب من كتب، تعرضت لبيان فضل علماء مصر وأدبائها في العصر المملوكي وبيان عددهم وطوائفهم وطبقاتهم ومآثرهم. ومن هذه الكتب جميعاً تتضح لنا ضخامة هذه الأعداد وسعة هذه الطبقات ونفاسة هذه المآثر.

وقد نشط كثير من هؤلاء الأفذاذ إلى التأليف أو الفتوى أو التدريس أو الإمامة أو الخطابة الدينية أو الوعظ. وشغل الواعون منهم مناصب القضاء ونيابة الحكم وكتابة الإنشاء وما يناسبهم من وظائف دواوين الدولة عليها وغير عليها، كالوزارة والحسبة.

وشغف بعضهم بالمحاورات والمناظرات في علوم الدين وعقائده ورد الشبه، ودفع الشذاذ، ومكافحة أصحاب المذاهب الخارجة كالجهمية والمعتلة ونحوهما، وما كان أكثرها حينذاك. وخف بعضهم لوضع الرسائل العاجلة في ذلك، فكان للبلاد من وراء ذلك كله حركة فكرية عظيمة نافعة قيمة ممتعة، كما سنوضحه في مقام آخر.

نماذج من العلماء والأدباء :

ونضع بين يديك ، ثبثاً وجيزاً بأسماء بعض علماء العصر وأدبائه ، نماذج وأمثلة فحسب ، لا استقضاء فيها ولا استيعاب . وأنى لك ذلك ؟ .

فمنهم بترتيب الوفيات على وجه التقريب :

من رجال الحديث :

المنذرى المصرى ، والرشيد العطار ، والفتح بن سيد الناس ، والذهبي ، وعز الدين ابن جماعة ، وزين الدين العراقى ، وولى الدين أبو زرعة العراقى ، وابن حجر العسقلانى ، وبدر الدين محمود العيني ، وشهاب الدين القسطلانى .

ومن علماء الشافعية :

تاج الدين بن بنت الأعز ، وابنه تقي الدين ، وتقي الدين بن رزين . وزين الدين بن المرحل ، وبدر الدين بن جماعة ، وابنه عز الدين ، والعماد الإسنوى ، وأخوه جمال الدين . وابن الملقن . وابن العماد الأقفهسى ، والجلال المحلى ، وعلم الدين البلقينى . وشرف الدين المناوى .

ومن علماء المالكية :

شرف الدين السبكي ، وتاج الدين الفاكهاني ، وعبد الواحد بن شرف الدين ابن المنير . وابن الحاج العبدري الفاسي ، صاحب كتاب المدخل ، والزواوى ، وتقي الدين بن الإخنائى ، وشمس الدين بن مكين ، وبهرام بن عبد الله . وابن خلدون صاحب المقدمة ، وشمس الدين البساطى ، وعبد بن على الأنصارى الزرزائى .

ومن علماء الحنفية :

وجيه الدين القوصى ، وكمال الدين بن العديم ، ونفر الدين عثمان الماردى ، ونفر الدين الزيلعى ، وتاج الدين بن مكشرم ، وأمير كاتب الإيتاقى ، والسراج

الهندي ، وأكمل الدين البابرقي ، وبدر الدين محمود الكلاستاني ، وقارئ الهداية
والكمال بن الهمام ، وتقي الدين الشمني . وأمين الدين الأقصري .

ومن علماء الحنابلة :

نجم الدين الحراني ، وموفق الدين المقدسي . وناصر الدين الكنتاني العسقلاني
وعماد الدين الحنبلي . ونور الدين الحكري . وجلال الدين البغدادى نزيل القاهرة
ونجم الدين الباهي . وابن مغلي والذين الزركشي .

ومن علماء القراءات :

ابن وثيق ، والناصري ، والكمال الضرير ، والرضي الشاطبي ، والراشدی ،
والحرثي ، وسمنون ، والمزrab ، والشطنوفى على بن يوسف ، وشمس الدين
الواسطي ، وابن الصواف ، والزازري والزازتي .

ومن علماء نحو اللغة :

أمين الدين المحلى ، وحافى رأسه محي الدين الإسكندراني ، وابن مكرم الإفريقي
صاحب لسان العرب ، وجمال الدين بن هشام المصري ، والسمن شهاب الدين
الحلي نزيل القاهرة ، وبهاء الدين بن عقيل ، وبدر الدين الدمامي .

ومن علماء المعقولات وما يتصل بها كالتب والحكمة والتنجم :

نجم الدين الإدقوى جعفر بن مطهر ، كان طبيباً وفيلسوفاً وشاعراً . وعلاء
الدين بن النفيس شيخ الطب بمصر وكان مشاركاً في الفقه والأصول والحديث
والمنطق والعربية وشمس الدين الأصبهاني كان بارعاً في الأصول والجدل والمنطق
مشاركاً في النحو والشعر وغيرهما . وعلاء الدين الباجي كان إماماً في المنطق والأصول .
والصفي الهندي كان فقيهاً أصولياً متكهماً . وعلاء الدين بن صغير قيل إنه كان أعجوبة
زمانه في الطب . وقنبر بن عبد الله الشرواني كان ماهراً في العلوم العقلية والعلامة
محيي الدين الكافيجي كان إماماً في المعقولات .

ومن المؤرخين :

ابن خلكان، ويبرس المنصوري، وابن المتوج، والسكال الإدقوى، والنويرى ،
وابن الفرات، وابن دقاق، والأوحدي ، والمقرئى، والبدر العيني، وابن تغرى بردى،
وابن حجر العسقلاني، والسخاوى ، والجلال السيوطى، وابن إياس الحنفى .

ومن الأئمة المجتهدين :

العز بن عبد السلام ، ومحيى الدين النووى، وتقى الدين بن دقيق العبدالقشيري،
وتقى الدين بن تيمية الحراني ، وتلميذه شمس الدين بن القيم ، وتقى الدين السبكي ،
وجلال الدين السيوطى ، وزين الدين زكريا الأنصارى (١) .
هذا وسنشير إلى السكتاب والشعراء فى الصفحات التالية عند حديثنا عن
الثقافة الأدبية .

حركة التأليف .

أما نشاط حركة التأليف ، فهو فى الحق مثار العجب ، فقد وضع كثير من
العلماء مؤلفات عظيمة القيمة. والمؤلفات هى الثروة الخالدة والأثر الباقي على الزمن.
والوصلة الصالحة بين ماضى العلم ومستقبله .

ولمصر بهذه المؤلفات التى وضعها بنوها فى هذه الحقبة ، الفخر كل الفخر .
إذ ما جت ميادين العلم على اختلافها بما صنّفوه وألفوه . وقد استطاعوا بحق أن
تكون مؤلفاتهم حلقة ذهبية فى سلسلة العلوم الإسلامية والغربية ، كان وجودها
ضروريا لحياة هذه العلوم .

وتبلغ هذه المؤلفات عدة آلاف . وحسبك أن تعلم أن بعض العلماء - كابن

(١) راجع تراجمهم جميعاً فى كتب تراجم الأعلام ، وكتب الطبقات ، - وراجع أيضاً حسن المحاضرة
ج ١ ، تحت عناوين : « فقهاء الحنفية » « فقهاء المالكية » . . الخ ،

حجر وابن يتيمة والجلال السيوطي مثلاً - تبلغ مؤلفاته مئات . فقد قيل إن مؤلفات ابن يتيمة تربو على خمسمائة . وابن حجر على مائة وخمسين . والسيوطي على ستائة .

وكانت هذه الكتب تملأ - بلا ريب - دور الكتب في القاهرة . بجوار ماتقنيه من كتب العصور السابقة . فلما فتح العثمانيون مصر عام ٩٢٣ هـ وأزالوا حكم المماليك ، نهبوا هذه الذخائر العلمية فيما نهبوا وحملوها إلى القسطنطينية . ولا يزال كثير منها مغتربا عن وطنه حتى اليوم ، ومبعثراً في عواصم أوروبا .

ونحن في أشد الحاجة إليها لنكشف على أضوائها تاريخنا وحقائقه وشخصيتنا وسماتها ومقوماتها .

وقد جدت المهمة في أيامنا ، بفضل ثورتنا المجيدة . لإعادتها ولو بصورة . وإخراجها في أثواب قشبية .

وأكثر الكتب عدداً كتب العلوم الدينية كالفقه بمذاهبه والحديث بألوانه متناً ومصطلحاً وشيوخاً وشروحات ، وكالتصوف . والتفسير ، والقراءات ، وأصول الفقه ، والكلام .

وأقل منها عدداً كتب العربية ككتب النحو والصرف والبلاغة ومن اللغة ، وكتب الأدب والنقد .

وأقل منها عدداً كتب العلوم الكونية والمعقولات ، ككتب الطب والفلك والتقويم والمنطق والحكمة والتنجيم والسياسة ومعركة الحروب أو فنون القتال ، وحياة الحيوان والنبات وسياسة التعليم . إلى غير ذلك .

وينبغي أيضاً قبل عرض هذه النماذج أن نسجل ظاهرات أربع :

الأولى : أن علم التاريخ ، على الرغم من أننا لم نجد له بروزاً معدوداً بين

المواد الدراسية زخر العصر بكتبه ، وامتأ بزخايره القيمة مع اختلاف اتجاهاتها وموضوعاتها .

ولعل سبب ذلك شعور علماء العصر بما أصاب تاريخ المسلمين والعرب وكتبه ، من البوار والتلف . وكتب التاريخ هي السجل الأول والمرجع الأصيل لمحمد الأمة ووقائع حياتها ومقومات شخصيتها وأخبار أفذاذها . وهي بذلك أولى ببذل العناية والجهد . وقد كانت كتبهم نمطا من هذا ، فضلا عما اتصف به بعضها من الاتجاه إلى الضبط والنقد وإبراز المآخذ .

وقد تنوعت هذه المؤلفات التاريخية تنوعا دل على النضج والفهم الدقيق لمقتضيات تاريخ الأمة وما ينبغي أن يكون عليه . فن كتب في التاريخ العام ، إلى تراجم الأعلام إلى كتب التراجم المفردة ، إلى كتب السيرة النبوية ، إلى كتب تاريخ مصر والقاهرة ، إلى كتب الخطط والآثار ، إلى تاريخ المدن والأمصار . وغير ذلك .

وينبغي أن نقف وقفة قصيرة عند حديثنا عن كتب التاريخ ، بعدما نوهنا به . لما لها من القيمة ، والنفاسة البالغة . فها أنتذا قد رأيت مظهر العناية بهذا الفن إذ تضافرت الجهود في هذا العصر ، وتضاعفت الهمم وتنافست العقول على إخراج هذه المؤلفات الثمينة .

ويتصف بعضها بالطول والتفصيل . ويضم كثير منها تسجيلات لوقائع تاريخية ربما تعرض استطرادا ، ولكنها عظيمة القيمة ذات أثر واضح في رسم صورة العصر أو الشخصية أو الواقعة ، رسما فيه دقة وفن .

ومن ذلك وصف المؤلفات وأخبار المناظرات والمجادلات وما ألف بسببها من الرسائل ، وتدوين نصوص من منشور الكلام ومنظومه . وتسجيل طرف أدبية وحوادث فكاهية ، وألوان من عادات الفرد والجماعة وتقاليدهما . وأخبار الدواوين والموظفين واختصاصاتهم وتنقلاتهم ، والوقائع الجانية التي تقع على

هامش الحدث التاريخي . وما إلى ذلك . ونقد الشخصيات ووصف صلاتهم المختلفة وجدهم أو هزلهم ، وصلاتهم أو لينهم ، وشجاعتهم أو مجبنتهم ، وضبط الأعلام من الرجال والمدن والمواضع . ومن أمثلها في هذا كله وفيات ابن خلكان والضوء للسخاوي .

ويتكون من بعض كتب تراجم الأعلام سلسلة فريدة بين كتب تراجم العصور ، يكمل أحدها الآخر ، ومن أمثال ذلك كتاب الدرر السكاينة لابن حجر العسقلاني يؤرخ فيه لأعلام القرن الثامن . ثم كتاب تليذه شمس الدين السخاوي ، الضوء اللامع ، يؤرخ فيه لأعلام القرن التاسع . وهكذا .

الثانية : أن محصول التأليف من كتب الحكمة والفلسفة قليل . وهذه الظاهرة نتيجة حتمية لمنطق التعليم وسياسته العامة التي سبقت إليها الإشارة . ذلك لأن النية كانت متجهة إلى إحياء علوم الدين أولا وقبل كل شيء ، بعدما أصاب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها على أيدي أعداء الدين والمسلمين . فكانت علومهم أولى بالعناية وأجدر بالإحياء . فكان لذلك أثره الحتمي في محصول التأليف .

ومما يلاحظ أن كثرة ضخمة من علماء مصر والشام استجابوا في تعلمهم وهم طلاب إلى هذا الاتجاه . ومن ثم كانوا في مستقبلهم رجال فقه ودين ، وأكبوا على التأليف في ميدان علوم الدين . حتى شهدنا منهم هذا النتاج الضخم الذي سنشير إليه . ورأينا منهم هذا العدد الوفير من علماء المذاهب الأربعة الذين أشرنا إليهم . في حين أن الذين انجسوا منهم إلى إجادة المنطق أو الحكمة أو الفلسفة أو مايسمونها بالمعقولات ، عدد قليل . وعدد ممن برزوا من هذا الصنف لم يكونوا أصلا من أبناء هذه البلاد . بل وفدوا إليها من جهات آسيا ومما وراء بلاد العراق . وفدوا إليها وقد اكتمل علمهم - ولو إلى حد - وهناك في تلك الاصفاع النائية كانت العناية جادة إلى إتقان علوم اللسان والفلسفة بدافع من الحكام غالباً .

ومن العلماء الوافدين : شمس الدين الأصبهاني محمد بن محمود ، برع في الأصول والجدل والمنطق . ولد بأصبهان واشتغل ببغداد وقدم القاهرة فولى قضاء قوص واشتغل بالتدريس . ومات بالقاهرة عام ٥٦٨٨ هـ .

والصفي الهندي محمد بن عبد الرحمن ، كان فقيها أصوليا متكلمًا مجادلًا . ولد بالهند ودخل مصر فأقام بها أربع سنين وانتقل إلى دمشق يدرس ويفتي ويصنف ومات بها عام ٥٧٥٠ هـ .

وتاج الدين التبريزي أبو الحسن علي بن عبد الله . نزيل القاهرة كان عالما في علوم كثيرة ، ومات بالقاهرة عام ٥٧٤٦ هـ .

وشمس الدين الأصبهاني محمد بن عبد الرحمن ، برع في العقليات وكان عارفا بالأصليين . واشتغل بتبريز وقدم مصر فولى التدريس بالمدرسة المعزية ، مشيخة خانقاه قوصون . وصنف . ومات مطعونا عام ٥٧٤٩ هـ بالقاهرة .

وقنبر بن عبد الله الشرواني ، اشتغل في بلاده وقدم مصر فاشتغل بالتدريس بالجامع الأزهر . وكان ماهرا في العلوم العقلية ومات عام ٥٨٠١ هـ .

وسيف الدين السيرامي محمد بن عيسى . وكان عالما فاضلا نشأ بتبريز ووفد على حلب ، واستدعاه الظاهر برقوق إلى مصر ، فقررته شيخا بمدرسته ، ثم ولى غير ذلك . ومات عام ٥٨٠١ هـ .

وشمس الدين الهروي بن عطاء الله . ولد بهراة واشتغل في بلاده بالعلوم ، وفاق في العقليات ، ثم قدم القاهرة فاشتغل بالقضاء وكتابة السر ، ومات في عام ٥٨٢٩ هـ .

وعلاء الدين البخاري علي بن محمد ، نشأ ببلاده وتعلم على أبيه وعمه وغيرهما . ورحل إلى الأقطار حتى برع في المعقول وصار إمام عصره . وقدم القاهرة وتصدر للإقراء وأخذ عنه غالب أهلها . ومات عام ٥٨٤١ هـ^(١) .

(١) حسن المحاضرة ج ١ باب ذكر من كان بمصر من أرباب المعقولات .

إلى غير هؤلاء .

ومع ما تقدم نلاحظ أن الاشتغال بالحكمة والفلسفة وما إليها ، وإن بد على هذا النحو من الضيق والقلّة ، كان ينقصه العمق أيضاً والابتكار . ولعل في مقدمة أسباب هذه الظاهرة أن بلادنا باكتفائها نفسياً وعقلياً بصواب أو ضاع دينها وتعاليمه ، لم تشعر بحاجة إلى الفلسفة ولا التعمق فيها . كان هذا ديدنها وأغلب الظن أنه سيبقى كذلك . ولعل للطبيعة المصرية السمجة السهلة نفسها أثراً في ذلك ، وهي بيئتها الزراعية التي كانت غالبية عليها ، ترى أن رزقها يأتيها رغداً كل يوم بكفاح ليس وراءه مشقة ، وببساطة لا يعوقها عقادة . فكان لذلك أثره في نزعة الفكر ومستواها واتجاهها ولونها . على أنه كان هناك عوض لهم عن الاشتغال بالفلسفة ، ذلك هو اشتغالهم بالجدل والكلام ، وبالمناظرة في العقيدة والرد على الفرق . ففلسفوا أفكارهم وأساليبهم وإن دارت في جملتها في النطاق الإسلامي - وسنعود مرة أخرى إلى هذا الحديث .

الثالثة : أن محصول التأليف في علوم اللغة العربية قليل أيضاً بالنسبة لما ألف في علوم الدين والحديث . وهذه الظاهرة واضحة في كتب الأدب والنقد أيضاً ، أكثر من وضوحها في كتب النحو والصرف والبلاغة و متن اللغة . ويبدو أن السبب في ذلك هو أيضاً طغيان الرغبة في نشر علوم الدين والحديث ، لما سبق بيانه . ولأن السلاطين والعمامة معاً كانوا يقدرون العلماء أكثر من تقديرهم للشعراء - مثلاً - ويجلون الفقيه والمحدث أكثر مما يجلون الكاتب والأديب ، ولأن كثيراً من مناصب الدولة كمناصب القضاء والتدريس والخطابة والإمامة ، كان يختار لها فقهاء الشرع .

الرابعة : أن هذا العصر يهتم بأنه عصر المتن والمختصرات ، وعصر الشروح أيضاً . ولا أدري فيم الانتماء ولم ، مع أن هذه الظاهرة طور طبيعي في تاريخ

التأليف ولا بد أن يعقب طور التوسع والتخصص في التأليف ، طور يقرب لطلاب العلم وناشدته تناول العلم، ويعاونهم على بلوغ إربهم منه في وجازة وعجلة ، وبخاصة صغار المثقفين، ويجمع لهم حقائق العلم في متون يسهل حفظها فاستحضارها وقت الدرس ، لتسكون موضع المناقشة والشرح . ومن ثم يعمد بعض المدرسين بعد إلى تناول المتون بالشرح مرة أخرى ليجلي ما قد يكون غامضا ، ها ، ويفصل ما قد يكون مجملا . وهكذا .

والعصر الذي نحن بصدد صادفته بواعث هذه الظاهرة ، فهو عصر إحياء وبعث وتجديد ، وعصر تعليم ونشر للثقافة ، مع رغبة كامنة في العجلة ، ولهفة محتبئة في الوصول . وهذا من شأنه أن يدفع إلى الاختصار ووضع المتن ، ومن ثم إلى الشرح والتحشية .

ولا نشك في أن المتون والمختصرات ، قد حفظت من العلم جواهره ولبابه ، وقامت - ولا تزال تقوم - بدورها الكريم في مسرح التعليم ، من ذلك العصر البعيد ، إلى عصرنا الجديد .

ونذكر لاء على سبيل المثال عددا من المتون والمختصرات والشروح ، فمن ذلك :

نخبة الفكر لابن حجر العسقلاني متن في مصطلح الحديث وألفية ابن مالك الأندلسي . متن في النحو . والشاطبية متن في القراءات . ومختصر الروضة في فقه الشافعية لمحي الدين الفرضي - والروضة للنووي - ومختصر الكفاية في فقه الشافعية أيضا لشهاب الدين بن النقيب . وكنز الدقائق متن في فقه الحنفية لأبي البركات النسفي (٧١٠ هـ) . وتلخيص المفتاح في علوم البلاغة للجلال القزويني ، خُص فيه مفتاح العلوم للسكاكي .

ومن الشروح : التوضيح للقزويني شرح فيه كتابه « تلخيص المفتاح » . ولألفية ابن مالك شروح كثيرة ومنها شرح للبارقي ، وآخر لابن الصائغ محمد

ابن عبد الرحمن ، وآخر لابن عبد الدائم الحلبي . والمجموع لمحي الدين النوى وهو شرح كتاب مذهب الرافعي في فقه الشافعية . وحواشي الروضة وهي تعليقات على روضة النوى ، ألفها سراج الدين البلقيني . إلى غير ذلك ، مما سترى نظيره فيما سيأتي .

والعجيب جداً في أمر هذا العصر - عصر المتون والمختصرات ، ثم شروحاتها والتحشية عليها - أنه عصر الموسوعات الجامعة .

لقد برزت النزعة الموسوعية فيه بروزاً دال على أنهم في جمع المعلومات وحشد الحقائق . ولو كانت معلومات يخيّل إليك أنها مبعثرة لا جامع لها ، وحقائق يتمثل لك أنها متناثرة لا تلازم بينها . وبخسكة وكياسة وذوق يتدعون لها المناسبات والملائمات ، فتجتمع وتحشد بغير نبو ولا شذوذ ولا قلق . فما بالك بما لا بعثرة فيها ولا تناثر بينها .

وقد ألبسوا هذه المعلومات حلة قشبية ، فبدت زاهية لاجتماع الإلف فيها مع إلفه ، والترب إلى تربه . وهذا في رأينا ، من أجل الأعمال في ميدان التأليف .

ويبدو أن السبب في ذهاب علماء العصر إلى الطرف الآخر أيضاً من طرفي التأليف - وطرفا التأليف هنا هما الاختصار والموسوعية - واحد . وهو غرض تعليمي يرمي إلى عرض أكبر كمية علمية مستطاعة من معارف السابقين والمعاصرين على أنظار الناشئة ، لتزويدها بها وإنضاجها من طريقها . هذا فضلاً عن السبب الرئيسي والهدف الأصيل وهو عملية الإحياء والبعث .

وقد برزت العقليات الموسوعية في عصر المماليك وجنحت إلى التأليف الجامع ، لتكون للناس مراجع وللعلم مصادر ، سهلة المورد ميسرة المقصد .

وقد كانت الظروف مهيأة لبروزها . ذلك لأن العصر العباسي كان قد انتهى بعد أن برزت فيه نزعة التخصص ، وفوفرت المؤلفات ، كل منها في علم أو في فن . وجاء العصر المملوكي على إثره ، وشغف الناس بحفظ التراث القديم حرصاً عليه .

وإبقاء له . فجد العلماء في جمعه وتنسيقه في صعيد واحد ، فنتجت الموسوعات ، وظهرت في كل علم وفي كل فن .

والجلال السيوطي مثل جيد للعقلية الموسوعة . وقد ألف نحو ستمائة كتاب ورسالة بين مطول وموجز ، وفي فنون شتى منها التاريخ ومنها الفقه والحديث وتاريخ القرآن والتفسير والنحو وطبقات النحاة وطبقات المفسرين وفي اللغة وفقهها . وغير ذلك . - وفي كل مؤلف على حدة تسيطر عليه هذه النزعة . فهو شديد الولوع بحشد الروايات والأخبار ، وسوق النصوص والأحاديث التي تجمعها جامعة .

وينظر إليه بعض الناس بسذاجة ، ويعتبرون عمله سرقة أو نقلا ، ولو عانوا ما عانى ما عتبوا ولا لاموا ، فما يعرف الشوق إلا من يكابده .

والموسوعات - على وجه الإجمال - نوعان : نوع تناول علومما شتى وفنوناً مختلفة كالتقويم والأدب والتاريخ والقصص والشعر والنثر . ومن أمثلته البارزة : نهاية الأرب للنويري . وصحيح الأعشى للقلقشندي . ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري .

ونوع لم يتناول إلا علماً واحداً بذاته . ولاتكاد تطالب علماً من العلوم الهامة التي اشتغل بها أبناء العصر إلا وفيه موسوعات عدة . ونضرب لك أمثلة لبعضها ، فمنها :

في التاريخ : الوافي بالوفيات للصفدي وهو في تراجم الأعلام ويقع في نحو خمسين مجلداً ، والمنهل الصافي لأبي المحاسن . والضوء اللامع للسخاوي مثله ويقع في اثني عشر مجلداً . والنجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، وبدائع الزهور لابن إياس الحنفى . وخطط المقرئ .

وفي الفقه : الكفاية لابن الرفعة في فقه الشافعية . ويقع في عشرين مجلداً .

والمجموع وهو فى شرح المذهب ، مؤلفه النووى فى فقه الشافعية ، والفتاوى المصرية لابن تيمية فى فقه الحنابلة .

وفى الحديث : نذكر — وحسبنا هذا — ثلاثة مؤلفات لا نظير لها فى أهميتها وسعتها فى أى عصر أدبى حتى اليوم ، وكلها فى شرح البخارى . وهى : فتح البارى لابن حجر ، وعمدة القارى للبدر العيني ، وإرشاد السارى للقسطلانى . وهى من مفاخر مصر فى عصر المماليك .

وفى النحو : مغنى اللبيب لابن هشام . والأشباه والنظائر للسيوطى .

وفى التفسير : الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ، للسيوطى ؛ فى ثلاث مجلدات ضخمة ، مخطوطة بدار الكتب . — والبحر المحيط لأبى حيان .

وفى اللغة : لسان العرب لابن منظور الإفريقى فى عشرين مجلداً . ويعتبر أوسع معاجم العربية .

وفى الأدب : المستطرف للأبشيى ، وخزانة الأدب لابن حجة الجوى ، وحياة الحيوان للدميرى .

نماذج من المؤلفات :

وبعد ذلك ، نسجل لك ثبثاً موجزاً بألوان من المؤلفات — على سبيل المثال لا الحصر — تدلك على مبلغ جهد علماء مصر ، فى هذه الحقبة ، ومثابرتهم على إحياء العلوم .

فمن كتب تراجم الأعلام :

الطالع السعيد للأدوفى . وفوات الوفيات لابن شاکر الكتبى . والإصابة فى تمييز الصحابة ، ورفع الإصر عن قضاة مصر كلاهما لابن حجر العسقلانى . وطبقات الشافعية للتاج السبكى . وطبقات الحفاظ للذهبي ، وطبقات المفسرين للسيوطى .

ومن كتب السيرة النبوية :

عيون الأثر لابن سيد الناس . ومختصر السيرة للبرهان البقاعي . والزهر
الباسم لأبي عبد الله مغلطاي . ومختصر السيرة لعز الدين بن جماعة . والخصائص
النبوية للجلال السيوطي .

ومن كتب تاريخ مصر والقاهرة :

السلوك للمقريزي . ونزهة الأنام لابن دقاق . والنجوم الزاهرة لأبي المحاسن .
وحسن المحاضرة للسيوطي . وبدائع الزهور لابن إياس المصري .

ومن كتب تاريخ المدن والأقطار الأخرى :

زبدة حلب في تاريخ حلب لسكّال الدين بن العديم . وتاريخ الإسكندرية
لوجيه الدين بن العماد . ومختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، ومختصر تاريخ بغداد
للمعافى ، وضع المختصرين ابن منظور الإفريقي .

ومن كتب التاريخ العام :

وجيز الكلام للسخاوي . والبحر الزاخر لأبي المحاسن . وزبدة الفكرة
ليبيرس المنصوري . والمختصر في أخبار البشر لأبي الفداء . والدول الإسلامية
لشمس الدين الذهبي . والمبداية والنهاية لابن كثير . والعبر لابن خلدون .

ومن كتب السير ، وهو التي يؤرخ كل منها أحد الأعلام :

تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور - قلاوون - لمحبي الدين
ابن عبد الظاهر . والأطراف الخفية - في سيرة الأشرف خليل بن قلاوون ،
لمحبي الدين بن عبد الظاهر أيضا . وعجائب المقدور في أخبار تيمورلشهاب الدين
ابن عربشاه . والتأليف الظاهر في شيم الملك الظاهر - جقمق - لابن عربشاه
أيضا : وتاريخ الناصر قلاوون - وبني شمس الدين الشجاعى . والدرة الماضية
في تاريخ الظاهر برقوق لمحمد بن صرصرء . والسيف المهند في سيرة الملك

المؤيد - شيخ - للبدر العيني . والقول المستظرف في تاريخ الملك الأشرف
- قايتباي - لأبي البقاء بن الجيعان .

ومن كتب الخطط والآثار :

الروضة البهية في خطط القاهرة المعزية ، لمحي الدين بن عبد الظاهر .
والانتصار بواسطة عقد الأمصار لصارم الدين بن دقاق . والمواعظ والاعتبار
بذكر الخطط والآثار لتقي الدين المقرئ :

ومن كتب التقويم :

تقويم البلدان لأبي الفداء . وفريدة العجائب اسراج الدين بن الوردى .
ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى . ونهاية الأرب للنويرى . ومباهج الفكر
لجمال الدين بن إبراهيم الوطواط .

ومن كتب فقه الشافعية وأصوله :

الروضة للنووى . والفتاوى الموصلية لابن عبد السلام . والكفاية لابن
الرفعة . والابتهاج في شرح المنهاج ، للتقى السبكي . والمجموع في شرح المذهب ،
للنووى . وتكملة المجموع ، للتقى السبكي . والوافى في شرح التنبيه ، للجلال
السيوطى .

ومن كتب فقه الحنفية وأصوله :

شرح الهداية للبرهان الواسطى . وشرح الجامع الكبير لفخر الدين الماردينى
المعروف بابن التركمانى . وشرح متن السكندر لفخر الدين الزيلعى . والبنية في شرح
الهداية للبدر العيني . وفتح القدير للسكال بن الهمام .

ومن كتب فقه المالكية وأصوله :

الذخيرة للشهاب القرافى . وشرح مختصر ابن الحاجب للزواوى . وشرح
المدونة له أيضاً . وشرح مختصر ابن الحاجب لخليل بن إسحق الجندى . وشرح

مختصر ابن إسحق الجندی ، لبهرام . والشامل لبهرام أيضاً . وشرح أصول ابن الحناجب لبهرام أيضاً .

ومن كتب فقه الحنابلة وأصوله :

الفتاوى المصرية لتتق الدين بن تيمية ، وتحقيق الفرقار بين الطلاق والإيمان .
ورسالة في حكم السماع والرقص ، وزيارة القبور والاستنجاد بالمقبور . كلها لابن تيمية أيضاً . وكبار الكبائر لابن القيم . وزاد المعاد في حج خير العباد - في الفقه والتصوف ، لابن القيم أيضاً . والفروع لشمس الدين بن مفلح . وشرح المقنع لقدامة ، وضعه شمس الدين بن مفلح في نحو ثلاثين مجلداً .

ومن كتب تفسير القرآن الكريم وما يتصل به :

الدر النظيم لتتق الدين السبكي . والدر المشور للجلال السيوطي . وله أيضاً :
ترجمان القرآن ، والإتقان وتفسير الجلالين والآخر للسيوطي وللجلال المحلي .
وتفسير القرآن لعلم الدين البلقيني . وتفسير سورة الإخلاص لتتق بن تيمية .
وتفسير المعوذتين وتفسير قوله تعالى «إياك نعبد وإياك نستعين» . وهما لابن تيمية أيضاً . وأمثال القرآن لابن القيم . والبحر المحيط لأبي حيان النحوي .

ومن كتب الحديث وما يتصل به :

الاقتراح لابن دقيق العيد . وكشف المغطى في شرح الموطا ، للسيوطي .
وشرح البخاري للسراج البلقيني . وشرح الترمذي لابن سيد الناس . وشرح مسلم لعيسى الزواوي . ومختصر علوم الحديث لابن الصلاح ، وضعه نضر الدين المارديني . وشرح حديث النزول ، لابن تيمية . وجلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام ، لابن القيم . والأربعون حديثاً النووية . وفتح الباري لابن حجر ، وعمدة القاري للبدر العيني ، وإرشاد الساري للقسطاني ، والثلاثة في شرح البخاري . - كما أشرنا -

• ومن كتب التصوف والعقائد :

الحكم لابن عطاء الله . وشرح عمدة النسفي ، لابن دقيق العيد . والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، للتقي بن تيمية . ومدارج السالكين لابن القيم . واجتماع الجيوش الإسلامية لغزو المرتجة والجهمية ، لابن القيم أيضاً .
ومن كتب القراءات :

شرح الشاطبية لابن عبد الدايم . والمقدمة الجزرية وهي منظومة لشمس الدين أبي الخير الجزري الدمشقي . والنشر في القراءات العشر له أيضاً . وكتاب القراءات لمعين الدين النكراوى الإسكندراني . والمقصود لذكري الانصارى .
هذا . أما كتب العربية فسنشير إليها .

الأسئلة والأجوبة والفتاوى والمناظرات :

وهذه بعض نتائج النشاط العلمي ، وظاهرة من ظاهراته . ونعني بالأسئلة الاستفتاءات العلمية التي توجه إلى رجال الدين في مشكلة ما ، من مشا كل الفقه أو العقيدة أو غيرهما ، مع طلب الإجابة أو الفتوى .

والمناظرات حوار وخطابة متبادلة ، في أحد الموضوعات أو المشاكل العلمية . وانتشار هذه الظاهرة في عصر المهاليك ، حجة بالغة على يقظة الوعي الديني ، ودليل على أن النشاط العلمي قد وجد صدى عند جمهور الناس ، فضلاً عن المثقفين .

ويبدو أن الجمهور وجد فيها غنية عن التطلع إلى الفلسفة ومعارف الفلسفة . ولعل في جملة أسباب نشاطها ، كثرة المعاصرين من الفرق غير السنية ، كالخوارج والرافضة والجهمية والمعطلة والقدرية والجبرية ومبتدعة الحنابلة .

وقد ركز علماء المذاهب الأربعة اهتمامهم في محاربة هؤلاء المتطرفين والشواذ وتزييف آرائهم ، خوفاً على العامة من الفتنة .

والشيخ عز الدين بن عبد السلام ، كان في مقدمة العلماء المناضلين . وقد تعرض له مبتدعة الحنابلة - قبيل العصر المملوكي - وأغروا به الملك الأشرف موسى بن العادل الأيوبي ، حاكم دمشق إذ ذاك . وكان الأشرف يحل الشيخ ولمكنه التأم شمله ببعض هؤلاء المبتدعة الذين يقولون بالحرف والصوت ، ويقعون في التجسيم ، وزينوا له مذهبهم ، وأفهموه أنه مذهب السلف الصالح .

وذكروا له أن الشيخ عز الدين أشعري . يخطئ من يقول بالحرف والصوت ويقول إن ابن الأثير لا يشيع . والماء لا يروى . والنار لا تحرق ... وأنه بذلك يخالف مذهب السلف .

وكتبوا استفتاء في هذه المسائل إلى الشيخ . فكتب فتواه وأضحة وقرر فيها مذهبه وهو مذهب السلف الصحيح . وبين أنه مذهب أهل السنة والجماعة . وحمل على المبتدعة حملة شعواء .

وهنا صدق الملك الأشرف ، ما قيل في حق الشيخ ، فخرمه الفتوى ، وحرم عليه الاجتماع بالناس ، وألزمه بيته . ثم ما زال حتى اتضحت له حقائق الأمور ، فأصلح ما بينه وبين الشيخ .

وللشيخ عز الدين كتابه المسمى « مسائل الطريقة في علم الحقيقة » ويعرف « بالستين » . لأنه يحتوي على ستين سؤالاً وأجوبتها ، وهي في العقائد والتصوف والأخلاق^(١) .

والشيخ تقي الدين بن تيمية الحاراني كان من أبرز علماء مصر في هذا الميدان ، ومن أجرمهم في إبداء رأيه . ولقد خلق بذلك جواً علمياً حياً ، فيه الحاجة والمناظرة والمساءلة وتأليف الرسائل ، وفيه أيضاً المحاكمات والسجن ...

(١) راجع ترجمة عز الدين بن عبد السلام في طبقات الشافعية للتاج السبكي ج ٥ - وراجع رسالته « مسائل الطريقة » .

واشتهر بأرائه الجريئة على عرف زمانه ، في الطلاق وزيارة القبور وفي الوسيلة وغير ذلك . وتسكلم في العقائد على طريقة السلف . فاعتقد الاستواء والنزول والعين واليد . إلى غير ذلك ، دون تمثيل أو تشبيه أو تكيف . وهو لا يؤول في القرآن ولا يقول فيه بالمجاز : وحمل على المتصوفة المنتمين إلى ابن عربي وابن سبعين ونحوهما ممن يقولون بوحدة الوجود والاتحاد ، وحارب شواذ الطوائف الإسلامية . وألف في ذلك مؤلفات كثيرة من بينها كتابه « الإيمان ، ورسائله » العقيدة الخوية الكبرى .

وقد تعرض ابن تيمية بسبب آرائه وحملاته ، إلى مناهضة الصوفية له ، ومكايدهم واتهموه بالقول وبالتجسيم وقارمه علماء السنة وقامت معارك بينه وبينهم ومناظرات ، طورا بالمناقشات والمجادلات الشفوية ، وطورا ، بوضع الرسائل . وأرسلت إليه الأسئلة والاستفتاءات في شتى مسائل الدين والعقيدة . وقد رد عليها وأفنى ، في دروسه ومناظراته ورسائله .

واستطاع الصوفية وغيرهم إيغار قلب السلطان عليه ، فحُكِمَ أكثر من مرة وسجن (١) .

وشمس الدين بن القيم ، كان تلميذا لابن تيمية ونمطا منه . لقد اقتدى به في حرية الرأي والتسك بعقيدة السلف الصالح . واتجه إلى التصوف السليم ، وأخذ يرد الشبه ويدفع الباطل ، ويرد على السائل ويحاور المناظر . وقاضت كتبه بالحديث عن العقائد ، وتصحيح فاسدها . وابتدع في كتابه « شفاء العليل » مناظرتين طريفتين إحداهما بين رجل من السنية ورجل من الجبرية . والثانية بين رجل من السنية ورجل من القدرية . وأدار الحوار بينهما في لباقة وأدلة ومنطق . وتناول فيهما موضوع « عمل العبد » وما يتصل به من التوحيد والعقاب

(١) راجع ترجمة ابن تيمية في المجلد الرابع من موسوعتنا هذه .

وغير ذلك (١) .

والعلماء الذين اشتهروا بالمناظرات المذهبية ورد الشبه ، وإجابة السائلين ،
كثيرون .

ومنهم علاء الدين الباجي المتوفى عام ٥٧١٠ . وقد قيل : قال الشيخ الأصفهاني
كنا عند ابن دقيق العيد ، فقال « يافقهاء حضر شخص يهودى يطلب المناظرة » .
قال : فسكتنا . فبادر الباجي فقال : « أحضروه فنحن بحمد الله ندفع الشبهة » .
وحكى الباجي عن نفسه قال : إن ابن تيمية ، لما دخل القاهرة ، حضرت في
المجلس الذى عقده لا . فلما رآنى قال : « هذا شيخ البلاد » . فقلت : « لاتطرنى
ما هنا إلا الحق » . وحاقيقته فى أربعة عشر موضعا . فغير ما كان كتب به
خطه (٢) .

ومن العلماء المناظرين أيضاً :

برهان الدين الزرعى (٣) . وقاسم بن قطلوبغا (٤) . وزين الدين بن المرحل (٥) .
وبهاء الدين السبكي محمد بن عبد البر (٦) . ونجم الدين بن الرفعة (٧) وابن قاضى
شبهة . وبرهان الدين بن ظهيرة ، تناظرا بين يدى قاضى القضاة شهاب الدين بن
حجر العسقلاني (٨) . وعلاء الدين بن مغلى ونظام الدين السيرامى ، كانا يتناظران

(١) راجع ترجمة ابن القيم فى المجلد الرابع من هذه الموسوعة ،

(٢) راجع الدرر الكامنة ج ٣ رقم ٣٣٢ - وطبقات الشافعية للتاج السبكي ج ٦ ص ٢٢٧ .

فى ترجمة علاء الباجى .

(٣) شذرات الذهب ج ٦ .

(٤) الضوء اللامع ج ٦ رقم ٦٣٥ .

(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٦ .

(٦) الدرر الكامنة ج ٣ رقم ١٣١٦ .

(٧) الدرر ج ١ رقم ٧٣٠ :

(٨) الضوء اللامع ج ٧ ص ١٥٥ .

بين يدى الملك المؤيد شيخ^(١) والبساطى والعلاء البخارى تناظرا فى فتنة ابن الفارض ، وحكم بينهما السكال بن الهمام^(٢) إلى غير ذلك .

فتنة ابن الفارض :

وقعت فتنة بين العلماء ، بسبب ابن الفارض ، عام ٨٧٥هـ فى عهد الملك الأشرف قايتباى . وقد أثارها اختلاف الناس فى فهم أبيات من قصيدته التالية .

ومنهم من أخذ بظاهر لفظه ، فنسبه إلى الحلول والقول بالانحداد ، وحكم بفسقه وكفره . وعلى رأس هذا الفريق الشيخ برهان الدين البقاعى ، ومحب الدين بن الشحنة قاضى قضاة الحنفية ، وولده القاضى عبد البر ، والشيخ نور الدين المحلى ، وقاضى القضاة عز الدين المحلى ، وتبعهم جماعة كبيرة من العلماء . .

ومنهم من أول كلامه ، ولم ينسبه إلى فسق أو كفر ، أو حلول أو انحاد . وعلى رأس هذا الفريق العلامة محيى الدين السكاكيجى ، والشيخ قاسم بن قطلوبغا ، وبدر الدين بن الغرس ، ونجم الدين بن يحيى بن حجي ، وجلال الدين السيوطى ، وزكريا الأنصارى ، وتاج الدين بن شرف .

وتناظر الفريقان ؛ واحتدم بينهما الأمر ، وألفت الرسائل من كلا الطرفين وكتبست استفتاءات وفتاوى . ومقالات عدة . وامتدت الفتنة حتى اشترك فيها شعراء العصر .

ولما طال الخطب وخيفت الفتنة على العامة ، أرسل استفتاء ، بأمر السلطان إلى الشيخ زكريا الأنصارى ؛ فى الموضوع . فكتب فتواه متضمنة أن ألفاظ ابن الفارض لا تحمل على ظاهرها ، وإنما تؤول بحسب اصطلاحات الصوفية .

(١) الضوء ج ٦ ص ٣٥ .

(٢) الضوء ج ٨ ص ١٣٩ فى ترجمة السكال بن الهمام .

وقد حسم بفتواه هذه الفتنة ، التي لبثت زمنا وهي مدار حديث ومناظرة وجدل وتأليف (١) .

الثقافة الأدبية

رأيت كيف كانت المعارف الدينية والثقافة العلمية الإسلامية ، غامرة عامرة . ولهذا لم تستطع الثقافة الأدبية أن تبرز في المقدمة وفي الطليعة . ولكن علينا أن نضع في الاعتبار أن اللغة العربية - والعربية الفصيحة - كانت أساس الدراسة والتعليم في المواد العلمية كافة . فهي المضروب المشترك فيها جميعا . فلا بد من مرور الطالب على الثقافة اللغوية فيما قبل ، ليستطيع بها أن يشق طريقه في وسط هذا الخضم الواسع الفسيح ، الذي - على الرغم من تباين موضوعاته مع موضوعات اللغة الأصلية - يحتاج من يشقه إلى رصيد من هذه الموضوعات يعينه في اقتحامه .

ولا بد أن الطالب كان في دور الصغر وفي مرحلته التعليمية الأولى ، ينال قسطا مناسباً من فهم اللغة ونحوها وصرفها ومطالعة نصوص أدبها . ولكن ، إن كان ، فلا بد أنه قسط يسير .

وفي المرحلة الثانية - مرحلة الحفظ - نرى كثيراً من الطلاب يعكفون - فيما يعكفون عليه - على كتب اللغة ومتون فنونها ، فيحفظون منها قدراً كبيراً في بعض الأحيان . نلاحظ هذا في تراجم المئات منهم التي سجلتها كتب الأعلام . ومن هذه الكتب - على سبيل المثال - الكافية لابن الحاجب في علوم العربية . وتلخيص المفتاح في البلاغة . وألفية ابن مالك ، وملحة الأعراب . ونظم

(١) راجع المجلد الثاني من موسوعتنا هذه . وفيه تفصيل لهذه الفتنة .

قواعد الإعراب لابن الهائم ، وفصيح ثعلب في اللغة .

وهذا معناه أن الطالب الذى يستعد بحفظها ، لدراستها وفهمها والتعمق فيها والتخرج بها في المرحلة الثالثة .

وفي المرحلة الثالثة نرى مواد العربية وآدابها ، مشاركة في الدراسة مشاركة ما .

فما أثر مثلاً في هذا الباب عن أهل اللغة أنفسهم، أن أمين الدين المحلى أحد أئمة النحو بالقاهرة - قيل عنه إنه تصدر لإقراءه وانتفع به الناس .
وأن حافى رأسه د محي الدين الإسكندراني ، كان من أئمة العربية وتصدر لإقراءها زماناً . قال عنه أبو حيان : كان شيخ أهل الإسكندرية في النحو وتخرج بها أهلها .

وأن الرضى الشاطبي كان إمام عصره في اللغة ، وقيل عنه إنه تصدر لإقراءهااهرة ، وأخذ عنه الناس وروى عنه أبو حيان وغيره .

وأن أبا حيان أثير الدين ، كان نحوى عصره ولغوي ومقرئه . وكان قد تلمذ بمصر على الهاء بن النحاس وأخذ عنه . وما زال حتى تقدم في حياة شيوخه واشتهر اسمه وألف الكتب المشهورة ، وأخذ عنه أكابر عصره . ولما مات رثاه الصلاح الصفدى فكان مما قاله فيه :

شارك من ساواه في فنه وكم له فن به استأثرا
دأب بنى الآداب أن يغسلوا بدمعهم فيه بقايا الكرى
والنحو قد سار الردى نحوه والصرف للتصريف قد غيرا
واللغة الفصحى غدت بعده يلغى الذى فى ضبطها قررا . . الخ

وأن جمال الدين بن هشام المصرى ، أتقن العربية حتى فاق الأقران بل الشيوخ وتخرج به خلق كثيرون ، وانفرد بالفوائد الغربية والمباحث الدقيقة .

وأن بهاء الدين بن عقيل أخذ القراءات عن التقي الصائغ ، ودرس اللغة وعلومها على العلاء القرنوي والجلال القزويني وأبي حيان . وله شرح التسهيل ، وشرح الألفية .

وبدر الدين بن الدماميني الإسكندراني ، عانى الآداب ففاق في النحو والنظم والنثر ، وشارك في الفقه وغيره . وتصدر بالجامع الأزهر لإقراء النحو ، وصنف حاشيته على مغنى اللبيب وشرح التسهيل . ومات عام ٨٢٧ هـ بالهند (١) .

وأن جلال الدين السيوطي روى عن نفسه في ترجمته ، أنه أخذ الفقه والنحو عن جماعة من الشيوخ وقال : « ولزمت في الحديث والعربية شيخنا الإمام العلامة تقي الدين الشبلي الحنفي ، فواظبته أربع سنين ، وكتب لي تقریظا على شرح ألفية ابن مالك وعلى جمع الجوامع في العربية تأليف (٢) » .

على أنه في الاستطاعة أن نعود إلى تلمس ثقافات القضاة وعلماء المذا أنفسهم وحفاظ الحديث ، بل كل صنف من هؤلاء الفضلاء ، فسترى أن الأدبية أو قل التشقف بعلوم اللغة وفنونها ، أساس من أسس ثقافتهم بنال ولا تنس أن من بين هؤلاء الفضلاء السكاتب المنشي البارع ، والشاعر المبدع الرقيق . فمن أين لهم هذا ؟ لابد أنهم تمرسوا من قبل ، بعلوم اللغة وأدبها .

وهذا شهاب الدين بن حجر العسقلاني فقيه الشافعية وحافظ الحديث وشارح البخاري ، مال إلى التأليف في التاريخ وهذا نزوع أدبي بلا ريب . وقد روى أنه في مبكر دراسته مال إلى الأدب واشتغل بطلبه ، ونظم الشعر . ثم مال إلى طلب الحديث والفقه . ولما نضج لم ينس الأدب ولا هجر الشعر . وله ديوان مخطوط في دار الكتب .

(١) حسن المحاضرة ج ١ في ذكر من كان بمصر من أئمة النحو واللغة .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ترجمة مؤلف الكتاب .

وتقى الدين بن رزين قاضى قضاة الشافعية ، قيل فى دراسته إنه حفظ كثيرا من كتب الفقه والأصول والنحو والكلام والقراءات - ووجه الدين البهنسى ، كان فقيها عالما بالأصول والنحو - وتقى الدين بن دقيق العيد القشيري ، درس الفقه والأصول والحديث والنحو ونبغ فيها وكان له باع طويل فى الشعر والكتابة والوعظ - وشمس الدين بن القيم ، درس علوما مختلفة ومن بينها علوم العربية والنحو ، حتى اشتهر بأنه نحوى - وتقى الدين السبكي قاضى قضاة الشافعية ورأسها فى زمانه ، درس علوما عدة ونبغ فيها ومنها النحو أخذته عن أبى حيان - وزكريا الأنصارى شيخ الإسلام لازم أبا حيان مدة وأخذ عنه علوم العربية . وشمس الدين بن عمار ، لازم محب الدين بن هشام فى دروس العربية والصرف .

وإذا ذهبت تبحث فى تاريخ أكثر المذنبين والشعراء ، تراهم أخذوا من العلوم المختلفة بنصيب وافر ، وشاركوا فى عدة فنون منها فنون العربية وآدابها . وأن منهم من لازم أحد شيوخ الأدب لياخذ عنه ويتمرس بدوقه ومذهبه .

ونعتقد أن الأمر فى نشر الثقافة الأدبية - فضلا عما سبق بيانه - كان يرجع إلى حد ما إلى وجود ديوان الإنشاء فى هذه الدولة ، واهتمام السلاطين به واعتمادهم عليه فى عليا رسائلهم . وكانوا يترشون فى اختيار كتابه ومنشئيه وبخاصة صاحب الديوان - أى رئيسه - أو كاتب السر ، كما لقب فيما بعد . فقد بلغ مركز كاتب السر فى بعض العهود أن كان أقرب رجال الدولة إلى سلطانها وأعرفهم بأمورها وأكثرهم توجيها لها . ولذلك وجب التريث .

وكانت مراسلات الدولة الواردة والصادرة ، من خارجها إليها وبالعكس ، ترد إلى الديوان أو تصدر عنه . وكاتب السر هو الذى يعرض الوارد على السلطان ويقرؤه له ، ويتشاور وإياه فيه ، ويتلقى أمره وإرشاده بالرد عليها ، ثم يكتب الرد ، أو يكلف أحد المذنبين فى الديوان بكتابته .

هذا فضلا عن جميع أوامر التعيين، وبخاصة عليها وكذلك ألوان المكاتبات الأخرى ، كانت تصدر عن الديوان وبقلم كاتب السر أو كبير من منشى الديوان. ومنها العهود والبيعات والتقاليد والبشارات والمناشير والمراسيم والتواقيع وما إلى ذلك .

وكانت وظائف الديوان - وبخاصة وظيفة كاتب السر - أمل السكاتب والأديب ، لما تدره من مال ، وترفع إليه من منزلة ، وتهمته من جاه . وكان السلاطين - كما نوهنا - يترشون في اختيار كاتب السر وينتقونه من ذوى الفضل وأرباب العلم والفقه ، ومن أهل القلم الممتازين ، فضلا عما يكون قد اشتهر به من دهاء وسعة حيلة وذكاء وكياسة .

وبهذا يندفع الناشئ الآمل المتطلع إلى المنصب والمال والجاه ، إلى إجادة هذا الفن ، وهو فن الأدب والكتابة ، ودراسة آدابها وأحكامها ورسومها ، ليذكى مقدراته ويصل إلى امتلاك زمامها . ولعل حظه فيما بعد يدفع به إلى إحدى وظائفها في الديوان ، وقد يقفز به إلى كتابة السر .

ولا شك أن إجادة فن الأدب والتمرس بالإنشاء ، يحتاج إلى فسحة من الوقت وسعة من الصبر والتجربة في دراسة فنون اللغة بشتى ألوانها وفروعها ، ودراسة أدبها والاطلاع على مناهج القدماء والمعاصرين في النثر والشعر ، ليسكون السكاتب خبيراً بها وعلى ذكر منها ، لأنها ولا ريب تزيد فراهة وحذقا .

وقد أفاض شهاب الدين القلقشندي في كتابه « صبح الأعشى » في ذكر صفات السكاتب وما ينبغي له من ألوان الثقافة والمعرفة . وقد عد الكتابة أشرف الصناعات . وكذلك فعل النوبري في نهاية الأرب .

وفي رأينا أن القلقشندي - أو النوبري - وهو يكتب كتابه هذا ، ويذهب فيه هذا المذهب ، يعبر في جملة عن ذوق عصره واتجاهه وتقديره لفن الإنشاء ، إذ كان معتمد الدلالة ومناطق تحركها ومحل نظامها وموضع أسرارها .

ولاريب أن مناصبه أصبحت بذلك أمل الآمل كما نوهنا . فلا غرابة أن
أكب على أدواته ووسائله ليجمعها لنفسه ، ويتسلح بها توسلا إلى الوصول إلى
هذه المناصب . وما أدواته ووسائله إلا فنون اللغة وآدابها ، أو هي على الأقل
أولى هذه الأدوات والوسائل .

ولماذا نحار في إثبات وجود هذه الدراسات أو الثقافات الأدبية ، والآداب
أنفسهم - سواء أكتابا كانوا أم شعراء ، كفونا مثونة الخيرة ومشقة الإثبات ،
بما خلفوه لنا من جليل المؤلفات في علوم العربية وآدابها . أيقتدرون عليها
ويؤلفون فيها وينسقون في أبوابها ويحلون من مشاكلها ويتدعون الجديد فيها ،
دون سابق دراسة وبحث وتمحيص ، ودون سابق تلمذة وتلق عن الشيوخ ؟
هذا محال .

وقد سبق لنا أن نوهنا ببعض هذه المؤلفات . ولا بأس من أن نعود إليها
بشيء من التفصيل فنقول :

كتب النحو والصرف :

لعل النحو والصرف في مقدمة فنون العربية ، التي حظيت من العناية بنصيب
أوفر . فقد وضعت فيهما أسفار قيمة ، وعرف بهما رجال أفذاذ .

ونحن لا ننكر أن نحوي هذا العصر - في جملتهم لا في تفصيلهم - لم يأتوا
بجدید متمتع ولا بمبتكر رائع . وقصارى جهودهم بذلت في توضيح مسائل النحو
وتوجيه قواعده والاستدلال لها . مع عرض الآراء المتناقضة أحيانا ، والموازنة
بينهما أحيانا أخرى وترجيح أحدها .

ونحنا بعضهم إلى وضع المتن ثم إلى شرحها ، ثم إلى شرح هذا الشرح
أو اختصاره . وذلك على نمط مما كان يفعل علماء الدين بكتب الفقه . وزادت
التحشية على المؤلفات ، والاستدراك عليها ، حتى نتج من ذلك كله نتائج وفيه
في هاتين المادتين : النحو والصرف .

غير أننا لا نرى مناصاً من التنويه بأن بعضهم كانت له في بحوثه شخصية وقوة ونضج، يشعرون بأنه كان حسن التدقيق لمادته، عميق الفهم كامل الإمام، دقيق الملاحظة والموازنة، جديد التوجيه والتعليل، وأفضل الأمثلة لذلك: جمال الدين بن هشام المصري. ذلك العلامة الذي قال فيه ابن خلدون: «مازلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيديوه». .

ونشير في هذا المقام إلى جالية علماء الأندلس بالشرق، وعلى رأسها جمال الدين بن مالك الأندلسي الذي وفد إلى بلاد الشام في عهد الملك الظاهر بيبرس، وتلمذ له كثير من الناشئة. وانتشرت في الشام ومصر وغيرهما كتبه ومنظوماته، كالألفية والتسهيل، فأصبحت محورا أساسيا من محاور البحث والتعليق والتأليف.

وكذلك أبو حيان أنير الدين الأندلسي. فقد وفد على مصر وتلمذ لبعض رجالها، وتلمذ له من بعد عدد ناشئها، أفادوا منه، وكانوا من بعده أعلاما في التدريس والتأليف.

وإليك بعض المؤلفات والرسائل في هذين الفنين:

ألفية بن مالك وهي منظومته المشهورة. وله أيضا التسهيل. والسكافية الشافية، وهي أرجوزة في أكثر من ٢٧٥٠ بيتا لخص منها ألفيته. وسبك المنظوم وفض المختوم، ولامية الأفعال. وإيجاز التعريف. وشواهد التوضيح.

ولجمال الدين بن هشام المصري: مغنى اللبيب عن كتب الأعراب. وشذور الذهب. وقطر الندى وبل الصدى. والجامع الصغير. والروضة الأدبية. وموقد الأذهان والإعراب عن قواعد الإعراب.

وللجلال السيوطي: البهجة المضية في شرح الألفية والأشباه والنظائر في النحو. والفريدة في النحو والصرف والخط. والتكملة على الألفية. والفتح القريب

وهو شرح على مغنى ابن هشام . والاقتراح فى أصول النحو . وجمع الجوامع وهو مختصر فى النحو . شرحه مؤلفه بكتاب آخر هو جمع الهوامع . وشرح شواهد المغنى . وشرح الكافية فى التصريف . وله غير ذلك .

ولابى حيان الأندلسى : شرح التسهيل . والارتشاف . وتجريد الأحكام لسيدويه . وكلها فى النحو . وعقد اللآلىء فى القراءات . وله فى التفسير : البحر المحيط وقد مزج مباحثه بمباحث النحو .

ومن شروح الفقيه ابن مالك : شرح لشمس الدين بن الصائغ محمد بن عبد الرحمن . وشرح لابن عقيل . وشرح لبدر الدين المرادى . وشرح لأكل الدين البابرى . وشرح لناظر الجيش محب الدين بن عبد الدائم محمد بن يوسف . وشرح لجمال الدين عبد الرحيم الإسنوى .

ومن شروح تسهيل ابن مالك : شرح لم يتم لجلال الدين المحلى . وشرح للبدر الدماينى . وشرح لبدر الدين المرادى . وشرح لشهاب الدين السمين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم نزيل القاهرة . وشرح لبهاء الدين بن عقيل . وشرح لمحب الدين بن عبد الدايم .

ومن الكتب الأخرى : شرح قواعده ابن هشام ، لجلال الدين المحلى . وحاشية على مغنى اللبيب لبدر الدين بن الدماينى . والكناش للملك إسماعيل أبى الفداء . ومفتاح الإعراب لأمين الدين المحلى . والألغاز النحوية لخالد الأزهرى . وقصيدة فى المقصور والممدود لشمس الدين الهوارى الشاعر . وبلوغ الأرب بشرح شذور الذهب لزين الدين زكريا الأنصارى . والمناهج الكافية فى شرح الشافعية . له أيضاً .

ومن كتب العروض والقوافى : كتاب العروض لابن مالك الأندلسى . وكتاب القوافى لبدر الدين الدماينى وجواهر البحور وهو فى العروض ،

للدمايني أيضاً . وشفاء العليل في علم الخليل لأمين الدين المحلى . والعنوان في معرفة الأوزان له أيضاً . وجلوة الأمداح الجمالية ، في حلقى العروض العربية ، وهى قصيدة في العروض لشهاب الدين بن عربشاه .

ومن كتب متن اللغة وما يتصل به : لسان العرب لابن منظور . والمصباح المنير لأحمد بن على المقرئ الفيومى . والمسترسل في السكنى لشمس الدين الذهبي . والمقتنى في السكنى له أيضاً . والمزهر للجلال السيوطى . ومختصر أساس بلاغة الزمخشري ، لشهاب الدين بن حجر العسقلاني .^(١)

وبقيت - لاستكمال عناصر الثقافات الأدبية - سطور نحدثك فيها عن كتب البلاغة والنقد ، وعن المجاميع الأدبية نثرها وشعرها .

وينبغى قبل أن نعرضها عليك ، أن نحدثك عن عاملين مهمين كان لهما أثر بارز في توجيه الثقافة الأدبية ، وبخاصة في فن الأسلوب ، وهما الدراسات القرآنية ، ومنهج القاضى الفاضل .

الدراسات القرآنية .

أعتقد أن عناية الأدباء والنقاد حينذاك بدراسة أساليب القرآن الكريم وطريقة نظمه ، كانت ذات أثر في إقبالهم على اصطناع البديع ، فكان عماد الفن الأسلوب عندهم ، وذلك بدافع الإعجاب بنظم القرآن هذا النظم الفريد .

وقد كان القرآن وأساليبه موضعاً لدراسات كثيرة متنوعة ، منذ فجر الإسلام حتى يومنا هذا ، ومنها دراسة نظمه وطرق أدائه . غير أن هذا الضرب من الدراسة لم يخلص مرة لفن نقد الأسلوب وحده ، بل ظل يمتزجاً بالهدف الأصيل

(١) مرجع معرفة هذه المؤلفات : كتب تراجم الأعلام ، وفهرس دار الكتب ، وجورجى زيدان .
— راجع أيضاً حسن المحاضرة وطبقات الشافعية للسبكي ، وكتب الطبقات الأخرى ومنها بنية الوعاة .

في بيان الإعجاز أو شرح الآيات وبيان الأحكام مثلاً . أما النقدات الفنية الخالصة فكانت تعرض بين الآن والآن . غير أنها أخذت تنشط ويزيد خطرهما ، وتنظر إلى نظم القرآن باعتباره أمثل نموذج للأساليب الفنية ، هذه النظرة التي صاحبها منذ بدء أمرها .

واتضحت هذه النظرة في كتب النقاد ، التي من متاخرها كتاب « المثل السائر » لابن الأثير — المتوفى قبل العصر المملوكي بسنوات معدودة — حيث يقول مثلاً ، وهو يتحدث عن علم البيان : « وكنت قد عثرت على ضروب كثيرة منه في غصون القرآن الكريم لم أجد أحداً ممن تقدمني تعرض لذكر شيء منها . وهي إذا عدت كانت في هذا العلم بمقدار شطره » (١) .

وقد تأثر بآراء ابن الأثير — ولا ريب — أدباء العصر المملوكي ونقادهم . وكلما تحدث النقاد عن أحد ألوان البديع ، استشهدوا له أولاً بأمثلة من القرآن الكريم . واتضحت هذه الظاهرة في كتب البلاغيين قبل هذا العصر . إلا أنها لدى النقاد والبلاغيين في العصر المذكور اتضحت بشكل مطرد تقريباً . حتى إن ابن حجة الحموي استدرك على ابن المعتز عند حديثه في كتاب « البديع » عن المذهب الكلامي حيث قال : « إنه لا يعلم ذلك في القرآن . » — فقال ابن حجة : « وليس عدم علمه مانعاً عما غيره . ولم يستشهد على المذهب الكلامي بأعظم من شواهد هذا النوع . وأبلغها قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » (٢) .

واعتبار النقاد والأدباء أن نظم القرآن الكريم يحتوي على كل الألوان البديعية ، وحرصهم على الاستشهاد عليها بأمثلة من القرآن ، وعشورهم فعلاً على هذه الأمثلة ، دفعهم إلى تهرى أساليبه والاقتداء بها في أساليبهم . بدا ذلك في أساليب الكتّاب المنشئين ، وفي أساليب الشعراء كذلك . ولما كان عند الأول أوضح وأوسع .

(١) المثل السائر ص ٢ — في مقدمته .

(٢) خزائن الأدب لابن حجة باب المذهب الكلامي .

وقد تسكلم الفلقشندي في كتاب «صبح الأعشى»، عن السجع - مثلاً - فعقد له فصلاً طويلاً . وقد استوفى فيه الحديث عنه وعن أنواعه ونظام فقراته وعددها . واستشهد لكل نوع ، بما قاله آيات من القرآن الكريم ، ناقلاً أكثر ما قال عن ابن الأثير والشهاب الحلبي .

وسنعود إلى الحديث عن الدراسات القرآنية في مناسبة قادمة .

منهج القاضي الفاضل :

هذا الجو الفنى الذى عاشوا فيه ، والذى نشأ من ذوق العصر واتجاهه إلى الحلية بدافع من انتشار الحلية والزينة والألوان والأصباغ فى شتى نواحي معيشتهم وحياتهم الاجتماعية ، ومن طريقة تذوقهم للنظم القرآنى ، فسح الطريق أمام منهج القاضي الفاضل فى أساليب الكتابة والشعر ، أن يكون المنهج الأمثل الذى يحتذونه ، إذ أنه يلتئم وهذا الجو .

وقد يكون هذا المنهج نفسه عاملاً من عوامل تهيئة هذا الجو . فقد كان القاضي الفاضل عبد الرحيم البيسانى من كتاب الدولة الفاطمية . ثم شهد انتقال ملك مصر إلى صلاح الدين الأيوبي ، وعاون على أمور دولته . فكان له من علمه وأدبه وذكائه وسن منصبه ، ما عاون على فرض منهجه هذا فى زمانه وبعد زمانه ، وورث العصر المملوكى علم الأيوبيين وأدبهم ومنهجهم على وجه التقريب ، فكانت من أهم دعائم الثقافة فى زمانهم ، وكذلك الثقافة الأدبية . وهى وثيقة الصلة بأدب الفاضل ومنهجه . ولا عجب ، فقد اتخذ كتاب العصر المملوكى وشعراؤه نموذجاً وقدوة . وصار الأدباء والنقاد عندما يعرضون لذكر الفاضل يصفون عليه آيات الثناء والإطراء ، ويعترفون له بالفضل والسبق والإمامة ، حتى إنهم كانوا يشبهون به ويضربون المثل بأدبه عند المناسبات فى الشعر والنثر .

وذكر ابن حجة الحموى ، القاضي الفاضل فقال : « كان نظم القاضي الفاضل -

رحمه الله - ونثره كفرسى رهان . ولاكنه نثر أكثر مما نظم وأجمع الناس على أنه أتى مع الإكثار بالعجائب . وذكر قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان فى تاريخه : « أن مسودات رسائله إذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد . وهو يجيد أكثرها ، . ولعمري إن الإنشاء الذى صدر فى الأيام الأموية والأيام العباسية نسي وألغى بإنشاء الفاضل وما اخترعه من النكت الأدبية والمعانى المخترعة والأنواع البديعية . والذى يؤيد قولى قول العماد السكاتب فى الخريدة أنه فى صناعة الإنشاء كالشريعة المحمدية نسخت الشرائع ، (١) .

ونعتقد أن لبوغ القاضى الفاضل فى استعمال التورية ، أثراً فى إعجاب أدباء عصر الماليك به وفى مشيهم تحت رايته . وذلك لأن التورية - فى الحق - عنصر أصيل من عناصر التعبير المصرى ، ومظهر بارز من مظاهر الذوق المصرى .

هذا فضلاً عن نبوغه فى اصطناع أنواع أخرى ذات صلة بهذا الذوق ، كالاستخدام والافتباس والتضمين والتوجيه والتلميح مثلاً .

وقد أشاد ابن حجة بذكر الفاضل عند كلامه فى « خزائن الأدب » عن التورية ، وعده أنه هو الذى عصر سلافتها .

وقد كان لافتتانهم بأدبه أثر فى إقبالهم على معارضته فى بعض ما كتب . والمعارضة الأدبية فى الشعر أو النثر ، دليل ضمنى على الإعجاب والتقدير ، وعلى الاقتداء (٢) .

وغلب منهج الفاضل كذلك ، على أذواق النقاد ، فصاروا وقصاراهم الاهتمام بهديه وترسم خطاه ، فى أكثر ما تناولوه من مسائل النقد .

(١) عن ثمرات الأوراق ،

(٢) فى تذكرة الصفدى ج ١٣ رسالة للقاضى الفاضل ، وبها معارضة ابن عبد الظاهر لها . وفى خزائن الأدب ص ٤٣١ - وكذلك فى ثمرات الأوراق ، رسالة للفاضل ، وأخرى لابن حجة الحموى يعارضه فيها .

والحق أنه قد شارك الفاضل في صنع أذراق النقاد ، أدباء غيره ، عاشوا قبله ، وبعده . وبخاصة النقاد منهم والبلاغيون ، أمثال ابن المعين وقدامة والجرجاني وابن سنان وابن أبي الأصبع ، وابن الأثير صاحب المثل السائر . ولكن على الرغم من هذا ، كان منهج الفاضل صاحب السلطان الأقوى .

واتضح ذلك فيما كتبه الشهاب الحلبي في كتابه «حسن التوسل» ، والقلقشندي في «صبح الأعشى» . وتقى الدين بن حجة في «خزانة الأدب» ، من مسائل النقد والبلاغة والحديث عن الأسلوب .

ونحن نعتبر هذه الكتب وأمثالها ، عناصر هامة من عناصر الثقافة الأدبية حينذاك ، وهي أيضاً بعض نتائجها^(١) .

وهناك مظاهر أخرى ، أو نتائج ، تدل في مجملتها على أن الثقافة الأدبية ، كانت على جانب من النشاط ، لا بأس به ، وأنها لم تكن تعاني من الضيق والسطحية ، كل ما رميت به ، ومن ذلك :

كتب البلاغيين :

ويبدو أن رغبتهم في بعث القديم ونشره وإحيائه ، دفعتهم إلى أن يعيشوا في فلسفه ، ويدوروا في مداره . ففضوا قدما في شرح المختصرات ، واختصار الشروح .

وعلى رأسهم جلال الدين القزويني ، الذي دار في فلك السكاكي - وهو من رجال البلاغة في العصر الأيوبي ، وواضع كتاب «مفتاح العلوم» في البلاغة وغيرها - وقد لخص القزويني القسم الخاص بالبلاغة في «مفتاح العلوم» ،

(١) راجع باب النقد والنقاد ، في المجلد السادس من هذه الموسوعة .

وسمى هذا التلخيص « تلخيص المفتاح » . ثم شرح تلخيصه هذا فى كتاب آخر ، سماه « الإيضاح » .

ومن سار مسار القزوينى . أكمل الدين البابر فى ، وبهاء الدين السبكى ، وجلال الدين السيوطى ، وذكرى الأنصارى وغيرهم كثيرون . ولحل منهم شرح أو أكثر على كتاب « التلخيص » الذى وضعه القزوينى .

والموسوعات :

وقد أشرنا إليها من قبل . ومن بينها :

صبح الأعشى ، للقلقشندى : وأساسه الحديث عن صناعة الكتابة وما يتصل بها من آدابها وأطوارها فى الدول الإسلامية ، ونموها ودراوينا ورسومها ونماذجها وقد تحدث عن تاريخ هذه الدول وجغرافيتها ، وعن أنواع رسائلها ومكاتباتها داخل دواوينها وخارجها ، إلى غير ذلك .

ومسالك الأبصار ، لابن فضل العمرى : وأساسه الحديث عن تقويم البلدان ووصف أحوالها . وقد امتلأ باستطرادات أدبية طريفة ، وغيرها .

ونهاية الأرب للنويرى : وأساسه الحديث أيضا عن جغرافية العالم وتاريخ الأمم من لدن آدم ، وعن الإنسان وما يتعلق به وما له من خلق وفن وأدب ، وتحدث فيه عن الكتابة وما ينبغى لها من أدوات . وذكر الحيوان وأنواع النبات ، وما يتصل بذلك كله من عجائب وحوادث وقصص وشعر ونثر .

والمجموعات الأدبية :

وهى كتب جمعت فأرعت من ألوان الشعر والنثر ، ما بين قديمها ومعاصرها . وفيها الحكم والرسائل والمكاتبات والجد والمجون والعضات والنقدات ، والقصص وغير ذلك . ومنها على سبيل المثال :

التذكرة الصفدية : لإصلاح الدين الصفدى . قيل إنها ثلاثون مجلداً . ويوجد

منها عدة أجزاء مخطوطة بدار الكتبة المصرية . وتحتوى على فصول أدبية ومختارات من الشعر والنثر ، وأحاديث عن الصفات والأخلاق إلى غير ذلك .

وثمرات الأوراق لابن حجة الحموى ، وقد طبع أكثر من مرة . وهو مجموعة من النكت والروايات والرسائل النثرية ، من مختلف الألوان ، وبه قصص عن الأطباء والأجواد والبخلاء ، والعلماء والحق .

والمستظرف للأشبهي : ويشتمل على ثمانية وأربعين باباً في مختلف الموضوعات ، ما بين شعر ونثر ، ومنها باب في العقل ، وباب في الذكاء . وباب في الحق . وباب في القرآن وفضله . وباب في الأمثال السائرة .

وحلبة الكميث لشمس الدين النواجي : وموضوع الحديث عن الكميث - الخمر - ويحتوى على خمسة وعشرين باباً وخاتمة ، ما بين شعر ونثر . ومنها على هذا النسق :

نسيم الصبا لابن حبيب الحلبي . ومقامات السيوطي . ومقامات ابن الوردي . وسجع المطوق لابن نباتة . وتأهيل الغريب لابن حجة الحموى . وسكر دان السلطان لابن أبي حجلة المغربي . والسكنز المدفون للجلال السيوطي . وشروح الرسائل الأدبية أو القصائد الشعرية السائرة . ومن ذلك « شرح العيون » في شرح رسالة ابن زيدون الهزلية لابن نباتة المصري . و « تمام المتون » للصالح الصفدي في شرح رسالة ابن زيدون الجديدة . ومثل شرح قصيدة « بانت سعاد » لابن هشام المصري . وشروح البديعيات . وألحان السواجع للصفدي . وجنان الجناس له أيضاً ، وكشف اللثام لابن حجة الحموى إلى غير ذلك .

هذا عدا دواوين الشعراء ، كابن نباتة ، والقيراطي ، وابن حجر ، والشاب الظريف ، والبوصيري ، والفخر بن مكاس ، وابن الوردي ، وابن سيد الناس اليعمرى ، وابن أبي حجلة المغربي . وغيرهم كثير .

وبعد : هذه كلها لمحات وجيزة وسريعة ، تلقى أضواء على الثقافة في عصر المماليك في ناحيتها العلمية والأدبية . وكان لذلك رجعه البعيد المدى في شعر الشعراء ، مما سنحدثك عنه في حينه .

الفصل الرابع

في

وصف البيئة الاجتماعية^(١)

البيئة الاجتماعية تتراءى فيها مجموعة النظم والترتيبات والقواعد ، التي تدير الدولة على مقتضاها ، وعلى رسومها ، في داخل البلاد ، ومجموعة العادات والتقاليد التي يسير عليها الشعب ، ويتبعها في طرق معيشتها ، والمستوى الحضارى الذى بلغه .

وهى بذلك وثيقة الصلة بالبيئة السياسية ، لعلاقتها بنظم الدولة وإدارتها — مثلاً — ووثيقة الصلة بالبيئة الثقافية ، لما للثقافة من تأثير كبير فى توجيه العقلية والنفسيّة الشعبيّة ، اللتين عليهما مدار الحياة الاجتماعية ، وبروز ما فيها من العادات والتقاليد والحضارة والفن .

بل هى ذات ارتباط لا ينكر ، بالبيئة الطبيعيّة ، كذلك . فإن البيئة الطبيعيّة — مثلاً — هى التى تهيب للشعب لون معيشتها ومستواها . وهى المستند الاصيل الذى يعتمد عليه فى اقتصادياته . والاقتصاد من أهم دعائم الحياة الاجتماعية .

فلا عجب ، حينئذ ، ونحن نتحدث عن البيئة الاجتماعية ، إذا تناولنا بعض عناصر السياسة أو الثقافة أو طبيعة البلاد ، لما لهذه العناصر من دخل وتأثير فى توجيه الحياة فى هذه البيئة .

ولا بأس أيضاً ، إذا نحن عاودنا الحديث فى بعض ما أوردناه فى البيئات الأخرى لمناسبة المقام .

(١) فصلنا الحديث عن موضوعات البيئة الاجتماعية فى المجلد الثانى من هذه الموسوعة . ولهذا أوجزنا الحديث هنا بما يناسب المقام .

الطبقة الحاكمة

ومن المناسب في مطلع الحديث عن طبقتي الامة ، أن نذكر ما رواه القلعة شندی ، إذ قال ما ملخصه : « إن الدولة الأيوبية خالفت في نظمها وترتيب الدولة كثيراً مما كان عليه الحال في الدولة الفاطمية . وجرت على ترتيب دولة عماد الدين زنكي بالموصل ، ودولة ابنه نور الدين محمود بالشام . ثم جاءت الدولة التركية وقد تنفخت نظم الدولة وتهذبت . فنقلت أحسن ما فيها وسلكت سبيله ، وتهذبت حتى فاقت سائر الممالك ، ^(١)

وقد نوهنا بأن البلاد كان بها طبقتان متميزتان : حاكمة ومحكومة .

وتعتبر الطبقة الحاكمة من الجنس التركي ، في الدولة التركية . ومن الجنس الجركسي في الدولة الجركسية . وإن لم تخل واحدة منهما من وجود عناصر أخرى . وقد أشرنا إلى ذلك .

وكانت هذه الطبقة تتجدد - غالباً - عن طريق شراء الممالك جدداً من الخارج . ثم يربي المملوك في طباق القلعة - عادة - تربية عسكرية ، كما ذكرنا ، ثم يندمج في عداد الممالك السلطانية ، وهم جنود الجيش . ثم قد يرفعه حظه إلى الترقى إلى الإمارة ، والصعود في سلكها . ثم قد يدفعه حظه أيضاً إلى الوصول إلى السلطنة . . .

وتتألف هذه الطبقة ، من السلطان والأمراء والممالك السلطانية . ويلحق بهم الخليفة وإليك وجازة عن كل قوة من هذه القوى الأربع . ^(٢)

(١) صبح الأعشى ج ٤ تحت عنوان « من أحوال ما عليه ترتيب المملكة .. الخ » .

(٢) راجع المخطط المفرنزة ج ٣ ص ٣٤٨ تحت عنوان « دار النيابة » وما بعدها . — وبدائع الزهور في حوادث عام ٩٠٨ هـ ، ٩٢٢ هـ .

١ - السلطان :

متى تمت السلطنة لأحد الأمراء ، وصار سلطانا على البلاد ، أصبح بيده الأمر والنهي ، والحل والعقد . وصار مصدر السلطات وولى الأمر الشرعى . وهو الذى يعين ويعزل ويرقى ، ويفرق الإقطاع ، ويقرر الحرب ، ويفرض الضرائب ، وينفق المال على مرافق البلاد ، ويشترى الممالك للدولة ، وينفق عليهم ويربهم ، ويعدهم للحراسة والقتال ، ويعتقهم ، إلى غير ذلك من المهام . فهو محور الدولة ، وعليه مدارها .

وقد يكون السلطان فى أصله ، مملوكا ترقى إلى الإمارة فالسلطنة عن طريق الغلبة والقوة ، كالمملك الظاهر بيبرس . - وقد يكون وارثا لأبيه المملوك ، أو أخيه ، كالمملك السعيد بن بيبرس ، فقد ولى السلطنة بعد أبيه . وكان ناصر محمد بن قلاوون ، فقد ولى السلطنة بعد أخيه .

ويشتور الأمراء المقدمون - أمراء المؤمنين - عادة فيما بينهم ، حينما يخلو كرسى السلطنة ، ليعتاروا أميراً من بينهم ، أو وارثاً ، لولايتها .

وقد تكررت نصوص المؤرخين ، فى مناسبات تعيين السلاطين ، فقالوا مثلاً : « فوق الاختيار على فلان . . . ليكون سلطانا . » وهى تشعر بوجود رأى وشورى قبل ولاية السلطنة . ويقع هذا سواء أكان السلطان قد وثب إلى السلطنة بطريق الغلبة والائتمار ، أم الوراثة . وفى الحالة الأولى تكون الشورى شكلية ، وتتم بين أتباع الأمير المختار (١) . وفى الحالة الثانية . تكون -

(١) عندما خلع الأمراء الملك السعيد بن بيبرس ، عرضوا السلطنة على قلاوون فامتنع ، فولوا سلامش بن بيبرس ، وكان صغير السن . وبعد قليل جمعهم الأمير قلاوون وحشدتهم فى أمر سلامش وصغر سنه ، فاستقر رأيهم على خلعهم ، وتولية قلاوون . - راجع سلوك المقرئى ج ١ ص ٦٥٦ ، ٦٥٨ . واشتور الأمراء حين تولية النورى ، واشتوروا بعد مقتله واختاروا الأشرف طومان باى . وهكذا - رجع بدائع الزهور فى ترجمة هذين الملكين .

غالباً - إقراراً لعهد السلطان الزائل ، إلى ابنه - مثلاً - بالسلطنة .
وكثيراً ما كان السلطان القائم يعهد بالسلطنة من بعده لابنه - مثلاً -
وتكتب له بذلك صورة عهد . وقد يقره الأمراء بعد زواله ، أو لا يقرونه .
وولاية السلطان لسلطنته ، وتصرفاته وأحواله ، تشكل جانباً كبيراً من عادات
الدولة وتقاليدها . ففنها :

١ - حفلة توليته :

بعد استقرار الرأى على أن يتولى أمير معين ، أمر السلطنة ، تقام له حفلة
تولية ومبايعة . يجتمع فيها الخليفة وقضاة الشرع الأربعة وسائر الأمراء .
ويكتب تقليد للسلطان بالسلطنة ، يتلى في الحفل . وهو على لسان الخليفة العباسي ،
يوليه فيه شئون المسلمين . ويتقدم الخليفة نحو السلطان فيبايعه ويعهد إليه ، ثم
يليه قضاة الشرع فالأمراء .

ويلبسونه بعد ذلك شعار السلطنة ، وهو عمامة سوداء لها عذبة مذهبة ، وجبة
سوداء ، وسبب ثمين ذو حمائل .

ثم تقدم إليه فرس بسرج ذهبي مزدانة بثياب وحلى . ويسير في موكب وسط
هذا الجمع - وهم بملابسهم الرسمية ، الشاش والقماش ، - ويشقون به وسط
القاهرة أحياناً ، أو يبدءون من أماكن قريبة من القلعة . ويقصدون بها القصر
الكبير . حيث يجلسونه على سرير المملكة . وتنشر على رأسه ، وقت مسيره ،
« القبة »^(١) والطير ، وهما من شعارات المملكة ، ويحملهما أكبر الأمراء مقاماً .

ويقبل له الأمراء الأرض ، فيخلع خلعه عليهم ، ويرقى منهم من يشاء إلى

(١) القبة كالظلة . والطير كان من الذهب . وقد غيرها الأشرف النورى عام ٩٢٠ هـ ، واتخذ
عوضاً عنها الجلالة والهلل الذهبى - راجع بدائع الزهور حوادث عام ٩٢٠ هـ -

المناصب الشاغرة . وينفض الحقل (١) .

ويختار له لقب كالآشرف ، وكنية كأبي النصر ، وينادى باسمه في آفاق السلطنة .

حفلات الاستقبال :

ويقيمها السلطان بمناسبات عدة ، منها حفلاته بضيف كبير ، أو سفير خطير . وكانت تراعى فيها تقاليد وأوضاع مقرر .

ويرسل السلطان - عادة - إلى القادم من يلقاه في طريقه قبل دخول القاهرة . ويهيء له منزلاً مناسباً لإقامته ، ويعين له من يقوم بحراسته وخدمته ، ويعاونه بشيء من المال وغيره ، ويهدى إليه .

ويقام الاستقبال في « الحوش » السلطاني بالقلعة . ويحضر السلطان بملابسه الرسمية ، وحوله الأمراء ورجال الدولة ، فيجلس على « الدكة » (٢) السلطانية ، والبسط الثمينة من حولها مفروشة معدة .

فإذا قدم المحتفى به - وفي صحبته أحد رجال السلطان - قام له السلطان - عادة - وسلم عليه ورحب به ، ودعاه إلى الجلوس ، وتبادلا الحديث . ثم يخلع عليه خلعة نفيسة ، ثم ينصرف القادم بموكبه إلى مسكنه (٣) .

٣ - خروج السلطان من القاهرة وعودته إليها :

اعتاد الأمراء والرؤساء وأهل القاهرة - غالباً - أن يحتفوا بالسلطان عند

(١) راجع بدائع الزهور في حفلة مبايعة بيبرس وبرقوق والنورى .

(٢) كانت « الدكة السلطانية » الموضع الرسمي لجلوس السلطان في الاستقبالات ، وقد ألفها النورى وبنى عوضاً عنها « المصطبة السلطانية » . فلما سلطن الأشرف طومان باى ، أعاد « الدكة » وألغى « المصطبة » .

(٣) راجع استقبال النورى للوزير العثماني قرد بك ، في بدائع الزهور ج ٤ ، حوادث عام ٩١٥ هـ .

خروجه منها في موكبها ، أو عند عودته إليها ، وذلك بمناسبة حرب خارجية ، أو زيارة لإحدى نواحي البلاد أو الذهاب إلى الحج ، ونحو ذلك .

عندئذ تقام الزينات في أماكن مروره ، فتنصب الأعلام وترفع الثريات الزيتية المختلفة الألوان ، وتعلق قطع المنسوجات الملونة ، إلى غير ذلك .

ويسير في ركبه ، احتفالاً به ، وتوديعاً له - أو استقبالا - عدد كبير من الرؤساء والأمراء وحولهم الجنود والحراس ، وتمتلئ الطرقات وشرفات المنازل بالمشاهدين .

وقد يكون الاحتفال به عند عودته أبلغ وأبهج . وكثيراً ما تهدي إليه الهدايا . وقد يمنح هو ويهب ويرقى ، بمناسبة هذه العودة .

واعتماداً على احتساب القاهرة أن ينادى في سكانها بضرورة إقامة الزينات ، بهذه المناسبات (١) .

٤ - الفرح بشفائه من مرضه :

وقد يمرض السلطان ثم يشفى ، فيعلنون بفرحهم لشفائه . وقد مرض الأشرف النورى عام ٩١٩ هـ بارتخاء جفونه حتى خيف عليه العمى ، وامتنع من النزول لمزاولة شئون الدولة . ثم شفى ، فأقيمت له زينة بالغة في أرجاء القاهرة ، بعد أن نادى محتسبها بذلك . وكان يجتمع الزينة في « بركة الرطلى » ، فامتألت بالقناديل والثريات ، وعلقت على وجوه المنازل والمحال ، الأعلام وقطع المنسوجات ما بين صفراء وحمراء وغيرها . وانتشرت فرق الموسيقى في نواحيها . وأخذت الزوارق في البركة تنقل المتراضين والمتفرجين من مكان إلى آخر . وترددت على شواطئها أصوات المغنين والمغنيات ، وظل الناس يسمرون طوال الليل ، ويترددون على مجالس الأنس والسماع ، ويتسلون بمشاهدة الألعاب النارية - « إحراقات النقط » - .

(١) راجع بدائع الزهور في حوادث عام ٩١٨ هـ . وبينها أخبار زيارة النورى للقيوم .

وامتدت الزينات إلى الفسطاط ، وبولاق وسوق الخانكاه وحارة زوية
وخان الخليلي وغـيرها . وأقام الأمراء والرؤساء معالم الزينات على بيوتهم .
واستمرت الزينة مقامه سبعة أيام متوالية^(١) .

٥ - جلوسه للقضاء :

وأراد سلاطين المماليك أن يتشبهوا بالسلف في تفقد أحوال الرعية والنظر
في المظالم . فجلسوا في مجلس القضاء للفصل في الشكايات والخصومات . واصطحبوا
معهم قضاة الشرع .

ولم تطرد هذه العادة . بل من السلاطين من جلس للقضاء في أيام معينة .
ومنهم من لم يواظب على هذه العادة الحميدة . ومنهم من هجرها جملة ، ومنهم من أناب
عنه أحيانا نائب سلطنته .

وعن جلس للقضاء : الظاهر بيبرس ، والأشرف خليل بن قلاوون ، وأخوه
الناصر محمد - ومن نواب السلطنة : عز الدين إيدمر الحلي ، عن الظاهر بيبرس^(٢)
سلار المنصوري عن الناصر محمد بن قلاوون^(٣) .

وتقدم الشكاوى والمظالم على اختلاف أنواعها إلى السلطان حينذاك .
فيستشير فيها قضاة الشرع ، ويحكم بما يراه ، وهو لا يخرج عن رأيهم .
ويقول ابن فضل الله العمري ، واصفا مجلس السلطان في دار العدل للقضاء :
« إذا جلس السلطان للمظالم ، جالس عن يمينه قضاة القضاة من المذاهب الأربعة ،
ثم الوكيل عن بيت المال ، ثم الناظر في الحسبة . ويجلس عن يساره كاتب السر .
وقدماه ناظر الجيش وجماعة من الموقعين ، تسكلة حلقة دائرة . »

(١) بدائع الزهور ج ٤ حوادث شعبان عام ٩١٩ هـ .

(٢) سلوك المقرئ ج ١ ص ٥٠٣ و ٧٧٢ — والخط ج ٣ ص ٣٣٣ و ٣٣٨ .

(٣) السلوك ج ١ ص ٥٥٠ .

وإذا كان ثم وزير من أرباب الأقلام ، كان بينه وبين كاتب السر . وإن كان الوزير من أرباب السيوف ، كان واقفاً على بعد ، مع بقية أرباب الوظائف . ويقف من وراء السلطان ، صفان عن يمينه ويساره من السلاحدارية والجدارية والخاصكية .

ويجلس على بعد تقديره خمسة عشر ذراعاً من يمنة ويسرة ، ذرو السن من أكبر أمراء المؤمنين ، وهم أمراء المشورة . ويلهم من دونهم من أكبر الأمراء وأرباب الوظائف وقوفاً . وبقية الأمراء وقوف من وراء أمراء المشورة .

ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان ، الحجاب والدوادارية ، لإحضار قصص الناس ، وإحضار المساكين وتقرأ عليه . فما احتاج إلى مراجعة القضاة راجعهم فيه . وما كان متعلقاً بالعسكر ، تحدث مع ناظر الخاص وكاتب السرفيه . وقال أيضاً :

« وهذا الجلوس يكون يوم الاثنين ويوم الخميس . إلا أن القضاة وكاتب السر لا يحضرون يوم الخميس »^(١) ..

وقد روى القلقشندي ما يفيد أن تعديلاً طفيفاً ، دخل على هذا النظام . وأهم ما فيه جلوس القاضي الشافعي والمالكي عن يمين السلطان ، والحنفي والحنبلي عن يساره^(٢) .

والذي بنى « دار العدل » الظاهر ببيرس ، وجلس فيها للفضل في الخصومات عام ٦٦٢ هـ . ثم هجرت لما بنى المنصور قلاوون « الإيوان » بدلا منها . ثم هدمها ابنه الناصر محمد ، وأحل مكانها « الإيوان » وجعله ، وجلس فيه للقضاء والنظر

(١) حن الحاضرة ج ٢ ص ٩٢ تحت عنوان « ذكر جلوس السلطان في دار العدل للظالم » وخطط المقرئ ج ٣ ص ٣٣٣ تحت عنوان « ذكر خدمة الإيوان بدار العدل » — وصبح الأعشى ج ١ ص ٤٤ وه ٤ تحت عنوان « هيئته في جلوسه بدار العدل لخلاص للظالم — والسلاحدارية . . الخ أنواع من هرمس السلطان وخدمه ، راجع المجلد الأول من موسوعتنا هذه .

في المظالم يومى الاثنين والخميس . واقتدى به أبناؤه من بعده . ولما ملك برقوق استبدل به « الاصطبل السلطاني » وجلس فيه للقضاء يومى الأحد والأربعاء ، ثم استبدل بهما السبت والثلاثاء ، ثم ضم إليهما يوم الجمعة^(١) .

٦ - جلوسه للعلم والمناظرة :

وفي أخبار المدارس والمساجد ، ترى أن المنشئ - سلطاناً أو أميراً - كان يحتفل بتمام البناء وافتتاح الدراسة . ويتصدر مجلساً علمياً يلقي فيه أحد شيوخ المدرسة درساً في الفقه أو الحديث - مثلاً -

وقد يتصدر السلطان مجلساً يتناظر فيه هو وبعض أئمته وعلمائه في بعض المشاكل الدينية أو نحوها .

ولما افتتح الظاهر ببيرس مدرسته « الظاهرية » ، سمع حينذاك مناظرات العلماء وقصائد الشعراء .

ولما أنشأ برقوق مسجده ، عين شيوخه ، وكان من بينهم العلامة علاء الدين السيرامى مدرس الحنفية وشيخ الصوفية . وقد سمع برقوق لدرسه بل فرش له سجاده بيده^(٢) .

ولما أنشأ المؤيد شيخ مسجده ، كان من بين شيوخه شهاب الدين بن حجر العسقلاني . فأقبل المؤيد عليه يستمع درسه ، وهم ابن حجر بالقيام تعظيماً للمؤيد فمنعه من القيام^(٣) .

واشتهر الأشرف الغورى بمجالسه العلمية . وكان إمامه وغيره من العلماء

(١) الخطط ج ٣ تحت عنوان « دار العدل القديمة » ، وتحت عنوان « الإيوان » وفي نهاية « ذكر النظر في المظالم » .

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦٣ ،

(٣) الخطط ج ٤ ص ١٣٩ .

يتناظرون معه ، ويتحاورون في مسائل شتى . وفي كتاب « مجالس السلطان الغورى » صور من هذه المناظرات والمحاورات .

٧ - زواج السلطان - أو الأمير - :

لم يكن زواج السلطان أو الأمير ، خاضعا لاعتبارات سياسية ومشيمة عامة . وكان كل منهما حراً في اختيار زوجته . غير أن هذه المصاهرات كانت محصورة - في أغلب أمرها - بين أسر الطبقة الحاكمة . وندر أن امتدت إلى الأسر الشعبية .

وعلى سبيل المثال : تزوج الأمير يشبك الدودار ، ابنة الملك المؤيد أحمد ابن إينال . ثم توفيت ، فتزوج الأمير قانصوه خمسمائة . وكان قانصوه خمسمائة متزوجا ابنة الأتابكي أزبك بن ططخ . وكان أزبك هذا متزوجا ابنة الملك الظاهر جقمق .

وقد يتزوج السلطان أكثر من واحدة ، ولا غضاضة عليه ، فقد كان العصر عصر التسرى بالجوارى .

وقد يتزوج السلطان أرملة أحد الأمراء أو مطلقة ، وقد تزوج هي بعد وفاته بأمير أو سلطان . حتى ولو كان ابنها من المتوفى ، صار سلطان العصر مكان أبيه . بل قد تزوج رجلا كان مملوكا لزوجها .

وعلى سبيل المثال . تزوج السلطان برسباى أرملة الظاهر خشقدم . وتزوج السلطان الناصر بن قايتباى مطلقة الأمير « كرتباى » واسمها « خوند مصر باى الجركسية » . ويبدو أنها كانت فاتنة ، فقد رغب فيها أكثر من رجل . وتزوجها بعد زوجها الناصر ، خاله قانصوه بن قانصوه ، الذى صار سلطانا من بعده .

وتزوج السلطان العادل طومان باى « خوند فاطمة » ابنة العلائى على بن خاص بك ، وهى التى كانت زوجة الأشرف قايتباى . وتزوج الأشرف جان بلاط

قبل سلطنته ، أم الملك الناصر بن قايتباى - زوجة قايتباى من قبل ، وأخت قانصوه بن قانصوه ، الذى صار ملكا من بعد . . . الخ (١) .

ويغلب فى حفلاتهم عند الزواج ، حب الظهور والمفاخرة والمغالة فى إعداد المتاع . والاجتماع للغناء والرقص والسمع ، والدق على الدف والزردة . . الخ . ولما تزوج الأمير قانصوه خمسائة ، ابنة الأتابكى أزبك بن طغان ، حفيدة الظاهر جقمق عام ٨٩٢ هـ ، عقد عقدهما بجامع القلعة بحضور الفضة الأربعة وأعيان الأمراء والناس ووزعت عليهم « زبادى » صيفى بها سكر ، وأوعية فاكهة .

وحمل الجهاز نحو أربعائة حمال . وقيل إنه أنفق فى إعداده نحو مائتى ألف دينار . وزينت الأزبكية - حيث دار الأب - بأبهى زينة ، فى ليلة الزفاف . وركب الأمير قانصوه ، من باب السلسلة وأمامه الأمراء المقدمون « بالشاش والقماش ، - الملابس الرسمية - وبين يديهم الخاصكية بالشموع ، حتى بلغوا الأزبكية (٢) .

ولما تزوج الملك العادل طومانباى وخوند الخاصكية ، عام ٩٠٦ هـ ، خرجت من بيتها بقنطرة سنقر ، فى محفة زركش ، وأمامها روس النوب والحجاب والخاصكية ، وهم « بالشاش والقماش » . وأمامها الوالى ونقيب الجيش والزماد عبد اللطيف . وأعيان الناس والمباشرين والطواشيعة . ومعها نحو مائتين من أعيان نساء الأمراء والعظماء .

فلما وصلت إلى باب الستارة بالقلعة ، فرشت لها الشقة الخيرية تحت حوافر بغال المحفة ، ونثر عليها خفائف الذهب والفضة . وحمل الزماد فوق رأسها القبة والطير ، حتى جلست بقاعة العواميد . وأمامها فى موكبها الصرر وطست وإبريق من البلوك ومنديل كبير من الزركش .

(١) راجع تراجم هؤلاء السلاطين والأمراء فى الضوء اللامع وبدائع ابن لياس ، وفى المجلد الأول من هذه الموسوعة .

(٢) بدائع الزهور ج ٢ حوادث عام ٨٩٢ هـ ،

والموسيقا تصدح خلال ذلك . واستمر الابتهاج بقدموها في القلعة ثلاثة أيام^(١) .

ب - الأمراء :

والأمراء هم قادة الجند ، وهم الفئة التالية للسلطان في الحكم ، والمنفذة لأمور الدولة . ويغلب أن يكون الأمير مملوكا في الأصل ، تربى في طباق القلعة تربية عسكرية فصار جندياً ثم دفعت به مهارته وجده إلى صفوف الإمارة .

ويتولى الأمراء أهم مناصب الدولة ولا سيما العسكرية منها . وهم في الغالب أربع طبقات بحسب الألقاب : ١ - أمراء المائة المقدمون ، وتلك أرفع المراتب ويختار من هذا الصنف كبار الموظفين مثل نائب السلطنة والأتابكي وحاجب الحجاب . ٢ - أمراء الطبلخاناه - أو أمراء الأربعين - وهم أقل مرتبة . ٣ - أمراء العشرة . ٤ - أمراء الخمسة .

وأهم وظائفهم : نائب السلطنة ، ونائب إقليم أو قلعة كدمشق والإسكندرية وحلب ، ونائب غيبة ينوب عن السلطان إذا خرج في تجريدة مثلاً ، والأتابكي : وهو أمير الجند - القائد الأول . وحاجب الحجاب : وهو قاض له أعوان ويفصل في منازعات الأمراء والجنود وقضايا الدواوين ، وبعض القضايا المدنية . وأمير مجلس : ويشرف على الأطباء ومن إليهم وأمير سلاح : وهو رئيس رجال السلاح من ممالك السلطان ويوكل إليه الإشراف على السلاح وإعداده . وأمير آخور : وينظر في الاصطبلات السلطانية وخبولها . ورأس نوبة : ويشرف مباشرة على لماليك السلطانية . والاستادار : ويشرف على البيوت السلطانية وما تحتاج إليه من طعام وشراب وخدم وغير ذلك . والدوادار : يبلغ رسائل السلطان ويقدم إليه المظالم والبريد مع كاتب السر . وأمير جاندار : ويطلب توقيع السلطان على

المناشير والرسائل ونحوهما . وأمير جاندار : يعاون الدوادار وكاتب السر ، ويستأذن للدخول على السلطان وينظم مراكبه وغير ذلك . والجاشنكير : يعاون الأستاذار في إعداد الموائد السلطانية وغيرهما . والحازندار : يعاون ناظر الخاص في الإشراف على الخزانة السلطانية . وشاد الشراينجانه : يشرف على أشربة السلطان وفاكتهته وحلواه . وأستاذار الصحة : يشرف على المطابخ السلطانية والأطعمة والموائد . ووالى القاهرة : يحفظ الأمن في المدينة . والوزير : ينظر في الأمور المالية من تحصيل وإنفاق وتعيين المباشرين . وناظر الخاص : يشرف على أموال السلطان . وناظر الجيش : ينظر في الإقطاعات بصر والشام ويكتب عنها ويشاور السلطان فيها . والمحاسب : ينظر في شئون القاهرة ويراقب العمال والصناع والتجار ومن إليهم والمشبهين . وهناك وظائف أخرى .

وقد تنقلت الاختصاصات بين الوظائف المختلفة ، كما أبطلت بعض الوظائف أحيانا واستجد غيرها . وقد تعاد .

وقد أجمال ابن إياس ذكر هذه الوظائف التي كانت قائمة في الدولة عام ٩٢٢ هـ وعدد أفرادها على وجه التقريب فروى ما ملخصه : أن الأمراء المقدمين كانوا ستة وعشرين ، منهم من يشغلون وظائف فعلا ، ومنهم بدون وظائف فعلية والأولون تسعة أمراء ووظائفهم : أمير كبير ، أتابك ، . أمير مجلس أمير سلاح أمير آخور ، أمير رأس نوبة النوب . حاجب الحجاب . الدوادار الكبير . الأستاذار . كاشف الكشاف .

وأن نواب البلاد الشامية والحلبية هم : نائب حلب طرابلس . حماة صفد القدس . السكرك . ومن النواب من كان يشغل أكثر من نيابة واحدة حينذاك . وأمراء الطبليخاناه الموظفون : شاد الشراينجانه . الزردكاش الكبير . تاجر المالك ، أستاذار الصحة ، رأس نوبة ثان ، الحاجب الثانى ، والى الشرطة ، المهمندار ، نقيب الجيش ، شاد الشون ، الترجمان ، معلم المعلمين ، أمراء رؤوس

نوب كثيرون - قال ابن إياس : تكامل في هذه السنة من الأمراء الطليخاناه والعشرات فوق الثلاثمائة أمير .

ومن كبار المباشرين - وهم من المتعممين - كاتم السر وناظر ديوان الإنشاء . نائبه . ناظر الجيش . مستوفيا ديوان الجيش . ناظر الخاص . ناظر الأوقاف . الوزير . ناظر الدولة ، كاتب الممالك ، ناظر الإصطبل ، مستوفى ديوان الخاص ، ناظر الزردخانه ، مستوفى ديوان الجيش الشامى ، المتحدثان فى الخزائن الشريفة ، المتحدث فى وظيفة الزمامية ، المتحدث فى الديوان المفرد ، البرددار ، المتحدث فى الشئون السلطانية ، - وغيرهم من المباشرين وأعيان الدولة .

يضاف إلى من تقدم ، أعيان الخدم الطواشية والخاصكية . وهؤلاء من الجنود - لا الأمراء - وقد قال عنهم ابن إياس : « فى هذه السنة تكاملت الخاصكية ، فبلغت نحو ألف ومائتى خاصكى من مشتريات السلطان (١) .

ح - الجنود السلطانية :

وهم عصب الجيش ، وقوته العاملة . وكانوا يجلبون من خارج البلاد ، أرقاء ، يربون تربية عسكرية فى أبراج قلعة الجبل . واهتم السلاطين بجلبهم باطراد ، كما بذل بعضهم عناية خاصة بتربيتهم كالمنصور قلاوون .

وقيل إن مشتريات قلاوون منهم ، بلغت اثنى عشر ألف مملوك (٢) ، وقيل إن مشتريات ابنه الناصر محمد بلغت نحو اثنى عشر مملوك أيضا ، وبلغت جملة ممالك جيوشه نحو أربعة وعشرين ألف .

وفى الدولة الجركسية ، درج بعض السلاطين على اقتناء مجموعة من الممالك تعرف باسمه خاصة . ومن هنا تعددت طوائفهم - فضلا عن طائفة الجنس

(١) بدائع الزهور ج ٣ فى حوادث عام ٩٢٢ هـ .

(٢) تقويم النيل لأمين سائى ص ١٦١ .

الأصيل - فكان منهم الخشقدمية والبرسبائية والفايتبائية إلى غير هؤلاء . وكان ذلك في جملة أسباب تنافسهم وتنازعهم .

وفي الفصول السابقة نوهنا بمعلومات كثيرة عن هؤلاء الجنود ، فحسبنا ذلك .

د - الخلفاء :

أنهى التتار خلافة العباسيين عام ٦٥٦ هـ . وكانت سلطنة مصر قد آلت إلى أمراء المماليك . وبلغ يبيرس إلى سلطنتها . فرأى بثاقب نظره أن يعيد في مصر سيرة الخلافة العباسية من جديد ، لتكون دعامة فيها للسلطنة ويستمد منها السلطان سلطته الشرعية . فأقامها ابتداء من عام ٦٥٩ هـ . وأقر فيها أحد أعقاب العباسيين وبايعه الخلافة . ومن ثم بايع الخليفة بدوره بالسلطنة ، وكل إليه أمور المسلمين^(١) .

وتوالى خلفاء بنى العباس في منصب الخلافة بطريق الوراثة ، حتى دهم العثمانيون البلاد وأنهوا سلطنة المماليك عام ٩٢٣ هـ ، فحملوا الخليفة العباسي حينذاك - وهو المتوكل على الله - إلى القسطنطينية ، حيث تنازل - على ما قيل - للسلطان سليم الأول العثماني عن الخلافة . وبهذا تحولت عن العرب إلى الترك . وتحول مركزها من القاهرة إلى القسطنطينية^(٢) .

ولم تكن تتم بيعة سلطان من سلاطين هذه الحقبة إلا إذا بايعه بها وعهد بثبوتها إليه خليفة عصره وأوانه . وبهذه المبايعة ينعقد له لواء السلطنة ويصبح صاحب الأمر والنهي الشرعي في البلاد .

وبذلك يعتبر الخليفة - أو طائفة الخلفاء - عنصراً أساسياً من عناصر الطبقة الحاكمة ، وإن لم يكونوا من الجنس التركي أو الجرركي^(٣) .

ولا نشك في أن هذا الوضع الذي ابتدعه يبيرس بشأن الخلافة كان بارعا

(١) سلوك المقرئى حوادث عام ٦٥٩ هـ .

(٢) بدائم ابن إياس ج ٣ حوادث عام ٩٢٣ هـ .

(٣) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي . وحسن المحاضرة عند كلامه عن الخلفاء .

ونافعا، إذ أضفى على سلطنة الممالك صفة الشرعية ، وعاون على نشر الروح الإسلامية والخماسة الدينية التي كانت البلاد العربية والإسلامية في أشد الحاجة إليها ، لاتخاذها دعامة قوية فعالة لرد عادية التتار والصليبيين وأشباههم من أعداء العروبة والإسلام . كما أنه عاون على حفز علماء المسلمين وعلماء القاهرة على تجديد علوم الدين وآدابه ، ومن ثم صارت القاهرة - عاصمة السلطنة - محورا للنشاط العلمي والأدبي الإسلاميين ، واقتعدت مصر معقد الزعامة والتوجيه بالنسبة للعالم الإسلامي والعربي .

هذا كله لا يمنعنا القول إن الخليفة العباسي في مصر - بالرغم من سلطته الكبيرة ومنزلته العظيمة - كان أقرب شيئا بشيئا بمشايع الطرق الصوفية في زماننا ، لا حول لهم ولا قوة . وما هذه السلطنة أو المنزلة إلا ضرب من الشكليات فحسب ، ولم يعد الخليفة أن كان موظفا مأجورا يتقاضى مرتبه بأمر السلطان . وكان السلطان وحده صاحب الرأي في اختيار الخليفة ، وفي إبقائه في منصبه أو إقصائه عنه^(١) .

وقد يصحب السلطان الخليفة معه إذا خرج إلى قتال ، أو ذهب إلى رحلة ، أو برز في يوم زينة وحفل . وقد يستدعيه لشهود مجلس يبرم فيه أمر هام كتقرير حرب أو فرض ضريبة . ويكون استدعاؤه للحضور فقط لا للاشتراك في إبداء الرأي^(٢) .

ولم أجد فيما قرأت من تاريخ الخلفاء من كان منهم له رأى مسموع وكلمة نافذة ، بل لقد كان لبعض رجال الصوفية جاه عند السلاطين أكثر من الخلفاء - كأبي السعود الجارحي مثلا - فقد اجتمع لديه أمراء الدولة عقب هزيمة الجيش في مرج دابق عام ٩٢٢ هـ واتفقوا بمشورته على سلطنة طومان باي^(٣) .

(١) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي . وحسن المحاضرة عند كلامه عن الخلفاء .

(٢) بدائع ابن إياس حوادث ٩٢٢ هـ .

ولا نذكر إلا الخليفة المستعين بالله العباسي الذي اتفق الأمراء على أن يتولى السلطنة عقب مقتل فرج بن برقوق ، خوفاً من احتدام النزاع بين الأميرين الكبيرين شيخ ونوروز . لكن لبث هذا قليلاً ثم قفز شيخ إلى السلطنة (١) .

الطبقة المحكومة

تتألف هذه الطبقة — وهي عامة الشعب وجاهيره — من أكرثية ضخمة من السلالات العربية ، يختلط بها ويمتزج بالجرار أو الصهر أو المعاملة أو نحو ذلك من وسائل الاختلاط والامتزاج ، عدد من القبط ، وهم سلالات المصريين من قبل الفتح العربي ، وعدد من اليهود والروم والكرد والمغاربة والترك والجرس والتتار ومن إلى هؤلاء وهؤلاء من رواسب الأمم الطارئة والدول الوافدة فيما سبق من العصور وفي هذا العصر . وهم قلة بالنسبة لأكرثية العرب . ومن العسير على الباحث أن يرسم للقارىء صورة متكاملة لمجتمع هذه الطبقة على حدة ، تكون واضحة المعالم متواصلة الأطراف ، لعدم وجود المراجع المتخصصة في هذا الموضوع . وما هناك إلا متناثرات مبعثرة — قد يساق بعضها عرضاً واستطراداً في خلال كتب التاريخ كبدايع ابن إياس وخطط المقرئ وسلوكه ، والنجوم الزاهرة لأبي المحاسن ، وحسن المحاضرة للجلال السيوطي . وكتب أخرى كالمدخل لابن الحاج ، والتعريف بابن خلدون وإغاثة الأمة بكشف الغمة للمقرئ . ونحوها من الكتب .

من هذه الكتب استقمينا معلوماتنا ، ونسقنا بينها حتى استقامت . ولعل فيما نورد منها ما ينعق القارىء في تصور هذا المجتمع الذي عاش فيه أسلافنا ، وما كان لهم من أوضاع وعادات وتقاليد ، سنرى أن شيئاً منها لا يزال راسباً في نفوسنا ، ومرعياً في تصرفاتنا ، ومقدماً في مجتمعنا الحديث .

(١) بدائع ابن إياس ج ١ حوادث عام ٨١٥ هـ .

وروى المقرئى أن هذه الأمة التى يتألف منها المجتمع المصرى حينذاك كانت سبعة أقسام هى :

- ١ - أهل الدولة . وهم السلطان والأمراء وكبار الجنود .
- ٢ - أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهة .
- ٣ - الباعة وهم متوسطو الحال من التجار . ويقال لهم « أصحاب البز » . ويلحق بهم أصحاب المعاش وهم السوق .
- ٤ - أهل الفلح وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف .
- ٥ - الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم ، والكثير من أجناد الحلقة .
- ٦ - أرباب المصانع والأجراء وأصحاب المهن .
- ٧ - ذوى الحاجة والمسكنة ، وهم السؤال الذين يتسكفون الناس ويعيشون منهم^(١) .

ونلاحظ أن المقرئى لم يفصل بين طبقتى هذه الأمة ، وهم طبقتان متميزتان تختلف إحداهما عن الأخرى اختلافا كبيرا ، كما سبق بيانه أكثر من مرة . فطبقة حاكمة ، وطبقة محكومة . الأولى من الترك أو الجركس وبيدها زمام الحكم والسياسة والحرب والقوة والمال والجاه . الثانية أكثرها من العرب ، وتعيش أكثر ما تعيش بعيدة عن أسباب القوة والجاه . وظلت الأولى طيلة مدة حكمها تتجدد من خارج البلاد عن طريق الشراء . والثانية تتجدد من داخلها كما تتجدد سائر الشعوب . وظلت الأولى فى جملة معاشها مستتبدة ومستعلية عن الاندماج فى غمار الطبقة الثانية أو الامتزاج بها إلا فيما تتطلبه ضرورة الحكم ، وإلا فى بعض حوادث فردية كصاهرة مثلا ، لا اطراد لها .

(١) أغانة الأمة بكشف الغمة ص ٧٢ للمقرئى .

كما نلاحظ أن المقرئ أضاف الكثير من أجناد الحلقة إلى القسم الخامس ، وهو الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم - مع أن أجناد الحلقة هم قوم من جنود الدولة تنفق عليهم وتخرج لهم الإقطاعات . وبلغ عددهم في عهد الناصر ابن قلاوون ثمانية آلاف وتسعمائة واثنين وثلاثين فارساً^(١) .

على أن كثيراً من الفقهاء كان من المستطاع أن يكونوا القسم الثاني مباشرة ، عقب أهل الدولة الذين هم السلطان والأمراء وكبار الجند . ذلك لأن هذه الطائفة هي طائفة المثقفين في الأمة ، بل ومن بينها المتخصصون في العلم أو الأدب ، والذين تخرجوا في الفقه والحديث مثلاً ، أو في الكتابة والإنشاء والشعر . ومن حقهم أن يكونوا القسم الثاني ، بسبب أن الدولة كانت حينذاك في أشد الاحتياج إلى معونة كثير منهم ، في شتى أمورها المتصلة بالقضاء وديوان الإنشاء ، بل والوزارة والحسبة في بعض الأحيان ، ومناصب الدواوين التي تحتاج إلى كتاب لضبط الأمور والتسجيل والحساب وما إلى ذلك - هذا إلى أنه أغفل منها المنقشين والشعراء فلم يبرزهم بوضوح .

بهذا كله تعتبر هذه الطائفة « الشعبية » من رجال الدولة ومن الحكام . بل كان أهل الدولة مثلاً كالسلطان منطوياً أحياناً أو منقماً أحياناً تحت كلمة أحد رجال هذه الطائفة ممن برز في علم أو تقوى وخلق وحسن رأى - وقد سبق لنا التنويه بما كان من ذلك عند حديثنا عن الظاهر بيبرس وسلطان العلماء العز ابن عبد السلام .

ونلاحظ أيضاً أن المقرئ جعل السؤال الذين يتكفون الناس ويعيشون عائلة عليهم ، قسماً . فهل كان هذا الوضع ضرورياً في تقسيمه ؟ وهل كان هناك من الأسباب القوية ما دفعه إلى جعلهم قسماً قائماً برأسه ، وطائفة متميزة بنفسها .

(١) راجع خطط المقرئ ج ٣ ص ٣٥٠ تحت عنوان « ذكر جيوش الدولة التركية وزبها وعوائدها » .

أفـكانت من الكثرة ومن المذلة والمسكنة ، ومن فداحة ما ترهق به الطوائف الأخرى ، بحيث تلفت نظر مؤرخ كبير دقيق كالمقرئى ، فيضطر إلى جعلها قسما مستقلا ؟ قد يكون .

وعلى كل ، فالأقسام الستة الأخيرة هى التى تتكون منها الطبقة المحكومة - باستثناء أجناد الحلقة - وهم أكثر الشعب وأغلب الأمة ، وهم اليد العاملة فيها وفى ميادين حياتها كافة - باستثناء ميدان السياسة والحرب - وهم موضوع نظر الدولة وتصرفها . فعليها يقع عبء العمل فى الحقل وفى الصناعة والتجارة ، وعلى كاهلها تحمل الضرائب الدائمة والمؤقتة ، وهم الذين يكابدون مشقة الكدح فى سبيل العيش ويقاسون مرارة الحياة إن وقع جذب أو غرق أو نزل طاعون أو نحو ذلك من الكوارث العامة المجتاحة وهم - غالبا - موضع المحاكمة والمؤاخذه والمصادرة والغرم ، وما يتصل بذلك من سجن أو تعذيب أو نحوه .

وفى السطور التالية نحدثك عن بعض صور حياة هذه الطبقة وما مر بها من ألوانها الحلوة والمررة . مع العلم بأننا أشرنا عند حديثنا عن البيئة السياسية عن نصيب هذه الطبقة من الحياة السياسية وحقوقها فيها .

التعليم والجيش .

رأينا مما مر ، أن البلاد كان بها نوعان من التعليم :

التعليم العسكرى : وكان مقره طباق قلعة الجبل ، وكان مقصورا على طائفة المالك ، كما أشرنا ، ولم يسمح لأحد من أبناء الشعب بالاندماج فيه . كأن أبناءه لا يصلحون للحرب والقتال والدفاع عن الوطن . مع أن حروب مصر قديمها وجديدها برهنت على عكس ذلك . والمتبادر إلى الذهن أن هذه السياسة اتبعت لى تبق أسباب القوة والفروسية بيد الأتراك ، وبها يستبقون ملكهم ويظلمون فى البلاد سادة دون أن يتفعل أحد من أبنائها إلى الحكم .

والتعليم الشعبي : وكان مقره في المساجد والمدارس وقد أوقفت عليه الأوقاف ، ويسرت به سبل العلم لطلابه من أبناء الشعب والوافدين عليه . غير أنه لم يكن يعنى به ، لأنه حق الشعب ، ولكن زلنى إلى الله وقربى . وقد تحدثنا عن ذلك كله فى شىء من التفصيل فى الفصل السابق .

ملكية الأرض الزراعية :

شهدت الأرض الزراعية فى هذا العصر ، دورا من أضرار الإقطاع . ويقول المقرئى :

« واعلم أنه لم يكن فى الدولة الفاطمية بديار مصر ، ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر ، لعساكر البلاد إقطاعات ، بمعنى ما عليه الحال اليوم فى أجناد الدولة التركية . وإنما كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجوه وأهل النواحي من العرب والقبط وغيرهم . لا يعرف هذه الألبذة التى يقال لها اليوم « الفلاحة » ، ويسمى المزارع المقيم بالبلد « فلاحا » ، قرارا فيصير عبداً لمن أقطع تلك الناحية . إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق ، بل هو قن مابق ، ومن ولد له كذلك ، (١) .

ويبدو أن استعمار المماليك بالحكم دفعهم إلى الزعم أن « الفلاحين » لا يصلحون للجندية ولا للحكم والرياسة .

وقد انساق المؤرخ ابن إياس ، بتأثير هذه النزعة السائدة فى زمانه إلى قوله عن « شمس الدين بن عوض » ، أحد رؤساء زمانه هذا ، إنه « لما صار فى جملة الرؤساء ، لم يخرج عن طبع الفلاحين الذى ربي عليه . فكانت عمامته عمامة

(١) الخطط ج ١ ص ١٣٨ - رالأبذة : يبدو أنها تعبر عاى حينذاك ومعناها الآفة أو التقليد السبى ، ويبدو أنها باقية حتى اليوم بالمعنى المذكور .

الفلاحين ، وكلامه كلام الفلاحين . كأنه فلاح قحف ، كما جاء من وراء المحراث ، ولم ينطل في رياسته . فكان كما قيل :

فقيه ريف يقول إني برعت في العلم والرواية
فقلت لاشك أنت عندي تصلح للدرس والدراية ،^(١)

ونظام الإقطاع أن نقسم الأراضي الزراعية قطعاً ذات مساحات مختلفة يختص السلطان نفسه بنسبة منها معينة ، ويفرق البقية على الأمراء والجنود ، بحسب مراتبهم وبحسب مشيئته . أما عامة الشعب فقد حرمت ملكيتها وإيجارها .

واشتهر في عصر المماليك نظامان أو «روكان» . «الروك الحسامي» وهو التقسيم الذي أجراه الملك المنصور لاجين . «والروك الناصري» وهو التقسيم الذي أجراه الناصر محمد بن قلاوون ، عام ٧١٥ هـ . وهو الذي استمر العمل به طول العصر على وجه التقريب بتعديلات طفيفة . ويقضى بأن يختص السلطان بعشرة قراريط من أربعة وعشرين . والباقي وهو أربعة عشر قيراطاً توزع على الأمراء والجنود .

وصاحب الإقطاع يستغله بحسب مشيئته . ويستخدم الزراع المقيمين فيه . ولا يورثه لذريته ، بل يرد إلى السلطان عند موته أو إذا غضب السلطان عليه فنزعه منه .

وكان هذا عاملاً أساسياً ومباشراً في تقسيم الأمة طبقتين : الطبقة الحاكمة - السلطان والأمراء والجنود - وهي منغمسة في الترف والنعيم وحب الظهور - والطبقة المحكومة - وهي في جملتها ، مغمورة في شظف العيش وشقاء الحياة . وسترى صدى لهذا في شعر الشعراء .

(١) بدائع الزهور ج ٤ حوادث عام ٨٩٢٠ هـ .

الوظائف العامة :

وكانت الوظائف العسكرية مقصورة على الأمراء والجنود ، ومنها نيابة السلطنة والأتابكية والاستادارية وغيرها .

أما مناصب القضاء والكتابة وما إليهما ، فكانت توكل إلى النابيين من المتعلمين ، وهم أبناء الشعب المتخرجون في المساجد ، ممن عرف نبوغهم في الفقه أو الإنشاء . واشتهروا بالعلم والأدب - وقد نعم كثير من هؤلاء ، بسبب الوظائف ، بألوان من الجاه والنعم وبالقرب من الهيئة الحاكمة ، فكان لبعضهم شيء من الأمر والنهي . والكلمة المسموعة .

ومنهم من رجال الشرع : العز بن عبد السلام في عهد بيبرس . وسراج الدين عمر البلقيني في عهد برقوق ، وأمين الدين يحيى الأقصرائي في عهد قايتباي ، وزين الدين زكريا الأنصاري في عهد الأشرف الغوري .

ومنهم من رجال العلم والأدب : يحيى الدين بن عبد الظاهر في عهد بيبرس وابنه فتح الدين في عهد قلاوون . وشهاب الدين بن فضل الله العمرى وأخوه علاء الدين ، في عهد الناصر بن قلاوون . وناصر الدين بن البارزى والتقى بن حجة الحموى في أيام المؤيد شيخ .

التقاضى :

كان القضاء في العصر الأيوبي في يد رجال الشافعية . وجرى المالك على هذا في بدء دولتهم . وفي عام ٦٦٠ هـ وكان قاضى القضاة في البلاد هو تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز ، وكان متشددا في أحكامه . فرسم له السلطان الظاهر بيبرس أن يستنيب عنه في الأحكام مدرسى المدرسة الصلاحية ، وهم ثلاثة من مذاهب أخرى : صدر الدين سليمان الحنفى ، وشرف الدين عمر السبكى المالكى ، وشمس الدين محمد بن إبراهيم الحنبلى ، فاستنابهم عنه ، وحكم كل منهم بمذهبه .

فيما يعرض عليه من الخصومات^(١) فكان ذلك خطوة في سبيل تعدد القضاة .
ورأى ييبرس بمشورة بعض أمرائه ، أن ييسر على المتخاصمين سبيل التقاضى
وذلك بأن يقيم من كل مذهب قاضى قضاة ، وقد تم ذلك في عام ٦١٣ هـ^(٢)
وأمام قضاة الشرع كان المتخاصمون من أفراد الشعب ، بل من كلتا الطبقتين
ويقفون للإدلاء بأقوالهم وللتقاضى ، فيما عدا ما كان يختص به حاجب الحجاب
من أنواع القضايا .

أعمال البر :

وترجحت تصرفات السلاطين والأمراء والرؤساء ، بين الحسنات والسيئات .
وكان من حسناتهم القيام بأعمال البر والإحسان ، زلنى إلى الله سبحانه وتعالى ،
أو صدقة على الشعب ورحمة بالناس ، أو حبا في الظهور والمباهاة ، وكسبا للصيت
والحمد . أو توسلا إلى حفظ شيء من الإقطاع تنتفع منه الذرية ، وذلك بطريق
الوقف ، أو غير ذلك .

ومن أعمال البر ، إنشاء المدارس والمساجد . وإجراء الرواتب والمعونات
على شيوخها وطلابها ، ورصد الأوقاف عليها . وقد كان لذلك أثره المباشر في قيام
الحركة التعليمية ونشاط التأليف ، كما أشرنا .

ومما يذكر - في هذا المقام - أن الملك المنصور قلاوون رتب للمستشفى
المنصوري الذى أنشأه ، ألف دينار في كل يوم . فضلا عما أوقفه عليه من الضياع

(١) سلوك القرىزى ج ١ ص ٤٧٢ ، وتروى هذه الحادثة بروايات مختلفة لا تختلف في جوهرها .
(٢) السلوك ج ١ ص ٥٠١ ، ٥٣٩ - وحسن المحاضرة ج ٢ ص ١١١ ، ج ٢ ص ١١٢ -
وطبقات السبكى ج ٥ ص ١٣٥ - وصبح الأعشى ج ٤ ص ٣٤ نقلا عن النويرى في نهاية الأرب -
وبدائع الزهور ج ١ ص ١٠٣ ، وفيه أن التمدد وقع عام ٦٦٠ هـ . وراجع أيضاً المجلد الثانى من
موسوعاتنا هذه .

والأملاك والبساتين (١) .

ولما وقعت زلزلة عام ٧٠٢ هـ بالبلاد المصرية وتهدمت بسببها جملة من المباني والمساجد ، ومنها جامع الحاكم بأمر الله ، والمدرسة المنصورية ، وجامع عمرو وغيرها ، قام فريق من الأمراء بترميمها على نفقتهم الخاصة (٢) .

وروى عن الظاهر برقوق ، أنه أوقف بلدا بالجيزة ، ينفق إirاده على الحاج المنقطعين بالحجاز . وأنه خصص في كل يوم من رمضان بقرة تذبح وتطبخ وتفرق على الفقراء ومعها ألف رغيف . وأنه يفرق كل عام سبعة آلاف إردب قمح في الزوايا والمزارات ، وأنه تصدق في مرضه آخر حياته بمائتين وخمسين ألف دينار على العلماء والفقراء (٣) .

وأمثال هذا كثيرة . وقد كانت من العادات الحسنة المطرودة .

الضرائب :

فرض الضرائب على سكان البلاد ، ضرورة من ضرورات الدولة ، إذ هي مصدر من مصادر إيراداتها ، ومعتمد من معتمدات إنفاقها على مرافقها المختلفة . وقد كانت الأراضي الزراعية في عصر المماليك ، إقطاعات ، كما بينا . فكان المقطعون يؤدون عنها الخراج ، وإلى جانب ذلك كانت تفرض الضرائب على الملاك والتجار والسوقة وأهل الحرف ونحوهم . ولا شك في أن بعض هذه الضرائب كان مرهقا وظالما ، وكان يجبي أيضاً بطريقة قاسية مهينة أحيانا ، الأمر الذي كان يثار الألم والشكوى .

وكان بعض السلاطين يبتغز فرصة استعباده للخروج إلى حرب ، أو إرسال

(١) بدائع الزهور ج ١ ص ١١٦ ط بولاق .

(٢) المرجع نفسه ص ١٤٦ .

(٣) المرجع نفسه ص ٣١٤ ، ٣١٥ .

حملة تأديبية ، أو نحو ذلك ، لكي يسوغ فرض الضريبة . وربما فرضها ليسد بها
فم عدد من جنوده الثائرين عليه .

ومن الحق أن نذكر أن بعض السلاطين - كالناصر بن قلاوون - كان يلغى
شيئاً من الضرائب المقررة ، أو يخفف منها ، فيكون ذلك سبباً في لهج الناس
بالثناء عليه والدعاء له . وقد أبطل الناصر المذكور « مكس ساحل الغلة » وكان
درهمين على الأردب للسلطان ، ويلحق به نصف درهم .

ومن الضرائب - على سبيل المثال - :

١ - نصف السمسة : وكان البائع يدفع عما يبيعه بمائة درهم ، درهمين
تقريباً للدلال . فقرر على الدلال دفع درهم من الدرهمين . وهو « نصف سمسته » .
فأخذ الدلال يحتال على البائع لاستيفاء هذا الدرهم منه . فكان هذا مثارا
لشكوى الباعة .

٢ - مقرر الخواص والبغال : وهو ضريبة تجبي من أهل المدن . ومقدارها
ثلثمائة درهم عن الخياصة ، وخسمائة عن البغل^(١) .

٣ - مقرر السجون : وكان كل مسجون يدخل السجن - بريئاً أو مظلوماً -
يدفع للسجان ستة دراهم ، ولو لم يقر بالسجن غير لحظة .

٤ - مقرر الفرسان : ضريبة يجبيها ولاية النواحي فوق كل ضريبة . فمن
يدفع درهما ضريبة أصلية . يدفع مثله ضريبة إضافية .

٥ - حماية المراكب : ضريبة تجبي من كل راكب في مركب ، زيادة عن
أجر المركب .

٦ - حقوق القينات : ضريبة تجبي من أهل الدعارة ومرتكبي المنكرات .

(١) الخياصة سير يشد به حزام السرج .

٧ - مقرر المشاعلية : ضريبة يدفعها أصحاب المنازل ، نظير كسح الأفنية ومحال القذارة . وكان لهذه الحرفة عمال مخصوصون ولكل جهة ضامن - مقال أو محتكر - لا يقوم بالعمل فيها غيره . ولذلك كان يشتط في فرض الأجر^(١) .

٨ - وفي عام ٦٥٨ هـ فرض المظفر قطز - بمناسبة حروبه - على أهل مصر والقاهرة ، ديناراً على كل ذكر أو أنثى . وأجرة شهر من إيجار الأملاك والأوقاف . وطلب من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلة . ومن ضرائب الأراضي الأهلية ، ثلث ما فرض عليها معجلاً . ومن الغيطان والسواقي أجرة شهر . وغير ذلك^(٢) .

٩ - وفي عام ٨٠٣ هـ ، فرض السلطان فرج بن برقوق - بمناسبة حروبه - أجرة شهر على بلاد المقطعين وأملاك القاهرة وضواحيها . وعشرة دراهم عن كل فدان من البساتين مائة درهم .

وأخذ الجباة يفتحون المتاجر قوة واقتداراً باحثين وراء المال ، زاعمين أن السلطان يريد الاقتراض من مال التجار . فمن وجدوه من التجار وقت البحث ، أخذوا نصف ماله . ومن لم يجدوه جردوا متجره مما فيه من مال ومنسوجات .

وأخذ من أوقاف الجوامع والمساجد والمارستان المنصوري ، أجرة شهر واحد .

وقد أودى الناس في هذه الضرائب وفي جمعها أذى كثيراً ، وصودرت أموال وسجن رجال . وقام الأمير « يلبغا السالمى » الاستادار بجبايتها . وقيل إنه

(١) راجع هذه الضريبة وغيرها في خطط المقرئى ج ١ عند حديثه عن الروك الناصرى :

(٢، ٣) بدائع الزهور ج ١ ص ٩٦ ، ٣٣٠ .

أخذ لنفسه منها أضعاف ما أورده إلى السلطان . فعلم السلطان بذلك فقبض عليه وسجنه وعزله من منصبه (١) .

١٠ - وفي عام ٨٧٢ هـ ، أراد الأشرف قايتباي - بمناسبة حروبه - أن يستولى على أموال الأوقاف . فجمع مجلساً من الأمراء والخليفة المستنجد بالله العباسي وقضاة الشرع الأربعة ، وشيخ الإسلام أمين الدين يحيى الأقصرائي ، فتجادلوا في الأمر ، وأغلظ له الأقصرائي القول ، وأذره بسوء عاقبة العمل وخوفه من الله تعالى ، ونصحه بالاكْتفاء بما في بيت المسلمين من المال أولاً ، ثم يأخذ من أموال الأمراء والجند رحلى نسائهم ، ثم أخيراً من مال الأوقاف . على أن يأخذ ما يحتاج إليه فقط . فرضى السلطان مرغماً . ولكنه عاد بعد سنين فأخذ من مال الأوقاف .

إلى غير ذلك من الضرائب .

العقوبات :

وكانت هناك عقوبات متنوعة تنتظر المتهمين والمغضوب عليهم . ومن ذلك : السجن : وقد تعددت السجون وشهدت عدداً كبيراً - مع تتابع الأيام - من أمراء الدولة وقادتها وعظماؤها ومن أعيان الناس . ومن هذه السجون : الجب : وكان بالقلعة ويحبس فيه الأمراء . وقيل إنه كان خيفاً مزعجاً مظلماً كريه الراحة ، فيه كثير من الخفافيش . وقد أنشأه المنصور قلاوون عام ٦٩١ هـ ، وما زال حتى ردم بأمر ابنه الناصر محمد (٢) .

وحبس المعونة . وكان بالقاهرة منذ العصر الفاطمي . ثم هدم في عهد الناصر بن قلاوون أيضاً (٣) .

(١) بدائع الزهور ج ٢ ص ٩٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٩٥ .

(٢) الحظ . ج ٢ ص ٣٠٦ ، ٣٤٦ - واللوک ج ١ ص ٣١ - وبدائع الزهور ج ٤ حوادث

عام ٩١٩ هـ .

(٣) الخطط ج ٣ ص ٣٠٥ .

وخزانة شمايل : نسبة إلى الأمير «علم الدين شمايل» ، وإلى القاهرة في العصر الأيوبي . وهو الذى سعى فى بنائها . قيل إن هذا السجن كان بشعاً متعباً . وقد سجن فيه الملك المؤيد شيخ المحمودى - قبل سلطنته - فنذر لله إذا أبلغه إلى السلطنة أن يهدم هذا السجن ويحوله إلى مسجد . فلما صار سلطاناً هدمه وبني مكانه مسجده المشهور بجوار باب زويلة^(١) .

ومن السجون أيضاً المقشرة بجوار باب الفتوح . والعرقانة . والحجرة وهى خاصة بالنساء .

وكانت هناك فى المـدن الأخرى - عدا القاهرة - كالإسكندرية ودمياط والكرك - وكانت هناك سجون فى بيت الوالى وبعض بيوت الأمراء - وهذه الأخيرة يسجن فيها - عادة - كبار الرجال من السياسيين ونحوهم^(٢) .

الإعدام والتعذيب :

ولذلك طرق منها حز الرأس وإشهار الجثة . وقد ينادى عليها : « هذا جزاء من خالف السلطان . هذا جزاء من صنع كذا .. » ، والمنادون - وهم المشاعلية - قد يوقدون المشاعل إذا كان الوقت ليلاً .

ومنها التوسيط ، وهو طرح المحكوم عليه أرضاً ، ثم ضرب وسطه بالسيف . ومنها . استعمال الخازوق ، وهو غمود طويل مخروط الرأس يغرز فى الأرض ويثبت المحكوم عليه فوقه ، ثم يجذب إلى أسفل - ومنها : الشنق بالحبال -

ومن طرق التعذيب : التسمير فى الأخشاب ، والإشهار مع هذا فوق الدواب والقيد بالحديد والضرب بالمقارع ، وقيد الأرجل والضغط عليها بمعايير وكسارات

(١) بدائع الزهور ج ١ ص ٣١٣ - وج ٢ حوادث عام ٨٢٢ هـ

(٢) راجع فى أخبار السجون . خطط المقرئى ج ٢ تحت عنوان « ذكر السجون » - وبدائع

الزهور ج ١ ص ١٨٤ ، ١٨٧ - وج ٤ فى حوادث عام ٩١٦ إلى ٩٢

وعصر الأصداغ والأيدى . وإحراق الأصابع بالنار . ووضع خوذة محماة فوق الرأس . وغير ذلك .

الزلازل والطواعين :

ونزلت بالبلاد جملة زلازل وطواعين ، كان لها أثر كبير في مضاعفة شقائهما ، إذ تهدمت أبنية وقتلت نفوس - وقد بذلت عناية محمودة في كثير من الأحيان . فرمت الأبنية ، وأقيمت المستشفيات ، وعولج المرضى . ووريت الجثث ، وأقيمت لها المغاسل العامة . ووزعت على المصابين الأموال والأطعمة والأكسية .

ومن الزلازل الفاجعة زلزال عام ٧٠٢ هـ ، في عهد الناصر بن قلاوون . وقد شعر الناس به في أماكن متعددة ، ولا سيما في الإسكندرية ، إذ هدم أسوارها وعدداً من أبراجها ، وجزءاً من مناراتها ومآذنها . وفاض البحر فطغى على بساطينها . وفي القاهرة هدم أكثر الجامع الحاكى ، وجملة من المآذن ، وجدران جامع عمرو بن العاص ، وتشققت أجزاء من جبل المقطم ، وتهدم كثير من الدور ، وامتد الزلزال إلى دمشق والكرك والشوبك وصفد وكثير من بلاد الشام .

وعاودتهم الزلازل مرات في مدى عشرين يوماً ، حتى ظن الناس أنها القيامة . فروعوا وملك الخوف قلوبهم ، وخرجوا إلى العراء وأقاموا في الصحراء حتى هدأت الاهتزازات ، وهبت في عقبها رياح سوداء لافحة لم يطقها كثير من الناس .

وقد قام الأمراء بترميم ما تهدم وما سقط من مساجد ومآذن وأبراج وأبنية ، ومنهم الأميران « سلار » و « سنقر الأعسر »^(١)

(١) بدائع بن إياس ج ١ ص ١٤٦ - سلوك المقرئ ج ١ ص ٩٤٢ .

ومن الزلازل ما حدث عام ٥٨٨١ و عام ٥٨٨٦ ، و عام ٩١٦ هـ (١) .

وأما الطواعين والأوبئة العامة فكانت أكثر وقوعاً من الزلازل وأعم شراً منها وأعم أثراً في نفوس الناس ، حتى سجلها كثير من الشعراء ونظموا فيها القصائد والمقطوعات .

ومن أروعها ذلك الطاعون الجارف الذى وقع عام ٥٧٤٩ فى عهد الملك الناصر حسن حفيد قلاوون لقد قيل إنه مات به فى شهرى شعبان ورمضان نحو تسعمائة ألف إنسان . وقيل كان يخرج من القاهرة فى اليوم الواحد أكثر من عشرين ألف جنازة . وظل فى البلاد زمناً طويلاً حتى هلك بسببه عدد لا يحصى من الفلاحين ، فبارت الأرض وأفقرت وكثر الجـدب وعم الخراب . وأصيبت الحيوانات وهلكت الكلاب والقطط والوحوش وارتفعت أسعار السلع وزاد الغلاء ، وخرج الناس للدعاء كما يفعلون فى الاستسقاء (٢) .

وفى عام ٥٧٦٩ وقع وباء جارف جديد وفشا فى القاهرة فشوا ذريعا حتى قيل كان يخرج منها فى كل يوم اثنا عشر ألف جنازة (٣) .

وقد وقع فى عهد الأشرف قايتباى أكثر من طاعون من الطواعين العامة المهلكة ، ومنها طاعون عام ٨٩٧ هـ . والطريف أن ابن إياس المؤرخ يتحدث عن هذا الطاعون ويعجب من بطء مجيئه إذ كان قد مضى على سابقه نحو ستة عشر عاماً فكان الناس لكثرة ما وقع بهم من الطواعين اعتادوا حلولها بين فترة وأخرى ، فلما عوق هذا الطاعون فى هذه المرة ثار عجبهم من بطئه . .

ويعلل ابن إياس مجيء الطاعون بقوله : « وكان فى مدة انقطاعه عن مصر ،

(١) راجع البدائع ج ٢ حوادث الأعوام المذكورة وسلوك المقرئى ج ١ ص ٩٤٢ .

(٢) بدائع ج ١ ص ١٩١ ، ١٩٢ .

(٣) بدائع ج ١ ص ٢٢٢ .

كثرت بها الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الربا وجور الممالك في حق الناس . فكذا مما يجعل هذه الأمور من أسباب وقوع الطاعون . ولذلك قال بعد : « وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من قوم يظهر فيهم الزنا إلا أخذوا بالفناء » .

وقيل : أحصى عدد من مات بسببه فكان نحو مائتي ألف إنسان . ونظم الشيخ بدر الدين الزيتوني زجلية جيدة سجل فيها هذا الحادث (١) .

وفي أراذل عام ٩١٩ هـ ظهر طاعون لحق بالأطفال والعبيد والجواري ثم فتك بالناس فتكا ذريعاً ، وزاد خطره حتى ألقى الرعب في القلوب ، وفر بسببه كثير من الناس بأولاده وأهله إلى جبل الطور ، لأنه - كما قيل - لا يقربه الطاعون ! . قال ابن إياس : إن بعض الأطباء أشار على السلطان - الغوري - بأن يلبس في أصابعه خواتم من الياقوت الأحمر . فإنه يمنع الطاعون . فأخرج من الذخيرة فصين منه ثمينين صاغهما على قطع من الذهب خاتمين . وكان يلبسهما في المواكب . قال ابن إياس : فعند ذلك غريباً وخصوصاً من سلطان تركي (٢) .

وعلى هذا النمط أو قريب منه وقعت طواعين مختلفة في أعوام متعددة منها عام ٦٧١ هـ ، ٧٩١ هـ ، ٨٠٧ هـ ، ٨١٣ هـ ، ٨١٩ هـ ، ٨٢١ هـ ، ٨٣٣ هـ ، ٨٤١ هـ ، ٨٤٩ هـ ، ٨٥٣ هـ ، ٨٦٤ هـ ، ٨٧٣ هـ ، ٨٨١ هـ ، ٩٠٢ هـ ، ٩١٠ هـ ، ٩١٢ هـ وغير هذه الأعوام (٣) .

الجذب والغلاء :

وكثيراً ما عم الجذب وانتشر القحط في البلاد بسبب نقص الفيضان أو زيادته

(١) بدائع ج ٤ حوادث عام ٩١٩ .

(٢) راجع بدائع الزهور في حوادث الأعوام المذكورة .

أو أى سبب آخر ، وينجم عن ذلك عادة انتشار الغلاء وزيادة الأسعار . وعانى الناس بسبب ذلك كله من قسوة الزمن وضيق العيش ، الشيء الكثير . فلننظر إلى بعض حوادث الجذب والغلاء ولننظر وقع ذلك في النفوس وأثره في تصرفات الناس . وكثيراً ما وجدوا من السلطان والأمراء معاونة في هذه المحنة ومساعدة على دفعها أو تخفيفها .

ومن شر هذه الحوادث ما وقع عام ٦٩٥ هـ في عهد كتبغا المنصوري . فقد شح النيل فأجدبت الأرض وقل الثمر ، فارتفعت أثمان الحاجات ، وبلغ سعر أردب القمح مائة وسبعين درهماً وكذلك الفول ، ويبيع رطل اللحم بسبعة دراهم ، والبيضة بأربعة دراهم . والتفاح والرمان والسفرجلة كل واحدة بثلاثين درهماً . والدجاجة بخمسة عشر درهماً .

واشتد الأمر على الناس وشق الغلاء وأعجزهم الشراء ، وضجوا بالشكاية ، واختلطت عليهم الأمور ، فأكلوا السكلاب والخير والبغال والخيول . وقيل يبيع الكلب السمين بخمسة دراهم ، والقط بثلاثة دراهم . ثم أرسل الله عليهم الجراد بوفرة عظيمة ، فأقبلوا على تناوله . ويبيع منه كل أربعة أرطال بدرهمين .

وامتد الغلاء إلى البلاد الشامية والحجازية وكل ممتلكات السلطنة المصرية . وأعقب ذلك فناء عظيم ومات الناس جماعات وفي الطرقات . وقيل إن الملك العادل كتبغا كفن على نفقته في مدة يسيرة نحو مائتين وسبعين ألف إنسان . ثم كشف الله عن الناس هذه الغمة ، وأزال الكرب ، بعد انقضاء هذا العام (١) .

وفي عام ٧٣٦ هـ في أيام السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون اشتد بالناس الغلاء وعدم الخبز من الأسواق . ويبيع الأردب من القمح بسبعين درهماً . فأمر السلطان بفتح مخازن غلاله ففتحت ، ويبيع منها للناس بثمان رخيص ، فصلح الأمر

وانخفضت الأسعار وبلغ ثمن أردب القمح ثلاثين درهما وزالت الشدة (١).
وفي عام ٨٥٢هـ في عهد السلطان جقمق انتشر الغلاء وارتفع سعر القمح
والفول والشعير ، وبلغ ثمن أردب القمح خمسة دنانير أشرفية ، ثم بلغ سبعة .
وغلّت الأسعار حتى أسعار روايا الماء ، وشرقت البساتين لعدم وفاء النيل ، وذبلت
الأشجار وماتت الدواب : واضطرب بسبب ذلك جبل الأمن في البلاد ، وخرج
العامة عن شعورهم حتى اعتدوا على بعض الرؤساء . واستمر الغلاء نحو عامين
ورثى بعض الشعراء الخبز رثاء فكاهيا (٢) .

وعلى هذا الغرار ترى حوادث القحط والجذب والغلاء ومضاعفاتها وآثارها
في أعوام كثيرة منها أعوام : ٦٦١هـ ، ٧٠٦هـ ، ٧٧٥هـ ، ٨٧٥هـ ، ٨٩٢هـ ، ٩١٤هـ
٩١٦هـ ، ٩١٧هـ ، ٩١٨هـ وغيرها .

ومما يذكر أنه في غلاء عام ٨٩٢هـ كان السبب الاضطراب في أسعار النقد .
وقد اختفى الخبز من الأسواق . وأخذ المحتسب يضرب باعة الخبز لعدم إعدادهم له
وإظهاره للناس وعرضه للبيع . وهكذا ترى ملامح من المجتمع القديم لانزال
مائلة حتى اليوم في مجتمعنا الحديث .

مظاهر البذخ والمنشآت :

الحق أن هذا العصر شهد في جملة ما شهد ، تقدما في فن العمارة ومنافسة شديدة
في بناء المساجد والخوانق والسبل والزوايا والأربطة . وتشهيدها على نسق عظيم
من ضخامة البناء عادة ، وسعته وتجميله بالزخارف وتزيينه بالأدوات ذات الصناعة
الفنية الدقيقة ، وذلك كالمنابر والزجاج والثرديات . إلى غير ذلك .

وهو دليل على ما كانت البلاد تنعم به من خيرات وفيرة وثروة طائلة سواء
منها ما جبي من داخلها وما جبي من خارجها بسبب المرور في أرضها .

(١) بدئ الزهور ج ١ ص ١٦٨ ، ١٦٩ (٢) بدائع ج ٢ ص ٣١ ، ٣٢ .

على أن هذه الثروة الواسعة كان ينعم بها السلطان والأمراء ومن في حكمهم من رجال الدولة وأعيان الناس ، بينما حرمتها الطوائف الكادحة العاملة ، التي عاشت أغلب زماتها في ضيق وضنك

وبذلك على هذه الثروة ووفورها وسعتها، هذه المواقب والاحتفالات وما إليها، مما كانت تقام للسلطين أثناء تحركاتهم ورحلاتهم وأثناء استقبالاتهم وأفراسهم. وكذلك الأمراء والرؤساء .

وبذلك أيضاً عليها هذه المقتنيات النفيسة والمشتريات الغالية التي كانت تعج بها دور هؤلاء الكبار . فضلاً عن المنشآت التي أشرنا إليها . ومن بينها - بلا ريب - منشآت عامة نافعة .

وإليك مثلاً :

أنشأ الناصر محمد بن قلاوون . فما أنشأه : ترعة المحمودية الممتدة من فوة إلى الإسكندرية لتنشيط التجارة والنقل بين النيل والبحر المتوسط .

ويبلغ عدد ما شيده الناصر من المساجد نحو ثلاثين مسجداً . عدا عدة مدارس أخرى .

وقد أنفقت زوجته في سفرها إلى الحج نحو مائة ألف دينار . وأنفق هو على زواج ابنه مالا كثيراً لا يحصى . وأوقد في القصر ثلاثة آلاف مصباح . وقد مر أمامه الأشراف ومعهم ممالئهم يحملون المصابيح بأيامهم فاستغرق ذلك جزءاً كبيراً من الليل . واجتمع نساء الأمراء في القاعة الكبيرة ومرت كل واحدة منهن أمام العروس حانية رأسها ومقدمة بيدها هدية العرس . ثم وقفن صفوفاً وأخذن يرقصن وينقرن بالدف ويغنين .

ويقال إنه استهلك في هذا الزواج ١٨ ألف رأس من السكر ، وذبح ٢٠ ألف رأس من الماشية .

هذا وكان الناصر يصدق على ممالئهم ويكثر عطاءهم حتى أصبح مقام المملوك (م ٢١١ - عصر المماليك)

عنده مما يرغب فيه ويسعى عليه ، وحتى خيكت بسبب هذه العطايا القصص والحكايات الطريفة .^(١) وصار لديه من الممالك نحو ٢٥ ألف مملوك كما أشرنا .

العادات والتقاليد:

نسجل فيما يلي ألواناً من عادات هذا المجتمع وتقاليد الناس فيه بما يضي عليه أضواء تكشف لك عن سلوكهم في الحياة وطرقهم في المعيشة ومستواهم من الفهم والحضارة .

ولا نزع أننا بكل ما كتبنا وما نكتب نكون قد وفينا الحديث في هذا الموضوع ، وإن نكون قد كشفنا لك كل ما يتعلق بهذا المجتمع وأهله والعائشين فيه ، حتى نستطيع أن نتصوره ماثلاً أمامك بجميع معالمه وملاحه وأطرافه وتفصيله وظلاله . كلا لا نزع ذلك ، وإنما هي محاولة لتوضيح صورة تقريبية لهذا المجتمع تستطيع من ورائها تصوره تصوراً مريحاً مقبولاً تطمئن إليه ، ومناسباً لهذا البحث الطويل .

فمن هذه العادات والتقاليد ، سوى ما مر :

في الخطبة والزواج :

ليس لدينا مرجع واف مفصل يوضح عاداتهم في هذا الموضوع ، مع حيويته وتكراره وضرورته للحياة . ولكننا اعتمدنا على تمثيلية كتبها شمس الدين بن دانيال الموصلي في كتابه « طيف الخيال » ، في فهم هذا الموضوع وتصوره . والتمثيلية ، وإن لم ترق إلى مستوى التاريخ المحقق ، تلقى أضواء كاشفة تبين من ورائها حقائق لا بأس بها ؛ يستطاع الاعتماد عليها والوثوق بها ، عندما نفتقد الوثائق التاريخية . بل لعل في التمثيلية من مظاهر الدقة والصدق ما يدعو إلى الوثوق بها والطمأنينة إليها فيما توضحه .

(١) تاريخ دولة المماليك للسيد وليم موير من ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ .

ولا يبعد ما تصرّره التمثيلية في هذا الباب ، عما كان يجري به العرف في بلادنا إلى وقت قريب ولا يزال يجري به حتى اليوم في بعض الأوساط والبيئات .
ذلك هو أن يكلف الخاطب المتقدم للزواج ، « خاطبة » ، وهي امرأة عجوز عادة لها صلة بالناس ومعرفة بالأسر ، ولها حيل كثيرة ومنافذ متعددة تسلك منها للوصول إلى غايتها . ولها مقدرة في ربط الأمور بعضها ببعض ، وجلب أخبار العذارى والسيدات المتعرضات للزواج ، ووصف ما لهن من ملاحاة وأخلاق وما يملكن من أموال ...

يكلفها المتقدم للزواج بأن تختار له واحدة من هؤلاء . ويشترط عليها شروطا كثيرة في الطول والعرض واللون والحسن والخلق والمال والمعرفة والخبرة وما إلى ذلك من شروط .

وما عليها إلا أن تنطلق ساعية باحثة تتلبس له طلبته بين الأسر ، وتتحسس له غايته بين العذارى ، حتى يقع خاطرها الكريم وذوقها السليم على واحدة أو أكثر تتحقق فيها الشروط ، وتكتمل فيها الأوصاف ، فتنتقل بأخبارها إليه وتقص قصتها عليه ، دون أن يراها أو يشاهدها . وتؤكد له هي أنها كاملة الأوصاف .

وربما صدقها ووقع كلامها في نفسه موقع القبول ، فيقدم على طلب يدها من ذويها ...

فإذا تم الاتفاق بين الطرفين حدد موعد لعقد الزفاف والدخول ، وأخذت العروس أو أهلها في إعداد العدة وتجهيز الأثاث وما إلى ذلك .

وفي الموعد المحدد يجتمع الناس ، ويحضر العاقد والشهود ، فيخطب العاقد خطبته التقليدية ويثنى على العروسين ويذكر المهر معجلة ومؤجلة . - ويبدو أن المغالاة في المهور كانت من تقاليد الزمان وعرفه . إذ أن المهر كان في هذه التمثيلية : « مائة معجلة وأربعة وأربعين مؤجلة » ...

وعند تمام العقد يطلق البخور ويرش ماء الورد على الحضور . ثم ينفج الزوج الخاطبة بعض المال لتشتري الشمع وتؤجر الماشطة وتحضر المغاني وتم الجلاء....

وفي موعد محدد يفد الزوج في وسط جلبة وتدوية. ويدخل إلى العروس وسط الجمع ، ويكشف عن وجهها النقاب . . فإما تبسدى له قمر السماء وشمس الضحا ، فاستراح واطمأن ، ودعا للخاطبة وشكر لها حسن سعيها ولطيف وعيها ، ويستبشر بحياة موفقة سعيدة ، وأيام طيبة فريدة . وإما يتبدى له شيطان له مشافر الجمل ، وأجفان مكحولة بالعمش وخطود مزرجة بالنمش . . . الخ فيثور ويستخط ويتشاءم . . الخ .

ولاتخلو حفلات الزواج - كما لاتخلو اليوم - من حمقى من الرجال أو النساء أو الأطفال يثيرون الشغب ويحدثون الضجيج ، وبسببهم يذسا سوء التفاهم بين الأطراف ، فيعكرون بذلك جو الزفاف .^(١)

أوقات السمر والمغنون والمغنيات :

وكانوا يسمرون في مناسبات كثيرة ، سواء منهم الحاكم والمحكوم . ومن المناسبات حفلات الزواج والختان ، وكذلك نزول السلطان إلى إحدى المنازه خارج القاهرة كالمطرية والأزبكية أو المقياس أو الأهرام . وكذلك تمام إنشاء إحدى المؤسسات النافعة كمسجد أو قصر وحديقة . أو ختام موسم فصل لعب الكرة .

ومن المعتاد إعداد أحواض كبيرة تملأ بشراب السكر والليمون ، ويسقى منها الناس ، أو توزيع لون من ألوان اللبن . أو مد موائد الأطعمة الشهية .

(١) راجع طيف الخيال لا بن دانيال الموصلى مخطوط بالمكتبة التيمورية .

وكان لبعض السلاطين مضحكون يضحكونهم في مثل هذه المناسبات . وقد روى ابن إياس أن الغورى كان له نديم يضحكه يدعى « الشنقى العجمى » يلعب بالصحون النحاسية والجريد .^(١)

وروى المقرئ أن الناصر محمد بن قلاوون كان له مضحك يسليه في مجالسه^(٢) وكانوا يستعينون في حفلاتهم وسمهم بالطبل والزمر والرقص وبالمغنين وبالمغنيات وضاربى آلات العزف ، ويطلقون على المغنى لفظ « الرئيس » وعلى المغنية « الرئيسة » ، وعلى المضحك « اللاعب المسلى لفظ « الرئيس » أيضاً .^(٣) كما كانوا يتلمهون أحياناً بإحراقة النفط أو بمشاهدة خيال الظل أو سماع فرق التنكيت . وينصبون للمغنى « دكة » يجلس عليها وحوله المستمعون . - وقد يصحب هذا كله تناول الشراب .

وقد حظى العصر بعدد من المغنين والمغنيات ، يبدو لنا مما قاله عنهم المؤرخون استطراداً أن كثيراً منهم كان ذا مقدرة فائقة في فنه وذا صوت جميل ، كما كان قديراً على تأليف الأغاني وتلحينها في آن واحد ، فاجتمع فيه الهبات الثلاث . مثل نور الدين على بن رحاب ، والصلاح الثعلبى القوصى وابن الفرداح . ومما يسر اللهور والسمر كثرة المقتنى من الغلمان والجوارى الأرقاء ، وانتشار هذه الظاهرة في بيوت كثيرة من بيوت الحكام والرؤساء والمتشبهين بهم .

وقد روى ابن إياس أن السلطان المنصور محمد بن المظفر حاجى ، لما خلعه الأتابكى يلبغا العمري من السلطنة ، أدخله دور الحريم بالقلعة ، فاستمر مقبياً في غبوق وصبوح لا يفيق من السكر ساعة . وعنده جوقة جوار مغنيات نحو عشر يدقن بالطارات عند الصباح والمساء .

وروى أن هذه كانت عادة رؤساء مصر تغنيهم المغنيات . وآخر من فعل ذلك

(١) الدائع ج ٤ حوادث عام ٩٢١ هـ (٢) الخطط ج ١ ص ١٤٦

(٣) راجع طيف الخيال لابن دانيال الموصلى .

(٢) راجع في أخبارهم ابن إلياس ج ٢ حوادث عام ٨٦٢هـ، ٨٧٥هـ، ٩٠٤هـ، ٩٠٥هـ، ص ٧٦، ٩٠٦هـ، ٩١٦هـ، ٩١٧هـ، ٩١٨هـ، ٩٢٠هـ، ٩٢٢هـ، ٩٢٦هـ، ٩٢٨هـ، والطالع السعيد رقم ١٩١٣هـ، وبتأريخ ابن إلياس ج ٣ ص ٣١٢ — والضوء اللامع ج ١ رقم ٣٢ — وج ٢ رقم ٥٧، ٢١٣

في الختان :

وكلوا يعنون بالختان عناية كبيرة ولا سيما ختان الذكور ، ويقومون من أجله الحفلات . وكلها عظم مكانة أهل الحفل عظم اهتمام الناس به : فتزين وجوه المنازل والخوانيت المجاورة لمنزل الأسرة المحتفلة . وتوقد الشموع ويقبل الناس للتهنئة وتقدم الهدايا ويغنى المغنون والمغنيات وتمد موائد الأطعمة والحلوى وقد تعرض بين الألعاب المسلية .

وروى ابن إياس قصة ختان أولاد القاضي كاتب المر ابن مزهر . وكانت عام ٨٨٦ هـ بمنزله في بركة الرطلى . فأمر المنزل كثير من الأمراء المقدمين والعشرات وزاره الأمير جمجمة العثماني - وكان إذ ذاك ضيفاً في مصر - وقضى الليلة هناك .

وأوقد الناس منازلهم وجملوها بالقناديل حتى انقلب الليل نهراً لشدة الضوء . وانتشرت الزينات هنا وهناك حتى جذبت إليها الأنظار فتوافد الناس نحوها زمرا للتفرج بمشاهدتها . وامتلات بركة الرطلى بالمراكب وركابها . وجلس المغنى « ابن رحاب » وغيره من المغنين والمغنيات يطربون الحضور . بأصواتهم الشجية وريح بائعو الحلوى أرباحاً وفيرة في تلك الليلة . وبعث القاضي ابن مزهر إلى كل بيت في البركة عشرة أرطال من الزيت ، ومائدة فيها مالد وطاب من الطعام . وقد عني القاضي ابن مزهر بهذه الليلة عناية كبيرة ، بناء على أمر السلطان قايتباى ، إذ كانت له عناية بالأمير العثماني جمجمة . فأحب أن يبهجه بالمبالغة في هذه الحفلة (١) . . .

ومن أمتع ليالى الختان كذلك ، ليلة ختان ابن الملك الأشرف قايتباى نفسه ، وكان ذلك عام ٨٩٤ هـ وفي شهر رجب . وقد استمر الحفل به سبعة أيام متصلة . وزينت طرقات القاهرة وأسواقها ، واجتمع سائر المغنين لإطراب

بالصباح كأنها صيحة الوداع . ويختلطن بالرجال حافيات . ويصحب الجنازة أحيانا « كفارة » ، وهى خبز ونحوه ، يوزع على العامة تصد الصدقة أو الظمور وقد يذبحون خرافا على القبر يوزعون لحومها .

وفى طريق الجنازة تفرش الحصر أو البسط ، يجلس عليها القراء يقرءون القرآن الكريم أو الأوراد أو نحو ذلك . ويتقدمها طوائف من محترفى القراءات يسمونهم « الفقراء » . ويصلى على الميت فى مسجد حيث يكون بعض الناس جلوسا فى انتظاره . ثم يسعى به إلى قبره فيقبر ، وينادى « المدير » بالتقدم للعزاء .

وتقام فى دار الفقيد - عادة - ثلاث ليال تقرأ فيها آيات الذكر الحكيم ، ويسعى الناس إليها لتقديم العزاء . وكثيراً ما يعنون باليوم الثالث للوفاة . وأيام الخميس الثلاثة الأولى ، ويوم الأربعين . فيتبادر النساء لتقديم العزاء ثانياً ، ويصحن ويولوان ويلطمن الخدود ، وهن لابسات الملابس السوداء أو الزرقاء . ويسمعن النادبات وهن يندبن الفقيد ويلطمن الخدود عليه ، ويسودن الوجوه ويحشون التراب فوق الرؤوس ويدقن الدفوف ، وفى رقابهن غللات سود .

ومن المعتاد تقديم الطعام للمعزين والمعزيات ، وتجميل القبور ، وبناء الدور بجوارها للإقامة والمبيت أحيانا ، حيث يطعمون ويشربون ويوقدون الشموع والقناديل ، ويختلط الرجال بالنساء .

وحاول بعض السلاطين - مثل بيبرس والغورى - وضع حد لهذه المفاسد ، فلم يوفق (١) .

فى الموالد والمواسم :

واطردهب المصريين لإقامة الموالد والاحتفال بالمواسم الدينية ، من لدن العصر الفاطمى ، للنفع والتسلية وإشباع النزعة الدينية . ومنها مولد الرسول عليه

(١) راجع المدخل لابن الحاج ج ١ ص ٢٥٠ ، ج ٣ ص ٢٣٣ - وبدائع الزهور ج ٤ حوادث

عام ٩١٠ هـ ، ٩١٧ هـ - ج ٢ ص ٢٩٥ .

الصلاة والسلام كل عام . ويهتم السلطان بإحيائه ، ويجتمع في ليلته الكبيرة مع القضاة الأربعة وأعيان الأمراء والمباشرين في حوش القلعة . وقد تنصب لهم خيمة كبيرة مزدانة ، وتمتد موائد الطعام ، ويمنح السلطان بعض الخلع أو الوظائف ، بهذه المناسبة .

ويحيون مولد الإنبائي في المحرم أو صفر أو ربيع الأول من كل عام . وتضرب من أجله نحو خمسمائة خيمة في الجزيرة تجاه بولاق . وتقام بها سوق تجارية مؤقتة للبيع والشراء .

وفي عيد رأس السنة الهجرية ، ينزل السلطان - عادة - إلى ميدان القلعة ، ويتقدم إليه القضاة والأمراء بالتهنئة ، وكثيرا ما تمتد الموائد بالأطعمة الشمية في ذلك اليوم للمهنئين^(١) .

في شهر رمضان :

وكان رمضان من أجمل المواسم الدينية التي يحتفلون بها . وإذا اقترب أطلق السلطان سراح بعض المسجونين ، وقضى ديون بعضهم وقد يجمع بين المتخاصمين فيصلح بينهم . واشتهر الغوري بكثير من هذه الصنائع .

ويعد ناظر الحسبة أو محتسب القاهرة ، كميات من اللحم والغنم والدقيق والسكر وغيرها ، لتفريقه على الفقراء والمحتاجين . وثبتت هذه العادة ، حتى أصبحت بمثابة ضريبة تقليدية يدفعونها . ومن هرب من دفعها ، تكلم الناس عنه ولهجوا بهروبه .

ويتبرك السلطان بقراءة صحيح البخارى . فيأمر القراء بقراءته في قصره ، ثم يختم في القصر الكبير بالقلعة بحفل مشهود يجتمع فيه الأمراء والقضاة والعلماء والأعيان . ويوزع الهبات ونحوها .

(١) راجع المدخل ج ٢ ص ٢٢١ - والبدائع ج ٤ حوادث عام ٨٠٩٣ إلى ٨٠٩٦ هـ .

وقد يقرأ البخارى فى الأزهر أو جامع القلعة ، بدلا من قصر السلطان . كما أنه قد يختم بفنائها .

وتنبأ خلع العبد . وهى أثواب يوزعها السلطان على من يختاره من الناس . وتزف هذه الخلع فى أواخر رمضان فى موكب حافل ، يتقدمه ناظر الخاص .

ويستعين الناس على الإشعار بدخول وقت السحور بالأذان فى المساجد ويقولون عبارات متعارفة حينذاك ومنها : « تسخروا . كلوا واشربوا . » وآيات من القرآن الكريم كقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ، وقوله تعالى : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . » ويتبعون ذلك بالتغنى وإشاد القصائد . ويستعينون مع الأذان المذكور ، بالدق على الطبول ، والمناداة فى الطرقات ، وقرع الدور على سكانها ، وبإضاءة المصابيح ، حتى ينتهى وقت السحور ، فتطفأ ، فيعلم الناس دخول وقت الفجر (١) .

فى عىدى الفطر والأضحى :

ويخرج السلطان بموكبه فىهما فيصلى بجماعه الذى أنشأه ، أو بغيره ، وفى صحبته الخليفة والقضاة والأمراء وأعيان الناس وبعد عودته يصعدون تهنئته . ويهب خلعه لمن يشاء منهم .

وكان من عاداتهم أن ينزل الوزير من القلعة فى يوم عيد الفطر ، إلى داره ، فى موكب حافل . فيركب بغلته ، ويضع على رأسه « طرحة » بيضاء ، وتحت عمامته « عرقية » مذهب ، تسمى « الطاسة » ، ويتقلد سبحة بأكر من العنبر . وتسير أمامه « الأوجاقية » بثياب حريرية صفراء تعرف « بالتريات » ، ويقودون

(١) المدخل ج ٢ - والبدائع ج ٤ ، حوادث عا ٥٩١١ ، ٥٩١٣ ، ٩١٨ هـ .

جنائب الوزير ، وأمامه « مبخرة السلطان » وبها البخور . - وقد استمرت هذه العادة زمناً ثم أبطلت . وآخر من فعلها من الوزراء ، صاحب علاء الدين على ابن الأهناسي المتوفى عام ٨٧٠ هـ . ثم اضمحل أمرها وانقضى . حتى أصبح الوزير « تغرى برمش » في عهد الغوري إذا نزل من القلعة ، لا يشعر به أحد .

ويغلو الناس في العيدين ، في الخروج إلى المقابر رجالاً ونساء ، ويقع هناك مفاسد . ويغالون في عيد الفطر في إعداد الكعك والخشكنان - البسكويت - والبسندود والسمك المشقوق - لعله البسكالاه - ويحشى الكعك بالعجوة ويرش عليه ماء الورد . ويشتري النقل . وكثيراً ما تعاني الأسر المشاق بسبب ذلك ويحتدم بينها النزاع .

وفي عيد الأضحي يتبارون في ذبح الأضاحي . وقد يخالفون السنة فيذبحون قبل الميعاد الشرعي .

وتطوف جماعات من العذارى يسمين « بنات العيد » ، في الطرقات والأسواق على التجار والعلماء وعلى المنازل ، يجمعن ما جادت به المسكرم ، ومعهن الدفوف يدقن عليها « بغيرين »^(١) .

في عيد النوروز :

وفي أول السنة القبطية - وأول شهر توت - كان من أهم المواسم في مصر . وفيه كان يحمل إلى أكبر أقباطها هدايا كثيرة من أصناف الفاخرة ، كالرمان والموز والسفرجل والتفاح الشامي والبلح والعنب والتمر القوصي والبطيخ الصغير والرطب والخوخ المشعر ، وقدر « الهريسة » المحشوة بلحوم الدجاج ، وغير ذلك من الحلوى .

(١) المدخل لابن الحاج ج ١ - وبدائع الزهور ج ٤ حوادث عام ٩١٢ هـ ، وكل عام في حوادث رمضان - ج ١ ص ٢٦٠ .

ويتعرض فيه طوائف من الرعايا لأعيان الناس ليستزوا منهم ضريبة خاصة ،
بهذه المناسبة ، ومن يمتنع يؤذونه برش الماء الساخن عليه ، أو قذفه بالبيض النيء ،
أو صفعه بالنعال والأخفاف .

وقد شدد السلطان برقوق على مرتكبي هذه العادة ، حتى أبطلها عام ٧٨٧ هـ .
وكان بعض الناس ينتهز فرصة هذا العيد للهو المحرم بشرب الخمر أو الزنا ،
وربما بالقتل (١) .

في عيد وفاء النيل وكسر الخليج :

وإذا بلغ النيل حد الوفاء ، احتفلوا ثاني يوم وفائه ، احتفالا شائعا ، وكسروا
سد الخليج الكبير . ويقوم السلطان برياسة هذا الاحتفال وبكسر السد ، وكثيرا
ما يقوم مقامه نائب السلطنة أو الأتابكي أو غيرهما من كبار الأمراء .

ويركب سفينة كبيرة - تسمى « الحراقة » وسميت أحيانا « الذهبية » - تتبعها
سفينة أخرى برجال الدولة ، والناس متجمعون للرؤية والتفرج - إلى جهة
مقياس النيل ، فيطلونه بالخلوق - وهو نوع من العطر - ثم يكسرون السد ،
فيجري ماء النيل أمامهم في الخليج ، ثم يعودون فيلهون ويطعمون ويشربون .

وقد يأمر السلطان بقراءة القرآن بجوار المقياس قبيل الوفاء . وقد يبيت
هناك قضاة الشرع . وقد تمد الموائد وتخلع الخلع ، وتعرض الألعاب المختلفة
بهذه المناسبة .

في موسم الحج وخروج المحمل :

إذا اقترب موسم الحج في كل عام ، أخذ الناس والدولة في الاستعداد له ،

(١) راجع بدائع الزهور ج ١ ص ٢٦٣ - وخطط المقرئ ج ٥ ص ٣٨٩ تحت عنوان « ذكر
النوروز » - واللوك ج ١ هامش ص ١٣٦ .

ولخروج الحجاج . وكان من أهم مظاهره ، إعداد المحمل والخروج به إلى الأقطار الحجازية ، ومعه هدايا مصر وكسوة الكعبة المكرمة (١) .

وقد قال ابن فضل الله : « يخرج الراكب من مصر بالمحمل السلطاني والسبيل المسبل للفقراء والضعفاء والمنقطعين ، بالماء والزاد والأشربة والأدوية والعقاقير والأطباء والكحاليين ، والمجهرين والأدلاء ، والأئمة والمؤذنين ، والأمراء والجنود والقضاة والشهود ، والدرارين والأمناء ، ومغسل الموتى ، في أكمل زى وأنتم أبهة .

وإذا نزلوا منزلاً أو رحلوا مرحلاً ، تدق الكتوسات وينفر النفير ، ليؤذن بالرحيل والنزول ، (٢) .

وللحج ركبان : الراكب الأول ، وراكب المحمل . ويعين السلطان لكل منهما أميراً ويصاحبه عدد من الجنود ، ويخرج في صحبته من يشاء من الحجاج . ويخرج الراكب الأول مبكراً عن ركب المحمل .

ويعرض ركب المحمل على السلطان مرتين . الأولى في رجب والثانية في شوال غالباً . وبهذه المناسبة يقوم « الرماحة » - طائفة من الجنود - بألعابهم العسكرية التي تتم عن فروسية ومهارة ، وهم في ملابس حمراء .

ويحتفي الناس بعرض المحمل حفوة بالغة ، فيزينون منازلهم ومتاجرهم بالمنسوجات الملونة والقناديل والشموع وغير ذلك . وينشدون الأناشيد ويغنون الأغاني ويبدلون المعروف (٣) .

(١) تقويم النيل ، في ترجمة الظاهر بيبرس .

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٤ .

(٣) راجع ما كتبتاه من المحمل والحج في المجلد الثاني من هذه الموسوعة ، وراجع أنباءهما في حسن المحاضرة وتقويم النيل وبداية الزهور ونحوه ، عند الحديث عن حوادث رجب وشوال في كل عام .

في الألعاب :

وانتشرت جملة من الألعاب للتسلية أو إظهار المهارة ، أو الكدية والاستجداء ومن ذلك :

ألعاب الرماحة : « وهى ألعاب عسكرية تنم عن فروسية ، يقوم بها فريق « الرماحة ، بملاسمهم الحراء أثناء عرض المحمل . ومن اهتموا بها الظاهر برقوق والأشرف الغورى .

لعب السكره . واهتم بها السلاطين والأمراء وزاولوها بأنفسهم فى مواسم معينة . على ظهور الخيل .

تعليم الحيوانات : واهتموا بتربية الحيوانات لتعليمها ألوانا من الأصوات والحركات . ويقول ابن خلدون : « ولقد بلغنا فى تعليم الصنائع عن أهل مصر . غايات لا تدرك . مثل أنهم يعلمون الحمر الإنسية والحيوانات العجم من الماشى والطائر ، مفردات من الكلام والأفعال يستغرب بدورها ، ويعجز أهل المغرب عن فهمها ، (١) .

طيف الخيال : وانتشرت عندهم لعبة « طيف الخيال ، أو نسيمه نحن « خيال الظل ، . وهى شخص تترك على شاشة فيظهر ظلها عليها بوساطة الضوء . وتمثل قصصا وحكايات . ويحركها وينطق عنها أشخاص ذوو معرفة بهذا الفن . - ومن أروع أمثلة قصص هذه اللعبة ، تمثيليات « طيف الخيال ، لابن دانيال الموصلى . ومن بينها تمثيلية يعرض فيها ملعبو الحيوانات - الدبة والأسود والفيلة والقردة ... الخ - فضلا عن أصحاب الحرف - كالتأطبة ، والمضحك واللاعب على الحبل ... الخ (٢) .

في المجون والتبذل واللمو :

لم يبرأ هذا العصر - كغيره - من النزوع إلى المجون والتبذل ، ومن تناول أسباب اللمو والتسلية . وقد رأينا فيما مر ، ألوانا من ذلك . ومنها أيضا .

الخروج إلى المنازه : كالسير في النيل بالزوارق . والريضة على شاطئيه ؛ والذهاب إلى البساتين ؛ في جزر النيل وغيرها . والارتياض في البرك وعلى شاطئها وفي حيفا .

ومن أحب المنازه إليهم جزيرة الروضة ، والأزبكية وبركة الرطلى . وكانت كل منها مليئة بأسباب اللمو وأدوات المجون . وفيها الأطعمة والأشربة ، والظلال والمستكنات والمناظر الجميلة .

ويبدو أن تعاطى الخمر والحشيشة كان شائعا في العصر المملوكى شيوعا كبيرا . وكان لتعاطيها أماكن مقصودة ومحال منتشرة معهودة . تلتبس غالبا في الليل . وشاركت بعض ديارات النصارى في ذلك بمقدار^(١) . كما كان بعضهم يهيم لذلك مجلسا في داره أو حديقته ، ويدعو إليه من يشاء من أحبائه . ويزود بما يلزم من الطعام ويردق من الحلوى ويستحسن من التذمان .

ولا ريب أن انتشار الرق حينذاك ، وسهولة اقتناء الرقيق - غلاما أو جارية - عاون على فشو هذه المفاسد ونشر جو من الإباحة والتحرر من قواعد الخلق والدين . ولقد فاضت بذلك بيوت كثير من الشعراء .

ولعل حياة الكبت السياسى الذى كان يعانيه الشعب ، والذى ولد فيه اتجاهها إلى الشكوى والأنين ، وحياة الحرمان من خير بلاده وبرها وثمراتها ، التى دعتة إلى التآلم المكتوم من ضنكه وشظفه ، لعل ذلك كله هو الذى دعاه أيضا إلى أن

(١) راجع مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٥٨ ، ٣٦٦ في دير بلوزان ودير شمران وغيرها من الديارات .

يتنفس ويتفرج عن طريق اللهو والمجون والتبذل ، تعويضاً عن كبتة وحرمانه . وكثيراً ما يعمحو الإغراق في المجون آثار الشجون - وامتزج ذلك في حياته وفي أدبه بضروب من النكت والفكاهات والسخریات .

وقوى هذا التلمى ، بروز النساء إلى الطرقات متبرجات بزينة . وقصدهن أحياناً إلى الأسواق والحمامات العامة ، وإلى المنازه ، ونزلهن إلى البرك والاعترسال فيها ، فيثير ذلك كله في الرجال ما يثير ، ويدعوهم إلى الغزل والإغراء .

وحاول الظاهر بيبرس وغيره ، إبطال كثير من مفسد العصر ومبازله ، فلم يصب إلا نجاحاً مؤقتاً . ويقول المقرئ :

وكتب السلطان - يعنى الظاهر بيبرس - بإزالة الخمر وإبطال الفساد والخواطىء من القاهرة ومصر وجميع أعمال مصر . فظهرت كلها من المنكر . ونهبت الحانات التي جرت عادة أهل الفساد الإقامة بها . وسلبت جميع أحوال المفسدات وحسن حتى يتزوجن . ونفى كثير من المفسدين . وكتب السلطان إلى جميع البلاد بمثل ذلك^(١) .

النزاع بين الطوائف والأجناس :

نقصد بالطوائف والأجناس ، الأتراك والجزاكسة الحكام ، والعرب المسلمين الذين يكونون الأكثرية الشعبية ، والقلبة القبطية وأوشاب اليهود والروم ومن إليهم من رواسب الأمم قبل الفتح العربى وبعده . ويضاف إليهم بعض المتعممين من القضاة وأشباه القضاة من الذين بلغوا مرتبة الرياسة والحكم . نستطيع القول إن النزاع بين هذه الطوائف والأجناس كان على أشده ،

(١) السلوك ج ١ ص ٥٧٨ حوادث عام ٥٦٦٧ هـ .

أو قل إن العداوة والبغضاء كانت على أحرها . ولا سبيل إلى الالتقاء أو التفاهم أو المهادنة .

وليس من الضروري أن يتخذ النزاع طريقا عمليا أو يسلك مسلكا فعليا ، فيجتدم ويشتد الصدام في حوادث ووقائع معينة ، حتى نستدل بذلك على وجوده . وليس من الضروري أن تقفز العداوة والبغضاء من الصدور والنفوس إلى الأيدي فتشابهك ، وإلى الألسنة فتتلاحى ، حتى نستدل بتشابهكما وتلاحيهما على وجود العداوة والبغضاء .

وإنما مما لا ريب فيه أنه كان هناك نزاع ، وكانت هناك بغیضة . فالأثراك والجرأكسة حكام مسلطون ورؤساء غاشمون ، احتازوا السلطة قوة وقهرا ، وملكوا لأنفسهم أسباب القوة والقهر . واحتازوا المال والجاه والثراء الضخم وهيثوا لأنفسهم أسباب احتيازها . وعاشوا في ترف ونعيم ولذة واستعلاء ، وحرصوا دائما على أن يعيشوا كذلك وعصموا حياتهم من أن يعتريها هوان أو ذلة ، أو يلحقها شظف أو حرمان .

وبينما هم كذلك إذ نرى الأغلبية الشعبية تعيش في حرمان وشظف ، بل وفي هوان وذلة . ولا تستطيع أن تجلب لنفسها الخير ، أو تهيه لعيشها الرخاء ، أو تجنب حياتها أسباب الشقاء . فلا رية حينذاك في حقها على هؤلاء الحكام ، وكرهيتها لهم . تكبت هذا حينا وتبديه حينا ، وترفق في كبتة وتخضع نفسها ، وتتلاطف في إبدائه وتفكه أملها . فالنزع إذن قائم ، ولكن بحاله النفوس وميدانه الصدور ، لم يتخذ قط مظهرا له عمليا إيجابيا هادفا إلى تغيير أو تحوير أو تحويل . وسترى مصداق ذلك في بعض ما هجست به خواطر الشعراء ، وقد آمنوا مكر الحاكين واطمأنوا إلى أن ما يهجون به لن يرقى إلى أسماعهم ولن يطرق آذانهم .

ولم يكن الأقباط يستخدمون في دواوين ، فاستخدموا . وأصبح لهم حظوا واضع في هذه الدواوين . وبخاصة في ضبط حسابها وإيرادها ومصروفها وصرف رواتب

موظفيها . ويبدو أنه لم يكن ثمة رقابة قوية من الأتراك على هذه الدواوين ومحاسبة كتابها وموظفيها على ما يأخذون وما يدعون ، وعلى ما يخطئون فيه أو يصيبون . فكان ذلك أدعى لعبثهم وأدنى لفسادهم فأهملوا وسرقوا وحرموا وغشوا . وتداعى أفراد كل طائفة بعضهم إلى بعض ، فتعارفوا وتآمروا . فكان من وراء ذلك طوائف وأجناس ، منهم المستأثرون ومنهم المحروم . ومن بينهم الغاصب ، ومن بينهم المغضوب . وبسبب ذلك كله ثارت العداوات واحتدمت الخلافات . وصارت الدواوين مراحا لفوضى ناشبة وقلق مستقر .

تلحظ ذلك كله فيما سنعرضه عليك من شعر البوصيرى ، عند حديثنا عن أثر هذه البيئة الاجتماعية في شعر شعرائها . فقد قدم إلينا وثيقة لا تكذب ، ونصاً لا يريب .

عصائب النساء وعمائم اليهود والنصارى :

وما دمننا استطرادنا إلى ذكر مفاصد النساء ، وإلى ذكر اليهود والنصارى ، وبلغنا بذلك خاتمة هذا الفصل ، فلنفكهك بحديث وجيز عن عصائب النساء ، وعن عمائم اليهود والنصارى . وفي الحديث بعض ملامح المجتمع .

أما عصائب النساء : فقد كان النساء إلى عهد الأشرف قايتباى يلبسن على رءوسهن عصابات ذات قنازع وسراقوسات حريرية ، وبخرجن بذلك إلى الأسواق . فرسم قايتباى للأمير " يشبك الجمالى " المحتسب فى رجب عام ٨٧٦ هـ بأن ينادى فى القاهرة بمنع ذلك ، وألا تلبس المرأة إلا عصابة طولها ثلث ذراع مختومة من جانبها بختم السلطان !! وشدد فى ذلك على بائعى العصائب ، وشدد النكير على كل امرأة تخرج من بيتها بعصائبها المقنعة أو سرقوسها الحريرى ، وإن لا تضرب وتشهر فى الأسواق .

فاضطر النسوة إلى لبس العصابة الطويلة عند خروجهن ، ولكن كارهات .

أو عدم لبس العصائب مطلقاً . ولبس المقنزعة داخل المنازل . وقال في ذلك
الأديب زين الدين بن النحاس :

أمر الإمام مليكنا بعصائب في لبسها عسر على النسوان
فقلقن ثم أطعنه ولبسها ودخلن تحت عصائب السلطان
واستمر الحال كذلك مدة ، ثم عاد النسوة إلى ما كن عليه من قبل (١) -
أما عمامم اليهود والنصارى : فقد اتجهت نية بعض السلاطين إلى جعل عماممهم
من ألوان خاصة تميز ألها عن عمامم المسلمين .

ومن السلاطين الناصر محمد بن قلاوون ، رسم في عام ٧٠٠ هـ لليهود أن يلبسوا
عمامم صفراء ، وللنصارى أن يلبسوا عمامم زرقاء ، وللسامرية أن يلبسوا عمامم
حمراء . وأعلنهم بذلك نداء في مدينة القاهرة ، وكان النصارى - أى القبط - من
قبل ، يلبسون عمامم بيضاء كعمامم المسلمين .

قيل : وكان سبب ذلك أن بعض المغاربة كان جالساً بباب القلعة . فدخل
بعض الكتّاب الأقباط بالديوان ، وهم بعمامم البيض فبالغ في تعظيمهم على
اعتبار أنهم مسلمون . ثم تبين أنهم أقباط . فشكا ذلك إلى السلطان الناصر فرسم
بما سبق بيانه .

وفي عام ٧٥٤ هـ رسم السلطان الصالح الدين بأن تكون عمامم النصارى
عشرة أذرع لا غير .

ونذكر بهذه المناسبة أن السلطان المذكور ، رسم أيضاً بالآلا يستعان بهم في
ديوان ، ولا يركبوا دابة مكارى مسلم . وإذا مروا بالمسلمين ترجلوا ، ولا يدخلوا
الحمام إلا والصليب معلق في أعناقهم (٢) .

(١) بدائع بن إياس ج ٢ ص ١٣٢

(٢) بدائع الزهور ج ١ ص ١٤٣ ، ٢٠١

ويذكر السير ولیم مویر : « أن القوانين التي أصدرها الناصر محمد بن قلاوون بشأن النصارى ، ترجع إلى أن حكومة أرجون أرسلت وفداً إليه تطلب أن يسمح بفتح بعض كنائس خاصة ، وبفك أسير مسيحي . فأجاب السلطان هذا الملتبس . وعاد الوفد ، ومعه الأسير . ثم رأى السلطان أن يأخذ عن الأسير فدية ، فبعث في أثر الوفد - وكان عائداً إلى الإسكندرية ليبحر منها - فرفض الأسبان دفع الفدية وأسروا رسل السلطان معهم وفروا بهم . فأوغر ذلك صدر السلطان . وأصدر ما أصدر من القوانين .

وكان حتماً على اليهودى أن يلبس عمامة صفراء ، والنصراني زرقاء ، ونساؤهم غطاء خاصاً على صدورهن يميزن به . وحرم عليهم حمل السلاح . وأذن لهم بركوب البغال ، بشرط أن تكون أرجلهم من ناحية واحدة ، وأمرهم بتعظيم المسلمين في مناسبات عدة . . إلى غير ذلك .

ثم إنه بعد مدة عمل على إنصافهم وطمانيتهم . وقد حدث أن استعار بعض المسيحيين بسطا ومصابيح من أحد المساجد للاحتفال في يوم عيد لهم ، فاندفع بعض المتعصبين وخربوا كنائسهم . فعاقبهم الناصر . وهناك حوادث مشابهة غير هذه الحوادث ،^(١) .

وبمناسبة عصر الناصر نذكر ما روى من أن أخلاق النساء فسدت في زمانه وصرن يخرجن متبرجات . ففرض ضريبة فادحة على كل متبرجة من نساء الطبقة العليا ، وعين امرأة للإشراف على تنفيذ هذا الأمر^(٢) .

وبعد فحسبنا ما مر ببيانته من ملاح البيئة الاجتماعية ، ومعالم المجتمع المصرى

فى العصر المملوكى . وقد تناولناها من زوايا متعددة ، تتضافر على رسم صورة واضحة . ولم نذهب مبعدين إلى آخر أطراف كل زاوية ، إذ أوجزنا رعاية للمقام ، ولما سبق لنا تفصيله فى مجلداتنا السابقة .

فلنسر قدما إلى الباب الثانى من هذا البحث - أثر البيئة المصرية فى الشعر - لننظر فى شعر العصر وصلته ببيئته ومدى استجابته لروحها .

الباب الثاني

في

بيان أثر البيئات المصرية في الشعر

وفيه خمسة فصول

الفصل الأول

في

بيان أثر البيئة الطبيعية في الشعر

أشرنا فيما سبق إلى أهمية البيئة الطبيعية في حياة الأدباء والشاعر ، ورأينا أنها ذات صلة وثيقة بأدبه وشعره . كما درسنا طبيعة مصر ، وما يتصل بهامنها من موقع ومناخ ونسيم ، ومن سماء وأرض . ومن نيل وجدول ومقياس وبساتين ومنازه ، وغيرها ، في الحقبة التي نؤرخ شعرها . فإذا كان أثرها في شعرائها ، وما مبلغ استجابتهم لها .

ومن المناسب أن نذكر لك هنا ما نحدث به الدكتور الفاضل عبد اللطيف حمزة في مقدمة كتابه « الحركة الفكرية »^(١) عن « الشخصية المصرية » ، وهو يؤرخ حركة الفكر في مصر في الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية .

وقد أرجع عوامل تكوين هذه الشخصية إلى جملة مؤثرات أهمها البيئة والموقع . ورأى أن من أهم عناصر هذه الشخصية الميل إلى السهولة والوضوح والاستقامة والاستقرار والذوق . ولهذه العناصر آثار كثيرة في الأدب المصري . وله في أدب مصر العربية شواهد لا تحصى .

وسترى في الفصل الخامس الذي نعقده للحديث عن النواحي الفنية لهذا الشعر المملوكي نماذج منه وأمثالا لا حصر لها تؤكد ذلك .

ولا يمنعنا هذا من أن نضيف إلى ما تقدم أن المناخ — وإن كان من لوازم البيئة والموقع — له أثر ممتاز في صفاء القرائح المصرية واعتدال مزاجها ، وفي لطافة حسن المصريين ورقة ذوقهم وخفة نقدهم وسماحهم .

(١) الحركة الفكرية في دولة الأيوبيين والمماليك البحرية ، للدكتور عبد اللطيف حمزة — المقدمة ،

على أن الذوق الرقيق ، وإن كان من نتائج الموقع والمناخ ، ربما كان أيضا قد تولد في مصر بسبب عوامل ترتبت عليهما إذ أن مصر بلاد متوسطة بين أمم العالم القديم وبين شعوبه المتحضرة ، وشواطئها ممتدة على طول بحرين عظيمين ، كانا وما يزالان أهم — أو من أهم — معابر التجارة والرحلة . لهذا كانت مصر ممرا للمسافرين بين الشرق والغرب .

وفضلا عما اكتسبه سكان مصر ، وبخاصة سكان شواطئها وثغورها وحواضرها ، من أرباح مادية ، ومن ثقافات علمية وأدبية ، ومن تقاليد وعادات وافدة ، اكتسبوا إلى جانب ذلك ، الذوق واعتدال المزاج . ولم يكن ذلك لأن الهابطين إليها والمارين بها ، قوم أولو ذوق ومزاج معتدل . وإنما لأن المصريين بلوا منهم ألوانا كثيرة من الأذواق والأمزجة . فوازنوا بينها ، وعرفوا متعدها من متطرفها ، وسليمها من سقيمها ، وسهلها من معقدها . فاكْتَسَبُوا خبرة في فهم الأذواق والتمييز بينها ، وهذا هو الذوق الأصيل . فلا غرابة أن جروا في حياتهم — أو على الأقل في جوانب منها — على نهج من الذوق والفهم ، وعلى نسق من اعتدال المزاج والتسامح .

والتمييز بين الأذواق ، والحكم عليها ، هو النقد . وتعدد النماذج أمام الناقد يعينه على الوصول إلى حكم أكثر صحة وصدقا وصوابا . وهكذا توطن حب النقد ومقارنة شيء بشيء ، وموازنة صناعة بصناعة ، في أذواق المصريين . ولعل ذلك ذو صلة بتولعهم بالبدیع وصناعته ، وتنافسهم في إجادة أنواعه . كما أنه — بلا ريب — ذو صلة بهيوز روح النقد في شعرهم ، فبدا — كما سترى في الفصول القادمة — لاذعائرا ، وإن كان سطحيا عابرا عبور المسافرين إلى مصر والهابطين إليها . وأضاف إليه اعتدال المزاج والتسامح ، صوبا من تهكم وفكاهة .

وعلى الرغم من أن البيئة الطبيعية في مصر ، دعت أهلها إلى شيء من الكدح والكساح والدأب ، لم تعلمهم — إذ ذاك — بجانب هذا إلا الرضا بالقضاء والقدر ،

والاستسلام لمشيئتهما . مع الأمل المطرد المتجدد ، دون اليأس القاتل . ومع العمل ، ولو الوئيد ، والاعتقاد بالمجهول دون شق حجبهِ وأستاره ومعاناة الوصول إليه والتحكم فيه .

ولعل ذلك كان ، لأن التربة الزراعية هكذا كان دأبها في العصور الماضية - قبل أن تنتشر في ربوعها عوامل البقظة - تنبت لهم كثيرا عما يحتاجون إليه من الغذاء ، ولو لم يبذلوا في سبيله كفاءه من العمل والتعب . وهذا هو جود التربة وكرم الخصب ، اللذان يغريان بالكسل والاتسكال ...

كان هذا في الزمن القديم ، لا الحديث ، فكانت النفوس تعيش أبدا آمله ، لا يعتريها اليأس ولو في أشد الأوقات حرجا وشدة . وإنما تفيض عندها بالشكاية الوديعه المسالمة . وتنسب أسبابها إلى الزمان وصروفه .

ولعل ذلك له دخل في استسلام هذا الشعب للدول الفاتحة المتعاقبة عليه ، ولحكم الفرد فيها . وقد عارن على هذا الاستسلام الفهم الخاطيء لمقتضيات الدين .

والبيئة الطبيعية في مصر ، أجمل ما فيها نيلها وجداوله ، والأرض الطيبة الخصبة على شاطئيه ، حيث ينمو الزرع والشجر ، وينبت لأهلها الغذاء والثر . في صعيدها أو في دلتا النهر . وكذلك شواطئها . وما عدا ذلك هضبة عالية في غرب النيل مسطحة تقريبا ، تملأها الرمال والواحات ، على نحو ما وصفنا في مطالع هذا البحث كله ، وهضبة مثلها في شرقه جبلية ذات مرتفعات ، تضرب إلى سواحل البحر الأحمر . . هذا إلى مناخ معتدل دافئ .

ولا ننكر أن يد الإنشاء والإصلاح والتجميل ، كانت تتناول أجزاء هذه البيئة من آن إلى آن ، فتسوى أرضها أو تحفر غدرانها ، أو تنشىء خلجانها ، أو تهبيء بساتينها ، أو تنوع نباتها ، أو تنمى أشجارها ، أو تفتح أزهارها ونوارها ، أو تتعهد حيوانها وطيورها ، أو تجرى دولاباتها ، أو تدبر سواقيها ونواعيرها .

كما لا ننكر أنها كانت تنشئ الدور وتعلو القصور ، وتشيد الأبنية الفارهة ،
والعمائر الضخمة ، والمساجد الجامعة ، وتزود هذا وذاك بالجميل من الزخرف
والجديد من الصنع والفن .

ويمثل هذا كله على جانبيها ويعيش ، حتى يتحول بمضى الزمان وتتابع الأيام ،
وأطراد وقوع العين عليه ، وندرة التغيير فيه ، إلى جزء من أجزاء الطبيعة المصرية ،
- كما تحولت الأهرام - ، وإن كان مظهرها في الأصل من مظاهر الحضارة .

وبالرغم من هذا كله ، ينبغي أن نذكر مرة أخرى أن مناظر الطبيعة المصرية ،
في جملتها ، قليلة ، وهي مع قلتها كثيرة التشابه ، تشابه أجزاؤها على جانبي النيل
وفي دلتاه ، حيث تطرد الزراعة وتتجانس النبات ويتشابه الشجر والزهور
والثمر . كما يتشابه الحيوان والطيور .

وتعدد المناظر واختلافها وتغايرها في أجزاء البيئة الواحدة ، له أثره - بلا ريب -
في خيال الشعراء . فهو يعينهم على تعدد المشاعر وتوليد الأحاسيس المتغايرة ،
وكثرة التصورات الذهنية والنفسية ، وحسن الموازنة والمفاضلة . وكل ذلك له
دخل كبير في ثراء الصور الشعرية وتنوع الأخيلة .

لنأخذ هذا في الاعتبار ، ونحن بصدد محاسبة شعراء البيئة المصرية في ذلك
الزمان البعيد . ولندخل في حسابنا أيضا ما نشاهده في بيئتنا حتى اليوم : من رتابة
ونظام مطرد ، أو يكاد يكون مطردا ، في مناخها وفصولها ، وما يتصل بهما من
مشاهد الطبيعة . فإن مناخ مصر - كما علمنا - لا يكاد في جملته يختلف في فصل عن
فصل ، ولا في يوم عن يوم ، وإذا اختلف فليس ثمة اختلاف جوهري جذري ،
كالذي بين طرفين متناقضين .

حتى النيل نفسه - وهو مظهر النعمة ومصدر الخير ، ومحرك الطبيعة في
أجل مرائنها ، فضلا عن أنه الجزء الأهم والأساسي بين أجزاء الطبيعة المصرية -
يكاد يسير في حياته رتيبا منظما ، لا تكاد تختل فيه هذه الرتابة ، ولا يتأخر فيه
هذا النظام .

أقول : فلنضع هذا كله في الاعتبار ، ونحن بصدد محاسبة الشعر في إحدى حقب مصر الطويلة ، على ما كان لديهم من إحساس بطبيعة بلادهم ، وعن مدى تأثير هذه الطبيعة في نتائجهم الشعري .
وسنرى أنهم كانوا لها قلوبا والهة ، ونفوسا محبة ، ومشاعر مرهفة ، وألسنة معبرة واصفة .

لقد كان للبيئة الطبيعية في مصر أثر بالغ في شعر شعرائها في العصر المملوكي . برز هذا في الوصف . وكان الوصف لديهم معرضا حافلا . تناولوا فيه كل ما تراءى لهم ، ووقع تحت بصرهم ، من أجزائها . لقد وصفوا أحداثها وما دار حولها من جداول ودواليب ونواعير ، وما عاش من حيوانات وطيور ، وما نما من أفنان ، وازدهر من أغصان ، وتفتح من أزهار ، ونضج من ثمار .

لقد عشقوا النيل وقدسوه ، ووصفوا مائه وتياره ولونه . لقد خاطبوه وتغزلوا فيه ، وأبدعوا في ذكر فيضانه ووفائه وخلجانه ومقياسه ، واحتفوا بكسر الخليج وحفلات الوفاء ولعب الزوارق ولهو الأمواج . وشيدوا بما نما على حفافيه من البساتين والمنازه ، وما مال على شاطئيه من السرح والشجر . وتشوقوا إليه إذا اغتربوا ، وحنوا إلى أرضه ورياضه إذا نأوا وابتعدوا . بل لقد داروا مع سواقيه إذا دارت ، وأنوا مع دواليبه إذا أنت . . .

لقد عشقوا محاسن هذه الطبيعة المصرية ، وأشادوا بمصر وما شب في أحضانها من ألوان الجمال .

لقد امتزجوا بأجزاء هذه البيئة . حتى انتزع بعضهم منها تشبيهاته وتورياته ، وانتفعوا في ذلك بمرائيها ومشاهدها . لقد ساروا مع رياحها إذا سارت . ومالوا مع أنسامها إذا مالت ، وضحكوا مع ورودها ، إذا ضحكت وقصوا وحكوا مع طيورها إذا قصت أو حكّت .

لقد اندمجوا فيها ، وشخصوها أحياء موحية ومستجيبة ، وبادلوا عاطفة

بعاطفة ، ومسرة بمسرة . ونصبوا منها أشخاصا شاعرة محسة . فصر أم لولدان . وداعية لبنين ، ومدافعة عن أبناء . وصوروا نيلها واهبا للخصب ، وما نحا للغنى ، وملسكا يذرد جيوش المحل عن أرضها ، ويدفع كتائب الغلاء عن أهلها ، وهو يتصرف بلب وفهم وإرادة وعلم ، وهو ذو شيم كريمة لا تنافسه فيها الأنهار ، وحسبك من هذه الشيم الوفاء

وغاطبوا برقها وأنسامها وحملوها أمانة التحية ورسالة الشوق ، وداعبوا رياضها حتى اغتبتت غصونها وضحكت أزاهيرها . إلى غير ذلك مما سنفصله .

ومن ذلك ترى إلى أى حد تأثرت نفوسهم ومشاعرهم وحواسهم معا بها . وإلى أى حد عبروا عما شعروا به من ذلك ، سواء فى قرارة نفوسهم أم من متناول حواسهم ، فكانوا مستجيبين لها ملبين لإلهامها .

ولعلنا فيما سنقصه عليك من ذلك ، نستطيع أن نقضى على الأسطورة المموجة أو القرية المدعاة ، من أنهم إزاء طبيعة بلادهم كانوا يعانون ضيقا فى النفس ، وبلادة فى الحس ، ونقصا فى الشعور ، وسذاجة أو قصورا فى التعبير ، وندرة فى الاستجابة وتلكؤوا فى التلبية . وبخاصة فيما يتعلق بنهرهم المبارك ، نهر النيل .

وسنقصر حديثنا فى هذا الفصل على الوقوف لدى الموضوعات ، التى تتصل بالبيئة الطبيعية أكثر من اتصالها ببيئة غيرها . تاركين غيرها من الموضوعات لما هو ألصق بها وأنسب لها من البيئات الأخرى .

حب مصر وذكرها

ومصر ، منذ الذى لايعشقه ، وهى البلد الحنون ، والموطن المثلاى ، والمراح للحدب والسكن السمح ، والمسكان الخصيب والمربع الرحيب ، الرخى الأنسام ،

الرضى الأيام محل النيل ومجراه ، به ماؤه وشاطئاه . .

بلغ حبها من قلب صلاح الدين الصفدى ، وحبها لأهلها ، أن رأى أن من طاف حول الدنيا بأمصارها ، وجال فى الأرض وأقطارها ، ولقى فى طوافه ونحواله ألوانا من الناس ، وأجناسا من الخلق ، ولكنه لم ير مصر ، ولم ينعم بالزول إليها ، ومشاهدة ربوعها ، وبقرب أهلها ، فكأنه لم ير الدنيا ولم ير الناس . يقول :

من شاهد الأرض وأقطارها والناس أنواعاً وأجناساً
ولا رأى مصر ولا أهلها فما رأى الدنيا ولا الناس^(١)

ولعله يعبر عن هذا الشعور نفسه ، ولكنه بتصوير آخر ، وبشكل مغاير ، وبتكرار - لعمري - يدل على صدق شعور . وذلك أنه شاهد فى مصر عجائب ، ما رآها غيره من الناس . وهى أن الدنيا تسود فى عينيه فى كل ناحية منها يرحل إليها ولا تبيض إلا إذا ما كان فى أرض النيل ، مصر الرجة الكريمة السمحة .

وأعتقد أن الشاعر يرمز بالسود والبياض فى بيتيه التالين ، إلى الجذب والخصب ، أو إلى ضيق العيش وسعته ، أو إلى عبوسة اللقاء والفرحة به . يقول الشاعر :

رأيت فى أرض مصر منذ حللت بها عجائباً ما رآها الناس فى جيل
تسود فى عيني الدنيا فلم أرها تبيض إلا إذا ما كنت فى النيل^(٢)

والمعنى - كما ترى - ذو صلة بمعنى بيتيه السابقين ، ينبع من الشعور نفسه . الذى ينبعان منه ولا تحس فيهما بتسكف فى سوق الطباق بين تسود وتبيض .

(١) بهجة الناظر للبطي :

(٢) المصدر نفسه .

وزين الدين بن الوردي ينهج في شعوره وإحساسه نهجا مماثلا ، بفارق في
التصور والخيال فمصر عنده هي الدنيا وساكنوها لديه هم الأنام . فإذا كان
الصفدي قد اعترف بأن هناك أرضا غير أرضها ، وأناسا غير أناسها ، ولكن
أرضها هي أخرى بأن تكون الدنيا ، وناسها أجدر أن يكونوا وخدمهم هم الناس ،
فإن ابن الوردي اعتبر مصر هي الدنيا وأهلها هم الأنام . يقول :

ديار مصر هي الدنيا وساكنها هم الأنام فقابلها بتقبيل
يامن يباهي ببغداد ودجلتها مصر مقدمة والشرح للنيل (١)

وقد أخذ صلاح الدين الصفدي هذا المعنى وبعض اللفظ ، فقال :

ركبت في النيل يوما مع أخي أدب فقال دعني من قال ومن قيل
شرحت يا نيل صدرى اليوم قلت له لا تنسك الشرح يا نحوى للنيل (٢)

ويقسم ناصر الدين أبو بكر بن عمر بن سلار - المتوفى عام ٧١٦ هـ - أن
مصر هي الجنة العليا ، وأن أبناءها هم الولدان ، وأن روضها هو الفردوس ،
وأن نيلها هي الكوثر ، وذلك في بيته :

لعمرك ما مصر بمصر وإنما هي الجنة العليا لمن يتفكر
فأولادها الولدان من نسل آدم وروضتها الفردوس والنيل كوثر (٣)

أما علاء الدين الوداعي فيتشوق إلى مصر وسكانها وإلى عهد الخالي .
ويستروي الأحاديث عن نيلها ربا لشوقه وسقيا لوجده وذلك في قوله :

رو بمصر وبسكانها شوقي وجدد عهدي الخالي
وصف لي القرط وشنف به سمعي وما العاطل كالخالي

(١) تأهيل القريب فصل الأنهار - وبهجة الناظر للسيوطي ورقة ٨٣ - وديوان ابن الوردي

ص ٢٥٢

(٣) الدرر الكامنة ج ١ رقم ١٢١٠ .

(٢) المصدر نفسه .

وارو لنا يا سعد عن نيلها حديث صفوان بن عسال (١)

ويدنو الشاعر إبراهيم المعمار من الواقع ولا يهيم في دنيا الخيال . ويقول في بساطة ، إن مصر منزل مستحسن سواء منه شرقه أو غربه . ويأسره حب الاقتباس فيذكر الصعيد الطيب ، عن طريق آى القرآن الكريم . فيقول :

ما مصر إلا منزل مستحسن فاستوطنوه مشرقاً أو مغرباً
هذا وإن كنتم على سفر به فتمعنوا منه صعيداً طيباً (٢)

ويبدو أن جهة المقياس كانت تستأثر بالكثير من الزوار ، وتجذب إليها العدد الجم من المحبين . ويورى الشاعر الأديب شهاب الدين المنصورى بالمقياس تورية لطيفة ، ويدعو الزوار والمحبين أن يقضوا أوقاتهم بمصر ، فهى أوقات سرور لا تمل . وأوقات السرور قصار . فليتمتعوا بالمرء ولا يعجل عنها بالمسير . وعلى لسان مصر يقول الشاعر ما جال بخاطره :

تقول لنا مصر أنا خير موطن ولا ناس فى الأمصار أظرف من ناسى
فإن تك أوقات السرور قصيرة فلا تقطعوها فى بالمقياس (٣)

وإشاعر مصر الكبير جمال الدين بن نباتة ، أشواق حارة ، وحنين لا يهدأ ، إلى مصر وملاعبها وذكرياتها ، وإلى النيل ورياضه . لقد طوحت به النوى ونزحت الدار ، فعاش بعيداً عن وطنه المحبوب وبلاده الأثرية ، يعانى لوعة البعد وألم الفراق .

(١) تأهيل الغريب باب الأنهار — بهجة الناظر للسيوطى ورقة ٧٣ — وحلبة الكيت للتواحي ص ٢٩٧ .

(٢) بهجة الناظر ونزهة الخاطر للسيوطى ورقة ٨٣ .

(٣) م ٢٣ — عصر المالك

(٣) بهجة الناظر للسيوطى ورقة ٨٤ .

لقد فارق مصر إلى ربوع الشام . فانتهب الشوق إليها نفسه ، وصار يتغنى بها
وبنيلها مخصب الثرى ومغنى الورى وقاتل المحل . يقول :

وإن لمشتاق إلى ظل روضة على النيل أروى العيش منها عن النضر
لئن حثني باب البريد إلى مصر لقد حثني باب الزيادة في المنذر
إلى مصر يحلو نيلها مخصب الثرى فيغنى الورى في الحالتين عن القطر
وتقبيل حلو الغزو للمحل قاتل حلاوته سكب وجنديه يجرى (١)
وتذكر بعض أهله الذين تركهم في مصر ، فتأوه لهم ولمصر ولذكرياته بها ، فقال :

بأبي الحدود العاريات من البسكاء اللابسات من الحرير جلابيا
النابتات بأرض مصر أزاهرا والزاهرات بأرض مصر كواكبا
آها لمصر وأين مصر وكيف لي بديار مصر مراتعا وملاعبا
حيث الشيبية والحبيبة والوفا في الأقربين مشاربا وأصحابا
والطرف يركع في مشاهد أوجه عقدت به طرر الشعور محاربا
والطرف سلم كيفما حاولته لا مثل دهرى في دمشق محاربا (٢)

وها هو ذا يتجه إلى البرق السارى إلى آفاق مصر ، فقد ذكره ما عذب من
زمان النيل . ويضرع إليه أن يحدثها عن أدمعه وعن نار قلبه ، ويندب إليها عمره
وصباه ، وتلك لعمري ومضة نفسية ملتناعة .

يقول الشاعر :

يا سارى البرق في آفاق مصر لقد أذكرتني من زمان النيل ما عذبا
حدث عن البحر أو دمعى ولا حرج وانقل عن النار أو قلبي ولا كذبا
واندب على الهرم الغربى لى عمرا فخبذا هرم فارقتة وصبا (٣)
وفي لوحة المشتاق وأنة الباكي ولهفة العاشق ، يهب ابن نباتة هذه الأبيات

(٢) ديوان ص ٢٦ .

(١) ديوانه ص ١٩٦ .

(٣) ديوان ص ٣١ .

التالية لمصر ، يودعها كثير آ من آلامه وأحلامه ، وذكر ياته وأمنياته ، وما هي إلا طاقة نفس وإفاقة حس .

يصرح الشاعر بأن الشوق دعاه إلى ذكر حماه ويدعو لمصر بسقي الغواذى ، ويذكر إليها زمان وصاله فيها ، وصباه الطيب فى ربوعها ، وما كان حوله من وجوه بيض تجتلى ، وشعور سود تسحب ، وما جد عليه من أمر النوى ، وما لآعه من البعد ، وما أمله من الخير فى العودة

يقول الشاعر فى عبارة جزلة فى رقة ، وخلة فى عذوبة :

دعاه لذكر الحمى مذهب وشوق أقام فما يذهب
أمصر سقتك غواذى السرور وجادك من أفقها صيب
ذكرت زمانك حيث الوصال وحيث الصبا طيب طيب
وبيض الوجوه بها تجتلى وسود الشعور بها تسحب
وكم قر فيك سافرت عنه وعقرب أصداغه غيب
فما كان بالسفر المستجد وقد أطلع القمر العقرب
وإن حف فى للنوى مهلك فكم صح لى باللقا مطلب
وإن طمعت فى لىالى الحمى منأى فكم قد فشا أشعب
وقد يحسب المرء ما فاته فيأنيه أضعاف ما يحسب
لعمرك ما الصبح بالمستنير وقد فاتنى ذلك المغرب . . . الخ^(١)

وهام الأديب البارع شهاب الدين بن فضل الله العمرى هياماً شديداً بمصر ونيلها ورياضها ، وعشق مغانيها ومجانيها ، ومفاتها ومحاسنها .

لقد كتب عنها فى سياق رسالة له منشورة ، بعث بها إلى الأمير الجاى الدوا دار ، أبياتا تم عن حب أصيل ، وشعور بقدسياتها جميل نبيل ، بلغ به حد الفخر والديه . وإن خلطه بمدح لمدو حه . فقد قال له :

بلد أنت ساكن في رباهـا بلد تحسد الثريا ثراها
قد تعالت إلى السماء بسكننا لك فالقت على البطاح رداها
جمد الطل في الزهور فقلنا أنه عقد جوهر لرباهـا
وجرى النيل في الرياض فقلنا كسرت فوقه المغاني جلاها
مثلمـا أنت في معانيك فرد هي فرد البلاد في معناها (١)

وشبيه بذلك ما نظمه أيضا وأطال فيه وأبدع ، وأجاد فيه وأمتع . وهو قوله
يصف مسك أرض مصر ، وربا الروض وعطر الريح واغتياق الأغصان ،
واهتزاز صفاح النيل . ويذكر سفائنه التي كالجبال ، وصهواتها الساكنة بينها
الأنفق حديقة خضراء مزهورة ، والمجرة نهر يتدفق ، والليل زنجية في وشاحها
تقوده الجوزاء ... إلى غير ذلك من المشاهد الطبيعية الفاتنة الجميلة ، التي يدل
وصفه لها على امتزاج مشاعره وامتلاء نفسه بطبيعة بلاده ومحاسنها ، وعلى مدى
تأثير هذه الطبيعة والمحاسن فيه .

يقول :

ما بين أكناف البطاح مسك يذر على الرياح
من حيث يلقي الروض في أزهارها ريان ضاحي
والريح في السحر البهيم يطير مسكي الجناح
يسرى فتغشيق الغصون ن به على عين الصباح
والنيل في تياره الـ منصب مهتز الصفاح
وبه السفائن كالجبـا ل تجول أمثال القداح
فركبت من صهواتها دهماء ساكنة الجناح
حرافة تجرى على اسم الله في الماء القراح
والأنفق مثل حديقة خضراء مزهرة النواحي

تحكى المجرة بينها نهرا تدفق فى أقاحى
واقادت الجوزاء لليل البهيم إلى الروح
فكانه زنجية حذفت بأطراف الوشاح^(١)

والعجيب من أمر شهاب الدين بن حجر العسقلانى - وهو الفقيه الحافظ وقاضى
القضاة - أن يسافر إلى حج بيت الله الحرام ، فيأتى إلا أن يملكه الشوق إلى
مصر ، غب رحيله عنها ومفارقة لها ، فيذكرها ويذكر أهلها ويذكر معاها
ومراتعها ، ويستحث الزمان ليعيده إليها ، لى يهتزن نشوان من فرح اللقاء ،
والطمأنينة بالرؤية والأنس بالأمن . وهو فى ذكرى أيامها يفشق نسيات الشمال
معطرة بأرج أرضها ، ويودع هذه المشاعر فى قصيدة عصماء .

وها هو ذا الأديب البارع يتسامل فيهما عن مصر تساؤل الملهوف المشوق
المغرم ، وعن موعد اللقاء بها ، فيقول :

متى تنجلى يا أفق مصر بأقمار	وأروى عن اللقاء أحاديث بشار
وأقرأ آى الوصل من صحف أوجه	مواضع ختم اللثم فيها كأعشار ^(٢)
وأهتزن كالنشوان من فرح اللقاء	ولا منة عندى لكاسات خمار
إلى مصر واشوقاً لمصر وأهلها	تشوق صب للنوى غير مختار
ويا وحشتى يا مصر منك لبلدة	لداخلها بالأمن بشرى من البارى
تهب نسيات الشمال بأرضها	فينشق منها الأنف جونة عطار
محسدة لا قدح فيها لعائب	على أن زند الفضل من أهلها وارى
إذا فاخروها قام صارم نيلها	بمقياس صدق كاسرا كل نثار

(١) حسن المحاضرة ج ٢ باب ما قيل فى الأنهار والأشجار . - والصفاح : الجواب - وحذوه
بالمعا : رماه بها .

(٢) الأعشار : جمع عشر ، يريد بها هنا الكثرة .

مراتع لذاني وملهي شيبتي ومبدأ أوطاني وغاية أوطاري
ومنزل أحبابي ومنزه مقلتي ومطلع أقداري ومغرب أفكاري
لبست ثياب اللو فيها خلاعة وقامت على خلعي عذارى أعذارى

وينساق الشاعر إلى وصف رحلته التي فارق بها مصر إلى الحجاز ، ويشور به
الوجد بمصر وبأحبابه فيها ، حتى يذكر أن النوى رمته ، وأنه امتطى مطية -
يعنى السفينة - فيها غرائب وأسما . وأنها تبطل ، إذا ركبد الموج ، وتسرع إذا
أسرع . وأنها وهي « جارية » استرقت من فيها من العبيد والاحرار . وأنه يديم
عليها منادمة القرآن وقراءة الأذكار . . . ومن لطيف تصوره في وصفها أنه وهو
مسافر ، مقيم بها ، وأنها وهي منزل ، تسير أبدا . .

يقول ابن حجر :

رمتني النوى حتى ركبت مطية أحاديثها فيها غرائب أسما
إذا السهل أوفى أبطأت في مسيرها وتسرع في الأمواج سيراً بأوعار
وجارية لكانها تسترق من تبطن فيها من عبيد وأحرار
إذا رحلت في البطن تمشي سريعة على ظهرها فاسمع عجائب أخبار
ولا خير فيها غير أن نزلها نديم لقرآن مديم لأذكار
وأعجب ما أحكيه أني مسافر مقيم ولكن منزلي أبدا مساري... الخ

وما لبث الشاعر بعد سروح خياله وانسيابه بانسياب الموج والسفينة ، فعاش
بينهما بمصورته مدة ، أن عاد إلى حنينه الأول ، وإلى وصف أشواقه إلى بلاده
 وإلى أهلها وإلى أحبابه فيها ، الذين تتمنأهم روحه وتهتدى بهم بصيرته ويتنور
بضياهم بصره ، ويتيسر على يديهم عسره . فهم بذلك سعادته في الدنيا والآخرة
معا . لذلك نزلوا بقلبه فعمر بحبهم ، فما بالهم يشعلون به - وهو دارهم -
نار الأشواق . . .

يقول الشاعر :

وأنتم منى روى وهدى بصيرتى وتنوير أبصارى وتيسير إعسارى
نزلتم بقلبي وهو عمار حبكم فأحرقت دار الضيافة بالنار
ويقول - ولعله يقصد زوجته أو أحد أبنائه - مخاطباً نسيات الريح ، أن تبلغ
إليها سلامه ، فهمى « روحه المقيمة فى داره » ، ويضرع إليها أن تسمح لمقلته بنوم
يحظى فيه بوصل من طيفها ...

يقول :

فإن نسيات الريح بالله بلغنى سلامى على روى المقيمة فى دارى
سليها تسامح مقلتى بمنامها لتحظى بطيب الوصل من طيفها السارى .. الخ
إلى آخر هذه القصيدة الممتعة فى بابها (١) .

ومن طرائف الشاعر العذب المبدع ، برهان الدين القيراطى ، هذه الأبيات التى
وصف فيها مدينة الإسكندرية وصف الحب المغرم . فما يوافى معبدها حتى يطلق
فى أرجائها عينه فتسبح وتطوف لثنتهيب ما فيها من جمال ومحاسن . وكل ناحية من
نواحيها ، وكل مظهر من مظاهرها ، فيه غنى ومتعة ، وفيه حسن وفتنة ، وفيه رزق
ويسر ..

والحق أن الشاعر لم يطف فى شوارعها بقدميه ، ولكن بروحه . ولم يسمع
بها إلا هزار الوصل ، ولم ير إلا خدوداً كأمثال الرياض ، وجوهاً كالمصابيح ،
يقول الشاعر :

إسكندرية إن وافيت معبدها فقل لعينيك فى ساحاتها سيحى
فثغرها الأشنب الصبحى ذوشنب حالى به حال مغبوق ومصبوح
يا صاحبي لباب السدرة ارتقيا لمتهى باب رزق ثم مفتوح

(١) ديوان ابن حزم العقلاى : مخطوط - والجودة : سليقة منشأة أداما ، تكون مع الطارين .

تمشت الروح منافي شوارعها ذات ارتياح فكل شارع الروح
ياصاح صاح هزارالوصل فابتغى لي راحا بها راحة للجسم والروح
حيث الحدود كأمثال الرياض زهت وأزهت بوجوه كالمصابيح^(١)

ومصر المصرية ، وطنه المحبوب ومحل ميلاده وجمع أوطار فؤاده . بها أهله
وأحبابه ، وأبناءؤه وأقرباؤه . وفيها ملاعب صباه ، ومسارح مرجه وملهاه .
قضى بها أطيب أوقاته ، وبجل جميل ذكرياته وربط الود فيها بين قلبه وقلوب
لداته . وذاق طعم الوفاء ، وإن قلب بين السعادة والشقاء . فهي لذلك قطعة من
نفسه ، ومتجعه عاطفته وحسه .

وهو يشفق إليها ، وهو بين يديها . فما بالك إذا غاب عنها وقضى عليه قاضى
البين بفراقها ، رحلة إلى علم أو سعيا إلى رزق ، أو رياضة إلى منزله ، أو قصدا
لإداء فريضة . أو غير ذلك ، فكيفها كان من حاله ، تنازعه إليها الأشواق ، ويتطلع
إليها في الآفاق ، فيخاطب البرق ، ويحمل الريح ، ويستجوب النسيم ، ويظلم
إلى النيل . .

ويقول ابن نباتة مضمنا تضمينا تصرف فيه ، يخاطب البرق :

يا بارقا من نواحي مصر مبتسما بلغ تحية هامى الدمع منهمل
واذكر إذا هب معتل الصبا جسدى فربما صحت الأجساد بالعلل^(٢)
ويخاطب النسيم فيقول :

وأعد يا نسيم أخبار مصر ربما طارح العليل العليلا

(١) ديوان البرهان الفيضاني ورقة رقم ١٤٠ - مخطوط - والأشبه . ذو الشنب وهو الرقيق
العذب الرقيق الكثير الماء . .

(٢) ديوان ابن نباتة ص ٣٨٣ ،

أنت لاشك من صبا أرض مصر فلم هذا أرى عليك قبولا (١)
ويستشفع بدموع شوقه إلى العودة ليرى ظمأه من ماء النيل ، فيقول :
وهل إلى أرض مصر زورة لشج بسائل من دموع الشوق ملحاح
وهل أباكر بحر النيل منشرحا فأشرب الخلو من أكواب ملاح (٢)

الولوع بالنيل

ولقد رأيت في بعض ما مر من الآبيات ، مظاهر ولوعهم بنهر النيل .
والنيل منذ الزمن القديم ، نهر مصر المبارك الذى تنبثق فيها الحياة بسببه ، لأهلها
وأرضها ونباتها وحيوانها .

وقد بلغ حبه عند قدماء المصريين حد العبادة والتقديس . وما زال حبه
متوارثا بين بنى مصر ، جيلا بعد جيل ، يظهرونه بمظاهر مختلفة .

لذا كان ، وما زال ، مصدر وحى وإلهام لشعرائها ، يعبرون بشعرهم له عن
مكنون حبههم وتقديسهم ، ويسطرون ما يقع فى خيالهم عنه من بديع الصور ،
ويدلون بذلك على اهتزاز نفوسهم به . وهم فى ذلك مرآة الشعب الذى يعيش
سنته يراقب فيضان النيل ونقصانه ، ويتربأ أيام الفيضان ترقب الظمان ... فإذا
وفى النهر ونبه مقياسه على بلوغه حد الوفاء ، سرت بين صفوفه وجوعه معالم
البشرى والفرح . وتوافدوا يحتفلون به ، وعلى رأسهم حكامهم ، متمشين مع
إرادتهم . والشعراء بين هذا وذاك يسطرون ويسجلون ويصفون ، ويعبرون
عن هذه المشاعر .

(١) ديوان ابن نباتة ص ٥٥١ .

(٢) ديوان ابن نباتة ص ١٠٦ .

وقد جرى الحال على هذا المنوال في العصر المملوكي - كما روينا من قبل . وكان نهر النيل موضع الحب ومكان القداسة ومحل الخفاوة المستمرة ، من الشعب وحكامه وشعرائه وأدباءه . وإذا وافى كتببت بأنباء وفاته البشارات للثرية ، بقلم فني بديع ، يعبر عن أجمال المشاعر والأحاسيس وأنبل العواطف ، نحو هذا النيل العظيم ، وتقرأ في الآفاق . وتصدر هذه البشارات من كتاب ديوان الإنشاء عادة . ونسج غيرهم من الكتتاب على منوالهم .

وإذا لم يبلغ النيل حد الوفاء - في ميعاد الوفاء المعتاد - ضجوا بالشكاية وأعلنوا بالخوف وخرجوا للاستسقاء ..

وإذا زاد عن حد الوفاء وخشى الغرق وخيف التلف ، فزعوا وارتاعوا ورجوا الله أن يهديه من فوره ويطامن من ثورته ..

هذه ظاهرة معتادة في كل عام إما فيضان ووفاء وشكر ، وإما نقص وجذب وغلاء وشكوى . وإما غرق وخوف . ولعل هذا صدى في الشعر في كل عام . وهكذا ترى لديهم الشغل الشاغل عن النيل . ولم يقصر الشعراء ، كما يقول بعض الأدباء (١) . في إبداء شعورهم نحو النيل ، والتعبير له عن مشاعر المصريين نحوه أو تصوير حبه له . وكيف وهو مصدر البين والبركة لهم ، ومنبوع الخير والرزق ، وعليه في جملة الأمر مدار حياتهم وقوام معيشتهم .

ثم كيف وقد رأينا مظاهر الولوع فيما مر من الآيات ، مما نظمته الوداعى وابن نباته وابن فضل الله وغيرهم ..

إنه لمن التعسف في الحكم أن نستقرئ قليلا من النصوص الشعرية ، في موضوع خطير كهذا ، ولا نستوعب . ثم تصدر الحكم بناء عليها قاسيا لا إنصاف فيه ولا عدالة .

(١) راجع كتاب « النيل في الأدب المصري » لكتابتة الفاضلة الدكتورة نعمات أحمد فؤاد ص ١٤٨ وما بعدها ،

كما أنه من التعسف في الحكم أن نقف أمام نص من النصوص الشعرية ، في الموضوع نفسه ، قد يكون حب الصناعة أملاًه ، بل قل ، حب العبث في الصناعة ، فنبرز ما فيه من العبث ، ونحكم بناء على هذا حكماً نعطيه صفة العموم والشمول . ونقول : « عبث وصناعة وافتعال » . ولا نلجأ بالآلة إلى ما وراء اللفظ ، وإلى ما يهدف إليه الشاعر .

لقد قال صلاح الدين الصفدي :

قالوا علا نيل مصر في زيادته حتى لقد بلغ الأهرام حين طأ
فقلت هذا عجيب في بلادكم أن ابن ستة عشر يبلغ الهرماً^(١)
وكان النيل إذ ذاك . قد بلغ فيضانه حد الوفاء وهو ستة عشر ذراعاً . وقيل
أنه في ذلك الوقت ارتفع إلى الأهرام . فسجل الشاعر هذا الحادث ، وساق
خلال تسجيله تعجبه من أن يصل الماء الأهرام ، وهو في علو ستة عشر ذراعاً
فقط . إنه إذا زاد بعدها ، يخشى الغرق على البلاد حقاً ، وتعم الشكوى ويزيد
الخوف . أما قبل ذلك فهذا حد الوفاء . فإذا كان قد وصل إلى الأهرام ، كان
الامر جديراً بالتعجب .

هذا هو الذي سجله الشاعر . وصب الشاعر حديثه بطريق التورية والمداعبة ،
ولا ينسکر ما في ذلك من النزعة الأدبية . فإن الشعر ليس ديواناً للحقائق العلمية
بمقدار أنه ديوان للتصورات الأدبية والأخيلة الجميلة المثيرة .

ومن الظلم أن نحاسب الشاعر هنا على توريته وما فيها من صناعة ، ونغفل
ماعد ذلك . ونتمهم بأنه أسير صناعته لا أسير النيل . وأنه فكر في توفيتها حقها ،
ولم يوف النيل حقه من الحديث عنه وإظهار الحب له .

إن الشاعر لم يشغله شاغل في بديته غير النيل . والتورية زائدة فوق ما شغله .

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ . باب ذكر ما قيل في النيل من الأشعار . - وبهجة الناظر ونزهة الخاطر
للسيوطي ورقة ٨٣ .

لقد أراد أن يسجل زيادة النيل وبلوغه وهو في ستة عشر ذراعا ، إلى الهرم ،
وتعجبه من ذلك . فسجله عن طريق التورية . ويدهى أنه لم يرد أن يصوغ تورية ،
فرفع من أجلها النيل إلى الهرم . .

وغنى عن البيان أن اتجاه الشاعر إلى تسجيل هذه الظاهرة النيلية ، إنما هو
مظهر لحبه للنيل وعنايته به واهتمامه بظواهره ، ويشعر هذا بارتباطه به عاطفيا .
وليس من الضروري أن أصرح محبوبي في كل لحظة وفي كل حديث ، بأننى
أحبه وأقدسه وأوثره . . الخ ، فإنه ليس كفيه منى في هذا المجال أحيانا أن أسأل
عن غيابه أو إيباه ، ورحيله أو وصوله ، أو صنف طعامه وشرابه ، أولون ردائه
وثيابه . . وفي هذا مافيه من عاطفة جميلة ومشاعر نبيلة . يستشعرها المحبوب ،
تم عن حب أكيد وشوق جديد .

وعلى هذا نستطيع أن نتقبل بيتي مجير الدين بن تميم .

ما زالت أُنذره عيونا حوله خوفا عليه أن يصاب فيعثر
فأبى وزاد تماديا في جريه حتى هوى من شاق فتكسر^(١)

فقد رأى النهر متدافع التيار تمادى الجرى . فلهذا الخوف عليه أن يعثر —
والخوف أحد مظاهر الحب — ولكن النهر قد زاد تماديا . فلقيته العيون في طريقه
فأصابته فتكسر .

وهو وصف تصويرى عاطفى معا ، كانت الاستعارة والتورية بعض أدواته .
ويبدو أن النهر كانت تعترضه حينذاك بعض العيون المقامة . ولعلها كانت على
خلجانه . . ونستبعد أن يكون هذا في نهر النيل . .

وتلاحظ في البيتين اتجاه الشاعر إلى التشخيص . وإلى تعقيل النهر وحساباته
حيا يخاطب ويحس ويفهم ويأبى ويتمادى ويصاب . — وسنعرض لبيتى ابن تميم
في سطور قريبة مرة أخرى .

(١) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر الأنهار — وراجع النيل في الأذنب المصرى ص ١٨٩

ويذهب الخيال بأديب مصر الكبير، محي الدين بن عبد الظاهر، فيسرح به في مسارح
الفتنة، ويشير في نفسه تأثرة العجب، ويمضى به من معنى حسن إلى معنى حسن، حيث
يتصل المعنيان ويتعاكسان. ويقلبان الشاعر بين الإحساس بالإعجاز وبالإعجاب،
فيقول:

نيل مصر لمن تأمل مرأى حسنه معجز وبالحسن معجب
كم به شاب فودها وعجيب كيف شابت بالنيل والنيل يخضب^(١)

والبيت الثاني غاية في الدقة تصوراً وتصويراً، مع سهولة ألفاظه ووضوحها.
لقد ذهب خيال الشاعر مع النيل. وهو يروى الأرض فيسقى الزرع وينمي النبات
 ويفتح الزهر، فيبدو أبيض مشرقاً يملأ فود مصر بياضه. والنيل بمائه وبطينه
ويكسو الأرض خضاباً. وهكذا اجتمع اللونان في خيال الشاعر: البياض
والاحمرار. وهما معا من صنع النيل وفعل يديه، وهما مظهر إخصابه. وذهب
الخيال إلى اعتبار البياض شيباً، والاحمرار خضاباً، واجتمع الاثنان. وصانعهما
معا النيل، وهذا مثار العجب ومحل الإعجاب. ولعل الشاعر في قوله «والنيل
يخضب» يورى بلفظ «النيل» ويقصد الصبغ. وفي البيتين يبدو الارتباط الوثيق
بين حياة مصر وبين النيل، بهذا التأثير والنثر.

ورأى الشاعر شمس الدين بن دانيال الموصلى إقبال النيل راوياً في تدفقه
حديثاً عذبا مسلسلاً. فجعل ذلك تعليلاً لطيفاً، هو سحنة من سحنات الخيال
ورقيق التصور. مزج فيه مزجا جميلاً بين معاني الرى والكرم، كما مزج بين معاني
الرى والرواية.

لقد رأى النيل في أرضه شقيقه، فأكرمه بأن ضمخها له بمائه المصنل. والمناسبة
واضحة بين التضميخ ولون الشقيق، والشقيق يسقى من هذا الماء.

(١) حسن المحاضرة ج ٢٠ باب ذكر ما قيل في النيل من الأشعار،

في كل ذلك أوصاف وصناعة ، ولا ريب . ولكنهما متجهة إلى إبراز محاسن
النهر وكشف مفاتنه ووجوه إبداعه وجمال صنعه .

يقول الشاعر :

كأنما النيل الخضم إذ بدا يروى حديثا وهو ذو تسلسل
لما رأى الأرض بها شقيقه ضمخها بمائه المصنل (١)
ويتحدث ناصر الدين بن النقيب عن النيل . وكأنما هو إنسان ذو دراية
وإرادة . وله عناية بضبط أوقاته وله رأي في ذهابه وإيابه . وفي فهمه وتقديره
لمواعيد حاجة الناس إليه .

ويقول :

كأن النيل ذو فهم ولب لما يبدو لعين الناس منه
فيأني عند حاجتهم إليه ويمضى حين يستغنون عنه (٢)

ولا أدري بالضبط ، متى كان الناس يستغنون عن ماء النيل ، في ذلك الزمان .
لعل ناصر الدين بن النقيب - وهو لا ريب شاعر فطن - يرى أن ذلك وقت التحريق .
وهو وقت ، في زمانه ، لم يكن الناس يزرعون الأرض فيه . أو لم يكن الزراع في
حاجة ماسة إلى مائه لسقيها ، إذ كان الري رى حياض .

وبدهى أن الشاعر يقصد بمجىء النيل ومضيه ، فيضانه وتحاريقه .
وأعتقد أن لو عاش ابن النقيب إلى زماننا ، لغير رأيه . بعد أن انتشر الري
المستديم ، وأقيمت على النيل مشروعات خزن المياه ، وتقنيم السنة إلى دورات
زراعية بحيث لا تخلو أرض من زرعة أو من تمهيد لها ، وأصبحت الأرض
لا تستغنى عن الماء طول العام .

(١) حسن المحاضر ج ٢ باب ما قيل في النيل من الأشعار .

(٢) المصدر نفسه .

ويتحدث إيدمر التركي عن سحر النيل وكيماياته ، ويبين كيف استطاع أن
يحيل لجين تربته ذهباً . ثم وقف راقصاً مبتهجاً بما أشاع من حسن ، وما نشر
من جمال . وطفق يغنى ومغاني مصر تسمعه ، ونسمة الريح ترقص الأغصان على
أنغامه وأناشيده .

يقول الشاعر :

كيمياء النيل خالصة قد أتتنا منه بالعجب
كان من ذوب اللجين فقد عاد بالتدبير من ذهب
راقص بالحسن مبتهج فهو في عجب وفي طرب
ومغاني مصر تسمعه نغمة الشادى بلا صخب
ونسيم الريح لاعبه في خلال الروض بالقضب (١)

وهكذا ألف الشاعر في أبياته الثلاثة الأخيرة حفلاً بهيجاً فيه الراقص
والمغنى والسامع اللاعب بالقضب . .

ويتناول الشاعر نفسه ، منظر النيل وجداوله المنسابة منه ، وهو مقبل سعيد ،
وماؤه يتدفق في جداوله رقرافاً مثل السلسل ، فيأتلق الحسن بذلك ويشرق .
وتكثر ألوان الجبال ما بين مورد ومصنل . وينطلق ماؤه في قيد الرياح . قبالة
من مطلق مسلسل . . .

ويتهجه الشاعر إلى زوارق النيل ، فيراها جميلة المرأى وهى تتحرك على
رقاب الأمواج تسعى بها كما تسعى حيات لينة لدنة ركبته عقارب . . والأسمك
من تحتها فضة مما جمد من ذائب مائه .

يقول الشاعر :

انظر إلى النيل السعيد المقبل والماء في أنهاره كالسلسل
أضحى يريك الحسن بين مورد من لونه حيناً وبين مصنل

(١) حسن المحاضرة ج ٢ باب ما قيل في النيل من الأشعار - وكوكب الروضة ص ١٤٨ .

ويمر في قيد الرياح مسلسلا يا حسنه من مطلق ومسلسل
وترى زوارقه على أمواجه منسوبة للنظر المتأمل
مثل العقارب فوق حيات غدت يسعى بها في عدوها ما يأتلي
وكأنما أسماكه من فضة من جمد ذائب مائه من أول (١)
وبين سعادة النيل وإقباله ، ومائه المسلسل المورد المصنل . والزوارق
الجميلة ، التي هي موضع النظر والتأمل ، والأسماك الفضية . شذ الشاعر بذكر
العقارب والحيات (٢) ، وإن كان التشبيه بهما محبوبا .

وبرهان الدين القيراطي تحلوه موارد النيل ومصادره ، ويدعو ألا يبعد عنه
شاطئه ، ويفضله على أنهار الشام ، ويرى له شيئا وأخلاقاً حسنة محمودة لا تفاضله
فيها الأنهار الأخرى .

ويشعب الشاعر بمن حول النيل من الملاح الحسان ، وما ينبت حوله
من غصون بان . . .
يقول الشاعر :

خليلى بحر النيل لاشط شطه موارد تحلو لنا والمصادر
فدع عنك أنهار الشام ولا تكن لكوثره بالنزر منها تكاثر
له شيم فى الحسن ظاهرة علت تدور على الأنهار منها الدوائر
بجانبه تسمى الملاح كأنها بساين فيها للعيون مناظر
فكم غصن بان فيه للعين نرجس وللخد ورد عاطر الزهر ناضر (٣)
وإذا زاد بحر النيل ، رأى فيه البرهان القيراطي عجائب وحسنا وفضلا
لا يخفى عن ذوى الفضل ، إذ يصبح ماؤه سكر المذاق وتلعب أمواجه وتراقص ،

(١) حسن المحاضرة ج ٢ باب ما قبل فى النيل .

(٢) كما تقول الدكتورة نعمات أحمد فؤاد - راجع كتابها « النيل فى الأدب المصرى » ص ١٨١ .

(٣) ديوان القيراطي ورقة رقم ١١٦ .

وتدور من فوقها الجوارى . . وتجبر القلوب بكسر سد خليجه . .

يقول القيراطى :

إذا زاد بحر النيل زاد عجائبنا وحسنا وفضلا ما اختفى عن ذوى الفضل
حلا منه ماء سكرى مذاقه بإجماع أهل الذوق والعقد والحل
يروق لإخوان الصفاء مكرراً فأكداره عين الصفاء المستحلى
وكم لعبت أمواجه وتراقصت ودارت به تلك الجوارى على رجل
وجبر قلوب الناس فى كسره كما بمقياسه قد جاز مقياس ذى العقل (١)
وجبر قلوب الناس فى يوم كسر السد ، حقيقة لا مجاز ، وواقع لا صنعة
فيه ، وإن بدا طباقا ، وطباق ذاكرة - كما يسميه الدكتور شوقى ضيف (٢) -
وذلك لأن فى يوم كسر السد تقام الحفلات وتوزع الصدقات ، وتروج الأسواق
للبيع والشراء . وهذا فضلا عن أنه يرمز إلى وفاء النيل ، وبوفاء النيل يستحق
الخروج . وهو إيدان بسقى الأرض وتسجيل لإنجازها بالحصاد والثر . وفى كل
هذا جبر لقلوب الناس . . .

وحقيقة استغل الشعراء لفظى والجبر والكسر ، فى كثير من الأبيات التى تحدثوا
فيها عن خليج النيل وسده . وسافروا المطابقة بينهما فيها . . وتلك بركة من بركات
النيل ، وجانب من الثراء الذى يهبه . وليس الثراء اللفظى أو المعنوى ، وإعطاء
القدرة على التصرف فيه ، شيئا قليلا . . على رغم المكابرين . .
وكما استغلوا هذين اللفظين ، استغلوا ألفاظ : الوفاء . والزيادة . والماء الحلو .
والماء السكرى . والسكال . وغيرها من ملابس النيل .
والبرهان القيراطى أحد هؤلاء الشعراء . وفى جملة شعره عذوبة ورقة ،
ومعنى وجمال تصوير وعمق شعور معا .

(١) ديوان القيراطى ورقة رقم ٩٩ .

(٢) راجع الفن ومذهبه فى الشعر العربى عند كلامه عن أبى تمام .

وقد زاد النيل في عام ، فعبر عن الزيادة «بالسمو» ، واعتبر جرى مائه فوق
الحصباء والجنادل مددا لفخارها على النجوم والشهب ، ويقول في ذلك :

سما نيل مصر كل بحر وجدول فأبحرها تغنو له والجداول
جرى فوق حصباء الجنادل فاعتلت وفاخرت الشهب الحصى والجنادل^(١)
ولعب بلفظي «الوفاء والكسر» ، فقال :

جفنى وجفن الحب قد أحرزا وصفين من نيلك يا مصر
جفنى له يوم الوداع الوفا وجفنه الساجى له الكسر^(٢)

واستعمل «الكال والزيادة» ، فنسبهما إليه مع «الفضل» ، كما نسب إلى تياره
الأوصاف والشيم الطاهرة . . قال :

نيل مصر كال في زيادته وفضله غير مخفى ومكتم
إذا بدت لك من تياره شيم رأيته طاهر الأوصاف والشيم^(٣)
و «حلا» ، نيل مصر في ذوقه فكان «سكرأ» ، أغنى النديم عن «السكر» ،
لذلك يطلب إليك «تكراره» ، هكذا بلغ ماء النيل لدى البرهان القيراطى ، في
حلاوته ، مبلغ الخمر ، بل فاقها لأنه يغنى عنها ، ولا يشعر النديم معه بحاجة إليها .
يقول القيراطى :

حلا نيل مصر فهو في الذوق سكر وأمداحه في كثرة عدد القطر
فكرر على سمي أحاديث وصفه فسكرها يغنى النديم عن السكر^(٤)

وتبارى الشعراء وتسابقوا ، في وصف كسر الخليج وبيان فضله وذكر مياعده ،
وما يتصل بذلك أيام فيضان النيل .

(١) ديوان القيراطى ورقة رقم ١٠٩ .

(٢) (٤ ، ٣ ، ٢) ديوان القيراطى ورقة رقم ١١٨ .

وذكروا المقياس ووروا بأذرعه وأصابعه ، وشيوا به وبمازحه ، وسجلوا
له أياما من أيامه ولياليه .

ويقول إياس بن عبد الله الذهبي - المولود عام ٦٨٧ هـ ، في كسر الخليج :
كسر الخليج وكان ذلك نعمة سرت قلوب المسلمين بسره
ومن العجائب والغرائب أنه جبرت قلوب المسلمين بكسره^(١)
ومثله قول الشاعر شمس الدين بن المشد :

لله در الخليج إن له تفضلا لا نزال نشكره
حسبك منه بأن عادته يجبر من لا يزال يكسره^(٢)
ويذكر ابن إياس الحنفي المؤرخ ، وفاء النيل وكسر خليجه وجبر القلوب به ،
ويورى فيها وفي غيرها ما شاءت له صناعته ، قال :

يا نيل مصر كم يد لك بالوفا أوليتنا بالكسر جبرا دائما
قد زدت قبل الكسر خمس أصابع كرما فكانت للوفاء خواتما^(٣)
وينتزع تقي الدين بن حجة الحموى توريته من ملابسات النيل . فيقول وهو
يمدح الملك المؤيد شيخا يوم كسر الخليج - وكان قد بلغه أن الأمير نوروز
الحافظى ثار فى وجهه ببلاد الشام ، ووصل إلى غزة محاربا - ويتنبأ ابن حجة
بهزيمة نوروز ، فتتحقق نبوءته :

أيا ملكا بالله صار مؤيدا ومنتصبا فى ملكه نصب تميز
كسرت بمصرى نيل مصر وتنقضى وحفك بعد الكسر أيام نيروز^(٤)
والنيروز عيد يعقب يوم الكسر . وقد قتل نوروز الحافظى بعد قليل .

(١) الدرر الكامنة ج ١ رقم ١٠٩٦ .

(٢) الدرر الكامنة ج ٣ رقم ١١٦٨ .

(٣) بدائم الزهور ج ٤ حوادث عام ٩١٥ هـ .

(٤) تأهيل الغريب باب بقية الدلائل .

وللشهاب المنصوري دفقة شعورية عميقة ترجمها شعرا ، طاف به وبأبياته حول النيل في عيد وفاته ، حتى أودعها مرأته ومشاهده .

لقد حمد الله في أول أبياته على وفاء النيل ، واعتبر ذلك وفاء من محبوب ، ووفاء المحبوب مأمول . ونعى في آخر أبياته على من يرغب عن نيل مصر ، واعتبره غافلا ، وعالنه بأن قلبه مجبول على حب هذا النيل .

وما بين البيتين صور وأخيلة ، من صور النيل ومشاهده الجميلة ذات الحسن وذات النعمة . وبذلك كله صارت أبيات هذا الشاعر تسديحا نبیلا ودعاء لله وصلاة ، في يوم الوفاء .

ولقد تابعت عين هذا الشاعر الوصاف ، جواد النيل في جريه ورأى زبد الأمواج يحجل سيقانه . والنيل لا يسعى إلا إلى الخير ونشر الخصب . ورأى حبيبه طافيا ينثره ، فكأنه منهل للراح . ونسيم الصبا يباكره في الصباح فيجمع صفحته فتبدو كاللأمة . والريح تسل أمواج النهر صوارم تقتل محل الأرض . والسفن على سطحه جوار غادية مزدانة ، تزورك وتصلك وتهب لك ما تشتهي دون عسر ولا ممانعة ، فإزارها قبل أن تلقاك محلول . ! فما أطوعها . !

ويأبى خيال الشاعر البارع وإحساسه العميق إلا أن يقيم من الأمواج والشط وخير الماء والروضة والأغصان والزهر وأوراق الدوح وعناقيدها وغيرها ، حفلا ، أو قل عرسا ، كتملا تغشيه الفرحة ويحدوه السرور .

فالشط دف والأمواج تلعب به ، والخير يغنى باطراد ، وجزيرة الروضة غانية حسناء شغل النيل قلبها ، والأغصان تيمس وترقص وتشرب من الماء فيحلو ريقها . وقد لبست من حلل الزهر الخضر ما لبست ، ووضعت على سورها الأكاليل ، وامتدت أوراق الدوح خياما مظلمة ، ولاحت العناقيد كالقناديل . وتدلّت العشاكيل فلأند من الياقوت تحلى بها النخيل . . إلى آخر ما صور .

إن هذا الفرح الشامل ، والحفل الملتئم ، إنما شمل نفس الشاعر والتأم معها .
جال في خاطره ونما في خياله ، واتسعت له نفسه . ثم فاض على لسانه معبرا عما
وعاه في حسه الباطن من فرح بالنيل واحتفال بوفاته .

قال الشهاب المنصوري :

الحمد لله أوفى وعده النيل	إن الوفاء من المحبوب مأمول
جری جوادا فمن داراته غرر	له ومن زبد الأمواج تحجیل
ينظم الحب الطافي وينثره	كأنه منهل بالراح معلول « معلول » « معلول »
كأنه والصبأ صبأ تجمعه	من نسج داود في الهيجا سراويل
كأن أمواجه والريح تنشرها	صوارم بظباها المحل مقتول
كأنما السفن غادات جسرین به	لها المراسى شنوف أو مراسيل
من كل جارية كالخود زائرة	إزارها قبل أن تلقاك محلول
كأنما الشط والأمواج تلطمه	دف لها وخرير الماء موصول
كأنما الروضة الغناء غانية	بحسنا قلب هذا النيل مشغول
أغصانها من غصون الدوح مائسة	وريقها من زلال الماء معسول
من سندس الزهر الزاهي لها حلل	خضر ومن سورها العالی أ كاليل
ومدت الدوح من أوراقها خيما	ومن عنا قيدها لاحت قناديل
وللنخيل إذا ماست قلائد من	حمر اليواقيت حاكنتها العناكيل
لا غرو أن سحرت عيني وخيل لي	بأنها ذهب وهي المشاتيل
يا من له رغبة عن نيل مصر أفق	قلبي على حب هذا النيل مجبول ^(١)

وبدر الدين البشتكي يذهب هذا المذهب في حب مصر وعشق النيلها ، واحتفال

(١) كوكب الروضة للسيوطي ورقة رقم ١٤ - والشنف : بفتح الشين القرط الأعلى ، أو معلق في قوف الأذن ، والقوف أعلى الأذن أو مستدارسها .

نفسه بوفائه ، وابتهاج خاطره بما يصاحب الوفاء من مظاهر الحياة والنشاط .
وهو على حبه لمصر وكرامتها عنده إلى درجة يهون معها على نفسه أن تهون
دونها ، وتبقى لها هي قداستها وكرامتها ، يتأني قليلا على هواها ، ويتردد دون
الإقامة فيها . . . فلعل هناك من أمور الحياة ما كان يشق عليه ، ويدفعه حينذاك
إلى هذا التأني والتردد . ولقد ذكر أنه رأى ربيع العيش فيها محرما ، وأن النيل
إذا ما طمى ازداد الفتي ظمأ . . . أعتقد أن هذه رموز إلى ما كان يشق عليه حينذاك
ويشقيه ، من ضيق عيش أو تنكر حياة ، أو جحود صديق ، أو نحو ذلك من
أكدار الحياة .

على أن الشاعر ما لبث أن عاد الصفاء إلى نفسه ، وعاد الحب طاغيا على
إحساسه ، وشاع الفرح والرضا على مشاعره ، فنضح هذا كله على أبياته هذه التي
تضمنتها إحدى مدائحه للقاضي برهان الدين بن جماعة يقول :

خليلى من مصر أشيرا على فتي	يهون عليه أن يهون وتكرما
أأرحل عنها أم أقيم فإني	رأيت ربيع العيش فيها محرما
نعم أنال النيل فى مصر إنه	إذا ما طمى يزداد فيها الفتي ظما
على أننى أهوى هواه وناظرى	إذا ما جفاها أنجم الدمع أنجما
فذلك أيام الوفاء بروضة	وشملى على منشورها قد تنظما
إذا المشتهى المعشوق جاد بمنتهى	مراعى وبالمقياس همى تقسما
وكم من حسود سره سوء حالى	فلما رآنى فى البريم تبرما
كأن الغصون المائسات رواقص	شربن مدا ما حل ثم محرما (١)

والشاعر يتحدث فى أبياته عن جزيرة الروضة وعن بعض منازل مصر بها ،
وهى المشتهى والمعشوق ، كما سنشير إليه بعد .

وعلى نمط من هذا الشاعر ، يمدح شهاب الدين بن حجلة المغربي الأمير يلبغا العمرى يوم كسره الخليج . وما يلبث وهو في غمرة المدح ، حتى ينساب إلى النيل ، فيعمر بذكره وبأوصافه ونعت مشاهدته ، عددا من أبياته .

وهى من قصيدته التى مطلعها يذكر فيه حبيبه ويقول :

أتانى من نحو الحبيب بشير فكدت إليه بالسرور أطيّر
حييت إذا ما لاح دينار خده فإني إليه ما حييت فقير

وهو مستهل بارع ، كما ترى ، لمناسبته لموضوع القصيدة ، ولأنه يتحدث بوضوح عن نوع العاطفة التى دفعت الشاعر إلى النظم ، وهى العاطفة التى صاحبته فى جميع أبياته . وتلك دليل صدق شعوره .

فالشاعر أتاه بشير من قبل حبيبه . ولا بد أنه بشره بوصوله أو بوصاله ، فكاد من أجل ذلك يطير سرورا . وبين المعانى ، وبين وفاء النيل ، مناسبة واضحة .

وبعد أبيات من هذا النمط . انتقل الشاعر إلى ذكر النيل والتشبيب به . واندفع به شغفه إلى التحليق بخياله والطواف بمصورته ، ليجمع من زوايا خاطره ما استطاع من محاسن النيل ومفاته .

لقد رأى قلاع الزوارق البيضاء رايات عليه معلنة بالوفاء . ورآه حصنا لمصر حصنها فى علا سعادها ، وبه دارت سواقى مصر فى كل روضة تقتل الجذب وتثير الخصب . وطير الماء يبشر فتعم الفرحة ، وحباب مائه كأنه كواكب تضيء . وكأن ماءه يزحف بكتائب وعسكر جرار . وشقيق الروض حول إقاحه خدود وثغور ، وقدود الغيد فى روضه غصون فوقها بدور . . الخ

بهذا النغم المشحون بالمحبة ، المليء بالتقدير ، يسوق ابن أبى حجلة أبياته .

فيقول :

أرى الراية البيضاء على النيل بالوفاء إذا لاح لى قلع عليه كبير

وحصن مصر في على السعد عندما غدا وله حول المنازل سور
وبات به محل البلاد مفرقا وبات لميت القلع فيه نشور
ودارت سواقي مصر في كل روضة على مثلها كان الخصب يدور
وبشرطير الماء فيه غرابه فكاد بأرياش القلاع يطير
نعم طار فوق الماء وهو محلق وعم البرايا فرحة وسرور
ومنها :

كان حباب الماء فيه كواكب تضيء فتبدو تارة وتغور
كان لزحف الماء فيه كتائب لعسكرها الجرار فيه عبور
كان شقيق الروض حول أقاحه خدود على وجه الربا وثغور
كان قدود الغيد في الروض حوله غصون ومن فوق الغصون بدور^(١)

ومدح ابن أبي حجلة أيضا خليفة عصره أمير المؤمنين المعتضد بالله أبا الفتح
أبا بكر ، عام ٧٦٢ هـ ، فأنساب أيضا الانسيابة نفسها ، إلى النيل ، ووثب بخياله
إلى صورته الجميلة ، الوثبة نفسها .

فيراه إذا ما بدا الخليفة وماؤه كدر . صفابه عين البرية وشنف سمع الأرض
بالقرط ، وحلى جيد الروض بالزهر ، فباح تمامه بطيبه . وجلا خد الشقيق
بحمرته . ويرى له تكرما ، وهو في أرض الكرم ، فيسقى أشجارها
ويوالها ... الخ .

يقول ابن أبي حجلة عن النيل ومصر ، ويورى ببعض ألفاظه :

إذا ما بدا والماء فيها مكدر رأينا به عيش البرية صافيا
يشنف سمع الأرض بالقرط دائما ويترك جيد الروض بالزهر حاليا
يذكرني رشف الثغور أقاحها ولم أكن ناسيها ولا متناسيا
فكم روضة تمامها عرف طيبه إذا ما أمنا عدله بات واشيا

(١) كوكب الروضة ص ٨٧ .

بفهم على خد الشقيق إذا غدا بروضته الفيحاء بالحال جاليا
فللنيل في أرض الكروم تسكرم يروى بها أشجارها والدواليا .. الخ^(١)

ومما يدل على أن النيل كان شغلا شاغلا لشعراء مصر - وإذا نحن لم نستثن
منهم واحد في هذا المقام لا نكون مبالغين - أن أحدهم وهو الأديب بدر الدين
ابن الحاجب نظم فيه مجموعة من الأشعار مستقلة ، سماها « مقطعات النيل » .
قال الجلال السيوطي : « إن بدر الدين هذا ، نظم مقطعات النيل وأفردها في
ديوانه في جزء منه سماه بهذا الاسم وهي مقطعات كثيرة العدد تدور حول
وصف النهر وبيان محاسنه ووصف مائه ورياضه ومقياسه ووفائه ، إلى
غير ذلك . وقد سجلها السيوطي - أوسجل بعضها - في كتابه « كوكب
الروضة » .

ومن هذه المقطعات قوله :

قد فاح للرياض نشر عطر أطيب من روائح الشباب
وكيف لا والنيل يسقي دوحه من مائه المصنل المذاب^(٢)
ومنها قوله :

في النيل طين ومسك ثناؤه خير عطر
فأعجب له حين وافى ممسكا وهو يحرى^(٣)

ومنها :

محاسن بحر النيل لم تحص عدة فقد طاب مسموع لهن ومنظور

(١) المصدر نفسه ص ١٦١ ، ١٦٢ - وقوله . بدا ، يريد الخليفة المعتضد بالله العباسي ، إذ
أن الأبيات قبل في مدحه . ورأينا به أى بالنيل . - وبشلف : يضع الشف أى القرط -
أو يمع الألحان ،

(٢) (٣) كوكب الروضة ص ١٥٤ .

تخلق بالوصف الجميل على المدى وزاد على حسن الوفا وهو مكسور^(١)

ويضج الناس ويجارون بالشكاية كما نوهنا - إذا لم يصل ماء الفيضان إلى حد الوفاء - وهو ستة عشر ذراعا - إذ أنهم في عامهم ، يتوقعون الجذب فالقحط فالغلاء فالجوع والخوف ، فالأدواء والأوباء والموت .

وكان الشعراء اسانهم في إعلان هذه الشكاية ، وفي وصف ما يعانونه من مضاعفات عدم الوفاء .

وشكوى الشعراء في هذا الباب أوثق صلة بالفصل الرابع الآتى الذى نحدثك فيه عن أثر البيئة الاجتماعية ، فلنرجئها إلى حينها .

على أن نشير في وجازة إلى شيء منها لمناسبة حديثنا عن نهر النيل . فلقد بلغ ارتفاع فيضانه في عام ٦٩٣ هـ إلى خمسة عشر ذراعا وثلاث . فغلت الأسعار وتضاعفت نتائج هذا الغلاء .

وقد قال شهاب الدين البزاعى في ذلك قصيدة طويلة سنشير إليها في الفصل الرابع المذكور . وهى التى قال فى أوائلها :

ولما غاض بحر النيل فاضت دموع من محاجرهم سحام
ومد به من الأموات سبيل لنقص عيابه من تمام . . الخ^(٢)

وفى عام ٧٠٩ هـ توقف النيل عن الوفاء أيضا وارتفعت أصوات الشكاية . وقد نظم الشهاب محمود الحلبي الأديب الكاتب الشاعر أبياتا طلية تمثل وجهة من وجهات الشعب ، ووصف فيها بعض أحواله حينذاك وما يعانيه ، ونعود إلى ذكرها أيضا فى الفصل الرابع .

وننوه هنا بالوجهة التى اتجهها الشاعر ، وهى مخاطبة النيل وسؤاله عن جريانه

(١) المصدر نفسه ص ١٥٥ .

(٢) كوكب الروضة للسيوطى ١١٣ .

وفاته . أبامر من ربه يجرى وبني ، أم بأمر من عند نفسه . فإذا كانت الأولى فليجر وليف . وإذا كانت الثانية فلا داعي للجري ولا للوفاء ، والله كفيل بأن يبسط بره في البلاد . كما بسطه في بلاد غيرها ، لا يجرى النيل فيها .

يقول الشاعر :

يأبها النيل المبارك إن تكن من عند ربك تجر فاجر بأمره
أو إن تكن من عند نفسك آتيا فالله يبسط بره في بره
كم من بلاد است تعرف أرضها ملأ الإله بيوتها من بره .. الخ (١)

وهذه عقيدة إسلامية سليمة . وقد وضع دستورها العالي أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ، في كتاب كتبه إلى النيل - على ماروى - في حالة بمائلة ، وقال له هذا القول .

وفي عام ٨٥٤ هـ لم يف النيل ، فشرقت الأرض ووقع الغلاء . وقد نظم في ذلك الأديب الشاعر شمس الدين النواجي ، أكثر من مقطوعة أو قصيدة . ومن ذلك قصيدته التي أولها :

رب العلى نشكو أذى القحط والغلا وما مسنا فيه من الضر والبلا (٢)
وسنعود إلى هذه القصيدة في الفصل الرابع أيضا .

تسبيحة النواجي أو تغريدته :

وفي العام التالي وهو عام ٨٥٥ هـ وفي النيل كمعاده ، فامتلات القلوب بشرا ، والنفوس مسرة ، وزلت المشاعر لشكرته والحمد على آلائه وأنعمه . وقد بدأ ذلك على لسان الأديب الشاعر شمس الدين النواجي نفسه . فنظم

(١) كوكب الروضة للسيوطي ص ١١٩ ونسب الأبيات إلى الشيخ نور على سبط عمر بن الفارض .
والأبيات مبنية أيضا في الدر الفاخر * للدواداري ونسبها إلى الشهاب محمود الحلبي وهو ما ترجمه .
وفي البيت الأول جزم الفعل بلا جازم .
(٢) كوكب الروضة ١٥٣ ص .

قصيدة فريدة في مشاعرها مليئة بالعاطفة جياشه بالشكر والفناء، مزروحة بمختلف
الأوصاف للنيل . مما يحدونا إلى تسميتها بتسيحة النواجي أو تغربده أو ترنيمته،
وهي خالصة لوجه النيل ، في أكثر من خمسين بيتا .

لقد بدأ فحمد الله سبحانه وتعالى . وبين سبب ذلك هو أن الله تآذن للنيل
فوافى ووفى . لأن في وفائه الخير والبر والبركة ، وفيه الخصب والنماء ، وفيه
الرخص والرخاء . — وبما يضاعف الحمد ويدعو إلى كثرة الثناء على الله تعالى أن
هذا الوفاء جاء عقب انقضاء العام المنصرم ، عام ٨٥٤ هـ ، الذى عانت البلاد من
جرائه ما عانت . فأذهب الله عنها العناء وبل غلة قلبها بهذا الوفاء . يقول .

الحمد لله وافى نيلنا ووفى وبل غلة قلب كان قد نشفا

وها هو ذا ماء الحياة يعود منهمرا إلى الزرع ، جاريا فى مجاريه ، فياضا بأياهه .
وهو بها كلف وإليها دنف ، فيحيى موات الزرع على جانبيها ، ويعيد الحياة على
ضفتيها ، ويحشئ المحل ويقطع الجذب ويزيل السقام وينشر البرء والشفاء . .
يقول :

وعاد ماء حياة الزرع منهمرا إلى مجاريه فياضا بها كلفا
نعم جرى الماء فى عود الحياة ودب البرء فى السقم ممزجا بكل شفا
هذا النهر الكريم الطيب عنصره ، الرضى خبره ونخبه ، اللذيز ربه ومرتشفه ،
إنما همى ينبوع كوثره من الجنان ، وما أولى من الجنان أن يكون مصدره ،
وجوهرها يحدث عنه جوهره . يقول :

من الجنان هما ينبوع كوثره يا طيب عنصره ربا ومرتشفا
جرى على أجل العادات منبسطا ولا توقف يوما لا ولا وقفا
وفى البيت الثانى يقظة عاطفية فذة نبيلة . لقد سجل الشاعر أن النيل جرى على أجل
عاداته ، وأنه لم يتوقف . والعبارة فى قوله : «ولا توقف يوما» تحتل العموم . وهو
الاحتمال الذى نفسرها به . والمعنى أن النيل لم يتوقف قط لافى هذا العام ولا أى

عام آخر . لقد تناسى الشاعر - أو نسى نفسه - في نشوة الوفاء ، أن النيل لم ينف في العام الماضي ، وأنه قال في ذلك شعرا . وهكذا غفرت المحبة الذنب للمحبوب ونسيت ماله من ذنوب . . . (١)

ويمثل النيل في خيال الشاعر ، ملكا ، إنما جاء ووافى لينظر في أمر رعيته ، وليكشف عنها الضر ، ويدبر لها الخير .

كأنه ملك وافي لينظر في أمر الرعية إن ضرا رأى كشفها
وقد استعد لمقاتلة الجذب ودفع الضر كفاح الغلاء . فلبس جوشنا مزردا
حاكته له كف الصبا ، وساق من خلفه جيشا عظيما لجبا من أمواجه ، زحف
به على جيش الغلاء . وطاف به البلاد وجاب الأرض وهو يقتنى أثر الغلاء في كل
مكان ، لكي يحويه ولكي يصلح ما أتلفه . وكأنما هو يتحرى المواقع التي تحتاج
إلى سقي فيسقيها ، والمعاهد التي تشرئب إلى الري فيرويها . يقول :

حاكت لجوشنه كف الصبا زردا بجيش موج على جيش الغلا زحفا
طاف البلاد وجاب الأرض مقتفيا آثاره يتلافى منه ما تلفا
كأنما يتحرى في تعمده مواقع السقي أنى سار أو عكفا
والأدلة على تحريه مواقع السقي ، ما تراه بصعيد مصر ، فكلم به من منية يممها ،
وما تراه به من فلك جوار عليه في أسنى مطالعها . وما تراه من بحر يوسف الذي
أبدى أحسن منظر ، وما تراه بحلوان لما أهدى إليها حلاوته ، فجذبت إليها أهل
الشوق إلى اللقاء ، والمدنفين . يقول :

كم منية من صعيد الأرض يممها بالمسح من وجهها القبلى ما انكشفها
باهى بها الفلك في أسنى مطالعها جواريا ذات ألواح تلت صحفا
وبحر يوسف أبدى حسن منظره بالصب في ألف يوم قد صفا وصفا
ومنذ أهدى بحلوان حلاوته راقى ببال مشوق للقا دنفا

(١) لشمس الدين النواجى قصيدة لامية في شكوى الجذب والغلاء بسبب نقصان النيل عام ٨٥٤ هـ ، راجع كوكب الروضة للسيوطى ص ١٣٥ - وأشرنا إليها قبل سطور .

واستمر الشاعر واستمرت عاطفته وخياله في إبراز هذه المحاسن والصفات التي اتسم بها هذا النيل الوافي الجريء الذي ماشاب مفرقه هرم ، ولا رجف قلبه من هول . وجاء ركضا وسيم الوجه رثيفا شافيا منحدرًا من أعلى الصعيد ، يقذف إلى الوري أرزاقها، حتى ضرب الفسطاط وانعطف حول المقياس ، فدقت البشائر في مصر بقدمه ، وأشير إليه بالأصابع بل بفيض فضل أياديه . . . يقول الشاعر :

ما شاب مفرقه الميمون من هرم ولا أبو الهول منه قلبه رجفا
بل جاء ركضا وسيم الوجه يسبح في تياره وعلى التكرور كم رافا
قد زيد في حرثه فأنساب منطلقا فدانه وسقى ماء الحيا وشفا
وافي بمفرده من قوص منحدرًا في كلة وبأرزاق الوري قذا
خلقا لعمود الصبح قد ضرب الفسطاط حين رأى المقياس وانعطف
دقت بشائره في مصر وانتشرت راياته بقلوع آذنت بوبا
وافي يشار إليه بالأصابع بل بفيض فضل أياد عهدها سلفا
أرخی على الناس ستر العدل فانتشروا في روضة من شذاها أصبحت أنفا^(١)

وامتدت مياه النيل ودارت حول سوق الأشجار ، فطوقها خلاخيل ، وغذتها فبدأ عليها من طلوعها تحف من القلائد . والنبت كان في وحشة إليه ، والأرض تحملت بحمل من أياديه ، ولبست شنفا من قرطه . وأصبحت الأرض بسعة مياهه فيها وانتشارها على سطحها تحكي السماء . بينما أصبحت السماء نفسها تحكيه - تحكي ماءه بانتشاره فوق سطح الأرض - بما بها من أنجم وبروج . . . فكلاهما جرت فيه الأفلاك . وكأنما النيل مرآة مصقولة جللت بالصقل وصفت كما صفا . يقول الشاعر :

(١) الفدان الثور أو الثوران يقرن بينهما للحث . - والكلة بكسر أوله : الكلال والإعياء . والستر الرقيق ، وغفاء رقيق يتوق به من البعوض .

صيغت خلاخيل الأشجار منه ومن قلائد الطلع حلى جيدها تحفا
واستوحش النبت حتى الأرض في حلال تجلى ومن قرطه قد ألست شفا
تحكى السماء وتحكيه حلى وغلى وأنجا وبروجا كم حوت شرفا
كلاهما جرت الأفلاك فيه وقد حفت بحافته الأملاك فانتلفا
كأنما هو مرآة لها جليت بالصل أو هي مرآة صفت وصفا
واستمر الشاعر في تغريدته أو ترنيمته يحدث عن النيل وفضله ، وعن
مائه وكرمه ، وعن جماله ومشاهده . في أبيات على نمط بما أوردناه من هذه
القصيدة الفريدة ، حتى رآه قد رق طبعا حتى إنه ليؤثر في الحجر :

قد رق طبعا فما أحلى زوائده في الذوق لومر في قلب الصفا لطفنا
ولا يقيس به ابن ماء السماء ولا ابن زائدة ، ولا أبادلف ، أولئك الذين
عرفوا بالجود واشتهروا بالسماح ، بل هم قطرة منه :

فما ابن ماء سماء وابن زائدة وقاتل المحل جودا أو أبو دلفا
إلا كقطرة ماء منه قد قطرت بل كلهم من ندى راحاته اغترفا

وتأسر الشاعر عقيدته الإسلامية مرة أخرى ، فيرى أنه لو لم يكن للنيل من
مفخرة إلا أنه جرى ليروى آثار النبي لكفاه بذلك نفرا . . . وهكذا تتدخل
العقيدة فتوجه الشاعر نحو ما يريده من التورية اللطيفة المداعبة في لفظ « آثار
النبي » فإن الشاعر - ولا ريب - يقصد به المكان المعروف جهة القسطنطينية .
وإلا فما هي آثار النبي التي يرويها النيل ؟

يقول الشاعر :

لو لم يكن في سراه من أقاصى أسوان وقوص إلى أن عاد وانصرفا
إلا ليروى آثار النبي ومن روى الورى بغواذى كفه لكفى
واستمر الشاعر في ملابسات لفظه هذا ، فقال مرفها عن عاطفته الدينية

ومشبعها لها :

محمد صاحب الحوض الروى إذا ما جاءه الوارد الظمآن ملتفها
من نال منه شرابا فى القيامة لم يظماً وصادف ربا فيه كل شفا
من نيل منه كم راح مغترفا ظام وبالفصل منه جاء معترفا

وتلس ظرف الشاعر واطف حسه ودقة تخيره لألفاظه فى هذه الآيات
الثلاثة ، بخاصة ، وهو يتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد تخيرها من
« وادى المياه » لمناسبة الحديث عن النيل . فالحوض والروى والوارد والظمآن
والشراب والرى والمنهل والمغترف والظامى . كلها من هذا الوادى . . وهذا ذوق
شعرى جميل لا ينسکر . .

واستمر الشاعر فى روحانيته هذه حتى اتجه بجمع نفسه إلى الله سبحانه
وتعالى « منزل الغيث » ، يدعو ويجار إليه بالدعوة أن يرفع عن مصر الغلاء ،
ويقبها ناره التى عفت ربيع الرخاء ، وأن يدرك أمته الضعيفة بمغفرته وحنانه
ورحمته . ويختم تسميته هذا بالصلاة على رسول الله . يقول الشاعر :

يا منزل الغيث فضلا بعد ما قنطوا وناشر الرحمة العظمى بحسن وفا
ارفع بيمتك عن مصر الغلا وقنا صعيد نار بهار ربيع الرخاء عفا
لبيك لبك داركنا بمغفرة وجد حنانك وارحم أمة ضعفا
وصل أزكى صلاة والسلام على نبيك المصطفى الراقى الذراشفا
ما انهل فى الجذب غيث قد طغا لجنى أيا ناع الزهر كيف الخصب واقتطفا^(١)

وهكذا اختتم الشاعر تسميته بلفظ « أنهل والجذب ، والغيث ، وجنى ،
وأيا ناع الزهر ، والخصب . والاقتطاف . .

وبعد فلعل هذه القصيدة تفنن الكثيرين ممن يهتمون شعراء العصر ،

(١) كوكب الروضة للسيوطى ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

بانصراف نفوسهم عن وعى ما ينبغي من عواطف ومشاعر نحو هذا النيل المبارك، وبضيق تعبيرهم عنها، وبتلهمهم دون وصفه، إذا عرضوا له، بالصناعة اللفظية...

وأود أن أضيف إلى ما عرضته من مظاهر عواطفهم ومشاعرهم نحو النيل، أحد اتجاهاتهم بها. لقد اتخذوا من النيل موضوعا للإلغاز، وهى وسيلة من وسائل وصفه وبيان محاسنه.

ومن ذلك ما نظم بهاء الدين أبو حامد السبكي إلى صديقه صلاح الدين الصفدى ملغزا فى النيل، وذلك فى قصيدة طويلة. وقد رد عليه صلاح الدين الصفدى حالا هذا اللغز، بقصيدة أخرى من بحره ورويه. (١)

ونظم الشهاب المنصورى لغزا فى النيل كذلك، فكان من أبياته:

حلو اللى أحببت من إدباره	مثل الذى أحببت من إقباله
حسن التماثل لا يمل وصاله	أبدا ومن لمحبه بوصاله
طلق المحيا إن بدا متبسما	قوت عيون نسائه ورجاله
فى كل وقت يشتهى لا سيما	فى حال بكرته وفى آصاله
قطع الطريق أقل ما يعزى له	والناس تشكره على أفعاله
ومن العجيب العجز عن إمساكه	مع لين جانبه وقرب مناله (٢)

وحسبنا ما بينا دليلا على ما نعتقد، من أن النيل حل من الشعراء محل القداسة والمحبة، ونزل منزل الإجلال والتقدير. وأنهم ذهبوا فى التعبير عن عواطفهم نحوه كل مذهب، وراحوا خلف وصف مفاتنه كل مراح، وأنهم

(١) كوكب الروضة ص ١٤٢، ١٤٣، وفيهما نص اللغز وارد عليه،

(٢) كوكب الروضة للسيوطى ص ١٤٣

عرفوا فضله وكرمه ، وشكروا له جوده وسماحه ، والتسوا منه بربه وخيره .
وسنرى فيما يلي ، صفحات لهم أخرى ، فى حب النيل وطبيعة مصر ،
ووصف مشاهدهما . (١)

الروضة والمقياس

وجزيرة الروضة القائمة فى مجرى النيل بين الفسطاط والجيزة ، - وكذلك
مقياسها - كانت إلى ذلك العصر من أهم منازله مصر . وكانت مجلى من مجالى الطبيعة ،
لما فيها من حدائق يانعة وبساتين رائعة ، ولما فيها من نخيل وأزهار وأثمار . فضلا
عن منازله المتعددة فى جوانبها ، كالمشهى وغيره . فضلا عن منظر النيل
الجميل . وقد أحاط بها وسورها بمائه . والسفن والزوارق تغدو وتروح من
حولها ، تحمل المرتاضين واللاهين والمتفرجين بها ، ما بين إخوان وخلان ، وعشاق
ورفاق . يأنسون بارتياحها ويطمئنون إلى أحضانها ، وينعمون بنعمة الهدوء
والأمن فيها ، ويتفرجون برؤية مقياسها ، ويذكرون فضل الله عليهم ونعمته
بنيلها . وينالون من ثمارها اللطيفة وتحت ظلالها الوريقة ، ما يلتذون به
ويبتهمجون ويسعدون .

والشعراء كانوا فى هذا المألف النضير ، مشاعر حساسة وعواطف جياشة ،
وأخيلة مصورة ، وأسنة معبرة . بل كانوا أنغاما حالية وأناشيد حادية .

قل كان يسكن الروضة كثيرا ، الشاعر المتصوف سيدى محمد بن وفا ، فأضفى على
الروضة من شعره أبياتا روحانية صافية ، أسكنها صورا من صورها جميلة وعدها

(١) من الطرائف ما نقله السيوطى فى كوكب الروضة ص ١٤٤ ، من خط الشهاب الحجازى ، ونسبه
إليه ظنا - مفاخرة طويلة فى ٩٩ بيتا ، على لسان النيل والبحر المالح ، يزهوكل منهما بنفسه ،
ويغتر على الآخر ، فى شكل حوار متتابع ، كل صه فى بيتين . والمفاخرة بالموال العاني .

نعمة من النعم الجليلة ، التي يشكر الله سبحانه وتعالى عليها . قال منها :
رأيت رياض القدس في روضة الرضا على نيل مصر بين تلك المناظر
مناظرها للمناظرين مشارق وفيها وجوه كالبدور البوادر
ومنها قوله :

وتحكي طيوراً عاليات رموسها على النيل فيها ساجحات الشخائر
ويشبه سيب الماء فيها صوارما بأيدي الهناسلت لسلب النواظر
عليها جلال الله جل جلاله وفيها سرير السر بين السرائر^(١)

ويدعو صلاح الدين الصفدي بالسقي لمصر وماحوت من الأئس والأناس ،
ومن المحاسن والمفان في المقياس ، قال :

سقياً لمصر وماحوت من أنسها وأناسها
ومحاسن في مقسمها تبدو وفي مقياسها
ومسرة كاسانها تجلي على أكياسها
وسطور قرط خطها الب اري على قرطاسها
واطافاة بجلالة تبدو على جلاسمها
ونواسم كل المنى للنفس في أنفاسها
ومراكب لعبت بها م الامواج في وسواسها^(٢)

ويتشوق ابن نباتة المصري إلى منازل المقياس ، وتجرى من أجلها مدامعه ،
وهو مغترب بالشام يشق بالحنين إلى وطنه ، فيقول مع التورية النباتية
الطريفة :

أرق له بالشام نيل مدامعي يحريه ذكر منازل المقياس

سقىا لمصر منازل معمورة بنجوم أفق أو ظباء كناس
وطنى سميرت له وشابت لمتى ونعم على عيني هواه ورأسى
من لى به والحال ليس بآسن كدرو عطف الدهر ليس بقاسى (١)

ويتجول ابن أبى حجلة فى الروضة ، فىرى سماءها وغيمها ندا ، ونداها كاسيا
خمائى السندس ، وسفنها من حولها عرائس مقبلة كالجوارى الكدس . فيقول :
أو ما ترى غيم السماء كأنه ند يلوح لنا بأفق المجلس
والروضة الفيحاء باكرها الندى وكسا خمائىها رياض السندس
والسفن تبسو كالعرائس حولها قد أقبلت مثل الجوارى الكدس (٢)
ويأخذ ابن أبى حجلة فى تأليف مهرجان راقص مزدان ، من آلاف روضة
المقياس وهو بذلك يعكس عليها مشاعره وخواطر نفسه .

فهذه ورقاؤها تغنى على عيدانها وتشدو بألحانها . والطل كالدرد قد تناثر عقده ،
والتأم من حباته تيجان رصعت رؤس الزهر . بينما برز البحر - النيل - فى
برده وقد رقت حواشيه وصقلته الريح ... الخ .

يقول :

وكاننا فى روضة المقياس والورقاء قد غنت على العيدان
وشدت بلحن معرب فاعجب لها أرايت أعجم معرب الألحان
فالطل در قد تناثر عقده والزهر منه مرصع التيجان
والبحر قد رقت حواشى برده والريح تصقله بغير توان (٣)

ويتمد نظر الشاعر الوصاف مجير الدين بن تميم ، إلى روضة المقياس ، فيلتقط
منها صورها الجميلة ومشاهدها البديعة ، ذخيرة لشعره التصويرى المبين ، الذى

(٢) كوكب الروضة السيوطى ورقة ١٣

(١) ديوان ابن نباتة ص ٢٦٤

(٣) المصدر نفسه .

لا يفتنع بالصورة الجامدة أو الحائلة ، بل يبت فيها من معالم الحركة المنظورة والمسموعة ، ومن الألوان والظلال ، ما يجعلها حية نابضة متكاملة مثيرة .

يقول مجير الدين :

نظم الهواء بلؤلؤ الأنداء عقدا لجيد الروضة الغناء
شق الشقيق هناك منه جيوبه وتسلسلت فيه جوارى الماء
وبدا الأفاق وثغره متبسم لما تباكت أعين الأنواء
وتناشدت أطيارها ما بينها بلغاتها كتناشد الشعراء
وأثوا بما نشدوه فى أشعارهم بغرائب دقت على البغاء
ألقي الهزار عليهم من درسه فتجادلوا كتجادل الفقهاء

والحركة المنظورة واضحة فى « نظم الهواء لؤلؤ الأنداء عقدا » ، وفى « شق الشقيق الجيوب » ، وفى « تسلسل جوارى الماء » . وفى « الثغر المتبسم » ، وفى « تباكى أعين الأنواء » .

والحركة المسموعة واضحة فى صوت شق الجيوب ، وصوت الماء لتسلسل الجوارى ، وفى تناشد الأطيار ، وفى إلقاء الهزار درسه .

والظلال والألوان واضحة فى لون لؤلؤ الأنداء ، والشقيق ، وثغر الأفاق .

وعلى نمط مما تقدم جرى الشاعر الأديب بدر الدين البشتكى ، فى الابتهاج بروضة المقياس ، وفى وصفها ووصف مرآتها ومشاهدها الجميلة . فقال وذكر « المعشوق » ، وهو أحد منازلها :

انظر إلى مقياس مصر وغن لى من روضة المعشوق فى عشاق
واغفر بمصر على البلاد فليلها يقضى على الأوصاف باستغراق

وتخلخلت منه الغصون ومذعلا دارت دوائره على الأسواق
لله في أفق الجزيرة ملعب كانت نجوم السعد فيه رفاقي
حيث الصبا تصبى اللبيب لأنها تملى عليه مصارع العشاق
تتعانق الأغصان مع إصغائها لسماع نوح الورق في الأوراق
فترى بأذن العارفين تجاهلا أمقام وصل أم مقام فراق (١)

مفترجات مصر

وما دام النيل قد أسلمنا إلى روضته ومقياسه ، حيث المنازه العامرة والحدائق
الناضرة ، لا بد أن نخرج على بعض منازه مصر ، مما تجلست فيه الطبيعة بأعراسها ،
وتجلست بزینتها ، فاجتذبت إليها نفوس الشعراء فتغنوا بها ولفقت خواطر الأدباء
فشدوا بها .

وقد سماها جلال الدين السيوطي في كتابه « بهجة الناظر ونزهة الخاطر » :
« مفترجات مصر » ، فالتزمت هذه التسمية لدقتها وطرافتها .

ومنها « المرصد » . وفيه يقول علاء الدين الوداعي مع التورية :
وليلة عاش سرورى بها ومات من يحسدنا بالكمد
بت مع المحبوب فى روضة وبات من يرقبنا بالمرصد (٢)
ومنها « المشتى » ، بجزيرة الروضة . وفيه يقول شهاب الدين المنصوري
مورياه وبالروضة أيضا ، فى غزل :

أسفر وجهها ورناء مقلّة يا خجلة البدر وظي الصريم

(١) كوكب الروضة للسيوطي ورقة رقم ١٦ (٢) بهجة الناظر للسيوطي ورقة رقم ٨٣ .

في مشتهى وجنته روضة تنزهوا بوجه قري وسيم (١)
ومنها حليلة ، . وهي جزيرة كانت قد ظهرت قبالة المقياس قال فيها
إبراهيم المعمار موريا :

جزيرة البحر هامت بها عقول سليمة
لما حوت حسن معنى وبسطة مستقيمة
فكم يخوضون فيها وكم مشوا بنميمة
ولم نزل ذا احتمال مائلك إلا حايمة (٢)

ومنها قناطر أم الخمس ، بالجيزة . وفيها يقول برهان الدين القيراطي متاجنا
موريا بمجونه :

قناطر الجيزة كم قادم عليك يلتقي فيك أقصى مناه
أناك قوم لاطة فأنحنى ظهرك الوطء وصب المياه (٣)
ومنها قنطرة التكة وخليج الذكر ، . وقد قال فيهما المعمار مع التورية المأجنة :
يا طالب التكة نلت المنى وفزت منها ببلوغ الوطر
قنطرة من فوقها تكة وتحتها تلقى خليج الذكر (٤)
قال السيوطي عنهما كانا مكان الأزبكية .

ومن المقترجات العظيمة بركة الأزبكية التي أنشأها الأمير أزبك بن ططخ
الأتابكي عام ٨٨١ هـ . وقد سبق لنا عنها حديث . وفيها يقول الشاعر شمس الدين
القادرى مشيداً بحاسنها ومجالى الجمال فيها :

يا حسنها بركة بالحسن ما برحت تنزهو على سائر الخلدان والبرك
تجمع الحسن فيها من معادنه فأصبح الحسن فيها غير مشترك
جفت بداراتها الأقمار فهي لهم تضىء في حندس الديجور والحلك

(١) المرجع نفسه ورقة رقم ٨٥ . (٢) المرجع نفسه ورقة ٨٥ - وقال : ذاء وصوابها ذاب ،

(٣) المرجع نفسه ورقة ٨٦ - وديوان القيراطي ورقة ١١٧ . (٤) المرجع نفسه ورقة ٨٦ .

مرآة حسن فربات الجمال بها مثل الشموس ترى في دارة الفلك
وعندما نصبت أشراك بهجتها صادت طيور قلوب الناس بالشرك
ومنها « بركة الرطلى » وقد سبق لنا عنها حديث أيضاً . وكانت تعرف قديماً
بأرض الطباله .. (١)

وقد قال فيها شمس الدين بن الصائغ :

انظر إلى بركة الرطلى مبتهجاً واشرح محاسنها بأياها الحاكى
الماء والنبت والخور الحسان بها كأنها جنة حفت بأمسلاك (٢)
وقال الشهاب المنصورى :

دعوتك فانهض مسرعاً يا أخا الفضل لتشرب أرطالا على بركة الرطلى
فقد سل كف الخصب سيف خليجه ليضرب عنق الجذب أو هامة المحل
وقد مدت الأدواح أبدى غصونها إلى النيل يستحلى لماء ويستحلى (٣)
وقال أيضاً فى الجسر الذى بهذه البركة :

وفى ليلة بالجسر فيها تجاسرت يداى على شرب المدامة بالرطل
وقد نسج الآرام فى ضوء بدرها فإن خفن من واش تسترن بالظل
فقم نجتليها من غزال مساط بكسرة أجفان على صحة العقل (٤)

ومنها « بركة النيلوفر » التى بالأميرية . وقد قال فيها صفي الدين الحلى يصف
نيلوفرها قبل غروب الشمس وبعده .

رأيت فى البركة نيلوفرأ نسيمه يشبه نشر الحبيب
مفتح الأجفان من نومه حتى إذا الشمس دنت للمغيب
أطبق جفنيه على عينه وغاص فى البركة خوف الرقيب (٥)

من (١) إلى (٥) — بهجة الناظر للسيوطى ورقة رقم ٨٧ . (٣، ٢) — المصدر نفسه ،
(٤) المصدر نفسه ورقة ٨٨ . (٥) المصدر نفسه ورقة ٨٨ .

نكتفي بذكر هذه المفترجات أو المناسزه نموذجاً لغيرها ولنبحث الخطأ إلى الربيعيات وما يتصل بها .

الربيعيات وما يتصل بها

وتحدث الشعراء - فضلاً عما تحدثوا - عن الرياض بعمامة ، فوصفوا الربيع إذا أقبل إليها . والمياه والجداول إذا انسابت نحوها . وأدواحها إذا نمت . وأغصانها إذا تدلت ، وهاماتها إذا تتوجت ، وبسطها إذا اخضرت . وأرضها إذا ضحكت ، وأزهارها إذا أشرقت وابتسمت ، وثمارها إذا انضجت ودنت ، وألوانها إذا تنوعت فأعجبت ، وفروعها إذا رقصت وتلذت ، ورياحينها إذا دارت وتعطرت . ودرر الطل إذ عقدت وكللت ، وظلالها إذا امتدت ، وطيورها إذا تغنت .

إلى غير ذلك من مذاهب الشعراء ومسارح خيالهم ، مما صوروه فأبدعوا ، وافتنوا فيه وأمتعوا ، حتى صار لهم في هذا الباب نتاج مقبول وجهد محمود . وشارك شعراء الشام فيه بنصيب عظيم لما لبسيتهم من غنى وثرأ بمشاهد الجميلة ومناظرها المتنوعة . فلا بأس إذا كنا نسوق إليك أثارة مما نظموا ، من باب الموازنة .

ومحي الدين بن عبد الظاهر أديب مصر الكبير ، الذي له نتاجه الضخم في باب النثر وفي ميدان العلم ، والذي استأثر به ديوان الإنشاء زمناً طويلاً ، فكان كاتب رسائله ، ومدبج المدائح الشعرية للملوك ، مما سنفصله لك تفصيلاً في الفصل القادم ، أدلى بدلوه في الدلاء ، ونظم في الربيعيات والرياضيات .

ومن أولى منه بذلك ، وقد ملك زمام القلم وتصريفه نثراً أو شعراً . ومن أولى منه بأن تبهره مناظر الطبيعة وتسجده بحاسنها . فينعت بطحائها ويصف

روضها ، ويذكر غيثها المبكر ، ويجرى مع عيونها الدامعة في محاجرها ، وينساب
مع نهرها اللجيني ، ويدق مع حصاه الأبيض والأحمر ، ويمتد مع برد ظلالها
المسهم ، ويتموج مع طرس صفحة مائها المجعد ، ويلحظ عذار نباتها إذا بقل ،
ومسارقة شعاع الغزالة لأغصانها إذا تحول وانتقل ... الخ .

يقول محي الدين بن عبد الظاهر يصف بطحاء :

وبطحاء في واد يروك روضها	ولاسيما إن جاد غيث مبكر
تلاحظها عين تفيض بأدمع	يرقرقها منه هنالك محجر
بها فاض نهر من لجين كأنه	صفائح أضحت بالنجوم تسمر
كأن حصاه إذ بدا منه أبيض	وأحمر دمع في خدود تنثر
وإن لا فبرد بالظلال مسهم	وإن لا فطرس بالتجعد يسطر
وما لاح في جنبيه نبت وإنما	تبدى عذار منه في الخد أخضر
وكم غارلت له للغزالة مقلة	تسارق أوراق الغصون فتتظر
ويشرق منه كل حسن فينبهى	حياء لديه وجهها وهو أصفر
إذا فاخرته الريح ولت عليه	بأذبال كشبان الربا تتعثر
به الفضل يبدو والربيع وكم غدا	به الروض يحيا وهو لاشك جعفر ^(١)

وزار الشاعر المبدع صفي الدين الخلي البلاد المصرية في نحو عام ٧٢٣ هـ ،
وكان ملك العصر هو الناصر محمد بن قلاوون ، وكاتب سره علاء الدين بن الأثير .
فقربا إليهما الشاعر الكبير ، واحتفلا بمقدمه .

وقد مدح صفي الدين الملك الناصر حينذاك بثلاث قصائد عذبة جيدة . ومنها
مدحته المشهورة التي شبيب في صدرها بربيع مصر ، وما خلعه على رياضها من
حلل جميلة ، وما لونها به من ألوان زاهية ، وما بعثه في أرجائها من فتنة .

(١) مطالع البدور في منازل السرور للعلامة الغزولي — ج ١ مخطوط بالمكتبة الأزهرية .

وهكذا أثرت في نفسه طبيعة هذه البيئة المصرية ، حتى أطلقت اللسان
بضروب البيان .

يقول صفي الدين :

خلع الربيع على غصون البان	حللا فواضلها على الكشبان
ونمت فروع الدروح حتى صاحفت	كفل الكشيب ذوائب الأغصان
وتتوجت هام الغصون وضرجت	خد الرياض شقائق النعمان
وتنوعت بسط الرياض فزهرها	متباين الأشكال والألوان
من أبيض يقق وأصفر فاقع	أو أزرق صاف وأحمر قان
والطل يسرق في الخمائل خطوه	والغصن يحظر خطرة النشوان
وكأنما الأغصان سوق رواقص	قد قيدت بسلاسل الريحان
والشمس تنظر من خلال فروعها	نحو الحدائق نظرة الغيران
والطلع في خلل الكمك كانه	حلل تفتق عن نحور غواني .
والأرض تعجب كيف تضحك والحيا	يبكى بدمع دائم الهملان . . . (١)

ويعتبر الشاعر الفحل مجير الدين بن تميم من أروع الوصافين لمظاهر الطبيعة ،
والمعنيين بها ، المستجيبين لسحرها ، ومن أكثرهم إنتاجاً في بابها ، ومن أرقمهم
في وصف الورود والجداول والدراليب . وهو من شعراء الشام وحماة

قال ابن حجة الجوى :

ومن التشابيه البديعة قول بعضهم :

كم وردة تحكى بسبق الورد طبيعة تسرعت من جند
قد ضمها في الغصن قرص البرد ضم فم لقبله من بعد
قلت : دخل مجير الدين بن تميم إلى حديقة هذه الوردة ، فزادها تقوية بقوله :

سبقت إليك من الحقائق وردة وأنتك قبل أوانها تطفيلاً
طمعت بلثمك إذ رأيتك جُمعت فيها إليك كطالب تقيلاً، (١)

واهتز خاطر الأديب شهاب الدين أحمد بن منصور الدمياطي - ويعرف
بإبن الجباس - إذ رأى رمانة مشقوقة يتساقط منها الحب . فشق عليه ما كانت
تسكتمه في حشاها من اللظى ، ثم تشققت عنه عقائق ، هي دموعها ... فقال :
كتمت هوى قد لج في أشجانها وحشت حشاها من لظى نيرانها
فتشققت من حُبها عن حُبها وجدأ وقد أبدت خفا كتبائها
رمانة ترمى بها أيدي النوى من بعد مارمت على أغصانها
فأعجب وقد بسكت الدموع عقائق لا من مآقيا ولا أجفانها (٢)

وهذه تحفة شعرية فريدة ، يجود بها قلم هذا الشاعر الثبت - إبن الجباس -
حشدت لها نفسه الجياشة خاطرها النفاذ وخيالها الوثاب ، وبيانها المصور ،
وفتها البديع . فتنبعت - والمشاعر تصحبها ، والعواطف تمثل لها - شجر الموز في
حديثته ، وقد كتبت كتائبه ، وجمعت حشوده ، وينعت عراجينه ، وتشققت
كأمله عن زهره ، وانتظمت أمشاطه ، وقامت سوقه ، ونشرت ظلاله .. فجنى منه
الثمر وقطع ، فاصفر ورقه ، وحالت حالته ، كالمتميم الذي أذابه الكمد من
طول وجده

ويرسم لك الشاعر بمقدرته ، صورة حضارية بدیعة ، تدلك على إحدى
جوانب المدنية حينذاك . فقد شبه الموز ، وهو في عراجينه يانعا على شجره ،
بفروع شعر غائية عقصتها بعد ضم ما انتشر منها ، وتركت منه شرابة مرسلة
من خلفه .

(١) نأهيل الغريب باب الريعيات .

(٢) نهاية الأرب للنويري ج ١١ ص ٤ ١ ط دار الكتب .

ويصور لك أمشاطه مكاحل من زمرد منظمة . وسوقه عمداً حانية أوارينها على جذره . وأشجاره حاملة لها طفلاً على يدها تقيه الحر ، وهو في خمره . وساقها صقيل كساق العروس ، أميط مزرها فبان وشى خضابها . . إلى غير ذلك من الصور الماثلة في أبياته .

يقول الشاعر :

كأنما الموز في عراجنه	وقد بدا يانعا على شجره
فروع شعر برأس غانية	عقص من بعد ضم منتشره
كان من ضمه وعقصه	أرسل شرابة على أثره
كان أمشاطه مكاحل من	زمرد نظمت على قدره
كأنما زهره الأنيق وقد	شقق عنه كمام مستره
نظام ثغر يزينه شنب	متمزج شهده بمعتصره
كان قامات سوقه عمد	حننت أوارينها على جذره
كان أشجاره وقد نشرت	ظلال أوراقها على ثمره
حاملة طفلها على يدها	تقيه حر الهجير في خمره
كأنما ساقه الصقيل وقد	بدت عليه رقوم معتبره
ساق عروس أميط مزرها	فبان وشى الخضاب في حبره
تصاغ من جوهر خلاخلها	فتنجلى والنثار من زهره
حدائق خففت سناجقها	كأنها الجيش أم في زمرة (١)

(١) الشرابة : خيوط أو شعر مجتمع للتخفيف . وقد تتخذ الشرابة من الحرير للزينة . وأمشاطه : عراجينه تبدو منها أصابعه ، — والأواوين : جمع إيوان وهو الصفة العظيمة — بتشديد الفاء في الصفة وهي موضع للاصطفاف . وصفة مسجد الرسول عليه السلام موضع فيه مظلل ، كان يبيت به « أهل الصفة » وهم أضياف الإسلام .

وكل آياته فباهرة	تبين في ورده وفي صدره
كأنما عمره القصير حكي	زمان وصل الحبيب في قصره
كأن عرجونه المشيب أنى	يخبر أن حانه انقضا عمره
كأنه البدر في السكال وقد	أصيب بالخسف في سناقره
كأنه بعد قطعه وقد اص	فمر لما نال من أذى حجره
متيم قد أذابه كمد	يلبت من وجد على خطره
معلق بالرجاء ظاهره	يخبر عما أجن من خبره
يطيب ريحا ويستلذ جنى	على أذى زاد فوق مصطبره
كأنه الحر حال محنته	يزيد صبرا على أذى ضرره

وصور مجير الدين بن تميم ، قصة حب وغرام بين النهر ودوحه . ويتخلل
القصة هيام ووجد ، وغدر ورواح وطلب ووصال ، وبعاد وصد ، وشكوى
وأنين ، ويأس وأمل وقنوع ، وتلك كلها مشاعر الشاعر وخواطره .

يقول مجير الدين :

ونهر بحب الدوح أصبح مغرما يروح ويغدو هائما بوصالها
إذا بعدت عنه شكها بخبره جفاها وأمسى قانعا بخيالها^(١)

والتشخيص باد في البيتين ، كما بدا فيهما التعليل الأدبي والبيتان مليئان بالحركة :

= والخمر : بضمين ، جمع خمر بكسر أوله ، وهو النصف يغطي به الرأس أو يستر الوجه .
والخبر : جمع حبة مثل غنبة وعنب ، نوع من الثياب ، وضرب من برود البين — والسناجق :
الأعلام — وحانه : حات له ، عدى الفعل بنفسه — وأجن : أخفى . راجع نهاية الأرب
للنويري ج ١١ — ص ١٠٩

(١) تأهيل القريب باب الأنهار .

حركة النهر وحركة الدوح . ويرى الشاعر بقوله : « قانعا بنجيا لها ، إلى صورة الدوح في صفحة الماء . فالصفحة مرآة : والصورة مستقرة في قلبها . وهكذا شأن العشاق ... »

وكرر مجير الدين بن نعيم ، هذه المعاني والصور ، مرة أخرى ، بعد أن بدل بعض مشاهدتها . فجعل الأغصان تطيل في صدودها وجفائها ، وجعل النهر - للوعته وطول وجده - يجرى لاثما أقدامها . والشاعر ما بين هذا وذاك ، يسوق تعليقاته الأدبية الطريفة .

يقول مجير الدين :

والنهر مذ علق الغصون محبة أضحت تطيل صدوده وجفاه
فتراه يجرى لاثما أقدامها وخريره يشكو الذى يلقاه

وقد اتصل جبل المودة والإلف بين النهر والأهواء . كما اتصل - في خيال مجير الدين بن نعيم - بين النهر والأغصان . ولكن الأهواء في هذه المرة هى التى تستجيب للنهر ، وإن شق عليها الأمر ، وهو وقد خالفها ، طاعت له وتوسلت إليه بأزهار الأغصان تسرقها منها وتلقيها بين يديه مغازلة مداعبة منادية ، فيلوى بها عنان سيره ويجرى ..

يقول مجير الدين :

ونهر خالف الأهواء حتى غدت طوعا له فى كل أمر
إذا سرفت حلى الأغصان ألقت إليه بها فياخذها ويجرى (١)

وأخذ ابن نعيم بجمال الجدول وسحره ، وخشى عليه مغبة العيون من حوله ، إن هو ظل فى تدفقه أن تنفذ العيون حسنه . فأنذره فأبى وتمادى . وكانت عاقبة

(١) حسن المحاضرة ج ٢ باب الأنهار .

أمره أن هوى من شاهر فتكسر . . . ولعل عيونا مقامة في جسر ، كانت على طريق النهر .

وهكذا أجاد ابن تميم حبك هذه الحادثة الجانية في حياة النهر . وأجرى فيها من ألوان العاطفة والانفعال ما أضفى عليها حركة وحرارة . وذهب في التعليل . على عادته ، إلى الطريف مما يفتن إليه خياله الأدبي الخصب .

قال مجير الدين .

يا حسنه من جدول متدفق يلهى برونق حسنه من أبصرا
مازلت أذره عيونا حوله خوفا عليه أن يصاب فيعثرا
فأبى وزاد تماديا في جريه حتى هوى من شاهر فتكسرا^(١)

ولم يقل ابن تميم هذه الأبيات في نهر النيل بالذات^(٢) . على ما نعتقد - إذ أن مجراه خال من المنظر الذي رسمه الشاعر ، وهو تكسره من شاهر . وهذا لا يرى إلا في مجراه الأعلى الاستوائى . . أما في مصر فلا تعترضه إلا جنادل وصخور يعلوها أو ينفلت من بين فرجها .

هذا . ويبدو أن مجير الدين بن تميم درس حياة النهر كلها ، من لدن شبابه إلى هرمه وقسمها أدوارا وقصصا ، في كل قصة منها نزعة وعاطفة . فبعد أن هام بالأغصان وخالفته ، اتجه إلى الأهواء خالفته أو خالفته وسدر في غيه وجرى في مجراه على هواء ، ولم يبال بالعيون الواقعة له في طريقه بالمرصاد . فكانت عاقبته أن هوى من شاهر وتكسر .

وما إن تكسر ماؤه ، حتى أقام أحبابه وآلافه عليه مأتما ! فهذا دولا بيبكيه ، وغصن بأوراقه يلطم حزنا عليه ، وورق فوق دوحه ترثيه . . . وتلك عاقبة الغي والهوى . .

(١) حسن المحاضرة ج ٢ باب الأنهار - (٢) راجع « النيل في الأدب المصري » ص ١٨١

يقول مجير الدين :

تكسر الماء لما أن جرى فغدا الدولاب يندبه شجوا ويبكيه
وأصبح الغصن بالأوراق ملتظا والورق فوق كراسى الدوح ترثيه (١)

ويكمل صلاح الدين الصفدى قصة النهر . وذلك بإيضاح أحد جوانبها ، أيام
كان النهر فى سيادته وحوله النسيم يخدمه . ويعلل لذلك .

يقول صلاح الدين :

النهر مولى والنسيم خديمه هذا كلام لست فيه أشكك
لو لم يكن فى خدمة النهر أنهرى ما كان يصقل ثوبه ويفرك (٢)

وهذا التشخيص الذى تراه فى الآيات أو كثير منها ، بادى أساليب الشعراء
فى هذا الباب . إذ يأبون إلا أن ينسبوا للروضة أو البستان أو النهر ، حياة حافلة
بشتى العواطف والأحاسيس ، حياة فيها إرادة وعزيمة ، وفيها تفكير ورأى
وتدبير . ومن هنا يقفز خيالهم إلى التعليل الأدبى الجميل الممتع .

ولعلك تجد مصداق ذلك فى قول محيى الدين بن عبد الظاهر :

روض به أشياء ليست فى سواه تولف
فمن الهزار تهـازر ومن القضيـب تقصف
ومن النسيم تلطف ومن الغدير تعطف (٣)

(٢، ١) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر الأنهار .

(٣) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر ما قيل فى الأنهار — والنقاص : التكسر والاجتماع ،
كالنقاص ، واللهو واللعب على الطعام — وهززه بالعصا : ضربه بها على جنبه ، وغمز وطرده
وضحك ، ولعل المراد بالتهازر هنا : التضارب والتضاحك —

(م ٢٦ — عصر المماليك)

ويطوف عز الدين الموصلى بالروضة طواف العاشق . فتبهره مجالها وتأسره
مرائبها . فيرى في صفحاتها آيات الجمال . لقد نقشت أرضها إبر الحيا وطرزتها .
ودارت أشجار السرو من حولها كالسوار ، أو كالخلخال . وغياضها مديحة
بادية الألوان . وأغصانها الند ، وأوراقها السندس . وأزهارها الياقوت والبلور ،
والدراهم بين الدنانير . وظلم ثوب يجمعه النسيم تارة ، وتارة يفرقه . ونهرها
كالسيف الصارم . . .

يقول الموصلى :

وروضة نقشتها للحيا إبر	فأصبحت بين تطريز وتزهير
مثل السوار لها سرو أحاط بها	من سلسل هي منه ذات تسوير
أو كالخلخال للأدواح دار على	سوق لها مطلقا في زى مأسور
تحت الرياض غياض دججت فبدت	ألوانها ذات تشهير وتشذير
أغصانها الند والأوراق سندسه	والزهر عرق ياقوتا ببلور
والزهر بين شعاع الشمس تحسبه	دراهما نثرت بين الدنانير
والنمل ثوب إذا مر النسيم به	فالروض ما بين مهمتوك ومستور
ونهرها زائر بالخصب يؤذنا	كصارم في سبيل الله مشهور (١)

وجال الموصلى بالروض جولة أخرى . فإذا رأى فيه ، وماذا أحس منه ،
وما هي انطباعاته عنه ؟ لقد رآه معجبا بنجم زهره الذى تحسده الأنجم الزهر .
ورأى غدره قد زردت أثوابها من خوف النسيم ، ودججته ألوان زهره . وكست
أغصانه حلل ورقه . وأعربت له ورقة عن ألحانها فى الدوح قيانا دونها الستر ...
وهكذا ترى فى روضه هذا ، العجب والحسد وزرد الأثواب ، والخوف ،

(١) مطالع البدور فى منازل السرور للعلامة الغزولى ج ١ — مخطوط بالمكتبة الأزهرية . —
والتشذير : التفريق — والتشهير : الإعلان .

والتدييج والكسوة، والإعراب والألحان والقيان الممتسترة... الخ. وهذه لعمرى
حياة نابضة حافلة...

يقول الموصلى :

وررض بنجم الزهر أصبح معجبا فتحسده من جنسه الانجم الزهر
ومذ أرجف الماء النسيم تدرعت مزردة الاثواب من خوفها الغدر
فللروض تدييج بألوان زهره وللغصن من أوراقه الحلل الخضر
فراع نظيرا من جنان جناسه فلى الضحى زهر وحلى الدجى زهر
وأعربت الألحان فى الدوح ورقه فكن قيانا دونها أسبل الستر
وأسفر للإصباح خد مورد ومن قبله حيا بريحانه الفجر (١)

ومن وصف شجر السرو، الأديب الكبير شهاب الدين محمود الحلبي. وقد
جلاها عرائس لفت عليهن الملاء، وثمرن الأزرفبت سوقهن... قال :
والسرو مثل عرائس لفت عليهن الملاء
ثمرن فضل الأزرف عن سوق خلاخلهن ماء
والنهر كالمرآة تبصر وجهها فيه السماء (٢)

ودخل الشاعر بدر الدين البشتكى إلى روضة، فراعه بها حيا يجرر ذيله ،
وورد كالخد المحمر يرشه الندى بدمعه، ورجس عاشق لم تغمض له عين... فقال :
وروضة جرر فيها الحيا ذيلا فلم يعطش ولم ينزع
كأنما الورد وقطر الندى محمر خد رش بالأدمع
يعشقه الرجس من أجل ذا لم يغمض العين ولم يهجع (٣)

والشهاب المنصورى يعده محبوبه بلىقاء فى روضة، فيعجل الشهاب إلى زيارتها

(١) مطالع البدور للغزولى . (٢) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر ما قيل فى الأنهار ،

(٣) كوكب الروضة للسيوطى ص ١٦ .

مترقبا ، وخواطره بالوصال وآماله بالقرب ، وثقته بالتمتع القريب بمحبوبه ،
منظارات وضعت أمام عينيه . فرأى من ورائها ما فى الروضة ، فإذا كل ما فيها
وصال وقرب ، وبوح بالسر وإفشاء للحب ، وسكر وميل ، ولوع وجنون ،
واستشفاء وغذاء ، وميل أعطاف ، وحياة فى رغبة ، وعوذة من حاسد ، ورياضة
لنافر ، واستمتاع بطيب شذى ، ونزهة طرف ، ونيل آمال

عواطف لعمري وأحاسيس متجانسة متوافقة ، ترجع إلى حالة نفسية
واحدة ، وتدل على شعور صادق ، وانفعال لازيف فيه .

يقول الشهاب المنصورى :

نم صبا روضتنا بالشذى	ونهرها باح بسر القذى
والغصن الذى فيه أثماره	قد مال سكرًا قبل أن ينبذا
فى روضة زاد ولوع الصبا	بها فإن هب عليها هذى
إن صدحت ورق بأوراقها	تغرى اللذاذات بطرد الأذى
نسيمها رطب لداء شفا	وعرفها مسك لروح غذا
قد وعد المحبوب فيها بأن	يزور إن صح فيا حبذا
غصن إذا ميل أعطافه	فيا حياء الغصن منه إذا
عوذته بالله من حاسد	وليته يرثى لمن عوذا
قد سلبت الحماظه مهجنى	ولم أجد لى منه مستنقذا
وروضة راضت رشا نافرا	عليه شيطان القلى استحوذا
بت بها من دوحها ناعما	بين شذى الطيب وطيب الشذى
نزهت طرفى فى جنى هذه	ونلت آمالى من وصل ذا (١)

وللبرهان القيراطى فى الرياض ، جولات وجولات . وقد دخل مرة روضا

منها ، فإذا به يملؤه الزخرف ، والظلال تشنف أغصانه ، والحمام تسكن أفناته ،
والنسيم يسعى رسولا ، وإذا بمجلسه فيه يلتئم بأنسه ...
فيقول :

الروض يا صاح زخرف والغصن بالظل شنف
وبين أوراق دوح ورق الحمام ترفرف
تصيح تصدح سحبا تشدو تغرد تهتف
وللنسيم رسول أقي لنا بملطف
وتم مجلس أنسى فلم يكن فيه مرجف
وما تخلف عنه . . . إلا امرؤ متخلف . . . (١)

ولعل القيراطي يريد من لفظ «متخلف» هنا ، ما يراد منها في العصر الحاضر . .
وهو «غير متحضر» .

على أن الملاحظ أن القيراطي يمزج - غالبا - ربيعياته بخمرياته . فترى منهما
مزاجا سائغا شرا به . وفي تائيته البارة التي مدح بها تاج الدين السبكي ، - وكأنه
يعارض بها تائية ابن نباتة في مدح كمال الدين بن الزملكاني - طاف وهو يتنقل في
أبياتهما من بيت إلى بيت ، بهذه الربيعيات الخمرية ، أو الخمريات الربيعية الغزلة . .
يقول القيراطي من تائيته هذه الجزلة .

تشوقني ألقات الروض مائلة من النسيم سكارى وهي دالات
ولى من الورق في أوراقها طرب كأنهن على العيدان قينات
وللرياض أزاهير مدبجة وللجنان ثياب سندسيات
روض تمسكت فيه بالصبا وله مع الصبا نفحات عنبريات
ما قارنت فيه أقمارى شمس طلا إلا قضت بالمنى تلك القرانات
يطوف بالشمس فيما بيننا قر نيران خديه للعشاق جنات
جلا الحميا عروساً في السكتموس لها من الحباب عقود أولويات الخ (٢)

(٢) ديوان القيراطي ورقة ٤٣ .

(١) ديوان القيراطي ورقة ٩٦ .

وقريب من هذه الأبيات قوله :

جدد العيش بالشراب العتيق ثم واصل صبوحنا بالغبوق
وأدرها على العيون كئوساً صفوها في غنى عن الراوق
واسقنيها على رياض شقيق بنت كرم تحكي رياض شقيق
صاغ ياقوتها شباكاً من الدر عليها تصيد عقل المفيق
يا خليلي وصاحبي ورفيقي ونديمي وناصري وصادقي
إن ورد الكئوس في روض ورد فيه يعصى الخليل كل شفيق^(١)

والتفت الشعراء إلى الدواليب والنواعير وما دار مدارها . ومنهم مجير الدين ابن تميم ، الذي قرن في بيتيه التالين بين النهر ودولابه . إذ رأى أنهما تجمعهما معاً جامعة البكاء وجرى الدمع وسيل العيون . فتساءل علام هذا الزحيب ؟ ثم علم أن النسيم قد ضاع ، بينهما ، فجرى النهر باحثاً عنه ، ودار الدولاب يتفقده . . . يقول مجير الدين :

تأمل إلى الدولاب والنهر إذ جرى ودمعهما بين الرياض غدير
كأن نسيم الروض قد ضاع معهما فأصبح ذا يجرى وذاك يدور^(٢)
ولعب شعراء كثيرون - في باب الدواليب - بلفظ « ضاع » . وقد مهد به ابن نباتة لذكر دران ناعورته وبكائها على « الضائع » ، وهو نشر الربا . يقول :

وناعورة قسمت حسننها على واصف وعلى سامع
وقد ضاع نشر الربا فاغتدت تدور وتبكي على الضائع^(٣)

(١) ديوان القيراطي ورقة رقم ١٤٢ - وفي البيت الخامس تكرر لفظ رفيق في كل من الضرب

والعروض . فغيرنا العروض بلفظ صديق .

(٢) تأهيل الغريب فصل الدواليب .

(٣) المرجع نفسه : .

والآن آن لنا ، وقد أشبعنا القارىء من الحديث عن مشاعر شعراء مصر وعواطفهم نحوها ونحو نيلها وما يتصل به من رياض ومنازه وحدائق وربيعيات، حتى رأى القارىء مدى استجابتهم لوحى هذه البيئة الطبيعية ، آن لنا أن نزيده إشباعاً بذكر « سرحة النيل » و « مصائد الشوارد » .

سرحة النيل :

وإذا ذكرت ربيعيات مصر وروضيات نيلها ، ذكرت في مقدمتها « سرحة النيل » . ونعني بها تلك السرحة التي خلدها الشاعر الفحل نضر الدين بن مكاس في شعره .

روى جلال الدين السيوطي ، قال :

« قال صاحب نضر الدين بن مكاس : كان على شاطئ النيل سرحة كأنها قبة زمرد ، أو فسطاط زبرجد . فاقترحت جماعة للأصحاب وبنو الآداب . أن تنظم صورة الحال ، بشرط الارتجال . على أسلوب الأرجاني في وصف الشمعة :

نمت بأسرار ليل كاد يخفيها وأطلقت قلبها للناس من فيها
والمنازى في فضل الوادى :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاء مضاعف الغيث العميم

وحمة بنت تقي الأندلسية في وصفه :

أباح الدمع أسرازي بواد له في الحسن آثار بوادى

فقلت : لا تركض خيول الارتجال في هذا المجال . ولا تستبق بداية الأذهان في هذا الميدان . لأن تسمحوها في الانتظار بليلة ، ربما تنجح في اختياركم الحيلة .

فأدعن كلانا إلى ما شاء صاحبه من الاقتراح . فقلت عند تنفس الصباح :

يا سرحة الشاطئ المنساب كوثره على اليواقيت في أشباه حصباء .. الخ^(١)

وسجل ابن مكانس بعد ذلك قصيدته في وصف السرحة وتخليدها .

هذه القصيدة فورة من فورات الشاعرية ، وسنحة من سنحات الفن . وكـ
جلس ابن مكانس في ظلال سرحته هذه وتقلب في أفيائها ، فرآها قد كرم منبتها ،
وطاب في كنف النيل غرسها ، ورسا أصلها على شاطئه ، ونما فرعها على صفحة
كوثره . وحلاها المقام معه ، لأنها وليدته أو حبيبته . فصفا لها ماؤه ، ووفى
حباؤه . فضحكته بنورها الألاق ، وزهرها البراق . واثنت عليه بأغصان لدان ،
وأفنان حسان .

لقد أثارت هذه السرحة بمفاتيحها في نفس ابن مكانس ، وساوس الشياطين ،
وهوائف أبالسة الشعر . فجاجها هذه القصيدة الفريدة التي خلقتها بين لداتها ،
وأبرزتها دون أخواتها .

ولقد راعه جمالها وجلالها ، وأعجبه منها سموها إلى السماء في أنفة وكبرياء .
وامتداد أفنانها على صفحة الماء . فنظر إليها نظر العاشق المشغوف والمحب الواله .
وامتزجت نفسه بنفسها ، وحلق بخياله في أجوائها . فأخذت هي تملئ على خاطره
بديع الوصف ، وترسم له روائع الصور .

فطفق ينعت قوامها من الأخصر إلى الذوابة . كأنها وهي العجوز الشمطاء
كاعب حسناء . ولم لا ؟ وهذا نورها يبسم من الفرح ، فيغاديه من الغيم كل بكاء .
وتداعبها الأنواء ، وتفاكمها السحب بالماء . وإذا توهج القبط فاستشرى دأؤه
وأعجز دواؤه ، طبته عن علم وخبرة ، وشفته من رمضائه في لطف وقدرة . وهي
لذلك مقيل ندمان ، ومغنى حمائم . لا بل مرتع ظباء ، وفناء درماء

وإذا صفق الموج من تحتها طربا ، نقطته بأزاهيرها ، ما بين صفراء فاقعة ،
وبيضاء ناصعة . وإذا جاش النهر بخيره ، مالت إليه ، كأنها أذن مصغية يلقى إليها
بسر . فيريها جزاء لذلك ، محاسنها في مرآته ، ومفاتيحها على صفحاته . .

وقد خلع عليها القدم قدسية ، فأصبحت كدير راهب . إذا اعتلى بلبلها ذرا

أغصانها ، ملاء سواد الليل بترتيله ، فتخاله مسبحا داعيا ، وعابدا مصليا ومناديا..

على هذا الضرب من الخيال الفريد والوصف الجديد ، نظم ابن مكناس سرحيته العصماء . وقد بدأ مطلعها بهذه المناجاة ، قال :

يا سرحة الشاطئ المنساب كثره على اليواقيت في أشكال حصباء
حلت عليك عزاليها السحاب إذا نوء الثريا استهلكت ذات أنواء
وإن تبسم فيك النور من جدل سقاك من كل غيم كل بكاء
وقال :

يا طبة بدواء القبط عالمة أنت الشفاء لدى الرضا من الداء
لاصوح الدهر منك الزهر وانجست عليك كل هتون الودق سوداء
وقال :

خمائل الروض منشأها ومرضعها ضرع النيرين من نيل وأنواء
فاستمهدت دوحها المخضل وافتشت نجم الربا ورمت عرشا على الماء
قريرة العين بالأضواء باردة الـ قلب الذي لم تنله غير سراء
مقيل ندمان بل مغنى حمائم بل كناس آرام بل أفناء درماء
قديمة العهد هزتها الصبا فصبت فهي العجوز تهادى هدى مرهاء
لا يدرك الطرف أقصاها على كل حتى تعود له لحظا لحولاء
وصوت بلبلها الراق ذرا غصن في حلة من دمعس الريش دكناء
يقرع ناقوس دبرى على شرف مسبح في سواد الليل دعاء (١)

(١) العزالي : جمع عزلاء ، وهى مصب الماء من الراوية — والودق : المطر — والنوء : النجم مال إلى الغروب ، وسقوط النجم في المغرب مع الفجر وطلوع نجم آخر . قال في المصباح : وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط من النجوم وقيل إلى الطالع ودرم الكعب : بكسر الراء ، واره النجم فلم يبق له حجم — وهى درماء كاسية — ومرهت عينه : بكسر الراء ، خلت من الكحل أو فسدت لتركه ، أو ابيضت حماليقها — والدمعس : الإبريسم أو الخز أو الديباج أو الكتان — والإبريسم هو الحرير .

والقصيدة — وتقع في أكثر من ستين بيتاً على هذا النسق — وصفية عاطفية ، خالصة لوجه السرحة . ولم يقتصر الوصف فيها على الناحية الحسية ، كما رأيت ، بل خلع الشاعر على سرحته ضروباً من الإحساسات النفسية والانفعالات العاطفية . فكما وصف ارتفاعها وكلال البصر دونه ، ونشأتها بين خمائل الروض ، ورضاعها من النيرين : النيل والأنواء . وأغصانها وما فيها من لين ، وأزهارها وما بها من وضاء ، وظلمها وماله من وروف ، وتصفيق الموج من تحنها وترقرقه ، وخترير النهر إليها وجيشه ، وصفحة مائه وصفاءها . . . إلى غير ذلك . . .

نقول كما وصف ذلك ، نسب إليها أيضاً ألواناً من الأوصاف المعنوية : فنورها يبسم . وظلمها يطب من القيظ ، ويشنى من داء الهجير . وقلبها لم تلم منه غير السراء . وعينها قريرة . وأنها سبت ، وأنها تنهادى . . إلى غير ذلك .

وقد وصفها بمعنوين متناقضين ، اقتضى كل منهما المقام : أحدهما أنها تصبو كما تصبو العجوز ! فقال : د قديمة العهد هن تما الصبا فصبت . فهي العجوز . . الخ . وشأن الصابية امتلاء القلب بالشجو ، وترنح العطف من الهوى . . .

ثم عاد الشاعر فننى عنها الصبوة وامتلاء القلب . وذلك حينما راح يوازن بين ما فى نفسها وما فى نفسه . وبين ما تحتمله فى ضلوعها ، وما يشوده فى حناياه . فبدت له حمساء خالية الفؤاد من الهوى ! والحسناء إذا وثقت بجملها واطمأنت إليه ، ولم يعبت الحب بقلبها ، استطاعت أن تعبت بالقلوب . . .

وهكذا استطاعت سرحة ابن مكناس أن تعبت بقلبه وتبعث فيه الغيرة ، وتهكم به وتميل إلى سواء . . . قال :

خلية حين أحنيت الضلوع على نار لشجوى بها لاحب لمياء
تهكمت بي فما أحنيت أضالعها على الهواء وأحنيتها على الماء

ويمتاز ابن مكناس في سرحيته ، بأنه عنى - بجوار وصف السريحة وصفا حسيا ومعنوياً - بوصف مالا يسها من الحوادث اللصيقة بها ، والمرأى الدائرة حولها .

وقد يجنح بعض الشعراء في قصائده الوصفية ، عن وصف موضوعها إلى ملائساته البعيدة . أما ابن مكناس فقد نظم في صميم موضوعه ، ولم يخرج عنه إلا نادراً . ولم يخرج عنه إلا إلى ما يتصل به ، ولم يخرج عنه إلا ليعود إليه .

ونستطيع أن نعدد الموضوعات الجزئية التي طرقها بوصفه . فمنها : المناجاة والتذكر ، وذكر الظل ونعت المنبت وما فيه من خمائيل ، وما يجوده من ماء . ولين الغصون واهتزاز قوامها وارتفاع الفروع . وتغريد البلابل ، وتصفيق الموج . وتساقط الزهر ، وتعفن اللحاء . إلى غير ذلك مما يتصل بالسريحة اتصالاً مباشراً .

وقد أبدع ابن مكناس بعد ذلك ، في وصف النهر بعدة أوصاف ، منها أنه مرآة بدا فيها الحسن والألاء . وبأنه يزرى بنهر الأبله ، وبأنه عند تحريك النسيم له يبدو كفرند السيف . إلى غير ذلك . .
ومن هذه الأبيات قوله :

مالت على النهر إذ جاش الخزرير بها	كأنها أذن مالت لإصغاء
كأنما النهر مرآة وقد عكفت	عليه تدهش في حسن ولألاء
ذو شاطئ راق غب القطر فهو على	نهر الأبله يزرى أى إزاره
كأنه عند تحريك النسيم له	فرند سيف فضته كف جلاء

ومنها :

كأنه حين يهدا زرقه وصفا راووق عين بوجه الأرض شهلاء
ومما يذكر أن تقي الدين بن حجة الحموى روى - عندما ذكر أبيات ابن مكناس هذه - البيتين التالين للأرجاني وهما :

كم طعنة نجلاء تعرض بالحي من دون نظرة مقلة نجلاء
فتحدثنا سرا فحول قباها سمر الرماح يملن للإصغاء
ثم رجح أن يكون ابن مكانس قد ولد منهما بيته :
مالت على النهر إذ جاش الخرب به كأنها أذن مالت لإصغاء^(١)

وانتقل ابن مكانس بعد وصف النهر ، إلى ذكر الحمامات الشاذية على أراك
السرحة ، بين هذه الحداثق الفصح حتى أطربت عيدانها ، وأرقت أغصانها .
فقال :

من كل ورقاء في الأفنان صادحة بين الحداثق في فيحاء زهراء
ورق تغنت بتحنان رقين على عيدانها فاله في مغنى وغناء
ثم عاد إلى السرحة يذكر خطاب ظلمها وأحباب ناديا . وقد برئت قلوبهم في
رحابها من الحقد ، وخلصت من الشحنة ، فلم يعد لهم رابطة إلا الوداد . ولا جامع
إلا اللهو ، الذى لا مكر فيه ، والمجون الذى لاندم بعده . قال :

باكرتها فى سرة من أصحابها لا ينظرون على حقد وشحنة
يداعبون بمعنى شعرهم فأروا ود الأوبة فى ألفاظ أعداء
من كل شيخ مجون فى شباب فى يقرى المجون بقلب غير نساء
يسعى إليها على جرداء جارية من آلهة كهلال الأمن حذاء

انتقل الشاعر فى البيت الأخير - كما ترى - انتقالا لطيفا إلى وصف
السفينة ، يركبها الأحباب المرتاضون فى أمانة النهر وحراسة تياره . وشبهها
بهلال الأمن ، لابهلال الشك . فقد استسلم فوقها اللاهون للمجون استسلام المؤمن
لقدره ، فى وداعة ورضا واطمئنان .

وهذه السفينة « نوحية الصنع » . فلعل الشاعر كنى بذلك عن قدمها ، إذ هى

معودة - من زمن بعيد - أن تحمل العشاق والمحبين وتوصلهم إلى غاياتهم ،
وتحفظ الخفي من مكنوناتهم وأسرارهم : وكم أنقلوا ظهرها وآدوا منكبيها ،
وما اشتكت منهم عناء ولا بكيت إعياء

أو لعل الشاعر يرمز إلى دقة صنعها ، وإلى أنها مباركة طيبة ، فيها الأمان
والأمان والنجاة .

لذلك كله تزهو السفينة بنفسها ، وتفخر على الجياد الغر والعناق الضامرة .
وقد بدت كالعرس تنهذى في زينتها ، وكالرود تنبخر في مشيتها . فتزيد بذلك
جو العشاق أنسا وبهجة ، وتسحر عيونهم بما زها عليها من ألوان فاتنة . قال
ابن مكناس :

نوحية الصنع والإحكام منشأة	تسير ما سيرت من غير إعياء
سوداء تحكى على الماء المصنندل شا	مة على شفة كالشهد لعساء
ساجية ألبيتها الصانعون لها	من التداييج ما يزهو بصنعاء
غريبة ذات ألوان وأجنحة	لم أدر تعزى لروض أو لعنقاء
لم يستطع شأوها أو سيرها عنق	غر الجياد على كد وإنشاء

وكما تخلص الشاعر إلى وصف السفينة في رفق ، تخلص من وصفها إلى أبيات
خمرية منثنية ، فأبدع ماشاء له قلبه وإلهامه ، فجمع في وصف الخمر بين الشمطاء
والعذراء ، الشمطاء لنفساتها وقدم عهدا ، والعذراء لأنها مختومة لم تفض ، وبكر
لم تقرب . وأجاد في وصف إبريقها الذي إذا انحنى فركوع دعاء ، وإذا صوت
فتسبيح فأفاه ..

وبتنازلها ينتظم شمل نادى السرحة ، ويلتئم مجلس رواده ... يقول ابن
مكناس :

كم قد نعمنا بها عيشا بساقية	شمطاء تجلى على الجلاس عذراء
مما تخيرها كسرى وأودعها	رب الخورنق في قوراء جوفاء

حمرء صرفا وصفرا إن مزجت لها كم من يد في سواد الليل بيضاء
راحا إذا ركع الإبريق يمزجها سمعت من صوته تسليح فأفاء
أم السرور التي أبقى الزمان بها جزء الحياة وقد ألوى بأجزاء
فعاطينها على ظل الندى سحرا فإن ترياقتها موتى وإحيائي

اختتم ابن مكناس سرحيته الفريدة بأبيات ذكر فيها شيئا من لهوه ، وطرفا
من مجونه ، وتقلبه بين الشادى والشادية ، وبين العود والنأى ، وبين الحدايق ذات
البنفسج الفياح والزهر النفاح ، منوها أن من دأبه أن يأخذ من اللهمو بنصيب .
وأنة لا ينوح - كغيره - على طلل ، ولا يندب خليطا ، ولا يبكي على أحياء .
يقول :

أما أنا لست نواحا على طلل ولا خليط ولا ندادب أحياء
تركته لأناس كالتبوس غنوا عن المدام بدر الإبل والشاء
يعزون للشعر لكن من جهاتهم لم يعرفوا بين إبطاء وإقواء
من كل ألكن عند البحث منقطع كأنه واصل والشعر كالراء . (١)

مصائد الشوارد :

وما دمننا بصدد الحديث عن الربيعيات والروضيات ، لانرى بدا من الإشارة
العابرة الوجيزة إلى هذه المزدوجة البارعة التى نظمها براعة الشاعر الكبير جمال
الدين بن نباتة المصرى ، وهى قصيدته «مصائد الشوارد» :

وقد كان ابن نباتة أمير شعراء مصر فى زمانه بلا منازع ، بل أمير شعراء

(١) القصيدة فى ديوان نثر الدين بن مكناس - مخطوط بدار الكتب المصرية - ومطالع البدور
فى منازل السرور للعلامة الغزولى ج ١ مخطوط بمكتبة الأزهر - وروض الآداب للشهاب الحجازى
مخطوط بمكتبة الأزهر - وكوكب الروضة للسيوطى مخطوط بدار الكتب المصرية ص ١٥٧ . وواصل
هو واصل بن عطاء ، وكان لا يحسن نطق الراء ،

المشرق . ولد في مصر ونشأ بين ربوعها ، وتثقف بثقاف أدبائهما ، وتفتحت عينه أول ما تفتحت على ملاعبها ومرابعها ولها في مراحتها . وثملت نفسه بمفاتيح طبيعتها ومحاسنها .

ولكن عاجله الفراق . فزح عنها لضيق عيشه بها ، متكبساً بشعره في دمشق وحماة . وهناك احتفل الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة بمقدمه ، وأكرمه ، فدحه وأطال في مديحه وأجاد . ثم اتصل من بعده بابنه الملك الأفضل فخطى عنده كما كان من قبل عند أبيه .

ورافق ابن نباتة مرة ، ركاب الملك الأفضل . وكان قد خرج إلى رحلة صيد ، ومعه رجاله وغلمانه وحرسه وخدمه وطهاته وأدوات صيده من رماح وقسي وسهام وبزاة وصقور وكلاب ، وأدوات لهوه وأنسه .

فسجل ابن نباتة هذه الرحلة الممتعة في مزدوجته البارعة . ووصف فيها كل ما ذكرناه لك . وكل ما مر عليه ورآه من طبيعة أحراج حماة وما يعيش في زواياها من صيد سمين . ووصف الشجر والزهر والثر ، والطير والأرض والسماء ، ووصف الغلمان والبزاة والصقور إلى غير ذلك . فكانت قصيدة جامعة رائعة ، استغرقت نحو ١٧٠ بيتاً من جيد الشعر .

وهكذا ظفرت حماة وبيئة حماة الطبيعية ، من ابن نباتة ، بما لم تظفر به منه مصر ، وهو وليدها وناشئها وشاعرها ولكن هذه عاقبة حرمانها له ، وتفریطها فيه .

وإليك بعض أبيات هذه الفريدة . قال في أولها :

أثنى شذى الروض على فضل السحب	واشتملت بالوشى أرداف الكشب
ما بين نور مسفر اللثام	وزهر يضحك في الأكمام
إن كانت الأرض لها ذخائر	فهي لعمري هذه الأزهار
قد بسطتها زاحة الغمام	بسط الدنانير على الدراهم

أحسن بوجه الزمن الوسيم تعرف فيه نضرة النعيم
وحبذا وادى حمأة الرحب حيث زها العيش به والعشب . الخ (١)
ويقول صاحب كتاب « شعر الطبيعة » ، إن بائية ذى الرمة التى تبلغ مائة
وثلاثين بيتا لم تظفر العربية بمثلها طولا ، فى شعر الطبيعة (٢) . ونقول إن
« مصائد الشوارد » ، لابن نباتة أطول منها

رحلة صيد الملك الأشرف خليل :

وذكرت « مصائد الشوارد » ، ورحلة الملك الأفضل ، برحلة قبلها للصيد ، قام
الملك الأشرف خليل بن قلاوون عام ٦٩٠ هـ : لقد خرج مع أمرائه ورجاله وبين
جنده وحرسه ، ومعه أدوات صيده ورماته ، إلى رحلة صيد اتجه فيها نحو قرى
البحيرة ومنها دخل مدينة الإسكندرية .

وضربت خيامه جهة الأهرام . وأخذ رماة الصيد يرمون . وعرضوا عليه
أن يرمى معهم فيصيد الطير بالبندق . فأبى واستنكف ، وترفع وتعفف ، أن
ينزل إلى مستوى الرماة ، وأن يقتل الطير على طريقتهم فى صيده وقتله ...

ونظم الشاعر الكبير محي الدين بن عبد الظاهر فى هذا قصيدة .. لم يذكر
فيها شيئا مما رآه من مجالى الطبيعة إبان الرحلة ، ولا وصف مزاوله الصيد .
وحبس اهتمامه فيما كان من أمر الملك الأشرف ، وتعففه عن الصيد ، كأنما لم يعجبه
من الرحلة إلا هذا التعفف . وكال له المديح كيلا ...

لو اتجه فى قصيدته كما اتجه ابن نباتة من بعد فى أرجوزته ، لكان للأدب
منه ثراء ، ولشعر الطبيعة منه غنى .

(١) ديوان ابن نباتة - فى آخر الديوان .

(٢) كتاب شعر الطبيعة فى الأدب العربى للدكتور سيد نوفل ص ١٤٧ .

ولعله - والله أعلم - وصف الرحلة في مفتتح القصيدة . ولكن لم يسجل
منها المؤرخون إلا أبيات المديح .
وقد قال في أول الأبيات المسجلة ، وفيها مبالغة غير مستساغة :

ما يدعى السلطان إلا لمن يكون أعلى منه مقداراً
والأشرف السلطان من دونه قد خلق العالم أطواراً
لأجل هذا ما رمى بندقا ونال بالجراح أطواراً
وليس بالواجب ذاك الذى يسميه بالواجب من ماري
حاشاه من تبديل أقواسه أو يبدل الأوتار أوتاراً . . (١)

الآهرام :

والآهرام - وإن كانت من صنع الإنسان ، وبما أقامه على سطح الأرض ،
وتدل على حياة مصرية قديمة اجتماعية ، حافلة ، اشترك في بنائها الدين والعقيدة
من ناحية ، والحكم المستبد والمستوى الاقتصادى والصناعى من ناحية أخرى ،
- رسخت على ظهر هذه الأرض ، ولم يعثرها من التغيير والتبديل ما يعترى
سائر ما يبنى الإنسان ، واعتادت العين رؤيتها جزءا لا ينفصل من طبيعة صحراء
مصر الغربية . حتى صارت امتدادا لها ، وأعجوبة باقية من أعاجيب مصر الخالدة ،
التي يسعى إليها الناس من كل حذب ، سائحين حاجين ، ليروا فيها ما يملأ العين
جلالا والنفس روعة .

وقد توثب خيال بعض شعراء مصر ، فدار حول الآهرام ، واستوحى منها
ما استوحى من عو صوره .

(١) قصة الرحلة والقصيدة ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ من « الألفاظ الخفية من السيرة الشريفة
السلطانية الملكية الأشرفية » ب خليل بدار الكتب ط أوروبا .
(م ٢٧ - عصر المماليك)

وقد طار الأديب القاضى نثر الدين عبد الوهاب المصرى ، بخياله حولها وحلق فى جوها ، فرآها من عظات الدهر . وتذكر ما قاله فيها الأدباء ، وما نظمه الشعراء . ونظر إليها فإذا هى فى رأى عينه ، جبال شامخة تكاد أن تمتد فوق الأفق . وكأن كسرى جالس على قتها ، وسفحها إيوانه . فأخذ يمجّد خلودها على الزمان ، وثباتها على حره وبرده ، وعلى غيره وصروفه ، دون أن تتأثر بإحراق الشمس أو عصف الرياح ، أو جريان السيل .

ويتساءل الشاعر - وهو فى تسائله متعجب معظم - هل هى أوئان عابد ، أو مثوى لروح قائد ، أو مأوى له من طوفان ، أو مرصد لراصد . أو هل اختارها القائد ملجأ يعود إليه لأنه يؤمن برجعة روحه بعد موته . لذلك يحشد فيها كنوزه ، ويحفظ جسمه ، ليأمن عليهما من بوائق الدهر . . . إلى غير ذلك من المشاعر والأفكار التى أثارها منظر الأهرام فى نفس الشاعر .

وإليك هذه الأبيات ، قال :

أهبانى الأهرام كم من واعظ	صدع القلوب ولم يفه بلسانه
أذكرتنى قولاً تقادم عهده	أين الذى الهرمان من بنيانه
هن الجبال الشامخات تكاد أن	تمتد فوق الأرض عن كيوانه
وكان كسرى جالس فى سفحها	لأجل مجلسه على إيوانه
ثبتت على حر الزمان وبرده	مددا ولم تأسف على حدثانه
والشمس فى إحراقها والريح عنه	دهبوبها والسيل فى جريانه
هل عابد قد خصها بعبادة	فهبانى الأهرام من أوئانه
أو قائد يقضى برجعة نفسه	من بعد فرقة إلى جثمانه
فاختارها لـكنوزه ولجسمه	قبرا ليأمن من أذى طوفانه
أو أنها للسائرات مراصد	يختار راصدها أعز مكانه
أو أنها وضعت بيوت كواكب	أحكام فرس الدهر أو يونانه

أو أنهم نقشوا على حيطانها علما يحار الفكر في بنيانه
في قلب رائيها ليعلم نقشها فكر يعرض عليه طرف بنانه (١)

وجاز الشهاب المنصوري بالهرمين ، فوقف أمام جلالهما بشدورها معجبا ،
مأخوذا بروعة بنائهما وجمال تشييدهما ، وطيب إخائهما ، وإقامتهما هكذا
متجاورين في هذه الصحراء الشاسعة ، واقفين على أبوابها في ثبات وترقب .
فأخذ يستوحى منهما العبر بعقله ، ويستلهم من وقتتهما الصور بخياله . وغالهما
مسافرين عرفا المحل ، أو عاشقين تواصلوا بالرغم من رقيبهما أبي الهول ، أو حائرين
تطلعا إلى السماء يستهيدان نجمها ، أو ظامئين استسقىا صوت الحيا . ويقول
الشاعر :

إن جزت بالهرمين قل كم فيهما	من عبرة للعاقل المتأمل
شبهت كلا منهما بمسافر	عرف المحل فبات دون المنزل
أو عاشقين وشى بوصلهما أبو ال	هول الرقيب خلفاء بمعزل
أو حائرين استهديا بنجم السما	فهداهما بضياءه المتهلل
أو ظامئين استسقىا صوب الحيا	فسقاهما عذبا روى المنهل
يغنى الزمان وفي حشاه منهما	غيظ الحسود وضجرة المستقل (٢)

الهلال :

والهلال من مجالى الطبيعة الفاتنة . وقد وثب إليه خيال الشاعر شرف الدين
الطائي ، فوجده سوارا جميلا تزدان به حسناء . ووجد الزهرة قريبة منه ، فهي
جوهرة ركبت على قفله . . وهذا لعمري خيال رجل متحضر . .

(١) خطط المقرئ ج ١ ص ١٩٦ في حديثه عن الأهرام ، وروى أنه وجدها مكتوبة بخط
شهاب الدين بن أبي حجلة الذى قال إن الناظم أنشدها له عام ٧٥٥ هـ . راجع أيضا : الذيل الأول
لثمرات الأوراق لابن حجة . ص ١٦٩ ط المطبعة الوهية عام ١٣٠٠ هـ .
(٢) حسن المحاضرة ج ١ باب ذكر الهرمين .

قال الشاعر :

كأن الهلال بجو السماء وقد قارب الزهرة النيرة

سوار لحسناء من عسجد على قفله ركبت جوهرة^(١)

وسما إليه الشاعر المبدع ابن نباتة المصرى لجمع في وصفه اثني عشر تشبيها .
صاغها بعبارة الجزلة . يريد أن جوهر هذه التشابيه مألوف في وصف الهلال .
غير أن للشاعر هنا - ولا ريب - تصرفا في تخريج وجوه الشبه أو بعضها .

وقد رآه قوسا متورا على مهج الأعداء . ومخلبا مده نسر السماء يخيف الطير ،
ومنجلا انعطف للحصاد ، وخنجرا مرهفاً . ونعلا من تبر مهدي إلى جواد ملك
أو أمير ، وراكعا يشكر الله على فضله ، وحاجبا أشمط يفضح عمر صاحبه .
وزورقا انحدر في بحر الظلام ، وشفة مائلة إلى كأس . ونصف سوار طرحه
كف الدجى . وقطعة قيد للمأسور ، ونون رمضان سقطت لما مضى الشهر .

قال ابن نباتة :

كأن شمل هلال العيد في يده	قوس على مهج الأعداء مونور
أو مخلب مده نسر السماء لهم	فكل طائر قلب منه مذعور
أو منجل بحصاد القوم منعطف	أو خنجر مرهف النصلين مظرور
أو نعل تبر أجادت في هديته	إلى جواد ابن أبواب المقادير
أو راع الظهر شكر آفي الظلام على	من فضله في السماء والأرض مشكور
أو حاجب أشمط ينبي بأن له	عمراً له في ظلال الملك تعبير
أو زورق جاء فيه العيد منحدراً	حيث الدجى كعباب البحر مسجور
أو لافقل شفة للكأس مائلة	نذكر العيش إن العيش مذكور
أو لافنصف سوار قام يطرحه	كف الدجى حين عمته التباشير

(١) حن المحاضرة ج ١ باب ذكر الهرمين ،

أولا فقطعة قيد فك من بشر أخنى الصيام عليه فهو مأسور
أولافن رمضان النون قد سقطت لما مضى وهو من شوال محصور^(١)
والآبيات من قصيدة رائية لابن نباتة ، مدح بها الملك المؤيد صاحب حماة ،
وإليه يشير في بعض الآبيات بقوله : ابن أيوب .

وقد ذكر ابن حجة في ديوان شعره « الثمرات الشبية » - وكان هو قد عارض
رائية ابن نباتة برائية على نمطها - « أن ابن نباتة شبه الهلال هذه التشبيهات ،
وهي من السبعين تشبيها . التي ذكرها الشيخ صلاح الدين في شرح اللامية »^(٢) .
ويعنى ابن حجة بشرح اللامية ، شرح الصفدى للامية الطغرائى المعروفة
بلامية العجم . واسم الشرح « الغيث الذى انسجم » .
ولم يشير ابن حجة إلى أى الشاعرين أخذ من الآخر . ونرجح أن الصفدى
هو الذى أخذ من ابن نباتة ، أو اقتدى به لأن هذا كان ديدنه - ثم زاد
عليه ما زاد .

وقد نظم الصفدى - حقا - عدة مقطوعات في وصف الهلال بخاصة ،
سمها « وصف اللال في وصف الهلال » . وقد ضم الجلال السيوطى إليها مجموعة
أخرى من نظم الشعراء في وصف الهلال ، وسمى الجميع « رشف الزلال في
وصف الهلال »^(٣) .

وفي مقطوعات الصفدى تراه قد اعتمد كثيرا في تشبيهاته على تشبيهات غيره ،
ومنها ما هو مألوف ، ومنها غير المألوف . ويبلغ عدد هذه المقطوعات نحو ٤٣

(١) ديوان ابن نباتة ص ١٨٦ - و« رشف اللال في وصف الهلال » ص ٧٤ ، ضمن مجموعة رقم ١١٧١
بالمكتبة الأزهرية ط الجوائب عام ١٣٠٢ هـ .

(٢) راجع ديوان ابن حجة الجموى « الثمرات الشبية » مخطوط بدارالكتب المصرية .

(٣) رشف الزلال يوجد ضمن المجموعة رقم ١١٧١ بالمكتبة الأزهرية ط الجوائب .

مقطوعة . لم يبلغ بها مستوى ابن نباتة ، من الجزالة ودعة الصنع وحسن الخيال .
ومن تشبيهات الصفدى فى هذه المقطوعات : تشبيهه بمقص فتح لقص ذيل
السماء . وبالمحجبة التى رآها خليلها فبدا لى منها حاجب ، واختفى الآخر . وبالحاجب
المقلوب من رجل أسود أشيب . وبالوتد الذى جره الطنب فاعوج . وبالقصر
من مرآة صدئة طوق بعضها بالذهب . وبالمتعب الذى انحنى ظهره . وبالمحنى
الذى يفتش عن شبابه فى التراب ، وبالصدع فى زجاجة . وببقايا الطحين فى جانب
الرحى . وبشارب ظامى شرب لبناً لم يمسحه . وبالنون وبالنوى وبالقوس
دون الوتر . وبالفخ . وبالزريدة من الفضة لاح بعضها فى سابعة من حديد .
وبالنعل الملتاث بالطين . وبذباب حسام فتق بحده الغمد ، وبالسرى فى الضمير .
وبالشعرة البيضاء فى وجه الغدير . وبالسوار وبالهملج ، وبالطوق وبالصدغ
وبالحاجب وبالعذار . وبمرآة الخد ، وبالفتر الممتد . وبأثر الظفر فى تفاحة . وبفم
بئر غطى إلا جزءاً منه . وبالمحراب المنعكس ، وبالقنديل ، وباللب الأبيض فى
صدر الفرس الأدهم . وبالماء يبقى فى أسفل الحوض وبعطفة الجدول فى الروض .
وبالزورق . وبمقصعة العجوز . وبالراكع ، وبطالب المجد المتعب . وبالشعرة البيضاء
فى حاشية الرداء الأزرق . وبتجويف القاف . وبطية الأعكان من ناهد . وبغيب
مستحسن فى حنك . وبالمنجل . وبناى الفيل . وبمخلب الرئبال . وبنون رمضان .
وبالغار تدخله ظباء الثريا . وبمنطقة خصر . وباللثام . وبخشكناجحة فى صحن
صينى^(١) . وبكرة من عنبر . وبعود من لجين . وبالحخال ، وبحق الحلى بعض
ما فيه قرط الثريا . الخ .

ومهما يكن من شىء فلا نملك للصفدى إلا الإعجاب به وبمجهوده ، فى جمع
هذه التشبيهات أو تصورها ، وصباها فى قالب شعرى ، باق حتى اليوم . وفى مجهوده
دلالة قوية على أن الهلال شغل من نفسه جانباً كبيراً . . وإن كانت تشبيهاته له

(١) الخشكناجحة ، يبدو أنها نوع من الكمك أو « البسكوت » .

حسية لم ينجح بها إلى عاطفة ، أو يتحول إلى مناجاة نفسية .

وإليك بعض أبيات مقطوعاته :

قال يشبهه بمن يفتش عن شبابه في التراب :

يقول هلالنا في كل شهر مقالة ذى عناء واكتئاب
مضى زمن ولى وجه مليح أفوق به على الخود الكعاب
وقد أصبحت منحنيا كأتى أفتش في التراب على شبابي (١)
وقال يشبهه بالمحجبة :

كأن هلال الأفق لما بدا لنا ولاحظه كل بعين مراقب
محجبة لما تراءت لصيها بدا حاجب منها وضنت بحاجب (٢)
وقال يشبهه بمرآة خد :

حكى هلال الأمس لما مضت له ثلاث واعتلى واستنار
مرآة خد بعضها ظاهر والبعض منها في غلاف العذار (٣)
وقال يشبهه بالشعرة البيضاء في الرداء الأزرق :

وبدا هلال الأفق والأقوام بين مكذب في أمره ومصداق
فكأنما هو شعرة بيضاء قد علقت بحاشية الرداء الأزرق (٤)

وقد أتى خيال ناصر الدين بن النقيب في تشبيهه الهلال ، بصورة خيالية بعيدة ،
وإن كانت حسية ، إذ قال :

أغملت فكبرى في السماء وقد بدا فيها هلال جسمه منهوك
فكأنما هي شقة ممدودة وكأنه من فوقها مكوك (٥)

(١) و٢٠٣ و٤١) رصف اللال للصقدي ضمن مجموعة بالمكتبة الأزهرية رقم ١٧٧١ ط الجواب عام ١٣١٢ هـ
(٥) رشف الزلال في رصف الهلال للسيوطي ، ضمن المجموعة السابقة .

وشبهه البرهان القيراطى بالزورق ، ولكن بعد تصور لطيف ، إذ رأى شهب
السما غارقة فى ماء النيل ، وفى جملتها الهلال ، فقال :

وتمثلت فى النيل شهب سمانا فكأنها فيه قلوب تخفق
ولقد عجت لها نجوما كلها سحبت على الأفلاك فيه تفرق
لا تنكروا غرق الهلال بمائه إن الهلال كما علمتم زورق (١)

ونكتنى فى هذا الفصل بالدراسة التى أسلفناها . وقد تبين منها - ولا ريب -
مبلغ تأثير بيئتنا الطبيعية فى شعرائنا إبان عصر المماليك ، وشهدنا مبلغ استجابتهم
لها وتلبيةهم لندائها ، وتسجيل مشاعرهم نحوها ، ووصف معاملها من زواياها المتعددة .
ولا حاجة بنا إلى أن ننبه - بعدما بيناه - على مدى يقظتهم النفسية والفكرية معا
وعنف تأثيرهم بهذه البيئة عمقا بدت معاملها فيما نظموه . لقد استطاعوا بتمكن هذا
التأثر من نفوسهم ، أن يمدوا صناعتهم الفنية بأدواتها ووسائلها الضرورية ، التى
أمكنهم بها أن يحسنوا هذه الصناعة . فجمعوا بذلك بين صدق التجربة وإجادة
الصناعة .

ونحن - بعد ذلك نتابع خطانا إلى ميدان آخر . وهو ميدان البيئة السياسية ،
لنطلع على مجهودهم فيه ، وانطباعاتهم عنه وتجاوبهم معه .

الحمد لله

تم طبع المجلد السابع من كتاب عصر سلاطين المماليك

ونتاجه العلمى والأدبى

وذلك فى ربيع الثانى سنة ١٣٨٥ هـ - وأغسطس سنة ١٩٦٥ م

وبلغه المجلد الثامن

وأوله الفصل الثانى من الباب الأول

فى

بيان أثر البيئة السياسية فى الشعر

مراجع المجلد السابع

مرتبة بحسب حروف الهجاء

- ١ - ابن نباتة أمير شعراء المشرق للأستاذ عمر موسى باشا - نشر دار المعارف .
- ٢ - الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين .
- ٣ - الأدب العربي وتاريخه للأستاذ الشيخ محمد عبد المطلب .
- ٤ - الأدب العربي المعاصر للدكتور شوقي ضيف .
- ٥ - الأدب المقارن لفان تيجم ، معرب ، طبع ونشر دار الفكر العربي .
- ٦ - اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري . للدكتور محمد مصطفى هدارة . . طبع دار المعارف .
- ٧ - أخبار أبي تمام لأبي بكر الصولي .
- ٨ - الأخطل شاعر بني أمية ، للدكتور السيد مصطفى غازي ، نشر دار الثقافة بالإسكندرية .
- ٩ - الأشباه والنظائر لجلال الدين السيوطي .
- ١٠ - الأصول الفنية للأدب للأستاذ عبد الحميد حسن .
- ١١ - إغاثة الأمة بكشف الغمة لتقي الدين المقرئ .
- ١٢ - الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني .
- ١٣ - أغاني الطبيعة للدكتور أحمد الحوفي .
- ١٤ - أمراء غسان لنولدكة ، تعريب الدكتور بيدلي وآخرين .
- ١٥ - ألحان السواجع لإصلاح الدين الصفدي - خط بدار الكتب المصرية .
- ١٦ - بدائع الزهور لابن إلياس الحنفي .

١٧ - بهجة الناظر ونزهة الخاطر للجلال السيوطى - خط بدار الكتب المصرية .

١٨ - تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان .

١٩ - تاريخ الخلفاء للجلال السيوطى .

٢٠ - تاريخ دولة المماليك للسير ولیم مویر ، تعريب محمود عابدين وسليم حسن .

٢١ - تاريخ الفلسفة فى الإسلام للأستاذ ت . ج . دى بور ، تعريب الأستاذ أبوريدة .

٢٢ - تاريخ مصر فى العصور الوسطى للدكتور على إبراهيم حسن .

٢٣ - تأهيل الغرب لفتح الدين بن حجة الحموى - خط بدار الكتب المصرية ، ومعهد الإسكندرية الدينى .

٢٤ - تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور لمحيى الدين بن عبد الظاهر طبع وزارة الثقافة والإرشاد القومى .

٢٥ - التطور والتجديد فى الشعر الأموى للدكتور شوقى ضيف - طبع دار المعارف .

٢٦ - التعليم فى مصر لأمين سامى .

٢٧ - تقويم البلدان لأبى الفداء إسماعيل .

٢٨ - تقويم النيل لأمين سامى

٢٩ - ثورة الأدب للدكتور محمد حسين هيكل .

٣٠ - جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى .

٣١ - جلاء العينين للألوسى .

٣٢ - الحركة الفكرية للدكتور عبد اللطيف حمزة .

٣٣ - حسن المحاضرة للجلال السيوطى .

- ٣٤ - حلبة السكيت لشمس الدين النواجي .
- ٣٥ - الحياة العربية من الشعر الجاهلي للدكتور أحمد الحوفي . نشر مكتبة نهضة مصر .
- ٣٦ - خزانة الأدب لتقي الدين بن حجة الجوى .
- ٣٧ - خزانة الأدب للبغدادى . نشر عيسى الباب الحلبي .
- ٣٨ - الخطط لتقي الدين المقرئى . طبع مطبعة النيل بمصر عام ١٣٢٤ هـ .
- ٣٩ - دراسات فى الشعر المعاصر للدكتور شوق ضيف - طبع دار المعارف .
- ٤٠ - الدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى .
- ٤١ - الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ، ابن قلاوون ، لأبى بكر الدوادارى تحقيق هانس روبرت رومر .
- ٤٢ - ديوان ابن أبى حجلة المغربى - خط بمكتبة الأزهر .
- ٤٣ - ديوان ابن حجر العسقلانى - خط بمكتبة الأزهر ، ودار الكتب المصرية .
- ٤٤ - ديوان ابن حجة الجوى ، جنى الجنتين ، - خط بدار الكتب المصرية .
- ٤٥ - ديوان ابن خفاجة الأندلسى .
- ٤٦ - ديوان ابن الرومى - اختيار الكيلانى - طبع مطبعة حجازى .
- ٤٧ - ديوان ابن زيدون .
- ٤٨ - ديوان ابن المعتز .
- ٤٩ - ديوان ابن نباتة - نشر القلقلى .
- ٥٠ - ديوان ابن الوردى - طبع الجوائب .
- ٥١ - ديوان أبى تمام - نشر دار المعارف .
- ٥٢ - ديوان أبى نواس .
- ٥٣ - ديوان الأختل .

- ٥٤ - ديوان إسماعيل صبرى - طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ٥٥ - ديوان الأعشى الكبير ، تحقيق الدكتور محمد محمد حسين - نشر مكتبة الآداب بالجماميز .
- ٥٦ ديوان البارودى بتحقيق الجارم ، وأيضا بشرح الشيخ شريف
- ٥٧ - ديوان البحترى .
- ٥٨ - ديوان بشار .
- ٥٩ - ديوان البوصيرى .
- ٦٠ - ديوان جميل -- تحقيق الدكتور حسين نصار .
- ٦١ - ديوان حافظ إبراهيم - طبع دار الكتب .
- ٦٢ - ديوان حسان بن ثابت .
- ٦٣ - ديوان الشباب الظريف .
- ٦٤ - ديوان الصبابة لابن أبى حجلة المغربى
- ٦٥ - ديوان صفى الدين الحلى - طبع النجف الأشرف .
- ٦٦ - ديوان عمر بن أبى ربيعة - طبع المطبعة النينية .
- ٦٧ - ديوان نحر الدين بن مكافس - خط بدار الكتب المصرية .
- ٦٨ - ديوان الفرزدق .
- ٦٩ - ديوان برهان الدين الفيراطى - خط بمكتبة الأزهر .
- ٧٠ - ديوان المتنبي .
- ٧١ - ديوان محمد عبد المطلب - طبع ونشر مطبعة الاعتماد .
- ٧٢ - الذخيرة لابن بسام .
- ٧٣ - رشف الزلال فى وصف الهلال للصالح الصفدى .
- ٧٤ - رصف اللآل لجلال الدين السيوطى .
- ٧٥ - روض الآداب لشهاب الدين الحجازى .
- ٧٦ - رياض الألباب لشمس الدين النواجى . خط بمكتبة الأزهر .

- ٧٧ - زبدة الفكرة من تاريخ الهجرة لبيرس الدوادارى - مصور بمكتبة جامعة القاهرة .
- ٧٨ - سلوك المقرئى - تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة .
- ٧٩ - السيف المهند فى تاريخ الملك المؤيد « شيخ » لبدردى العيى - مصور بدار الكتب المصرىة .
- ٨٠ - شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى .
- ٨١ - شعراء مصر وبيئاتهم فى الجبل الماضى للمرحوم عباس محمود العقاد .
- ٨٢ - شعراء النصرانية .
- ٨٣ - شعر الحرب فى أدب العرب فى العصرين الأموى والعباسى إلى عهد سيف الدولة . للدكتور محمد زكى المحاسنى - نشر دار المعارف .
- ٨٤ - الشعر السياسى فى عصر بن أمية للأستاذ أحمد الشايب - نشر مكتبة النهضة المصرىة .
- ٨٥ - شعر الطبعة للدكتور سيد نوفل - نشر مكتبة الخانجى بمصر عام ١٩٤٥ .
- ٨٦ - الشعر الغنائى فى الأمصار الإسلامىة للدكتور شوقى ضيف .
- ٨٧ - الشعر والشعراء لابن قتية .
- ٨٨ - الشوقيات - لأحمد شوقى - طبع مطبعة مصر .
- ٨٩ - صبح الأعشى للشهاب القلقشندى - طبع دار الكتب .
- ٩٠ - الضوء اللامع لشمس الدين السخاوى .
- ٩١ - الطالع السعيد لسمال الدين الأدفوى .
- ٩٢ - طبقات ابن سلام - لابن سلام الجمحى .
- ٩٣ - طبقات الحفاظ لشمس الدين الذهبى .
- ٩٤ - طبقات الخنابلة لمحمد جميل الشطى .
- ٩٥ - طبقات الشافعية لتاج الدين السبكى .
- ٩٦ - طيف الخيال لابن دانيال الموصلى .

- ٩٧ - العبر وديوان المبتدأ والخبر ، لولى الدين بن خلدون .
- ٩٨ - عجائب المقدور فى فوائىب تيمور ، لشهاب الدين بن عربشاه .
- ٩٩ - عصر سلاطين الممالىك لمحمود رزق سليم - نشر مكشبة الآداب بالجاميز ،
ووزارة الثقافة والإشاد القومى . مجلد ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦
- ١٠٠ - عقد الجمان لبدر الدين العينى - مصور بدار الكشيب المصرىة .
- ١٠١ - العقد الفريد لابن عبدريه .
- ١٠٢ - العمدة لابن رشيق القيروانى - نشر المكشبة التجارية - طبع مطبعة
حجازى بمصر .
- ١٠٣ - عمر بن أبى ربيعة - حياته وشعره للأستاذ جبرائيل جبور .
- ١٠٤ - الفاروق عمر للدكتور محمد حسين هيكلى .
- ١٠٥ - فى الأدب الحديث للأستاذ عمر الدسوقى - نشر دار الكشيب .
- ١٠٦ - فى الأدب المصرى للأستاذ أمين الخولى .
- ١٠٧ - فتح العرب لمصر لألفرد بنتلر ، تعريب الأستاذ محمد فريد أبو حديد .
- ١٠٨ - الفتوة عند العرب للأستاذ عمر الدسوقى .
- ١٠٩ - الفن ومذاهبه فى الشعر العربى للدكتور شوقى ضيف .
- ١١٠ - قوات الوفيات لابن شاكى الكشيبى - طبع بولاق .
- ١١١ - كتاب مؤنم النىل للدكتور سليمان حزين وآخرين .
- ١١٢ - كوكب الروضة لجلال السيوطى - خط بدار الكشيب المصرىة .
- ١١٣ - كيف يعمل العقل للسير سيرلبرت - تعريب الأستاذ محمد خلف الله -
طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ١١٤ - الألفاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية - سيرة الأشرف خليل
ابن قلاوون . تأليف محبى الدين بن عبد الظاهر - طبع أوروبا .
- ١١٥ - المدخل لابن الحاج العبدرى الفاسى .
- ١١٦ - مسالك الأبصار لشهاب الدين بن فضل الله العمرى .

- ١١٧ - مطالع البدور فى منازل السرور ، للعلامة الغزولى - خط بمكتبة الأزهر
١١٨ - معلقات العرب للدكتور بدرى طبانة .
١١٩ - مقدمة ابن خلدون .
١٢٠ - مناهج الدراسة الأدبية فى الأدب العربى للدكتور شكرى فيصل - نشر
الخارجى بمصر .
١٢١ - المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، لأبى المحاسن بن تغرى بردى -
خط بمكتبة الأزهر .
١٢٢ - النابغة الذبياني للأستاذ عمر الدسوقي .
١٢٣ - النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة لأبى المحاسن بن تغرى بردى -
طبع دار الكتب المصرية .
١٢٤ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، المقرئ .
١٢٥ - نهاية الأرب لشهاب الدين النويرى - طبع دار الكتب - ومخطوط بها
ومكتبة جامعة القاهرة .
١٢٦ - النيل فى الأدب المصرى للدكتورة نعمات أحمد فؤاد - طبع دار المعارف .
١٢٧ - هاشميات السميت طبع مطبعة الموسوعات بباب الخلق بمصر .
١٢٨ - هبة الأيام بأخبار أبى تمام ، للبديعى الموصلى - إخراج محمود مصطفى .
١٢٩ - الوساطة للجرجاني .
١٣٠ - وفيات الأعيان لشمس الدين بن خلكان .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥	مقدمة	٥
معنى البيئة	٩	معنى البيئة	٩
البيئة الطبيعية	١١	البيئة الطبيعية	١١
البيئة السياسية	١٥	البيئة السياسية	١٥
البيئة الثقافية	١٧	البيئة الثقافية	١٧
البيئة الاجتماعية	٢٠	البيئة الاجتماعية	٢٠
خلاصة	٢٣	خلاصة	٢٣
تمهيد في بيان أثر بيئات مختلفة	٣٨	تمهيد في بيان أثر بيئات مختلفة	٣٨
في نتائجها الشعرى		في نتائجها الشعرى	
أولا : في البيئة الطبيعية	٣٨	أولا : في البيئة الطبيعية	٣٨
ثانيا : في البيئة السياسية	٦٣	ثانيا : في البيئة السياسية	٦٣
ثالثا : في البيئة الثقافية	٨٦	ثالثا : في البيئة الثقافية	٨٦
رابعا : في البيئة الاجتماعية	١٠٥	رابعا : في البيئة الاجتماعية	١٠٥
الباب الأول	١٢٥	الباب الأول	١٢٥
في وصف البيئات المصرية .		في وصف البيئات المصرية .	
وفيه أربعة فصول		وفيه أربعة فصول	
الفصل الأول : في وصف البيئة	١٢٧	الفصل الأول : في وصف البيئة	١٢٧
الطبيعية		الطبيعية	
طبيعة مصر	١٢٧	طبيعة مصر	١٢٧
نهر النيل	١٣٧	نهر النيل	١٣٧
فيضانه ومقياسه	١٤٢	فيضانه ومقياسه	١٤٢
الاحتفال بوفاته .	١٤٨	الاحتفال بوفاته .	١٤٨
خليجانه وقناطره	١٥٠		
مناره مصر والقاهرة	١٥٤		
بحار مصر	١٥٩		
بحر الروم — بحر القلزم	١٦٠		
مدن مصر : القاهرة . الإسكندرية	١٦٣		
قنيس . بلبس . دمياط . رشيد			
الحلة . أسوط . أسوان .			
جبال مصر — جبل المقطم	١٦٩		
الجبل الأحمر	١٧٠		
جبل يشكر	١٧١		
آثار مصر	١٧١		
الأهرام	١٧٢		
أبو الهول	١٧٤		
الفصل الثاني : في وصف البيئة	١٧٧		
السياسية			
قيام الدولة	١٧٧		
أجناس الممالك	١٨١		
طبقتا الأمة	١٨٣		
موقف الدولة بين مسلمي العالم	١٨٥		
معالم السياسة الخارجية	١٨٦		
التتار	١٨٧		
الصليبيون	١٩٣		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٩٧	العثمانيون	٢٥٢	نماذج من العلماء والأدباء
١٩٨	استقلال البلاد وبسط نفوذها	٢٥٤	حركة التأليف
٢٠٠	الاهتمام بالوطن العربي والإسلامي	٢٥٥	ظواهر أربع
٢٠٢	موقف الشعب من السياسة الخارجية	٢٦٣	نماذج من المؤلفات
٢٠٧	معالم السياسة الداخلية	٢٦٧	الأسئلة والأجوبة والفتاوى
٢٠٨	الفتن الداخلية		والمناظرات
٢١	ثورات العربان	٢٦٨	نضال العز بن عبد السلام
٢١٢	موقف الشعب من السياسة الداخلية	٢٦٨	كفاح ابن تيمية الحراشي
		٢٧١	فتنة ابن الفارض
٢٢١	الفصل الثالث : في وصف البيئة الثقافية	٢٧٢	الثقافة الأدبية
		٢٨٠	الدراسات القرآنية
٢٢١	تمهيد	٢٨٢	منهج القاضي الفاضل
٢٢٢	مصر دار العلم والأدب	٢٨٤	كتب البلاغين
٢٢٧	شهادة ابن خلدون	٢٨٥	الموسوعات
٢٢٩	النشاط العلمي : أسبابه ووسائله	٢٥٨	المجموعات الأدبية
٢٣٠	هجرة العلماء		
٢٣٢	دور التعليم	٢٨٧	الفصل الرابع : في وصف البيئة الاجتماعية
٢٣٦	خزائن الكتب		الاجتماعية
٢٣٧	الاتجاه التعليمي	٢٨٨	الطبقة الحاكمة
٢٣٩	مواد التعليم	٢٨٩	السلطان
٢٤٠	الكتب الدراسية	٢٩٠	حفلة توليته
٢٤٠	اختيار الشيوخ	٢٩١	حفلات الاستقبال
٢٤١	مراحل الدراسة وإجازاتها	٢٩١	خروج السلطان من القاهرة
٢٤٦	تشجيع المؤلفين		وعودته إليها
٢٤٩	نتائج النشاط العلمي	٢٩٢	الفرح بشفاؤه من مرضه
٢٤٩	أجيال العلماء والأدباء والمؤلفين	٢٩٣	جلوسه للقضاء

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
في عيد النيروز	٣٣٢	جلوسه للعلم والمناظرة	٢٩٥
في عيد وفاء النيل وكسر الخليج	٣٣٣	زواج السلطان أو الأمير	٢٩٦
في موسم الحج وخروج المحمل	٣٣٣	الأمراء	٢٩٨
في المجون والتبذل واللهو	٣٣٦	الجنود السلطانية	٣٠٠
النزاع بين الطوائف والأجناس	٣٣٧	الخلفاء	٣٠١
عصائب النساء وعمائم اليهود والنصارى	٣٣٩	الطبقة المحكومة	٣٠٣
		التعليم والجيش	٣٠٦
		ملكية الأرض الزراعية	٣٠٧
الباب الثاني	٣٤٣	الوظائف العامة	٣٠٩
في		التقاضى	٣٠٩
بيان أثر البيئات المصرية في الشعر		أعمال البر	٣١٠
وفيه خمسة فصول		الضرائب	٣١١
الفصل الأول : في بيان أثر	٣٤٥	العقوبات	٣١٤
البيئة الطبيعية في الشعر		السجن والسجون	٣١٤
أثر البيئة الطبيعية في الأخلاق	٣٤٥	الإعدام والتعذيب	٣١٥
والعادات		الزلازل والطوائع	٣١٦
أجمال ما في البيئة الطبيعية المصرية	٣٤٧	الجدب والغلاء	٣١٨
أثر ذلك في شعر شعرائها	٣٤٩	مظاهر البذخ والمنشآت	٣٢٠
حب مصر وذكرها وهظهر ذلك	٣٥٠	العادات والتقاليد	٣٢٢
في الشعر		في الخطبة والزواج	٣٢٢
أبيات للصالح الصفدى	٣٥١	أوقات السمر والمغنون والمغنيات	٣٢٤
أبيات لابن الوردي وابن سلا	٣٥٢	في الختان	٣٢٧
والوداعى		في الجنازات	٣٢٨
أبيات للمعمار والشهاب المنصورى	٣٥٣	في الموالد والمواسم	٣٢٩
أبيات لابن نباتة المصرى	٣٥٤	في شهر رمضان	٣٣٠
أبيات لشهاب الدين بن فضل الله	٣٥٥	في عيدي الفطر والأضحي	٣٣١

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	العمرى	٣٧٨	الشهاب الحلبي يسائل النيل عن جريانه .
٣٥٧	قصيدة عصماء لشهاب الدين بن حجر العسقلاني	٣٧٩	تسبيحة النواجي أو تغريدته .
٣٥٩	من طرائف شعر القيراطي	٣٨٥	لغز في النيل للشهاب المنصوري
٣٦٠	ابن نباتة يخاطب البرق والنسيم	٣٨٦	الروضة والمقياس
٣٦١	الولوح بالنيل ومظهر ذلك	٣٨٧	رياض القدس لسيدى محمد بن وفا
٣٦٣	بيتان للصالح الصفدى		
٣٦٤	بيتان لمجير النيل بن تميم	٣٨٧	الدعاء لمصر بالسقى للصالح الصفدى
٣٦٥	أبيات لمحي الدين بن عبد الظاهر ، وابن دانيال الموصلى	٣٨٧	من اشتياقات ابن نباتة
٣٦٦	بيتان لابن النقيب	٣٧٨	روضة المقياس في شعر ابن أبى حجلة المغربي
٣٦٧	سحر النيل وكيمياؤه في شعر إيدمر التركى	٣٨٩	مجير الدين بن تميم يصف مشاهد الروضة
٣٦٨	التغير اطل يفضل النيل على أنهار الشام	٣٨٩	بدر الدين البشتكى ينعت مرأى الروضة
٣٦٩	القيراطى يحصى عجائب النيل		
٣٧٠	لعب الشعراء بألفاظ الوفاء والكسر ونحوهما من ملابسات النيل .	٣٩٠	مفترجات مصر
٣٧٣	النيل يفي بوعده ، فيغنى بوفائه الشهاب المنصورى .	٣٩٠	العلاء الوداعى والمرصد
٣٧٤	البدر البشتكى ووفاءه لمصر ونيلها .	٣٩١	الشهاب المنصوى والمشتهى
٣٧٥	ابن أبى حجلة يصدر أفراحه بغزليات نيلية .	٣٩١	ابراهيم المعاز وجزيرة حليلة .
٣٧٧	مقطعات النيل لبدر الدين بن الحاجب .	٣٩١	القيراطى وقناطر ام الخنس
		٣٩١	المعار وقنطرة التسكة وخليج الذكر
		٣٩١	بركة الأزبكية وشمس الدين القادري
		٣٩٢	بركة الرطلى وشمس الدين بن

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣٩٢	بركة النيلوفر وصفى الدين الحلى	٤٠٥	ربيعية خمزية للبرهان القيراطى
٣٩٣	الربيعيات وما يتصل بها	٤٠٦	الدوايب والنواعير فى شعر مجير الدين بن تميم وابن نباتة .
٣٩٤	محيى الدين بن عبد الظاهر يصف بطحاء	٤٠٧	سرحة النيل لفخر الدين بن مكائس
٣٩٤	ربيع مصر فى شعر صفى الدين الحلى	٤١٤	مصائد الشوارد لابن نباتة المصرى
٣٩٥	مجير الدين بن تميم وأوائل الورد	٤١٦	رحلة صيد الملك الأشرف خليل
٣٩٦	الشاعر ابن الجباس يصف الموز	٤١٧	الأهرام
٣٩٨	مجير الدين بن تميم وقصة النهر	٤١٨	وصف الأهرام لفخر الدين عبد الوهاب المصرى
٤٠١	صلاح الدين الصفدى يكمل القصة .	٤١٩	وصف الأهرام لشهاب الدين المنصورى
٤٠١	من خيال ابن عبد الظاهر فى وصف روض	٤١٩	الهلال
٤٠٢	مجالى روضة فى شعر عز الدين الموصلى	٤١٩	شرف الدين الطائى والهلال
٤٠٣	شجر السرو فى شعر الشهاب الحلبى	٤٢٠	وصف الهلال لابن نباتة المصرى
٤٠٣	بدر الدين البشتكى يدخل بشعره إلى روضة	٤٢١	مقطوعات الصفدى فى وصف الهلال
٤٠٣	لقاء فى روضة للشهاب المنصورى	٤٢٣	وصف الهلال لناصر الدين ابن النقيب
٤٠٤	جولة فى روض للبرهان القيراطى	٤٢٤	وصف الهلال للبرهان القيراطى

فهرس أعلام المجلد السابع

٢٠٨ ، ٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ،
 ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٤٠
 ابن تغرى بردى و ابو المحاسن ، :
 ٢٤ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٨١ ، ٢٠٨
 ٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٣٠٣
 ابن الجزرى : ٢٤٠
 ابن الحاجب : ٢٤٠ ، ٢٦٥ ، ٢٧٢
 ابن الحاجب و بدر الدين الشاعر ، :
 ٣٧٧
 ابن الحاج العبدرى : ٢٥٢ ، ٣٠٣
 ٣٢٩
 ابن حبيب الحلبي : ٢٨٦
 ابن حجر العسقلانى و شهاب الدين ، :
 ٢٤ ، ٣٠ ، ٣١ ، ١٦٢ ، ١٨٣ ،
 ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، إلى
 ٢٥٧ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ،
 ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٨٠ ، ٢٨٦ ،
 ٢٩٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩
 ابن حجة الحموى و تقي الدين ، :
 ٢٤ ، ٢٥ ، ٣١ ، ٣٤٤ ، ٢٦٣ ،
 ٢٨١ إلى ٢٨٦ ، ٣٠٩ ، ٣٧١ ،
 ٣٩٥ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٩ ، ٤٢١
 ابن خفاجة الأندلسى : ٥٧ ، ٥٦ ، ٥٥
 ابن خلدون : ١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،

١
 الألوسى : ٢٣١
 الأمر بأحكام الله الفاطمى : ١٥٧
 ١٥٨
 أبان بن عبد الحميد اللاحقى : ٩١
 إبراهيم بن بابي المغنى : ٣٢٦
 إبراهيم بن الجندى المغنى : ٣٢٦
 إبراهيم عبد القادر المازنى : ١٠٤
 إبراهيم المعمار : ٣٥٣ ، ٣٩٠
 إبراهيم الهلباوى : ٨٥
 الأبهسى : ٢٦٣ ، ٢٨٦
 أبغا التترى : ١٨٨ ، ١٨٩
 ابن أبى الأصبع : ٢٨٤
 ابن أبى حجلة المغربى و شهاب
 الدين ، : ٢٣٠ ، ٢٤٧ ، ٢٨٦ ،
 ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٨٨ ، ٤١٩
 ابن أبى الرداد : ١٤٨
 ابن الأثير : ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤
 ابن الأحدث : ٢١١
 ابن الأستاذ كمال الدين بن الهام :
 ٢٣١
 ابن إياس الحنفى المؤرخ : ٢٤ ،
 ١٤٩ ، ١٥٦ ، ١٨١ ، ١٨٧ ،
 ١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،

ابن الصائغ و محمد بن عبد الرحمن :

٢٦١

ابن الصلاح : ٢٦٦

ابن الصواف : ٢٥٣

ابن ضامن الضبع : ٣٢

ابن عبد الحكم : ١٣٩ ، ١٥١

ابن عبد الدايم الحلبي : ٢٦١ ،

٢٧٩ ٢١٧

ابن عبد الظاهر و محي الدين :

٣٦٤ ، ١٧٠ ، ١٦٤ ، ٣٥ ، ٣٢ ، ٣١

٣٩٣ ، ٣٦٥ ، ٣٠٩ ، ٢٨٣ ، ٢٦٥

٤١٦ ، ٤٠١ ، ٣٩٤

ابن عبد الظاهر و فتح الدين بن محي

الدين : ٣٠٩

ابن عري : ٢٦٩

ابن عساكر : ٢٦٤

ابن عطاء الله السكندري : ٢٦٧

ابن العماد الآفهمسي : ٢٥٢

ابن الفرات : ٢٥٤

ابن فضل الله العمري و شهاب الدين :

٢٨٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٢ ، ١٧٤ ، ١٧٣ ، ٣٠

٣٦٢ ، ٣٥٥ ، ٣٣٤ ، ٣٠٩ ، ٢٩٣

ابن فضل الله العمري و علاء الدين :

٣٠٩

ابن قاضي شعبة : ٧٤٠

ابن قتيبة : ٧٤

٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦

٢٢٦ ، ٢٧٨ ، ٣٠٣ ، ٣٥٢

ابن خلسكان الإربلي : ٢٣٠ ، ٢٥٤

٢٨٣

ابن دانيال الموصلی و شمس الدين :

٣٣٢ ، ٣٥٠ ، ٣٢٤ ، ٢٦٥ ، ٢٢٥

ابن دقاق و صارم الدين : ٢٣٤ ،

٢٣٩ ، ٢٥٤ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٣٥

ابن دقيق العيد القشيري و تقي الدين :

٣٤ ، ٢٣١ ، ١٤٠ ، ٢٥٤ ، ٢٦٦

٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٥

ابن رجب البغدادي الدمشقي : ٢٥٠

ابن رشيقي القيرواني : ٨ ، ٦٤ ، ٦٥

ابن الرومي و الشاعر : ١١٤ ، ١١٥

ابن زيدون و الشاعر : ٥٥ ، ٥٦

١٠٠

ابن الساعاتي : ٥٧

ابن سبعين : ٢٦٩

ابن سعيد و علي : ١٤١ ، ١٥٨

ابن سلامي الجمحي : ٨٧ ،

ابن سناء الملك : ٥٧

ابن سنان الخفاجي : ٢٨٤

ابن سيد الناس العمري و فتح الدين :

٣٤ ، ٢٤٠ ، ٢٥٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٨٦

ابن شاكر السكيتي : ٢٤٩ ، ٢٦٣

ابن الشجري : ٤٢

ابن شهيد : ٥٥

ابن القرداح ، المغني أحمد بن محمد بن

علي ، ٣٢٥ ، ٣٢٦

ابن كثير : ٢٦٤

ابن الليثوني : ٣٢٦

ابن مالك الأندلسي : ٩٨ ، ٢٣٠ ، ٢٤٠

٢٦٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩

ابن المتزوج ، تاج الدين محمد بن

عبد الوهاب ، ١٥٨ ، ١٧٥ ، ٢٥٤

ابن المعتز : ٥٢ ، ٥٣ ، ١٠١ ، ١٨١ ، ٢٨٤

ابن مغلي : ٢٥٣

ابن مكائس ونفر الدين ، ٣٠ ، ٣٣

٣٥ ، ٢٨٦ ، ٤٠٧ إلى ٤١٤

ابن الملقن : ٢٥٢

ابن منظور الإفريقي ، ابن مكرم ،

٢٣٠ ، ٢٥٣ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٢٨٠

ابن المنير : ٢٥٢

ابن نبانة المصري ، جمال الدين محمد

ابن محمد ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤

٢٤٤ ، ٢٨٦ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦٠

٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٤٠٥

٤٠٦ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٢٠

٤٢١

ابن النقيب ، ناصر الدين ، ٣٢

٣٦٦ ، ٤٢٣

ابن الوردي ، زين الدين ، ٣٠

٣٤ ، ١٥٨ ، ٢٤٣ ، ٢٨٦ ، ٣٥٢

ابن الهائم : ٢٤٠ ، ٢٧٣

ابن هاني الأندلسي : ٥٥ ، ٩٧

أبو البركات النسي : ٢٦٠

أبو البقاء بن الجيعان : ٢٦٥

أبو بكر بن عمر بن سلال ، ناصر

الدين ، ٣٥٢

أبو بكر بن مزهر : ٣٢٧

أبو بكر الصولي : ٩٤

أبو بكر قاضي عجلون ، جمال الدين ،

٣٢

أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائي

الشاعر ، : في حبيب

أبو الحسن الجرجاني : ٨ ، ٢٨٤

أبو الحسين الجزار المصري : ٢٤

٣١ ، ٢٣٥

أبو دؤاد الإيادي : ٤٦

أبو دلف العجلي : ٩٢

أبو زهم السماعي : ١٣٣ ، ١٥١

أبو السعود الجارحي : ٣٠٢

أبو سفيان بن حرب : ٧٠

أبو شجاع : ٢٤٠

أبو طالب عبد الجبار : ٩٨

أبو الطيب المتنبي : في المتنبي

أبو العتاهية : ٩٢

أبو العلاء المعري : ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٥

٩٧

أبو الفتح بن قلاص : ٥٧

أبو الفداء إسماعيل : ١٦٨ ، ٢٦٤

٢٦٥ ، ٢٧٩ ، ٤١٥ ، ٤٢١

الإخشيد : ١٥٧
الأخطل : ٧٣ ، ٧٢ ، ٤٩
الأرجاني : ٤١١ ، ٤٠٧
أزبك بن ططخ « الأتابكي » : ١٥٦ ،
١٩٨ ، ٢١٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ،
٣٩١
أزدمر الدوادار : ٢٢٠
أسامة بن زيد التنوخي : ١٤٦
الإسكندر الأكبر : ١٦٠ ، ١٦٦
إسماعيل صبري : ٥٩ ، ٦٠ ، ١٠٤
١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠
الآشرف إنيال : ٢٠١
الآشرف برسبای : في برسبای
الآشرف خليل بن قلاوون : في
خليل .
الآشرف شعبان : في شعبان
الآشرف طومان باي : في طومان
باي ،
الآشرف قانصوه الغوري : في
قانصوه .
الآشرف قايتباي : في قايتباي
أصيل القلعية : ٣٢٦
أطلمش : ١٩٣
أعشى قيس : ٤٦ ، ١٠٧
الأفضل « صاحب حماة » : ٤١٥ ،
٤١٦
أقبردي الدوادار : ٢١٠ ، ٣٢٨

أبو المحاسن بن تغري بردي « جمال
الدين يوسف » : في ابن تغري
بردي
أبو المغيث : ٩٣
أبو نواس : ٧٧ ، ١١٤
أثير الدين أبو حيان النحوي
الأندلسي : ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٧٣ .
٢٧٤ : ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٨٩
أحمد بن أويس « صاحب بغداد » :
١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٠٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٩
أحمد بن إنيال « الملك المؤيد » :
٢٦٩
أحمد بن طولون : ١٤٦ ، ١٥٨ ،
١٧١ ، ١٨١ ، ٢٢٢
أحمد بن عبد ربه : ٩٨
أحمد بدري : ٢٢٣
أحمد الحوفي : ٩ ، ٤٢ ، ٤٦ ،
١٠٧ ، ١٠٨
أحمد زاده العجمي : ٢٤١
أحمد الشايب : ٩ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦
أحمد شوقي : ٥٩ ، ٦٠ ، ٨٠ ، إلى
٨٤ ، ١٠٠ ، إلى ١٠٤ ، ١١٧ ،
١٢٠ إلى ١٢٣
أحمد عرابي : ٧٩ ، ٨٠
أحمد الكاشف : ٥٩ ، ٨٠
أحمد محرم : ٥٩ ، ٨٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤

ب

- بابزید الاول : ٢٠٢
 بجیر بن الحارث : ٦٦
 البحتری : ١٠٠ ، ٧٧ ، ٥٢ ، ٥١
 ١١٥
 بدر الدین بن جماعة : ١٩٠ ، ٢٥٢
 بدر الدین بن الدمامینی : ٢٥٣ ، ٢٥٤
 ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩
 بدر الدین بن العینی : ٢٤١ ، ٢٤٩
 ٢٥٢ ، ٢٦٥
 بدر الدین البشتکی : ٣٧٣ ، ٣٨٩
 ٤٠٣
 بدر الدین بیلبک : ٢١٦
 بدر الدین الزيتونی : ٣١٨
 بدر الدین محمد المنجی البزاز : فی
 محمد
 بدر الدین محمد بن یوسف
 المهمندار : فی محمد
 بدر الدین محمود الککستانی : ٢٥٣
 بدر الدین المرادی : ٢٧٩
 بدریة بنت جریعة : ٣٢٦
 بدوی طبانة : ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩
 برسبای أمير آخورتان : ٢٠١
 برسبای ، الملك الأشرف ، :
 ١٩٦ ، ٢٩٦
 برقوق ، الملك الظاهر ، : ١٤٩ ،

- اکمل الدین الباریقی : ٢٥٣ ، ٢٦٠
 ٢٧٩ ، ٢٨٥
 امرؤ القیس بن حجر : ١٩ ، ٤٥ ،
 ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٨٨ ، ١٠٦ ،
 ١٠٧
 أمير كاتب الإنقانی : ٢٥٢
 الامین ، الخلیفة العباسی ، : ٧٧
 أمين الخولی : ٨
 أمين الدین المحلی : ٢٥٣ ، ٢٧٣ ،
 ٢٧٩ ، ٢٨٠
 أمين الدین یحیی الأنصرائی : فی
 یحیی
 أمين سامی : ١٤٥ ، ١٤٩ ، ٢٣٤ ،
 ٢٤٦ ، ٣٠٠
 أمية بن أبي الصلت : ١١٠
 إنعام الخاصکية : ٣٢٦
 أوحده الرومی : ٢٤١
 الأوحدي : ٢٥٤
 أرس بن حجر : ٤١ ، ٤٣
 إیاس بن عبد الله الذهبي : ٣٧١
 إیدمر التركي : ٣٦٧
 إیدمر الحلی ، عز الدین : ٢٩٣
 إیدمر الخطیری ، عز الدین ، :
 ٢٣٦
 إینال ، الملك الأشرف ، : ٢٠١ ،
 ٢٠٢

٣٣٩، ٢٨٦، ١٠٠
بيبرس الجاشنكير : ٢٣٦
بيبرس الدردار المنصوري : ٢١١
٢٦٤، ٢٥٤
بيبرس و الملك الظاهر ركن الدين :
١٨٩، ١٨٨، ١٨٦، ١٧٨، ٣٢، ٣١
١٩٤، ٢٠٠، ٢٠٤، ٢٠٩، ٢١٦
٢١٧، ٢١٨، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٧٨
٢٨٩، ٢٩١ إلى ٢٩٥، ٣٠٠، ٣٠٥
٣٠٩، ٣١٠، ٣٢٩، ٣٣٤، ٣٣٧
بيدرا و الأمير : ٢٠٩
بيدلى : ٨٦

ت

تأبط شرا : ٤٦
تاج الدين بن بنت الاعز : ٢٥٢، ٢٤٠
تاج الدين بن شرف : ٢٧١
تاج الدين بن مكتوم : ٢٥٢
تاج الدين التبريزي : ٢٥٨
تاج الدين السبكي : ٢٠٤، ٢٣٠، ٢٥٠
٢٥٢، ٢٦٣، ٢٦٨، ٢٧٠، ٣١٠
٤٠٥
تاج الدين الفسكمانى : ٢٥٢
تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن
المتوج : فى ابن المتوج
ت. ج. دى بور : ٩٦، ٨١
تغرى بردى الترجمان : ٢٠٢
تغرى برمى : ٣٣٢
تقى الدين الإخنايى : ٢٥٢

١٧٩، ١٨٠، ١٩١، ١٩٣، ٢٠٠
٢٠٢، ٢١٠، ٢١١، ٢٣٢، ٢٤٠
٢٦٤، ٢٩١، ٢٩٥، ٣٠٣، ٣٠٩
٣١٠، ٣٣٣، ٣٣٥
برهان الدين بن جماعة : ٣٧٤، ٣٤٠
برهان الدين بن ظهيرة : ٢٧٠
برهان الدين البقاعى : ٢٦٤، ٢٧١
برهان الدين الخضر السنجارى :
٢٤٠
برهان الدين الزرعى : ٢٧٠
برهان الدين القيراطى : فى القيراطى
برهان الدين الواسطى : ٢٦٥
بربوه : ٣٢٦
البسوس بنت منقذ : ٦٥
بشار بن برد : ١١٤
بشير الطواشى : ٢٠٢
بكار بن قتيبة : ١٤٨
بكل : ١٤
بهاء الدين بن حنا : ٢٣٤
بهاء الدين بن عقيل : ٢٥٣، ٢٧٤
٢٧٩
بهاء الدين بن النحاس : ٢٧٣
بهاء الدين زهير : ٥٨، ٥٧
بهاء الدين السبكي : ٣١، ٢٤٠، ٢٧٠
٢٨٥، ٣٨٥
بهرام بن عبد الله : ٢٥٢، ٢٦٦
البوالفة : ٣٢٦
البوصيرى و شرف الدين : ٣٤

ج

- الجازاتي : ٢١٢
 جان بلاط ، الملك : ٢١٠ ، ٢٩٦
 الجاي الدوادار : ٣٥٥
 جبرائيل جبور : ١١٠ ، ١١١
 جساس بن مرة : ٦٥
 جفوق العلائي ، الملك الظاهر :
 ٢٤٨ ، ٢٦٤ ، ٢٩٧ ، ٣٢٠
 جلال الدين البغدادي : ٢٥٣
 جلال الدين السيوطي : في السيوطي
 جلال الدين القزويني : ١٩٠ ، ٢٦٠
 ٢٧٤ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥
 جلال الدين المحلي : ٢٧٩ ، ٢٦٦ ، ٢٥٢
 جلال السنطيري : ٣٢٦
 جليظة بنت مرة : ٦٥
 جمال الدين بن مطروح : ٥٧
 جمال الدين بن نباته المصري : في
 ابن نباته
 جمال الدين بن هشام المصري : ٢٥٣
 ٢٦٣ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٦
 جمال الدين أبو بكر قاضي مجلون :
 في أبو بكر
 جمال الدين الإسفندي : ٢٥٢ ، ٢٧٩
 جمال الدين محمود الاستادار : ٣٢٦
 جمال عبد الناصر ، الرئيس : ٧٩
 جمجمة بن عثمان ، الأمير : ٣٢٧
 جميل بشينة : ١١١ ، ١١٢

تقي الدين بن بنت الأعز : ٢٣١ ،
 ٢٥٢ ، ٢٤٠

تقي الدين بن تيمية الحراني : ١٦ ،
 ٢٥٥ ، ٢٥٤ ، ٢٣١ ، ٢٠٥ ، ٢٠٤
 ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠
 تقي الدين بن الثقة الإسفندي : ٣٢٦
 تقي الدين بن حجة الحموي : في ابن
 حجة

تقي الدين بن دقيق العيد القشيري :
 في ابن دقيق

تقي الدين بن رزين : ٢٤٠ ، ٢٥٢ ، ٢٧٥

تقي الدين بن الصائغ : ٦٧٤

تقي الدين بن مفلح : ١٩٢

تقي الدين السبكي : ٢٥٤ ، ٢٦٥ ، ٢٢٧ ،
 ٢٧٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٨٠ ، ٣١٠ ،
 ٤٠٥

تقي الدين الشبلي : ٢٧٤

تقي الدين الشمسي : ٢٥٣

تقي الدين المقرئ : في المقرئ

تمر حاجب الحجاب : ٢١٢

تميم بن المعز : ٥٧

توران شاه : ١٧٨

توفيق البكري : ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٤

تيمور لنك التتري : ١٨٠ ، ١٩١ ،

١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٠٢ ، ٢٦٤

ث

ثعلب ، صاحب فصيح اللغة : ٢٧٣

خ

- خالد الأزهرى : ٢٧٩
 خديجة أم خوخة : ٣٢٦
 خديجة الرحابة : ٣٢٦
 خشقدم ، الملك الظاهر ، : ١٤٩ ،
 ١٥٠ ، ١٨٢ ، ٢٤٨ ، ٢٩٦
 خفاف بن ندبة : ٤٦
 خليل بن إسحق الجندي : ٢٦٦ ، ٢٦٥
 خلف الغبارى : ٢١١ ، ٢١٤
 خليل بن قلاوون ، الملك الأشرف ، :
 ٣٢ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٩٥ ، ٢٠٩ ، ٢٦٤ ،
 ٢٩٣ ، ٤١٦
 خليل شيبوب : ١٠٤
 خليل مطران : ١٠٤
 خوند الخاصكية : ٢٩٧
 خوند فاطمة : ٢٩٦
 خوند مصرى الجركسية : ٢٩٦

د

- دعبل الخزاعى : ٧٦
 الدميرى ، صاحب حياة الحيوان ، :
 ٢٦٣

ذ

- ذو الرمة : ٤٨ ، ٥٠

ر

- الراشدى : ٢٥٣

- جورجى زيدان : ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٤٧

٢٤٨ ، ٢٨٠

- جوهر الصقلى : ١٦٤ ، ١٦٥

- جينوس بن جاك : ١٩٦

ح

- حاتم الطائى : ١٠٨
 الحارث بن عباد البكرى : ٤٦ ، ٤٦
 حافظ إبراهيم : ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٨٠
 ٨٥ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠
 حافظ الدين النسفى : ٢٤٠
 حافى رأسه : ٢٥٣ ، ٢٧٣
 الحياكم بأمر الله الفاطمى : ٢٣٥ ،
 ٢٣٦ ، ٣١١
 حبيب بن أرس الطائى ، أبو تمام ،
 ٥٠ ، ٥١ ، ٧٧ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ٣٦٩
 حجر الكندى : ٦٧
 حسان بن ثابت الأنصارى : ٦٩ ،
 ٧٠ ، ٧١ ، ٨٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩
 حسن بن محمد ، الملك الناصر بن
 الناصر ، : ١٨٣ ، ٢٠٩ ، ٢٣٦ ، ٢٤٧ ، ٣١٧
 حسين بن محمد الحسينى : ٢٤٧
 الحسن بن محمد بن عبد المنعم : ١٤٧
 حسين نصار : ١١٢
 حصن بن ثعلب : ٢١٠
 حنفى ناصف : ٥٩
 حمدة بنت تقي الأندلسية : ٤٠٧

سحنون : ٢٥٣
 سراج الدين بن الوردى : ٢٦٥
 سراج الدين البلقينى : ٢٤٠ ، ٢٦٦ ، ٣٠٩
 سراج الدين الوراق : فى الوراق
 سراج الدين الهندى : ٢٥٢
 سرجواس « ملك قبرص » : ٢٠٥
 سرلبرت : ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٢ ، ٢٣
 سعد زغلول : ٨٢ ، ٨٣ ، ١٠٢
 السعيد بن بيبرس « الملك » : ٢٨٩
 السكاكى : ٢٨٤
 سلار المنصورى : ٢٩٣ ، ٣١٦
 سلامش بن بيبرس « الملك » : ٢٨٩
 سليمان بن عبد الملك : ١٤٦
 سليمان حزين : ١٢٨
 سليم الاول : ١٩٨ ، ٣٠١
 سليم حسن : ٢٣٩
 السمعانى : ٢٦٤
 سنجر الحلبي : ١٨٨
 سنجر الشجاعى : ٢٠٩
 سنقر الأعسر : ٣١٦
 سيديويه « النحوى » : ٢٧٨
 السيد مصطفى غازى : ٧٣
 سيد نوفل : ٩ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٤١٦
 سيف الدولة الحمدانى : ٧٧ ، ٧٨
 سيف الدين السيرامى : ٢٥٨
 سيف الدين الماردىنى : ٢٤٨
 (٢٩٨ - عصر المالك)

رؤية بن العجاج : ٩١
 الرشيد « الخليفة العباسى » : ٧٧
 الرشيد العطار : ٢٥٢
 رضى الدين الشاطبى : ٢٥٣ ، ٢٧٣
 ركن الدين بيبرس « الملك الظاهر » :
 فى بيبرس

ز

الزبير بن العوام « أبو عبد الله » : ٧١
 الزراتى : ٢٥٣
 الزرازى : ٢٥٣
 زكى أبو شادى : ١٠٤
 زكى المحاسنى : ٩
 الزخشرى : ٢٨٠
 زهير بن أبى سلمى : ٤٦ ، ٨٨ ، ٨٩
 ١٠٩
 الزواوى : ٢٥٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦
 زين الدين بن المرحل : ٢٥٢ ، ٢٧٠
 زين الدين بن النحاس : ٣٤٠
 زين الدين بن الوردى : فى ابن الوردى
 زين الدين الحافظى : ١٨٩
 زين الدين الزركشى : ٢٥٣
 زين الدين زكريا الأنصارى : ٢٥٤
 ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨٥ ، ٣٠٩
 زين الدين العراقى : ٢٥٢
 زين الدين الفارقى : ١٩٠

س

ساعدة بن جؤية : ٤٦

شمس الدين بن الصائغ : ٢٧٩ ، ٣٢
شمس الدين بن عمار : ٢٧٥
شمس الدين بن عوض : ٣٠٧
شمس الدين بن القيم : ٢٥٤ ، ٢٦٦
٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٥
شمس الدين بن مفلح : ٢٦٦
شمس الدين بن مكين : ٢٤١ ، ٢٥٢
شمس الدين بن ناهض : ٢٤٨
شمس الدين أبو الخير الدمشقي : ٢٦٧
شمس الدين الأصفهاني ، محمد بن محمود :
٢٥٣ ، ٢٥٨
شمس الدين الأصفهاني ، محمود بن
عبد الرحمن : ٢٥٨
شمس الدين البساطي : ٢٥٢
شمس الدين الحنبلي ، محمد بن إبراهيم :
٣٠٩
شمس الدين الذهبي : ٢٤١ ، ٢٥٠ ،
٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٨٠
شمس الدين السخاوي : ٢٤٩ ، ٢٥٠
٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤
شمس الدين الشجاع : ٢٦٤
شمس الدين القاذري : ٣٩١
شمس الدين محمد بن يحيى : ٢٤١
شمس الدين النواجي : في النواجي
شمس الدين الواسطي : ٢٥٣
شمس الدين الهروي بن عطاء الله :
٢٥٨

السيوطي ، جلال الدين : ٢٥ ،
١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٧ ، ١٧٢ ،
١٨٧ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٨ ،
٢٣٤ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ،
٢٦٦ الى ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ ،
٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ،
٣٠٣ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٦٣ ، ٣٧٣ ،
٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٤ ،
٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ،
٤٠٣ ، ٤٠٧ ، ٤١٤ ، ٤٢١ ، ٤٢٣
ش
الشاب الظريف : ٣٤ ، ٣٥ ، ٢٨٦
الشاطبي : ٩٨
شاهنشاه بن أمير الجيوش : ١٥٧
شجرة الدر : ١٧٨ ، ٢٠٩
شرف الدين البوصيري : في البوصيري
شرف الدين الدمياطي : ٢٤٠
شرف الدين السبكي : ٢٥٢ ، ٣٠٩
شرف الدين الطائي : ٤١٩
شرف الدين المناوي : ٢٥٢
الشنطوفي ، علي بن يوسف : ٢٥٣
شعبان ، الملك الأشرف : ١٩٥ ، ٢١٤
شكري ، الشاعر : ١٠٤
شكري فيصل : ٨
شمس الدين بن دانيال الموصل :
في ابن دانيال
شمس الدين بن سعد الديري : ٢٤١
شمس الدين بن الصائغ ، الشاعر : ٣٩٢

١٤٩ ، ١٨٠ ، ٢١٤ ، ٢٣٤ ،

٢٣٦ ، ٢٤٨ ، ٢٦٥ ، ٢٧١ ،

٢٩٥ ، ٣٠٣ ، ٣١٥ ، ٢٧١

شيخو العمرى : ٢١١٠

ص

الصالح بن السكامل الأيوبي : ١٥٨

الصالح صلاح الدين حفيد قلاوون :

٣٤٠

الصالح نجم الدين الأيوبي : ١٥٨ ،

١٧٧ ١٧٨

صدر الدين بن الوكيل : ٣٥

صدر الدين سليمان الحنفى : ٣٠٩

صفي الدين الحلبي د عبد العزيز بن

سرايا : في عبد العزيز

صفي الدين الهندى : ٢٥٣ ، ٢٥٨ ،

صقر بن بقر : ٢١١

صلاح الدين بن الأعمى : ٢٤١

صلاح الدين الأيوبي : في يوسف

صلاح الدين الثعلبي القوصى : ٣٢٦

صلاح الدين الصفدى د خليل بن

أيبك : : ٢٤ ، ٣٠ ، ٢٤٤ ،

٢٤٩ ، ٢٦٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ،

٢٨٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٦٣ ،

٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٤٠١ ، ٤٢١ ، ٤٢٢

صلاح الدين القوصى د المغنى : ٣٠٥

الصمة بن عبد الله : ٤٦

الصير في د الشاعر : ١٠٤

شهاب الدين بن حجر العسقلاني :

في ابن حجر

شهاب الدين بن عرب شاه : ٢٤٨ ،

٢٦٤

شهاب الدين بن العيني د أحمد : ٣٢٨

شهاب الدين بن فضل الله العمرى

د أحمد : في ابن فضل الله

شهاب الدين بن النقيب : ٢٦٠

شهاب الدين الأشرفى : ٢٤٨

شهاب الدين البزاعى : ٣٧٨

شهاب الدين الحجازى : ٣٨٦ ، ٤١٤

شهاب الدين الحلبي د أبو التثاء

محمود : في محمود

شهاب الدين الحلبي د السمين : :

٢٥٣ ، ٢٧٩

شهاب الدين القرأفى : ٢٦٥

شهاب الدين القسطلانى : ٢٥٢ ،

٣٦٣ ، ٢٦٦ ، ٣٠٩

شهاب الدين المنصورى : ٣٠ ، ٣٢٦

٣٥٣ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٨٥ ،

٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤١٩

شهاب الدين النويرى : في النويرى

شهاب الدين الهوارى : ٢٧٩

الشفقجى العجمى : ٣٠٥

شوقى ضيف : ٩٠ ، ٩١ ، ١١٠ ،

١١٩ ، ٣٦٩

شيخ المحمودى د الملك المؤيد :

ط

طاز و الأمير : ٢١١

طرفة بن العبد : ٤٤ ، ١٠٩

الطرماح بن حكيم : ٧٢ ، ٧٥

الطغرائي : ٤٢١

طه حسين : ٨ ، ٧٤ ، ٧٦

طومان باي و الملك الأشرف :

١٥٦ ، ١٨٠ ، ١٩٨ ، ٢٨٩

٣٠٢

طومان باي و الملك العادل :

٢٩٦

ظ

ظافر الحداد و أبو منصور :

١٧٥

الظاهر برقوق و الملك : في برقوق

الظاهر بيبرس و الملك : في

بيبرس

الظاهر خشقدم و الملك : في

خشقدم

ع

عبادة بن علي الأنصاري الزرزاني :

٢٥٢

عباس محمود العقاد : ٩ ، ١٨ ، ١٩

١٠٤ ، ١١٨ ، ١١٩

عبد البر بن الشحنة : ٢٧١

عبد بنى الحسحاس : ٤٦

عبد الرحمن بن الصائب : ٢٣٩

عبد الرحيم البيساني و القاضي

الفاضل : ٥٧ ، ٢٢٣ ، ٢٨٠

٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤

عبد العزيز بن سرايا الطائي و صفي

الدين الحلي : ٢٤ ، ٣٤ ، ٣٩٢

٣٩٤ ، ٣٩٥

عبد العزيز بن عبد السلام و عز الدين :

٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٨ ، ٢٣١ ، ٢٥٤

٢٦٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٣٠٥

٣٠٩

عبد العزيز بن مروان : ١٤٦

عبد العزيز البغدادي و عز الدين :

٢٤١

عبد القادر القرشي : ٢٥٠

عبد اللطيف حمزة : ٣٤٥

عبد اللطيف و الزمام : ٢٩٧

عبد الله بن الزبيري : ٧٠

عبد الله بن عمر : ١٣٩

عبد الملك بن مروان : ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥

عبد الوهاب المصري و القاضي نجر

الدين : ٤١٨

عبيد بن الأبرص : ٤٢ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٨٨

عبيد الله بن قيس الرقيات : ٧٢ ، ٧٤

عثمان بن عفان : ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢

العجاج : ٩١

عدي بن زيد العبادي : ٤٦
 عز الدين بن أيك : الملك : ١٧٨ ،
 ٢٠٩
 عز الدين بن جماعة : ٢٦٤ ، ٢٥٢
 عز الدين بن القلانسي : ١٩٠
 عز الدين المحلى : ٢٧١
 عز الدين الموصلى : ٣٤
 عزيز أباطة : ١٠٣
 عزيزة بنت السطحي : ٣٢٦
 علاء الدين بن الأثير : ٢٩٤
 علاء الدين بن صغير : ٢٥٣
 علاء الدين بن عبد الظاهر : ٣٢
 علاء الدين بن مغلى : ٢٧٠ ، ٢٥٣
 علاء الدين الباجي : ٢٧٠ ، ٢٥٣
 علاء الدين البخارى على بن محمد :
 ٢٧١ ، ٢٥٨
 علاء الدين السيرامى : ٢٣٢ ، ٢٤٠ ،
 ٢٩٥
 علاء الدين على بن خاص بك : ٢٩٦
 علاء الدين على بن الأهناسى : ٣٣٢
 علاء الدين القونوى : ٢٧٤
 علاء الدين الوداعى : ٣٠ ، ٣٥٢ ،
 ٣٩٢ ، ٣٩٠
 علباء بن الحارث : ٦٨
 علقمة بن عبدة : ٦٩
 علم الدين البلقينى : ٢٥٢ ، ٢٦٦
 علم الدين شمائل : ٣١٥

على بن أبى طالب : ١٤٧ ، ٧٢ ، ٦٩
 على بن غانم : ٣٢٦
 على بن موسى الرضا : ٧٦
 على الجارم : ١٠٤ ، ٨٠ ، ٥٩
 على محمود طه : ١٠٤ ، ٥٩
 عماد الدين الإسنى : ٢٥٢
 عماد الدين الأصفهاني : ٢٨٣
 عماد الدين الحنبلى : ٢٥٣
 عماد الدين زنكى : ٢٨٨
 عماد الدين محمد نائب قلعة حلب :
 ٢٤٩
 عماد الدين موسى اليوسفى المصرى :
 ٢٤٧
 عمر بن أبى ربيعة : ٤٨ ، ١٩ ، ١١٠ ،
 ١١٢ ، ١١١
 عمر بن الخطاب : ٤٧ ، ٧٢ ، ١٤٣ ،
 ١٤٧ ، ١٥٥ ، ٢٧٩
 عمرو بن العاص : ١٤٣ ، ١٤٦ ،
 ١٤٧ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٧٠ ،
 ٢٢٢ ، ٢٣٩ ، ٣١١ ، ٣١٦
 عمرو بن عوف : ٧١
 عمرو بن الفارض : ٩٦ ، ٢٧١
 عمرو بن كلثوم : ١٠٧
 عمر الدسوقي : ٩ ، ١٢ ، ٣٦ ، ٤٠ ،
 ٤٨ ، ٤١ ، ٦٣ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٧ ،
 ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١١٩

ق

قارىء الهداية : ٢٥٣
 قاسم بن قطلوبغا : ٢٧٠ ، ٢٧١
 القاضى الفاضل د عبد الرحيم
 اليسانى : فى عبد الرحيم
 قانصوه بن قانصوه الملك الظاهر :
 ٢٩٦ ، ٢٩٧
 قانصوه الخفيف : ٢١٢
 قانصوه خمسمائة : ٢١٠ ، ٢٩٦ ،
 ٢٩٧

قانصوه الغورى و الملك الاشرف :
 ١٤٩ ، ١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ،
 ١٨٠ ، ١٩٧ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٩ ،
 ٢٤٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ،
 ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٩ ،
 ٣١٨ ، ٣٢٥ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ،
 قايتباى و الملك الاشرف : ١٤٦ ،
 ١٦٦ ، ١٨٠ ، ١٨٧ ، ١٩٦ ،
 ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،
 ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ،
 ٢١٨ ، ٢٦٥ ، ٢٧١ ، ٢٩٦ ،
 ٢٩٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٤ ، ٣١٧ ،
 ٣٢٧ ، ٣٣٩

قبيصة بن نعيم : ٦٨
 قدامة بن جعفر : ٢٨٤
 قدامة الحنبلى : ٢٦٦

عنتر بن شداد العيسى : ١٠٨

عيسى بن بقر : ٢١١
 عيسى بن موسى الهاشمى : ١٥٦

غ

غازان التترى : ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١
 الغزولى : ٢٩٤ ، ٤٠٢ ، ٤١٤
 غياث الذين ملك الهند : ٢٠٢

ف

فارس الدين أقطاي الجمدار : ٢١١
 فارس الدين أقطاي المستعرب : ٢١١
 فتح الدين بن سيد الناس اليعمرى :
 فى ابن سيد الناس
 فخر الدين بن لقمان : ١٧٨
 فخر الدين بن مكانس : فى ابن
 مكانس

فخر الدين الزيلعى : ٢٥٢ ، ٢٦٥
 فخر الدين الضرير : ٢٤١
 فخر الدين عثمان الماردينى : ٢٥٢ ،
 ٢٦٥ ، ٢٦٦
 فرج بن برقوق و الملك الناصر :
 ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣١٣
 الفرزدق : ٤٨ ، ٤٩

ك

الكامل محمد بن العادل الأيوبي
«الملك»: ١٦٤
كتبغا المنصوري «الملك»: ١٨٢ ،
٣١٩ ، ٢٠٩
كرتباي «الأمير»: ٢٩٦
كعب الأحبار: ١٣٩
كليب التغلبي: ٦٥
كمال الدين بن الزمكاني: ٤٠٥
كمال الدين بن العديم: ٢٥٢ ، ٢٣٠
٢٦٤
كمال الدين بن الهمام: ٢٥٣ ، ٢٦٥
٢٧١
كمال الدين الأدفوي: ٢٥٤ ، ٢٦٣
كمال الدين الضرير: ٢٥٣
كمال الدين القرشي: ٢٤٠
الكيميت بن زيد: ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤
الكندي: ١٧٠

ل

لاجين «الملك المنصور»: ١٨٢ ،
١٩٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٩ ، ٣٠٨
لويس التاسع «ملك فرنسا»: ١٧٨

قراقوش: ١٧٢٠

قرايوسف التركاني: ١٩١ ، ١٩٢
قرقد بيك بن عثمان: ٢٩١
القضاعي: ١٤٧ ، ١٧١ ، ١٧٥
قطز الملك المظفر: ١٧٨ ، ١٨٢ ،
١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٠٣ ،
٢٠٤ ، ٢٠٩
قطلوشاه التتري: ١٩٠ ، ١٩٨ ،
٢٠١ ، ٢٠٢
قفجق «الأمير»: ١٩٠
قلاوون «الملك المنصور»: ١٧٩ ،
١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ،
٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٦٤ ،
٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠٩ ،
٣١٠ ، ٣١٤
القلقشندي «صاحب صبح الأعشى»: ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ،
١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ،
١٦٠ ، ١٦١ ، ١٨٢ ، ٢٤٣ ، ٢٦٢ ، ٢٧٦ ،
٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ،
٢٩٤ ، ٣١٠
قنبر بن عبد الله الشرواني: ٢٥٣ ،
٢٥٨
قيت الرجي: ١١٩ ، ٢٢٠
قيت الساقى: ١٩٦
القيراطي «برهان الدين إبراهيم»: ٢٤ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٢٨٦ ، ٣٥٩ ،
٣٦٠ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ،
٣٩١ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٢٤
قيس ليلى: ٤٨

محمد بن عوينة : ٢٢٦
 محمد بن قايتباي و الملك الناصر ، :
 ١٤٩ ، ٢١٠ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧
 محمد بن قلاون و الملك الناصر ، :
 ٣٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٧٩ ، ١٨٣
 ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٩
 ٢١١ ، ٢٣٠ ، ٢٤٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣
 ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩
 ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٥
 ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٩٤
 محمد بن كثير : ١٤٦
 محمد بن لاشين الحسامي الطرابلسي
 الرماح : ٢٤٨
 محمد بن وفا : ٣٨٦
 محمد بن يحيى بن أبي مرة التغلبي : ٧٦
 محمد بن يوسف المهندار و بدر
 الدين : ٣٢
 محمد جميل الشطبي : ٢٣١
 محمد حسين هيكلي : ٨ ، ١٤٤
 محمد خلف الله : ١١ ، ١٣
 محمد الرئيس فتات العنبر : ٣٢٦
 محمد صائم الدهر : ١٧٦
 محمد عبد الله عنان : ٢٣٠
 محمد عبد المطلب : ١٩ ، ٦٩ ، ٨٠ ، ١٠٣
 ١٠٤ ، ١٢٠ ، ١٢١
 محمد عبد الهادي أبوريدة : ٨٦ ، ٩٦
 محمد الفاتح : ٢٠١ ، ٢٠٢
 محمد محمد حسين : ١٠٧

م
 المأمون و الخليفة العباسي ، : ١٤٦
 ١٧٣
 المؤيد شيخ المحمودي و الملك ، : في
 شيخ
 المتنبّي و أبو الطيب ، : ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٠
 ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٩
 المتوكل على الله الثالث : ٣٠١
 المتوكل و الخليفة العباسي ، : ٧٧
 ١١٥ ، ١٤٦ ، ١٦٧
 المتوكل على الله العباسي و أبو العز
 عبد العزيز ، : ٢٤٧
 مجير الدين بن تميم : ٣٦٤ ، ٣٨٨
 ٣٨٩ ، ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩
 ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٦
 محب الدين بن الشحنة : ٢٤٨ ، ٢٧١
 محب الدين بن العديم : ٢٤٠
 محب الدين بن هشام : ٢٧٥
 محمد بن البارزي و الناصري ، : ٢٣٦
 ٣٠٩
 محمد بن جقمق : ٣٢٦
 محمد بن حاجي و الملك المنصور ، :
 ٢٠٩ ، ٢٢٥
 محمد بن حلة و المغني شمس الدين ، :
 ٣٢٦
 محمد بن صر صراء : ٢٦٤
 محمد بن صعقن : ٢٠٦

المسعودى : ١٣٩ ، ١٤٤
 مسلم بن الوليد : ١٠١
 المسيب بن علس : ٤٦
 مصطفى صادق الرافعي : ٨٠
 مصطفى كامل : ٨٣ ، ١٠٢
 مصطفى لطفى المنفلوطى : ١٠٢
 مصعب بن الزبير : ٧٤
 المظفر قطز ، الملك ، : فى قطز
 معاوية بن أبى سفيان : ٧٢
 المعتصم ، خليفة العباسى ، : ٧٧ ،
 ١٨٧
 المعتضد بالله العباسى ، خليفة ، :
 ٣٧٦ ، ٣٧٧
 المعز بن أيك ، الملك ، : فى
 عز الدين
 المعز لدين الله الفاطمى : ١٦٤
 ١٦٥
 معين الدين الزكر اوى الإسكنداني :
 ٢٦٧
 مغطاي ، أبو عبد الله ، : ٢٦٤
 المقرئ ، أحمد بن على ، : ٩٧ ،
 ٢٨٠
 المقرئ ، تقي الدين ، : ٢٤ ، ١٢٨ ،
 ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، لك

محمد مصطفى هدارة : ٩٠ ، ٩٠
 محمد المنبجى البزاز ، بدر الدين ، :
 ٣٢
 محمود إسماعيل الجيزى : ٢٤٨
 محمود الحلبي ، شهاب الدين أبو الثناء ، :
 ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٨٢ ، ٢٨٤ ، ٣٨٧ ،
 ٣٧٩ ، ٤٠٣
 محمود سامى البارودى : ٥٩ ، ٦٠ ،
 ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٠١
 محمود عابدين : ٢٣٩
 محمود مصطفى : ٧٧
 محيى الدين بن عبد الظاهر فى ابن :
 عبد الظاهر
 محيى الدين الفرضى : ٢٦٠
 محيى الدين الكافيجى : ٢٥٣ ، ٢٧١
 محيى الدين النووى : ٢١٦ ، ٢١٧ ،
 ٢١٨ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ،
 ٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ،
 ٢٦٥
 مرشد الخير بن ذى جند الحميرى :
 ٦٨
 مروان بن أبى حفصة الحميرى :
 ٧٥ ، ٧٦
 المزراب : ٢٥٣
 المستعين بالله العباسى ، خليفة ، :
 ٣٠٣
 المستنجد بالله العباسى ، خليفة ، :
 ٢٠٢

ناصر الدين الكنتاني العسقلاني :

٢٥٣

الناصر فرج بن برقوق و الملك ، :

في فرج

الناصر محمد بن قايتباي و الملك ، :

في محمد

الناصر محمد بن قلاوون و الملك ، :

في محمد

ناصر الدين محمد المازوني القاهري :

٣٢٦

الناصر ملك دمشق : ١٨٧ ، ١٨٩

نجم الدين بن الرفعة : ٢٦٢ ، ٢٦٥ ،

٢٧٠

نجم الدين بن الصرصري : ١٩

نجم الدين الادفوي : ٢٥٣

نجم الدين الباهي : ٢٥٣

نجم الدين الحرافى : ٢٥٣

نجم الدين يحيى بن الصرصري : ١٩٠

نظام الدين السيرامى : ٢٧٠

نعمات أحمد فواد : ٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٨

النعمان بن المنذر : ١١٠

النواجى و شمس الدين ، : ٣٠

نور الدين الحكرى : ٢٥٣

نور الدين على بن رحاب و المعنى ، :

٣٢٧ ، ٣٢٦ ، ٣٢٥

نور الدين على سبط ابن الفارض :

٢٧٩

١٧٦ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ،

١٨٩ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٠ ،

٢٠٨ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ،

٢٣٩ ، ٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ،

٢٨٩ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٠١ ،

٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ،

٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٢٥ ، ٣٣٣ ، ٤١٩

المقوقس : ١٧٠

المنازى : ٤٠٧

المنذرى المصرى : ٢٥٢

المنصور قلاوون و الملك ، : في

قلاوون

المنصور لاجين و الملك ، : في لاجين

منطاش و الأمير ، : ٢١٠

منكوتمر التترى : ١٨٩

المهاجر بن خداش : ٦٨

المهدى و الخليفة العباسى ، ٧٥

المهذب بن ممانى : ١٣٢

المهلل التغلى : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧

موسى بن العادل الأيوبي : ٢٦٨

موفق الدين المقدسى : ٢٥٣

ن

النابغة الذبياني : ٤٦ ، ٤٩ ، ٦٩ ،

٨٦ ، ٨٧ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٠

الناشرى : ٢٥٣

نصر الدين بن النقيب : في ابن النقيب

الوليد بن درمغ العمليقي : ١٣٩
الوليد بن عبد الملك : ١٤٦
ولى الدين أبو زرة العراقى : ٢٥٢
وليم موير : ١٨١ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ،
٢٢٩ ، ٣٢٢ ، ٣٤١

ى

ياقوت الحموى : ١٤١
يحيى بن محمد البجائى المغربى : ٢٤١
يحيى الاقصرائى والشيخ أمين الدين ، :
١٥٠ ، ٢٥٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٤
يزيد بن عبد الملك : ١٤٦
يشبك الجمالى : ٢٠١ ، ٣٣٩
يشبك الدرادار : ٢١٢ ، ٢٩٦
يلبغا السالمى : ٣١٣
يلبغا العمرى : ١٨٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٩ ،
٣٢٥ ، ٣٧٥
يوسف بن أيوب ، صلاح الدين
الايوبى ، : ١٦٤ ، ١٧٢ ، ٢٤٥ ،
٢٨٢
يوسف الخشاب ، جمال الدين ، :
٢٢٥

نور الدين المحلى : ٢٧١
نور الدين محمود زنكى : ٢٨٨
نوروز الحاقطى : ١٩٣ ، ٢٠٤ ،
٣٠٣ ، ٣٧١
نولدكه : ٨٦
النويرى ، شهاب الدين ، : ٢٤ ،
٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٥ ،
٣١٠ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨

هـ

الهادى ، الخليفة العباسى ، : ٧٥
هولاكو التترى : ١٨٧ إلى ١٩٠
هيفة اللبذبة : ٣٢٦

و

وجيه الدين بن العماد : ٢٦٤
وجيه الدين البهنسى : ٢٧٥
وجيه الدين القوصى : ٢٥٢
وحيد ، المغنية ، : ١١٤
الوراق ، سراج الدين ، : ٢٤ ،
٣١ ، ٢٣٥
لوطواط ، جمال الدين بن إبراهيم ، :
٢٦٥

الخطا والصواب

وقعت بعض الأخطاء المطبعية ، وهي لا تغيب عن فطنة القارئ الكريم
ومنها :

الصواب	الخطأ	الصفحة والسطر
للأستاذ عمر الدسوقي	الدسوقي للأستاذ عمر	٢١/١٢
فردى	فروى	٨/١٤
فضلا عن	فضلا عند	٢/٢٢
نوهت	توهت	٢/٢٨
انتشر الجذب	انتشرت الجذب	١٢/٣٠
الأرزاء	الأزراء	٨/٣٦
الصفواء	الصفراء	٩/٤٥
كأن	كأنى	١/٤٦
الطبيعة	الطبيعة	٢٠/٤٦
نهاية الأرب	نهاية الأدب	٢١/٤٦
يحث	يحث	٨/٥٣
جنح الدجى	حسن الدجى	١١/٥٣
تتلو	تتسلو	١٣/٥٣
قدحان	قدحان	١٤/٥٣
يتغنون	يتغنون	١٨/٥٤
لم يلتفتوا	لم يلتفتوا	١/٦٤
اجتمعت	اجتمعت	٧/٦٥
جليلة بنت	جليلة بن	٩/٦٥
واحدة النبع	واحدة المنبع	٢٠/٧٣
للقي	للقي	٢٠/٧٣

الصواب	الخطأ	الصفحة والسطر
كان عبيد الله	كان عبد الله	٢/٧٤
والطالبيين	والطالبيين	١٦/٧٥
تعبر	يعبر	١٨/٨٠
كريمة	كرهته	١١/٨١
عاداتهم	عاداتهم	١٠/١٠٥
وأخذت	أوخذت	٢/١١٣
متواضع	مواضع	٢٢/١١٣
ذراعا	ذراعا	١٢/١٤٧
ابن الحكم	ابن الحكيم	١٦/١٥١
السلطنة	السلطة	٢١/١٧٩
ملكهم	ملكهم	١١/١٨٩
عن بلاد الشام	إلى بلاد الشام	١٠/١٩٣
ووقوفه	ووقوعه	٢٢/١٩٦
الزجل	الرجل	٢٢/٢١٤
الملكة	الملكة	٩/٢٢٧
استقصاء	استقصاء	٣/٢٥٢
عبادة	عبدة	١٨/٢٥٢
مكتوم	مكترم	٢٢/٢٥٢
الزبن	الذين	٦/٢٥٣
الجرائدى	الحرائدى	٩/٢٥٣
بدا	بد	٢/٢٥٩
عندهم الأسلوب القرآنى	الأسلوب عندهم	١٦/٢٨٠
معلول	معلول معلول	٧/٣٧٢
تسبيحة النواجى	تسبيحه النواجى	١٦/٣٧٩
الشيخ نور الدين	الشيخ نور	٢٠/٣٧٩
تستحلى	يستحلى لماه	١١/٣٩٢

عصر الأَطِين المماليك

ونشأه
العلمي والأدبي

تأليف الدكتور

محمود زور سليم

المجلد الثامن

وهو القسم الثاني من الجزء الرابع
في أثر البيئة المصرية في الشعر

الطبعة الأولى

١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

مكتبة الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعها بالجيزة ٤٢٧٧.

وَلِلْمُحَامِلِينَ فِي الْمُنَاجَاةِ
شَامِعُ الْجَيْشِ - كَنِيسَةُ الْأَرْضِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

أخبر الله ، جلّت نعمته ، وعظمت منته ، والصلاة والسلام على نبيه الكريم سيدنا محمد سيّد الخلق ومعلم الأمم ، وعلى آله وأصحابه .

وبعد : هذا هو المجلد الثامن من موسوعة د عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلى والأدبى ، . ومنه ومن المجلد السابع يتألف الجزء الرابع ، الذى تحدثنا فيه عن البيئة المصرية فى عصر المماليك ، وأثرها فى الشعر .

والمجلد الثامن يتضمن من الباب الثانى أربعة فصول وهى :
الفصل الثانى : ويتحدث عن أثر البيئة السياسية فى الشعر .
الفصل الثالث : ويتحدث عن أثر البيئة الثقافية فى الشعر .
الفصل الرابع : ويتحدث عن أثر البيئة الاجتماعية فى الشعر .
الفصل الخامس : ويتحدث عن الخصائص الفنية للشعر .
وذلك كله على نسق ما بيناه فى مقدمة المجلد السابع ، بتفصيل .
وقد أتبعنا ذلك بخاتمة تضمنت نتائج هذا البحث ومقترحاتنا المستتعاة منه ، وبعض الاستدراكات .

وبهذا المجلد أكون قد أنهيت إخراج هذه الموسوعة الكبيرة . وإننى أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلها نافعة للناس ، بمقدار ما قصدت منها وجهه الكريم ؟

ربيع الثانى سنة ١٣٨٥
أغسطس سنة ١٩٦٥

المؤلف

الفصل الثاني

في

اثر البيئة السياسية في الشعر

الشعر بين دوافع البيئة وموانعها

نعرض في هذا الفصل لآثار البيئة السياسية في الشعر . ونقصد بهذه الآثار كل شعر له صلة بالرجال الرسميين باعتبارهم رسميين . نعرض لهذه الآثار إيجاباً وسلباً . إذ أن البيئة السياسية بدوافعها تخطو بالشعر خطوات إلى الإمام في سبيل التعبير عنها وتسجيل حوادثها ومراثيها المختلفة ونزواتها وتقلباتها . وبموانعها تقف في سبيل الشعر فتسكب أنفاسه وتعوق تياره ، فتتسرب الأنفاس إلى سبل أخرى ، ويتدفق التيار من وراء ذلك إلى مجارى جديدة . وربما تسكبها وتعوق تيارها جملة .

وقد كانت البيئة السياسية في العصر الذي نتحدث عنه ذات دوافع وموانع . فقد كانت حوادثها ووقائعها صاحبة مدوية متتابة ، لم تفرع البلاد منها في الخارج والداخل . أما في الخارج فقد شغلت البلاد وسلاطينها وأمرؤها وجيشها بحروب التتار والصليبيين ، الفرنجة ، ومن ورائهم شعب محزون بنظر ، وأمة ملتسعة تترقب ، وإمكانات واسعة تحشد وتجمع وتساق وتسهلك ، وأيد عاملة تسخر وتحرم ، وتعين وتساعد ، في صبر عميق يكتم في طياته الألم ، وتريث واسع ترجع بين ثنياه الأمل ، وإيمان وثيق ينبثق منه الرجاء في عون القدر . والدولة ماضية في حروبها لاتى ، وفي تجهيزاتها لاتمل ، وفي تجريداتها لاتهدأ . وتعيش بين انتصارها رفوفحاتها آنا ، وبين اندحاراتها وتراجعها آنا آخر وترج البلاد في

الأولى امتدادا للرقعة وسعة في السلطان وهزيمة للعدو وزهوا بالنصر ، فتعم البشائر وتمتلئ النفوس فرحا . ونخسر في الثانية فتتخسر وتضيق ويجروا عليها عدوها ، فتتداعى في حزن وابتئاس وهكذا دواليك .

وأما في الداخل فقد شغلت البلاد وحكامها بفتن داخلية لا أول لها ولا آخر : مغامرات من الطامعين في العرش تنجم عنها حروب أهلية ، ومكايد مبيتة ، وثورات من العربان فيها النهب والسلب والخوف والقلق .

والشعراء رجع البيتة ، ومراة لأحاسيس الأمة ، وصدى في شعرهم لهذا الدوى الصاخب لحوادثها ووقائع حياتها . فكان عليهم أن يسجلوها ويخلدوا ذكرها ويفصلوا القول فيها ويشيدوا بمواضع الفخار منها ، ويترفقوا بأسباب الهزيمة فيها . فصنعوا ذلك ولكن على وحى وريية ، وعلى حرج وضيق ، فإن ما خلفوه في هذا الباب من الشعر ، لا يواثم جلال مامر من الحوادث والحروب بالبلاد ، ولا ما عانته من تكاب أعدائها عليها ، ولا من تسلط الطامعين فيها ، ولا ما جمعوا لها من كيد عظيم . وبحسبك التتار وجيوشهم الجرارة ، وهى عديد الحصى ، لا تمل من إراقة الدماء والنهب ، وبحسبك الصليبيون وأوشاب ما اجتمع لهم من مرتزقة الغرب الأفاقين ، وما زعموه من دين . وبحسبك العثمانيون وما تنزرت به نفوسهم من آمال وأطامع في الأرض العربية ، وما عرفوا به من حيلة ودس وشراء ذمم وكيد .

لعل الشعراء قد صنعوا ما يوحى به إليهم الضمير الشعري ، وما تستوجبه عليهم أمانة الشعر التى حملتهم الأقدار إياها عن بلادهم ، ثم ضاع ما أنتجوه مع الزمان فأرخصى عليه ذيل النسيان .

ولقد كان هناك طائفة من الأدباء ، وهم رؤساء دواوين الإنشاء وكبار كتابه وهم شديدا الصلة بالحكام ولا سيما السلاطين أولو الأمر ، وذلك بحكم منصبهم . وكثيرا ما كان السلطان يصحب معه في تحركاته وحروبه كاتب سره ، أو من يقوم

مقامه ، ليستكتب له التقاليد والمناسير والتباشير ونحوها ، التي يقتضيها المقام ، خلال تحركاته أو حروبه . ويغلب على هؤلاء نظم الشعر . فلا بد أنهم سجلوا شيئاً منه . ولو اجتمع لنا هذا القليل لوجدنا فيه للقول فسحة ، وللحديث سعة ، وللدراسة ميداناً ، وللاستنباط مسلكاً ، وللأضواء الجديدة على تاريخنا سرجاً . ومع هذا فلدينا من هذا القليل أثارة ، ومن هذا النادر بقية ، سنشير إليها .

ولم يكن للسلطين سياسة متبعة ولا أريحية واسعة في إثابة الشعراء ، حتى يكون لهذه الإثابة أثر في تشجيعهم على القول والتسجيل والتفصيل والوصف والمدح تباعاً ، وحتى يكون لنا من الشعر كتاب واسع الصفحات كثير السطور ، نقرأ فيه ما يكمل التاريخ أو يفسره ، أو يجل غايته ، أو يصحح خطأه ، أو يعدل التواءه .

ومن باب أولى ، لم تكن لهم - وربما وبسبب عجمتهم - سياسة متبعة ولا خطة مرسومة في تقريب الشعراء والسماع لهم والإصاخة لنصحهم إذا وجهوا . ولهذا كان الشعراء إذا تحدثوا في أحداث السياسة وأخبار الحروب وأنباء الانتصارات ، وذكروا العدو وما يبت ، والزاحف وما أعد ، كثيراً ما يلتوون نحو المدح وما يقتضيه ، أو نحو الهجو وما يستلزمه . ولم يتحدثوا في صميم السياسة واتجاهاتها .

على أنه لم يكن لسلك شاعر هذه الخطوة لدى السلطين والحكام . بل لقد كان المقربون إليهم - بحكم وظائفهم - قلة ، بينما الكثرة السكاثرة والعدد الأكبر لاتدرى الدولة عن وجوده خيراً ، ولا تعرف لمكانه أثراً ، إلا قليلاً .

وإذا أضفت إلى ذلك عاملاً قد يكون له أهمية كبيرة في كبت الشعراء والإقلال من أهميتهم في نظرهم ونظر الناس : استطعت أن تقدر ظروف شعراء هذه الحقبة حق قدرها . ذلك العامل هو انصراف بعض الملوك من آل فلاوون ، برقوق وقايتباى وغيرهم إلى معاضدة الزجاليين واستنشادهم والسماع إليهم وإثابتهم - وربما

كان لعجمتهم دخل في هذا أيضاً — وبذلك انضج الزجل انضجاً محموداً . وراجت سوقه ونفقت بضاعته ، وشارك الشعر القصيح في كثير من أبوابه ، كالوصف والغزل والمدح والرثاء وتسجيل الحوادث ونحو ذلك — على ما سنرى — بل لقد ترى الزجل ينفر إلى الميدان ، وقد وجب القول وطالب النظم وهيء المجال للحديث ، فيصول ويجول ويحدث ويفعل ويسجل ، بينما لا ترى للشعر جولة ، ولا لأبياته صوتاً . . . وهذا كله — على ما نرى — بسبب تسرب اليأس إلى نفوس الشعراء من حماية الدولة وتشجيعها .

بذلك تسرب إذا اليأس من الدولة وعوامل تشجيعها إلى نفوس الشعراء . ودفع بهم — على الأقل — إلى ميدان غير ميدان سياسة الدولة وحروبها وما يقتضيه هذا من ألوان القول . ومنهم من دفعه يأسه بعيداً عن هذه البلاد شعبها وحكومتها معا ، وفر إلى ميدان جديد لعله يجد فيه مراحات للقول ومتسعاً للشعر يتنفس فيها ويجرى تياره في مجاريها .

وهذه هي الموانع التي أشرنا إليها ، وتلك هي آثارها السلبية .

انجاء ابن نباتة :

وأصدق مثال وأدق دلائل نسوقه في هذا المقام جمال الدين بن نباتة المصري . الذي كان — ولا ريب — أمير الشعراء في زمانه غير مدافع . إنك إذا تصفحت ديوانه وقرأت تبيانها ، لا تعثر فيه على قصائد ذات قيمة تنبئ عن ملك عظيم من ملوك مصر ، أو أمير كريم من أمراء مصر — إلا لمساماً لمساماً — ولقد كان ابن نباتة يعيش في زمان الناصر محمد بن قلاوون ، هذا الزمان الذي امتلأ بالحوادث وتحملته الاضطرابات والفتن ، وبحسبك أن تعلم أن الناصر نفسه خلع من عرشه مرتين ، وبعد كل مرة عاد لم يسجل ابن نباتة في شعره شيئاً من حوادث ذلك الزمان ، ولا أشار إلى شيء من تقلبات السياسة فيه أو إثارة من فتنه وحروبه . لقد ترك البلاد جملة ونزح عنها إلى دمشق وحماة ليجد فيها مآزقاً ، ولشعره

متنفسا . وهناك في حماة بدت الآثار السلبية للبيئة عليه . فافقد قربه ملك حماة المؤيد إسماعيل ، واحتفل بمقامه وأغدق عليه . وكذلك فعل ابنه الملك الأفضل معه — وكانا تابعين من أتباع الناصر فإثابته من نوابه — فظفر الشعر من لدن هذا الشاعر الكبير بحملة من القصائد الجيدة القوية المليئة التي سجلت مآثر هذين الملكين الكريمين وأشادت بمحامدهما فأخلدت ذكرهما . ومدحهما بما يعيد إلينا ذكرى أبي تمام والمعتصم ، أو ذكرى البحترى والمتوكل ، أو ذكرى المتنبى وسيف الدولة بن حمدان . وظفرت منه أحراج حماة بتلك الفريدة التي سماها « مصائد الشوارد » ، والتي مدح بها الملك الأفضل ، ووصف رحلة الصيد التي خرجها إلى تلك الأحراج ، وما تضمنه تلك الأحراج من مباحج الطبيعة ومفاتيحها .

ويبدو أن اللون السياسي الذي كان يصبغ جو القاهرة ، كان هو اللون نفسه الذي يصبغ نياتها . أعنى بذلك أنه مهما كان للشاعر حينذاك من صلة بالسلطان والرؤساء ، لم يكن للشاعر حرية في أن يتناول أحداث السياسة كافة ، إذا هو تعرض لذكرها . لم تكن له سعة من الحرية لتناولها من جميع نواحيها وأطرافها . وأن يعبر عنها وفق مشيئته وهواه ، وبحسب عقيدته وما يراه . ولكن كان مضطراً إلى أن ينظر إليها بمرآة السلطان والحكامين . وإن لا كان عرضة للعقاب أو المواقضة . ولهذا كان الشاعر في هذا المقام كثيراً ما يحنح نحو مدح السلطان وهجو أعدائه — كما أشرنا — .

ونستطيع أن نجد مصداق ما نقول في شعر محي الدين بن عبد الظاهر وما نظمته في وقائع الظاهر بيبرس وحروب المنصور قلاوون . وما دمجته يراعة شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي في مدح السلطان الناصر حسن بن الناصر بن قلاوون ، وما قصده ابن حجة الجوى في وقائع الملك المؤيد شيخ المحمودى ، وهلم جرا .

وعلى هذا الغرار سار ابن نباتة في مؤيدياته وأفضلياته ، فكانت سياسياته مدائح ووصفيات في أغلب أمرهما . والأوضاع السياسية المفروضة حينذاك .

صاحبة السيطرة على الموقف ولا ريب ، بل نستطيع أن نقول إن هذه الأوضاع المفروضة هي التي نشأ الشاعر فوجدها وسيطرة في كل مكان ، كأنما هي فطرة وطبيعة في هذا المجتمع ، فلم يكن من حظ المجتمع أن يوجه نقداً لأعمال السلاطين ولا أن يمرر إليهم توجيهات يسرون بمقتضاها في هذه الأعمال ، اللهم إلا من بعض شيوخ الدين الذين آتاهم الله بسطة في العلم ، وجرأة في الجنان ، وسعة ، من القول ، وبالغاً من الحجة ، ومغامرة في سبيل الحق ، أمثال المعز بن عبد السلام ، ومحبي الدين النووي . ولكن قليل ما هم .

نذكر ذلك حينما ننظر في شعر ابن نباتة وشعر أضرابه من الشعراء عن ذكرنا وعن لم يذكر ، وننساءل أين قولهم في ميدان السياسة ، وأين شعرهم في مجالاتها ، وكانت الدولة طافحة بأحداثها ، والشعب مشغولا بفتنها ومغامراتها . فلا نجد أو لا نكاد نجد ، اللهم إلا وصف بعض الحروب والمعارك ، وما يتصل بها ، وفي شعر شعراء أقل من مستوى ابن نباتة .

اتجاه صفي الدين الحلي :

نذكر ذلك أيضاً حينما ننظر في شعر شاعر كبير معاصر لابن نباتة ، وهو صفي الدين الحلي . وهما شديهان في أن كلا منهما نبأه المقام في بلده ؛ فطوحت به يد الغربة إلى بلاد قاصية يعرض فيها بضاعته من الشعر ، ويرجو من وراء ذلك لنفسه مرتزقا ومكانة . لقد نزح ابن نباتة من مصر إلى حماة حيث ملكها أبو الفداء إسماعيل ، ونزح صفي الدين من حلة بابل بالموصل إلى ماردين حيث ملكها المنصور الأرتقي ثم الصالح . لقد كان أبو الفداء بقية من سلالة الأيوبيين الأكراد . كانت له فراهة في الأدب وضلع في الشعر والنثر ، ودربة على التأليف ، وغاية في استضافة العلماء والأدباء . ولكن غلبت عليه ؛ فيما يبدو ، سياسة القاهرة وخيم على سماء حماة ذلك الجو المضروب على سماء القاهرة . فقد كانت قصارى هذا الملك أو ابنه الأفضل أنهما تابعان من أتباع الناصر بن قلاوون ملك مصر ، كما أشرنا . ولم تضع الدولة في مصر ، نصب عنهما برماجا لتشجيع شاعر أو اصطناع آخر ،

إلا اضرورة تخلفها المناسبة ، ويبرز فيها الشاعر - حتى يتكلم بلسانها وينظم الشعر في سياستها . كما لم يستطع شاعر أن ينقدها أو يخوض في أخطائها أو ينتقدها أو يبرز معانيها ، أو يدلى برأى فيها ، إلا إماما للماما ، لأن أهور السياسة كانت قصرا على الحاكمين سلطانا وأمراء . وكان كل سلطان جديد يتتبع أثر غريمه السابق وأتباعه قتلا وسجناً وكيداً .

أما المنصور الأرتقي فقد كان بقية من دول السلاجقة . وكان في دولته مستقلا يحيط به الطامعون في ملكه من الروم وغيرهم . وبناءه الضعيف النائمون في أطراف دولته . فكان موقفه في إمارته نمطا من أنماط مواقف سيف الدولة الحمداني في إمارته . فتمهياً بذلك كله لصنى الدين أن يخوض معه ومع الصالح بشعره ، في صميم سياسة الدولة وتوجيه حروبها .

أما ابن نباتة فقد خلا شعره من هذا اللون ، على قدرة منه عليه وضلاعة في نظمه . ولكن السبب - على ما نعتقد - هو الفرق بين بيئتين سياسيتين ، كما رأيت - بيئة شب فيها ابن نباتة ونشأ ونما - وبيئة شب فيها صنى الدين ولابس أحداثها والتأم فيها طبعه وجوها .

فرار بعض الشعراء :

وإذا كان ابن نباتة قد فر بشعره من مصر إلى غيرها - إلى الشام أو حماة - فإن بعض الشعراء قد فر بشعره من مصر إلى مصر نفسها ! أعنى بذلك أنه لم يرحل إلى غيرها . ولكنه رحل إلى شيء آخر غير الشعر . . . لقد رحل إلى العلم أو الكتابة أو الحرفة . . . أن هؤلاء الذين تحولوا عن الشعر ، تحولوا عنه بدافع هذه البيئة السياسية ، التي ظلت هي البيئة الأولى الدافعة الحافزة إلى قول الشعر زمننا طويلا ، قبل العصر الذي نحن بصددده . لقد كانت هي البيئة التقليدية التي تحرك الشعر والشعراء ، والبيئة التي ترفع من تشاء منهم إلى المستوى الذي تريده .

فركدت رنجها في العصر المذكور ، ولم ترحب بالشعر كما رحبت بالكتابة مثلا ، ولم تبش للشعراء كما بشت للكتاب والمنشئين مثلا ، أو للعلم والعلماء . ولعل البيئة الاجتماعية تشاركها في هذا الإثم بعض المشاركة ، على أساس ضعف تشجيع الجماهير للشعراء ، وضيق تلقيهم نتائجهم بالقبول ، وندرة تناول مجالس العلم والأدب والمناظرة لهذا النتاج بالدرس والبحث والنقد والتحليل .

ولو وقع هذا في البيئة الاجتماعية أو الثقافية ، على نمط مناسب ، لكان لرواج الشعر ونفاق سوقه حينذاك ، أثر كبير في تهذيبه وفي شحذ قرائح الشعراء ، وفي نتائجهم .

لهذا كله انحرف كثير من رجال الشعر والذين كانت تنبؤوا كبيرهم بمستقبل حافل في ميدان الشعر ، إلى طريق غير طريقه ، إلى طريق الكتابة والإنشاء ، وإلى طريق العلم والفقه والقضاء ، وإلى طريق الاحتراف بحرفة ما ، ولو كانت دنيا ، كالجزارة والحمامية والوراقة وغيرها .

فمن المنشئين ابن عبد الظاهر والشهاب الحلبي والصلاح الصفدي والتقي ابن حجة . ومن الفقهاء والقضاة ابن حجر العسقلاني وتقي الدين السبكي ، وابن دقيق العيد القشيري . ومن المحترفين أبو الحسين الجزار المصري ونصير الدين الحماي ، وسراج الدين الوراق ، وابن دانيال الكحال . وغيرهم كثير .

ولم ينحرفوا عن الشعر جملة ، ولم يتركوا ميدانه خلوا لغيرهم ، بل فاءوا إليه الفنية بعد الفنية ، أو قل جذبتهم إليه جواذبه ، وحركتهم إليه شياطينه وأبالسته . ودفعتهم إليه وساوسه . وكيف يسألونه وهو فطرة في نفوسهم وهبة طبيعية وهبها الله لهم ، وفن أصيل جبلوا عليه . لذلك عادوا إليه وفاءوا الآلة بعد الآلة ، والفنية بعد الفنية ، كما قلنا . عادوا ولم تفارق نفوسهم مرارة الإنكار ، وفاءوا ولم تزال خواطرم مضاضة التجاهل والحرمان فنفضوا المضاضة شعرا ،

ونظموا المرارة قريضا . وبرز بعض شعرهم في باب النقد يصرخ مما جنته البيئـة
السياسية والاجتماعية عليهم ، وينعى عليها تجاهلها أو جهلها ، ويسخر بها ويتهكم .
ويمعن بعضهم في السخرية والتهكم حتى يسخر بالشعر نفسه ويتهكم ، حينما وجده
صناعة لا تدر خيرا ولا تيسر رزقا ولا تمنح جاها ولا تنضر عيشا ولا تسد جوعة .

هذا جمال الدين بين نبأته يقول :

تقول بنى الجائعون أما ترى من الجوع شكوانا لكل فريق
وقد كنت ذا نظم وسعى بهرنا فما جئت من هذا وذا بدقيق^(١)

وما إن فرا بن نبأته من مصر وبلغ حماة حتى قال للملكها المؤيد :

فاجل عني حالا أراني منها كل يوم في غارة شـعواء
فكفي من وضوح حال أنى في زمانى هذا من الأدباء
ضاع فيه لفظى الجهير وفضل ضيعة السيف فى يد شـلاء^(٢)

ويكرر ابن نبأته هذه المعانى ويزيدها وضوحا فى البيتين التالين :

لا عار فى أدبى إن لم ينل رتبا وإنما العار فى دهرى وفى بلدى
هذا كلامى وذا حظى فى عجباً منى لثروة لفظ وافتقار يد^(٣)

ولم ينس ابن نبأته وحده على صناعة الشعر ولا على موقف بلده منها .
فهذا سراج الدين الوراق يصور مبلغ شغف الناس بالشعر فى هذين البيتين
الساخرين :

رفضوا الشعر جهـدهم ورموه بينهم بالهوان والازدراء
فلو ان الكتاب كان بأيدى هم محوا منه آية الشعراء^(٤)

(١) ديوان ابن نبأته قافية القاف .

(٢) و (٣) راجع ديوان ابن نبأته حرف القاف ثم فى الدال .

(٤) خزانة الأدب باب النورية .

ويرياً بنفسه عن أن يلقى الناس ، وقد علم منهم مقتهم للأديب وكرهيتهم للشعر فيقول .

أصون أديم وجهي عن أناس إلقاء الموت عندهم الأديب
ورب الشعر عندهم بغيض ولو وافى به لهم حبيب^(١)
تنطق الأبيات بأن الجناية من البيئة الاجتماعية . ولما كان في الحق ، جناية
البيئة السياسية من قبلها . ولو جذبت البيئة السياسية بضبيع الشعراء وأعانتهم
بشتى ضروب الإغانة - أو ببعضها - على صناعتهم ، لمكان لذلك صدى أى
صدى في المجتمع . لقد كان السلاطين والأمراء أعاجم عن العربية ، فهم أعاجم
عن شعرها . ولم تدفعهم حاجة دولتهم إلى اصطناعه كما دفعتهم إلى اصطناع
الكتابة .

آثر فريق من الشعراء ، إذن ، الاحتراف بحرفة تيسر له الرزق وتحفظ له
الكرامة وتبقى ماء الوجه . ومن لطيف ما جنح إليه خيالهم بتوريانه وبدائعه أن
تحدثوا في شعرهم عن هذه الحرف ، ونظموا ما يتصل بها من المعاني في أساليب
متكلمة مريية ، متفككة ساخرة ، وفي تعليقات قاسية هي وحي البيئة الحارمة
الضئينة ، والمجتمع الكز المنكر الشحيح .

يقول أبو الحسين الجزار المصري - وكان يتعاطى صناعة الجزار - يمدح
صناعته وينعى على صناعة الشعر والأدب ، في استعارة وتورية ، وفي
تعليل مر :

كيف لا أشكر الجزار ما عشت حفاظاً وأرفض الآدابا .

وبها صارت الكلاب ترجيني وبالشعر كنت أرجو الكلابا^(٢)

ويكرر هذه المعاني في يديتين آخرين ، مع مداورة وعكس ، فيقول مفاضلا :

(١) خزنة الأديب ص ٢٤٦ .

(٢) خزنة الأدب باب التورية .

لا تعبني بصنعة القصاص فهي أذكى من غير الآداب
كان فضلي على الكلاب فذ صرحت أديبا رجوت فضل الكلاب (١)
احترف إذن ، بعض الشعراء حرفا ، فكان منهم أبو الحسين الجزار - كما
شهدت - وكان منهم الوراق والحمى ، كما ذكرنا . وكان منهم الكحال مثل
ابن دانيال الموصلي ، والخياط مثل زين الدين بن الرعاد ، وبائع الفقاع مثل علاء الدين
ابن هليك ، والدهان مثل شمس الدين الدمشقي محمد بن علي بن عمر المازني .
هؤلاء وغيرهم ممن سلكوا في طلب الرزق مسلكا غير مسلك الشعر ، تحت
تأثير ملابسات البيئة السياسية ، واتجاهات المجتمع المتأثر بمضاعفات السياسة
وغيرها ، لم يهجروا الشعر جملة - كما نوهنا - وتفلتوا به إلى نواحي أخرى ، ولبوا
دعاه كلها نادى نفوسهم ، ولبي نداهم كلها هتفت به عواطفهم . واستجابوا لفنيهم
الشاعرة ، فكانت وحدها أحد حوافز الشعر عندهم ليرضوا نفوسهم ويروضوا
خواطرهم . وعارن هذا الحافز - أعنى الفنية الشاعرة - حوافز أخرى نمتها البيئة
الاجتماعية والبيئة الثقافية ، وسنشير إلى ذلك فيما بعد .

من نتائج البيئة السياسية

كان في مقدمة نتائج الشعر بدافع من البيئة السياسية إذن ، ألوان من الشعر
السياسي فيها كثير من المدح ، وفيها الفخر والحماة والزهو والإشادة بالنصر ،
ووصف الحرب ، فيها الهجاء الكثير للأعداء ، وفيها الحملة عليهم وتوعدهم وإنذارهم ،
وفيها استطرادات إلى وصف آلات القتال من خيل وسيوف ورماح وقسي وغير
ذلك . ونزعة النقد وتنبع سقطات الحكام والرؤساء ، كانت تترأى بين آن وآخر
على فلق وخوف ، وفي إيجاز واقتضاب .

ومحي الدين بن عبد الظاهر كان كاتباً فذاً ومنشئاً قديراً ومؤلفاً بارعاً ، وكان شاعراً مجيداً جزل العبارة مبدعاً . وقيل إن ديوان الإنشاء بمصر كان يليه في عهد الملك الظاهر بيبرس ثلاثة رجال ، كان من بينهم القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر ، وكان أرفعهم درجة (١) . وكان بحكم عمله في الديوان وثيق الصلة بالسلطان والأمراء ، ووثيق الصلة بسياسة الدولة ، ظاهرها وباطنها ، علماً بكل ما يتصل بحروب السلطان والاستعداد لها والخروج للقاء فيها ، والتحرك خلالها بغية النصر وهزيمة الأعداء ، خبيراً بأنباء الانتصارات والانهمزامات ، ووقائع الغزو وحوادث الفتح ، وما إلى ذلك . فقد كان من أعماله هو ومن معه من الكتّاب تسجيل هذه الأنباء والحوادث وذكر أخبار الفتوح في رسائل رسمية ، هي وثائق تاريخية عظيمة ، كانت تكتب وتُنشر وتسير إلى الآفاق لقراءتها وتناقضها . واعتاد كتابها حينذاك أن يفصلوا فيها القول ، ويسهبوا في الحديث ويسجلوا الأنباء بزائد من العبارة . واتبعوا في أساليبها النهج البديعي التقليدي حينذاك من سجع ونظام فقرات ومطابقة ومجانسة إلى غير ذلك ، مع مراعاة رسوم وأوضاع رسمية خاصة بهذه التبشير أو المنشير أو غيرها من الرسائل الديوانية . وكان محيى الدين بن عبد الظاهر أحد الذين ابتدعوا لـديوان الإنشاء هذه الرسوم والأوضاع والمصطلحات . يقول في ذلك صاحب فوات الوفيات إنه « وضع كثيراً من اصطلاحات الإنشاء ونظم الديوان . وبقيت نظمه واصطلاحاته معمولاً بها في مصر والشام إلى أن فتح العثمانيون مصر » . (٢)

وكان الكتّاب يسبغ في هذه الرسائل على السلطان وأمرائه وجيوشه آيات الحمد والثناء ، ويسكيل المدح كيلاً لا تريث فيه ولا مهادنة ولا تأنى . وأصبحت هذه الظاهرة عادة وتقليداً متبعاً في الرسائل لا حول عنه .

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ١٠٤

(٢) فوات الوفيات ج ٢ في ترجمة محيى الدين بن عبد الظاهر .

من هذا وذاك يتبين لنا أنه كان لابد لمحيي الدين بن عبد الظاهر أن ينظم أنباء فتوح سلطانه ، وأخباره تحركاته هو وأمرأؤه وجيوشه ، سعياً إلى رد العدو وكبح جماحه أو القضاء عليه ، وانزعاج ما انتزع من أرض السلطنة ، ورد ما سلب من ممتلكاتها ، وفتح ما تحصن وراءه من القلاع والحصون ، والاستيلاء على ممتلكاته ، ونشر المهابة بين صفوفه ، وضرب الخوف والقلق من حوله .

ومحيي الدين بن عبد الظاهر كاتب منشئ ، وشاعر قدير ، كما أشرنا ، والشاعر عادة أو غالباً ، يكون أكثر حساساً من الكاتب ، وفنه في نفسه أثبت ، وهو أشب عاطفة وأسرع استجابة إلى لقاء الحوادث وتسجيلها .

ونحن لا نرتاب قط في أن هذا الرجل - أعني محيي الدين - سجل بشعره ما سجله بنثره ، وخلد الكثير من حوادث السياسة في زمانه وأنباء الحروب في أبياته ، كما خلدتها بمنشأته - واسكن ابن هذا الشعر وأين هذه الأبيات ؟ ليس لدينا منها غير القليل . ونحن لانشك أن كثيراً مما نظمته قد ضاع فيما ضاع من آثار الأدباء وآثار العلماء . . . وهذا القليل الباقي ينبي عنه ويشير إليه . فليس من المستطاع تصديقه ، أن تمر كل هذه الحوادث أمام شاعر عظيم كابن عبد الظاهر ، ولا يسجلها ولا يشير إليها ، وهو بنفسه الذي يسجلها بقلبه المنشئ وسجعاته الطليعة ورسائله البديعة .

شجاعة بيبرس :

وقد كان الملك الظاهر بيبرس فارساً شجاعاً ، شجاع القلب وشجاع الرأي . كان شجاع القلب لايهاب ، وشجاع الرأي لا يستأنى فهو ضراب هامات ، وأخو فتكات ، وجوال ميادين ، ومقارع سلاطين ، لم تقف أطماعه عند حد ، فقد نشأ وترعرع وشب ووثب ، فلقى بلاد المسلمين تنوشها رياح أعدائها وتنتابها سيوف الطامعين فيها من التتار الوثنيين ، والفرنجية الصليبيين ، فهاله الأمر وكبر عليه الموقف ، وأنفت نفسه أن تستذل بلاده لهؤلاء الأفاكين ، وأن يستباح أهل دينه لهؤلاء الطغاة

الظالمين وما إن آتاه الله الإمارة والملك، حتى هب يبذل الرأي ويعمل الحيلة ويدبر السكيد ويحكم الخطة ويجمع الصف، ليرد أعداء المسلمين عن بلاد المسلمين، ولسكى يشتت شملهم ويفلل كيدهم ويردهم داحرين فأوقع بالقتار في «عين جالوت»، تحت لواء ملكه المظفر قطز، وكذلك في «بيسان»؛ وقضى على الخرافة التي قالت إنهم لا يهزمون، ثم لما آتاه الله السلطنة تتبع التتار والفرنجية قتلا وتشريداً، وهزم الأتراك السلاجقة. وجرد جيشاً قوياً على بلاد الشام فأخضع الأمراء النافرين بها واحتازها إلى سلطنته وغزا جملة بلاد، منها ما فتحها أو ضمها إلى بلاده، وكان في حملتها ألبيرة والكرك وحمص وبيسارية وأرسوف وصفد ويافا والشقيف وأنطاكية وحصن الأكراد وعكا وصافيتا، وبلاد سيس.

هذا فضلاً على غزوه بلاد السودان واحتيازه جزءاً منها.

فتح بلاد سيس :

ومحي الدين بن عبد الظاهر يسجل في إحدى قصائده، فتح الملك الظاهر بيبرس لبلاد سيس، ذلك الفتح الذي تم في عام ٦٦٤ هـ.

ويجئ ابن عبد الظاهر - كما نوهنا - إلى المديح وإسباغ آيات الشناء على السلطان وأمرائه وجيوشه، ويشيد بشجاعتهم وينوه بحبهم للإسلام. وهو إذ يسجل هذا الانتصار العظيم، يسجله بروح إسلامية، فهو نهر للإسلام والمسلمين. ويصف الظاهر بأنه «سيد الملوك»، وبأنه «صار حصناً حصيناً للمسلمين». وبأنه «ركن دين الله»، وبأنه «أسد الله». الخ.

وقد كانت بلاد سيس في يد الأرمن الصليبيين. ويحكمها «التكفور»، وهو «ليفون بن هيتوم بن قسطنطين».

ولهذه المستعمرة الصليبية تاريخ طويل في النزاع بين حكامها ومحتليها، وبين السلطنة المصرية والمسلمين. وقد غزاها بيبرس وأحرق عاصمتها «سيس»، وقبض على ملكها «ليفون»، وحبسها بمصر. ثم أطلقه بعد مدة، وفرض عليه

الجزية واسترد منه مدنا^(١) .

وبدأ ابن عبد الظاهر قصيدته بتساؤل الفرح الشاكر لله تعالى علي هذا النصر المبين الذي أقر به العيون ، وهو فتح بلاد سويس واحتيازاها . فلم يصطنع ابن عبد الظاهر مقدمات ولا افتتاحات لهذه القصيدة ، والمقام لا يقتضى ذلك . فبدأ بالشكر توا وبذكر سببه وهو النصر . ثم أخذ يعرض صور الحملة المصرية وما تحتوى عليه من جند وخيل ، ومبلغ ما كانوا عليه من همة ومضاء وشجاعة ، ومقدار ما افتتحوا من مدن ، وما ذكوا من حصون ، وما أذلوا من ملوك وقواد . ونوه بتولى «ليفون» وفرار التتار وهروب قائدهم «أبغا»^(٢) .

ويلاحظ أن الشاعر لم يخض في غمار السياسة ، ومسها مساريفاً . أفىكون هذا لجن أو خوف حقيقة ، أو لجهل بالأمور وبعد عن اتجاهاتها ؟ إننى أستبعد أن يكون السبب شيئاً مما ذكرنا ، فإن مكانة صاحب ديوان الإنشاء حينذاك ، ثم مكانة كاتب السر فيما بعد ، كانت من السمو والدنو إلى السلطان ومجالسه بحيث يعرف مجارى الأمور وأخطار الأحداث واتجاهات السياسة ، وخاصة بعد زمان ابن عبد الظاهر هذا . فإن ابنه فتح الدين - أول من لقب بكاتب السر - حظى

(١) راجع تشريف الأيام والعصور ص ٩٢ ، ٩٣ - وبلاد سويس مى أرمينية الصغرى «قيلقية» وموقعها بين أنطاكية وطرسوس وعاصمتها «سويس» هكذا ينطقها عامة أهلها ، وصحة الاسم «سيسية» راجع السلوك - هامش ص ٥٤٩ (عن معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٦٥) وص ٥٦٨ من السلوك - وراجع أيضاً «مصر فى العصور الوسطى» للدكتور على إبراهيم حسن ص ٢٧٥ ، وفيه موجز لحروب بلاد سويس مع مصر وعلاقتها من لدن الظاهر بيبرس وبعده - والتذكور لنظ أرمى معناه الملك المتوج - راجع هامش السلوك ص ٥٥١ - وكان غزو الظاهر بيبرس لها عام ٦٦٤ هـ وقاد جيشه الملك المنصور صاحب حماة - راجع السلوك ص ٥٤٩ ، وما بعدها إلى ٥٥٣ .

(٢) كان أبغا بن هولاءكو يترقب الفرص ، فلما عين ما أصاب الفرنجة فى سويس ، تراجع وأرسل الرسل إلى السلطان الظاهر بيبرس ومعهم الهدايا يطلبون الصلح - راجع السلوك ص ٥٥٣ وفي حوادث أواخر سنة ٦٦٤ هـ ،

وفي غير هذه المرة كانت . بين بعض الفرنجة وأبغا بن هولاءكو مراسلات للتعاون ضد السلطات ، وقع منهم ذلك - مثلاً - عام ٦٦٨ هـ (راجع السلوك ص ٥٨٤ . ٥٨٥) .

لدى السلطان المنصور قلاوون ، وكان منه بحيث لا نخطئ إذا قلنا إنه كان عنده أقرب من أمرائه إليه ، لقد ألقى إليه المنصور بمقالات الأمور وصارت جميع مكاتباتها إلى يده .

ما السبب إذن في أن يحيى الدين بن عبد الظاهر ، هذا الشاعر المجيد والكاتب القدير ، لم يخض في غمار السياسة بشعره ؟ نتساءل قبل أن نجيب على هذا السؤال ، ونقول : أخاض في غمارها في نثره ؟ أكتب رسائله الرسمية التي تعد وثائق تاريخية من وثائق الدولة يثوب إليها المؤرخون - أو ينبغي أن يثوبوا إليها - عندما يؤرخون هذه الفترة التاريخية من حياة مصر وشعبها وحكامها . الجواب على ذلك أنه تناول في رسائله أحداث السياسة على نمط قريب مما تناولها به في شعره .

والسبب واضح بين ، فإن سياسة الدولة الداخلية والخارجية كانت بيد السلاطين ومن إليهم من الحكام ، وما كان للشعب بحسب ما جرت به عليه تقاليد الحكم منذ زمن طويل ، أن يخوض في صميم السياسة ، وأن يكون له فيها رأى ، أو يسمح له بأن يبدى فيها رأيا . وكان ينوب عنه نيابة تقليدية - هي أشبه بالطبيعة والفطرة - قضاة الشرع وعلماء الدين في الجملة . والشعراء على غرار الشعب في هذا . وهم في هذه الدول ، ومن هذه الناحية نوعان : نوع متصل بالسلاطين والحكام بحكم منصبه ، فهو يخشى على ماله وجاهه ونفسه وأبنائه ، وليس له إلا أن يسير في الركاب ويتمسح بالاعتاب ، فإذا تحدث عن أحداث سياستهم في الداخل أو الخارج مسها مسارفقا وانساق فيها بما يلائمهم حتى يوافق هواه هوام ، فيبرز شعره مدحا وثناء . ونوع منفصل عن هؤلاء السلاطين والحكام فهو غير خبير بما هنالك ، ولا يدري من أمر السياسة وأحداثها إلا ما تطلقه الغالة وتحدث به الشائعة ، فإذا هو رأى أن يسوق في شعره نقدا أو توجيها ، صنع ذلك في فكاهة يتستر وراءها ، أو في وجازة لا يظيل فيها . ولم يكن بين

الجمهير أحزاب ولا طوائف متنازعة في السياسة على نسق ما نرى بين الشعوب في العصور الحديثة .

وفي السياسة الخارجية بخاصة لم يكن هناك خلف قط بين الشعب وحكامه . لقد كان الحكام فيها ينفذون سياسة الشعب . هذه السياسة التي لم يرسمها الشعب في دستور ولا سطور ، وإنما هي أحاسيس وقرت في نفسه واتجاهات عامة جمعت بين القلوب فيه ، ومصالح مشتركة اقتضتها التجمع من أجلها . وتركز هذه السياسة الخارجية في دفع العدو ومكافحة الطامعين الزاحفين على البلاد . وقد كان هؤلاء جميعاً أعداء العرب وأعداء المسلمين من تتار وثنين — حتى بعد أن أسلموا — ومن صليبيين مسيحيين . إن الشعب شديد الإحساس مرهقه من هذه الناحية ، لا يرضى أن يتحكم في بلاده غير مسلم ، مهما عدل وأنصف ، ومهما أعطى وأجزل .

ولقد كان السلاطين والأمراء ، وهم يحاربون التتار والصليبيين ، يحاربون أعداء العرب ويحاربون أعداء دين العرب فالمشاعر مؤتلفة ، والأحاسيس متلاقية ، والأهداف موحدة مشتركة . لهذا كان الشعب سريع الإجابة لهؤلاء الحكام الغرباء عنه عندما ينفرون للقتال ، يقدم إليهم اليد العاملة ، والطعام الخزون ، والضريبة المتأخرة والمفروضة ، وبهليل معهم حين النصر ، ويتحسر حين الهزيمة . وإنما يبدو منه ذلك لأنهم يحققون أهدافه ويسيرون به إلى أمله ، ويستبقون له خيرات بلاده . ولم يكن هناك بين الشعب وحكامه في انتهاج هذه السياسة خلف . ولم يكن هناك بين السلطان وأمراء دولته في اتباع هذه السياسة نزاع .

الخلف الحقيقي كان بين السلطان وأتباعه من الأمراء ، وبين الخارجين عليه من الأمراء الطامعين في السلطنة . ويعتبر هذا الخلف من صميم السياسة الداخلية التي لم يكن في مقدور الشعب أن يمسها من قريب أو بعيد . فإنه عاش فرأى حكامه هؤلاء يحكمونه ، فرضى بذلك رضا تقليدياً كأنه فطرة وطبيعة ، رضى بذلك بسبب أنهم مسلمون ، وأنهم يدافعون عن أرض الإسلام والعرب ، وأنهم أبدوا

فى ميدان الدفاع بطولة تحدثت عنها أطراف الأرض ورددها لسان الزمان .
يؤيد ذلك أن العثمانيين الأنراك كانوا مسلمين ، ولما أخذ خطرهم يقترب من
البلاد رويدا رويدا ، كان سلاطينها يذودونهم عنها ويكافونهم دونها ، وهى بلاد
عربية ، مهما اختلف عليها الحكام . فكان الشعب يكافح معهم ، حتى إذا أصبح
الخطر قاب قوسين أو أدنى من البلاد ، وانهمزم السلطان الغورى فى موقعة
« مرج دابق » ، وزحف العثمانيون على البلاد ، وجهدهم الأشرف طومان باى
فى جمع الصفوف وتوحيد القوى ، امتنع بعض الناس عن أن يدفعوا له الضرائب
حتى ينجلي الموقف ، ثم يدفعوها للغالب - ما دام مسلما^(١) . ولعل هؤلاء قد
خدعوا عن أنفسهم . غير أن جماعات الشعب كانت يقظة فلم تستسلم لهذا الفائح
الجديد ، الذى لقي من الفاهرين شر ما لاقاه فائح .

لابدع إذا حينما نرى شاعرا خلا كابن عبد الظاهر يخوض فى السياسة
- إذا تناولها فى سطحية وعجلة وضيق ، على مقدار ما كانت متاحة له وللشعب
فى ذلك الحين .

نذكر ذلك ونحن نتحدث عن إحدى قصائده فى هذا الميدان وهى قصيدته
فى فتح بلاد سييس عام ٦٦٤^(٢) ، والى يقول فى مطلعها سائلا سؤال الشاكر :
أى يوم بنصره قد حبيننا وبه الله قد أقر العيوننا
يوم جزنا بلاد سييس وقلنا أى نصر من ربنا قد جزينا
ويذكر السلطان وأمراءه وجنوده ، وما يركبون من خيول مطهمة ملونة ،
بينها شقراء كالسلاف ، وصفراء كالتبر ، وأدهم كالليل ، وأشهب مثل الصبح المبين ،
وغيرها . يقول :

إذ تبدى السلطان بين نجوم من بنى الترك يعيشون المنونا

(١) ابن آيس ج ٣ حوادث عام ٩٢٢ ، ٩٢٣ هـ .

(٢) راجع سلوك المغريزى ص ٥٥١ وما بعدها .

يركضون الجياد في حلبة النصر م فأكرم بمنلهم راكضينا
كل شقراء كالسلاف وصفراء م كستبر قد سرت الناظرينا
وجياد من الأدهم والشهب م ترينا ليلا وصبحا مبينا
وكبت قد راح حي كبت من غدوبها لدى العابرينا
فوقها من بنى الحروب رجال لم يزالوا لرهم شاكرينا
ويشيد ابن عبد الظاهر بهؤلاء الأمراء والجنود - النجوم - ويذكر أنهم
أذلوا كثير آ من السادة والرؤساء، ونهبوا وأسروا فيهم، وانتصروا عليهم وفتحوا
مدنهم وحصونهم، وذلك بفضل سيد الملوك بيبرس . يقول الشاعر في ذلك :
كم أذلوا القروم نهباً وأسرا في انتصار وكم أعزوا القرونا
فتحوا المدن والحصون وكفوا كافريها وسلموا المسلمين
بسطى سيد الملوك ومن قد صار حصنا للمسلمين حصينا
ركن دين الإله بيبرس الظاهر م خير الملوك دنيا ودينا
أسد الله في الوجود أتاها بالسطى منه أخذل الظالمينا
ويسجل الشاعر بعد ذلك فرار الفرنجة وهروب التتار وما أصاب الجميع من
هزيمة ومعة . فقال :

وتولى ليفرون منه حسيरा خائبا خائفا لعينا مهينا
وكذاك التتار خوفا ورعبا قد تولوا من بأسه هارينا
آه لو أنهم أقاموا فقالوا أى يوم لشره قد حيننا
أندروا بالجوش أبغا فولى هاربا لا يكذب الناقلينا

ويصور ابن عبد الظاهر صدى هذا الانتصار والفتح المبين في أهل البلاد
الأخرى ، وآمالهم في بيبرس ومناهم في أن يأتي إليهم غازيا فاتحا ليلقوا بين يديه
بمقاليد أمورهم وينقذهم من أعدائهم الذين يتحكمون فيهم ويسيطون إليهم
ويسلبونهم حريتهم . فيقول :

وترامت كل البلاد وقالت ليتنا مثل سبىس كسنا غزينا
ليت جيش السلطان وافي إلينا ليت أنا لخيلى قد وطينا
ليت أنا فى حكمه وفداه كل مال الأنام أودع فينا
ليت جيش السلطان جاء إلينا ليرانا لحكمه طائعيننا
لو قدرنا نأتى إليه أتينا ولكنا من جملة الوافديننا

ويدعو الشاعر للسلطان فى الخاتمة بأن يمد الله فى عمره وينسأ فى أجله وأن
يفديه سائر العالمين ، فيقول :

جعل الله عمره فى امتداد يتفداه سائر العالمين^(١)

الظاهر بيبرس يعبر الفرات :

وعاود الملك الظاهر بيبرس غزو الشام بغية لقاء التتار وإذلال الفرنجة. ففتح
المدن المستعصية ودك الحصون وشارك جنوده وعماله بيديه فى أعمالهم الحربية .
وغاض الفرات وعبره إلى البيرة بخيله - عام ٦٧١ هـ - مطارداً لفلو التتار .
واندفع من خلفه جنوده حتى شتتوا شملهم وأبادوا جموعهم . فكانت هذه
المغامرة وهذه النصره مثاراً لحساسة الشعراء وزهوهم . فاندفعوا يتغنون بها
ويشيدون ببطلانها^(٢) .

فقال ابن عبد الظاهر يذكر هذه الواقعة ، ويسجل المغامرة بروح
إسلامية واضحة :

تجمع جيش الشرك من كل فرقة وظنوا بأننا لا نطيق لهم غلبا
وجاءوا إلى شط الفرات ومادروا بأن جياد الخيل تقطعها وثبا

(١) تسميف الأبيام والعصور فى سيرة الملك المنصور تحقيق مراد كامل ، نصر وزارة الثقافة
والإرشاد ص ٢١ — وليفون هو صاحب بلاد سبىس كما مر بيانه .
(٢) راجع سلوك المقرزى حوادث عام ٦٧١ هـ ، وص ٦٠٦ .

وجاءت جنود الله في العدد التي تيمس لها الأبطال يوم الوغى عجباً
فعمنا بسد من حديد سباحة إليهم فما استطاع العدو له نقبا (١)

ولم يكن يحيى الدين بن عبد الظاهر وحده الشاعر الذي تتبع حروب بيبرس،
أو تتبع بعضها وسجلها في شعره . فهناك الشاعر بدر الدين محمد بن يوسف
المهمندار . لقد نظم هذه الأبيات التي يصف فيها عبور الظاهر بيبرس نهر الفرات
بخيوله وجنده ، بحماسة وشهامة نادرة ، وهو يسوق خلف أعدائه ، يطاردهم
ويلصيدهم ويقضى عليهم .

لقد نظم الشاعر المجيد هذه الأبيات التصويرية المتحركة المدوية التي تعتبر
مجتمع لوحات فنية بارعة، وصور بها مراحل المعركة المحتدمة من أولها إلى نهايتها .
نظمها وهو يشهد المعركة بعينه ويحسها بمشاعره ويتابعها بعواطفه وآماله، وتنعكس
حقائقها في خياله فتتفثها صوراً شعرية أخاذة

فالخيل تشق العجاج، وسنا الأسنة يكشف ظلام العثير، وتقدم الشجاع ووهى
الجبان . وتقدمت الخيل بفرساتها تعبر الفرات تدفعها حماسها وإيمانها ، فتبدو
من فوقه سداً من حديد ، أو بحراً في بحر . والعدو يتسابق في الهرب والفرار ،
فترده الرماح وتعيده السيوف ، فيقع صريعاً قتيلاً . وما زالوا حتى امتلأ الفضاء
بالأشلاء ، وسدت قتلى العدو طريق الجيش ، فانحرفت الخيل إلى المسالك الوعرة ،
تتبع فلولهم ، حتى جرت دماؤهم أنهاراً ، وامتزج العجاج بالجميع حتى تراكم فوق
السيوف وعلاها كأنه الصدا . . . أفلا ترى أن هذه معركة مصورة بحركات من
فيها وعواطفهم المتتابعة ؟ وهذا مالا تقدر عليه صور المصورين ولا ريشة
المبدعين

يقول الشاعر :

لو عاينت عينك يوم نزالنا والخيل تطفح في العجاج الأكد

(١) فوات الوفیات ج ١ ص ١١١ في سياق ترجمة الظاهر بيبرس .

وسنا الأسنة والضياء من الظلما
وقد اطلختم الأمر واحتدم والوغى
لرأيت سدا من حديد ما يرى
طفرت وقد منع الفوارس ردها
ورأيت سيل الخيل قد بلغ الربا
لما سبقنا أسهما طاشت لنا
لم يفتحوا الرمي منهم أعينا
فتسابقوا هربا ولكن ردهم
ما كان أجرى خيلنا فى إثرهم
كم قد فلقنا صخرة من صرخة
ملثوا الفضاء فمن قليل لم ندع
سدت علينا طرقنا قتلاهم
من كل أشهب خاض فى بحر الدما
وجرت دماؤهم على وجه الثرى
والظاهر السلطان فى آثارهم
ذهب العجاج مع النجيع بصقله

كشفا لأعيننا قتام العشير
ووهى الجبان وساء ظن المجترى
فوق الفرات وفوقه نار ترى
تجرى ولولا خيلنا لم تسكر
ومن الفوارس أبحرا فى أبحر
منهم إلينا بالخيل الضمر
حتى كحاز بكل لدن أسمر
يوم الهزيمة ربح كل غضنفر
لو أنها برء وسهم لم تعثر
واسكم ملأنا محجرا من محجر
فوق البسيطة منهم من مخبر
حتى جنحنا للنسكان الأوعر
حتى بدا لعيوننا كالأشقر
حتى جرت منها مجارى الأنهر
يذرى الرءوس بكل غضب أوتر
فكأنه فى غمده لم يشهر^(١)

وقد أدلى الشاعر الأديب أبو النناء شهاب الدين الحلبي بدلوه فى الدلاء ، وسجل
الواقعة موقعة على أوتار لفظية رقيقة ، وعبارات موسيقية عذبة ، فيها رنة الفرح
بالنصر على الأعداء ، ولحن الابتهاج بالظفر بهم ، ونصر الدين وحفظ البلاد . فما
هى ذى الرءوس تتراقص وأوتار القسى تتحرك مطربة ، والخيل تسبح لاتعلق

(١) مطالع البدور فى منازل السرور للغزولى - مخطوط - مكتبة الأزهر - ورقة رقم ١٢٩ ، ١٣٠
وعنوان الوفيات ج ١ ص ١٠٩ وما بعدها فى ترجمة الظاهر بيبرس .

بذبولها هرج الصبا ، وإذا بأمواج الفرات تفاجأ ، فتحمل فوق متنها أمواجا ، وإذا
ببحر الخيل ثقله مياه الأمطار — ماء النهر — وإذا الأعداء تذرناش أشلاؤهم وترش
الصعيد دماؤهم . ثم تبدأ المعركة فتتوافد إلى ميدانها الآساد والأطيار ، تقيم
أفراحها وأعراسها على أنار الأعداء ، وتتقدم المعازل والحصون ، مشية على همة
المليك الذى حفظها ، وتعجل الناس إلى شكره لأنه منعها وحماها وعصمها .

يقول الشاعر مخاطبا الملك :

لما تراقصت الرموس وحركت من مطربات قسيك الأوتار
خضت الفرات بسابج أنصى منى هو الصبا من نعله الآثار
حملتك أمواج الفرات ومن رأى بحرا سواك ثقله الأمطار
وتقطعت فرقا ولم يك طودها إذ ذاك إلا جيشك الجرار
رشت دماؤهم الصعيد فلم يطر منهم على الجيش الصعيد غبار
شكرت مساعيك المعازل والورى والترب والآساد والأطيار
هذه منعت وهؤلاء حميتهم وسقيت تلك وعمر ذى الإيثار^(١)

ومن سجل الواقعة أيضا الشاعر ناصر الدين بن النقيب ومن أبياته :
ولما تراءينا الفرات بخيلنا سكرناه منا بالقوى والقوائم
فأوقفت التيار عن جريانه إلى حيث عدنا بالغنى والغنائم^(٢)
والشاعر موفق الدين عبد الله بن عمر المعروف بالوزان ومن أبياته :
الملك الظاهر سلطاننا نفديه بالمال وبالأهل
اقتحم الماء ليطفى به حرارة القلب من المغل^(٣)

(١) و(٢) و(٣) فوات الوفيات ج ١ ص ١٠٩ في سياق ترجمة بيبس — وهناك شعراء آخرون ،
راجع زبدة الفكرة لببىس الدوادارى ج ٩ ص ١١١ ، مصورة بمكتبة جامعة القاهرة .

موت بيبرس :

ومات الملك الظاهر بيبرس عام ٦٧٦ هـ - فرثاه ابن عبد الظاهر رثاه مرا ،
رثاه باكيا يدل على ما كان له به من صلة ، وما كان له عنده من مكانة . ثم يدل على
أنه بقي على مكانته من بعده لدى ولديه اللذين وليا الملك بالتعاقب ، وهما الملك
السعيد أبو المعالي محمد ، والملك العادل سيف الدين سلاش .

وقد رثاه ابن عبد الظاهر أكثر من مرثية ، فبكى عليه وتفجع لموته وأظهر
الحسرة واللوعة على فراقه ، وسجل الكثير من مآثره ، وفاض بالثناء عليه ، وأعاد
ذكرى أعماله المجيدة في سبيل الإسلام والمسلمين وردد ذكر وقائعه مع الفرنجة
والتتار ، ومواقف الشجاعة والفروسية والعزم والحزم أثناء قتالهم . ويقول في
أول إحدى قصائد رثائه يتفجع :

ما مثل هذا الرزء قلب يحمل كلا ولا صبر جميل يحمل
الله أكبر إنها لمصيبة منها الرواسي خيفة تنزلزل . . الخ ،
وأخذ يذكر مآثره ومحامده ، وآراؤه مثل السهام ، وعزائمه لا تفعل . . .
لهفي على آرائه تلك التي مثل السهام إلى المصالح ترسل
لهفي على تلك العزائم كيف قد غفلت وكانت قبل ذا لا تغفل . . الخ
ومن مرثيته هذه يذكر بعض مواقفها ويشيد بها ، يقول :

لله موقفه الذي فيه غدا للنصر يذهب حيث كل يذهل
وإذا التتار تألفت وتألبت في مرج هوق والكنائن تنبل (١)
حيث العدى قد أصبحت أجسادهم ما شاءت الفتكات فيها تفعل
في كل رأس ضربة ما تنثنى حتى تعد بمنتهاتها الأرجل
وبكل صدر طعنة تحكي فما فيه الأسنة كالشور تسكل

(١) نبه : رماه بالنبل .

كم بالسهام لها سؤال قد بدا ولكم بقتل أصبحت تتحلل
ويصل الشاعر ما بين مواقف بيبرس والدين ، فيقول :

حيث الصفوف على الصفوف وماله عن موقف يرضى الخليفة معدل
والكفر قد بهتوا له إذ أبصروا حجبا عليه من الوقاية تسبل
وفي الأبيات الأربعة الآتية يعيد البكاء والتفجع ، ويبدى عذره في ذلك لما
كان له من مكانة عظيمة لدى بيبرس وهو بذلك يرمى إلى تذكير ابنه الملك
السعيد بهذه المكانة حتى يستبقيه فيها أو يرفعه إليها عنده . ويتهلل القادم
ويستبشر ، جامعا بين ملائمت التهنئة والتعزية .

ولعل الشاعر الكبير جمال الدين بن نباتة قد تأثر به في هذا الفن فتماء ، وأطال
فيه في قصيدته البليغة التي رثى بها الملك المؤيد صاحب حماة ، وهنا فيها ابنه الملك
الأفضل بالملك . وهي قصيدته المشهورة التي مطلعها :

هنا محاذك العزاء المقدما فما عبس المحزون حتى تبسما
وإليك أبيات ابن عبد الظاهر قال :

أنا إن بكيت فإن عذرى واضح ولئن صبرت فإنني أنمئل
خلف السعيد لنا الشهيد فأدمع منهلة في أوجه تهلل
للناس من هذا ربيع آخر ومن الشهيد لهم ربيع أول
هذا إلى الرضوان راح وذال من بيعة الرضوان جبل موصل (١)
ويستمر الشاعر في تحسره على الراحل وتذكير خلفه بنفسه .

وردد ابن عبد الظاهر هذه المعاني في غير هذه المراثية . ويعاود ذكرى حروبه
ودفعه التتار والفرنجة فيقول :

هذا الذي قال الملوك لرعبه قل يا رسول وما عليك ملام

هذا الذى هزم التتار فأصبحوا تغتالهم عند الكرى الأحلام
هذا الذى قهر الفرنج فسكهم تديهم من رعبه الأوهام
تعست جياذ بعده قد أصبحت يسكى لها الإسراج والإلجام (١)

ثم يثنى الشاعر جيده إلى الملك السعيد فيستبشر به ويتفأل بمقدمه ، ويرجو
أن تعود أيام السرور على يديه ، وتلوح شمس العز بفضله ، إلى آخر هذه المرثية .
وأنت ترى أن قصارى ما حدثنا به الشاعر فى هذا الميدان ، ميدان السياسة
والصلة بالملوك والحكام ، وما يدور حولهم من أمور الحرب والقتال والضرب
والنزال ، والمسكافة والمدافعة ، مدايح ومراث تشيد بذكرهم وتخلد اسمهم وتسجل
محامدهم ، وأهاج موجهة إلى أعدائهم الذين هم فى الحق أعداء البلاد وأعداء
المسلمين والعرب .

والواقع أن كفاح أعداء المسلمين والعرب ، والدفاع عن بلادهم ، كان محور
سياسة السلاطين والشعب فى ذلك الزمان ، وهى السياسة التى وضعها الجميع
نصب أعينهم .

وفى سبيل ذلك رحبوا بالمسلمين الوافدين إليهم ، على اختلاف أجناسهم .
ورحبوا بمن جاء إليهم مسلماً مستأمناً .

لقد وفد إلى مصر فى عام ٦٦١ هـ ، جماعة كبيرة العدد من التتار الوثنيين ،
قبل كانوا زهاء ألف نفس ، ومن بينهم طائفة من أعيانهم . فطلبوا الأمان
ورغبوا فى الإسلام .

فاحتفل بهم الظاهر بيبرس ، ورحب بهم وأنزلهم منزلاً رحباً ، ورتب لهم من
الرواتب ما يكفيهم .

وفي ذلك يقول القاضي محي الدين بن عبد الظاهر يخاطب بيبرس : -

يا مالك الدنيا الذي أضحي صلاحاً للأمم
يا من محاً بالعدل ما للظلم فينا من ظلم
يا من تساق له التتار غنيمة مثل الغنم
خافوا سيوفك إنما ستسوقهم نحو النقم
فأتوا لبابك كلهم يأوون منه إلى حرم
أمنوا به مما يخاف من من البلايا والسقم
جعلوا جنابك جنة ورأوا خيولك مستلم
بسطوا يميناً للهداية طالما خضبت بدم
أعطيتهم ما المولاة نفة القلوب من السقم
لازلت يا ملك الملو ك لك الزمان من الخدم^(١)

مع المنصور قلاوون :

وعلى هذا الغرار مضى ابن الظاهر في سياسياته وملوكياته، يمدح ويرثي ويسجل وقائع الحروب وأخبار الفتوح ويمس أمور السياسة مساهمة رفيقا، لا يعمق ولا يطيل فيه .

واقده اتصل جبل ابن عبد الظاهر بالملك السعيد والملك العادل ابني بيبرس .
واكن عهدهما لم يدم إلا ريثما استطاع الملك المنصور قلاوون أن يشب إلى العرش ،
فاحتازه قسرا وحيلة ، وتمت له السلطنة وتربع على أريكته عام ٦٧٨ هـ . ومن ثم
اتصل جبل ابن عبد الظاهر به وصار من رجاله وكتابه ومنشئيه بل شاعريه .
واعتقادنا أنه تتبع فترحات المنصور وغزواته وحروبه ، وأخذ كعادته ،
يسجلها ويصف أطوارها وقائعها ، ويمدح ويهجو وفقا لتهجه الذي رأيناه ، ويمس

السياسة بالمقدار الذى عرفناه ، ولو لم يبق من شعره هذا إلا القليل .
وقد كان المنصور قلاوون نمطا من ببيرس ، وثانيا له فى تأسيس دولة المماليك ،
بشجاعة فى الرأى والحيلة والسياسة ، وبقوة فى القتل والفتك ، وبتصميم وحرص
على الاحتفاظ بأمالك مصر خارج حدودها ، وبما تضمنه من أرض العرب
والمسلمين إلى سلطنتها الواسعة ، وبعنينة ماضية وإرادة حازمة فى رد أعدائها عنها
وأعداء الدين من تتر وفرنجة .

لهذا ما عثم أن غزا بلاد الشام . وكان بها الأمير « سنقر الأشقر » الذى أعلن
بنفسه سلطانا عليها ، فما زال به حتى استسلم له ، وعادت بلاد الشام إلى السلطنة
المصرية خالصة . وأعد العدة للقاء التتار الذين أخذوا يجمعون على بلاد الشام ،
غزبوا مدينة حلب . فوثب عليهم قلاوون وشتت شملهم . وما زال بهم حتى
ارتدوا عن بلاد الشام مدحورين . وحاصر مدينة طرابلس أربعة وثلاثين يوما .
وكانت فى يد الفرنجة ، فأنزعها منهم وأوقع بهم وخربها . ثم بنى على مقربة منها
مدينة طرابلس الحالية .

الاستيلاء على حمص :

وفى عام ٦٨٠ هـ وقعت موقعة رهيبة بين جيش مصر بقيادة قلاوون ، وجيوش
التتار أمام مدينة حمص ، استولى إثرها جيش مصر على المدينة بعد هزيمة
ساحقة للتتار .

وقد عجل الشعراء ، فسجلوا الواقعة وأشادوا ببطولاتها ، وحملوا بأقلامهم
وبيانهم على التتار حملة صادقة . وكان فى مقدمة الشعراء محبى الدين بن عبد الظاهر .
فقال عن قلاوون ، والملائكة التى تنجده ، مشبها له بخالد بن الوليد :

له فى حمص مقام قامه والنار من بين الأسنة توهج
والناس قد فروا فلا مترث والخلق قد هربوا فليس معرج
وهناك من نجد الملائك عصبة جاءت للنصر المبين تروج

وهناك خالد قد أجار نزيله ونزبل خالد ليس ممن يزعج
فتنى العنان وما انتنى حتى بدا للدين من أمر الأعاذى خرج
ملك به ود العدى لو أنهم مما سبي أولادهم لم ينتجوا
ويعدحه مدحا محمسا فيقول :

والصبح لولا أنه من شبهه ما فات ركض البرق منه مهملج
والليل لولا أنه من وهمه ما كان بالشهب الثواب يسرج
والنصر لولا أنه من سيفه ما كان كرب في الوجود يفرج (١)

وقد أجاد وصف المعركة ووضح كثيرا من أطرافها ، الشاعر اللبق فتح الدين
ابن محي الدين بن عبد الظاهر ، كاتب السر في عهد المنصور قلاوون . قال من مطلع
قصيدة مخاطبا قلاوون :

الله أعطاك لا زيد ولا عمرو هذا العطاء وهذا الفتح والنصر
هذا المقام الذى لو لم تحل به لم يبق والله لا شام ولا مصر

ويتساءل تساؤل المؤكد الماسح ، الذى يقرر حقيقة ، وإن بدت مدحا
وثناء :

منذ الذى كان يلقي ذا العدو كذا أو يذرع لامة مالاها الصبر (٢)
يأبها الملك المنصور قد كسرت جنودك المغل كسرا ماله جبر
ويذكر المغل وتجمعهم وتآلفهم مع الفرنجة الصليبيين ضد مصر ، وعدد
جيوشهم ، والتقاء الجيشين وزمانه ، واستمرار القتال :
لما بنى جيش أبغا فى نجاسره وان يمد له إلا القناجر
استجمع المغل والتكفور واتفقوا مع الفرنج ومن أرذى به الكفر

(١) زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٨٢ . — وأوهج النار : أوقدها — والمهلج : المدلل النقاد .

(٢) لمن الشاعر فى البيت نجزم المضارع المرفوع .

(م ٣ - عصر المماليك)

جاءت ثمانون ألفاً من بعوئهم لارض حمص فكان البعث والنشر
 وافى الخيسان في يوم الخميس ضحى وامتدت الحرب حتى أذن العصر
 والسيف يركع والأعلام رافعة والروس تسجد لاجب ولا كبير
 والخيـل لا تغتدى إلا على جثث والسهل من أرؤس القتلى به وعرو.. الخ
 حتى يصل الشاعر إلى خاتمة هذه المعركة ، فيقول عن الأعداء :
 فكان أسلمهم من أسلموه لأن يقوده القيد أو يسرى به الأسر.. الخ (١)

ونظم الشاعر المجيد ناصر الدين بن النقيب قصيدة بارعة في وصف المعركة ،
 تقع في نحو سبعين بيتاً . وهي مهللة مكبرة لما أصاب المسلمون من نصر ، وأصاب
 الكفر من اندحار . يقول في أولها :

هي النعمة العظمى هي النصر الكبرى هي اللفظ والمعنى هي البشر والبشرى
 هي المطلب الأسنى هي المنحة التي لقد شرفت قدرا وقد عظمت ذكرا
 هي الوقعة الصماء والخطمة التي بها انكسر الكفر الذي لم يجد جبرا
 هي الفتك بالأعداء والظفر الذي شفى القلب من أبغوا قدأثلج الصدرا.. الخ
 ويشكر الشاعر الله جلّت قدرته على ما ذهب من نصر ، ويمدح قلاوون ،
 ويبين مكانته وبطوانته فيقول :

فله منا الحمد والشكر دائماً فقد أصل الإسلام واستأصل الكفرا
 فقل لروس المغل إن قلاونا هو السيف ضرابا لأعناقكم قهرا
 هو الملك المنصور والله خاذل أعاديه خذلانا وناصره نصرا... الخ
 ويستعيد الشاعر بهذه المناسبة ذكريات الانتصارات السابقة على أعداء مصر
 والإسلام فيقول :

أنسيتم في عين جالوت ماجرى وفي العين قد أجرى دماءكم نهرا
 أما كان في عوم الفرات إليكم مقدمة الجيش الذي عبر البحر

وفي البيت السابق يشير إلى جيش مصر أيام الظاهر بيبرس ، حينما عبر
الفرات فقد كان يتقدمه الأمير قلاوون - حينذاك - وكان أول من ألقى بنفسه
في الماء على ظهر جواده ، فاندفع الجنود من خلفه . . .

واستمر الشاعر في حماسياته وذكرياته ووصفياته . ثم أخذ يربط بين بيبرس
وقلاوون . ومن أبيات الشاعر تترامى لنا وحدة الهدف بينهما ، بل وبين سلاطين
هذه الحقبة ، بل وبينهم وبين الشعب . يقول :

ومن مبلغ بيبرس أن قلاوونا حمى الشام من أعدائها وحمى مصر
سقى الله عهد الحى والميت منهما سحاب تكسو الأرض أردية خضرا
وحيا محيا طالع بعد غارب خلاهم عن كل القلوب وقد سرا
وترى أن الشاعر قد ربط بين الشام ومصر ، فهما حينذاك يؤلفان وحدة
قوية ، وبأبى الشاعر إلا أن يفيض في شعره بما يتركز في نفسه ودمايته من ضرورة
اكتئال الوحدة العربية ، وافتكالك البلاد العربية كافة من يد أعداء العرب فيضيف
بغداد إلى الشام ومصر ، ويفصح عن رجائها في أن يفتكها قلاوون من يد التتار .
فيقول :

وبغداد ترجو أن يسير لنحوها ويفتكها منهم بأسيافه قسرا . الخ
ويذكر في الخاتمة مكة والمدينة ، ويبعث لهما بالتهنئة لهذا النصر ، وبذلك
تكتمل له وحدة شاملة واسعة ، بل وحدة كانت مكتملة . يقول :

فمن بهذا الفتح سكان مكة وهن به البيت المعظم والحجرا
وهن به من حل في أرض طيبة وسكانها بطنا وسكانها ظهرا .^(١)

ومن شارك في وصف المعركة الشاعر بدر الدين محمد بن عمر البزاز المنبجى .
وقد دار بمعانيه هذا المدار الذى شهدته من زملائه ، بحيث يقول في أول
قصيدته :

(١) زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٨٣ .

نشرت بنصرك للعلى أعلام يامن تفاءل باسمه الإسلام^(١)
وسيلع هذا الشاعر وشعره في مناسبات قادمة . ويبدو أنه أحسن اتصاله
بآل قلاوون ، فصار أحد شعرائهم ومسجلى مفاخرهم .

وعا كان في يد الفرنجة « حصن المرقب » . قيل إنه لما عمره المسلمون بساحل
جبله بالشام ، وتكامل بناؤه في سنة ٥٤٤ هـ . ثم ما زال حتى اضطربت فيه الأمور
في نحو عام ٥١١ هـ ، فاستولى عليه الصليبيون بقيادة روجار صاحب انطاكية ،
فأخرج منه أهله ، وأسكن فيه الفرنجة والأرمن .

وكان حصنا منيعا حصينا كبيرا ، بنى فيه برج عظيم لا يرام لعلوه وصلاية
بناؤه . ولما استولى عليه الصليبيون ظل ذلك شجا في حلق المسلمين ومصدرا
لألمهم وحزنهم ، كما كان الحصن ومن فيه من الأفاكين مصدر خوف وقلق للمسلمين ،
وبخاصة الذين يعيشون من حوله وعلى مقربة منه .

ولم يفتحه الملك صلاح الدين الأيوبي فيما فتح من بلاد الشام . وحاول الملك
الظاهر بيبرس استرداده ، فما استطاع ، بالرغم من أنه بذل الحيلة والقوة في
سبيل ذلك .

ثم استعد لفتحه الملك المنصور قلاوون ، فظل وهو بدمشق يعد العدة لذلك
ويجمع الجند . ويكثر من جلب السلاح ويحشد الرأي والحيلة ويعبئ القوى دون
أن يعلم إنسان فيم استعداده ، ثم حاصره ثمانية وثلاثين يوما في أوائل عام ٦٨٤ هـ^(٢)
وما زال به وبأهله حتى استسلموا له وسلموا له الحصن والبرج ، وطردهم منه
إلى طرابلس . وكان ذلك النصر بشرى للمسلمين كافة وفتحا مبينا كتبت به البشائر
إلى جميع الأقطار^(٣) .

(١) زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٨٨ . وبه أبيات الشاعر ،

(٢) راجع سلوك المقرئ ج ١ ص ٧٢٧ .

(٣) تشریف الأيام والعصور ص ٥٧٧ .

الشعر يسجل فتح حصن المرقب :

لقد شارك محي الدين بن عبد الظاهر ، فسجل هذا الحادث العظيم في شعره وفي أكثر من قصيدة ، وعلى النهج الذي رأيناه منه فيما مر في شعره عن بيبرس . وهذه بائنة عذبة رائقة مهللة ، مستبشرة تنبئ عن تجربة نفسية صادقة . بدأها توا بالإشادة بفتوح المنصور والدعوة إلى نشر أخبارها في سائر الأمصار ، وتوقع منه فتوحات أخرى جديدة ، وسماه أبا الفتح . يقول :

كم لك فتح غير هذا خبي	فاستوع فتح الأرض واستوعب
وابشر وبشر وإلى سائر الأ	مصار فاكتب عنك واستكتب
وخلق المكتب كسوارها	بأصفر من رنكك الذهب
لا تحسب النصره هذى وخذ	ماشئته من بعدها واحسب
أنت أبو الفتح وكم بعدها	يقول فتح إن هذا أبي

ثم أخذ يناديه نداء المعجب المتعجب المادح الذي لا يرى أن القول يسعفه دون أن يرفع الصوت ويدوى به ، كأنما ينشر هذه المحامد في الآفاق وفي أسماع الناس ، فيقول له ويذكر المرقب :

يا ملك الأرض الذى عزمه	قد سهل المرقى إلى المرقب
يا من له الرعب الذى قد غدا	يملاً من شرق إلى مغرب
يا وارث الأرض الذى مذ بدا	مطلبه بالحق لم يحجب
يا من له الجيش الذى ما لمن	يطلبه فى الأرض من مهرب
يا هازم التانار يا من له	قالوا وهم يبيكون للندب

فأذا قال التانار للندب وهم يبيكون ويستبكون ؟ قالوا إن « هلاون » وهو « هولاكو » ، زعيم التتار الفاجر الذى أسقط بغداد من قبل ، وكان هو وجيشه قوة لا تغلب ، قالوا إن هلاون هذا سباه المنصور وخوفه أكثر من مرة ، فى شخص زعماء التتار الذين جاءوا من بعده ، ومنهم آبغا ومنكو وغيرهما . . . ومن مات

منهم إنما مات من الخوف ، ومن عاش منهم إنما اختبأ من الرعب ، يقول :
 قلاون المنصور كم مرة هلاون المفهور منه سبي
 في مثل آبغا ومنكو وفي أحمد في أرغون في حشكب (١)
 من مات منهم مات من خوفه ومن بقى من رعبه محتبي
 ثم يعود ابن عبد الظاهر إلى نداء المنصور باعتباره فاتح هذا الحصن الحصين
 الذي كان فتحه أمل المسلمين ، وذلك النداء تمهيد لطيف لوصف الحصن فيقول
 في تشبيهات طليمة :

بافاتح الحصن الذي فتحه يأتي به شكرك من يثرب
 حصن عظيم القدر في سيرة لمن مضى قبلك لم يكتب
 إذا بدا بالغيم من حوله تقول : نجم لاح في غيب
 وإن تلاح للعين أبراجه يقال : هذا موكب الكوكب
 ثم أخذ يذكر الحرب ويصف بعض ما كان لها من استعداد ، وما أعقبته
 من نصر ، وما تخللها من ظاهرات ، قال :

أنشبت حربا فيه كم رامها قبلك سلطان فلم تنشب
 مذ رحل منه تمتطى صهوة لم يبق حصن ثم لم يجنب
 أخذت حق الدين من بعد ما مضت سنون وهو لم يطلب
 وذات خطوك لها وثبة عظيمة المسرى إلى المسرب
 قد سقتها غابا وآسادها تحملها في ضيق المذهب
 كم نصب الأعداء من هول ما رأوه منها وهي لم تنصب
 وكم لها قالوا وقد ركبت أي حصين بك لم يخرب
 كأنما الأعناق أمست لها منابت الأملد والأرطب
 وكم نقوب فيه صيرتها مهالك تأتيك بالمطلب

(١) أحمد هو تكدار أحد ملوك التتار (تشریف ص)

أيكارها ما افتضها معول إلا اثنت كالحامل المقرب
ثم أخذ يهنئه ويبشره ويتفائل له ويدعو ، فيقول :

فأهنا بفخر منه قد حزته أخباره من طيها تطي
وليس حصن بعدها مانع في الأبعد النأي وفي الأقرب
واعلم بأن السعد قد قال ذا وقال نصر الله بالموجب ^(١)

واهتدم ابن عبد الظاهر - على حد قوله - جملة من مقصورة ابن دريد ^(٢) ،
وهي الرجزية التي مدح بها ابن دريد الشاه ابن ميكال وولديه ومطلعها :

أما تهي رأسي حاكي لونه طرة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيض في مسـوده مثل اشتعال النار في جزل الغضى
فحول ابن عبد الظاهر هذه الجملة التي اهتدمها - سرقتها أو ضمنها - في
قصيدة له رجزية ، إلى مدح الملك المنصور وذكر مناقبه وفتح هذا الحصن وهو
« حصن المرقب » ،

والاهتدام في رأينا - في هذا المقام - لون من الصناعة يدل على أن الشاعر
ذو موهبة فنية مجددة مبتكرة . فليس من اليسير تحويل جملة من الأشطر في
قصيدة واحدة من طريقها إلى طريق جديد ، إن ذلك يتطلب حكمة وخبرة
وكياسة في الملاءمة بين الأشطر ومناسبتها الجديدة .

وهكذا أبى ابن عبد الظاهر إلا أن يبتدع في سياسياته أو ملوكياته - على
حد تعبيرنا - التي ترجحت بين ذكر أحداث السياسة ووقائع الحروب وما تستتبعه
من مدح أو هجاء أو حماسة دينية . أو تسوق إليه من زهو ونثر ، أو ما تقتضيه

(١) تشریف الأيام والعصور ص ٨٢ - وجنبه بجنبه : دفعه وكسر جنبه وأبعده - وأقرب
الحامل : قرب ولادها فهي مقرب - وطباء طبوا : دعاه كاطباء - والقول بالموجب : نوع من البديع ،
ويقال له أيضا : أسلوب الحكيم - وله تعاريف عدة ، ومنها مخاطبة المتكلم بكلام عكس كلامه ، مع
بنائه على أحد ألفاظه - والأدهم : القيد والفرس ،

(٢) أبو بكر بن دريد توفي عام ٣٢١ هـ .

من تهنته واستبشار . وكل هذه المعاني الكلية - أو الأغراض إذا شئت -
تنظمها عاطفة واحدة ، وتسوقها تجربة نفسية واحدة . مما يدل دلالة أكيدة
على صدق الشاعر ، وأنه يصدر في شعره هذا عن إيمان بما يقول ، وعن امتزاج
نفسى تام بالموضوع الذى ينظم نواحيه ويصور أطرافه .

وفى رجزيته تلك يبدأ بنداياته المنصور - أو صرخاته إذا شئت -
صرخات الذى يريد أن يسمع الزمان ويملا من الدنيا الآذان ، على نمط مما رأيت
فيقول له :

ياشاهرا سيف انتصار قد حكى	طرة صبح تحت أذيال الدجى
ومشعلا نيرانه فى كفرهم	مثل اشتعال النار فى جزل الغضى
وأض يبسا روضهم بجيشه	من بعد ما قد كان مجاج الأثرى
وقاذفا ملوكهم فى هوة	لاستقبل نفس من فيها هوى
ومن جرى أبغاله إلى مدى	فاعتاقه حمامه دون المدى
واستنزل الأعداء فسرا وهى من	عقاب لوج الجو أعلى مستمنى
ومن له الخيل التى قد أصبحت	ناشرة أكبادها قب الكلى
يحملن كل شمرى باسل	شهم الجنان خائض بحر الوغى
لو مثل الختف له قرنا لما	صدته عنه هيبته ولا انثنى
ولو حى المقدار عنه مهجة	لرامها أو يستبيح ما حى
والناس ألف منهم كواحد	وواحد كالألف إن أمر عنى

وأخذ يخوض فى مدحه ويذكر انتصاراته على أعدائه ويسجل بعض فتوحاته ،
ومنها فتح حصن المرقب قال :

قلاون الملك الذى سما به قوم هم للناس غيث وجدى
هذا الذى مازال يسمو للعلا بفعله حتى علا على العلا

لو كان يرقى أحد بجوده ومجده إلى السماء لارتقى
 كم للتتار كسرة بسيفه فيها العمى أولى بهم من الهدى
 قد أصبحت سيرته جميعها فيها حديث حسن لمن وعى
 كم قال يوماً للعدى حسامه أنا لذى الداء الدفين كالدوا
 كم قلعة من مثل صهيون ومن برزته فض لها صلد الصفا؟
 ومرب مخلولق أرجاؤه مستصعب الآفاق وعر المرتقى
 أوفاه والشمس تلمع ريقها والظل من تحت الخذاء كالحذا
 وكم له من بعدها من نصرة يعرق أعداء بها عرق المدى
 لازالت الأقدار تحمي ملكه من حيث لا يدري ومن حيث درى
 تغدو المنايا طائعات أمره ترضى الذى يرضى وتأبى ما أبى^(١)

وفاة قلاوون :

ونواصل الحديث عن ابن عبد الظاهر ونتأججه الشعرى بوحى من البيئته
 السياسية ، بمرثية حسنة ، رثى بها هذا الملك المنصور ، تقع فى نحو ٥٣ بيتاً من
 الشعر الجيد .

إن نغمة الحزن العميق واللمفة الأصلية ، تبدو فى هذه القصيدة ، وتترامى
 فى كل بيت من أبياتها على وجه التقريب ، لا تكاد ترى بيتاً من بينها لا ينبض
 بهذه النغمة أو يفيض بهذه اللمفة .

ولقد أجمل ابن عبد الظاهر أعمال هذا الملك وتحدث عنها ، ونفسه تشغلها هذه
 النغمة واللمفة . ولعل هذا الصدق فى الإحساس ، هو الذى شغله أيضاً عن أن
 يكون شاعراً حكيماً وهو فى مقام الرثاء . شاعراً حكيماً يستخلص العبرة من سياق
 الحوادث ، ويرسل العبارة عنها عامة شاملة .

(١) تشرىف الأيام والنصور ص ٨٣ .

لقد بدأ قصيدته ، وتحسبه في بدئه حكيمًا ، فقد تحدث عن الموت والمقدور ، وأنه لا تنجى منه حماية ولا حذر ، ولا تنفع معه شفاعة ولا فدية . وهذه المعاني عامة يرددها الناس والشعراء ، ولم يرسلها ابن عبد الظاهر عامة شاملة . فقد ضيق نطاقها بذكر المنصور قلاوون وهو جد معذور إذ أن نفسه مشغولة بجاذب مرض هذا الملك ووفاته ، أكثر مما هي مشغولة بتصيد الحكمة أو تلمس المثل . وماذا حول الملك من أمور ووسائل وما هي ملابسات حياته ؟ إنها المعازل والحصون والمدائن والثغور والخيول والجيوش والأموال والذخائر والأسلحة والحديد والمنشآت وغير ذلك ، مما سيطر عليه الملك وقدر ، ونهى فيه وأمر .

لقد جمعها ابن عبد الظاهر وتابع ذكرها في مفتتح قصيدته ، اكل منها بيت أو أكثر أو أقل . وبين أنها لا قيمة لها إزاء المقدور وقت نزوله ، ولو كان إنسان يفدى من القدر لكانت هذه كلها فدية للمنصور . لقد بدأ ابن عبد الظاهر قصيدته بهذا البيت الذى يحتوى على ما يشبه المعنى العام فبدأ أشبه بالحكمة فيقول :

لو تهاوى ذا قدرة مقدور كان يحمى قلاوون المنصور

ثم تابع ذكر ما كان يسيطر عليه هذا الملك ، وبين أنه لم يستطع حمايته من الموت . قال بعد بيته الأول :

وحمته معازل وحصون	وحمته مدائن وثغور
وحماه من خيله كل طرف	كل طرف إذا رآه حسير
وحماه من جيشه كل شهم	كل سهم عن مرتماه قصير
كل ألف للحرب يقدم ألفاً	حبذا الجار منه والمجور
وفداه من ماله كل مالو	كان ماء لقيلى هذى البحور
وفدته مراكم كن لولا	ه تولى خرابهن الكفور

وأنت تراه - على وجه التقريب - لا يذكر شيئاً من المعازل والحصون وغيرها ألا شفعه غالباً بوصف يشعر بقوة أو ميزة . فكل طرف من خيله يرتد

عنه البصر حسيراً ، وكل شهم في جيشه لا يبلغ السهم مرتماه وهكذا . وكأن الشاعر يريد بذلك وصف هذه الأدوات والوسائل والملابس التي عاش بها الملك أو أنشأها وصنعها . وهو مدح ضمنى للملك نفسه . يقول الشاعر من قصيدته على هذا الغرار :

وله من كتائب الكتائب جيش منه تسطو على الصفوف السطور
ما حماه هذا ولا ذا ولا ذا كوجامت بعد الأمور أمور
بعد أن أرسل العنان وقالت عكة إني إلى المصير

وكان المنصور قد بلغه عبث الفرنجة بعكا ومسلميها ، فأهمه الأمر وأثاره الخبر ، وجمع لهم كيدته ليأتيهم ، وحشد جيشه وسلاحه ليؤدبهم ويفتحها . وعول على المسير في شوال عام ٦٨٩ هـ . فأدركه المرض وأقعده عن المسير ، وكان مرضه هذا مرض الموت الذي وافاه في ذى العقدة .

وإلى هذا يشير ابن عبد الظاهر ببيتته الذي ذكر فيه عكة . والذي يقول بعده يصف استعداد المنصور للمسير إليها :

وتهادت إلى البلاد جنود كل سهل على سواها عسير
والمجانيق في الجبال تهادى كغياض على الرقاب تسير
قد بكأها الحمام حزناً على قطع غصون له بهن وكور
والطريف أن الشاعر في وصفه وفي تسجيله لأنواع معدات المنصور ، من حديد وسيوف وقنا وخيول وغير ذلك ، يلبسها ثوب الحزن والتفجع لوفاته . فالحديد ذاب قلبه ، والسيوف نائرة ، والخيام كالقبور ، وصهيل الخيول نواح ، إلى غير ذلك . والشاعر في هذا يعكس شعوره هو ويخلع أحاسيسه على غيره . وفي سبيل ذلك يعقل ما لا يعقل أو يشخص ، فيبعث الحياة أو الحركة أو الإرادة في الجماد أو الحيوان . . . يقول :

والحديد استغاث بما شجاه من تلظ وقال مالى عذير

ذاب قلبي ولم أخل قط أنى بعد دلود ذا المصير أصبر
والمنايا تقول للحزم والعز م رويدا لا بد أنى أزور
فأتت والسيوف لم يسبق إلا أنها من غمودها ستشور
والقنا أرسلت لها عذبات خاف من عظم فالهن الحذور
والخيام اغتدت من الحزن والشكل تراها كأنهن قبور
وصهيل الخيول يحكي نواحا والبواكى فى كل دار تدور
قائلات خابت لغزو ظنون فالعدى للنذير منها نذور
أودعتها عزيمة صار منها للنهادى إلى الأعداى فتور
وظهور تنوء منه ظهور وصدور تغتم منه صدور
ثم طفق الشاعر يصف أحاسيس الناس إزاء هذا الحادث الجلل ، ويرسم
مشاعرهم ويصورها فقال :

كم قلوب لما تمرض قالت إن هذى الآمال فيها فطور
أم ترى الأرض قد بها خسف الله تعالى بالخلق فهى تمور
ونمى كل امرئ لو يوافيه م نصيب من سقمه موفور
قد تجافاه عائدوه وقالوا آذيا مالننا إليه عبور
كيف لا وهو فى جنان خيام وخيام الجنان فيها الحور
واغتدوا خيفة عليه ومنه لا أمير يرنو ولا مأمور
لم يزل سقمه يزيد وشكوا ه تنادى أن الحياة غرور
فأتاه ما يذهل العقل واللب لديه ومنه يعمى البصير
وباحتضار له ملائكة الرحمة والعفو والقبول حضور

ثم عاد الشاعر إلى تفجعه . وصب ذلك فى شكل أسئلة تعجبية ، فيها التحسر
والحزن وفيها العبرة والعظة . وصب هذه الأسئلة عن المتوفى نفسه ، الذى كان
له الملك وكان منه العدل والبر ، وكان منه القوة والشجاعة ، وكان منه هزيمة التتار
والفرنجية فى حمص والمرقب وطرابلس وغيرها .

وهكذا انساب الشاعر ، وهو في ثوب حزنه ، يعدد محامد سلطانه من جديد ،
فيقول على لسان المنايا :

والمنايا تقول أين كان مجيرا إذا الزمان يحور
أين من كان ملكه بملأ الارض فكم منبر له وسرير
أين من كان عدله يكشف الظلم م ومنه داجى الظلام ينير
أين من شرد التتار بحمص فإلى اليوم جيشهم مكسور
وله المرقب استكان ولولا ه تغالت لابل تغالت صخور
والذى ذل فى طرابلس المكفر بعزله ونعم النصير

ووقف الشاعر وقفة محمودة عند ما بلغ إلى طرابلس ، التى عاشت فى أيدي
الفرنجة زمنا^(١) رعافى المسلمون من وراء ذلك عنقا وألما شديدا . لقد أبى
براع الشاعر إلا التصوير والرسم ، وألا الوقوف بجوار طرابلس بخياله البارع
فاستخضر ماضيها وحاضرها ، وصورها مزودين بوقائع التاريخ والحرب ،
فقال :

بعد أن خيمت بحار لديها وعليها جب لها مزور
وتسامت على ملوك سواه وهى من دونهم إليه تشير
حكمته يد السعادة فيها فأتاها من البلاء ثبور... الخ^(٢)
ثم عاد إلى المديح الممزوج بالتفجع ، وهو فى طريق الختام . . .

فى عصر الأشرف خليل :

ولى السلطنة الأشرف خليل بن قلاوون عام ٦٨٩ هـ بعد موت أبيه المنصور.

(١) أفتتح الملك المنصور قلاوون مدينة طرابلس الصليبية عنوة بعد حصار دام ٣٤ يوما ، وبعد
رميها بالمجانيق . وكان بالساحل لنجدتها أربع سفائن حربية مجهزة أرسلها ملك قبرص حينذاك . وكان
سقوطها فى ٤ ربيع الآخر عام ٦٨٨ هـ راجع سلوك المقريرى ج ١ ص ٧٤٦ ، ٧٤٧ .
(٢) تشرىف الأيام والعصور ص ١٨٠ .

واستمر في السلطنة إلى عام ٦٩٣ هـ . وكان غاشما مستتبدا . اشتط في القبض على الأمراء وغيرهم وسجنهم أو خنقهم . فأدى ذلك إلى خنقهم عليه ومقاومتهم له ، حتى قتلوه قتلة شنيعة .

ولكن قد تم في أيامه وعلى يده . أعمال جليلة وفتوحات عظيمة ، ومنها فتح « عكا » التي عجز عن فتحها من سبقه من السلاطين . وكان أبوه المنصور فلاوون قد أعد العدة لفتحها ، فعاقه الموت عن ذلك - كما أشرنا . وقد فتحها الأشرف بعد رميها بالمنجانيق وهدم سورها وقلعتها . وكذلك فتح بيروت وقلعة الروم وغيرها من البلاد والمواقع التي كانت في أيدي الصليبيين .

هدية سياسية .

وكان متملك دنفلة وبلاد النوبة ، قد آخر إرسال بعض المقررات عليه ، معتذرا بخراب حل ببلاده ، فلم يقبل الأشرف منه عذره وأنذره . فأرسل إلى الأشرف أخاه ويسمى « البرسى » ، ومعه فارس الدولة « جريس النوبى » . ومعهما « مطالعة » ، مضمونها طلب الرحمة واستمطار العفو وقبول العذر واستعطاف الخاطر الشريف . . . ومع الرسولين هدية قيمة وهى : « مائتا رقيق ، ومائتان من الجمال والاهجن . ومائتا أردب من التمر ومائة وعشرون قنطارا من الشب ، وألف وخمسمائة رطل من السنباذج ، وأربعة من الأسود والفهود . إلى غير ذلك . (١) .

وكان ذلك في صفر عام ٦٩٠ هـ . فقبل السلطان الهدية وأكرم الرسولين . وسجل الشاعر محي الدين بن عبد الظاهر هذه الزيارة بأبيات يشير فيها إلى إطاعة الأسود والأحمر للسلطان . وإلى سطوته على بلاد النوبة ، ونوه ببعض الهدايا التي أهديت إليه ، قال يخاطب السلطان :

(١) راجع « الألفاظ الخفية » ص ٣٩ وما بعدها ، والسنباذج بضم السين وسكون التون وفتح الدال جبر يجلو به الصقل السيوف .

أطاعك الأسود والأحمر	فالملك يزهر بك بل يزهر
والدهر في حكمك تصريفه	يطيع ما تنهى وما تأمر
قد خافت النوبة من نوبه	أخرى عليهم منك تستنفر
ما سودت أوجهم إذ هم	قد بيضوها بالذى سيروا
وكم هجين أصهب أرسلوا	كالسهم أو كالبرق إذ يخطر
وكل فهد كاسر جاسر	من عين أفعى أبدا ينظر
نقطه البدر بأنواره	دارهما من فوقه تنشر
لازلت يا خير ملوك الورى	بسيفك الإسلام يستنصر
وكل جنس طائعا يلتجى	لبابك المعمور بل يحشر (١)

لعب الشوانى: (٢)

واهتم الأشرف خليل ببناء «الشوانى» - وهى السفن الحربية - . وقد وصفها الشاعر المنشئ محي الدين بن عبد الظاهر فى مقالة طويلة وصفا أدبيا ممتعا . وقامت «الشوانى» المذكورة بالعباب استعراضية «مناورة» فى صفر عام ١٦٩١ هـ . وبدأت فى أبهى زينة وركبت فيها المجانيق وقلاع الأخشاب والبندود والأبراج ، واكتملت بها أدوات القتال وتجمع فوقها الجنود . وعرضت على أنظار الأشرف خليل - الذى وقف على جانب من البحر قرب اللوق . فقال الشاعر مسجلا الحادث مبينا أهمية هذا الاستعداد :

أيا ملكا أمسى له الله كاليا	وشرف أيا ما له ولياليا
ومن جمر الجيشين فى طلب العدى	بهر وبحر جحفلا وشوانيا
بجيش به ضاق الفضاء وآخر	له أصبح البحر المحيط سواقيا
ففى ذا على اسم الله تركب موكبا	وفى ذا على اسم الله تركب غازيا

(١) المرجع نفسه ، «الألطاف الحفية» .

(٢) الشوانى كلمة أطلقت على السفن الحربية .

وبين الشاعر أن هذا الاستعداد الضخم إنما هو في سبيل الله وفي سبيل دينه،
وفي مناهضة الكفار :

سددت ثغور الدين حتى كأنما بك الله قد شد الذي كان واهيا
وأقدمت حتى أصبح الكفر كلهم وكل امرئ منهم يقول: ورائيا
وأعلنت بالإيمان حتى نذيرهم يقول لهم إنا سمعنا مناديا
غزوتهم فالله يبقيك كافلا لنصر ويبقى الله عونك كافيا
بشهب ولا ترضى الرياح أعنة ودهم ولا ترضى الرواسي مراسيا

ويشير الشاعر إلى جزيرة قبرص التي اتخذ منها الفرنجة قاعدة بحرية
يتجمعون فيها ، ويبعثون منها عصابتهم ولصوصهم في سفن بحرية للإغارة
على شواطئ الشام ومصر آمنين دون أن تردهم سفن مصرية مقاتلة ترصد لهم
وترد عاديتهم . يشير الشاعر إلى ذلك ويتوعد قائلا ، وكأنه يصور معركة قادمة :

فقل لبني الإفرنج ما قبرص لكم بحصن وليس اليم أن أم واقيا
ستأتيكم هذه الشواني جواريا وكل غلام سوف يسبي جواريا
على كل طرف ساج ليس يرتضى بخوض ولو كان السمك مجاريا
إذا أتتلك هذى وتلك ترى لها بهر وجر عاديا ومعاديا ... الخ^(١)

فتيح عكا :

ومن طريف ما رواه المقرئ قوله إنه روى عن شرف الدين البوصيري
أنه رأى مناما قبل أن يخرج الأشرف خليل إلى عكا . وفيه أن قائلا ينشد
هذه الأبيات :

قد أخذ المسلمون عكا وأشبعوا الكافرين صكا
وساق سلطاننا إليهم خيلا تدك الجبال دكا
وأقسم الترك منذ سارت لا تتركوا للفرنج ملكا

فأخبر البوصيرى بذلك جماعة من أحابيه (١)
أفلا يعتبر هذا ضرباً من الإيحاء والتوجيه ، وتصويراً لآمال النفوس
وهو اجسماً ، وحفزاً إلى تحقيقها .

وقد كان خروج السلطان الأشرف خليل لفتح عكا في ربيع الأول عام
٦٩٠ هـ . فنصبت حولها المجانيق وعدتها اثنان وتسعون منجنيقاً . ووقع الحصار .
وأنت جموع الفرقة إليها أرسلوا من البحر . وألح الجيش المصرى على أسوارها
فدفعها . وما زال بها حتى انهارت وعلت فوقها رايات الإسلام . واقتحمها جنود
مصر بعد أن استعصت زمناً طويلاً على ملوكها ، وهرب الفرقة في البحر ،
وهلك منهم كثير ، وأسر منهم وغنم ما لا يحصى ، وأخذ منهم كثير من النساء
والصبيان . وكانت مدة حصارها أربعة وأربعين يوماً . . . (٢)

وعاد الأشرف خليل إلى القاهرة في ٢٠ شعبان عام ٦٩٠ هـ — وكان عبوره
إلى القاهرة من باب النصر . وقد زينت القاهرة زينة عظيمة . فعندما حاذى باب
المارستان نزل إلى القبة المنصورية ، وقد غصت بالفصاة والأعيان والقراء والمشايخ
والفقهاء . فتلقوه كلهم بالدعاء حتى جلس . فأخذ القراء في القراءة .

وقام نجم الدين محمد بن فتح الدين محمد بن عبد الله بن مهمل بن غياث بن
نصر ، المعروف بابن العنبرى الواعظ . وصعد منبراً نصب له ، فجلس عليه .
وافتح يشهد قصيدة تشتمل على ذكر الجهاد ، وما فيه من الأجر . فلم يسعد فيها
بخط . وذلك أنه افتتحها بقوله :

زر والديك وقف على قبريهما فكأ نى بك قد نقلت إليهما

فعندما سمع الأشرف هذا البيت تطير منه ونهض قائماً ، وهو يسب
الأمير بيدرا نائب السلطنة أشدة حنقه . وقال : ما وجد هذا شيئاً يقوله سوى
هذا البيت؟

(١) سلوك المقرئ ج ١ ص ٧٦٦ حوادث عام ٩٦٠ هـ .

(٢) السلوك ج ١ ص ٧٦٤ ، ٧٦٥ .

فأخذ يبدرا في تسكين حنقه والاعتذار له عن ابن العنبري ، بأنه قد انفرد في هذا الوقت بحسن الوعظ والانتظير له فيه ، إلا أنه لم يرزق سعادة في هذا الوقت ،

فلم يصغ السلطان إلى قوله وسار . فانفض المجلس على غير شيء ^(١)

وقد عجل الشعراء إلى تسجيل حادث هذا الفتح العظيم . ومنهم الشاعر الأديب ابن ضامن الضبيح . فقال يعزى دمي عكا ويتندر عليها :
أدنى الكتائب إن تسكن عبثت بكم أيدي الليالي أو تغير حال
فلطالما سجدت لـكـن فوارس شـم الأنوف ججاجح أبطال
فعزاء عن هذا المصاب فإنه يوم بيوم والحروب سجال
هذا بذاك ولا نغير دهرنا ولكل دهر دولة ورجال ^(٢)

وقد كان فتح عكا ضربة قاضية أصابت الصليبيين في الصميم ، فترنحوا تحتها وضعفوا ، وملأ الحزن قلوبهم بل وتوارثت أجيالهم — على ما يبدو — هذا الحزن ، حتى وقتنا هذا . يدل ذلك ما قاله السير ولیم مویر في كتابه : « تاريخ دولة المماليك » ، عن الأشرف خليل ، بمناسبة فتح عكا وما بعدها من قلاع الصليبيين ، قال : « ولا يعزب عن بالنا ، أن الضربة القاتلة التي قضت على جنود الصليب كانت بيد رجل وضع الخلق كثيراً ، وهو السلطان خليل » ^(٣) .
ولعل المؤرخ يشير بذلك إلى أن الأشرف كان يقتل الأمراء ويشرب الخمر في رمضان ويفسق ^(٤) . ولـكـننا نقول له : لا يفل الحديد إلا الحديد ، والوضاعة لا تقلل من أهمية النصر .

(١) خطط المقرئ ج ٤ ص ٢٢٠ تحت عنوان : القبة المنصورية .

(٢) سلوك المقرئ ج ٦٩٠ ص ١ ج ٧٦٧ .

(٣) دولة المماليك البحرية للسير ولیم مویر ترجمة محمود عابدين وسليم حسن .

(٤) راجع سلوك المقرئ ج ١ ص ٧٩٢ .

الشهاب محمود الحلبي يسجل فتح عكا :

ويبرز في هذه الآونة ، وفي هذا الميدان الشاعر القدير أبو الثناء شهاب الدين محمود الحلبي ، فيسجل هذا الفتح المبين في قصيدة بارعة جيدة جزلة في نحو ٦٣ بيتاً ، قيل عنها - في إبانها - « البائية المشهورة »^(١). وهو دليل على أنها سارت مع الركبان ، وتحدث بها كثير من بنى الإنسان. وكأى به يعارض بها بائية أبى تمام في فتح عمورية .

ويطالعنا البيت الأول منها بخلاصة واضحة محددة للقضايا المصرية المعاصرة حينذاك ، وتصوير المشاعر العامة الجارفة المشتركة ، ولمدى الامتزاج السياسى بين الشعب وحكامه الأتراك حينذاك ، ورضا الشعب عن أهداف هؤلاء الحكام التى هى أهدافه قبل أن تكون أهدافهم ، وغاياته قبل أن تصبح غاياتهم ، وما هم إلا طارئون عليه وهو باق ، ومارون به وهو خالد .

هذه الأهداف والغايات التى قوامها الدين الواحد وعروبة المشاعر والمصالح المشتركة ، والتى ترمى إلى حفظ بلاد العرب وحماية بلاد المسلمين ورعاية الدين ، ودرء أعدائهم عنهم فى شتى بقاع العروبة والإسلام .

والشاعر فى مطلع قصيدته هذه بارع الاستهلال قوى الدلالة على أغراض القصيدة ومراميها ، بل على أهداف الحرب والغاية منها . فهو يقول :

الحمد لله ذلت دولة الصلب وعز بالترك دين المصطفى العربى

ونزعة الإسلام تبدى فى قوله « الحمد لله » وقوله « دين المصطفى » . والمشاعر المشتركة تبدو فى قوله « عز بالترك دين المصطفى العربى » ، وهى موجهة إلى حماية بلاد المسلمين والعرب من « دولة الصلب » .

وفى البيت دلالة على أن حرباً قامت شنها الأتراك حكام البلاد دفاعاً عنها

(٣) فوات الوفيات ج ١ ص ١٩٦ فى سباق ترجمة الأشرف خليل .

وعن أهلها وعن دينها الذى هو دينهم . وأن هذه الحرب كانت ضد الصليبيين ،
وأن نتائجها كانت الظفر والانتصار . هذا كله يستأهل إعلان الحمد لله وشكره
على ما أولاه .

وترى الشاعر فى البيتين التالين المطلع يفصح عن هذا الإجمال فيه ويفصل
بعض التفصيل ، فيذكر أن الآمال كانت متعلقة بهذا الفتح وكانت النفوس تتمناه
وتشرب إليه ، ولا يمكنها لم تكن تتوقعه وتترقب حدوثه على هذا النحو الباهر ،
ولم يكن يقع فى حدس أحد ولا ظنه ، ولو أن الآمال طلبت أن ترى ذلك محققا
فى المنام ، لاستحيت من الطلب لبعده وصعوبة تنفيذه .

هذا الفتح هو فتح عكا . يذكر الشاعر هذا فى بيته الثالث . يعلنه فيحدد
موضعه ثم يجعل تفاصيل الموقعة مع نتائجها فى البيت نفسه .

يقول الشاعر :

هذا الذى كانت الآمال لو طلبت رؤياه فى النوم لاستحيت من الطلب
ما بعد عكا وقد هدت قواعدها فى البحر للشرك عند البر من أرب
ويجمع الشاعر بعد ذلك بين ماضى عكا ، وحاضرها . بين ماضىها الذى كانت
تعانى فيه من الصليبيين ، ويعانى العرب والمسلمون فيه ما يعانون من اغتصابها
وبعدها عن الوطن العربى الكبير ، وبين حاضرها وقد أصبحت فى يد المسلمين
وأن هذا مؤذن بزوال الصليبية ومؤد إلى هربهم إنجاء لهم والكفرهم . فيقول
واصفا لها بأنها « عقيلة » ، ويقول ذلك دلالة على منعها وأصالها وعزتها :

عقيلة ذهبت أيدى الخطوب بها دهرها وشدت عليها كف مغتصب
لم يبق من بعدها للكفر مذخرت فى البحر والبحر ما ينجى سوى الحرب
وعاد إلى ذكرها أملا بعيدا لم يدر فى الفكر . أو الفكر فيه ضرب من ضروب
العجب :

كانت تخيلنا آمالنا فنرى أن التفكير فيها غاية العجب
والشاعر في البيت المذكور لا يؤخذ بالتكرار - أى تكرار المعنى - وإنما
ذلك فطرة في حديث النفس المتلهفة والعاطفة المتشوقة ، تردد المعنى المركز في
طواياها مرة بعد مرة ، لتعلنه ولتؤكد ، ولأنه - أولاً وقبل هذا - هو الذى
كان يشغلها ويشغل فراغها وتأملاتها ، فلا مناص لها من تكراره وترديد ذكره ،
كما تكرر في النفس وتردد ذكره في ضميرها .

وخاض الشاعر غمار المعركة وجاب أطرافها ، وصور جوانبها ورسم الكثير
من زواياها ، وألم بوقائعها . وها هو ذا يقترب من المدينة المحصنة والقلعة المنيعه ،
فيرى من حولها سورين داراً من حولها يحصنها ويمنعان ساحاتها . فسور من
البر ، وسور من البحر . وأقيمت صفاح هناك حولها أكم من الرماح وأبراج من
اليلب ترمى بصواعقها من النبل ، وكأن هذه الأبراج وهى ترمى من مجانيقها لها ،
غمائم تبعث الصواعق من النبل ، وترمى الأرض بالشهب :

أما الحروب فكم قد أنشأت فتنا	شباب الوليد بها هولا ولم تشب
سوران بر وبحر حول ساحتها	داراً وأدناها أنأى من العطب
مصفيح بصفاح حولها أكم	من الرماح وأبراج من اليلب
مثل الغمام تهدى من صواعقها	بالنبل أضعاف مانهدى من السحب
كأنمما كل برج حوله فلك	من المجانيق ترمى الأرض بالشهب

وبينما القلعة المنيعه فى استعدادها وتوثيقها ، وبينما هى فى مباداتها وتحفزها
إذ ترحف عليها جنود مصر - وهى جنود الله - يقودها ملك غضبان لله ولدين
الله لا غضبان للملك ولا جاه ولا مال ولا نشب ولا غنيمة ولا غيرها .
وتبدو فى هذه المعانى النزعة الإسلامية مرة أخرى ، ومعها حماسها وأنفعتها
قوية منقضة انقضا هذا الجيش المفاجىء الغاضب . يقول الشاعر :

فمفاجأتها: جنود الله يقدمها غضبان لله لا للملك والنشب

ومن حق هذا القائد - السلطان - ومن حق جيشه المظفر ، أن تسبغ
عليهما آيات الحمد والثناء قبل خوض المعركة المرتقبة ليستبين للناس وللتاريخ
أى قائد هو ، وأى جيش جيشه . فيذكر الشاعر أن هذه القلعة رامها قبله ملوك
وجيوش فعمجرت عن الوصول إليها وعن اقتحامها وحوزها فلم ترض همة هذا
الملك أن تقعد كما قعدوا ، وأن ترضى بالعمجز كما رضوا .

كم رامها ورماها قبله ملك جم الجيوش فلم يظفر ولم يجب
لم ترض همته إلا الذى قعدت للعمجز عنه ملوك العجم والعرب .. الخ
فلما زحف عليها بجيشه أصبحت واحة بين بحرين عظيمين . وجيشه
هذا من صفاته حب الحروب وخوضها . أما تركها فعار على جنوده ، وأما راحتهم
ففى القتال . وقد اغتربوا فى سبيل الحرب وفضلوا ميادين الردى . . . ومازالوا
بالمدينة الحصينة حتى تسنموا أبراجها وافترعوا حماها :

فأصبحت وهى فى بحرين مائلة ما بين مضطرم نارا ومضطرب
جيش من الترك ترك الحرب عندهم عار وراحتهم ضرب من الضرب
خاضوا إليها الردى والهجر فاشتبه الأمران واختلفا فى الحال والسبب
تسنموها فلم يترك تسنمهم فى ذلك الأفق برجا غير منقلب
أتوا حماها فلم تمنع وقد وثبوا عنها مجانيقهم شيئا ولم يشب

وعادير الحمية الدينية إلى الشاعر ووثبت نفسه ، فند هنيئة عن استكمال صور
المعركة ، ليفصل بين أبيات وصفه بدرات جديدة من أبيات شعره ، يفرغ فيها
طاقات هذه الحمية المعاردة . ويذكر فيها عباد عيسى ، الغاضبين و جيش النصر ،
الذى أطلعه الله ، وأن المصطفى الهادى البشير ، أشرف على ما قدم السلطان من
القرب ، وأنه قرعينا ، بهذا الفتح . وأن السكبة الغراء ، قد ابتهجت به .. الخ .
يقول ويردد ما كانت الآمال تتعلق به بشأن هذا اليوم حتى تم النصر فيه وسرت
الفرحة فى البر ، والخوف إلى البحر :

يا يوم عكا لقد أنسيت ما سبقت به الفتوح وما قد خط في السكتب
لم يبلغ النطق حد الشكر منك فما عسى يقوم به ذو الشعر والخطب
كانت تمنى بك الأيام مبعدة فالحمد لله فلنسا ذاك عن كشب
أغضبت عباد عيسى إذ أبدتهم وأطلع الله جيش النصر فابتدرت
وأشرف المصطفى الهادي البشير على ما أساف الأشرف السلطان من قرب
فقر عيناه بهذا الفتح وابتهجت بفتحه الكعبة الغراء في الحجب
وسار في الأرض سير الريح سمعته فالبر في طرب والبحر في حرب
ثم عاد الشاعر إلى المعركة فصور منها فاصلا آخر ، غاضت فيه البيض في بحر
الدماء وغاصت الزرق في زرق العيون ، وتوقدت الحرب واشتد لهاها حتى ذاب
من حرها الحديد ، ورهى من الهول أبطال كانوا كالأطواد ، وجرت الدماء بحرا إلى
البحر ، وتحكمت السيوف الماهرة في أعدائها فسطت عليهم قتلا ، مع العفة عن الغنيمة .
يقول الشاعر في تشبيهات لطيفة موضحة :

وخاضت البيض في بحر الدماء وما أبدت من البيض إلا ساق محتضب
وغاص زرق القنا في زرق أعينهم كأنها شطن تهوى إلى قلب
توقدت وهى غرقى في دماهم فزادها الطفح منها شدة اللهب
وذاب من حرها عنهم حديدهم فقيدتهم بها ذعرا يد الرهب
كم أبرزت بطلا كالطود قد بطلت حواسه فغدا كالمنزل الحرب
أجرت إلى البحر بحرا من دماهم فراح كالراح إذ غرقاه كالجب
تحكمت وسطت فيهم قواضينا قتلا وعفت لحاويها عن السلب
كأنه وسنان الريح يطلبه برج هوى ووراه كوكب الذهب
ثم عاودت الشاعر الحمية الإسلامية ، وأخذته نشوة النصر مرة أخرى ،
وملكه الزهو بملكه ومعجزته التي حاولها من قبله بطل الإسلام والعروبة
ناصر الدين صلاح الدين الأيوبي فلم تنهيا له .

وفي لباقة الأديب وكياسة المذهب اللبيب ، يقرن الشهاب الحلبي بين اقتدار
الأشرف خليل على فتح عكا ، وبين امتناعها على صلاح الدين . فيعتبر ظفر
الأشرف بها ثاراً لا متناعها على صلاح الدين . فيقول مخاطباً الأشرف يهنئته
ويعمدحه :

بشراك يا ملك الدنيا لقد شرفت بك الممالك واستعلت على الرتب
ما بعد عكا وقد لانت عريكتها لديك شيء تلاقيه على لغب
فانهض إلى الأرض فالدنيا بأجمعها مدت إليك نواصيها بلا نصب

حتى يقول عن عكا ، وقد امتنعت من قبله على صيد الملوك ، إنها هي التي
دعته إليها ، وهم الذين امتنعوا . . . وتلك لباقة أخرى وشاعرية كيسة ، وانظر
معي إلى التعبير بصيد الملوك في هذه المناسبة . أنه مدح الأشرف ضمنياً ،
واحتراس في جانب الملوك . . .

يقول :

كم قد دعت وهي في أسر العدى زمنا صيد الملوك فلم تسمع ولم نجب
أيتها يا صلاح الدين معتقدا بأن داعي صلاح الدين لم يجب
أسلت فيها كما سالت دماؤهم من قبل إحرازها بحرا من الذهب
أدركت ثار صلاح الدين إذ غضبت منه لسر طواه الله في اللقب

ومن التوفيق أن الأشرف خليلاً كان يلقب بصلاح الدين ، وإليه يشير
الشاعر فيما مر من الأبيات ، واستطاع أن يستوحى من هذا التوافق بين الأشرف
والناصر صلاح الدين ، بعض المعاني والمشاعر كما رأينا . ويروى البيت الأخير
في السكتب ، بدلا من « في اللقب » .

ويقال إن صلاح الدين الأيوبي كان قد وقف على كتاب ذكر فيه أن
السلطان صلاح الدين يفتح عكا ويخربها . فرجا أن يكون هو ، فلم يظفر (١) .

(١) عقد الجاث للبدري العيني المجلد (٦٨٩ / ٦٩٨ هـ) الورقة رقم ٢٦ . مصور شمسي بدار
الكتب المصرية .

وكان هذا فاصلا جديدا ، عاد الشاعر بعده إلى ذكر الحرب واشتباكاتهما ،
على نمط مما سبق بيباه . حتى قرن بفتح عكا بفتح مدينة صور ، فتمت به — على
حد تعبیر الشاعر — النعمة العظمى ، إذ لم يلجأ الجيش في فتحها إلى ضرب
حصار ولا معاناة تعب .
يقول الشاعر :

وتمت النعمة العظمى وقد كملت بفتح صور بلا حصر ولا نصب
وصارت النار في أرجائها وعلت فأطفاأت ما بصدر الدين من كرب
ويستمر الشاعر في وصفه حتى يقترب من نهاية قصيدته البديعة ، فيزجي
الآمل وثابا فسيح الأطراف بين يدي الأشرف خليل فاتح عكا . . . ويخاطبه
موجها ، ويأمل أن يفتح ما بعدهما من المدن والبلاد ، فإن من فتح هذين الحصنين لن
يستعصى عليه غيرهما ، بل الصين أصبحت أدنى إلى يديه من حلب . يقول له ويدعو :
من كان مبدأه عكا وصور معا فالصين أدنى إلى كفيه من حلب
علا بك الملك حتى إن قبته على البرايا غدت ممدودة الطنب
فلا برحت قرير العين مبهيجا بكل فتح مبين المنح مرقيب (١)

ومن أدلى بدلوه في الدلاء وشارك في وصف معركة عكا وتسجيل حواشيها
الشاعر شمس الدين بن الصائغ . وكان مما قاله يخاطب الملك الأشرف ويمدحه
ويقرن بين فتح عكا :

يا أشرف الدين باتن فإنه فتح سواك بمثله لم يحلم
شبهت معتصم الخلافة همة فالروم منك ديارها لم تعصم
قابلت بلق جيوشهم بسوابق غر عليها الريح لم تتقدم
كم رعتها بسواد ليل أليل وصدمتها ببياض يوم أيوم

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ١٩٦ ط بولاق في ترجمة الأشرف خليل بن قلاوون وفيه نص
القصيدة . وكذلك في البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ — انظر أيضا عقد الجمان
للبدري العيني المجلد (٦٨٩—٦٩٨هـ) ورقة رقم ٥ . صور شمسى بدار الكتب ونهاية الأرب النوبرى
المجلد ٢٩ .

وأعدتها المسلمين ولم تكن منهم ترى التطهير إلا بالدم . الخ (١)

ومنهم الشاعر بدر الدين محمد بن أحمد بن عمر المنبجى البزاز بالقاهرة الذى يقول فى مطلع قصيدته :

بلغت فى الملك أقصى غاية الأمل وفى شأوملوك الأعصر الأول
وحزت رق العلى بالجد مجتهدا وجزت غاياتها سبعا على مهل

ويشيد الشاعر بهذا الفتح المبين ويشير فى أكثر من بيت إلى ارتداد غير من الملوك الصيد عن فتحها وعجزهم عن بلوغ أمل المسلمين باستردادها ، فيقول :

وكم فتحت حصونا طالما رجعت لليأس عنها الملوك الصيد فى خجل
أنت الذى لم تدع للكفر من بلد يأوى إليه ولا للدين من أمل
أحرزت من عكة الغراء ما عجزت عنه الملوك بعزم غير منتل
عقيلة المدن أمست من حصانها وصونها من ليلالى الدهر فى عقل
لم قد دعنها ملوك الأرض راغبة وعطفها عنهم بالتيه فى شغل . الخ (١)

الشهاب الحلبي وقلعة الروم :

وفى عام ٦٩١ هـ فتح السلطان الأشرف خليل أيضا قلعة الروم بعد أن حاصرها خمسة وعشرين يوما - فانبرى للتهنئة الشاعر شهاب الدين الحلبي كذلك ، وسجل للملكه وبلاده هذا النصر المبين والفتح العظيم ، فى قصيدة رائية جزلة .

ويبدو فى هذه القصيدة استراحة الشاعر وطمأنينة نفسه ورضا خاطره عن

(١) عقد الجمان للبدر العيني المجلد (٦٨٩-٦٩٨) ورقة رقم مصور شمسى بدار الكتب المصرية .

(٢) زبدة الفكرة لبيبرس الدوادارى ج ٩ ص ٢٨٧ مصور بجامعة القاهرة - ونهاية الأرب للنورى المجلد ٢٩ ص ٥٦ مصور بدار الكتب المصرية .

ونثل الكنانة : استخرج نبلها فنثره ، ونثل اللحم فى القدر وضعه فيها مقطعا - والعقل يسكون وسطه : الحصن . وحرك للشعر .

هذا النصر الذى تلانصرا . واعتقادنا أنه يعبر بذلك عن مشاعر قومه ، وعن رضا نفوسهم بهذه الفتوحات المتلاحقة ، التى هى - بلاريب - ظفر للدين والعروبه وأعدائهما . .

وهذه الراحة والطمأنينة سوغتا للشاعر أن يسير ويبدأ فى نحو ستة أبيات فى مفتتح قصيدته فى وصف راية السلطان التى هى صفراء كالاصائل - وهى رمز النصر ومجتمع القلوب ، وهى راية الإسلام يقدمها النصر ، ويرتعب منها من يراها من أعدائه مثل كيقباز وكيخسرو .

وإذا خفقت هدت بنودها قوى الشرك وعلا الهدى ، وإذا نشرت وقت ضجيج الحرب كسفت النقع بالآلائها ، وإذا سارت إلى الأعداء ، سارت تحتها الكتائب المظفرة ، ومعها الرماح والسيوف . . . الخ .

يقول الشاعر مخاطباً السلطان ، ولا ينسى لون الراية : -

لك الراية الصفراء يقدمها النصر فن كيقباز إن رآها وكيخسرو
إذا خفقت فى الأرض هدت بنورها قوى الشرك واستعلى الهدى وأنجلي الثغر
وأن نشرت مثل الاصائل فى وغى جلا النقع من لآلاء طلعتها البدر
وأن يعمت زرق العدى سارت تحتها كتائب خضر تحتها البيض والسمر
كأن مشار النقع ليل وخفقمها بروق وأنت البدر والفلك والبحر
لها كل يوم أين سار لوأوها هدية تقليد يقدمها الدهر
وفتح بدا فى إثر فتح كأنما سماء بدت تترى كواكبها الزهر
ويستمر الشاعر فى الإشادة بمناقب السلطان وبشجاعته فى حروبه وهيمته فى القتال وتدييره حتى زلت له الحصون العوانس والمعازل البكر ، وحتى هابتة أعداؤه وأصبحت حصونهم لهم سجونا ، وأخشابهم لهم قبورا . .

فكم وضئت طوعا وكرها معازل مضى الدهر عنها وهى عانسة بكر
فإن رمت حصنا سابقتك كتائب من الرعب أو جيش يقدمه النصر
ففى كل قطر للعدى وحصونهم من الخوف أسياف تجرد أو خضر

فلا حصن إلا وهو وسجن لأهله ولا خشب إلا لأرواحهم قبر
ويتفامل الشاعر - كعادته - ويعتبر فتح هذه القلعة مقدمة لفتح غيرها .
ويستروح قليلا هنا - وقد ذكر قلعة الروم - إلى وصفها الوصف الشعري
الذي يوحى الخيال فيرسمها للقارىء في لوحة من لوحات الطبيعة الساحرة ويزودها
باللون والحركة والعاطفة فيقول:

وما قلعة الروم التي حزت فتحها وإن عظمت إلا إلى غيرها جسر
محجة بين الجبال كأنها إذا ما تبدت في ضمايرها سر
تفاوت وصفها فللحوت فيهما مجال وللنسرين بينهما ذكر
فبعض رسا حتى جرى الماء فوقه وبعض سما حتى همى دونه القطر
يحيط به نهران تبرز فيهما كما لاح يوما في قلائده النحر
نفاص متون السحب فيها كأنها إذا ما استدارت حول أبراجها نهر
على هضب صخر تكلم صخرها الحديد وفيها عن إجابتها وقر
لها طرق كالوهم أعياء سلوكها على الفكر حتى ما تخيله الفكر
إذا خطرت فيها الرياح تعثرت أو الذر يوما زال عن متنه الذر
يضل القطا فيها ويخشى عقابها الـ عفات ويهفو في مراقبها النسر
فهى - كما ترى - قلعة محجة بين الجبال كأنها سر في ضمايرها . وهى ذات ،
شاطيء يسبح فيه الحوت ، وذات جبال يرح فيها النسر ، وعلى سفوحها الواطئة
تجرى المياه ، وعلى مرتفعاتها يهوى القطر ، ومن حولها نهران يدوران بها
بلعائهما وأضوائهما ، يبدوان كالقلائد في نحرها أمام الرائي . وتستدير السحب
من حول أبراجها كما يستدير النهر ... إلى آخر هذه الأوصاف الطليقة التي جعلت
فيها متعة من متع الطبيعة الساحرة .

هذا السحر الفاتن وهذا الجمال الباهر ، صبحه الملك الأشرف بجيشه الذى
تحكى أبطاله النجوم الزهر . ومعه سيوفه الصوارم كالأنهار ، ورماحه اللامعة
الضاحكة كالزهر ... واستمر الشاعر فى وصف الجيش ..

ويتعجب الشاعر بالأسلوب فيفتن فيه . ويذكر الوصف ثم يضرب عنه في البيت التالي ليعقب عليه بوصف جديد

وهكذا انتقل بتشبيهم من البحر إلى الليل ثم النهار ثم إلى الليوث . وفي كل واد من هذه الوديان يتبسط له الخيال ويمد له الفن في رواقه . ويستعير ملامات كل واد ليحبك من مجموعها صورة متواصلة الأطراف

فهم كالبحر ، ولكي تكتمل الصورة وتم المماثلة ، يذكر سيوفهم أمواجاً ، وخيولهم سفناً ، وخردهم دراً . بل هم كالليل ، ولكي تكتمل الصورة أيضاً وتم المماثلة ، يذكر عوج سيوفهم أهلة ، ونباهم اللامعة العاجلة أنجماً زهراً . بل هم كالنهار ، ولكي تكتمل الصورة أيضاً وتم المماثلة ، يذكر الجيوش شمساً ، والرايات الصفراء أصالاً . وهم ليوث وما آجامها إلا قناها ، وما من يوم ظفر ، إلا ولهم فيه ظفر الخ .

ويستمر الشاعر في خياله وأناقته وحماسته ، حتى يندفع فيمزج مزجاً فنياً جميلاً بين الوصف والمديح والغزل والحماسة ، وهي ضروب من فنون الشعر نادرة الوجود في الشعر العربي بمزوجة . . . ولعلها من محاسن الشعراء في العصر المملوكي ، ولدها في قرأتهم ما كان لجنود الأتراك وأمراءهم من محاسن ومفاتيح ، تدفع إلى النسب الرطب والغزل العذب . واقتربت فيهم هذه المحاسن الخلقية بمحاسن الفروسية والشجاعة وحب القتال والمغامرة في سبيل الانتصار ، حتى ضرب بهم المثل في الجمال وحب القتال

يقول الشاعر :

فصبحتها بالجيش كالزهر بهجة	صوارمه أنهاره والقنا الزهر
وأبدعت بل كالبحر والبيض موجه	وجرد المذاكي السفن والخرد الدر
وأغربت بل كالليل عوج سيفه	أهله والنبيل أنجمه الزهر
وأخطأت لأبل كالنهار فشمسه	جيوشك والآمال راياتك الصفر

ليوث من الأتراك آجامها القنا لها كل يوم في ذرا ظفر ظفر
فلا الريح تسرى بينهم لانسباكها عليهم ولا ينهل من فوقهم قطر
يرى الموت معقودا بهذب نباهم إذا مارماها القوس والنظر الشزر
ففي كل سرج غصن بان مهفهم وفي كل قوس مد ساعده بدر
إذا صدموا صم الجبال تزلزلت وأصبح سهلا تحت خيلهم الوعر
ولو وردت ماء الفرات خيولهم لقييل هنا قد كان فيما مضى نهر
ثم صور الشاعر بعض خطرات المعركة وجوانبها وقائعا فقال :

أداروا بهاسورا فأضحت كخنصر لدى خانم أوتحت منطقة خصر
وأجروا إليها من بحار أكفهم سحاب ردى لم يخل من قطرها قطر
كأن المجانبق التي قن حولها رواعد سخط وبلها النار والصخر

ثم خاطب السلطان عقب ذلك وأشاد بشهامته . وحمد إليه الله سبحانه على
أن افتر هذا الثغر الذي كان عمتعا من قبل ، فكان قذى في عين الدين ، وذخرا
لأهل الشرك . أما الآن فقد انعكس الأمر ، فيقول :

فأحرزتها بالسيف قهرا وهكذا فتوحك فيسا قد مضى كله قسر
غدت بشعار الأشرف المملك الذي له الأرض داروهي من حسناتها نصر
وأضحت بحمد الله ثغرا عمتعا تبيد الليالي والعدى وهو مفتر
وكانت قذى في ناظر الدين فأنجلي وذخرا لأهل الشرك فانعكس الأمر^(١)

عصر الناصر بن قلاوون :

وقتل الأشرف خليل بعد وؤامرة دبرته ضده . وولى السلطنة مكانه أخوه
الناصر محمد ، عام ٦٩٣ هـ . وكان جدنا في سن التاسعة . ودبر له أمر دولته الأمير

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ١٩٨ ، في سياق ترجمة خليل بن قلاوون . وفيه نص القصيدة —
راجع أيضا عقد الجمان للبدر العيني المجلد (٦٨٩-٦٩٨ هـ) مصور بدار الكتب المصرية ،

« كتيبغا ، . وسرعان ما خلع سلطانه وقفز إلى السلطنة . فلبث نحو عامين سافر خلالها إلى بلاد الشام لتنظيم أمورها فخلعه نائب سلطنته الأمير « لاجين » بعد مؤامرة ، وقفز إلى السلطنة مكانه . فلبث قرابة عامين أيضا ، ثم دبرت مؤامرة فقتل . واستقر الرأي على عودة الناصر محمد بن قلاوون . فعاد في عام ٦٩٨ هـ . فأعد العدة للقاء التتار الزاحفين على بلاد الشام . ف وقعت بينهما معركة حامية في « سلمية » قرب بعلبك ، دارت الدائرة فيها على الناصر وجيشه . وطلب أهل دمشق الأمان من « غازان » ملك التتار ، فأمنهم .

إلا أن الناصر عاود الزحف إلى بلاد الشام عام ٧٠٢ هـ ، ولقى التتار في موقعة « مرج الصفر » ، أو « مرج راهط » ، أو « شقحب » ، فانتصر عليهم انتصارا عظيما ، وقتل منهم عددا كبيرا وغنم غنائم لا تحصى ودانت له بذلك بلاد الشام .

ثم فسد ما بينه وبين أتابك عسكره الأمير « بيبرس » ، فخلع نفسه واستقر بالكرك . فقفز « بيبرس » ، هذا إلى كرسي السلطنة ، فلبث بها أقل من عام ، وانحاز عدد كبير من الأمراء إلى الناصر محمد ، فسار بهم إلى بلاد الشام فملكها . ومن ثم عاد إلى مصر فدخلها منتصرا عام ٧٠٩ . وقبض على « بيبرس » وخنقه .

لبث الناصر محمد في السلطنة هذه المرة حتى عام ٧٤١ هـ . فنظم الدولة ونمي جيشها ، ومسح الأرض ، وألغى نيابة السلطنة ورحل إلى الشام وحلب ، ترقبا للقاء التتار ، ففروا من وجهه . وما زال حتى هيببت سطوته وخطب باسمه على منابر كثيرة وخطب الملوك زده ، وحفر الخليج الناصري عام ٧٢٥ هـ ، وامتدت رقعة الدولة في زمانه من كل طرف من أطرافها . وامتلا عصره بكثير من أفذاذ العلماء والأدباء ، وقد أحصينا عدد الشعراء الذين شهدوا عصر الناصر هذا فكان عددهم - أو عدد من أحصيناهم - نحو مائتي شاعر .

ومنهم الفتح بن سيد الناس ، وابن الوردي . والوداعي والمعمار وابن نباتة والصفدي والحلي وابن دانيال ، وغيرهم من المشاهير ، عدا المنشئين الشعراء . وأبرز

هؤلاء جميعاً في ميدان الأدب والشعر اثنان هما جمال الدين بن نباتة ، ٦٨٦ هـ -
٦٨٨ هـ ، وصفي الدين الحلي ، ٦٧٧ هـ ٧٥٠ هـ ، وهما بحق زعما الشعر في زمانهم .

ورحل ابن نباتة إلى بلاد الشام في نحو عام ٧١٦ هـ وعاش بها ردحا طويلا .
فيكون قد عاش بمصر من قبل رحيله ما يقرب من ثلاثين عاما ، من بينها أكثر
من عشرين عاما في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، فهو - بلاريب - بثقافته
وأحاسيسه وعاداته وأفكاره مدين للبيئة المصرية بألوانها ، وهو - بلاريب -
مترجم عنها متحدث باسمها صادر عن وحيها ، وإن بعد عنها .

على أنه - وقد عاش في بلاد الشام - في دمشق أو في حماة - لم يبعد عن
البيئات المصرية ، فهو مغمور بها مغموس فيها ، فإن قلبه ظل مشغولا بمصر وبمن
في مصر من أهله وأولاده وخلصائه وأحبابه . ولم تكن البيئة الشامية من بيئات
السلطنة المصرية حينذاك إلا امتدادا للبيئة المصرية بشتى ألوانها وأحاسيسها
وتقلباتها ، والوحدة العربية حينذاك وحدة شاملة ممتدة ، ووحدة واقعية بارزة
في بلاد السلطنة المصرية . ومتطلعة إلى غيرها من بلاد العرب والمسلمين .

إلا أن ابن نباتة لم يقيض له الاتصال بالسلطان الناصر ، أو الانضمام إلى
رجاله ، فبعد بذلك عن مجال السياسة . أما صفي الدين الحلي ، فقد نشأ ببلده حلة بابل
قرب الموصل بالعراق . وأخذ بين الآن والآن يجول هنا وهناك في بلاد العروبة
والإسلام ، ومن بينها مصر زمن الناصر محمد بن قلاوون . لحسن اتصاله به ،
وشارك على بعده ، مشاركة ما في سياسيات مصر ، بخلاف ابن نباتة .

إن السبيل الوحيد الذي كان يفتح أمام الشاعر حينذاك مجال القول والتجارب
مع البيئة السياسية ومقتضياتها ، هو الاتصال بالسلطان ، إذ يقربه من الحوادث
ويصله بأسباب الحروب ووقائع القتال .

والاستقراء يدلنا على صواب ما نقول . فلنظفر بشاعر تحدث من بعد أو

قرب - في هذا العصر - حديثاً ذا شأن ، في هذا المجال ، مالم يكن متصلاً بالسلطان .

وقد اتصل ابن نباتة - حقا - ببعض رجال الحكم في دمشق وحماة . اتصل بأبناء فضل الله العمري ، وبملكى حماة المؤيد وابنه الأفضل ، واتصل بكاتب السرى بمصر علاء الدين بن الأثير ، ومدحهم ووصف وشكا وسأل . ولكنه لم يطرق معهم باب السياسة ولا ذكر الحرب . ولو قيض له الاتصال بالناصر لظفرنا منه بالنتائج الوفيرة في ميدان السياسة .

موقعة مرج راهط وشقحب ، أو مرج الصفر .

لما عاد الناصر محمد بن قلاوون إلى عرشه العودة الأولى ٥٦٩٨ - ٥٧٠٨ ، سرت الأنباء بقرب تحرك التتار على بلاد الشام ، فأخذ الناصر في الاستعداد يعاونه في ذلك الأميران دسلار ، نائب سلطنته ، وديبرس ، الجاشنكير أتابك عسكره . ثم زحف بعسكر كثيف ، قيل نحو عشرين ألفاً . وكان على ميمنته جمع وافر من العربان بقيادة الأمير عيسى بن مهنا . ولكن وقعت بين الصفوف فتن كثيرة أصابت الروح المعنوية . فلما كان اللقاء مع التتار في دسليمية ، في ربيع الأول عام ٥٦٩٩ ، أقبلوا عليهم في نحو مائة ألف جندي بقيادة غازان . وكاد الجيش المصري يوقع فيهم هزيمة نكراء ، ثم انقلب الأمر وهرب الناصر وولى الأدبار . .

أخذ بعد ذلك يستعد للقائهم للمرة الثانية ، وتم له ذلك عام ٥٧٠٢ . إذ تواترت الأخبار بنزول غازان على الفرات وبدأ زحفه على بلاد الشام بقيادة الأمير قطلو شاه ، في عسكر كثيف يبلغ نحو خمسين ألفاً . حتى فر كثير من أهل حلب وحماة إلى دمشق ، بل استعد أهل دمشق للفرار . تخف الناصر برجاله متجهاً إليه من مرج راهط ، واتفقوا على المحاربة في شقحب ، وكان في جملة جيشه عدد من العربان ، ف وقعت معركة مروعة بين الطرفين ، زالت التتار من مواضعهم وحصدت رؤوسهم حصداً ، وعاد الجيش المصري بعد أن هزم عدوه هزيمة ألقت الرعب في قلبه وعلمته (م ٥ - عصر المماليك)

الهيبة من الناصر ، فلم يجسر على التجمع للقائه مرة أخرى^(١) .
وكان لهذا الانتصار الحاسم رنة فرح في أرجاء مصر ، وتغنى به شعراؤها .
وتقدموا بالتهنئة والمديح إلى سلطانهم المنتصر الناصر محمد ، شاكرين الله سبحانه
وتعالى على نعمة النصر ، وعلى هزيمة أهل الكفر .

ومنهم الشاعر علاء الدين بن محي الدين بن عبد الظاهر ، يقول :
لقد تمت النعمى وأوضحت البشرى وقد أعقب الفتح المبين لنا نصرا
حبانا إله الخلق بالنصر والهدى على الشرك والإيمان قد غلب الكفرا
ويصف طغيان غازان وملوك التتار وكثرة جنودهم ويشير إلى هزيمة سلمية
وغيرها ، وانتصار مرج راهط :

ولما غزا غازان عقر ديارنا وأعطاه من يعطى ومن يمنع النصرا
تمرد طغيانا وتاه تجبرا ولم يرتفق سعيا ولم يستفق سكرنا
وجاء ملوك المغل كالرمل عدة وقد ملأت سهل البسيطة والوعرا
فأنصفت الأيام في الحكم بيننا فكانت له الأولى وكانت لنا الآخري
ويشيد بإقدام الناصر وعساكره وأمرائه ويمدد وقت المعركة وساعة النصر .
وأقبل سلطان الزمان مؤيدا يقود الجياد الجرد والعسكر المجرا
وكان نهار السبت بالنصر شاهدا بصدق وكان الوقت قد قارب العصر
فلله در الترك كم سفكوا دما وكم قطعوا رأسا وكم جزروا نحرا
فولت ولا ذت بالجيال تحصنا ولولا تخاف القتل لاختارت الأسرا
فحمدنا سلطان الزمان محمد وشكرا لمولى قد أباد العدى قسرا

(١) راجع السلوك ج ١ ص ٨٨٥ وما بعدها ، ص ٩٣٠ وما بعدها - حوادث عام ٦٩٩ هـ ،
٢ ٧٧ هـ - وراجع أيضا بدائع الزهور في حوادث العالمين المذكورين . وروى في السلوك أن الموقعة
كانت في « شقحب » وروى في البدائع أنها كانت في « مرج راهط » وأن الموضع تحت جبل غياغب
قريبا من دمشق . وقيل إن رج راهط هو شقحب وهو مرج الصفر أيضا - راجع العبر لابن خلدون
ج ٥ ص ٤١٧ ، ٤١٨ . وزبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ص ٤٢٠ ، مصور بجامعة القاهرة ،

.... الخ. (١).

ومنهم الشاعر نجم الدين بن العيني ، وليس له بين يدينا غير هذه الأبيات الثلاثة التي يصور بها جو المعركة لقد بدت له سمولها ضباباً وقد امتلأت بالفوارس والجناث فكأنما نهارها ليل ، ورماحها كواكب ، وفرسانها أسود ، تغدو الأسود لها ثعالب :

وإذا نظرت إلى السمول رأيتهما تحت الضباب فوارسا وجنائبها
فكأنما كسى النهار بها دجى داج وأطلعت الرماح كواكبها
خيل فوارسها الأسود يقودها أسد تصير لها الأسود ثعالبها (٢)

ومنهم الشاعر محمد البراز المنبجى الذى شهدناه يسجل انتصار جيش مصر فى معركة د عكا ، وفتحها وفى غيرها . شارك هنا بقصيدة غراء حالية طليية ، أشار فى مطلعها كذلك إلى هزيمة « سلبية » ، وغيرها ، وأن الدهر جاء بهذا النصر اليوم معتذراً عن تلك الإساءة ..

وإني على قدر ما يختاره القدر وجاء عمسا جناه الدهر يعتذر
وإن أساءت لبياليه التى سلفت ظلما فقد أحسنت أيامه الآخر
وبعد إدراكك الثارات منتصراً فكل ذنب جناه قبل مغتفر

وأخذ يشيد بهذا الفتح العظيم الذى سعد به الإسلام ، ولم يشاهد الناس مثله منذ فتوح عمر - رضى الله عنه - وسارت بذكره الركبان ، ولم نحو مثله إلاخبار والسير .

(٢، ١) راجع كتاب الدرر الفاخر للدوادارى ٨٩، ٩٠، ٩١ - وقد نسب الأبيات الأولى إلى شرف الدين بن الوحيد بن عميد الوقت أو عبد الحميد . واعتقد أنه كنى بذلك عن (علاء الدين بن محبى الدين ابن عبد الظاهر) راجع عقد الجمان للبدر العيني (٦٩٨-٨٠٧ هـ) ورقة رقم ٣٠٢ ، مصور شمسى بدار الكتب المصرية ، وقد رويت الأبيات فيه باختلاف يسير ، هذا وقد ذكر البدر العيني أن علاء الدين هذا نظم مجلدا صغيرا فى الوافعة وتوصل إلى قراءته على الناصر دون علم سلال وبيرس فتجده مائة دينار . واسمه « الروض الزاهر فى غزوة الملك الناصر » ، وتروى الأبيات فيه ببعض الاختلاف .

فتح على جهة الإسلام أسعده بالجد والسعد والتأييد منتظر
ما شاهد الناس فتحاً مثله أبداً إلا فتوحاً تولى أمرها عمر
سارت بأخبارها الركبان واقعة لم تحو أمثالها الأخبار والسير

ووصف البغاة الطغاة ، وما يبتوا من مكر وما دبوا من كيد وما جمعوا من
جند ، فداسوا بها بلاد المسلمين يغرم جهلهم ويخدعهم التيه والبطر ، وظنوا أن
الدهر سيستمر في محالفتهم كما جرى في سلمية ، وغيرها . وإذا به في هذه الواقعة ،
واقعة « شقحب » ، أو « مرج الصفر » ، يغدر بهم . فإذا بهم قتلى تحت السناك بيد
عصابة الإسلام :

إن البغاة بنى خافان أقدمهم على هلاكهم الطغيان والأشر
راموا وقد حشدوا غلباً فما غلبوا وحارلوا النصر تضليلاً فما نصروا
أتوا وقد مكر الله العزيز بهم فرد طغيانهم بالغيط إذ مكروا
وضيقوا الأرض من سهل ومن جبل كأنما هم جراد فيه منتشر
داسوا بلادك لا يشئ أعنتهم عن قصدها جهلهم والتيه والبطر
غرتهم فالتة في الدهر عن غلط منها فحلت بهم من بعدها العبر
ويقول للسلطان .

قابلتهم بجيوش ما لهم قبل ببأسها فلقد فلوا وإن كثروا
أفنيهم بليوث منك بأسلة وهل تقاوم آساد الشرى الحمر
ويقول مفتخراً ومباهياً بهذا اليوم ، في نزعة إسلامية قوية :

يا وقعة المرج مرج الصفر افتخرت بك الوقائع في الآفاق والعصر
رفعت بالنصر أعلام الهدى ولقد جردت للشرك كسرا ليس ينجبر
يوم تدارك جمع المسلمين به من لم يزل في يديه النفع والضرر
ويصف ما لحق الكفار من ذل وهوان وما أصابهم من تلف وبوار ، وما منوابه
من تفرق :

دارت عليهم رحاء الموت فانهزموا فمالهم بعدها عين ولا أثر
وضاقت الأرض مذلولوا بما رحبت عليهم فهم بالخوف قد حصروا
والبسوا الذل حتى إن أشجعهم يأتى إليك بألف منهم نفروا
وبعدها قد أمناكل حادثة فما لنا بية ناب ولا ظفر
ويختتم زهوه بالناصر على بلائه ، شاكر له داعياً بدوام الملك .
هزت معاطفها الدنيا به فرحا وطاب بالأمن في أيامه العمر... الخ^(١)

مطولة فريدة في وصف المعركة

وللشاعر القاضي جمال الدين أبو بكر قاضى عجلون قصيدة فريدة مطولة تقع في
أكثر من مائة وخمسة عشر بيتاً ، شارك بها مشاركة بارزة في تسجيل هذا الفتح ،
والإشادة به وتمجيده وتمجيد مصر وجيشها العظيم ، وأعماله الجليلة وبطولاته الفريدة ،
في سبيل نصر الدين والوطن . وقد ملأت الحماسة الإسلامية والوطنية معا نفس هذا
الشاعر البليغ . فصدر عنها بقوة وجزالة ، وبإحاطة وشمول ، وبسعة تفصيل لحوادث
المعركة وتطوراتها وتحركات الجيوش فيها وما أصاب التتار في ظلالتها وفي أعقابها
من خسف وتلف ، وما منوا به من هزيمة نكراء .

ويبدأ بهذا المطلع الذى يدل على روح إسلامية عالية وعلى أمل في الله قوى ،
وعلى ما كانت تنطوى عليه النفوس من رغبة جامحة في الظفر بهؤلاء الأعداء
الأشرار الطغاة الذين طالما كادوا للعرب والمسلمين . يقول :

الله أكبر جاء النصر والظفر والحمد لله هذا كنت أنتظر
وأبرز القدر المحتوم بآرائه سبحانه يسيده النفع والضرر
ويهزأ الشاعر بالمنجمين ونجومهم ، ويبدو أنه كان في الأمر ما يشبه تخرصات
المنجمين قبل فتح عمورية .

(١) ص ٩١ من كتاب الدر الفاخر للدوادارى . وص ٣٠٤ من عقد الجان للبدر العيني المجلد
(٦٩٨-٥٧٠٧) ..

يقول :

أين النجوم وتأثير القران وما تخرصوا فيه من إفك وما زجروا
قد دبر الله أمرا غير أمرهم وخاب ما زخرفوا فينا وما هجروا
ويمثل العسكر المنصور وقد أمدّه الله بجند من الملائكة :

وأقبل العسكر المنصور يقدمه من الملائك جند ليس ينحصر
ويشيد بهذا العسكر وأنه يتحرك لله وفي سبيل الله ، ولذلك تكون عاقبته
النصر ، ويشيد بثورته وثباته في سبيل دينه ووطنه ليدرك تأثره ويبلغ طره .
وأنه ترك لذة النفس ومتعة الدنيا من أجل ذلك :

كناثة الله مصر جندها ثبتت لا ريب فيه وجند الله تنتصر
ثاروا سراعا إلى إدراك ثأرهم وهجروا في طلاب المجد وابتكروا
وأسهروا أعينا في الله مارقدت أكرم يقوم إذا نام الوري سمروا
ويقول :

وخلفوا خلفهم لذات أنفسهم وهاجروا ولذيد العيش قد هجروا
وبدا وصف المعركة بالحديث عن الزحف والتجمع وإرسال الكشافة :
وأوجفوا نفرا بالخييل ملجمة وبالركاب ولا ملوا ولا فتروا
حتى أتوا جلقا في يوم ملحمة فيه الأسود أسود الغاب تهتصر
ويبدأ في تصوير مشاهد المعركة ، تصويرا حيا متحركا مبتتابعا مع مراعاة
نظير طريفة :

لها السنايك في الميدان قد حنيت صوالجا ولها روس العدى أكر
وكوثر الحرب قد راقت مشاربه تحت العجاجة والأبطال تغتكر
والنبيل ينقط والأقلام كاتبة والضرب يعرب والأبدان تستطر
حتى إذا عب مثل البحر جحفلنا ومدفيضا على أعدائنا جزروا... الخ.

ويصف الشاعر ما أصاب الأعداء من أثر الزيران المرسله والسيوف المسلوله
الثائرة حتى لاذوا بشم الجبال هربا، فلم ينفعهم لياذهم ومزقوا وشردوا وصاروا طعاما
للوحوش . ثم يتهكم بهم تهكم الشامت القرير العين .

أصلوهم جاحما يشوى الوجوه وقد حمى الوطيس ونار الحرب تستعر
وأحرقتهم سراعا كل صاعقة من السيوف بنيران لها شرر
لاذوا بشم شماريخ الجبال فما حتمهم قتل منها ولا صور
ومزقوا شردا بين الزحام فكم شلو تنازع فيه الذئب والنمر
أين المفر وقد حام الحمام بهم هيهات لاملجأ يرجي ولا وزر
نادى بهم صارخ أغرى الفناء بهم فإن سألت فلا خبر ولا خبر
كم قد سهرتم دجى من خوفهم حذرا فالآن ناموا فلا خوف ولا حذر... الخ.

ويصور مصيرهم إلى بطون الوحش والطير :

لم يقبروا فى نوأويس ولا جدت وإنما فى بطون الوحش قد قبروا
والطير ترى نهارا لحيمهم فإذا ما الليل جن فى أحقادهم تسكر... الخ.
واندفع الشاعر اندفاعا حماسيا جارفا يدعو شجعان قومه إلى تعقب أعدائهم
بعامة من تثار وصلبيين . وأخذ يذكرهم بجرأهم الصليبيين حيالهم وأنهم صنعوا
بهم ما لا يصنع التتار فيقول :

هبوا إلى سيس من أحلام رقدتكم وسارعوا فى طلاب النار وأبتدروا
بكل غيران أخذ الروح همته فى غير نفس المنسايا ماله وطر
أيرقد الليل فى أمن وفى دعة عن كيد قوم لهم فى شأنكم سهر... الخ.
ويقول مثيرا للجزأتم حافزا للهمم ، ضاربا على الوتر الحساس بذكر النساء ،
والعجائز والأطفال والضعاف ، والذين شقوا بغارات الأعداء فى بلاد الشام :
أشفوا صدوركم إن كنتم غيرا على نسائكم يا قوم وادركوا

كم من عجوز ومن شيخ ومكتهل ومن فتاة نماها الحسن والخفر
بيضاء خرعوبة بكر محببة لا الشمس تنظرها صونا ولا القمر... الخ

ويفيض الشاعر في هذه الإثارة الحماسية الصادقة النزعة ، ويستغرق فيها نحو
الثلاثين بيتا ملتهبة نارية . تفصح عن حقد كامن ومقت شديد الأعداء لما اقترفوه
من الآثام وما اجترحوه من الجرائم وما ارتكبوه من الموبقات وما اشاعوه من
الفساد . ويقول محرضا للمسلمين أن يصنعوا بهم مثل ما صنعوا :

بزوهم الملك قهرا عن جواركم وخربوا كل ماشادوا وما عمروا
وسارعوا واقتلوا منهم قتلوا وبادروا واسروهم إنهم أسروا... الخ

ويخصص الخطاب لأهل جلق ويدعوهم إلى الاستقامة والانجاء إلى الله
سبحانه وتعالى توسلا إلى معونته ونصرته ، وسبيلا إلى دفع أعدائهم عنهم :
يا أهل جلق أمنا في مساكنكم وعاملوا الله رب العرش وانزجروا
صوموا وصلوا وذكروا وادعوا وصلوا وابغوا النجاة وحجوا البيت واعتصموا... الخ
ويقول وكأنه يؤمنهم العاقبة :

ولا تخافوا من التاتار مجلبة من بعدما ارتفع التدليس والعور
لم يطلبوا جلقا بغيا بظلمهم إلا وردوا على الأعقاب وانكسروا... الخ
وبعد استيفائه هذه الأغراض يتجه إلى ذكر خليفة زمانه وسلطانه
فيمتدحهما :

هما ملاذكم في كل نائبة الروح تفديهما والسمع والبصر

ويخص الخليفة بنحو اثني عشر بيتا من أبيات المدح - على غير عادة الشعراء
إذ ذاك ، فقد كان من دأبهم إغفال ذكر الخليفة بجانب السلطان . أما هذا
الشاعر فيقول ويبالغ - وقد كان الخليفة هو أبو الربيع سليمان المستكفي بالله
العباسي - :

خليفة الله في الدنيا وطاعته فرض عليكم وهذا القول مختصر
ما زال مستكفيا بالله معتصما مستنصرا مستعينا وهو منتصر
لولاه في الأرض قدمادت جوانبها وما سقاها إذا غيث ولا مطر
خليفة من بنى العباس باقية به إلى الله نستسقى فتمطر ... الخ

ثم يخص السلطان بأبيات أخرى من المديح تبلغ نحو ثمانية عشر بيتا يختتم
بها هذه القصيدة الجامعة . ومنها قوله ، يصف هيبتة وذل الملوك له :

ترى الملوك صفوفا حوله زمرا من فرط هيبتة لا يرجع البصر
تذل أعناقهم صغرى لطاعته وليس يعصونه أمرا إذا أمروا

وينزع الشاعر نزعاً الوحدة الإسلامية والعربية الكبرى ، ويفيض لسانه بما
يجيش به جنانه من الآمال العريضة الواسعة التي يحلم بها شعب العروبة منذ ذلك
الزمان البعيد . ولم تسكن هذه الآمال حينذاك بصعوبة النوال ، ولا عسيرة
الوصول ، أن تجتمع البلاد العربية بل والإسلامية في دولة موحدة تنهض
برسالتها الإنسانية وتحمل دين الله وحضارة الإسلام في هذه الأرض . لقد كانت
السلطنة المصرية قد بلغت - كما أشرنا - جهة برقة من الغرب ، وأرض النوبة
من الجنوب ، وضاف الفرات وأرمينية من الشرق ، وضمت الشام وحلب
والحجاز ، وخضع لها اليمن خضوعاً تاماً . فلم يبق إلا أن ينضم العراق ببغداد ،
وأن يعمل الجميع على تقوية الآصرة ، وتمكين الوحدة والنهوض إلى الهدف .

تلح هذه المعاني بين ثنايا أبيات هذا الشاعر الذي كان يعيش عام ٧٠٢ هـ لما
وقعت معركة « شقحب » ، وتمت الهزيمة على التتار . وهو في أبيانه تلك يمدح
الناصر محمد بن قلاوون سلطان هذه الدولة - بمناسبة انتصاره في المعركة
المذكورة - ويعقد عليه كل هذه الآمال . يقول مخاطباً المسلمين أن يصونوا
جيادهم التي يأمل أن يوردها السلطان الناصر نهر دجلة ، وهو يرمز بذلك إلى أملة

في فتوح بغداد على يده وضمها إلى سلطنته توحيدا للعرب وجمعا لكلماتهم :
صونوا جيادكم اللاتي بكم هميت في بارق الحرب والرمضاء تستعر
إننا لنرجوه من بغداد ينهلها بماء دجلة يرويهما فتصطدر
ويجمع الشمل في دار السلام بمن يودهها ويؤدون الذي نذروا
يؤمها وإمام المسلمين معا ثقوا بقولي فهذا منه منتظر
فالشام واقاه مع بغداد في قرن ومصر في ملكه والبر والبحر
والعرب والعجم في ميمون قبضته ومن سطا بأسفه قد حارت التتر... الخ (١)

هكذا كان الشعراء يسجلون حوادث السياسة ووقائع الحروب ، ويصورون
أمانى النفوس وآمال القلوب ، التي هي آمالنا اليوم وأمانينا . ومن هنا نفهم أن
أهدافنا اليوم ليست مدعاة ولا مزعومة . وإنما هي آمال الآباء والأجداد امتزجت
بدمائهم ونفوسهم ، ومنهم انحدرت إلينا وورثناها دعامة للحياة الصحيحة والعيش
الكريم وعنوانا للحق .

ويقول بدر الدين العيني : « وأحسن ما قيل في هذه الواقعة قصيدة شمس الدين
الطبي ، » .

والقصيدة — في الحق — فريدة في بابها لجملة أسباب ، منها أنها لم تبدأ بالمدح
ولا بما يشعر به أو يمهده ، وإنما بدأت مباشرة بالحديث عن القتال وذكر
أدواته . وأنها لم تتحدث عن قتال الواقعة نفسها أو أدوات ذاتها ، وإنما عجمت
القتال والأدوات . وأنها أوردت ذلك الحديث مشبها الغزل وما فيه من الوجد
والعشق والهيام ، فقد تغزل الشاعر في القتال وأدواته غزل المستهام المغرم

(١) الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر محمد بن قلاوون ، لأبي بكر اندوآدرى ، وهو الجزء التاسع
من كتابه الكبير كثر الدرر وجامع الغرر ص ٩٣ وعقد الجمان لبدر العيني ، المجلد « ٦٩٨ - ٧٠٧ »
ص ٣٠٣ .

والعاشق المتيّم . وقد مزج فعلا مزج الموازن والمقارن ، بين ملابسات القتال
وملابسات الغزل والتشبيب واختار الأولى على الثانية . يقول وكأن في قوله
شيئا من الحسك الحماسية :

برق الصوارم الأبصار يختطف	والنفع يحكي سخابا بالدماء تكف
أحلى وأعلى وأعلى قيمة وسنا	من ريق ثغر الغواني حين ترتشف
ومن قدود القناسمشى شغفت به	لا بالقدود التي قد زانها الهيف
ومن غدا بالخدود الحمر ذا كلف	فإننى بخدود البيض لى كلف
ولامة الحرب فى عيني أحسن من	لام العذار الذى فى الخد منعطف
كلاهما زرد هذا يفيد وذا	يردى فشأنهما فى الفعل مختلف
والخيل فى طلب الأوتار صاهلة	ألد لحنا من الأوتار تختلف
ما مجلس الشرب والأقداح دائرة	كوقوف الحرب والأبطال تزدلف
والعز من تحت ظل الرمح مقترن	بالعز والذل يأباه الفتى الصلف

ثم يأخذ الشاعر فى الحديث عن فتيان الإسلام الذين يحمونه ويقون ملته
وناصريه ويجاهدون فى سبيله ، فيعلى مكانتهم ويرفع منزلتهم فى حماسة بادية
وحمة بارزة فيقول :

لا عيش إلا لفتيان إذا انتدبوا	ثاروا وإن بذلوا فى غمة كشفوا
تقى بهم ملة الإسلام ناصرها	كما بقى الدرة المكنونة الصدف
وجاهدوا فى سبيل الله فانتصروا	من بعد ظلم وعما سادهم أنفوا
لما أتهم جيوش الكفر يقدمهم	رأس الضلال الذى فى عقله خرف
جاءوا وكل مقام ظل مضطربا	منهم وكل مقام بات يرتجف

ثم يبدأ الشاعر فى وصف المعركة الأصيلة فى مرج الصفر ، فيخاطب هذا
المرج ويسأله عن حوادثه ويذاكره عن أبنائه فيقول :

يا مرج صفر بيضت الوجوه كما
أزهر روضك أزهى عند نفحته
غدران أرضك قد أضحت لواردها
زلت على كتف المصرى أرجلهم
فعلت من قبل فالإسلام يؤتف
أم يانعات رهوس قبل تفتطف
ممزوجة بدماء المغل تغترف
فليس يدرون أنى تؤكل اليكتف

واستمر في وصف المعركة حتى قال مبينا عاقبة هؤلاء الأعداء بين الفرار
والأسر والقتل :

فروا من السيف ملعونين حيث سروا
وقتلوا في البرارى حيثما ثقفوا
ويقول :

رملت الأرض قتلاهم بما قدقت
والطير والوحش قد عافت لحومهم
ردوا فكل طريق نحو أرضهم
منهم وقد ضاق منها المهمم
ففي مراح الضواري منهم قذف
يدل جاهلها الأشلاء والجيف . . الخ

ويأبى الشاعر إلا أن يظهر هو أيضا ما في نفسه من التطلع إلى استرداد
بغداد من يد التتار وضمها إلى بلاد السلطنة العربية المصرية، فيقول مرسلًا البشرى
بهلاكهم إلى ملك العراق . . . !

يا برق بلغ إلى غازان قصتهم
بشر بهلكهم ملك العراق لىكى
ويختتم الشاعر بحمد الله سبحانه وتعالى ، ومدح السلطان الناصر :
فالحمد لله معطى النصر ناصره
وكاشف الضر حيث الحال منكشف (١)

(١) عقد الجمان للبدر العيني ، المجلد (٦٩٨ - ٨٧٠٧) ص ٣٠٦ - مصور بدار الكتب . -
والحلوان : بضم أوله ، أجرة الدلال والكاهن ومهر المرأة ، أو ما تعطاه على متعتها ، أو ما أعطى من
نحو رشوة . وقال : لأحلونك حلوانك أى لأجزئك جزاءك . وحلوان بلد ، وقرية .

عين الشعر بين الناصر محمد والمظفر بيبرس :

وقد أشرنا من قبل إلى أن الناصر محمد بن قلاوون وعهده لم يسلبا من الفن الضاربة .

فلنحدثك ببعض الطرائف عنها ، ولندلك على أن عين الشعر كانت تلاحظها وتعيها وتحدث أحيانا بلغتها عنها

ذلك أنه قيل إن الملك الناصر المذكور لما سار إلى الكرك عام ٧٠٨ هـ وخلق نفسه من السلطنة على أثر خلاف بينه وبين أتاكبيه «بيبرس الجاشنكير» اختار الأمراء بيبرس هذا سلطانا وقام بنصرته رجال عدة عاونوه على ملهه ولقبوه بالمظفر .

منهم الخليفة العباسي أبو الربيع سليمان ، وهو الذي عهد إليه بالسلطنة بعد نزول الناصر عنها ، وكتب له بذلك عهداً - ومنهم المنشئ علاء الدين بن عبد الظاهر وهو الذي أنشأ العهد المذكور .

ومنهم القاضي بدر الدين بن جماعة ، وهو الذي ألقى للمسلمين بقتال الناصر . ومنهم الشيخ شمس الدين بن عدلان ، ألقى بأن الناصر خارجي وقتاله جائز . ومنهم الشاعر الشيخ صدر الدين بن المرحل ، وكان قد نظم في الموضوع قصيدة هجاء فيها الناصر وغمزوه .

ولما عاد الناصر إلى ملهه ، شرع يعاتب أنصار بيبرس ، ويوبخهم على واقفهم ويذكرهم بسيناتهم نحوه ... فقال للخليفة :-

هل أنا خارجي ، وبيبرس من سلالة بني العباس ؟

وقال للقاضي علاء الدين بن عبد الظاهر : يا أسود الوجه ...

وقال للقاضي بدر الدين بن جماعة : كيف تفتي المسلمين بقتالي ؟ فقال معاذ الله أن تكون الفتوى كذلك ، وإنما الفتوى على مقتضى كلام المستفتي . فعزله عن القضاء .

وقال لصدر الدين بن المرحل : كيف تقول في قصيدتك :

ما للصبي وما للملك يكفله شأن الصبي بغير الملك مألوف
خلف ابن المرحل أنه ما قال هذا ، وإنما أعداؤه زادوا هذا البيت في القصيدة .
والعنو من شيم الملوك . فعفا الناصر عنه .
وجاء الشيخ شمس الدين بن عدلان يستأذن للدخول على الناصر . فلم يأذن له
وقال لدواداره : قل له : أنت أفتيت أنه خارجي وقتله جائز - مالك عنده دخول .
ولكن الدوادار عرف السلطان أنه يكفى ابن عدلان وابن المرحل ، ما قاله
الشارمساحي في حقهما ... وكان الأديب شهاب الدين أحمد بن عبد الدائم
الشارمساحي الماجن ، قال في تهنته للناصر بعودته :

ولى المظفر لما فاته الظفر وناصر الحق وافي وهو منتصر
وقد طوى الله من بين الورى فتنا كادت على عصبة الإسلام تنتشر
فقل لبيهرس إن الدهر ألبسه أثواب عارية في طولها فصر
لما تولى تولى الخير عن أمم لم يحمدوا أمره فيها ولا شكروا
وكيف تمشى به الأحوال في زمن لا النيل أوفى ولا واقاهم مطر
ومن يقوم ابن عدلان بهصرته وابن المرحل قللى كيف ينتصر
وكان النيل لم يوف سنة تولى المظفر ، وارتفع السعر (١) .

ومن الطريف أن الزجل شارك في بعض هذه الحوادث . فإنه لما شح النيل
عام ٧٠٩ هـ وكان الناصر بن قلاوون قد خلع نفسه من السلطنة ، وولى مكانه المظفر
ركن الدين بيهرس . وكان بالناصر شيء من العرج ، وكان بسلاّر نائب السلطنة
بعض شعرات في فيه مع أنه أجرد ، فأطلق العامة على الناصر « الأعرج » ، وعلى
بيهرس « ركين » ، وعلى سلاّر « دقين » ، وغنوا بهذه المناسبة قائلين متفكّمين :
سلطاننا ركين ونائبو دقين يحببنا الماء من أين

هاتوا لنا الأعرج يحبى الماء يدحرج (٢)

(١) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر سلاطين مصر - والدر الفاخر للدوادارى ص ١٩١ .

(٢) بدائع الزهور ج ١ حوادث عام ٧٠٩ .

وكان المظفر بيبرس الجاشنكير ، بعد أن سلب الملك من الناصر بن قلاوون قد أخذ يضايق الناصر . وكان هذا قد سار إلى الكرك - كما روينا - وارتضاها مقاما له .. فلما رأى ذلك سار إلى دمشق عام ٧٠٨ هـ والتف به كثير من الأمراء فانتظم أمره بها . ثم زحف إلى مصر . ففر بيبرس من وجهه إلى أسوان ، وجلس الناصر على كرسي سلطنته يوم عيد الفطر ، ثم وجهه إلى بيبرس من أحضره فسيجنه ثم خنقه ... وكان ذلك عام ٧٠٩ هـ .

فقال الشاعر علاء الدين الوداعي يعبر عن الفرحة بعودة الناصر :

الملك الناصر قد أقبلت دولته مشرقة الشمس
عاد إلى كرسيه مثلما عاد سليمان إلى الكرسي (١)

وقال الأديب صلاح الدين الصفدي في المعنى نفسه :

ثنى عطف مصر حين وافى قدوم الناصر الملك الخبير
فذل الجشنكير بلا لقاء وأمسى وهو ذوجأش فكبير
إذا لم تعضد الأقدار شخصا فأول ما يراع من النصير (٢)

وبرز إلى الميدان شعراء آخرون غير من نوهنا بهم ، نظموا في هذه العودة ، ومنهم ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر ، وشمس الدين بن سواده ، ومحمد بن موسى ، ومحمد المنبجي البزاز ، وناصر الدين بن النقيب ، قدموا التهنئة للناصر .

وامتزجت كلماتهم امتزاجا كبيرا بمدحه وذكر جهاده للأعداء وانتصاره عليهم . ويقول ناصر الدين بن النقيب :

عاد الملك صاحب الملك عادا ثم أبدى النعماء لنا وأعادا
مرحبا مرحبا بأوفى ملوك الأرض قدرا في ملكه وسدادا
ومن شعره ينوه بهيبته في قلوب أعدائه :

أسكن الخوف في قلوب أعاديه م فولت تطوى الربا والوهادا

قرن الرعب في محمد بالنصر م ولم يشرع القنا الميادا
وأذات له المهابة أعداه فأعطوه صاغرين القيادا.... الخ (١)

الألغاز في ميدان السياسة :

وكان الأمير شمس الدين قراستقر المنصوري ، الذي كان مملوكا للمنصور
قلاوون ، وترقى في سلك الإمارة حتى بلغ نيابة السلطنة في عصر السلطان لاجين ،
قد حظى كذلك لدى الناصر بن قلاوون ، ثم فسد ما بينهما ، ففر مع جماعة إلى
« خربندا » ، ملك التتار ، فأعجب به وزوجه تترية حسناء .

وكان من أمره أنه لما فر من وجه الناصر بن قلاوون ، اتصل بالأمير جمال
الدين الأفرم نائب الشام ، وكان هو الآخر على غراره قد فسد ما بينه وبين
الناصر . فتذاكرا الأمر ورأى الأفرم أن يتصل بالشيخ صدر الدين بن الوكيل
الأديب الشاعر المعروف بابن المرحل ، ويطلب إليه أن يتعرف الأحوال بمصر ،
ويتحسس الأنباء ، ويفهم اتجاه الناصر بشأنهما ، ثم يكتب إليه في ذلك شعراء
ويلغز فيه ، حتى لا ينكشف أمره .

وهض ابن المرحل بالأمر ، وعرف أن خاطر الناصر لا يزال متغيرا ، وأنهما
لن تطيب لهما الإقامة بمصر . وكتب إلى الأفرم أبياتا ساقها مساق الشوق
والحنين ، وملاها بالأسف والألم على ماضى من الأيام التي لن تعود ، وأظهر
التوجع للحالة الراهنة التي لم يعد فيها نصارة ولا نعيم ، ولم ترق فيها الآصال ،
ولا حركت ريح الصبا بطرب غصنا ، وأنه يلاقى ما يلاقى من الضنى ، إلى غير
ذلك

ففهم الأفرم ما يعنيه ابن المرحل ، فأرسل إليه جائزة ، ولحق بقراستقر

(١) راجع أخبار هذه العودة وما قبل فيها من شعر في ص ١٩٠ إلى ١٩٥ من كتاب الدر الفاخر
للدوادري .

ورحلا إلى ماردين والتحقا بالنتار

يقول ابن المرحل في أبياته :

أيا جيرة بالقصر كان لهم مغنى رحلتم فعاد القصر لفظا بلامعنى
وأظلم لما غاب نور جماله وقد كان من شمس الضحانوره أسنى
يعز علينا أن نرى الدار بعدكم وما نحن فيها سادق مثلها كنا
ومنها يصف وحدته وتغير زمانه :

ولا غنت الورقا فأشجبت بصوتها ولا هزج يحزى ولا مطرب غنى
ولا راقى الآصال إلا صباة ولا حركت ربح الصبا طربا غصنا
إلى أن يقول - والإلغاز في هذا البيت :

وإني ألاقى ما ألاقى من الذى لسمعى قد أصمى وجسمى قد أضنى
ويختتم بهذين البيتين ، وهما من الوادى نفسه :
وكنتم لنا من إن دعونا يؤمنوا وإن هم دعوا أن يجمع الشمل أمنا
وإن عادت الأيام تجمع شملنا سجدنا لرب العرش شكر أو شكرنا (١)

صفى الدين الحلى والناصر بن قلاوون والعلاء بن الأثير :

والصفى الدين الحلى حديث جميل ، مع الناصر بن قلاوون ، ومع وزيره وكتب
سره علاء الدين بن الأثير .

أقد ذهب صفى الدين إلى الحج عام ٥٧٢٣ . فخرج في أوبته ، على مصر . فلقى
بها حفاوة بالغة وترحيبا عظيما . وكان صفى الدين لا يزال به خوف من العودة إلى
بلاده . وعندما دخل القاهرة مدح علاء الدين ، فرحب به وقدمه إلى السلطان
الناصر فرحب به أيضا .

(١) القصة والأبيات في ص ٢٤١ من كتاب الدر الفاخر للدوادارى . - راجع أيضا كتابنا
عصر سلاطين المماليك مجلد ١ ص ١٢٤ ، ٢٣٢ ،
(٦ م - عصر المماليك)

وقد عجبت كيف أن علاء الدين يحتفى كل هذه الحفارة بصفي الدين ويقدمه إلى الناصر ، ولا يحتفى حفاوة مثلها بابن نباتة ولا يقدمه إلى الناصر . مع أنه أقرب إليه صوتا وأدنى دارا . . أعتقد أنه الخوف من أن يصل إلى الخطوة لدى الناصر وأن يستأثر بالرضا فيظفر بمنصب ديوان الإنشاء - أو أن غضب الناصر على أبيه امتد إليه فجفاه .

ومهما يكن من شيء فقد أشار ابن الأثير على صفى الدين بأن يجمع ديوان شعره .

على أن أثر علاء الدين بن الأثير فيه لم يقتصر على جمع ديوانه ، بل تعداه إلى نواح من النشاط أخرى ، فكثيرا ما كان اقترح عليه النظم فنظم ، وهزه للقرص فجاد وأجاد .

ومن ذلك أنه ذكر له مرة بيتين للشاب الظريف . فيهما جناس تام بين الضرب والعروض لا يتهاى مثله لغيره وهما :

أحسن كل الناس وجهها وفما إن لم يكن أحق بالحسن فمن
حكى الغزال مقلة ولفته من ذا رآه مقبلا ولا افتتن (١)

فنظم صفى الدين على هذا الطراز أرجوزة في واحد وثلاثين بيتا ، جانس فيها بين ضرب كل بيت وعروضه جناسا تاما ، ومدح بها الناصر بن قلاوون . قال :

كم قد أفضنا من دموع ودما على رسوم للدياروده من
وكم قضينا للبكاء منسكا لما نذكرنا بهن من سكن . . . الخ .

ومنها في مدح الملك الناصر بن قلاوون :

ملك غدا لسائر الناس أبا إن سار في كسب الثناء أو ابن
الناصر الملك الذى فاض جدى نخلته ذا يزن أو ذا جدن . . . الخ (٢)

ولصفى الدين - فى ديوانه - ثلاث قصائد مدح بها الناصر بن قلاوون ، منها

النونية المجنسة السابقة . ومنها بائية عارض بها بائية للمتنبي . ونونية نظمها بمناسبة عيد كسر الخليج ، ووصف في مطلعها ربيع مصر .

والقصيدة البائية : تقع في أكثر من سستين بيتا . ويبدو أنها أولى مدائحه للناصر . فقد قيل في ديوانه إنه نظمها عند قدومه إلى مصر من الحجاز (١) وقد اقترح عليه أرباب الدولة معارضة قصيدة المتنبي التي مطلعها :

بأبي الشמוש الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلابيا
وقد بدأها صفي الدين بالغزل فقال :

أسبلن من فوق النهود ذرائبنا فجعلن حبسات القلوب ذرائبنا
وجلون من صبح الوجوه أشعة غادرن فرد الليل منها شائبا . . الخ (٢)
وانتقل بعد أبيات إلى مدح الناصر الذي استغرق أكثر من خمسة وأربعين بيتا من القصيدة . أجاد فيها صفي الدين إجادة واضحة . وهو الشاعر الفدير الذي أسلم له أسلوب الشعر زمانه يصرفه أنى شاء وكيف شاء .

والملاحظ أن أمداح صفي الدين هذه تدور حول المعاني العامة التي تنسب عادة للملوك الصيد ، وتتصل بما لهم من خلق حسن ورأى صائب وحيلة بارعة وكرم رحب وشجاعة غامرة وسطوة على الأعداء وعدالة في الرعية ، ومهابة بادية وتقوى مشهورة ودعاية للدين مطردة ، إلى غير ذلك . . . ولا تخلو الصور الشعرية المعبرة عن جزئيات هذه المعاني العامة من مبالغات وتهاويل . وهذا هو النسق الذي اتبعه صفي الدين في قصيدته .

ولم يتناول صفي الدين أحداث الحياة الواقعة في مصر ، ولا وقائع حروبها ولا مغامرات سلطانها العملية ، موضوعا لشعره وتسجيلاته وتصويراته . لم ينسج على منوال ابن عبد الظاهر : ولا الشهاب الحلبي مثلا ، وإنما مشى في الطريق الذي مشى فيه ابن نباتة من ذلك ، وجنح جنوحا كاملا إلى المدح .

أقول ذلك ، وأعجب لصفي الدين ، كيف يرضى بهذا المديح العادى ، وهو الفارس المحارب والحماسى الملتهب ، والذى لبث زمانه يحرض ملوك ماردين وغيرهم على مناجزة أعدائهم من الثائرين عليهم أو من التتار المناوئين لهم والطامعين فى أرضهم . ولعل سبب ذلك خلو الوقت - حينذاك - من كبريات حوادث السياسة .

والقصيدة النونية : تقع فى نحو سبعة وستين بيتا ، وقد استغرق فيها وصفه ربيع مصر نحو عشرين بيتا . ومستوى نسجها كمستوى سابقتها . ومدار معانيها مدار سابقتها أيضا . ومطلعها :

خلع الربيع على غصون البان حللا فواضلها على الكشبان
ومن مدحه للملك الناصر قوله :

الناصر الملك الذى فى عصره شكر الأطباء صنعة السرحان
ملك إذا اكتحل الملوك بنوره خروا لهيبته على الأذقان ... الخ (١)

الناصر بن قلاوون فى شعر ابن نباتة :

وقد لاحظنا أن ابن نباتة على طول ما مدح أمراء الشام ومصر ووزاءهما كالمؤيد صاحب حماة وابنه الأفضل ، وكأبناء فضل الله العمرى وبخاصة شهاب الدين وعلاء الدين ، وككاتب السر علاء الدين بن الأثير وغيرهم ممن ذكرنا ومن لم نذكر - وقصارى هؤلاء جميعا أنهم أتباع للسلطان فى مصر ، وبخاصة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، نقول إنه على طول ما مدح هؤلاء ، لم ينوه فى قصيدة من قصائده مدحه باسم الناصر ولا عرض له بمدح ، إلا نادرا جدا . مع أن فرص الحديث عن الناصر تسنح له فى كل قصيدة ، إذا أراد لها أن تسنح .

يبدو لنا أن ابن نباتة تعمد أن يغفل اسم الناصر ، وأنف أن يذكره فى شعره أو ينوه به ، مادام هو لم يهتم به أو يلقبه إليه أو أغفل أمره . مع أن شعره

كان في عهد الناصر قد شرق وغرب ، وملأ الأذان وسارت به الركبان .

وإذا كان والد ابن نباتة قد أساء إلى السلطان الناصر ، بصورة من الصور ، وكان من أتباع خصمه بيبرس الجاشنكير ، فما ذنب عبقرية فذة ، ونفسية فسيحة المدى رحبة ، كابن نباتة ، تشرّد في خارج مصر ، وتحرم منها مصر هذا الحرمان الطويل الذي استمر نحو خمسين عاما . . . إنها جناية الصلف أو الغفلة .

وربما يطالعك فيما سنعرضه عليك من شعر ابن نباتة في الناصر حسن بن الناصر محمد ، حين دعت له المقادير أخيراً إلى مدحه ، ذكر لأبيه الناصر . وسترى أن أنفة ابن نباتة لم تفارقه حتى في هذه المناسبة . فإن ذكر الناصر محمد بن قلاوون ، ذكره على عجلة ويسر ووجازة .

خلفاء الناصر بن قلاوون والشعر :

ومات الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٤١ هـ . فتوالى على السلطنة نحو اثني عشر سلطاناً من آل قلاوون ما بين أحداث وصغار ، وما بين شبان ماجنين لاهين في أغلب أمرهم . ف وقعت البلاد فريسة للفن والمؤامرات الأهلية طيلة أربعين عاماً تقريباً . حتى انتقلت السلطنة إلى يد الجراكسة ، وأول سلاطينهم الظاهر برقوق .

وما يذكر أنه لما مات الناصر المذكور ، ولى السلطنة بعده ابنه المنصور سيف الدين أبو بكر . ثم خلع وقتل في قوص . وأقيم مكانه أخوه علاء الدين بكك ولقب بالملك الأشرف . وكانت سنة دون ست سنين . فقال بعض الشعراء في ذلك يصور طفولة السلطان ، والخلف بين أرائه ، وإغفال المصالح العامة ما بين ذلك :

سلطاننا اليوم طفل والأكابر في خلف وبينهم الشيطان قد نزا

فكيف يطمع من يغشاه مظلمة أن يبلغ السؤل والسلطان ما بلغا^(١)

ولما ولي السلطان الكامل شعبان بن الناصر محمد عام ٥٧٤٦ هـ ، قال الشاعر جمال الدين بن نباتة يهنئته :

طلعة سلطاننا تبدت بكامل السعد في الطلوع
فاعجب لها منه كيف أبدت هلال شعبان في ربيع^(٢)

ويبدو أن ابن نباتة اتصل اتصالا ما بالسلطان الكامل شعبان . ولعل ذلك لأنه أعاده إلى التوقيع بديوان الإنشاء بالشام^(٣) ولذلك هنأه ثم مدحه في قصيدة أخرى تغزل في صدرها قائلا :

قسما بغض قوامه المتمايل إلى لتعجبني عليه بلايل
ويطيب أفواه العواذل ذكره حتى أم بلم نغر العاذل
رشا سرفت مدامي في حبه ياللقتيال بكى لحب القاتل . . الخ
حتى يقول مادحا كعادته مع الملوك وغيرهم :

ملك رأيت الشهب ثم رأيت فوجدته أعياء على المتطاول
وقصدت عذب البحر ثم قصدته فوجدته أدنى إلى المتنازل
نقلت شمائله صفات جدوده نقل الرياض عن الغمام الهاطل . . الخ

ونعتقد أنه صرح في هذه القصيدة بسبب أمداحه لهذا السلطان - الكامل - وإن كان تصريحاً عاماً لا تخصيص فيه . فقد قال إنه فاز في الشام بما يفوق ظن الآمل ، وإنه قبض من مآربه بالكامل ، وأنه بذلك آمن ريب الزمان . يقول ويورى بلفظ الكامل ، في البيت الثاني :

(٢٠١) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر سلاطين مصر .
(٣) راجع ابن نباتة المصرى أمير شعراء المشرق .

من مبلغ الأهلين عنى أننى فى الشام فزت بفوق ظن الآمل
وأخذت من ريب الزمان أمانه وقبضت حق مآربى بالكمال .. الخ (١)

ولبت الكمال فى الملك سنة وأياما ثم خلع وقتل . وكان من شرار الملوك
ظلمها وعسفها وفسقاً . فقال صلاح الدين الصفدى يتهمكم ويسخر ببيت قلاوون ،
موريا :

بيت قلاوون سعاداته فى عاجل كانت وفى آجل
حل على أملاكه للردى دين قد استوفاه بالكمال (٢)

وأقيم بعده أخوه زين الدين المظفر حاجى بن الناصر محمد عام ٧٤٧ هـ . وكان
أحمق مندفعاً ، قبض على عدد من أمرائه وخنق آخرين وتلمى بتربية الطيور والحمام
واللعب بها ، وغفل عن شئون الدولة فكانت عاقبته مؤامرة أطاحت به وقطعت
عنقه ، بعد سلطنة دامت سنة وثلاثة أشهر . فقال صلاح الصفدى :

أيها العاقل اللبيب تفكر فى المليك المظفر الضرغام
كم تمادى فى البغى والغى حتى كان بعث الحمام حد الحمام (٣)
وقال أيضا :

حارب الردى للمظفر وفى التراب تعفر
كم قد أباد أميرا على المعالى توفر
وقاتل النفس ظلما ذنوبه ما تكفر (٤)

(١) ديوان ابن نباتة ص ٣٩٧ ، ٣٩٨ .

(٢ و ٣ و ٤) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر سلاطين مصر .

الزجل في الميدان :

وعاصر ملوك هذه الحقبة - أعنى منذ وفاة الناصر محمد بن قلاوون إلى قيام دولة الجراكسة - عدد من الشعراء والزجالين ، وهم رجال الحلقة الثالثة التي يعتبر برهان الدين القيروطي رأسها . ومن جملتهم شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي . وبهاء الدين أبو حامد السبكي ، وبدر الدين بن الصاحب ، والعز الموصلي والفخر ابن مكائس ، وشهاب الدين العطار وغيرهم . ومن الزجالين قيم الزجل الكبير خلف الغباري .

ويبدو أن الزجل في هذه الحقبة وجد مراحا خصبا وسوقا رائجة لدى ملوكها من فلول آل قلاوون وأوائل الدولة الجركسية لعجمتهم الضاربة ولقرب العامة من أفهامهم وضعف فهمهم - في الجملة - للعربية الفصحى وشعرها ، هذا إلى انشغالهم بالفتن الداخلية .

وسنرى أن هذه الظاهرة اطرء وجودها على وجه التقريب ، إلى نهاية العصر ، أعنى طول حكم دولة الجراكسة . وذلك لأمور منها - عدا ماسبق - بروز بعض الزجالين الممتهزين في ميدان الأدب كالغباري والزيتوني . ومنها ندرة اتجاه السلاطين إلى اصطناع أحد الشعراء في دواوينهم ، ولو باعتبارهم كاتباً في الديوان لكي يستطيع أن يصحبهم في تحركاتهم ويطلع بحكم عمله على مجارى السياسة والفتن والحروب والمعارك ، فيعمل على تسجيلها . ولذلك لم نجد بين شعر من ذكرناهم من الشعراء وأضرابهم من زملائهم المعاصرين لهم شيئاً من انطباعات البيئة السياسية ، وصفاً لحرب ، أو تسجيلاً لمعركة ، أو مدحاً لفائد ، أو إطراء لسلطان ، أو نعتاً لحيل أو سلاح أو فلم ، أو نحو ذلك من مقتضيات هذه البيئة .

نقول ذلك باستثناء شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي ، وباستثناء جمال الدين ابن نبانة من رجال الحلقة السابقة . فقد اتصل كل منهما بالسلطان الناصر حسن

ابن الناصر محمد ، بسبب ما وعلى نحو ما . فكان للبيئة السياسية من كل من هاتين نصيب
سنجد ذلك عنه بعد سطور .

وباستثناء تقي الدين بن خجة الحموي من بعدهما في الدولة الجركسية ، وفي
النصف الأول من القرن التاسع ، فقد اتصل بسبب ما بالملك المؤيد شيخ ،
وبعض وزرائه . فكان الاتجاه السياسي والرسمي نصيب من شعره ، سنجد ذلك
عنه أيضاً بعد صفحات .

ابن نباتة والناصر حسن :

أما جمال الدين بن نباتة المصري ، فقد كان وهو بدو شق يتطلع إلى العودة لمصر
فاستدعاه السلطان الناصر حسن وأثابه وطيب خاطره ، وطلب إليه أن يقدم إليه
نسخة من ديوان شعره ووظفه في ديوان الإنشاء .

وكان السلطان الناصر حسن قد ولي السلطنة عام ٧٤٨هـ بعد مقتل أخيه المظفر
حاجي . فلبث أقل من أربعة أعوام . ثم تأمر عليه بعض أمرائه بخلعه وولوا
مكانه أخاه الملك الصالح . فامتلات أيامه فتناً وقلقاً وحروباً أهلية ، بين مدبر
دولته الأمير طاز ، وأعدائه وأعداء السلطان . ثم خرج على طاعته بعض أمراء
الشام بزعامه نائب حلب ديبغا أروس ، فسار إليهم وهزمهم . ثم مالبت أن دبر
له الأمير ديبغا العمري ، مؤامرة أودت به وبسلطنته ، وأعادت الناصر حسناً
إلى السلطنة عام ٧٥٥هـ . فلبث بها نحو سبع سنين آخر ، قام في خلالها بإنشاء مدرسته
المشهوره بحى القلعة ، وأمر بإبطال كثير من ألوان الفساد والعادات السيئة .
وبنى في زمانه الأمير ديبغا العمري ، - الذى صار أنابكياً - خانقاه شيخو
المشهوره . ثم قتله أحد أتباعه . وما لبث أن ظهر بدلا منه الأمير دصرغتمش ،
خشيته الناصر خنقه . فخلا جو السلطنة للأمير ديبغا ، الناصري مملوك الناصر
حسن ، الذى مالبت أيضاً أن ثار على سيده وخنقه ، وأقام مكانه في السلطنة
المنصور محمد بن المظفر حاجي ، وذلك عام ٧٦٢هـ .

وكان الناصر حسن إلى جانب حسناته ، له حسنة أخرى وهى عنايته بأهل الأدب والشعر وحبهم لها . ولا أدل على ذلك من أنه قرب إليه شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي . حتى كأنه أصبح شاعره الأثير . وكذلك احتفل بابن نباتة . وإن كان ذلك قد صادف الشاعر فى أخريات حياته .

ورويانا أن ابن نباتة كان يتطلع إلى العودة إلى مصر ، وقد كان دائم الحنين إليها وإلى نيلها ، وكان دائم التذكر لأيام صباه بها ولأيام أنسه وإلى ملاعبه . وظل كذلك حتى كبرت سنه وضعف جسده وضائق سبل حيله . فتمنى لو يعود إلى بلاده ليموت بها ويدفن فى ترابها . يقول ذلك فى أبيات باكية من مرثية لصديقه - وما كان أكثر أصدقاؤه وأعداءه معا - قاضى القضاة تقي الدين السبكي الذى توفى عام ٨٧٥٦ هـ :

يا ثاريا والشنا والحمد ينشره بقيت أنت وأفتتنا يد الكرب
نم فى مقام نعيم غير منقطع ونحن فى نار حزن غير مثب
من لى بمصر اتى ضمتك تجمعنا ولو بطون الثرى فيها فىا طربى
ما أعجب الحال لى قلب بمصر وفى دمشق جسمى ودمع العين فى حلب

واستمر على أمه ورجائه حتى أرسل إليه السلطان الناصر حسن عام ٨٧٦١ هـ يستقدمه ، فعاد فاحتفل السلطان بمقدمه - كما رويانا - وأكرمه - وكانت وظيفته التوقيع فى الدبوان . ولكنه كان قد عجز عن موالاة العمل والمثابرة عليه . فأعفاه السلطان من ذلك مع إجراء راتبه . وأمر بإعادة أبنائه الذين تركهم فى الشام إليه . لينضموا له فى مصر . فقرت عينه وهدأت نفسه . وبلغ آخر الأمر إلى أمنيته ، كما بلغ أعتاب منيته فدحه ومدح كاتب سره علاء الدين ابن فضل الله .

ويبدو أن قصيدته الرائية التالية كانت من أوائل مدائحه للسلطان الناصر حسن ،

إن لم تسكن أولها ، وهى على ما يبدو أول مطولة قالها فيه . فقد بلغت عدة أبياتها نحو سبعين بيتا .

وقد تغزل فى صدرها غزلا لبقا ، فيه مطالع من أشواقه إلى بلاده ومعالم من رغبته فى العودة إليها . فيقول :

بدت فى رداء الشعر باسمـة الثغر فعوذتها بالشمس والليل والفجر
ولو شئت قسمت الذوائب مقسما بطيب ليال من ذوائبها العشر
وقبلتها مصرية حلوة اللى أكرر فى تقبيلها السكر المـصرى .. الخ .
إلى أن يقول :

وإنى لمشتاق إلى ظل روضة على النيل أروى العيش منها عن النضر
لئن حثنى باب البريد إلى مصر لقد حثنى باب الزيادة فى النـضر
إلى مصر يحلونيلها مخصب الثرى فيغنى الورى فى الحاليتين عن القـطر .. الخ
ويتخلص إلى مدح الناصر مبالغا ، فيعتبره إسكندر وقته وسلطان العباد والمزدان بالعدل والتواضع ، وأنه جمع إلى قضاء عمر حلم عثمان ، وإلى بأس على سماح أبى بكر ! وينوه بما قدمه من الإحسان للعلم والأدب والأخلاق ، إلى غير ذلك . يقول :

سلام على إسكندر الوقت إن يفـح شذا الذكر عنه فالسلام على الخـضر
ويقول :

فملك بلا جور وحكم بلا هوى وأزر بلا وزر وعز بلا كـبر
قضا عمر فى حلم عثمان جامعا لبأس على فى سماح أبى بكر . الخ .
ويقول :

بصوتك أركان الشريعة شيدت وصينت ثغور كلها باسم الثغر ... الخ
ويعود الشاعر فى خاتمة قصيدته إلى ذكر أمنيته ويتساءل عن تحقيقها تساؤل الآمل المضارع فيقول :

أحقا أرانى فى ثرى عتباته نباتا ينجى واكف المزن بالزهر
وأنشد أمداحا تقول لمن أتت مدحتك بالشعرى وغيرك بالشعر
والقصيدة من أنفـس الشعر ، ومما استجابت به نفس الشاعر للملابسات
الحياة التى يحياها ، وتأثر فيها باتصاله برجالها الرسميين . غير أننا نلاحظ فيها
ملاحظتين :

الأولى :

أن الشاعر ظل على مبدئه من عدم ذكر الناصر محمد بن قلاوون . مع أن
مدح الناصر حسن - وهو ابنه - فرصة لذلك . ومدح أبيه مدح له . وحقا ذكره
ونوه به ولكن فى عجلة وسرعة وتعميم . وذلك حيث يقول :

مضى الشفع من مرأى أبيه وجده وجاء فلا زالت له ذرلة الوتر
إلى ناصر من ناصر وكذا على مدى جده المنصور مسترسل النهر
أجل بيوت الملك بيت قلاوون وأنت أجل البيت يا وارث الدهر . الخ (١)
قارن هذه السرعة وهذا الإجمال بمدائحه الملك الأفضل ، فإنه كان لا يعمل من
تفصيل القول عن أبيه المؤيد ، حتى إنه وهو يهنئه بالملك أحال - أو كاد يحيل -
قصيدة التهنية إلى مرثية الملك المؤيد من تكرار بكائه عليه .

الثانية :

أن الشاعر لم يتعرض أبدا لذكر أعداء الناصر حسن المحليين . - وما كان
أكثرهم كما رأيت - ولا لذكر ما كان بينه وبينهم من فتن وهوامرات .
وبذلك يكون الشاعر قد استمر على التزام مذهبه فى هذه الناحية وهو الأيمس
السياسة فى كثير ولا قليل حذرا من غدراتها . وإذا كان قد التزم مذهبه هذا فى
أوائل حياته ، فهو فى أواخرها أحق بالتزامه وأولى ، لئلا يعكر على نفسه صفو

(١) دايون ابن نباتة فى حروف هذه القصائد .

الحياة إذا أقام بمصر ، سواء أبقى بها الناصر حسن أم فوز وهلك .
ولكن ما كان أحوج البيئة السياسية وما اكتنفها من جلي الحوادث ، إلى قلم
ابن نباتة . لقد باعدت بينها وبينه ، فخرها رائع شعره ، حتى إذا قربته إليها كان قد
جمد على مبدئه من التزام المديح . .

وعلى نسق مما رأيت تطلق شعر ابن نباتة في مدح الناصر حسن ، ونظم فيه
أكثر من قصيدة وأكثر من مقطوعة . وشكره على أمره له بنسخ ديوانه .

ابن أبي حجلة والناصر حسن ورجال عصره :

ووفد على القاهرة واستوطنها شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي التلمساني .
وقد ولد ببلد ، ونشأ بدمشق ثم جاء إلى القاهرة ، وولى بها بعض الوظائف ، ولبث
حتى توفي .

وحسنت صلته بالسلطان الناصر حسن حفيد قلاوون - ٧٤٨ هـ - ٧٥٢ هـ ،
٧٥٥ هـ - ٧٦٢ هـ ، وبعدد من أمراء الدولة وأعيانها وعلمائها وأدبائها . واشترك
في أحداث مصر السياسية والاجتماعية والأدبية . وراسل الشعراء فيها وساجلهم .
وأصبح معدودا في جملة أدبائها ورجالها ونظم فيها بعض أشعاره ، وألف في
حوادثها وأحوالها بعض مؤلفاته وقدمها إلى الناصر حسن . وبذلك وبغيره بدت
آثار بيئاتها واضحة في شعره وتأليفه . وكان نصيب البيئة السياسية من شعره
محمودا . وكذلك كان نصيب غيرها من البيئات .

ومن اتصل بهم ابن أبي حجلة ، من الرجال الرسميين ، الصاحب نحر الدين بن
الخصيب الذي ولى الوزارة ، فهناه ابن أبي حجلة بالوزارة بقصيدة مدحه بها . وقد
بدأها بغزل شهي عذب ، ونوه بحبه لمصر وأهلها ، ثم وصف أقلام الوزير
وقدرتها على تصريف أمور الدولة ، وأثنى عليه وأشاد بمكارمه . وقال
في مطلعها :

للحظك سهم في القلوب مصيب ول منة حظ وافر ونصيب
وقال منوها بحب مصر ومتخلصا إلى المدح :
سقى مصر من كأس الغرام ربابه ليمنى بها الندمان وهو طروب
فقلبي لم يبرح محبا لأهلها وعيشي بها بابن الخصيب خصيب
وزير لمصر منه كاف وكافل خير بتدبير الأمور لبيب
وأخذ يصف أعلامه فيقول :

وأعلامه للجيش كاسمر لم تزل يكف بها في النزالات خطوب . الخ (١).

واتصل جبل مودة ابن أبي حجلة بكثير من أمراء زمانه - فضلا عن سلطان
عصره الناصر حسن ، كما سنجدك - وفي جملة هؤلاء الأمراء :

الأمير سعد الدين بشير الجدار الذي جدد الجامع الأزهر عام ٥٧٦١ هـ . وقد
مدحه ابن أبي حجلة ونوه بصنيعه ، فقال يخاطبه من قصيدة تغزل في صدرها
على عادته :

يا جامع الشمل يا من حسن مجلسه حوى المحاسن والآداب والملاحا
ما بات جامعها المعمور منصلحا إلا دعت لك فيه سائر الصلحا . الخ (٢)
والأمير يلبغا العمرى الذى كان مملوكا للسلطان الناصر حسن . ثم أعتقه ورقيه
أميرا ، واستمر في رقي مطرد حتى سولت له نفسه فنازع أستاذه ، وأضمر كل منهما
الشر للآخر ، حتى استطاع يلبغا أن يقضى عليه ، وانفرد من بعده بالأمير في الدولة
أنا بكياء بولى فى السلطنة من يشاء ويعزل من يشاء ، حتى ثار عليه بعض مماليكه هو
فقتلوه عام ٥٧٦٨ هـ . بعد أن عاش حياته فى فتن وحروب أهلية بينه وبين أعدائه

(١) ديوان ابن أبي حجلة المغربى ، مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٢) ديوان ابن أبي حجلة - مخطوط بدار الكتب المصرية .

من الأمراء والمماليك^(١) كما سبق أن نوهنا .

وعاد يلبغا مرة من دمشق فهناه ابن أبي حجلة بقصيدة جيدة ، تائية القافية ،
كأنما كان يعارض بها تائية ابن نباتة في السكال بن الزمـكافى - وسنشير إليها -
فإنها مشربة بروحها ، ومنسوجة على منوالها ، وتقع فى نحو ٦٩ بيتاً .

وقد بدأها بالغزل الرقيق ، وهو مسلكه الذى اعتاده غالباً فى قصائد
المديح . ثم أفاض فى مدح يلبغا وأشاد بهمته فى الحروب وشجاعته فى القتال ،
وكسره لأعدائه .

وغزله فى صدرها غزل مذكر . وقد أكثر ابن أبي حجلة من هذا اللون .
وكان موضع غزله غلمان الأتراك . فإذا تناول غلاماً ، رآه كالـكوكب أو البدر ،
بل الهلال جبينه والسماء رقبته والنجم قرطه وبدر النـم مرآته ، وثغره الدر ،
وعارضه المسك وعذاره سطر من الحسن . . . إلى غير ذلك . ومنه
قوله :

بى أغيد نسبوه للخطا وله سهام لحظ لها فینسا إصابات
سلطان حسن من الأتراك بات له من الكواكب مثل البدر هالات . . الخ

ومن أبيانه يشيد بشجاعة يلبغا فى القتال ، وبهمته فى منازلة أعدائه :

أمیر جيش غدت فى كل نازلة لقومه فى رهوس القوم نزلات
سأقت عزائمهم سحب الجيوش لهم وبرقها سيفه والرعد كوسات
لخيله وأعاديـه إذا برزوا فى موقف الحرب كرات وفرات . . الخ^(٢)

(١) راجع ترجمة يلبغا العمرى فى الدرر الكامنة ج ٤ رقم ١٢١٨ - وفى كتابنا عصر سلاطين
المماليك مجلد ١ ص ١٥٢ .

(٢) ديوان ابن أبي حجلة . مخطوط بدار الكتب المصرية .

وبهمنا في هذا المقام أن نذكر صلة ابن أبي حجلة بالناصر حسن . ويبدو أنها كانت صلة طيبة متينة ، وأن الشاعر وجد من لدن هذا السلطان ما لم يجده شاعر آخر وأنه أغدق عليه وأعطاه . ولا أدل على ذلك من حفاوة الشاعر البالغة بهذا السلطان . ذلك أنه ألف عدة كتب ورفعها إليه ، ومنها كتابه « ديوان الصبابة » ، وكتابته « سكر دان السلطان » ، وأنه مدحه بأكثر من قصيدة

ولى السلطان الناصر حسن سلطنة مصر عام ٧٤٨ هـ . وكانت سنه آنذاك ثلاث عشرة سنة . ويبدو أن صغر سنه أملى لبعض أمراء زمانه أن يندشطوا للفتنة ، وتستشرى في نفوسهم الأطماع . ف وقعت فتنة ضارية بين نائب دمشق أرغون شاه وبين نائب طرابلس ، بالشام - جبغا - أدت إلى مصرع الاثنين معا . ثم تأمر بعض الأمراء نخلعوا السلطان وسجنوه بعد أن حكم أقل من أربع سنوات وولوا مكانه أخاه الصالح صلاح الدين عام ٧٥٢ هـ . ولكن الفتنة استمرت في طريقها . و وقعت حرب أهلية بين الأمير طاز مدبر الدولة وبين أعدائه من الأمراء ، فانتصر عليهم وسجنهم . ثم خرج عن طاعة السلطان الأمير « بيبغا أروس » نائب حلب ومعه عدد من النواب في الشام ، ف وقعت فتنة طاحنة بسبب ذلك . فخرج الصالح في جند كشياف ففضى عليها . إلا أن الأمير « شيخو العمري » دبر مؤامرة ضده ، نخلعه وأعاد السلطان حسنا إلى ملكه عام ٧٥٥ هـ .

وما لبثت الأمور أن سارت في طريق الفتنة أيضاً ، إذ اغتال الأمير « شيخو » بعض مماليكه ، فأصبح الأمير صرغتمش منفردا بالنفوذ ، فخشيته السلطان حسن فقبض عليه وخنقه .

وكان للسلطان مملوكه « يلبغا الناصري » الذي رباه ورقاه . هذا الأمير ثار على سيده واستطاع أن يقبض عليه ويخنقه ويرميه في البحر فلم يعثروا على جثته . . . وذلك عام ٧٦٢ هـ . وقد نوهنا بشيء من ذلك .

وهكذا كان عهد الناصر حسن مليئاً بالفوضى والمؤامرات . وهو

صاحب مدرسته - المشهورة جهة القلعة وجامعه الضخم . وقد سبقت إشارتنا إلى ذلك أيضا .

لم يتعرض ابن أبي حجلة في قصائده التي مدح بها هذا السلطان إلى شيء من هذا النزاع ، ولم يشر إليه ولا نوه به ولا سجل شيئا من وقائعه ؛ لقد اكتفى بالمدح الخالص والثناء العاطر ، الذي قدم بين يديه الغزليات الرقيقة .

حتى لقد اتصل حبله - من بعد الملك الناصر حسن - بالملك المنصور محمد بن المظفر حاجي - وهو ابن أخي الناصر حسن وقد ولي الملك بعد مقتل عمه ، وكان عمره أربعة وعشرين عاما ، فنهأه ومدحه ونوه في آخر قصيدته هذه بالناصر حسن ، فترحم عليه وذكر مبراته له وإحسانه إليه وتقديره له ، دون أن يشير بشيء إلى مجرى السياسة والفتن في زمانه .

وواضح أن سبب ذلك هو خوفه وخشيته من الأمير «يلبغا العمرى» الناصرى الذى قتل سيده الناصر حسنا ، فقد كان هو الذى وكل إليه تدبير أمور الدولة وصار أتابكيا بها ، وذلك في عهد الملك المنصور بن حاجي المذكور .

ويلبغا هذا هو الذى مدحه ابن أبي حجلة المغربى بالقصيدة التى سبق لنا التنويه بها والتمثيل ببعض أبياتها .

وبعد ، فقد مدح ابن أبي حجلة الناصر حسنا بقصيدة رائية جيدة تقع في نحو ٥٤ بيتا . وقدمها بغزل في المذكر والمؤنث رقيق ، ولكنه استهلك فيه من أبياتها نحو ثلثها . ويقول في مطلعها :

تبادره بالبدر منه بواده وتعلو له عند المرور نواده
وينتقل من غزله إلى مدحه فيقول :

أن طاب ذلى فى هواها فإنى وحقك من عز فى مصر ناصره
ملك يمز الرح أعطاف قده كما اهتز غصن طار فى الحب طائره
(م ٧ - عصر الماليك)

ويقول :

ملك أسود الغاب تحذر بأسه لأن ملوك الأرض طرا تحاذره
تروهم شهب السما وبروقها وماهى إلا سمره وبواتره .. الخ (١)

وعلى نمط من هذه القصيدة ، ومن بحر ها وروها نظم قصيدة أخرى في مدح
هذا السلطان في أكثر من ثلاثين بيتا ، قال في أولها متغزلا كعادته ، ويذكر ديار
أحبابه البعيدة والقريبة في المطلع :

لدى سمرات الحى برق يسامره يذكره بالشجر ما هو ذاكره
ومنها فى مدح السلطان :

هو الناصر المنصور والعاقل الذى بباطنه ماجاز فى الملك ظاهره
له فى سبيل الله خير ذخيرة وحسن الثنا بين الملوك ذخائره .. الخ
ومنه قوله :

جزى الله عنه مصر ما هو أهله فكلم أمنت فى قطرها من يجاوره
جواد غدت نعماء منا قريبة وإن بعدت فى السبق عناضوا مره .. الخ (٢)

وواضح أن نغمة السياسة الخاصة ، والتصدى لوصف الحروب والمعارك ،
والخط على أعداء الإسلام والعرب ، والدعوة الجارفة إلى مناهضتهم ومجاهدتهم ،
قد خف صوتها بعد عصر الناصر بن قلاوون . وسبب ذلك على ما يبدو ، انشغال
السلطين والأمراء بأطماعهم ومؤامراتهم بعضهم ضد بعض ، مرة بمصر ومرة
بالشام . ومع أن هذه الفتن هى بسبب البلاد وذات صلة وثقى بمصيرها ، لم يطرُق

(١) مفتتح ديوان الصباية لابن أبى حجلة . - والسمرات : جمع سمرة بفتح فضم ، وهى الشجرة
من الطلع .

(٢) آخر ديوان الصباية لابن أبى حجلة .

الشعراء بأبها ولا ولجوا أعتابها ، إلا على وحى وربية ، وفي تعميم وشمول . ولعل ذلك خوف وحذر من العاقبة ، والأيام قلب . أو لعله بسبب شعورهم - وهو من شعور الجاهليين - أن الطرفين المتنازعين هما على حد سواء بالنسبة للملك والطمع فيه والعبث به ، فلا وجه لإيثار طرف على الآخر ، بخلاف موقفهم إزاء أعداء البلاد من التتار أو الصليبيين .

ولهذا اتجهت الأشعار الموجهة إلى رجال الحكم ، نحو المديح ، وكادت تكون مديحا خالصا ، بخلاف ما شهدناه من الشعر في عصر الناصر بن قلاوون وقبلة ، فقد كان المديح فيه لونا من ألوانه وصبغا من أصباغه ، وله نصيب من الآيات قليل . ويبدأ الشاعر قصيدته بتكبيره الدين وبما يشعر بالناصر والظفر ، ويثنى بضجيج الحرب وحديث السياسة والتحام الأبطال . أما الآن فيبدأ الشاعر بالغزل الطريف يؤنثه إذا شاء أو يذكره ، وينساب منه إلى مديح السلطان كأنما يتغزل في غلام من الغلمان . . .

يقول ابن أبي حجلة من قصيدته السابقة في مدح السلطان حسن :

فمدحى له مدح المحب حبيبته إذا زاره والليل قد نام ساهره
وحى له ما إن يقاس بغيره لأنى قيس الحب فيه وعامره ... الخ (١)

وقد مدح شاعر عصره برهان الدين الفيراطى السلطان الناصر حسنا بقصيدة عامرة الآيات ، فيها جزأته وفيها أيضا رفته . تبالغ عدتها بنحوه بيتا . وجرى فيها مجرى ابن أبي حجلة ، من تصديرها بالغزل التقليدى ، فاستهلك فيه سبعة عشر بيتا . وفي مطلعها يقول :

لم ينقلوا عنى الغرام مزورا ما كان حبكم حديثا يفترى

(١) آخر ديوان الصباية لابن أبي حجلة المنبري .

وقضى مع سلطانه بقية الأبيات مادحا . غير أنه افترق في بعضها عن منهج ابن أبي حجلة ، إذ اتجه بمدحه إلى الإشادة بفروسية السلطان وأنه وهبها ، كما وهب الرأى للملك وللإسلام ولمصر . ووصفه يوم الروح - أى يوم روح - وأشار إلى أثره في أعدائه وذكر جيشه وخيله وكبانه وصوارمه ، إلى غير ذلك ، يقول :

ما لاح يوم الروح كوكب سيفه إلا وأضحى في النفوس مؤثرا
لبست بحمر دماهم وببيضه أعداؤه ثوب الهلاك مشمرا
ذو الجيش تسبح في الدماء جياده فتظن أشهبها هنالك أحمر
عقدت حوافرها الغبار فألفت في الجو ما بين الثريا والأثرى
خيل ترى تحت السمكة كأنها عقبان جو فوقها أسد الشرى ... إلخ (١)
ولعل القيراطى يقصد بأعدائه ، أعداءه المحليين ، ولم يفصح عنهم . . .

الغبارى والأشرف شعبان :

وقتل السلطان الناصر حسن عام ٧٦٢ هـ . وولى السلطنة من بعده أربعة من آل قلاوون هم المنصور محمد بن حاجى ، والأشرف شعبان بن حسين ، والمنصور على بن الأشرف شعبان ، والصالح أمير حاج بن شعبان أيضا .
وكان الرجل قد اشتد ساعده وقوى أزره بظهور قيمه القدير خلف الغبارى ، الذى شارك بزجله فى جملة فنون شعرية هامة ، فنافس الشعر منافسة قوية فيها ، ومن بينها الوصف والمدح والتهنئة والثناء والغزل وتسجيل الحوادث وغير ذلك من الفنون .

وفى ميدان السياسة والاتصال برجال الدولة ، جال الغبارى وصال ، فى حين

(١) ديوان القيراطى (مطلع التبرين) مخطوط بالمكتبة الأزهرية ص ٢٩ .

تواري الشعر الفصيح عن هذا الميدان .
ولا بأس من أن ننوه ببعض صنيع هذا القيم الذي سد الفراغ بأزجاله ،
ولو إلى حد .

فمن ذلك زجله الفريد بمناسبة اعتلاء الأشرف شعبان كرسى السلطنة عام
٧٦٤ هـ ، فمنها تهنئة حارة ، وقال في مطلعها :

حب قلبي شعبان موفق رشيد وجما لو أشرق وما لو حدود
وأبوه الحسين وعمه الحسن وارث الملك من جدود لجدود

سل لحظك صارم لقتل العدى وأنت منصور طول المدى والسنين
زعق السعد بين يديك شاريش فرح القلب بعد ما كان حزين
ونصب لك كرسى على المملكة وظهر لك نصره بفتح المبين
والعصايب من حولك اشتالت خفقت في الركوب عليك البنود
فاحكم احكم في مصرنا سلطان لجميع الملاح لحسنك جنود .. الخ (١)

وكان الأشرف شعبان قد ولى السلطنة وهو فى سن العاشرة عام ٧٧٤ هـ
ولبت فيها قرابة أربع عشرة سنة . فدبر له الملك الأمير د يلبغا العمرى . وفى
عهده غزا صاحب قبرص مدينة الإسكندرية وخرّبها ، ولم يستطع الأشرف
اللاحق به قبل فراره . وثارت ثائرة بعض الأمراء على السلطان وأتابكه د يلبغا ،
حتى قضت عليهما . وتولى بعده ابنه المنصور ثم الصالح متوالين .

وكان لمقتل الأشرف شعبان رنة حزن وصدى ألم عميق فى نفس الغبارى ،
حتى إنه رثاه بجزلية رائعة بارعة أودعها مشاعره وأحاسيسه ، وبشأ آلامه
وأوجاعه لمقتل هذا السلطان . ويبدو أنه كان كثير البربه .

وانفردت هذه الزجلية - التي تقع في أكثر من ثمانين بيتاً - باحتوائها على جزء غير يسير من تاريخه في السلطنة والحوادث التي جرت عليه والمؤامرات التي دبرت ضده وأودت به أخيراً .

نقول - انفردت - لأننا حتى الآن ، أى حتى هذه السطور ، لم نجد فيما مر علينا من الشعر إلا وصفا للحروب الخارجية وأمداح الملوك والأمراء والوزراء . أما الفتن الداخلية والثورات المحلية والحروب الأهلية ، فلم تظهر بالذكر في هذا الشعر ، لهذا نحن نبش لهذه الزجلية من هذه الناحية .

وهناك في الحوادث التالية بعض الزجلية الأخرى التي تنحون نحوها ، ينظمها الغباري أيضاً ، وينظمها من بعده بدر الدين الزيتوني . ونعتقد أن الغباري هو الذي سن هذه السنة الحميدة ، التي خلا منها شعر العصر كله في هذه الناحية من حياته .

ويقول الغباري في مطلع الزجلية :

عن منازل طالع القلعة كوكب السعد اختفى حين بار
اقترا ن زحل مع المريخ كسوف شمس انتقل شعبان
وكان الأشرف شعبان قد ذهب إلى الحج - فانهز أعداؤه الفرصة ودبروا
مؤامرة لقتله وهي التي أودت به . وفي ذلك يقول الغباري :

للحجاز لما نوى الأشرف ورجل مع جملة العشاق
خامرت ميه من العسكر ولرصد الغدر جو أجواق
قتلوه شركة وتاريخو للعراق ولا صهبان اتساق
وقد أضحى في الرمال مدفون والذي ييه في طرب فرحان
صار محير والحمام في الدوح ناح لفقدوا باختلاف الحان

وتبدو رنة الحزن والأسى في الأبيات التالية ، وكذلك يبدو حب الغباري

الأكيد لهذا السلطان ، يرثيه في الأبيات وكأنه يتغزل فيه . . . يقول ، وفي كل بيت صورة شعرية أو أكثر :

ضم الأشرف قهرليت شعري هو لقنديل نور ضياه جامع
أو صدف فيه خالص الجوهر أو فلك فيه غاب قمر طالع
أو تقول غاب فيه أسد ضاري أو حفير جواه حسام قاطع
أو كناس فيه أحسن الغزلان أو حمى فيه أفرس الفرسان
أو جسد فيه روح من الأرواح أو سواد مقلة وفيه إنسان . . الخ (١)

الغبارى والظاهر برقوق :

وكان برقوق بن أنص الجركسى ، قد لمع نجمه في عهد السلطان المنصور على ابن شعبان الذى ولى السلطنة عام ٧٧٨هـ بعد مقتل أبيه . وما زال نجمه فى الصعود حتى صار أنابكيا وصارت أمور الدولة فى يديه .

ويبدو أن خلفا الغبارى استطاع أن يحظى عنده ، بدليل أنه فى عام ٧٨١هـ وقعت فتنة شعواء بين الأنابكى برقوق ، والأمير بركة أحد كبار الأمراء ، بسبب الأمير « إيتمش » ، وانتهت بهزيمة بركة والقبض عليه وسجنه . فتقدم الغبارى إلى برقوق بزجلية جيدة يهنئه فيها بانتصاره فى هذه الحرب الأهلية ، ويسجل وقائعها . وقد بدأها بقوله :

مصر صارت بعد انقباض فى انشراح وقلعها مزخرف والقصور
يا إلهى احفظ لنا برقوق واحرس الجند وانصر المنصور

* * *

جعل الله لكل واقعة سبب ونقول لك سبب هذه الواقعة
بركة راد يعمل على إيتمش وإلى الشام يسيروا سرعة

(١) راجع الزجلية جميعها فى بدائع الزهور ج ١ ص ٢٣٦ بولاق .

طلب الصالح بينهم برقوق فأرسلوا له اخلع عليه خلعه
وبقى بعض ما بقى فى النفوس والعليل ما اشتفى بغل الصدور
وقد أمسوا على حذر بايتين وإيش يفيد الحذر مع المقدور.. الخ (١)

واعتدى عربان البحيرة على مدينة دمنهور فى العام نفسه - ٧٨١ هـ
فسلبوا ونهبوا . فسير برقوق لردهم وتأديبهم جمعا من الأمراء على رأس حملة
تأديبية عظيمة . فأوقعوا بهم إيقاعا شديدا وأسروا كثيرا من نساءهم وأطفالهم .
وفر زعيمهم : « بدر بن سلام » ، وسبق الأسرى إلى القاهرة فكان لدخولهم
وقع كبير .

وفى هذه الحادثة نظم الغبارى فى تفاصيلها زجلية ليس لها فى موضوعها
زميلة مماثلة فى القصص ، على ما نعلم . يقول فى أولها :

باسم رب السما أبتدى فارج الهم والكرب
ويفيد الذى حضر قصة الترك والعرب

* * *

جاء الخبر يوم الأربعاء بأن فى ليلة الأحد
جاء دمنهور عرب خدوا سوقها واخربوا البلد
وابن سلام أميرهم هو الذى للجميع حشد
فبرزوا ايتمش سريع بمالك وروس نوب
وعدد ملها عدد ويطلبوا لهم طلب.. الخ (٢)

واعتلى برقوق السلطنة بعد أن انتزعها من الصالح أمير حاج . فهناه الغبارى ،
بزجلية جديدة ومدحه ودعالة ، واستبشر بسلطنته . وقال :

(١) بدائع الزهور ج ١ ص ٣٤٧ .

(٢) بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٢ ولعن الحادثة كانت عام ٧٨٣ هـ لا ٧٨١ هـ .

أشرقت دولة المسلمين وزها نجم سعدا الزاهر
وصبح يوم العدل نور وظهر واختفى ليل الظلم بالظاهر

* * *

مصر صارت روضة بهذا الملك زاهيا طيب عبيرها منشوق
وبالآحمر تفاحها في البياض قد تخضب لسلطنة برقوق
ورأينا المشمش بلا زعفران صار مخلوق بحملة المخلوق
حمل البسان صناعقو الزاهرة قابلتها شطفتات من التامر
زعى الطير شاويش وغنى الحمام رقص الغصن والنسيم الزامر . الخ (١)

ابن حجة والأمير منطاش :

إذا آلت سلطنة مصر في عام ٧٨٤ هـ إلى برقوق بن أنص الجركسى ، فكان أول ملوك الجراكسة بها . واشترى برقوق مملوكة دتمربغا الأفضلى ، الشهير بمنطاش . فرباه ثم أعتقه ورقاه إلى سلك الإمارة فاعتم منطاش أن صار مصدر قلق لسيده . فنفاه إلى بلاد الشام . وهناك استطاع منطاش أن يحدث فتنة أزاحت برقوقا من عرشه ، وأعادت إليه الملك الصالح أمير حاج من بنى قلاوون . وتمكن منطاش من أن ينفرد بالسلطة في مملكة الصالح . ثم استمر على كيد لبرقوق ، فرغب في القبض عليه . وكان برقوق مسجوناً في الكرك واجتمع إليه فيها كثير من الاتباع زحف بهم على بلاد الشام فملكها . فخرج إليه منطاش ومعه سلطانه الصالح بحملة كثيفة ، فانتصر عليهم برقوق وعاد إلى مصر سلطانا .

وبقى منطاش في بلاد الشام يعيث بدمنها وبأطرافها واجتمعت إليه فئات من الأمراء وطوائف من العربان والتركمان ، ملك بهم دمشق وحماة وحمص وبلبيك

وغيرها . حتى قاد إليه برقوق حملة قوية ناورته ببلاد الشام . ثم أعمل الحيلة فقبض عليه . فما كان منه إلا أن انتحر .

يبدو أن الأديب الشاعر تقي الدين بن حجة الحموى اتصل في هذه الأثناء بالأمير « منطاش » ، وبخاصة في المدة التي ملك فيها مدن الشام ، وكذلك حصن سيواس ومدينة حماة حيث هزم أعداءه وقضى على الأحزاب المتجمعة ضده .

وقد مدحه ابن حجة بقصيدة^(١) ، على الرغم من تسكفها ، امتلأت بحملة من المعاني والتصورات الطريفة الجميلة ، مع دقة في رعاية النظير . وأشاد فيها بشجاعته وفروسيته : ووصف حروبه ودخوله حماة ، وسجل له انتصاراته في حصن سيواس . وقال ابن حجة عن قصيدته هذه - وهو دائماً معجب بشعره ونتاجه - : ولعمري أن رواة الركبان سارت بحديث محاسنها ، مع أن تسكفها واضح - كما أشرنا - وبخاصة قياساً على شعر ابن نباتة والقيراطي والبرزاز وقاضى عجلون .

ومن أبياتها قوله :

إن أبرقت في سما الهيجا صوارمه	رأيت غيث دما الأبطال قد مطرا
فن رأى منهم برقاً يلوح له	يظنه سيفه الماضي قد اشتهرا
له مطالعة في الحرب حين يرى	دم العدى فوق طرس الأرض قد سطرنا
أن راسل القوم أنشأ في رسائله	بسمعات ضرب بها الهامات قد نشرنا
ككتابيه السيف والخطى له قلم	والرسل أسهم حثف توضح الخبرنا
إن كان قد نظم الأعداء مكيدتهم	فقل لهم إنه من قبلهم شعرا
لأنه ببديع السيف لف لنا	شملاً ولكن لأرقاب العدى نشرنا
وخط من فوق ألواح الصدور لهم	بابا من الخوف في أحشائهم وقرا

(١) ذكر ابن حجة أنه مدح منطاش الأفضلى بهذه القصيدة حينما كان كافلاً لحماة : أى نائباً عليها عن سلطان مصر . وكان ذلك في مطالع شبابه . راجع خزانة الأدب لابن حجة - باب الواردة .

وصار يكتب بالهندي ويعجم بالخطى فعل شجاع قد قرا ودري
 تراه بالرح بدرا حاملا غصنا وبالتركة غصنا حاملا قرا
 إن جس عودا لضرب مال سامعه والخيل يرقصها إن حرك الوترا
 كأنما الهام أحداق أضربها سمد وأسيافه في الحرب طيب كرى
 ومنها يذكر انتصاره على الأحزاب المتجمعة ضده في حصن سيواس (١)،
 قوله :

بالأمس في حصن سيواس تجمعت م الأحزاب نحوك لما أن أنوار مرا
 فأذكرونا سليمانا وقد نفروا كالنمل من خوفهم يا آية الشعرا
 جاءوا بعين ليففوا منكم أثرا فما تركت لهم عينا ولا أثرا
 ومنها يذكر دخوله مدينة حماة ، وصعوده إلى حمص :

وقد دخلت حماة فهي قد حميت يابرد قلبي بعزم قط ما فترا
 وقد تجاسر عاصيها وخراسكم طوعا وساق الجوارى نحوكم وجري
 ومنذ صعدت بحمص يوم وقفها حجت أعداك حتى ركبهم نفرا
 تركنهم لسيف الهند أضحية لما غدوا لك ياليت الوغى بقرا (٢)

ابن حجة والأمير دمرداش الخاصكى :

وشيد به حديثه مع « منطاش » حديثه مع الأمير « المقر السبني دمرداش
 الخاصكى » نائب الشام . فقد التحم بجيشه مع عصابة من الفرنجة عام ٨٠٩
 وبساحل طرابلس الشام نيابة عن سلطان مصر . فمناه ابن حجة بانتصاره عليهم

(١) سيواس : بلدة بآسيا الصغرى يمر بواديها نهر قزل أرمك ، وهي على مسافة ستين ميلا من
 قيسارية « سلوك المقريزى هامش ٣١٣ عن معجم البلدان لياقوت » .
 (٢) ديوان ابن حجة الحموى « الثمرات الشبية » . وتأهيل الغريب له أيضا - باب المديح -
 والتركية : بيضة من الحديد .

ووصف موقعته معهم ، وما كان بينه وبينهم من المقاتل ، وذكر كيف أنهم أتوه كقطع الليل وأنه أبادهم في ظلماته ، وسماهم « بنى الأصفر » . وسجل له ما نشره بانتصاره هذا في ربوع الشام من الأمن وطيب العيش ، وأنه حمى حصن حماة من أعدائه . إلى غير ذلك .

وتلحظ الروح الإسلامية متفشية في بعض الآيات ، كما أنه اعتمد في بعضها على الاقتباس والتوجيه بأسماء سور القرآن الكريم .

وإليك بعض سطور هذه القصيدة ، قال في المطلع :

قرأت نهار الحرب في سورة النصر وأعداك تتلو في التغابن والحشر
إذا جاء نصر الله والفتح زلزلت عداك برعد الخوف يمالك العصر
بنو الأصفر اسودت وجوه ليوشم وفي أسود البحر ارتدوا بالدماء الحر
نثرت رقاب القوم مع نظم شملنا بحق لقد أبدعت في النظم والنثر
وفي قطع كالليل لما أتوانلت سيوفك في ظلماته سورة الفجر
بسطتهم في البحر ثم كسرتهم نعم أنت عين الدهر في البسط والكسر الخ

ومنها ، يذكر تأمين الشام على يديه وتأمين غيرها من البلاد والمدن :

وأمنتنا بالشام من بعد خوفنا رجاء الهنا من حيث ندرى ولاندرى
وطيبة طاب العيش فيها لأهلها وهب نسيم الغرب من ذلك القبر
وحصن حماة أنت أنت حميته بعزمة ليث لم يخف سطوة الدهر
رددت ملوك الأرض عنه بخيفة تقول وحق العصر إننا في خسر
أطاعك عاصيها ولكن لهم عصي فسمائلهم مارد إلا من النهر
وكم صمموا في أخذها ونجاسروا منعهم أن يقر بواطراف الجسر . الخ
وفي عدة أبيات طريفة يصف أدوات حربه ويبرز عملها ، في تشبيهات وصور لطيفة ، وكلها تنبئ عن شجاعته وهمة نفسه وحفاظه على بلاد المسلمين والعرب . وأورد الشاعر وهو يصف سيوف الممدوح وقسية وأوتاره وقتاه

وسنانه ، عدة من التوريات المناسبة ، وجملة من الألفاظ الاصطلاحية وجه بها ، وراعى النظر مراعاة معجبة . يقول إن سيوفه كانت تجر العدى جهرا فكأنها أحرف الجر . وقسيه لازمت الركوع ، وقناه ظلت أغصانها تهتز ، وسنانه يكفى أبالهب ، وهو منير كالصبح . . . إلى غير ذلك . يقول :

تجر العدى جهرا لخفض رءوسها سيوفك حتى خلتها أحرف الجر
وهذى قسى الحرب أمسى ركوعها لديك ولم تبرح ملازمة الوتر
وتهتز أغصان القنابك فرحة فهل راجعت أيامها فى ربا الزهر
أبالهب يكفى سنائك فى الوغى وتبت يد الأعداء منه إلى الحشر
به زجر الأقران قبل قرانه فقل لبنى لهب : كذا صنعة الزجر
سنان منير يشبه الصبح إن بدا طويل لسان وهو مع أنه جمرى
إذا رمت منه كتم سر عن العدى يسكن ذاك السر فى داخل الصدر
وقد نهنا إلى ما فى أبيات ابن حجة من تكلف ، وهو كثير مراعاة الصناعة .
يؤثر مراعاة النظر ودقائق الملابس اللفظية ، فعاق شعره عن بلوغ الرتبة
النباتية والقيراطية .

ومن المعلوم أن تيمورلنك التترى شن كثيرا من غاراته على بلاد الشام إبان
سلطنة برقوق وابنه فرج . وأنهما رصدوا لصدده بعض جنودهما وإن لم يلتقوا به .
وقد خلا الشعر من ذكر هذه الحوادث . — على ما نعلم . —

ابن حجر العسقلانى والخليفة المستعين بالله :

وكان الملك المؤيد شيخ ، أميرا وكافلا ببعض بلاد الشام قبل سلطنته . وذلك
أيام سلطنة الناصر فرج بن برقوق ، قبل عام ٨١٤ هـ . وكون المؤيد لنفسه حينذاك
حاشية واصطنع رجالا . وثار فى وجه الناصر فرج ، وعارونه فى ذلك الأمير
« نوروز » الحافظى صديقه ومن أكبر أمراء الشام حينذاك واستطاعا بعد
حروب وانتصارات وهزائم أن يقضيا على السلطان فرج بعد موقعة « اللجون » .

بينهما . ثم رأيا تقسيم النفوذ ، فيختص «نوروز» بنبابة الشام من غزة إلى الفرات ، ويختص «شبيخ» بالأتابكية في القاهرة — ليكون مدبر الدولة . واتفقا حسما لما يمكن أن يدب بينهما من النزاع على السلطة ، أن يوليا الخليفة المستعين بالله العباسي — خليفة ذلك الزمان — ملكا وسلطانا على البلاد . فتم ذلك عام ٨١٥ هـ وصار المستعين سلطانا . وقد لقبوه بالعدل . فكان هذا الوضع غريبا وسط نظام الممالك المفروض من أول العصر ، لولاية السلطنة .

وتقدم الحقيقة الحافظ الأديب الشاعر شهاب الدين بن حجر العسقلاني بتنهئته ومدحه إلى الخليفة المستعين بالله العباسي ، أو الملك العدل . وقد بدأها بالمدح مباشرة دون غزل في صدرها كما هي عادته ، فقال :

الملك أضحى ثابت الأساس	بالمستعين العدل العباسي
رجعت مكانة آل عم المصطفى	لحملها من بعد طول تناسي
ثاني ربيع الآخر الميمون في	يوم الثلاثاء حف بالأعراس
بقدم مهدي الأنام أمينهم	مأمون غيب طاهر الأنفاس
ذو البيت طاف به الرجاء فهل يرى	من قاصد متردد في الياس
فرع نما من هاشم في روضة	زاكي المنابت طيب الأعراس

وتبدور ربح السياسة وثيدة في هذا المديح ، معبرة — إذا صح هذا — عن شعور الناس — أو شعور بعضهم على الأقل — فإن الشاعر يقول إن الملك أصبح ثابت الأساس ، فهل كان قبل ذلك غير ثابت الأساس ؟ . . . والشاعر يعلل قوله هذا في البيت الثاني مباشرة ، وعبر بذلك عن شعوره أو عن أمله فيقول : رجعت مكانة آل عم المصطفى لحملها

أفهل كان ثمة أمل أو تطلع إلى أن تعود الخلافة العباسية قوية ماسكة كما كانت من قبل ويكون لها الملك والسلطان ؟ قد يكون شيء من ذلك في نفوس البعض ولكنه يكتمه أو لا يعمل له . على أن استقرارنا لحوادث التاريخ وتسلسل وقائعه واستطلاع مشاعر الناس منها ، لا يعين على تصور شيء من ذلك في نفوسهم

حينذاك . فلعل الشاعر استوحى القول والمعنى من الملابس الوقتية ، وربما يكون قد وقر في نفسه - مع أنه المؤرخ الثبت - أن هذا الموضوع سيدوم .
والشاعر يعترف في أبياته بالواقع المرير ، وهو أن هذه السلطنة جاءت الخليفة على غير قياس ، فيقول وقد ذكر الناصر فرجا :

بالخاذل المدعو ضد فعالة بالناصر المتناقض الأساس
كم نعمة لله كانت عنده وكأنها في غربة وتناسي
ما زال سر الشريرين ضلوعه كالنار أوصحبت له الأرماس
كم سن سيئة عليه أئامها حتى القيامة ماله من آس
إلى أن يقول :

وأدأنا منه المليك بمالك أيامه صدرت بغير قياس
والشاعر قبل هذه الآيات يكيل المدح ويسبغ الثناء على آل العباس جميعا بمناسبة بلوغ رجلهم هذا إلى كرسى السلطنة ، فيقول :

أسد إذا حضروا الوغى وإذا خلوا كانوا لمجلسهم ظباء كناس
مثل الكواكب نوره ما بينهم كالبدر أشرق في دجى الأغلاس
وبكفه عند العلامة آية قلم يضىء إضاءة المقياس
فلبشره للوافدين بهاشم يدعى وللإجلال بالعباس
ويعود فيحمد الله على أن عاد الملك إلى بنى العباس بعد إبلاسه ، فيقول :

فألحد لله المعز لدينه من بعد ما قد كان في الإبلاس
ولكنه يسارع بجانب ذلك إلى ذكر أمراء الدولة - وهم أصحاب السلطة الحقيقية والكلمة النافذة ومالكو القوة - فيقول ، وهو في قوله يعبر عن الواقع المرير المسلم به :

بالسادة الأمراء أركان العلى من بين مدرك ثأره ومواسى
نهموا بأعباء المناقب وارتضوا فى منصب العليا الأشم الراسى

تركوا العدى صرعى بمعترك الردى فالله يحرسهم من الوسواس
وإمامهم بجلاله متقدم تقديم بسم الله فى القرطاس
وهذا البيت الأخير يحدد بالضبط مركز الخليفة السلطان - إذ ذاك - فى
وسط هذه المجموعة الضخمة من أمراء زمانه أصحاب الحل والعقد الحقيقيين .
ويبين أنه افتتح لهم فحسب ، وقد استبشرت به بلاد المسلمين .

فاستبشرت أم القرى والأرض من شرق وغرب كالغذيب وفاس
ويضفى على العباس آيات المديح ويجمع فيه المناقب الحميدة التى كانت للعباس ،
ويؤكد له وجود الزمان فى إبعاد السلطنة عنه من قبل . - وكأنى به فى توكيده
هذا ، يتشكك فى استمرار هذا الوضع ! يقول مخاطباً له .

آيات مجدك لا يحاول جردها فى الناس غير الجاهل الخناس
ومناقب العباس لم تجمع سوى لحفيده ملك الورى العباس
لا تنكروا المستعين رياسته فى الملك من بعد الجحود القاسى . الخ (١)
ولم يستطع الشاعر فى كل ما تناوله فى قصيدته أن يذكر فى صراحة ، أن هذا
الوضع ينبغى أن يتبع وينبغى أن يستمر ، وينبغى أن تكون السلطنة باطراد فى
هذا البيت العباسى الثانى . ومهما يكن من شئ ، فقد شارك بجمده هذا فى تسجيل
إحدى ظواهر المسرح السياسى فى بلاده .

قصائد أخرى لابن حجر :

وبمناسبة الحديث عن قصيدة هذا الشاعر - وهو الحافظ الراوية المؤرخ ابن
حجر الفقيه الشافعى - لابد لنا من أن نذكر أن ديوانه يتضمن فى باب الملوكيات
سبع قصائد : هذه القصيدة التى مدح بها السلطان الخليفة العباسى المستعين ،

(١) قصيدة ابن حجر فى ديوانه المخطوط بالمكتبة الأزهرية - وفى حسن المحاضرة للسيوطى ج ١
باب ذكر خلفاء العباسيين فى مصر .

ومنها أربع قصائد مدح بها الملك الأشرف إسماعيل صاحب اليمن . والخامسة مدح ابنه الملك الناصر بن الملك الأشرف المذكور . والسادسة مدح بها الملك المنصور عبد العزيز صاحب تونس .

وهي قصائد مدح عادية مما يشهد فيها المادح بمناقب الممدوح ويثني عليه لشجاعته وعدله وكرمه وعفته ... الخ .

واعتماد الشاعر أن يتغزل في مقدمة كل قصيدة منها - على غير ما رأيناه في قصيدته في المستعين العباسي .

ونلاحظ بمناسبة هذه القصائد ملحوظتين :

الأولى : أن الشاعر بمدحه ملوك اليمن أو تونس - يفصح لنا عن مدى اتصال أدباء مصر ومصر ، بغيرها من البلاد العربية - كاليمن وتونس - وأن مشاعر الناس فيها كانت متبادلة وأن أمانهم متماثلة ، وأن هذا البعد الفسيح بين حدود البلاد العربية مع صعوبة المواصلات آنذاك ، لم يكن عقبة في سبيل التواصل أيا كان نوعه .

والثانية : أن الشاعر لقب كلا من ملك اليمن ، وملك تونس ، بأمر المسلمين ، فلهذا يقصد بذلك أنه ملك من ملوكهم ، وأمر من أمرائهم ، فحسب .

وإليك بعض أبيانه من قصيدته الأولى التي مدح بها الملك الأشرف إسماعيل صاحب اليمن . قال في مطلعها مشبها :

صب للفيك بالاشواق معمود	فقيد صبر عن الأحباب مفقود
ناء عن الأهل والأوطان مغترب	وواجد ماله في الصبر موجود ^(١)
متيم قد بكى بعد الدموع دما	كأنما هو في عينيه مفصود ... الخ .

ومنها في المدح قوله :

الملاح الفضل صفوا فيض راحته والغيث إن جاد تعبان ومكدود

(١) الموجود : كلمة أغلقت في العصر المملوكي على ما يملكه الإنسان ويدخره من مال وتخف ونحوها ، (م ٨ - عصر المماليك)

والمنايع السرح حيث الأرض من دم من عاداه في خدنها المخير توريد
والنقع ثار دخانا والظلم شررا وما سوى حطب الأجسام موقود
نام الرعاة وقلب البرق يخفق من رعب به وبطرف النجم تسميد
وفي قصيدته الثانية يسير على نمط من هذا ، ويقول له شاكر اهداياك إليه :
إليك أمير المسلمين بعثتها تضمن شكرى من طريف وتالد
فكم من أباد منك هن مرافقى على الدهر لو يسطو وهن سواعدى الخ (١)
ولهذا الشاعر قصائد مديح أخرى وجهها إلى بعض الأمراء في مناسبات ،
وهى لا تخرج في جوهرها عن المدائح المعتادة .

ثم نعود إلى الحديث عن الأمير « شيخ » ، فإنه ما لبث بعد ستة أشهر تقريباً
أن وثب على السلطنة وخلع المستعين ، بحجة أن البلاد في حاجة إلى سلطان تركى
حازم يتولى بمحكمته قيادتها ، وذلك عام ٨١٦ هـ . وتلقب بالمؤيد .

وقد قدم عليه من رجالات الشام عدد من اصطنعهم من قبل فيها ، فاستخدمهم
في بعض وظائف الدولة . وكان منهم الناصرى بن البارزى ، فجعله رئيساً لديوان
الإنشاء ، وتولى الدين بن حجة الحموى شاعر زمانه فجعله مديناً للديوان .

وكان من الطبيعى أن يشور في وجهه الأمير « نوروز » ، الحافظى . وقد استطاع
المؤيد أن يقبض عليه ويحز رأسه وهمد البلاد الشامية والحلبية ودانت له جميع
البلاد .

وقيل : إن المؤيد كان يفهم الشعر العربى وينظمه ، ويقرب أرباب الفنون .
وكانوا يتباهون في زمانه لجودة فهمه لفنونهم وحسن معرفته بها . وكان يغنى من
فن الموسيقى ويركز الفن . ومن نظمه :

فتأنتنا سوائف وخدود وعيون نواعس وقدود
أسرتنا الظبا وهن نعاس وخضعنا لها ونحن الأسود (٢)

(١) راجع ديوان ابن حجر مخطوط بمكتبة الأزهر .

(٢) بدائع الزهور ج ٢ ص ٨ في سياق حديثه عن المؤيد .

ابن حجة والمؤيد شيخ :

ولتقى الدين بن حجة في المؤيد أكثر من مدحة سياسية ، وهي مشربة -
كالمعتاد - بالروح الإسلامية .

ومن بينها قصيدة رائية ، قيل ^(١) إن المراسيم الشريفة برزت له أن ينظمها
ليستوعب فيها الوقائع المؤيدية التي ما برح النصر بها مقترنا . . الخ . فنظم ابن
حجة هذه الرائية وأنشدها بين يدي المؤيد بقلعة الجبل في يوم مشهود ولبس
بسببها تشريفة وعين في ديوان الإنشاء .

وقد نوه ابن حجة في هذه القصيدة بكثير من أعمال المؤيد الحربية وفتوحاته
ووقفاته الرائعة التي توحى بالشجاعة والصبر ، ولا سيما موقعته في « اللجون » ، ^(٢)
وكان معه الأمير « نوروز » ، يعاونه ضد السلطان الناصر فرج وأمرائه وعسكره .
وقد أبدع ابن حجة في بعض الأبيات كما ترى مما يلي ، قال :

كأس المسرة بالهيرة دائر والسكون بالملك المؤيد زاهر
ملك من الأنصار قد أسمى لدين محمد وله الأنام تهاجر
يا حامي الحرمين والأقصى ومن لولاه لم يسمر بمكة سامر
والله إن الله نحوك ناظر هذا وما في العالمين مناظر
فرج على « اللجون » نظم عسكراً وأطاعه في النظم بحر وافر
فأبنت منه زحافة في وقفة يامن بأحوال الوقائع شاعر
وجميع هاتيك البغاة بأسرهم دارت عليهم من سطاك دوائر
وعلى ظهور الخيل ماتوا خيفة فكأن هاتيك السروج مقابر

(١) راجع ديوانه المخطوط بالمكتبة الأزهرية .

(٢) اللجون : بلاد بالأردن على الحدود الشمالية بينه وبين طبرية عشرون ميلا ويبعد عن الرملة
أربعين ميلا « السلوك هامش ص ٨٤ و ص ٥٩٣ ، ٧٥٤ عن معجم البلدان لياقوت » . وهي بفتح اللام
وضم الجيم ، مع تشديد هاء .

صغرت يا شيخ كبار ملوكهم قهرا وما في الخافقين مسكبر
وكسرت ناصرهم وما مقداره في ملتقائك وربنا لك ناصر .. الخ
ومنها . يذكر إيقاعه بالفرنجة ، وهزيمتهم وانتصار الإسلام على
يديه ، قال :

وكذا الفرنج سبطت على غربانهم من جو عزمك في الحروف كواسر
ولسان سيفك في الحروب بحده قد كلم الأعداء منه زماجر
وغدا على الإسلام منك وقاية لعزير منعتهم يذل الكافر
وتصفدت أعداك في صفد وهم عى وطرف البرج نحوك ناظر
والباب يتلو الفتح حين طرقته عند القتال وللفتح أشائر
ومنها يذكر أعمالا له أخرى بنواحي الشام وأطرافها في المرقب وصهيون ،
والشهباء وصرخد ، قال :

وكذا فتوح الشام ذكرك خالد فيها وكم لك سيرة وسراير
وعلوت آدم مرقب وجنيت من صهيون صهوتها وأنت مسافر
هامت بك الشهباء شوقا جمجت فركبتها ولك السعود مسابر
وبصرخد لك وقفة مشهورة وعليك من عين العناية ناظر
ويصف رحمه ونعال خيله في تصورات بديعة فيقول :

وإذا مددت يراع رحلك ماله إلا قلوب الدارعين محابر
ونعال خيلك كالعيون وما لها إلا جماجم من قتلت محاجر
صولحت مسئولولا وعدت مؤيدا للشام منصورا ونجمك ظاهر

ويعود الشاعر إلى ذكر التحام المؤيد بعسكر السلطان فرج ، فيقول :

وأذاك عسكر مصر مع سلطانها في أثر ذاك وأنت ليث كاسر
فخصرتهم بالواديين وفرقت تلك الجموع وكل عقل طائر

وكتبت بالهندي فيهم أسطرا وصدورهم تحت الدروع مساطر
سألوك صلحا بعد إذ فاجأهم هذا وأولهم بمصر عابر
لكنهم خانوك في أيمانهم مذهبهم وأنت نعم الصابر
فورثت أرضهم وجئت ديارهم وملكك نصرهم ومات الناصر
وما زال الشاعر ماضيا في قصيدته هذه على نمط بما رأيت ، يذكر حروب
المؤيد وأعماله وأخلاقه واستيلائه على سلطنة مصر . حتى قال في الختام :
لا زلت في مصر عزيزا حاكما والشام وادها بعدلك زاهر
وتقع هذه القصيدة الفريدة في نحو ٨٤ بيتا . ولعل هذا الشاعر هو الوحيد
الذي تعرض في قصائده لوصف حرب أهلية .

واعلى الملك المؤيد عرش مصر ، بعد أن خلع المستعين بالله العباسي .
فنازعه ، نوروز الحافظي ، بالشام ، فجرد عليه المؤيد حملة ثم قبض عليه ودق
عنقه .

وعلى نمط من القصيدة السابقة نظم ابن حجة فريدة أخرى هنا بها المؤيد بهذه
المناسبة ومدحه وذكر ما كان منه من شجاعة وحيلة ، وما كان منه للإسلام من
نصر وظفر في هذه الواقعة وفي غيرها . وأنشدها بين يدي المؤيد بقلعة الجبل
بمحضور قاضي القضاة وأعيان الدولة الشريفة . . . وخلق عليه المؤيد تشريفا يليق
بهذا المقام . . .

وقد بدأها الشاعر بقوله ، ذاكرا مقتل نوروز :

أبا النصر قد كنوك يا قاهر العدى ومن بعد هذا لقبوك المؤيدا
فللنصر والتأييد قد جئت ثالثا فلا عجب أن صرت في الدهر أوحدا
ظفرت بنوروزين في عصرنا الذي به كل يوم منك بالبشر عيدا
ففي مصر نوروز الذي جاء بالوغي وبالشام نوروز الختون الذي اعتدى

فهذا إلى كل القلوب محب وذا بغضه في كل قلب تأكيداً
ويذكر أيضاً تأييده للدين ونشره للمكارم والعدل فيقول :
وأيدت دين الهاشمي وآله وأمته حقاً نصحت محمداً
وكل عصاة الأرض مذ صرت قبلة أطاعوا وجاءوا خاضعين وسجداً
وأعداك قد قيدتهم بمكارم ومن وجد الإحسان قيداً تقيداً
ولما نشرت العدل في الأرض فاخرت بمنشورها لما أتاها مجدداً
واستمر في قصيدته يذكر مجامد المؤيد ووقائع حروبه ووقائع إحسانه معاً
في نحو ستين بيتاً بنى بها هذه قصيدة .

وهكذا استطاع ابن حجة أن يتابع - إلى حد - تاريخ حياة الملك المؤيد في
سلطنته ، ويسجل شيئاً من حوادثها ، وأن يسهم بهذا النصيب في الاستجابة
لدواعي البيئة السياسية التي عاش فيها ردحا من الزمن ، والتي كان من أهم مقوماتها
ودعائمها الدفاع عن المسلمين وبلادهم ودينهم ، وعن العروبة وأوطانها .

ابن حجة وصاحب تونس :

وهذه النزعة - في الواقع - لم تكن محدودة الأفق ببلاد المسلمين والعرب على
البحر المتوسط وسواحله الشرقية وحدها . بل - في الحق - تعدتها إلى غيرها من
البلاد والآفاق ، ويدلنا على ذلك القصة التالية :

فقد بلغ صاحب الأندلس محمد بن الأحمر استيلاء الفرنجة على مدينة سبته .
فبعث إلى صاحب تونس بقصيدة دالية يستنهض همته ويستنصره مطلعها :

حماة الهدى سبقا وإن بعد المدى فقد سألتكم نصرها ملة الهدى
وقد أجابه عنه أبو حامد الففصي بقصيدة ، ولكنه لم يوفق فيها فبعث صاحب
تونس إلى مصر رسولا ومعه القصيدتان ، يطلب قصيدة أخرى مناسبة ليرد بها
على قصيدة صاحب الأندلس .

فنظم تقى الدين بن حجة قصيدة دالية من البحر والروى يرد بها على لسان صاحب تونس . وتقع في نحو ستين بيتاً حماسياً يهدد فيها وينذر ، ويوعده ويعد .

ويقول فيها :

أجابكم عزم سبقنا به الندى وأسيفنا والله كذبت الصدى
وأخباركم في رفعها إن تقدمت إلينا فإن العزم قد صار مبتدا
ولا عيب في عطف لنا نحو نصركم وكيف وذاك العطف أمسى مؤكدا
وهمزات سمر الخط موصولة غدت بأرضكم إن كان قد بعد المدى
إلى أن يقول ملهياً النداء :

فليبك يا من بالندا صار معلنا وقد رفع الأعلام في حالة النداء
ومد يدا ترجو من الشرق نصرة بعيشك فالمرجو قد بسط اليداء
نعم واشترينا منك ما كنت بائعا من العرض الفاني بقاء مخلدا
فلا سيف إلا فارق الجفن طرفه وطاب لذاك الجفن فيه تسهدا

ويقول واعدة ومتوعدا :

وإن لم نعالجكم بفرسان شرقنا وبالأمس قد رمت من الشرق منجدا
فليس كما قلتم نرى السيف صارما ولا الرمح عسالا ولا الطرف أجردا
ولا كانت السمر العوالي لدى الوغى تشنى ولا البيض المواضى لتخمدا
وذا الفرض لا يقضى إذا فات وقته وما نحن عند السير ننوى له الأدا
إذا ما تعبدنا وغنت سيوفنا عليهم يظنوا أن في القوم معبدا
فلا هيكل إلا وقد صار دارسا ولا بيعة إلا وتصبح مسجدا . الخ (١)

(١) راجع ديوان ابن حجة الخوى « جنى الجنتين » مخطوط بدار الكتب المصرية . وقد لحن الشاعر في بعض الكلمات .

ويطالعنا في زمن الملك المؤيد شيخ ، الأديب شمس الدين المنصوري ، محمد
ابن أحمد بن عمر ، ويعرف بابن كبل ، ٧٧٥ هـ - ٨٤٨ هـ ، وقد مدح الملك المذكور
بقصيدة ذكر فيها طرفا من جهاده وكفاحه ، بدأها بقوله :

لقد جاء نصر الله والفتح قد بدا فأصبحت منصور اللواء مؤيدا
ويقول :

فأصبح شمل الملك ملتئما بها وشمل أعاديك اللثام مبددا
ألارب يوم أسود صار أبيض بفتح جلا بالبيض ما كان أسودا
ويذكر الشاعر اللبق أن المؤيد جمع بين مصر والشام في سلطنته ، فجمع بذلك
بين أختين . . .

ثم يقدم الشاعر له تحليل ذلك وفتواه بقوله :

جمعت به الأختين مصرا وشامها وليس يحل جمع الأختين في الهدى
ولكن هذا أفنى الحسام وطالما رأيناك تستفتي الحسام المهندا . الخ (١)

وزين الدين بن الخراط - المتوفى عام ٨٤٠ هـ - الكاتب الشاعر الأديب
يعتبر من حلبة ابن حجة الحموى . وبينها مشابهة أخرى منها أنه من مواليد حماة
كابن حجة ، وأنه طاف مثله ثم قطن القاهرة ومدح ملوكها ورؤساءها واشتغل
في كتابة الإنشاء أيام رئاسة الناصر ابن البارزى لديوان الإنشاء . وبعد ابن
حجة حل محله في الديوان ، ومدح ابن البارزى .

ومما يذكر أنه كان يعيش في عصر الأشرف برسباى وكان من مداحه . وقد
أرسل أهل المغرب إلى برسباى في طلب نجدة ، فشارك ابن الخراط بقصيدة
حماسية طنانة ، قال أبو المحاسن في المنهل الصافي : « إنه سمعها منه بلفظه ، وأقسم أن

(١) المنهل الصافي ، في محمد بن أحمد بن عمر « مخطوط بدار الكتب » ،

أحدا غيره لا يستطيع أن يجيب بمثلها ، . وأمن على ذلك شهاب الدين بن حجر العسقلاني (١) .

تأديب ملك قبرص :

وكانت جزيرة قبرص قد عاشت زمنا طويلا وهي محطة صليبية ، تتجمع فيها قوى الفرنجة ، ومن ثم تعتدى على سواحل مصر والشام وتتلصص على شواطئها ، وتسعى إلى المسلمين .

وقد جهز لها السلطان الأشرف برسباي حملة بحرية قوية يعاونها جنود بريون ، فذهمت الجزيرة وأوقعت بحاميتها وشتتت شمل جنودها ، وأسرت ملكها دجينوس بن جاك ، ، وغيره من رجاله ونسائه وصبياناه ، وهم نحو ألف إنسان . وقد عادت الحملة بهم إلى مصر في شوال عام ٨٢٩ هـ ودخلوا بهم القاهرة في موكب عظيم وخرجوا من باب زويلة إلى الرملة إلى القلعة ، و دجينوس ، خلف الأسرى على بغل وهو مقيد بالحديد . فقبل الأرض بين يدي برسباي . وتأثر برسباي لهذا النصر وشكر الله عليه . وظل دجينوس ، زمنا بمصر ، حتى فرض السلطان عليه جزية يؤديها سنويا ثم أطلق سراحه .

قال أبو المحاسن : « استمرت الجزية إلى يومنا هذا ، .

وقد سجل زين الدين بن الخراط هذا الحادث الفريد في إحدى قصائده ، وبلغت عدتها ثلاثة وسبعين بيتا ، لم يثبت منها أبو المحاسن سوى سبعة أبيات من أولها ، وهي في مدح السلطان . وفيها يقول .

بشرالك يا ملك الملوك الأشرف بفتوح قبرص بالحسام المشرفي
فتح بشهر الصوم تم له فينا لك أشرف في أشرف في أشرف

(١) المنهل الصافي ج ٢ ورقة ٣٠٣ في ترجمة « عبد الرحمن بن محمد بن سليمان » .

فتحت تفتحت السماوات العلى من أجله بالنصر واللفظ الخفى . الخ (١)

وهكذا ترى أن الشعر الفصيح انتعش بعض الانتعاش في الميدان السياسى في جيل ابن حجة الحموى ، وقد يكون ذلك بسبب تتابع الحوادث السياسية نفسها ، ذات الطابع الخارجى ، ولو إلى حد .

إلا أننا نرى فيما يلى أن الأحداث السياسية والحروب الخارجية ، قد هدأت حدتها إلى حد كبير ، وتفاقم أمر الخلافات والحروب الأهلية الداخلية . الأمر الذى نرجح أنه السبب الأصيل فى تضائل خطى الشعر فى هذا الميدان ، إذ لم يعد له من العوامل والخوافز ما يدفعه إلى الظهور والبروز كما كان شأنه فى أوائل العصر ، وهى الفترة الخصبة فى حياة الدولة التى قضتها فى مكافأة أعدائها فى الخارج مكافأة ذات قيمة وحاسمة .

عودة الزجل :

وبعد فقد كان بروز ابن حجة الحموى فى ميدان السياسة بشعره ، رجعة للشعر الفصيح إلى هذا الميدان ، وصحوة بعد هذه الإغفاءة الطويلة التى انتهزها الزجل فاحتل الميدان وسد الفراغ ، فله الفضل ، بالرغم من تكلفه .

وننبه القارىء إلى أن هذه الظاهرة لم تتعد البيئة السياسية . أما ألوان البيئة الأخرى ، فإن الشعر لم يتخل عن أداء واجبه حيالها وعن الاستجابة لمقتضاياتها كما حدثناك به فى مناسبات أخرى .

وبعد ابن حجة نشاهد ظاهرة الزجل تعود مرة أخرى وتطغى ، ونرى الشعر بجانبه يتضاءل فى هذا الميدان ويستخذى . ويبدو أن سبب ذلك مانو هنا به من قبل ، أعنى ظهور زجال قدير جديد فى الميدان لا يقل مقدرة عن خلف الغيارى . وذلك هو بدر الدين الزيتونى .

يبرز بدر الدين الزيتوني في عصر قايتباى الذى بلغ سلطنة مصر عام ٨٧٢ هـ بعد أن توالى عليها عدة من ملوك الجراكسة امتلأت أيامهم بالفلاقل والفتن ، ومنهم أحمد بن المؤيد شيخ ، والظاهر ططر . وابنه الصالح ، وبرسباى وابنه العزيز ، وجقمق ، وابنه ، وإينال ، وابنه ، وخشقدم . وبلباى ، وتمر بغا .

وقد حكم الأشرف قايتباى إلى عام ٩٠١ هـ فلبث في السلطنة بذلك زهاء تسع عشرة سنة . وامتلات أيامه كذلك بالحروب والفتن ولكنه كان قوى الشكيمة احتمل مكاره الملك بقلب صلب . وكانت خزائن الدولة خاوية فاحتال حتى دبرها المال . وانقض الملك «سوار» أحد أمراء التركان على أملاك الدولة في شمال الشام وحلب . فجرد عليه قايتباى الحملة تلو الأخرى ، حتى كانت حملة عظيمة من بينها ، بقيادة الأمير «يشبك الدرادار» عام ٨٧٥ هـ ، فهزمته وحاصرت قلاعه وبلغت إلى شواطئ نهر جيحون . وما زالت حتى قبضت على «سوار» وعدد ضخم من أتباعه ، فساقوهم أسرى أذلاء إلى القاهرة . فقطع الملك رأس «سوار» وعلقه على باب زويلة . وأغار ملك العراقيين «حسن الطويل» على بلاد الشام فردّه على أعقابهم بحملة بقيادة «يشبك» أيضا . ووقعت فتن شديدة في مدينة حماة فاطفأها «يشبك» . وأمعن الأمير «يشبك» في السير شرق الفرات حتى بلغ مدينة الرها ، فحاصرها ، ولكنه أصيب أمامها بهزيمة منكرة قتل بسببها وقتل جمع من المرافقين له أمراء وجنودا ، وكادت بلاد الشام وحلب بسبب ذلك يفلت زمامها من يد قايتباى ، لولا إسرعه بإرسال حملة جديدة بقيادة الأتابكى «أزبك بن ططخ» فأعادت الأمر إلى نصابه .

وبدأ العثمانيون معاكساتهم للدولة المصرية في أيامه وأخذوا يثيرون ضده الفتن والفلاقل . فقاتلهم أكثر من مرة وانتصر عليهم وساق أسراهم مصفدين في الأغلال . إلى غير ذلك مما لقيه قايتباى خلال مدة حكمه . واعتدى عليه بعض مماليكه فحزن ومرض ومات عام ٩٠١ هـ .

وكان من أروغب السلاطين في إنشاء الأبنية والعمائر النافعة ، ومنها برجه العظيم .

بالإسكندرية . غير أنه كان كثير المصادرات وفرض الاتاوات وابتزاز
الأموال من الأوقاف . وطاف في بلاد الشام وحلب زهاء أربعة أشهر وعرج
على القدس .

الشهاب المنصوري يسجل حادث سوار :

وكان الشهاب المنصوري أحد شعراء عصر الأشرف قايتباي ، البارزين .
وقد سجل حادث القبض على سوار ، ذلك القبض الذي تم عام ٨٧٧ هـ بعد ما دوخ
هذا الأمير الثائر رجال السلطان وجند .
وفي أبيانه التالية يحرّض الشاعر سلطانه على شنق سوار على باب زويلة ،
ويقول :

يا أيها الملك الذي سطواته تغنى عن العسال والبتار
علق سوارا فوق باب زويلة إن كنت منه آخذا بالشار
فلأنت تعلم أن ذلك معصم ما كنت تتركه بغير سوار

ويبدو أن الأشرف قايتباي قد سمع فيما سمع ، نصيحة الشاعر واستجاب
لتحريضه ، فشنق سوارا وعلق رأسه على باب زويلة . فقال الشاعر في ذلك
مع ترحيبه بمقدم الأمير « يشبك » الدوادار قاهر الملك سوار ، وموريا
بلفظ سوار :

منذ وافى الأمير يشبك مصرا حبذا مصر موطن الأوطار
لبست حجل نيلها وتحلى زند بابي زويلة بسوار (١)

الزيتوني يسجل رحلة قايتباي إلى الشام :

وقد تمت هذه الرحلة عام ٨٨٢ هـ . وقد طاف قايتباي في آفاق هذه البلاد

(١) بدائع أبي إياس . حوات عام ٨٧٧ هـ .

وزار مدنها وقام بجملة أعمال إصلاحية جليلة ثم عاد في حفاوة بالغة .

وقد سجل بدر الدين الزيتوني هذه الرحلة وحوادثها بموشحة زجلية طويلة .
وقد قال عنها ابن إياس الحنفى المؤرخ : « وهى من محاسن الفن كلها غرر وجناس
تام » . وتبلغ نحو ٥٧ بيتا وهى موشحة نادرة المثال ، كئنا نود لو حلت محلها
أو زاملتها موشحة فصيحة . وقد تحدث فيها الناظم عن الفرسان من الأمراء والجنود
الذين صحبوا قايتباى فى رحلته ، ووصوله إلى بلاد « سوار » شرق الفرات
واتصاله بالأمراء والنواب وتقديم الرأى المهم والأوامر العادلة ، والإصلاحات
التي قام بها ، والمواكب التي لقيته إلى غير ذلك — وقد قال فى مقدمتها :

سلطاننا الأشرف خرج فى أربعين من العساكر حين سافر حماه
ومن حلب عدى يروم الفرات فاسقى الخيول من ماء وره حماه

* * *

فى مصر فرسان أربعين بالعدد لدورة المحمل يسوقوا الجياد
ورعهم ساكن قلوب الملوك يردوا الخارج وأهل العناد
فى ذا العدد راح الملك وافتخر بهم على سائر ملوك البلاد
وخوسوار لاقاه وفى صحبته ولد حسن بك بالخدم ما أباه
وخلع عليه أطمى وخلع على ولد حسن خلعة وشتت أباه . . الخ (١)

الزيتونى يرثى قايتباى :

ومات الأشرف قايتباى عام ٩٠١هـ فرثاه بدر الدين الزيتونى بموشحة
زجلية . وقد ضمنها كثير أمن حوادث زمانه ووقائعهم ومؤامراته وفتنه بين الأمراء

ومنها يقول ويشير إلى ابنه الناصر :

يرحم الله سلطاننا الأشرف كان مؤيد على العدى ظاهر
وكذا بنو المظفر المنصور بنصر الله العادل الناصر

* * *

لما زاد الضعف بقايتباى والدوادار فى غاية الإمكان
وتوافق مع الأمير تمران وطلع قانصوه إلى الميدان
وأنى القلعة مع كربتباى والأمانة وهدموا البنين
هرب أقبردى وقيدرا تمران وتولى سلطاننا الناصر
من يخالف أمره ومن يعصيه رد مقهور والأمر للقاهر . الخ (١)

الزيتونى يسجل ثورة عرب عنالة :

وولى السلطنة بعد قايتباى ابنه الناصر محمد عام ٥٩٠١ هـ . وكانت أيامه فتناطاحنة
ذهب من جرائها ، بعد أن حكم نحو سنتين وثلاثة أشهر . وولاه من بعده خاله
الظاهر قانصوه عام ٥٩٠٤ هـ . وفى أيامه بعث حملة تأديبية على بلاد حلب والتركمان
حيث انتشر بها نفوذ غريمه الأمير ، أقبردى ، الدوادار وأعوانه . فعادت
ومعها كثير من الأسرى . وأدب عرب عنالة الضاربين بجبهات البحيرة والعابئين
بنواحيها .

وقد سجل ثورة العربان وتأديب السلطان لهم ، بدر الدين الزيتونى إذ قال
من زجلية فى ذلك :

نحمد الله ونشكرو خالق الجسم والعصب
إذ نصرنا على العرب بالدوادار والعصب

* * *

والعرب أكثروا الفساد من عزالة وعزلوا
جو وعدوا وشرقوا وعلى الحرب عولوا
وأهلكوا الحرث والنسل في الضواحي وحملوا
من عزالة عرب طغوا عمرهم في الوغى ذهب
جنتهم الترك أرخوا وواقعهم بما الذهب . الخ^(١)

ومراده بالعرب ، العربان الذين كانوا يضربون في ظواهر المدن وأطراف
الريف في خيام أو نحوها ويعيشون معيشة فيها استقلال وحرية . وكانوا قليلي
الاختلاط بسكانها ، وكثيرا ما كانوا يتغفلون الناس والرؤساء ويغيرون على
المدن للسلب والنهب :

الزيتوني يرثى دولة الغورى :

ومضى عهد الظاهر قانصوه ومن بعده الأشرف جان بلاط ، والعاذل طومان
باى . ثم أهل عصر الأشرف الغورى ومن بعده الأشرف طومان باى آخر سلاطين
المماليك بمصر الذى قتل عام ٥٩٢٣ .

في هذه العهود لا تكاد تجد ريجا للشعر الفصيح في ميدان السياسة وفي مجال
الاتصال بالرسميين . واستمر الزجل يؤدي دورا لا بأس به في هذا المقام وبخاصة
في مقتل الأشرف الغورى ، إلا نادرا .

فقد مرض السلطان الغورى بمرض في عينيه عانى منه مشقة كبيرة . فقال شاعر
مصر وقرن السلخوني ، الأديب محمد بن قانصوه بن صادق . يدعو للسلطان بالشفاء
عدة أبيات منها :

(١) ابن إياس ج ٢ ص ٣٥٨ ،

شفاك الله يا ملك البرايا من الداء الموكل بالعيون
وأذهب عنهما باللفظ منه سقاما محدثا رخو الجفن... الخ
ولما شفى هنأه بأبيات منها :

يا ملكا عدله أرانا تبسما في فم الزمان
وقد حبانا بحار جود قصر عن عدها لسانى
هنا براء بلى بقاء مؤيدا مظهر النهانى
لا زلت الملك ذا نظام تبدى به جوهر المعانى^(١)

ونقول وبخاصة ، فى مقتل الأشرف الغورى ، فإن لهذا المقتل أهمية كبيرة جداً
فى التاريخ المصرى . ذلك أن الغورى الذى ملك من عام ٩٠٦ هـ إلى عام ٩٢٢ هـ
صادفته أمور جلية وخطيرة فى أيام حكمه . ومن ذلك تربص العثمانيين به وترقبهم
لظروفه حتى يحاربوه طمعاً فى امتلاك دولته . وقد خرج إليهم الغورى فى حملة
مصرية عظيمة كثيرة العدد والعدة ، وكانت جديرة بالنصر والظفر لولا الخيانة
التي سرت بين قوادها فنسكت فتلهم وفتقت جمعهم ، فكانت عاقبتهم الهزيمة
النكراء فى موقعة دمرج دابق ، عام ٩٢٢ هـ ، تلك الموقعة التي فتحت الأبواب
على مصاريحها للاحتلال العثمانى للعين .

وقد سجل مصرع الغورى وحادث مقتله فى المعركة الزجال البارع بدر الدين
الزيتونى ، وبلغت مرثيته الباكية نحو ١١٧ بيتاً . سرد فيها المعركة بحوادثها
وظروفها وملابسائها ومقدماتها ونتائجها وبكثير من أسماء أبطالها والمشاركين
فيها . وإن تجد لرجليته هذه مثيلاً فى الشعر أو الزجل ، تعرض لوصف الحملة
وعنتها وخروجها ومواكبها .
وفى مقدمتها يقول :

(١) بدائع الزهور ج ٤ حوادث ربيع الثانى وشعبان عام ٩١٩ هـ .

غربت شمس دولة الغورى وابن عثمان نجمو طلع سائر
وبهذا رب السماء قد حكم . والفلك دار ولم يزل دابر

* * *

ابن عثمان باداه بأخذ القلع وبمنع التاجر مع الجلاب
أن يجيبوا إلى مصر مملوك ولا فروة سمور ولا سنجاب
ولا وشق ولا ثعلب يجلبوا ومن الصوف ماعاد يجينا ثياب
على الصوف ياماقعدنا سنين ما يجي من هندو ولا تاجر
والامارة جو للملك قالوا ابن عثمان باغى علينا جابر

وتراه في هذه الأبيات قد أفصح عن الأسباب المباشرة للحروب ، وهى هذا
الحصار التجارى الذى ضربه ابن عثمان ، ومنع التجار من جلب الممالك إلى
مصر ، وإحضار الصوف ونحوه من الثياب الضرورية للبلاد المصرية .

وقال :

الأمير الكبير سمي سودون للعجم نسبتو خلاف القياس
والمقر الأشرفى العالى هو أمير سلاح سمي أركاس
وبسودون رأس نوبة النوب لو رياضة مع سائر الأجناس
وانسباى هو حاجب الحجاب لو شجاعة فى الحرب بالبساتر
ومحمد يدعى أمير أخور نجل سلطان أشرف عزيز ناصر

وفى هذه الأبيات يذكر الشاعر بعض الاسماء اللامعة من أمراء الدولة المشاهير
فى الحرب والقتال والفروسية . ومنهم سودون العجمى ، وأركاس ، وسودون
رأس النوبة ، وأنسباى حاجب الحجاب ، والناصر محمد بن الغورى ، ويقول
الشاعر :

أشهى النار لقتلة الغورى ولعل أن أبلغ الأوطار
والتهانى ذات النهار عندى ويغنوا على وتر أوطار

بعد هذا ما أخشى غراب البين إن زعق في دارنا أو طار
والعجائب في قتلة الغورى راح برجلو لفتاتو خاطر
وحسبنا كل الحساب إلا ما جرى لو ما مر بالخاطر... إلخ^(١)
وفي هذه الأبيات ترى الشاعر يندب فقد هذا السلطان ويشتمى أن يشفى غليله
بقتل قتلته وإحراقهم بالنار وبعد ذلك لا يبالى شيئاً ويذكر أنهم لم يدر بخلد
قط ، هذه الخاتمة الحزينة التى رحل إليها الغورى بقدميه .
أعتقد أن الشاعر يتحدث بذلك كله عن مشاعر الجماهير حينذاك ، وما حديته
إلا رجع لإحساسها^(٢).

بهذا كله نكون قد سائرنا العصر من أوله إلى آخره مستقرئين الشعر الفصيح
ومعه شيئاً من الزجل ، لنرى إلى أى حد نجاب الشعر مع البيئة السياسية التى
عاش فيها متأثراً بها وبملايساتها وظروفها . لا ترتاب فى أن الشعر فى جملته
لم يقصر عن الاستجابة ، وفى الحق نرى أن استجابته للبيئات الأخرى كانت
أوسع وأتم ، وكانت أسرع وأكمل .

ولكن البيئة السياسية هى التى أضنت عليه بكثير من أسباب نشاطه - فإن
كان ثمة تقصير منه فإنما كان ذلك منه ضناً بضراً ، وتقثيراً بتقثير .
ولا يهولنا الأمر ، ففى البيئات الأخرى رى للغلة وإقرار لعين المترب .

(١) راجع بدائع الزهور ج ٥ حوادث رمضان عام ٩٢٢ هـ ص ٩٦ .

(٢) راجع بدائع الزهور ج ٥ حوادث رجب عام ٩٢٢ هـ ص ١٩٧ وما بعدها . وفيها قصائد

رثاء للغورى ومصر ودولة الجراكسة من نظم ابن إياس ، ومحمد بن قانصوه بن صادق .

الفصل الثالث

في

أثر البيئة الثقافية في الشعر

بين العلم والشعر

قد ألمعنا إلى البيئة الثقافية فيما سبق . وشهدنا فيها كيف كان النشاط الثقافي ومدى نتاجه ، وذلك حينما توافرت أسبابه ودواعيه .

وشهدنا أن هذا النشاط انجبه أكثر ما انجبه إلى إحياء علوم الدين وبعثها ثم اتجه من بعد إلى إنعاش الأدب وفنون اللغة . وبذلك كانت الثقافة العلمية واسعة النطاق بعيدة الآفاق بالقياس إلى الثقافة الأدبية .

وعاش الشعراء في هذه البيئة وتأثروا باتجاهاتها ، والشعراء بطبيعتهم وبطبيعة فنههم أسرع إلى التأثر بعناصر الثقافة الأدبية . ولكنهم - بلاريب - قد أخذوا من الثقافة العلمية بنصيب ، كما أخذوا بنصيب آخر من فنون العربية . وقد كانت الثقافة العلمية مضروبا مشتركا بين عامة المثقفين كما رأينا .

ولانرتاب في أن الاشتغال بالعلم ينضج على الشاعرية ويوسع مجالاتها ويباعد بين آفاقها ، ويكسب الشاعر حكمة وتجربة وسعة معرفة في ميدانه ، ويزيده معاني وأفكارا ، ويقدره على حسن التصور وجودة التعبير . فالاشتغال بالعلم ضرورة لابد منها لاكتمال الشاعرية .

لانرتاب في ذلك قط ، ولكن بشرط ألا يطغى الاشتغال بالعلم على النزعة الشاعرية وعلى الموهبة الفنية . وإن لازاحمها وشاب عدوبتها وكدر صفاءها ، وبلد من نشاطها وكبت من حيويتها .

وكذلك لارتفاع قط ، في أن ضعف ثقافة الشاعر ، وضيق معارفه ، وقلة
تمرسه بالعلم واطلاعه على تجارب علماء زمانه وعدم متابعتة لحركة النشاط العلمي
وتطوره في فهم ودقة وإحاطة مناسبة ، كل ذلك يجنى على شاعريته جناية كبيرة ،
ويحبسه في دائرة ضيقة من الحياة ، محدودة المعالم حائلة الألوان . فيبدو نتاجه وعلى
وجهه سمات الهزال وصفات السقم ، لاسمو في تصوره ولا جديد في معانيه
ولا متبكر في أسلوبه ، ولا جدية منه في معارضة الحياة ولا مشاركة في الترفيه عنها
والترقي بها ، لأنه ضعيف الاتصال بها مفكك الروابط عنها .

شعراء علماء

نذكر ذلك لأننا في هذا العصر أمام طوائف من الشعراء ، تفاوتت ثقافتهم
واختلفت مقادير معارفهم ، وتنوعت ألوان تخصصاتهم وعلومهم . ولكن
جمعتهم جامعة الشعر ووصلت بينهم وشيجة الأدب .

فمنهم - على سبيل المثال : تقي الدين بن دقيق العيد الفشيري رأس الشافعية
في زمانه ، التقى الورع الزاهد . ومنهم شهاب الدين بن حجر العسقلاني قاضي
قضاة الشافعي وحافظ الحديث ومؤرخ الصحابة وأعلام التاريخ وشارح البخاري .
وتقى الدين السبكي مجتهد زمانه وفقيهه وهكمل المجموع في شرح تهذيب الرافعي في
فقه الشافعية . وجلال الدين السيوطي الفقيه المحدث المؤرخ المفسر .

هؤلاء وأمثالهم يعتبرون رهوسا وقما للحركة العلمية في عصر المماليك .
وكانوا شعراء ...

كان الشعر في نفوسهم منذ الصغر - كما هو الشأن الغالب - موهبة فطرية وطبيعة
نشأت معهم . ثم جذبتهم جواذب العلم ، ونزعت بهم نوازع الدين ، فدرسوا الفقه
والأصول والتفسير والحديث والكلام وما إليه . ونبغوا في ذلك نبوغا رفعهم
... .. إلى المناصب العلمية التي تولوها ، أو تلاميذهم

الكثير الذين تخرجوا بهم ، أو مؤلفاتهم العدة التي خلفوها .

ولكنهم لم يهجروا الشعر أو يهجرهم الشعر ، فمدحوا وتغزلوا ووصفوا واشتاقوا وحنوا وشكوا ونصحوا ، وحاجوا وألغزوا وأجابوا السائل وأفتوا المستفتي ، ورثوا الحبيب الزائل ، ونظموا في الزهد أو في الحكمة أو في غير ذلك .

ولكن ، هل بلغوا القمة بشعرهم كما بلغوها بعلمهم وفقهم . هل كان نتاجهم في باب الشعر كما كان نتاجهم في باب الفقه والحديث والعقائد مثلاً . لا . لم يكن .

ولماذا هذا لم يكن ، وقد بلغوا من ثقافة زمانهم مداها ، ومن معارف عصرهم أعلاها . ؟

ذلك لأنهم انجموا بجمع نفوسهم وبلء قلوبهم إلى الفقه والحديث ونحوهما ، فوهبوا لها الشباب الناضر والعمر الزاهر والفكر النائر والقلم الوائب الطائر . واعتبروا هذا أمانة يحملونها ورسالة يؤدونها ، فلم يسحروهم عنها وساسوس الفن ، ولم يفتنهم عنها شياطين الشعر . فلموا عنه وعن سحره ووساسوسه وشياطينه ليؤدوا رسالة العلم حق الأداء ، ويبلغوا الأمانة حق التبليغ .

ولهذا لم تستطع ثقافتهم الواسعة أن ترفه عن شعرهم ، ولا أن تجذب بضبعه إلى الأمام ، ولا أن تنضح عليه فكراً أو معنى ، ولا أن تجود عليه بخيال أو صورة . وتلك جناية الثقافة ...

وذلك أيضاً لأنهم تدفقوا للثقافة لا للشعر ، وتعلموا ليجيدوا الفقه لا ليجيدوا الأدب والنظم .

وغلبت عليهم في عباراتهم وأساليبهم وألفاظهم ، معاجم العلماء وغاض معين البشاشة في أبياتهم وغابت عنها عذوبة الشعر ومحاسن خياله ومفاتيح تصوره . إلا لما لما . وعلى وحى وإرتياب ، قد تفيض البشاشة وتفيء العذوبة ، ويحسن الخيال وتفتن الصورة .

ومن المناسب أن نسوق إليك نموذجا من أشعارهم . وسترى في كثير منها سمة العلم الخشنة ، وجفاف عباراته . واتجاهها غالبا إلى مخاطبة العقل أكثر من مخاطبة النفس ، وإلى تقرير الحقيقة أكثر من بسط الخيال .

فمن ذلك ما نظمته تقي الدين السبكي في وصف الرافضة - وهم فرقة من الشيعة بايعوا زيد بن علي . ثم قالوا له تبرأ من الشيخين أبي بكر وعمر . فأبى وقال : كانا وزيرى جدى . فتركوه ورفضوه - وكان قد وقف على كتاب لابن تيمية في الرد على ابن المطهر الرافضى ، فذكره وذكرهم ، فقال :

إن الروافض قوم لاخلاق لهم	من أجهل الناس فى علم وأكذبه
والناس فى غنية عن رد إفكهم	لهجنة الرفض واستقباح مذهبه
وابن المطهر لم تطهر خلأثقه	داع إلى الرفض غال فى تعصبه
لقد تقول فى الصحب الكرام ولم	يستحى بما افتراه غير منجبه
ولابن تيمية رد عليه وما	بمقصد الرد واستيفاء أضربه
لكنته خلط الحق المبين بما	يشوبه كدر فى صفو مشربه .. الخ ^(١)

ومن نظم تقي الدين بن دقيق العيد فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، قوله :

ياسائرا نحو الجواز مشمرا	اجهد فديتك فى المسير وفى السرى
وإذا سهرت الليل فى طلب العلى	فذار ثم حذار من خدع الكرى
فألقا .. حيث النور يشرق ساطعا	والطرف حيث ترى الثرى متعظرا
قف بالمنازل والمناهل من لدن	وادی قباء إلى حمى أم القرى ^(٢)

ومن نظم شهاب الدين بن حجر العسقلانى فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام أيضاً ، قوله :

لام العواذل كل صاد للفا ولامهم عين الخطا لو يعلموا

لا يعلموا بين الهوى لكنهم لاموا عليه لأنهم لم يفهموا
إن أبرموني بالملام فإن لي صبراً سينقض كل ما قد أبرموا
ما شاهدوا ذلك الجمال وقد بدا فأنا الأصم عن الملام وهم عموا... الخ^(١)

ليس معنى ذلك أن شعرهم كله على هذا الغرار . ولكن عذوبة الشعر وسحره
ورقته كانت تعاودهم بين الفينة والفينة . وربما كان للغرض الشعري الذي طرّقه
أثر في ذلك .

فن نظم تقي الدين السبكي قوله في الغزل :

قلبي ملكت فما به مرمى لو اش أو قريب
قد حزت من أعشاره سهم المعلى والرقب
يحبيه قربك إن مننت ولو بمقدار تغيب
يا متلفي ببعاده عني أما خفت الرقيب^(٢)

ومن رقيق غزل تقي الدين بن دقيق العيد قوله :

بالذي استعبد أرواح المحبين لذاتك
وبلطف من معانيك يرى من حركاتك
وبنور الحسن إذ يحويك من كل جهاتك
وبسر فوق ما يدرك طرفي من صفاتك
لا تذقني الموت في صدك عني بحيانك^(٣)

ومن رائق غزليات ابن حجر العسقلاني قوله :

طيف لمن أهوى ألما يطوى ذبول الليل لما
أهلا به لو أن طر في المنام يذوق طعما

(١) ديوان ابن حجر ، مخطوط . (٢) الطبقات السبكي ج ٦ في ترجمة النقي السبكي .

(٣) الطبقات ج ٦ ص ١٠

ونعم لقد أعييت في طلب الخيال خيال نعمي
فأعجب أصب يدعى علما يحاول فيه خصما . . الخ^(١)

شعراء أميون

ومنهم أيضا على سبيل المثال : الشعراء الأميون :
إبراهيم المعمار : كان شاعراً جريئاً رقيق الشعر عذب العبارة لاذع النقد مر
النسكته . وهو صاحب البيتين الآتين المشهورين :

قد بلينا بأمر ظلم الناس وسبح
فهو كالجزار فينا يذكر الله ويذبح^(٢)

وشرف الدين بن أسد المصري ، قال عنه ابن شاعر الكتيبي في كتابه :
وفوات الوفيات ، إنه كان شاعراً ماجناً مهتكا ظريفا . وله شعر وزجل وموشحات ،
وكان شاعراً مطبوعاً قليل اللحن ، وله مؤلفات عدة ونوادر وأمثال^(٣) .

وإبن الربيع ، مجاهد بن سليمان بن مرهف ، ويعرف بالخياط . ومن شعره
يخاطب برق نجد :

أعد يا برق ذكر أهيل نجد فإن لك اليد البيضاء عندي
أشيمك بارقا فيضل عقلي فوا عجباً تضل وأنت تهدي
ويسبكك السحاب وأنت ممن تحمل بعض أشواقى ووعدى
بعثت مع الذسيم لهم سلاماً فما عطفوا على له برد^(٤)

والأمير بيهرس الفارقاني . قيل : وكانت له مشاركة في العلم . وكان يزن الشعر
بالطباع ، وينظم منه مالا تمجده الأسماع . ومن شعره يتغزل :

ديوان ابن حجر ، مخطوط .

(٢) فوات الوفيات ج ١ ص ٢٣٧

الزهور ج ١ ص ٣٣١ ط بولاق

فيات ج ٢ ص ١٨٠

من لي بظبي غرير باللحظ يسبي الممالك
إذا تبدى بلبيل جلا سناه الخوالك
من حور رضوان أبهى لكنه نجل مالك^(١)
وغيرهم...

هؤلاء الشعراء أميون لم ينالوا شيئاً من معرفة القراءة والكتابة . فقاتهم
- ولا ريب، - شيء كثير من ثقافة العصر ومعارفه .

ومسألة الشعراء الأميين مسألة يحمل بنا أن نشير إليها في تودة وهوادة
ليستقيم لنا أن ندال بوجودهم على حياة مصر الشاعرة الملهمة التي أنجبت وولدت
شعراء أخلدوا ذكرها ، ورفعوا منارها ، وأذاعوا مآثرها . وكانوا رجعا
حسنا لبيئاتها .

والحق أنه قد دخل في عداد الشعراء ، أو دس نفسه بينهم ، عدد من الذين
نسميهم : « الشعارير » ، أو « المتشاعرين » ، وهذا يقع في كل عصر من عصور
الأدب وبخاصة في عصور العامة .

وقد عناهم - في عصر المماليك - الشاعر مجد الدين الخياط بقوله :

وفي متشاعري عصرى أناس أقل صفات شعرهم الجنون
يظنون القريض قيام وزن وقافية وما شاءت تكون^(٢)

وهؤلاء لا وزن لهم في مجال الحديث عن الشعر . ولكن الذي يعنيناهنا هو
الإشارة إلى الشعراء الأميين الذين أجادوا - بالرغم من أميتهم - نظم الشعر
الفصيح .

يعنيننا ذلك ، لأن بعض مؤرخي الأدب يعتبرهم من سقط الشعراء ، وكلفنا

(١) تولى الفاروق عام ٨٠٠ هـ - راجع بدائع الزهور ج ١ ص ٣٥١ ط بولاق .

(٢) الدرر الكامنة ج ١ رقم ٣٤٢

فى وجه شعراء العصر ينبغى إزالته . ويتخذ وجودهم دليلا على انحطاط الشعر والشعراء ، وعلى ضعف ثقافتهم ، ويقول إن الشعر قد هان أمره حتى اقتحم ميدانه الأميون ...

وكأن إجادة الكتابة والقراءة وحسن المطالعة ، المصدر الأساسى للثقافة وإجادة الشعر ، وليست الموهبة الشعرية والفترة الفنية هى الأساس الاصيل والدافع الأول .

ونحن لا ننكر كما أشرنا - أن الثقافة والاطلاع والاخذ بنصيب من العلم ، زاد ضرورى للشاعر الحريص على التجويد . ولكن ذلك وحده لا يخلق الموهبة ولا ينضج الشاعرية

وقد كان كثير من شعراء الجاهلية ، ومن عاش بعدهم فى عصور الفصحى ، أميين لا يقرءون ولا يكتبون ، ومع ذلك نظموا الشعر الجيد الرائع ، والجزل الممتع البديع . ذلك لأنهم كانوا أدباء أرباب مواهب ، وشعراء ذوى فطر فنية . لا لأنهم كانوا فصحاء بالسليقة ، وإن كانت فصاحتهم عصمتهم من الزلل ، وجنبتهم من القلق اللحن .

والأميون من شعراء العصر المملوكى ، كانوا قد ورثوا عن أسلافهم فساد السليقة ، وباتوا مغمورين فى العمامة والاستعجام . ولكن إلى جانب ذلك كانت لهم مواهب وفطر فنية شاعرة ، دفعتهم إلى النظم فأجادوا ، ولو إلى حد ، والتزموا الفصحى ولم ينحرفوا عنها إلا غرارا . ولم يسلم فحول الشعراء - بل وفصحاء الشعر من قبل - من الانحراف واللحن ..

فهذه إذن حسنة من حسناتهم - لا سيئة من سيئاتهم - ينبغى أن نذكرها لهم وأن نمجدها فيهم ، وأن نحمدهم عليها . فقد دللوا - على أقل تقدير - على خصب مصر وطيب تربتها المنجية ، وعلى قدرتها على الإخصاب فى الحقل الشعرى ، وعلى حسن إيجائها إلى بنينا سواء منهم المتعلم أو الجاهل ، والفارس أو الأحمى . وبجسبك

لهؤلاء ثقافة ماجربوا في الحياة وما اختبروا من أحداثها وما سمعوا من أخبارها .
وهؤلاء الآميون المحسنون ، خير - في رأينا - في ميدان الشعر ، من بعض
المتقنين الذين فاتهم فطرة الشعر وفنية النظم ، ثم أصروا على تعاطي هذه الصناعة
 فلم يحسنوا ولم يجيدوا . ولا يزالون مصرين . . .

ثقافة الشعراء

أما من عدا هؤلاء وهؤلاء من الشعراء ، فعدد ضخم وطبقات متلاحقة
وأجيال متعاقبة ، تضمهم فيمن تضم ، وتجمعهم فيمن تجمع . وسنبهه بهذه
الطبقات أو الأجيال الشاعرة في حديثنا عن أثر البيئة الاجتماعية .

ونعني بهذا العدد ، البقية ، وهم أكثر الشعراء . وقد نالوا من الثقافة العلمية
والثقافة الأدبية نصيبا ، يختلف باختلاف الأفراد ، فمنهم من نال نصيبا موفورا ،
فبلغ ما بلغ من مجد وسمعة ، وبلغ نتاجه ما بلغ من جودة وكثرة ، ومنهم من
نال نصيبا قليلا .

على أنه مما لا ريب فيه أنهم جميعاً عالجوا من ألوان الثقافة الأدبية ، أكثر
مما عالجوا من ألوان الثقافة العلمية . ولهذا فارقوا الصنف الأول - العلماء الشعراء -
وغلبت عليهم نزعة الأدب وظللهم ألوبة الشعر ، فعاشوا أكثر ما عاشوا مخلصين
للفن مشغولين بهواتفه ، مسحورين برقاه ، مسبحين في محرابه .

وبلغ بعضهم في ثقافته بعامية حدا كبيرا أثر في نتاجه حتى خوله أن يقتعد
مقعد الزعامة الأدبية ، ويمسك بيده زماما من أزمتها ، ويصبح قدوة يقتدى بها
غيره من أفاضل الشعراء والأدباء ، ويصبح صاحب لواء يسير في ظله أتباع
وأشباع . أو يصبح صاحب منهج ومسلك يجتمع عليه الخالصان والمحبون .

وإليك مثلا الأديب الكبير محي الدين بن عبد الظاهر ، وقد استطاع بأدبه

ونبوغه في الإنشاء أن يصل إلى مناصب ديوان الإنشاء . وما عثم أن أصبح صاحب هذا الديوان في عهد الملك الظاهر بيبرس . وسن للديوان كثيرا من رسومه وتقاليده المكتاتية حتى قيل إن دستور للديوان ظل مرعيا ومتبعاً طول العصر المملوكى إلى أن زال الديوان في العصر العثمانى .

وقد ألف كتابه « الروضة البهية في أخبار القاهرة المعزية » ، وهو كتاب مفقود ، وقد استفاد منه من ألف بعده في خطط القاهرة وذكره ونقلوا عنه ، كما قرى . وهو دليل على سعة ثقافته .

ولابن عبد الظاهر باع طويل في ميدان الشعر ، فقد كان متابعاً - إلى حد كبير - أحداث السياسة في زمانه لقربه منها ومن الحكام ، فردد أنباءها في شعره وسجل الكثير منها - كما رأيت عند حديثنا عن أثر البيئة السياسية - ونظم في المدح والغزل والوصف وغير ذلك . وانجه في أسلوبه اتجاهها بديعياً .

وإليك مثلاً الأديب البارع شهاب الدين بن فضل الله العمرى ، ثقاف فدرس علوم العربية على الشيخ كمال الدين بن قاضى شهاب وقاضى القضاة شمس الدين بن مسلم . وأخذ الفقه عن شهاب الدين بن المجد عبد الله ، والشيخ برهان الدين العزازى . والأحكام الصغرى على الشيخ تقى الدين بن تيمية الحرانى ، والعروض على الشيخ شمس الدين بن الصائغ وعلاء الدين الوداعى . وقرأ على الوداعى جملة من دواوين العرب . ودرس الأصول على الشيخ شمس الدين الأصفهانى . واللغة والنحو على أثير الدين أبى حيان^(١) .

وقد استطاع بأدبه ونبوغه في الإنشاء أيضاً أن يصبح من كتاب ديوان الإنشاء المعدودين في القاهرة ودمشق .

وقد ألف كتابه المشهور «مسالك الأبصار» وهو مجموع تقويم وتاريخ وأدب وقصص وسير وأخبار ومجتمع نصوص . وله كتاب «التعريف بالمصطلح الشريف» ، وقد ضمنه النص على قوانين ورسوم ديوان الإنشاء في شتى مكاتبه ومراسلاته وابتدع فيها ما ابتدع ، وزوده بكثير من النماذج الطريفة لكل قانون وكل رسم ، وهي من إنشائه .

ولابن فضل الله العمرى باع طويل أيضاً في ميدان الشعر . وقد وصف وتفكه وتغزل وتشوق ونقد ، وراسل وطارح إلى غير ذلك .

والشباب الظريف شمس الدين محمد بن سليمان الذي توفي في نحو السابعة والعشرين من عمره . وترك شعرا دل على ثقافة أدبية محدودة ، ودل على منهج في أسلوب الشعر رقيق ، حتى استحق بذلك لقبه الذي أطلق عليه . ولا بأس من أن ننقل إليك ما وصفه به شهاب الدين بن فضل الله العمرى ، قال :

« نسيم سرى . ونعيم جرى وطيف ، لابل أخف موقعا منه في الكرى ، لم يأت إلا بما خف على القلوب . وبرى من العيوب . رق شعره فكاد أن يشرب ، ودق فلا غرو ، للفضب أن ترقص ، وللحمام أن يطرب . ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان ، وولج القلوب ولم يقرع باب الآذان . وكان لأهل عصره ومن جاء على آثارهم افتتاحان بشعره ، وخاصة أهل دمشق . فإنه بين غمائم حياضهم ربا . وفي كرائم رياضهم حبا . حتى تدفق نهره . وأينع زهره .

وقد أدركت جماعة من خلطائه لا يرون عليه تفضيل شاعر ، ولا يروون له شعرا إلا وهم يعظمونه كالشاعر . لا ينظرون له بيتا إلا كالبيت . ولا يقدمون عليه سابقا ، حتى ولو قلت : ولا امرأ القيس ، لما باليت .

ومرت له ولهم بالحي أوقات ، لم يبق من زمانها إلا تذكرة . ولا من إحسانها إلا تشكره . وأكثر شعره ، لا بل كله رشيق الالفاظ ، سهل على الحفاظ . لا يخلو من الالفاظ العامية . وما تحلو به المذاهب الكلامية . فلماذا علق بكل خاطر ، وولع به كل ذاكر .

وعاجله أجله فاخترم وأحرم أحياءه لذة الحياة وحرم^(١) .

وصنى الدين الحلى الناشئ ببلاد العراق ، والمطوف في آفاق البلاد العربية ومنها مصرها وشامها . لم تفصح كتب الأدب والتاريخ عن مدى ثقافته ونوعها وأسماء شيوخه . سوى أن ابن حجر العسقلاني روى : أن صنى الدين تعانى صناعة الأدب فمهر في فنون الشعر كلها . وتعلم المعاني والبيان وصنف فيها .

والناظر في ديوان صنى الدين يجده قد كتب في مقدمته مانصه : « إني كنت قبل أن أشب عن الطوق وأعلم ما دراعى الشوق . بهجا بالشعر نظما وحفظا . متقنا علومه معنى ولفظا . واما بسبك القريض كارها للسكسب بالتقريض » .

وروى الصفدى أن صنى الدين نظم الشعر وهو ابن سبع سنوات . ويفهم من هذا كله أنه مال منذ حداثته إلى الأدب والشعر اطلاعا وإنتاجا . فأجاد وأفاد وبلغ الغاية من أشعاره وأهدافها حتى سارت بها الركبان .

ونظرة يسيرة إلى ديوانه ورسائله ومؤلفاته تفصح لك عن مقدار ما خط به من الثقافة الأدبية الواسعة ، ويبدو لك جلليا مقدار سعة معجمه اللغوى سعة أفدرته على الأسلوب ومكنته من زمامه بوجهه كيف شاء . ويبدو لك أيضا ضخامة ما قرأ من أشعار السابقين وفهم مناهجهم ، حتى تمثلها في نفسه واهتمهمها . وبذلك امتلك ناصية التعبير وطرق التصوير يعلو بها ويهبط ويستوى حسبما يشاء ، ويبدع ويبتكر أو يقلد ويحاكي وفق هواه .

(١) فوات الوفيات ترجمة الشاب الظريف ، نقلا عن مسالك الأبصار ج ٢ ص ٢٦٣ ؟

وملأ جعبته بألوان البديع ودراسة المعاني والبيان . لقد درسها دراسة الفقيه العالم لا الشاعر الناظم فحسب . فوجهه هذا إلى ابتكار فن جديد هو فن البديعيات . فنظم بديعيته وضمنها ألوانا من البديع بلغت نحواً من مائة وخمسين لونا . ثم شرحها في كتاب لطيف .

وروى أنه قبل نظم البديعية قرأ سبعين كتاباً ، وأنه قبل تأليف شرحها قرأ مائة وأربعين كتاباً^(١) .

وجمال الدين بن نباتة : الذي كان أمير شعراء زمانه ، كان أبوه أستاذاً للحديث فرواه له ، وعلمه علوماً غيره . وقدمه إلى شيخ عصره الفقيه الراوية التقي الورع تقي الدين بن دقيق العيد القشيري فأحبه الشيخ وعنى به ، ولعله رواه الحديث وهو صغير فيمن يروى ، وعلمه مع من يعلم . وكان قد اختار له كتاب الحماسة ليقرأ فيه . وقد أباح له مكتبته يقرأ من كتبها ما يشاء ، وقد حدث ابن نباتة عن الإمام تقي الدين قال : إنه ناولني كتاباً فإذا هو في الأدب - أحسبه من الذخيرة لابن بسام - فنظرت فيه فاستغرقت ، فجاء أبي ولم أشعر بمجيئه . فتعجب من تمكن الشيخ إياي لنظري في كتبه . وكان ذلك كشفاً من الشيخ . وتولعت بالنظم من ذلك الحين ، . ونظم الشعر حقاً ولم يبلغ الحلم .

وقد أخذ علوم الحديث عن الشيخ غازي الحلاوي ، وعن الشيخ عبد العزيز الحصري . وسمع على هذا الأخير مجموعة من الأحاديث خرجها له والده شمس الدين . ومن أخذ عنهم الحديث أيضاً عبد الرحيم الدميري وابن خطيب المزة . وسمع عن الأبرقوهي السيرة النبوية بقراءة الشيخ فتح الدين بن سيد الناس . - وقد أجازه كثيرون .

وبالاطلاع على شعر ابن نباتة يشعر القارئ تماماً أنه كان كثير التقليب

(١) الدرر السكينة في ترجمة الخليل ج ٢ رقم ٢٤٣٠ - وفوات الوفيات ج ١ ص ٣٥٦ .

في كتب الأدب وتاريخه والتاريخ العام، كما كان متمكنا من اللغة وقواعدها وبلاغتها،
خبيرا بمعاني كلماتها. وهذه هي الذخيرة التي عاونته على بلوغ القمة في إبراز مذهبه
في التورية والاستخدام وغيرهما من ألوان البديع.

ومؤلفات ابن نباتة خير شاهد على سعة علمه وكثرة أدبه وتنوع محفوظه من
شتى العلوم والمعارف ما بين تاريخ وتقويم وحوادث أدبية ولغة وغير ذلك.
وكذلك مجموعاته ومختاراته.

ومنها مجمع الفرائد وسرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، وزهر المنشور
وهو في فن الترسل. والفاضل من إنشاء الفاضل، وخبز الشعير، وتلطيف المزاج
في شعر ابن حجاج. وغير ذلك، عدا ديوان شعره ورسائله النثرية^(١).

وتقى الدين بن حجة الحموي: أديب زمانه وشاعره، ومانشئ الديوان الشريف
بمصر على عهد المؤيد شيخ. كان واسع الثقافة ضليعا بعلوم العربية وبخاصة علوم
البلاغة، مطالعا على أدب العربية وتاريخه في العصور السابقة له كافة، وكان ناقدا
ذوافة مقننا للأسلوب، ترى ذلك ماثلا في خزانة أدبه وكتابه، كشف اللثام،
وغيرهما.

وقد تتلمذ للشيخ تقى الدين بن الخيشمى الحنفى فقيه حماة وقاضيا. وتلمذ
في الأدب والعربية على العلامة شمس الدين الهيتى. كما تتلمذ على الشاعر عز الدين
الموصلى صاحب البديعية التي عارضها ابن حجة فيما بعد. وكذلك أخذ عن قاضى
القضاة علاء الدين على بن القضاى.

ومن الطريف ما رواه ابن حجة في خزانة الأدب إذ قال: إنه وهو في مطالع
شبابه، مدح تمرغا الأفضلى الشهير بمنطاش الأشرفى. وكان تمرغا حينذاك
كافلا لحماة. وذلك بقصيدة رائية بديعة. وقرأ أبيانا منها على شيخه قاضى القضاة
علاء الدين على بن القضاى الحنفى. ومنها هذا البيت:

(١) ابن نباتة المصرى أمير شعراء المشرق لعمر موسى باشا ط دار المعارف ص ٢١٠ - راجع
أيضا الدرر الكامنة والوفى بالوفيات ج ١

كأنما الهام أحداق أضربها سهد وأسيفه في الحرب طيب كرى
فقال له شيخه : إن أبا الطيب هو أبو عذرة هذا المعنى ، حيث قال :

كأن الهام في الهيجاعيون وقد طبعك سيوفك من رقاد
واستحسن شيخه منه ما في بيته من زيادات في المعنى قى قوله : « أضربها
سهد » . وفي قوله : « طيب كرى » .

فأقسم ابن حجة أنه ما طالع حتى اليوم ديوان المتنبى ، وما كان طالع إلا ديوانى
ابن نبانة والحلى^(١) .

ونرى أن ابن حجة وهو في مطالع شبابه قد قرأ ديوانى أكبر شاعرين
في العصر المملوكى وهما ابن نبانة والحلى ، ويضم كل ديوان آلافا مؤلفة من أبيات
الشعر في مختلف الفنون والأغراض .

ولا بد أن ابن حجة قرأهما قراءة الدارس الواعى ، الفطن اليقظ . وهى
دراسة واسعة .

هذا ، وأمامك كتب ابن حجة شاهدة على فضله وعلمه وثقافته ومنها خزنة
الأدب ، وكشف اللثام وتأهيل الغريب ، وثمرات الأوراق ، وغيرها^(٢) .

وبرهان الدين القيراطى : رأس الشعراء والأدباء بعد حلبة ابن نبانة ، وقد
أدركه وراسله وأخذ عنه وسلك طريقته فى البديع والتورية ، وقد درس الأدب
وطلب العلم ولازم علماء عصره إلى أن برع فى الفقه والأصول والعربية والحديث .
وقد سمع صحيح البخارى على ابن شاهد الجيش وسمع منه مشيخته . وكذلك سمع
من حسن بن السديد ، وسمع جزءا من السجستانى ، وبعض الغيلانيات على غيره .
وقد حدث بالقاهرة ببعض مروياته ، وتتلذذ له كثير من لعلمه وأدبه ومنهم

(١) : زانة الأدب باب الموارد :

(٢) : راجع ترجمة ابن حجة فى الضوء اللامع للسخاوى وتاريخ حماة للصابونى ط عام ١٣٣٢ ومجدة .
(١٠ م - عصر المماليك)

أبو الفضل العراقي والحافظ نور الدين وبدر الدين البشتكي والجمال بن ظهيرة
وولي الدين أبو زرعه وشمس الدين بن الجزرى ونجم الدين المرجاني ، وغيرهم .
وله الشعر البديع والنظم الرقيق ، وقد تناول كثيراً من فنون الشعر ، بل هو
أحد المفتنين فيه . نظم في الغزل والخمریات والوصف والإخوانیات من عتاب
وشوق ومدح وغير ذلك .

من أسباب نشاط الشعراء

هذه الطوائف من كرام الشعراء ارتزق كثير منهم عن غير طريق الشعر . وأفراد
قلائل - كإن نباتة - استنماوا إلى التمسك به وحده . فعاشوا في شظف من
من العيش ، وفي ضيق بالحياة . أما الباقون فقد ثنوا عنان العزم إلى غير الشعر
فاحترف منهم بالكتابة من احترف . وبالتجارة من تاجر ، وبالعمل في حرفة ما
من عمل - وقد أشرنا إلى هذا الوضع في غير هذه المرة - وذلك لأنه لم يكن من
سياسة الدولة ولا من تقاليد السلاطين والأمراء أن يحتضنوا الشعراء ويغدقوا
عليهم الأموال والهبات ، كما كان أمراء العرب وملوكهم وخلفاؤهم قديماً يفعلون .
وقد كان ذلك قديماً بأن يقتل فيهم المواهب ، أو يقلل من كفايتها ، أو يعوق
عملها الفني . لولا أن تعلقت هذه المواهب بما تعلقت به من الأسباب التي تعينها
على الحياة ، وتساعد على العمل ، وتفتح أمامها سبيل البروز - كالكائن الحي
الذي يدفعه حبه للحياة أن يتشبث بكل سبب من أسبابها يعرض له .

وفي البيئة الثقافية تلاقى مواهب الشعراء ببعض هذه الأسباب . وتلاقى في
البيئة الاجتماعية بأسباب أخرى سمنوها بها في حينها . وإليك بعض الأسباب
أو الوسائل التي تلاقى بها هنا ، فكانت حوافر لها حفظت لها الحياة وهيات
لها العمل .

والرغبة في إظهار العلم : قد تكون أولى هذه الحوافر ، ولعلها كذلك أبرزها

وأوضحها . ولا نغنى بها أن الشعراء - وقد أخذوا ، أو أخذ بعضهم بنصيب من العلم ، قل أو كثير ، عمدوا إلى إظهار ثقافتهم وإبراز معارفهم ، فيما ينظمونه من الشعر ، بمعنى تغذية الشعر بالفكرة . وتلوين الشعر تلويهاً علمياً ، تتحول فيه الأفكار إلى تصورات أدبية ، أو تصطنع وسائل لإكمال الصورة الأدبية ، وتتميم الخيال الشعري ، وصيانتها من النقص والسطحية والضيق وضعف اللون وبطء الحركة وما إلى ذلك .

لا . وإنما كانت المعارف والأفكار العلمية هي نفسها مادة النظم ، التي عنوا بإخراجها شعراً ، بدلا من أن تكون نثرا . وهذه المعارف والأفكار نواضعت العصور واعتاد العلماء والمؤلفون أن يعبروا عنها بالنثر وأن يكتبوها إنشاء في مؤلفاتهم ، بل اعتادوا أيضاً أن يصطنعوا لها من النثر أساليب خاصة هي الأساليب العلمية التي تنأى عادة عن مسارح الخيال الشعري والتصويرات الأدبية ، وتنحو نحو الترتيب المنطقي وسوق المصطلحات ونحو ذلك .

ولكن في العصر المملوكي اتجه كثير من الشعراء إلى نظم هذه المعارف والأفكار العلمية وإخراجها في قصائد تطول أو تقصر ، وتزويدها بما ينبغي للأساليب العلمية أن تزود به . فنظموا في الفقه والمواريث والأحكام المختلفة ، وفي النحر والبلاغة والعروض والتاريخ وغير ذلك كما سنرى .

هذه ظاهرة من ظواهر الأدب الطاغية في العصر المملوكي . وبرجع وجودها في رأينا - إلى أن عدداً كبيراً من الشعراء الذين فطروا منذ الصغر على نظم الشعر - وكان من المحتمل أن يسكون لنا منهم شعراء مجيدون وأدباء ممتازون - اتجهوا إلى دراسة العلوم والتخصص في بعضها حتى صاروا فيها أساندة وأعلاماً وأئمة . ولما لم ينسوا الشعر ، وهو موهبة حبيبة إلى نفس صاحبها أثيرة عنده ، لا يطارعه قلبه على هجرها ولا التجافي عنها ، بل هو يعود إليها بين الفينة والفينة يستروح نفسه ويستلهم لخياله ويخلو إلى أحاسيسه . وهكذا عاد هؤلاء

العلماء إلى موهبتهم الشعرية للاسترواح والاستلهام والإخلاق طلباً للسكينة والطمأنينة النفسية، وتجريب الخيال، فنظموا ونوعوا في نظمهم. وكان في جملة نظم الأفكار والمعارف.

لقد وجدت موهبتهم سبيلاً من السبل إلى الحياة، ووسيلة من الوسائل للحركة والعمل، وأداة من الأدوات تعينها على الإنتاج، فاتخذتها حائزاً وسبباً لاستمرار وجودها واطراد نموها. وهكذا تنفست عن طريق النظم.

ربما يكونون قد سبقهم بعض العلماء بهذه الظاهرة. هذا لا يمنع أن نقول إن علماءنا الشعراء استجابوا لروح البيئة وروح النفس، استجابوا لمنطق التفاعل بين فطرتهم وسياق العصر، ولأحاجة لهم إلى تقليد أو محاكاة.

على أنك لو تتبعنا آثارهم في هذا الباب - وسنتبعه معاً في وجازاتنا ولا ريب - ترى أنهم يكادون يكونون أهل هذه الصناعة، ويخيل إليك أنهم مبتكروها أو أول المتقنين لها، لكثرة ما طرقة من أبوابها، ووفرة ما أنتجوه في كل باب.

وعلى هذا نظموا في حقائق العلوم، ونظموا البديعيات وهي في علوم البلاغة والبديع، وكتبوا الاستفتاء والفتوى شعراً، وسألوا وأجابوا، ولاغروا وحاجروا، إلى غير ذلك مما سنشير إليه.

وحب البديع : عامل هام من عوامل نشاط الشعر. وانتشار البديع وتعلق الشعراء به في عصر من العصور ظاهرة أسلوبية جديدة باسترعاء النظر وبالدرس التعليل. وما هي - في رأينا - إلا طور حتمي من أطوار حياة الأساليب الأدبية.

وهي ظاهرة شديدة الارتباط بحياة المجتمع وطريقة تذوق أفراد وجماعاته للملابسات حياتهم في شتى نواحيها. ولا بد أن أهل العصر المملوكي عاشوا في عصرهم

عيشا بديعيا . . أقصد أنهم في تصوراتهم وفي تصويراتهم وعباراتهم كانوا يصدرون عن حيل بديعية ومسالك طريفة من مسالك البديع . كاصطناع التورية والاستخدام والمطابقة والتضمين ونحو ذلك . وأنهم في هذا متأثرون بمظاهر عصرهم وبآيات حضارته ومستواها . وقد كانت حضارة ملونة مزدانة تجنح نحو حب الظهور والمبالغة والتهويل والالتواء والزخرف . بدا هذا في مواكب السلاطين وخروج المحمل وإقامة معالم الأفراح في الزواج والموالد والأعياد والمواسم . وبدا في الصناعات والفنون ومنشآتها وأدواتها كالمنابر والثريات والبسط والزجاج ونحو ذلك .

على أن الأوضاع السياسية القائمة حينذاك كانت تدعو إلى اصطناع هذه الأساليب البديعية ، لما تتطلبه هذه الأوضاع من احتيال في مخاطبة الحكام ، والتواء ضروري في محادثتهم ، خوف غضبهم أو بطشهم ، فالمصانعة كانت ضرورية ، وهي في أسلوب المتكلم أحق بالرعاية حينذاك .

نريد أن نقرر أن الحياة السياسية والاجتماعية شريكتان في إقرار البديع في أسنة الناس والجمهير ، وفي طبعها بطابعها . ولكن للحياة الثقافية من ذلك أو في نصيب وأكبره . ذلك لأن الأدباء — كما درسنا — نشئوا على ما كان قد نشأ عليه أسلافهم من الكتاب البديعيين في العصرين الفاطمي والأيوبي ، وأخذوا عن القاضي الفاضل مذهبه وطريقته ، وأخذوا عن ابن الأثير صاحب المثل السائر ، وتأثروا بذلك دراسة وتذوقا ، فسحروا بمذاهب المتقدمين في هذه الصناعة . وعادتهم على هذا أو عاون على سحرهم وانهيارهم وإقرار هذه المذاهب في نفوسهم وأذواقهم ، نظرهم إلى القرآن الكريم وطريقة دراستهم لأساليبه ، فقد رأوا في كل نظم من نظم آياته لونا بلاغيا أو بديعيا ، وأخذوا أنفسهم بالافتداء به والنسج على منواله . حتى أربت أنواع البديع عندهم على ما كان عند أسلافهم ، وزاد عددها زيادة صارخة وتنوعت تنوعا ، للعقل فيه — على ما نعتقد — أكثر

ماللدوق . لقد بلغت أنواع البديع نحو مائة وخمسين نوعا . وتنوع النوع الواحد إلى أنواع كثيرة . وإليك الجنس مثلا ، فمنه التام والناقص ، ومنه المركب والمطلق والمذيل والملفق ، إلى غير ذلك . . .

ومهما يكن من شيء فقد كان البديع وألوانه المعدادات فيما مضى من العصور الأدبية ، مسلحا من مسالك الشعر ، وقالبا من قوالب الأساليب . ولكنه في عصر المماليك أضحى غاية من الغايات التي ينظم الشعر من أجلها ، وهدفا من الأهداف التي يقبلي الشعراء ويتنافسون في سبيل الإجادة فيها وبلوغ الغاية منها . لقد ملك حب البديع على الأدباء والشعر نفوسهم وألسنتهم ، حتى أصبحوا يدورون في فلكه ، ويرون البلاغة كل البلاغة في إجادة أنواعه وفي ابتكار الأفكار والمعاني أحيانا ، وقالوا حيه ، وصياغتها في قوله . وقد أقبلوا بجمع نفوسهم على إصابة أهدافه ، وشغلهم شأغله حتى أنتجوا في بابيه وبدوافعه . الكثير الرائع المبتكر المعجب : وبذا صار البديع أحد أسباب النشاط الشعري ، وإن كان غاية من أهم غاياته .

وبسبب حبهم للبديع وولوعهم به ، حمى وعطس المنافسة بينهم - كما أشرنا - وداروا في أجواء اللغة بحثا عن مفرداتها وما بينها من تضاد أو اشتراك أو ترادف وغيره من خصوصيات الألفاظ ، وافتنوا في التقاط ما منها يجود فيه المجاز أو الاستعارة أو الكناية أو غيرها . وأسرعوا إلى الشعر يصوغونه ويضمنونه ما التقطوه ، مصنفين منه ما حلا لهم من ألوان البديع

وكان قصارى كثير منهم - أحيانا - نظم البيت أو البيتين أو المقطوعة فحسب ، دون القصيد الطويل ، مكتفياً بما ضمنه من الجنس أو التورية أو الاستخدام أو غير ذلك .

وكثيراً ما تتداعى الخواطر على لفظ تغذب فيه التورية - مثلا - فيتهالك عليه عدد من الشعراء ، يسبكونه في قوالبها ، كل منهم بحسب ذوقه وتصوره

ومقدرته الفنية . وهنا قد تشابه الأفكار وتماثل الصور ، فتحس السرقه وتظن الظنون . بل قد يندفع بعضهم إلى السرقة السافرة تحت تأثير حمى البديع ، غير مبال بالعاقبة .

وهكذا - كما ترى - فتح لهم حب البديع والتعلق به باباً واسعاً للنظم ، ونجاساً فسيحة للنشاط ، فتنافسوا وعارضوا وطارحوا وسرقوا وأكثروا من نظمه في مقطوعاتهم الغزلية والوصفية ونحوها ، وملثوا به أيضاً بطون مطولاتهم .

وسنحدثك في الفصل الخامس حديثاً مفصلاً عن نتائجهم في هذا الباب ، مدعوماً بأمثله وشواهد .

والنقد الأدبي : قد تأثر في هذا العصر تأثراً واضحاً بولوع الأدباء بالبديع . وهو دائماً أحد الخوافز إلى النشاط الأدبي والشعري . والنقد الأدبي - كما نفهم الآن - هو النظر في النتائج الأدبية لأمة أو فرد ، لمعرفة مدى فنيته ولونها ، متخذين من الموازين الأدبية السليمة مقياساً للحكم على صدقه وقيمته ، وإبراز محاسنه ومساوئه . ومعنى هذا تحليله وتعليقه لفظاً ونظماً وفكرة . وتوضيح المؤثرات فيه على اختلافها ، ومبلغ استجابته لبيئاته . ومدى تأثيره بغيره من الآداب ، وتأثيره فيها .

والناقد يحتاج إلى سعة من اللغة والأدب والعلم . ودراسة دقيقة لمذاهب النقد والبلاغة قديمها وحديثها ، مع دراسة اجتماعية ونفسية حاذقة عميقة تتناول الفرد والمجتمع .

والنقاد بأحكامهم وإرشاداتهم - يعبرون غالباً عن ذوق معاصريهم وحاجات عصرهم ، ويوجهون الأدباء إلى ما ينبغي .

وقد عاش النقد الأدبي وعلوم البلاغة ، قبل العصر المملوكي . وشهدا أطوارا من الدراسة والبحث والتحول والإضافة والتنظيم ، حتى بلغا حداً من النضج محمودا . وكان لذلك كله آثار بعيدة المدى واضحة المعالم في اتجاهاتهما في العصر المذكور . ومن ثم في التأثير في أساليب الأدب شعرا وكتابة .

وأهم ما يجبنا من ذلك ، ذوق بديعي عام استحوذ على الأدباء والنقاد جميعا ، لم يعتمد على ما خلفه الأقدمون من قواعد في النقد البياني فحسب . وإن كانت هذه القواعد من أهم دعائمه ومصادر إلهامه ، وإن كان قد جمع كل أبواب البلاغة قديمها وجديدها تحت راية البديع .

واقدر أشرنا من قبل ، إلى مذهب القاضى الفاضل . وأشرنا إلى مدى تأثير أدباء العصر به . لقد كان القاضى الفاضل علما من أعلام الأدب شعرا وكتابة . وابتدع فيهما طريقتيه التي أساسها الإكثار من المحسنات . ومنها الجناس والطباق والتورية والاستخدام ، والإمعان في اصطناع التشبيه والاستعارة والتلميح إلى الحوادث والنوادر ، والتوجيه بالمصطلح ، والابهام والإقتباس ، وغير ذلك .

وقد انتشرت طريقتيه هذه على ما وصفنا - في العصر الأيوبي ، ونهيج نهجه فيها أدباء العصر المملوكي كتابا وشعرا . حتى ظهر شاعر مصر الكبير جمال الدين بن نباتة ، فسار على دربه وتعصب لطريقته وأبرز معالمها ، واتجمت عنايته إلى إجادة التورية والاستخدام ، ومزج بين التورية والجناس تخفيف بها ثقله وأزال عقادته . وهكذا ، حتى لا نغلو إذا ذهبنا مذهب ابن حجة الجوى ، وعددنا ابن نباتة صاحب مذهب في أساليب الكتابة والشعر .

وسار أدباء العصر المملوكي تحت هذين اللواءين : اللواء الفاضلى واللواء النبائى . وانطبع بهما الذوق العام حتى أصبحا أساسا وميزانا يزن به النقاد أساليب الأدباء .

ترى ذلك ما ثلا بوضوح في كتاب « حسن التوسل » للشهاب الحلبي ،

و « خزنة الأدب » ، لتقى الدين بن حجة الحموى وهما في مقدمة كتب النقد الأدبي في ذلك العصر . لقد تأثرا تأثراً ملحوظاً بمنهج القاضي الفاضل وابن نباتة . الأول بالفاضل الفاضل وابن الأثير والثاني بهما وابن نباتة .

ولم يقتصر الاهتمام بالنقد على ذلك ، بل انساق صلاح الدين الصفدى ، مع ولوعه بالجناس ، إلى تكلفه تكلفاً شديداً . وألف فيه وحده كتاباً أسماه « جنان الجناس » . فتمك به ابن نباتة وقرأه « جنان الجناس » . وحمل ابن حجة عليه حملة شديدة لهذا الولوع والتكلف . وكذلك حمل عليه كل من شهاب الدين بن أبى حجلة ، وبدر الدين البشتكى (١) .

وتوالى سرقات الأدباء بعضهم من بعض . وتفاقت سرقات الصفدى من شعر ابن نباتة . فألف ابن نباتة فى ذلك كتاباً سماه « خبز الشعير » ، جمع فيه بين شعره المسروق وشعر الصفدى .

وأشار ابن حجة فى كتابه « خزنة الأدب » ، فى أكثر من موضع إلى هذه السرقات جميعاً وسجل منها نماذج متعددة . ومن الطريف أن ابن حجة نفسه وقعت منه سرقات شعرية تعقبها أكثر من أديب . ومنهم معاصره « شمس الدين النواجى » . نقده النواجى وأفصح عن سرقاته فى كتاب سماه « المحجة فى سرقات ابن حجة » .

هذا كله يشعرنا بأن النقد الأدبى كان على شىء من النضج وأنه كان أحد الشواغل الأدبية التى شغلت خواطر الأدباء . وهذا - ولا ريب - له أثره فى إنعاش الحركة الأدبية بعامه . والشعر بخاصة . إذ كانت النقديات أكثر ما توجه ،

إلى الشعر . ونقد الشعر من ألوان تقديره والتشجيع على نظمه ، والحفز إلى إحسانه وإجاده .

على أن النقد الأدبي كانت له أحيانا مراحات ، ومجالس يتناوله فيها الأدباء ، ويتبادلون فيه الرأي ، ويعرضون فيما بينهم ما طاب لهم من الشعر .
ومما يدلنا على ذلك ، ما رواه تاج الدين السبكي في طبقاته ، عن تاج الدين المراكشي ، أنه « دخل عليه مرة ، وهو ينشد قول ابن تقي :

حتى إذا مالت به سنة الكرى زحزحته شيئا وكان معانق
أبعدته عن أضلع تشتاقه كي لا ينام على وساد خافق
وقول الحكم بن عقال :

إن كان لابد من رقاد فأضلعي هاك من وساد
ونم على خفقمها هدوءا كالطفل في هزة المهاد
وهو ومن عنده يقولون . إن قول الحكم أجدر بالصواب . فإنه لا يناسب المحب أن يبعد حبيبته . وينشدون قول صلاح الدين الصفدي في ذلك ردا على ابن تقي :

أبعدته من بعد ما زحزحته ما أنت عند ذوى الغرام بعاشق
إن شئت قل : أبعدت عنه أضلعي ليسكون فعل المستهام الواثق
أرقل فبات على اضطراب جوانحي كالطفل مضطجعا بمهد خافق
فقال السبكي :

إن ابن تقي ، ، وإن أساء لفظا حيث قال : « أبعدته ، فقد أحسن معنى .
لأنه وصف أضلعه بالخفقان والاضطراب الزائد الذي لا يستطيع الحبيب النوم معه عليها . فقدم مصلحته على مصلحته ، وترك ما يريد لما يريد . وأبعده عما يقلقه . ولو قال : « أبعدت عنه أضلعا تشتاقه ، لأحسن لفظا كما أحسن معنى .

وأما الحكم فإنه وصف خفقانه بالهدوء ، وهو خفقان يسير يشبه اضطراب سرير
الطفل . وهذا نقص . .

فوقع النزاع بين المتناقشين في ذلك ، وأرسلوا إلى القاضي شهاب الدين
أحمد بن فضل الله العمري ، صورة سؤال عن الرجلين : ابن تقي والحكم . أيهما
المصيب ، .

فكتب ابن فضل الله : قول ابن تقي عايه مأخذ . لكنه قول المحب الصادق
يكفيه في صدق المحبة قوله كي لا ينام على وساد خافق
ما الحب إلا ما يهد له الحشا ويهد أيسره فؤاد العاشق^(١)

وقد استطرد تاج الدين السبكي عقب ذلك ، فسجل نقداً له وللصلاح الصفدى
على بيت جرير . قال السبكي : « ويقرب من هذه النكتة أن جريراً قال :
طرقتك صائدة الفؤاد وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام
فعيب عليه قوله « فارجعى » وهو نقد حسن . فليس أبشع من قول المحب
لمن يحبه : « ارجع » .

ورأيت الشيخ « صلاح الدين الصفدى » نفع الله به ، قد قال راداً عليه :

يا خبيلة جرير من	قول كفانا الله عاره
طرقتك صائدة الفؤاد	د وليس ذا وقت الزيارة
هل كان يلقى إن أتا	ه خيال من يهرى خسارة
أو كان قلب حوله	هو من حديد أو حجارة

فعجبت له كيف ترك لفظة « ارجعى » وهو أبشع ما عيب به على جرير .
وقلت :

(١) طبقات السبكي ج ٥ ترجمة تاج الدين المراكنى .

أما جرير فجر ثوب العمار في دعوى الصباية وازدياد غرام
 إذ كذب الدعوى وقال لها وقد زارته في الغلس : ارجعي بسلام
 ثم قلت : لعل الشيخ صلاح الدين إنما ترك لفظة « الرجوع » لنكارتهما . وقلت :
 إني لأعجب من جرير وقوله قولا غدت به أنكراه حاله
 طرقتك صائدة الفؤاد وليس ذا وقت الزيارة فاستمع أقواله
 واعدت فلست بمقادر والله أن أحكى الذى بعد الزيارة قتاله
 فلما وقف الشيخ صلاح الدين على كلامى هذا كله ، زعم أنى أعترف له بحسن
 النقد ، وقال :

أما جرير فلم يكن صبا ولكن يدعى
 أو ما تراه أتمه صا ندة الفؤاد ولم يع
 بل قال جهلا ليس ذا وقت الزيارة فارجمي
 لو كنت حاضر أمره قلت ارجعي وله اصفى

قلت : « ولا يخفى أن هذه الاعتراضات كلها لفظية ، طرقت قائلها ولم يحقق ،
 فإن جرير لم يقصد رجوعها إلا للشفقة عليها من الزيارة في غير وقت الزيارة .
 فجاء الاعتراض من لفظة « الرجوع » فقط . كما جاء ابن تقي من لفظة « الإبعاد »^(١)

ومما يشبهه ما سبق ، بيتان نظمهما ابن أبي حجلة المغربي ، يتندر على صلاح
 الدين الصفدى وسرقانه من ابن نباتة ، فقال :

إن ابن أيبك لم نزل سرقانه تأتى بكل قبيحة وقبيح
 نسب المعاني في النسب لنفسه جهلا فراح كلامه في الريح^(٢)

وقريب من هذا أيضا ، إنكار تقي الدين بن حجة الحموى على صفى الدين الحلى ،
 تفوقه في فن الإنشاء ، فقال مع التورية الطريفة :

(٢) ديوان ابن أبي حجلة المغربي .

(١) المصدر نفسه .

قالوا صفى الدين أشعاره ما للورى فى طرفها عشى
وهكذا إنشأوه مسكر قلت لهم والله ما أنشأ^(١)

هذا مثل أو أمثلة بما كان يشغل بال الأدباء من النقد . وما كانوا يتبادلونه من
الرأى ، أو يعقبون به . وهى أمثلة فيها سذاجة وسطحية . وهى أيضاً نادرة .
واسكنها على كل حال ، تصور لنا أن النقد كان أحد شواغلهم فى مجالسهم وفى
مراسلاتهم ونحوها .

وبإضافة ذلك إلى ما أشرنا إليه من كتب النقد - على قلتها - نستطيع أن نذكر
أن النقد الأدبى - ونقد الشعر بخاصة والحديث عن سرقاته الأدبية - كانت بها
عناية ، وأن هذه العناية من شأنها أن تزيد فى نشاط الشعراء ، وأن توجههم نحو
ما ينبغى مما يتطلبه الذوق المعاصر لهم . وبعد ، فما هو نتاج هذا النشاط الذى
حفرته الثقافة وعواملها ؟ نحدثك عنه فيما يلى .

نتاج النشاط

تناول الشعراء - بدافع الثقافة جملة من الأغراض الشعرية نوهنا بها هنا أو
بعضها فيما سبق من السطور - والآن نفصل لك الحديث فيها بعض التفصيل .
واضعين فى الاعتبار أنها صدى لآلوان البيئة كلها بعمامة ، والبيئة الثقافية بخاصة .
فنقول :

حقائق العلوم

يقال إن نظم حقائق العلوم ابتدأه أبان بن عبد الحميد اللاحق فى العصر
العباسى . ومن بعده سار بعض الشعراء على نهجه .

(١) مجرى السوابق . وقهوة الإنشاء ، مخطوطان بدار الكتب المصرية - هذا وقد سبق لنا ذكر
حديث النقد فى المجلد السادس . ورددناه هنا للمناسبة .

وازدهر هذا الغرض الشعري وأثر في بلاد الأندلس ، إذ نظم كثير من شعرائها حقائق النحو والصرف والقراءات والتاريخ والعروض والقافية وغيرها في قصائد قد تطول طولا غير معهود .

واشتهر من بينهم ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد ، بمنظومته في التاريخ ، ومنظومته في العروض . واشتهر ابن مالك النحوي بمنظومته الطويلة في النحو والصرف ، والتي اختصرها من بعد في ألف بيت ، فسميت « الألفية » . وكذلك الشاطبي بمنظومته في القراءات .

وانتقل هذا اللون من النظم من بلاد الأندلس إلى مصر والشام وغيرها من دول المشرق . وعاون على انتقاله رحلة بعض علماء الأندلس إلى المشرق كان مالك والشاطبي المذكورين .

وأعجب الناس في عصر المماليك هذا الضرب من النظم ويبدو أن ذلك كان بسبب نشاط الحركة العلمية والإقبال على نشر علوم الدين واللغة وتعلمها . ووجدت موهبة الشاعر فيه سببا لحياتها ونشاطها ونموها واستمرارها وإنتاجها . فتعلقت به ، على نحو ما أشرنا . وأقبل الشعراء على نظم الحقائق العلمية ليسروا للطلاب سبيل الإلمام بها وحفظها وسرعة استحضارها وقت الحاجة . فكتبوا مسائلها وقيدوا شواردها وقرروا حقائقها على أن تجتمع وتكتنز وترتكز في بيوت من الشعر تسكن فيها فتعيش أبدا . ودلوا بذلك على سعة علم وإحاطة معرفة .

ولا نشك في أن هذه المنظومات عاونت على حفظ مسائل العلوم وأصولها ، وسهلت على الناشئين استذكارها . ثم إنها أصبحت متونا علمية طريفة احتاجت من بعد إلى شراح وموضحين ومن ثم هب لها فريق من العلماء والمتخصصين ووضعوا لها المؤلفات الشارحة الموضحة ، متراوحة بين الطول والقصر ، لتشرح للطلاب ما غمض فيها ، وتفصل ما أجمل مع تزويدهم بالأمثال والشواهد . ومنهم من استدرك

عليها أو نبه أو حشى . . وهكذا تعددت الشروح وتنوعت وتوالت وكان لنا منها
ثروة علمية عظيمة القيمة لا يستهان بها .

وتراءى لبعض العلماء اختصار المطول ، وتوضيح الموجز . فتعددت
المختصرات والموجزات .

ويدهى أنه لا ذنب لهذه المنظومات العلمية ولا لناظميها ، إذا كان العلماء من
بعد قد وجدوا فيها غنية وكفاية فوقفوا عندها ، ولم يتجاوزوها إلى غيرها ، أو لم
يكادوا يتجاوزونها .

وما سهل نظم العلوم والفنون في هذا العصر ، كما رأيت ، أن كثيراً من علمائه
كانوا شعراء بالفطرة ، موهوبين عدلت بهم ظروف حياتهم وضرورة السعى
لطلب الرزق والجاه ، عن طريق الشعر إلى طريق الفقه والعلم . فلما قبسوا من كل
من هذين مقداراً رأوا في هذا الضرب من النظم ما يجمع بين رغبتهم الفطرية ،
ورغبتهم الطارئة المسكوبة في حفظ العلوم والفنون . فزأوجوا فيه بينهما .

وفي رأينا أن نظم حقائق العلوم ، يدل في جملة على مقدرة هؤلاء الناظمين
وعلى أنهم أوتوا نصيباً من الشاعرية - ذلك لأنهم استطاعوا أن يسخروا قوالب
الشعر لصب هذه الحقائق فيها ، وحفظها : ولولم يكونوا قادرين على الشعر
ما استطاعوا ذلك ولاعتاص عليهم النظم . وإن كان هذا أشبه بصب العدس
المطهو اليابس في أواني الفالودج ، أكسبه الشكل دون أن يكسبه المذاق .

ولعل ما نظموه من ذلك ، يربو نتاجه على نتاج أى عصر آخر منه . ولأنبالغ
إذا قلنا إن عصر المماليك كان عصرأ ذهبياً لهذا الضرب من النظم . كما وتنوبعا
وطولا . فقد أربت بعض القصائد على ألف بيت .

وظفر «التاريخ» بخاصة بعناية ملحوظة ، إذ نظموا في حوادثه وفي سير رجاله ،

منظومات لاعدد لها ونظموا في الفقه والمواريث والقراءات والمنطق والعروض والنحو والسيرة النبوية ، بل ونظموا في الحساب والمساحة .

ولا بد لنا أن نسوق إلى القارئ طرفا من أخبار هذه المنظومات ، ليقين إلى أى مدى بلغت عنايتهم بها . ففنها :

أن محي الدين بن عبد الظاهر له منظومة في سيرة الملك الظاهر بيبرس .
وأن شهاب الدين بن عربشاه المتوفى عام ٨٥٤هـ ، له قصيدة في العروض عدد أبياتها ١٨٣ بيتا سماها : « جلوة الأمداح » .

وأن صلاح الدين الصفدى المتوفى عام ٧٦٤هـ له أرجوزة نظم بها كتابا لابن عساكر في أمراء مصر . واسمها « تحفة ذوى الألباب » .

وأن برهان الدين البقاعى المتوفى عام ٨٨٥هـ له أرجوزة مشروحة اسمها « الباحة في على الحساب والمساحة » ، وهى فى نحو ٢٠٠ صفحة .

وأن جمال الدين أبا الحسين الجزار المتوفى عام ٦٧٩هـ له قصيدة تاريخية ذكر فيها حكام مصر إلى الملك الظاهر بيبرس واسمها « العقود الدرية فى الأمراء المصرية » (١) .

وأن شمس الدين الباعونى المتوفى عام ٨٧١هـ له أرجوزة تتضمن أسماء الأمراء والخلفاء والولاة الذين تولوا مصر من أول الإسلام إلى الأشرف برسباى .
وذيلها ابن أخيه بهاء الدين الباعونى إلى زمن قايتباى . واسم الأرجوزة الأولى « تحفة الظرفاء فى تاريخ الخلفاء » واسم الثانية « الإشارة الوفية » وتسمى أيضا : « فرائد السلوك فى تاريخ الخلفاء والملوك » .

وأن شمس الدين الباعونى المذكور له أيضا قصيدة نظم فيها ملحمة الإعراب

(١) راجع أخبار هذه المنظومات الخمس وأماكن وجودها فى كتاب جورجى زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » ج ٣ ص ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٧١ على الترتيب - ومنظومة الجزار مثبتة فى حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر أمراء مصر من بنى أبوب . الخ

للحريرى ، واسمها : ملخص تضمين الملحة ، .

وأن زين الدين بن الشحنة المتوفى عام ٨١٥هـ له عدة أراجيز فى اللغة والدين والتصوف والأحكام والفرائض والمنطق ومنها أرجوزة فى البيان شرحها كثيرون .

وأن بدر الدين العبنى المتوفى عام ٨٥٥هـ له منظومة فى سيرة الملك المؤيد شريح الحمودى ، تعرف « بالجوهرة » .

وأن بهاء الدين الباعونى المتوفى عام ٩١٠هـ له - غير الأرجوزة التى أكملها منظومة عمه شمس الدين الباعونى - أرجوزة فى ٥٥٧ بيتا تشتمل على سيرة برسباى إلى قايتباى . واسمها : القول السديد الأظرف فى سيرة السعيد الملك الأشرف ، . وله أرجوزة أخرى فى التريية اسمها : بهجة الخلد فى نصائح الولد ، .

وأن للبارزى المتوفى عام ٦٨٣هـ أرجوزة تاريخية فى سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ، وفى الدول الإسلامية فى آسيا وإفريقية والأندلس ، وفى جغرافية الممالك الإسلامية وغير الإسلامية اسمها : مداولة الأيام ، .

وأن لجلال الدين السيوطى المتوفى عام ٩١١هـ قصيدة رائية نظم فيها أسماء الخلفاء وسنوات وفاتهم اسمها : تحفة الظرفاء فى أخبار الخلفاء ، .

وأن تاج الدين بن عربشاه المتوفى عام ٩٠١هـ له قصيدة فى ١٢٠٠ بيتا اسمها « مرشد الناسك لأداء المناسك » . يبدو أنها فى الفقه والعقائد والتصوف (١) .

وأن شمس الدين بن دانيال الموصلى المتوفى عام ٧١٠هـ له أرجوزة فيمنولى قضاء مصر من حين فتح العرب إلى عهد القاضي بدر الدين بن جماعة (٢) .

راجع أخبار هذه المنظومات الخمس وأما كن وجودها فى تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٣ ص ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٣١ ، ٢٢٧ على الترتيب .

(٢) - أرجوزة ابن دانيال مثبتة فى حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر قضاء مصر .

(م ١١ - عصر الماليك)

وأن لجلال الدين السيوطى منظومة فى الفقه ، وهى نظم كتاب الروضة وتسمى « الخلاصة » .

وأن عبد العزيز الدرينى المتوفى عام ٦٩٧ هـ نظم كتاب التنبيه والوجيز ، .
وأن شمس الدين البرماوى ومحمد بن عبد الدايم ، المتوفى عام ٨٣١ هـ له منظومة فى الأصول -

وأن نجم الدين الخضر اوى المتوفى عام ٦٦٣ هـ نظم الفصل المزمخشرى ،
والإشارات لابن سينا ، والسيرة لابن هشام .

وأن نور الدين المقرئ « على بن محمد بن الناصح » المتوفى عام ٨٠١ هـ له قصيدة فى القراءات (١) .

وأن زين الدين بن الوردى الشاعر المشهور الفقيه ، نظم « البهجة الوردية » فى ٥٠٦٣ بيتا ، وهى فى فقه الشافعية ، أتى فيها على الحاوى الصغير بغالب ألفاظه (٢) .

وأن شهاب الدين التنوخى « أحمد بن المنجا » - وكان قاضيا عالما شاعرا وتوفى عام ٩٠٨ هـ - له كتاب « العقيدة » فى نحو ٧٠٠ بيت (٣) .

وأن شمس الدين بن القيم المتوفى عام ٧٥١ هـ له قصيدة نونية فى السنة - أى فى العقائد - اسمها « الكافية فى الانتصار للفرقة الناجية » (٤) .

وأن شمس الدين بن ناهض الفقاعى أنشأ عام ٨١٨ هـ سيرة الملك المؤيد شيخ نظما ونثرا (٥) .

وأن قاضى قضاة الشافعية تقى الدين السبكى له قصائد علمية كثيرة منها قصيدة

(١) راجع أخبار هذه المنظومات فى حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ١٥٩ ، ١٩٧ ، ٢٠٧ ،

١٩٤ ، ٢٤٢ على الترتيب . (٢) الدرر الكامنة ج ٣ رقم ٤٧٢ .

(٣) مختصر طبقات الحنابلة لمحمد جميل الشطى ص ٧٤ (٤) المصدر نفسه ص ٦١

(٥) خزائن الأدب لابن حجة باب الاجرام .

في الروافض . وقصيدة في حكم السباع . وقصيدة في نحو سبعين بيتاً في مسائل
فقهية اقترحها عليه ابنه تاج الدين . وقصيدة في حكم « لو » وبيان معانيها
وشروطها (١) .

وإليك نماذج من هذا اللون من الشعر :

نظم القاضي علاء الدين القونوي المتوفى عام ٧٢٧ هـ في « الشجاج » قصيدة
من أبياتها قوله :

إذا رمت إحصاء الشجاج فما كفا	مفسرة أسماؤها متواليمة ..
فجراحة إن شقت الجلد ثم ما	أسالت دما وهي المسماة دامية
وباضعة ما تقطع اللحم والتي	لها الغوص فيه للتي مر تالية
وتلك لها وصف التلاحم بائن	وما بعده السمحاق فافهمه واعية
وقل ذاك ما أفضى إلى الجلدة التي	تكون وراء اللحم للعظم غاسية
وموضحة ما أوضح العظم واسمها	منقلة ثم التي هي آتية
فأمومة أمت من الرأس أمة	وقد بقيت أخرى بها العشر وافية
فدامغة تسمى بحرق جلدة	هي الأم كيس للدماغ وحارية
وهذا هو المشهور في عدها وإن	ترد ضبط حكم الكل فاسمع مقالیه .. الخ

« والشجاج هو أن يشج البعض بعضاً . وشج رأسه كسره . والجراحة : تطلق
على عضو من أعضاء الإنسان . والباطضة : الشجة التي تقطع الجلد وتشق اللحم
شقاً خفيفاً وتدعى ، إلا أنها لا تسيل . والتلاحم : يقال الشجة المتلاحمة ، وهي
الضربة في الرأس التي أثرت فيه ولم تبلغ السحق . والسمحاق : قشرة رقيقة
فوق عظم الرأس ، وبها سميت الشجة إذا بلغت سمحاقاً . وأفضى إليه : وصل إليه
وبلغته ولمسه . والمنقلة : بكسر القاف هي الشجة التي تنقل منها فراش العظام ، أو
هي قشور تكون على العظم دون اللحم . وفراش العظم : بفتح أوله رقيقها .

(١) طبقات الشافعية للسبكي ترجمة أبيه تقي الدين .

والمأمومة الشجة التي بلغت أم الرأس . والدماغ : الشجة التي بلغت الدماغ .
والجلدة : بالتصغير أم الدماغ ، وهي جلدة صغيرة رقيقة . (١)

ونظم الكاتب الكبير شهاب الدين بن فضل الله العمرى قصيدة في تاريخ
الخلفاء الفاطميين ومن بعدهم ، اسمها حسن الوفاء بمشاهير الخلفاء ، ومن
أبياتها يذكر خلفاء بني العباس بمصر :

وطار منهم نحو مصر قشعم	قد جاءها كما يجيء الطائر
قال : أخي مستنصر ووالدي	والده وهو الإمام الظاهر
فلقبوه مثله مستنصرا	وذاك إن جدد فهذا الناصر
وكان منه الظاهر السلطان ذا	خوف ومن بأسائه يحاذر
فبايعوا الحاكم بعد أن أتى	وفر فالتفت به العشائر
وهو أبو العباس أحمد الرضا	من ولد الراشد نجم الزاهر
وقام مستكف كفاه ربه	جميع ما يخاف ناه أمر
وبهده الواثق إبراهيم لا	عاد ولا دارت له الدوائر
والحاكم الآن إمام عصرنا	بشرى لنا إنا له نناصر (٢)

وللعلاء الدين الباجي ، العالم الفقيه الكبير المتوفى عام ٧١٤ هـ ، أرجوزة
طويلة تحكّم فيها عن شروط العالم ، وتناول فيها مسائل كثيرة عن العقائد ، وتحدث
فيها عن المعنزة والمتصوفة وغيرهم . وفي مطلعها يقول :

يقول أضعف العبيد الراجي	مغفرة على بن الباجي
الحمد لله على التوفيق	لفهم ما ألحق من تحقيق
وكم له من نعمة وجود	أوله إفاضة الوجود
ثم الصلاة والسلام الأبدى	على النبي المصطفى محمد

(١) طبقات الشافعية للسبكي ج ٦ ص ١٤٤

(٢) حسن المحاضرة ج ٢٠ ص ٦٤

ومنها في شروط العالم :

اعلم فذلك النفس يا حبيب أن السعيد العالم الأديب
وهو الذي حاز العلوم كلها وفك مشكلاتها وحلها
كالفقه والأصلين والتورث والنحو والتصريف والحديث
والعلم بالتفسير والمعاني ومنطق الأمين والبيان
والبحث واللغات والأخبار عن قصص الماضين في الأعصار
والطب للأبدان والقلوب وكل علم نافع مطلوب
واستثبت المنقول منها ضابطا وحقق البرهان والمغالطة... الخ
ومن إشاراته إلى بعض العقائد الصوفية مبينا رأيه ، والطريقة المثل للوصول..

وقد علمت شطحة العلاج في مقاله فإثره لا تقتف
إن الطريق همة وحال ثمرها الأعمال لا المقال
واسلك طريق العلم والأعمال كلاهما محقق الآمال
هما طريق الفوز لا محالة يسلكها مشايخ الرسالة... الخ^(١)

ولجلال الدين السيوطي أرجوزة تقع في نحو مائة وخمسين بيتاً بعنوان
« التثبيت عند التبييت ، وهي مخطوطة . وموضوعها » أن سؤال الميت في قبره
حق ، وأن الإيمان به واجب . ، وقد قسمت أبيات الأرجوزة أقساماً تناول كل
قسم منها موضوعات مما يأتي : وجوب الإيمان بالسؤال — حكمة السؤال —
الأمر بتلقي الميت بعد دفنه — اختصاص السؤال بهذه الأمة — أي أمة النبي
عليه الصلاة والسلام . سؤال من لم يدفن ، والمصلوب ، ومن تفرقت أجزاؤه ،
ومن أكلته السباع . ومن ينقل ، والغريق — من خصوا بأنهم لا يسألون —
سؤال الكافر وأطفال المشركين — اسم المملوكين وصفتهما وكيفية السؤال —

(١) راجع ترجمة العلامة الباجي وقصيدته هذه في طبقات السبكي ج ٦ ص ٢٢٩

ذكر الملك الثالث والرابع - تكرير السؤال سبعة أيام . - فهذه عشرة موضوعات .

والقصيدة من ناحية المسج ضعيفة وكثيرة الضرورات والأخطاء . ومن أبياتها بعد المقدمة :

اعلم هــداك الله للرشاد موفقاً لطرق السـداد
أن الذى عليه أهل السنة لحجج أوضى من الأسنـة
أن سؤال الملـكـين من قبر حق والايـمان به فرض شهر
أنى به القرآن بالإشارة ووافقت آياته آثاره
تواترت به الأحاديث التى قد بلغت سبعين عند العدة ... الخ (١)

ب - الأسئلة والأجوبة

المساءلات أو الأسئلة والأجوبة ضرب شعري يمكن أن يندرج تحت الضرب السابق - أعني حقائق العلوم والفنون - لأن موضوعها شرح هذه الحقائق وبسط الكلام فيها توضيحاً لها وبياناً لأمرها .

ومؤداها أن يرسل سائل سؤالاً إلى أحد العلماء يستوضحه موضوعاً من موضوعات العلم . ويستجلبه حقيقة من حقائقه . ويكون السؤال شعر - وقد يكون نثراً - فيجيبه المسئول بالشعر موضحاً له ما استبهم ومبيناً ما استغلق . وقد يرسل السؤال بغير ذكر اسم السائل ، وقد يكون هدفه منه - لا الإجابة - ولكن إثارة مشكلة أو فتنة .

وفي هذه المساءلات دلالة على يقظة فكرية لدى العامة ومن يعبرون عن

(١) مخطوطة التثبيت عند التثبيت ضمن مجموعة بمسكبة المنصورة رقم ٣٩ مجاميع ، ويوجد غيرها برقم ١٠٩ مباحث إسلامية .

مشاكلهم الدينية والعلمية ، ودلالة على شعور العلماء بضرورة حمل أمانة العلم وتأديتها للناس . ودلالة على سعة العلم والإحاطة بضروب المعرفة ، فضلا عن تأدية السؤال والجواب نظاما بما يضيف عليهما طرافة تلفت الأنظار .

ومن المسئلةات ما أورده تاج الدين السبكي في طبقاته في سياق ترجمة علاء الدين الباجي ، خاصا بسؤال ورد في العقائد وفعل العبد . قال السبكي عن ناظم هذا السؤال مانصه :

« يقال إن هذا الناظم هو ابن الثقي الذي ثبت عليه أقوال تدل على الزندقة ، وقتل بسيف الشرع الشريف في ولاية الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد القشيري . وكان مقصد هذا السائل الطعن على الشريعة . فانتدب أكبر علماء مصر والشام لجوابه نظاما . »^(١)

وقال السبكي قبل ذلك ماؤداه :

« لما ظهر هذا السؤال الذي أظهره بعض المعتزلة وكتم اسمه وجعله على لسان أهل الذمة ، رد عليه جمع من العلماء من بخره ورويه . ومنهم : علاء الدين الباجي ، وثقي الدين بن تيمية الحراfi ، والأديب ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر ، وشمس الدين بن اللبان ، ونجم الدين الطوسي ، وعلاء الدين القونوي . »

وقد سجل السبكي نص السؤال ، وإجابات هؤلاء الأعلام عليه وهي قصائد طويلة .^(٢)

وروى ابن حجر العسقلاني في كتابه « الدرر الكامنة » ، أن تقي الدين بن تيمية الحراfi الإمام الحنبلي المجتهد المعروف ، لما وقف على هذه الأبيات ثنى إحدى

(١) راجع ترجمة العلاء السباجي وقصيدته هذه في طبقات السبكي ج ٦ ص ٢٢٩ .

(٢) راجع طبقات السبكي في ترجمة العلاء الباجي .

رجليه على الأخرى وأجاب في مجلسه قبل أن يقوم بمائة وتسعة عشر بيتاً .
وروى أن ناظم هذه الأبيات هو محمد بن أبي بكر السكاكيني . (١)

ونص السؤال هو :

أيا علماء الدين ذمى دينكم	تخير دلوه بأوضح حجة
إذا ما قضى ربى بكفرى بزعمكم	ولم يرضه منى فما وجه حيلتى
دعائى وسد الباب عنى فهل إلى	دخولى سبيل بينوا لى قضى
قضى بضاللى ثم قال ارض بالقضاء	فهل أنا راض بالذى فيه شقوى
فإن كنت بالمقضى يا قوم راضيا	فربى لا يرضى لشؤم بليتى
وهل لى رضا ما ليس برضاه سيدى	وقد حرت دلوئى على كشف حيرتى
إذا شاء ربى الكفر منى مشيئة	فها أنا راض باتباع المشيئة
وهل لى اختيار أن أخالف حكمة	فبالله فاشفوا بالبراهين حجتى (٢)

ونكتفى هنا بتسجيل أبيات من إحدى قصائد الرد عليه . وهى للأديب ناصر
الدين شافع بن عبد الظاهر . قال :

سألت ولم تعرب وكم من مباحث	جرت من أهيل العلم فى ذى الحقيقة
وما أنت يا ذمى مبتكرا لما	توهمته من دون ماضى البرية
نعم كل شىء كائن بقضائه	وتقديره حتما بأوضح حجة
وهل واقع ما لا يشاء بملكه	لقد ضل من ذا رأيه فى القضية
وإن الرضا غير القضاء فلا تكن	تنازع فيما شاء من مشيئة
له المحو والإثبات جل جلاله	فلا تعترض فى حكمه وثبت

(١) الدرر الكافّة ج ١ رقم ٤٠٩ فى ترجمة ابن تيمية الحرانى .

(٢) طبقات السبكي ج ٦ ص ٢٢٩ .

وكن بجوابي مسلما ومسلما وكن باتباع الحق من خير أمة .. (١)

وروى تاج الدين السبكي أن القاضي صلاح الدين لعله الصفدي (٢) -
بعث إلى الشيخ تقي الدين أبي الفتح محمد بن عبد اللطيف السبكي ، في بعض مسائل
النحو والفقه فأجابه الشيخ تقي الدين بأبيات من البحر والروى .
قال صلاح الدين من أبياته :

تقرر أن فعلا فعولا مبالغتان في اسم الفاعلية
فكيف تقول فيما صح منه وما الله بظلام البرية
أيعطى القول إن فكرت فيه سوى نفي المبالغة القوية
وكيف إذا توصأنا بماء طهور وهو رأى الشافعية
أزلنا الوصف عنه بفعل فرد وذاك خلاف رأى المالكية .. إلخ
وقد أجابه الشيخ تقي الدين السبكي بأبيات من بحره ورويه ، مبينا الرأي في
المسألتين فقال .

ومن جاء الحروب بلا سلاح كمن عقد الصلاة بغير نية
فظلام كنزار وأيضا فقد يأتي بمعنى الظالمية
وقد ينفي القليل لفلة في فوائده بنفي الأكثرية
وقد ينحى به التكثير قصدا لكثرة من يضم من البرية
وأما قوله ماء طهور ونصرته لقول المالكية
فجاء على مبالغة فعول وساغ مجيئه للفاعلية
وقد ينحى به التكثير فضلا لكثرة من يروم الظاهرية

(١) راجع قصة هذا السؤال والرد عليه في طبقات السبكي ج ٦ ص ٢٣٢ .
(٢) رجعتنا أنه الصفدي إذ اعتاد السبكي أن يذكره هكذا « صلاح الدين » . وكانت بينهما مودة
وتراسل .

والسؤال حول « ظلام » هل هو لنفى الظلم أو نفي المبالغة فيه . وحول « طهور » يتوضأ منه فرد . هل تزول طهارته كما تقول الشافعية أو لا تزول كما تقول المالكية .

والجواب أن « ظلام » المبالغة ، وتأتى للنسب فى الآية الكريمة ، وأن « طهور » المبالغة وتأتى بمعنى طاهرة . وهى هنا بهذا المعنى .

وأرسل صلاح الدين الصفدى إلى الشيخ أبى حامد بن تقي الدين السبكي سؤالا فى « صلاة الأعمى مأموما ومؤتما ومنفردا » . قال وكأنه يلغز فى سؤاله :

أبا حامد إني بشكرك مطرب كأن ثنائى فى المسامع شير
لقد حزت فضل الفقه والأدب الذى يفوت الغنى من لاندائك يفوز
وفت المدى مهلا إلى الغاية التى لها عن لحاق السابقين بروز
فأصبحت فى حل الغوامض آية تميل إلى طرق الهدى وتميز
كأن حروف المشكلات إذا أتت لديك على حل العويص رموز
ملككت فأخرج للمساكين فضلة فعندك من در البيان كنوز
تجيد القوافى والقوى فى بيانها فبيتك للمعنى الشرود حريز
سألت فخير عن صلاة امرئ غدت يحار بسيط عندها ووجيز
تجوز إذا صلى إماما ومنفردا وإن كان مأموماً فليس تجوز
فأوف لنا كبل الهدى متصدقا فأنت بمصر والشام عزيز
فمنذا الذى يرجى وأنت كما ترى مجيد مجيب للسؤال مجيز
فأجابه الشيخ أبو حامد من بحره ورويه ، وبدأه بالثناء عليه كما بدأه . قال :

أيام من أشأو العلم بات يحوز ومن أسواه المدح ليس يحوز
ومن حاز فى الآداب ما اقتسم الورى فليس لشيء منه عنه نشوز
ومن ضاع عرف الفضل منه ولم يضع بجدواه عرف الجود فهو حريز
سألت وما المسئول أعلم بالذى أردت ولا منه عليك بروز

وقلت : امرؤ لا يقتدى غير أنه إماما وفردا بالجواز يفوز
وذاك امرؤ أعمى نأى عنه سمعه وليس لأفعال الإمام يميز
فهاك جوابا واضحاً قد أبنته ومثلى عن حل الصعاب ضموز... الخ (١)
وجواب أبى حامد يدل على : أنه الأعمى الأصم .

وهكذا نرى أن المساءلات الشعرية التى موضوعها حقائق العلوم كانت مجالا
من مجالات الشعر ، ومظهرا من مظاهر الفكر ، ومسرحا إخوانياً تنفست
فيه العلاقات الشخصية عن طريق الفن الشعرى .

الألغاز والأحاجى

وكما يكون اللغز أو الأحجية نثرا تكون شعرا . وكما يكون موضوعها أدبياً
يكون علمياً ، والغالب أن يقع اللغز أو الأحجية بطريق السؤال والجواب ، على
نمط ما رأينا فى المساءلات .

وشعر اللغز والأحجية أحد فنون الشعر التى تناولها شعراء العصر . لقد
أكثروا منه وأطالوا فيه وأجادوا .

وكما أنه مظهر من مظاهر الثقافة العلمية ، هو مظهر من مظاهر الثقافة الأدبية ،
فهو بجلى للثقافتين . وهو بلا ريب فى حاجة إلى سعة فكر وقوة ملاحظة وإحاطة
بالحقائق وقدرة على الماثلة وسيطرة لغوية وحيلة على التصحيف وتشابه الحروف ،
تعين على التعمية التى هى أساس الألغاز والمحاجاة .

من هذه الزاوية ننظر إلى هذا اللون من النظم الذى غمط بعض مؤرخى
الأدب حقه ، ونسبوا أهله إلى فراغ الفكر وفراغ الزمن ، وأنهم قصدوا به

(١) القصيدةتان عن كتاب « نكت الهيمان فى نكت العميان » للصفدى ص ٤٩

فقط إلى التسلية . وأغفلوا جوانبه الأخرى .

وقد كتب ابن حجة في خزنة الأدب تحت عنوان « الألغاز » ، وهو في سياق حديثه عن الألوان البديعية ، فقال :

« هذا النوع - أعني الألغاز - يسمى المحاجة والتعمية ، وهي أعم أسمائه . وهو أن يأتي المتكلم بعدة ألفاظ مشتركة من غير ذكر الموصوف ، ويأتي بعبارة يدل ظاهرها على غيره ، وباطنها عليه ، الخ (١) .

ونحن لا ننظر أيضا إلى هذا الفن الشعري على أساس أنه لون بديعي ، ولكن على أساس أنه لون من ألوان الفكر وأسلوب من أساليبه لإخراج المعاني وتصويرها في ثوب مزدوج تلعب فيه المماثلة والتورية والتلميحات ونحوها دورها .

ويشترك في صياغتها ذكاء الشاعر وحدة خاطره وقدرته على الإحاطة بصفات موصوفة واختبار الألفاظ التي تعمى فيها هذه الأوصاف . والتعمية لا تكون مستغلفة ولا تكون مهمة الإبهام كله ، بل تكون لها مفاتيح يقع عليها ذكاء الملغز إليه وتستخدمها حدة خاطره هو الآخر .

وصناعة الألغاز والمحاجة وثيقة الصلة - كما رأيت - بباب الوصف ، والموازنة والجمع بين المتشابهات والمتضادات . وثيقة الصلة بالفكاهة والمدح ، وهي بعد ، ضرب من ضروب الإخوانيات تعلقت بها الفنية الشاعرة فتنفست عن طريقها . فأنها لا تعدو أن تكون سؤالا وجوابا بين صديقين حميمين . أو كأنها بينهما .

وبرزت هذه الصناعة في العصر المملوكي بروزا قويا أكثر مما برزت في أي عصر سابق ، وقد تناولوا فيها موضوعات كشيعة مما يقع في محيطهم كالزهار

والنباتات والأطيار والأدوات المنزلية ونحوها . ومزجوا ذلك بالمديح وتبادل
الثناء .

وألغز أحمد بن عبد الملك العزازي الذي كان تاجرا بقيسارية جركس ،
وأرسله إلى صديقه ناصر الدين بن النقيب ، في «شبابة» .
فقال :

وما صفراء شاحبة ولكن يزينها النضارة والشباب
مكتبة وليس لها بنان منقبة وليس لها نقاب
تصيح بها إذا قبلت فها أحاديثا تلذ وتستطاب
ويحلو المدح والتشبيب فيها وما هي لاسعاد ولا رباب
فأجابه ناصر الدين بن النقيب من البحر والروى ، فقال :
أنت عجمية أعربت عنهما لسانا يكون لها انتساب
ويفهم ما تقول ولا سؤال إذا حققت ذلك ولا جواب
يكاد لها الجماد يهز عطفها ويرقص في زجاجة الحباب^(١)

وألغز القاضي شهاب الدين محمود الحلبي في «من» ، وهو لغز علمي بحث به
إلى شيخه مجد الدين بن الظهير . فقال :

وما مفرد اللفظ مستعمل لجميع الذكور وجميع الإناث
يحرك بالحركات الثلاث فيغدو من الكلمات الثلاث
فكتب إليه الشيخ مجد الدين الجواب :

قريضك ياملغزا في اسم من يميل إلى صلة كالذي

غدا حامل المسك يحدى الجليس منه ويحظى بعرف شذى^(١)

والغز صلاح الدين الصفدى فى «دينار» وأرسل اللغز إلى صديقه القاضى
الخطيب البليغ شهاب الدين أبى العباس أحمد بن عبد الله بن مالك . وقد قدمه بالثناء
عليه والتنويه بفضله ، قال :

يا فاضلا من	بحره	كل الورى	تغترف
ويا خطيبا	لفظه	در وسمعى	صدف
إذا علا	منبره	قلت حمام	يهتف
ويا شهابا	كم به	عنا تجلت	سدف
ما مفرد	مذكر	منكر	معرف
فى جمعه	لم ينصرف	والجمع منه	يصرف
عروضه	واحدة	وضربه	مختلف
مخمس	مدور	محرف	مشرف
منقش	وماله	كف حلاها	الشرف
أعيننا	فى عينه	شوقا له	لا تطarf
أصفر	لا من علة	توهنه	وتضعف
وليس يدرى	ما البلى	ولا براه	التلف
وناره	لم تلهب	ودينه	لا يعرف
بينه	لا برحت فى	سعد حياة	يكف
ودمت للفضل	الذى	ثمارة	تقتطف

فأجابه شهاب الدين أحمد المذكور من بحره ورويه ، وقارضه الثناء ، وحل
له اللغز ، قال :

(١) الأشباه والنظائر للسيوطى ج ٢ ص ٢٩٨ - نقلا عن التذكرة الصفدية .

يا واحداً في عصره لعبده يشرف
وبإماماً عليه بين الورى لا يخلف
إن الذى الغزته بأرض مصر يعرف
تهوى الملوك وصله كيف الكتيب المدنف
متيم فى عشقه كذا الريب الأهيف
هبوننا فى عينه وما أراها تسعف
وحسنه ولفظه لمسمى يشنف
عذرا لعبد فهمه يقصر لا بل يضعف
عن نظم در صغته لأن نظمى صدف
مرصع فى ذهب موقع مؤلف
فى مثله فسيدي يلغز أو يصحف
لا زلت فى سعادة أذياها ترفرف (١)

والغز محي الدين بن عبد الظاهر فى د كوز ، فقال :

وذى أذن بلا سمع له قلب بلا قلب
إذا استولى على حب فقل ما شئت فى الصب

والغز أيضاً فى د باب ، فقال :

أى شيء تراه فى الدور والكتب مجازاً هذا رذاك محقق
هو زوج وتارة هو فرد وهو فى أكثر الأحيان يطرق
وطليق فى نشأته ولكن بحديد من بعد ذلك يوثق
وهو فى القلب يستوى وتراه بأن تصحيفه لمن يترفق (٢)

(١) راجع القصيدة فى « ألحان السواجم » للصفدى مخطوط بدار الكتب المصرية الورقة رقم ١٢

(٢) تأهيل الغريب ص ٨٨ ، خزائن الأدب باب الألفاظ ص ٤٨٠

ومن أنغاز جمال الدين السبكي - الحسن بن علي - بن تقي الدين السبكي ، المتوفى عام ٧٥٥ هـ قوله :

يا أيها البحر علما والغمام ندى ومن به أضحيت الأيام مفتخرة
أشككو إليك حبيبا قد كلفت به مورد الخد سبجان الذي فطره
خمساه قد أصبحا في زى عارضه وفيه بأس شديد قل من قهره
لا ريب فيه وفيه الريب أجمعه وفيه يابس ولين القامة النضرة
وفيه كل الورى لما تصحفه في ضيعة ببلاد الشام مشتهرة
قال صاحب شذرات الذهب ، في ترجمة جمال الدين السبكي : « لعل اللغز في
ريباس » . وقال ابن حجر في الدرر الكامنة في ترجمته أيضاً ، كذلك^(١) .
قيـل :

« وأما الفواخت فهي عراقية وليست بحجازية . وفيها فصاحة وحسن
صوت . وصوتها في الحجازيات يشبه صوت المثلث ، وفي طبعها تأنس بالناس ،
وتعشش بالدور . وهذا الحيوان يعمر . وقد ظهر منه ما عاش خمساً وعشرين
سنة ، وما عاش أربعين سنة - على ما حكاه أرسطو -

وقد قال القاضي أمين الدين الأنصارى ملغزاً في فاختة :

وما طائر يمـوى الرياض تنزها ويسرح في أفنانها ويعود
هجا اسمـه خمس حروف نـعدها وخمساه حرف إن تأملت مفرد
وبعدهما تصحيف باقيه إن ترد بيانا له أفعى تبين وتشهد
وفيه أخ إن تهت عنه فأخته تدل على ما قد عنيت وترشد
فأجابه الشيخ زين الدين بن العجمي ، حالا لهذا اللغز ، ومادحاً وواصفاً
للفاختة بأوصاف جديدة ، ويلغز :

(١) شذرات الذهب ج ٦ ص ١٧٨ الدرر الكامنة ج ٢ رقم ١٦٠٣

أيا من له مجد أثيل وسودد غدا دون مرماه سمك وفرقد
يفيد يسار المقترين يمينه ويمناه من يمين الغمامة أجود
سؤالك عن أنثى طروب ولم تزل على عودها في الروض تشد وتنشد
وتجذبني بالطوق حال نشيدها لنحو التصابي لا أطيق أفند
يطير بها نحو النجاح جناحها فتبلغ ما تختار ثم وتقصد
وفي بطن أنثى لم تصور وإنما يصورها من حبسها من يرقد
يذكرني نذكارها أم هانيء فتشرف في نفسى إذا وتمجد
ومذبان منها الطرف أمست بعكسها تخاف الردى ممن لها يترصد
وإن حذفت ثانی الآخر فلم يكن على بخاف بل يلوح ويشهد
وأولها مع ما يليه وطرفها لنسافه بالمعنى الذى منه نقصد
وحرفان منها فرد حرف لناطق وأف لمن بالعكس من ذاك يحدد
وتفتح فها حين نفقد ثالثاً وتاليه يخشى من لها يتصيد
نخذه مبيناً مغضياً عن إساءتي فإنك بالإحسان أهل ومقصد
بقيت بقاء الدهر عزك باذخ وفي مفرق الجوزا لسانك يعقد
ولا زلت في الدنيا سعيداً مملوكاً وحظك في الآخرة النعيم المخلد^(١)

د - البديعيات

فن البديعيات صناعة فكرية أكثر منها صناعة أدبية . وهى ضرب من
ضروب شعر حقائق العلوم والفنون ، : ذلك لأنه فى جملة ما نظم فيه من القصائد
يدور حول ذكر لوتين من الحقائق : حقائق الأصباغ البديعية ، وحقائق السيرة
النسوية . ولاننكر أن النزعة الدينية لها صلة ما بوجود هذا الفن .

(١) مطالع البدور فى منازل السرور - مخطوط بالمكتبة الأزهرية .

وهو أحد فنون الشعر المبتكرة في عصر المماليك وقبل العصر المذكور لم يقننه الشعراء إليه ولم تتجه نحوه خواطرهم . ومنذ ابتكاره وله سيطرة كبيرة في دولة الشعراء امتدت إلى زمن قريب .

وأول أسباب ابتكارهم له وتبنيهم له هو اتخاذه وسيلة لإظهار القدرة على سبك ألوان البديع . ومادفع الشعراء إلى ذلك إلاحبهم للبديع واعتبار ألوانه في جملتها دعائم بلاغية تعين على جمال تصوير المعاني ودقته .

وفن البديعيات الذروة التي بلغها الولوع بصناعة البديع . وقصائد البديعيات في الشعر شبيهة بمقامات الحريري في الدثر كلتاهما القمة التي بلغتها صناعة البديع .

وأول ما وجه الخواطر إليه ، بردة البوصيري كما أشرنا عند الحديث عن المديح النبوي - وهي التي مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم مدحا مزوجا بالوجد وإظهار الشوق إليه وإلى دياره ، وذكر سيرته الشريفة والاستشفاع به عند الله سبحانه وتعالى .

وشرف الدين البوصيري شاعر عاش - كما تحاشنا - في مطالع عصر المماليك وتوفي عام ١١٩٥ هـ . وكان قد أصيب بفالج فاهتدى إلى نظم هذه القصيدة تمدحا بالرسول عليه السلام ، وتقربا إليه واستشفاعا به طلبا للشفاء . وقد شفى . ومطلع البردة قوله :

أمن تذكر جبران بذى سلم مزجت دمعا جري من مفلة بدم
وهي قصيدة - كما عرفنا - جيدة النسيج كثيرة الحكمة متعددة الأغراض يجرى أسلوبها على النهج البديعي دون تسكف في جملة ، ودون تصد أساسى إليه ، فجرى هينا كيسا يسير الماثونة مقبولا ، ولم يلتزمه الشاعر في كل بيت منها ، ولم يلتزم عدم تكرار أنواعه .

فأعجب الشعراء بعد البوصيري بهذه البردة : بحر ها وقافيتها وأغراضها ،

ونزعها في المديح وأخذوا يعارضونها بقصائد على نمطها . وفكانت البديعيات .
فالبديعيات إذن ، قصائد من بحر البسيط قانيتها ميمية مثل ميم البردة .
وموضوعها مدح الرسول عليه السلام والحديث عنه على طريقة البردة .
غير أن الغرض الأول والرئيسي من نظمها هو أن يتضمن كل بيت من أبيانها
نوعا بديعيا واحدا على الأقل . مع الإشارة أحيانا في البيت إلى اسم النوع الذي
يتضمنه ، بلفظ ما عن طريق التورية . وقد يشار إلى اسم النوع دون إيراد مثل
له في البيت .

هذه الأمور اختلفت البديعيات عن البردة ، وصارت نماذج بديعية قبل أن
تكون شيئا آخر ، وأصبحت كأنها كتاب في البديع يستعرض أنواعه ويمثل لها .
لقد تعرض كثير من الأدباء لشرح البديعيات ، فشرحوا ألوان البديع فيها
دون أن يتعرضوا لشيء من السيرة النبوية الشريفة . صنع ذلك أكثر الشراح ،
ومنهم بعض ناظمي البديعيات .

لم يفتن إلى هذا الفن الشعري شاعر آخر قبل شعراء هذا العصر . إلا أن هناك
شاعرا اسمه ، أمين الدين السليماني - توفي عام ٦٧٠ هـ - اتجه إلى نظم أبيات
يتضمن كل بيت منها نوعا بديعيا ، دون أن يكون غرضه المديح النبوي ، ولم تكن
قافية أبيانه ميمية ولا بحر ها من البسيط ، ولم يسم النوع البديعي وإليك أبياتا من
نظمه : قال :

بعض هذا الدلال والإدلال حال بالهجر والتجنب حالي
حرت إذ حزت ربع قلبي وإدلا لي صبرا كثرت من إدلال
رق ياقاسي الفؤاد لأجفا ن قصار أسرى ليالي طوال .. إلخ (١) .
في البيت الأول جناس لفظي بين الدلال والإدلال ، وبين حال وحالي —

وفي الثاني جناس خطي بين حرت وحزت ، وبين إدلالى وإذلالى - وفي الثالث طباق بين قصار وطوال .

وقصيدة السليمانى فى ٣٦ بيتاً ، سار فيها على هذا النمط . وقد تكون بدء النزعة البديعيات وإرهاصاً بميلاد فن جديد ، فيه هذا الالتزام وغيره .

ولكن ينبغى القول إن هناك فجوة كبيرة بين مانظمه هذا الشاعر ، ومخترعى فن البديعيات . فإن التزاماتهم فيها أكثر وأدق وذات منهج محدود وهدف معين .

على أن صفى الدين الحلى - وهو أول مخترع لفن البديعيات كما يقول - يصرح فى مقدمة شرح بديعته بأنه ابتكر هذا الفن دون أن يتأثر بخطوة شاعر تقدمه . وسياق حديث أدباء زمانه وما بعده يشعر بأنه مبتكرها ومثلاً : روى شمس الدين السخاوى فى الضوء اللامع فى ترجمة شرف الدين السعدى ، أنه عمل بديعية على طريقة الحلى (١) .

وإليك ما ذكره ناشر البديعية مما جاء على لسان صفى الدين الحلى ، لبيان غرضه من نظمها . قال :

وقال الشيخ العالم تاج الأدباء والفضلاء ، ملك الشعراء والفصحاء ، صفى الدين أبو المحاسن عبد العزيز بن سرايا بن أبى القاسم الحلى السنبسى - رحمه الله عليه - يمدح سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . - وذكر أن . وجب ذلك أنه أراد أن يؤلف كتاباً يحيط بكل أنواع البديع . فغرت له علة طالت مدتها واشتدت شدتها ، فاتفق أنه رأى فى منامه رسالة من النبي صلى الله عليه وسلم يتقاضاه الممدح ، ويعده البرء من سقمه ، فعدل عن تأليف ذلك الكتاب إلى نظم قصيدة تجمع أشتات البديع . وتطرز بمدح مجده الرفيع . فنظم قصيدة عدتها مائة وخمسة وأربعون بيتاً فى بحر البسيط تشتمل على مائة وواحد وخمسين نوعاً من محاسن

البديع . وجعل كل بيت منها مثلاً شاهداً لذلك النوع . وربما اتفق في البيت الواحد نوعان أو ثلاثة بحسب انسجام القريضة له النظم .

ثم قال - أى صفى الدين :

« وألزمت نفسى فى نظمها عدم التكلف وترك التعسف . والجري على ما أخذت به نفسى من رقة اللفظ وسهولته وقوة المعنى وصحته ، وبراعة المطالع والمزج وحسن المطالع والمقطع ، وتمكن قوافيها ، وظهور القوى فيها . بحيث يحسبها السامع ، غفلاً من الصنائع . »

وقال أيضاً :

« فانظر أيها الناقد الأديب والعالم اللبيب ، إلى غزارة الجمع ضمن الرياقة فى السمع . فإنها نتيجة سبعين كتاباً لم أعد منها باباً . فاستغن بها عن حشو الكتب المطولة ، وعر الألفاظ المغلغلة .

ودع كل صوت غير صوتى فإننى أما الصائح المحمكى والآخر الصدى، الخ (١)

لم يصرح صفى الدين بأنه ببديعيته عمد إلى معارضة البردة . ولكن هذه الفكرة واضحة كل الوضوح بدليل الاتفاق فى الوزن والقافية ونوع القافية ، وموضوع القصيدة والاتجاه فى المديح .

ومن غريب الأمر توافق صفى الدين والبوصيرى فى الدافع الأصيل لنظم القصيدة . وهو المرض ورؤية الرسول عليه الصلاة والسلام فى المنام وتفاضيه المديح من كل منهما .

ولكن بينما استجاب البوصيرى فنظم البردة متواجداً مشتاقاً مستشفعاً ، إذ نظم صفى الدين ببديعيته لتجمع أشتات البديع ويستعيض بها عن كتاب فيه .

(١) مقدمة شرح البديعية لصفى الدين الحلى ،

وقد عارض البردة من بعد صفى الدين جماعة من الشعراء ، من بينهم — كما سنبينه — تقي الدين بن حجة الحموى . وقد صرح ابن حجة فى مقدمة شرحه لبديعيته بأنه يعارض بها البردة . فقال :

« وبعد فهذه البديعية التى نسجتها بمدحه صلى الله عليه وسلم ، على منوال طرز البردة ، . . . الخ (١) »

ومهما يكن من شىء فإن من المبكرين إلى معارضة البردة على هذا النسق : أبو عبدالله شمس الدين الهوارى ، محمد بن أحمد ، المعروف بابن جابر الأندلسى ، الذى رحل إلى مصر والشام زمننا ، واستوطن حلب زمننا آخر ، وتوفى بالأندلس عام ٧٨٠ هـ . وهو رجل ضرير . ولهذا عرفت بديعيته ببديعية العميان .

ويتنازع فى أمر ابتكار فن البديعيات هو وصفى الدين الحلى الذى توفى عام ٧٥٠ هـ . ولعل الفكرة خطرت لسكلا الرجلين فى وقت واحد (٢) .

وأقبل بعد هذين الشاعرين كثير من الشعراء ، فنظموا بديعيات أخرى على هذا الغرار ، ويعارض بها بعضهم بعضا — وامتد الأمر إلى ما بعد عصر المماليك ، فتوالى الناظمون وخرج بعض الناظمين عن بعض التزاماتها .

وعنى أكثر الناظمين فشرحوا بديعياتهم فى كتاب ، تحدثوا فيه غالباً عن أنواع البديع . فكان من البديعيات ومن شروحها مجموعة أدبية قيمة ، تستأهل بحثاً مستقلاً مفصلاً ، يتناول بالحديث منشأها وفكرتها والدوافع إليها ، وطريقة نظمها ومنهج شرحها واستقصاء ما نظم منها ، وما شطر وما خمس وما سبع ،

(١) راجع خطبة خزاعة الأدب لابن حجة الحموى .

(٢) تحدث المرحوم الدكتور زكى مبارك فى كتابه « المدائح النبوية » عن البديعيات وموضوع ابتكارها . وتحدث عنها محمد بك دياب فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » طبع مطبعة جريدة الإسلام ، بصر بحارة السقاين عام ١٣١٤ هـ — ١٨٩٧ م . وتحدث عنها جورجى زيدان فى كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ، وقد اعتمدنا على هذه الكتب .

والمطبوع منها ومن شروحها ، والمخطوط ، وتحقيق هذا كله ، إلى بيان أهميتها في عالم الشعر والأدب والعلم . وغير ذلك مما يستلزمه البحث .

وقد سمي صفي الدين بديعته : « الكافية البديعية في المدائح النبوية » (١) . وقد شرحها صفي الدين في كتاب سماه : « النتائج الإلهية في شرح الكافية البديعية » . وسمى ابن جابر الأندلسي بديعته : « الحلة السيرا في مدح خير الورى » . وقد شرحها صديقه « شهاب الدين أبو جعفر المغربي » ، في كتاب سماه : « طراز الحلة وشفاء الغلة » . (٢)

وحذا حذرهما عز الدين الموصلى المتوفى عام ٧٨٩ هـ . والتزم في بديعته تسمية الأنواع البديعية . وأحياناً يسمى النوع ولا يذكر المثل . وسماها « الفتح الآلى في مطارحة الحلى » . وشرحها في كتاب سماه : « التوصل بالبديع إلى التوصل بالشفيع » . (٣)

وقد نقد ابن حجة في كتابه « خزانة الأدب » بديعة الموصلى نقداً مرأ . وبنى على آثارهما تقي الدين بن حجة الحموى المتوفى عام ٨٣٧ هـ . وقد دفعه إلى نظم بديعته صديقه ناصر الدين محمد بن البارزى صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالمملك الإسلامية ، - أى فى القاهرة . وكان ابن حجة ينظم البيت فى معارضة بيت الحلى والموصلى ويعرضه على ابن البارزى فينقده له أو يحيزه . وهكذا حتى أنهم نظمها . وسماها « تقديم أى بكر » . وشرحها فى كتاب جليل يعرف الآن بـ « خزانة الأدب » . وهو أحفل شروح البديعيات بالأدب والنقد والبلاغة

(١) يسميها بعضهم « الكافية البديعية » .

(٢) ذكر ذلك ابن حجة فى خزانة الأدب فى باب الإغراق . ونسب جورجى زيدان هذا الشرح لابن جابر ، وهو وهم — راجع جورجى زيدان ج ٣ ص ١٢٤ فى ترجمة ابن جابر — والشرح مخطوط بدار الكتب المصرية (بلاغة رقم ٢٥٧) .

(٣) شرح بديعة الموصلى مخطوط بدار الكتب المصرية (بلاغة رقم ٦٠٧) .

والتاريخ . ووازن فيها ابن حجة بين بديعيته وبديعيتي الحلى والموصلى بيتاً بيتاً تقريباً .

ومن أصحاب البديعيات بعد هؤلاء في العصر المملوكي :

تاج الدين عبد الوهاب بن عربشاه المتوفى بالقاهرة عام ٩٠١ هـ واسم بديعته
« شفاه الكليم بمدح النبي الكريم » . (١)

وجلال الدين السيوطى المتوفى عام ٩١١ هـ واسم بديعته « نظم البديع في مدح
خير شفع » . وقد شرحها في كتاب لطيف بسمى « شرح السيوطى » . (٢)

والسيدة عائشة الباعونية المتوفاة عام ٩٣٠ هـ ولها بديعتان إحداهما تسمى
« الفتح المبين في مدح الأمين » وقد شرحها شرحاً لطيفاً . طبع على هاشم إحدى
طباعات خزانة ابن حجة .

وهناك غير هؤلاء أفاضل من الناظمين . وقد اطرء وجود هذه النزعة إلى
عصرنا الحديث .

هذا . وبدهى أن البديعيات لها أهميتها من الناحية الفنية . ولكن نزعة الصناعة
بها وتكلفها أبعدها أو أبعدت أكثر أبياتهما عن جو الشعر الأصيل ، وأفقدتها
خياله الجميل وروعة تصويره وعاطفيته وسحر تراكيبه ، بل جفت فيها الحكمة
الصادقة والمثل السائغ أيضاً . ولم تستطع بديعية منها أن تتعاق من البردة بغبارها .
وحسبك أن تقرأ بعض أبياتها لتنتهى إلى رأى الذى قلناه .

فمن بديعية صفي الدين الحلى قوله في المطلع :

إن جئت سلعا فسل عن جيرة العلم وافر السلام على عرب بذى سلم
فقد ضمنت وجود الدمع من عدم لهم ولم أستطع مع ذلك منع دى

(١) راجع جورجى زيدان ج ٣ ص ١٢٧ .

(٢) شرح السيوطى مخطوط بدار الكتب المصرية (بلاغة رقم ١٣٥) :

أبيت والدمع هام هامل سرب والجسم في إضم لحم على وضم
من شأنه حمل أعباء الهوى كددا إذا همى شأنه بالدمع لم لم... الخ
وقد التزم صفي الدين - كما ترى - أن يحتوى كل بيت نوعاً بديعياً ، دون أن
يذكر اسمه . وفي الآيات ألوان مختلفة من الجناس .

ومن بديعية تقي الدين بن حجة الحموى قوله في المطلع :

لى فى ابتدا مدحك يا عرب ذى سلم براعة تستمل الدمع فى العلم
بالله سربى فسربى طلقوا وطنى وركبوا فى ضلوعى مطلق السقم
ورمت تلفيق صبرى كى أرى قدى يسعى معى فسعى لكن أراق دى
وذيل الهم همل الدمع لى فجرى كلاحق الغيث حيث الأرض فى ضرم . الخ
وقد التزم ابن حجة أن يضمن كل بيت نوعاً بديعياً على الأقل ، وأن يورى
بلفظ فيه عن اسم هذا النوع . وفي الآيات ألوان مختلفة من الجناس . فى الثانى
جناس مركب مطلق . والثالث جناس ملفق . والرابع جناس مزيل ولاحق .
أما الأول ففيه براعة استهلال .

هذا ، ونعيد الإشارة فى أعقاب هذا الحديث ، إلى أن بعض الأدباء
فيما بعد ، نظموا بديعيات لم يلتزموا فيها كل شروط البديعية التى أشرنا إليها فى
مقدمة كلامنا .

فمنهم من نظمها من غير القافية الميمية ، ومنهم من نظمها من غير بحر البسيط
ومنهم من نظمها فى غير المديح النبوى .

ومن الأمثلة لذلك : شرف الدين السعدى « عيسى بن حجاج ، نظم بديعته
على طريقة الحلى وسن قافية الراء .^(١)

(١) روى ذلك السجائى فى الضوء اللامع . ج ٦ رقم ٤٨٤ ، وعيسى بن حجاج اشتهر بعويس
العالية ومات عام ٨٠٧ هـ .

والأديب الشيخ محمد ناظم الملتقى، نظم بدعيية قافيتها لامية، أتمها عام ١١٠٥هـ
وشرحها في كتابته وتحفة الأدباء برسليمة الغرباء، (١)

هـ - الحكمة والمثل والنصيحة

الحكمة القولة الصادقة النافعة الجامعة المعللة المنتزعة من حقائق هذه الحياة
ووقائعها وتجاربها. والمثل على غرارها ولكنه منتزع من حادثة معينة قيل فيها،
وتردده الألسنة كلما وقعت حادثة مماثلة.

وللبينة الثقافية آثارها في إبراز هذه الأغراض وإنضاجها. وقد كانا في جملة
أغراض الشعر في هذا العصر، ولا سيما الحكمة. وقد ترددت خلال قصائد
الثناء والمدح النبوي والتصوف والزهد والشكوى وذم الشيب والزمان، وما إلى
ذلك. وقد ينظمها الشعراء مستقلة في قصيدة أو مقطوعة.

والحكمة - في الحق - أوسع رحابة من أن تدور في ميدان التصوف والزهد،
إذ حقائق الحياة التي تنزع منها أبعد أفقاً وأناى مدى منهما. ولكنها في هذا
العصر نزع في أكثر أبيانها منزع الزهد والتصوف والدين.
ونظم في الحكمة كثير من الشعراء، ومن بينهم بعض الفقهاء وعلماء الدين
والصلحاء.

غير أنها في أغلب أمرها لم تكن وادة دراسة وحسن نظر وتفكير رتيب
فاحص، واستنباط معمل. أى أنها لم تكن نتيجة تعاط للفلسفة ودراسة الآراء
ورغبة لابتكار المذاهب وتعليقها. وإنما هي الحكمة العابرة غالباً، العارضة
خلال الأحداث، والتي تخرج أحياناً كثيرة: مخرج الوصية والنصيحة.

(١) راجع فهرس دار الكتب المصرية ج ٢ (بلاعة رقم ٢٧٧ - مخطوط)،

ونبدأ لك بأبي الحسين الجزار المصرى ، الذى ينصح بالآلا يقطع المرء
عادة بر ، جرى عليها . والآ يملك يده عن اعتاد منه بذل المعاونة ، عقاباله
على جريرة ارتكبتها ، أو خلف اقترفه . وينبغى ألا يعاقب المرء بقطع رزقه ،
فهذا أدعى إلى إثارة حقه وكرهه . وينبغى أن يحرص الإنسان على بذل
العفو للمسىء ، فذلك أدعى إلى استبقائه . . .

يقول الشاعر أبو الحسين الجزار ، ويستدل لقوله ويضرب المثل له :

لا تقطعن عادة بر ولا	تجعل عقاب المرء فى رزقه
واحرص على العفو فإن الذى	نرجوه عفو الله عن خلقه
وإن بدت من صاحب زلة	فاستره بالإغضاء واستبقه
فإن إثم الإفك من مسطح	يحط قدر النجم من أفقه
وقد جرى منه الذى قد جرى	وعوتب الصديق فى حقه (١)

وهذا عبد العزيز بن محمد القيسرانى المخزومى نزيل القاهرة والمتوفى عام ٧٠٩ هـ
يتحدث عن الرزق وطلبه ، ويرى أن كل امرئ يطلب الرزق من غير الله يكون
قد ضل سبيل الهدى وحاد عن نيل الأمانى . لأن الذى يعجز عن رزق نفسه
كيف يستطيع أن يرزق غيره ويحقق له أمنيته فيه . يقول :

من طلب الأرزاق من عنده من	يطعمه الله ويسقيه
يكون قد ضل سبيل الهدى	وحاد عن نيل أمانيه
لأن من يعجز عن نفسه	يعجز عن أرزاق راجيه (٢)

(١) رياض الألباب شمس الدين النواجى ، ورقة رقم ١٠ - مخطوط بالمكتبة الأزهرية .

(٢) الدرر الكامنة ج ٢ رقم ٢٤٤٧

وتحدث تقي الدين السبكي رأس شافعية زمانه، فدعا إلى العلم والنزود بالمعرفة ،
والتخلق بمكارم الأخلاق ورأى أن كمال الفتي بعلمه لا بمنصبه . وأن العلم هو علم
الشريعة الإسلامية السمحة وما يتصل بها من بحث وتحقيق وتحرير البرهان وقطع
المغالاب . ورأى أن رتبة العلم هي أعلى الرتب وأنها أسمى من المال وغيره ، وأن
العالم لا بأس عليه إذا أدبرت عنه الدنيا ومفاتها ، فإنه قد أصاب من مشاربها
صفوها . يقول في هذه المعاني :

كمال الفتي بالعلم لا بالمناصب	ورتبة أهل العلم أسنى المراتب
هم ورثوا علم النبيين فاهتدى	بهم كل سار في الظلام وسارب
ولا غفر إلا إرث شرعة أحمد	ولا فضل إلا باكتساب المناقب
وبحث وتحقيق وإيضاح مشكل	وتحرير برهان وقطع مغالاب
وأحكام آيات الكتاب وسنة	أنت عن رسول من أوى بن غالب
إذا المرء أمسى للعلوم محالفا	أضاء له منها جميع الغياهب
وينزاح عنه كل شك وشبهة	وتبدو له الأنوار من كل جانب
هي الرتبة العليا تسامى بأهلها	إلى مستقر فوق متن السكواكب
فدونكم إن كنت للرشد طالباً	تل خير مرجو الدنيا والعواقب
ولا تعدن بالعلم مالا ورفعة	وسمر القنأ ومرهفات القواضب
وهب أدبرت دنياك عنك فلا تبلى	فعنها لقد عوضت صفو المشارب
فما قدر ذى الدنيا وما قدر أهلها	وما اللهم بالأولاد أو بالتكواعب
إذا قست ما بين العلوم وبينها	بعقل صحيح صادق الفكر صائب
فما لذة تبقى ولا عيش يقتنى	سوى العلم أعلى من جميع المكاسب (١)

ولما ولي تاج الدين السبكي توقيع الدست بالشام لدى الأمير علاء الدين

الماردينى نائها ، نصحه أبوه تقي الدين السبكي بعدة نصائح تتصل بهذه الصناعة ، فى مقدمتها ألا يكتب بكفه شيئا يخشى أن يراه ماثلا أمامه يوم القيامة فيحاسب عليه حسابا عسيرا ، وألا يتناول من الأموال إلا الحلال الطيب ، وأن ينأى بجانبه عن المال الحرام ، وأن يكون شعاره تقديم النصيح الخالص لصاحب الدست ، وأن تكون تفوى الله رأس ماله فى كل ما يأخذ وفى كل ما يدع .

قال تقي الدين السبكي :

أقول لنجلى البر المفدى	مقالا وثقت منه عراه
وليت كتابة أودست ملك	رست أحكامه رست ذراه
فلا تكتب بكفك غير شيء	يسرك فى القيامة أن تراه
ولا تأخذ من المعلوم إلا	حلالا طيبا عطرا نراه
ونصحك صاحب الدست اتخذه	شعارك فالسعادة ما تراه
ثلاث يا بنى بها أوصى	فمن يأخذ بها تحمد سرا
وتقوى الله رأس المال فالزم	فما للعبد إلا من براه ^(١)

ويحذر لاجين بن عبد الله الذهبى - المولود عام ٦٥٩ هـ - من الدنيا وزخارفها ومتعها وباطلها ، ويهون من شأنها ويحقر من أمرها ، وينبه الخاطر إلى أن أطيح مأكول فيها بجنى من حشرة هى النحلة ، وأنخر ملبوس فيها مأخوذ من حشرة هى الدودة . وأولى بالمرء أن يتبع الحق ويعيش لأجله ، وبتيقظ إلى أن أيام الدنيا محدودة ، وأنفاسه فيها معدودة . ولا خلود فيها . ومن بعدها الحساب . يقول :

ميلوا عن الدنيا ولذاتها	فإنها ليست بمحمودة
اتبعوا الحق كما ينبغى	فإنما الأنفاس معدودة
وأطيب المأكول من نحلة	وأنخر الملبوس من دودة ^(٢)

(١) طبقات السبكي ج ٦ ص ١٦٧ .

(٢) الدرر الكامنة ج ٣ رقم ٧٠٧ .

وهذان ايتان لشافع بن على العسقلاني المتوفى عام ٥٧٣ هـ ، وفيهما بكاء خفي مر على الاحباب الذين واراهم التراب . وفيهما أنس بهذه القبور الموحشة لما تضم من الاحبة . وفيهما العظة البالغة التي تنفر من الدنيا وباطلها وتبرز مساوئها وأنها تحرم المرء احبابه فيصبح فيها - وهي آفة - تستشعر الوحشة منها والانس بالقبور . يقول :

تعجبت من أمر القرافة إذ غدت على وحشة المسوق لها قلبنا يصبو
فألفتها مأوى الاحبة كلهم ومستوطن الاحباب يصبو له القلب^(١)

وينعى مجير الدين اللطى النيمى على الاخلاء المستغلين الذى لا يبذلون الود للود ، وإنما يبذلونه لرغبة من الجاه أو لرغبة فى المال . فإخلاصهم زائف ليس نابعا من القلب ، وإنما رهين المصلحة والمنفعة . لهذا أصح لا يستريح لرؤيتهم ولا يرجو منهم نفعا . يقول :

وزهدنى فى الخل أن وداده لرغبة جاه أو لرغبة مال
فأصبحت لا أرتاح منه لرؤية ولا أرتجى نفعاً لديه بحال^(٢)

ولعل الشاعر البارع زين الدين بن الوردى من أكثر شعراء العصر حكمة ومثلا ونصيحة ، وذلك فى لاميته الزاهدة .
واطردت هذه النزعة منه فى كثير من قصائده ، وبرع فى إسداء النصيحة وسوق الحكمة وضرب المثل .
وفى إحدى قصائده الحكيمة يرسم للمرء مسالك الحياة السعيدة ويصور له أخلاق الناس وما ينبغى له عمله إزاءها .

(١) نكت الهيمان للصفدى ص ١٦٣ .

(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٣٢ .

فهو يحذره من بنى الدنيا . ويوصيه بأن يكون فى غفلة عنهم . لا فى يقظة لأعمالهم !! وهذا اتجاه غريب ورصية تحتاج إلى نظر وتعليل . فلعله يريد ألا يشغل المرء نفسه بأعمال الناس ، وألا يتنبه لهم حتى لا يشير ذلك فى نفسه حفيظة عليهم أو حقدا لهم أو يدفعه إلى تدبير أمرهم ، أو يشير فى نفسه أى شاغل يشغله بهم وبأعمالهم . وهو يرمى من وراء ذلك إلى أن يكون المرء فى شبه عزلة عن الناس حتى يعيش فى طمأنينة بال وبلمهنة حال .

وهو يوصى بحفظ الود القديم واحتمال الإساءة من الصديق وغفرانها له ، والإسراع إلى فعل الجليل ، فذلك ادعى إلى رده عند المناسبة . وهو يدعو إلى أن يغتنم المرء فرصة الحياة فيبادر إلى تقديم ما ينفعه فى الآخرة فالدنيا مزرعة لها ، ولتسكن تقوى الله إماما له . ويعلم أن الدنيا مليئة بالمساوىء ولا مجال إلى ملاقاتها إلا بمداواة أهلها ومضاعفهم حتى يسلم من أذاهم ، إلى آخر ما ينصح به . يقول :

واحذر بنى الدنيا وكن فى غفلة عنهم وجانب كل كلب ضارى
واحفظ لصاحبك القديم مكانه لا تترك الود القديم اطارى
وإذا أساء وفيك حمل فاحتمل إن احتمالك أعظم الأنصار
سارع إلى فعل الجليل وفلذ الأعناق حسنى فالزمان عوارى
واجعل إلى الأخرى بدارك بالثقى تغنم فما الدنيا بدار بدار
واعمل لتلك الدار ما هى أهله عمل المدارى أهل هذى الدار
وتوخ فعل المسكرات تبرعا فالمكرمات حميدة الآثار
لا تأسفن لما مضى واحرص على إصلاح ما أبقيت باستتار
فالمعسرون بنو كلاب عندهم واليوم أهل الفضل أهل يسار
جاور إذا جاورت بحرا أوفى فالجار يشرف قدره بالجار
كن عالما فى الناس أو متعلما أو سامعا فالعلم ثوب غفار
من كل فن خذ ولا تجهل به فالحر مطلع على الأسرار

ولم يترك ابن الوردي في قصيدته تلك ، الفرصة السانحة للدعوة إلى مبدئه ومذهبه الذي اعتنقه أخيراً ، وهو الخنول ! ! وينصح بانباعه ، لأن الخنول مع غنى النفس والقناعة ، سعادة كاملة وعز شامل ، إذ يعصم المرء من رجاء فلان واستعطاف علان . وفي سعي المرء إلى الشهرة خطر عليه فهو يعرضه للرجاء والإذلال .

وهو يطلب في الأبيات التالية أن يعجل المرء إلى التوبة والندم إذا ابتلى بزلة وتروى في خطيئة . ويدعوه إلى ألا يظلم الناس حذراً من دعواتهم في الأسحار على الظالم . وينبغي عليه أن يطيل الفسك في عواقب تصرفه حذراً من أن يقف مرة موقف الاعتذار ، فهو موقف الضعف على كل حال . وليتجه بوجهه إلى الله سبحانه وتعالى فهو مصدر المعروف دون سواه . وها هي ذى الدنيا قد خلت من الإخلاء الذين يرتجون في الشدة ويقصدون في المحنة ، ولم يجد بينهم من يتأني على الأوزار والخطايا ويردد ابن الوردي النصيحة الخالدة القديمة وهي الحذر من العدو مرة ومن الصديق مرارا . لأن الصديق أدري بالسر وأعرف بالثغرة وأكشف للعيب ... إلى آخر ما نصح به هذا الشاعر البارع . وفي ذلك كله يقول :

ما العيش إلا في الخنول مع الغنى	وبالاشتهار نهاية الأخطار
واقنع فما كنز القناعة نافداً	وكفى بها عزا لغير ممارى
واسأل إلهك عصمة وحماية	فالسيدات قواصف الأعمار
وإن ابتليت بزلة وخطيئة	فاندم وبادرها بالاستغفار
إياك من عسف الأنام وظلمهم	واحذر من الدعوات في الأسحار
أطل افتكارك في العواقب واجتنب	أشياء محوجة إلى الأعذار
ودع الورى وسل الذي أعطاهم	لا تطلب المعروف من أنكار
جمد الندى لجمودة الكبرا وما	جمد الندى لبرودة الأشعار
لم يبق خل للشدائد يرتجى	في نشر إحسان وطى عوار

من أين يوجد صاحب مستحسن للخير أوزار على الأوزار
أحذر عدوك والمعاند مرة واحذر صديق الصدق سبع مرار
فالأصدقاء لهم بمرء خبيثة ولهم به سبب إلى الأضرار
وأصبر على الحساد صابر مدبر قد أظهر الإقبال في الإدبار
كم نال بالتدبير من هو صابر ما لم ينله بعسكر جرار . الخ^(١)

و - الشعر الفلسفي والمذهبي

قصر شعراء هذا العصر في جمالتهم في ميدان « الشعر الفلسفي والمذهبي » ،
ونعني به الذي أساسه الفكرة المدروسة والنظرة الممحصنة والبحث العميق
والحديث العقلي عن الذات الإلهية وما وراء الطبيعة .

كانت قصارى مجهودهم في هذا الباب ، إنتاج الحكمة العابرة والنصيحة العارضة
القصيرة العاجلة ، التي تدور غالبا في النطاق الإسلامي ، ولا تكاد تتعداه .

ذلك لأن علوم الدين بعامة ، والفقه والعقائد الإسلامية بخاصة ، كانت
في مقدمة علوم ذلك الزمان ، بل كانت علومه الأثيرة التي لها الصدارة في الدروس
المقررة^(٢) .

وحقا كانت هناك خوائق ، وشيوخ صرفية ، ودروس في هذه الخوائق .
ولكن اعتقادنا أن الصوفية لم تكن في هذا العصر تزاوّل مزاولة دراسية باحثة ،
فيها علم وفكر محض . بل مزاولة رياضية فردية . فكانت عملية روحية شخصية
هدفها الاندماج في الذات الإلهية .

وهذا كله لا ينتج فلسفة رتيبة منظمة معللة مقارنة . ومن ثم كان لهذه الحالة

(١) ديوان ابن الوردي ص ٢٠٤ .

(٢) راجع المجلد الثالث من كتابنا عصر سلاطين المماليك .

صداها في نفوس الشعراء الذين كانوا في جملة أحوالهم بعيدين عن هذه الدراسات والرياضات . باستثناء بعض الفقهاء الذين نزعوا نزعة صوفية صحيحة وكان لهم فيها شعر صوفي زاهد انجحه نحو الحكمة والنصيحة الإسلامية ، دين أن يتحول إلى دراسات فلسفية أو بحوث خلقية ، مثل تقي الدين بن دقيق العيد القشيري ، وتقي الدين السبكي . وباستثناء بعض الشعراء الحائزين على أهل الوحدة من الصوفية ممن يذهبون مذهب عمر بن الفارض فقد روى أن شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي نظم قصائد نبوية حمل فيها حملة شعواء على ابن الفارض وأهل الوحدة (١) . هذه على كل حال أحوال فردية ومن بعد ، لا ترى لغيرهم فكرة مفصلة أوراباً مدروساً معللاً عن ناحية من نواحي المجتمع أو الدين أو الخلق ، إلا ما ندر .

ونعود إلى الحديث عن زين الدين بن الوردى ، فهو من هذا اللون النادر في العصر الذى نحن بصده . وقد جنح في أخريات حياته إلى لون من الزهادة سماها « حياة الخمول » . فاعتنق « الخمول » مذهباً ومبدأً عن عقيدة وثقة وإيمان . لقد قلب نظره فيه حتى علل جميع نواحيه وأطرافه ، وردد الدعوة إليه في كل مناسبة . لقد دعا الناس إلى الزهادة والرضا بحياة الخمول ، بقوة وحرارة ، دعوة من يرى في هذه الحياة سعادة الناس . ففي « الخمول » ، والتوارى عن الناس والرضا بالقليل وعدم الرغبة في الشهرة ، والانزواء بعيداً عن الأضواء قناعة من المرء وحفظ لماء وجهه وصون لكرامته ورضا بمقسومه ، وابتعاد عن مواضع الذلة ومصارع الآمال .

وأنفع ابن الوردى في الدعوة إلى مذهبه ، حتى عجب لنفسه كيف لم يفتن لمذهبه هذا إلا بأخرة ، وحتى عجب للناس كيف يرضون بالذل في سبيل المجد

(١) راجع ديوان ابن أبي حجلة المغربي .

الزائف والجاه الباطل الذى يضيع الكرامة . وأخذ ينعى عليهم كثيرا من عاداتهم وأخلاقهم ، وبخاصة ما يتنافى منها مع مذهبه .
والآيات التالية من أبيات ابن الوردى ، تحدثك عن شيء من اتجاهه .
قال :

أنهزأ بى لما أجد وتلعب وتعجب من حالى وحالك أعجب
ألا طالما قد كنت مثلك ساعيا لجاه ومال جاهدا أتطلب
وطال اجتنابى للخمول فدفقته فظاب فأحببت الذى أتجنب
وما العيش إلا فى الخمول مع الغنى فشكرا لمن فى فضله أتقلب
رضيت كسادى واستخرت بطالتى وقلبى سرور وعيشى طيب
وما ذاك عن مال جزيل وإنما كفى كفاف والقناعة تغلب
ولو ذقمت طيب القناعة متم عليها ولكن بدرها يتهيب
تركت لكم عز القضاء وجاهه وأبعدت عنه خائفا أترقب
فقوموا على ساقى حديد وشمروا لنيل علاء واجهروا النوم واطلبوا
وميلوا وجوروا واحكموا وتحولوا وصولوا وطولوا وانبذوا الزهد وانهبوا
ستعلم نفس أى حمل تحملت ليوم أسى من هوله الطفل أشيب
لقد نلت من كنز القناعة بغيتى وجانبت حرصى والحريص معذب
وعفت بنى الدنيا وغادرت برهم لغيرى فلا أشكو ولا أتعذب... الخ (١)

وابن الوردى ينوه فى أبياته بالسبب المباشر الذى دفعه إلى طلب الخمول والسعى إليه . وهو أنه كان نائب حاكم فى بعض البلاد فأبعده قاضى القضاة عن مقره إلى غيره . فطلب العودة فلم يستجب له . فاستقال من الوظيفة وابتعد عن دنيا الجاه والمجد ، وارتضى حياة الخمول .

وكان من نتائج رضاه بجموله ، بل وسعيه إليه ، تحديد رأيه في الحظ . فقد أصبح ، الحظ ، في نظره كل شيء في الحياة . فلا هو نتيجة العمل ، ولا هو نتيجة الذكاء ، ولا هو نتيجة الكفاية .

وما دام الحظ هو كل شيء فقد استوى العلم والجهل ، بل ربما جلب العلم على صاحبه حسد الحاسدين وحقد الخاقدين . فيشوه ذلك من جمال حظه . فما الداعي إذن إلى العلم . وما ضرورته ما دام الحظ مواتيا ، والأيام باسمة ، والعيشة راضية .

هكذا انتقل ابن الوردي من فكرة إلى أخرى تسلمه لها . وقد لا تكون فكرته نموذجا يقتدى بها الناس . وليكنها على كل حال فكرة مبينة على منطق مقبول ، وهو منطق اليائس الذي ضاقت به حيله عن إصلاح الناس .

وفي ذلك يقول :

لا تخرصن على فضل ولا أدب فقد يضر الفتى علم وتحقيق
ولا تعد من العقال بينهم فإن كل قليل العقل مرزوق
والحظ أنفع من خط تزرقه فما يفيد قليل الحظ تزويق
والعلم يحسب من رزق الفتى وله بكل متسع في الفضل تضيق
أهل الفضائل والآداب قد كسدوا والجاهلون فقد قامت لهم سوق
والناس أعداء من سارت فضائله وإن تعمق قالوا عنه . زنديق (١)

ومن الأمثلة النادرة أيضا ، جمال الدين بن نباتة ، فقد تحدث عن اللذة . واعتقد أن من واجبه أن ينهز فرصة حياته ليتمتع ما شاء له التمتع ، ولينعم ما أتيسر له النعيم . وليطلق لنفسه عنان اللهو في ميدانه ، وكلما أمكنته الفرصة اغتنمها ، فإن الحياة لا تعود ، وإن العمر لا يتكرر . . . والأيام تمضي سريعا .

يقول ابن نباتة :

فبادر اللذة يا فلان واغنم متى أمكنك الزمان
ولا تقل مشقى ولا مصيف فكل وقت للمنا شريف
كل زمان يتقضى بالجذل زمان عيش كيفما دار اعتدل

وهو يرجو عذوله أن يدعه يغنم عمره ، فالأعمار تسرى سرى السحاب
ولا تعود ، وأن يدع فؤاده يختار ما يختار لنفسه من أسباب اللهم قبل أن يدركه
الموت ، وهو الذى سيثحمل أوزاره وخطاياها دون عذاله .

يقول ابن نباتة :

يا عذولى خلنى أغنم عمرى إن أعمار الورى كالسحب تسرى
دع فؤادى والذى يختاره ما على ظهرك يا عاذل وزرى
دع غوائى مجلسى تصدح لى فغدا تبكى البواكى حول قبرى
يا نديمى وهذا يومنا يوم صحو فاجعله يوم سكر^(١)

هكذا كان رأى ابن نباتة فى اللذة واغتنامها . غير أنه لم يلح فى ترديد هذا
الرأى ، ولم يلح فى الدعوة إليه ، كما ألح ابن الوردى فى الدعوة إلى الخول واعتزال
الناس والكف عن السعى إلى الشهرة والمجد . وإنما وردت أبيات ابن نباتة فى
ذلك لما لما فى قصائده .

ويبدو أن دراعى الحاجة والبؤس التى طوقت حياة ابن نباتة ، لم تدع له
فرصة للتفلسف واعتناق فكرة معينة عن الحياة ، والإلحاح فى الدعوة إليها .
والشاعران — كما ترى — على طرفى نقيض ، وإن كانت حوافزهما
واحدة .

ز - الشعر القصصى والتمثيلي

والشعر القصصى والتمثيلي ، يصفان في أغلب أمرهما نواحي المجتمع . ولكن ذكرهما في فصل البيئة الثقافية أليق ، وذلك لأنهما نتاج للعلم والمعرفة والملاحظة والتجربة .

وقد قصر شعراء العصر المملوكى في ميدانها . وهو تقصير اطراد إليهم من العصور الأدبية السابقة . وإذا كانت قد بدرت بوادرهما في تلك العصور ، فإنها لم تجد ما ينمىها .

وقد رأينا كيف برع الشعراء المذكورون في نظم حقائق العلوم والفنون ، وكيف أجادوا . وفي جملة ما نظموه أخبار التاريخ وأسماء الملوك وطرف وجيزة من أخبارهم . ولقد اعتبرنا ذلك ضربا من نظم العلوم والفنون .

ولو أنهم أطالوا في القص ، وفصلوا في الأخبار . وأضافوا على ما سطوروا ثوبا من الخاسة ، وشفعوه بشيء من التحليل والتعليل والنقد ، وبدت فيه ملامح شخصيتهم ، وزودوه بالقليل من الخيال وجمال الأداء ، وربطوا الحوادث بعضها ببعض في تسلسل مقبول جميل ، لاستطعنا أن نعد منظوماتهم في هذا الباب ، شعراء قصصيا .

وبمناسبة هذا الحديث ، نسجل خبرين رواهما شمس الدين السخاوى ، قال :
« إن شمس الدين بن الزين ، الشاعر الأديب ، نظم قصة يوسف عليه السلام ، في ألف بيت ، » (١)

و « إن الشيخ ابن ناصر الدين ، الشاعر ، أنشأ قصة ظريفة نظما ونثرا ، على

لسان مدينة المنصورة في قاضها شمس الدين بن كليل ، ، (١)
وليست هاتان القصتان بين أيدينا ، حتى نستطيع الحكم عليهما . ونعرف
مدى استيفائهما لشروط القصة ، أم هما لوانان من ألوان المنظومات التاريخية .
ومهما يكن من أمر ، ففي هذا الخبر ما يشعر بأن ثمة كان اتجاه إلى صناعة
القصة الشعرية ، وأن ثمة كان استعداد لنظمها .

اللطائم والأشناف : (٢)

ولعل هذه الأرجوزة التي نظمها نحر الدين بن مكاس ، وسماها اللطائم
والأشناف ، ، دليل حاسم على ما نذهب إليه ، من أن الاستعداد لنظم القصة كان
موجودا ، وعلى تمام الأبهة . ولعل حياة الإغفال والإنكار التي كانت تغمر
أكثر الشعراء ، سبب من أسباب كبت هذا الاستعداد .
أما اللطائم والأشناف ، فتقع في نحو ٥٧٣ بيتا . وهي في أغراض مختلفة .
ومنها على الترتيب : الحمد والصلاة ، وبيان الغرض العام من نظمها ، وهو النصح
والإرشاد ، وضرب المثل وسوق الحكمة ، والدعوة إلى طلب العلم ، والنصيحة
بالتمسك بالأخلاق الفاضلة ، كالأمانة وبذل المعروف وتوق دعوة المظلوم ،
والتحذير من مصاحبة الملوك ، والدعوة إلى قلة الكلام ، وغير ذلك من
الأغراض .

وبهنا في هذا المقام ، التنويه بأن الشاعر كان يسوق في خلال أغراضه هذه ،
قصصا طريفة حوارية ، توضيحا لها وتأكيذا لغايته منها .

ومن هذه القصص :

قصة الثور مع الحمار : وتتلخص في أن ثورا وحمارا عاشا معا في كنف صاحب

(١) الضوء اللامع ج ٨ رقم ٢٢٧ .

(٢) اللطائم : جمع لطيمة وهي وعاء المسك — والأشناف : جمع شنف وهو القرط .

لهما . وكان الحمار يمرح في بلهينة من العيش ، ويسعى في طمانينة وراحة ، بينما كان الثور يشقى في عمله ويكد ويتعب . فأشفق عليه الحمار ، ونصحه بالتمارض توسلا إلى الراحة . فتمارض الثور . فتركه صاحبه وأراحه من العمل ، حتى يبرأ . وساق الحمار محله ليؤدي عمله في السقي والحراث . فشقى الحمار فيه حتى سقم وهزل بدنه . وفضن إلى أنه ما أصابه هذا الأذى إلا بسبب فلتة لسانه وعدم حيلته ، ونصيحته للثور . فأخذ يفكر ويدبر للخلاص من ورطته ، ودفع هذا الأذى عن نفسه . ثم أتى إلى الثور المتمارض الذى نعم بالراحة زمنا طويلا ، وزعم له أنه سمع صاحبهما يقول : « إن الثور إذا استمر على حاله من المرض ، يذبحه ويستريح منه . » . ودخلت الحيلة على الثور ، وخشى العقابة على نفسه ، ونشط وأبدى استعدادا للعمل ، فساقه صاحبه إليه . . . فنجى الحمار بسبب حيلته . . . ويقول الشاعر فى ذلك .

كم من أسير بقيود قيله وواقع فى الشر من فضوله
فى قصة الثور مع الحمار عبرة من يكون ذا اعتبار
أمثالا عند جلاها الحكم وذاك أن الحكما قد زعموا
بأن ثورا وحمارا كانا فى دوحه يانعة زمانا
فكان فى الروض الحمار يمرح والثور فى بحر الشقاء يسبح
قد كل من حرث الأراضى والنصب والدوران المستمر والتعب
فبينما بات يئن ليله ولاله فكر يجيد الحيله
وافى الحمار نحوه مستفهما وقال : ما بالك تشكو الألاما . . الخ

وتقع هذه القصة فى نحو ٣٦ بيتا .

ومنها قصة زرادشت : وهى قصة ساخرة ، عن زرادشت الذى كان حكيما عالما ، ادعى النبوة ، وادعى الحلول ، وأن الخلود رهن بهذا الحلول . كما تقول القصة - ولم يفهمه أتباعه تمام الفهم ، بل حسبوا أنهم يخلدون ، إذا هو حل فى

جسد هم ولهذا قبضوا عليه وذبحوه ، وطموه وشربوا حساءه ، راجين الخلود من وراء ذلك . فكانت هذه خاتمة ، بسبب خطئه واندفاعه في مقاله .

ومنها قصة الحجاج مع العراقيين : وقد أيدها بقصة أخرى ، وصف فيها غابة يونانية أتاها حاطب بفأسه فقطعها .

ومنها قصص أسطورية ، كقصة الملك الذي رأى مناما وطلب إلى وزيره تعبيره . فاستعان الوزير بكاهن ، فعبر له الرؤيا . وكان قد انفق معه على أخذ مال منه في نظير ذلك ثم رفض أخذ المال . . . إلخ

ومنها قصة اللص والدراج^(١) ، عند الأمير صقطب ، الذي أوى أسرقوص ، وعزم على محاربة اللصوص ، فشكا إليه أعيانها ، من لص كثير الاعتداء عليهم ، أعجزهم القبض عليه . فاجتهد الأمير صقطب في البحث عن هذا اللص ، وبذل في سبيل ذلك كثيرًا من الخيل . حتى مر به غلام رائع الحسن ، محتشم البزة ، فاستقدمه الأمير وأمنه ، ثم سأله عن نفسه ، فإذا هو اللص المطلوب . . .

ثم إن الأمير صاحبه وناداه ، وجعله من جلسائه ، وجعل يتربص به الفرص ، حتى احتال عليه وأوقعه باعتراقاته . ثم قبض عليه وقتله . . . إلخ^(٢)

وفي الشعر النخبلي أو القصصي المسرحي ، لا نرى مناصا ونحن نعترف بتقصير الشعراء فيه — من أن نشير إلى ماورد منه في كتاب « طيف الخيال » لابن دانيال الموصلی — المتوفى عام ٧١٠ هـ — وقد أشرنا إليه فيما مر ، إشارة وجيزة عندما تحدثنا عن الألعاب . وأوضحنا أن لعبة « خيال الظل » كانت إحداها ، وأن تمثيلات « طيف الخيال » أعدت لهذه اللعبة .

(١) الدراج : على وزن رمان ، طائر .

(٢) القصيدة بتمامها في ديوان نثر الدين بن مكاس — مخطوط بدار الكتب المصرية ، ص ٢٠ .

واقـد اـحتـوى هـذا الـكـتاب الفـريد عـلى ثـلاث تـمـثـيلـيات ، تـخـتـلف كـل مـنـها عـن الأـخـرى فـى مـوضـعـها . وقـد سـمـاها المـؤلف « البـابـات » ،
فـالـأوـلى :

تـنـلـخـص فـى أن شـابـا جـنـديـا فـارـسا مـاجـنا . طـوى جـزءـا مـن شـبـابه فـى مـجـونـه .
واسـمـه الأـمـير « وصال » . ثم أـراد أن يـتـوب بـالزـواج . فـتـقـدم إـلى إـحـدى الخـاطـبات
وأوصـاها أن تـتـخير لـه غـادـة حـسـناء . فـخـطـبت لـه وـاحـدة ، لم يـرها قـبـل لـيـلة زفـافـها .
وفـى تـلك الـلـيـلة ، اتـضح لـه أنـها عـجـوز قـبيـحـة شـوهـاء . فـثـارت نـاثـرتـه . . . ثم ذـهب
إـلى بـيـت اللـه الحـرام حـاجـا ، تـائبـا تـوبـة كـامـلـة

ويـتـضح للـقـارىء مـن خـلال فـصول القـصـة ، مـن أـحـادـثـها وحوارها . صور
اجـتمـاعـية ، ونـقدات طـريـفة ، وأوصاف لطـيـفة ، تـكـشـف عـن كـثـير مـن نـواحـى
المـجـتمـع إـذ ذـاك : وتـسمـى هـذه القـصـة « طـيـف الخـيال » .

والثانية :

تـنـلـخـص فـى بـيـان أحوال الغـرباء المـحتـالـين ، والأدباء المـستـجـدين ، الـذـين
يـتـجـولـون فـى الآفاق ، ويعرضون عـلى النـاس أدبـهم وألـعابـهم .

وهم فـى تجـولهم وألـعابهم ، أشـبه « بالسـرك » المتـجـول ، فـى أبـامـنا الحـاضـرة .
وتتـضمـن القـصـة ، خـمـسا وعـشـرين لـعبة مـخـتـلـفة - أشرنا إـلـيـها فـيـما مـر - ويـبدو
كـل لـاعـب عـلى المـسـرح فـيعـرض لـعبـته ، ويـستـجـدى الحـاضـرين ، ثم يـنـصـرف .
ومـن بـيـنهم مـن يـلـعب مـعـه حـيـوان كـالـفـيل أو القـطـط أو الكـلاب . أو يـلـعب لـعبة
رـيـاضـية ، أو يـعـرض بـعض المـعـاجـين أو الأدوية أو الرقى . الخ

وهـذه القـصـة الـاسـتـعـراضية ، تصـور ألـوانا مـن الـألـعـاب المـعـروفـة فـى ذـلك
الـحـين . وتـسمـى قـصـة « عـجـيب و غـرـيب » . و غـرـيب هـو مـقـدم القـصـة فـى أول أمرها .
ومـن بـعـده يـتـتـابع الـلاعـبـون . ثم يـخـتـتمـها . (١)

(١) تـوجـد قـصـة أـخـرى اسـمـها « عـجـيب و غـرـيب » فـى دار الـكـتب المـصـريـة . لا يـعلم مـؤلفـها وهـى =

والثالثة :

تتلخص فى أنها قصة عاشق ومعشوق . والعاشق يقص قصته ويصف وجده وحنينه . ويقابله معشوقه - وهو من حى الحسينية - فيتناجيان ويتواصلان أنا ويتجايفان أنا .. وتسمى هذه القصة « بابة المتيمة والضائع اليتيم » .

هذا والبابات الثلاثة تعتبر من صميم الأدب الشعبى موضوعا وأسلوبا معا . أما الموضوع فأمره واضح ، مما فصلناه . وأما الأسلوب فهو حوار وقص وتمثيل ، يمزج الشعر فيه بالثر ، مع كثرة النثر ، وشعره أبيات كاملة تتخلل فقرات نثره . وتشيع فى سطورها العامية بالفاظها وتراكيبها وعباراتها السائرة ، وتفيض بالفكاهيات والمجونيات المبتذلة ، وبالأدب المكشوف . وربما كان ذلك فى جملة أسباب عدم نموها

وإليك سطوراً من البابة الأولى ، التى نعتبرها أكثرها حبكا وأوقافها بشروط المسرحية : -
نشيد « الرئيس » :

يخرج « الرئيس » إلى المسرح ، ويقدم إلى المشاهدين « طيف الخيال » . وهو شخص محدودب ، ضحك راقص يستجدى الناس . وهو أخو الأمير « وصال » .
فيقدمه الرئيس منشداً نشيد الافتتاح التالى :

خيالنا هذا لأهل الرتب والفضل والبذل وأهل الأدب
حوى فنون الهزل والجد فى أحسن شكل وأنى بالعجب
فانظره يا من فهمه ثاقب ففيمه للعرفان أدنى سبب

== قصة نثرية كلها ، يتخللها قليل من الشعر . وهى تتضمن قصة أخوين وقعت بينهما حوادث مروعة - وليست هى قصة ابن دانيال الموصلى التى نتحدث عنها هنا .

إن قام فيه ناطق واحد عن كل شخص ظاهر واحتجب
ترجمته ، طيف الخيال ، الذي حكي هلالا طالعا بالحدب
مذاهب الفضل به جمه فنقطوه سادتي بالذهب

فإذا فرغ « الرئيس » من نشيده ، ينادي : يا طيف الخيال ، يا كامل
الاعتدال . فيخرج شخص أحدب ، ويسلم . فيقبله « الرئيس » برد السلام ،
وينشد مادحا ومثنيا على حديثه قائلا :

قسما بحسن قرامك الفتان يا أوجد الأمراء في الحدبان
أنت الحسام زها بهر شق حلبة فافت على الخطبة المران
يا منجل الغصن الرطيب بقده حاشاك أن تعزى إلى نقصان
ماعاب قامتك الحسود جهالة إلا أجبت مقال بهيان
ومنه :

لولاك ما اشتقنا قباب المنحنى من حاجر والتل من عسفان
والعود أحدب وهو ألهى مطرب ولقد سمعت بنغمة العبدان
وكذا سفين البحر لولا حلبة في ظهره لم يقو للطوفان .. الخ
فإذا انتهى « الرئيس » من نشيده هذا ، يطرب « طيف الخيال » ، ويرد على
« الرئيس » قائلا :

« لا فض الله فاك ، وصان من سيف الحسبة قفاك » .
ثم يأخذ « طيف الخيال » ، في الرقص والغناء ، منشدًا نشيدًا لطيفًا ، يحجي به
السادة الحاضرين .
يقول في افتتاحه :

سلام على السادة الحاضرين سلام المشوق الكئيب الحزين
سلام على من حوى ذا المقام من السادة الاتقياء الكرام

فهم خير من خاطبوا بالسلام وأكرم من صوخوا باليمن .. الخ

وإليك سطوراً من البابة الثانية «عجيب وغريب» :

يخرج شخص وبقول :

عبدكم الغريب . المشوق الكئيب . الذى أذابه الحنين . وغادره البين
حتى لايبين . فتعاقفت به الأقطار . ودار مع الفلك الدوار . بعد أوطان
وأوطار .. ،

ثم ينشد قائلا :

أرث صرف الزمان حالى فما لدهرى ترى ومالى
حتى كأتى له عدو يرشقى منه بالنبال
أبن زمانى الذى تقضى وأبن جاهى وأبن مالى
وأبن خفى وطلسانى وأبن قلى وأبن قالى... الخ

ويقع هذا النشيد فى ٢٦ بيتاً ،

وبعده يقول :

« فأين تلك الأيام وطيبها . وحسن هاتيك الأوقات وأعاجيبها . فرحم الله
شيخنا ساسان . فلقد كان إنسان عين كل إنسان . قدوة الأدباء . وأنس الغرباء .
وجامع شمل كل محب بسكنته . وراد كل غريب إلى وطنه .

ثم ينشد :

عجبت وشنأن الحب غير عجيب إذا مات بالاشواق كل غريب
تباعدت الأجسام منا وإننا لنا جامع من رؤية وقلوب
لنا كل يوم منزل تربه النوى وقرب خليل وهو غير قريب
أفارق خلا بعد خل كأنى أفارق نجلى أو أخى ونسبى... الخ

ثم يقول :

«رحبا لله السادة الحضار . عيون الأعيان ونواظر النظار . اعلّموا يا سادة الأعيان . إننى من بنى ساسان . الذين قعدت بهم زمانة الزمان . . . الخ .

ثم يقول المؤلف :

«وبعد أن يتم حديثه يتوارى . ويخرج «شبل السباع» . ومعه الأسد والأنباع . وهر منقاد بالسلاسل والأغلال . وهو ماش تارة كالمحتال ، وآونة كالمغتال . وقد اتخذ من لبدتيه كالغيل . ورد قربته إلى يافوخه فصارت له كالإكليل . ولنمر غير خائف ولا مرتاب . وكشر عن ناب غير ناب . هذا ، وشبل السباع ، وقتا يروضه . ورقتا عليه يشغل جره ونهوضه ، وهو مع الكل يذهب بقوة جنان . وقلب غير جبان . ويقول :

انظرونى يا سادى كيف حالى فى مدارات ضيغم قتال
ملك جائر أروم رضاه كل يوم بذلة واحتيال
ليس يبق على إلا لانى سائس مطعم بلا إخلال
وأنا فى يديه قطعة لحم فائقذرى من ربة الأكال
فيبادرون إلى إجابة طلبه . ويستفيدون بالله من الأسد وغضبه . ثم ينصرف .
فيخرج «مبارك الفيال ... الخ

وهكذا بالتوالى ، حتى ينتهى هذا الاستعراض الطريف .

وترى أن كل لاعب يعرض ألبابه ، ويخاطب الحاضرين بالشعر والنثر ، ويطلب منهم فى النهاية أجره ، وذلك كما يفعل الحواة واللاعبون المتجولون فى زماننا .

وإليك سطوراً من البابة الثالثة «بابة المقيم والضائع اليتيم» .

قال ابن دانيال فى مفتتحها :

و ضمنتها طرفا من أحوال المحبين . وطرفا من الغزل الذى هو السحر للمبين .
وطرفا من الملاعب . وطرفا من المجون الذى ما عيب :
فإذا دعيت إلى مجلس صدر من صدور الزمان . فاجل الستارة وعن
فى أصفهان :

قل لسادات الزمان لا برحتم فى أمان
وبقيتم فى نعيم ما تبقى الهرمان
فيخرج شخص هيجه الغرام . وأتلفه السقام . وأذابه الأرق . حين ذاب
لحمه ورق . فيبكي بانتحاب وينشد متأوها باكتئاب :

أهل الغرام تجمعوا وتوسلوا وتضرعوا
دقوا الأبواب الإجابة بالدعاء لتسمعوا
موتوا تعيشوا فى الهوى وتمزقوا وتقطعوا
وخذوا حديث متيم عن سواه أو دعوا .. الخ

وبعد أبيات يقول هذا الشخص :

« آه أراه . واحباه . واقلباه . المتيم المسكين ذبح بغير سكنين . من أرسل
ناظره . أتعب خاطره . ومن بذل نفسه للهلاكه . فليصبر على سوء الملائكة » .. الخ

وبعد عبارات من هذا النوع ، يقول :

هكذا كل أخى وجد يكون ما أنا وحدى فى هذا الجنون
بى من الأتراك أحوى أحور لحظه قيد فتور وفتون .. الخ

وبعد أبيات يقول :

« أيها السادة . مسيتم بسعادة . ولا بليتم بعشق متدل . ولا إفلاس عاشق
متدل . » . الخ

وهكذا يستمر فى وصف قصته ، حتى يلاقيه معشوقه ويناجيه . . . إلى

آخر القصة : (١)

ويلاحظ أن الأديب المؤلف ابن دانيال الموصلى ، يضع فى خلال السطور ما يعين على فهم الشخصية وتلوينها باللون الذى يريده لها . ويضع ما يوجه اللاعب إلى فهم الشخصية التى يلعبها ، وما يتصل بها من حركات وإشارات وانفعالات .

ولسكننا بهذا العرض لانبغى أن نقضى بحكم ، وهو أن هناك فى ذلك العصر ، كان شعر تمثيلى أو مسرحى أو قصصى ولسكننا لانشك أيضا فى أن فيما عرضناه ، الدليل القاطع على أن بادرة هذه الفنون بدت فى أذهان بعض شعرائه . وأن ثمة كان لديهم استعداد لإبرازها وتتميتها ، لوهيئت لها عوامل الإبراز والتنمية .

ج - الاستجاسة والإجاسة

كانت هناك — على ما بينا فى وصف البيئة الثقافية — أنواع من الإجازات العلمية هى إجازة العراضة ، والإجازة برواية الحديث ، والإجازة بالفتوى أو التدريس .

وعلمنا أن الطلاب كانوا شديدي الحرص على استمناح شيوخهم هذه الإجازات ، ما داموا قد انتهوا من إحدى مراحل التعليم . بل كانوا شديدي الحرص على استمناح أكبر عدد مستطاع من شيوخهم هذه الإجازات ، توصلا إلى كثرة ما يكون لديهم منها ، وبخاصة إذا منحوها من أكابر العلماء . وكان حرصهم بادياً بارزاً فى طلب إجازات الرواية للحديث من شيوخهم الحفاظ . إذ كان حفظ الحديث وروايته والمشافهة به ، غاية تعليمية ، من الغايات المقدمة .

(١) راجع « طيف الخيال » لابن دانيال الموصلى — مخطوط بالمكتبة التيمورية — فهرس الألعاب .

وعمد بعضهم إلى تأليف معجم لشيوخه الذين علموه والذين أجازوه .

أعتقد أن الأدباء فيما بينهم ، تأثروا بهذا المظهر العلمي ، ونسجوا على منوال الطلاب في استمناح الإجازة ، وعلى منوال العلماء في منحها لهم .

ويسمى طلب الإجازة « الاستجازة » . وقد كتبت كل منهما نثراً أو شعراً . فشهد ميدان النثر وميدان الشعر عدة من الاستجازات والإجازات الأدبية .

« والاستجازة » أن يتقدم أحد الأدباء إلى كبير من كبار الأدباء ، يكون في مقام شيخه ، أو تربطهما رابطة الصداقة والمودة ، أو رابطة الأدب والشعر . بقصيدة شعرية يستمنحه فيها إذناً منه برواية آثاره الأدبية شعراً أو نثراً أو مؤلفاته العلمية أو نحوها . - وتسمى الاستجازة أيضاً « الاستدعاء » وهو غير الاستدعاء إلى الشراب ونحوه .

« والإجازة » أن يكتب إليه هذا الأديب الكبير رداً على « استجازته » أو « استدعائه » . قصيدة شعرية ، يأذن له فيها برواية هذه الآثار الأدبية أو العلمية .

وترى كلا من الاستجازة والإجازة مملوءة بعبارات المدح وتقارض الثناء بين المستجيز والمجيز ، وتشعر بهما وسيلتين بينهما للتكريم ولتأكيد المودة وتبادل الثقة والتقدير . فهما بهذا ضرب من ضروب الإخوانيات .

وكان من المستطاع أن نسلكهما في عداد نتائج البيئة الاجتماعية ، لولا هذا التأثير البادى عليهما من مسلك الطلاب والعلماء في استمناح الإجازة ، وفي منحها . ولولا أن الإجازة بذلك ، يعتبر كالشهادة الدراسية .

ومن الاستجازات - أو الاستدعاءات - ما نظمه محمد بن جابر الأندلسي

الضريّر ، صاحب بديعية العميان ، وأرسله إلى صلاح الدين الصفدى يطلب إليه السماح له برواية شعره ونثره .

قال ابن جابر فى المطلع بمدحه :

وكل شيء بديع أنت مغناه	إن البراعة لفظ أنت معناه
من نظم غيرك لو إسحق غناه	إنشاد نظمك أشهى عند سامعه
وعندما جنته أبدى محياه	تجيب الشعر عن قوم وقد جهدوا
فلو تكلم زهر الروض حياه	أتيت منه بمثل الروض مبتسما
محاسن الشعر إلا كنت إياه	حجرت بعد أن حجر أن يحوزقى
إلا حبيب إذا عدت مزاياه	وهل خليل إذا عدت محاسنه
قلنا لها الصفدى اليوم أنساه	إذا المعرى رامت ذكره بلد
أعلام نخر تلقتهن كفساه	أعلام كل بديع راق سامعه

ومنها يستجيزه :

محمد عند من نادى فسماه	إن ابن جابر إن تسأله معرفة
لو جال فى سمع ملحد لأحياه	لما عمرت مجال السمع منه بما
أمثالك اليوم أخرى ما سألناه	وإفاكم مستجيزا وإجازة من
ينازع الروض مرآه ورباه	فألفظ بجيزا لنا ما صغت من كلم
لو صيغ للدر حلّى كان إياه	نظم ونثر يهز السامعين له
ألفت يا نخبة فيمن رأيناه	إجازة شملت ما قد رويت وما
ودم لوارف عز طاب مجناه ^(١)	فعرش لنظم المعاني فى مواضعها

فنظم له صلاح الدين الصفدى « إجازة » ردّاً عليه فقال من بحره ورويه :

(١) عن كتاب « نكت العميان فى نكت العميان » للصلاح الصفدى ص ٢٤٥ فى ترجمة « محمد ابن جابر الأندلسى » .

يا فاضلاً كرمت فينا سجاياه وخصنا بالآلى في هداياه
 خصصتني بقرىض شف جوهره لما تآلق منه نور معناه
 من كل بيت مبانیه مشیده كم من خبايا معان فى زواياه
 إذا أدبرت قوافیه وقد ثمل النديم أغنته عن راح نعاياه
 وغير مستنكر من أهل أندلس لطف إذا هب من روض عرفناه
 هم فوارس ميدان البلاغة فى يوم الفصاحة إن خطوا وإن فاهوا
 إبه تفضلت بالنظم البديع فما أعلاه عندى من عقد وأغلاه
 أقسمت لو سمعته أذن ذى حزن فى الدهر الزمسه البشرى وألهاه
 أشرت فيه بأمر ما أقابله إلا بطاعة عبد خاف مولاه
 ولست أهلاً لأن تروى فضائح ما عندى لأنى من التقصير أخشاه
 ولست إلا الذى ترضاه فارو عن المملوك مارحت ترواه وترضاه^(١)

ونظم هذه : الإجازة ، صنى الدين الحلى ، يحيزا بها الشيخ العلامة وشمس الدين
 ابن عبد اللطيف بن خليفة الهمداني ، برواية نظمه ونثره . رادا على استيجازته .
 قال فى المطلع :

أنى لفضلك بالمديح نجازى شتارن بين حقيقة ومجاز
 فضلاً به ضاق الزمان بأسره فضلاً عن الإرمال والإرجاز
 ومنها :

يا صاحب المنن التى آثارها فينا كفعل الغيت بالإرجاز
 لديار مصر لك الهناء وإن غدا للروم بعدك والعراق تعازى
 قوضت عن أعلامها فتسكرت فكأنها ثوب بغير طراز

(١) نفس المصدر السابق نفسه .

ما للمقيم بمصر بعض صفاته قبل فكيف لعابر مجتاز
وجلوت شعري في المحافل بعدما أخفيت به بدفاتر وجزاز
وخطبت مني بعد ذاك إجازة عن نقله حتى ظننتك هازي
هل يخطب المولى إجازة عبده ويروم من مولاه خط جواز
واقداً أجبته بأن أجزت بخدمة في غاية التلخيص والإيجاز
وأذنت أن ترويه عنى مالكي مع كل ما يعزوه نحوى عازي
فهي الإجازة والوداع لأنها صدرت ومرسلها على أوفاز
متوقع الإغضاء عن تقصيره منذا يوازن فضلكم ويوازي
وإذا عجزت عن الجزاء لحقكم بمدائحي فآله خير مجازي (١)

وكتب زين الدين بن الوردى « إجازة » نثرية أجاز بها القاضي نور الدين
الفيومي . وفي سياقها نظم هذه الأبيات :

مولاي يا ذا المنظر الباهر والمنطق المنتظم الزاهر
يا حاكماً شاهده حاكم على العلى نفديك بالناظر
أبدعت نثراً قلت لما بدا كم ترك الأول الآخر
وقلت شعراً محكماً مثله في الدهر لم يخطر على خاطر
فيا سريع النظم لازلت في خير مديد كامل وافر
جملت مصراً أنت من أهله وسدت في البادية وفي الحاضر
فأنت نور الدين حقاً ومن سمي به غيرك كالحائر
وإنما كلفتني خطة توهي قوى المستأسد الخادر
قلت : أجزني وأنا قطرة واحدة من بحرك الزاخر
يوسف أعرض ما الذي تبتغي من عمر المعدول عن عامر

أمرتني ما كنت أولى به فشرف المأمور بالآمر
فإن أخالف لم يلق بي وإن أطعت أخشى هزأة الناظر
وطاعتي أمرك ألفيتها أولى وإن شقت على خاطري
أجزت مولانا كما جوزوا صرف سوى المصروف للشاعر
ضرورة إذ لست أهلا لما طننت يا طائل بالقاصر
إجازة لو أنني منصف سألتها من لفظك الغامر
مثلك لا يحفل بمقداره ولا سجايا بيتك الطاهر . . الخ (١)

وبعد فحسبنا ما سطرنا في آثار البيئـة الثقافية ، ولننقل مجال البحث إلى آثار
البيئـة الاجتماعية في شعر العصر ، متطلعين إلى فجاح أرحب وميادين أوسع ،
وحيث نحدثك حديثا عن الشعراء أكثر تفصيلا مما مر ، وأكثر إنصافا مما ذكر .

الفصل الرابع

أثر البيئة الاجتماعية في الشعر

في حديثنا عن البيئة الاجتماعية رسمنا صورة للشعب المصري أبرزنا فيها أهم ملامح مجتمعه في العصر الذي نؤرخ شعره . وبدأت للبيئة فيها زوايا مختلفة من زواياها الكثيرة . وشهدنا كيف كانت طبقة الحاكمة ، ومن إليها ، واسعة السلطان موفورة القوة ، متعالية العيش ، مستأثرة بأسباب الجاه والثر ، بينما أكثر الطبقة المحكومة تعيش في هوان وحرمان ، وفي ذلة وضعف ، مكبوتة الآمال محدودة التطلع ، لا حول لها ولا قوة ، على جلب الخير لنفسها ، أو دفع الضر عنها . مع أنها القوة العاملة ، واليد المتحركة المنتجة — فيما عدا الجندية وما يتصل بها من الحروب — وهي لم يتأب عليها ولم تفر منها . بل أوضاع المجتمع حينذاك هي التي فرضت عليها ابتعادها عنها . فعاشت أكثر ما عاشت وهي تعاني تلاحق أحاسيسها وتدفق مشاعرها . ولكنها أحاسيس سرعان ما ترد إلى صدرها . ومشاعر سرعان ما تعود إلى حناياها .

عاشت إذن تجتر آلامها وآمالها ، وتشكو وتكتم ، أو تسرى عن نفسها بالسخرية والنكتة والفكاهة والنقطة اللاذعة العابرة ، التي لم ترق إلى غير آذانها ولم تجاوز مجالها ، ولم تستطع أن تهيم النفوس لعمل جماعي ذي أثر .

تنفست الجماهير إذن عن هذا الطريق ، وتنفست كذلك عن طريق الناحية الدينية . فقد كانت الحمية الدينية — كما شهدنا في كثير من هذه الفصول — آخذة بالتلاييب ، وكانت الغيرة والحماسة الإسلامية على أشد ما تكون . والرغبة في التضحية في سبيل الله والوطن الإسلامي والعربي ، تقفاد زمام النفوس سواء في ذلك الحاكم والمحكوم . إذ كان أعداء الإسلام وأعداء العرب يتربصون بهما

الدوائر ، ويطمعون في طمس معالمها وطي بساطهما ، واختياز الأرض التي يعيشان فيها .

كان لهذه النزعة رد فعل عظيم ، كما شهدنا ، إذ أقبل الجيش ، وتعاونت طبقات الشعب — على الدفاع تحت راية الدين وباسمه ، وأقبل الناس على تعلم علوم الدين وانتشروا لذلك في مساجده ومدارسه التي فتحت لهم أبوابها ، ويسرت لهم سبل التعليم فيها ، وأصبح هم المتعلم والمثقف أن ينال قسطاً منها ونصيباً من معرفتها ، ومشاركة في إحيائها وبعثها . وانتشرت بحوار هذا وذاك خوافق الصوفية وربطهم وزواياهم ، ووجد رجال الدين ورجال الصوفية من لدن السلاطين منزلة كريمة وتبجيلاً مطرداً وجاهاً واسعاً . ووجد هؤلاء وهؤلاء لدى جماهير الشعب سوقاً نافذة وأذناً سالمة ونفساً طائعة ومكانة عالية ، وأقبل الناس عليهم يلتصقون عندهم الرأي ويطلبون المشورة ، ويستلهمون الفتوى لكشف المجهول وتجلية الغامض وحل المشكل ، إلى غير ذلك .

والجماهير — أو أفراد منها وجماعات — لالتقى بين هذا وذاك ، تقيء إلى اللهو فتقبس منه بمقياس ، وإلى اللعب فتأخذ منه بنصيب ، تدسلي بذلك وتتلهى عن برحائها ، وأعباء كبتها ، وتيسر لنفسها بعض رغباتها وشهواتها ، حتى تستشعر من وراء ذلك بعض الراحة والطمأنينة . وقد تنحدر وهي بسبيل من ذلك إلى المجون والتبذل — كما رأينا — فتشرب الخمر ، وتتعاطى الحشيشة . وتغازل النساء ، وتدأب المرء ، فتقع في المحرم الممقوت . . . ولكنها النفس . . . والنفس أمارة بالسوء .

وترى آثار هذا العيش ، ومظاهر هذه الحياة ، بادية في شعر شعراء العصر . والشعر ترجمان البيئة ، ورجع المجتمع بما فيها من خير وشر ، وبما فيها من سمو وضعة ، وبما فيها من صدق وزيف ، وبما فيها من نقيض ونقيضه .

سترى الشعر الديني الذي تتجلى فيه الحماسة للإسلام وحب الرسول عليه

الصلاة والسلام ، والنزوع إلى الزهد والنسك وشكوى الحياة - وإلى جانبه شعر الغزل والمجون والتبذل وشعر الخزيات ، وما إلى ذلك .

ولعل البيئة الاجتماعية هنا ، كانت أرحب البيئات أثراً في حياة الشعراء ، وأكثرها إثارة لشياطينهم ، ذلك لأنها بهم أمس وإلهم أقرب ، وبهم ألصق . ولأنهم في جملة أمورهم كانوا يعيشون عيش الجماهير ويقاسون ما تقاسيه ويعانون ما تعانيه . إلا قليلاً منهم ... وذلك أدعى لأن يحسوا بأحاسيسها لا يفتعلونها ، ويشعروا بمشاعرها لا يحاكونها ، ويتجهوا اتجاهاتها لا يتكلفونها .

والحق أن شعراء العصر ، وقد حرمتهم أوضاع المجتمع عوامل التشجيع ، ولم يجد فنيهم الشاعر وسائل الحياة لدى رؤساء هذا الزمان ، ولم تجذب الدولة بضبعه ؛ اضطروا لأن يلتمسوا لهذا الفن أسباباً للحياة أخرى يتعلق بها ليعيش كأى نبت أغفله أهله ، وهو على الحياة أحرص . إنه ليضرب بجذره في باطن الأرض يتحسس بشعرياته شمه منابع الماء حتى يجدها ...

وهكذا وجد الشعراء في نزعات العصر وفي اتجاهاته ورغباته وإحساساته ، وسيلة من وسائل الحياة لشعرهم ، فتشبثوا بها واتخذوها دعائم لحياتها ويعيش عليها وينمو ويزدهر . وبرهنوا بذلك على حيوية قوية وفنية طاغية جذبرة بالإعجاب ، إذ لم يأذنوا لموهبتهم أن تذبل ولا لشاعريتهم أن تموت .

وحقاً لم يعيش كثير من الشعراء لشعرهم خاصة . واتجهوا بأنفسهم ، طلباً للرزق ، اتجاهات مختلفة ففهم من صار قاضياً ، ومنهم من صار كاتباً ، ومنهم من صار محترفاً جزاراً أو دهاناً أو وراقاً أو حمامياً أو غير ذلك - كما سبقت إشارتنا - ولكن هذا كان اتجاه المضطر المسوق المرغم الذى لم يجد في سوق الشعر عيشاً رغداً ولا رزقاً ميسراً سهلاً ، لكنه ما سلاه ولا عنه لها ، بل ظل هو الديدن له والهوى . ولبث هو الغاية والمنى . يعود إليه بين الآونة والأخرى فينفث النفثة منه ويزفر الزفرة فيه ، فيهدأ روعه ويسكن خاطره وتستريح نفسه .

وحقاً أيضاً أن بعض الشعراء بدا منه ما يشعر بريئته في فنه وأنه إنما يلجأ إليه الفنية بعد الفنية، امتحاناً لقريحته، وتمريناً لقلبه وأسلته . وفي رأينا أن هذا اعتذار شاعر، وكلم للشعراء في اعتذارهم من حيلة وستر . وما عهدنا الشعر الصادق إلا نفثة نفس وأنة فؤاد وزفرة صدر .

يقول زين الدين بن الوردى، في مقدمة ديوان شعره ما نصه : « وقد يقف الناظر في مجموعى هذا، على وصف عذار الحبيب وخده، ونعت ردفه وقده، وشكوى عشقه وصده . وذم الشيء وحمده، ومدح الشخص لرفده . وجزر القول ومدّه، فيظن لذلك في الظنون، غافلاً عن قوله تعالى . « وإنيهم يقولون ما لا يفعلون . » وإني إنما قلت ذلك على وجه امتحان القريحة . » (١)

وابن الوردى هذا هو الذى يقول متغزلاً :

يا هند لى نفس بكم مشغولة سياقها إلى هواكم ساقها
يقول من يقيس بلقيس بها آمرة ناهية عشاقها
إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء راقها
لو تعلم الورق بحسن جيدها لمزقت من طرب أطواقها
ولو يذوق عاذلى ريقها صبا معى لكانه ما ذاقها (٢)

تشبث الشعراء إذن بمظاهر وملايسات مما هيأت لهم البيئة الاجتماعية — بعدما جنت عليهم البيئة السياسية — فالتخذوا منها مراحات يمرح فيها شعرهم، ودعائم يسمق فوقها، وأرضاً طيبة يعيش على خصبها . بعد أن قضى على زمان التمسك بالشعر، وعفت الأيام أثره وخبره . ولم يعد الوسيلة المعاصرة، التى يحيا بها الشعر . وتلاحقت إليهم عوامل الركود فى ذلك الزمان .

وتوسلت الموهبة الفنية بوسائل عدة مما أتاحتها ظروف البيئة وضررياتها،

(١) مقدمة ديوان ابن الوردى ط الجوائب . (٢) ديوان ابن الوردى ص ٢٢٨ ط الجوائب .

لتهيء لنفسها سبيل العمل والإنتاج والبروز والمشاركة الفعلية في حياة هذه البيئة .
وقد نوهنا عند الحديث عن أثر البيئة الثقافية ببعض هذه الوسائل . وإليك بعضها
مما هيأته البيئة الاجتماعية :

فالعلاقات الشخصية كانت إحدى هذه الوسائل . وإذا كانت في كل عصر من
العصور الأدبية تلعب دوراً رئيسياً في حياة الأدب والشعر ، وكانت ذات آثار
بعيدة المدى في شحذ المواهب الفنية ، فإنها كانت في العصر المملوكي من أجل
مظاهر المجتمع ومن أحب الروابط بين الشعراء ، ومن ثم كانت لها آثارها في
نتاج الشعر وغيره .

ونعني بهذه العلاقات ، العلاقات الإخوانية وصلات المودة وشائج الصداقة
بين الأنداد والنظراء . وقد اتخذتها نزعة الفن الشعري وسيلة إلى الحياة والإنتاج .
ووجدت فيها بديلاً وعوضاً عما فقدته من ألوان التشجيع ، أو على الأقل شيئاً من
البديل والعوض . وبها أነع الشعر الإخواني ووجد سبيله إلى البروز والجودة ،
ومازج ألواناً أخرى من الشعر كالغزل والفكاهة والوصف والمجون والمداعبة
والمهادنة وغير ذلك .

وقد روى لنا ابن فضل الله في كتابه « مسالك الأبصار ، قصة لطيفة عن أبي
الحسين الجزار المصري وصديقه سراج الدين الوراق ، وصور فيها جوانب الحرية
الفنية التي كانا يمرحان فيها ، ويعيشان لنفسيهما . قال :

« حكى أن السراج الوراق وأبا الحسين الجزار خرجا في صباحهما ، والشباب
أعقد حباهما ، يريدان النزهة . فوجدا غلاماً زامراً يتمنى منه اللقاء . ويجتمع فيه
العصن والورقاء . يتلفت بصفحة القمر المنير ، ويطرب كأنما زمرة مما أوتى
آل داود من المزامير . فلفقته إليهما لأمر ، وظنا أنه ستلينه لهما الخمر . فأتيا به
دير شعران ، وصعدا إليه فوجدا راهباً يصدع حبه الفؤاد . ويطلع قره ولا شيء
أحسن منه في ذلك السواد . فزاد سرورهما بمحصول الزامر والراهب . وأيقنا

بيلوغ المسآرب . فلما حميت فيهما سورة الحيا ، وظن كل منهما أنه قد حصل له فراشه وتبها . فظن الزامر والراهب لمرادهما فتركاها وهضيا قبل التمام . وتركاهما وكل واحد منهما يشكو ضجيجا لا ينام . . .

فقال السراج :

في نخنا لم يقع الطائر لا راهب الدير ولا الزامر
فقال أبو الحسين الجزار :

فسعدنا ليس له أول ونحسنا ليس له آخر

فقال السراج :

فالقلب في إثرهما هائم

فقال الجزار مكلا : والقلب من أجلهما حائر^(١)

وفي هذه القصة ما يصور لنا بعض جوانب الشعراء وشيئا من مجونهم في عصر تفشى فيه الرقبق وذاع استخدام الجوارى والغلمان ، وبين لنا كيف كان الفن يحيا معهم فيها ، ويستجيبون لوجيه .

وروى تقي الدين بن حجة الحموى قال :

« حكى أن نور الدين على بن سعيد المغربي صاحب المرقص والمطرب ، مر مع جماعة من الأدباء بالديار المصرية ، منهم أبو الحسين الجزار : ففروا في طريقهم بملح نائم تحت شجرة ، وقد هب الهواء فكشف ثيابه عنه ، فقال أبو الحسين الجزار :

« ففوا . لينظم كل واحد منا في هذا شيئا » . فلبثوا إلا مقدار ساعة ، حتى

قال نور الدين على بن سعيد :

الريح أقود ما تكون لأنها تبدى خبايا الردف والأعكان
وتميل بالأغصان عند هبوبها حتى تقبل أوجه الغدران
فلذلك العشاق يتخذونها رسلا إلى الأحباب والأوطان
فقال السراج الوراق : « ما أعلم أن أحدا منا يأتي بمثل هذا . سيروا بنا ، »^(١)

وروى ابن شاعر في كتابه « فوات الوفيات » أن الأديب « كمال الدين بن
العديم » كان إذا قدم مصر يلزمه أبو الحسين الجزار ، حتى كانت هذه الملازمة
مشارا لتندر بعض أهل العصر عليهما ، فقال موريا :

يا ابن العديم عدمت كل فضيلة وغدوت تحمل راية الإدبار
ما إن رأيت ولا سمعت بمثلها نفس تلذ بصحبة الجزار^(٢)

وكانت هناك صحبة أكيدة ومودة . وكان أنس متبادل ، بين صاحب
نخر الدين بن مكاس ، والأديب البارع بدر الدين البشتكي . وقد اجتمعا معا في يوم
أنس سمياه « يوم أنس الهمايل » . - ويبدو أن الهمايل اسم مكان إذ ذاك أو روضة -
وفي اليوم المذكور وضع الشيخ بدر الدين البشتكي نفسه ، « موضع الثور
في الساقية ودار بها . فأثار بذلك دعاة صديقه ابن مكاس وأثار تندرته .
فنظم نخر الدين في ذلك قصيدة فكاهية لطيفة ذاعب بها صديقه البدر البشتكي
ومدحه .

فقال في مطلعها :

درة البدر في سواق الهمايل تركت أدمع العيون هوامل
آه من للرياض ثور أديب مظهر من كلامه سحر بابل

(١) تأهيب الغريب لابن حجة الحموي فصل النسيم .

(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٢٦ .

فاق سعيا على بنى عجل فى الجو د وأغنى عن الولى الهاطل
وقد مزج ابن مكانس فى أبياته بين ألفاظ الرياض والرى والماء وملأئمتها ،
وبين ألفاظ الأدب والشعر ، مزجا لطيفا . واستعار من إحداهما للأخرى .
وقال :

ياسعيدا أثرى من النظم والنشر فأنسى الورى زمان الفاضل
قد سقيت الرياض يا شيخ بالدو رفها غصنها من السكر مائل
وقال :

وغدا بالظلال كل أديب فى هجير الرمضا بفضلك قاتل
وبروحي عيون نرجس روض يغزل الحسن بالندى ويغازل
أنت شفتها بشعرك زهرا وبعثت المياها فيها خلاخل
وقال :

أنت لو لم تكن بحار علوم ماجرت فى الرياض منك جداول
كنت عندى أجل قدرا وقدر ت من الثور للوجود الحامل
وغدا قس بين لفظك والرو ض على الحاليتين عندك بأقل... الخ^(١)
وقد رد عليه الشيخ بدر الدين بقصيدة من البحر والروى ، وفى الموضوع
نفسه ، مزجها بالوصف والمدح والفكاهة .

وروى ابن حجر العسقلانى أن الشاعر الأديب الماजन « شرف الدين
الأصفهونى ، المعروف « بقطنبه » ، كانت بينه وبين معاصره الأديب « نبيه الدين

(١) القصيدة بتمامها فى ديوان نجر الدين بن مكانس - مخطوط بدار الكتب المصرية - وفى مطالع
البدور فى منازل السرور - مخطوط بالمكتبة الأزهرية وفيه رد البشكى - وفى تأهيل الغريب لابن حجة
الخوى فصل الدوايب - مخطوط أيضا بالدار .

عبد المنعم ، محاورات ومراجعات . حتى كان أهل عصرهما يشبهونهما بالجزار والوراق^(١) .

وكانت بين صفي الدين الحلي وجمال الدين بن نباتة علاقات مودة وأدب . وقد تبادلّا قصيدتين من أروع الشعر الإخواني . تعاطيا فيها العتاب ، وتقارضا الثناء . فقد أرسل صفي الدين إلى ابن نباتة يقول :

من لصب أدنى البعاد وفاته	إذ عداه وصل الحبيب وفاته
فاته من لقا الأعبة عيش	كان يخشى قبل الوفاة فواته
كان ثبتا قبل التفرق لـكن	زعزعت روعة الفراق ثباته

ويقول :

كنت مستنصرا بأسيايف صبرى فنبئت بعد فرقة ابن نباتة
فاضل ألف الفصاحة والعلم وضمت آراؤه أشداته
رب شعر لم يتبع ما روى النا س ولكن بالفضل يهدي غوانه.. إلخ^(٢)
فأجابه ابن نباتة من البحر والروى ، وقال في المطلع شاكيا متغزلا في
رقة وجزالة :

ما اظبي الحى إليه التفاته بعد ما كدر المشيب حياته
لهج بالهوى وإن نفرت أيدي الليالى غزاله ومهاته
كلما قيل قد سلا عن فتاة عادته الحب فاستجد فتاته
ومنها فى الغزل أيضا :

بأبى فاطر اللحاظ غزير رام تشبيهه الغزال ففاته

(١) الدرر الكامنة ج ٢ رقم ١٥٦٦

(٢) راجع ديوان الحلي .

صائل الحسن إن رنا وتثنى سل أسيفه وهز قناته
ومنها يخاطب صفى الدين :
يا مفيد الورى لآلى بحر يعرف الذوق عذبه وفراته
وصل العبد من قريضك بر سر أحبابه وساء عدااته... إلخ (١)

وفى كتاب « ألحان السواجع » ، لصالح الدين الصفدى ، قصص وحوادث
لا نهاية لها ، هى وليدة العلاقات الشخصية ، ونتيجة روابط المودة والأخوة ،
وقد تولد عنها الطريف الرائع من الأدب والشعر .
ومن ذلك ما رواه الصفدى ، قال ما ملخصه :

إن شيخ الإسلام قاضى القضاة تقي الدين السبكي ، لما نوافه الله رثاه .
برهان الدين القيراطى بقصيدة نونية . فأرسلها ولده الشيخ بهاء الدين السبكي
إلى الصلاح الصفدى . فنظم الصفدى قصيدة طائية مدح فيها البرهان القيراطى .
فاطلع البرهان القيراطى على طائفة الصفدى . فنظم طائفة أخرى من بحرها ،
أعاد فيها ذكر التقي السبكي ، ومدح فيها الصفدى . فما كان من الصفدى إلا أن
نظم طائفة جديدة من البحر نفسه ، يثنى فيها على القيراطى وعلى براعته الشعرية .
فهذه أربع قصائد نونية واحدة وطائيات ثلاث . وكلها وليد العلاقات
الشخصية .

فن طائفة الصفدى الأولى فى مدح البرهان القيراطى ، قوله ، موريا باسمه
مع التجنيس :

وزنت أهل النظم فى عصرنا من غير إجحاف وإسقاط
فأهل مصر عند وزنى لهم زادرا على الدنيا بقيراط... طى... إلخ

ومن طائفة البرهان القيراطى فى الرد على الصفدى ومدحه قوله :
يا حاكما عدل أقواله فلم يرع يوما بإسقاط
أقت للشعر عموداً له بأرض مصر أى فسطاط
بنات أفكارك فيه غدت مصونة عن شبه الواطى
تسمو قوافيها فتحتطمها من فكركم عزمة محتاط ... إلخ
ومن طائفة الصلاح الصفدى فى الرد على القيراطى ثانية ، قوله بمدح قوافيه
ويصفها :

غيد أما احتاجت لمشاط أم در بحر ما له شاطى
أم روضة فيجاء أم حلة من رقم تنيس ودمياط
أم شعر من زادت قناطيره فضلا وقد سمي بقيراط وطى .. (١)

والإيجاء ، كثيراً ما يكون وليد العلاقات الشخصية ، وأثراً من آثار
المودات . ونعنى به أن يدفع رجل - أديب أو عالم أو نحوهما - أحد الشعراء
من خلصائه وأحبابه ، إلى نظم الشعر بمناسبة المناسبات . وقد يكون الشعر
حينذاك مدحاً نبوياً أو وصفاً أو معارضة أو غير ذلك ، كما أنه قد يكون بعيداً
عن طريق الإخوانيات . وذلك بحسب الاقتراح .

وقد كان الإيجاء وسيلة من الوسائل التى راجت فى هذا العصر ، بفعل
المصلات الاجتماعية ، واتخذتها الفنية الشاعرة توكأة للبروز ، وفرصة للإنتاج .
وكثيراً ما كانت النزعة الفنية تعجل إلى الاستجابة كلما دعاها داعى الإيجاء .

وقد ذكر تاج الدين السبكي ما ملخصه :

أن أباه تقي الدين السبكي أنشده لنفسه قصيدته التى نظمها فى الشطرنج ،
عندما اقترح ذلك الشيخ أبو حيان على أهل العصر ، وعلى زنة خاصة .

(١) راجع « ألحان السواجع » ، للصلاح الصفدى وبه الأبيات جميعها - مخطوط بدار الكتب المصرية .

ومن نبأ ذلك أن أبا حيان اقترح أن ينظم الشعراء على عروض قول ابن
حرمون وقافيته ، وهو قوله :

إليك إمام الخلق جبت المفارزا وخلفت خلفي صبية وعجائزا
واشترط أبو حيان على من عارضه ، أن يتغزل ، ثم يذكر الغرض ثانياً ،
ثم يمدحه ثالثاً .

فقال الشيخ تقي الدين السبكي :

أخا العذل لا نفرط وكن متجاوزا فما كل عذل في المحبة جائزا
ولا كل ذى وجد يطيق احتماله وإن كان ذا أيدٍ شديداً مبارزا
ولا كل صب يحسب الغي رشده وكيف ومثلي من يفك المرامزا
ومنها قوله :

وإني لفي أسر الهوى ووثاقه حليف الضنى من حين كنت مناهزا
تقاذفني أمواجه وبحوره ولم ألف فيها بين بحرين حاجزاً... إلخ
قال تاج الدين السبكي إن هذه القصيدة طويلة وعدة أبيانها مائة واثنا عشر
بيتاً ، لم تتكرر عليه فيها قافية منها ، وروى في مناسبة أخرى أنها مائة وخمسة
وأربعون بيتاً . (١)

وهذه - على أى اعتبار - مقدرة من شيخ برع في الفقه وغيره من علوم
الدين ، وكان رأس للشافعية في زمانه . وولى القضاء زمناً وتبدو قدرته بخاصة
في طول القافية وعدم تكرارها وغرابة حرفها وهو الزاى .

ولم يسجل تاج الدين السبكي في طبقاته ، من هذه القصيدة إلا أبياتاً ، وأغفل
بقيتها . وكذلك أغفل تسجيل أبيات غيرها من قصائد المتبارين في مقترح أبي

(١) راجع طبقات السبكي ج ٦ في ترجمة تقي الدين السبكي ، وتقى الدين أبي الفتح السبكي
« محمد بن عبد اللطيف » .

حيان . ولو سجلها لظفرنا بمجموعة نادرة قيمة من الشعر في موضوع واحد يجد فيها الباحث مجالاً للبحث والدرس والموازنة والحكم .

وروى تاج الدين أيضاً في ترجمة تقي الدين أبي الفتح السبكي ، محمد بن عبد اللطيف ، أنه كان في عداد المتبارين في مقترح أبي حيان . وروى من أبياته عدة ، منها في المطلع يتغزل :

بنفسى غزال مر بالرمل جائزاً فصير قلبي في المحبة حائزاً
وفوق سهمي من لحاظ جفونه فأصمى وما ألقى عن القلب حاجزاً

ومنها قوله في الغزل أيضاً :

وماس فأصمى الغصن يهتز مائساً وبان فبان البدر يشرق بارزاً
ثوى في حمى نجد ولايس بمنجد وفوز فاستحليت فيه المفاوزا... الخ (١)

وروى تاج الدين السبكي أيضاً ، أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، أنشد من لفظه لنفسه - ولم يكن له من النظم غيره - قوله ، وهو من الشعر الصوفي :

لو كان فيهم من عراه غرام ما عنفوني في هواه ولا مواء
وطلب إلى تلاميذه أن يحيزوه .. فأجازه منهم ، شمس الدين عمر بن عبد العزيز بن الفضل الأسواني - قاضى أسوان . فقال :

لكنهم جهلوا لذاذة حسنه وعلمتها ولذا سهرت وناموا
لو يعلمون كما علمت حقيقة جنحوا إلى ذاك الجنب وهاموا
أو لو بدت أنواره لعيونهم خروا ولم تثبت لهم أقدام
فبقيت أنظره بكل مصور وبكل ملفوظ به استعجام

ومنها يمدح شيخه العز بن عبد السلام :

(١) طبقات السبكي ترجمة محمد بن عبد اللطيف ، تقي الدين السبكي ، :

مسولاي عز الدين عز بك العلي نقرأ فدون حذاك منه الهام
لما رأينا منك علما لم يكن في الدرس قلنا إنه إلهام ... الخ (١)
وقد أنشد هذا الطالب شعره للشيخ في مجلس درسه ، وهو يسمع إليه : ولما
انتهى من إنشاده قال الشيخ : « أنت إذن فقيه شاعر ، .
ولم يسجل تاج الدين السبكي غير قصيدة هذا الشاعر ، ولم يشر إلى ما عسى أن
يكون طلاب آخرون قد نظموه .

ومن أوثق ماله صلة بالإيحاء ، استعداد ذوى المنزلة في العلم أو الأدب للجلوس
بين الشعراء مجلس الحكم ، إثارة منهم لنزعات الأدب والشعر ، وإشباعا لرغبات
الأدباء والشعراء في إبراز نتاجهم .

ومن ألطف ما وقع من ذلك ، هذه المحاكاة التي جلس فيها قاضى القضاة ابن
حجر العسقلاني . ليقضى في ثلاث قصائد تأتية من بحر واحد . كل تأتية لشاعر
يعتبر رأس طبقة . وهم ابن نباتة والبرهان الفيرواطي وابن حجة الحموي .
وتأتية ابن نباتة مدح بها القاضى كمال الدين بن الزملكاني . ويقول في مطلعها
متغزلا :

قضى وما قضيت منكم لبانات متيم عبث فيه الصبايات
مافاض من جفنه يوم الرحيل دم إلا وفي قلبه منكم جراحات .. إلخ (٢)
وقد عارضها برهان الدين الفيرواطي بتأتية في مدح تاج الدين السبكي صاحب
الطبقات ويقول في صدرها متغزلا :
ما لا ابتداء صبا باقى نهايات يا غاية ما لعشقي فيه غايات

(١) طبقات السبكي ج ٥ ص ١٠٢ في سياق ترجمة العز بن عبد السلام .

(٢) القصيدة برمتها في ديوان ابن نباتة حرف التاء .

وياغزالا لنا في لحظ ناظره أسد ومن هديه للأسد غابات . إلخ^(١)
فعارضهما تقي الدين بن حجة بتائية ثالثة ، قال في أولها متغزلا أيضا :
لعجبه ولذيل الحجر شمرات وللقلوب من الأجفان كسرات
وصار في درب وصلى من عوارضه وأهيف القد دورات وقتلات . إلخ^(٢)
وقد حكّم ابن حجة الحموى في هذا التائيات ، قاضى القضاة ابن حجر . وكتب
في ذلك يقول :

« يحسن هنا إبرادة قبول البيّنات المبرز في نظم التائيات ، . إذ لدور
الكاسات تسلسل في مناظر أبيانها ، ولشرب الأدب ميل إلى الرشف من رحيق
سلافانها . والذي أوجب هذه التسمية أن عدول الأدب قديما وحديثا ، شهدوا
بترجيح تائية الشيخ برهان الدين الفيراطى — رحمه الله تعالى — على تائية الشيخ
جمال الدين بن نباتة — سقى الله ثراه — . والترجيح من قبل زيادة النسكت
الأدبية في القافية ، لا من قبيل انسجام الألفاظ وحشمتها ، فإن القصيدة النبائية
من هذا القبيل مقدمة .

ورأيت جماعة من أهل العصر يقولون : إن هذه القافية صعبت على من يقتفى
بعد الشيخين أثرها . وأن نساكتها تحجبت عن كل متأدب وأرخت سترها .
فعرزت القصيدتين بثالثة . فهى ثلاث مالهن رابع . وأقمت بينات البلاغة .
فحكّم لى قبلة هذا الفن وإمامه الذى هو لشمل العلوم جامع . - وصيغة الدعوى :

والحمد لله الحكم العدل . يقبل الأرض . وينهى أنه انتصر بنبأته الحموى لنباتى
مهصر وحلاوته . وحرر مع الفيراطى موازين الأدب بمعيار البلاغة . والموجب
لذلك أن جماعة من عدول الأدب بترجيح تائية الفيراطى تشهد . وقد عارضته

(١ ، ٢) راجع تأهيل الغرب لابن حجة . وفيه لابن نباتة ٢٨ بيتا ، وللفيراطى ٥٠ ، ولابن
حجة بيتا . وراجع أيضا روض الآداب للشهاب الحجازى ورقة رقم ١٠ - مخطوط بمكتبة الأزهر .
وتائية ابن نباتة برمتها في ديوانه المطبوع ، وتائية الفيراطى في ديوانه المخطوط ص ٤٣ .

منتصر المحمد . وأبو بكر أحق من تطلب لنصرة محمد . وسميت هذا التأليف :
« قبول البينات للبرز في نظم التائيات . » والمملوك يسأل الحكم لمن قبلت بيئته
تقديمه فيها ادعاه . أعز الله تعالى أحكام مولانا قاضى القضاة .

وقد سجل ابن حجة نص حكم ابن حجر العسقلاني في هذه القضية الأدبية .
فقال :

« نسخة ما حكم به مولانا قاضى القضاة شيخ الإسلام شهاب الدين
أبو العباس أحمد بن حجر العسقلاني . الناظر في الحكم العزيز بالديار المصرية
وسائر الممالك الإسلامية المحروسة . أعز الله تعالى أحكامه . وأدام على المسلمين
من سطور علمه وطروسها ليااليه وأيامه » :

« لله الأمر من قبل ومن بعد . الحكم بين النظراء إنما يحسن عن يماثلهم
فيما به يرتفع الحكم . وفي إقدام من لم يرتق إلى تلك الطبقة نوع من الظلم .
ولا يرتاب لبيب أن كلا من الثلاثة رأس هذا الفن في زمانه ، وأنه لا يوازنه أحد
من أقرانه .

وثلاثة كثر ثلاثة الراح استوى لك لونها ومذاقها وشميمها
ولكن . لما كان امتثال الأوامر من بعض فنون الأدب . وإجابة الداعي
ولا سيما من ظنه أهل هذا الفن أمر منتدب . ومرجع الحكم في هذه القضية إلى
الذوق السليم ، فأمكن القول إن لم أقل وجب . فأقول مستعينا بالله متوكلا عليه .
ملتجئا في كل الأمور إليه : الذى تبنى عليه القواعد . ويشهد به الذوق السليم الذى
هو فى هذا الفن أعدل شاهد . أن الثالثة أرجح وزنا من الثانية . ولولا حرمة الكمال .
والحياء من الجلال . قللت إن الثانية فى الرتبة الأخيرة تالية . لأن الأولى وإن
كانت من الثانية أكثر انسجاما . والثانية وإن فضلت على الأولى فى الدقات الأدبية
ابتداء واختتام . فالثالثة قد جمعت بين المعنيين . وفازت بالحسنين . ونزلت فى
كل وجه من الأدب منزلة العين . وقال لسان فحوليتها عند لسان الكلام من غيرها :

للذكر مثل حظ الانثيين . وقد أتت بما غرض من الأزاهر النباتية والجواهر
القيراطية . وما فاق مجموعه كل فريد . وراق مجموعه كل مجيد . حتى قال من
شهد مثلي بهراعتة . وطرب لصريير براعتة .

أقصى نهاية وصفي فيه معرفتي بالعجز منى عن إدراك معرفته (١)
وبعد أن فرغ ابن حجة من إيراد حكم ابن حجر ، روى أنه حصل على
فتوى أدبية أخرى بتفصيل تائيته ، من الحافظ الفقيه شمس الدين الجزرى .
وأورد صورة هذه الفتوى وهى لا تخرج عن حكم ابن حجر .
وهكذا كان استعداد بعض الرجال للفصل بين الأدباء ، لو لنا من ألوان الإيحاء
يدعو إلى الإنتاج ، ومحاولة التجويد .
وبهذه المناسبة نلفت النظر إلى أن هذه المحاكمة لون من ألوان النقد الأدبي
وطريقة من طرق الموازنة بين الأعمال الأدبية . وقد كانت لهم مسالك أخرى نحو
النقد والموازنة .

ولا بأس من أن نشير إلى أن نائية ابن نباتة مثبتة بتمامها فى ديوانه . وعدة
أبياتها نحو مائة وعشرة وهى من أبدع قصائده وأجودها . وتمتاز فضلا عن
طولها وثبات قوافيها ، بما فيها من عذوبة وتوافق لفظى ، وبما تحتويه من غرائب
بديعية كثيرة ، مع تنوع أغراضها .

ونعتقد أن مجال الموازنة بين التائيات الثلاث لا يزال مفتوحا . وأن الباحث
الموازن سيجد مراحا فيها للقول واسعا ، وأنه سوف يضع بينها حكما أكثر دقة
وأوفى تفصيلا وتعليلا من حكم الأديب الكبير ابن حجر وقد ينتهى فى حكمه بما
يخالف به مذهب إليه هذا الأديب . . لاختلاف المقاييس .

(١) راجع « تأهيل الغريب » لابن حجة الحموى باب الحمريات .

وقد ترجم تاج الدين السبكي في طبقاته لجمال الدين الزمليكاني (١) . الذي مدحه جمال الدين بن نباتة . ونوه بهذه القصيدة وسجل منها نحر ثلاثة وسبعين بيتاً . ثم قال في نهايتها مانصه : « ولما قال ابن نباتة هذه القصيدة - في ابن الزمليكاني - البديعة . حاول أدباء عصره معارضته ، فما أحسنوا صنيعه بل كل قصر ولم يلحق . وتأخر وما جاء بالحق ، » .

وهذا الخبر لم يذكره ابن حجة في حديثه عن التائيات وقصة المحاكمة بينها . كما أن تاج الدين السبكي لم يسجل شيئاً من معارضات الشعراء لتائية ابن نباتة . ولو ذكرها لأمدنا بنصوص قيمة ، ولأتاح لنا مجالاً واسعاً للموازنة والحكم . ويهمننا في هذا المقام الإشارة إلى أن وجود شاعر كبير كإبن نباتة ، كان وحده ضرباً من ضروب الإيحاء إلى معاصريه للنسج على منواله . وهذا وحده موضوع جدير بالبحث المستقل المستوعب .

وهكذا ترى معي أن مواهب الشعراء تعلقت بكل سبب يمر بها ، يعينها تعلقها به على الحياة والينع والنمو والإثمار . ومن هذه الأسباب الاقتداء والمعارضة . وهذا أيضاً باب يحتاج إلى باحث جديد يفصل الحديث فيه .

ومن أبرز نتائج الإيحاء ، نظم بديعية ابن حجة الحموي ، وتأليفه شرحها الكبير المسمى « تقديم أبي بكر ، والمشهور بخزانة الأدب .

فقد قص علينا ابن حجة في مقدمة شرحه المذكور ، أن ناصر الدين البارزي رئيس ديوان الإنشاء ، هو الذي أوحى إليه بنظم هذه البديعية . وكان ابن البارزي هذا صديقاً حميماً لابن حجة . احتضنه ووظفه معه في ديوان الإنشاء لما وفد إلى مصر في عهد الملك المؤيد شيخ ، وأسند إليه المؤيد كتابة السر ورياسة الديوان . فجعل ابن حجة منشئاً للديوان الشريف .

١ (١) طبقات الشافعية للسبكي ج ٦ راجع ترجمة السكاهل بن الزمليكاني .

وطلب ابن البارزى إليه أن ينظم قصيدة بديعية يعارض بها بديعية صبي الدين الحلى ، وبديعية عز الدين الموصلى ، فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام . وشرط عليه أن يضمن كل بيت فيها نوعا بديعيا على الأقل ، وأن يشير إلى اسم النوع بلفظ فى البيت .

فأخذ ابن حجة ينظم بديعته . وكلما نظم بيتا يعارض به بيتا للحلى وبيتا للموصلى ، عرضه على ابن البارزى ليقره . فينقده ابن البارزى بما يراه ، فيعود ابن حجة فيصلح من شأن بيته . ثم ينظم غيره ، وهكذا دواليك . حتى أتم بديعته فى أكثر من مائة وأربعين بيتا . ثم شرحها فى خزانته المشهورة . وهكذا كله بفعل الإيحاء .

والرغبة فى النقد الاجتماعى ، كانت أحد الحوافز إلى النظم . والشعب المصرى نقاد بفطرته ، لا تكاد تمر به حادثة أو يسمع بواقعة ، ثم لا ينقدها ولا يعلق عليها ولا يطلق الشائعات من حولها ، ولا يلائم بين أطرافها المتباعدة ، ثم يستنبط منها ما شاء له حدسه ، ويعلل ما يستنبط بعلة شتى .

ولعل ذلك راجع إلى ذكائه ونفاذ بصره ، أو لعله أثر من آثار ما مر به من دول وأنواع حكم ، ومن طاف به من الراحلين بين الشرق والغرب . فاطلع على نظم وإدارات ، وعلى تقاليد وعادات ، وعلى معارف وثقافات ، عودته التدقيق والفهم والحكم والتعليق .

ونشطت نزعة النقد الاجتماعى فى العصر المملوكى . وشارك الشعراء فيها بقسط وافر ، ولا غرابة فهم السنة من السنة الشعب ، ولهم مشاعر ترجع لمشاعر الجماهير . ولعلمهم وجدوا فى الحياة التى يحبونها ويحياها الشعب معهم ما بدعوا إلى النقد ويحفظن إليه ، بل هو فعلا يدعو إليه دعوة صارخة . وكنا نحسد أن الخوف ، التقليدى من الحكم سيعصم ألسنتهم من النقد ، ويحببهم زالق الحديث فيه .

ولكن يبدو أنهم أمنوا جانب حكاهم حينذاك، لتعالى هؤلاء الحكام من ناحية ، ولعجمتهم من ناحية أخرى ، ومع ذلك فسئرى حادثة من الحوادث اجتراً فيها أحد الشعراء على أحد القضاة فنقده وحمل عليه وهجاه ، فأوذى فى سبيل ذلك ولحقه الضرر . سنفصل لك الحديث قريباً فى هذا الموضوع وغيره . وسترى أن شعراء العصر - بالرغم مما كان يحيط بهم من أسباب الخوف وتوقع الهلاك ، كان لديهم - أولدى بعضهم - إقدام وجراً فى هذا الباب ، فأطلقوا منه نفثة المصدور وأنة المكلوم وعبرة الباكي وصرخة الملتاع ، بعيداً عن ميدان السياسة ، قريباً من ميدان الحياة الاجتماعية .

وبذلك شارك الشعراء - كابوصيرى وغيره - قومهم بالتعبير عن أعمق أحاسيسهم ، وأخرج مشاعرهم لهم . ولو أكثروا فى هذا الباب ، لكان شعرهم فيه هو الشعر اللباب .

وهكذا تلاقى شاعريتهم - كما ترى - بأحد أسباب الحياة ، فتعلقت به لى تعيش وتنتج .

والحق أن فن النقد الاجتماعى .. وإن كان فى رأينا حافزاً من حوافز الشعارية فى ذلك الزمان - استوى وبرز بروزاً ملموساً بين الأغراض الشعارية . وكان تصويراً لبعض نواحي المجتمع ، من ناحية ذكر الواقع الفاسد ، ومن ناحية شعور الناس بالألم منه . وربما من ناحية ثالثة ، وهى بيان علّة الفساد ، ورسم الطريق إلى إصلاحه . وهذه النواحي هى جماع اختصاصات وظيفة النقد الاجتماعى .

وبروز هذا الفن فى عصر المماليك ظاهرة أدبية بالغة الأهمية ، لأنها نادرة الحدوث فى تاريخ الأدب العربى ولعلها تقنع بعض الناس ، بأنها دليل يقظة فكرية وجراً نفسية لدى شعرائه . ودليل على ارتباط مشاعرهم بمشاعر مجتمعهم ، فكانوا ألسناله وتراجمة عنه .

. لقد تناولوا في نقدهم السلاطين والأمراء وموظفي الدولة ووزراءها وقضاة الشرع وكتبة الدواوين . ونقدوا التعليم والصوفية وتقاليد الأسرة ، إلى غير ذلك .

لقد ذكروا استبداد السلاطين والأمراء ، واستئثارهم بالأرزاق وحرمانهم الشعب وسجلوا على كتبة الدواوين سرقاتهم وطائفيتهم . وما كان لكل طائفة من ادعاءات ومزاعم . ولاموا وزراء الدولة على عدم عدالتهم وعدم ضربهم على أيدي الظالمين والاشرار . وحملوا على قضاة الشرع وإهمال بعضهم في عمله وقبوله الرشوة وتحليل الحرام وتحريم الحلال ، لدوافع شخصية ومنافع ذاتية . ووصفوا فساد الأسرة المصرية وما ترزح تحت أعبائه من التقاليد السخيفة والعادات المردولة ، وماتن منه من الأعباء الاقتصادية التي فرضتها عقليتها على نفسها ، وسجلوا على رجال الصوفية دعاواهم العريضة وأسباب وصولهم ، وما يسترونه من جرائم الآثمة باسم التصوف ، ونقدوا النعائم وحملوا على أدعياء العلم وأدعياء الشعر . إلى غير ذلك . . .

ولا نشك مطلقاً في أن كثيراً من أشعارهم في هذا الباب الحيوى الشائق ، وفي هذا الغرض النبيل ، قد ذهب به النسيان وطوحت به الأيام ، وطوى ما طوى من كثير آثارهم .

والبقية الباقية من هذه الأشعار دليل واضح على أنهم طرّقوا هذا الباب ودقّوه في عنف وجراة ، وفي عمد وحنق شديد ، وفي رغبة جارفة أيضاً في الإصلاح .

وودنا لو أنهم أفاضوا وأكثروا القول ، أو أن الزمن قد أبقى منه الكثير . إذن لتكشفت لنا صور شتى من صور الحياة الاجتماعية في هذه الحقبة .

وامتريج نقدم الاجتماعى في أحيان كثيرة بالهجاء . وربما كان هجاءهم بدافع

شخصى . ولكنه - على كل حال - قد تناول رجلا عاما من رجال الدولة ، ومن ناحية عمله الرسمى فيها . فهو فى صميم النقد الاجتماعى .
وامتزج نقدهم - كما سترى - بالنهم والسخرية - وبالنسكته والفكاهة ، وبالوصف وبغيره .

ونشير هنا إلى أن شرف الدين البوصيرى له قصيدتان فى النقد الاجتماعى ،
لها أهمية بالغة فى تاريخ الحياة الاجتماعية المصرية .
أولاهما : -

قصيدته التى نقد فيها مستخدمى الدراوين ووصمهم بالسرقة وبالحلافات
الطائفية ، وبالمزاعم المختلفة فى حق كل طائفة بالاستئثار بمال الدولة . وأشار
إلى خيانات القضاة وتأويلاتهم فى سبيل السمحت والكسب الحرام .
وثانيتهما : -

قصيدته التى وصف فيها حال أسرته فى شهر رمضان ، وتأخر مرتبه ، وما نجم
عن ذلك من نزاع واسع النطاق بين أفراد الأسرة ، ومن خصام مستحكم بينه
وبين زوجته .

لا يهمنى فى هذا المقام أن شعر القصيدتين من النوع غير الجيد ، وأن
أسلوبهما فيه غثاثة وركاكة ، بمقدار ما يهمنى ما فيهما من الصور الاجتماعية
والمعانى النقدية .

إن الصور التى سجلها البوصيرى فى هاتين القصيدتين ، صور تعدد وجودها أو
وجود أكثرها ، وتكرر وقوعها فى المجتمع المصرى ، من لدن زمان الشاعر - على
الأقل - إلى يومنا هذا . وسنرى أن ما شاع فى زمانه فى الدراوين من سرقات ومن
ارتشاء ، وما شاع فى الأسرة المصرية من تقاليد رمضان وصناعة الكعك فيه ،
والخلاف حوله . صور مما لا يزال يشيع فى بعض دواويننا ، وفى بعض أسرنا .

ومن ثم نستطيع أن نفهم إلى أى مدى قد تطور مجتمعنا في عاداته وتقاليده من لدن الشاعر حتى أيامنا هذه .

ومن أبيات القصيدة الأولى قوله :

نقدت طوائف المستخدمين فلم أر فيهم رجلا أميناً
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم مع التجريب من عمرى سنيها
فككتاب الشمال هم جميعاً فلا صحبت شتاهم اليميناً
فكم سرقوا الغلال وما عرفنا بهم فكأنهم سرقوا العيوناً

في الأبيات يعلن الشاعر مباشرة وابتداء بأنه ينقد طوائف المستخدمين . وبأن موضع نقده عدم أمانتهم . ويدعوك الشاعر إلى تصديقه وإلى الثقة بحديثه ونقده . وذلك لأنه عاشر هؤلاء المستخدمين وخبرهم وجربهم ورأى من خيانتهم مآرعه وآله وأمضه . فهو يتحدث وينقد حديث الرائي والسامع والمعاشر ، وينقد نقد المطلع المحرب الخبير .

والحق أن الشاعر ليس في حاجة كبيرة إلى تأكيد صدقه وإلى توثيق نقده ، وإلى تصديق اتهاماته ، ذلك لأنه في الأبيات التالية ، وفي هذه الأبيات السابقة توجد بينات الصدق واضحة . فإنه قد عمم اتهاماته ضد المستخدمين فلم يختص بها طائفة دون أخرى ، ولم يتعصب بجماعة ضد جماعة . فالقضاة — وهم بلا ريب قضاة الشرع — خونة خانوا الأمانة وزعموا أنهم حفظتها . وأكلوا الأموال وتناولوا في أكلها . وفي التأويل الخشية كل الخشية على أموال مصر . . وتناول الشاعر المسلمين كما تناول القبط واليهود ، على حد سواء ، ونسب إلى كل طائفة مزاعمها وادعاءاتها في مصر وأموال مصر . فالمسلمون لهم حقوق وهم أولى الآخذين . والقبط يزعمون أنهم ملوك مصر وأن غيرهم غاصبون — وتلك دعوى لا يزال منها راسب — واليهود حملت لنفسها أموال جميع الطوائف . وهكذا ترى الشاعر قد عمم ولم يخصص ونقد ولم يتعصب .

وهكذا أيضاً ترى فوضى الدواوين وعبت موظفيها وادعاءات الطوائف . وكلها تنزع نحو أخذ المال الحرام ، وغصب الثروة ، مع ادعاء الصلاح والنسك ، أو دون تفكير في الصالح العام ، ودون اكتراث بأهداف البلاد وتأمين حياتها في حاضرها ومستقبلها .

يقول الشاعر مخاطباً الوزير المختص ، وذاكره له مزاعمهم الكاذبة وساخرا ، وكأنه يستعديه عليهم ، بل وينقده هو في سكوته عن هؤلاء اللثام الكائنين ، وعدم ضربه على أيديهم . وأنت تفهم هذا من تعبيره له بلفظ « غفلت » ، وهكذا نسب إليه الغفلة . يقول :

أموال الوزير غفلت عما	يتم من اللثام الكائنين
تنسك معشر منهم وعدوا	من الزهاد والمتورعين
وقيل لهم دعاء مستجاب	وقد ملئوا من السحت البطونا
تفقهت القضاة نخان كل	أمانته وسموه الأميننا
وما أخشى على أموال مصر	سوى من معشر يتأولونا
يقول المسلمون : لنا حقوق	بها ولنحن أولى الآخذينا
وقال القبط : نحن ملوك مصر	وإن سواهم هم غاصبونا
وحملت اليهود بحفظ سبت	لهم مال الطوائف أجمعينا ... الخ ^(١)

وتلاحظ في الأبيات حرارة الإيمان في نزعات الشاعر ، وصدق إحساسه بمآسى قومه في دواوين ذرائعهم ، واختلاف طوائفهم وتنازع هذه الطوائف أموال مصر وغير أموالها . ويتجه الشاعر لشدة حنقه وطول غضبه وعمق شعوره وغيظه ، إلى الدعاء على هؤلاء المتنازعين ، وإلى هجائهم والولاية بهم .

ولا ندرى أبلغت هذه الشكاية مسامع الوزير ، ووجدت من لدنه أذنا صاغية

ونفساً واعية وهمة ملبية، فضرب على الأيدي ، وقضى على الآثمين ، وحسم مزاعم المدعين المتخاصمين . .

ولعل البوصيرى شقى بهؤلاء الكتاب وضابطى الحساب فى الدواوين ، والمسيطرين على صرف الرواتب ، ولعل تأخير صرف مرتبه ، أو أكل جزء منه ، كان له دخل فى هذا الخلق والنقد .

ومن أبيات القصيدة الثانية قوله :

يأيها المولى الوزير الذى أيامه طائعة أمره
ومن له منزلة فى العلى تكل عن أوصافها الفكره
إليك نشكو حالنا إننا حاشاك من قوم أولى عسره
فى قلة نحن ولكن لنا عائلة فى غاية الكثرة
أحدث المولى الحديث الذى جرى لهم بالخيط والإبرة

والبوصيرى صريح كل الصراحة ، وموجز غاية فى الإيجاز . وواضح كل الوضوح . ذلك لأنه يفصح توا فى أول قصيدته عن غرضه ، ويكشف عن هدفه ، ويحدد لمخاطبه وسيلته التى سيسلكها لاطلاعه على أمره أو شكايته .

وقد بدأ بمخاطبة الوزير وندائه وتنبهه إليه ، ويمدحه مدحا عاجلا لضرورة المقام ، ولا يفيض فى المدح فإنه ليس هدفه له ، وليس من صناعته الآن . ويكشف للوزير توا أيضاً عن هدفه - كما ذكرنا - وهو أنه يعيش فى أسرة تعاني العسر مع كثرة أفرادها ، وأنه سيقص عليه قصتها ، ليدعم بتلك القصة دعواه ، ثم يبين حاجته إلى العون ، وهو ليس مستجديا ولا طالب صدقة أو إحسان أو هدية أو منحة ، وإن لالجأ إلى المدح . . وإنما هو يطلب أجره وراتبه . وهذا حقه . وسترى هذه المعانى فى الأبيات التالية .

والقصة التي يحكيها عن أسرته أو الصورة التي يرسمها لها ، ليست القصة المستديمة أو الصورة المطردة الوحيدة ، وإنما هي قصة من قصص ، وصورة من صور ، ترمز إلى غيرها من مماثلاتها . لأن القصص كلها أو الصور جميعها تتلاقى في جوهر دوافعها وفي عموم مظاهرها ونتائجها . ذلك أن العسر هو السبب الأصيل . وهو يدفع إلى النزاع والخصام ، ولكن مضاعفات العسر ومظاهره تختلف في كل قصة عن الأخرى . ونتائج وآثاره العملية تتغير في كل صورة عن الأخرى وتسلك مسالك جديدة .

والعسر كان - ولا يزال - في مقدمة الأسباب لقلق الأسرة المصرية وعدم استقرارها ، وشبوب المخاصمة بين أفرادها . وفي رأينا أنه ينبغي ألا يكون العسر سبباً في ذلك كله . فإن الدولة وإن كان عليها أن تهنيء أسباب الاكتفاء المناسب لكل أسرة ، لا تستطيع أن تهنيء لها كل أسباب الاستقرار ، مادام حب النفس وما دامت الأثرة طاغية بين أفرادها . وما دام كل فرد فيها ينظر إلى علاقته بالآخر ، بمنظار مصالحته الشخصية ومنافعه الفردية . فالأثرة وعدم التضحية أساس القلق المائل الذي يغشى حياة الأسرة المصرية . وكذلك عدم موازنة ميزانيتها على أساس واقعي محدد ، وفي صراحة لا مواربة فيها ، وفي دقة لا عتب عليها .

تعاودنا هذه الأفكار كلما قرأنا هذه الوثيقة الشعرية التي نظمها البوصيرى وصور بها صورة من صور حياة أسرته . تلك الأسرة التي عاشت منذ نحو سبعة قرون ، وانتابها العسر ، وأصابها القلق ، ومنيت بالأثرة وحب النفس ، فاعتورها النزاع واحتدم الخصام . وطغت عليها التقاليد بسلطانها ، والعادات الظالمة بقيودها ، ف وقعت فريسة لكل هذه الأدواء ، وكادت هذه الأدواء تقضى عليها وتفرق جماعتها .

لم تكن هذه الأسرة أسرة البوصيرى وحده ، بل أسرة كثيرين غيره .

ولم تكن أسرة عاشت منذ سبعة قرون في مصر بل أسرة يتكرر وجودها فيها منذ أيام البوصيرى حتى اليوم .

هذه أبيات مريرة وإن تخللها الفكاهة ، وسطور باكية وإن مزجتها النكتة ، وحكاية فيها العاطفة الحانية والأمل المرجو والأثرة الجاهلة والغيرة القاتلة والوشاية الحمقاء والحيلة الضيقة والشكاية اليائسة والعادة المفترسة ، واللمفة المتحسرة والتساؤل المحرج .

يقول البوصيرى ويتحدث عن هذه الأسرة في صومها وإفطارها ، وفي استعدادها للقاء عيدها ، وفي تفكيرها في مقتضيات رمضان والعيد :

أحدث المولى الحديث الذى	جرى لهم بالخيط والإبرة
صاموا مع الناس واسكنهم	كانوا لمن أبصرهم عبدة
إن شربوا فالبرزير لهم	ما برحت والشربة الجرة
لهم من الخبيز مصلوقة	فى كل يوم يشبه النشرة
أقول مهما اجتمعوا حولها	تنزهوا فى الماء والخضرة
وأقبل العيد وما عندهم	قمح ولا خبز ولا فطره
فأرحمهم إن عابوا كعكة	فى كف طفل أو رأوا تمره
تشخص أبصارهم نحوها	بشمقة تتبعها زفره
كم قائل يا أبتا منهم	قطعت عنا الخير فى كره
ما صرت تأتينسا بفلس ولا	بدرهم ورق ولا فقره
وأنت فى خدمة قوم فهل	تخدمهم يا أبتى سخره

ويعرج البوصيرى بتعبيره السهل وأسلوبه الميسور الواضح ، بل وبالفظة وتراكيبه العامية المفصحة ، على أخت زوجته فيصف تدخلها فى شئون أسرته وسماعها لشكوى الزوجة واندفاعها بدافع الغيرة والحق والجهل ، وبغير روية ، فتثير الزوجة على زوجها وتغريها بمنازعته والاعتداء عليه ، فيقول :

وبوم زارت أمهم أختها والأخت في الغيرة كالضرة
وأقبلت تشكو لها حالها وصبرها منى على العشرة
قالت لها : كيف تكون النساء كذا مع الأزواج يا عرة
قوى اطلبي حقا منه بلا تخلف منك ولا فترة
وإن تأتي نخذي ذقنه وانتفيا شعرة شعرة
قالت لها ما هكذا عادني فإن زوجي عنده ضجرة
أخاف إن كليته كلية طلقني قالت لها : بعة
وهونت قدرى في نفسها فجاءت الزوجة بجرة
فقاتلتني فهددتها فاستقبلت رأسى بأجرة
وحق من حالته هذه أن ينظر المولى له أمره^(١)

وكان القبط - كما رأينا - من بين موظفي الدواوين وكتاب الحساب ،
فيكانوا بذلك هدفا من أهداف النقد عند البوصيري . وكذلك كانوا هدفا عند
غيره . فقد حمل عليهم الشاعر شهاب الدين الأعرج ، وحمل على الترك والسلطان
معاً ، ونهى عليهم جميعاً استثمارهم بالأرزاق دون الناس ، وجمعهم الآهوال من
غير وجهتها ، واستبدادهم في هذا الجمع ، ودعائهم العريضة في سبيله . وحرمانهم
الناس من أن ينالوا من الأموال حظاً مناسباً .

وبلغ الأمر بهذا الشاعر أن أفصح عن حظ كل طائفة منهم من الأموال ،
فقال ساخراً متهمكاً إن نصيب الترك والسلطان الثلث ، ونصيب القبط وحدهم
النصف . أما الناس جميعاً - عدا هؤلاء - فنصيبهم السدس .

وفي إشارته إلى نصيب الترك والسلطان وأنه الثلث - أقل من نصيب القبط

(١) ديوان البوصيري . وفوات الوفيات ج ٢ ص ٢٥٦ ط بولاق .
(م ١٦ - عصر المليك)

- شيء من الزاوية بالترك والسلطان أو شيء من الاستعداد . يقول :

وكيف يروم الرزق في مصر عاقل ومن دونه الأثرak بالسيف والترس
وقد جمعته القبط من كل وجهة لأنفسهم بالربع والثلث والخمس
فللترك والسلطان ثلث خراجها وللغبط نصف والخلائق في السدس^(١)

وروى ابن إياس ، أن الملك الأشرف « قانصوه الغوري » ، أراد أن يرد
جوامك الأيتام ، فلم يمكنه إلا تارك « قيت الرجبى » ، من ذلك . وأعطى جماعة
من الممالك ، فنزل الآخرون من الغلة دون طائل .

فنظم ابن إياس فى ذلك :

سأل الله ربك من فضله إذا عرضت حاجة مقلقة
ولا تقصد الترك فى حاجة فأعينهم أعين ضيقة^(٢)

ومن لطيف ما نفسك به الشاعر الكيس الأديب شهاب الدين بن أبى حجلة
المغربى ، على القبط ، وطريف ما سخر به منهم ، البيتان التاليان اللذان نظمهما
ردا على من لأمه على مصاحبته للقبط ، واتخاذهم منهم أصفياء . . فقال يرد عليه
ويعلل هذه الصحبة بتعليله اللبق . قال :

أبالأئى فى صحبة القبط إننى وحفك لم يفرح بصحبتهم قلبى
ولكننى أصطاد رزقى بأرضهم ولا بد للصيد من صحبة الكلب^(٣)

ويبدو أنه كان ثمة فى دواوين الدولة ما ينفر ذوى المروءة وأصحاب الضمير ،

(١) الدرر السكينة ج ٢ رقم ١٥٣٥ ترجمة شهاب الدين الأعرج .

(٢) بدائع ابن إياس ج ٤ فى تاريخ النورى حوادث رمضان عام ٩٠٧ هـ .

(٣) إراجع ديوان ابن حجلة المغربى حرف الباء .

ويربأ بهم عن التوظيف فيها ، ويدعوهم إلى مجافاتها ، وإلى طلب الرزق من باب آخر غير بابها .

والشاعر بدر الدين الدمشقي ، كان يشتغل بالتعليم وكان مخلصا في أدائه حتى حتى اشتهر بالإجادة فيه . ثم طلب إليه أن يوظف في ديوان الإنشاء . فرفض وأبى ، لما في الديوان من ذل وهوان - بحسب تقديره - وفضل عليه صناعة التعليم . فلامه بعض الناس في ذلك ، فنظم هذه الأبيات حاملا على الديوان ورؤساء الديوان حملة شعواء ، وموازنا موازنة يسيرة بين الصناعتين . ومبيناً أهم مواطن شكواهم من الديوان وأهله . وهو غطرسة الرؤساء وازدراؤهم المرؤوسين .

قال :

لأئمتي في صناعتى مستخفاً بي إذ كنت للعلي مستحقاً
ما غزال يقبل الكف منى بعد برى ولم يضع لى حقاً
مثل تيس أبوس منه يداقد صفرت من ندى لأسأل رزقا
فيولى عني ويلوى عن رد سلامى وبزدرينى حقاً
فاقتصد واقتصر عليها فما عند إله السماء خير وأبقى (١)

ونعى ناصر الدين بن النقيب على بعض رؤساء زمانه أيضاً ، فقال في مجهول من النظار في زمانه مارصمه بالجهل الفاضح في صناعته واختصاصه ، وانصرافه عن معرفتهما إلى العناية بمظهره :

قالوا : فلان ناظر فأجبهم ما ناظر إلا إلى أعطافه
لم يدر مسح الأرض قلت أزيدكم أخرى ولا مسحاً على أطرافه
وقد كرر مثل هذا النقد أو الهجاء حينما أشار إلى أحد الوزراء ، فوسمه كذلك في عمله بالجهل المطبق وبأنه لم يعد أن يكون بوقاً لغيره وطبلاً . قال :

أبلم قلدوه أمر الرعايا وهو في حلبة الوزارة عطل
فهو بالبوق في الوزارة طبل وهو في الدست حين يجلس سطل (١)

وإليك هذه الطريقة أو الطريقة ، التي تصور لك بعض مشاعر الناس في هذا
المجتمع ، عن طريق الأداة الناقدة .

فقد روى ابن إياس أن رجلا في زمانه ، يدعى « شمس الدين بن عوض » ، كان من
فلاحى منية مسير بالغربية - أو من بانوب - دفعه حظه إلى أن صار
أستادارا للخيرة الشريفة ، رصار في جملة الرؤساء . ولكنه لم يخرج عن طبع
الفلاحين

وقال عنه مانصه : « فكانت عمامته عمامة الفلاحين ، وكلامه كلام الفلاحين ،
كأنه فلاح قحف ، كما جاء من وراء المحراث ، ولم ينطل في رياسته . فكان
كما قيل :

ورب قحف قد أتى لنا به الدهر غلط
سألت عنه قيل لى هذا من النخل سقط

وقال آخر في المعنى :

فقيه ريف يقول إني برعت في العلم والرواية
فقلت لاشك أنت عندي تصلح للمدرس والدراية ، (٢)

وفي الشطر الأخير تورية راضحة . والآيات ملوءة بالتندر والسخرية .
والملاحظ أن هذا التندر من ابن إياس على الفلاحين - وهم الطبقة الكادحة -

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٥٣ .

(٢) بدائع ابن إياس ج ٤ حوادث عام ٩٢٠ هـ ص ٣٧٦ .

كان ذائع التكرار على ألسنة الناس في مصر ، في حق هذه الطبقة ، حتى وقت قريب ، حتى عالجت الثورة الكريمة هذه الجراح في أيامنا .

وتعرض لنقد الرؤساء وهجائهم أكثر من واحد من الشعراء ومن الرؤساء - كما علمت - أمراء الدولة وقضااتها. ومن الرؤساء أيضا - كما نعلم حتى اليوم - من يقيم ببابه ، أمينا أو كاتباً ، يصرف الأمور قبل إقبالها عليه ، وينظمها ويحسن تقديمها . وقد يطغى ، وبغريه بالطغيان انصراف رئيسه عن متابعة عمله وتفتيشه ومراجعته . فيصبح بعد قليل ، هو الرئيس الفعلي والمتصرف الأول الحاسم فيما يعرض على رئيسه . ويؤدي ذلك في كثير من الأحوال إلى اضطراب الأمور وقلقها وإلى إثارة النفوس وحملتها .

ونقد هذه الأحوال وما يترتب عليها ، لون من « النقد السياسي » ، لولا أنه أشد صلة بالحياة الاجتماعية .

ويصرح الشاعر سيف الدين السامري في جرأة ووضوح ، بما كان عليه حال الأميرين « طوغان » و « إيدمر » . وكان لكل منهما أستاذار يسمى « العلم سنجر » ، ونائب بر يسمى « الشجاع همام » ، استبدوا بالأمير دون الأميرين ، فكتب الشاعر إليهما يقول في جرأه :

اسم الولاية الأميز وماله فيها سوى الأوزار والآثام
وجناية الفتلى وكل مصيبة نجى منها إلى همام
سيفان قد وليا وكل منهما ماضى العزائم دائم الإقدام
وبياب كل منهما علم ينكل ما يوجد به من الإنعام
وقد استحلا منهم مالم يزل من مالمهم ودماهم بحرام
ففى أرى الدنيا بغير تشاجر والقطع والتكيس للأعلام (١)

والشاعر سيف الدين السامري كان نزيباً بدهشق . وكانت بلاد الشام - كما علمت - في جملة أفطار السلطنة المصرية . وكان موظفو الدولة - سواء منهم الأمراء والوزراء والقضاة وكتاب السر وغيرهم - يتنقلون في سلك وظائف السلطنة من بلد إلى آخر ، في مصر أو الشام أو غيرهما ، تنقل الموظفين اليوم بين مدن الجمهورية ، وكذلك كان الأدباء والشعراء يتنقلون طلباً للرزق . وما كان يجرى من الأمور في بلاد الشام من أحداث الدواوين والرؤساء نمط مكرر مما كان يجرى في مصر غالباً .

فلا بأس من أن نرى لك أن السامري المذكور ، تندرتندراً مراوفاً حشاً على القاضي صدر الدين بن سناء الدولة ، وذلك لأنه عدل المدعو جمال الدين اليزدي ، وخلع عليه طيلساناً ، وأحضره في مجلس قضائه مع العدول وأشهد عليه .

ويبدو أن اليزدي ، كان معروفاً لدى الشاعر بسوء الخلق ، ورأى أنه لا يصلح للجلوس مع العدول في مجلس القضاء ، وأن في هذا ظلماً على المتخاصمين . فسجل السامري هذه الصورة الاجتماعية في هذه الأبيات اللاذعة الفاضحة المكشوفة ، التي رمى فيها اليزدي بكل كبيرة وصغيرة ، وتهكم بالقاضي صدر الدين ونسب إليه الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف . . قال :

طاب شرب المدام في رمضان واصطفاق العيدان عند الأذان
والزنا واللواط في حرم الله وترك الصلاة بالقرآن
منذ صار اليزدي في سكك الشام يطوف النابات بالطيلسان
وإذا صارت العدالة في الفساق واللائطين بالمردان
فخدير بأن أكون نبياً ويكون الصديق لي التلساني
باعدول الشام قد سمح القاضى لأصحابه بنيل الأمانى
قامرواواشربواوقودواولوطوا وافسقوا والحدوا إذن بأمان

وارفعوا عنكم التستر بالفسق فلا حاجة إلى التكتيان . (١)
قيل: وبلغت هذه الآبيات سمع القاضي صدر الدين . فتألم وغضب . وأعرض
عن جمال الدين اليزدي ، ومنعه من الشهادة . فاتصل اليزدي بالشاعر سيف الدين
السامري ، وما زال به حتى نظم شعراً استرضاه به . .

وللقضاة وما قيل فيهم ، حديث آخر سنعرضه عليك بعد قليل ونعود إلى
ما نقد به الشعراء أحوال الدولة وجنودها وأمور الأمن فيها ، مما يعتبر نقداً
اجتماعياً وسياسياً في آن واحد .

وهاهو ذا ابن إياس الحنفي المؤرخ صاحب بدائع الزهور يسجل اضطراب
الأمن في عهد السلطان الأشرف الغوري ، وينسب هذا إلى جور الغوري وظلمه ،
فيقول في صراحة :

من دولة الغوري ومن جوره لقد حملنا فوق ما لا نطبق
وقد كفى من فعله ما جرى من قلة الأمن وقطع الطريق (٢)

وبمناسبة حديثنا عن الأشرف الغوري ودولته ، نذكر أن الأمير طرباي
الشرقي ، كان أحد كبار الأمراء في زمن هذا السلطان . وكان نافذ الكلمة واسع
السلطة . وأمل له غروره ، حتى صار عسوقاً شديد البأس زائد القوة كثير المظالم
يصادر أموال الناس ، ويمنع أرزاقهم ويحل أوقافهم . فلما مات هذا الأمير فرح
الناس بموته فرحاً عظيماً وتبادلوا التهنة .

وابن إياس الحنفي يسجل هذا الحادث ، وينعي على الفقيد ما كان فيه من
سلف وظلم ، ويصف فرح الناس لفقده . وينشد هذه الآبيات ، التي وإن عراها
ضعف النسخ ، تعتبر في وصف إحدى نواحي المجتمع .

(١) نوات الوفيات ج ١ ص ٨٥ . (٢) بدائع الزهور ج ٤ حوادث جمادى الأولى عام ٨٩٠ هـ .

يقول ابن إياس :

بموت طراباي أفرج الله كربة
فهذا فتوح عاد في مصر ثانيا
وقد كان جبारा عنيدا معاندا
ويبطل حق الناس من كل واجب
ولما طغى ظلمها وزاد تجبراً
وأسكنه ضيق اللحد معذباً
وقد جاء يسعى للجحيم برجله
ومدشاع بين الناس أخبار موته
فيارب قابله بما يستحقه
عن الناس من خلق السموات الأرض
وعمت به الأقطار في الطول والعرض
فكم جار في الأحكام بالهرم والنقض
ويقضى خلاف الشرخ في الذب والفرض
فمجل عزرائيل للروح بالقبض
وأخلى منازلها في طرفه الغمض
وأجزم بعد الرفع بالنصب والخفض
فصار يهني بعض من سر للبعض
وأودعه في الأغلال للبعث والعرض (١)

وكان المماليك الجلبان - وهم مماليك الأمراء يلبغوا واستدمروا والجاهل اليوسفي ،
على عهد الناصر حسن حفيد قلاوون - أهل فساد ورذيلة ، عانت القاهرة وأهلها ،
منهم ألوانا من العبث والأذى ، مراراً ، وكانوا سبياً في فواجع كثيرة وقد
استمر عبثهم هذا ، بل ازداد وانتشر ، بمرور الأيام ، وعاشوا وتجددوا - كالمعتاد
- حتى بلغوا عهد الأشرف الغوري . فوقع بينهم وبين القرانصة - وهم لون
آخر من المماليك وعلى مقدار مرذول من العبث أيضاً - فتن ومنافسات
لاحد لها . وكانت على أيدي هؤلاء وهؤلاء هزيمة جيش مصر في موقعة مرج دابق
التي صرع فيها الغوري عام ٩٢٢ هـ فقد كانوا من دعائم هذا الجيش حينذاك .

لقد تنازلهم الشاعر الساخر المتفككه شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي
- شاعر السلطان الناصر حسن - فسجل عليهم ألوان عبثهم وضررب فتنهم .
وما اجتروحه في القاهرة من آثام ، إلى عهده . نظم ذلك في أسلوب كأسلوب

(١) . دوائر الذهب لابن إياس ، ج ٤ . حوادث عام ٩١٧ هـ ص ٢٠٩ .

البوصيرى . لاجزالة فيه ولا حكمة في حبك عباراته . ولكنه وثيقة دمع بها هؤلاء الأشرار . وسجل على صفحة الزمان بها إحدى صور المجتمع . قال إنهم كانوا ينزلون إلى الأسواق فيختطفون العائمين ، ويظهرون التيه وهم على ظهور خيولهم إبرازا لمهارتهم ، ويكثرون الدور ويمنعون الكراء ولا يكتبون الإيجار ، ويشنون الغارات في الطرقات ويدوسون الزروع ، ويفجرون بالغازى والغلبان ، إلى غير ذلك قال :

غدا الجلبان في دست الخسارة	وفاتهم بما فعلوا الشطارة
ولم يعرف لهم في مصر شيء	سوى خطف العائمين والشماره
يررن التيه إن ركبوا بمصر	على ظهر الخيول من المماره
فكم دار بمصر كورها	جميعاً كاره من بعد كاره
وكم جاروا بمنع كراء دار	وما كتبوا لإسطبل إجاره
وكم غارت بهم من عين شخص	وكم شنوا على الطرقات غاره
وكم مزقوا السياج إلى المقاق	وخير من خيارهم الخياره
وكم من زرع فلاح رعوه	ولكن بعدما حرثوا دياره
وكم ركب المسكارى الذل منهم	ولا سيما إذا ركبوا حماره
وكم فجروا ببنت وابن ناس	إذا انقضوا وكم فضوا بكاره (١)

ونعود إلى ذكر القضاة ، وحملات نقاد الشعراء عليهم . ويبدو أن الشعراء كانوا آمنين أمنا نسبيا ، إذا قصدوا لنقد القضاة وتقنيد أعمالهم أو أعمال بعضهم وتصرفاتهم ، آمنين أكثر مما كانوا يأمنون جانب السلاطين والأمراء .

وقد تعرض الشاعر الأديب شهاب الدين الشارمساحى لعاضى القضاة بدر الدين بن جماعة ، بأبيات رماء ورمى ولده فيها بعظام وآثام - قيل إن أغلبها كذب

وبهتان - ولا يمكنها على كل حال ، تصور لنا إحدى نواحي المجتمع ، والصورة التي سجلها الشاعر ، ولو لم تكن صادقة في واقعها ، هي صادقة الوقوع في حياة المجتمع في ظروف أخرى . فهي تحكى ما كان ينتاب أموال الأوقاف بين آن وآن ، من سلب ونهب وإغارة . وما كان ينعم به بعض الناس من ألوان النعيم ، ويشقى به بعضهم من ألوان العذاب والحرمان . وما كان يصل إليه أقارب الرؤساء ، بسبب قرابتهم ، من مال محرم . .

والحق أن الشاعر مساحي قد نقد فغلا ، وعاب فتحامل ، وهجا فأفزع . ومن المستطاع أن يكون النقد عفا مع لذاعته ، وبريثا مع مرارته - ومهما يكن من شيء فهذه هي أبيات الشاعر مساحي ، قال :

يموت عديم القوت بالجوع حسرة	ويشبع بالأوقاف أهل الطيالس
فما أحد إلا وحشو حسابه	من الغبن نار دونها نار فارس
وهذا ابن قاضي المسلمين موكل	ب... وراح في ظلام الخنادس
وما ذاك إلا أن والده امرؤ	جنوح لما يرضى به غير عابس
وإن رام منه مال وقف يضيعه	فما هو للأموال عنه بحابس
ونعذر نجلا هام في زمن الصبا	بكل صبي فائر الطرف ناعس
فكم صاد غزلانا من الترك دونها	فوارس حرب يالها من فوارس
وكم باع أموال اليتامى لقربها	توسد للمردان فوق الظنافس
فسل مودع الأيتام ما صنعوا به	وقد كنسوه عامداً بالمسكانس
وجامع طولون فما كان وقفه	له إذ أتاه غير لحسة لاحس (١)

والأبيات - كما رأيت - فوق تسجيلها ما شجسته من العبث بأموال الأوقاف وأموال اليتامى وتيسيرها للأقارب والأبناء ، دون حق . تسجل أيضاً ألواناً من الفساد والذيلة كانت منتشرة في ذلك الزمان بسبب رواج الرقيق وغيره .

ومما روى أنه في عام ٨٢٠ هـ في عهد الملك المؤيد شيخ - ولي القضاء القاضي شمس الدين محمد بن عطاء الله الهروي الشافعي خلفا للقاضي جلال الدين البلقيني . وجلس السلطان مرة في أحد مجالسه فدست إليه ورقة فيها هذه الأبيات :

يأبها الملك المؤيد دعوة من مخلص في حبه لك ينصح
انظر لحال الشافعية نظرة فالقاضيان كلاهما لا يصلح
هذا أقاربه عقارب وابنه وأخ وصهر فعلمهم مستقيح
غطوا محاسنه بقمح صنيعهم ومتى دعاهم للهدى لا يفاجحوا
وأخوه راية بسيرة اللئك اقتدى وله سهام في الجواخ ترح
لا درسه يقرأ ولا أحكامه تدرى ولا حين الخطابة يفصح
فأرح هموم المسلمين بثالث فعسى فساد منهم يستصلح

وترى الشاعر المجهول قد رمى البلقيني بأمر ليس من عمله ، لقل حمل عليه إثم غيره من أقاربه . وهذا نقد ظالم وقد رمى الهروي - أخا هراة - بالاستبداد في حكمه ، والضعف في درسه ، والتعثر في خطابه . وإذا صح ذلك كان الناقد على حق في نقده له .

قيل ، وعرض السلطان الورقة على الجلساء من الفقهاء الذين يحضرون عنده ، فلم يعرفوا كاتبها . فأما الهروي فلم ينزعج مما جاء فيها . وأما البلقيني فقد انزعج انزعاجا شديدا ، وأطال البحث والتنقيب عن ناظمها . وبعضهم اتهم الشاعر وشعبان الآثارى . وبعضهم اتهم دتق الدين بن حجة الحموى . وبعضهم اتهم ابن حجر العسقلاني ، - قاله البدر العيني :

وبعد قليل أعيد الجلال البلقيني إلى القضاء (١) .

وقال ابن إياس في حوادث ذى القعدة عام ٩١١ هـ ، ما ملخصه :

(١) حسن المحاضرة ج ٢ باب قضاء مصر .

« إن القاضي محي الدين بن النقيب قاضى قضاة الشافعية ، أسند إليه القضاء ثلاث مرات ، وفى كل مرة كان يضى إلى هذا المنصب ويبذل ما يستطيع . ولكنه لا يملك إلا قليلاً ثم يعزل . »

وقال أيضاً : « وكان غير مشكور السيرة رث الهيمه ، يحافى النفس ويزدريه كل من يراه . وقد قال فيه بعض شعراء العصر مداعبة لطيفة ، وهو قوله :
قاض إذا انفصل الحصان ردهما إلى جدال بحكم غير منفصل
يبدى الزهادة فى الدنيا وزخرفها جهرأ ويقبل سرا بكرة الجمال
وقال آخر ، وقد أخش فى حقه جداً . . . قال ابن إياس : « فلا حول ولا قوة إلا بالله ، وأنا أستغفر الله تعالى من ذلك ، :

يأيمها الناس قفوا واسمعوا صفات قاضينا التى تطرب
يلوط يزنى ينتشى يرتشى ينم يقضى بالهوى يكذب^(١)

نقول إن هذا لون من النقد الجارح الذى ينتمى إلى الهجاء .
ومثله هذان البيتان الفكهانيان المذان عاون الشاعر فيهما جناسه ، على النقد الهاجى المقذع . وقد نظمها الشاعر الأديب عبد الكريم بن على السهروردى القوصى ، فى أحد التجار ، وكان الشاعر قد طالب منه جوزة هندية ، فرفض التاجر ، فكتب إليه :

طلبت منك جوزة منعتنى من قربها
وكم طلبت زوجة منك فلم تبخل بها^(٢)
والشعر على كل حال ، يصور أخلاق بعض الناس .

(١) بدائع الزهور لابن إياس ج ٤ حوادث عام ٩١١ هـ .

(٢) الطالع الميد تحت رقم ٢٥٩

ويبدو أن بعض الشعراء استعذب نقد القضاة . ولدينا شاعر بدا في جرأة سيف الدين السامري الذي عرضنا نقده ، بل هو أجراً وأوسع تفصيلاً وأقوى بياناً وأكثر حجة والذع هجاء . شاعر جاء أخيراً وعاش في عصر الأشرف الغوري . وملا هجاؤه الأسماح وبلغ آذان السلطان والعامه ، وكان له دوى ورنين لا يغفل تسجيله تاريخ الأدب .

ذلك الشاعر هو المصري الصميم « جمال الدين السلموني » . ويبدو أن العامة أحبت له جرأته وإقدامه على نقد رجال الدولة درن خوف ولا وجل .

وفي عام ٩١١ هـ هجا هذا الشاعر ، القاضي معين الدين بن شمس ، وكيل بيت المال . وأخفش في هجائه . ومنه هذا البيت الذي فيه من الإقذاع المورى ، ما فيه ، قال :

وحرفته فافت على كل حرفه يركب يافوتا على فص خاتمه

فشكاه معين الدين بن شمس إلى السلطان الغوري . فقال له السلطان : « إن وجب عليه شيء بالشرع فأدبه » . فقبض عليه معين الدين ، وساقه إلى قاضي قضاة الحنفية عبد البر بن الشحنة . فضربه ابن الشحنة وعززه ، وأشهره على حمار مكشوف الرأس ، اعتماداً على دعوى القاضي معين الدين أن السلطان هو الذى رسم بشميره . ولم يكن السلطان قد رسم بشيء من ذلك .

وبلغت أنباء العقوبة مسامع السلطان ، فشق ذلك عليه ، وأمر بالقبض على معين الدين وآذاه ، وأطلق سراح الشاعر .

وما إن أطلق سراح الشاعر ، حتى أطلق لسانه فى القاضي عبد البر ابن الشحنة ، وهجا هجاء مقدعاً ، ونسب إليه جملة من الآثام والسيئات . قد يكون مبالغاً فى نسبتها إليه ، بل قد يكون كاذباً فى بعضها على الأقل ، ولما كنا لا نشك مطلقاً فى أنه بقصيدته التى ضمنها هذا الهجاء ، صور وضعاً من أوضاع المجتمع وحالة من أحواله ، لاريب فى حدوثها — بصرف النظر عن شخص القاضي

المهجو - فلا ريب أنه كان في الأحكام زور وباطل ، وأنه كانت هناك رشوة أو أجور للقضاة مبالغ في تقديرها . وأنه كانت هناك سرقات من أموال الأوقاف أو أطماع تدور حولها . وغير ذلك . وما صرخة هذا الشاعر الهاجى الذى أذع في الهجاء وأخفش ، إلا صرخة الناقد الاجتماعى الذى راعه ما فى هذه الناحية من حياة المجتمع من ضروب العبث والفساد ، وإن أساء فى نسبتها إلى شخص معين . ومن هذه الزاوية نظرنا إلى قصيدة جمال الدين السلمونى . فإنها مصداق لما دونه التاريخ فى سير بعض القضاة .

وإليك بعض أبيات هذه القصيدة ، قال الشاعر :

فشأ الزور فى مصر وفى جنباتها	ولم لا وعبد البر قاضى قضائها
أينكر فى الأحكام زور وباطل	وأحكامه فيها بمختلفاتها
إذا جاءه الدينار من وجه رشوة	يرى أنه حل على شهبانها
فإسلام عبد البر ليس يرى سوى	بعمته والكفر فى سمنانها
أجاز أموراً لا تحل بملة	بجمل وبرم مظهر منكراتها
ألمست ترى الأوقاف كيف تبدلت	وكانت على تقديرها وثبانها
وقد وثبت فيها قضاياه بالأذى	وبالبيع شبه الأسد فى وثبانها
فإن كان فى الأقاليم بقية	تكذبنى فيما أقول فهاتها
ولا بد من بيع الجوامع تارك الجماعات منها مبطلات	جمعاتها
ولا بد أن يستبدل الناس أعبدا	بأحرارها يبعوا لنفس ذواتها
ولو أمكنته كعبة الله باعها	وأبطل منها الحج مع عمراتها
ومصداق قولى أنه كان مغرباً	ليحيى بن سبع فى خراب جهاتها (١)
وقد كان ذئباً لابن سبع وقومه	يطالع بالأخبار قبل روايتها
ولو يعط ديناراً وطاوعه الهوى	لأسقط عنها صومها وصلاتها

(١) ابن سبع كان أميراً لينبم فى أول عهد النورى .

شكت ملة الإسلام بما ينالها بأفعاله ياهل تزبل سكانها
 فيبكي على الدين القويم رشرعه وأحكامه فيها بمنعوجاتها
 نعى مذهب النعمان من قبج فعله على فتوات الزور لاعن ثقاتها
 تعقب يعقوبا وخالف رأيه فكم حل من وقف وأبدى شتاتها
 وعن زفر قد زفر النقل كاذبا بتزويج أرحام لحين براتها
 وقد خان قاضي خان في فتواته بتغييرها عن مقتضى موجباتها
 ولا تخش إثمًا أن نخوض بحر ضه فغيبته للناس خير لغاتها
 فماذا على الإسلام حل من الردى بأيام عبد البر مع سنوانها^(١)

روى ابن إياس أن القاضي عبد البر بن الشحنة - وكان صديقًا للسلطان
 الغوري - شكًا إليه ما صنع المسلموني فأمر السلطان باستقدمه إليه ، فقدم .
 فوضعه في القيد ووبخه توبيخًا شديدًا على سوء ما صنع . ثم سلمه للقاضي عبد البر
 ليحكم عليه بما يشاء إذا ثبت عليه ما قاله . فسلمه القاضي واستجوبه فأذكر أنه
 نظم شيئًا . ولكن تقدم بعض الشهود فشهدوا عليه ، وتعصب قضاة الشرع ضده ،
 وهموا بضربه بالسياط وإشماره .

ثم ما لبث القاضي عبد البر أن اكتفى بسجنه ، وذلك خوفًا من انعامه ، فقد
 كان كثير منهم يحب هذا الشاعر ويقدره ويتعصب له ، حتى إنهم هددوا القاضي
 عبد البر بالرجم بالحجارة ، إذا هو أساء إليه . .

ولبث المسلموني سجينًا مدة حتى أمر السلطان بإطلاق سراحه ، وذلك في
 رمضان عام ٩١٣ هـ . وهكذا ترى أن هذه القصيدة وذيلها ونتائجها شغلت الرأي
 العام قرابة عامين .

(١) بدائع الزهور لابن إياس حوادث عام ٩١١ هـ ، ٩١٣ - وج ٣ وص ١٩٤ ط أميرية .
 وفي بعض الأبيات لحن ، وقد روى ابن إياس هذه الأبيات وقال : « انتهى ذلك على سبيل الاختصار »
 ومعنى ذلك أن الأبيات التي رواها ليست جميع أبيات القصيدة .

وما يعتبر نقداً ووصفاً وتسجيلاً لأخلاق بعض الناس وتصرفاتهم - وهذه ظاهرة اجتماعية مطردة في مجتمعاتنا حتى يومنا هذا - ما نظم فيه القاضي بدر الدين ابن الجبال الحنبلي ، محمد بن أحمد ، المتوفى عام ٧٤٩ هـ ، وذلك حينما عزل عن القضاء بسبب حادثة كان له بها صلة . وجاء خبر العزل في أول النهار ، وكان لديه جمع من الناس ، فتفلبتوا من لدنه في الحال ، وأسرعوا إلى الانصراف . وفي آخر النهار جاء أمر بإعادته إلى منصبه . وعلم الناس فأقبلوا على داره زمرا وحشودا ، حتى كاد باب داره يكسر بسبب زحامهم الشديد . . .

فقال القاضي في ذلك :

تحالف الناس والزمان فحيث كان الزمان كانوا
عاداني الدهر نصف يوم فأنكشف الناس لي وبانوا
يأبها المعرضون عني عودوا فقد عارد الزمان^(١)

ولم يسلم رجال الصوفية من خفقات ألسنة الشعراء ولذعات نقدهم ، وكان العصر - كما علمت - يعج بالمتصوفة ، والقاهرة وظواهرها تمتلئ بخوانقهم وأربطتهم وزواياهم . وكان للسلطين والأمراء بهم عناية ، إذ أسسوا لهم المدارس وأوقفوا عليهم الأوقاف وقرروا بدارسهم الدرس ، وعظموهم واستجابوا لرغباتهم وسمعوا لمشورتهم ، بل والنسوا منهم البركة وتحقيق الأمل ...

ولكن ما من طائفة كثيرة الجماعة ، إلا ترى فيها خوارج رشواذ . وهذه إحدى الطوائف ، ولا بد أنه أشيع عنها أو عن أفراد منها ، أمور تشين وحوادث تناقض الطريق ... والجمهور عميق الشعور بما هنالك ، دقيق الحس بما يخفى ، يحس كثيرا ما يصدق حدسه . ويظن الظنون ويطلق الشائعات ، وسرعان ما تتكشف الأمور عن صواب مآظه ، وصدق ما أشاع . ولم تبق تظاهر بالتقوى ستراً لما آثمه .

لقد كان بعضهم ينظر إلى الصوفية نظرة شذراء ، فيها الشك والريبة . وكان بعضهم ينسب إليهم كبائر الإثم يرتكبونها في الخفاء . ومنهم من اتخذ صوفيته سترا إلى بلوغ رغباته وشهواته .

فلا عجب إذا رأينا شاعرا عرف بالرزانة وعرف بالفقه والعلم ، وكتب سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، يتخذ الصوفية هدفا لنقده وغرضا لسمامه ، فيجهوهم ويفحش في الهجاء . ذلك الشاعر هو المؤرخ فتح الدين بن سيد الناس اليعمرى .

لقد نظم هذه الأبيات الأربعة ، وهي من الأدب المكشوف . فانظر ما نظم ، قال :

ما شروط الصوفي في عصرنا قطعاً سوى ستة بغير زيادة
وهي والسكر والسطلة والرقص والغنا والقيادة
وإذا ما اهتدى وأبدى اتحاداً وجميلاً من خلوة وإعادة
وأنى المنكرات عقلاً وشرعاً فهو شيخ الشيوخ ذو السجادة (١)

لا تعليق لنا على هذه الشروط ، فهي واضحة لمن يريد بها ، وهي أشنع شروط تشترط في عضوية !.. على أن البيتين الأخيرين جديران بالنظر والتأمل . إذ أن الشاعر في أولهما تراه يتهكم — على ما نعتقد — بالاتحاد والإحساس به ، ويتهكم بمن يدعيه ، وما أكثر المدعين ! ولندعه إلى البيت الأخير الذي اجتمعت فيه جميع المنكرات . وعندنا أن أنكى من اقرار المنكرات وآثم من فعلها ، بذل الحيلة في تسويغها بالعقل وبالنقل . وهذه أظلم هوة يطوح فيها المرء بنفسه ، ولكن هكذا كان وما يزال ديدن بعض مدعى الصوفية وزاعميها .

وهذه الحركة التعاليمية التي سبق لنا وصفها في فصل سابق ، ورأينا ما كان

يبدل في سبيلها من جهود موقفة ورعايات مطردة ، ورأينا كيف آتت أكلها طيبا ، لم تسلم هي الأخرى من لدغ النقد وذم الناقدين .

لقد استرسل كمال الدين الإدفوى صاحب كتاب الطالع السعيد ، في حنقه على التعليم في زمانه ، فسجل له صورة طريقة لانزال بعض ألوانها وظلالها ماثلة في دور التعليم حتى اليوم . . !

فالمباحث لانتهى إلى نهاية محمودة حاسمة ، وإنما هي مجادلات ومغالطات . والمدرس يخلط في دروسه من غير تحقيق ولا ضبط ، والمحدث يتشدد بأحاديث يرويها عن أحد الحفاظ . وهذا هو مدى عليه بالحديث . والفاضل حسبه من الفضل أن ينسب قولا إلى أرسطو أو إلى بقراط ، تماما كما يفعل بعض فضلاء عصرنا بمن ينسبون دائماً إلى الفرنجة ، لا يريدون بذلك إعلان الحق بمقدار ما يرغبون به الظهور والإعلان بأنفسهم ، وهم آمنون من التعقيب لجهل قرائهم أو لجهل سامعهم .

يقول الإدفوى في أسلوب ميسور وعبارات هينة قريبة :

إن المدرس بمصرنا في عصرنا	طبعت على لغط وفرط عياط
ومباحث لانتهى لنهاية	جدلا ونقل ظاهر الأغلاط
ومدرس يبدى مباحث كلها	نشأت عن التخليط والأخلاط
ومحدث قد كان غاية علمه	أجزاء يرويها عن الديمياطى
وفلانة تروى حديثا عاليا	وفلان يروى ذلك عن أسباط
والفرق بين عزيزهم وغزيرهم	وأفصح عن الخياط والخناط
والفاضل التحرير فيهم دأبه	أقوال رسطا ليس أو بقراط
وعلم دين الله نادى جهره	هذا زمان فيه طى بساطى
ولى زمانى وانقضت أرقانه	وذهابه من جملة الأشراف (١)

(١) راجع الطالع السعيد وترجمة كمال الدين الإدفوى المتوفى عام ٧٤٨ هـ - والدرر السكينة ج ١

حتى صناعة الشعر نفسها ، لم تسلم من لذعات الشعراء . ولا غرابة فقد أصبحت في زمانهم كاسدة السوق باثرة البضاعة ، على ما وصفنا في أكثر من مناسبة ، فكان من الحق أن يستنم إليها الشاعر ويتخذها سبيلا إلى الرزق . وقد تأبى بعض الشعراء عليها حتى ذمها وفضل عليها صناعة العلم . ويقول زين الدين بن الوردى ينصح ابنه :

بنى إياك ونظم الشعر فإنه بالعلماء يزرى
والله لو لاشهرتني وذكري بالعلم كان الشعر حط قدرى ^(١)

وماذا يصنع الشاعر وهو يعيش في قوم يبغضون الشعر والشعراء . إنه ولا ريب معذور إذا نقد صناعته وحمل عليها . يقول سراج الدين الوراق فيمن ازدرى الشعر :

رفضوا الشعر جهدهم ورموه بينهم بالهوان والازدراء
فلو أن الكتاب كان بأيديهم محوا منه آية الشعراء ^(٢)
ويقول :

أصروا أديم وجهي عن أناس لفاء الموت عندهم الأديب
ورب الشعر عندهم بغيض ولو وافي به لهم حبيب ^(٣)
وقد أشرنا إلى ذلك .

وهكذا رأينا كيف أن الرغبة في النقد الاجتماعي كانت حافزا له آثاره في بروزه بين فنون الشعر . وأن الشعراء عكسوا هذه الرغبة الشعبية البادية أو المكتوبة ، في شعرهم ، فأبرزوها وأعلنوا بها ، واتجهوا بها اتجاهات عدة ، ونقدوا المجتمع من زوايا كثيرة ، وخلفوا لنا من نقداتهم صورا اجتماعية واضحة .

(١) ديوان ابن الوردى . (٢ ، ٣) خزانة الأدب لابن حجة باب التورية .

الهجاء

ولا بأس من الاستطراد - بمناسبة النقد الاجتماعي - إلى ذكر الهجاء . وقد يكون الهجاء شعراً إخوانياً دعت إليه خصومات وأحقاد مما يقع بين صاحبين ، مثلاً . ولكنه في كثير من الأحيان - أو في أغلب الأحيان - يكون شعراً اجتماعياً أعم منه إخوانياً . ويبدو بسبيل من النقد الاجتماعي ، وإن كان يتسم بالتحامل والتجني والافتراء وساقط اللفظ وسوء العبارة ، أحيانا كثيرة . وهو على كل حال يصور بعض نواحي المجتمع ، ويركز على المساوىء الشخصية ويضخمها . ولكنه مساوىء - لا ريب - أنها تتكرر في أشخاص كثيرين ، وأفراد عدة من أفراد المجتمع .

والهجاء في العصر المملوكي ، نادر الوجود . ومن أوفى ما قرأناه منه في بابيه ، قصيدة طلية ذات نهج لافت ، نظمها الشاب الظريف . هجاها رجلا اسمه « ابن يعقوب » . وقبل أن يصرح الشاعر باسم الممجو ، حشد في نحو تسعة عشر بيتا ، مجموعة ضخمة من نقائص البشرية ومساوىء مجتمعاتها ، بدت الأبيات التي تضمنتها ككتاملات نافهم ، أو ملاحظات غاضب مستاء متألم ، أو لفتات ناقد مهمتاج .. ثم عقب عليها بيت واحد ، نسب فيه هذه المجموعة كلها إلى « ابن يعقوب » ، على اعتبار أنها « صفات علا » ، أي أنها محاسن يزداد بها

يقول الشاب الظريف :

خذ من حديثي ما يغنيك عن نظري	فإنه سمر ناهيك من سمر
كم من أب قد غدا أما لمعشره	فاجب لإعطاء أم وهو من ذكر
وناطح بقرون لا قرون له	وكبش قوم بنقل العلم مشتهر
ورب حامل وزر غير محترم	ولائظ وهو عف الذبل والنظر
.
وضارب لي أهواه وأكرمه	أزاه يحضر عندي وهو في النفر

وكم بليد بظهر الغيب حدثنا
وكم بدا عاقل يوما وليس له
وكم نظرت لوجه ليس في بدن
ورب ناظم أشعار وليس له
ومسك بيديه النجم يقلعه
ولا بس وهو عار لا رداء له
وعابدين من المحراب قد هربوا
ومدبرين وما ولوا ولا اجترموا
وصالحين رأيت الخمر عندهم
وسالحين وما زالت طهارتهم
ونازلين بأرض قد أصابهم
وتابعين إماما وهو من خشب
عجائب ما لها حد فقل وأطل
كأنها لابن يعقوب صفات علا

وذى ذكاء رأيناه من الخمر
فذكر وليس بمنسوب إلى البشر
وكم سمعت بصخر ليس من حجر
شعر فهل مثل هذا سار في السير
وليس للمرء نيل الأنجم الزهر
كسوته أطلسا من أخشن الشعر
ترى المسيح يوافيهم على قدر
وينسبون بلا شك إلى دبر
قد حللوه بلا خوف ولا حذر
وآمنين وقد أمسوا ذوى خطر
غيم بلا بلل والقوم في مطر
وقد يؤنث في وصف وفي خبر
إن شئت أو فاقصد في القول واقتصر
لذلك إحصاؤها أعيان على البشر^(١)

ومن حوافزهم إلى نظم الشعر الرغبة في التسلية وقطع وقت الفراغ فيما يقضى حاجة النفس من الفن . لقد تعلق شاعر يتهم بهذا الخافز أيضا ، وتوسلت به إلى حيائها واطراد نموها . ووجدوا من الخير أن يملئوا فراغهم بعميل فني يكون مسلاة لهم وملهاة . فلم ينصرفوا في أوقات فراغهم إلى ما ينصرف إليه عامة الرجال من لعب ولهو ، وبخاصة أننا عرفنا أنه لم يكن وراء الشعر ما يغري ، وما كان لنا أن نحمل على شعراء انصرف عنهم زمانهم في جد هم ، فانصرفوا عنه في لهوهم . ولما كان الشعراء اتخذوا اللهو وأوقاته مطية إلى مناجاة الفن ووسيلة

إلى محرابه . لقد عمدوا إلى قطع الفراغ بأبيات من الشعر ينظمونها ، أو مقطوعات ، أو قصائد مطولة ، يضمونها سائحة سنحت لخواطرهم ، أو هاتفة أهابت بنفوسهم ، أو شاردة عبرت فأمسكتها مخيلتهم ، من فكرة جميلة ، أو وصفة مبتكرة ، أو صورة ساحرة ، أو تشبيهة طريفة ، أو تورية لطيفة أو غير ذلك . وكانت هي بعد ذلك ، دليل على ما يتسلون به في أوقات فراغهم الكثيرة .

ولا حرج على المواهب إذا هي تنفست في فراغها فعبثت أو جدت ، والتست بينها وبين نفسها في خلوتها حرية كاملة وطلاقة . ما دامت لا تجد مراحتها الطبيعية ميسرة ، وميادينها الضرورية متاحة . ولعل ما تجود به الخواطر حينذاك لا يعوزه الصدق ولا حرارة الإيمان . وهو هو في صدقه وحرارته رجع البيئة ووليد ظروف المجتمع وإن كان أدل على النفس وعاطفتها .

لقد سار شعراء العصر على هذا الدرب . وفي غضون تسلياتهم وتلهمهم ، تفككوا وداعبوا وماجنوا وتشاكوا ، وتغزلوا وطارحوا ، وساءلوا ، وحاجوا ولاغزوا ، إلى غير ذلك من ألوان العبث البديع الذي أثرى الشعر من ورائه ثروة كبيرة . مما سنعرض عليك بعض آثاره ، في سطور تالية .

وتمسكوا في فراغهم وتسليتهم أن يكونوا أكثر امتزاجاً بديئتهم وأشياءها . وبذلك صاروا أكثر خبرة بها وتجربة لها ، سواء في ذلك جليلها وحفيرها ، بديعها ووديعة ، نابهة ونافهة . فوصفوا هذا وذاك وصفافيه لطف وطرافة .

وقد حدث شهاب بن فضل الله العمري قال عن دير « بلوزان » :

« سررت عليه . ونزلت إليه . ورأيت به غلاما يفوق الظبي حسنا . ويشبه البدر أو أسنى . بخصر نحيل . وطرف كحيل . قد قطع الزنار بين خصره وردفه . ونفت السحر بين جفنه وطرفه . ثم ما كان بأعجل مما استتر بدره . ولاح ثم خفي فجره . فقلت فيه :

حبذا الدير من بلوذان دارا أى دير به وأى نصارى
 فيهم كل أحور الطرف أحوى فائق الحسن فى حياء العذارى
 وغلام رأيت ككهلل ما بدا للعيون حتى توارى
 بقوام إذا تمایل نشوا نافألحاظ مقلتيه سكارى
 ناكل العقد حل عقد اصطبارى عندما شد خصره الزنارا
 قبل رؤياه ما رأيت غزالا بات يسقى من مرشفيه العقارا^(١)

هذه أبيات عذبة وهذا تشبيب رقيق . وصورة من صور الحياة فى العصر .
 وثمره من ثمار وقت الفراغ . ومظهر من مظاهر ضعف الوازع الدينى
 والانجلال الخلقى الذى تفشى نتيجة لإباحة الرقيق واستخدام الغلمان وغير
 الغلمان . .

وقد حدث أيضا شهاب الدين بن فضل الله العمري فقال فى سياق حديثه
 عن دير « شعران » .

« حكى أن السراج الوراق مر على « دير شعران » فى حدود طرا من
 ضواحي القاهرة . فنزل به فرأى به جماعة من أودائه على راح تقدح لهم أقداحها .
 وتمدى إليهم أفرأحها . وكان السراج قد طفئت فتيلته من شعلة ذلك اللهب .
 ونكرت قافيته ذاك الذهب . فأناه بها الساقى فردها وواصلته فى الكأس
 فصدها . هذا حين نكس الكبر سعدته . وأنفد العمر مدته . وذكر بجلسائها
 فقد إخوانه . وذهاب زمانه . فلامه من حضر إذ صد عن الكأس . وقال أمالك
 أسوة بهؤلاء الجلاس ؟ فقال :

عجب الساقى لردى القدحا ولأمر فى التصابي قدحا
 وأنانا بحميا كأسه حيث جئنا دير شعران ضحا
 قلت : يا قرة عيني ربما غص طرف بعد ما قد طمحا

لم أكن أول ولهان سلا لا ولا أول نشوان صحا
أشرب الراح أرجى فرحا فيتبج الحظ منها ترحا
سوء حظى لورمى الصبح دجا أو رمى ليل عذار وضحا
وخمول منطق بالشتم لى من أرى دهرى له ممتدحا
زاد فى سبى إلى أن خلمته شهد الله به قد سبحا
أنا ما ذنبى لحي الله امرأ لام فى التوبة مثلى ولحي
يانديى أنت للراح فدعنى أنزع الدمع إلى أن أنزحا
هى أوقات وكل آخذ من صفها أرقانه ما سمحا (١)

هذه قطعة شعرية جزلة رقيقة عذبة جيدة من نفثات الوراق . بل هى حكاية
نفس وقصة حياة ورجوع مشاعر . وهى طريقة من طرف أوقات الفراغ
والتسلية والشيخوخة وماتدفع إليه أحيانا من زهادة .

وأثار الشعراء فيما بينهم ثائرة المنافسات الأدبية ، فكانت حافزا آخر من
حوافز شاعرينهم ودافعا من دوافع إقبالهم على نظم الشعر ومزاولة الفن . لقد
اتخذتها الشعاعرية ، فيما اتخذته ، إحدى وسائلها إلى الحياة والعمل .

والمنافسة عامل ضرورى لقيام أى عمل ، حتى الأعمال الفنية . ومن حسن
الحظ أن اتسع أفق المنافسات الأدبية فى عصر المماليك ، بدافع من الحوافز
الأخرى . فقد كان كثير من الشعراء متواصلين تربط بينهم المودة ، فتراسلوا
بالأشعار ووصفوا فيها العواطف والمشاعر والشوق والحنين ، ووصفوا
الآمال . وقد تقع بينهم الجفوة فيتبادلون العتاب والملاحاة ويعجلون إلى الشكاية
أو المشاكاة .

ويطرقون فى خلال مراسلاتهم صنوفا من الأغراض وأشتاتا من

الموضوعات ، ويعمدون إلى الإجادة ويحاولون الابتكار تنبيها على مقدرتهم وتنويرها بشاعريتهم . فتمت بذلك بينهم روح المباراة والمنافسة ، سواء منهم المرسل أو المرسل إليه ، لأنه بدوره يرد ويحاول في رده محاوله زميله في رسالته . ومن هنا حظيت المعارضة والمطارحة والمساءلة والملاغزة والمحاكاة والمداعبة والمماجنة ونحوها ، بنصيب وافر من عناية الشعراء وإجادتهم وإكثارهم .

وبنساق بعضهم في خلال إخوانيته ، إلى وصف حالة ، أو تسجيل حادثة ، أو مقارضة ثناء ، أو نحو ذلك . ويبالغ في الوصف ويغلو في المدح حتى يظفر بنصيب مماثل - على الأقل - من زميله في الرد .

وكان ولوعهم بالبديع وصناعته تكأة كبيرة ، أذكت بينهم عوامل المنافسة الأدبية ومحاولة الإجادة . وكان الحال أنه ما من خاطر من خواطرهم يقع على معنى أو فكرة أو تشبيه أو كلمة تصلح أن تسبك في قالب من قوالبه حتى يتسابق بل حتى يتوالب إليها كثير من الشعراء ، ويتلففوها في لفة وعجلة ، وينظموها في أبيات أو مقطوعة .

وقد ينساق بعضهم بحكم هذه المنافسة والرغبة الجارحة في السبق والإجادة ، إلى الوقوع في السرقة . فيسرق اللفظ والمعنى ، أو أحدهما أو بعضهما ، ويزيد عليه أو ينقص منه ، ويحسن فيه أو يشوهه وسنحدثك في مناسبة قادمة عن بعض هذه السرقات .

وقد لحمت - ولاشك - ألوانا ووقائع من هذه المنافسات ونتائجها فيما مر .

ومن المنافسات ما وقع بين ابن نباتة ومن عارضه في بعض قصائده . وما جرى بينه وبين الحلبي من مباحة .

واشتدت المنافسة بين ابن نباتة ومعاصره وصديقه صلاح الدين الصفدى . وسطا الصفدى على كثير من أبيات ابن نباتة حتى ضج ابن نباتة وألف في ذلك

كتابه خبز الشعير ، لأنه مأكول مذموم . أفصح فيه عن سرقات الصفدى منه .
فلما وقعت الجفوة بين الأديبين الكبيرين بسبب المنافسة فى الصناعة ، عاتب
الصفدى صديقه ابن نباتة عتاباً مرأ . فنظم إليه قصيدة ضمنها أعجاز معلقة
امرى القيس ، فأخرج هذه الأعجاز - فى لباقة وكياسة - من طريقها فى المعلقة إلى
طريقها فى المعاتبة . وهذا الإخراج أحد فنون الشعر .

ومن قصيدة الصفدى قوله :

أفى كل يوم منك عتب يسوءنى بجلود صخر حطه السيل من عل
وترمى على طول المدى متجنياً بسهميك فى أعشار قلب مقتل
فأمسى بليل طال جنح ظلامه على بأنواع الهموم ليلتلى
وأعدو كأن القلب من وقدة الجوى إذا جاش فيه حميه على مرجل .. إلخ
وقد رد عليه ابن نباتة عتاباً رقيقاً ، فى قصيدة من الوزن والروى والتضمن ،
فقال :

فطمت ولائى ثم أقبلت عاتبا أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل
بروحى ألفاظ تعرض عتبها تعرض أثناء الوشاح المفصل
فأحييت ودا كان كالرسم عافيا بسقط اللوى بين الدخول فحول
تعفى رياح العذر منك رقومه لما نسجتها من جنوب وشمال .. إلخ (١)

ومن المنافسات ما نظمه شعراء مصر فى عهد الأشرف الغورى ، ردا على
بقي الشاه إسماعيل الصفوى اللذين أرسلهما تهديدا لمصر فتنافسا فى الرد عليهما ،
وتبارى فى ذلك نحو مائتى شاعر . وسنحدثك قريباً عن هذه الواقعة .
وفى عهد الملك المؤيد شيخ تمت عمارة مسجده المشهور بالقاهرة . وكان الناظر

عليها بهاء الدين بن البرجى . واتفق بعد بنائها بسنة واحدة أن مالت مئذنتها التي كانت على البرج الشمالى لباب زويلة فتبارى الشعراء فى تسجيل هذه الحادثة ، وفى تعليلها ، وفى التفكه بها .

فقال تقي الدين بن حجة الخوى مع جناس التورية ، وفيه إشارة إلى الناظر بهاء الدين بن البرجى .

على البرج من بابى زويلة أنشئت منارة بيت الله للعمل المنجى
فأخنى بها البرج اللعين أمالها ألاصر حوايا قوم باللعن للبرج دجى ،
وقال شهاب الدين بن حجر العسقلانى ، مع جناس التورية أيضاً ، وفيه إشارة إلى بدر الدين العيني :

لجامع مولانا المؤيد رونق منارته بالحسن تزهو وبالزین
تقول وقد مالت عن القصد أمهلوا فليس على جسمى أضر من العين والعينى ،
فقال بدر الدين العيني ، وفيه إشارة إلى ابن حجر . .

منارة كعروس الحسن إذ جلبت وهدمها بقضاء الله والقدر
قالوا أصيبت بعين قلت ذا غلط ما أوجب الهدم إلا خسة الحجر (١)

ووقعت الخواطر وتزاحمت الشعراء على وصف الروضة ودولابها ، لإجادة التورية فى « ضاع » و « دار » . . .

فقال مجير الدين بن تميم .

أيا حسنهما من روضة ضاع نشرها فنادت عليه فى الرياض طيور
ودلابها كادت تعد ضلوعه لكثرة ما يسكى بها ويدور
وقال بدر الدين بن لؤلؤ الذهبى .

(١) القصة والآيات فى بدائع ابن إياس ج ٢ ص ٧٤ بولاق - وحسن المحاضرة للببوى

وروضة دولابها إلى الغصون قد شكاً
من حين ضاع نشرها دار عليها وبكى

وقال جمال الدين بن نباتة المصري :

وناعورة قسمت حسننا على واصف وعلى سامع
وقد ضاع نشر الربا فاغتدت تدور وتبكي على الضائع^(١)
وسيرد عليك فيما يلي ، وعند الحديث عن طبقات الشعراء وكثرتهم ، أمثلة
أخرى لمنافساتهم .

وبعد فهذه عدة حوافر هيأتها البيئة الاجتماعية بسياقها ومنطقها ، لمواهب
الشعراء فتعلقت بها وتشبثت . واتخذت منها وسائل ودعائم تعيش عليها وتنض
وتنشط . إلى جانب ما هيأته لها البيئة الثقافية وغيرها ، مما سبقتنا إشارتنا إليه .
ونعود إلى التنبيه على أن ألوان البيئة كلها متعاونة متضافرة دائماً على توجيه
الموهبة الشعرية ، ولا نستطيع بالضبط أن نحكم بأن اتجاهها معيناً تتجه هذه
الموهبة ، ونتاجاً معيناً تنتج ، هو وليد لون معين من ألوان البيئة دون سواه .
إلا أن بعض الاتجاهات وضروب النتاج ، تبرز فيه آثار بيئة معينة ، أحياناً ،
أكثر من بروز آثار بيئة أخرى .

وفي الفصول السابقة جميعاً رأيت لنا بلاريب ، جهود كثير من شعراء
العصر . مما يثبت لنا أيضاً سعة يقظتهم الفكرية والنفسية ، وضخامة نتاجهم في
نواحي الشعر وفنونه . وسرعة استجابتهم لألوان البيئة في زمانهم ، حتى إنه
لا يعيب الباحث - كما شهدنا في هذا البحث - عن أن أن يلتبس هذه البيئات في
نتاجهم .

(١) كشف اللثام لابن حجة الحموي .

وأعتقد أنه قد آن الأوان الآن في هذا البحث ، لننوه في إنجاز عن هؤلاء الشعراء الذين دللوا بوضوح على شاعرية مصر ، وعلى أن أرضها الطيبة مستعدة دائماً لأن تلد الشعراء . وأن تلد منهم عدداً كبيراً ، وأن توحى إلى كثير منهم من قوة الفن وصفاء النفس ويقظة الفكر وحسن البيان ، ما يخلد مآثرها ويسجل حوادثها ويكون مرآة لحياة أهلها .

كثرة الشعراء وطبقاتهم :

أجل ، لا أدل على طيب أرض مصر العربية ، وقوة خصبها وجمال مانوحى به إلى أبنائها ، فتمتز به مشاعرهم ، وتفيض به خواطرهم ، وتلهج به ألسنتهم ، من هذه الكثرة من شعرائها في عصر المماليك - بالرغم مما عانوه من المعوقات والمضطبات - ومن كثرة ما أنتجوه في مجالاتهم الفنية ، وما نوعوه في اتجاهاتهم الشعرية .

وإنك لتجد في كل جيل من أجيالهم جمهرة كبيرة منهم تلاحق كل طبقة منها ما يليها ، في تواصل مستمر وتواصل دائم . حتى لينخيل إليك أن البلاد رياض هم عنادها ، وبسانين هم أطيارها وبلا بلها . لا يفتنون يغردون بما تهمس به في خواطرهم من أغان ومن أهازيج وألحان ، بقيت وستبقى على تتابع الأزمان وتقلب الحداث .

انظر إلى عهد الناصر محمد بن قلاوون - مثلاً - وأحص عدد من عاش فيه أو أدركه من الشعراء - وقد امتد عصر الناصر من سنة ٦٩٣ هـ إلى سنة ٧٤١ هـ - تجد منهم عشرات . من بينهم النابه المجيد ، والبارع المبتكر المجدد ، وفيهم المنتج المكثار . ومن هؤلاء في مصر والشام :

تاج الدين الأرمنى . زين الدين بن الرعاد . جلال الدين الإسناى . القيسرانى . .
عبد العزيز بن محمد . . ابن دانيال الموصلى . نصير الدين الحماني . شمس الدين بن

العفيف . علاء الدين الوداعي . قطنبه . ابن هبة الله الاصفهاني السهمودي .
شمس الدين بن الصائغ . المازني الدهان . بدر الدين بن جماعة . شمس الدين بن
المشد . بدر الدين الدمشقي . مجير الدين بن الخياط . القيسراني . إسماعيل بن محمد .
شرف الدين البارزي . العسكوك المصري . زين الدين بن الوردى . صفى الدين
الحلى : أبو بكر بن اللبانة . وبدر الدين الغزى الزغارى . جمال الدين السبكى :
صلاح الدين الصفدى . جمال الدين بن نباتة المصرى .

وذكر تقي الدين بن حجة الحموى شعراء مصر والشام الذين أجادوا التورية-
والتورية اتجاه أسلوبى وليد الحياة الاجتماعية — بعد القاضي الفاضل وابن سناء
الملك المصرى . فأورد منهم من شعراء العصر المملوكى إلى عهده :

الوراق . والجزار . والنصير الحماسى . وابن النقيب . وابن دانيال . وابن
عبد الظاهر . وشرف الدين الأنصارى . ومجير الدين بن تميم . وبدر الدين
الذهبي . ومحيى الدين بن قرناص . وشمس الدين بن العفيف . وسيف الدين بن
المشد . وعلاء الدين الوداعي .

وبعد أن أورد ابن حجة طوائف عدة من توريات ابن نباتة ، قال :
« انتهى ما وقع عليه الاختيار ووعدت بإيراده من غرائب الشيخ جمال
الدين بن نباتة وبدائع في باب التورية ، على اختلاف أنواعها .

وقد تقدم قولى إن الراية الفاضلية هو عرابة مجدها وواسطة عقدها وقائد
زمامها ومسك ختامها . وقدمت أيضا من مشى تحت الراية الفاضلية من ابن سناء
الملك إلى الوداعي .

ولما رفع العلم النباق كانت هذه الفرقة التى مشى تحت هذا العلم أكثر عدداً
وأشهر ذكراً ، وأعلى رتبة ونظماً ونثراً .

وقد عن لى أن أذكر هنا لسكل من عاصره ومشى تحت علمه النباق وتحلى

بنسكته الأدبية نبذة من مختار مقاطعيه التي حلاوتها في الأصل نباتية ، ليظهر صدق قولي في تفضيل الصحابة المحمدية .

وأشرع بعد ذلك في إيراد نبذة من نظم التابعين لهم بإحسان ، وأدير هذا الكأس بحيث يتسلسل دوره إلى أهل هذا العصر والأوان .

والعصاة التي مشيت تحت العلم النبائي وتحلت بقطر نباته هم :

الشيخ صلاح الدين الصفدى . والشيخ زين الدين بن الوردى ، والشيخ برهان الدين الفيرطى - ومذهبي أنه أقرب الناس إلى الشيخ جمال الدين نظما ونثرا - والشيخ شمس الدين بن الصائغ والشيخ بدر الدين بن الصاحب ، والشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة المغربي ، والشيخ إبراهيم المعمار ، والشيخ بدر الدين حسن الزغارى ، والشيخ يحيى الخباز الحموى ، والشيخ شهاب الدين الحاجبى .
وعمر أدركهم وعاصروهم المصنف - أى ابن حجة - وكتبوا إليه وكتب إليهم ، وأنشده وأنشدوهم من أهل مصر والشام

الشيخ زين الدين العجمى عين كتاب الإنشاء الشريف بالديار المصرية ، والقاضى فتح الدين بن الشهيد صاحب دواوين الإنشاء الشريف بدمشق المحروسة وناظم السيرة النبوية . نور الله ضريحه . والشيخ عز الدين الموصلى . والشيخ علاء الدين بن أيبك الدمشقى . والشيخ جلال الدين بن خطيب داريا ، والشيخ شمس الدين الرئيس الشهير بابن المزين ، والشيخ نحر الدين بن مكاس وولده الجناب المخدومى المجدى . وسيدى أبو الفضل بن أبى الوفاء - قدس الله روحه . ولاكن ما رأيته . الشيخ شرف الدين عيسى الشهير بعويس . والشيخ شهاب الدين بن العطار ، ولاكن ما حضرته ، والشيخ جمال الدين ولاكن ما رأيته ، وصاحبنا الشيخ شهاب الدين المتنبى المصرى .

والفرقة التي أطال الله بقاءها وأمست قواعد الأدب بها قائمة . وختمت

هم هذه الطريقة البديعية وأخلصوا في العمل ففازوا في الحالتين بحسن الخاتمة وهم :

القاضي بدر الدين بن الدماميني المالكي الخزومي - فسح الله في أجله - والشيخ الإمام الحافظ العلامة شهاب الدين بن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى والشيخ بدر الدين البشتكي رحمه الله تعالى ، (١) .

ثم روى ابن حجة أبياناً لكل شاعر عن ذكرهم هنا على سبيل التمثيل .
وهكذا سجل لنا ابن حجة الحموي - وهو المتوفى عام ٨٣٧هـ - طبقات من شعراء مصر والشام متتابعة ، من لدن القاضي الفاضل حتى زمانه .
والذي يهمنا في هذا المقام من سجلهم من طبقات الشعراء في عصر الماليك .
وقد ذكر منهم من تقدم على جمال الدين بن نباتة . ثم من عاصره ، ثم من جاء بعده في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري ، ثم من عاصرهم ابن حجة نفسه . فهذه أربع طبقات .

وننبه إلى أنه عني بذكر شعراء التورية فحسب ، لاجميع الشعراء . أما جميع الشعراء فهم أوسع عدداً عن ذكر - ولا ريب - على أنه عني بذكر المشاهير دون المناكير ، فضلاً عن يلمو عنهم ويسمو عن ذكرهم ، فضلاً عن قد لا يصل خبرهم إليه .

ولا ندرى أي عدد كان يسجله ابن حجة ، ونظفر به منه ، لو أنه لم يتقيد بشعراء التورية ، وسجل أسماء الشعراء في كل فن من فنون الشعر ، وجادته ذاكرته وتهاوت إليه الأخبار بأسمائهم جميعاً .

على أن فيمن ذكرهم مقنعا لنا بما ذهبنا إليه ، وهي أن بلادنا هذه استطاعت في عصر ركبت فيه دواعي الاشتغال بالأدب والشعر ، أن تنجب وتلد عدداً

(١) راجع خزانة الأدب باب التورية .

كبيراً من هؤلاء الأبناء الفضلاء الذين خلدوا بنتاجهم أنباء إنجائها ومجاداته .

وإليك شاهداً آخر على صدق ما نقول ، وهو مارواه ابن إياس في تاريخه ،
قال مانصه :

« كان بالقاهرة سبعة من الشعراء اجتمعوا في عصر واحد ، وكل واحد يدعى
بشهاب فكان يقال : « السبعة الشهب » . وهم : الشهاب بن حجر رحمة الله عليه .
والشهاب بن الشاب التائب . والشهاب بن أبي السعود . والشهاب بن مبارك شاه
الدمشقي . والشهاب بن صالح والشهاب الحجازي . والشهاب المنصوري .

فلما مات الستة رثاهم الشهاب المنصوري بهذه الأبيات :

خلت سماء المعاني من سنا الشهب فالآن أظلم أفق الشعر والأدب
تقطب العيش وجهاً بعد رحلة من تجانبوا بالمعاني مركز القطب
تعطلت خرد الأيام من درر كانت تحلى بها منهم ومن ذهب
لو تعلم الأرض ماذا ضمنت بطرت بهم كما يطر الإنسان بالنسب
ولو درى المسك أن الأرض قبرهم لود نشقة عرف من شذا الترب ،^(١)
أقول : ومن هؤلاء من أدرك عصر الأشرف قايتباي ، وقد كانوا في القاهرة ،
جمعهم سماؤها كما جمعهم لقبهم . وإذن فيكم كان في القاهرة من الشعراء غيرهم ممن
لا يدعى « شهاب الدين » . ثم كم كان غيرهم في غير القاهرة .

على أن ابن إياس يقدم إلينا دليلاً آخر ومثلاً جديداً قوى الحجة بارز
البرهان . إذ يقول في مناسبة أخرى ما يجمله : - وكان ذلك في عهد الأشرف
قائمه الغوري :

(١) بدائع الزهور ج ٢ ص ١٢٦ ط بولاق .

« إن إسماعيل شاه بن حيدر الصوفي ، لما تمكن أمره في بلاد فارس والعراق ، وقتل ملك التتار أوزبك خان . أرسل إلى مصر بيتين من الشعر يهددها بهما وهما :

السيف والخنجر ربحاننا أف على النرجس والآس
مدامنا من دم أعدائنا وكأسنا جمجمة الراس

فتبارى شعراء مصر في الرد على هذين البيتين من البحر والروى . وتسابق في ذلك نحو مائتين من الشعراء .

وقد ذكر ابن إياس بعض هؤلاء الشعراء . ومنهم : ابن إياس . والسلموني ، ومحمد بن قانصوه . والأشثوني ، وابن الحجار ، والشربيني ، وعلى الغزى ، وابن العاقل ، والشریف العباسي ، وشهاب الدين البحيري المالكي ، وناصر الدين بن الطحان . وموسى بن بسماطة ، ونور الدين بن حشيش ، ومحمود الحليلي . وسجل ابن إياس شيئاً مما رد به الشعراء على بيتي الشاه إسماعيل :

فقال الأشثوني :

يراعنا الرمح وفرطاً سنا صدر عدو منكر الباس
مدادنا من دمه خطنا تاريخ طعن مذكر الناسي

وقال ابن الحجار :

يا قاتلاً أف على نرجس أف على الباغى على الناس
فإن خير الناس من لا يرى شرب دم المسلم في الكاس

وقال الناصري محمد بن قانصوه :

العدل والحلم لناحلة حيكت مع القوة والباس
وسنة المختار طرز لها وذكرنا تاج على الرأس (١)

(١) بدائع الزهور ج ٥ حوادث ربيع الأول عام ٩١٧ هـ .

وعلى هذا النمط كانت ردود الشعراء . لقد هبوا يذردون عن مصر ،
ويدفعون عدوها بسلاح أمضى من سلاحه ، ويذكرونه بمفاخرها وقوتها وبأسها .
ويتنافسون في أداء هذا الواجب تنافسا قويا .

وشاهدنا هو هذه الكثرة النشيطة من الشعراء ، الذين ظهروا في مناسبة
واحدة . فبلغ عددهم مائتين .

وقد كانت السلطنة المصرية — كما ذكرنا آنفا — ممتدة الرقعة واسعة النطاق
تشمل البلاد المصرية والشامية والحلبية والحجازية . وكان الاختلاط بل الامتزاج
مستديما ومطردا بين أهل مصر والشام . وكانت الصداقات وشتى العلاقات من
إخوانية وغيرها تربط بين شعراء مصر والشام . وكانت رحلات العلماء والأدباء
والشعراء لا تنقطع بين البلدين ، وكان من النادر أن ترى أحد هؤلاء الأعلام من
بلد منهما ، لارحلة له إلى البلد الآخر . ولهذا يندر أو يصعب عليك أن تميز في هذه
الحقبة بالذات ، شعراء مصر من شعراء الشام ، وهذا جمال الدين بن نباتة
شاعر مصر يمم الشام وحماة زمنا وأقام فيهما ، وهذا تقي الدين بن حجة الجوى
شاعر حماة وأديبها يمم شطر مصر وأقام بها ردحا . وهكذا دواليك . واعتقادنا
أن شعراء الشام حينذاك أفادوا من أدب مصر وثقافتها وكان لذلك أثر في شعرهم ،
في الجملة ، كما تبين من حديث ابن حجة عن شعراء التورية .

ونستطيع بعد ذلك ، القول إن هذا العصر شهد عددا من شعراء مصر
والشام ، ضخما ، ويتألف من كل طائفة متعاصرة منهم في جيل واحد ، رجال
حلبة واحدة . وماتكاد تنقضى حلبة برجالها حتى تترأى حلبة أخرى .

وتتبع الحلبة منها الحلبة ، دون أن تمر بين الحلبتين فترة ركود أو برهة خمود .
ويكاد يكون لكل واحدة منها زعمائها ومقدموها ، بل وأميرها الذى يدينون
له بالإمارة . .

ويشهد لذلك ما قاله شهاب الدين بن حجر العسقلاني الإمام الحافظ والأديب الذواقة الشاعر ، لما حكمه تقي الدين بن حجة الحموي في قصائد ثمانية ثلاث من قصائد المعارضات ، أولاها لابن نباتة المصري ، وثانيها لبرهان الدين القيرواني ، وثالثها لتقي الدين بن حجة نفسه - وقد نوهنا بذلك في مناسبة سابقة .

وقد حكم ابن حجر بينها جميعا ، وقال في عداد حكمه مانصه عن أصحاب القصائد الثلاث :

« إن كلا من الثلاثة رأس الفن في زمانه ، ولا يوازنه أحد من أقرانه ، (١) »

والواقع أن العصر المملوكي - بين مصر والشام - شهد ست حلقات من الشعراء متعاقبة ، تتصل إحداها بالأخرى . وذلك على أساس احتساب حلبة واحدة لكل نصف قرن .

ونستطيع ترتيبها على وجه التقريب ، كما يلي ، ذاكرين بعض رجال كل حلبة منها على سبيل التمثيل ، لا الحصر :

الحلبة الأولى :

وهي الحلبة المخضمة التي شهد كثير من رجالها عهد الأيوبيين وأوائل عصر المماليك . ويعتبر محي الدين بن عبد الظاهر (٦٩٢ هـ ، رأسها . ومن رجالها ، بين مصر والشام :

سيف الدين المشد (٦٥٥ هـ . عبد العزيز الأنصاري (٦٦١ هـ .
أبو الحسين الجزار المصري (٦٧٩ هـ . (٢) بدر الدين يوسف الذهبي (٦٨٠ هـ .
محير الدين بن تميم (٦٨١ هـ . محي الدين بن قرناص الحموي (٦٨٥ هـ ، الشاب
الظريف (٦٨٨ هـ . ظهير الدين البارزي (٦٨٨ هـ . ناصر الدين بن النقيب

(١) تأهيل الفريب وخزانة الأدب .

(٢) ذكر ابن حجة في كتابه « كشف اللثام » أن وفاة أبي الحسين الجزار كانت عام ٦٧٢ هـ .

٦٨٧ هـ . معين الدين بن لؤلؤ الفهرى المصرى ٦٨٥ هـ . أبو جلتك الحلبي
٦٩٢ هـ . تقي الدين السروجي ٦٩٣ هـ . سراج الدين الوراق ٦٩٥ هـ .
شرف الدين البوصيري ٦٩٥ هـ . مجد الدين الإربلي ٦٩٧ هـ .

الحلبة الثانية :

وهي التي عاش أكثر رجالها في النصف الأول من القرن الثامن الهجري ،
أو أدركوه ، أو قضوا فيه أطيب أيام حياتهم : ويعتبر جمال الدين بن نباتة
المصرى ٧٦٨ هـ . وصفي الدين الحلبي ٧٥٠ هـ ، زعيمى هذه الحلبة . ومن
رجالها :

صدر الدين بن الوكيل ٧٠٥ هـ . (١) شمس الدين بن أدانيال الموصلى
٧١٠ هـ . نصير الدين الحمادى ٧١٤ هـ . شمس الدين محمد بن العفيف ٧١٥ هـ .
علاء الدين الوداعى ٧١٦ هـ . شهاب الدين أبو الشفاء محمود الحلبي ٧٢٥ هـ .
مجد الدين بن الخياط ٧٣٥ هـ . شمس الدين الواعظ الواسطى ٧٤٤ هـ .
فتح الدين بن سيد الناس البعمرى ٧٤٠ هـ . أبو حيان النحوى ٧٤٥ هـ .
جمال الدين بن غانم ٧٤٤ هـ . شهاب الدين بن فضل الله البعمرى ٧٤٨ هـ .
زين الدين بن الوردى ٧٤٩ هـ . إبراهيم المعمار ٧٤٩ هـ . أبو بكر بن اللبانة
٧٥٢ هـ . بدر الدين الزغارى ٧٥٣ هـ . صلاح الدين الصفدى ٧٦٤ هـ .
نور الدين الإسعردى ٧٦٦ هـ .

وهذه الحلبة هي التي شهد رجالها عصر الناصر محمد بن قلاوون ، وقد سبقت
الإشارة إليهما . وتعتبر أملاً حلبات عصر المماليك بالرجال ورجالها أجد رجال
الحلبات في جملتهم ، كثرة نتاج وجودة إخراج وتنوع افتتان ، وتعدد ألوان .
وحسبك أن من بينهم ابن نباتة ، والصفى الحلبي ، وابن الوردى ، وابن فضل الله
البعمرى ، والصلاح الصفدى ، والشهاب الحلبي ، والعلاء الوداعى .

(١) ذكره ابن شاكر في فوات الوفيات ، وحدد وفاته بعام ٧١٦ هـ . ويقال له أيضا « ابن المرحل » .

الحلبة الثالثة :

هى التى ظهر أكثر رجالها فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى وهى وثيقة الاتصال بسابقتها ويعتبر برهان الدين القيراطى (٥٧٨١هـ ، علم هذه الحلبة . ومن رجالها :

بهاء الدين أبو حامد السبكى (٥٧٧٣هـ ، شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى (٥٧٧٦هـ . نور الدين على بن سعيد المغربى (٥٧٧٨هـ ، بدر الدين بن حبيب الحلبي (٥٧٧٩هـ . أحمد سميكة (٥٧٨٢هـ . بدر الدين بن الصاحب (٥٧٨٨هـ . عز الدين الموصلى (٥٧٨٩هـ . نخر الدين بن مكائس (٥٧٩٤هـ . شمس الدين بن الصائغ (٥٧٩١هـ . شهاب الدين بن العطار (٥٧٩٤هـ . إبراهيم المعمار (٥٧٨١هـ)^(١) .

ومن رجال هذه الحلبة : زين الدين الحلبي ، ويحيى الخباز الحموى ، وشهاب الدين الحاجي .

الحلبة الرابعة :

هى التى ظهر أكثر رجالها فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى . وهى آخذة عن سابقتها ووثيقة الصلة بها أيضا . ويعتبر تقي الدين بن حجة الحموى (٨٣٧هـ ، رأس هذه الحلبة . ومن رجالها :

شهاب الدين الأوحدي (٨١١هـ . ابن خطيب داريا (٨١٣هـ . شهاب الدين الباعونى (٨١٦هـ . برهان الدين القرشى المعروف بابن زقاعة (٨١٦هـ . شهاب الدين السكاسى (٨٢٥هـ ، الأثارى (٨٢٨هـ . غرس الدين خليل القاهرى (٨٤٣هـ . ابن الخراط (٨٤٠هـ ، شهاب الدين بن بكتامر (٨٤١هـ . برهان الدين الهنسى (٨٤٦هـ . شمس الدين بن كميل (٨٤٧هـ . شمس الدين النواجي (٨٥٩هـ ، شهاب الدين بن حجر العسقلانى (٨٥٢هـ .

(١) هذا على رأى من يؤرخ وفاته بعام ٧٨١هـ

ومنهازين الدين العجمي . فتح الدين بن شهيد . علاء الدين بن أيك .
شمس الدين بن المزين . مجد الدين بن مكانس . بدر الدين الدمامني . بدر الدين
البشتكي . أبو الفضل بن أبي الوفاء . شرف الدين عيسى الشهير بعويس .
شمس الدين المتنبى المصرى .

الحلبة الخامسة :

هى التى ظهر أكثر رجالها فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى . وهى
كذلك شديدة الاتصال بالحلبة السابقة . ويعتبر الشهاب الحجازى د ٨٧٥ هـ ،
والشهاب المنصورى د ٨٨٧ هـ ، أبرز رجالها ومنهم :
الشهاب بن الشهاب التائب د ٨٦١ هـ ، الشهاب بن صالح د ٨٦٣ هـ ، الشهاب بن
أبى السعود د ٨٧٠ هـ . برهان الدين الباعونى د ٨٧٠ هـ . غرس الدين خليل بن
شاهين د ٨٧٣ هـ ، شهاب الدين الميقاتى د ٨٩٧ هـ .

الحلبة السادسة :

وهى التى عاش رجالها فى أواخر العصر وماتوا بعد عام ٩٠٠ هـ ، وشهد عدد
منهم عصر الأشرف الغورى والغزو العثمانى ، ومن رجالها :
شمس الدين القادرى د ٩٠٣ هـ . بدر الدين بن جمعة د ٩١٤ هـ . عبد القادر
الدماصى د ٩١٥ هـ . أبو النجاة القمى د ٩١٦ هـ . علاء الدين بن مليك الجوى
د ٩١٧ هـ . بدر الدين الزيتونى قيم الزجل د ٩٢٤ هـ . ومنهم : جمال الدين
السلهونى . الناصرى محمد بن قونصوه بن صادق . ابن إياس الحنفى المؤرخ (١) .

(١) تراجع تراجع هؤلاء الشعراء فى كتب تراجم الأعلام مثل : الطالع السعيد ثم الدرر الكامنة
ثم الضوء اللامع ثم بدائع الزهور ، تابعا بحسب أجيالهم : هذا فضلا عن الواقى بالوفيات وعقد الجانات
والمنهل الصافى .

نتاج هؤلاء الشعراء :

أما نتاج هؤلاء الشعراء فنقول إن لبعضهم دواوين موجودة ما بين مخطوطة ومطبوعة ، ومنهم ابن حجر العسقلاني . والصفى الحلي ، وانجل بن نباتة ، والبرهان القيراطي ، والفخر بن مكانس ، والتقي بن حجة الحموي ، والشهاب العطار ، وابن ملك الحموي .

ولكثير منهم أشعار منشورة في كتب الأدب ، وأغلب الظن أنها لم يجمعها جامع حتى اليوم . ومن هذه الكتب : تأهيل الغريب وخزانة الأدب لابن حجة الحموي ، وغيرهما من كتبه أيضاً . ومنها : تشنيف السمع في انسكاب الدمع ، و : ألحان السواجع في البادى والمراجع ، وهما لصلاح الدين الصفدى . ويحتوى و : ألحان السواجع ، وحده على أكثر من اثني عشر ألف بيت من نظم الصفدى وشعراء عصره .

ومن كتب الأدب كذلك : نهاية الأدب للنويرى ، وكتب التراجم مثل فوات الوفيات والوافى بالوفيات ، والمنهل الصافى ، والضوء اللامع . وكتب التاريخ العام مثل النجوم الزاهرة وسلوك المقرئى وبدائع الزهور لابن إياس . وغير ذلك من الكتب الأدبية والتاريخية .

وإذا راعينا ما أصاب كتب العلم والدين والأدب على يد العثمانيين ، غب الغزو وبعد الفتح طوال حكمهم ، سرقة ونهباً وتشقيتاً ، نشعر بأن هناك - ولابد - كثير من كتب الأدب والشعر ضاعت معالمها ونسيت محتوياتها وجهلت مضموناتنا . ولو علمت وكشف عنها ، لأمدت تاريخ الأدب بكثير من النصوص والمعلومات .

ونلاحظ ، ونحن نقرأ تراجم شعراء العصر ، أنباء نتاجهم الشعرى ، وأخبار دواوينهم ، مما يقطع بضخامة ما خلفوه منها ، دون أن نعتبر له على أثر .

وإليك مثلاً :

الشاعر يوسف بن سيف الدولة ، قال السيوطي عنه : وله فضل مشهور وشعر ماثور ، (١) .

والشاعر شهاب الدين العزازي ، قال السيوطي عنه : وله ديوان في مجلدين ، (٢) .

والشاعر برهان الدين الباعوني ، قال عنه السخاوي : إنه برع في الأدب نظماً ونثراً وتصنيفاً ، حتى صار شيخ الديار الشامية في الأدب بلا منازع . ، وقال أيضاً : : « وله ديوان خطب وديوان شعر ، وله كتاب الغيث الهاتن في وصف العذار الفاتن ، وفيه نحو ١٥٠ مقطوعة شعرية في وصف العذار ابتكر معانيها . (٣) »

والشاعر شهاب الدين الأوحدي ، قال عنه السخاوي : « ونظمه سائر وله ديوان شعر ، (٤) » .

وعن الشاعر غرس الدين خليل بن شاهين الشينخي الظاهري ، الذي كان مملوكاً للملك الأشرف برسباي : « إنه نظم الشعر وله فيه ديوان ، (٥) » .

والشاعر الآثاري ، روى عنه السخاوي أن له من المؤلفات ما يربو على الثلاثين . ومنها ديوان في النبويات اسمه « المنهل العذب » ، (٦) . وفي هذا التنويه ما يكفي في مقام التدليل على ضخامة هذا النتاج الشعري .

وبعد ، إننا في هذا الفصل تحدثنا عن بعض الحوافز التي ولدتها البيئة الاجتماعية ، وكان لها أثر كبير في توجيه الشعراء نحو نتاج شعري معين ، وفصلنا القول تفصيلاً مناسباً في هذا النتاج .

(٢،١) راجع حسن المحاضرة تحت عنوان الشعراء .

(٣،٤،٥،٦) راجع الضوء اللامع في تراجم هؤلاء الشعراء .

وليس وحده هو كل ما ولدته البيئة الاجتماعية . ولا كل ما استجاب لها به شعراؤها . فلنبحث الخطأ إذن للتفصيل والإفاضة حتى نعطي لكل ذى حق حقه . ولنتحدث فى أغراض شعرية أخرى هى وليدة المجتمع - كما سبقت إشارتنا إلى ذلك فى أكثر من مناسبة -

فن أغراض الشعر :

١ - المديح النبوى :

لا يزال المديح النبوى من لدن الرسول عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا ، يحتل ، باعتباره فنا من فنون الشعر ، مكاناً مرموقاً . لما الممدوح عليه الصلاة والسلام من منزلة عظيمة عندنا معشر المسلمين . ولما له من جليل الأثر فى تعليم الناس وتهذيب البشرية وتبليغ رسالات ربه .

وقد امتزج منذ مطلعته عند الأعشى بالمدح والمنافرة على طريقة الجاهليين ، وكذلك بالغزل والاعتذار عند كعب بن زهير . ولما تسلم حسان بن ثابت راية هذا الفن الجليل مدح الرسول عليه السلام مبهوراً بجلال دعوته ، مسحوراً بجمال رسالته وعظمة عمله . فدحه مدح المدافع المقدى ، والجندى المضحى فى سبيل قائده وفى سبيل عقيدته .

ثم أخذ هذا الفن بعد صدر الإسلام ، على يد الكهيت وغيره ، يتزج بالنزعة السياسية والاحتجاجات المذهبية ، واتخذوه وسيلة إلى نصره أوليائهم من أهل البيت وتسفيه أعدائهم .

وما زال هذا الفن حتى وافى العصر المملوكى . وقد رأينا كيف كانت النزعة الدينية به طاغية ، وكان لها آثارها الضخمة فى الحياة السياسية ، وكيف غدت العواطف الثقافية ، وكيف عاش المجتمع على دعامة قوية منها . وكيف كانت العناية بارزة ، بدراسة حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبروايته وشرحه .

أضف إلى ذلك حياة الشظف والضنك والحرمان والسكبت التي عاناها هذا الشعب العربي ، في مرتزقة ومعاشه ، ومن أداة حكمه التركية والجركسية ، مما يدعو بعض الناس ولا ريب - إلى اللياذ بالزهادة ، والجنوح إلى حالة من التصوف ، ونوع من التطرف الديني ، يجد فيه ملجأ وراحة وتفسيراً يخدع به نفسه عن حقيقة الحرمان ويبعدها عن آلامه .

تأثرت نزعات الشعراء بهذا كله ، واستجابوا - أو استجاب كثير من منهم - لذلك وكانت الاستجابة قوية وسريعة وبارزة وواسعة النطاق . وكان المديح النبوي ميداناً واسعاً لهذه الاستجابة ، وتلقف شرف الدين البوصيري « ٦٩٥ هـ ، هذا الفن ، فنظم فيه مدائحه المشهورة ، ولا سيما قصيدته « البردة » . فنقله نقلة واسعة المدى ، وخلصه من شوائب المنافرات والمفاخرات ، وشوائب السياسة والدعاية . جرده من ذلك ، ونحا به منحى جديداً وهو مزجه بالحب الخالص والوجد الصفو ، واللوعة القلبية الصادقة نحو الرسول عليه الصلاة والسلام . وأساس ذلك تقديس المحبوب إكباراً لعمله وإجلالاً لخلقته وتعظيمه لجمال نفسه ورحابة قلبه . ويتبع ذلك الشوق والحنين إليه وإلى دياره المباركة الشريفة ، ومعاهد رسالته ، وذكر معالم سيرته ، والتوود إليه والاستشفاع به لدى رب العالمين .

وقد ظل هذا النهج دستوراً قائماً حتى يومنا هذا . اتبعه - ولا يزال يتبعه - شعراء المديح النبوي . وما كان أكثرهم وأكثر نتائجهم في العصر المملوكي .

وما من جيل من أجيال الشعر - بعد البوصيري - إلا قد سعد بطائفة من الشعراء ، أبدعوا في هذا الفن ماشاء لهم الإبداع ، وأطالوا فيه ماشاء لهم طول أنفسهم ، وتباروا فيه مباراة الحريص على النصر والظفر ، وعارضوا فيه القدماء والمحدثين فيما نظموا فيه حتى صار هذا الفن بنتاج الشعراء فيه ، جديراً

بدراسة خاصة مستقلة فيها استيعاب وتفصيل وعمق ، يبين معاملته ويفصح عن اتجاهاته ومبتكراته ، معاني وصناعة . . (١)

ومن هؤلاء الشعراء من اتخذ قصيدة البردة وحدها — بحراً وقافية — نموذجاً له يحتذيه وينظم على نمطه . ويضمنه موارقه من ألوان البديع . ومن ثم تولد فن في الشعر جديد هو « البديعيات » الذي تحدثنا عنه في الفصل الخاص ، ان أثر البيئة الثقافية .

ومن شعراء المديح النبوى فى العصر المملوكى : الشاب الظريف . ومحيى الدين بن عبد الظاهر ، وتقى الدين بن دقيق القشيرى ، وزين الدين بن الوردى . والشهاب محمود الحلبي . وابن أبي حجلة المغربي . وتقى الدين بن بنت الأعز ، والفتح بين سيد الناس اليعمرى . وشمس الدين الباعونى ، وجمال الدين بن نباتة المصرى ، والبرهان القيراطى ، والنواجى ، وشهاب الدين بن حجر العسقلانى . وزين الدين بن الشحنة . والشهاب المنصورى . وعبد العزيز الدرينى والبهاء السبكى ، ونجم الدين الخضراوى ، وتاج الدين بن عربشاه . وصفي الدين الحلى . وعائشة الباعونية . وعز الدين الموصلى . والتقى بن حجة وغيرهم .

وبعض هؤلاء له أكثر من مدحة ، وبعضهم أطال فى مدائحه وأسهب . وبعضهم نظم فى المديح النبوى ديواناً بأكمله أو أكثر من ديوان . . .

وعلى سبيل المثال نذكر أن شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي ، ذكر فى مقدمة ديوانه - المخطوط بدار الكتبة المصرية - أنه نظم فى مدح الرسول أربعة دواوين .

(١) للمرحوم زكى مبارك كتيب فى تاريخ المدائح وهو « المدائح النبوية » — وهناك ديوان جمع مئات من هذه المدائح وهو « المجموعة البهائية » .

ونذكر أن فتح الدين بن سيد الناس له فيه ديوان « بشرى اللبيب في ذكرى الجيب » وهو مرتب على حروف المعجم ومبدوء بقصيدة تعارض « بانت سعاد » . (١)

وقصيدة البردة التي نظمها شرف الدين البوصيري ، كانت طليعة هذا الفن كما ذكرنا . والرؤيا التي رآها البوصيري قبل نظمها وهو مريض ، وتحدث عن رؤيته النبي عليه الصلاة والسلام فيها ، وأنه تقاضاه المديح ، تلقى ضوءاً عند تفسيرها ، على صواب ما قلناه من نزوع بعضهم نحو الزهادة والتطرف الديني بدافع حوادث الحياة - وإن تكن للبوصيري حالات شخصية فإنما هي نموذج لحالات غيرها كثيرة .

ومهما يكن من شيء ، فالبردة أجود المدائح النبوية التي نظمها البوصيري - ومنها الهمز بـ « والمضرية » وأفضلها أسلوباً وعبارة وأجمعها أغراضاً وأروعها أمثالا ، كما أنها أبلغها أثراً في الأدب العربي . وقد اجتمعت فيها أغراض متعددة كذكر ديار الرسول عليه الصلاة والسلام والتشوق إليها والتحذير من هوى النفس ومدح صفات الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذكر مولده ومعجزاته وبخاصة القرآن الكريم ، وذكر الإسراء والمعراج والجهاد ، إلى غير ذلك من حوادث السيرة النبوية الشريفة ، فضلاً عن ذلك التوسل والاستشفاع والمناجاة . ولأول مرة في تاريخ الشعر ، تجتمع هذه الأغراض في قصيدة واحدة بمثل هذا الطول . لقد بلغت عدة أبياتها نحو مائة وستين بيتاً . ويقول البوصيري في مطلعها متشوقاً إلى ديار الرسول عليه الصلاة والسلام :

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
أمن هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من إضم

فما لعينيك إن قلت اكففاهمتا وما لقلبك إن قلت استفق بهم

ويقول في تحذير النفس من الهوى مشيراً إلى الشيب :

فإن أمارتي بالسوء ما اتعظت من جهلها بنذير الشيب والهرم
ولا أعدت من الفعل الجميل قرى ضيف ألم برأسى غير محتشم

ويقول :

من لى برد جماح من غوايتها كما يرد جماح الخيل باللجم
فلا م بالمعاصي كسر شهوتها إن الطعام يقوى شهوة النهم
والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تطفمه ينقطع

ويقول في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذكر صفاته الكريمة
وأخلاقه العظيمة :

ظلمت سنة من أحيا الظلام إلى أن اشتكت قدماه الضر من ورم
وشد من سغب أحشاه وطوى تحت الحجارة كشحاً مترف الأدم
ورأوده الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته إن الضرورة لا تعدو على العصم

وتتخلل القصيدة أبيات بارعة جرت مجرى الأمثال ، لحكمتها ورصانة
نظمها ، ومن أمثلة ذلك قوله :

محضتى النصيح لكن لست أسمعها إن المحب عن العذال فى صمم

وقوله :

واخش الدسائس من جوع ومن شبع فرب مخصّة شر من التخم

وقوله :

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصيح فانهما

وقوله :

وقاية الله أغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عال من الأطم

وقد أثرى الأدب العربي ثراء كبيراً من وراء هذه البردة ، فإنها - كما نوهنا - فسحت أمامه أفقا جديداً للشعر ، واقتدى بها كثير من الشعراء على مر العصور حتى يومنا هذا ، معارضة أو نظم بديعية . كما أكثروا من تشطيرها أو تخميسها أو تسبيحها . كما وضع لها كرام من الأدباء شروحا عدة .

ومن هذا كله ترى أن البردة وأثرها في الأدب العربي ، موضوع جدير بدراسة مستقلة .

ولم يقتصر المدح النبوي على معارضته البردة والنسج على منوالها ، ولا على معارضة الهمزية واحتذائها ، ولا على معارضة د بابت سعاد ، والافتداء بها ، ولا على معارضة غيرها من مشهورات المدائح ، ولا تشطيرها أو تخميسها أو نحو ذلك .

بل كان أفق المدح النبوي أوسع مدى من هذه الأعمال الأدبية ، وأكثر حرية من أن يدور في فلكها .

والحق أن قصائد هذا المدح ، أكثر من أن تعد أو تحصى ، نفصد القصائد التي لم تتأثر بهذه المدائح الرئيسية في بحرها وقافيتها . بل تعددت فيها البحور والقوافي .

ولكن الذي لا ريب فيه ، أنها كلها نهجت نهج البردة ، في جملة أغراضها ، وفي اللون العاطفي الذي برز فيها .

وهذا الشاب الظريف ، يقول في مدحه نبوية ، ويشيد بذكر العرب وسكان طيبة :

أرض الأحبة من سفع ومن كشب سقاك منهمر الأنواء من كشب
ولا عدت أهلك النائين من نفس الصبا تحية عانى القلب مكتتب
قوم هم العرب المحمى جارهم فلا رعى الله إلا أوجه العرب
أعز عندى من سمعى ومن بصرى ومن فؤادى ومن أهلى ومن نسبي
لهم على حقوق منذ عرفتهم كأنتى بين أم منهم وأب
إن كان أحسن مافى الشعر أ كذبه فحسن شعرى فيهم غير ذى كذب
حياك يا تربة الهادى الشفيق حيا بمنطق الرعد باد من فم السحب
يا ساكنى طيبة الفيحاء هل زمن يدنى المحب لنيل الحب والأرب
ضمت أعظم من يدعى بأعظم من يسعى إليه أخو صدق فلم يخب
وحزت أفصح من يهدى وأوضح من يبدى وأرجع من يعزى إلى نسب.. الخ^(١)

والشباب الظريف فى أبياته هذه ، يفصح عما فى نفسه من حب العرب ،
ويشيد بهم وبمجادتهم . ويطفر من قلبه على لسانه ، هذا الدعاء الحار : « فلا رعى
الله إلا أوجه العرب » . وهو دعاء مزدوج . هو دعاء للعرب ، ودعاء على غير
العرب .. - أى الترك - لأنهم أقرب غير العرب إليه سكننا ...

بذلك زفر الشاعر زفرته ، ونفس عن كبته ، وأفصح عما يعاينيه هو وأمثاله
العرب ، على يد حكاهم غير العرب ، وهم الترك الغرباء الأعاجم ...

ويقول الشاعر « تقى الدين شبيب بن حمدان ، الطبيب السكحال المتوفى عام
٦٧٥ هـ ، مادحا . وهو فى مدحه يعكس مشاعره وأحاسيس نفسه ، عن مقام
الرسول عليه الصلاة والسلام .

فهو يستجلى منه نور الهداية ، ويلثم ترابه المسكى ، ويستجير بحماه ،

ويستوضح به الحق من نور الإله ، هذا النور الذى تجاوز اشرفه فلك الأثير الأكبر .

يقول شبيب :

هذا مقام محمد والمنبر فاستجل أنوار الهداية وانظر
والثم ترى ذاك الجنب معفرا فى مسك تربته خدودك وانفر
واحلل على حرم النبوة واستجر بحماه من جور الزمان المنكر
فهنالك من نور الإله سريرة كشفت غطاء الحق للمستبصر
نور تجسم فارتقى متجاوزا شرفا على الفلك الأثير الأكبر.. إلخ^(١)
وفى البيت الثالث ، استجارة صارخة ، واستغاثة ضارعة ، للرسول عليه
الصلاة والسلام ، من جور الزمان المنكر . وما يمثّل جوره إلا فى حكمه الطغاة ،
وسلاطينه البغاة ، الذين استأثروا بأطيب الرزق وأرفه العيش ، قوة واقتداراً ،
دون الشعب المسكافح .
وسترى مثل هذه الاستجارة والاستغاثة فى أبيات قريبة لابن نباتة ،
تذكرها بعد .

وزين الدين بن الوردي ، يمدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، فيصفه بعلو
القدر وعظم التقى وتمام الجاه وكمال الحجا . . . إلى أمثال ذلك من
الصفات الجليلة .

ولكن ذلك نمط من المديح العادى ، لم يبلغ به ما ينبغي لمقام الرسول عليه
السلام . ولكنّها اللغة وحدودها اللفظية . .
ثم أخذ الشاعر فى بيان مشاعره ، وفى الحديث عن معجزات الرسول
عليه السلام . . .

(١) فوات الوفيات ج ١ فى ترجمة شبيب بن حمدان .

يقول ابن الوردي :

أعلى الورى قدرا وأعظمهم تقى وأنهم جاها وأكملهم حججا
وأحدهم سيفا وأكثرهم ندى وأعز منزلة وأعظم منهجا
من ابن فى الثقلين مثل محمد نرجوه فى كرباتنا أن نفرجا
كم للنبى محمد من معجز أروى قوى من عانده وأزججا
ويقول مستشفعا :

كن لى شفيعاً إن ظهري مثقل بالسيئات وقد شجاني ماشجا
كم ذا أسوف بالمتاب توانيها حق لدعى بالدما أن يمزجا
إنى لأحوج مذب لشفاة إن الكرام يقدمون الأحوجا .. الخ (١)

ولجمال الدين بن نباتة المصرى ، أكثر من مدحة نبوية جيدة . ومن بينها قصيدته الرائبة البارعة التى يقول فى أزلها :

صحا القلب لولا نسمة تتخطر ولمعة برق بالغضى تتسعر
ويقول منها فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام :
نبى له مجد قديم وسودد صميم وأخبار نجل ونخبر
تحزم جبريل لخدمة وحيه وأقبل عيسى بالبشارة يحمر
فإنذا يضاهيه وجبريل خادم لمقدمه العالى وعيسى مبشر
ويقول :

علا عن محاكاة الغمام لفضله وكيف يحاكيه الخديم المسخر
ويقول :

هو البحر فياض الموارد للورى ولأكثته العذب الذى لا يكدر

ويستشفع ابن نباتة بالرسول عليه الصلاة والسلام . وهو لا يستشفعه ابتغاء
أن يغفر الله له ذنوبه في الآخرة فحسب . بل أن يهي له أسباب الخير والراحة
والعزة في الحياة ...

وكان مشار شكواه الذي تقدم بها بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم ،
اثنين : الدنيا والآخرة :

الدنيا ، لما أصابه فيها من ذل وغربة ، وعيش مرير ، ولما حرمه فيها من
عز وقرار بالوطن .

والآخرة ، لما آده من ذنوب ، وأقر ظهره من آثام ، ولما أصاب عزمه
من ضعف ، عن أن يقوم بما تتطلبه الآخرة من صالح الأعمال ...

وإذا تأملنا شكواه من الدنيا وأسبابها ، تبدت لنا مساوي العصر بعامة ،
ممثلة في أبياته وشكواه . إنها الذل والغربة . إنها الذل في الوطن لأن أسباب
العزة معقودة بيد غير يد أهله . والغربة عن الوطن ، لأن أسباب الاستقرار
فيه ، لا يملكها ذووه .

وفي رأي أن الغربة التي يكره عليها المرء ، مظهر صارخ من مظاهر الذل
أو الإذلال . ولعلها أشق ألوانه على نفس الحر المحب لوطنه ، إلا إذا كان
اغترابه في سبيل وطنه وفي سبيل مجده .

هكذا يلجأ الشاعر إلى حمى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وإلى قلبه
الرحيم ، ليشفع له عند الله سبحانه وتعالى ، أن يرحمه مما يعانيه من ذل وغربة .
وفي اللجوء راحة وأمل ، تستشفى بهما النفس المعذبة .

يقول ابن نباتة :

إليك رسول الله مدت مطالبي	على أنها أضحت على الفور تقصر
خلقت شفيعاً للأثام مشفعاً	فرجواك في الدارين أخرى وأجدر
ولى حالتنا دنيا وأخرى أراهما	يمران بي في عيشه تتمرر

حياة ولكن بين ذل وغربة فلا العز يستجلى ولا البين يفتقر
وعزم إلى الأخرى بهم نهوضه ولكنه بالذنب كالظهر موقر
تصبرت في ه ذا وذاك كأننى من العجز والبؤس قتل مصبر . الخ (١)

ب - الزهد والتصوف :

وأشعار الزهد والتصوف ، مضاعفة من مضاعفات النزعات الدينية الجارفة .
فلا غرابة إذا قيض لها الذبوع والانتشار ، فقد توافرت عواملها ودواعيها ، مما
أشرنا إليه عند حديثنا عن المديح النبوى .

وكان هذا اللون الشعري ، قد ذاع في العصر الأيوبي ، الذى نضج فيه الغزل
الإلهي وشعر الدعوة إلى الفناء في الدات الإلهية ، والعزوف عن الدنيا وما فيها ،
طلبا للآخرة .

وورث العصر المملوكى نزعات كثيرة من العصر المذكور . على أن الأتراك
كانوا أميل ، إلى جملةهم ، إلى التصوف ، وإلى اصطناع الزهادة ، وإلى حب العبادة ،
وتعظيم الصوفية والعناية بهم وبخواتمهم وزواياهم .

وهذا هو ما شهدناه في العصر المملوكى ، حتى غلا بعض ملوكهم وظنوا أن
بعض المتصوفة لهم دعاء مستجاب ، ولهم رأى يستلهمون فيه الغيب ، فوثقوا
بهم ، واستشاروهم ، واثتمروا بأمرهم أحيانا .

ولعل ذلك ، كان من بعضهم تظاهرا بالتقوى وحب المتقين ، سترًا لطغيانهم
واستهثارهم ، أو تغطية لمجونهم واستهثارهم . أو لعل ذلك كان زلفى إلى الله ، طلبا
لمغفرته ورضاه . . .

وسرت هذه الروح وبدأ صداها في الشعر . ولعل شعر الزهد قد صادف هوى فى

(١) ديوان ابن نباتة ، حرف الراء .

نفوس بعض الشعراء ، فقد كانت أسباب الحرمان موفورة من حولهم ، فوجدوا في الزهد سترًا وسلوى وغنية ، هي غنية المضطر وسلوى المغلوب .

يقول جمال الدين بن نباتة :

منعتني الدنيا جنى فزهد ت ولكن زهد المغلوب

نظم بعض الشعراء - ومنهم الفقهاء والمتصوفة - في هذا الغرض الذي ينفس عن المرء بعض كربيه ، ويعبر بصدق عن بعض ما يصيبه من بؤس أو يأس ، تتبدى من أجله الدنيا أمامه شطاء خادعة ، لاحسناء بارعة رائعة . إذ تتكشف لعينيه محاسنها ومفاتها عن زيف باطل وبهرج كاذب ، وتترامى وعودها سرا با أخذًا خادعا لاماء فيه . وخير منها الدار الآخرة . فنعيمها مقيم حافل ، والله يجزي به عباده الشاكرين الطائعين . فما بالهم لا يبتتلون له ، ولا يبتهلون إليه ، ليحسن عقباهم ويجعل الجنة مثواهم . وما بالهم إذن لا يكرهون الدنيا ويمقتون غرورها ويعزفون عنها . . .

في فلك هذه المعاني دارت أبيات الشعراء ، حينما تصدوا للنظم في الزهد والنسك والتصوف . معبرين فيها عن أنفسهم وداعين إليها غيرهم ومصورين بذلك بعض جوانب حياتهم وحياة الناس من حولهم ، صادقين لا كاذبين ولكن دون أن يتجهوا فيها إتجاها علميا أو فلسفيا خاصا يشرح وجهة نظر فكرية مما يتجه إليه الصوفية ، وبوضوح معالمها وأدلتها ودرجات المسير فيها ، وطرق الوصول إلى أهدافها ، على نمط من أنماط ابن الفارض ، إلا ما ندر .

فإننا - على طول ما قرأناه من تراجم أعلام الشعر في هذا العصر - ومن بينهم رجال الصوفية وهم كثير والعدد ، لم نجد بينهم شاعرا اتجه في شعره إتجاه ابن الفارض أو قريبا منه ، إلا نادرا - كما ذكرنا -

ومن هذا النادر الشاعر المتصوف ابن وفاء السكندري ، والفقيه الصوفي

عبد العزيز بن أبي فارس المتوفى عام ٥٧٠٣ هـ ، إذ قيل إن له ديواناً شعرياً في التصوف . وإنه كان يميل إلى القول بالاتحاد ، ويتبع ابن عربي . ومن شعره في ذلك قوله :

وجدت بقاءً عند فقد وجودي فلم يبق حد جامع لحدودي
والغيت سرى من ضميري ملوحاً برمز إشاراتي وفك قيودي
فأصبحت منى دانياً بمعارفي وقد كنت عنى نائياً بجمودي^(١)

ووقف بعض الشعراء قصيدة برمتها على الزهد والتصوف ، على النمط الذي أشرنا إليه ، وقد ينساب منه إلى الحكمة وضرب المثل ، وتتفاعل فيه حينذاك آثار الثقافة والمجتمع . وقد ينساب إلى شكوى الحال ودم الدنيا وما إلى ذلك .

ومن رجال هذا الفن على هذا النحو ، الشاعر المجيد زين الدين بن الوردى . وله في الزهد والنسك والتصوف أكثر من قصيدة . وغلبت عليه هذه النزعة أخيراً بسبب ما قاساه من تنكّر له وقسوة عليه . وما لاقاه من رؤسائه في مناصب القضاء من التجنى . فقد كان يشتغل في قضاء بعض نواحي الشام ، فنقل إلى ناحية أخرى لم يسترح إليها . وألح في العودة فلم يسمح له ولم يلتفت إلى إلحاحه ورجا فلم يسمح لرجائه . فوجد في نفسه ، وشعر أن كرامته جرحت ، وأن مكانته زحزحت . فطلق القضاء والوظائف ثلاثاً ، بغير رجعة . وتركها لطلاب الجاه الزائف والمجد المبهرج الباطل ، مبقياً على كرامته . وآثر التوارى عن الأضواء إرضاء لضميره وإراحة لنفسه . وقنع بالقبوع في داره ، واعتنق مبدأ الخمول الذي سبق لنا التنويه به والحديث عنه في الفصل السابق .

وانجه ابن الوردى بشعره أو بكثير من أبياته إلى الزهد والنسك والدعوة

إليهما ، وإسداء النصيحة إلى الناس بهجر الدنيا وزخارفها ، والسعى إلى الآخرة
بالعمل الصالح والتقوى . وله في هذا الباب قصيدته اللامية المشهورة التي أشرى
الأدب من ورائها ثروة لا بأس بها .

وهي في نحو سبعين بيتاً ، من أجود ما نظم ابن الوردى ، ومن أجمعه
للحكمة والعظة . لقد دعا فيها إلى التدبر في الأمر قبل الإقدام عليه ، وفي التفكير
في العاقبة قبل بلوغها . ودعا المرء إلى هجر المنكرات من غناء وغزل وخمر
وحب مرد ومداعبة نساء وهزل ، وحببه في طلب العلم فقيه الخير . ورغبه في
العمل الصالح وهجر النوم ، والعزوف عن الدنيا . ونهاه عن طلب المال والجاه
لأنه متاع زائف . ونصح به بعدم الفخر بالنفس لأن أصل الناس واحد ، ولا
يفترقون إلا بصالح الأعمال والتقوى . ورأى له أن يحسن السياسة والمصانعة
حين تدعو ضرورة إلى ذلك . ولا يعلق أمله بمنصب ، ولا ينخدع بالظواهر ،
إلى غير ذلك من النصائح .

واللامية في جملتها سلسلة العبارة سائغة الأسلوب واضحة المعاني ، مما حببها
إلى الناس وسهل لهم ترديد أبياتها ، ولذلك ذاع منها الكثير على ألسنتهم .

ويقول في مطلعها :

اعتزل ذكر الأغاني والغزل وقل الفصل وجانب من هزل
ودع الذكر . لا أيام الصبا فلا أيام الصبا نجم أقل

ويبغض في العشق وحب الخمر فيقول معللاً :

وافتكرك في منتهى حسن الذي أنت تهواه تجد أمرا جليل
واهجر الخمر إن كنت فتى كيف يسعى في جنون من عقل

ويذكر بالله وقدرته بالموت ونزلاته :

حارت الأفكار في قدرة من قد هدانا سبلنا عز وجل

كتب الموت على الخلق فكم قل من جمع وأفنى من دول

ويرجع أصل الفنى إلى خلقه وعمله لا إلى حسبه ونسبه :

لا تقل أصلى وفصلى أبداً إنما أصل الفنى ما قد حصل
قد يسود المرء من غير أب وبحسن السبك قد ينفى الزغل

ويقول :

قيمة الإنسان ما يحسنه أكثر الإنسان منه أو أقل . . الخ (١)

وعلى نمط مما رأيناه فى البردة ، عنى بعض الأدباء بتشطيرها وتخميسها
وشرحها . وذلك يستأهل أيضاً بحثاً مستقلاً .

وراج شعر الزهد والنسك والتصوف على السنة كثير من الشعراء غير ابن
الوردى ، فقهاء وغير فقهاء .

وشمس الدين بن القيم كان أحد فقهاء الحنابلة البارزين ، وهو تلميذ ابن تيمية
الحرانى وقد ألف كثيراً من الكتب فى علوم دينية مختلفة ومنها مدارج
السالكين ، وهو فى صميم التصوف الإسلامى والأخلاق .

هذا الفقيه رأينا من بين فرائد شعره ، قصيدة شائقة هى نتاج الصوفية
الصحيحة التى هى رجوع النفس الورعة التقية الصافية التى راضها الدين القويم
وتعاليمه السمحة . لقد اتجه فى قصيدته هذه وجهة ندر أن اتجه إليها غيره ، وهى
وصف الجنة وما فيها ، وصف الحب الواله المشوق المترقب . وفيها يقول :

فلله ما فى حشوها من مسرة وأصناف لذات بها يتنعم
ولله برد العيش بين خيامها وروضاتها والنغر فى الروض يلبس
ولله وادها الذى هو موعد السمر فلو فدا الحب لو كنت منهم

(١) راجع ديوان ابن الوردى.

بذيالك الوادى يهيم صباية محب يرى أن الصباية مغنم
ولله أفراح المحبين عندما يخاطبهم من فوقهم ويسلم
ولله أبصار ترى الله جهرة فلا الضم يغشاها ولا هي تسام
فيا نظرة أهدت إلى الوجه نظرة أمن بعدها يسلو المحب المتيم... إلخ (١)

ومن الشعراء فى هذا الباب ، الحافظ الكبير صلاح الدين كبكلى العلائى .
وفى إحدى قصائده يقرر خصالا ثلاثا يرغب فى الحياة من أجلها . وشتان بين
ثلاثه هذه وثلاث شاعر الجاهلية طرفة صاحب الدالية .

يقول :

ألا إنما الدنيا مطية راكب تسير به فى مهمه وسباسب
فإما إلى خير يسر نواله بها وإما إلى شر وسوء معاطب
فلولا ثلاث هن أفضل مقصد لما كنت فى طول الحياة براغب
ملازمة خير اعتقاد منزهاً عن النقص والتشبيه إزين المواهب
ونشر علوم للشريعة ناظما عقود معانيها لتفهم طالب
وصوفى نفسى عن مزاحمة على دنى حطام أو على مناصب
ففى ذاك عز بالقنوع وراحة معجلة من خوف ضد مغالب... إلخ (٢)
وجماع هذه الثلاث - كما ترى - العمل بالشرعية ونشرها والقناعة . وفى الحق
ليس هناك سعادة أوسع ولا أروح للنفس من هذه الثلاث ، ففيها غنى الدنيا واثراء
الآخرة . وفيها توقي مواطن المذلة والهوان ، وفيها التصون عن مزلق
الآمل الخادع .

وجمال الدين بن نباتة شاعر عصره ، ممن ضربوا فى هذا الميدان بسهم وافر .

(١) كتاب « خادى الأرواح إلى بلاد الأفراح » لابن القيم .

(٢) طبقات السبكي ج ٦ ص ١٦٢ فى ترجمة تقي الدين السبكي .

وكم له من أبيات عزف فيها عن الدنيا ونعى عليها فتونها وندم على ذنوبه وتاب عنها
وزجر نفسه ودعا ربه وذكر الموت ، ونزع في ذلك منزع الحكمة والنسك . يقول
في إحدى قصائده :

إليك مدير الكأس عنى فإنى	رأيت دموع الخوف تقطع للصدى
وإياك باللبياء يشرق خدها	فإنى لم آنس على ناره هدى
نزعت فلا الساقى لدى براكع	ولست أباريق المدامة سجدا
وما أنا بالساعى لمحراب طرة	على طلعة كانت لعشقى مشهدا
كفى ما استبنت اليوم لى من جرائم	إذا لم أبدلها فياخجلى غدا
إلهى قد مد الرجا يد قاصد	وجودك أولى أن تبلغه يدا
وقد بنت آباء ونسلا فكيف لى	بباقية والأصل والفرع قد غدا
وفاض لى من دموعى فعله	يكون وليا للإنابة مرشدا
بروحى أناسا قبلنا قد تقدموا	ونادوا بنا لو أننا نسمع النداء
وسارت بهم سير المطى نفوسهم	وبعض أنين القادمين لهم حدا
وأمسوا على البیداء ينتظروننا	إلى سفر يقضى بأن نترودا
فريدون فى أجدائهم بفعلهم	وكم بينهم من ساق جندا مجندا
تساووا عدى تحت الثرى وأحبة	فلا فرق ما بين الأحبة والعدى . إلخ (١)

ونهج هذا الشاعر نهج أبى العلاء فى زهدياته ، ونظم قصيدة بارعة استقل بها
هذا الغرض الشعرى دون سواه ، واجتمع فيها كل أسباب الزهد ومعائب الحياة
التي تنفر منها .

وقد بدأها الشاعر بالاستغفار ، وإعلان الزهادة فى الدنيا ، وأنه لم يعد يأسى
على فراقها ولا يحزن على انقضائها . فإنه ، وهو فيها ، كان سىء الحظ كثير التكد .

أما إذ أضمه التراب فله من التراب جلاء... ثم أفصح الشاعر عن مشاعره بالحياة وعن مدى تصوره لها ولمتعها الباطلة ونعيمها الحائل فليست في نظره غير سجن وفيه الهم والكمد . وما نفعه فيه عيشه إن لم تسعه رحمة الله . وأخذ ينعى على جامع المال والبخيل المتكبر والواثق بالليالي ، إلى غير هذا وذاك ، وذكرهم بلقاء الموت في غدهم ، وضجعتهم من بعد في التراب في هوان ومذلة... إلى غير ذلك . يقول :

أستغفر الله لا مالى ولا ولدى أسى عليه إذا ضم الثرى جسمى
عفت الإقامة في الدينألو انشرحت حالى فكيف وما حظى بسوى النكد
وقد صدئت ولى تحت التراب جلا إن التراب لجلاء لكل صدى
ويقول :

حياة كل امرئ سجن بمهجته فأعجب اطأاب طول السجن والكمد
أما الهموم فبحر خضت زاخره أما ترى فوق رأسى فائض الزبد
وعشت بين بنى الأيام منفردا ورب منفعة فى عيش متفرد
لأتركن فريدا فى التراب غدا ولو تكثر ما بين الورى عددى
ما نأفعى سعة فى العيش أو حرج إن لم تسعنى رحمى الواحد الصمد
يا جامع المال إن العمر منصرم فأبخل بمالك مهما شئت أو جحد
ويا عزيزا يخيط العجب ناظره اذكر هوانك تحت التراب واتمد
قالوا ترقى فلان اليوم منزلة فقلت ينزله عنها لقاء غد
كم واثق بالليالى مد راحتـه إلى المرام فناداه الحمام قد
وباسط يده حكما ومقدرة ووارد الموت أدنى من فم ليد... إلخ^(١)

ح- الشكوى :

والشكوى أدنى وشيخة وأقرب نسباً إلى الزهد والتصوف . وشعر الزهد يعتمد اعتماداً أصيلاً على الشكوى . فلا بد فيه من شكوى الدنيا وذم الزمان والنعي على أخلاق بعض الناس ممن لا وفاء لهم ولا مروءة ... والأبيات السالفة لم تخل من عنصر الشكوى .

وفن الشكوى في الشعر المملوكي كان أرحب أفقاً وأوسع ميداناً من صلته بالزهد أو التصوف أو ذم الدنيا ونحوه . ولعل شعراء العصر كانوا أحق بالشكاية وأولى . وكانوا أجدر بالتصريح بها والإلحاح عليها وإعلانها . إذ حرمتهم الدنيا - أو حرمت الكثير منهم - الخير والجاه والمنصب ، مما كان له أهلاً . بل ربما حرمت بعضهم حتى اضطر إزاء إلحاح الحاجة عليه أن يتكفف الرؤساء والأعيان بشعره ، وأن يرحل من بلد إلى بلد سعياً وراء قوته وقوت عياله . وأن يصرح بحاجته ويكشف عن هوانه ويسأل العطاء ... بل ربما ألحت على بعضهم فأوهنت ثقته بصناعته وفنه ...

كان الشعراء إذن ، أو كان بعضهم على الأقل ، أحق بأن يكون فن الشكوى فناً أصيلاً في شعرهم ، وخصوصية مميزة تطبع الكثير من قصائدهم بطابعها ، وإن كانت تهدف إلى أغراض أخرى .

ترى ذلك في أبياتهم في النقد الاجتماعي وفي إخوانياتهم وفي المدح ، بل وتراه في شعرهم الفكاهي . ولعل الفكاهة كانت به أسوأ وأصق ، بل لعلمها كانت مظهراً من مظاهر الشكاية ووسيلة من وسائلها .

لقد تناولوا في شكواهم ذم الزمان لصروفه وغيره وغدره . وأخلاق الناس لحقدهم وحسدكم ومكائدهم وأثرتهم . وذكروا الشباب الماضي وتحسروا ، والشيب الفاضح وحزنوا ، وذكريات الصبا وبكوا ، وعهود الوصال المنقضى والتأوا ...

وهذا كله سجلوا بعض نواحي المجتمع ، وصوروه في جانب من أهم جوانبه النفسية .

ولابن الوردي معان في الشكاية ردها أكثر من مرة ، وهي شكوى حاسديه والحاقدين عليه ، لماله من الفضل والعلم . حتى كانوا بذلك في جملة أسباب اعتزاله منصبه ، بل واعتزال الناس جملة . وأدت به إلى حياة من الخمول فرضها على نفسه ، وقنع بها وسعد - كما أشرنا فقال :

أشكو إلى الله زمانى الذى صرت إليه وتحيرت فيه
أى امرئ جربت من أهله يظهر منه كل أمر كربه
كم حاسد كم مارد كم عدى كم عائب كم مبغض كم سعيه
فليفعل الحاسد فى دهره ماشاء لا بد وأن يلتقيه
ما بين أعدائى وبينى سوى أن بهم جهلا وأنى فقيه (١)

وفي الأبيات التالية يعرى الزمان من مروته ويشكوه إلى الله لأنه قلب الحقائق فأعز العبيد وأذل الأحرار . وينعى على حساده ويطلب الرحمة لهم طلب المغيظ المحنق ، لقد حقدوا عليه وكرهوا ذكره وكرهوا أن الله رماه ، وما ذلك إلا لاتقاد قريحته وسعة علمه ، حتى بلغت أخباره الأنظار . . .

وترى ابن الوردي في الأبيات المذكورة مزج الشكوى بالفخر ، وكاد يخرج بالشكوى إلى طريق الهجاء . قال في جودة وجزالة .

ماللزمان عن المروءة عارى ما عنده فى منكر من عار
أشكو إلى الله الزمان فدأبه عز العبيد وذلة الأحرار
لا غرو إن حسدت بنوه منافى كل على مجرى أبيه جار
وارحمنا للحاسدين فنارهم قد سعرت بعدا لهم من نار

وإذا جرى ذكرى تكاد قلوبهم تنشق أو تغتالي بشرار
 كرهوا عطاء الله لي يا ويحهم لشقائهم كرهوا صنيع الباري
 ويزيدهم ناراً وقد قريحتي ، وبلوغ أخباري إلى الأقطار
 يا سعد ساعدني على هجرانهم في الله هجر مجانب متواري
 واحذر بني الدنيا وكن في غفلة عنهم وجانب كل كلب ضاري . (١)

وهذا الشاب الظريف الذي ذوى عوده وهو في عمر الورد ، وانتهى أجله وهو لما يتمتع بالشباب ، كان يشكو .

وفي سياق إحدى مدائحه يحنح إلى شكواه فيبث أبياته حديث نفسه وهجس فؤاده ، ويستعينك الله عما يكابد من اللهم ، وما يلقاه من الدهر من جمل بمقداره . هذا الدهر الذي لم يستقر بوجه غير مبتذل ، ولا يأمن جاره بوائقه . . الخ .

يقول في جودة وجزالة أيضاً ، وهو يخاطب مدوحه :

أعاذك الله من هم أكابده أقول كرها لأحشائي به ذوبي
 ملئت بالدهر علماً وهو يملأ لي جهلاً ويحسب مني غير محسوب
 إحدى الأعاجيب عندي منه لو وصفت لكان وصفي لها إحدى الأعاجيب
 لا يستقر بوجه غير مبتذل ولا يسير بعرض غير مسلوب
 ولا يبيت له جار بلا فرق ولا يسر له ضيف بترحيب
 يصدعني إذا قابله غضباً ككافر صد عن بعض المحاريب
 ولو ضربت بأدنى الفسك قلت له قتلت في شر ضرب شر مضروب
 يفدى نعالك ما ضمت أسرته وإن فدين بممقوت ومسبوب
 إن المعالي براء من تجشمها تلبس المجد فيه بالأكاذيب
 فليت كل مريب غاب عاتبه فداء كل برى العرض معتوب

وليت أنى لم أدفع إلى زمن ألقى الأسود به طوع الأرائب
إن يحجب الأضعف الأقوى فلا عجب قرب عقل بستر الوهم محجوب
والدهر ليس بمأمون على بشر يديره بين تنعيم وتعذيب
فلم يرق مسكن فيه لساكنه ولم يثق صاحب فيه بمصحوب^(١)

ومن المبرزين في هذا الباب جمال الدين بن نباتة ، وكان كثير الشكاية دائبها ،
وكادت الشكاية تكون في شعره كله مزاجا مشتركا . فقد تضافرت عليه فاقة آلفة
وحرمان مصاحب مقيم ونكران معن ، وشيب عاجل مبكر ، وأبناء صغار
كثير يجعل إليهم الموت .

فضلا عما لقيه من رؤساء زمانه ، من تنكر لفضله وجود لبلاغته ، وتجاهل
لمنزلته من الأدب والشعر ، وحقد عليه ، وتجاوفا عنه ، وإبعاد له عن مناصب
الدولة . حتى اضطر إلى النزوح عن بلده مصر للارتزاق ، كما اضطر غيره من
الشعراء أمثاله ، إلى الاحتراف للارتزاق أيضاً : فمن أولى منه بدم الزمان
وشكواه . . .

يقول وقد دهمه المشيب في أوان الصبا :

عجبت خلتي لو خط مشيبي في أوان الصبا وغير عجيب
من يعم في بحار همى يظهر زبد فوق فرعه الغريب
من يحارب حوادث الدهر يخفي لون فوديه في غبار الحروب
أى فرع جون على عنت الأيام يبقى رأى غصن رطيب
لوهمى ماء معطى من اللين لأفنته مهجتي بلهيب
رب يوم لولم أخف فيه عقي سوء حالي لحقت عقي ذنوبي
ظاهر دبرن باطن مستجار ليت حالي يكون بالمقلوب

(١) راجع ديوان الشاب الظريف .

منعتني الدنيا جنى فتزهد ت ولاكن تزهد المغلوب
ووهت قوتي فأعرضت كرها عن لقاء المكروه والمحبوب ... الخ (١)

وامتزجت الشكوى بالفكاهة في إحدى قصائد الشاعر الساخر الهازل شمس
الدين بن دانيال الموصلی ، التي وصف فيها حالته مع زوجته ، عارضا أمورها على
القاضي ، قال :

بك أشكو من زوجة صيرتني غائبا بين سائر الحضار
غيبتني عني بما أطعمتني فأنا الدهر مفكر في انتظار
غبت حتى لو أنهم صفعوني قلت كفوا والله عن صفع جاري
فنهاري من البلادة ليل في التساري والليل مثل النهار
دار رأسي عن باب داري فبالله أخبروني ياسادقي أين داري
ملككتني عيارة عيارا حين زادت بالدرديس عياري
أين مخ الجمال من طبع مخي في التساري وأين مخ الحمار
غفر الله لي بما رحمت للبحر من البرد أصطلي بالنار
وتجردت للسباحة في الآ ل لظني به الزلال الجاري
ولكم قد عصيت رجلى برؤيا أوطأتني حلما على سماري ... الخ (٢)

د - الشعر الإخواني :

وشهد الشعر الإخواني في هذا العصر فترة ذهبية كريمة ، فقد انتهزت الشعارية
فرصتها في العلاقات الحبية والمودات الإخوانية التي استعاض بها الشعراء من
مودة المجتمع وعرفانه . فتشبهت بها واتخذتها وسيلة إلى الظهور - كما وصفنا آنفا -

(١) ديوان ابن نباتة ص ٢٣

(٢) فوات الوفیات ج ٢ ص ٢٤١ ، ٢٤٢ . والعبارة الكثيرة الحركة الدكية الطوافة .

والشعر الإخواني ، وإن بدأ شخصياً فردياً ، هو في مجموعه صورة بارزة من أهم صور المجتمع . فهو وليد الصداقات بين أفرادهِ . وكثيراً ما يجيئون فيه حياة نفسية صادقة ، يتبين لنا من ورائها مجموعة من أخلاق المجتمع والصفات المشتركة بين أفرادهِ ، وما يجرون عليه في حياتهم من عادات وتقاليد وصلات . وقد اتسع نطاقه وتعددت آفاقه . فمن تشوق إلى غائب ، إلى لوم لهاجر ، إلى عتاب لخطيء ، إلى تذكير لصادق ناس .

والشاعر يحن إلى أسرته وأولاده ، ويتشوق إليهم ويتلهف على لقائهم . وذلك إذا طوحت به أيدي الزمان مرغماً ففرقت شمله وباعدت بينه وبين فلذات كبده . ويحن إلى أصدقائه وخلانهِ ، إذا زايلاه وتركوه وحيداً ، إلى ديار أخرى . أو صدرا عنه وتجافوا ، وقاطعوه لسبب ما كنعيمية أو وشاية أو وقعة . فيتشوق ويلوم ويذم الواشي والنام ، ويعتذر ويتبرأ ، إلى غير ذلك مما تستدعيه الأخوة الأكيدة والمودة الكريمة .

ولج شعراء العصر باب هذه الأغراض بخطى واسعة ، وشغلوا أنفسهم بها وأجادوها وصدقوا فيها ، وأكثروا منها ، حتى إنه ربما كان لأحدهم الديوان الكامل فيها .

فإذا ذكروا وحنوا ، استرجعوا العهود الماضية وأيام الوصل واللقاء . وتذكروا ما كان بها من روفق الحياة وطيبها ، وسماح الدهر وكرمه ، وتهلل الوجوه وبشرها ، وامتلاء الدار بالأنس والطمانينة ، وخلود القلب إلى الراحة والسكينة .

وإذا ذكروا البين وصفوا طولهُ ولوعته ، ولهيب أشواقهم فيه ، واشتعال وجدهم ، ودموع حزنهم . وتعلقوا بالأمل الماضي في اللقاء والوفاء . ودعوا للمنازل وتشوقوا إلى الأحياء ، وتلهسوا الرسل وتسموا الأخبار ، وساءلوا البريد ، وخاضبوا البرق . وبثوا كل ما يعتلج في صدورهم من المحبة ، وما يعانونه من القلق والانتظار .

وقد يمتزج بالإخوانيات غيرها من الأغراض ، كالوصف والمدح
وذكر الحوادث .

وكان بين الشعراء الأديبين علاء الدين بن غانم ، وصلاح الدين الصفدى ،
مراسلات إخوانية طليقة . وقد أرسل الأول من دمشق ، إلى الثانى بمصر ، يتشوق ،
فذكر ضرام الفراق ونبو المقام من بعده . وذكر أيام أحبابه بمصر فكأنها مرت
بها أحلام . وتمنى عود الزمان بهم . إلى آخر ما تبعه هذه الأبيات ، قال :

لى فى الضمير من الفراق ضرام	وهوى يهيجه جوى وغرام
مذغاب عنى من ألفت دنوهم	ونبا بهم بعد المقام مقام
واستوطنوا مصر التى طابت لهم	دارا وأين ديارهم والشام
سمحت بهم أبدى النوى واسترجعت	فكأنما سمحت بهم أحلام
أترى يعود بهم زمان قد مضى	أم هل يرى لى بعدهم إمام
غابوا فلم تطب الحياة لبيئهم	والنوم بعدهم على حرام
والدهر كان بهم كيوم واحد	وأراه عيدا كله لو داموا
كارىب الزمان بهم ربيعا وجهه	متهلل بدنوهم بسام
وناوأ ففطب بالفراق فوجهه	جهم وسحب المبهجات جهام
لا أوحشت دار خلت من أنسهم	فضياؤها فى ناظرى ظلام
يا غائبين نأى السرور لبيئهم	فعليهم وعلى السرور سلام
لى كلما هجع الخلى من الهوى	دمع يقرح مفلتى وهيام ، إلخ (١)

وقد رد الصلاح الصفدى بقصيدة مماثلة من البحر والروى ، ومعها رسالة
مشورة ، وقد بادله شوقا بشوق وحنينا بحنين ، وشكاية بشكاية وأهلا بأمل . وقد
قال من قصيدته :

(١) ألحان السواجع للصفدى مخطوط بدار الكتب - ورقة رقم ١٣ ، ١٤ .

وافى كتابك فاستنار ظلام وغدت بدور الأفق وهي تمام
يا كاتباً كبت العدى لما كبت من خلفه في شوطها الأقدام
صلى ورامك في القريض جماعة ممن يعانسه وأنت إمام
أهديت لى طرسا سطور بيانه روض ومعناها البديع حمام
وكأنما تلك الحروف جواهر فيها تألق جمده النظام
لا بل كئوس مدامة من فوقها قد در من مسك الختام ختام
لابدع إن مالت بعطفى نشوة فمن الكلام إذا اعتبرت مدام
ياساكنين دمشق لى فيكم وإن طال البعاد صباة وغرام
بينى وبينكم إذا حققتكم عهد به شهد الصفا وذمام
بحياتكم راعوا الوداد فإنكم عندى على بخل الزمان كرام
وتذكروا تلك الليلات التى فى عودها قد خانت الأيام .. إلخ (١)

ومن جزل الشعر وعذبه ، ورقيق النظم ورطبه ، مادبجه الأديب البارع
شهاب الدين محمود الحلبي ، من الديار المصرية إلى صديقه وتقى الدين الصالحى ،
بجبل الصالحية بالشام . يتشوق إليه ويعتب عليه ، فيقول :

هل عند من عندهم برى وأقسامى علم بأن نواهم أصل آلامى
وأن قلبى وجفنى بعد بعدهم ذا دائم وجده فيهم وذادامى
بانوا فبان رقادى يوم بينهم فلست أطمع فى طيف بالمام
كتمت شأن الهوى يوم النوى فتما بسره من جفونى أى نمام
كانت لىالى بيضا فى دنوهم فلا تسل بعدهم عن حال أيامى
ضنيت وجداهم والناس تحسب بى سقما فأبهم حالى عند لواى
وليس أصل ضنى جسمى النحيل سوى فرط اشتياقى إلى لقيا ابن تمام

مولى متى أخل من بر برؤيته خلوت منه بأشجان وأسقام
 فأى ورؤيته عندي أحب إلى قلبي من الماء عند الحاتم الظام
 وصدعنى ولم يسأل بحفوته عن هائم دمه من بعده هامى
 يا ليت شعرى ألم يبلغه أن له أخا بمصر ضعيف الجسم منذ عام
 ما كان ظنى هذا فى مودته ولا الحديث كذا عن ساكنى الشام
 يا غائباً داره قلبى ولو هجعت عيني لأدنته منى رسل أحلامى
 أصبحت بعد اشتطاطى فى الحقيقة من لقياك أخدع آمالى بأوهامى ... إلخ (١)

ورد عليه تبنى الدين بن تمام الصالحى بتصيدة من الوزن والقفاية ، طاف فيها
 بما طاف به الحلبي ، من المعاني النفسية والخواطر الإخوانية ، فقال من
 قصيدته الطويلة :

يا ساكنى مصر فيكم ساكن الشام يكابد الشوق من عام إلى عام
 الله فى رفق أودى السقام به كم ذا يعلل فيه نضو أسقام
 ما ظنكم ببعيد الدار منفرد حليف هم وأحزان وآلام
 يا نازحين متى تدنو الذوى بكم حالت لبعيدكم حالى وأيامى
 كم أسأل الطرف عن طيف يعاوده وما لجفنى من عهد بأحلام
 أستودع الله قلباً فى رحاككم عهدته منذ أزمان وأعوام
 وما قضى بكم من حبكم أربا ولو قضى فهو من وجد بكم ظامى
 منذاً يلوم أخا وجد يحبكم وأبعد الله عذالى ولوامى
 فى ذمة الله قوماً ما ذكرتهم إلا ونم بوجدى مدمعى الدامى
 قوم أذاب فؤادى فرط حبهم وقد ألم بقلبي أى إلمام ... إلخ (٢)

هـ - الاستدعاء :

هذا لون من ألوان الشعر الإخواني . وهو دعوة الخالصان والأحباب إلى مجلس أنس أو حفل سمر أو مائدة شراب . حيث تتوافر أسباب اللهو ودواعي التسلية وأدوات اللذة والمتعة ، من كل ما تهفو إليه النفوس ، وترنو نحوه الخواص من المأكول والمشروب ، ومن المسموع والمشموم والمنظور . . . وهو غير الاستدعاء الذي هو بمعنى الاستعجالة .

وتعقد هذه المجالس في الليل ، عادة ، إذ يكثر الفراغ ، ويفرغ القلب ، وتطلب الراحة ، ويحلو اللهو ، ويطيب الحديث . دفعاً للأحزان وجمعاً لشمس الإخوان ، ومحاربة للوحدة ، وتمكيناً للألفة ، وتقوية للمودة ، وتجديداً للعهود والمواثيق ، وتنشيطاً للعقول والنفوس ، وملءاً للبطون ، وقضاء للشهوات . . .

واعتماد المستدعى أن يهيئ لمدعويه كل أسباب المرح واللهو والتمتع . فمثلاً يعد المسكان ويختار الزمان ، ويبسط الأثاث ويمهد الرباش ، من كل ناعم وثير ، وخز وحريز . وتمد المواثيق ، وتزود بأنيق الأدوات وحالي الأواني . ويعد مالذ وطاب من الطعام والشراب ، من خمر عتيق ولحم لذيق وفاكهة طازجة ، وغير ذلك .

ويوكل أمر الخدمة إلى الحسان من الجوارى والغلمان والندمان ، الذين مهرروا في فن هذه الخدمة ، وعرفوا معنى النظرة والبسمة ، وتأدبوا بآداب هذه المجتمعات ، حتى صاروا فيها نجوماً لامعة وبدورا ساطعة ، يدورون على الجلاس بالإيناس ، ويمثلون الكيموس ، ويروون بمحاسنهم ظمأ النفوس . . .

وقد وضعوا للنديم والمنادمة آداباً تتبع واشتروطوا فيهما شروطاً تلتزم .

ولا ينسى الداعي أمر الغناء ، فيتخير له من يرى من مهرة الفنانين والفنانات . فيلعبون بالعود ، ويضربون بالجنك ويدقون بالدف .

والأزهار هنا وهناك ، منتورة ، من كل ورد جميل أو قرنفل عاطر ، أو ياسمين ضاحك أو غير ذلك . ورائحة الند تملأ الأنفاس والخياشيم ببخورها المنعش وبخارها الحفاز . . .

شاعت هذه المجالس الصاخبة اللاهية في عصر المماليك ، وشاعت الاستدعاءات إليها ، وشارك الشعراء بدورهم بتسجيلها ورسم صورها . فنظموا الأشعار وقصدوا القصائد وأرسلوا الرسل ، ووصفوا لإخوانهم ما هيء لهم في المجلس الخافل من طعام وشراب وغليلان وجوار وندامى وسقاة وأقداح . . . وأثنوا عليهم الثناء المستطاب .
وبذلك أبرزوا جانباً حياً نابضاً من جوانب المجتمع يتحرك بالعواطف والأحاسيس .

لقد كان الشعراء يصفون - عادة - لإخوانهم ، كيف أهدوا العدة للقاء ، وأخذوا الحيلة من الرقيب ، ورفعوا عنهم أسباب الخوف والحذر ، وضاعفوا دواعي السرور والصفو ، وحشروهم على الحضور ، والبركة في البكور . . .

وترى استدعاءاتهم مزوجة غالباً بخمريات عذبة ومجونيات سائغة أو سافرة ، وفكاهيات نادرة فضلا عما فيها من الأوصاف والغزليات والإخوانيات . كاشوق والعتاب على النطيفة ونحوها .

على أن الاستدعاءات من أجمل ضروب الإخوانيات وأنسبها ، وأطربها وأعذبها ، ومن أصدقها لا أكذبها .

وكثيراً ما يرد المدعو على الداعي مستجيباً له . بشكر رقيق وشعر أنيق ، يحمد له فيه اهتمامه به ودعوته له واشتياقه إليه ، ويثني على همته العالية وشهامته النبيلة .

ولا يفوتنا أن نذكر أن بعض الشعراء نظموا في الاستدعاء تمريناً للقرينة وتنفيذاً عن الأمانى المكبوتة . . ولم يخرجوا - مع هذا - عن أن يكونوا قد سجلوا هذا الجانب الطريف من جوانب المجتمع .

وقد حكي الأدفوى في كتابه ، الطالع السعيد ، عن الشاعر ، الحسن بن هبة الله الأدفوى ، أنه كان خفيف الروح ، ينظم الزجل والشعر . وتوفي عام ٧٢٠ هـ .

ومن استدعاءات هذا الشاعر ، قوله ، وقد هيا للمستدعي كل وسائل الأنس واللمو والتسلية . وقد جانس بين قوافي الأبيات :

إن المليحة والمليح كلاهما حضرا ومزمار هناك وعود
والروض فتحت الصبا أكامه فكانه مسك يفوح وعود
ومدامة تجلى الهموم فبادروا واستغنموا فرص الزمان وعودوا^(١)

وللأديب الأملعي الشاعر نضر الدين بن مكانس شعر في هذا الباب . ومن بينه قصيدة دالية فيها وصف ومجون مكشوف ، وفيها دعاة وشوق وعتاب على طول البعدو الصد .

وقد قدمها الأديب تقي الدين بن حجة الجوى بقوله :

ونقلت من خط صاحب نضر الدين بن مكانس ما صورته : كتبت إلى صاحبنا الأديب الفقيه العالم الحافظ الراوية أبي حفص سراج الدين عمر السكندري الشهير بالقوصي ، أستدعيه وفي الاستدعاء بعض المداعبة :

والحمد لله المجيب لمن دعاه .

يا ذا الذي فكره مثل اسمه يقدر	فندت عنا وما من شأنك القدر
بم اعتذارك عن هذا الصدود لنا	هذا وقد ضمنا بالجيرة البلد
عافك ربك من داء القطيعة بل	شفاك من كل داء أمره نكد
فيم التواني وشهر الصوم مقتبل	عن خمرة ضوؤها في الكأس يتقد
وفتية مخلصين الود قد جبلوا	على المحبة لا حقد ولا حسد

إن ذاع وصفك في ناديهـم طربوا
إن لم تشرف بناديهـم فاشرفوا
لم ذا هجرت بنى الآداب فابد لنا
قد صرت توحشهـم بعداً وإن قربوا
تركت عـشـرتهم لما رغبت إلى
ما هـكـذا تفعل الدنيا بصاحبها
وبعد فاحضر فذنب البعد مغتفر
أو لا فعصبة فسق كلهم شبق
لهم قيام طول دهرهم
أو جال ذكرك فيما بينهم سجدوا
أو لم تنفق لهم آدابهم كسـدوا
بـم اعتذارك لا أهل ولا ولد
وكنـت تؤنسهم قرباً وإن بعدوا
جاه طويل عريض زانه مـدد
فالناس بالناس والأحوال تنقـد
ولو تطاول من هجرانك الأـد
سود غلاظ شداد ما لهم عدد
من حين إدراكهم بالجلس ما رقدوا

وسدر الشاعر في مجونه الفاحش وأدبه المكشوف ، حتى قال :

ومن رأى وقعى هذى وليس يرى
بادر لنا فبنو الآداب كلهم
مولاي إني محب فاتخذ كلمى
وأنت أدرى بقوم إن قلوا سلقوا
لا زالت ترقى على زهر النجوم على
وأوعدوك فإن لم تأت نحوهم
عقبيها حاضراً لم يلهمه أحد
تجمعوا من فجاج الأرض واحتشدوا
بصحبة فعلها الخـل يعتمد
بالسن ما اقتلى حربها قود
ما حلت الريح أقوام وما رصدوا
فكلهم منجز في الحال ما يعد^(١)

ونظم صفي الدين الحلى استدعاء عرض فيه ما لديه من المعدات وأدوات
التسلية واللهو . قال :

أيا ابن الكرام الحكمة الحماة كنوز العفاف وكهف العفاة
ويا من يرى الجود حتما عليه وفرض الصلوات كفرض الصلاة

(١) تأهيل التريب ، باب الاستدعاءات — ومطالع البدور في منازل السرور لتزول مخطوط
بالمكتبة الأزهرية .

ومن رأيه في الأمور الجسا م سبل النجاح وسفن النجاة
لقد ساعد الفطر رب الصيام بعيد مواف وعيش مواف
وعندي ظي غريب الجمال عزيز الصفاء عزيز الصفات
يدير الصفاء كماء الحيا وماء الحياء وماء الحياة
وقد طبق الجو غيم جهام أحاط به من جميع الجهات
ونحن نقاتل جيش الربيع بزف الهناء وزن الهنات
فساعد سعدت بنيل الوفاق لأهل الوفاء قبيل الوفاة
وزرنا فإن الذاهبات إعادة أياها الذاهبات^(١)

ولصفي الدين أيضاً في المعنى نفسه :

ليس عنك مصطبر حين أسعد القدر
إن صفو عيشتنا لا يشوبه كدر
فابتدر لمجلستنا فاللبيب يبتدر
واستجب لشمس ضحا قد سعى بها قمر
والخطوب غافلة والرفاق قد حضروا
والعيون ناظرة والقلوب تنتظر
غير أنهم نفر عن رضاك ما نفروا
إن منحتهم شكروا أو منعتهم عذروا^(٢)

ولشباب الظريف يستدعي أحد أصدقائه :

يوم أنا في برده في برده أضحى بها مثل الحديد الماء
والأرض قد بسطت لحسن صنيعه بالثلج في الأرض اليد البيضاء

فاحضر فنحن كما نحب بمجلس لو لم تغب تمت به السراء

وعما له صلة وثيقة بالاستدعاء ، الحديث عن آداب النديم والمنادمة . ولا بأس بالاستطراد إلى ذكر شيء منه لما له من الصلة ولما فيه من الطرافة . ولدلالاته كذلك على بعض آداب المجتمع . وقد تحدثوا عنه نثرا وشعرا . وقرأنا النثر .

وقد نظم الشاعر الكيس الظريف الأديب نحر الدين بن مكناس قصيدة عذبة رائقة فكاهية في هذا الموضوع . وهي مزدوجة مجزوءة تقع في نحو ثمانين بيتا ، وضع فيها للنديم منهاج المنادمة ، وخط له سبيل المشاركة . وسماها « عمدة الحرفاء » وقدوة الظرفاء . وقد قال عنها تقي الدين بن حجة الحموي « إنها طرفة من الطرف » . وضمنها نصح وأدبا اجتماعية صادقة

قال نحر الدين بن مكناس في مطلعها .

هل من فتي ظريف	معاشر	حريف
يسمع من مقال	ما يهر	الآلى
أنسجه	وصيه	سارية سرية
تير في الدياجى	كلعة	السراج
رشقة الألفاظ	تسهل	للحفاظ
جادت بها القريحة	في معرض	النصيحة

ومنها يقن للنديم آداب المنادمة . فيقول :

ألبس حلا الخلاعة	واخلع ردا الرقاعة
ولا تطاول بنشب	ولا تفاخر بنسب
المرء ابن اليوم	والعقل زين القوم
ما أروض السياسة	لجراح الرياسة
إن شئت تلقى محسنا	فلا تقل قط أنا

وإن أردت لاتهم إذا ائتمنت لا تخن
العز في الأمانة والكيس في الفطنة
لا تغضب الجليسا لا تسخط الرئيسا
لا تصحب الخسيسا لا توحش الأنيسا
لا تكثر العتبا تنفر الأصحابا
فكثرة المعاتبة تدعو إلى المجانبة
وإن حلت مجلسا بين سراة رؤسا
أقصد رضا الجماعة وكن غلام الطاعة
واختصر السؤالا وقلل المقالا
ولا تكن معربدا ولا بغیضا نكددا
ولا تكن مقداما تسطو على الندای
لا تمسك الأقداحا تنقص الأفراحا . الخ (١)

إلى آخر هذه الأرجوزة الطريفة . وترى فيها ما يتطلبه القوم من آداب في
الندیم ، وأخلاق وعادات منه وقت المنادمة . ومن ذلك أن يتحلى بالخلاعة
ولا يتوانى في ذلك متراقعا . وألا يفخر أمام الجلاس بحسبه أو نسبه لأن ذلك
يؤدى إلى نفورهم منه . وأن يكون كیسا لبقا ذاسیاسة ومصانعة حتى يخضع له
القوم ويقبلوا عليه . وألا يتشدد بمفاخر نفسه ، وأن يكون أمینا لطیف الحديث
لا يغضب جلیسه ولا يسخط رئيسه . . إلى آخر ما رأيت في هذه الآداب .
وهى آداب فى جملتها تدل على أن المجتمع وصل إلى قدر كبير من الحضارة
والأنافة فى مجالس لهوه ومنادمته ، حتى أصبح سماره من رهافة الحس ورقة
الشعور إلى هذه الدرجة التى تطلبت من النديم كل هذه الآداب .

(١) راجع تأهيل الغرب باب « النديم » - ومطالع البدور فى منازل السرور للزولى ج ١ - مخطوط
بالمكتبة الأزهرية ورقة ٨٩ وروض الآداب للشهاب الحجازى مخطوط - بالمكتبة الأزهرية - ودیوان
نفر الدین بن مکاس مخطوط - بدار الكتب المصرية .

و - المجون :

واعل حديثنا عن الاستدعاء والمنادمة يجرنا إلى التحدث عن مجونياتهم .
والشعر لم يقصر في أن يكون صدى لما يحدث في مجالس مجونهم ، أو يكون ترجمانا
لما يدور بينهم من ضروب المجون . بل لقد انحدر الشعر إلى أن يكون في وصف
المجون صريحا مكشوبا ، يصطنع القول المرذول واللفظ الساقط العبارة . واعتقادنا
أنه بذلك معبر تمام التعبير عن واقع المجتمع . ونحن لانزال حتى اليوم نئن أننا
متواصلنا من سلاطة أسنة الناس واندفاعهم في ذكر فاحش اللفظ والتعبير ، في
مجونياتهم وغير مجونياتهم .

نقول إن الشعر هنا عبر فأحسن التعبير عن واقع المجتمع ، وإن كنا نربأ
بالشعر أن يهوى إلى هذا الحضيض من اللفظ المكشوف ، وإن فانه الصدق
وجانبته الأمانة . . .

ونحن نحدثك هنا في حذر واقتضاب دون أن ننساب في التمثيل مع المنسابين
في التعبير . . .

على أنه لا بد من القول إنه ما من مجتمع خلا من خلاعة وبجاعة ، فهما في
المجتمعات فطرة لا فرار منها ، شأنها في ذلك شأن الغزل . وكثيراً ما يكون
المجون أحد منحدرات الغزل ، حينما لا يتورع العاشق المفتون عن أن ينساق في
غزله إلى وصف دقائق الصلات الحسية بين العاشق والمعشوق .

والمجون قديم في الشعر العربي من لدن الجاهلية حتى اليوم . وقد راج في العصر
المملوكي رواجاً عظيماً ، إذ كان المراح ممرعاً والمرعى خصيباً . فقد امتلأت بيئاته
بأسبابه ودواعيه ، وتوافرت أنواع اللهو ما بين خمور وحشيش ورقص وغناء ،
إلى ما كان مباحاً من الأرقاء الحسان ، سواء من الجوارى أو الغلمان . لقد كثرت
التسرى واستخدم الغلمان في ألوان الخدمة ، مع ما لهم من جمال أخذ ومحاسن

فاتنة ، فدعرت بسبب ذلك جوانب من الحياة ، وفجر كثير من الناس ، وتنفس بعض الشعراء فسجلوا ما يرون وما يسمعون وما يفترون أو ما ينقمون .

وكما يدفع ضيق الحياة وشظف العيش ومعاماة الحرمان والفراغ من العمل الجدى ، إلى لون من ألوان اليأس ، يفضى بالمرء إلى الزهادة والنسك والتصوف - كما أشرنا - قد يفضى به أيضا إلى التهالك على طلب اللذة والاستمتاع ، ما وجد إلى ذلك سبيلا ، ليعوض نفسه ما فقدته ، ويتنفس بها عما كبته .

وقد يبالغ في ذلك ، حتى ينهارى إلى المجون والمبتذلات ، تشفيا من زمانه الجاحد ، وأيامه المشقية . . .

يقول زين الدين بن الوردى مصورا بقلم الناصح المرشد الحكيم المتبرىء ، ما استشرى بين قومه من محبة الغلمان ، وما اندفع إليه الشعراء من وصف هؤلاء الحسان :

من قال بالمرء فاحذر أن تصاحبه	فإن فعلت فتق بالعار والنار
بضاعة ما اشتراها غير بائعها	بئس البضاعة والمشرى والشارى
يا قوم صار اللواط اليوم مشتهراً	وشائعا ذائعا من غير إنكار
ذنب به هلك من قبلنا أمم	والعرش يهتز منه هز إكبار
جنات عدن عن اللواط قد حرمت	الله أكبر ما أعصاه للبارى
أستغفر الله من شعر تقدم لى	فى المرد قصدى به ترويج أشعارى
لكن ذلك قول ليس يتبعه	خنا وحاشاى من أفعال أشرار
قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم	دون النساء ولو باتت بأطهار ^(١)

(١) ديوان ابن الوردى ص ٢٥٦ والأطهار : أيام طهر المرأة .

ومهما يكن من شيء، فقد صار في الشعر معارض حافلة لهذه الحياة المأجنة التي اتصلت حبائلها بشرب الخمر ونحوه، وبالاستدعاء إلى مجالس الأُنس والمنادمة، وبالرغبة في التفكه والدعابة.

ومن بجان العصر : الوراق والجزاز والسروجي والإسعردي وابن دانيال الموصلي وإبراهيم المعمار والصلاح الصفدي والفخر بن مكاس .
ولم يحشتم بعض كبار الشعراء والجادون منهم عن الإسفاف إلى المجون والتصريح بما لا ينبغي التصريح به . ومن هؤلاء الجمال بن نباتة ، والصفى الحلبي والزين بن الوردى ومحيي الدين بن عبد الظاهر .

ومن مجونيات محيي الدين بن عبد الظاهر قوله :

أنا في العالم طرفة من أشد الناس حرفة
إن أجدر ردفا ثقيلا كان في الصرة خفة
أو أجدر هذا وهذا لم أجدر في الحال غرفة
أو أجدرهن جميعاً كان في الآلة وقفة
فتراني طول دهرى تائباً من غير عفة (١)

والصلاح الدين الصفدي في غلام :

أهوى بمر شفاه إلى وقالها ويلاه من رشاً أطاع وقالها
فرشفت من رشفاته معسولها وضممت من أعطافه عسائها
وظفرت في اليقظات منه بخلوة ما كنت آمل في المنام خيالها (٢)

(٢) عن دبعة الباكي للصفدي

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٢٧٩

ولفخر الدين بن مكاس من قصيدة استدعائه الماجة ، يصف عددا من رفاقه
البحان :

لهم ... قيام طول دهرهم من حين إدراكهم بالحس مارقدوا
كأنهم من حديد جمعوا زبرا يستوثبون فلايقواهم الأسد
من كل ... يحك السحب هامته يهيج كالبحر إذ يبدو له زبد
من نفل مكفهر مغضب شرس اظهره جملونات بها عقد
مسكرج الرأس في عرينه شمم معشر الدور في حلقومه غدد
تلك تراهم في بكورهم كأنهم تحت فسطاط السما عمد (١)

ولعز الدين الموصلى وفيه اقتباس ونورية :

قد سلونا عن المليح بخرد ذات وجه به الجمال تفنن
ورجعنا عن النهك فيه ودفعناه بالتى هى أحسن (٢)

وقال الأديب عبد الكريم بن على السمروردي القوصى المتوفى بعد عام ٧٠٠هـ
يهجر بعض التجار ، وكان قد طلب وجوزة هندية ، فلم يرسلها إليه :

طلبت منه جوزة منعتنى من قربها
وكم طلبت زوجة منك فلم تبخل بها (٣)

ولصفي الدين الحلى يصف ليلة سهاد :

وليلة طال سهادى بها فزارنى إبليس عند الرقاد
فقال لى : هل لك فى شفقة كيشية تطرد عنا السهاد

(٢) خزائن الأدب ص ٢٥٤ ،

(١) عن دمنة الباكي للصفدى .

(٣) الطالع السعيد رقم ٢٥٩ .

قلت : نعم . قال : وفي قهوة عتقها العاصر من عهد عاد
قلت : نعم قال : وفي مطرب إذا شدا يطرب منه الجماد
قلت : نعم . قال : وفي طفلة في وجنتيها للحياة انقاد
قلت : نعم قال : وفي شادن قد كحلت أجفانه بالسواد
قلت : نعم : فقال : نم آمنا يا كعبة الفسق وركن الفساد (١)

ومن مجونيات علاء الدين الوداعي قوله :

قيل إن شئت أن تكون غنيا فتزوج تكن من المحصنين
قلت ما يقطع الإله بحر لم يضع بين أظهر المسلمين (٢)

ز - الخزيات :

والمجونيات موصولة الحبيل بالخزيات ، فهما في أكثر الأحوال شقيقتان
متلازمان ، أو صنوان لا يفترقان . وقد وجدت الخزيات لها رجالا من شعراء
العصر . كما وجدت في سائر عصور الأدب . فالخز لازم من لوازم هذه البشرية
الشقية . سعى إليها السلطان والأمير والشريف والحقير والكبير والصغير ،
وامتدت راياتها ودارت كاساتها وانتصب سقاتها وتتابع روائها ، واجتمعت من
حول مجالسها المفاسد والشور ، ومغامرات الفجور . وشدا بذكرها الشادي
وتغزل فيها الغزل ، وانقطع لها المنقطع .

وهكذا استشرت في عصر الماليك ، وخطر الحشيشة معها . وتعددت
لها الدور ، واتسعت لها الصدور وحارل بعض العلماء الأعلام محاربتها غيرة على
الدين والخلق الكريم ، فأمر بعض الحكام بكفاحها والقضاء عليها وعلى أنصارها
هي والحشيشة سواء بسواء . ومنهم الظاهر بيبرس والظاهر لاجين : والكن
هيئات هيئات لإنسان سدر في غيه وانصرف إلى هواه . . .

ونظم بعض الشعراء فيها فوصفوها في قناتها ودنانها ، وفي قديمها وحديثها
وفي خباياها وجلالها . وفي ألوانها وأشعتها ، ووازنوا بينها وبين الشمس والقمر ،
وبين السحب والمطر . وفاضلوا بينها وبين الحشيشة الخضراء ، وما تصنع كل منهما
في عقول الأنصار والمخرمين . وتحدثوا عن مجاسهما ووصفوا ما تفعل كل منهما
في نفس الكريم والبخيل ، والفارس والجياني .

وذكروا ، عند ذكر الخمر ، جمال الليل ولمعان النجم ودنو الفجر وحسن
السقاة وحديث الندامى ، وخلطوا الغزل بها بالغزل في المعشوقين ، ومنجوا
محاسنها بمحاسنهم ، ومفاتيحهم بمفاتيحهم ، حتى صار قولهم فيها صرفاً مرة ، ومقتولاً
مرة أخرى . وأحلّه بعضهم في مطالع القصائد محل الغزل .

وهكذا كان شعرهم فيها رجاءاً للبيئة وأثراً من آثارها وصورة لأحد جوانبها .
ولا نجزم بدليل قاطع على أن أحد هؤلاء الشعراء قد اقترب ، إثمها فعلاً
وارتكب موبقتها عملاً ، إلا إذا نص على ذلك نص تاريخي وثيق .

ولنور الدين الأسعدي المتوفى عام ٦٥٦ هـ قصيدتان داليتان من بحر الطويل ،
يفضل في أولاهما الحشيشة على الخمر ، ويفضل في ثانيتهما الخمر على الحشيشة .
وقد علق ابن شاكر الكتبي في كتابه « فوات الوفيات » على ذلك بقوله :
« تأمل هاتين القصيدتين وكيف ناقض بينهما . وبهذا يعرف حذق الشاعر ،
فإنه يمدح الشيء ويذم ضده ثم يعكس . فيميل الطباع إلى ممدح ويصرفها عما ذم ،
من غير أن يغير حقيقة هذا ولا هذا » (١) .

فمن قصيدته الأولى يفضل الحشيشة على الخمر قوله :

لك الخير لا تسمع كلام المفسد ودونك في فتياك غير مقلد
سألت عن الخضراء والخمر فاستمع مقالة ذى رأى مصيب مسدد

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٠٢ وبه القصيدتان .

وحقك ما بالخمر بعض صناعاتها أتشرب جهرأ في رباط ومسجد
عليك بها خضراء غير مبالغ بأبيض ورق أو بأحمر مسجد
واكن على رغم المدام هدية تنزه عن بيع بغير الزهد
رياضية يحكى الجنان أخضرارها وخمرهم كالمارج المتوقد
مدامهم ينسى المعاني وهذه تذكر أسرار الجمال الموحده .. الخ^(١)

ومن قصيدته الثانية يفضل الخمر على الحشيشة قوله :

فديتك نور الحق قد لاح فاهتد نديمي وكن في اللهو غير مقلد
أنرضى بأن تمسى شبيه بهيمة بأكل حشيش يابس غير أرغد
فدع رأى قوم كاللدواب ولا تدر سوى درة كالكوكب المتوقد
مدام إذا ما لاح للركب نورها وقد ضل ليلا عاد بالنور يمتدى
حشيشتهم تكسو المهيب مهانة فتلقياه مثل القاتل المتعمد
ويبدو على خديه مثل أخضرارها فيضحى بوجه مظلم اللون أربد
وتفسد من ذهن النديم خياله فينظر مبيض الصباح كأسود
وخمرتنا تكسوا الذليل مهابة وعزافتلق درنه كل سيد .. الخ^(٢)

وقد مدحني الدين بن عبد الظاهر هذه المائدة ، ودعا إليها الأحباب ، فاستطابوا
هذا الشراب . فنظم وقال :

خمرة للشقيق أمست شقيقه بنت كرم بالمكرمات خليفه
قال قوم من لطفها هي في الكأس س مجاز والكأس قالت حقيقه
كيف تغدو عتيقة لدنان وهي في قبضة الندامى رقيقه
نتجت فرحة وجاءت بكأس صبغت حمرة فنعم العقيقه

هي مخلوقة من الماء فأعجب كيف نار من مزنة مخلوقة
كم تبدت بها معاني سرور بسوى الماء لم تكن مطروقة
سلفتنا على العقول وقالت بتوالى الحباب كنت الوثيقة
حملت همنا فحمدا وشكرا لعجوز على بنها شفيقة
كم بدت بالدموع منها الراوي ق ووجنات جيها مشقوقة
أتراني أعصى إلهي فيها ثم أخشى من أن يقول الخليفة (١)

ودحى أن السراج الوراق ، كان يغشى راهباً بدير شعران ، وافر العقل كامل
الفضل . نخرج إليه في جماعة من أهل الأدب . وشعبان قد بقى على أقل من نصفه ،
وبدره قد أخذ يتقهقر إلى خلفه . وشهر رمضان قد آن له أن تغل فيه شياطين
الأنام . ويختم فيه على الأفواه بالصيام . فآلفوا الراهب وقد لبس مسحه وساح .
وعزل الدير فما هبت فيه رائحة راح .

فلما رأوا أن دين رمضان قد حان حلول أجله . وأن وجه الدير الوقاح
مادبت فيه من الخثر حمرة خجله . خافوا أن يأتى الصيام ، وما تشعشع سوى قنديل
سجوره الذى بان . ولا ملك مدام يأتى منه أوائل ورد فى أواخر شعبان .

فندب السراج إليه راهبا من شباب الدير ، ليلتبعه . وكتب معه :

أبلغ الفاضل الرئيس السلا ما	شق عن زهره الصباح كما
قل له : أيها الحكيم الذى فى	دين عيسى قد برهن الأحكاما
كم رقبناك كالهلال إلى أن	لحت للناظرين بدرا تماما
يا أبا الملة المسيحية ارحم	معشرا مذظعت عنهم يتامى
فطمروا من رضاع كأس الحما	وهى أنكى للمرضعين فظاما

واستحلوا وضع الصليب من الرا ووق من بعد حملة أعواما
عدموا راحة النفوس من الرا ح فدارك بالأنفس الأجساما
وأطالوا حبس المدامة في الد ن ويسكني حبس المدامة عاما
ودعا الديك للصباح فهبوا كالحبين لا يعون الملاما
فاسقمهم من سلافة تطرد الهم وعجل لهم بذاك اهتماما
وعسى قائل يقول لحظي ونصيبي : أطلت في ذا الكلاما
كذب المدعى وآخر شعبا ن يناديني الصيام الصياما^(١)

ومدح جمال الدين بن نباتة ، كمال الدين بن الزملاكاني فصدر مدحته له
بأبيات خمرية عذبة جزلة . وقد أشرنا إليها عند حديثنا عن الإيحاء ، وما كان
من أمر المحاكاة بينها وبين تائيقي القيرواني وابن حجة .

والحق أن ابن نباتة أجاد فيها وأبدع ، وأفاد وأمتع . وقص خلالها قصته
مع الخمر وندمانها وسقائها ومغناها . وقد كان يطرق حانتها مبكرا في الليل إذ كانت
له في مصباه إليها عادات بالسبق ، ويقصد دبرها البعيد الذي أضاء - تحت جنح
الليل ، فتتبدى له في حجبها فيكشفها عنها ، وينحرف بها على جيش همومه ويجلوها
الندمان . مع أنها مصونة انقطعت دونها الغايات ، ومضيئة من حولها أشعتها .
وإذ بشرها يصرعون دبرن يجلسها وهكذا ثارت منهم لأنهم داسوها قديما
بأرجلهم . . . إلى آخر ما وصف .

قال في أسلوب جزل وعبارة طليعة ، ومعاني اللهج المستمتع النشوان :

ورب حانة خمار طرقت ولا حانت ولا طرقت للقصف حانات
سبقت قاصد مغناها وكنت فتى إلى المدام له بالسبق عادات

أعشوا إلى ديرها الأقصى وقد لمعت
وأكشف الحجب عنها وهي صافية
راح زحفت على جيش الموم بها
وبت أجلو على الندمان رونقها
مصونة السرمات دون غايتها
تجول حول أوانيمها أشعتها
ويصبح الشرب صرعى دون مجلسها
نذكرت عند قوم درس أرجلهم
واستضحكت فلها في كل ناحية
كأنها في أكف الطائفين بها
من كل أغيد في دينار وجنته
مبلبل الصدغ طول الوصل منعطف
ترنحت وهي في كفيه من طرب
وقمت أشرب من فيه وخمرته
تحت الدجى فكأن الدير مشكاة
لم يبق في دنها إلا صبايات
حتى كأن سنا الأكواب رايات
حتى لقد أصبحوا من قبل ما ماتوا
حاجات قوم وللحاجات أوقات
كأنما هي للكاسات كاسات
وهي الحياة كأن الشرب أموات
فاسترجعت من رهوس القوم ثارات
هبات حسن وفي الأناف هبات
نار تطوف بها في الأرض جنات
توزعت من قلوب الناس حبات
كأن أصداغه للعطف واوات
حتى لقد رقعت تلك الزجاجات
شربا تشن به في العقل غارات .. إلخ (١)

ويكاد برهان الدين الفيراطى يجرى في نظم خمرياته وبناء أبياتها وإسكانها
المعاني ، على تصميم نباتي متين . وفي إحدى هذه الخمريات يبدع ويبتسكز ، ويعجل
إلى الخمر فينادم بدرسمائها ، ويرى شمسها تشرق في أكف السقاة . وقد ركب إليها
الليالي دهما ، ورفع كئوسها على جباهها غررا ، وأنفق ديناره وأعوامه على
دينارها وساعاتها .. إلخ .

يقول :

كم ليلة نادمت بدرسمائها والشمس تشرق في أكف سقاتها
وجرت بنا دهم الليالي للصبا وكئوسنا غرر على جبهاتها

فصرفت دينارى على دينارها وقضيت أعوامى على ساعاتها
حالت فى الصهباء كل مقلد وسعيت بجتهدا إلى حاناتها
فتحير الخمار أين دناتها حتى اهتدى بالطيب من نفحاتها
فشمتها ورأيتها ولمستها وشربتها وسمعت حسن صفاتها
وتبعت كل مطاوع لا يخشى عند ارتكاب ذنوبها تبعاتها
يأتى إلى الذات من أبوابها ويحج للصمب — فى ميقاتها
ياصاح قد نطق الهزار مؤذنا أيلق بالأوتار طول سكاتها
نخذ ارتفاع الشمس من أقداحنا وأقم صلاة اللهو فى أرقانها
إن كان عندك يا شراب بقبة مما تزيل به العقول فها هنا
وإذا العقود من الحجاب تنظمت إياك والتفريط فى حباتها... (١)

وملاً صدر الدين بن الوكيل المصرى بعض زجاجاته من هذا الفن ، فعتقت ،
ولم يبال فى سبيل ذلك بلوامه ولا بفضته ولا ذهبه ، ولم يأسف على مال تتلفه
السقاة والخرد ، فما كسوه حلة من راحها إلا خلعوا عنه ثوب الهم ، وما هى إلا
التبر المسبوك ، وقيراط منها على قنطار من الحزن ، يحيله أفراس... إلى غير
ذلك من المعانى الغزلية الخرية قال :

ليذهبوا فى ملاهى أية ذهبوا فالخر لا فضة تبقى ولا ذهب
لا تأسفن على مال تمزقة أيدى سقاة الطلا والخرد العرب
فما كسوا راحتى من راحها حللا إلا وعروا فؤادى الهم واستلبوا
راح بها راحتى فى راحتى حصلت فتم عجبى بها وازداد لى العجب
إذ ينبع الدر من حلو مذاقته والتبر منسبك فى الكأس ينسكب

(١) تأهيل الفرب باب الخريات - ورياض الألباب النواحي خطوط - ومطالع البدور للغزولى -
مخطوط بمكتبة الأزهر - وروض الآداب للشهاب الحجازى ورقة رتم ١٣ - مخطوط بمكتبة الأزهر .

وليسـت الكيميا في غيرها وجدت وكل ما قيل في أبوابها كذب
قيراط خمر على القنطار من حزن يعود في الحال أفراحا وينقلب
عناصر أربع في الكأس قد جمعت وفوقها الفلك السيار والشهب
ماء ونار هواء أرضها قدح وطرफها فلك والأنجم الحبيب ... إلخ^(١)

ومن الطريف أن الظاهر يبهرس ، لما أمر بإبطال شرب الخمر والحشيش ،
جعل الحد على إثمها الضرب بالسيف . فأمسك المدعو ، ابن الكازروني ، وهو
سكران . فأمر الظاهر بصلبه وفي حلقه جرة خمر ...

فقال شمس الدين بن دانيال الموصلی :

لقد كان حد السكر من قبل صلبه خفيف الأذى إذ كان في شرعنا جلدا
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبي ألا تب فإن الحد قد جاوز الحد^(٢)
وهكذا يسجل ابن دانيال واقعة التحريم وواقعة العقوبة ، بأسلوبه الفسك ،
الذي لم يخل من النكتة ومن النقد . إذ ذكر أن العقوبة قد جاوزت الحد الذي
رسمه الشرع ...

ومن هذا القبيل أيضاً ، يبتاه الآتيان . وفيهما يذكر نهى السلطان بالعقوبة
التي قررها كذلك . ويتفكه ابن دانيال فيهما ، ويذكر أن ملوك الجن خشيت
العقوبة — وهي ملوك — فلم تجسر أن تدخل في القناني .
يقول ابن دانيال :

نهى السلطان عن شرب الخميا وصير حدها حد الناني

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٣١٧ — ومطالع البدور للغزولي — مخطوط بمكتبة الأزهر .

(٢) فوات الوفيات لابن شاكر ج ١ ص ١١٥ ، ١١٦ ط بولاق .

فما جسرت ملوك الجن خوفاً لأجل الخمر تدخل في الفئاني^(١) -

ويتفكر الشاعر ناصر الدين بن النقيب ، ويسخر بإبليس ، بهذه المناسبة . ويرى أنه لم يعد له في مصر ، ماء ولا مرعى . أى لم تعد له فيها وسائل الحياة .

والشاعر يرمرز بالماء والمرعى إلى الخمر والحشيش . فقال موريا :

منع الظاهر الحشيش مع الخمر فولى إبليس من مصر يسعى

قال مالى وللمقام بأرض لم أمتع فيها بماء ومرعى^(٢)

وهكذا اضطر إبليس اضطرارا - بفضل السلطان الظاهر بيبرس - إلى عدم دخول مصر ولم يعد له في ربوعها طمع . وأصبحت غير بلادهذا السلطان هي مأواه .

وإلى هذا المعنى يشير الشاعر ، القاضي ناصر الدين بن المنير ، : ويرمرز أيضاً بالماء والمرعى ، كما رمرز ابن النقيب ، فيقول .

ليس لإبليس عندنا طمع غير بلاد الأمير مأواه

منعته الخمر والحشيش بما أحرته ماءه ومرعاه^(٣)

ولابأس من أن نذكر لك في أعقاب هذا الحديث ، أن الرجل شارك الشاعر في هذا الباب ، كما شارك في كثير من الأبواب . ومن بدائع ما نظمها في ذلك منه الشاعر ابن دانيال أيضاً وله زجلية فريدة في هذا الباب بموضوعها وطولها وتفصيلها ، لما سجلته من النوازع النفسية والآفة حالات العميقة . التي تدل على تأثر عظيم بحادث النهي عن شرب الخمر وفداحة العقوبة عليه . وهذا مع البساطة في التعبير ، والوضوح في الصورة ، وإسباغ الجو الفكاهي المعتاد من ابن دانيال ، وهو الجو الغالب ، الذي تشيعه الروح المصرية المرححة الناقدة .^(٤)

(١) فوات الوفيات لابن شاكر ج ١ ص ١١٥ ، ١١٦ ط بولاق .

(٢) تراجع زجلية ابن دانيال في بدائع الزهور لابن إياس ج ١ ص ١٠٥ .

ح - الغزل :

وتسلمنا الخربات إلى الغزل . وكثيرا ما يكون أحدهما داعيا إلى الآخر .
والمرء أن يتساءل : هل كان الناس في ذلك الزمان يعشقون ويتغزلون . وهل
كانوا يمشون للوصول ويحزنون للفراق . وهل كانوا يسمدون والأشواق تلعب
بهم ، والآمال تداعب نفوسهم . وهل كان شعراؤهم على غرارهم يعشقون ويتألمون
وينفثون أشواقهم وأحاسيسهم شعرا سائغا وغزلا رطبا . وبعبرون بذلك عن
مكنون آلامهم وآمالهم . ويصورون به صورة طليعة من صور المجتمع . صورة
من أهم صور النفسية . وأدق مظاهره العاطفية ؟؟

وكيف لا ، وأسباب الحب من حولهم موفورة ، ودواعي العشق متكاملة .
والعصر عصر الرقيق وعصر التسرى وعصر حرية خلقية واسعة النطاق ، لاجرج
فيها ولا خشية منها ولا رقيب عليها ، إلا الوازع الشخصي . . .

لقد كانت مجالس الأناش والشراب حافلة ، وأوقاته معمورة يغشاها الخنى
المترف ليصيب بماله ما شاء من اللذة . ويختلف إليها الفقير المدقع ليدفن فيها
ما أشقاه من الهموم ، ويذيب أحزانه بشرابه ، ويفرج من كربه بغزله ومرحه . .
والشاعر يرى ويحس ويشارك ، فيغنى نفسه وغيره ، ويصور عصره . .

لا عجب إذا ما رأينا الغزل بين فنون شعرهم حينذاك ، بل في مقدمتها . لقد
نظم فيه شعراء العصر وأجادوه ، وافتنوا فيه ونوعوه . ومقطوعاتهم فيه لا تعد
ولا تحصى . ومطولاتهم أكثر من أن تستقصى .

نظمه بعضهم وهو صادق في شعره ومعبر عن نفسه وضميره . ونظمه بعضهم
تقليدا ومحاكاة وتمرينا للفرجة . ونظمه بعضهم لالتئام ضرب فيه من ضروب
البديع كتورية أو اقتباس أو تضمين أو جناس أو مطابقة أو غيرها . ونظمه
بعضهم ممزجا بالوصف أو الخريات . وأغرم به الأدباء كما نظمهم العلماء والفقهاء

بل والنسك والاتقياء ككشرف الدين البوصيرى وشهاب الدين بن حجر
العسقلاني .

ويختلط الغزل ببث الاشواق وشكوى الفراق ، وذكر الحجر والصد ،
ووصف السهد والوجد ، أو نعت الطرف والخد ، والردف والقدر . واستعطاف
الجمال ، واستسباح الدلال . وذكر الواشى النمام ، والرقيب المحتمل . والعذول
القول . أو مناجاة الطيف وتوصية الرسول ومساءلة النسيم ، أو مخاطبة منازل
الأحبة . ومغازلة الرياض الرطبة . وما فيها من الورود والأزاهير . والعنادل
والطيور . وقد ينزلق المتغزل إلى المجون ، وإلى اللفظ كيف يكون .. وفى كثير من
غزلياتهم همسات نفسية جميلة ، وهجسات عاطفية نبيلة . .

وغلب عندهم تذكير المحبوب على تأنيثه . ولعل بعضهم أراد بذلك تذكير
اللفظ فحسب مع تأنيث المعنى ... ولكن إلى جوار ذلك تغزلوا فى المذكر غزلا
صريحا لامواربة فيه ولا تأويل له . فوصفوا مثلا عذاره وعارضه ، ونعتوا
فروسيته وفتكه بعاشقه وذكروا سبيله وشاربه . وغير ذلك .

وحوادث العصر وجملة وقائمه الأدبية تدل على أن الشعراء تغزلوا بالمدكر
على الحقيقة لأعلى المجاز . وأن محاوراتهم للاتصال بالذكور ، مذكورة . ولا عجب !
فهذا عصر المملوك والرقيق ، وبينهم المحبوب والصدیق وجمال الترك والجرکس
ومن إليهم صارخ ، مع سهولة الوصول ، والبلوغ إلى المأمول . .

يقول صلاح الدين الصفدى فى مقدمة كتابه «دمعة الباكى» ، ما مؤاده : «إنه
كان خاليا من العشق والهيام حتى صانف جماعة من الغلمان الأتراك فأصابه من
من الهوى ولا سببا من أحدهم . ثم أتاحت له فرصة الاختلاء به . فعنفه هذا
الغلام على حبه . بعدما كان يزجر المحبين من قبله . فادعى له أنه قدر محتوم وقسم
مكتوب . ثم طفقاً يتناجيان الغرام واللوعة . ويتبادلان اللثمة والدمعة . وكل
ذلك فى لطف عبارة وجميل إشارة ثم افترقا بعد أن تشاكيا . وتواعدا ثم

تراسلا ثم تلاقيا . ، وهكذا . (١)

وقال الصفدى يصف غلمان الأتراك :

لم تترك الأتراك بعد جمالها حسنا لمخلوق سواها يخلق
جذبوا القسى إلى قسى حواجب من تحنها نبل اللواحق ترشق
نشروا الشعور فكل قد منهم لدن عليه من الذوائب سنجق
لى منهم رشاً إذا قابلته كادت لواحقه بسحر تنطق
إن شاء يلفانى بخلق واسع عند اللقاء نهاه طرف ضيق (٢)

وقال الصفدى أيضاً يذكر العارض .

وأهيف كالغصن الرطيب إذا انثنى تميل حمامات الأراك إليه
له عارض لما رأى الطرف ناعسا أتى خده سرّاً فدب عليه (٣)
ويصف جمال الدين بن نباتة العذار السائل ، وقد أجاد التضمين والتورية ،
وأخرج المضمن مخرجا جديدا :

وضعت سلاح الصبر عنه فماله يقاتل بالألحاظ من لا يقااله
وسال عذار فوق خديه جائر على مهجتي فليتق الله سائله (٤)

وبتغزل بدر الدين يوسف بن أوّل الذهبى ، غزلا مذكرا رقيقا جدا ، فيذكر
ريح العطف وشبا الطرف ، وبرد الثغر وبدر الأفق ونبت العذار . .
ويستمر فى توجيهاته المورية الطريفة ، التى استمدّها من الذهب وصرفه
وحاصله وباقه والمنتظر عليه والمكسور منه . . الخ .

(٢) دمه الباكي للصفدى .

(١) مقدمة دمة الباكي للصفدى .

(٣) خزنة الأدب باب . .

(٤) ديوان ابن نباتة حرف اللام .

يقول:

وإني يصول بأسمر من عطفه وبأبيض ماضى الشبا من طرفه
يفتر عن برد بفيه أذابني ظمأ وكدت أذيه من رشفه
عائنت بدرا في الثريا طالعاً من وجه لما بدا في شفه
وسنان ساجي الطرف نبت عذاره غصن يصاب بذابل من عطفه
فرحم معنى في هـواك معنفاً قد شفـه ألم القطيعة فاشفه
ألقاه كالذهب الخلاص زمانه فلذاك قد أجنى عليه بصرفه
متصرف في الحب حاصل دمعـه كاف وباقى صبره لم يكفه
فإلى متى يشكو ظلامه ناظر أو حاجب لا يرعوى في عشفه
فالقلب مكسور على بح الضنى ومتى استقال من الهوى لم يعفه (١)

وللعلامة شمس الدين بن خلكان المؤرخ ، قصيدة غزلية رقيقة ، نسب فيها ،
وذكر حالى لياليه الماضية مع أحبابه ، وخاطب فيها ديارهم ، وتشوق إليهم ،
وشكا فراقهم ، وتمنى فى المنام زيارة طيفهم ، ورجا من الله قريب وصالحهم . .

قال فى رقة وفى لفظ غزل عذب ، وقافية ناعمة لدنة . . .

ياديار الأحباب لازالت الأد مع فى ترب ساحتيك مساله
وتمشى النسيم وهو عليل .. فى مغانمك ساحبـا أذباله
أين عيش مضى لنا فيك ما أسـرع عنا ذهابـه وزواله
حيث وجه الشباب طلق نصير والتصاى غصونه ميساله
ولنا فيك طيب أوقات أنس ليقنا فى المنام نلقى مشاله
وبأرجاء جوك الرحب سرب كل عين تراه تهـوى جماله
من فتاة بديعة الحسن تنو من جفون لحاظها مغتاله

ورخيم الدلال حلو المعاني تتثنى أعطافه محتاله
ذوقوام تود كل غصون بان لو أنها تحاكي اعتداله
وجهه في الظلام بدر تمام وعذاراه حوله كالهاله
ظبية تهر العيون جمالا وغزال تغار منه الغزالة . الخ (١)

وما كان أكثر غزليات الشاب الظريف . وما كان أرقها وأعذبها ، وما كان
أدلها على نفس عاشقة ، وقلب مشوق . وأغلب ما في ديوانه غزل رقيق تتدفق منه
العاطفة . ولعله أصدق الشعراء غزلا وأرقهم تشبيهاً .

وهاهي ذى بعض أبيانه التي تنم عن محب مغرم ، شفقه الوجد . ونم عليه الدمع
والسهد . قال في صدر إحدى مدائحه :

لى من هواك بعيدة وقريبه ولك الجمال بديعه وغريبه
يا من أعيد جماله بجلاله حذرا عليه من العيون تصيبه
إن لم تكن عيني فإنك نورها أو لم تكن قلبي فأنت حبيبها
هل حرمة أو رحمة لم تميم قد قل فيك نصيره ونصيبه
ألف الفصائد في هواك تغزلا حتى كأن بك النسب نسبها
هب لى فؤادا بالغرام تشبه واستبق فودا بالصدود تشبيهه . الخ (٢)

وتقى الدين السروجى يذيع هواه المكتوم ويشرح هواه المضنى ويقرأ كتاب
أشواقه ويترجمه بدمعه ويكتبه على خده . ويقول مخاطباً معشوقه :

سأردعك السر الذى قد كتمته وأعلمك الأمر الذى قد علمته
وأفهمك المعنى اللطيف من الهوى وأشرحه حتى تقول فهمته

فَعَنْدِي حَدِيثُ مَنْكَ سَوْفَ أَقُولُهُ إِذَا مَا خَلَوْنَا سَاعَةَ الْوَصْلِ قَلْبُهُ
وَتَقْرَأُ مِنْ شَوْقِي كِتَابًا مَرْتَجَمًا بَدَعِي عَلَى خَدِي إِلَيْكَ كَتَبْتُهُ
وَبِي مَنْكَ دَاءُ أَصْلِهِ كَانَ نَظَرُهُ عَدِمْتُ أَصْطَبَارِي عَنْكَ لَمَّا رَجَدْتُهُ . الخ (١)

وتغزل سراج الدين الوراق ، غزلا مؤثنا . وفي قوله مناجاة وقصة ، قال :

شمت برقاً من ثغرها الوضاح والدجى سيره مهبض الجناح
فتمازى شكى به ويقينى هل تجلى الصباح قبل الصباح
فأجابت متى تبسم صبح عن حباب أو لؤلؤ أو أفاح
ومتى كان للصباح شميم الـ مسك أو نكهة كهصرف الراح
سل رحيق المسكوب تسأل خبيراً باغتياق من خمرة واصطباح
قلت مالى وللسكارى فقالت أنت أيضاً من الهوى غير صاح
حجة من مليحة قطعنى هكذا كل حجة للملاح
لا ولخط كفترة النرجس الغض وخد كحمرة التفاح
ماتقنت بل ظننت وما فى الـ ظن ياهذه كبير جناح
وكثيراً شبهت بالبدر والشمس س وساحت فارجمى للسماح
وافعللى ذامن ذاك واطر حى القو ل اطر احنى عليك قول الملاح (٢)

وصدر الشاعر المجيد شمس الدين القادرى إحدى مدائحہ بغزل مؤث تقليدى .
ولممكنك ستشعر من أبيانه بأنه ينفثها من ذات نفسه ومن بين أضالعه . ومرج
فيها بين الوصف الحسى والمعنوى مزجا شبيها ، لم تزايله العاطفة ولم يفارقه لونه
الوجدانى . قال فى عبارات خلة وتراكيب جزلة :

وبى عادة كالشمس فى أفق حسنها نأت وبقلبي حرها يتوقد

ولو هددت رضوى بتبريح حجرها لأمسى من التهديد وهو مهدد
خفيفة أعطاف نشارى من الصبا ثقيلة أرداف تقيم وتقعيد
من النافثات السحر فى عقد النهى بنجلاء عنها سحر هاروت يسند
وعبى تروى عن معين دموعها وسمعى عن عذل العذول مسدد
وأعجب من جسم حكي الماء رقة يقل بلطف قلبها وهو جليد
محيا كبد التم فى جنح طرة يظل به غصن النقا يتساود
وجنات وجنات بماء نعيمها على النور نار أصبحت تتوقد
مهاة إذا استنتت بعود أراكمة على متن سمطى أولو يتردد
تريك ثنيات العقيق وبارق جلالى النقا منه العذيب المبرد . الخ (١)

وتها لك صدر الدين بن الوكيل على الخمر ، فشيب بها ، وملا أقداح فنه من
ذهبها . وانساب فى إحدى خمرياته إلى وصف منادمته فى شربه ، وهى حسناء من
بنات الترك ، لها بها ، فألهته عن خمره ، وأيقظته على ملاحظتها فأنشئ بصفها
وينعت محاسنها ويذكر أبيانها فيها ، ما فى قلبه من حسنها ولا عجة بحبها .
قال :

عاطيتها من بنات الترك عاطية لحاظها للأسود الغلب قد غلبوا
هيفاء جارية للراح ساقية من فوق ساقية تجرى وتنسرب
من وجهها وتثنيها وقامتها نخشى الألهة والقضببان والقضب
يا قلب أردافها فمهما مررت بها قف بى عليها وقل لى هذه الكشب
وإن مررت بشعر فوق قامتها بالله قل لى كيف البان والعذب
تريك وجنتها ما فى زجاجتها لكن مذاقته للريق التمسب
تحكى الثنايا الذى أبدته من حجب لقد حكيت ولاكن فاتك الشنب . الخ (٢)

(١) حسن المحاضرة ج ١ باب ذكر الشعراء والأدباء . (٢) تأهيل الغريب باب الخمريات .

وانختم الحديث عن فن الغزل بالإشارة إلى غزل « شرف الدين البوصيري » ، صاحب البردة ومادح الرسول عليه السلام ، ذلك الشاعر الذي كان في عصر المماليك صاحب مدرسة في هذا الباب . على ما رأينا ، وكان رجلا تغلب عليه التقوى وينزع نحو التصوف . فهو بفطرته ونشأته واتجاه الحياة به ، أبعد عن الغزل ومغامراته .

نقول ذلك لأن له قصيدة كاملة في الغزل . وهي قصة وصف فيها مغامرة طريفة وقعت له مع جارية حسناء . فهمى من الفن الشعري الرقيق الذي سبق به امرؤ القيس وأرسي دعائمه عمر بن أبي ربيعة .

وهي إلى جانب غزلها القصصى والحوارى ، وإلى حوادثها أو خطواتها الواقعية التى تجعلها من قبيل « الاعترافات » ، تصاحبها الفكاهة والنكتة وأساليب العامة وأمثالها ، كمادته .

يقول الشاعر :

أهوى والمشيب قد حال دونه والتصافى بعد المشيب رعونة
أبت النفس أن تطيع وقالت إن حبي لا يدخل القينة
كيف أعصى الهوى وطينة قلبى بالهوى قبل آدم معجونة
سلبته الرقاد بيضة خدر ذات حسن كالدرة المكنونة
سمتها قبله تسربها النفس فقالت : كذا أكون حزينة
قلت : لا بد أن تسيرى إلى الدار فقالت : عسى أنا مجنونة
قلت سيري فإننى لك خير من أب راحم وأم حنونة
أنا نعم القرن إن كنت تبغين حلالا وأنت نعم القرينة
قالت : اضرب عن وصل مثلى صفحا واضرب الخل أو يصير طحينه
لا أرى أن تمسنى بد شيخ كيف أرضى به لطشتى مشينة
قلت إنى كثير مال فقالت هبك أنت المبارز القارونة
سيدى لا تخف على خروجى فى عروضى فقطنتى موزونة

كل بحر إن شئت فيه اختبرني لا تكذب فإنني يقطيئة (١)
لقد علق المرحوم زكي مبارك على هذه القصيدة وقال عنها : وهذا أيضاً شعر
ضعيف ولكن فيه حكاية ظريفة من حكايات مولانا الشيخ رضى الله عنه
وأرضاه (٢) .

والشعر ضعيف حقاً . وهو مستوى البوصيرى فى النظم - فيما عدا البردة -
غير أن الناقد يتهم بالرجل . ويغلب على الظن . بل نعتقد أن البوصيرى ساق
القصة ، وللخيال فيها أكبر نصيب . دأبه فى ذلك دأب كثيرين غيره من شعراء
عصره ، ممن دفعهم التقليد إلى تكلف الغزل . وحسب البوصيرى من هذه القصة
اختبار القريحة وتمرين الخيال والشاعرية .

والقصة بعد ، بعيدة الوقوع من رجل كالبوصيرى غلبت عليه نزعة التصوف
والتوجه إلى الله ورسوله . أو لم ينظمها وقد خطه المشيب ؟ وهو نفسه يقول :
أهوى والمشيب قد حال دونه والتصابى بعد المشيب رعونة

ونعتقد أنه مشيب فى زمانه وموعده ، وليس مبكراً . والاستفهام فى البيت
للتعجب أو الدهشة أو الإنكار . وهو دليل على ضعف الشيخوخة الذى يشعر
به الشاعر ، وهو لا يعين على التصابى . . وبعد فليس فى القصة حرارة الشباب
ولا اندفاع الرغبة ولا حيلة الغزل . . إنما هى مراودة مكشوفة ساذجة ، ومحادثة
عشق فائرة ، ومغريات لا افتنان فيها ، لا يلمح بها عادة رائد من رواد العشق والغزل ،
فضلاً عن شاعر يصدر عن مشاعر صادقة ، ويترجم عن نفس مؤمنة بما تقول . .

ويشير ذكر الغزل فى خواطرننا ، ما تناوله الشعراء من نواحي الجمال الإنسانى
فوصفوه وأبدعوا فى إبراز صفاته . فمن ذلك ما قالوه :

(١) فوات الوفيات لابن شاكر ج ٢ ص ٢٥٨ .

(٢) المدائح النبوية لزكى مبارك .

في العيون :

قول علاء الدين الوداعي في سود العيون ، التي رمت فأصمت ولم تخطيء ، لأنها
سهم ليل :

رمتني سود عينيهِ فأصمتني ولم تخط
وما في ذلك من بدع سهم الليل ما تخطي^(١)

وجمال الدين بن نباتة يجد في لحاظ العين أسهما مسددة رشيقة ، ومن سحرها
تجرد فيلقاً غازياً يلقي به في الهلاك ، يقول :

حربي من مہمفہ القد رام أسهم اللحظ ما أسد وأرشق
كلما قلت يفتح الله بالوصل رمان من سحر عينيهِ فيلق^(٢)
وكرر ابن نباتة ذكر سحر العينين وقرنه بقوسى الحاجبين ، في قوله
مع الاقتباس :

وأغيد جارت في القلوب لحاظه وأسهرت الأجفان أجفانه الوسنى
أجل نظراً في حاجبيه وطرفه تر السحر منه قاب قوسين أو أدنى^(٣)
ووصف شهاب الدين بن حجر العسقلاني تفويق سهم الالحاظ وتقوس
الحاجبين في قوله :

سألت من لحظه وحاجبه كالقوس والسهم موعداً حسناً
ف فوق السهم من لواظله وانقوس الحاجبان وقت رنا^(٤)
وفي قوله : « وقت رنا ، أو « واقتربنا ، جناس التورية .

في اللحظ :

لقد تخيلوه سهما وسيفا ، وتخيّلوا الطرف سيفا ، والجفن غمدا . وتلاعبوا
بلفظي السيف والغمد ، كما شاء لهم الخيال . والسهم يجرح ، والسيف يردى ،
وكلاهما يخشيان ..

ويقول مجير الدين بن تميم في ذلك ، مع التضمين البديع :
بروحى من الأتراك ظي تخافه إذا ما سطا أسد الشرى وتحاذره
فما حيلتى فيمن إذ ارميت وصله ثنى طرفه نحو الحسام يشاوره (١)
ويقول شمس الدين بن الصائغ :

قد زاد في التفنيد لى عاذلى على هوى من لم أطق بينها
حتى بدا من لحظها صارم فقر لما أن رأى عينها (٢)

وكثيراً ما يقف العذار ناهياً عن المحبة ، ومحذراً من الدنو ، وعاذلاً رقيباً
في طريق الهوى ، فيغرى اللحظ بها ويدفع إليها . وفي هذه المعاني يقول ابن نباتة
مضمناً أحد مطالع أبي تمام ، ويخرج بشطر البيت المضمن عن طريقه الأول إلى
طريق الغزل . يقول :

خط العذار نهانى عن محبته وقال حسبك قد أسرفت في الطلب
ولحظه قال لى سلوانه غلط والسيف أصدق أنباء من الكتب (٣)
ويستعير ابن العفيف ، السنان للحظ . ويتلاعب بلفظ السنان . ويمهد
لتلاعبه . وذلك بقوله :

بدوى كم جدلت مقلتاه عاشقاً في مقاتل الفرسان

ذو حيا يصيح بالهلال ولحاظ يقول يا السنان (١)
وجمع البرهان القيراطي بين السيف والسنان في قوله ، مع التورية اللطيفة :
شبه السيف والسنان بعينى من لقتلى دون الأنام استحلا
فأبى السيف والسنان وقالوا حدنا دون ذاك حاشا وكلا (٢)
وجمع ابن نباتة بين الهلال في الوجه ، وبين الغزال في جمال العين وسحرها ،
وذلك بقوله مع التورية في توكيده :

نسبوه حسنا للهلال وعينه للظي تنسب لا رميت بدينه
فاذا بدا فإلى هلال أصله وإذارنا فهو الغزال بعينه (٣)
وينتقل مجير الدين بن تميم باللحظ إلى الصمباء . فيمزج بينهما مزجا لطيفا ،
ويجمع شملهما . ويقم من اللحظ ساقيا لها ، ويمهد بذلك لذكر انعكاس
الطرف . يقول :

روحي انقضاء لمن أدار بلحظه صمباء في عقلى لها تأثير
فاعجب له أنى يصون بلحظه مشمولة وإنأوها مكسور (٤)
وتغار عيون النرجس من عيون الحبيب . وفي الجمع بينهما على أساس من
الغيرة ، تشبيهه ضنى طريف . — لقد نظم ذلك المعنى ، الأديب شهاب الدين بن
حجر العسقلاني ، في بيتيه اللذين يصور فيهما زيارة حبيبته الروضة . يقول :
ولم أنس إذ زار الحبيب بروضة فغارت من المعشوق أعينها المرضى
ولاح بخد الورد حمرة خجلة إلى أن رأينا طرف نرجسه غضا (٥)
وفي لفظ «المعشوق» تورية بمعنى المحبوب ، وبمعنى مكان وهزه في الروضة .
— وفي لفظ «غض» تورية أخرى بمعنى الفعل أو الاسم .
وفي سحر العيون تحدث ناصر الدين بن النقيب ، فقال :

وما بى سوى عين نظرت لحسنها وذاك لجملى بالعيون وعرتى
وقالوا به فى الحب عين ونظرة لقد صدقوا عين الحبيب ونظرتى (١)
وصرح شهاب الدين أحمد بن عبد الدايم ، بما فعلته به العيون ، وما رمت
به القلوب . وهو إلى هذا يدعو لها . ويقول :

لا واخذ الله عينيه فقد نشطت إلى تلافى وفيها غاية الكسل
ترى القلوب فما ندرى أقام بها هارون أم ذاك رام من بنى ثعل (٢)
وجمع تقي الدين شبيب النيرى بين شقائق الخد ولآلى الثغر وغز الى الطرف ،
موريا بأسماء بعض الأعلام ، فقال :

ومفهمف قسم الملاحه ربهما فيه وأردعها بغير مثال
فلخده النعمان روض شقائق ولثغره النظام عقد لآلى
ولطرفه الغزال إحياء الهوى وكذلك الإحياء للغزال (٣)
ويدعو الشاب الظريف للعيون بأن يعز الله أنصارها ويخلد ملكها ،
ويضاعف بفتورها اقتدارها . يقول :

أعز الله أنصار العيون وخلد ملك هاتيك الجفون
وضاعف بالفتور لها اقتدارا وإن تك أضعفت عقلى ودينى (٤)

فى الدمع :

ومن لوازم المحبين ، وجد مقيم وعذاب ألیم . وشوق وحزين ، وبكاء وأنين ،
وزفرات حارة حامية ، ودموع واكفة جارية . وهذه الدموع من أعذب ما تنفيض
به الطبيعة وتسيل به محاسنها ، تخفيفاً للوعة ، أو تنفيساً لسكرية ، أو عوناً على هم
ناصب ، أو جلباً لعطف حبيب ، أو استشفاعاً لبلوغ أمل ، أو اعتذاراً عن

(٢، ١) تأهيل الغريب باب استعارات النبات للعظ .

(٣ ، ٤) المصدر السابق .

ذنب . فهي فطرة من فطر الإنسان طبع عليها ولازمته ، واتصلت اتصالاً وثيقاً بمشاعره وعواطفه ، بل هي الناطق عنها والمعبر بلسانها ، والبرهان على صدقها . وقد افتن الشعراء في وصف هذه الدموع الجارية . ومنهم شعراء العصر المملوكي ، وذلك في سياق أغراضهم الشعرية .

وقد قال صلاح الدين الصفدي في مقدمة كتابه « تشنيف السمع بانسكاب الدمع ، مامليخه :

« رأيت الشعراء قد أطنبوا في ذكر الدمع . وبالغوا في وصفه ضمن الرثاء والتشبيب ، وتفننوا وسلكوا في تشبيهه طرقاً متشعبة ، واستعملوا فيها ضرباً مختلفة ، لأنه فاضح سرهم ، وكاشف أمرهم ، لمن يحاولون كتمانهم عنهم من ذوي قرابة المحبوب والرقباء ، ويجعلون الذنب في إفشاء السر المكتم له . ومنهم من ذكره بغير مبالغة ، ومنهم من أخرجه عن دائرة المعهود ، فجعلوه متصل الجري دائم الحمل ، من غير فترة في وقت درن وقت . ومنهم من ادعى أنه مثل المطر ، حتى سقوا به الديار ، ورووا به الأطلال الدارسة المقفرة . ومنهم من تجاوز به فشبهه بالأنهار الجارية ، والغدران الطافية ، والسيول المنحدرة من أعلى الربا إلى بطون الوهاد . وغلا بعضهم ، فوجد في البحار وشبهه بالطوفان . ومنهم من بدل الدم به ، وشبهه بالعقيق والمرجان والياقوت . وجرح به الأجفان وقرح المساق ، وأذهب العين . أوجده فلم يذب . واستنصروا به على الوجد والحزن . واستعانوا به على الهجر والصد ، واستشهدوا به على العشق والسهد . أو استنجدوا به الإخوان والأصفياء ، أو استرحموا به العذال والحساد والرقباء . إلى غير ذلك ، (١) .

وقد فتح شعراء العصر المملوكي ، عيونهم على الدمع فلم يغفلوه ، واستسقوه فلم يبخل عليهم . فجاد خاطرهم بكثير من الأبيات وصفاله وتصويرا .

وهذا شهاب الدين محمود الحاي يطلب إلى صديقيه اللذين فقدهما ألا يلوماه
إذا أجزت حرقته ماء عينيه نهرا :

لا تلوماني إذا أجزت اظي حرقتي من ماء عيني نهرا
فالذي قد راعني من فقدكم يقتضي أكثر مما قد جرى (١)

وينم قلبه إلى طرفه بما كنتم أحبابه ، فجري بدمعه خلفهم يقول :

سخوا بروحي وشحوا بالوداع على عيني فما زدوها منهم نظرا
ونم قلبي إلى طرفي بما كنتموا عنهم فساد على آثارهم وجرى (٢)

وتفيض عيون الشهاب محمود بدهوع الفرح ، وقد لاح له نور القرب ،
وأصبح قاب قوسين أو أدنى من ديار الأحبة . وفي ذلك يقول في جزالة :

غنى بذكر الحى فارتاح كل شبح وخاض بالدمع حادى الركب فى لجج
حتى إذا لاح نور القرب وابتسمت تلك الثنيات من وجه الحى البهج
فأى ماء دموع لم ترق فرحا وأى نار ضلوع ثم لم تلج
وكم لسان فصيح كل من دهش فصاح نحو لسان المدمع اللهب (٣)

ويرى أبو الحسين الجزار ، أن الجفون مواطن الكرى ، فإذا نأى عنها بكته ،
وهذا من العجب ، ويرى أن طرف المحب فم ، وأن دهعه لسان عنه يذيع خبر
الجوى عن المحب إن صمت لسانه ، يقول :

طرف المحب فم يذاع به الجوى والدمع إن صمت اللسان لسان
تبكى الجفون على الكرى فاعجب لمن تبكى عليه إذا نأى الاوطان (٤)
ويحيل سراج الدين الوراق دموع محاجر دماء . ليبكى بها إياى حاجر . حيث
أحبته وذكر بانه ويتجارب بأرقه مع ورقاء هيجته . فقال :

(١) تأهيل الغريب باب وصف الدمع ،

(٢) المصدر نفسه .

(٣) تشنيف السمع ص ٤٧ .

(٤) تشنيف السمع ص ٥٠ .

دع مقلتي للدمع والأرق الذي كم هيجته حمامة ورقاء
أبكي ليالي حاجر بمحاجر بهوى العقيق دموعهن دماء (١)
ويقف مجير الدين بن تميم دمه على محبوبه النائي ، فيقول موريا :

لما لبست لبعده ثوب الضنى وغدوت من ثوب اضطبارى عاريا
أجريت واقف أدمعى من بعده وجعلته وقفا عليه جاريا (٢)
ولمحي الدين بن عبد الظاهر ، وقد جمع بين دمع العين ودم القلب ، مع تورية .
قال :

ياسيدى إن جرى من مدمعى ودى للعين والقلب مسفوح ومسفوك
لا تخش من قود يقتص منك به فالعين جارية والقلب ملوك (٣)
وشبه صلاح الدين الصفدى ، الدموع بالغوادى . وورى بما صنعته على
الخد ، فقال :

إن عيني منغاب شخصك عنهما يأمر السهد فى كراها وبهى
بدموع قد أشبهتها الغوادى لا تسلم ما جرى على الخد منها (٤)
وافتن صلاح الدين الصفدى كذلك ، وتصرف فى المعنى . ورفع لمعشوقه
قصة حاله مكتوبة بدموع عينه ، فقال :

رفعت له فى شرح حالى قصة وقد كتبت عيني على طرسها سطرا
وأوصى بجسمى أن تعنى رسومه فقلت له : دمعى ، فوقع أن يجرى (٥)
وجعل ابن نباتة دمه سائلا ومجيبا فى آن واحد ، فقال موريا .
إذا سألوني عن هوى قد كتمته سكت أراعى وأشيا ورقبيا

(١) تشنيف السمع ص ٦٥ . (٥ ، ٤ ، ٣ ، ٢) نأهيل الغريب باب وصف الدمع .

وجاوب عنى سائل من مدامعى قلله دمعى سائلا ومجيبا (١)
وجمع ابن نباتة أيضا بين دمعته وخذ معشوقته فجمع بين غدیر وروضه ،
فقال :

أسرت إلى سمعى غداة ترحلت حديثا إلى حفظ العهود يشير
وهيج عندى قرب خدى لحدها بكا فتلاقى روضه وغدير (٢)
قال ابن حجة إن ابن نباتة أخذه من قول خالد الكاتب :

لئن كان أضخى فوق خديك روضه فإن على خدى غدیرا من الدمع (٣)
واسكتنا نرى أن ابن نباتة فرق بين الخدين ، ولاقى بين الروضة والغدير ،
بينهما فرق بينهما خالد الكاتب .

واستبقى الشهاب محمود الحلبي الروضة لجمال أحبابه ، وحول الغدير أنهارا .
فقال :

أحبابنا إن نأت عنى دياركم بعدا وفارقت أوطانا وأطارا
فإن لى نصب عینی من جمالکم روضا نضیرا ومن عینی أنهارا (٤)
ويقف أبو الحسين الجزار المصرى ، فى وقت السحر يوم الرحيل ، يودع
أحبابه الذين سحروا قلبه وطاروا بفؤاده ، ولهج القلب فترك الطرف ، فأبت
جفونه وثمرة بأمر القلب ، لتعينه على ما هو بصده من هم وحزن ووله . .
وهو موقف نفسى يتكرر للشاعر ، فتكرر معه همومه وأحزانه ، وتفويض
له المآتى بعبراتها ، والجفون بدموعها .

يقول الشاعر :

أستودع الله من ودعتهم سحرا يوم الرحيل وهم للقلب قد سحروا

(١ ، ٢) المصدر نفسه ودبوان ابن نباتة : (٤ ، ٣) تأهيل الغريب باب وصف الدمع .

وقال قلبي لطرفي عند فرقتهم ماذا لدمعك فيه اليوم تلتظر
هناك آبت جفوني وهي مسرعة إن الجفون بأمر القلب تأتمر^(١)
وتملأ الحيرة فؤاد الشهاب الحلبي ، وهو يودع أحبابه . ويهوله الموقف وقد
آذنوه ببين . يودعهم وعينه تملأ برؤيتهم قبل الرحيل . فتمتلىء بعبراتها المأله ،
فلا يدرى أعبرات الفرح بهذا القرب الحالى ، أم دموع الحزن لهذا البين المنتظر .
قال :

قالوا الرحيل وما تملت باللقا عيني ولا امتلأت بغير مدامعى
حيران لا أدرى لقرب أننى أذرى المدامع أو لبين رائع^(٢)

ويعقد صلاح الدين الصفدى مسابقة فى الجرى غريبة ، بين قلبه وأدمعه ،
فلقد وقف لوداع حبيبته ، فعجل قلبه فسار فى ركبه قدماه . وعجلت أدمعه فجرت
خلفه فلم تلحقه . ومطابقتها فى البيتين التاليين هينة لطيفة طبيعية . قال :

لما اعتنقنا لوداع الهوى وكدت من جمر الجوى أحرقة
رأيت قلبى سار قدماه وأدمعى تجرى فها تاحقه^(٣)

وقد هدا لفظه كدت ، من نتيجة ، أحرقة ، . .

ويقع الصفدى بين الرغبة فى السكاء ليهدىء من تلظى قلبه ، ويستعين بدمعه
على آلام سده ، وبين الرغبة فى السكتان مخافة أن تفضحه عيونه أمام الرقباء .
فيحار دمه فى جفنه ولا يدرى هو كيف يصرفه ، أيمتعه أو يجريه . . . يقول
متعجباً .

قد حار دمعى فى جفنى مخافة أن يدرى الرقيب بأن الجفن يدرى
يا للرجال لأمر قد بليت به على سهادى وقلبي فى تلظيه

حتى ولا دمع عيني لم أجد فرجا منه ولم أتصرف بالبسكا فيه^(١)
ويحيل السراج الوراق أدومه جمانا وعقيقا . في أبيات عاطفية تصويرية جيدة ،
يقول فيها :

لست أنسى ساعة البين وقد وجم الشائق منا والمشوق
ورجوعي بدموعي عاثرا لست أدري بعدهم أين الطريق
وعلى الأكوار منهم قر ليس الأقدار إن لاح شروق
كلما أم العقيق امتزجت أدعوى ففى جمان وعقيق^(٢)
وجعل الصاحب زين الدين ، والسراج الوراق ، الدمع بينهما حديثا جرى ،
على إثر حديث نسجات الصبا لهما عن أحبابهما .
يقول الصاحب زين الدين للوراق :

أهدى له البرق من أحبابه خيرا فبات ناظره يستعذب السهرا
وحدثته نسجات الصبا سحرا فلا تسل عن حديث الدمع كيف جرى
فأجاب الوراق ، وزاد ، بهذه الأبيات :

جاءت مخبرة عنهم معطرة منهم وطيب شذاها أوضح الخبرا
هيئات أن يجمع المشتاق مندناوا جنبنا لمهد ولا جفنا لطيب كرى
يا منزلا بالحنى حبيبت من وطن كم بلغتني أيامى به وطرا
لجأذك الغيث إني يوم بينهم أفنيت دمعى وقد أوصى به الخبرا^(٣)
ويطارح السراج الوراق حماسة أذابت فؤاده بتغنيها وشكواها وأنينها . وما
تغنت إلا بشكواه هو ، وما صدحت إلا بأنيته . وكلاهما يبكي هواه وشجوه .
ويفضلها هو بعبرته الفائضة المستمرة .. قال :
ألا قاتل الله الحماسة إنها أذابت فؤاد الصب لما تغنت

أطارحها شكوى الغرام وبثه فما صدحت إلا أجبت بأننى
كلانا بكى شوقا ومعتبر الهوى يفضلى عنها بفائض عبرتى
وإن قيل لا يبلى على الدهر طوقها كذلك لا تبلى عهد أحبتى^(١)

فى العذار .

وافتن الشعراء فى وصف العذار ، وتأثروا بمن سبقهم من الفحول وتصرفوا
فى المعانى والصور ما شاء لهم الفن والإبداع . وأطالوا فى ذلك وأسهبوا
ما طاوعهم النفس الشعرى . وراج هذا الفن لديهم بروج الرقيق واستخدام
الماليك الغلمان فى المنزل وغير المنزل . .

وافتنوا بالعذار واستشعروا فيه ألوانا من الجمال ، جذبت إليه العيون
والنفوس . وأجادوا فى تشبيهه ، وتناولوه بالحديث فى غزلهم بالمذكر ، بل ربما
كان أحد أسباب توسعهم وإطانتهم فى هذا الضرب من الغزل .

لقد شبهوه بالليل المظلم ، وقالوا عنه إنه من الجفون ، ودبيب النمل ، وأوائل
الريحان فى أواخر الورد . وإنه نبت الخد ترعاه العين . وإنه الآس وإنه البنفسج
واعتبروه زردا للخد وحارسا بحميه من القبل . ورأوا فى حركته دورا وتسلسلا .
ووجدوه قد دار حول الخد كالللم . . . إلى غير ذلك من التصورات البديعة التى
تبرزها التأملات النفسية العاطفية . فتبدروا ترجمانا عنها ولسانا لها ..

ويعتبر أن حجة الحموى هذين البيتين التالين ، من المخترع المبتكر فى معناه
وتصوره ، وهما لصدر الدين بن الوكيل قال :

إذا قلت ثغرك صن بالثمام يقول سيحيميه صارم جفنى
وإن قلت قد صار فى قتله كليلا يقول عذارى مسنى^(٢)

(١) تشنيف السمح ص ٨٤ .

(٢) تأهيل الغريب فصل العذار .

وأنبت مجير الدين بن تميم هذا العذار نباتا حسنا ، وكفله . . . إذ قال مع التورية :

قالوا بدا نبت خديه فـذبـلا عنه فقلت لهم حاشاه حاشاه
إن لاح في خده نبت فلا عجب الله أنبته والعين ترعاه (١)
وقال أيضا وقد بدا لعينه العذار الأشقر :

شبهت خدك يا حبيبي عندما أبدى الجمال به عذارا أشقرا
تفاحة حمراء قد كتبوا بها خطا دقيقا بالنضار مشعرا (٢)
وفي وصفه سيما الترف والحضارة . .

والسراج الوراق يشبه العذار بالزرد للخذ ، يحميه من لحاظ العين
أو القبلة ، يقول :

وفاتك يخرج سيف لحظه مجرداً من جفنه ومغمدا
خاف على خديه من لحاظه فبات في عذاره مزرداً (٣)

ومن طرائف الشباب الظريف قوله في العذار مع التورية في الدور والتسلسل :
لحاظك أسياف ذكور فـما لها كما زعموا مثل الأرامل تغزل
وما بال برهان العذار مسلما ويلزمه دور وفيه تسلسل (٤)
وقال أيضا - ويعدده ابن حجة من المخترع - مع التورية في « بانل » :
أيسعدني باطلعة البدر طالع ومن شقوتي خط بخدك نازل
ولو أن قسا واصف منك وجنة لأعجزه نبت بها وهو باقل (٥)
وأبدع صلاح الدين الصفدي في وصف العذار والصدغ فقال :

أقول له ما كان خدك هكذا ولا الصدغ حتى سال في الشفق الدجى
فمن أين هذا الحسن والظرف قال لي تفتح وردى والعذار تخرج (٦)

وأجاد ابن نباتة وصف العذار مع التورية والتضمين ، وقد أخرج عبارته المضمنة عن طريقها في المدح إلى طريقه في الغزل . فأضاف فنا إلى فن . وقال :
وضعت سلاح الصبر عنه فما له يقاتل بالألحاظ من لا يقاتله
وسال عذار فوق خديه جائر على مهجتي فليتنق الله سائله (١)
وجمع ابن نباتة بين الصدغ والخد والعذار ، فجمع بين المرعى والماء والظل ،
في قوله :

بأبي من إذا تثنى دلالا أطرقت في رياضها القضب خجلى
مد صدغا على عذار وخد فرأينا مرعى وماء وظلا (٢)
وتلطف ابن حجة الحموى في وصف مرور العارض ، فقال :
يقول عارض حبي حين مر على روض الخدود كمر الطيف في الوسن
أصبحت ألطف من مر النسيم سرى على الرياض نسيم الوهم يقولني (٣)
ونفر الدين بن مكائس يفقد صبره وتسل سيفه ، حين بدا آس العوارض :
فيقول لمن يلومه موريا :

يالا نمي إنك فقدت الصبر في قمر أصداعه سلبت أهل الهوى وسبت
كلت سيوف اضطبارى عنه حين بدا آس العوارض في وجنانه ونبت (٤)
ويستدل سراج الدين الوراق على أن معشوقه غصن آس ، باخضرار
عارضيه ، فيقول :

وأهيف لم يزل للبيان متهما وللأراك بقدر منه مياس
حتى إذا اخضر في خديه عارضه ما ارتبت في أنه غصن من الآس (٥)

(١) تأهيل الفريب - فصل العذار ،

(٢، ٣) خلع العذار في وصف العذار لشهاب الدين عبد الوهاب الحنفي المصري مخطوط بمكتبة
بلدية المنصورة .

(٤، ٥) خلع العذار في وصف العذار .

في الخال :

وعلى الخد الوسيم يقف الخال الكريم . ! فيضني بسواده على احمرار الخد
جمالا وحسنا . وينقطه فلتشرق بهجته ، وتفتتح وسامته ، ويزبد طبيعة الجمال
جمالا ، وموضع الحسن حسنا .

وتلاعب الشعراء بالفاظ الخال والحسنة والشامة ونحوها . وتولدت لهم من
ذلك معان كثيرة ، وصور عدة ، مع التوريات اللطيفة الممتعة . وقد تغزلوا في
خد الحبيب وخاله . ووصفوا اجتماعهما وسرح خيالهم في ذلك مسرعا واسعا ،
فسحه لهم هذا الجمال الطبيعي المحبوب ، الذي غمر عصرهم .

وهذا ابن نباتة يذكر هذه الحسنات ، ويغفر من أجلها السيئات ! فيقول :

إن أساء الحبيب قامت بعذر وجنة منه فوقها شامات
يا لها وجنة أقابل منها حسنات تحمي بها السيئات (١)

وابن نباتة يأتي إلا أن يورث الخال ! ولكن أي خال وأي ميراث؟ يقول :

لله خال على خد الحبيب له في العاشقين كما شاء الهوى عبث
أورثته حبة القلب الفتيل به وكان عهدي أن الخال لا يرث (٢)

وبرهان الدين القيراطي يورى بكلمة الخال ، ويمشد له الحسن كله .

ويقول :

بروحى أفدى خاله فوق خده ومن أنا في الدنيا فأفديه بالمال
تبارك من أخلى من الشعر خده وأسكن كل الحسن في ذلك الخال (٣)

ويأتي تقي الدين السروجي إلا أن يمسك ، الخال ، وأن يعجمه ، وذلك بقوله

في تورياته :

في الجانب الأيمن من خدها نقطة مسك أشتهى شهما

حسبته لما بدا خالها وجدته من حسنه عمها (١)
ويمزج عز الدين الموصلى بين الخال والعم كذلك ، ويقول :
لحظت من وجنتها شامة فابتسمت تعجب من حال
قالت قفوا واستمعوا ما جرى قد هام عمي الشيخ في خالي (٢)
ويقیم ابن العفیف من الخال حارساً لخضرة العارض ، ثم يعاتبه على قيامه
بهذه الحراسة ، ويقول :

ياخاله خضرة بعارضه حرسها عن متيم مغرى
كف عن العاشقين مقتصرا هل أنت إلا حویرس الخضر (٣)
ويصور علاء الدين الوداعي من مسك الخال ورحيق الثغر ، جنة لاريب
فيها ، ويقول :

انظر إلى الجنة في ثغره لاريب في ذاك ولاشك
أما ترى فيها الرحيق الذى ختامه من خاله مسك (٤)
ومجیر الدين بن تميم يروعه عدد من الخال ، قد بدا في خلال العذار ،
فقال مشبها :

ومفهمف خيلانه وعذاره قد جاززا حد الجمال فأفرطا
فكأنما كتب العذار بخده سطرًا بحبات القلوب منقطا (٥)
وجمع ابن نبابة بين الخال والثغر واللى ، وعقد بهذا الجمع تشبيها طريفاً ،
وأطلق فيه بلالا بين الصبح والسحر . قال :

عرج على حرم المحبوب منتصباً لقبلة الحسن واعذرنى على سهرى
وانظر إلى الخال فوق الثغر دون لى نجد بلالا يراعى الصبح فى السحر (٦)

مواضع أخرى :

ومواضع الجمال والحسن الإنساني كثيرة ، عداما تناولناه بالحديث . ومنها :
الخصر والردف والقذ ، والشعر والشفاه والعطف والخذ والهدب والأجفان ،
والحاجب والأسنان والسوالف والشعور . وثمار السكواعب في الصدور ... حتى
الشيب الباكر والشباب الطائر ... إلى غير ذلك .

اتجه الشعراء بنفوسهم وخواطرهم إلى هذه المواضع ، وكان لهم فيها رجوع
بعيد وأثر جديد . لقد مدوا إليها العين واللسان ، لكي يزودوا منها ، ويحسنوا
في وصفها البيان . ومن جوا هذا الوصف مزجا مشهيا بأعزاهم البديعة .
ويطول المقام إذا ذهبنا نفصل القول في كل منها ، فلنجتزئ من ذلك بالآبيات
الآتية في وصف بعضها :

ويعتبر ابن نباتة المصري في مقدمة الغزلين جنانا ولسانا . وقد تغزل في
صدر إحدى مدائحهم في ورشاً ، فوصف المقلة والسوالف والأعطاف والقامة ،
وأفصح عن بعض آثارها في النفوس والقلوب .

فالمقلة الكجلاء علة الجنون بالسوداء . ودبيب النمل في السوالف آثار
خواطر الشعراء ، وضيق العين ينبيء عن بخل يعني : وهذه الأعطاف يشتهي منها
اللقاء . وتثنى القامة اللدنة كعطو الظبية الدراء ... إلخ .

يقول الشاعر موريا :

قام يرنو بمقلة كجلاء علمتني الجنون بالسوداء
رشادب في سوالفه النمل فهامت خواطر الشعراء
روض حسن غنى لنا فوقه الحلى فأهلا بالروضة الغناء
ومنها :

ضيق العين إن ربنا واستمعنا وعناء تسمع البخلاء
(٢٣٢ - عصر المالك)

ليت أعطافه ولو في منام وعدت باستراحة للقاه
يتثنى كقامة الغصن اللدن ويعطو كالظبية الأدماء
ياشديه الغصون رفقا بصب نأخ في الهوى مع الورقاء (١)

ومن قصيدة أخرى يذكر ابن نباتة صولة الحسن من غزال جميل ، فاطر
اللاحظ ، يسل أسياف عينه ، ويهز قناة قده ، يثور ورد خده ، فيحلو لمحبه أن
يفديه بأبيه ، وإن هدد بالبعاد وعاقب بالسهاد . . . إلخ .

يقول الشاعر :

بأبي فاطر اللاحظ غريب رام تشبيهه الغزال فقاته
صائل الحسن إن رنا وثني سل أسيافه وهز قناته
لعيون الوري بخديه ورد طالما عاقب السهاد جناته (٢)
وقد جمع هذا الشاعر المبدع في إحدى قصائده ، مجموعة من هذه المحاسن
والمقائن . وما منها إلا وله في النفس مكانه ، ومن الوصف بيانه فاللاحظ مهند
يسطو . والقدر تروى عنه صحاح العوالى ، والردف والعطف يشجيان بالقعود
والقيام . وثغره خاتم عبقى يغرى باللثم . . إلخ .

يقول الشاعر :

غزال يناجيني بلفظ معرب ولكنه يسطو بلحظ مهند
وقد روت عن لينة واعتداله صحاح العوالى مسندا بعد مسند
إذا قعدت أردافه قام عطفه فيا طول شجوى من مقيم ومقعد
كلفت به من قبل ما طال قده فطوله فرط العناق المردد
وعاينت من فيه العقيق خاتما فصغت له باللثم فص زبرجد
وحدثنى من ثغره ورضابه عن الجوهري المنتقى والمبرد
وكنت حذرت الخرد حين تمردت فأوقعنى طرفى لأمرد

(١) ديوان ابن نباتة حرف الهزة . (٢) ديوان ابن نباتة حرف التاء .

يخيل لي أنى له لست عاشقا لأن ليس لي في حبه من مفند
ولولا الهوى ما بت بالدمع غارقا عليه وأشكو للورى غلة الصدى
وأثم عطفه وجفنيه بعد ما قتلت برح منهما ومهند... إلخ (١)

ويذهب الشاعر الغزل العذب ، نثر الدين بن مكناس ، هذا المذهب ، في صدر
إحدى قصائده ، فيجمع في أبياته بين مواضع عدة من مواضع الحسن الأخاذة ،
ومواطن الجمال المثيرة ، كالمرآشف للعساء والحدود النارية واللاحاظ الفاتكة
الساحرة ، والأجفان السقيمة ، وسهامها المفوقة ، والضفائر المرسلة الجعدة إلخ .
يقول الشاعر في رقة وجزالة :

شفنى العس المرآشف إلى	بحدود من نارها يعصر الما
لا تقل زينب وهند وسعدى	وسعاد فإنما هي أسما
إن حمت ثغرها بجاه لحاظ	فقوادى بجاه وجدى أحمى
يا لحاظا بسحرها فتنتنا	وأرتنا من صحة الجفن سقما
لم أمست جفونها ناظرات	مقلنى والحديد ما زال أعمى
وسهاما إن فوقت عن قسى	لم تدع فى الفؤاد للصبر سهما
إن بدت خلفها الضفائر تسعى	حمة زد هوى ولا نخش وهما
كم نذلت للرسول وكم قلد	ت له يارسول من برحى
رح إليها واستطلع السر منها	فى دجى الليل إن فى السكتم حزما.. إلخ (٢)

وعلى نمط من نثر الدين بن مكناس ، ترى غزل البرهان القيراطى ، الذى سحرت
نفسه بالعيون القاتلة للأساد فى غاباتها ، وبالأجفان السود التى تفتك ألاحظام فتك
السيوف ، مع أنها وسنانة ، وبالمعاطف التى فضحت بتثنيها الغصون . .

(١) ديوان ابن نباتة حرف الدال .

(٢) ديوان نثر الدين بن مكناس ورقة ٧ — مخطوط بدار الكتب المصرية — أدب ٨٢ م .

يقول الشاعر :

أما عيونك فهي من عاداتها أن تقتل الأسود في غاباتها
أجفانها السود التي ألحظها تحكي فعال البيض في فتكاتها
وسنانة هجرت جفون مجها لنعاسها في الحب وصل سباتها
ومهمف من صده ووصاله يلقي النفوس بموتها وحياتها
فضحت معاطفه الغصون لأنه حركاته تغنيك عن حركاتها . . (١)

والشيب أحد مظاهر الطبيعة البشرية . يأتي بعد شباب نضر مليء بالقوة
والأمل والمغامرة العذبة . وتصاحب الشيب عادة ملامح الضعف واليأس والآلم .
ولهذا ندر أن مدحه أحد أو أثني عليه . وأكثر الشعراء من ذمه وإظهار الأسف
لقدومه ، ونذكروا الشباب وعهده السمع الجميل ، ولياليه العذاب .

وصفوا الشيب بالنهار ، والشباب بالليل ، واعتبروه في الرأس اشتعالا ،
واعتبروه بقطة من حلم الشباب ، ومطرًا للدمع ، وثوبا من أثواب التقى . ورأوه
قذى أمام الجيب ، وآية لب في الرأس ، وتبسما وضحكا على ذقن الفتى ... الخ .

ويقول صلاح الدين الصفدى :

ياساحبا ذيل الصبا في الهوى أبليته في الغي وهو القشيب
فاسبل بدمع العين ثوب التقى ونقه من بعد عصر المشيب (٢)

ويقول برهان الدين القيراطى :

غيرتى المشيب وهو وقار ليس فى الشيب يا أمامة عار
لم تخافى شيبتي رهى ليل كيف خفت المشيب وهو نهار (٣)

(١) ديوان القيراطى - مخطوط بالمسكنة الأزهرية - ورقة رقم ٨٩ .

(٢) تأهيل الغريب - باب إنذار المشيب .

(٣) ديوان القيراطى ورقة رقم ٢٨ .

وأبدع جمال الدين بن نباتة في وصفه . فقال في إحدى نبوياته يصفه ويصور ما خلفه ظهوره في نفسه من حسرة :

سقى الله أكناف الغضى سائل الحيا وإن كنت أسقى أدعما تتحدر
وعيشا نضا عنه الزمان بياضه وخلفه في الرأس يزهو ويزهر
وكان الصبا ليلًا وكنت كحالم فيا أسفا والشيب كالصبح يسفر
يعلني تحت العمامة ككتمه فيعتاد قلبي حسرة حين يحسر
وينكرني ليلى وما خلت أنه إذا وضع المرء العمامة ينكر
إذا حل مبيض المشيب بعارض فما هو إلا للمدماع مطر^(٤)

ى - تسجيل الحوادث والعادات :

إن اتجاه الشعراء إلى تسجيل الحوادث التي تمر بالبلاد ، هو إحساس اجتماعي كريم ، يدل على يقظة نفسية قوية تربطهم بالبيئة التي يعيشون فيها . وتدل على مشاعرهم بشأن هذه البيئة ، وبأن ما يجري عليها من حوادث وما يقع فيها من وقائع ، إنما هم فيه معها شركاء . وبخاصة حوادثها العمامة ، وما يتصل منها بصميم الحياة ووسائلها ومظاهرها ، وما يمس العمر والرزق من بينها .

ونعتقد أن هذا الاتجاه يعتبر في جملة مميزات الشعر في هذا العصر ، وما يضاف على شعرائه تقديرًا هم أهل له . ولا يقلل من أهمية هذا الاتجاه أننا سنرى فيما نعرضه ، شعراء ركبوا أو غثا . إن هذا لا يطعن في شعور الناظم ولا يغض من تقديره .

لقد شارك كثير من الشعراء في وصف حوادث الزلازل والسنين التي عمت فيها الأوبئة ونزلت الطواعين . ووقفوا عند مواسم الغرق والجفاف ، ومشاهد

(٤) ديوان ابن نباتة ، حرف الراء .

الجدب والفقط . وارتفاع أسعار القوت واشتداد الغلاء . مما له رجوع بعيد المدى في حياة الناس وقلق نفوسهم جميعاً وارتفاع عقائهم بالشكوى ، واضطراب موازين الأخلاق ، وغير ذلك من مضاعفات تتوالد في مثل هذه الفواجع . كما شاركوا في رثاء الموتى من أعلام البلاد .

ولم يقصروا أيضاً في تناول الحوادث المقلبة ، أعنى التي تشيع فيها الههجة وتعم آيات السرور .

على أن في مقدمة ما يعيننا في هذا المقام ، استجابة الشعراء لمقتضيات البيئة في هذا المجال ، وتسجيلهم صوراً من مظاهر المجتمع فيه . وإن خلطوا الوصف والتسجيل بالفسكاة والسخرية أو غيرهما .

وفي عام ٦٩٥ هـ شح النيل وأجدبت الأرض ، وصار الناس يتساقطون موتى حتى خلت منهم شوارع وأزقة . فقال إبراهيم الميموني :

يا طالب الموت قم واغتنم هذا أوان الموت ما فاتنا
قد رخص الموت على أهله ومات من لا عمره ماتاً (١)

وفي عام ٧٦٢ هـ زاد النيل زيادة فادحة حتى أغرق نواحي البلاد . وبسبب ذلك انتشرت الأوبئة . فنظم الشاعر شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي قصيدة طريفة ، تحدث فيها عن أحوال الناس حينذاك ، ووصف أخلاقهم ومشاربهم وأقوالهم . وترحم على من مات منهم ، وعلل وقال :

عم الوباء لأن الناس قد باءوا وزاد طغيانهم لما طغى الماء
باءوا بأيامهم وتاب الآن طائعهم وما لعاصيهم لام ولا باء
تالله ما راعهم من موت أكبرهم بمصر ميم ولا واو ولا ناء
يا واسع الجود رفقا بالعباد فقد ضاقت بمصر من الأموات أحياء

يارب إن الوباحة ركاثه وحل بالناس لما حم حماه
 مستهم منه صفرا لا مساس لها لو مسها حجر مسته ضراء
 أمسى الطبيب مريضاً كالمرضى بها حديث هذا وذا رمز وإيماء
 تغير الریح في مضر فسا كنها إذا سرى نكبته منه نكباء
 هذا على قول قوم لا عقول لهم في زعمهم أنهم قوم أطباء
 وقائل هذه سوداء محرقة نارت بهم في جميع الناس صفراء
 وقائل إن ماء النيل حين علا وعم الوری من أجله داء
 هيات قل الذي يهذى بحكمته عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء .. إلخ (١)

وفي عام ٦٩٣ هـ بلغ ارتفاع النيل إلى خمسة عشر ذراعاً وثلاث . فغلت الأسعار
 وتضاعفت نتائج هذا الغلاء .

وقد انبرى الشاعر « شهاب الدين البراغی » بقصيدة ميمية طويلة سجل فيها
 أنباء هذا الغلاء ومضاعفاته ، من بكاء الناس وانتشار الموت وشمول الأسى
 والحزن ، فضلاً عن موت الخيل وكساد الأسواق وقلة الأقوات ، إلى غير ذلك .

يقول الشاعر ، وإن كان شعره غير جيد النسيج :

ولما غاض بحر النيل فاضت دموع من محاجرهم بجمام
 ومد به من الأموات سيل لنقص عبا به منه تمام
 عروا مما عراهم في شعاب الـ أسى وجرت مدا معهم فعاموا
 قضى بعض على بعض من الحزن ن واستولت على الموتى الهوام
 فلا دار يقر بها قرار ولا سفر يجر له زمام
 ولما أن نأت عنهم جميع البلاد بكتهم حتى الشام
 وماتت خيلهم حتى المواشى وأخلى السرج واجتنب اللجم

وباد الزارعون وخلفوا كل م ما زرعوا وفاتهم الصرام
وأرباب الصنائع قارنتهم نحوس للكساد بها لزام
وأسواق البضائع حل فيها وقوف للعقود به قيام .. إلخ (١)

ولا بأس من أن ننقل إليك ، ما سجله الجلال السيوطي في كتابه ، كوكب
الروضة ، بمناسبة توقف النيل عن الزيادة في ميعادها ، عام ٧٠٩ هـ . وهو في جملته
تصوير لمشاعر الناس وعقائدهم إذ ذاك ، في إحدى نواحي حياتهم .
قال السيوطي :

« قال الشهاب الحجازي : « وجدت في رسالة في وصف النيل :
« كتب الشيخ نور الدين علي ، سبط الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض ،
إلى القاضي معين الدين بن حشيش وهو يومئذ بالشام :

« المملوك ينهى أنه كان في سنة ٧٠٩ هـ ، لما كان مولانا السلطان الملك
الناصر بالسكر ، غضب النيل على أهل مصر ، لغضبه . ففعل بهم ما فعل
وترك مترك . - تذكر كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى
نيل مصر ، عند توقفه في زمانه . وهو كتاب مبارك تشرف النيل بعنوانه . وافتخر
بخطاب ابن الخطاب له وقبلة وقبله وجرى . ببركة أم المدائن والقرى . ولم يتقبل
منهم بعد ذلك قريانا ولا قرى . فطاف المملوك بمغناه . ونظم في معناه . وقال :

يأيها النيل المبارك إن تكن من عند ربك نجر فاجر بأمره
أو إن تكن من عند نفسك آتيا فالله ببسط بره في بره
كم من بلاد لست تعرف أرضها ملأ الإله بيوتها من بره
ياذا الوفاء أراك جئت بلادنا والحر لم يشن الوفاء بغدره
إن كان رفدك لا يحىء تأدبا إلا بإذن مليكه فبعذره

فإذا الصليبي اللعين بجهله والكفر يركض في جوانب صدره
 مسرى سرى والنيل أصبح واقفا قد فاتنا تعلية في شهره
 فضى النسيء وليس فيه زيادة إن النسيء زيادة في كفره
 أهون به وبشهره ونسيئه وشهيد شبراه وطينة بثره
 نحن الذين لنا بجاء محمد عند الإله بحمده وبشكره
 ما يرتجيه غنينا بغنائه وفقيرنا بالمال زار بفقره
 تدعو ونستقي الغمام بوجهه فبذاك أخبر عمه في شعره ، ... الخ ،
 وبعد أن أتم القصيدة - قال - أى الشاعر - :

« وكتب المملوك بهذه الأبيات العربية ، وجعلها في قصة فارسية . وألقاها
 في البحر عند المقياس . على ذلك المقياس . فتفجر الماء من منابعه . وأشار إلى
 ألوف بأصابعه . واستمرت الزيادة قبل الوفاء وبعده على العادة . حتى انتهى إلى
 حده . وجبر الله تعالى القلوب بكسر سده . وعمر الأرض بهركات عمر . وعمر
 آجال الأنهار وعمر . وأقبل أمين الماء يهمل ويلبى . ويقول : هذا رحمة من ربى .
 وانحط السعر الغالى . وتواضع قدره العالى ، وذهب البأس واليأس وذلك من
 فضل الله علينا وعلى الناس ، » (١)

أما شمس الدين النواجى صاحب قصيدته الفائية الممتعة ، التى سجلناها فى
 فى المجلد السابع ، وسميناه « تسبيحة النواجى أو تغريدته » ، وهى التى همل فيها
 وكبر بوفاء النيل عام ٨٥٥ هـ ، « فقد كان فى عام ٨٥٤ هـ يحل فى إحدى قصائده عدم
 بلوغ النيل حد الوفاء فى ميعاده ، إذ هبط وشرقت الأراضى ووقع الجذب وانتشر
 الغلاء فارتفعت أصوات الناس بالشكاية .

(١) عن كوكب الروضة ص ١١٩ ، والقصيدة والقصة فيه برمتها - وفى الدر الفاخر
 للدوادارى ، نسب الأبيات للشهاب محمود الحلبي ، وقد أشرنا إلى ذلك فى المجلد السابع هـ ص ٣٧٩

والنواجي في قصيدته تلك يسجل حادث نقص النيل وشكوى الغلاء ،
ويصور ما انتشر من الجذب ويحدث عن دموع الناس وفاقة الأغنياء بله الفقراء ،
ويعجل إلى الله سبحانه مستغيثاً مستسقياً بحاجه النبي عليه الصلاة والسلام .

يقول النواجي :

لرب العلاء نشكو أذى القحط والغلاء	وما مسنا فيه من الضر والبلاء
ونسأله في البأس واليأس والرجا	رجا فقد متنا وعاجلنا البلى
غلا أرخص الأرواح لما تسعرت	بمور ضرام في صميم الحشاغلي
ودارت رحاء الجذب في كل بلدة	وما تركت للنصب في مصر منزلا
فلا بر يرجى منه بر بهرة	ولا بحر رى طاب عذابا وسلسلا
ولا عين أرض قد بكت فتفجرت	علينا ولا دمع من الغيث أهملنا
ولم يتخلق بالوفا نيل مصرنا	ولا ذيل ستر بالهنا راح مسبلا
ومذ غاض مقياس المنى ضاق عيشنا	وأحل ربع الأنس والصبر ماحلا
به الأغنياء يشكون فقرا وفاقة	فكيف بمن أمسى معيلا ومعو لا
حنانا حنانا يا مغيث الورى فقد	يئسنا وكل الخلق أصبح مبتلى
فما يملق إلا إلى بابك التجا	ولا معدم إلا عليك توكلنا
وسقيا ورعيا المواشى فقد بدت	كلها وكل السير في طلب الحلى
وإن تاه قوم بالغلا وترفعوا	علينا ومالوا للقطيعة والقلى
فوالله لا نرجو سواك ولا نرى	علينا لهم فضلا بيوم ولا ولا
إليك توسلنا بحاجه نيلنا	فماخاب من أمسى به متوسلا ^(١)

ولا بن إياس الحنفي المؤرخ بيتان طريفان قاهما في الطاعون الجارف الذى

أصاب البلاد عام ٩٠٣ هـ . وقد مزج الشاعر في بيئته بين النقد والوصف والفكاهة . فقال :

قد قلت للطعن والمهايلك جزئاً لحد في النكابة
ترفقا بالورى قليلاً في واحد منك كفاية .

وفي وباء عام ٩١٠ هـ نظم الجلال السيوطي هذه الأبيات يشكو ويدعو ويصف وهي - وإن كانت ركيكة النسيج - صادرة من شعور صادق وقلب متأثر ، قال :

يارب بالهادى النبي المجتبى أغمد عن الإسلام أسياف الوباء
يارب لا تشكو أليم عذابه إلا إليك فقد أخاف وأرعبا
كم حل في دار فبدد شمل من فيها فلا يجدون منه مهربا
يارب اطفأ بالعباد فما لهم رب سواك يقيمهم المستعصبا
إنا اعترفنا بالذنوب فكنا عاص مسيء للعذاب استوجبا
لكن إذا قرنت عظيم ذنوبنا بعظيم عفوك كان عفوك أغلبا
إن كان لا يرجوك إلا محسن في العالمين فمن يحير المذنب . . الخ (١)

وانتشرت موجة غلاء فاحش في عام ٨٥٣ هـ وارتفعت أسعار الخبز ، وضح الناس . فروى أن بعض الشعراء رثى الخبز هذا الرثاء الفكاهي انطريف ، فقال ، وهو غزل لطيف في جماعات الرغيف . والجوع يثير نائرة الفن . . .

قسما بلوح الخبز عند خروجه من فرنه وله الغذاء فوار
ورغائف منه تروقك وهي في سحب النفال كأنها أقمار
من كل مصقول السوالف أحمر الـ خدين للشونيز فيه عذار

كالفضة البيضاء لكن يغدى ذهباً إذا قويت عليه النار
تلقى عليه في الخوان جلالة لا تستطيع تحدها الأبصار
فمكأن باطنه بكفك درهم وكأن ظاهر لونه دينار
ما كان أجهلنا بواجب حقه لو لم تبينه لنا الأسعار
إن دام هذا السعر فاعلم أنه لا حبة تبقى ولا معيار^(١)

وفي عام ٥٧٦٢ سقطت إحدى منارات جامع السلطان حسن . وهى المنارة
التي على الباب . فهلك تحتها نحو ثلاثمائة نفس من الأيتام الذين كانوا قد رتبوا
بمكتب السبيل ، ومن غيرهم . فلهج الناس بأن ذلك ينذر بزوال دولة السلطان .
فنظم الشيخ بهاء الدين السبكي في ذلك ، هذه الأبيات الطريفة . وفيها يعلل لسقوط
المنارة تعليقات أدبية ، منها أنه قرىء القرآن من تحتها فاستمعت إليه ومالت
لحشيتها من الله . . ومنها أن سلطانها كان قد غاب عنها فاستوحشت فرمت
بنفسها بسبب الجوى . . قال الشاعر يخاطب السلطان :

أبشر فسمك يا سلطان مصر أنى بشيره بمقال سار كالمثل
إن المنارة لم تسقط لمنقصة لكن لسر خفي قد تبين لى
من تحتها قرىء القرآن فاستمعت فالوجد في الحال أداها إلى الميل
لو أنزل الله قرآنا . على جبل تصدعت رأسه من شدة الوجل
تلك الحجارة لم تنقض بل هبطت من خشية الله لا للضعف والخلل
وغاب سلطانها فاستوحشت فرمت بنفسها لجوى في القلب مشتعل
فالحمد لله حظ العين زال بما قد كان قدره الرحمن في الأزل
لا يعترى البؤس بعد اليوم مدرسة شيدت بنيانها للعلم والعمل
ودمت حتى ترى الدنيا ممتلأت علما فليس بمصر غير مشغول^(٢)

(١) بدائع الزهور ج ٢ ص ٢ حوادث عام ٨٥٢ هـ .

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ عند ذكر مدرسة السلطان حسن .

ومن لطيف ما سجله الشعر ، وسجله بأسلوب ناقد وعبارة ساخرة ، ما وقع لليهود والنصارى فى مصر والشام عام ٥٧٠٠ . فقد أمر السلطان أن يلبس اليهود العمام الصفرة ، والنصارى العمام الزرق ، والسامرة العمام الحمر . فسخر بهم علاء الدين الوداعى وقال :

لقد ألزموا الكفار شاشات ذلة تزيدهم من لعنة الله تشويشا
فقلت لهم ما ألبسوكم عماما ولكنهم قد ألبسوكم براطيشا^(١)
ولفظ البراطيش ، عامى ومعناه معروف إلى زماننا ، وهى الأحذية القديمة المتسعة غير المنتظمة المنهالكة لكثرة الاستعمال .

وقال شاعر آخر :

تعجبوا للنصارى واليهود معا والسامريين لما عمدوا الخرقا
كأنما بات بالأصباغ منسجلا نسر السماء وأضحى فوقهم فرقا ،^(٢)
وفضلا عن تسجيل هذه الصور ، يتم الشعر هنا عن لون من الشعور العام نحو هؤلاء وهؤلاء حينذاك .

وانظر إلى مارسمه السلطان الأشراف بالديار المصرية والشامية عام ٥٧٧٣ ، وهو أن يلبسوا عمام بعلامة خضراء تميزا لهم عن الناس . ففعلوا ذلك فى مصر والشام فنظم فى هذه الحادثة جماعة من الشعراء . قال السيوطى : « ما يطول ذكره » .
ومنهم الأديب شمس الدين محمد بن إبراهيم الدمشقى . قال :

أطراف تيجان أنت من سندس خضر بأعلام على الأشراف
والأشرف السلطان خصصهم بها شرفا ليعرفهم من الأطراف^(٣)
وتستطيع أن تفرن بين العاطفة فى هذين البيتين ، وبين العاطفة فى الأبيات السابقة ، وتستنبط ما تشاء .

(٢٤١) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر الحوادث القريبة .

(٣) حسن المحاضر ج ٢ باب ذكر الحوادث القريبة .

رثاء الأعلام :

وقد يعتبر من قبيل تسجيل الحوادث ، رثاء من يموت من أعلام البلاد في العلم أو الأدب . ولعل العلاقات الشخصية ذات صلة بهذا الرثاء . أو لعلم الدافع إليه . ولـكننا في هذا المقام ننظر من زاوية خاصة ، وهى مايتصل بالبلاد بعامة . فليس موت أحد أعلامها أمراً هيناً عليها ، ولا هو ككل حوادث الموت وليس الرثاء فيه ككل وقائع الرثاء . ولا ريب أن موت أعلامها يصحبه حزن شامل وجزع عام . ولا بد للشعراء من التعبير عن أنفسهم وأنفس الناس ، في مثل هذه المناسبات . وهذا مظهر اجتماعى نليل ، فيه تقدير ووفاء .

وحصيلة الشعر المملوكى في هذا الباب وفيرة زاخرة . وفي المراثى ذرفوا الدموع ، واستبكوا الرياض والأزهار والأطيار . وذكروا الوحشة والغربة . وجاشوا بالزفرة ، وامتلتوا حزناً بغير صبر ، وجزعا بدون أناة . وخاطبوا القبر واستوصوه بالخير . واستمطروا الغيث واستنزلوا الرحمة . واستظلموا الليل ودجاءه ، وسخطوا على الحمام وما جناه . وتحسروا على البيوت وقد خوت ، وعجبوا من القبور وقد امتلأت . وتوقعوا الشر لما كان الفقد يلبه . وسجلوا المحامد . وتمنوا فداء الميت . إلى غير ذلك من مظاهر الحسرة والتفجع .

ولم يصلوا في أغلب مراثيهم إلى مرحلة التعميم والشمول ، حيث تتجه النفس ويتنبه الخاطر إلى التقاط الحكمة وقيد المثل .

ومن المبرزين في المراثى العامة : ابن نباتة والصفدى والقيراطى وابن الوردى ، وابن حجر العسقلانى ، وابن حجة الحموى والشهاب المنصورى ، والشهاب الحجازى ، والجلال السيوطى . وغيرهم كثير .

وروى أنه لما مات العالم الكبير تقي الدين السبكي عام ٧٥٦ هـ - وكان رأس الشافعية في زمانه وأحد كبار أئمتهم - رثاه جمع من الشعراء ، منهم ابن نباتة والصفدى والقيراطى ، وأطالوا .

ومما قاله ابن نباتة :

نعاه للفضل والعلياء والنسب ناعيه للأرض والأفلاك والشهب
ندب رأينا وجوب النذب حين مضى فأى حزن وقلب فيه لم يجب
نعم إلى الأرض ينعى والسماء على فقيدكم يا سراً المجد والحسب
بالعلم والعمل المبرور قد ملئت أرض بكم وسماء عن أب فأب . الخ (١)

ومما قاله صلاح الدين الصفدى :

أى طود من الشريعة مالا زعزعت ركنه المنون فملا
أى ظل قد قلصته المنايا حين أعياء على الملوك انتقلا
أى بحر كم فاض بالعلم حتى كان منه بحر البسيطة آلا
أى حبر مضى وقد كان بحرا فاض المواردين عذبا زلالا . الخ (٢)

ومما قاله البرهان القيراطى :

أمسى ضريحك موطن الغفران ومحل وفد ملائكة الرحمن
حيا المهيم منك روحا قد علت حييت بذاك الروح والريحان
وتبوات غرف الجنان وجوزيت فيها على الإحسان بالإحسان
وتلقيت بتحية وأنت لها تحف الجنان على يدى رضوان . الخ (٣)

وشيوخ الإسلام سراج الدين البلقينى ، كان البعض يعتقد أنه العالم المبعوث على رأس المائة التاسعة . فلما مات رثاه الحافظ العلامة الأديب شهاب الدين بن حجر العسقلانى ، وضمن رثاءه رثاء الحافظ زين الدين العراقى . وعدة أبيات هذه

(١) ديوان ابن نباتة - وحسن المحاضرة ج ١ باب ذكر الأئمة المجتهدين - وطبقات الشافعية للتاج السبكي ، في ترجمة تقي الدين السبكي .
(٢، ٣) حسن المحاضرة ج ١ باب ذكر الأئمة المجتهدين - وطبقات السبكي ج ٦ في ترجمة تقي الدين السبكي .

المرثية المزدوجة نحو ١١٧ بيتاً . (١)
ومراثى هذا العصر كثيرة وأوفر من أن تعد أو تحصى .

رثاء بركة الرطلى :

ولعل من المراثى التى ينبغى الاستطراد إليها ، لطرافتها وندرتها فى هذا العصر ، بل وربما لندرتها فى الأدب العربى كله . هذه المرثية التى نظمها الشاعر الأديب الزجال البارع بدر الدين الزيتونى ، ورثى بها حى « بركة الرطلى » .
ونعقبها ذات صلة وثقى بموضوعنا الذى نتحدث عنه ، وهو العناية بتسجيل الحوادث العامة .

وقد كانت « بركة الرطلى » سوقاً أهلة وحياً عامراً ومنزهاً مقصوداً ومرتاداً للهموم مفضلاً فى ذلك الزمان - وقد أشرنا إلى ذلك فيما مر من الحديث - وفى عام ٩٢٢ هـ خرج سلطان مصر الملك الأشرف قانصوه الغورى إلى قتال العثمانيين المغيرين على السلطنة ، حيث لقيهم فى « مرج دابق » . فكان ذلك آخر عهده بمصر ، وعهداً به .

وأناب السلطان عنه أثناء غيبته الأمير الدياردار « طومان باى » . فأمر الناس بعدم السكنى بحسر بركة الرطلى وبعض نواحيها ، خوفاً على أسر المختربين فى الحرب ، أن يقعوا فى الفتنة . ولم تجد عنده شفاعاة الشفعاء . وبذلك أخذ عمار البركة يتناقص . ومن ثم أدركها الخراب وانطوى ما كان فيها من العمار ، وانقضت بها أسباب الهموم .

فنظم بدر الدين الزيتونى قصيدته هذه يرثى البركة ويذكر أيامها ولياليها ، وما كان فيها من لهو وسمر وسهر ، ولذة ومجون ومبازل . ثم ما أدركها فى حاضرها من خراب ودمار .

(١) المرثية بتامها سجلها السيوطى فى حسن المحاضرة .

والقصيدة - وإن كانت ركيكة النسيج ضعيفة العبارة - وثيقة تاريخية نادرة سجلها الأدب بخياله الشعري وعاطفته الحارة . وطرق فيها مرأى ومشاهد يقل الظفر بها في كتيب التاريخ . وصور بذلك زاوية من زوايا المجتمع .
وقد بدأها الشاعر بوصف عواطفه نحو سلطان بلاده الأشرف الغورى الذى خرج لقتال أعداء البلاد ، قال :

سألت إله العرش ينعم بالنصر لسلطاننا الغورى فهو أبو النصر
ملك عزيز أشرف ومظفر مؤيد دين ظاهر كامل القدر
لغيبته أضفى على الكون وحشة فما بركة الرطلى مدمعها يجرى
ومنها ينزه بما كان يظفر به الخلعاء فيها من الوصل . ويذكر جميزتها التى
طاب ظلمها ، وساقيتها التى بكت على جسر ها . قال :

لقد كان فيها للخليع تواصل لعمر ك إن الوصل خير من الهجر
وكان بها جميزة طاب ظلمها فتاح عليها الطير والوحش فى القفر
على ما جرى للجسر ساقية بكت وصاحت بقلب صار فى غاية الكسر
وقد أصبحت دوحة الجسر تبكى بجماعه . والشامى يبكى على حكره ، وبيوته
خالية لا يسكن ما سكنها ولا مؤجرها ، وخلت قصوره من أهلها يقول :
ودوحته تبكى بجماعه دما وقد أصبح الشامى يبكى على الحسكر
وأضحت بيوت الجسر خالية فلا لصاحبها سكنى ولا أحد يكرى
وقد أصبحت تلك القصور خواليا فيا وحشة السكان من كل ذى قصر

ويبكى الشاعر وينوح ويندب . ثم يصور لنا صوراً طريفة جداً من المناظر الشعبية اليومية المنتشرة فى الأسواق والأحياء الآهلة بجماهير الشعب . ونحن مضطرون إلى إثبات هذه الصور - بالرغم من ركاكة الشعر وضعف أبيانه .
لقد ذكر فيها القاذسى وحلواته ومشبكته ، وبائع الفاكهة وخوخه ورمانه ،
والورود والأزهار ، وبائع الجبن ، وآكلى القطائف المحشوة . وذكر متعاطى
الحشيشة والخمر وما كانا يصيبانه فيها من راحة وهناء . وراكبى المراكب .
(م ٢٤ - عصر المالك)

والمغنين والمنشدين والمطربين وآلاتهم، إلى غير ذلك مما درست معاهده وناحت عليها الغربان والبوم . قال الشاعر :

على بركة الرطلى نوحوا وعددوا لما حل فيها من نكال ومن خسر
فكان بها للقادسي حلاوة مشبكها يشدو من المسك والعطار
وكان بها الفسكاه يسعى بمركب بنوخ وorman يبشر بالبشر
وزهر ونسرين وآس ونوفر لها بهجة البرء طيبة النشر
وكان بها الجبان يقلى بمركب فيجمع بين النار والماء في البحر
وكان بها الآكلين قطائف بها عطش تسقى من الغيث بالقطر
لها رونق في الصحن من فستق بها وسكرها بروى حديث أبي ذر
وكان بها الحشاش يسرد بهجة فذ قطعوا لذاته صار في فكر
وكان بها السكر في غاية الهنا يدير كئوس الراح في ليلة البدر
وكان بها الراكبين مراكب مسترة فيها وأخرى بلا ستر
وكم داخل فيها مغن ومنشد بنغمة فم من خفيف ومن شعر
وكم آلة المطربين عهدتها وجنك وأعواد تغرد كالقمرى
وقد درست تلك المعاهد كلها وناحت بها الغربان والبوم في الوكر الخ^(١)
ونجزيء بالآبيات السابقة عن بقية القصيدة . وحسبنا أن أوضحنا شيئاً منها
وبما صورته .

هذه البركة التي رثاها الزيتوني ، شهدت ليالى مرح وأيام فرح ، لا عدد لها .
وقد أقام كاتب السر القاضي أبو بكر بن مزهر عام ٨٨٦ هـ احتفالاً عظيماً لختان
أولاده - سبق التنويه به - وكان ذلك في بركة الرطلى . قال ابن أبياس إن
بعض الشعراء نظم في ذلك شعراً ، منه :

طابت على بركة الرطلى ليلتنا حتى تباغت على الخليجان والبرك

(١) القصيدة بتمامها في بدائع ابن أبياس ج ٣ ص ٣٨ ط بولاق .

حفت بضوء مصابيح زهت زغدت تضىء فى حندس الديجور والحلك
فكان لما تناهى حسن وقدها تخفى شمس الضحا فى وقدة الفلك (١)
وقال فى ذلك شمس الدين القادرى :
تاه الأنام بمنج الليل فانخذوا لهم دليلا لدى الظلما من اللهب
حتى كأن جلايبب الدجى رغبت عن لونها وكأن الشمس لم تغب (٢)

ويصف المؤرخ ابن إياس ، فى قصيدة خفيفة ، ليلة حافلة قضاهها السلطان الأشرف الغورى بقصره فى مقياس النيل عام ٩١٨ هـ وسجل فيها ما كان خلالها من مرح ولهو ، وما صحبها من مواكب حافلة ، وما أطلق أثناءها من ألعاب نارية ، كما سجل فيها بعض عادات الشعب وتقاليده فى هذه المناسبة وأمثالها . قال منها :

لم يسمح الدهر فيما جاد من فرج فى وقدة الليل بالأملاك والدور
فإن ترد وصفها أنشدت مرتجلا كان التقابل بين النار والنور
من بر مصر ومقياس يقابله ما أزهرت بالدجى فى ليل ديور
حاكت مصابيحها ضوء النجوم إذا صوارخ بضيا فى الجو مشور
وكم رأينا قلاعا فى ذخائرها بضوء زهر بدا فى الماء منسور
كواكب النقط قد حاكت لنا قرا من وهج نيرانها فى زى مقهور
قلوب أزياره صارت مفرقة ما صرخوه يحاكي نفخة الصور
وصوت باروده مثل الرعود إذا لما بدت فى ازدحام كل شختور
وضاق رحب الفضاء فى البحر من سفن يشدو على آتى عود وطنبور
وكم سمعنا مغن صوته طرب هل بعد يوم الوفا جبر لمكسور .. الخ (٣)
قالت لنا روضة المقياس ذا عجب

(١) بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٠٨ حوادث عام ٨٨٦ هـ . (٢) المصدر نفسه ،

(٣) يدافع ابن إياس ج ٤ حوادث عام ٩١٨ هـ ١٣ جمادى الآخرة .

نكتفى بهذا القدر من قصيدة ابن إياس . وثئى العنان إلى فن من الشعر ،
قريب من تسجيل الحوادث البيئية ، وهو وصف أدوات البيئة الاجتماعية ،
فنقول :

ك - وصف أدوات البيئة :

وأدوات البيئة التى نقصدها ، هى التى فرض المجتمع بعاداته وتقاليده
واستخدامها فى المنزل والسوق والمحفل والديوان ، ونحو ذلك من الأدوات
التي تتطلبها طبيعة العمل أو العادة ، وفقا لمقتضيات الحضارة القائمة والنظم
المتبعة . وذلك كالسكين والمهراة ، والقلم والسجادة والمبخرة والإبريق .

ونعتبر وصف الشعراء لهذه الأدوات لونا من استجاباتهم لوحى البيئة
الاجتماعية ، وإن بدا تسليية وقطع وقت فراغ ، فليس إفلاسا من موضوعات
الشعر الجدية ، وبخاصة بعد أن طرأنا معهم أغراضا شتى من أغراض الشعر .
لقد دل الشعراء بوصف هذه الأدوات على عمق امتزاجهم ببيئتهم ، وصدق
إحساسهم بوجود هذه الأدوات التى تشاركهم حياتهم ، ولها فى هذه الحياة دور
عملى تقوم به ولا غنى عنها للقيام به . فمن حقها عليهم أن تشغل بالهم بعض الشغل ،
وتأخذ من أدهم وشعرهم نصيبا . ومن حقها عليهم أن يسجلوها تسجيلا يخلد
ذكرها ويبقى مآثرها . ويستكملوا بوصفها بعض جوانب المجتمع .

وكم من أداة - فى عصرنا الحديث - مستحدثة ، وكم من آلة مبتكرة ونافعة ،
مجلوبة ومحلية يستخدمها الناس فى منازلهم ، يستخدمها الشعراء أيضا ،
ولا يكادون - حتى اليوم - يعرفون اسمها ، فضلا عن دراسة خصائصها
وأجزائها والطريقة التى تعمل هى بها ، هذا كله فضلا عن أن يفتنوا إلى ما ينبغى
لها من الوصف والتشبيه لإخراجها وتسجيلها فى صورة أدبية طليقة .

وذلك كالثلاجة والموقد الغازى والعصارة والخلط والتلفزيون ومئات

من أدوات المطبخ ، والسيارة ووسائل النقل الحديث والإضاءة والسقي ، إلى غير ذلك .

فيا الله أسلافنا الذين أعطوا أدوات مجتمعمهم - مع الفارق - هذا الفيض من العناية ، وشعروا بها وكأنها أحياء تحس وتتحرك وتشاركهم مشاعرهم . فوصفوها وشبهوها وأبرزوا معالمها ومعالم عملها إبرازا جميلا ، وعالموا تعليقات أدبية لما يصادفهم أحيانا من طبيعة صنعها أو عملها .

ومن وصف شيئا منها الشاعر سراج الدين الحجان لقد تناول إبريقاً من الفخار فقال فيه :

يا حبذا شكل إبريق تميل له	منى القلوب وتصبو نحوه الحدق
يروق لي حين أجلوه ويعجبني	منه طلاوة ذاك الجسم والعنق
كم قد شربت به ماء الحياة وإن	ينالني منه لا غص ولا شرق
حتى غدا خجلا مما أقبله	فظل برشح من أعطافه العرق (١)

ووصف قنديلا فقال :

يا حسن بهجة قنديل خلوت به	والليل قد أسبلت منا ستائره
أضاء كالنكوكب الدرى متقددا	فراق باطنه نورا وظاهره
تريده ظلمة الليل البهيم سنا	كأنما الليل طرف وهو باصره (٢)

ووصف شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي بمبخرة ، فقال :

ومبخرة تحكي المتيم في الهوى	تبوح بما تلقاه من شدة الكرب
تقول وقد نمت بعرف بخورها	أأ كنتم ما ألقاه والنار في قلبي (٣)

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٣٩ ، ١٤٠

(٢) المصدر نفسه .

(٣) ديوان ابن أبي حجلة .

ووصف محي الدين أبو الحسين النحوى المتوفى عام ٧٤٦ هـ كتابا فقال :
 وافي الكتاب فلا عدمت أنا ملا رقت على ذلك البياض سطورا
 منظوم در لو تجسم لفظه لحسبت ذلك أوأوا منشورا (١)
 ووصف الشاب الظريف القلم ، فى سياق مدحة له جزلة مشهورة . لمحى الدين
 ابن عبد الظاهر كاتب الإنشاء البارع . فناسب أن وصف له أفلامه ، فقال :
 توحى إلى كل قرطاس بلاغته سحر البيان ومن أفلامه الرسل
 سمر نروك رأى العين عارية ومن بديع معانيه لها حلل
 من الأسنة فى أطرافها سنة لولا النضارة قلنا إنها ذبل
 من كل معتدل كالليل إن رمدت عين المعالى ففقيها نفسه كحل . (٢)

ومن عنى بوصف القلم وتشبيهه ، تقي الدين بن حجة الحموى . وقد قال فى إحدى
 قصائده التى مدح بها القاضى علاء الدين بن أبى البقاء الشافعى :

له براع سعيد فى قلبه إن خط خطا أطاعته المقادير
 محبر وبتحرير العلوم إذا جرى يرى منه تحرير وتحرير
 غصن تلييه طيور العلم عاكفة وجانس النور من أوراقه النور
 وأشقر يده البيضاء غرته له إلى الرزق فوق الطرس تسبير
 بل أسمر عينه الكحلء تلحظنا وهب أجفانها تلك التشاعير
 أو سهم علم بأطراف السطور غدا مريشا وله فى الضد تأشير
 وهذا أقام حدود الله فى يده ولاح فى مهبج الأعداء تشاير
 قلنا وقد لاح هذا ذو الفقار بدا لنا بكف على وهو مشهور
 كذا محايره سود العيون فإن دانت أباديه فهى الأعين الحور . الخ (٣)

(١) الدرر الكامنة ج ٣ رقم ٤٨٦

(٢) ديوان الشات الظريف .

(٣) ديوان ابن حجة الحموى ، الثمرات الشهية من الفواكه الحموية ، بخطوط بدار الكتب المصرية

ومن قبل ابن حجة ، أكثر ابن نباتة المصرى شاعر عصره ، من وصف
أقلام مدوحيه ، من اتخذوا الكتابة صناعة ومن ديوان الإنشاء مناصب .

ومن ذلك وصفه البديع النادر لأقلام بدر الدين بن فضل الله العمرى ، فى
سياق مدحة جيدة قدمها إليه . يقول فيها :

بكم آل فضل الله تمت مقاصدى	وتم على نجح الرجاء بكم نسكى
رفضت الورى لما علفت حبالكم	ونزهت دين الحب فيكم عن الشرك
وستر فؤادى أن أقلام بدركم	سرور لذى ود وغبط لذى محك
لأقلام مولانا ثنا متضوع	فهل هى فى الكافور تكتب بالمسك
وما هى إلا الفضيب إما موائسا	وإما مواضى الحد تحمى حمى الملك
إذا ما دعاها الرأى يا عزة الهدى	بذا قد دعاها السطو يا ذلة الشرك
إذا أنبت ألفاظها بصريرها	طربنا لأقوال البلاغة فى هنك
إذا ما اليد البيضاء ألفت عضالها	تلقف صنع الحق صنع ذوى الإفك
وإن لم تكن موسى فإن محمداً	كثير الأيادى البيض فى الظلم الحلك
نعم إنها فى كفه قصب العلى	بسفن وتحملن العلى ضخمة السمك
دقاق تحمار الجليل وتشتكى	إليها فلا تشكو وليكنها تشكى
تربت بآكام الاسود نراها	مواقع سحب مانداها بمنفك
فجاءت تحاكي الأسدر السحب سطاوة	وجودا وللحاكى بخار على المحكى
مسخرة تجرى بما ينفع الورى	على يده فانظر إلى البحر والفلك
مؤمرة تسرى إلى حومة الوغى	ومن أسود فى أبيض علم الرنك
مسددة الأفعال والبأس والندى	مثقفة الآراء فى الأخذ والترك
فأحسن بها فى الطرس هيفاً كحيلة	ترك قدود العرب مع ثفل الترك
وأعجب بها كالنبيل تنكى ونارة	تحصن من وقع النبال التى تنكى
وبالظل منها وهو ظل براعة	تمر على الدنيا ستورا من الهلك
هى الألفات المائلات بكفه	على أنها اللامات فى المعرك الضنك

قصار تحامها الرماح طويلة نواحل يستشفى بها الحال من وعك
وأقسم ما الشهب المنيرة في السما إذا كتبت يمناه أرفع من تلك.. الخ (١)

وبعد . حسبنا هذا في بيان استجابة الشعراء لوحى البيئة الاجتماعية . لقد
انجمنها بالشعراء إلى جملة زوايا من زوايا مجتمعمهم ، ورأينا كيف كانوا ملبين لها
متأثرين بها . لقد سجلوا صورة هذه البيئة من كثير من زواياها . بما لا يدع مجالا
للشك ، في يقظتهم الفكرية والنفسية .

والآن ، وقد أنهينا الحديث عن بيان آثار ألوان البيئة كلها في شعر شعرائها ،
نثني عنان البحث إلى بيان الناحية الفنية لهذا الشعر . وذلك بدراسة طرق تصويره
وقوالب معانيه . إلى غير ذلك .

ومن أجل هذا نعقد الفصل الخامس التالى .

الفصل الخامس

أثر البيئة بأنواعها

في نواحي الشعر الفنية

أساليبه وطرق تعبيره وعرض معانيه

لا نشك في أن البيئة بشتى نواحيها ، ذات سيطرة واسعة في توجيه الأدب والشعر ، سواء أفى الموضوع كان ذلك أم فى الأسلوب .

وباختلاف البيئة وأنواعها ، فى مصر دون مصر ، وفى عصر دون عصر ، تختلف موضوعات الأدب وأساليبه . وقد تشابه بعض الموضوعات ، وتماثل بعض الأساليب فى أدب عصرين . ولكن موضوعات أدب عصر وخصائص أساليبه ، تختلف فى جملتها — ولا ريب — عن موضوعات أدب عصر آخر وخصائص أساليبه ، فى جملتها .

وهذا الاختلاف من صنع البيئة وألوانها . فهى السبب الاصيل فى إبراز شخصية الأدب وأفليته .

وقد يكون لأديب أو آخر ، جهود فى ابتكار موضوع ، أو خلق أسلوب ، قد لا يشاركه غيره فى ابتكاره أو خلقه . إلا أن هذه حالة فردية . ولا يصعب ردها إلى موحيات البيئة ، إن لم ترد إلى طبيعة خاصة بارزة فى الأديب وحده ، لا يشاركه فيها غيره .

وبعد أن تحدثنا طويلا عن أثر البيئة فى موضوعات الشعر ، فى العصر المملوكى ، نتحدث فى السطور التالية عن سمات أساليبه وخصائصه الفنية ، لنرى مبلغ أثر البيئة فى إيجادها .

ونحن ، إذ نتحدث عن ذلك ، نقرر مبكرين ، أن هذه السمات والخصائص الفنية ، إنما هي الصفات والاتجاهات الغالبة في شعر العصر المذكور . وهي نتيجة لتأثر شعرائه بموحيات البيئة المشتركة .

ويضاف إلى ذلك سمات أخرى لمعت وبرزت أكثر من بروزها في أى عصر مضى حتى لفتت الأنظار ، وقد يكون بعضها عيباً من عيوب الشعر الفصيح ، ولكنها برزت بفعل البيئة وألوانها ، وإن لم تغض في جملة أمرها من براعة شعراء العصر .

عن هذه وتلك نتحدث في هذا الباب ، حديثاً مدعوماً بالنصوص والنماذج ، المعززة بالشرح المفصل ، والإيضاح المناسب .

أ - توخى السهولة

كان أحد الفضلاء قد سمع شعر صفي الدين الحلي فقال : لا عيب فيه سوى قلة استعماله للغة العربية . - وهو يعنى بذلك أن لفظه سهل لا غرابة فيه - : فكتب إليه صفي الدين هذه الآيات :

إنما الحيزبون والدردبيس والطلخا والنقاخ والعلطيس
والخراجين والشقحطب والصفعب والعنقفين والعنتريس
والغطاريس والعفئقس والعفلق والجربضيض والعيطموس
والسبنتي والحقص والهيقي والهجرش والطرفسان والعسطوس
لغة تنفر المسامع منها حين تروى وتشتمز النفوس
وقبيح أن يذكر النافر الوحشي منها ويترك المأنوس
أين قولي : هذا كئيب قديم ومقالى : عتقل قدوس
لم نجد شاديا يغنى : قفانبك على العود إذ تدار الكئوس
لا ولا من شدا : أقيموا بنى أمى إذا ما أدبرت الخندريس

ومنها :

خل الأصمعي جوب الفيافي في نشاف تخف فيها الرؤوس
وسؤال الأعراب عن ضيعة اللفظ إذا أشكلت عليه الأسوس
درست تلمكم اللغات وأمسى مذهب الناس مايقول الرئيس
إنما هذه القلوب حديد ولذيذ الألفاظ مغاطيس (١)

وصفى الدين الحلي فخل شعراء الجزيرة في زمانه ، وند جمال الدين بن نباتة
المصري شاعر مصر والشام في وقته . وصفى الدين - وإن لم يعيش في مصر
زمناً يسمح لنا بأن نسلكه في عداد شعرائها - نعتقد أنه قد تأثر بالثقافة المصرية
وبالاتجاهات المصرية في الأدب واصطناع الأسلوب - ولو إلى حد - إذ
كانت هذه الثقافة واتجاهاتها الأدبية قد فرضت نفسها على شتى أرجاء العالم
العربي ، لمكانة مصر من زعامتها وقوتها بينها ، ولأنها دار الخلافة إذ ذاك ومثابة
علوم الدين واللغة . وكذلك رحل صفى الدين إلى مصر ، وأقام بهاردها في عهد
ملكها الناصر محمد بن فلاوون ، ونال من صلاته ومدحه ووصف ربيع مصر في
قصيدة مشهورة . واتصل برجال الناصرومن بينهم علاء الدين بن الأثير كاتب السر ،
وهو الذي أشار على صفى الدين بجمع ديوان شعره .

نقول هذا لنسجل أن صفى الدين وشعره واتجاهاته الأدبية : ليست مقطوعة

(١) ديوان الحلي ص ٤١٨ ط بيروت ، والخيريون : العجوز - الدرديس : الداهية والشيخة
الفانية - الطخا : أسله الطخاء وهو السحاب المرتفع ، والكرب على القاب - النفاخ : الماء البارد
والعذب الصافي - المعطيس : الأملس البراق - الشقعبط : الكيش له قرنفات أو أربعة كشق حطب ،
وجمه شقاعط أو شقاطب - الصنعب : الطويل - الفطاريس : جمع غطريس بكسر أول وثالثة ، وهو
الظالم المتكبر - العنقفس : اللثيم - العنقل : الفرج الواسع الرخو ، والمرأة الخرفاء السيئة الماطق -
الميطموس : التامة الخاق من الإبل والنساء ، والمرأة الجميلة أو الحسننة الطويلة - الببقي : الجريء
والنر - الحقص : الشد - الطرفسان : القطعة من الرمل - العسطلوس : شجرة كالحيزران ، ورأس
الناصرى بالرومية - العنقل : السكيب - القدموس : القديم - الحندريس : النحر .

الوشيجة بشعر مصر واتجاهاتها الأدبية . ومن المستطاع الاستئناس بهما . ونحن نتحدث عن البيئة المصرية وتأثيرها في الشعر وطرق تعبيره .

أقد توخى شعراء مصر في تلك الحقبة التي نؤرخ شعرها ، السهولة في أكثر ما نظموه منه . اختاروا اللفظ السهل العذب الرقيق ، والأساليب المستساغة والتراكيب السمحة . وابتعدوا عن الألفاظ الغريبة والجمل والعبارات القوية التي تلفت السمع بجلبة رنينها وصلابة حروفها ، مما يتسم بالجزالة الصوتية قبل أن يؤدي معنى من المعاني ، ومما يتصف بالهشولة قبل أن يعبر عن فكرة من الأفكار .

وأبيات صفي الدين التي صدرنا بها هذا المقال ، شهادة عنيدة على ما توخاه القوم إذ ذاك من لفظ وأسلوب .

ولعل صفي الدين لم يكن فيها يدافع عن أسلوبه ، بمقدار ما كان يقنن للأسلوب الشعري ويدال على سلامة هذا التقنين بهذا الحشد العظيم من الكلمات اللغوية الغريبة المثيلة المتنافرة التي كتبها ، فظاهرته مظاهره صاخبة عززت رأيه . وهو بهذا يعبر عن ذوق العصر وعن اتجاه شعرائه بعامه . قال زين الدين ابن الوردي .

إذا أحببت نظم الشعر فاختر لنظمك كل سهل ذي امتناع
ولا تقصد مجانسة ومكن قوافيه وكله إلى الطباع

ولا ندري بالضبط كيف نعلل هذه الظاهرة ، فهل سببها بعد العهد بشعراء العصر عن أيام الجاهلية وأيام غرابة اللغة ؟ نعتقد أن هذا ليس السبب الأصيل ، ذلك لأن اصطناع السهل المألوف من اللفظ المفرد والتركيب ، ظاهرة عرفت في العصر العباسي . ونحن أهل العصر الحديث أشد بعداً عن أيام الجاهلية ، ولما كنا

شعراءنا في جملةهم أجزل لفظاً وأقوى أسلوباً من أسلافهم في عصر المماليك .

فهل سببها ضعف الثقافة اللغوية بين ألوان الثقافات التي تثقف بها الشعراء — ومن بين الشعراء أميون لا يقرءون ولا يكتبون — لا نستطيع الجزم بذلك بالنسبة للجميع ، لأن من بينهم أصحاب ثقافات عالية ، ومنهم من قلب في اللغة وأدبها في عصورها الماضية وأرخ لها وشرحها ونقدها ، أمثال شهاب الدين ابن فضل الله العمري ، والجمال بن نباتة والصلاح الصفدى والتقى بن حجة الحموى — وفي شعرهم سهولة ووضوح .

يبدو أن السبب الاصيل لذلك أو صاحب الأثر الأول ، هو طبيعة الشعب المصرى — كما أشرنا آنفاً — الناشئة من طبيعة أرضه السمجة السهلة الواضحة ومن جود أرضه ومن رغد عيشه وتوافر طعامه وسهولة حصوله عليه ، فلم يكدر حينذاك كما يكدر سكان الجبال ولم يتعرض للهلاك كما يتعرض الباحثون عن المعادن ، فلم يكسبه ذلك رغبة في التعمق عند التفكير ، ولا مشقة عند التعبير ، بل أطلق اللفظة على سجيتهما . يعبر بها عن ضميره ، ويصور بها ما يدور في نفسه ، في بساطة وسهولة .

وهكذا درج على توخى السهولة اللفظية عند الحديث ، واختيار اللفظ والتركيب المتسم بالسماحة والكثير التداول الذى يعذب سماعه ويتحقق فهم معناه فور النطق به .

وكان شعراؤه حينذاك منغمرين غالباً في أوساط العامة ، وهم منهم ، فتأثروا بأساليبهم وتوخوا فيها ما يتوخونه . فاصطنعوا العذب السائغ المقبول ، وتجاؤا عن الصلب والغريب والطنان .

وهذا النحو من الأسلوب هو الشائع الذائع بين شعراء جيلنا الآن بحجة أن الشعر من الشعب وإلى الشعب ، فينبغى أن يكون بلفظه وأسلوبه ، ومختاراً من معجمه ليفهمه ويتأثر به دون حاجة إلى وسيط .

وهذا اتجاه خطير في حاجة قصوى إلى مناقشة حاسمة . فإن بعض الشعراء الحديث قد أمعن في السهولة وتخفف ما استطاع من الجزالة ، واصطنع الدائر على السنة العامة ، حتى صار شعره أشبه بالآزجال وأبجاع العامة .

والآدب العربي ولغته إنما يحييان بشعر جزل قوى فيه صلابة لا تخرجه عن موسيقاه ، وفيه تماسك واكتناز لا يبعده عن رفته وعذوبته . وفيه ثقافة أدبية متنوعة تثقف العامة وتمذهبها وتسمو بمستواها ، فتستفيد بذلك من الآدب واللغة .

ولم تصل سهولة الشعر المملوكى إلى مستوى سهولة بعض الشعر فى جيلنا الحاضر . فقد كانت سهولة مقبولة فى جملتها ، وكانت هذه السهولة وسيلة إلى تأدية المعانى واضحة جليلة ، يستطيع الطالب استيعابها فى يسر وسرعة . والملاحظ أن هذه الظاهرة بدت فى المطارحات والمراسلات الإخوانية والمعارضات والمساءلات والمنافضات والسراقات والتوشیحات والمقطوعات الوصفية ، والغزل والمجون والاستدعاء ، أكثر مما بدت فى سواها . ومن الشعر السهل السائغ قول الشاب الطريف يشكو ويتغزل .

نمت بما تحنو عليه ضلوعه	أسقامه وشـجونه ودموعه
جلبت نواظره لمهجته أسى	وجوى يذرب ببعضه بمجموعه
مغرى بوسنان اللحاظ وإنما	فى حبه هجر الحـب هجره
أبدى بحياه وأسبل شعره	والبدر يحسن فى الظلام طلوعه
للطرف فيه سنا وفيه بارق	هذا وذاك يروقه ويروعه
دارت عقارب صدغه فى خده	فغدا وقلبي فى الهوى ملمسوعه
يارافر البحر الطويل توسلى	فيه ألا وعد يـجود سريعه
نيه جفونك من نعاس فتورها	لترى محيا ذاب فىك جميعه

ما أنت يا طـرفى بـمـتـهم على سرى فكيف إلى الوشاة نذيعه . إلخ (١)

ومنه قول جمال الدين بن نباتة المصرى فى صدر مدحه ، يتغزل :

لا وخمر با بلية فى ثنايا لؤلؤة
لا رقى سفح دموى فى هوى تلك الثنية
ربع سلوانى خراب وشجوفى عامرية
حربى من ذات حسن باسم تبكى البرية
غادة يروى لهاها عن صحاح جوهريه
من بيوت الترك ترمى عن قسى عربية... إلخ (٢)

ولصنى الدين الحلى يتشوق :

إن غبت عن عياني يا غاية الأمانى
فالفكر فى ضميرى والذكر فى لسانى
ما حال عنك عهدى ولا انثنى عنانى
شوقى إليك باق والصبر عنك فان (٣)

ولبدر الدين الذهبى يصف دولابا فى روضة :

وروضة دولابها إلى الغصون قد شكا
من حين ضاع نشرها دار عليها وبكى (٤)

ولصلاح الدين الصفدى فى وصف الدموع :

جرحت قلبى فأجربت الدموع دما فقيض دمعى من تلك الجراحات

(١) عن ديوان الشاب الظريف . (٢) عن ديوان ابن نباتة ص ٦١ .

(٣) ديوان الحلى ط بيروت ص ٢٨٢ . (٤) كشف اللثام لابن حجة .

وراح دمعى يحارى فيك نطق فى فالتشان فى عبرانى والعبارات (١)

ونماذج الشعر السهل الراق السائغ كثيرة موفورة .

غير أننا نحب - بعد ما أوردناه منها - أن ننبه إلى أننا حينما نتحدث عن إحدى الظواهر الأدبية التي نمت عن تأثيرات البيئة ، نتحدث عن ظواهر غالبية لا عامة شاملة ، وعن اتجاه يتكرر أكثر من تكرر غيره . وعلى هذا نتوقع أن يكون هناك من الجزئيات ما يخالف هذه الظواهر ، ومن النماذج ما يغير هذا الاتجاه . ولا يصعب تعليل وجود هذه الجزئيات والنماذج أيضا . كما سترى .

نقول ذلك بمناسبة ما نراه من الجزالة بل القوة والصلابة في أساليب بعض الشعراء ، وما ينجحون إليه أحيانا من غريب اللفظ وحوشيه .

حتى صفي الدين الحلي نفسه ، ذلك الشاعر الذي نعى على الغرابة والحوشية وسفه الناقد الذي عاب شعره لخلوه من الألفاظ الغريبة ، نقول حتى صفي الدين هذا ، الذي استشهدنا بشيء من شعره السهل الرقيق ، نرى له أحيانا شعرا جز لا قويا ، بل صلبا حوشيا ، لا نبالغ إذا شبهناه بشعر البداءة في الجاهلية ، وبنظم الأعراب .

وقد أشرنا إلى أن صفي الدين يرجع في ثقافته إلى العراق ، وقد يكون متأثرا بالثقافة المصرية التي كانت - ولا ريب - أوسع أفقا في جملتها من ثقافة العراق آنذاك ، ولا نرتاب في أن ثقافة العراق إذ ذاك قد أفادت منها .

فاعتقدنا أن جنوح صفي الدين إلى الغرابة والصلابة أحيانا ، ليس وليدا للثقافة اللغوية التي أفادها من هنا أو من هناك . بل يرجع إلى مقدرة خاصة وإلى ثقافة فردية أفاد منها عند المناسبة ، وعندما أراد أن يثبت لنفسه أمام

(١) كشف اللثام لابن حجة .

نقاده مقدرة فنية وثرية لغوية وتصرفا أدبيا متنوعا . وبهذا جمع الفضل من أقطاره
وملك الأدب من نواصيه .

على أن أمثال صفي الدين في هذه الخصوصية قليلون . وسنرى فيما يلي من
النماذج شيئا من شعرهم جميعا . وقبل أن نورد هنا نلاحظ - بصفة إجمالية - أن
الشعراء الذين اشتغلوا بالكتابة - كابن عبد الظاهر وابن نباتة والصفدى وابن
حجة - كانت لغوياتهم أكثر وأبرز من سواهم . إذ كانت صناعة الكتابة أشد
احتياجا إلى معجم لغوي واسع . ونلاحظ أيضا أن المحصول اللغوي في مجموع
الشعر كان يقل تدريجيا كلما سارت الأيام إلى نهاية العصر . ونلاحظ أن الجزالة
والغرابية اتصلتا ببعض أغراض الشعر أكثر من سواها من الأغراض ، كالمدح
والنبويات والوصف والفخر .

ومن شعر صفي الدين الحلي بفخر بقومه ويصف الخيل في المطلع ، يقول :

لمن الشواذب كالنعام الجفل كسيت جللا من غبار القسطل
يهرزن في حلل الأعجاج عوابسا يحملن كل مدرع ومسر بل
شبهه العرائس نجمي فكأنها في الخدر من ذيل العجاج المسبل
فعلت قوائمه عند طرادها فعل الصوالج في كرات الجندل
فتظل ترقم في الصخور أهلة بشبا حوافرها وإن لم تنعل . . الخ (١)

ومن جزالة ابن نباتة وقوة ديباخته قوله في إحدى نبوياته ، يتذكروني تشوق
ويتشكى :

(١) ديوان الحلي ط بيروت ص ١١ - الشواذب : الضامرة - الجفل : النافرة - الجلال : جمع جل
هو ما تليسه الدابة صيانة لها - الطراد : المطاردة . الصوالج : جمع صولجان وهو المحجن ، أداة للصد أو
الصرف أو الجذب كمضرب الكرة .

صحا القلب لولا نسمة تتخطر ولمعة برق بالغضى تتسعر
وذكر جبين البابية إذ بدا هلال الدجى والشئ بالشئ يذكر
سقى الله أكتاف الغضا سائل الحيا وإن كنت أسقى أدمعا تتحدر
وعيشا نضا عنه الزمان بياضه وخلفه فى الرأس يزهر وبزهر
تغير ذاك اللون مع من أحبه ومن ذا الذى ياعر لا يتغير... الخ (١)

ومدح الشاب الظريف محي الدين بن عبد الظاهر ، فقال من قصيدة جيدة
جولة :

أضحت يدها لعقد الجود واسطة فليس يدرى لجود بعده عطل
يجود حتى يمل الناس أنعمه وليس يدرى من بذلها ملل
سادت وسارت بها الأفواه معلنة فقد غدت مثلا يغدو بها المثل
بنى لأبنائه بيت العلى وثوى فيما بناه له آباؤه الأول
كانوا أتم الورى جودا وإن صمتوا وأعظم الناس أحلاما وإن جهلوا... الخ (٢)

٢ - اصطناع البديع

يعتبر هذا العصر عصر البديع ، لقد أغرق فيه كتابه وشعراؤه إغراقا منقطع
النظير ، لا شبيه له فى أى عصر أدبى آخر . ومرجع ذلك فى رأينا إلى عدة أمور
تعارفت على توجيه الأدب فى هذا الاتجاه ، منها (٣) :

أثر الدول الحاكمة :

توالى الدول الحاكمة على البلاد من خارج حدودها ، ومنها الدولة القائمة

(١) ديوان ابن نباتة حرف الراى . (٢) ديوان الشاب الظريف ،

(٣) نوهنا بشئ من ذلك عند حديثنا عن خصائص النثر .

التركية أو الجركسية . فقد تتابع على البلاد بعد الفتح العربي بزمان حكام طارئون من غير أبنائها ، وكانت جيوشهم في أغلب أمرها من غير هؤلاء الأبناء . وكانت الصلة بينهم وبين شعبها صلة الحاكم الظالم الطاغية المستعلى المستبد ، بالمحكوم المستغل المظلوم المسوق الخائف المترقب . فأورث ذلك أبنائه حقدا دفينالم يستطع إبرازه إبرازا إيجابيا إلا للملأ ، وكتبته في نفسه ومعه مرارة بالغة . وتنفس عن طريق النقدة العابرة واللذعة الطائرة والمواخذة الساخرة المتفككة والنكتة المتنكرة . واحتال في حديثه فاصطنع التورية والإيهام والاستخدام لما فيها من المعاني المتشابهة التي تدعو إلى الريث وتعفى من اللوم ، وتبهيء التبريء ... إلى غير ذلك من مسالك الأسلوب التي رسخت في ذوق هذا الشعب الذكي الكريم الحيلة . وانطبع شعراؤه بطابعها ، فكانوا أدنى شعراء عصر إلى تمثيل أهله .

وملأت الدولة الحاكمة وأمرؤها وجنودها ومن لف لفهم من أعيان البلاد ورؤسائها ، أنظار الناس بما دفعوا إليه من حضارة ومدنية وصناعة وفن ، قوامها جميعاً التويه والزخرف والتهويل والمبالغة في اللون والشكل ، بدا ذلك فيما اتخذ من الملابس والمطاعم والمشارب ، وفيما أقيم من الحفل في الأعياد والمواسم ، وفيما شيد من الأبنية والعمائر والمساجد والسبل ، وفيما اصطنع من الأثاث والرياش . إلى غير ذلك مما لا يزال ماثلا في آثارهم .

فبهروا الأنظار وسحروا الخواطر وطبعوا الأذواق بطابع التلوين والصبغ والتشابك والزخرف ، وكان لذلك أثره الماثل في تخاطبهم وأحاديثهم . وانطبع شعراؤهم بطابعهم . فأقبلوا على المماثلة وعقد التشابه والاحتتيال والتلوين في الأسلوب وربط الألفاظ بعضها ببعض بمجانسة أو ازدواج أو مطابقة أو مقابلة أو لف أو نشر ... وانساقوا إلى الحلية والزينة ، واتخذوا ذلك أساسا ودعامة يبنون عليها بيوب الشعر ويشيدون القصائد .

مذهب القاضي الفاضل :

وهناك عامل ثقافي له خطورته وأثره في هذا الاتجاه ، وهو مذهب القاضي الفاضل في أساليب الكتابة والشعر . لقد كان هذا المذهب الدعامة الأولى التي اتخذها الشعراء أساساً لنظم الشعر . ولقد كان القاضي الفاضل إماماً في ذلك له قدسيته .

عاش القاضي الفاضل في أواخر العصر الفاطمي وأوائل العصر الأيوبي ، وشهد عصر صلاح الدين الأيوبي وكان وزيراً له دبر له دولته برأيه وشبابة قلبه . وابتدع مذهبه هذا الذي يعتبر في جملته امتداداً لمذهب ابن العميد .

لقد لمع البديع وبرزت منه أنواع عدة منذ فجر الأدب . وعرف من أنواعه في العصر الجاهلي - مثلاً - السجع والازواج . وما زالت تبرز ألوانه حتى ظهر ابن العميد - توفي عام ٣٦٠ هـ - فسلك في الأسلوب مسلكه ومذهبه . واستحسن السجع وقصر الفقرات واستملح الجناس ، واستطاب الطباق والمقابلة والتضمين والافتباس والتلميح ، واستعمل شيئاً من غريب اللفظ . وعنى بالتشبيه والاستعارة ، إلى غير ذلك ، مما هو معروف عن طريقته التي كان لها أثرها في الكتابة والشعر .

وزادت موجة البديع بعد ابن العميد ، ودخلت أساليب الأدب في طور هندسة وزخرف بتأثير اتساع الحضارة وتفشي الصناعات والفنون ، وتنافس الدول الإسلامية الناشئة بجوار الدولة العباسية ، في ذلك .

وورث القاضي الفاضل كل هذا التراث ، وبخاصة بعد العصر الفاطمي الذي شغل الناس بمواسمه وأعياده وبمواكبهم واحتفالاته ، وبرايانه وشعاراته . فارتضى لنفسه التزام مستحسنات ابن العميد . وزاد عليها دقة في نظام الفقرات ، وإصراراً على التورية والاستخدام ، وعمقاً وتعقيداً في اصطناع التشبيه والاستعارة ، وتوسعا في استعمال التضمين والافتباس . إلى غير ذلك من لوازم

طريقته . وذاع ذلك في زمانه وفي دولة بنى أبوب ، بين كتابها وشعرائها في الجملة . واتجهوا بذلك نحو الزخرف والزينة .

وكان عصر المماليك في جملة مظاهر امتدادا لعصر بنى أبوب . وزادت الأسباب الداعية إلى الاحتيال في الأسلوب ، والجهد في تزيينه وتجميله كما سبق . فأوسع ذلك ميدان الانتصار أمام مذهب الفاضى الفاضل ، ووجد من أسباب الرواج والانتشار ما لم يجده في عصر آخر ، فقد وافق أذواق الناس والشعراء والكتاب ، وأقبل النقاد أنفسهم يتحدثون في نقد الشعر والنثر على أساسه وعلى هدى منه . وأكثر ابن حجة الجوى - مثلا - في خزائن أدبه من الإشادة بالفاضل وكتابته وشعره ومذهبه وذوقه ، وهو يدرس الشعر والكتابة . واعتبر أن له راية هي «الراية الفاضلية» وأن له «عصبة» من أدباء عصر المماليك ، ساروا تحت رايته . .

هذا وغيره ، يشعرونا بما كان لمذهب هذا الأديب الكبير ، دراسة ونذوقا ، من أثر ضخيم في طبع أساليب الأدب في عصر المماليك بطابعه .

وخلف من بعده خلف كان على رأسهم جمال الدين بن نباتة الذى أتم تمصير مذهب الفاضى الفاضل ، وطبعه بطابع الذوق المصرى الأصيل ، وذلك بالإكثار من التورية والاستخدام ، وباستعمالها بلباقة ورقة ولطف لا تظفر بها في أدب الفاضل ، وبالسماحة البادية في استعمال التشبيه والاستعارة ، وبإخراج الجنس ممزوجا بالتورية حتى نذهب عنه عقادته ، وبالتفكك وإطلاق النسكته المليحة . . إلى غير ذلك .

لقد اعتبره ابن حجة الزعيم للثاني للطريقة الفاضلية ، وأن له راية خاصة هي «الراية النباتية» . وأحصى عدداً من الأدباء مشوا تحت هذه الراية . وهم عصابته وأتباعه . .

وحق ابن نباتة أن يعتبر زعياً مستقلاً ، ذا طريقة خاصة ، يتمثل فيها الذوق المصرى الصميم .

أمثلة من شعر الفاضل :

ومن شعر الفاضل قوله يمدح الملك العادل ، من قصيدة :

أهذى كفه أم غيث غوث ولا بلغ السحاب ولا كرامة
وهذا بشره أم لمع برق ومن للبرق فينا بالإقامة
وهذا الجيش أم صرف الليالى ولا سبقت حوادثها زحامة
وهذا الدهر أم عهد لديه يصرف عن عزيمته زمامه
وهذا نصل غمد أم هلال إذا أمسى كنون أو قلامه
وهذا الترب أم خد لثنا فآثار الشفاء عليه شامه
ومنها :

وهذا الدر منشور ولكن أرونى غير أقالمى نظامه
وهذه روضة تندى وسطرى بها غصن وقافيتى حمامه
وهذا الكأس روق من بنانى وذكرك كان من مسك ختامه (١)

وقد قدم ابن حجة الجوى هذه الأبيات بقوله :

« قول إمام هذه الصناعة . ومالك أزمة البلاغة والبراعة . القاضى الفاضل ،
وعلق عليها أيضاً بقوله :

« سبحان المالح هذا الأديب الذى لم ينسج الأوائل على منواله ، ولا تتعلق
الأفاضل من المتأخرين بغبار أذياله ،
وأنت ترى فى هذه الأبيات فنوناً من البلاغة والبديع . وذلك كالتشابه

(١) خزائن الأدب ص ١٥٥ ، باب تجاهل العارف .

في الكف والغوث . وفي البشر ولمع البرق . وفي الجيش وصرف الليالي ، وفي
الدهر والعيد ، وفي نصل الغمد والهلل . وفي القلابة والنون والهلل . إلى غير ذلك .
وفيها تجاهل العارف . وهو واضح في الاستفهامات المتوالية في الآيات
كقوله : أهذى كفه . أهذا بشره . أهذا جيشه . . إلخ .

ومن أبدع تمثيله وأجمل مخترعانه قوله :

وهذى روضة تندى وسطرى بها غصن وقافيتي حمامه
وهو يقصد بالروضة الصحيفة التي يكتب فيها . فسطره فيها غصن ، وقافيته
حمامة ساجدة . .

ومن شعره يشبه ثلاثا بثلاث :

كأن ضلوعى والزفير وأدمعى طول وريح عاصف وسيول

ومن طريف توريانه قوله يتغزل :

وكنت وكنا والزمان مساعد فصرت وصرنا وهو غير مساعد
وزاحمنى فى ورد ريقك شارب ونفسى تأبى شركهما فى الموارد (١)
والتورية فى لفظ « شارب » بمعنى شعر الفم أو اسم الفاعل من
شرب يشرب .

ومن جناسه وفيه تورية أيضاً قوله :

لو كنت جلوبت الحمام نائحا قال الوشاة أذاع سرك بأثما
سل طائعا صدع الفؤاد بسحره أتراه عرض صادعا أم صادحا
ياضعف من أمسى الفريسة فى الهوى وغدا الحمام له هنالك جارحا (٢)

(١) خزانة الأدب باب التورية - الأبيات وما قبلها .

(٢) تأهيل التريب باب الأغزال البديعة .

والجناس : بين نأخ وبأخ ، وبين صاعد وصادح . والتورية في « جارحا ، أراد من جرح يحرح فهو جارح ، أو صار من الطيور الجوارح .

هذا وسنسوق لك أمثلة ونماذج من شعر جمال الدين بن نبانة في عداد ماسنسوق من أمثلة ونماذج . وسنوضح لك فيها ما تحتوى عليه من ألوان بديعية .

وبعد فهذه الصناعة البديعية لم يعد أكثر نقادنا وأدبائنا في العصر الحديث يأبهون لها . بل يحملون عليها ويعيبونها وينادون بالانصراف عنها إلى إجادة الفكرة وتمحيصها ودقة إخراجها .

وملابسات عصرنا وتوثبه الثقافي وتتابع وفود الثقافات الأجنبية إلينا ، وسهولة وصولها وسرعتها ، وعجلة تطور الحياة وتجدد أسبابه ، كل هذا كان له أكبر الأثر في انصراف أدبائنا عن الصناعة البديعية ، إلى صناعة الفكرة وخلق المعنى وإبراز الخلاجات النفسية .

ولكن من الحظ أن نعيب شعراء هذا الزمان البعيد لولوعهم بالبديع ، ونقيسهم بمقاييسنا ، ونحكم فيهم أذواقنا ، دون رعاية لملابسات حياتهم وما كان هذا الولوع إلا طورا طبيعيا وضروريا ، من أطوار حياة الأساليب الأدبية .

ونحن لاندافع عن البديع ولا نتحذاه . ولكننا لانستطيع أن نغفل أنه فن جميل من فنون القول . لانستطيع أن ننكر ما فيه من براعة وكياسة وذوق . لانستطيع أن نجاد ما فيه من دقة ملاحظة وعمق فهم . بل لانستطيع أن نتجاهل أو نجمل أن بعض ألوانه يعتبر أحيانا ضرورة من ضرورات التعبير ، ولا نستطيع كذلك أن ننسى أن في لغة عامة بلادنا منذ ذلك الزمان حتى يومنا هذا أصباغاً منه عدة . لانستطيع كذلك أن نفرق بين الأسلوب الأدبي - والشعري بخاصة - وبين غيره من أساليب القول ، إذا لم يكن مزودا بألوان منه ومعتمدا على مسالك من مسالكه . وليس هو الذي يتود الأسلوب ، ولكن

سوء استعماله هو الذى يثوده ثم كم بين الأساليب غير البديعية من غث وضعف ومسترذل . .

على أن أدباء عصر المماليك وشعرائه ، استطاعوا باصطناع البديع ، وبرعاية قوانينه التى وجدوا فيها رجعا لما فى نفوسهم ، وموافقة لأذواقهم ، أن يدالوا عمليا على عمق فهمهم للفن ، وأن يبرزوا ما فى ألفاظ العربية من أسرار ومزايا ، وما بينها من ألفة وتقارب ، وما فى طبيعتها من تعاون وتأزر على تصوير المعانى . وأن يجلووا ضروبا من جمال اللغة كانت خافية مجهولة . واستخرجوا من مفرداتها الملتشابه والمتقارب والمشارك والمتضاد وغيرها ، وجذبوا بها بصفاتها هذه - إلى ميدان الفكر والأدب والتعبير ، وذلك بالاستعمال .

بهذا وذاك أصبح البديع وقبوده ميزانا من موازين الأدب لدى نقاد العصر . - كما نوهنا - وقد وزنوا به النثر والشعر ووزنوا به الشعر أكثر مما وزنوا به النثر - كما يترأى ذلك فى خزانة الأدب لابن حجة - وتلك سنة قديمة للنقاد أن يهتموا بنقد الشعر أكثر من اهتمامهم بنقد النثر .

واعتبر نقاد العصر كل نوع من أنواع البديع ، مسلحا من مسالك البلاغة ، وبذلك رادفوا بين البديع والبلاغة .

ولم يكن الشعراء - وإن مشوا جميعا تحت راية البديع ونظموا من أنواعه - على مستوى واحد من الإجادة ، ولا على درجة من الإقبال واحدة ، على كل ألوانه . فمنهم من أجاد التورية ومنهم من أخفق فيها ، ومنهم من جانبها . ومنهم من عف عن الجناس إلا إذا كان غير متكلف ، أو أخرجه مخرج التورية ، ومنهم من أقبل على الجناس بجميع نفسه ولو كان متكلفا ساقطاً ، أو كان عارياً عن التورية . وهكذا .

لم يسيروا جميعاً على وتيرة واحدة لاختلاف الذوق والثقافة والمقدرة . وقد

كان أديب كبير كشهاب الدين الحلبي ، وأديب بارع كشهاب الدين بن فضل الله ، لا يقبلان على صوغ التورية ، ولم يعتبر كلا الرجلين من فرسانها . وكان جمال الدين ابن نباتة وتقى الدين بن حجة الحموي لا يميلان إلى الجناس ، وإذا صاغه ابن نباتة لم يكن متكلفاً في صياغته . واستحسن أن يمتزج بالتورية . وكان صلاح الدين الصفدي مولعاً ولوعاً شديداً بالجناس يتكلفه ، ويعلم أنه يتكلفه ، وألف كتاباً سماه « جنان الجناس » ، وأن ابن نباتة قرأه هكذا « جنان الخناس » .

وإننا بعد ذلك لا ننكر أن اللجاج في استعمال البديع وعدم الخنكة والسكياسة في صوغه ، يسقطه ويوقع في التكلف المرذول ، ويبعد به عن سمات البلاغة ، وقد يحيل الأسلوب إلى أجر يابس لا بشاشة فيه .

ولا ننكر أن الانصراف إلى إجادة البديع ليكون وسيلة إلى الزينة والحلية ، يستنفذ من الشاعر مجهوداً ضخماً ، أجدر به أن ينفقه في ابتكار الرأي وخلق المعنى ، ولا سيما في زماننا .

الدراسات القرآنية :

وهذا عامل آخر له أهميته في اتجاه أدباء العصر نحو البديع ، فقد عني النقاد والدارسون بدراسة أساليب القرآن الكريم ، وطريقة نظمه ، وكانت دراستهم أساسها التسليم بإعجاز القرآن وبلوغ أساليبه حد الجمال الفني في الصوغ والتأليف . ولهذا كان همهم متجهاً إلى بيان وجوه إعجازه ووجوه الجمال في أساليبه . وكلما تنبه خاطرهم إلى وجه من الوجوه ، أو إلى توافق ما ، عدوا ذلك لوناً من ألوان البديع .

وتحدث نقادهم وتكلم بلاغيوهم ، في أبواب النقد والبلاغة . وقدموا في الاستشهاد في كل باب ، نموذجاً أو أكثر من آيات القرآن الكريم . واتضح ذلك بعد ، في كتاب « حسن التوسل » للشهاب الحلبي ، و « خزانة الأدب » لابن حجة .

هذا الاتجاه أوسع الميدان أيضاً أمام مذهب الفاضل ومذهب جمال الدين بن نباتة ، فانتصرا على طول الخط .

وبهذا وذاك صار العصر عصر البديع ، وأغرق فيه كتابه وشعراؤه إغراقاً منقطع النظير ، كما أشرنا .

وفي السطور التالية نتحدث عن بعض ألوان البديع التي ظهرت في شعر هذا العصر ، وكانت لها سيادة فيه وسيطرة عليه ، مع أمثلتها وتحليل بعض هذه الأمثلة بالقدر المناسب .

ولأن نستطيع أن ندرس كل ألوان البديع ، لكثرتها وتراصف أنواعها . ولأن دراستها جميعاً تخرج بنا عن نطاق بحثنا . وقصارانا هنا فتح الباب بالتمثيل القليل والشرح المناسب .

على أن الذي نريد التنبيه عليه ، هو أن شعراء العصر لم يتركوا - أولم يكادوا يتركوا - نوعاً بديعياً إلا وقد نظموا فيه . ومن الأنواع ما كانوا يتنافسون في إجادته وفي الإكثار منه كالتورية .

وحسبك أن تعلم أن شعراء البديعات ضمنوا بديعاتهم نحو مائة وأربعين نوعاً بديعياً . وفي هذا كله ما فيه من تكلف . فمن هذه الأنواع (١) .

(١) براعة الاستهلال :

براعة الاستهلال أو براعة المطلع ، يسميها ابن المعتز « حسن الابتداء » . ويفرق بعضهم بين براعة الاستهلال وحسن الابتداء .

(١) من الكتب التي ألف في عصر المايك وتحدثت عن أنواع البديع وشرحت كل نوع ومثلت له : حسن التوسل للعلي ، خزانة الأدب لابن حجة . جنان النجاشي للصفيدي . كشف اللثام لابن حجة . وشرح البديعات وهي كثيرة .

ويشترط في مطلع القصيدة لكي يكون بارع الاستهلال جملة شروط ، منها :

١ — أن يكون مطلع القصيدة مستقلا في معناه عما بعده فلا يتعلق به .

٢ — أن يكون رقيق النسيج متخير اللفظ غير حوشيه .

٣ — أن يكون فيه من المعاني ما يشعر بالغرض العام من القصيدة ،
أو الغرض الرئيسي لها .

٤ — أن يحتوى كل واحد من شطريه على معانٍ مساوية لما يحتوى عليه الآخر ، فلا ينقل ميزان أحدهما ويخف ميزان الآخر .

٥ — أن تكون معاني كل من الشطرين من واد واحد ، حتى يكون التناسب بينهما واضحا تماما . فلا يكون أحدهما في المدح ، والثاني في الغزل مثلا :

ومن الأمثلة الى ضربوها لذلك ، مطلع معلقة امرئ القيس . وهو قوله :

قفأ نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحول

ومطلع قصيدة النابغة الذبياني ، وهو قوله :

كلبنى لهم يا أميمة ناصب وليل أفاقيه بطل ، بطل السكواكب

وفضلوا الثاني على الأول ، لاستيفائه الشروط المطلوبة في براعة الاستهلال .

ولأن بيت امرئ القيس اكتنزت معانيه في شطره الأول ، وكاد يخلو منها

شطره الثاني ، بخلاف مطلع النابغة فالمعاني فيه موزعة على الشطرين .

قال ابن حجة : « وقد سمي ابن المعتز براعة الاستهلال ، حسن الابتداء . »

وفي هذه التسمية تنبيه على تحسين المطالع ، وإن أخل الناظم بهذه الشروط

لم يأت بشيء من حسن الابتداء ، وأورد في هذا الباب قول النابغة : كلبنى

لهم . . . الخ ، وقال :

« قال زكي الدين بن أبي الأصبع : لعمرى لقد أحسن ابن المعتز الاختيار . »

فإني أظنه نظر بين هذا الابتداء وبين ابتداء امرئ القيس حيث قال :

قفا بنك . . إلخ . فرأى ابتداء أمرى القيس على تقدمه وكثرة معانيه متفاوت القسمين جدا ، لأن صدر البيت جمع بين عذوبة اللفظ وسهولة السبك وكثرة المعاني ، وليس فى الشطر الثانى شىء من ذلك . وعلى هذا التقدير مطلع النابغة أفضل من جهة ملاءمة ألفاظه وتناسب قسميه . ، إلخ (١) .

وعلى أننا نلاحظ أن المطلع - مع براعة استهلاله - كثير أ ما يتخلف فيه شرط الإشعار بغرض القصيدة . وربما صدر الشاعر قصيدة المديح - مثلا - بأبيات غزلية أو خمرية ، لا تشعر بما يليها من المديح .

وقد تبارى الشعراء - شعراء عصر المهالك - فى تجويد مطالعهم جاهدين فى أن تكون مستوفاة الشروط وقد بلغوا من ذلك مبلغا محمودا .

ومن براعة الاستهلال قول جمال الدين بن تمانة :

فى الريق سكر وفى الأصداغ تجميد هذى المدام وهاتيك العناقيد

وترى فى البيت استقلالاً فى المعنى - كما اشترطوا - عما بعده ، لانتهاه معناه بانتهائه . وترى عذوبة ألفاظه بادية . وأى عذوبة تفوق ريق الحبيب . إنها عذوبة السكر والمدام . - وأصداغه بتجاعيد وإوانها صارت شبيهة بعناقيد السكر .

وقد عقد الشاعر تشبيها واسع النطاق بين صورتين معشوقتين محبوتين هما ينبوع لذة ومعين متعة ، يشترك فيها الذوق والشم والبصر . الصورة الأولى : نغز الحبيب بما فيه من الرق العذب المسكر المشهى ، وبما يتبدل على مقربة منه من خصلات الشعر المجمدة . والصورة الثانية : السكرمة وما فيها من عناقيد جميلة مدلاة بفروعها وما تحتوى عليه من خمرة لذة للشاربين .

ويبدو أنه كان من عادات نسائهم وجمالياتهم ومحبوباتهم عقد الشعر وعقصة ،
وجمع كل طائفة من تجاعيده في تشكيلة واحدة مثناة ، فبدأ في مثنياته المدلاة من
أصولها ، كالعناقيد المدلاة من غصونها .

والملاحظ أن هذا البيت في صدر قصيدة مديح ، ومع هذا لم يشعر بغرض
القصيدة . فلعل الشاعر تجاوز عن هذا الشرط فلم يرتبط به كل الارتباط .

والملاحظ أيضاً أن المنشئين كانوا أكثر ارتباطاً بهذا الشرط . وأدق رعاية
له في رسائلهم ، من الشعراء ولعل ذلك كان بسبب ما للرسائل - وبخاصة
الديوانية منها - من جدية ، وبسبب ما لها من رسوم موضوعة مقررة في
الديوان ، لا يحيد عن اتباعها . هذا إلى ما يتمتع به الشعر والشاعر من حرية
نسبية . لبعده - عادة - عن الرسميات والديوانيات .

ومن براعة استهلال ابن نباتة أيضاً - وثقافته مصرية خالصة - قوله في
مطلع قصيدته التي هنا بها الملك الأفضل صاحب حماة على توليه عرش أبيه الملك
المؤيد إسماعيل بعد وفاته :

هنا محاذك العزاء المقدما فما عبس المحزون حتى تبسما
لقد هنا بولاية العرش ، وعزاه بفقد أبيه ، فجمع بذلك بين غرضين
متضادين . وهذا الجمع يسمى « الافتنان » ، ويعد مطلع هذا من أبرع المطالع
استهلالاً . فإنه مع عذوبته ووضوح معانيه وتوزيع أجزاء المعاني على قسميه
بالتساوي ، واستقلاله عما بعده ، قد جمع خلاصة الموقف الذي سبقت فيه
القصيدة . وما جاء بعده من أبياتها تفصيل لما أجمل فيه .

وقد أورد ابن حجة الحموى في خزنة الأدب . أمثلة كثيرة لبراعة الاستهلال
نذكر لك بعضها منها على سبيل التمثيل ، مما نظمه شعراء العصر .

فمن ذلك قول الشاب الظريف :
 أعز الله أنصار العيون وخلص ملك هاتيك الجفون
 وقول ظهير الدين بن البارزى :
 يذكرنى وجدى الحمام إذا غنى لأن كلانا فى الهوى بعشق الغصنا
 وقول صفي الدين الحللى :
 قفى ودعينا قبل وشك التفرق فما أنا من يحيا إلى حين نلتقى
 وقول عز الدين الموصلى :
 سمعنا حمام الدوح فى روضة غنى فأذكرنا ربع الحبايب والمعنى
 وقول الجلال بن نباتة فى رثاء ولده :
 الله جارك إن دمعى جارى ياموحش الأوطان والأوطار
 وقول علاء الدين الوداعى :
 بدر إذا ما بدا محياه أقول : ربى وربك الله

(ب) الجناس :

الجناس هو أن يكون فى الكلام لفظان على الأقل ، بينهما توافق ما فى نطق
 حروفهما ، مع الاختلاف فى المعنى . وذلك كقول جمال الدين بن نباتة :
 هات كأسى وإن لحنت من السكر م فلا تلحنى إذا قلت هاته
 فبين اللفظين « لحنت » و « تلحنى » توافق ما فى نطق الحروف ، مع الاختلاف
 فى المعنى . فالأول من اللحن والثانى من لحنى يلحنى .
 والجناس عرض من أعراض الأساليب الأدبية . وقد أخذ يروج ويلعب لما
 اتجه العباسيون إلى اصطناع البديع وتكلفه ، وأغرم به الصاحب بن عباد غراما
 شديدا .

واطرده بروذه بين سائر ضروب البديع حتى العصر المملوكي : ويكاد يكون هناك إجماع من الأدباء في العصر المذكور على أن الجنس محسن لفظي وأنه أقل رتبة من غيره ، ولا سيما التورية والاستخدام والاستعارة والتشبيه ، وأنه يعوق الأديب عن ابتكار المعاني .

قال ابن حجة : « أما الجنس فإنه غير مذهبي ومذهب من نسجت على منواله من أهل الأدب . وكذلك كثرة اشتقاق الألفاظ ، فإن كلا منهما يؤدي إلى العقادة والتقييد عن إطلاق عنان البلاغة في مضمار المعاني المبتكرة ،

وقال أيضاً : « ولا بأس به في مطالع القصائد إن تعذر على الناظم أن يركبه تورية ، فإنه نوع متوسط بالنسبة إلى ما فوّه من أنواع البديع ، كما قرره مشايخه ، كالتورية والاستخدام والاستعارة والتشبيه ، وما قارب ذلك من أنواع البديع ، (١) .

وابن حجة بآرائه في خزانة الأدب وغيرها من كتبه . يمثل روح عصره واتجاه الأدباء فيه . ومن ذلك رأيه في الجنس . وأدباء عصره لا يمنعون استخدام الجنس إذا جاء حسناً .

وقد قال الشهاب الحلبي : « وإنما يحسن الجنس إذا قل وأق في الكلام عفواً من غير كد ولا استعكراه ولا بعد ولا ميل إلى جانب الركة ، (٢) »

ومما يرفع عن الجنس عقادته وثقله مزجه بالتورية . وهذا هو مذهب ابن نباتة ومن سار تحت لوائه . ولم يشذ عن أدباء العصر إلا من ندر . وفي المقدمة صلاح الدين الصفدي . فإنه أروع بالجنس وجن به . فهو في هذا الولوع شبيه بالصاحب بن عباد . وقد ألف كتاباً في الجنس سماه « جنان الجنس » ، ملأه

(١) خزانة الأدب باب الجنس .

(٢) راجع حسن التوسل .

بجناساته الثقيلة المتكلفة ، فكان هدفا لنقد الناقدين . حتى إن ابن نباتة قرأه هكذا
« جنان الجناس » . — كما سبقت إشارتنا —

ومن جناس الصلاح الصفدى قوله :

ومر على غيرى سقام وصحة ولم يرقان مثل ذى يرقان
قال ابن حجة : « ورأيت بخط الشيخ بدر الدين البشتكى تحت هذا البيت
والذى قبله : « وهو الضعيف باليرقان وأن من ذلك مبلغه من النظم لجدير أن
يقعد مع صغار المتأدبين » .

والجناس أنواع كثيرة تحدث عنها كتب البلاغة والنقد ، ومنها :

الجناس المركب :

وهو أن يكون أحد الركنين كلمة مفردة والآخرى مركبة من كلمتين ، وهو
على ضربين :

الأول : ما تشابه لفظا وخطا ويسمى « المتشابه » . ومثاله قول شمس الدين
محمد بن عبد الوهاب .

حار فى سقى من بعدهم كل من فى الحى داوى أورق
بعدهم لا طل وادى المنحنى وكذا بان الحى لا أورقا^(١)
والجناس بين « أورق » و « أورقا » . الأولى رقى برقى ، والثانية أورق يورق .
ومثاله أيضاً قولى صلاح الدين الصفدى « فى كتابه جنان الجناس » .

يا من إذا ما أناه أهل المودة أولم
أنا محبك حقاً إن كنت فى القوم أولم

(١) هذان البيتان وما يليهما فى خزائن الأدب أو دواوين الشعراء .

والجناس بين « أولم » من الوليمة ، و « أولم » لم حرف تنفي .
والثاني : ما تشابه لفظا لا خطأ ويسمى « المفروق » .

ومثاله قول العلامة شهاب الدين محمود الحلبي .
ولم أر مثل نشر الروض لما تلاقينا ببنت العامري
جرى دمعى وأومض برق فيها فقال الروض فى ذا العام ربي
والجناس بين « العامرى » و « العام ربي » .
ومثاله أيضا قول ابن نباته :

قرا نراه أم مليحا أمردا ولحاظه بين الجوانح أم ردى
والجناس بين « أمردا » و « أم ردى » .
ومثاله أيضا قول الفاضل بهاء الدين السبكي :
كن كيف شئت عن الهوى لا أنتهى حتى تعود لى الحياة وأنت هى
والجناس بين « أنتهى » و « وأنت هى » .
هذا ومن أنواع المركب نوع يسمى « المرفوع » ، وهو أن يكون أحد الركنين
جزءا مستقلا ، والآخر جزءا من كلمة أخرى . وهو لا يخلو من عقادة
وتعسف ، — هكذا قال ابن حجة .

الجناس التام :

وهو ما توافق فيه الركان توافقا كاملا فى الحروف نطقا وعددا وترتيبا
وشكلا .

ومثاله قول شمس الدين الكوفي :
إن لم تقرح أدمعى أجفانى من بعد بعدكم فما أجفانى
والجناس بين « أجفانى » و « أجفانى » . الأول جمع جفن ، والثانية
أفعل تعجب .

ومثاله أيضا قول صفي الدين الحلي :

أسبلن من فوق النهود ذوائبا فتركن حبات القلوب ذوائبا
والجناس بين « ذوائبا ، و « ذوائبا ، الأولى جمع ذؤابة ، والثانية جمع ذائبة .

الجناس الناقص :

وهو ما فقد فيه أحد الركنين واحدا بما توافق فيه حروف ركني الجناس التام :
ومثاله قول ابن نباته :

الله جارك إن دمعى جارى ياموحش الأوطان والأوطار
والجناس بين « الأوطان ، و « الأوطار ، افترقا في الحرف الأخير .
ومثاله أيضا قول شمس الدين الكوفي :

مالى ولأيام شئت خطبها شملى وخلانى بلا خلان
والجناس بين « خلانى ، و « خلان ، الأولى بفتح الخاء ، والثانية بضمها .

الجناس الملقق :

وهو ما كان كل ركن من ركنيه مكونا من أكثر من كلمة . وبعضهم لا يفرق
بينه وبين الجناس المركب .

ومثاله قول تقي الدين بن حجة الحموى ، في بديعته « شيرا إلى اسم النوع .

ورمت تلفيق صبرى كى أرى قدمى يسعى معى فسعى لىكن أراق دعى
والجناس بين « أرى قدمى ، و « وأراق دعى ، - وقد أشار إلى اسم النوع
في قوله « تلفيق ، .

ومثاله أيضا قول صفي الدين الحلي في بديعته مع تسمية النوع :

وقد ضمننت وجود الدمع من عدم لهم ولم أستطع مع ذاك منع دعى
الجناس بين « من عدم ، و « منع دعى ، .

وزعماءها . ولم يأت من بعدهم من تعصب لها وابتكارها وأحسن استخراجها
وسلك سبيلها في التعبير .

والتورية تتم بحسن اختيارها ولطف ابتكارها ، عن ذوق سليم وطبع قويم
وأدب جم وحس لطيف وفهم دقيق .

ويعتبرها أدباء العصر المملوكي ، في جملتهم ، من أغلى فنون الأدب ومن أرقها
وأدقها بين مسالك التعبير ، ومن أعلاها رتبة . ويقول ابن حجة : « إن لها سحراً
ينفث في القلوب ويفتح أبواب عطف ومحبة » .

والحق أن التورية من أجمل الأساليب الأدبية وأعذبها وأدقها في تأدية
المعاني ، ففيها مداعة للفكر ومفاكمة للنفس ، وحسن في التصوير ، لوجود
مرشحات المعاني ، ودفع إلى الموازنة بين المعنيين ، وإلى بحث الرابط بين المجتمعين ،
وإلى الفحص عنه للوصول إلى المعنى المراد . إلى غير ذلك .

والتورية كانت - ولا تزال حتى يومنا هذا - من صميم مسالك التعبير
لدى الشعب المصري . وكثيراً ما ترى الرجل العامى الأحمى ، ينظم في عباراته
التورية السائغة العذبة يخرج بها معانيه ويصل بها إلى هدفه ، من إيضاح أو مقارنة
أو مفاكمة أو تندر أو نقد أو غير ذلك .

وبروزها في الشعر الفصيح في العصر المملوكي من أبرز الأدلة على مدى تأثير
شعرائه بأساليب الشعب وتعبيرات البيئة .

وقد عدد ابن حجة في خزائن الأدب - باب التورية - شعراء التورية
وأحصاهم على وجه التقريب . من لدن القاضي الفاضل حتى زمانه . وقد أشرنا
إليهم عند حديثنا عن طبقات الشعراء .

ونحن نعتقد أن ابن نباتة كان فارس التورية غير منازع . وأن الشهاب
الحملي والشهاب بن فضل الله العمري لم يكونا من فرسانها - كما أشرنا - .

ومثال التورية قول عز الدين الموصلى :

لقد كنت لى وحدى ووجهك قبلتى وكنا وكانت للزمان مواهب
فعارضنى فى ورد خدك عارض وزاحنى فى ورد ريفك شارب^(١)
والتورية فى قوله : عارض ، بمعنى المعارض والمزاحم ، وبمعنى شعر صفحة
الخد ، وهو المراد .

وفى قوله : « شارب » ، بمعنى المزاحم الذى يشرب ، وبمعنى شعر أعلى الفم ،
وهو المراد .

ومثالها أيضاً قول الجلال بن نباتة .

قبلته عند النوى فتمررت تلك الخلاوة بالتفرق والجوى
ولثمته عند القـدوم فخبذا رطب الشفاه السكرى بلا نوى
والتورية فى قوله « نوى » ، بمعنى « بذر الرطب » ، وبمعنى « الفراق » ، وهو
المراد .

ومثالها أيضاً قول الجلال بن نباتة كذلك . وقد مزجه بالتضمين ونقل المضمن
من باب المدح إلى باب الغزل ، فافن بذلك ضروبا من الافتنان :

وضعت سلاح الصـير عنه فماله يقاتل بالألحاظ من لا يقاـله
وسال عذار فوق خديه جائر على ممـجتى فليتق الله سائله^(٢)
وقد ضمن بيته الثانى جزءا من بيت أبى تمام وهو قوله فى المدح :
ولو لم يكن فى كفه غير ررحه لجاد بها فليتق الله سائله
والتورية فى قوله « سائله » ، من سأل يسأل ، أو من سال يسيل وهو المراد .
ومثالها أيضاً قول سراج الدين الوراق :

(٢٠١) أبيات التورية عن خزانة الأدب .

رأيت قطوف عفوك دانيات فنحن على المدى نجنى ونجنى
وكم بات المسىء قرير عين وسيفك إن حملت قرير جفن
والتورية في قوله « جفن » بمعنى « جفن العين » ويلزم منه الراحة والطمأنينة ،
وبمعنى « قراب السيف » ويلزم عنه الاستقرار أيضاً ، وهو المراد .

ومثالها أيضاً قول يحيى الدين بن قرقاص :

مد أتينا نبغى زيارة دوح قد حباننا بالجود والإكرام
ناولتنا أيدي الغصون ثماراً أخرجتها لنا من الأكمام
والتورية في قوله « الأكمام » بمعنى أطراف الثياب مما يكون على الأيدي .
وبمعنى مكان خروج الثمر ، وهو جمع « كم » ، وهو المعنى المراد .

د - الاستخدام :

وهو لون بديعي طريف ، ومسلكت تعبيرى جميل ، قريب الشبه بالتورية ،
وهو على ضربين :

الأول : استعمال اللفظ بمعنى من معانيه اللغوية ، ثم إعادة ضمير أو أكثر ،
عليه بمعنى آخر من معانيه قد يكون حقيقة ، وقد يكون مجازياً .

والثاني : استعمال لفظ له معنيان - أى من المشترك الحقيقى أو المجازى -
وفي الكلام ما يرشح لمعناه الأول ، وما يرشح لمعناه الثانى ، ويراد كلا المعنيين .
ومن النوع الأول قول ابن نباتة :

سقى الله أكناف الغضى سائل الحيا وإن كنت أسقى أدهما تتحدر
وعيشاً نضاً عنه الزمان بياضه وخلفه فى الرأس يزهر ويزهر

والاستخدام في قوله « بياضه وخلفه » فالمراد ببياض العيش صفوه وجماله ورخاؤه وأمنه . والمراد بالضمير في « خلفه » - وهو يعود على « بياض العيش » - الشيب .

ومثاله أيضاً قول ابن نباتة من القصيدة نفسها :

إذا لم تفض عيني العقيق فلا رأت منازله بالوصل تبهى وتبهر
وإن لم تواصل عادة السفح مقلتي فلا عاذاها عيش بمغناه أخضر
والاستخدام في قوله « العقيق » فهو بمعنى الدمع ، وفي الضمير الراجع إليه في « منازل » استخدام بمعنى المسكان المسمى « العقيق » .
وكذلك في قوله « السفح » فهو بمعنى ذرف الدموع . وفي الضمير الراجع إليه في « مغناه » استخدام بمعنى المسكان المسمى « السفح » .

ومثاله أيضاً قول تقي الدين بن حجه في بديعيته مشيراً إلى اسم النوع :
واستخدموا العين منى فهمى جارية وكم سمحت بها أيام عسره
والاستخدام في قوله « العين » فهمى العين الباكية ، وأعاد عليها في قوله « بها » بمعنى المال .

والثاني : استخدام لفظ له معنيان ، يتوسط بين ما يرشحه لأحد المعنيين ، ويسبقه ، وبين ما يرشحه للمعنى الثاني ويلحقه .

وينسب هذا النوع إلى الشيخ بدر الدين بن مالك .

قال ابن حجة نقلاً عن الصفدى في كتابه « فض الختام » :

وأعظم الشواهد على طريقة ابن مالك ومن تبعه ، قوله تعالى : « لكل أجل كتاب يحجو الله ما يشاء ويثبت » . فإن لفظة « كتاب » يحتمل أن يراد بها الأجل المحتوم ، والكتاب المكتوب . وقد توسطت بين لفظتي : « أجل

ويعجو ، . فاستخدمت أحد مفهوميها — وهو الأمد — بقرينة الأجل .
واستخدمت المفهوم الآخر — وهو الكتاب المكتوب — بقرينة يعجو ، .
قال ابن حجة : « ومنه قوله من القصيدة النباتية :

حويت ريقاً نباتياً حلا فغدا ينظم الدر عقدا من ثناياك
فإن لفظة « نباتي » ، يحتمل الاشتراك بالنسبة إلى السكر . وإلى ابن نباتة
الشاعر . وقد توسطت بين الريق وحللاته ، وبين الدر والنظم والعقد .
فاستخدمت أحد مفهوميها وهو السكر النباتي بذكر الريق والحلاوة ، واستخدمت
المفهوم الآخر وهو قول الشاعر النباتي بذكر النظم والدر والعقد . وليس في
جانب من المفهومين أشكال ،^(١) .

والنوع الأول هو الذائع الشائع . قال عنه ابن حجة : « وعلى هذه الطريقة
مشى أصحاب البديعيات والشيخ صفي الدين الحلبي والعميان - أي ابن جابر الأندلسي -
والشيخ عز الدين ، - أي الموصلی ، - وهلم جرا ، .

والاستخدام - كما رأيت - مسلك دقيق لا يتيسر لكل أديب . قال عنه
صلاح الدين الصفدي في كتابه : « فض الختام ، :

« ومن أنواع البديع ما هو نادر الوقوع ملحق بالمستحيل الممنوع . وهو
نوع التورية والاستخدام . الذي تقف الأفهام حسرى دون غايته عند
مراعى المرام ، .

وروى أن الأوائيل لم يستطيعوا أن يتغلبوا على صعابهما وبذلوا جموعهما
حتى جاء القاضي الفاضل . قال الصفدي :

« وأظن أن القاضي الفاضل — رحمه الله تعالى — هو الذي ذلل منهما

(١) راجع خزنة الأدب ، باب الاستخدام

الصعاب . وأنزل الناس بهذه الساحات والرحاب . . . إلخ .

وسار على نهج الفاضل كثيرون بعده وزادوا عليه .

وابن حجة يقدم الاستخدام على التورية ، ويقول ما نصه :

« وهو أعلى رتبة عند علماء البديع من التورية ، وأحلى موقعاً في الأذواق السليمة . ولكن قل من ظفر منه بسلامة التخلص من علق النقد ، وصعد من غور التعسف إلى نجد السهولة » .

ونلاحظ . أخيراً على الاستخدام أنه قابل الورد في النثر بالنسبة إلى الشعر ، وأنه في الجملة من أندر أنواع البديع وقوعاً في أساليب الأدباء . وأن نوعه الأول أكثر ذيوفاً من نوعه الثاني - كما يقول ابن حجة - ولكن كان ذلك في زمانه . أما في عصرنا الحديث الذي نفى فيه الأدباء يدهم من كثير من أصباغ البديع وزايلوا بذلك كثيراً من مناهج العامة ومسالكتهم في التعبير ، فإننا نشعر بإقبال العامة على اصطناع الاستخدام في تعبيراتهم ، ولا سيما نوعه الثاني فإنه أكثر رواجاً .

هـ - التضمين :

التضمين هو أن يدخل الشاعر في شعره بعض المأثور من كلام غيره ، بتصرف أو بغير تصرف . وقد يكون هذا التصرف قليلاً أو كثيراً . وقد يكون بشيء من التغيير في اللفظ يقتضيه المقام . وإذا استطاع المضمن أن يغير تضمينه عن اتجاهه الأصلي ، دل بذلك على قدرة أدبية ولطف ذوق عميق . كأن يوجهه - مثلاً - من الغزل إلى الهجاء ، أو من المدح إلى الغزل ويعتبر هذا أحد فنون الأدب ، ولا ريب .

وقد سمي ابن حجة هذا النوع « الإيداع » ، وعرف التضمين ، بأنه توقف

البيت في معناه على البيت الذي بعده . - وهذا الذي يسميه بعضهم « الإيطاء » .
والتضمين - أو الإبداع على رأى ابن حجة - في مقدمة مسالك البديع
التي اصطنعها أدباء العصر المملوكى . وأولعوا بها وأكثروا منها كثرة ملحوظة ،
وتلاعبوا بها وأجادوا فيها ، وخرجوا بالمضمن فيها من بابيه إلى أبواب أخرى .
ويصرح مجير الدين بن تميم بولوعه بالتضمين فيقول :

أطالع كل ديوان أراه ولم أزر عن التضمين طيرى
أضمن كل بيت فيه معنى فشعري نصفه من شعر غيرى (١)

ومن يستدل بكثرة تضمينهم على ضعفهم وقلة حيلتهم في ابتكار الجديد ،
وعلى جنوحهم إلى السرقة ، يظلمهم ظلماً مسرفاً . فإن الناظر في أغلب تضميناتهم
يرى فيها سيما التجديد وسعة الخيلة ورهافة الذوق ، في تحويل المضمن عن مناسبتة
الأولى إلى مناسبتة الجديدة . دون أن يعتريه قلق أو نبو أو غربة ، لما يتمتع به
فيها من حسن ربط ودقة صلة وطيب جوار .

وقد قال ابن حجة : « وأحسن الإبداع ما صرف عن معنى غرض
الناظم الأول . . . »

والتضمين أنواع ، منها أن يختار الشاعر شطربيت - صدره أو عجزه -
ويضمنه شعره فينظم للصدر عجزاً ، أو للعجز صدراً . وقد يضمن البيت كله ،
ويدخله في عداد قصيدته . وقد يضمنها أكثر من صدر ، أو أكثر من عجز ،
أو أكثر من بيت . كما قد يتخذ صدور قصيدة بكلامها أو جزء كبير منها ، وينظم
لها أعجازاً ، أو العكس .

والتضمين يفرق عن التشطير . إذ التشطير أن ينظم الشاعر لصدر البيت
المضمن عجزاً ، ثم في بيت آخر ينظم لعجزه صدراً . وهلم جرا في بقية أبيات
القصيدة المشطرة .

(١) باب الإبداع بجزالة ابن حجة .

والتشطير بهذا يتصل حديثه بحديث الوزن والقافية ، دون أن يكون من فنون البديع .

وهو أيضاً غير التشطير الذى هو ضرب من ضروب السجع ، يقتضى تقسيم كل شطر فى البيت شطرين ، يصرع بينهما بقافية واحدة ، مع المغايرة بين قافيتى الشطر الأول من البيت ، وقافيتى الشطر الثانى منه .

ومثاله قول صنى الدين الحلّى فى بديعته :

بكل منتصر للفتح منتظر وكل معتمز بالحق ملتزم

وأولع شعراء العصر المملوكى بهذا التضمين أو الإبداع . وبابى ذوق ابن نباتة ومن سار تحت لوائه ونهج نهجه من فحول الشعراء ، أن يصطنعوا هذا التضمين دون أن يحلوه بالتورية أو ما يناسبها من أنواع البديع .

وقد قال جلال الدين القزوينى فى التلخيص :

« وأحسنه مازاد على الأصل بنسكته كالتورية والتشبيه ، » (١)

ومن لطائفهم فى التضمين ، ما تبادل به جمال الدين بن نباتة وصلاح الدين الصفدى ، من العتاب . فقد عمد كل فحل من هذين الفحولين إلى معلقة امرئ القيس ، فضمن قصيدة عتابه أعجازها ، فأخرجها بذلك عن مناسباتها القديمة سواء أكانت فى الوصف أم الغزل أو غيرهما ، وأحلها كريمة مطمئة فى مناسباتها الجديدة .

وبدأ الصفدى تضمينه فقال معاتباً الجمال بن نباتة :

أفى كل يوم منك عتب يسوءنى بجلهود صخر حطه السبل من عل
وترى على طول المدى متجنياً بسهميك فى أعشار قلب مقتل

(١) خزانه الأدب باب الإبداع ص ٤٦١ .

فأمسى بليل طال جنح ظلامه على بأنواع الموم ليبتلى
وأغدو كأن القلب من وقدة الجوى إذا جاش فيه حميه على رجل . : إلخ (١)
وأجابه الجمال بن نباتة فقال :

فطمت ولأنى ثم أقبلت عاتبا أفاطم مهلا بعض هذا التدلل
بروحى ألقاظ تعرض عتها تعرض أثناء الوشاح المفصل
فأحييت ودأ كان كالرسم عافيا بسقط اللوى بين الدخول فومل
تعفى رياح العذر منك رسومه لما نسجتها من جنوب وشمال . : إلخ (٢)

وقد سار كل من الشاعرين هذا المسار إلى آخر قصيدته . فأخرجنا أعجاز
المعلقة عن طريقها إلى طريق العتاب والمودة .

وانظر إلى التورية اللطيفة في قول ابن نباتة : « أفاطم » ، وقد مهد لها بقوله
« فطمت ولأنى » ، فصارت ذات معنيين : المعنى الأصلي على التشبيه . والمعنى
الجديد اسم فاعل من فطم ، وهو المراد هنا .

وقوله : « أفاطم مهلا . . » ، إلخ صدر بيت في المعلقة وليس عجزا - بخلاف
الأسطر الأخرى .

وبمناسبة تضمين أسطر المعلقة نذكر ما رواه ابن حجة ، قال :

« وأما أعجاز قصيدة امرئ القيس اللامية المعلقة ، فإن جماعة من أهل الأدب
ثابروا على تضمينها وتضمن البعض منها وسبكوها في قوالب مختلفة الأنواع » .

نقول ، ومن ذلك قصيدة في التشويق أرسلها صدر الدين بن الآدمي الحنفي
إلى تقي الدين بن حجة الحموي ، ضمنها أعجاز المعلقة . ورد عليه ابن حجة بقصيدة
ضمنها أعجازاً من المعلقة .

وداعب الأديب البارع والشاعر المصرى المبدع ، نخر الدين بن مكانس ، رجلا

من أصحابه كان كبير الأنف ، فوصف أنفه بأبيات ضمنها أعجازا من معلقة امرئ القيس ، فأخرجها إلى وصف الأنف مع الدعابة والسخرية والهجاء .

وقد قال ابن حجة عن أبيات ابن مكناس :

« والذي أقوله إن المميع الذي اخترعه الصاحب نخر الدين بن مكناس ، ومشى عليه في تضمين هذه المعلقة يعد من المعلقات في بابه وأنى اختلج في صدر متادب ، ولا سمع بعده المرقص والمطرب ،

ومن أبيات الفخر بن مكناس قوله :

تأنف عن وصف الغزال تغزلى بلحية أنف ذى عقاص ومرسل
من البق فيها جملة قد تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل
فياقبح شعر فوق أنف معرقص أثيث كقنؤ النخلة المتعشك
وقالوا اختبا في شعره فكأنه كبير أناس في بجاد مزمل .. الخ^(١)

هذا ومن تضميناتهم كذلك قول ابن نباتة :

يا من يوفر طيفها سهرى لقد أمن ازديارك في الدجى الرقباء
فيه تضمين لشطر من بيت المتنبي :
أمن ازديارك في الدجى الرقباء إذ حيث كنت من العيون ضياء

ولسراج الدين الوراق :

وضاع خصر لها ما زلت أنشده إذ رق لى ورثى للسقم من بدنى
وقال لى بلسان من مناطقه لولا مخاطبتى إياك لم ترنى
ضمنه الشطر الثانى من بيت المتنبي :

(١) باب الإبداع بخزانة الأدب .

كفى بجسمى نحولاً أننى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترفى

وللشباب الظريف فى الغزل :

وأهيف فاق الورد حسناً بوجنته أنزه طرفى فى رياض جنانها
كأن بها من حول خاليه حمرة تشب لمقرورين يصطليانها
ضمنه الشطر الأول للأعشى فى المخلق :
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى و المخلق

(و) الاقتباس :

الاقتباس تضمنين الكلام بعضاً من آى القرآن الكريم . ويصح أن يكون
هذا المضمن غير خارج عن معناه الذى ورد به فى القرآن الكريم . ويصح أن
يكون خارجاً عنه بشئ من التصرف . وفى الحالة الأولى يعتبر المضمن قرآناً ،
بشرط ألا يكون فيه أدنى تحريف لفظى . وفى الحالة الثانية لا يعتبر قرآناً ولو لم
يتغير لفظه . ولو ضمن بشئ من التغيير اللفظى فلا يعتبر قرآناً ولو وافق فى
معناه معنى ما اقتبس منه . - وفى رأى أن هذا اللون ضرب من ضروب الحل ،
وعلى كل ، فهذه كلها ضروب من الاقتباس ، وهى أنواع بديعية .

وأكثر مقتبسات الشعراء من النوع الذى فيه لفظ القرآن دون معناه ، ودون
شبهه مناسبته . أو دون المحافظة الدقيقة على معناه .

وبعض علماء البديع يعتبرون التضمنين من كلام الرسول عليه الصلاة
والسلام ، اقتباساً .

وبعضهم يدخل فى الاقتباس : التضمنين ، الإيداع ، ، والتوجيه . بمصطلحات
العلوم ومأثور ألفاظها ، وبذلك يجعله أعم .

والاقتباس في الجملة أدق من التضمن ، نظرأ لالمه من الصلة بكلام الله عز وجل .
وهو أحج منه إلى الذوق الصقيل والأدب السكامل والفهم الدقيق ، الذي يحسن
اختيار المناسبة ، دون أن يعترى اللفظ شذوذ أو قلق أو حرج ، ودون أن يبدو
الكلام مردوداً لا مقبولاً محموداً . وإذا كان في النثر محتاجاً إلى دقة
وسعة ذوق ، فهو في الشعر أشد احتياجاً إلى ذلك .

هذا . ولا بد من القول إن فطنة الشعراء في اقتباساتهم لفتتنا إلى كثير من
آيات القرآنية التي جاءت على موازين الشعر . والاقتباس بدوره أحد الأدلة
البارزة على تأثير الأدباء بالدراسات القرآنية .

وقد افتن شعراء العصر المملوكي في هذا اللون البديعي الجميل . ومن يستقرىء
اقتباساتهم يشهد لهم بطول الباع واليد الصنّاع ، والأدب الجم والذوق الأصيل .
وندر أن نجد من بينهم شاعراً ليس له اقتباسات .

وكثيراً ما أودعوه مقطوعاتهم ، أو نظموا المقطوعة ونحوها من أجله ، حينما
يستقيم لهم معنى يروق فيه اقتباس . وسلكوا به مسالك الغزل والمدح والوصف
والإخوانيات بل والخماسة والثناء وغيرها . وكثيراً ما جملوا به قصائدهم
ومطولاتهم ، ومزجوه بالتورية أو غيرها .

ومن الاقتباسات قول محي الدين بن عبد الظاهر في النسيم :
إن كانت العشاق من أشواقهم جعلوا النسيم إلى الحبيب رسولا
فأنا الذي أتلو لهم ياليتني كنت اتخذت مع الرسول سبيلا
ومنه قول جمال الدين بن نباتة :

سكنت وابني بدار قوم أوقاتنا تارة وتارة
فإنها بالخصام نار وقودها الناس والحجارة

ومنه قول ابن حجر العسقلاني :

خاض العواذل في حديث مدايعي لما جرى كالبحر سرعة سيره
خبسته لأصون سر هواكم حتى يخوضوا في حديث غيره
ومنه قول صفي الدين الحلي :

قلوبنا مودعة عندهم أمانة يعجز عن حملها
إن لم تصونوها بإحسانكم أدوا الأمانات إلى أهلها^(١)

ولحيي الدين بن عبد الظاهر في الحماسة ووصف الحرب :

وجاءت جنود الله في العدد التي تميز لها الأبطال يوم الوغى عجباً
فعمنا بسد من حديد سباحة إليهم فما استطاع العدو له نقباً^(٢)
ولابن نباتة :

سألت قلبي عن ذوى العشق وعن ما أوتيته من فنون الحسن مى
فقال لى إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شى^(٣)

ز - الطباق :

الطباق ذكر الشئ وضده ، وفيه تفصيل واسع لا مجال لبياناه فى هذا المقام .
ونجتزئ بأمثلة له . فمنها : قول محي الدين بن عبد الظاهر فى وصف الشباب :

وناطقة بالنفخ عن روح ربها تعبر عما عندنا وترجم
سكتنا وقالت للقلوب فأطربت فنحن سكوت والهوى يتكلم

والطباق بين « سكوت » و « يتكلم » .

ولحيير الدين بن تميم مع التورية فى الشكوى :

(٢١، ٣) راجع خزنة الأدب باب الانقباس ، وفراة الوفيات ج ١ فى ترجمة ابن عبد الظاهر
وراجع كتب تراجم الشعراء ودواؤهم .

لما لبست لبعده ثوب الضنى وغدوت من ثوب اصطبارى عاريا
أجريت واقف مدمعى من بعده وجعلته وقفا عليه جاريا
والطباق بين «لبست وعاريا» وبين «أجريت وواقف مدمعى» .
والتورية في «وقفا وجاريا» .

ولجمال الدين بن نباتة مع التورية أيضاً فى المدح :
قصدت معاليك أرجو الندى وأشكو من العسر داء دفيننا
فما كان بينى وبين اليسار سوى أن مددت إليك يميننا
والطباق بين «اليسار واليمين» وفى «اليسار» تورية ، بمعنى اليد ، وبمعنى
الغنى وهو المراد .

ونجتزئ فيما يلى بذكر أمثلة لأنواع أخرى راج استعمالها حينذاك . ففنها :

ح - المقابلة :

ومنها قول صفي الدين الحلى :

ورنح الرقص منه عطفاً خف به اللطف والدخول
فعطفه داخل خفيف وردفه خارج ثقيلاً
والمقابلة بين «داخل خفيف» و «خارج ثقیل» ، وهى مصطلحات موسيقية
ورى بها .

ولابن حجة فى بديعته :

قابلتهم بالرضا والسلم منشرحا ولو غضابا فيا حربى لغیظهم

والمقابلة واضحة بين ألفاظ الشطر الأول ، ونظائرها فى الشطر الثانى .

ط - الاكتفاء : وهو حذف كلمة أو جزء من كلمة من القافية ، يتطلبه المعنى ، ولكنه مع حذفه يفهم من السياق . ومنه قول ابن نباتة :

ما كان في العشرين يهفو منطقي أيسكون في الخمسين فعل هافي
شيم عن السلف الذكي ورثتها لا في الصبا عيب على ولا في^(٢)
أي ، ولا في الكبير . .

وقوله أيضا :

في نظمه عنكم وخط يراعه صفر فلا ألفسا أجاد ولا با
باب البديع فتوحكم وأنا امرؤ لا طاقة لي في البديع ولا با^(٣)
أي ، ولا باب ، أو ، ولا باع . .

ي - حسن التعليل : وهو ذكر علة أدبية لظاهرة أو حادثة :

ومنه قول الشاب الطريف مادحا لابن عبد الظاهر :

أغر ما أبدت السحب الحيا لسوى تقصيرها عن نداء حين ينهمل^(٤)

ك - لزوم ما يلزم : وهو التقييد بقيود في القافية ، لا يشترطها العروضيون .
ومنه قول ابن أبي حجلة المغربي يمدح القاضي ناصر الدين النشائي
كاتب الدست ، قال .

قال العواذل في المحبوب ماشاءوا ومادروا أن أذن الصب طرشاء
يا عاذلي دع ملاحي في الحبيب فما عيني كعينك في رؤياه خفشاء

(٢ ، ٣) خزنة الأدب باب الاكتفاء

(١) بدعية ابن حجة .

(٤) ديوان الشاب الطريف .

هذا الحبيب لنا ورد بوجنته وابن النشائي له كالزهر إنشاء
لناصر الدين أوراق مدبجة كأنها روضة بالزهر رقشاء ... الخ (١)
النزم الشاعر في الغافية الهمزة الممدودة والشين قبلها .

ل - التورية بالمصطلحات :

ومنه قول ناصر الدين بن النقيب .
يا مالكي ولديك ذلي شافعي مالى سألت فما أجبت سؤالى
فوخدك النعمان إن بلينى وشكيتى من طرفك الغزالى (٢)
استخدم الشاعر الألفاظ : مالكي وشافعي وأجبت سؤالى والنعمان
والغزالى . وهى معروفة فى الفقه والكلام .

ومثله قول الشاب الظريف :

يا ساكننا قلبى المعنى وليس فيه هواك ثانى
لاى معنى كسرت قلبى وما التقى فيه ساكنان
استخدم الشاعر : ساكن ، وقلب ، وكسرت ، والتقى ساكنان ، وهى
معروفة فى النحو والصرف .

ومن التوجيه بالمصطلحات أيضاً قول علاء الدين الوداعى مادحا ،
مع التورية :

من أم بابك لم تبرح جوارحه تروى أحاديث ما أوليت من منن
فالعين عن قررة والكيف عن صلة والقلب عن جابر والأذن عن حسن

(١) ديوان ابن أبي ججلة المنرى .

(٢) فوات الوفيات ج ١ ص ١٥٠ .

والتوجيه في قوله : قرة ، وصلة ، وجابر ، وحسن - وهم من رواة الحديث .
وكلها توريات مناسبة لما سبقها .

وهناك ألوان بديعية كثيرة . وقد بلغت ألوان البديع أكثر من مائة وخمسين ، من بينها ما يصطنع في النثر ، وقد بدا ذلك في خزانة الأدب وشرح البديعيات ، وغيرها من الكتب التي تحدثت عن فنون البلاغة والبديع .
وقد استنفد شعراء العصر المملوكي جهداً كبيراً في اصطناعها ، بل وتسابقوا في إبرازها ، ولم يبرأ شعرهم فيها من التكلف بل ومن الغثاثة والسقوط أحياناً . ولكن هذا كله يرسم لنا صورة عنهم وعن مدى تأثيرهم الواسع بألوان الثقافات التي تفتقروا فيها ، وبملايسات البيئة التي سبقت لنا الإشارة إليها .
وليس من همنا هنا الاستيعاب والاستقصاء ، ولكن التمثيل والتدليل .
فحسبنا من أصباغ البديع ما ذكرنا ، ومثلنا له .

٣ - الوضوح

نقصد بالوضوح أن تكون المعاني قريبة التناول يفهمها القارئ المتعاطي للأدب عند قراءتها ، ويفطن إلى مراميها ويدرك تصورات أساليبها . دون حاجة إلى كد الذهن وشحن القرينة وإجهاد النفس وحسن النظر . ويكاد يفهمها دون معاودة . وأن تكون المعاني غير عميقة وليست معقدة تعقيداً يعجز عنها الإدراك ويخفيها عن الفهم ، وأن تكون نتيجة النظرة الأولى للموضوع ، تناولته من جهته البارزة الواضحة التي يفطن إليها الباحث لأول وهلة ، دون تناول لأطرافه وتفصيله ودون سوق لتعليلاته ، ودون تسجيل لموازنة أو مقارنة أو استنباط ،

ووضوح المعاني والأخيلة ، قد تكون نتيجة من نتائج تمكن الشاعر من اللغة ، وقدرته التامة على التعبير عن تصوراته بأساليب سهلة ذات ألفاظ وتراكيب لا تند عن معاجم أوساط القراء ، بل عذبة مستساغة لا يكتنفها غموض ولا يشوبها إبهام . وهو أيضاً قد يكون نتيجة من نتائج سيطرة الشاعر على تصورات مع وضوح هذه التصورات في عالم خياله وضوحاً كاملاً ، ومع استساغته التامة لما وقع عليه خاطره وخياله من هذه التصورات . وقد يكون أيضاً نتيجة من نتائج الفنية الشعرية الموهوبة التي تفتن خواطرها إلى الألفاظ السائغة المناسبة لإسكان شوارد المعاني ، فتبدو فيها مستقرة مطمئنة واضحة المعالم لا خفاء فيها ولا غموض .

وقد تكون المعاني هنا عميقة أو مركبة أو معقدة ، وقد تكون التصويرات بعيدة ، لا يقدر على استحضار مضمونها خاطر المثقف العادي — عادة — ولكن تمكن الشاعر من اللغة وطرق أدائها ، وهيمنته على تصورات وإدراكه التام لها ، وفطنة موهبته الفنية ، كفيل بأن يقدره على صلبها في قوالب من اللفظ يسهل منها إدراكها . أما إذا تعثر في إخراجها واستعان ببعض التشبيهات الغريبة أو الكليات البعيدة ، أو قدم وأخر ، أو حذف أو ذكر ، دون غاية بلاغية وضرورة معنوية ، ودون هدف مقصود . فإن هذا يوقعه في الغرابة .

وإذا طغى الاشتغال بالعلوم العقلية ، والنظر في المذاهب الفلسفية ، والتعمق في دراسات العلوم المختلفة ونحو ذلك على الشاعر ، أبعده عن الوضوح وقرب بينه وبين التعقيد . إذ من شأن هذه الدراسات أن تنضح على الدارس وتنجح به إلى المعاني والأفكار البعيدة الغور ، الغريبة التصور ، التي لا تشغل — عادة — عامة القراء ، والتي تند — عادة — عن مداركهم . إذ لا بد لإدراكها من معلومات خاصة ومقدمات متعددة تمهد لها ، ولا بد لإدراكها من استعداد هذب طول النظر ، وإطلاع على آراء ومصطلحات ، مع مقارنات وموازنات ، إلى غير ذلك .

والوضوح صفة غالبية على معاني الشعراء في عصر المماليك . ويبدو أن العوامل التي نوهنا بها لها دخل في هذه الظاهرة وبروزها . وقد كان الشعراء ألصق بالشعب منهم بالخاصة . فضلا عن أنهم كانوا من صميمه في هذا الوقت الذي ساد فيه نظام الطبقات ، أو على الأقل نظام طبقتين لا تجانس بينهما ولا جامعة تربط صلتهما سوى الدين .

ولا نشك قط في أن نشأة الأثرية الساحقة من شعراء العصر ، من بين الأوساط الشعبية الصميمة . بل ومن الممتننين للحرف الدنيا من حرف المجتمع ، مع شدة لصوقهم بالشعب وضعف تهاقهم - ككثير من أسلافهم - على الاتصال بالخاصة وأشباه الخاصة والنسخ بأعتابهم واستجداتهم . نقول لا نشك في أن ذلك كان له أثره في ظواهر عدة بدت في أشعارهم ، من بينها هذا الوضوح والقرب .

فالشعب المصري منذ زمن قديم عاش وهو يتأني بفطرته ونشأته في بيئته الطبيعية ، على الغموض والإبهام ، ويحنج غالباً إلى الصراحة والوضوح . ومنذ زمن قديم وهو يتأني على الغوص الشديد وراء المعاني المعقدة ، ويتأني على حياة التفلسف المعقدة ، التي تنشأ عادة عن عمق النظر وطول البحث ودقة المقارنة الحرة ، والجري وراء الحقائق العقلية والاستدلال عليها قانعاً بما يجيء إليه من الأديان ، وبما توحى به من النظر والإيمان .

وهذه أيضاً طبيعة الشعر العربي كله ، منذ العصر الجاهلي . حتى جعلوا ذلك « عموداً » للشعر ، من خرج عليه حمل عليه النقد ، حكمتهم على أبي تمام . ولذلك قالوا : أبو تمام والمتنبى حكيمان ، والشاعر هو البحتري . وذلك لأنه شعر طبع ، أو كأنه شعر طبع ، لأنه لم يزايل عمود الشعر .^(١)

(١) راجع كتاب « النابغة الذبياني » في فصل أثر الشعراء في الشعر الجاهلي . وكتاب « الفتوة عند العرب » في فصل العقلية العربية . والكتابان للأستاذ عمر الدسوقي .

وفي هذا العصر بالذات لم ترج حركة ترجمة المعقولات . ولم يكن هناك جنوح كبير نحو الدراسات العقلية والبحوث الفلسفية ، لأن العصر كان عصر تجديد وإحياء لعلوم الدين وبعث لحقائق الإسلام ، وكفاح في سبيل تثبيت عقائده ونشرها وإيضاحها وتعليلها .

لقد شمر الفقهاء — فقهاء هذا العصر — عن مساعد الجد فألفوا في الفقه وجمعوا معلوماته واجتهدوا فيه بالرأى . ونشط علماء الكلام فكتبوا الرسائل وتنافسوا في المجالس والمحاضرات وحلقات الدرس ، في مسائله ، ورد بعضهم على بعض . وكافح بعضهم الشذاذ والخارجين ، وامتلات المكتبات برسائلهم في هذا السبيل ، كما حفلت كتب التاريخ بأبنائهم وشنوا الغارة على الرافضة والجممية والمعتلة والنصرانية وغيرهم . ودار ذلك في فلك الإسلام وآرائه وروحه .

فلا غرابة وقد نشأ الشعراء في هذا المجتمع — أن يتأثروا بنزاعته ، وأن يغلب عليهم الوضوح والقرب في تسجيل المعاني وتصويرها .

وأعتقد أن هذه الخصوصية جعلت نتاجهم أحب إلى القلوب وأقرب إلى العقول وأشهى إلى النفوس من نتاج غيرهم . فليست هاتان الصفتان قدحا في نتاجهم ولا عيبا في شعرهم ، بل هي أدل على شاعريتهم وفهمهم لرسالة الشعر ، فالشعر — كان وسيدتي — عاطفة قبل أن يكون فكراً ، ووجداناً قبل أن يكون رأياً ، وخيالاً قبل أن يكون حقيقة ، وتأثيراً نفسياً عاجلاً قبل أن يكون حثاً على النظر الرتيب الوئيد .

ولا يقلل من شأن هاتين الصفتين أو يطعن فيهما ، اتجاه الشعراء إلى الحلية البديعية . فقد يقال إن الحلية تؤدي إلى الغموض والإبهام . وحقاً قد تؤدي إليهما ، ولكن هذا ليس إلا نادراً . والحلية إنما تصطنع تجميلاً للمعنى وإبرازاً له في صورة واضحة مزدانة تتضح فيها محاسن له خافية ، ومفان له مستكنة ، وظلال له كانت حائلة .

يتكامل هذا العمل لأصباغ البديع ما دامت محبوكة في حنكة ، ومصوغة في
حكمة ، وموشاة في ذوق ، ليس فيها من المبالغة ما يمج ، ولا من الثقل ما يستسج ،
ولا من التهويل ما يهرج ، شأنها في ذلك شأن كل أسلوب .

وإليك بعض الشواهد على « الوضوح والقرب » ، فضلا عما قدمنا ، ولم
تقل من شأنهما وبروزهما أصباغ البديع .

يقول تقي الدين بن حجة الحموي متغزلا وموريا تورية مجنسة :

هويت غصنا لأطيار القلوب على قوامه في رياض الوجد تغريد
قالت لواحظه إنا نسود على بيض الظبا فلت أتم أعين سوده سوداء (١)

المعنى الواضح :

أحب الشاعر معشوقا معتدل القامة كالغصن ، إذا رآه القلوب الشبيهة
بالأطيار في حركاتها غردت وغنت على قوامه - أى بسببه - في رياض وجدها .
والوجد - عادة - نار ولوعة . ولكنه رياض لما يتمتع به المحب فيه
من اللذة .

ولواحظ المعشوق - يريد عيونه - قالت إنها تسود على بيض الظبا . أى
أنها أحد من السيوف وأقطع من الأسنة . ولهذا تكون لها السيادة عليها . فقال
لها الشاعر : أتم أعين سود . متصفة بهذا السواد الذي هو جمال جذاب فلها
أن تسود .

وفي قول الشاعر : « سود ، تورية مجنسة . لها معنيان : الأول جمع سوداء ،
والثاني فعل أمر من ساد يسود .

وفي البيتين أصباغ بديعية منها : الاستعارة المصروفة في « غصنا » ، والتشبيه

البليغ في « أطيّار القلوب » ، و « رياض الوجد » . والاستعارة المصروفة في « تغريد » بمعنى حركات القلوب واستبشارها . والاستعارة التبعية في « قالت لواحظه » . والتورية في « سرد » . والطباق في « بيض وسود » . ومراعاة النظر في ذكر الغصن والأطيّار والرياض والتغريد .

ومدح ابن نباتة الملك المؤيد صاحب حمّة في قصيدة قال منها :

ملك باهر المكارم يروى وجهه لقياه عن عطاء وبشر
زرت أبوابه فقرب شخصي ونحا عسرتي ونوه ذكرى
ونحاي من المكارم نحوا صانئي عن لقاء زيد وعمرو
وتفننت في مفاوضة الشكر م إلى أن أعيّا التطول شكري

يقول الشاعر إن هذا الملك مكارمه كثيرة ونفيسة ومبدولة بغير كلفة ، فهي باهرة . ولقاؤه يؤذن بالعطاء والبشر ، العطاء الكثير الباهر ، والبشر الدال على أصالة الأريحية وعراقة الكرم وطيب اللقاء والفرح به . فليس فيه زيف .
والشاعر يورى أو بوجه بلفظتي « عطاء وبشر » ، كأنهما من رجال الحديث .
ومهد لذلك بكلمة « يروى » .

وفي كل ذلك — مع وضوح المعاني وكثرتها ووجازة التعبير عنها — إثارات فكرية لمعان أخرى ، وتذكير بميدان آخر غير ميدان المكارم والمنح ، وتوجيه إلى الموازنة والربط بين الميدانين .

وفي البيت الثاني يصرح الشاعر في وضوح ، بأنه زار أبواب هذا الملك ، فحظي من لدنه بالقرب وطيب اللقاء . وفي هذا ما يشعر برفع المنزلة وتقدير الأدب واطف الحديث . ويصرح الشاعر بأن الملك محاسنته . ودل بذلك على أنه كان يعاني ضنكا وضيقا فحاهما الملك ، ونوه ذكره أن رفع مكانته وبسط له في مجلسه .

تطالعك هذه المعاني في يسر وسهولة وسرعة . وفي البيت رسم وإيضاح كامل لحالة الشاعر قبل رحيله إلى هذا الملك ، وبعد وصوله إليه . فكأنما هي قصته حكاها في بيت واحد .

وفي البيت الثالث يلقي الشاعر على قصته هذه أضواء جديدة ، ويوضح منها ما أجمله في البيت السابق . فيذكر أن المؤيد افتن في مكارمه ، وسلك بها سيلا صان بها الشاعر من حاجته إلى الناس على اختلافهم . ومن كان الشاعر قد يحتاج إليهم ويقصدهم دون تصون ، ودون تأكيد من أنهم سيعطونه أو يحرمونه .

ويبدو لك أدب الشاعر الجلم وفنه الطريف في إسناد هذه الأفعال إلى الملك نفسه وهي على التوالي : قرب ومحارونه ونحاصان . ولم يبنها للمجهول أو يسندها إلى نفسه .

وفي البيت الرابع يذكر أن نتيجة ذلك وجوب الشكر عايمه للملك ، وأنه افتن في شكره فعجز افتنايه عن إيفاء الملك حقه من الثناء جزاء ما قدم من إحسان ، ولتطوله المستمر والمتنوع .

ومن يتأمل الأبيات في قليل من الردية والدقة يجد فيها جملة من المعاني الأخرى غير ما ذكرناه ، دون جهد ولا شقة ولا معاناة .

ومن اليسر ان تستخرج من الأبيات جملة صور ولوحات فنية طريفة أعان على إبرازها وإيضاحها فن الشاعر الموهوب ، وامتلاكه ناصية القول ، وصدق شعوره وسلامة عاطفته .

ومن خمریات الشاعر الأديب إبراهيم بن علي الحراني المشهور بعين بصل ، ما ساقه خلال قصيدة يصف فيها دمشق ، قال :

ورب صافية في الكأس مشرقة كانت وما كان في العليا كيوان

راح أراحت لمن حلت براحتة روحا لها القار والفخار جثمان
صبت لنا فهي ماء في زجاجتها وأشرقت فهي في الكاسات نيران
يسعى بها رشاً بالسحر مكتحل حلو الدلال لجند الحسن سلطان
يصف الشاعر في هذه الأبيات الخمر فيقول إنها قديمة قبل أن يوجد النجم
وكيوان ، وهو زحل . وأثبت لها صفتين : الصفاء والإشراق .
وهذه الراح ساقط إلى يد شاربها روحا - وهي هي الروح - كان الفخار
والقار عليه ، جسدا لها .

ولها حالتان متضادتان : فهي ماء ونار . ماء وهي في زجاجتها . ونار حينما
أشرقت في كاساتها ، هي ماء لسيولتها واستقرارها ، وهي نار بلونها ومتناثر
حبابها وبما تثيره من دفء وحرارة .

وقد سعى بها غلام جميل كالظبي الصغير رقة عطف وخفة ظل ورشاقة
حركة . اكتحلت عيناه بالسحر ، وامتأل جانبه بالدلال الحلو المحبوب ، فصار
سلطانا لجنود الحسن .

هذه معان واضحة جميلة تطالعك رائقة صافية مشرقة في أساليب شفافة
وتراكيب جزلة في رقة .

ولم يثقل ما في الأبيات من ألوان بديعية . بل إن بعضها لا يكاد يلحظ ،
لالتئامه مع السياق ، ولتطلب المعنى له ، ومن ذلك المقابلة في قوله : « كانت
وما كان » . و « الماء والنيران » . - والجناس في قوله : راحت وأراحت ، .
ويبدو أن تكرار الراء والحاء أضاف ثغلا إلى ثقل الجناس .

وتستطيع قياسا على ما تقدم أن تلاحظ ما ذهبنا إليه من غلبة هاتين الصفتين
على معاني الشعر وهما : الوضوح والقرب .

وقد قلنا ، غلبة هاتين الصفتين ، ، لأنه ربما لجأك نص ترى فيه غموضاً
وتعقيداً .

ويبدو الغموض والتعقيد - عادة - في حالتين :

الأولى : عندما يحنج الشاعر إلى التفلسف وذكر المبادئ والنظريات
والحديث عن العقيدة .

والثانية : عندما يقصد إلى الإلغاز والمحاجة . والإلغاز هو التعمية .

ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن حجر العسقلاني قال :

« إن محمد بن أبي بكر السكاكيني نظم أبياتاً على لسان ذي ، في إنكار
القدر ، وأولها :

أياء علماء الدين ذي دينكم تحير دلوه بأعظم حجة
إذا ما قضى ربي بكفري بزعمكم ولم يرضه مني فما وجه حيلتي .. الخ
وقد رد عليه جمع من العلماء من بينهم العالم المجتهد الإمام تقي الدين بن تيمية
الحراني . قال ابن حجر ما نصه : فوقف عليها ابن تيمية فثنى إحدى رجله على
الأخرى وأجاب في مجلسه قبل أن يقوم بمائة وتسعة عشر بيتاً ، (١)
ومن أبيات ابن تيمية قوله :

سؤالك يا هذا سؤال معاند يخاصم رب العرش رب البرية
وهذا سؤال خاصم الملائع قديماً به إبليس أصل البلية
وأصل ضلال الخلق من كل فرقة هو الخوض في فعل الإله بعلة
فإن جميع السكون أوجب فعله مشيئة رب العرش باري الخليفة الخ (٢)

(١) راجع ترجمة ابن تيمية في الدرر الكامنة ج ١ رقم ٤٠٩ .

(٢) راجع الأبيات في طبقات السبكي ج ٦ ص ٢٢٩ في ترجمة العلماء الباجي .

وقد أشرنا عند الحديث عن « المساءلات » ، في باب أثر البيئة الثقافية ، إلى أبيات هذا الذمى ، وإلى أبيات من ردوا عليه من العلماء .
والسؤال يدور حول مسألة شائكة اختلفت فيها مذاهب أهل الكلام ، واختلفت استدلالاتهم . وهى أعمال العبد ، هل هى من فعله ابتداء ، أو هى بما قدره الله عليه فلا مشيئة له فيها . فقوم يقولون إنها من فعل العبد ابتداء ، هو الذى يذنبها ، ولهذا يحاسبه الله سبحانه ، وبثيبه أو يعاقبه . وعدالة الله تأبى أن يعاقب العبد على شيء قدره هو عليه ولا مفر له من عمله . — وقوم يقولون إنها من تقدير الله على العبد ، ولا يمكن أن تكون من صنع العبد ابتداء ، لأن فى ذلك مساسا بعلم الذات الإلهية ومشيتها وقدرتها . أما محاسبة العبد فإنما تجرى لجهله بما قدر الله عليه ، فهو محجوب عن معرفة الغيب ، وله القدرة على الاختيار ، فى ظاهر الأمر .

والكلام فى هذا يطول ، وتفترق عنده المذاهب وتتعدد الفرق الكلامية . وأنت ترى أن الموضوع دبنى فيه نظر وفلسفة وعمق . ولكن مهما يكن من أمره فقد كان ولا يزال حديثا للعامة ، وإن كانت ثأثرته قد هدأت فى عصرنا الحديث نسبيا . ومع أنه من حديث العامة ، هو من الأحاديث الشائكة التى يتعثر فيها المتحدث ما لم يكن على ذكر من العلم .

وأبيات السائل صريحة فى موضوعها إذ يقول : ما وجه حيلته إذا كان الله قد قضى بكفره وأرغمه عليه ثم لم يرضه منه وعاقبه عليه .

وأبيات ابن تيمية طويلة فى موضوع الرد . والأبيات الأربعة التى سجلناها هنا ، ترد على السائل وتصفه بأنه معاند وأنه يخاصم الله جل جلاله وهو رب العرش ورب البرية ، وينبغى له بهذه الصفة الخضوع والاستسلام لمشيئته . وفى وصف الله سبحانه بهاتين الصفتين إشعار بهيئته على جميع خلقه بما له وبما عليه .

ويذكر ابن تيمية أن السؤال كان سببا فى أن إبليس قديما خاصم الملائكة الأعلى ، وأن سبب ضلال الخلق من كل فرقة ، هو البحث فى موضوع شائك ، وهو فعل

الإله وأن جميع الكون - وقد برأه الله وخلقه - أو جبت مشيئته تعالى فعله ، وأنها هي التي قدرته وقضت به .

لستأهنا نتحدث عن هذه العقيدة ، وعن هذا الموضوع الخطير ، ولـكننا أردنا بالحديث المقتضب السالف ، بيان ما في الآيات من المعاني التي دارت حوله . ووضح كل الوضوح الصعوبة النفسية التي تعترض المتفهم للآيات بسبب عمق الموضوع ومشقة تصور معانيه بطبيعتها . إذ استغلقت هذه المعاني بسبب هذه الطبيعة لا بسبب الالفاظ المعبرة عنها أو غرابة التراكيب .

ومن أمثلة الالغاز ما نظمته تقي الدين حجة الجوى في « قصب السكر » وأرسله إلى صديقه المقر الأشرف الناصري محمد بن البارزي الجهنى ، وقد نظمته في ٢٢ بيتاً . نروى لك منها الآيات الآتية :

وعسالة تبدو بغير أسنة	ولاطعن فيها وهي داخلة الصدر
مشقة هيفاء حلو قوامها	به تطرح المراق في المهممه اقفر
منعمة لفـاء مهضومة الحشا	تسكاد بأن تنقد من رقة الخصر
وتحلو على البيض الرشاق شمائلها	إذا ما تثلثت في غلائلها الخضر
يلذ قبيل العصر في الظهر رشقها	وبرد لهاها من أليم الجوى يبرى
وإن سقيت ماء سقتك سلافة	بطيب مزاج وهي طيبة النشر .. الخ ^(١)

واللغز - كما أشرنا - يعتمد على التعمية وقصد الغموض ، وذلك بالتصحييف وبالعكس ، وبذكر الصفات المشتركة ، وبالتوريثات ، وبالألفاظ والمرشحات التي تقرب معنى وتبعد آخر ، وبغير ذلك مما يدعو إلى كد الذهن وإجهاد الخاطر حتى تصل الفطنة إلى المعاني المطلوبة ، وتقع على محل اللغز .

وليس هنا سبب الغموض صعوبة المعاني وعمقها وعقاداتها ووعورتها ، بل

(١) تأهيل الغريب ص ٩٩ - وخزانة الأدب ص ٣٩٨ وبهما الفصيدة بتمامها .

استخدام الألفاظ والتراكيب استخداماً قصداً فيه إلى التعمية بها ، بذكرها محتملة لعدة معان ، أو موجهة إلى معنى غير مقصود ، وهلم جرا .

والشاعر في أبياته هذه « يقصد بالعسالة ، عيدان القصب لما تحتوى عليه من العسل ، أو تصنعه أو تعطيه منه . وهو يشبهها بالرماح العسالة في اهتزازها . تبدو بغير أسنة ، فذكر « الأسنة » ، يوجه إلى معنى الرماح وهو في الوقت نفسه يفتن إلى غيرها . — وكذلك قوله « ولا طعن فيها » وقوله : « وهى داخلية الصدر » وهذه كلها من ملابسات الرماح . واختياره للفظ « عسالة » مناسب للمقام .

ويقول إنها « مشقة » أى ممدودة حسنة القوام رقيقة الجانب تزرى بالرماح الصلبة . وإنها نشأت في نعمة أو أنها ناعمة الملمس . وإنها لقاء فيها سمن وشىء من الضخامة ، ومع ذلك فيها لطف في شمتها ، ورقة في جانبها ، ودقة في باطنها ، حتى إنها تكاد تقطع من رقبتها .

وهى أحلى من الحسان الجميلات الرقيقات في شمائلها ، وبخاصة إذا تمايلت في شعاراتها الرقيقة الخضراء .

ويبدو أن الشطر الثانى من البيت الرابع وصف للعسالة لا البيض الرشاق - مع احتمال العكس - ويريد حينئذ بالغلائل الخضراء ، أوراقها .

وفي البيت الخامس يورى الشاعر بلفظ « العصر » وهو الوقت ، ويريد به تحويل القصب عصيراً .

وفي البيت السادس يشبهه عصيرها بسلافة ممزوجة طيبة النشر إلخ .

هذان مثالان أحدهما سبؤال عن « القدر » ، وثانيهما لغز عن « القصب » . وقد بدت فيهما غموضة المعانى وصعوبة استنباطها . فى الأول لوعورة المنزع وطبيعة (م ٢٨ - عصر الماليك)

الموضوع . وفي الثاني لقصد التعمية ، وللإشتراك في الوصف . ولذكر ملابسات كثيرة للمعنى القريب غير المراد .

ولكن ليس التفلسف والكلام عن العقيدة ، وليس الإلغاز ، هما كل الشعر ، ولا معظمه . بل هما فنان من فنونه الكثيرة .

٤ - الوصف والتصوير والتشخيص

الوصف والتصوير ظاهرة من الظواهر التي بدت في أساليب الشعراء عند أداء المعاني . ونقص المعاني الجزئية . ومن شأن العناية بوصفها وبحسن تصويرها أن تؤدي إلى وضوحها . فهما إذن دعامتان من دعائم الوضوح الذي تحدثنا عنه .

لقد جنحوا في توضيح المعاني - في كثير من أساليبهم - إلى الوصف والتصوير ، حتى لم يكن تسميتها بالأساليب الوصفية أو التصويرية . وترجعت بين الوصف الحسي والمعنوي ، وإن كان الأول بروز وغلبة .

ويعتدسون فيهما على ألوان من البديع كالتورية والتضمين والافتباس ، وألوان من البيان كالتشبيه والمجاز والكنائية أحياناً .

ويلعب الخيال الشعري دوره الكبير في ابتكار الصورة والملاءمة بين أجزائها ، وعقد الشبه بينها وبين غيرها ، وفي تكوينها أو تحريكها ، أو تعقيل ما لا يعقل من أدراتها وأجزائها . ويلعب الخاطر الملمهم دوره كذلك في تخير اللفظ وانتقاء التركيب .

ونقصد بالخيال الشعري إحدى القوى الذهنية التي عملها الانتفاع بالحقائق والمعلومات المخزنة في خزانة الذهن لتوليد الجديد من الصور ، وتكوين المبتكر من الأشكال ، التي تصب فيها التصورات التي يسرح إليها الخيال ، أو تطفر على صفحته . والتي ترتب فيها الحقائق ترتيباً جديداً لا عهد للذهن به من قبل .

ويقوم الخيال بعمله تحت تأثير الانفعالات العاطفية والسمو الفكري . وهو الذى يبرز الصور المولدة ، والأشكال المبتكرة فى أثواب من الألفاظ جميلة خلابة لامعة ، وقوالب من التراكيب جذابة رائعة ، فيها للقارئ متعة ولها فى قلوبهم أثر ، وفى نفوسهم هزة وطرب .

هذا الخيال المبتكر المجدد ، هو الذى يكشف الخفى ، ويوضح الغامض ويفهم الضئيل . وهو الذى يضفى على الأدب جدة وينشر فيه روحا ، ويربط بين الفارىء والحياة ، ويصل ما بين نفسه ونفس الأديب . وهو الذى يخلق من الحياة العامة الهادئة ضروبا من الحياة متحركة صاخبة مدوية مليئة ، فيها قصص وروايات ، ووقائع وحادثات ، وفيها مواقف تحدث الوجدان وتثير العاطفة وتنطق الجماد والحيوان ، وتنسب إليهما من صفات الإنسان ما هو مقصور عليه . ومن ألوان المعانى والأفكار ما هو خاص به (١) .

« وللخيال شأن فى تحويل المدركات ، فهو يخرج من الصامت صوراً تفيض بالحياة ، ويحول المحسوس إلى معنى ، والجماد إلى مدرك وجدانى ، تهتز له النفس . فترى المحسوس المجسم وقد تحول إلى فكرة متموجة قائمة ، ننعم بحماها الفنى وقوتها المعنوية » (٢) .

وإذا كان شعراء العصر العباسى لهم فضل السبق والإجادة فى هذا الباب . وبخاصة باصطناع أساليب البيان ، فاعتقادنا أن شعراء العصر المملوكى يفوقونهم فيه باصطناع أساليب البديع ، ولا سيما ما كان لها منها السيادة فيه كالتورية والافتباس والتضمين والطباق - إلى جانب ما أجادوه من أساليب البيان .

(١) راجع المجلد السادس من كتابنا عصر المماليك ص ٣٢٥ .

(٢) الأصول الفنية للأدب ، للأستاذ عبد الحميد حسن ص ٩٨ فى سياق فصل « الخيال » .

وإليك قول جمال الدين بن نباتة :

ورب حانة خمار طرقت وما حانت ولا طرقت للقصف حانات
سبقت قاصد مغناها وكنت فتى إلى المدام له بالسبق عادات
أعشو إلى ديرها الأقصى وقد لمعت تحت الدجى فكأن الدير مشكاة
وأكشف الحجب عنها وهى صافية لم يبق فى دنيا إلا صبابات
مصونة السرح ماتت دون غايتها حاجات قوم وللحاجات أوقات
راح زحفت على جيش الهموم بها حتى كأن سنا الأكواب رايات
وبت أجالو على الندمان رونقها حتى لقد أصبحوا من بعد ما ماتوا
تجول حول أرائيمها أشعنها كأنما هى للكاسات كاسات (١)

يصف الشاعر ذهابه المبكر إلى حانة الخمر ليمتاع ويشرب ويسمر . ويبين
لك هذا البكور بأنه قبل ميعاد فتحها وطرقها للهو . أى قبل أن يقصدها روادها .
ويؤكد هذا المعنى فى البيت الثانى ، ويزيد عليه بأنه له بالسبق إليها عادات . وهو
بذلك يصف نفسه بحبها وإدمانها تفوقاً بذلك على غيره من محبيها .

وفى البيت الثالث إيضاح جديد لسيره إليها . فهو يعيش إلى ديرها الناقى البعيد
على هدى ضوءها - وقد لمعت تحت الدجى - فيبدر له الدير كالمشكاة أى كالطاقة
التي ينبعث منها الضوء وسط هذا الظلام الدامس .

فإذا بلغ خبائها كشف عنها حجابها ، فبدت له صافية خالصة من أوشابها وقد
انتفت عنها أكارها ، فلم يبق فى دنيا إلا صبابات ، هى أكسيرها وروحها
وجوهرها . وفى هذا دلالة على أنها معتقة مصونة محفوظة ، تطلع كثير من
المحبين إليها فلم يظفروا بها ، لأن ميعاد وصالها لم يحن . ولهذا قال فى البيت الخامس
مصونة السرح . . إلى آخر البيت .

(١) عن ديوان ابن نباتة - وتأهيل الغريب باب الحمريات .

ثم لاشك أن الشاعر العاشق قد ظفر بهذه الصبايات ، وتغلب بها على جيش همومه وأحزانه ، وأنها أعادت إليه عهد أنسه وسروره . ولهذا يقول : وراح زحفت على جيش الهموم بها . الخ. وهذه إحدى صفاتها ويمهد بها إلى تشبيهه الطريق وهو تمثيل سنا الأكواب بالرايات .

وبعد أن قص الشاعر قصة رحيله إليها ، أخذ يقص قصة إخوانه الذين لحقوه إلى الدير ، فقد أخذ يجلوها عليهم ويعرض محاسنها على أنظارهم . فحسوا منها حتى بعثوا من جديد إلى حياة السرور بعدما أماتهم الجسد والهم .

وصارت الخمر تحول أشعتها حول أوانيها وكاساتها حتى أصبحت كاسات حول الكاسات .

وفي كل ما ذكرنا أوصاف وصور :

فن الأوصاف : قص القصة ، وهي قصة الرجل إلى معشوقته الخمر في دبرها ليلا ، وتشبيه الدير بالمشاة ، ووصفها بالمحجبة المخدرة ، وبالصفاء وذهاب أكثر ما خالطها ، وبأنها مصونة السرح ممنوعة لا يقرب حماتها أحد ، ولا يستطيع اقترحامه أحد . وبأنها معشوقة مات دون وصلها عاشقون وذوت آمالهم وبأنها تعين على إزالة الهموم ومحاربتها ، وبأن سنا أكوابها كالرايات وبأن أشعتها كالسكاسات .

ومن الصور : صورته وهو يسير ليلا تحت جناح الدجى نحو الدير البعيد اللامع في الظلام كالمشكاة ، سباقا إليها كعادته .

وصورته وهو يقربها وهي بمنعة محجبة ، فيحتال بلوغها فيجدها جواهر أو أكسيراً قد ذهب عنها ما خالطها .

وصورتها وهي مصونة ممنوعة السرح يتهاى دون الوصول إليها عشاقها وتنتهى آمالهم دون بلوغها .

وصورته مع النداءى الذين نشطوا من عقال وصحوا من موت ، وأفاقوا من

سبات الهم ، وأوانيتها تجول بينهم وأشعتها تملأ العيون ، حتى بدت كأنها كاسات
حول كاساتها .

وترى في الأبيات ألوانا من الحسيات ، كاللمع تحت الدجى ، وتشبيه الدير
بالمشكاة ، والسنا بالرايات ، والأشعة بالكاسات .

ولكنها حظيت بجانب ذلك بلفتات معنوية عدة ، وتنبيهات نفسية . كعادته
بالسبق إلى المدام ، وعشوه إلى ديرها في الظلام ، ونسبة الدير إليها ، وكشفه
الحجب عنها ، وصفائها . .

وفي قوله : أكشف الحجب عنها ، ومصونة السرح ، تشبيه لها بالخدره
المرجوة . وهو تصوير معنوى . وكذلك قوله : ماتت الغايات دونها وزحفت
على جيش الهموم بها ، تصوران معنويان .

وفي نسبة الحجب إليها ، وكذلك السرح ، واتخاذها معينة له في حرب
الهموم ، تشخيص لها .

ومن رابن الشعر ورائقه ما وصف به شمس الدين المشد ومحمد بن داود
ابن على ، المتوفى عام ٧٣٤ هـ ، حادثة شمعة ، إذ قال :

وذى شنب مالت إلى فيه شمعة فردت لإشفاق القلوب عليه
فمالت إلى أقدامه شغفًا به فقبلت البطحاء بين يديه
وقالت بدا من فيه شهد فمزني تذكر أوطائي فملت إليه
فحالت يد الأيام بيني وبينه فعفرت أجفاني على قدميه (١)
هذه قصة طريفة تتجلى في هذه الأبيات الوصفية الرقيقة . وهي واقعة
سريعة عاجلة من الوقائع العارضة ، يبرزها الشاعر الرقيق في أبيات جميلة معللة

مطربة ، ليست قصة صامئة جامدة ، ولكنها ناطقة متحركة ، ومبتدئة ومنتهية
معاً في حركات طبيعية وخطوات لا تكلف فيها . وقد امتزج فيها الوصف العذب
بالغزل الجميل .

وتتلخص القصة في أن شمعة موقدة مالت إلى فم هذا المحبوب . ويبدو أنها
لمسته أو كادت تلمسه ، وكادت تسيء إليه ، فانزعج وابتعد ، فسقطت على قدميه
ولمست الأرض .

وأبى خيال الشاعر إلا أن ينسجها قصة كما رأيت ، فيها من البيان تشبيه لشنب
المحبوب بالشهد . وفيها من البديع مراجعة ، وهي ترديد ما وقع في شكل قصصى .
وفيها تعليلان أدبيان طريقان .

وفيها تشخيص وإسناد صفات العاقل لغيره ، وذلك من صنع الخيال
الشعرى . انظر إليه يقول إن الشمعة مالت إلى أقدام المحبوب . وإلى هنا لم يظهر
الخيال ولا التشخيص ، ولكن التعليل بقوله « شغفا به » أبرزه في قوة ووثوب .
فقد جعل ميلها إليه عن سبب دفعها وعاطفة حركتها . واستمر بروزه بإسناد
تقبيل البطحاء بين يديه ثم بإسناد القول إليها ، واهتزازها لتذكر الأوطان ،
وتعفيرها أجفانها إحياء لذكرى أوطانها .

وفي هذه الأبيات التي تصف مشهداً حسيّاً بحتاً ، ترى الشاعر خرج به بكياسة
إلى نطاق المعنويات ، فأصبحت القصة نفسية رائعة ، تملأ جوانبها العاطفيات
والمشاعر ، كالشغف والتقبيل وتذكر الأوطان ، وتعفير الأجفان إحياء
لذكرى . . هذا كله فضلاً عن التشخيص ، كما أشرنا .

ومن أوفق ألفاظها قوله على لسان الشمعة : « فزنى » . إنها رقيقة لينة ،
وضعت في أنسب موضع . والتورية فيها جميلة ممتعة . رجحتها بين الاهتزاز
الحسى ، لوقوعها على الأرض . وبين الاهتزاز المعنوى ، لتذكر الأوطان .

ولعل جمال الدين بن نباتة ألمع شعراء العصر اتجاهاً نحو الوصف والتصوير،
- كما رأيت - وإخراج المعنى كاملاً بذبوله وحواشيه وظلاله . سواء احتاج في
أدائه إلى مسالك بيانية أو ألوان بديعية ، أم لم يحتج .

وقد أبدع ابن نباتة أيضاً في تصوير الخمر وبيان الكثير من صفاتها المحبوبة
عند ندمائها . وذلك في أبيات صدر بها إحدى مؤيدياته . يقول :

عوض بكأسك ما أتلقت من نشب فالكأس من فضة والراح من ذهب
واخطب إلى الشرب أم الدهر إن نسيت أخت المسرة واللهم ابنة العنب
غراء حالية الأعطاف تخطر في ثوب من النور أو عقد من الحجب
عذراء تنجز ميعاد السرور فما ترمى إليك بكف غير مختضب
مصونة تجعل الأسرار ظاهرة وجنة تتلقى العين باللمب

فهو يبرز لك الخمر حسناء جميلة غراء حالية الأعطاف ، مضيئة مشرقة ، عليها
عقودها ، يبرزها لك بذلك في أجمل صفاتها وأشدها إغراء . لقد جعلها إنسانة
فتانة جمعت الجمال والأصالة والكرم من أطرافها .

انظر إليه وإلى طرائفه ، لقد أخذ يشير لك إلى نسبها ، وهو نسب كريم ذو
حسب عظيم ، فهي أم الدهر ، وأخت المسرة ، وأخت اللهم ، وابنة العنب ،
وهذه أسرة كريمة بلا ريب . - وإن لم يوفق الشاعر في وصفها « بالأم » ، في هذا
المقام .. وإن أراد به قدمها .

وبالدهر أثبت لها قدم النسب ، وبالمسرة وصفها بطيب العشرة وحسن
المصاحبة ، وباللهم وصفها بقدرتها على إزالة الأحزان ومحو الهموم ، وبالعنب
أفصح عن حلاوة منبتها وعذوبة منشئها وكرم أصلها .

وهذه صفات حسية ومعنوية يرغب فيها الخاطب ، وتزدان بها العروس ،
وتقيه العذراء ..

وقد أفصح الشاعر عن أنها عذراء ، بعد أن أضفى عليها أثواب جمال أخرى

فهي غراء بيضاء مشرقة لامعة تلفت النظر وتنبه الخاطر ، وهي مزدانة الجوانب
متجملة المظهر ، فوق جمال أصلها وكرم محتدها ، وهي تخطر كما تخطر العروس
أو الفتاة إذا ازداد جمالها . — والحسن بالتيه يأمر — وهي تخطر في ثوبها
الموشى بما يشبه الزهر ، أو المضيء بما ينبعث منه الضوء والنور ، وعليها حببها
عقدا منظوما جميلا محببا ..

ومع أنها عذراء فهي تنجز ميعاد السرور ، فتريح عشاقها ، وتقي بميعادها ،
وتمد إليهم كفها غير الخضبة داعية راضية . ومع أنها مصونة ، فإن أستارها
ظاهرة قريبة ، وإذا تلفتك — وهي الجنة — باللهب ، ففيها من اللهب الاصفرار
واللهعان والدفء ، وهي تريح النفس كما تريحها الجنة . . .

وهكذا اعتمد ابن نباتة على الوصف ورسم الصور في إبراز محاسن الخمر .
وفي كل بيت من أبيانه الخمسة صورة .

الأولى : رجل جلس إلى مائدة الشراب ينفق الذهب في سبيل الخمر ويحتسبها
في كأسها الفضي ليعوض ما أنفق .

الثانية : خاطب يتقدم إلى خطبة عذراء ذات حسب ونسب ، وصفت حبيبة
إلى الزوج .

الثالثة : فتاة جميلة حسناء مشرقة الجبين تخطر في أثوابها الموشاة وعقودها
المحلاة . مقبلة إقبال الدنيا إذ ارضيت ، والحظ إذا ابتسم .

الرابعة : عذراء بكر تدعو عشاقها وتمد إليهم أكفها الرخصة ، التي لم تحتج
إلى خضاب .

الخامسة : الفتاة المصونة التي يتهافت إليها عشاقها ويسعون إلى أستارها
الطاهرة . . . وأكثر هذه التصورات — كما ترى — تصورات معنوية .

واصطنع الشاعر ألوانا من البيان ، ومنها الكنايات في البيت الثاني في أم الدهر ،
وأخت المسرة واللهم ، وابنة العنب .

ومنها الاستعارات في قوله : حالية الأعطاف . وعذراء . وتنجز ، وتوى .
وكف . وأستار .

والتشبيه في قوله : الراح من ذهب . وثوب من النور . وجنة . وعذراء .
واصطنع ألوانا من البديع ومنها : الطباق بين فضة وذهب ، وجنة ولهب .
ومراعاة النظير في أم وأخت وابنة .

اطردت هذه النزعة على وجه التقريب ، في كل ما تناوله الشعراء من أغراض
الشعر ، حتى الرثاء والنقد والفكاهة والشكوى وغير ذلك .

وإليك أبياتا أخرى في أغراض مختلفة ترى فيها هذه النزعة . فمن ذلك :

قول الشاب الظريف في الغزل :

في غزلى من لحظ ذاك الغزال أخبار صب قتلته النبال
غصن سقته أدمعى ثم ما أثمر لما مال نحو الملال
وهبتة ياقوت دمعى ولا يسمح لى مبسمة باللال
حل ثلاثا يوم حمامه ذوائبا تعبق منها الغوال
فقلت والقصد ذواباته يأسهرى فى ذى اللبالي الطوال (١)

وقول مجير الدين بن تميم في وصف نهر وقت الأصيل :

ونهر إذا ما الشمس حان غروبها ولاحت عليه فى غلائلها الصفر
رأينا الذى أبقت به من شعاعها كأننا أرقنا فيه كأسا من الخمر (٢)

وقول شرف الدين الرومى المتوفى سنة ٧٠٧ هـ فى طالب المستحيل :

ومن يقصد الأمر الذى ليس بممكنا ويطمع أن يمسى به وهو ظافر
كباحت صخر يبتغى فيه حاجة أمامله تدمى ونحنى الأظافر

(١) ديوان الشاب الظريف ، (٢) خزائن الأدب ، باب التشبيه .

وقول علاء الدين بن أبيك المتوفى عام ٨٠٣ هـ . من خرياته الغزلية :
كأن الراح لما راح يسعى بها في الراح مياس القوام
سنا المريح في كف الثريا يحينا به بدر التمام
وقد انصرفت عناية ابن أبيك ، إلى إيضاح الراح والساق إيضاحا حسيا ،
وذلك بذكر السنا والمريح والكف والثريا وبدر التمام . وتركيب التشبيه جميعه
حسى كذلك ، وإن تخللته التحية ، فإنها مشتركة بين الحسى والمعنوى .

وقول مجير الدين بن تميم ، فى وصف جواد كيت :
وطرف يفوق البرق لونا وسرعة فكالصخر إذ يهوى وكالماء إذ يجرى
تبدى بعرف أسود فوق أحمر فقل فى دخان تحته لهب الجمر^(١)
وترى الوصف الحسى طاغيا فى بيتى مجير الدين . إنه لم يتجه إلى وصف
أخلاق جواده ونعت تصرفاته . وإنما اتجه إلى إبراز لونه وسرعته . فقارن بين
البرق وبينه فى هاتين الصفتين الحسيتين الواضحتين فى البرق . ثم ثنى بتشبيهين
آخرين حسيين ، قوى بهما تصور السرعة وأوضح مقدارها ، فهو فى سرعته
كالصحراء إذ يهوى ، وكالماء إذ يجرى .

ويبدو لأول وهلة أنه بهما أضعف تشبيهه الأول ، إذ أن البرق أشد
سرعة - ولا ريب - من الصخر ومن الماء . ولكن هوى الصخر فيه ضراوة
وقسوة وتحطيم ، وجريان الماء فيه اكتساح وتفتيت وحمل . وهذا مالا
يصاحب البرق .

وترى الألوان الحسية بارزة فى بيته الثانى ، وفى تشبيهه . فقد عنى - كما ترى -
بإبراز لوني الجواد ، وهما السواد والاحمرار ، بعقد هذا التشبيه التمثيل الذى من
عناصره الدخان الأسود إلى أعلى ، واحمرار الجمر أسفل منه .

(١) راجع تأهيل الغريب ، باب وصف الخيل .

هـ — الفكاهة والنكتة

وقل ألا تجد في شعر قوم فكاهة يتسلون بها أو نكتة يتندرون بها . غير أن شعراء العصر المملوكي دعنهم إلى الشعر الفكاهي دواع كثيرة أربت على ما عند غيرهم من شعراء العصور الأخرى . ومن ذلك فراغ بعضهم من العمل الجدى ، أو بعدهم عن المناصب الرفيعة ذات الشأن التى تدعو إلى الجد ونزود عن مهاوى الهذر والمزاح . هذا إلى ولوعهم بالبديع ومحسناته وما فيها من تورية وتوجيه وإبهام وغيره . وقد كان هذا الولوع مزاجاً متأصلاً فى الشعراء كما نوهنا ، حتى عددناه أحد حوافزهم إلى النظم .

على أنه مما لا ريب فيه أن تتابع الدول الحاكمة الطارئة من خارج البلاد ، ووقوع شعب البلاد فريسة باردة لهذه الدول ، وفى جملتها دولتا المماليك ، رسب فى النفوس مرارة بالغة ، مازجها الخوف من البطش ، والخشية من غلظة الحاكمين فتنفست هذه النفوس عن طريق الفكاهة لتتسلى وتتعزى وتسرى عن برحائها ، وعن طريق النكتة والنقده والسخرية لتعبر فى هواده عن آلامها وعن شقاها بزمائها وحكامه وعيشه .

وجرى ذلك على ألسنة الشعراء فكانوا مرآة لمعاصريهم .

على أن عزوف الدهر عن كثير من هؤلاء الشعراء . وإنكار العصر لهم ونقصه من مقدارهم ، دعاهم إلى الشكاية ، ودفعهم إلى السخرية والهجاء ، ولكن فى رق وكياسة ، وفى حياء لبق ، عرف عن أهل مصر .

كانت الفكاهة إذأ فى مقدمة أساليبهم الشعرية ، وكانت النكتة وسيلة من وسائل التعبير وإبراز المعنى فبدت الشكاية ظريفة كيسة والنقده اللاذعة لطيفة ضاحكة . وسرت هذه الروح فى فجاج كثيرة من فجاج الشعر ، فقد تراها فى الوصف والغزل والهجاء والعتاب وغيرها .

وقد نظم شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي ، على لسان دابته تشكو الجوع إلى السلطان الناصر حسن ، وتطلب إليه شعير أ ، قال من قصيدة في ذلك :

وجع الجوع ماله من طيب غير أكل الشعير عند الغروب
ليت شعري هل للشعير غبار فأراه وقت العليق نصيب
أوقف الضعف حالي حين أمسى بعد جرى بقوة ووثوب
كنت كالطير في المسير إلى أن أوقعتني مع الأديب ذنوب
فتراني صفراء من غير عشق وصدود جرعته من حبيب .. الخ (١)

ولشهاب الدين بن أبي حجلة كذلك ، هذه الأبيات الخفيفة الإخروانية الفكاهية العاتبة . وقد أهدى إليه أحد أصدقائه خروفا ، فقال :

أتاني كبشكم في العيد يمرح بكاموس ببحر الدهن يسبح
سمت نحو السماء له قرون فبات لجديها والثور ينطح
لئن أمسى كهدى قلده فكم لي في القلائد فيه مطمح
فكبشكم المليح أتى ولاكن رضاكم مع وصول الكبش أملح
فمن لي لو رضيتم بعد عتب كناية من التصريح أصرح
وقد وشحتموه ببعض غيظ فطرفي بالدموع أتاه يرشح
وعندي مثل غيظكم ولاكن إذا أنصفت كان الصلح أصلح
فأخذ ما شئتة واستبق ودي فأخذ الروح عندي منه أروح
وإن تذبج محبك بعد هذا فعيد النحر قد وافاك فاذبح
لئن سددت باب العتب عني بما أبديته فالله يفتح
وإن ألمت يوما ما بذنب فمثلك من يرى ذنبا ويفصح
وما للعبد ذنب غير قولي لعبدكم بباب الدار : افتح (٢)

(١) ديوان ابن أبي حجلة — مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٢) ديوان ابن أبي حجلة

ونظم الأديب كمال الدين الأعشى المتوفى عام ٦٩٢ هـ قصيدة طويلة يذم فيها دار
سكناه . فقال في أولها :

دار سكنت بها أقل صفاتها	أن تسكث الحشرات في جنباتها
الخير عنها نازح متباعد	والشر دان من جميع جهاتها
من بعض ما فيها البعوض عدته	كم أعدم الأجفان طيب سناتها
وتبيت آسدها براغيث منى	غنت لها رقصة على نغماتها
رقص بتنغيص ^(١) ولكن قافه	قد قدمت فيه على أخواتها . . إلخ ^(١)

ولأبي الحسين الجزار المصرى يصف داره المهتمة بهذه الأبيات المشهورة :

ودار خراب بها قد نزلت	ولكن نزلت إلى السابعة
طريق من الطرق مسلوكة	محجتها للورى شاسعة
فلا فرق ما بين أنى أكون	بها أو أكون على القارعة
تساورها هفوات النسيم	فتصغى بلا أذن سامعة
وأخشى بها أن أقیم الصلاة	فتسجد حيطانها الراكعة
إذا ما قرأت إذا زلزلت	خشيت بأن تقرأ الواقعة ^(٢)

وكتب صاحب تاج الدين بن الصاحب نثر الدين - المتوفى عام ٥٧٠ هـ -
إلى الشاعر سراج الدين الوراق . وكان قد سقط حماره في بئر فوات :

يفديك جحشك إذ مضى مترديا	وبتالد يفدى الأديب رطارف
عدم الشعير فلم يحده ولا رأى	تبنا وراح من الظما كالتالف
ورأى البؤيرة غير خاف ماؤها	فرى حشاشة نفسه لمخاوف

(١) فوات الوفیات ج ٢ ص ١٠٢ .

(٢) خزنة الأدب ص ٢٥١ .

فهو الشهيد لكم بوافر فضلكم هذى المكارم لاحامة خاطف
قوم يموت حمارهم عطشا لقد أزرروا بحاتم فى الزمان السالف
وقد أجابه السراج الوراق من الوزن والقافية ، فقال :
أدنت ثمار قطوفها للقاطف وثنت بأنفاس النسيم معاطف
ومنها :

ولكم بكيت عليه عند مراجع ومراتع رشت بدمعى الذارف
يمشى على عسرى ويسرى صابرا بمعارف تلهيه دون معارف
وقد استمر على القناعة يقتدى بى وهى فى ذا الوقت جل وظائفى
ودعاه للبئر الصدى فأجابه واعتاقه صرف الحمام الآزف
وهو المدل بألفة طالت وما أنسى حقوق مراتعى ومآلى (١) إلخ

٦ - المعارضات والمناقضات

كانت المعارضات والمناقضات أسلوبا من أساليب الشعراء ومسلكا من المسالك التى طرقوها لعرض معانيهم . وليست أسلوبا خاصا وقالبا يصب فيه المعنى الجزئى ، على نمط ما رأينا فيما سبق . ولكنها كانت أسلوبا عاما ، وشكلا من أشكال القصيدة .

والمعارضة أن ينظم الشاعر قصيدة على نمط قصيدة لشاعر آخر ، يتفق معه فى بحرهما ورويها وموضوعها ، سواء أكان الشاعران متعاصرين أم غير متعاصرين . ويجرى ذلك بدافع المناقشة أو المباراة أو الرغبة فى إظهار البراعة والتفوق ، أو نحو ذلك .

والمناقضة ضرب من ضروب المعارضة . غير أنها تكون ردا ونقضا للقصيدة المعارضة .

وقد ترى في عصر من عصور الأدب عددا من المعارضات والمناقضات .
ولكن العصر المملوكي كان بحق عصر هذا اللون من الشعر ، ولا سيما المعارضات
التي نعتقد أن محصولها فيه يربى على محصولها في أي عصر آخر . ويندر أن ترى
شاعرا كبيرا لم يطرق باب المعارضات .

ولعل سبب ذلك الرغبة الجارحة في إظهار البراعة والتفوق ، إذ يبدو ذلك
في المعارضات بدوا وانحيا بارزا ، وبخاصة في معارضة شاعر سابق انعقد له الرأي
على إجادته وسبقه . أو شاعر معاصر تقدم الصفوف وانعقد له لواء الزعامة في
ميدان الشعر . وقد يكون السبب تأثير المعارض بغيره إلى حد الرغبة في تقليده
ومحاكاته .

وكثيرا ما عاونت العلاقات الإخوانية معاونة كبيرة على رواج هذه
المعارضات بين المتعاصرين . إذ دفعتهم إلى التسلي بالتراسل والمساءلة ، فكثرت
بينهم المراسلات والمساءلات الشعرية ، وكانت وسيلة أخرى من وسائل إبراز
الموهبة الفنية ، وأسلوبا تعلقت به لتتنفس عن طريقه وتثمر ثمارها .

وهذه المراسلات والمساءلات - وقد سبقت لنا الإماعة إليها - كانت تنظم
إحداها وترسل إلى صديق فيرد عليها بقصيدة من بحرها ورويها وفي موضوعها .

ومن المعارضات ما رواه صلاح الدين الصفدي في كتابه « الحان السواجم » ،
قال : إن قاضي القضاة أحمد بن علي السبكي ، مدح المكاتب المنشئة ككاتب السر
القاضي علاء الدين بن فضل الله العمري بقصيدة من بحر الكامل قافيتها هائية
مكسورة ، مطلعها :

كن كيف شئت عن الهوى لا أنتهى حتى تعود لى الحياة وأنت هي
فعارضه صلاح الدين الصفدي بقصيدة من البحر والروى ، يمدح بها القاضي
علاء الدين أيضا ، وتغزل في صدرها وشكا ، فقال :

حاشا لهم - ودى فى الصباية أن تهى أو أن تحسن لى السلو فانتهى
يا عزى فى هواك - مذلة وتواهى بك قد قضى بتولمى
أصبحت منك توجعى ومن الجفا • توحشى وإلى حماك توجهى
فترفق بى فى الهوى وترفعى عن قتلتى وعن الصدود ترفعى
قد زاد فيك تألى بتألى وتفكرى فيك انتهى لتفكرى
ومنها فى المدح :

ذى نسبة قرشية عدوية عمرية وإلى على تنتهى
فالعلم معلمه به لم يندرس رعياله والحلم لم يتنهفه
مادبر الأملاك مثل يراعه حفظ النظام به فدام ولم به ... إلخ (١)
وتلاحظ عناية الصفدى بالجناس وتكلفه .

ومن المعارضات قصيدة صنى الدين الحلى البائية ، التى مدح بها الملك الناصر
محمد بن قلاوون سلطان مصر لعنده • وقد عارض بها بائية أبى الطيب المتنبى ،
واقترحها عليه بعض رجال الناصر عام ٨٢٦ هـ حينما مر بمصر عائدا من الحجاز .
ومطلع بائية المتنبى :

بأبى الشموس الجانحات غاربا اللابسات من الحرير جلابيا
فقال صنى الدين متغزلا المطلع :
أسبلن من فوق النهود ذوائبا فجعلن حبات القلوب ذوائبا
وجلون من صبح الوجوه أشعة غادرن فود الليل منها شائبا
بيض دعاهن الغي كواعبا ولو استبان الرشده قال : كواكبا
سفن رأى المانوية عندما أسبلن من ظلم الشعور غياها

وسفرن لي فرأين شخصا حاضراً شـدـهـت بصيرته وقلبا غائبا
أشرقن في حلال كأن وميضها شفق تدرعه الشـمـوس جلابيا
وغربن في كلل فقلت لصاحبي بأبي الشـمـوس الجانحات غواربا.. إلخ^(١)

ونظم جمال الدين بن نباتة تائية طويلة في مدح كمال الدين بن الزملكاني ، وهي
من أجود الشعر ، وهي التي وصف فيها الخمر وفي مطلعها يقول النسيب :

قضى وما قضيت منكم لبانات متم عبث فيه الصبايات
مافاض من جفنه يوم الرحيل دم إلا وفي قلبه منكم جراحات
أحببنا كل عضو في محبتكم كلیم وجد فهل الموصل ميعات
وقد ذكرها تاج الدين السبكي في كتابه « طبقات الشافعية » ، في سياق ترجمة
كمال الدين بن الزملكاني فقال :

« ولما قال ابن نباتة هذه القصيدة في ابن الزملكاني ، البديعة ، حاول أدباء عصره
معارضته فما أحسنوا صنيعه ، بل كل قصر ولم يلحق ، وتأخر وما جاء بالحق » ، (٢)
ومن عارض ابن نباتة في قصيدته تلك من معاصريه : شمس الدين بن يوسف
المعروف بالخياط الشاعر . وكان قد أنكر على ابن نباتة أن يتغزل وينسب
على الوجه الذي جاء في مطلع مدحته ، وهو يمدح عالما من علماء المسلمين ،
فنظم قصيدته المعارضة مادحاً بها أيضاً ابن الزملكاني . ومن أبياتها قوله -
وكأنه ينعي على ابن نباتة وينقده :

ماشاد مدحي لكم ذكر المدام ولا أضحت جوامع لفظي وهي حانات
ولا طرقت حمي خماره سحرا ولا اكتست لي بكأس الرأس راحات

(١) ديوان الحلي باب الناصريات ص ٥٥ القسم الثاني .

(٢) طبقات السبكي ج ٥ ص ٢٥٥ وقد توفي ابن الزملكاني عام ٧٢٧ هـ

وإنما أسكر الجلاس من أدب يدور منه على الأكياس كاسات . . الخ

والقصيد - كما ترى - فيها نزعة المناقضة .

ولابن نباتة أيضاً قصيدته النبوية الرائية البديعة التي مطلعها :

صحا القلب لولا نسمة تتخطر ولمعة برق بالغضى تتسعر

وقد ذكرها ابن حجة الحموى في خزانة الأدب ، وعقب عليها بقوله :

« وعارض الشيخ جمال الدين بن نباتة جماعة نسجوا على منواله في عصره .

لكن الذوق السليم يشهد أنهم كانوا خلاصة قطره ، وهذا الشرح هو جامعهم الكبير . وإذا ذكرت فيه نظائره ، فاعلم أنه ليس له فيهم نظير » .

ورقائع المعارضات كثيرة ، ومنها « البديعيات » التي سبق لنا الحديث عنها ،

وهي - أو أغلبها - معارضات لبردة البوصيرى شاركها في البحر والروى

ونوع القافية والموضوع وأغراضه الجزئية .

أما المناقضات فهي - كما نوهنا - نادرة .

ومما عثرنا عليه من المناقضات الطريفة ، أبيات للشاعر ابن البقي المصرى

المتوفى عام ٧٠١ هـ - وذلك أنه سمع أبياتاً للفقير الأديب القاضى تقي

الدين بن دقيق العيد القشيرى - المتوفى عام ٧٠٢ هـ - يوازن فيها بين أهل المراتب

وأهل الفضائل ، ويقول :

أهل المراتب في الدنيا ورفعتها أهل الفضائل مرذولون بينهم

فما لهم في توقي ضرنا نظر ولا لهم في ترقى قدرنا همم

قد أنزلونا لأننا غير جنسهم منازل الوحش في الإهمال عندهم

فليتنا لو قدرنا أن نعرفهم مقدارهم عندنا أو لودروه هم

لهم مريحان من جهل وفضل غنى وعندنا المتعبدان العلم والعدم
والآبيات - كما ترى - جيدة النسيج جزلة التراكيب موفقة التعبير ، واضحة
المعاني ، تناولت إحدى ظواهر المجتمع ، وهي ظاهرة مطردة البروز في كثير
من المجتمعات الشرقية والعربية ، وقصاراتها استعلاء الرؤساء والحكام على العلماء
وأهل الفضل ، لما لهم من الجاه والغنى ، ولستكنهم مع ذلك جهلاء أراحمهم الجهل
من فهم الحق ومعرفة منازل الناس ، بينما أتعب العلم والعدم أهل الفضل ، وقللا
من منازلها .

وقد جرى ابن البقي في أبياته المناقضة شوطا قليلا مع أبيات ابن دقيق
العيد ، وخالفه في أن هؤلاء الحكام وأصحاب المراتب لا قيمة لهم بالنسبة إلى
العلماء ، وهم في حقيقة الأمر وحوش ونعم ، وإنما تقودهم حكمة العلماء . وأن
العلماء لم يحظوا لدنهم بالمنازل التي يستأهلونها ، لأنهم أهملوا ذلك ، ولأن أهل
المراتب لا ضمير لهم ولا شعور ، وما العلم والعدم إلا مريحان للعلماء . وما الجهل
والغنى إلا متعبدان لأهل المراتب .

وهاك أبيات ابن البقي :

أين المراتب في الدنيا ورفعتها من الذي حاز علماً ليس عندهم
لاشك أن لهم قدرا رأوه وما لمثلهم عندنا قدر ولا لهم
هم الوحوش ونحن الإنس حكمتنا تقودهم حيثما شئنا وهم نعم
وليس شيء سوى الإهمال يقطعنا عنهم لأنهم وجدانهم عدم
لنا المريحان من علم ومن عدم وفيهم المتعبدان الجهل والحشم^(١)

وقريب من ذلك أيضا ما رواه شهاب الدين بن حجر العسقلاني أيضا من
أن كمال الدين الشريشي — المتوفى عام ٧١٨ هـ — والذي كان فقيها ومدرسا — كتب

إلى بدر الدين - لعله بدر الدين بن الصاحب - هذين البيتين المشهورين
هكذا وصفهما ابن حجر ، - يعاتبه موريا بلفظ « السكال » ، وهو لقبه :

مولاي بدر الدين صل مدنفا صيره جبك مثل الخلال
لا تخش من عيب إذا زرتك فما يعاب البدر عند السكال
فبلغ ذلك صدر الدين بن الوكيل ، فناقضهما بقوله من البحر والروى .
يابدر لاتسمع كلام السكال فكل ما نطق زور محال
فالنقص يعرفو البدر في تمة وربما يخسف عند السكال (١)

أما المراسلات الشعرية فقد كانت كثيرة متداولة بين الشعراء ، وكانت
أسلوبا إخوانيا متبعا بينهم ، وقد تكون مستقلة ، أو يصاحبها النثر .

والمراسلات لون من المعارضات ، لما كان يتوخاه المرسل إليه من الاقتداء
بصديقه المرسل في بحره ورويه ونوع قافيته وموضوعه ، مع سمة الرد والإجابة
ومبادلة العاطفة .

ومن المراسلات ما بعث به علاء الدين بن غانم الشاعر الأديب ، إلى العلامة
شهاب الدين محمود الحلبي صاحب ديوان الإنشاء بدمشق إذ ذاك ، يشكو إليه
طول غيابه عنه ، فقال :

لقد غبت عنا والذي غاب محسود وأنت على ما اخترت من ذاك محمود
حللنا محلا بعد بعدك محلا به كل شيء ما خلا السر مفقود
به الباب مفتوح إلى كل شقوة ولكن به باب السعادة مسدود
فأجابه الشهاب محمود بقوله من البحر والقافية :

أحبابنا بنتم وشط مزارنا برغمي وحالت دون وصلكم البيد

وروعتم روض الحمى بفراقكم فشابت نواصى بانه وهو مولود
ومن لم تهجه الورق وجدأ عليكم توهم أن النوح في الدوح تغريد (١)
« روى الأبيات صاحب فوات الوفيات . ونرجح أن لها بقية طويلة ،
لم يثبتها صاحب الفوات مجتزئاً بهذه الأبيات ، .

ومن المراسلات أيضاً ما نظمه الأدب جمال الدين بن غانم - وهو في
دمشق - إلى الصلاح الصفدى - وهو في مصر - قال :

ذكرت قلبي حين شط مزارهم بهم فتاب عن الهوى تذكّارهم
وبكى فؤادى وهو منزل حبيهم وأحق من تبكى الأحبة دارهم
ويخلق الجفن الهمول كأنما لمحته عند مرورهم أنوارهم
تذرى الدموع عليهم وكأنهم زهر الربا وكأنها أمطارهم . إلخ

فرد عليه الصلاح الصفدى من الوزن والقافية فقال :

أفدى الذين إذا تئمت دارهم أدناهم من دارهم تذكّارهم
في جلق الفيحاء منزلهم وفي مصر بقلب الصب تضرع نارهم
قوم بذكركم الندامى أعرضوا عن كأسهم وكفتهم أخبارهم
وإذا الشاء على محاسنهم أتى طربوا له وتعطرت أوتارهم . إلخ (٢)
والقصيدتان طويلتان .

وفي أعقاب حديثنا هذا عن المعارضات والمناقضات والمراسلات وما يتصل
بها ، نلقت النظر إلى أن هذا الموضوع يستأهل بحثاً مستقلاً ، تبحث فيه أسبابه
وعلمه ودوافعه في كل عصر من عصور الأدب ، وتسجيل أهم القصائد وأجودها ،

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٩٨ .

(٢) فوات الوفيات ج : ص ٩٢١ وبه القصيدتان بتمامهما .

مع شرحها وضبطها والتعليق عليها ، وتحليلها ، والموازنة بينها ، والتنويه بالثروة الأدبية التي نجمت عنها ، إلى غير ذلك مما يترأى للباحث .

٧ - السرقات الشعرية

وحديث المعارضات يجرنا إلى الحديث عن السرقات الشعرية بعامية . وذلك لأن المعارض قصاره أن يدور في فلك من يعارضه ، ويتحذاه ويقتدى به متأثراً بنهجه وأسلوبه ومعانيه . وقد يؤدي به هذا إلى الوقوع في السرقة الشعرية .

وفي الحق ، لم يكن الوقوع في السرقة الشعرية أمراً مقصوراً على المعارضين ، ولكنه كان شائعاً أيضاً عند غيرهم . بل نود أن نقول إنه كان اتجاهها وأسلوبها عند كثير من الشعراء في العصر الذي نتحدث عنه .

بل يبدو لنا أنه كان ظاهرة أدبية برزت في العصر المذكور أكثر من بروزها في غيرها .

ويستطيع أى ناقد أن يتخذ هذه الظاهرة وسيلة للحط من قدر شعراء العصر وقيمة شعرهم . ولكن ينبغي له أن يضع في الاعتبار أسباباً جوهرية جذبت هؤلاء الشعراء إلى نطاق السرقات . ومنها رغبة بعضهم في المعابشة والمداعبة الأدبية ، وإثارة المنافسة والمنازعة . كما أن حب البديع كان سبباً أساسياً في هذا الاتجاه ، فكثيراً ما كان يقع خاطر أحدهم على لفظ أو تركيب نضجت له فيه تورية ، أو حلاً جناس ، أو استعارة معه طباق أو اقتباس . أو نحو ذلك . فينظم البيت أو البيتين فيه يضمهما إياه . وما هو إلا أن ينظمه حتى يشرق ويغرب . فيتهافت عليه ويتهاوى إليه كثير من الشعراء يعارضونه . فيعجبون بالمعنى أو الصورة اللفظية ، ويحسون إظهار براعتهم ومقدرتهم في هذه المعارضة . فينظمون له البيت أو البيتين أيضاً ، من بحره ورويه أو غيرهما يضمونهما المعنى أو يزيدون

عليه أو ينقصون منه ، وبلفظه ، أو بجزء منه ، أو بلفظ مغاير له .
وهكذا ترى حب المعارضة - وهو وحده أسلوب - قد جر إلى السرقة -
وهي أيضاً أسلوب من الأساليب .
وليس السرقة الشعرية معيبة دائماً ، بل منها ما يعد تجديداً وتوليداً فيه متعة
وطرافة ، كما ستري .

وقعت السرقات - كما أشرنا - من كثير من شعراء العصر . ووقعت من نحوهم
ومجيديهم . وعيبت من بعضهم وعدت من هئاتهم . ومنهم : علاء الدين الوداعي .
وجمال الدين بن نباتة المصري وصلاح الدين الصفدي . وزين الدين بن الوردى .
وشهاب الدين بن أبي حجلة المغربي . وغيرهم من الفحول .

وروى ابن حجة الجوى قال :

« إن الشيخ علاء الدين الوداعي سبك التورية في قوالب لم يسبقه أحد من هذه
الجماعة إليها . ولا سقط فكره عليها . ومع علو قدر الشيخ جمال الدين بن نباتة -
وهو الذى مشى ملوك الأدب قاطبة بعد الفاضل تحت أعلامه - تطفل على موائد
نسكت الوداعي ومعانيه ، ^(١) .

وروى أيضاً أن صلاح الدين الصفدي كان يسرق معاني ابن نباتة . فبما سلب
ابن نباتة على علاء الدين الوداعي ، سلب الصفدي عليه . وقد حداه هذا إلى أن
يؤلف كتاباً سماه « خبز الشعير » ، بين فيه سرقات الصفدي من شعره .

قال ابن حجة فى ذلك مانصه ، وهو يتحدث عن براعة الاستهلال :

« وأما براعة الشيخ جمال الدين بن نباتة فى خطبة كتابه المسمى « بخبز الشعير » ،
فإنها خاص الخاص .

(١) خزائن الأدب باب التورية .

ولا بد من مقدمة تكون هي النتيجة الموجبة لتسمية هذا الكتاب بخبر
الشعير . فإنه ما كول مذموم وما ذاك إلا أنه كان يخترع المعنى الذي لم يسبق إليه ،
ويسكنه بيتا من أبياته العامة بالمحسن . فإخذه صلاح الدين الصفدى بلفظه ،
ولا يغير فيه غير البحر ، وربما عام به في بحر طويل يفتقر إلى كثرة الحشد
واستعمال ما لا يلائم .

فلم يسع الشيخ جمال الدين إلا أنه جمعه من نظمه ونظم الشيخ صلاح الدين .
واستهل خطبته بقوله تعالى : « رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا » .
ورتب كتابه على قوله : قلت أنا . فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال . . الخ (١)

وروى ابن حجة جزء آخر من خطبة ابن نباتة ، أنه قال :

« بلغني أن بعض أدباء عصرنا ممن منحته ودي وأنفقت على ذهنه الطالاب
ماعندي . وأقته - وهو لا يدري الوزن - مقام من زكاه نقدي . وأودعته
ذخائر فكري وأنفقها . وأعرته أوراق العتيقة ، فلا والله ما ردها ولا أعتقها .
بل إنه غير الشاء بالهجاء . والولاء بالجفاء . ونسبني إلى سرقة بيوت الأشعار مع
الغنى عنها والغناء . فتغاضيت وقلت : همار مشاء بنميم . وغصة صديق أنجرعها
ولو كانت من حميم . وأخليت من حديثه باب في ومجلس صدرى وصرفت
ذكره عن فكري .

ولكن وقفت على تصانيف في علم الأدب - والعلم عند الله تعالى - ووشحها
بشعره ، وشعري المنصوب المنسوب يقول يا صاحبي ألا لا . وما يتوضح من تلك
الأشعار لمعة إلا ومن لفظي مشكاتها . ولا تتضوع زهرة إلا ومنى في الحقيقة .
نباتها . فضحكك والله من ذهنه الذاهل . وذكرت على زعمه قول ألقائل :

وقتي يقول الشعر إلا أنه فيم علمنا يسرق المسروقا

وعجيب له كيف رضى لنفسه هذا الأمر مذكرا . وكيف حلا لذرقه اللطيف
هذا الحرام مكررا .

وقد أوردت في هذا الكتاب قدرا كافيا . ووزنا من الشعر وإفيا . وسميته
« خبز الشعير » المأكول المذموم . وعرضته على معدلة مولانا ليعلم أينما مع
خليله مظلوم .

وقد اشتهرت سرقات صلاح الدين خليل الصفدى من ابن نباتة ومن غيره .
فقد قال فيه الأديب شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي - موريا - وذلك لأنه
سرق معنى للنسيم فظمه محيى الدين بن عبد الظاهر :

إن ابن أيبك لم تزل سرقاته تأتى بكل قبيحة وقبيح
نسب المعانى فى النسيم لنفسه جملا فراح كلامه فى الريح (١)

ومن طريف ما اعترف به زين الدين بن الوردى على نفسه بالسراقات
قوله الصريح :

وأسرق ما استطعت من المعانى فإن فقت القديم حمدت سـيرى
وإن ساويت من قبلى فحسبى مساواة القديم وذا لخيرى
وإن كان القديم أتم معنى فذلك مبلغى ومطار طـيرى
فإن الدرهم المضروب باسمى أحب إلى من دينار غيرى (٢)

واجتمع من سرقاتهم الشيء الكثير مما حدا ببعض الناقدين إلى تتبعها وردّها

(١) خزائن الأدب باب براعة الاستهلال وباب التورية .

(٢) ديوان ابن الوردى ص ٢٣٣ ط الجوائب .

إلى مصادرها وبيان الطريف منها وغير الطريف . ومنهم ابن نباتة في كتابه
السالف الذكر « خبز الشعير » في سرقات الصفدى منه :

وقد أثبت ابن حجة في كتابيه « خزانة الأدب » و « تأهيل الغريب » كثيراً
من هذه السرقات في أبواب عدة . وألف شمس الدين النواجى كتابه « المحجة في
سرقات ابن حجة » .

ونورد فيما يلى أمثلة وشواهد من سرقاتهم على اختلاف ضروبها . فمنها :
قول شيخ الشيوخ عبد العزيز الأنصارى :

وبدر دجى لم ينتقل كسميه ولكنه مازال فى القلب والطرف
يلوح لعينى ما شقانون صدغه فأعبد خلاقى على ذلك الحرف
قال ابن حجة : هذه النكتة أخذها ابن الوردى بقافيتها وغالب ألفاظها
ومعناها . ولعمري إنها سرقة فاحشة .

قال ابن الوردى :

يا بدر تم نوره باهر منزله فى القلب والطرف
صدغك حرف النون فى مشقه من يعبد الله على حرف

وقال شيخ الشيوخ أيضاً :

أفدى حبیباً رزقت منه عطف محب على حبیب
بوجنة ما أتم ربهى وقد غدا وردها نصیبى

أخذه ابن نباتة فقال :

فديتك غصنا ليس يبرح مثمرا من الحسن فى الدنيا بكل غريب
تفتح فى وجناته الورد أحمر فيأليت ذاك الورد كان نصيبى
والسرقة فى البيت الثانى . وتنصب على التورية فى قوله « نصيبى » ، وترى أن

ابن نباتة تصرف في الترشيح لتوريته ، وذلك بذكر الورد الأحمر في الشطر الأول . وقد خلا منه بيت شيخ الشيوخ . وقرنه ابن نباتة بالثاني أيضا . - وعلى كل فالفضل للمتقدم .

وقال جمال الدين بن نباتة :

ومـولع بفخاخ يـدها وشبـاك
قالت لي العين ماذا يصيد قلت كركـ ذكراكـ ،
ورى الشاعر في قوله ذكراكـ ، وهو الكرى . أو جمع كركى وفيه جناس التورية .
أخذه صلاح الدين الصفدى فقال :

أغار على سرح الكرى عندما رمى الكراكى غزال للبدور يحاكى
فقلت أرجى يا عين عن ورد حسنه ألم تنظريه كيف صاد كراكى ذكراكـ ،
أطال الصفدى في بيته الأول وذكر الكرى والكراكى ، وأفصح عن الغزال
الصائد . وهو الغلام الجميل . وتكلف في التعبير وأطال حينما قال : أغار على
سرح الكرى ، .. والبيت الأول لابن نباتة يتضمن هذا كله - باستثناء الكراكى
التي لم تزد بيت الصفدى إلا ثقلا .

وأطال الصفدى كذلك في بيته الثاني دون معنى قيم ، وتكلف في ذلك
أيـهـد للتورية .

وقد بلغ ابن نباتة هدفه من ذلك كله دون تكلف وفي إيجاز ، وفي بحر من
الشعر قصير .

وقال القاضى الفاضل موريا :

وكنـت وكـنا والزمان مساعد فصرت وصرنا وهو غير مساعد
وزاحنى فى ورد ريفك شارب ونفسى تأبى شركها فى الموارد

فأخذه عز الدين الموصلى وقال :

لقد كنت لى وحدى ووجهك حضرنى وكنا وكانت للزمان مواهب
فعارضنى فى ورد خدك عارض وزاحمنى فى ورد ثغرك شارب
والبيت الأول واضح السرقة بالمعنى وأكثر اللفظ . مع تغيير لفظ
« مساعد » بلفظ « مواهب » . هذا إلى أن بيت الموصلى يتضمن نصف المعنى
لا المعنى كله ، فقد أغفل معنى النصف الثانى من البيت .
وفى بيته الثانى اختلس قول الفاضل « وزاحمنى فى ورد ريفك شارب » ،
بتغيير غير جوهرى فى لفظ « ريفك » ، إذ استبدل به « ثغرك » . وحقيقة
زاد عن الفاضل معنى الشطر الأول وألفاظه وهو قوله « فعارضنى فى ورد
خدك عارض » .

وقال محيى الدين بن عبد الظاهر فى النسمة :

شكرا لנסمة أرضكم كم بلغت منى تحية
لا غرو إن حفظت أحبا ديث الهوى فهى الذكية
والنسكة فى قوله « الذكية » ، بمعنى اليقظة اللببية الفطنة . وبمعنى الذاكية
النشر الضائعة العطر . وهو المراد من التورية .

فأخذ المعنى صلاح الدين الصفدى وقال :

يا طيب نشر هب لى من نحوكم فأنار كامن لوعتى ونهتسى
أهدى تحيتكم وأشبه لطفكم وروى شذاكم إن نشركم ذكى
وبيتا ابن عبد الظاهر أوجز وأبعد عن الحشو ، وأبعد عن تكلف التهيد
إلى النسكة .

وهذه السرقة هى التى أشار إليها ابن أبى حجلة المغربى فى بيتيه نقدا
للصفدى . وقال إنه نسب المعانى فى النسيم لنفسه فراح كلامه فى الريح .

ومن بديع ما صرر به أبو نواس الكاسات ، قوله في خمرياته
 بنينا على كسرى سماء مدامة مكلمة حافتها بنجوم
 فلو رد في كسرى بن ساسان روحه إذا لاصطفاني دون كل نديم
 وقد ألم بهذا التصوير أكثر من شاعر . ومن ألم به صلاح الدين الصفدي
 وأجاد إلى الغاية مع التضمنين ، فقال :

ومشؤلة قد هام كسرى بكأسها فأضحى ينادى وهو فيها مصور
 وقفت لشوقي من وراء زجاجة إلى الدار من فرط الصبابة أنظر
 وألم به بعده صاحب نثر الدين بن مكائس فقال :
 إذا ما أديرت في حشأ عسجدية بها كل ذى تاج وقصر تصورا
 فحسبك نبلا في السيادة أن ترى نديمك في الكاسات كسرى وقيصرا

وقال محي الدين بن قرناص الحموي :

وحديقة غناء ينتظم الندى بفروعها كالدر في الأسلاك
 والبدر يشرق من خلال غصونها مثل الملمح يطل من شباك
 وأخذ صلاح الدين الصفدي فقال :

كأنما الأغصان لما انثنت أمام بدر التم في غيبه
 بنت مليك خلف شباكها تفرجت منه على موكبه

ذكر ابن حجة أن هذا التشبيه غير بليغ . وروى ما نفعه به بدر الدين
 الدماميني في كتابه « نزول الغيث الذي انسجم » . حيث قال :

« إن ظاهر عبارة الشيخ صلاح الدين تشبيه الأغصان في حالة انثنائها أمام
 البدر في الدجى ، ببنت مليك تطل من شباكها للنظر في موكب أبيها . وذلك عن
 مظان التشبيه بمعزل . ومقصوده أن البدر في حالة ظهوره من خلال الأغصان
 المثنية على الصفة المذكورة ، يشبه بنت مليك على تلك الحالة تمثيلا للهبة

الاجتماعية . لكن اللفظ لا يساعده على ذلك المطلوب . فإنه جعل الأغصان مبتدأ ، وأخبر عنه بقوله : « بنت ملك » فلم يتم له المراد ، .
ونقول إن الصفدى سرق الفكرة وتصويرها من ابن قرناص . وقد صورها ابن قرناص في بيت واحد هو البيت الثانى . وأجاد مع الوضوح ودقة التشبيه وجمال الصورة . أما الصفدى فقد صورها في بيتين . واعتاص عليه إبراز التشبيه كما نقده ابن الدمامنى .

وقال علاء الدين اوداعى :

من آخذ من خده بدم الشهيد المغرم
فالريح ريح المسك منه ولونه لون الدم
فأخذه ابن نباتة وقال :

لا ينكر الكاسر من جفنه دم الشهيد الصابر المغرم
فالريح ريح المسك من خده كما ترى واللون لون الدم^(١)

وترى جوهر المعنى واحدا . وأطال ابن نباتة في إبرازه ، وحوره بعض التحوير الذى لا طرافة فيه . وحشا في قوله « الصابر » وقوله « كما ترى » . -
وطالب الوداعى بأخذ الدم ، وسكت عنه ابن نباتة . وذكر الوداعى أن الدم يؤخذ من الخد - وكأنه هو سبب القتل أو هو القاتل . واحمراره دليل على جنايته ومناسبة ذلك واضحة . - أما ابن نباتة فجعل القاتل هو الجفن . وبدى أن الجفن أقتل من الخد . ولكن أين الدليل ، وهو الاحمرار ؟ . لقد سقط دليل ابن نباتة ، إلا إذا جعل الاحمرار في الجفن ، وليس في ذلك ملاحاة .

وحسبنا بهذا ما سجلنا من السرقات على اعتبار أنها لون من أساليبهم . على أنك ولا ريب لحظت فيما سجلناه أذواقا أدبية ونفوساً شاعرة . وعقولا ذكية ،

(١) ارجع في نماذج هذا الفضل إلى خزانة الأدب باب التشبيه وباب التورية وباب السرقات ، وأيضاً كتابه تأهيل الغريب . ودواوين الشعراء .

وأذهانا مصورة وخيالا مبتكرا . وإن لم تدفع إليه عاطفة جياشة أو وجدان ثائر .

وليس معنى هذا أنهم لم يقعوا على القديم ، ولم يقتدروا بالسابقين ولم يحاكوهم . بل نقول إن هذه هي النهضة التي يرى بها شعراء العصر الذي نحن بصددده . وأن قصاراهم المحاكاة والتقليد .

فلا بأس بنا وقد استطرنا إلى هذا الموضوع أن نتحدث في وجازة عن الشعراء بين التقليد والتجديد .

التقليد والتجديد :

انهم شعراء العصر بأنهم مقلدون لا جديدين عندهم ولا ابتكار دار بأذهانهم . والتقليد والمحاكاة قصارى رأى السادة الناقدين والمؤرخين - أو أكثرهم - ممن تصدوا للحديث عن هذا العصر بأجمعه وعن شعرائه وأدبائه وعلمائه .

وهذه فرية إن دلت فإنما تدل على أن السادة لم يستوفوا أطراف البحث ، ولم يدوروا في فجاج العصر ، ولم يفتشوا تفتيش المستقرى المستقصى ، وحكموا حكما فجا على العصر وأهله . مأخوذين بما أحاط بالعصر من مشبطات الأدب ومعوقاته .

والعصر المملوكى - كمثل عصور الأدب بعامة - فيه المحاكاة والتقليد ، وفيه الابتكار والتجديد . فى المعانى وأساليب تصويرها وإبرازها . واستقرأونا ثبت أمامنا هذه النظرة ، وأقر هذا الرأى .

إننا - وقد آمنا بشاعرية هؤلاء الشعراء وآمنا بصفاء قرائحهم وأصالة مواهبهم ونقاء فطرهم - لانستطيع أن نجردهم من صدق تجاربهم النفسية وعمق انفعالاتهم العاطفية ، وشدة امتزاجهم بما حولهم من أجزاء البيئة ونواحيها . وهذا من شأنه أن يدفع إلى الابتكار والتجديد دون مشقة .

والبحث في أساليب عصر من العصور ، وفي معاني الشعر فيه ، لاستخراج الجديد من بينها ، والمبتكر الذي لم يطرقة طارق ولم يسبق إليه سابق ، مهيع شاق وطريق وعر ، يحتاج إلى جهد مستقل ومقام غير هذا المقام . يستطيع فيه الباحث ارتياد ميادين الأساليب والمعاني الشعرية في كل عصر أدبي ، ليعقد الموازنة والمقارنة ، حتى يستخرج الجديد من بينها والمبتكر ، في العصر الذي نؤرخه . على أننا نسكتفي في هذا المقام بأن نورد لك جملة من النماذج يبدو لك فيها جديد الأسلوب وطريف المعنى ، فمن ذلك :

قول نثر الدين بن مكانس في قصيدته البارعة في وصف « سرحة النيل » ، يصف انحناءها فوق النهر :

مالت على النهر إذ جاش الخربير به كأنها أذن مالت للإصغاء
الشطر الأول من البيت تعبير عادي جدا ، يصف المنظر وصفا طبيعيا لا خيال فيه . ولكن الشطر الثاني أكسبه روعة وأجرى بما فيه من الخيال ، روحا قوية دافقة في أوصاله . وأبرز السريحة حسناء جميلة عاشقة حانية عاطفة أثار أحاسيسها جيش النهر بخريزه ، فأنجذبت إليه سامعة متلهفة .
قال ابن حجة :

« الذي يظن لي أن صاحب نثر الدين بن مكانس ولد هذا المعنى من قول الأرجاني :

كم طعنة نجلاء تعرض بالحى من دون نظرة مقلة نجلاء
فتحدثا سرا فحول قباها سمر الرماح يملن للإصغاء (١)

ومن تصور ابن العفيف وتصويره ، قوله مع الاقتباس والتوجيه :

لو لم تكن إبنة العنقود في فمه ما كان في خده القاني أبو لهب

(١) تأهيل الغريب باب النزل الحمس .

تبت يدا عاذلى فيه فوجنته حمالة الورد لا حمالة الخطب (١)
قال ابن حجة ما معناه : « إن الشعراء بعد ابن العفيف تلاعبوا بهذه النكتة
الأدبية وأغاروا عليها ، »

ومن طرائف مجير الدين بن تميم قوله من خمرياته :
وليلة بت أسقى فى غياهاها راحا تسلى شبابى من يد الهرم
ما زلت أشربها حتى نظرت إلى غزالة الصبح ترى نرجس الظلم (٢)

وذكر ابن حجة قول أبى نواس فى مدح الأمين :
إذا نحن أنثينا عليك بصالح فأنت كما نثنى وفوق الذى نثنى
وإن جرت الألفاظ يوما بمدحة لغيرك إنسانا فأنت الذى نعى
ثم قال : « هذا المعنى أهل الشيخ جمال الدين بن نباتة غريبه فى مدح الملك
المؤيد صاحب حماة المحروسة ، فجاء أبدع وأغرب وأبلغ ، حيث قال :
من مخـ...بر الملك المؤيد أننى لولاه ما سميت نفسى شاعرا
وحلفت لم أمدح سواه لرغبة لـ...كننى جربت فيه الخطا (٣)
أقول إن ابن نباتة كرر هذا المعنى ، مع التوليد منه ، فى أكثر من مناسبة ،
فمن ذلك قوله من مؤيدية :

أجانبى قبل أن ناديت جودك إذ ناديت جود بنى الدنيا فلم يجب
فإن يكن بعض أمداح الورى كذبا فإن مدحك تكفير عن الكذب (٤)

ومن غريب ماصوره ابن حجة الحموى فى مدح الملك المؤيد شيخ بعد انتصاره

(٢) التأهيل : باب التشبيه .

(٤) ديوان ابن نباتة حرف الباء .

(١) خزنة الأدب ص ٣٣٦

(٣) التأهيل باب الديق .

على السلطان فرج بن برقوق ورجال جيشه ، قوله يصف حركة قتاله لأعدائه
وقتلهم إياهم :

وإذا مددت يراع رمحك ماله إلا قلوب الدار عين محابر
ونعال خيلك كالعيون وما لها إلا جماجم من قتلت محاجر
وكتبت بالهندي فيهم أسطرا وصدورهم تحت الدروع مساطر^(١)
وتراه قد مزج بين أدات الكتابة ومصطلحاتها ، وأدوات الحرب
ومصطلحاتها ، واستعار البعض للبعض ، وأدى ذلك تأدية مقبولة ، وأخرج هذه
المعاني الطريقة بهذا التصوير البارع الواضح .
فالرمح يراع ، والقلوب محابر ، والصدور مساطر - ويراع الرمح انغمس في محابر
القلوب ، والسيوف تسكتب سطورها على الصدور .
وفي البيت ، جعل نعال الخيل كالعيون . وجماجم الأعداء كالمحاجر .
وتوريته في قوله « بالهندي » ، طريقة ، إذ فيها معنى الخط الهندي ، ومعنى السيف
الهندي . .

ولشهاب الدين بن حجر العسقلاني في وصف روضة ، مع التورية :
ولم أنس إذ زاد الحبيب بروضة فغارت من المعشوق أعينها المرضى
ولاح بخد الورد حمرة خجله إلى أن رأينا طرف نرجسه غضا^(٢)

ولسراج الدين الوراق يتغزل في بدرية ويورى في كلمة « البادى » :
وبى من البدو كحلاء الجفون بدت في قومها كهواة بين آساد
فلو بدت لحسان الحضرة لها على الرؤوس وقلن الفضل للبادى^(٣)

(٢) التأهيل : باب الاستعارة .

(١) تأهيل الغريب باب المديح .

(٣) التأهيل باب غزل التورية .

ولنجير الدين بن تميم يصف وردة مبكرة :

سبقت إليك من الحداث وردة وأنتك قبل أوانها: تطفيلاً
طمعت بلثمك إذ رأتك جمعت فمنها إليك كطالب تقيلاً (١)
وله أيضاً يصف الآذريون :

وكان آذريونها في روضة سرج تضيء على صفاء أنهارها
والسرج تخفيها الشموس وهذه سرج تزيد الشمس في أنوارها (٢)
ولنجي الدين بن قرناص يهيم بالرياض :

لم لا أهتم إلى الرياض وطيبها وأعيش منها تحت ظل واف
والزهر يلقاني بشعر باسم والنهر يلقاني بقلب صاف (٣)
ولعلاء الدين الوداعي من خمرياته :

قم هاتهما يا صاح مشمولة تحسبها في الكأس مصباحاً
جسم بلا روح ولاكنها تحدث في الأجسام أرواحاً (٤)
ولسيف الدين بن المشد يصف مطرباً بشبابة :

ومطرب قد رأيت في أنامله شبابة لسرور النفس أهلها
كأنه عاشق وافت حبيبته فضمها بيديه ثم قبلها (٥)

٨ - العبارات والأمثال السوقية

يلوك العامة في لغتهم المعاشية الرتيبة ألواناً من العبارات ، ويرددون

(١) التأهيل باب الربيعيات . (٢) التأهيل باب الربيعيات .

(٣) التأهيل باب الربيعيات ، (٤) التأهيل باب الخمريات ،

(٥) التأهيل : باب ما ورد من التريب في مدح المقتين .

أخلاقاً من الأمثال يعبرون بها أو يضربونها في مناسبات حياتهم ، في منازلهم وفي مجالسهم وفي أسواقهم وما إلى ذلك .

ويكثر منهم تكرر أفعالها واختيارها كلها دعت مناسبة ، وكلها عنت ضرورة ، في حديث أو جدال أو بيع أو شراء أو حفل أو سمر أو نحو ذلك . وقد يكون لها أو لبعضها وقع خاص في النفوس ومحل قبول - وقد يؤدي بعضها معنى لا تؤديه لغة الخاصة بإيجازه ووضوحه .

هذه العبارات والأمثال هي ما نطلق عليه العبارات والأمثال السوقية .

وبدهى أنها من صنع الشعوب غالباً ، أى عوام الشعوب . وأنها كثيراً ما تتغير وتتجدد بتغير الشعوب وتجدد الأجيال .

وفي الشعوب العربية صارت هذه العبارات والأمثال السوقية عامية منذ أمد بعيد . بل أصبحت غارقة في العامية وإن كانت محرفة عن الفصيحة ، أو يمكن تفصيلها بشيء قليل أو كثير من الإعراب . وربما صارت مبتذلة بكثرة استعمالها لدى العامة ، فأصبح الخواص والفصحاء ينظرون إليها نظرة شذراء ، ويأنفون من التعبير بها واصطناعها في أساليبهم سواء في النثر كان ذلك أم الشعر . ويسمو بعضهم عنها إلى أفق أعلى فيه الفصاحة والجزالة .

في حين أن بعض الخواص والفصحاء هؤلاء ، يرى أحياناً في بعض هذه العبارات والأمثال ملاحظة ، أو تضطره مناسبة ، فيستعملها بين كلامه . فينصب بذلك لنفسه شركاً يقع فيه ، يتصيد من خلاله النقد وحفاظ الفصيحة . مع أنه يفصحها قبل استعمالها ويضنى عليها ثوباً من الإعراب . وإن لم يستر هذا الثوب عاميتها .

والشعب المصرى في عصر المماليك كانت لغته في مخاطبه ، العامية المحرفة عن الفصيحة ، التى بها لوثه من التركية . وكانت - ولاريب - ملأى بالعبارات والأمثال السوقية .

ولمكننا لا نستطيع أن نحكم حكماً قاطعاً على عبارة معينة أو مثل معين ،
بأنهما من وضع عصر بعينه ، إذ ليست لدينا نصوص تاريخية ولا صوتية كافية
تمدنا بالدليل القاطع في هذا الموضوع .

غير أننا على ضوء ما نعرفه من عامة زماننا ، وقياساً على ما نفهمه من
عباراتها وأمثالها ، نستطيع أن نحكم على عبارة ما ، أو مثل ما ، وردا في نص
من أحد العصور ، بأنهما كانا حينذاك عامين أو سوقيين .

وعلى هذا الأساس نستطيع القول إنه ما من شاعر من شعراء العصر
المملوكي إلا والتاث شعره بعبارات عامة وأمثال سوقية كثيرة . وندر أن سلم
أحدهم من العيب جملة . .

ونقول « هذا العيب » ، لأننا من أنصار الفصحى ومن المتعصبين لها والحريصين
عليها ، والداعين إلى استخدامها حتى في لغة التخاطب والمحادثة . . .

غير أن ذلك لا يمنعنا تعليل هذه الظاهرة - ظاهرة بروز العامة في الشعر
الفصيح - بتعليل مقبولا مستساغاً ، فيه عدل وإنصاف ، لا ظلم وإجحاف .
ويكون هو التعليل الحق الذي لازيف فيه ولا باطل .

ذلك لأن بعض النقاد ينعى على الشعراء ، استخدامهم شيئاً من عامى عصرهم ،
وينسب ذلك إلى ضعف ثقافتهم ، وضيق معجمهم اللغوى ، وقرب أفقهم الأدبي
حتى إن من بينهم شعراء أميين لا يقرءون ولا يكتبون . . .

وليس استعمال العامى دليلاً على ذلك ، ومن الحق أن نتم شعراء فحولا
محبدين أمثال شهاب الدين الحلبي ومحيي الدين بن عبد الظاهر ، وشهاب الدين بن
فضل الله العمرى ، وجمال الدين بن نباتة المصرى ، وصلاح الدين الصفدى ، وتقى
الدين بن حجة الحموى ، بضعف الثقافة أو ضيق المعجم أو بغيره . وما منهم إلا
وفي شعره عبارات وأمثال سوقية .

وإذا كان من بين شعراء العصر أميون ، فلا طعن على شاعريتهم من هذه الناحية . لأن الأمية لا تكبت الشاعرية . ولأن شعراء الجاهلية كانوا أميين ، ولم يطعن فيهم طاعن ، لأميتهم وقد ألمعنا إلى ذلك .

والتعليل الذى ندين به ، أن شعراء العصر نشئوا فى بيئات شعبية ، وهى بيئات عاشت أكثر حياتها فى شبه عزلة وانقطاع عن البيئة الحاكمة المستعيلة . ولم تكن سياقات الحياة - لكثير من هؤلاء الشعراء أن يعيشوا بعيدين عن بيئات الشعب وعوامه . فلا غرابة أن تأثروا بعباراتهم وأمثالهم ، ورسخت هذه العبارات والأمثال فى ألسنتهم وجرت فى منطقتهم . وتهاووا إليها فى شعرهم الفصيح تأثرا بذلك أو تفكها بها واستطابة لها ، وليسكنوا أدنى ، باستخدامها ، إلى نفوس العامة وقد استخدموها بعد تفصيحها .

لقد استطاع الشعراء بذلك أن يكونوا ، فى أساليبهم ، أدنى إلى تمثيل جمهورهم وأدل على بيتهم ، من كثير من شعراء العصور الأدبية الأخرى .

والآن نسوق إليك نماذج مما وقع للشعراء من عبارات وأمثال سوقية . فمنها :

ما نظمه الشاعر على بن برد بك . فى صديقه بدر الدين الدميرى ومحمد بن يوسف المتوفى عام ٨٨٧ هـ ، موريا عن دكتكوت ، ، وهو لفظ كان يطلقه الناس على الدميرى المذكور . قال :

إن الدميرى صديقى فلا أسمع فيه قول واش ولاح
ولا أرى كالغير تقيحه بل هو عندى من ملاح الملاح
والنسكة واللفظ العامى فى قوله « ملاح الملاح » أى من النسكة تكبت .

و « ملاح الملاح » ، نداء ينادى به باعة « الكيتا كيت » ، عليها . ولا يزال نداء مستعملا في هذا المعنى حتى يومنا .

وما نظمه الكاتب المنشئ الكبير والشاعر البارع القدير محيي الدين ابن عبد الظاهر :

يارب كأس صرت من شربها من بعد رشف ريق معشوق
ملتب الأحشاء نارا لأن شربتها منه على الريق^(١)
والشطر الثاني تعبير عامي ويتضمن تورية لطيفة . ويقصد به أنه شرب
الكأس بعد رشف ريق معشوقه ، وكان الريق أحلى وأعذب وأجمل إطفاء لنار
الأحشاء من الكأس - أما المعنى العامي وهو غير المراد فإنه شربها قبل أن يطعم
شيئا . والتعبير المذكور هو « شربها على الريق » .

وما نظمه جمال الدين بن نباتة في الشكوى :

قل عوفى على الزمان فأصبحت صبورا على مراد الزمان
حابس اللفظ واليراع عن الناس فلا من يدى ولا من لسان^(٢)
وفي الشطر الثاني عبارة عامة وهي « لا من يدى ولا من لسان » ومعناها
ضعيف الحيلة . ويريد بها أنه لم يعد يصل إليهم من يده مكاتبة ولا من لسانه
حديث . وفي البيت لف ونشر ، وفيه اكتفاء أيضا .

وما نظمه شمس الدين بن دانيال الموصلى في شكوى حظه ، ويذكر أنه باع
حماره وعبدته معا ، فأصبح بذلك فقيرا لا يملك شروى نقيير ولا قطمير . قال :

(١) خزانة الأدب ص ٢٥٥ .

(٢) ديوان ابن نباتة ص ٥٣٦ ،

ما عاينت عيناى فى عطلقى أقل من حظى ومن بختى
قد بعث عبرى وحمارى وقد أصبحت لافوقى ولا تحنى (١)

والبيتان معا ، شربان بروح العامية . ولا سيما قوله : أصبحت لافوقى
ولا تحنى ، فهى عبارة عامية لا تزال تتردد فى العامية حتى يومنا هذا . يعبرون
بها عن نفاذ المال والجاه .

وفى البيت الثانى لف ونشر ، وفيه اكتفاء أيضا . وفيه مجانة يفتن
إليها اللبيب . . .

وما نظمه زين الدين بن الوردى متغزلا فى « تاجر مليح » :

وتاجر شاهدت عشاقه والحرب فيما بينهم سائر
قال : علام اقتتلوا هكذا قلت : على عينك يا تاجر (٢)

والبيت الثانى عامى التعبير وذلك فى قوله : « علام اقتتلوا هكذا » . وفى
قوله : « على عينك يا تاجر » ، ولا تزال عوام بلادنا ترددها حتى اليوم . والعبارة
الثانية حملها الشاعر بما مهد فى البيت الأول ، تورية معناها القريب « صراحة
وعلى المكشوف دون موارد وخفاء » ، والمعنى البعيد المراد « بسبب عينك
الساحرة أيها التاجر المليح ، وما فيها من فتنة » .

وما نظمه صلاح الدين الصفدى يصف جرة خمر :

وجرة قدموها تنفى الهموم الحزينة
بسكر عروس جملوها والراح فيها كمينه

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٣٩ .

(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٤٧ وديوان ابن الوردى .

شممت طينة فيها فرحت سكران طينة (١)

وقوله : « سكران طينة » ، تعبير عامي تستعمله العامة حتى اليوم ، ومعناه « سكران جداً » ، وتدل على المبالغة في السكر لكثرته أو أصالة الخمر . ومهد له . الشاعر بقوله « شممت طينة فيها » ، فحملته التورية .

وما نظمه زين الدين بن الوردى أيضاً في لاميته المشهورة :

واهجر الخمرة إن كنت فتى كيف يسعى في جنون من عقل (٢)

وعبارته « إن كنت فتى » ، عامية إذ يريد بها بالضبط معنى العبارة العامية « إن كنت جدع » . أى شهما عاقلاً ، وذلك بدليل الشطر الثانى .

وليس من معانى « الفتى » ، الشهم أو العاقل ، إلا بتجاوز أو لزوم . والفتى هو الشاب السخى الكريم ، والفتوة الكريم .

والذى أبرز عامية التعبير هنا . وضع العبارة في صورة الشرط . فإن الشاعر شرط هجر الخمرة بحالة الفتاء . وهى حالة موقوتة . والشاعر — ولا ريب — يريد بها نصيحة غير موقوتة . ومن هنا فسرنا قوله « إن كنت فتى » ، بمعنى « إن كنت جدع » ، العامية . فهى مرادفة لها .

وما نظمه ناصر الدين بن النقيب يشكو نحول جسده :

يقول جسمى لنحولى وقد أفرط فى فرط ضنى واكتئاب

فعلت بى يا سقم مالم يكن يلبس والله عليه الثياب (٣)

وقوله : « يلبس عليه الثياب » ، تعبير عامي شائع تردده النسوة بمعنى « لا يطاق ولا يحتمل » ، وحماتها الشاعر تورية ، والمعنى البعيد المراد « النحول » ، فاسقم أنحل جسده حتى أصبح غير صالح لحمل الثياب .

(١) تأهيل الغربى ص ١٣٠ ورياض الألباب لشمس الدين - مخطوط بمكتبة الأزهر ورقة رقم ٧٩

(٢) ديوان ابن الوردى ولاميته ، (٣) فوات الوفيات ج ١ ص ١٥٣

وما نظمه أيضاً جمال الدين بن نباتة متغزلاً :

سألت النقا والغصن يحكى لناظري روادف أو أعتاف من زاد صدها
فقال كثيب الرمل ما أنا حملها وقال قضيب البان ما أنا قدّها (١)

وفي البيت الثاني توريثان هما : « ما أنا حملها ، و « ما أنا قدّها » ، وهما تعبيران عاميان ، الأول بمعنى « لا أستطيع مجاراتها ومنافستها » . والثاني بمعنى « لست مثلها » . وهما متقاربان في المعنى أو لازمه .

وقد استخدمها الشاعر بلباقة وبراعة ورعاية نظير جيدة . فقد قدم لذكر « الحبل » بذكر « كثيب الرمل » وهو مناسب له . وقدم لذكر « القد » بذكر « قضيب البان » وهو مناسب له أيضاً . ومراده بالقد الجسم وطوله وامتداده .

والمعنى : ما حملى كحملها في ضخامته ولينه وما قدى كقدّها في طوله وامتداده واستقامته .

ولصنى الدين الحلى في معرض الغزل ، يصف الصباح :

والصبح قد أخلقت ثوب الدجى يده وليتـه جاء للعشاق بالخلق (٢)
وفي الشطر الثاني تعبير عامى . وقد مهد له الشاعر تمهيداً سائغاً ، وهو قوله « أخلقت » في الشطر الأول ، ومراده بالعبارة « لبت الليل جاء بأثواب خلقة ستر بها العشاق » .

وما نظمه شهاب الدين بن أبى حجلة المغربي ، يهجو صلاح الدين الصفدى لسرقاته الشعرية :

إن ابن أيبك لم تزل سرقانه تأتي بكل قبيحة وقبيح
نسب المعاني في النسب لنفسه جهلا فراح كلامه في 'الريح' (١)
والتعبير العامى هو قوله : « فراح الكلام في الريح » ، ومعناه أنه ذهب عبثاً
دون جدوى وتطايير ولم يثبت . وفيه تورية . والمعنى القريب أنه أراد أن يصف
النسب فوصف الريح ، فكأنه لم يوفق في وصفه .
والذى أكسب التعبير قوة التورية ، هو المعنى العامى الذى يحمله .

وما نظمه سراج الدين الوراق يتغزل :

ومفهم عنى يميل ولم يمل يوماً إلى فقلت من ألم الجوى
لم لا تميل إلى يا غصن النقا فأجاب كيف وأنت من جهة الهواء (٢)
وشاهدنا في قول الشاعر : « أنت من جهة الهواء » . وهو تعبير عامى ،
معناه هنا : أن عاشق الغصن يقف في مكان يمر به الهواء أولاً ، ثم يمر على غصن
النقا فيميله بعيداً عن عاشقه ولا يمكن أن يميل الغصن إلى عاشقه أو مخاطبه ،
وهو بهذا الوضع .
وفي التعبير تورية . والمعنى القريب هو ما أشرنا إليه ، والبعيد أنه من جهة
الهرى - لا الهواء - أى من جهة العشق والحب ، لذلك فهو يتأبى على
الميل إليه . .

وما نظمه برهان الدين القيراطى فى شكوى الهجر :

يا هاجراً أوقعنى هجره وصده فى حالة صعبة
أخذت قلبى بالتجنى وما تركت لى منه ولا حبة (٣)

(١) خزنة الأدب باب التورية وباب السرقات . (٢) خزنة الأدب باب التورية .
(٣) تأهيل الغريب ص ٧٣ .

وفي عجزى البيتین عبارات عامية . وفي قوله « حبة » تورية ، يريد حبة القلب
وسوبداه . وری عنها بمعنى « حبة » وهو « قليل » .

وما نظمه ناصر الدين بن النقيب :

ودعهم ثم انثيت بحسرة تركت معالم معهدى كالبلقع
ورجعت لا أدري الطريق ولا تسلى رجعت عداك المبعضون كرجعى (١)
والشطر الاخير مفصح العبارة العامية « رجعت رجعة الاعادى » . ومعناها
أنه رجعت فى حالة يرثى لها كما يرجع الاعادى المهزومون . أو كما ترجو أن يرجع
أعداك . - وفى شطر البيت دعاء على الأعداء .

وما نظمه شرف الدين البوصيرى صاحب البردة . وذلك فى قصيدته التى يشكو
فيها إلى أحد الوزراء حال أسرته :

فى قلة نحن ولكن لنا عائلة فى غاية الكثرة
أحدث المولى الحديث الذى جرى لهم بالخيط والإبرة (٢)
والبيتان - بل والقصيدة - تتراءى فيها عامية التعبير . وتبدو فى البيتین
فى قوله « فى غاية الكثرة » بمعنى كثيرة العدد جداً . وفى قوله « جرى بالخيط
والإبرة » أى جميعه . ولا يزال عوام بلادنا يستخدمون هذا التعبير - أو بالخيط
والخياط - فى المعنى نفسه .

وما نظمه شمس الدين بن دانيال الموصلی فى إحدى قصائده المأجنة :

وإذا ما خلوت فى خلوة المسجد قل للضيوف : عندى ضيوف (٣)

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ١٥٤ .

(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ٥٥٨ ، (٣) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٣٩ .

والعامية بادية في قوله : « قل عندى ضيوف » .

وما نظمه جمال الدين بن نباتة في آخر قصيدة إلى صفي الدين الحلبي في المعاتبة الإخوانية :

زوجتنا حماة نعى يديه فغدا كلنا يحب حماته (١)

والعامية بادية في قوله : « يحب حماته » . وقد أخرجها مخرج التورية : والمعنى البعيد اسم المدينة « حماة » .

وما نظمه شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي :

لئن سددت باب العتق عني بما أبديته فالله يفتح
وإن ألمحت يوما ما بذنب فثلك من يرى ذنبا ويصفح (٢)

والعبارة العامية قوله « فالله يفتح » . وهي كثير الاستعمال في الأسواق ومقامات البيع والشراء ، وتحمل معنى « الرفض وعدم الرضا » . وهي تحمل هنا تورية . ومعناها الغريب أن الله يفتح باب العتاب ، ورشحه بقوله « سددت باب العتب » . والمعنى البعيد المراد هو ما أشرنا إليه أولا . وقد حملها التورية المعنى الذي تستعمل فيه في العامية .

وما نظمه صلاح الدين الصفدى يتغزل :

أنفقت كنز مدائحى فى ثغره وجمعت فيه كل معنى شارد
وطلبت منه جزاء ذلك قبلة فأبى وراح تغزلى فى البارد (٣)

(١) ديوان ابن نباتة ص ٢٣ .

(٢) ديوان ابن أبي حجلة المغربي - مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٣) تأهيل الغريب ص ٨٤ .

والشاهد في قوله : « راح في البارد » ، وهو تعبير عامي معناه « ذهب بغير فائدة بدون جدوى » ، — وفي رأينا — أن هذا المعنى هو المعنى المراد من التورية بهذا التعبير — والمعنى الآخر أن تغزله انحصر في ثغر حبيبه العذب البارد . ويمكن أن يحمل لفظ « راح » ، معنى استمر واطرد ، ومعنى ذهب ولم ينفع .

وما نظمه بدر الدين بن الصاحب برد على لاثم ويتغزل فيه :

ولا ثم زاد لوما في أسود أشتهيه

وقال : أسود تهوى فقلت : عيناك فيه (١)

وقوله : عيناك فيه ، تعبير عامي . ومعناه « أنك تشتهيه . أو أنك تحسده » . وورى به عن معنى آخر وهو أن عيني اللاثم سوداوان ، افتقل سوادهما إلى هذا الأسود ، فزينه وجمله وحبيه — وهو تعليل لطيف .

وبعد فذه أمثلة متعددة — وهناك أمثلة أخرى كثيرة — تدل على مدى ما كان في الشعر الفصيح من عبارات وأمثال عامية .

ونحن — كما أشرنا — فنظر إليها ، أو إلى ظاهرتها هنا ، من زاوية معينة . أعني من ناحية دلالتها على مدى تأثير شعراء الفصيحة بعامة زمانهم ، ومدى تأثير هذه العامية وسلطانها على هؤلاء الشعراء .

وباستجابة الشعراء لهذا التأثير وانصياعهم له ، وإنتاجهم بوحى منه ، عاونوا على إبراز إقليمية الشعر بصورة أخرى وبمظهر جديد

ونحن نرى أن هذه الإقليمية التي أخذت تبدورويدا رويدا في الأدب العربي المصري ، منذ زمن بعيد ، قد لمعت وبرزت وقويت في هذا الأدب ، وفي هذا العصر الذي نورخه .

وما ظهور الأمثال السوقية والعبارات العامية فيه حينذاك ، وفي هذا النطاق
الواسع إلا برهان قوى على توطد هذه الإقليمية وهي بروز خصائص الإقليم
في أدبه ، وبها يتميز عما عداه من آداب الأقاليم الأخرى .

على أن لهذه الأمثال والعبارات السوقية المترددة في الشعر الفصيح ، أو في
الأدب بعامة ، دلالة أخرى تبين لنا طرفا من ارتباط لغتنا العامية الحاضرة بلغة
آبائنا وأجدادنا العامية ، ومدى تطور هذه العامية ونحوها حتى وصلت إلينا .
وكذلك تفصح عن طريقة تصورهم للمعاني وتصويرهم لها ، وعلى قدرتهم في
استخدام الأساليب المختلفة في المناسبات المتعددة . ثم على مبلغ نصيبنا نحن
من هذا كله ، ومبلغ الارتباط بيننا وبينهم في ذلك ، ومدى تطورنا ونحو لنا في هذا
التصور والتصوير .

٩ — الخروج عن اللغة وكثرة الضرورات الشعرية

والحديث عن الأمثال والتعبيرات السوقية يجرنا إلى ذكر عيب من العيوب
التي لحقت الشعر المملوكي وهو الخروج عن اللغة .
ونقصد به استخدام اللفظ العامي المحرف عن العربية ، واللفظ الدخيل غير
العربي ، واللحن وهو عدم رعاية قواعد النحو ، وعدم التزام الإعراب .
وكذلك الانحراف عن الاستعمال العربي الصحيح ، والاشتقاق دون قاعدة
صحيحة . إلى غير ذلك من ألوان الخروج عما تلزمه العربية الفصيحة .

وهذه ظاهرة اتضحت في أشعار الكثيرين ومنهم الفحول . ولدينا عليها
أمثلة وشواهد لا حصر لها .

ونعود إلى القول إن هذه الظاهرة دعت بعض النقاد إلى رمي الشعراء ، بمن
التأت شعركم بهذا العيب أو لم يلتفت ، بضعف الثقافة وضيق الأفق وقلة بضاعتهم

من العربية الصحيحة ، حتى إنهم لم يميزوا بين الفصحى وغير الفصحى . . . إلى آخر
مارددناه في الفصل السابق ، وهو فصل الحديث عن الأمثال والتعبيرات السوقية .
واسننا من أنصار استخدام العامية في الأساليب الفصيحة مطلقا ، إذ أن هذا
— فى رأينا — يشوه جمالها ويغض من محاسنها . وهو خطر إذا استشرى وامتد
قضى على الفصيحة .

لذلك عينا على الشعراء استخدام الأمثال والتعبيرات العامية . ولكننا — مع
هذا — عللنا له ، ونفينا عنهم ما وصوا به من جرائم ، واتخذناه دليلا على تمكن
الصلة بينهم وبين بيئتهم ، وعلى اتجاههم إلى تمثيل بيئتهم فى أساليبها ، إلى آخر
ما تحدثنا إليك به .

ولعل فى جملة الأسباب التى دعمتنا إلى ذلك ، أنهم فصحوا هذه الأمثال
والتعبيرات وأعربوها .

أما أنهم يلحنون أو يضعون اللفظ عاميا أو دخيلا كما جرت به أسنة العوام ،
فهذا مانأباه عليهم ونعيبهم به . ونود لو برئوا منه . وبخاصة فحولهم ، حتى لا يبدو
فى شعرهم — كما بدا — كلفا فى صفحة البدر .

ولكن ينبغى ألا نتخذ هذه الظاهرة دليلا حاسما على الضعف الثقافى أو قلة
البضاعة من العربية الصحيحة . فإن تاريخ بعضهم ونشأته وآثاره الأدبية تكذب
هذا الدليل .

ولنما التأت شعرهم بهذا العيب لشدة انطباعهم بطابع العامة ، وانفعالهم
بانفعالها ، بالإضافة إلى ما أغرموا به من فكاهة أو دعاية أو بجانة أو بديع
وصناعة ، يدفع ببعضهم إلى الخروج عن اللغة والتزاماتها ، ليصل بهذا الخروج
إلى تحقيق هدفه .

ومن اللطائف التى تساق فى هذا المقام ، تصريح جمال الدين بن نباتة المصرى
— وهو فخر زمانه وشاعر أوانه — بتعمد اللحن لتستقيم القافية ، مع التعليل
(م ٣١ - عصر المايك)

الأدبي الطريف حيث يقول لنا في قصيدة نائية جيدة جزلة يرد بها على عتاب
صفي الدين الحلبي :

ساقى الراح بادكار لقاه لا عد منا ذاك اللقا وسقاه
هات كأسى وإن لحنت من السكر فلا تلحنى إذا قلت هاته (١)
وقد لحن في قوله « هاته » بفتح التاء طوعا للقفائية . وهو يعرف أنه يلحن إذا
قال هذا . ويعلمه بسكره . ويعتذر ويطلب عدم اللوم . فلا لوم عليه إذن
ولا تشريب . . .

ومن الشواهد في هذا الباب :

قول إبراهيم المعمار في وصف مغن ومشرب :

مغنى نافسه مشرب لما جلس
فذاك لأن قوله وذا تكلم بنفس (٢)

ترى الشاعر قد أثبت بآء « مغن » وسكن ميم « تكلم » .

وقد علق ابن حجة على هذين البيتين بقوله : « سيكون تكلم يغتفر له . فإن
الجماعة سأمحوه في جميع اللحن لغرابة نكته الأدبية » .

ولم يشر ابن حجة إلى لحن الشاعر في قوله « مغنى » وإنما كنهه نبه إلى أن
المعمار - وهذا طريف - يعرف عن نفسه اللحن ، وأشار إلى ذلك في بيتين
فكاهيين ناقدين، هما :

يقولون هذا ما له عربية وليس نراه للنحاة يحارى
فقلت لهم من أين لى عربية وما فزت في الدنيا بغير حمار (٣)

(١) ديوان ابن نباتة ص ٧٢ قافية التاء .

(٢ ، ٣) تأهيل الغريب : فصل فيما ورد من الغريب في مدحهم « مدح المغنين » .

وقد كان المعيار أمياً ، فله عذره في اللحن . وبدعى أنه كان أمياً لا كأمية شعراء الجاهلية . ذلك لأن أميتهم كانت فصيحة معربة ، وأميته لاجة في العامى والدخيل لفظاً وأسلوباً .

وفي بيتي المعيار دليل ناطق على أن أهل عصره وأدباءه كانوا يؤاخذون الشاعر إذا لحن وخرج عن اللغة .

ومن الشواهد قول نصير الدين الحماي يصف شخصاً ويتفكه :

رأيت شخصاً آكلاً كرشة وهو أخو ذوق وفيه فطن
وقال : ما زلت محباً لها قلت : من الإيمان حب الوطن (١)

واللفظ « كرشة » عامى ، وعربية « كرش » ، على مثال « كتف » .

ومنها قول أبى الحسين الجزار المصرى يصف أحد الأتراك :

وكم قابلت تركياً بمدحى فكاد لما أحاول منه يحنق
ويلطمنى إذا ما قلت « ألطن » ويرمقنى إذا ما قلت « يرمق » ،
وتسقط حرمتى أبداً لديه فلو أنى عطست لقال « بشمق » ، (٢)

والكلمات : ألطن . يرمق . يشمق ، غير عربية فهمى دخيلة .

ومنها قول زين الدين بن الوردى فى ليلة عناق ، وفى صبح حاسد :

قلت : وقد عانقته عندى من الصبح فلق

(١) فوات الوفيات ترجمة النصير الحماي .

(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٩٩ .

قال : وهل يحسدنا قلت : نعم . قال : انفلق (١)
ولفظ « انفلق » عربي فصيح . ولكنه انحرف إلى العامية وأغرق كما هو
بنطقه دون معناه . إذ أصبح معناه « دعاء على الحاسد مثلاً أو العذول والعدو » .
وفي اللفظ هنا تورية معناها « طلع الصبح » وهو غير مراد . والمعنى الثاني المراد ،
هو الدعاء على الحاسد بمعنى « يرن ويطلق » كما يراد في العامية : — والملاحظ أن
لفظ « انفلق » هنا ، بهذا المعنى الثاني ، فعل ماض ، وحقه أن يكون مضارعاً .

ومنها قول شمس الدين الواعظ الواسطي من قصيدة يتذكر فيها أيامه
الماضية :

فله ما أحلى قديم حديثكم وأطيب عندي من عشائي وغدوتي
عسى تسمح الأيام تجمع شملنا وترجع أوطاري ولذتي التي (٢)
حذف الشاعر صلة الموصول في الشطر الأخير بعد قوله « التي » . وهي
لون من البديع في نظره ، وهو الاكتفاء .

ومنها قول زين الدين بن الوردى يهجو ويتفكه ساخرأ من أحد القضاة :
لا تقصد القاضي إذا أدبرت دنياك واقصد من جواد كريم
كيف ترجى الرزق من عند من يفتى بأن الفلس مال عظيم (٣)
وفي الشطر الثاني عدى الفعل « اقصد » بحرف الجر « من » ، وحقه أن
يتعدى بنفسه ولعل الشاعر حذف المفعول به . ومراده : اقصد الرزق أو
المال مثلاً .

(١) ديوان ابن الوردى ص ٢٦٥ ط الجوائب .

(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٦٧ (٣) ديوان ابن الوردى ط الجوائب .

ومنها قول شرف الدين البوصيرى من قصيدته التى ينقد فيها مستخدمى الدراوين فى زمانه :

وأقلام الجماعة جائلات كأسىاف بأيدى لاعبيننا
وقد ساومتهم حرفا بحرف وكل اسم يخطو منه سيدنا (١)
فى الشطر الأخير حذف نون الرفع من « يخطون » بغير ناصب ولا جازم .
وقد ألقاه إلى ذلك الضرورة الشعرية .

ومنها قول الشاعر الكبير جمال الدين بن نباتة فى المديح :

أخذ الإمام مديحى فى كل صاحب رتبة
قاضى القضاة الملبي تاج السراة الالبة (٢)
جمع الشاعر « لبيب » على « ألبة » وصوابه « الالباء » .

ومنها قول مجير الدين بن تميم يصف النرجسة :

شبهت نرجسة أهدي إلى بها خلى وقد جئت فى التشبيه بالعجب
كفها من الفضة البيضاء ساعدها زمرد وسطه كأس من الذهب (٣)
الشاهد فى قوله « أهدي إلى بها » وصوابه « أهداها إلى » .

ومنها قول ناصر الدين بن النقيب فى وصف الحرب :

ولما تراءينا الفرات بخيلنا سكرناه منها بالقوى والقوائم
فأوقفت التيار عن جريانه إلى حيث عدنا بالغنى والغنائم (٤)

(٢) ديوان ابن نباتة ص ٥١ ، ٥٢

(٤) فوات الوفيات ج ١ ص ١١١

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٥٧

(٣) تأهيل الغريب ص ١١١

الشاهد في قوله « تراءينا الفرات » عدى الفعل ، وحقه أن يتبعه الجار فيقول :
تراءينا على الفرات ، ، وقد يكون الشاعر ضمنه معنى « قابلنا » المتعدى ، وهو
بعيد . — وهذا وذاك ضرورة لجأ إليها الشاعر .

وقوله : « سكرناه » بفتح السين والسكاف ، معناه « سددهناه » وإذا كان من
السكر ، فهو لازم ويكون الشاعر قد عداه إلى المفعول . وهي ضرورة أخرى .

ومنها قول صدر الدين بن الوكيل المصرى في إحدى خمرياته في سياق وصف
الكأس :

وإن أقطب وجهها حين تبسملى فعند بسط الموالى يحسن الأدب
عاطيتهما من بنات الترك عاطية لحاظهما الأسود الغلب قد غلبوا (١)
في الشطر الأول حرك باء « أقطب » مع أنها مجزومة بإن الشرطية . وهو لحن
أجأته إليه الضرورة . وفي قوله « غلبوا » عدى الفعل بحرف الجر فقال قبله
« للأسود » . وفيه وار الجماعة تعود على غير العاقل .

ومنها قول اتقى الدين بن حجة الحموى في سياق لغزه عن « نصب السكر » :
منعمة نهاء ممضومة الحشا تسكاد بأن تنقد من رقة الخضر (٢)
زاد الشاعر باء الجر في خبر كاد ، وهي ضرورة .

ومنها قول صفي الدين الحلى في قصيدة عتاب إلى ابن نباتة ، ويمدحه :
وهبتسه العلياء هممة قلب ظهرت من شوائب العيب ذاته (٣)

(٢) تأهيل الغريب ص ٨٩

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٣١٧

(٣) ديوان الحلى حرف الناء باب الإخوانيات ،

وصوابه « وهبت له » .

ومنها قول سراج الدين الوراق يهني برهان الدين الخضر بن الحسن
السنجاري باستقراره وزيرا للديار المصرية .

تمن بخلعة لبست جمالا بوجه منك سمح يجتلوه
وقال الناس حين طلعت فيها أهذا البدر قلت لهم : أخوه (١)
حذف نون الرفع في قوله « يجتلوه » بدون مناصب أو جازم .

ومنها قول تقي الدين السبكي في سياق قصيدة أجاب بها على سؤال عن السماع
والغنية - عند المتصوفة على ما يبدو - قال :

والعارف المشتاق إن هو هزه وجد فقام يهيم في سكرات
لا لوم يلحقه ويحمد حاله ياطيب ما يلقي من الذات
إن نلت ذا يوما فقد نلت المنى وغنيت فيه عن فتارى الفانى (٢)
والشاهد في قوله « الفانى » صاغه من الثلاثي ، وحقه من الرباعي
فيقول « أفنى » .
هذا والأمثلة كثيرة .

وقد رأيت فيما سبقناه من الأمثلة أن الشاعر أحيانا يخرج عن اللغة والنزاهات
بدافع ضرورة الشعر ، فيلجئه الوزن إلى زيادة حرف جر ، أو تعدية بغير
الجار ، أو حذف نون الرفع ، أو نحو ذلك .

والضرورات الشعرية تسوق أحيانا إلى مد المقصور ، أو قصر الممدود -

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤١ .

(٢) طبقات الشافعية للتاج السبكي ج ٦ ص ١٦٣ .

مثلاً — أو إلى صرف الممنوع من الصرف ، أو منع ما يصرف ، أو تحريك المجزوم ، أو نحو ذلك . وهذه ضرورات مبااجة ، ولا تعتبر خروجاً عن اللغة أو التزاماتها .

ومن الضرورات أيضاً زيادة الظروف وألفاظ القسم والتوكيد والشرط والأمر مثلاً دون غاية بلاغية . وهى عيوب فى الشعر وأسلوبه وليست خروجاً عن اللغة والتزاماتها .

وقد وقعت هذه الضرورات فى الشعر المملوكى . وهى فى جملتها عيوب فى الشعر ، وإن لم تكن كلها خروجاً عن اللغة كما أشرنا .

على أن العروضيين أباحوا للشعراء أن يلجئوا إلى الضرورات — إذا احتاج الأمر — بشرط ألا تكون خروجاً عن اللغة ، وبشرط عدم الإكثار منها والاعتدال عليها .

ومن لطيف ما نظمه الشاعر المصرى الكبير ابن نباتة فى هذا المعنى قوله :

قالوا عهدناك ذا شعر نلذ به ما باله قد تولى حسنه الآتى
فقلت من كثر ما أشكو به ضررا والشعر يفسده كثر الضرورات (١)

ومن شواهد الضرورات الشعرية :

قول نور الدين الإسمردى فى قصيدته الماجنة التى يفضل فيها الخمر على الحشيش :

فدع رأى قوم كالذباب ولا تدر سوى درة كالأكوكب المتوقد
دعاه الوزن إلى عدم تشديد باء الدواب ، وهى جمع دابة .

وقول ابن نباتة في غزله :

رب ليل زار فيه قر خده المحمر بالأقار شامت
ذو نطاق وسوار لم يدع ناطقا غيرهما عندى وصامت^(١)
سكن التاء في وصامت ، للضرورة . وحقه النصب .

وقول ابن نباتة أيضاً :

حبى له حب الشنا اعليه هذا لعمر أبيك مع هذا فشا
قاضى القضاة وإنما لمكانة خطبت تقاه كما نشأ وكما يشا^(٢)
في البيتين عدة ضرورات منها حذف همزة : الشنا . ونشأ ويشا . ومنها أيضاً
القسم في قوله « لعمر أبيك » .

وقول شمس الدين الخياط « محمد بن يوسف » من قصيدته التي مدح بها
كمال الدين بن الزملكاني ويعارض تائبة ابن نباتة في مدحه :
عن منظر الروض يقنعني القريض وعن رقص الزجاجات تلهبني الحرات
عشوت منها إلى نور الكمال ولم يرد على خاطري دير ومشكاة^(٣)
الفعل « يقنعني » مرفوع وينبغي تحريك العين فيه بالضم . فسكنها الشاعر
للضرورة . فالبحر بسيط .

وقول بدر الدين بن الدمامني في سياق قصيدة ألغز بها في « قربة » :
تشددّ وكم في الأرض قار أماها وصدق إذا ما قيل تملى وتكتب

(٢) ديوان ابن نباتة حرف الشين .

(١) ديوان ابن نباتة ص ٧٨

(٣) طبقات السبكي ج ٥ ص ٢٠٥ .

وانفظ « قار » هنا اسم فاعل من قرأ ، سهلت همزته وعومل معاملة المعتل .
فاشتق منه اسم فاعل عومل معاملة المنقوص .

وقول تقي الدين السبكي مر قصيدة ينصح فيها ابنه الأكبر :
واخش المهيمن وأت ما تدعو إليه وانتهى عما نهى وتزهّد (١)
والشاهد في قوله : « وانتهى » أثبت فيه حرف العلة - وهو الياء - مع
أنه فعل أمر مبني على حذف حرف العلة .

الأوزان والقوافي وما يتصل بها

من المناسب أن نختم هذا الباب بحديث وجيز عن الأوزان والقوافي
وما يتصل بها ، لما لها من الصلة الوثيقة بأساليب التعبير ، فهي - في الواقع -
وعاؤها وإنائها . وهي - في الحق - الأسلوب الأول للشعر ، والقالب
الأساسي الذي على مقداره تصب الأساليب والتراكيب ، وبه تكتسب نصيباً
وافراً من الموسيقية التي لا طعم للشعر بدونها .

المطولات والمقطوعات :

وقبل أن نتحدث في صميم الموضوع يجب أن نشير إلى مطولات الشعر
ومقطوعاته ، وهي تمت إليه متاناً تاماً وبخاصة إلى القوافي .

وقد لاحظنا في استقراءنا لشعر هذا العصر ، أن الكثير من شعرائه قصائد
مطولة تعد أبيات كل منها بالعشرات بل بالمئات أحياناً . وبينها الكثير
المبني على قافية واحدة . طرّقوا بها أغراض الشعر وأبوابه مع المحافظة على

مستوى الأسلوب ، في الجملة . وهذا دليل بارز على طول نفوسهم وتمسكهم من صناعاتهم وأصالة فهم وواسع ثقافتهم .

ومن مطولانهم : بردة البوصيرى ، والبديعيات التى عارضتها . وتزيد أبيات كل بديعية على المائة . ومنها قصيدة « مصائد الشوارد ، أو « نظم السلوك ، لجمال الدين بن نباتة . وهى أرجوزة فريدة وصف بها الصيد والغنص فى وديان حماة ، وتقع فى أكثر من مائة وستين بيتا . وتائيتها فى مدح كمال الدين بن الزملى كانى وهى من أروع قصائده ومن أجود الشعر ، وتقع فى نحو مائة وعشرة أبيات . ولفخر الدين بن مكائس قصيدة جيدة فى وصف سرحة الليل فى نحو ستة وخمسين بيتا . وللشباب الظريف قصيدة فى مدح القاضى محيى الدين بن النحاس فى نحو ستين بيتا . ولصفي الدين الحلى عشرات القصائد المطولة مثبتة فى ديوانه ، ولتقى الدين حجة الحموى فى مدح المؤيد شيخ ، ومدح الناصرى بن البارزى عدد من المطولات .

ولا ننسى فى هذا المقام منظومات حقائق العلوم فقد بلغ بعضها مئات الأبيات .

أما المقطوعات فقد راجت فى هذا العصر رواجاً عظيماً ، وأقبل الشعراء على نظمها إقبالاً ملموساً . بدافع حبهم لأصباغ البديع وصناعة التشبيه والتورية ، وبدافع حب الوصف والتصوير . فتنى سنحت لهم لفظة ينسبك معها لون بديعى أو يحلو به مجاز طريف أو تشبيه مبتكر ، عجلوا إلى نظمها فى البيت أو البيتين مثلاً . وأذكى بينهم هذه العجلة حب الابتكار والإبداع ، ورغبة المنافسة والتفوق ، والميل إلى التلهى والتسلى والمداعبة والمماجنة .

لهذا كله تعتبر مقطوعاتهم مجلى واسعا لفنيتهم الأصلية ، ودليلاً عليها وعلى حضور بديعتهم وحسن إيجازهم ودوام اتصالهم بصناعاتهم وانشغالهم بها .

لقد قيدوا بهذه المقطوعات خواطر شاردة وأخيلة كثيرة عابرة . ومعاني
عدة جديدة . وطرقوا بها أبواب المجون والفكاهة والغزل واللغز وغيرها .

ومن أخبار المقطوعات وأنباء رجالها أن « زين الدين بن الوردى » له كتاب
« الكلام على مائة غلام » ، وبه مائة مقطوعة لطيفة . وكتاب « الدرارى السارية
فى مائة جارية » ، وبه مائة مقطوعة أخرى .

وروى فى تاريخ الشاعر « زين الدين بن الرعاد » أن له مقطوعات كثيرة
نقل منها أبو حيان فى كتابه « مجانى العصر » .

ومن شعراء المقطوعات « بدر الدين بن الصاحب » ، فقد روى أنه أجاد
المقطوعات وأكثر منها وأفرد لها ديوانا خاصا سماه « مقطعات النبل » .

ومنهم « شهاب الدين بن المطار » ، و « أحمد بن مسعود » و « تقي الدين السبكي »
و « شمس الدين الدمشقي » .

وما من فحل من فحول شعراء العصر إلا وله عدد كبير من المقطوعات .
ومنهم : الجزار والوراق وابن النقيب وابن عبد الظاهر وابن نباتة والصلاح
الصفدى والتقى بن حجة وابن أبي حجلة والعلاء الدواعى والفخر بن مكائس
والبدر الدمامبى والبرهان القيراطى والشاب الظريف وسراج الدين المحار وغيرهم .

ونسوق إليك أمثلة من هذه المقطوعات :

من مفاكمات صنى الدين الحلى ومجاءته قوله :

وليلة زارنى فقيهه	فى رشدہ ليس بالفقيهه
رأى ييمناى كأس خمر	فظل ينأى ويتقيه
فقلت : هلا فقال كلا	فقلت لم لا فقال إيه

ما ذاك فني فقلت عدل أنزه السكاس عن سففيه (١)

ومن اقتباسات الشباب الظريف وجناساه قوله :

كيف يذوق عاشق	حلاوة في صبره
فأعجب لنور زهره	وأعجب لنور زهره
يا عاشقين حاذروا	من غدره ومكره
وطرفه الساحر مذ	شكركم في أمره
يريد أن يخرجكم	من أرضكم بسحره (٢)

ومن اقتباسات علاء الدين الوداعي ومطابقاته قوله :

الزهر في الأكام راح مقطباً والريح قد خطرت عليه بذيلها
وغدت تبشره بإقبال الحيا حتى تبسم ضاحكا من قولها (٣)

ومن مراجعات سراج الدين الوراق وتوريمته بلبقه قوله ، وقد علاه الشيب :

وقالت ياسراج علاك شيب فدع لجديده خلع العذار
فقلت لها : نهار بعد ليل فما يدعوك أنت إلى النفار
فقلت : قد صدقت وما علمنا بأضيق من سراج في نهار (٤)

ومن تشبيهات سراج الدين المحار ، يصف قنديلا ، قوله :

يا حسن بهجة قنديل خلوت به والليل قد أسبلت منا ستاره
أضاء كالسكوكب الدرى متقددا فراق باطنه نورا وظاهره

١- ديوان الصفي الحلي ط بيروت ص ٣٣١ ٢- ديوان الشباب الظريف ص ٣٨

٣- الوفيات ج ٢ ص ١١٢ ٤- فوات الوفيات ج ٢ ص ١٣٥

تزيده ظلمة الليل البهيم سنا كأنما الليل طرف وهو باصره (١)
ومن تضمينات ابن نباتة واكتفاءاته ، قوله يتغزل ويمدح ابن العديم :
جن الدجا واشتقت حسنك وقرعت يا ذا العذل سنك
يا عاذلى فى الحب أو يا ليل سهدى ما أجنك
عشقى كجور ابن العديم م نخل فى السلوان ظنك
قاضى القضاة أختا التقي لا يعدم الطلاب منك
أكدت فى فى الثنا . وفى الندى والعلم فنك
فالناس تعلم أننى فى النظم أر فى الفضل أنك
فلاشكرنك ما حييت م وإن أمت فلتشكرنك ، (٢)

الأوزان القديمة :

وقد بان لنا من ترادف الأمثلة والشواهد أن الأوزان القديمة المعروفة ،
كانت - فى الغالب - قوالب الشعر وموسيقاه الملتزمة . سواء أكان ذلك فى
مطولاتهم أم مقطوعاتهم . وعلى نمط مما ورثوه عن أسلافهم .
وبنسبة ما نظم الأفدهون من كل بحر ، نظموا هم أيضاً ، على وجه التقريب .
فكانت كثرة نتاجهم من الطويل والكامل والبسيط والرجز والوافر والرمل ،
فالمتقارب والسريع والمنسرح والمجثث ، فغير ذلك من بحور الشعر .
نظموا من هذه البحور كاملة ومجزوءة ومشطورة .
ولنضرب لك أمثلة من شعر شاعر واحد هو جمال الدين بن نباتة ، مكتفين
به عن سائر الشعراء فى هذا المقام .
فمن الطويل قوله مهنتاً بقدم من الحجج :
قدمت قدوم الغيث والحى مجذب وعدت كعود البدر والأفق غيب

وسرت بك الأوطان فالغصن شاخ دلالة على الأنهار والروض معجب
ومن الكامل قوله متغزلا في صدر مدحة :

شب الحشا قول الكواعب شبا واهلن كواعبا وشبابا
ومضى الصبا ومن التصابي بعده صيرت للدماء خضابا
ومن البسيط قوله يخاطب دار لوه ، في صدر مدحة :

سقى حمك من الوسمى باكره حتى تبسم من عجب أزاهره
يا دار لوى لا واش أكانه ولا رقيب بمغناه أحاذره
ومن الرجز قوله في مز دوجته « مصائد الشوارد » :

أثنى شذا الروض على فضل السحب واشتملت بالوشى أرداف الكشب
ما بين نور مسفر اللثام وزهر يضحك في الأكام
ومن الوافر قوله ، في مطلع مدحة يمدح بها جمال الدين بن الشهاب محمود ،
يتغزل :

بدت ورنت لواحظه دلالة فما أبهى الغزالة والغزالا
وأسفر عن سننا قر منير والكنى وجدت به الضلالا

ومن الخفيف قوله في الخزيات ، في مطلع مدحة يمدح بها ابن اليزدى :

من عذبرى من الطلا والأغانى وليال مرت على حلوان
ذهبت بالذي ملكك من الما ل كأنى سبيكته فى القنانى

ومن الرمل قوله فى الغزل فى مطلع مدحة :

بأبى مائسة يثنى على قدما بان النقا إذ تنثنى
نطقت وابتهسمت عن جوهر ياله فى فمها من معدن

ومن المتقارب قوله يخاطب معشوقته فى مطلع قصيدة :

غنيت بحسبك عن واصف وما كل غانية غانية

ووافقتني في طريق الردى حسام لواحظك العادبة
ومن السريع قوله في أول مدحة :

صيرني في كل واد أهم من حظ قلبي منه هاء وميم
مبخل يشبه ريم الفلا وأطول شجوى من بخيل كريم

ومن المنسرح - وهو نادر في شعره - قوله يتغزل :

وغادة في جفونها مرض في قربه لى الشفا من المرض
خوفى الناس سهم مقلتها وما دروا أن سهمها غرضى
ومن مخلع البسيط قوله يصف جوادا :

وأدم اللون حدى في جريه للورى عجائب
يقصر جرى الرياح عنه فكلها خلفه جنائب
ومن المجتث قوله يستعطف :

مولاي رفقا بصب صدعته بجفائك
لا تكسرن إناء ملائكة بولائك
ومن مجزوء الرمل قوله :

أيها الكامل قصرا وولاء وثناء
أحمد الله الذى قد جعل الشمس ضياء

ومن مجزوء الكامل قوله :

ماذا على ذى الحسن لو أفضى إلى إحسانه
ملك الملاح كما ترى والكل من غلبانه

ومن مجزوء الرجز قوله :

يا سيدا حاز المعالي طولها وعرضها

لى جبة رفوت منها البعض إذ لم أرضها
فأعجب لها عتيقة دبرت منها بعضها^(١)

القوافى :

وعند حديثنا عن مطولاتهم أشرنا إلى أن بعضها يحتوى على عشرات
الآيات . وهى مبنية على القافية الواحدة . وبدل ذلك على المقدرة والنمى
وسعة المعجم .

ولم يقتصرُوا فى قوافيهم على الحروف السهلة الميسورة ، والكثيرة الدوران
فى أواخر الكلمات ، كالباء والراء والذال واللام والميم والسين والفاء والقاف
والنون . بل أقدموا على غيرها من الحروف الصعبة النادرة والشاقة مثل : الضاد
والظاء والحاء والغين والثاء والزاي . إلا أن الإقدام عليها أقل من الإقدام
على غيرها .

ومن نظم فى القوافى الصعبة : جمال الدين بن نباتة ، وصفي الدين الحلى ،
وزين الدين بن الوردى . مع تمكنهم .

ومن نظم ابن نباتة :

فى قافية الثاء قوله فى مدح العلاء بن فضل الله العمرى :

أرى لعل رتبة وفضائلها تقرأ لها هذى النجوم المواكث
فأحجم إجلالا عن القول واللقا ويبعثنى من سائق البر باعث
وأحلف ما فى الدهر مثل عليه ويحلف أهل العصر ما أنا حاث
وفى قافية الحاء قوله :

أخط سؤالى بالرقاع ولا أرى جفائك يا هذا بوصلك ينسخ
ويذبح جفنى بالدموع وما له سوى الشهر بعد الشهر فى البعد يسلمخ

(١) هذه النماذج جميعها من شعر ابن نباتة — راجع ديوانه فى حروف القوافى .
(م ٣٢ — عصر المماليك)

وفي قافية الذال قوله :

أفدى غزالا من الأتراك مقلته في صنعة السحر أعيت كل أستاذ
نبأذ عهد بذاك اللحظ يسحرني يا حسرتي بين سحر ونبأذ
وفي قافية الشين قوله :

مذ قيل فرعك بالذرائب عرشا شرب المقيم كأس حبيك وانشئ
وبعض ما فعلت بقلبي في الهوى عيناك صار الليث صيدا للرشا
وفي قافية الصاد قوله :

ليهن حمى الشهباء قاض حوت به كما لا على تفضيله اتفق النص
فلو مثلت كتب النجاة بنعته لما جاز أن يجرى على نعته النقص
وفي قافية الطاء قوله :

وأعيد كل شيء منه يعجبني كأنما هو مخلوق على شرطى
أجفانه السود لا يخطئ إذا رشقت سهامها وسهام الليل لا تخطئ
ومن قافية الظاء قوله في مدحة لبهاء الدين السبكي :

أعيد بالكيف الحاظا منافضة تخالهن رقودا وهى أيقاظ
ومبسا لبهى الدر متسقا كأنه لبهاء الدين ألقاظ
ومن قافية الغين قوله :

رشأ رشفت رضا به أو ثعلب ما المحب إلى رضاه بلوغ
حلو المي متمنع يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ^(١)

دار الشعراء - كما رأيت - في فلك الأوزان القديمة . ولكنهم منحوا
أنفسهم بعض الحرية والتحلل من ربقتها ، فخرجوا بعض الخروج على مارسمة
الخليل والأخفش . كما خرج الأندلسيون من قبلهم .

(١) الأبيات وما سبقها من ديوان ابن تينة - راجع حروف القوافي .

ومما يذكر أن جمال الدين بن نباتة له قصيدة ، يتكون كل شطر منها من تفعيلية واحدة وزنها « مستفعلان » ، إحدى تفعيلات الرجز . والتزم في جميع ضروبها وأعاريضها حرفاً واحداً هو حرف الراء . وقيل إنه اقتدى فيها بقصيدة للشاعر المشهور « أسعد بن مقي » .

ومن أبيات هذه الأرجوزة النباتية قوله :

أفدى قر عقى قر ثم غدر لما قدر
فلا وزر ولا مفر يامن شهر سيف الحور
على البشر فما فتر حتى استعر وهج الفكر
ولو أمر ذاك الخصر من الثغر أطفأ شرر . الخ (١)

ولعل من المناسب في هذا المقام ، الإشارة إلى ما ذكره « محمد بك دياب » ، في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وهو يتحدث عن الرجز المجزوء ، إذ قال :

« قال الزجاج : ولو جاء منه شعر على جزء واحد مقفى لاحتمل ذلك ، كقول عبد الصمد بن المعذل :

قالت أجل ماذا أخجل هذا الرجل حين احتفل أهدى بصل
فجاء بالقصيدة على « مستفعلان » . ومثله قول يحيى بن على المنجم :

طيف ألم بذى سلم بعد العتم يطوى الأكم
جاء بغم وملتم فيه نظم إذا يضم
ويقال إن أول من انتزع مثل هذا « سلم الخاسر » ، في قصيدة مدح بها موسى الهادى رابع خلفاء العباسيين وهى :

موسى المطر غيث بكر ثم انهمر أروى المدر
كم أعتسر ثم ايتسر وكم قدر ثم غفر . الخ

ثم قال : « ولم يسمع شيء من هذا عن العرب . وأقبل ما سمع لهم على جزئين . »

هذا ولم يذكر دياب بك ما نظمه جمال الدين بن نباتة . يرمى من قوله : « ولم يسمع شيء من هذا عن العرب » إلى العرب الذين يحتج بشعرهم ، وأخذ عنهم الخليل بن أحمد أبجره وقوافيه .

ومن غريب ما تصرف فيه محي الدين بن عبد الظاهر ، أبيات نظمها من بحر السكامل ، مع بناء الشطر الأول من كل بيت ، على ثلاث تفاعيل من « متفاعلمن » . وبناء الشطر الثاني على تفعيلتين فقط . مع ترقييل في آخره .

وكان قد كتب تقليدا شريفا - أى أمر تعيين - للأمير بيدرا ، عن لسان السلطان ، يذنبه عنه في قلعة الصبيبة . وهو تقليد نثرى طويل . وقد ختمه بهذه الأبيات التى أشرنا إليها . وفيها يمدح الملك الأشرف خليل بن قلاوون . . . قال منهما :

متكرم يهب الحصون مع القلا	ع بكل ما فيها ومنها
ويرى له الذكر الخليل مخلدا	ومعوضا عنه وعنهما
كم رامت السحب الهواطل أن تكو	ن كراحتيه فلم تكنها
ومن الحصون الشاخات له العطا	ء يعاب جود لم يزنها . . . إلخ (١)

وأقبل بعض الأدباء على نظم الموشحات والأزجال والبلايق والمواليا والدربيت .

وسنحدثك فى إيجاز عن الموشحات والأزجال . أما الدربيت فقد نظموه ملحونا . ويتكون من بيتين لـسـكـل بيت شطران . ويتوافق الأشطر الأربعة فى الوزن والقافية . وقد يخالفها الثالث فى القافية فقط .

وقيل إن وزن الدريبت هو « فعلان متفاعلان فعولان فعلان ، في كل شطر .
ولكن الاستقراء يدلنا على أنه يحىء بأرزان مختلفة ، ولعلمها محرفة عن
هذا الأصل .

ومما نظمه ابن الوردي من الدريبت الفصيح المعرب قوله :

باروضة حسن ليتهما لي وحدي الشركة فيك قد أذابت كبدى
ما ضرك أن تسقى بماء فرد والواجب أن يكون ماء الوردي والورد^(١)

ومن نظمه أيضاً وهو يخالف البيتين السابقين في الوزن :

قالوا فلان أبدا زنديق في حبك قلت يكذب الزنديق
من أين لرفض هنا تصديق واسمى عمر وجدى الصديق^(٢)

ومن نظم الدوبيت والموالي ناصر الدين الواسطى الواعظ الأديب الصوفي
- المتوفى عام ٧٧٧ هـ - ومما نظمه في الدريبت مما يبدو فصيحاً قوله :

إن ضرمنى بجنوة التذكار حبي وبرى جسمي شكرت الباري
فالعاذل في هـواه لاعقل له ما أبلد عاذلى وأذكى نارى
ونلاحظ في دوبيت ابن الوردي توافق الأَشْطَر الأربعة في القافية . وفي
دوبيت ناصر الدين اختلاف الشطر الثالث عن الثلاثة الأخر .
وبيدر أن الدريبت كان مستقلاً فلم يقبل على نظمه كثيرون .

وأقبل كثير من الأدباء أيضاً على تخميس بعض القصائد المشهورة كبردة
البوصيرمى .

والتخميس الذى نقصده ، هو أن يأتي الشاعر بثلاثة أشطر من نظمه ، على

وزن القصيدة الخمسة ، ثم يتبعها بيت من القصيدة المذكورة . وهذا هو المتبع المشهور .

وقد يخالف الخمس هذا النظام فيبدأ مثلاً بصدر بيت من القصيدة ثم ثلاثة أشطر من عنده ثم عجز البيت .

ونذكر - على سبيل المثال - بعض الذين خمسوا البردة ، فمنهم : مجد الدين إسماعيل الكنتاني - المتوفى عام ٨٠٢ هـ وبرهان الدين البهسي - المتوفى عام ٨٤٦ هـ - وقد اتبع في تخميسه النظام الثاني^(١) . وناصر الدين المنزلي ، وقد خمسها وخمس بديعية صفي الدين الحلبي ، وخمس غيرها . وشمس الدين القادري ، وناصر الدين الحمدي ، وغيرهم كثيرون .

ومن تعاطى التخميس : تقي الدين بن حجة الحموي . فقد خمس قصيدة السهيلي التي منها :

يا من يرجى للشدائد كلها يا من إليه المشتكى والمفزع

فقال ابن حجة :

قالوا عدك وأنت لا تسمع قد أضروا للمصرع وتوقعوا ناديت والأجفان مني تدمع

يا من يرى ما في الضمير ويسمع أنت المعمد لكل ما يتوقع

وهكذا . . . إلخ^(٢)

والملاحظ في التخميس أن قوافي الأشطر الثلاثة الأولى تكون على وفق قافية الشطر الأول من البيت الخمس . ولم نلاحظ إقبال الأدباء على التشطير الذي هو إضافة عجز إلى صدر بيت ، ثم تقديم عجزه بصدر آخر .

(١) الضوء اللامع ج ١ رقم ٨١ :

(٢) تأهيل النريب باب المواظ : وفيه التخميس جميعه :

وقد أقبلوا حقا على « التضمنين » ، أو « الإيداع » ، وهو وضع بيت أو نصف في خلال أبيات القصيدة ، مع تمام مناسبتها .

وقد أشرنا فيما سبق إلى أن جمال الدين بن نباتة وصلاح الدين الصفدي تبادلوا قصيدتين في العتاب ، ضمن كل منهما أبياتهما أعجاز معقدة امرئ القيس . وهذا من « التضمنين » ، لا « النشطير » ، لعدم اطراحه .

الموشحات :

أفردنا الموشحات بالذكر لأهميتها وكثرة نتاج الشعراء في ميدانها . وقد تهاوى هذا الفن إلى الشرق من الأندلس . فعرفه المصريون قبل العصر المملوكي كابن سناء الملك . وأخذوا في تقليده ومحاكائه إظهار القدرة والبراعة ، وسدأ حاجة مجالس اللهو والغناء . واستثمر ذلك .

والملاحظ في الموشحات أنها لون من التحرر من التزام البحور والقوافي المأثورة . قد تنظم من وزن واحد ، أو من أوزان متعددة ملفقة تمازجت تفعيلاتها . ولكنهما مع هذا وذاك لا بد فيها من اختلاف القوافي .

وهذا المزيج من التفعيلات الملفقة والقوافي المتنوعة . يلتزم شكله في كل مجموعة من مجموعات أبيات الموشحة ، وبذلك يتم الترابط الموسيقي بين أجزائها . ولا ريب أن الموشحة أخف حملا من القصيدة ، وألذوقا ، وأكثر موسيقية ، وأنسب للتلحين والغناء لما فيها من المخالفات الموسيقية المتففة في المتناظرات .

وتمتاز الموشحة - عادة - بركة ألفاظها وسلاسة تراكيبها . وبهذا كله يقبل عليها العامة والخاصة .

وتتألف الموشحة عادة من بيتين في مفتتحها ، يكون لوزنهما وقافيتهما أثر كبير في بناء الموشحة ، ويسميان « مذهبا » أو « قفلا » . ثم يليهما ستة أدرار - أو أبيات -

يتألف كل دور - أو بيت - منها ، من مجموعة من الأبيات المعتادة في القصيدة المألوفة وقد تكون هذه المجموعة ثلاثة أبيات منها ، يليها بيتان على نسق بيتي الغفل وزنا وقافية . - ثم يتكرر هذا النظام نفسه فيما بقي من المجموعات .

على أن الملاحظ أن هذا النظام في جملته ، لم يتبع في دقة في كل الأحوال . وأصبح الشاعر ذا حرية واسعة في ابتداء النظام الذي يروقه في بناء موشحته ، مادام مراعيًا في جميع مجموعاتها - أديارها - نظامًا واحدًا والتزامات مشتركة . ومراعيًا النظام الذي بدأه في الغفل وفي البيت الأول - أعنى المجموعة الأولى - كما أنه لم يلتزم في كل موشحة أن تكون مجموعاتها ستًا .

وراجت هذه الموشحات في عصر الماليك - كما أشرنا - وأقبل على نظمها فحول الشعراء كالشباب الظريف وابن نباتة وصفي الدين الحلبي وابن حجر العسقلاني وصدر الدين بن الوكيل وأبو حبان النحوي وتقي الدين السروجي وسراج الدين المحار - وله فيها ديوان مستقل - ونصير الدين الحامي ، وأبو بكر الخطيب قاضي صفد المتوفى في ذي الحجة عام ٧٤٠ هـ . وأحمد بن عبد الملك العزازي وابن وفاء السكندري المتوفى عام ٨٠٧ هـ ، وغيرهم^(١) .

ونظمها الشعراء في أنواع مختلفة من الشعر ومنها: المدح والغزل والوصف والخمريات والوعظيات حتى الرثاء ، ومن نظمها في الوعظيات صفي الدين الحلبي وابن وفاء السكندري .

ومن موشحاتهم:

خمرة للشاعر أحمد بن عبد الملك العزازي قال فيها :

ياليلة الوصل وكأس العقار دين استتار علمتاني كيف خلع العذار

* * *

اغتنم اللذات قبل الذهاب وجر أذيال الصبار الشباب وإشرب فقد طابت كئوس الشراب
على حدود تفتت الجلائر ذات احمرار طرزها الحسن بأس العذار.. الخ^(١)

يلاحظ في هذه الموشحة أن الففل - أو المذهب - يتألف من ثلاثة أشطر .
الأول والثالث من وزن السريع مع زيادة حرف ساكن في التفعيلة الأخيرة .
والبيت - أو الدور - يتألف من ثلاثة أشطر من بحر السريع . ثم ثلاثة
أشطر على نظام الففل . وهكذا .

وغزلية لشهاب الدين بن حجر العسقلاني يشكو فيها الفراق . قال فيها :

سقيمت من بعدكم فعودوا فما على محسن جناح
عشقت بدرا بلا مرأ فليحت من بعده فلاح

* * *

بدر أنا في الهوى شهيد لما بسيف الجفون صال
وطرفه والجفا رجيد ماض ومستقبل وحال
لو صدقت باللقا وعوده ما علل القلب بالمحال
رأى الذى لامنى سديد حق وحق الهوى صراح
لكننى لست باختيارى يا عاذلى فى هوى الملاح.. الخ^(٢)

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٦١ ورياض الألباب لشمس الدين النواجي - مخطوط ورقه رقم ٥٨ -

(٢) عن ديوان ابن حجر - مخطوط بدار الكتب المصرية .

ويلاحظ أن وزن هذا الموشح هو مخلع البسيط . واطرد ذلك في القفل والبيت على السواء .

واختلف في القفل قافية الشطر الأول والثالث . واطرد هذا الاختلاف في نظائرها في كل بيت ، مع التزام قافية الشطر الأول في القفل - وهي الدال - في نظائره . وكذلك التزام قافية الشطر الثاني والرابع من القفل في نظائرها - وهي الحاء .

وغزلية لصدر الدين بن الوكيل ، قال منها :

ما أخجل قده غصون البان بين الورق
إلا سلب المها مع الغزلان حسن الحدق

* * *

قاسوا غلطا من حاز حسن البشر
بالبدر يلوح في دياجى الشعر
لا كيد ولا كرامة للقمر
الحب جماله مدى الأزمان معناه بقى
وازداد سنا وخص بالنقصان بدر الأفق . . . الخ (١)

هذا الموشح عارض به صدر الدين بن الوكيل ، موشحاً اسراج الدين المحار . والمحار بدوره نظم موشحه هذا معارضاً به موشحاً للشاعر أحمد الموصلى . ويلاحظ أن الشطر الأول من الموشح من وزن غريب . ويبدو أنه ملفق من تفعيلات متفرقة .

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٢٠ وبه الموشحات الثلاث .

ولا يعسر على القارئ ملاحظة ما فيه من مخالفات وموافقات ، قياساً على ما مر من شرحنا .

وغزلية للشاب الظريف ، قال منها :

بدر عن الوصل في الهوى عدلاً مالى عنه إن جار أو عدلاً
مذهب

* * *

مترك اللحظ لفظه خنث إليه تصبوا الحشا وتنبعث
أشكو إليه وليس يكترث
دعا فؤادى بأن يذوب قلى الموت والله من مقالى لا .. الخ (١)
أقرب

وغزلية لجمال الدين بن نباتة . قال منها :

زحفت بيض الظبا لما رنا فتلقاها سريعا مقتلى

* * *

ملك عم الورى بالمنن وكفاهم مرتبات المحن
طاهر الأسرار شهم العنن
راقب الله وأسدى المننا فهو الوسمى فينا والولى ... (٢)

ويستطيع القارىء على ضوء ما شرحن أن يلاحظ وزن هذين الموشحين ،
وما فى كل من مخالقات وموافقات .

الزجل :

وقد رأينا فيما سلف كيف انساق بعض الشعراء إلى اصطناع الأمثال
والتعبيرات السوقية ، وإلى الخروج عن قواعد اللغة والتزاماتها . وذلك بدافع
انتشار اللغة العامية والدخيلة ، وبدافع نشأة الشعراء فى بيئات الشعب .

ورأينا كذلك كيف حرر كثير من الشعراء شعرهم من قيد الوزن والقافية ،
فنشأ من ذلك فن التوشيح الذى لا نعهده جديداً فى المشرق ، فقد انبثق من قبل
فى بلاد الأندلس .

وباستשרاء هذه الظاهرات واتساع مداها . ورغبة بعض الأدباء فى تقديم
لون شعري إلى العامة هو أقرب إلى فهمها وأدنى إلى تذوقها . نشأ فن الزجل .
وفن الزجل هو فن الشعر الشعبي الذى تلزم فيه اللغة العامية ، ويسكون
الإعراب فيه من عيوبه .

وقد ذاع الزجل — كما ذاع التوشيح — فى بلاد الأندلس أيضاً ، لانتشار
العامية ، ومنها رحل إلى المشرق وأقبل عليه أدباء العصر المملوكى . لاستשרاء
العامية واستعجام الخاصة والعامة ، حتى كان بعض الخاصة يشجعون أهله
وفن الزجل أكثر حرية فى أوزانه وقوافيه من التوشيح ، وليس معنى ذلك
أنه خال من القيود والنظم الرتيبة ، فقد يلزم الزجال فى زجله قيوداً ونظماً تفوق
فى الدقة والحكمة والرعاية ما يلزم فى الموشح .

راج الزجل إذاً فى مصر فى العصر المملوكى وشجعه آل قلاوون وآل برقوق
وغيرهم . وأقبل الزجالون ينظمونه فى أغراض الشعر كافة ، ولم يتصرفوا فيه
على أبواب دون أبواب ، حتى زاحم بذلك الشعر الفصيح فى مجالته رفونته .

فطرقوا به باب الوصف والمدح والفكاهة والمجون والخريات والنقد الاجتماعي والغزل وتسجيل الحوادث العامة ورثاء الدل الزائلة والأحياء الدارسة ، والحامسة ووصف الحروب والرتاء والشكوى والحكمة ، وغير ذلك ، واصطنعوا فيه ألوان البديع وزخارفه وأصباغه .

وتسجيل الزجل والعناية بدراسته أمر ضروري لاستكمال تاريخ الأمة الأدبي . فقد ترى في أبياته من ألوان الأخيلة والتصورات ما لا تراه في الشعر الفصيح ، وبصادفك فيه من الآراء والأفكار والنقد ما يعز وجوده في سواه . وهو من أهم الصفحات التي تطالع فيها اللغات الشعبية وتطوراتها .

والعقبة الكأداء في سبيل دراسة الزجل - زجل العصور الأدبية السابقة - هي عدم درايتنا الكاملة الصحيحة بطرق أدائه وقراءته . فليس لدينا منه تسجيل صوتي يرشدنا إلى حقيقة ذلك والزجل حينما يسجل في الكتب والمؤلفات يفقد كثير من روائه وحقيقة أدائه ، إذ أنه - عادة - يفصح عند التسجيل ، ويكتب بمألوف ما تكتب به اللغة الفصيحة . وقد فطن تقي الدين بن حجة لهذا المعنى فقال :

« والزجل فن يتمم النظم فيه من المعاني لجولانها في ميادين الأغصان والخرجات . وهو لا يحسن رسمه في الكتابة إلا من عرف اصطلاحه ،^(١) . وقال أيضاً ، بعد أن سجل زجلاً للقيم ابن مقاتل ، تغزل فيه في خياط ، ومطلعه :

نهوى خياط سبحان تبارك من بالجمال جملو

وكأنى بمتأمل نظر في رسم كتابة هذا الزجل ، فأناكره ، لبعده عن رسم الألفاظ المعربة الحالية من اللحن ويعذر في ذلك ، لأنه ليس له إلمام بمصطلح

(١) خزانة الأدب ص ٣٨ .

رسمه . ومن رسمه على غير هذا الطريق لم ينفذ له مرسوم . فإنه يؤديه إلى خطأ في وزنه وإعراب لحنه .

ومصنفه أبو بكر بن يحيى بن قزمان الوزير ، قال في خطبته : وقد جردته من الإعراب تجريد السيف من القراب . ولم يطلب من الزجل غير عذوبة ألفاظه وغرابة معانيه .

ولا ريب أن تسجيل الأغاني والأناشيد والأزجال والقصص والمسرحيات في العصر الحديث تسجيلاً صوتياً ، سيعارن معاونة قيمة عند تاريخ لغة الأمة ولغة عوامها ، إذ أنه سيكون مدعوماً بأمثلة ونصوص صوتية حاسمة في الدلالة . وسيكون مدداً لكتابة تاريخ أدبنا الشعبي بصورة أصح

وقيل إن القصيدة الزجلية تسمى «حمل» تشبيهاً لها بحمل الدابة ، لأن شطورها الرباعية - غالباً - منقسمة إلى قسمين ، كل واحد منهما يشبه أحد جزئي الحمل ويقطعون «الحمل» أو «الزجلية» إلى جملة أدوار . ويتألف كل دور من أبيات ذات أشطر . ويبدو أن هذا هو النظام الذي كان متبعاً أو مألوفاً عند بدء النظم والأزجال . ولكننا بالاستقراء ، وباستقراء أزجال المصريين أو الشاميين في العصر المملوكي ، نشعر أن نظام الأزجال وأوزانها أوسع من هذا ، وأنها تنوعت في أوزانها وفي قوافيها كما كان الشأن في الموشحات ، على نحو ما أشرنا آنفاً .

وهناك أوزان أخرى ، أو فنون أخرى من الشعر العامي غير المعرب . منها : القوما وكان وكان والمواليا والدوبيت . ولها نظام خاص في صوغها . ويعتبرها بعض الأدباء ألواناً أخرى غير الزجل .

وأشرنا إلى أن الدوبيت منه المعرب وغير المعرب .

أما القوما أو القومة ، فيتكون كل دور فيه من بيتين . على وزن «مستفعلن

مستفعل ، وهو لون من مجزوء الرجز ، وتتحدقوا في شطورها ما عدا الثالث فيخالفها ، وكان يسحر به في شهر رمضان . ولم نجد له رواجاً في العصر المملوكي . وكان وكان ، يتألف كل دور في موشحته من أربعة أشطر . الأول والثالث من وزن المجهث ، مستفعلن فاعلان ، والثاني والرابع من مجزوء الرجز . مستفعلن مستفعلن . وتلتزم قافية الرابع في كل قافية رابعة من أدواره . ولم نجد له أيضاً رواجاً وذبوحاً في العصر المملوكي .

والمواليا ، قيل كان أول ظهورها في بغداد على لسان موالى البرامكة ، ثم ذاعت . ويتألف — عادة — من أربعة - وقد تكون خمسة أو سبعة - كلها من البسيط . وتتفق جميعها في القافية . وقد يختلف ثالثها عنها . فإذا كانت سبعة أشطر اتحد كل ثلاثة أشطر ، ثم اتفق الأخير مع الثلاثة الأول .

ويبدو أن هذا اللون من الرجز حاز إعجاب الناظرين في العصر المملوكي ، وأنه صادف موقع القبول من نفوس العامة . فأقبل الناظمون على نظمه وكان له نتاج لا بأس به .

وباستقراءنا صادفنا نماذج من الرجز والمواليا والدوبيت فحسب . وكان الرجز أوفاهاً نصيباً .

وعما يذكر أنهم أطلقوا لفظ البلايق ، على نتاج الزجاليين . وذكر الإدفعي في ترجمة « الحسن بن هبة الله » الزجال ، قال : « إنه أخذ ورقة وكتب هذه البليقة ، ثم سجد للإدفعي زجلية للحسن . ثم قال : « أما البليقة ففي الفكاهة والنقد ، (١) .

وكذلك كانوا يسمون الزجال المشهور : « القيم » .

ومن نظم الزجل أو المواليا ونحوهما في مصر في العصر المملوكي :
خلف الغبارى وعاش في عصر آل قلاوون وقد استخدم الزجل في كثير
من أغراض الشعر .

ومنهم الشيخ أحمد الدرويش البرلسي . والشيخ علاء الدين بن مقاتل الحموي .
وشمس الدين بن دانيال الموصلى الشاعر السكحالى . والمؤرخ ابن إياس الحنفى .
وبدر الدين أبو النجا الزيتونى العوفى . والحسن بن هبة الله بن عبد السيد الأدفوى .
وصدر الدين بن عبد الحق . وصدر الدين بن الوكيل ، وشرف الدين بن أسد المصرى .
وزين الدين بن الوردى محبى الدين بن عبد الظاهر . وزين الدين العجمى وحطبية .
وناصر الدين الواسطى . والرويس . وزين الدين الشهرزورى وابن الطفال ،
والأمشاطى ، وغيرهم .

وإليك بعض نماذج الزجل ، ويتضح لك منها بعض الأدوار الأدبية
والاجتماعية الهامة التى أداها الزجل ، وشارك بها فى الحياة القائمة . واستجاب
بها للبيئة التى عاش فيها فتأثر بها فتم عنها وتكلم بلسانها وصور جملة من نواحيها .
فمنها :

أنه لما وفى النيل عام ٩٠٢ هـ قبل شهرى مسرى على غير عادته ، فرح
الناس واستبشروا وصنف منادى البحر أغنية منها .

يا حبيب هنا وطيب النيل أوفى فى أبيب
وقد بقينا فى هنا يافرحنا . . . الخ (١)

ولما عزل السلطان الناصر محمد بن قلاوون نفسه من الملك - وكان به بعض
العرج - قام من بعده بالسلطنة الملك ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، وكان

العامه يلقبونه ، الركين ، وكان نائب سلطنته الأمير د سلا ، ، وكان أجرد في فمه بعض شعرات ، لأن أصله من التتار ...

وشح النيل في ذلك العام - عام ٨٧٠٩ - فنظم بعض العامة زجلا يتفككون به ، جمعوا فيه بين هذه الحوادث ، وعبروا فيه عن مشاعرهم إزاءها . فقالوا :

سلطاننا ركين ونائبو دقين يحينا الماء من اين
هاتوا لنا الأعرج يعجى الماء يدحرج . . الخ^(١)

قيل - فكان هذا الزجل سبباً في قطع السنة بعض العامة بأمر هذا السلطان لما بلغه الزجل

واهتم السلطان قانصوه الغورى بإقامة المنشآت والعماير ، فانساق إلى أن أكره القاضى شهاب الدين أحمد ناظر الجيش ، ابن يوسف ناظر الخاص ، أن يعطيه قطع الرخام المثلث الموجد بقاءة والده المسماة « نصف الدنيا » ، ليستخدمها في بناء قاعة البيسرية . فقال ابن إياس الحنفى في ذلك ناقداً موريا :

سلطاننا الغورى قد جار والصبر منا قد أعيا
وصار في ذا الجور عمال حتى خرب نصف الدنيا^(٢)

ومن الرجالين الممتازين ، القيم خلف الغبارى - وتعتبر زجلياته فريدة في بابها . ومن بينها زجليات سجل فيها بعض حوادث مصر ، مما لا نظير له بنظير في الشعر الفصيح .

ومن زجلياته زجلية هنا بها الأشرف شعبان حفيد الناصر بن قلاوون

(١) بدائع الزهور ج ١ حوادث عام ٨٧٠٩

(٢) بدائع الزهور ج ٤

باعتلاء السلطنة عام ٧٦٤ . وكان الأشرف صغير السن . وزجلية أخرى رثاه بها لما قتل عام ٧٧٨ هـ ^(١) وقد سبقت إشارتنا إلى ذلك .

ومن زجليات الغبارى أيضا ما سجل فيه اعتداء عرب البحيرة بزعامه أميرهم ابن سلام ، على مدينة دمنهور عام ٧٨١ هـ ، وقيام فريق من جنود المماليك الأتراك بقيادة الأمير ، إيتمش ، بصدهم والإيقاع بهم .

وقد سجل الغبارى هذه الواقعة في نحو ٦٧ بيتا وفصل فيها الوقائع والأحداث والأسباب والنتائج بما لا تظفر به في كتب التاريخ . قال في المطلع :

باسم رب السما ابتدى فارح الهـم والكرب
ويفيد للذى حضر قصة الترك والعرب . الخ ^(٢)

ولخلف الغبارى غزليات عذبة ، ومنها زجلية افتتحها بقوله مع التورية والتوجيه :

جار حبيبي فقلت دالحجاج حاجبور أو يزيد
لو عدل عشت بو مسرور ويسكون الرشيد . الخ ^(٣)

ومن أبرع الزجالين الشيخ بدر الدين الزيتونى الذى عاصر قايتباى وشهد عصر الغورى ومات عام ٩٢٤ هـ وكان علامة زمانه فى فنون الزجل . وقد سجل فى ديوان زجله جملة من حوادث زمانه لم ينهض الشعر الفصيح إلى تسجيلها .

وله زجلية سجل فيها رحلة قايتباى إلى الديار الشامية عام ٨٨٢ هـ حيث قضى

(١) بدائع الزهور ج ١ حوادث عام ٧٦٤ هـ ، وحوادث عام ٧٧٨ هـ وفيه الزجلتان .

(٢) بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٢ حوادث عام ٧٨١ هـ وفيه الزجلية بأكملها .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية لمحمد دياب ج ١ ص ١٣٥ - وبه الزجلية بأكملها .

نحو أربعة أشهر ، قام خلالها هناك بأعمال وإنشاءات جليلة . ومنها يقول .
سلطاننا الأشرف خرج في أربعين من العساكر حين سافر حماه
ومن حلب عدى يروم الفرات فاسقى الخيول من ماء ورببه حماه ... الخ (١)

وفي سنة ٨٩٧ هـ انتشر طاعون بالديار المصرية أباد كثيرا من الناس . فوصفه
الزيتوني ورثي لأهل مصر مما أصابهم وقال :

و حذر من قد حكم بالموت ونفذ حكمه بما يختار
واحجب عن العيون سبجان جل من لا تدركو الأبصار .. الخ (٢)

ولما مات الأشرف قايتباي عام ٩٠١ هـ رثاه الزيتوني بزجلية طريفة ضمنها
كثيرا من صفاته وحوادثه وأعماله (٣) .

وفي عهد الظاهر قانصوه ثار عربان عزالة على كاشف البحيرة فجرد عليهم
السلطان حملة شتتت شملهم وذلك عام ٩٠٤ هـ وقد سجل هذه الحادثة وما جرى
فيها ، بدر الدين بن الزيتوني (٤) .

ولما مات الأشرف الغوري - أو قتل - في موقعة مرج دابق عام ٩٢٢ هـ
رثاه الزيتوني ورثي دولته في قصيدة زجلية جيدة جملة أبياتها ١١٧ بيتا ، طرق
فيها الشاعر أبوابا وفنونا . لقد تتبع حملة الغوري فوصفها في ترتيب طبيعي تقريبا ،
من لدن خروجها من مصر حتى تمام الهزيمة وما أعقبها . وقد سجل أسباب الحملة
وأسماء كبار الأمراء الذين صاحبوها ومشوراتهم وترتيباتهم وتاريخ خروج الحملة

(١) بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٦٨ وفيه النص بأكمله .

(٢) بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٧٥ ط بولاق . وفيه النص بأكمله

(٣) بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٩٨ ط بولاق المرنية بأجمعها

(٤) بدائع الزهور حوادث عام ٩٠٤ هـ

ووصف هذا الخروج ودخولها بلاد الشام فخاب ، وأشار إلى خديعة السلطان سليم بطلب المصالحة ، وميل الغورى إلى ذلك ثم إثاره القتال . ووصف المعركة وانتصاره المصرى على الرومى . ثم انشغال الجيش بجمع الغنائم ، ثم مفاجأة الغورى بمن قتله . وهنا يتفجع الشاعر لمقتله ويتوجع ويذكر محاسنه ومحامده ، وينوه بمن كان معه آنذاك من الأمراء والعسكر ، وما تحملوا به من الهمة والشجاعة . ثم ما أصابهم من القتل والتشتيت والنميل على يد ابن عثمان - السلطان سليم -

وفي نهاية الزجلية يذكر الشاعر اسمه وصناعته ويتمدح بهما . وتلك كانت عادته فى زجله .

ويقول فى المطلع وبه براعة استهلال .

غربت شمس دولة الغورى وابن عثمان نجمو طلوع ساير
وبهذارب السما قد حكم والفلك دار ولم يزل داير

ابن عثمان باداه بأخذ الفلع وبمنع التاجر مع الجلاب
أن يجيبوا إلى مصر مملوك ولا فروة سمور ولا سنجاب
ولا وشق ولا ثعلب يجلبوا ومن الصوف ما عاد يحبينا ثياب
على الصوف ياما قعدنا سنين ما ييجى من عندو ولا تاجر
والأماره جو الملك قالوا ابن عثمان باغى علينا جاير

ومنها يبدى عواطفه لمقتل الغورى فيقول :

أشتهى النار لمقتله الغورى ولعلى أن أبلغ الأوطار
والتانى ذاك النهار عندى ويغنوا على وتر أوطار
بعد هذا ما أخشى غراب البين إن زعق فى دارنا أوطار

والعجائب في قتلة الغورى راح برجلو لقتلته خاطر
وحسبنا كل الحسب إلا ما جرى لو ما مر بالخاطر ... الخ (١)

ومن بدائع الأزجال ما نظمه الأديب إبراهيم المعمار حينما أمر الملك الظاهر
ببئس بإغلاق محال الفسق والخنور . فقال المعمار :

منعونا ماء العنب ياسين رب سلم لم يمنعونا التين

* * *

هات قل لي إذا منعنا الراح وحرمننا من الوجوه الصباح
يدش تبقى نستجلب الأفراح والخليع كيف نراه يعيش مسكين . الخ (٢)

ومن المواليا قول حطية ، يشكو ذل العشق :

سرى فضحته وأنتم سركم قد صنت فقصدي رضاكم وأنتم تطلبون العنت
ذابت من بعد عزى في هواكم هنت ياليت في الخلق لا كنتم ولا أنا كنت (٣)
وهذه موالياً لزين الدين العجمي ، في غزل التورية :

للحب قالوا معنالك الذي أذبتو جد لو بقبله فعقلو فيك خبلتو
فقال أقسم لو ان البوس سبلتو ومات للشرق ما درتو وقبلتو (٤)

ونختتم حديث الزجل وما إليه ، بأن نذكر العلامة ابن خلدون سجل في

(١) بدائع الزهور لابن إلياس ج ٣ حوادث عام ٩٢٢ هـ .

(٢) الزجلية في ٣٩ بيتاً سجلها ابن إلياس ج ١ ص ١٠٥ ط بولاق .

(٣) الضوء اللامع ج ٣ رقم ٦٢١ . وحطية — بالتصغير — أديب زجال جذب بسبب عشقه ،

ومات في دمياط عام ٨٠٨ هـ .

(٤) كشف اللثام لابن حجة الحموي .

مقدمته تحت عنوان : الموشحات والأزجال للأندلس ، أمثلة عدة للمواليا والدوبيت ، مما نظمها القاهريون .

بهذا الفصل نكون قد طفنا بالبيئات المصرية على اختلافها ، وبآثارها في النتاج الشعري بموضوعاته وأساليبه . وأن لنا أن نختتم هذا البحث بالكلمة التالية .

خاتمة

وبعد . إن من أهم ما يعنى به تاريخ الأدب وتهدف إليه بحوثه ، الوقوف على شخصية الشعوب ومعرفة مدى يقظتها العاطفية والعقلية وإحساساتها ، ممثلة في أدبائها وشعرائها ، وذلك عن طريق بحث كبحتنا هذا ، في ميدان الشعر أو النثر . وقد كان هذا هو هدفنا من بحثنا في المجلدين السابع والثامن من هذه الموسوعة ، اللذين درسنا فيهما شعر البيئتين المصرية .

وقد راعينا في عرض نماذج الشعر أحياناً ، شيئاً من الاستقصاء وإيراد النص الكامل . وذلك حينما رأينا ضرورة للبرهنة على أصالة فكرة أو اتجاه . ولا تتم إلا بهذا الاستقصاء والإيراد كما راعينا أحياناً التحليل الدقيق للنص ما استطعنا ، وبمقدار يطبقه البحث ، توصلنا إلى فهم صناعة ، أو إيضاح معنى ، أو كشف عاطفة .

وراعينا كذلك ، ما استطعنا ، أن نجتمع بين نتاج كثير من الشعراء في موضوع معين ، عن التصدى للحديث عنه ، توضيحاً له ، وتأكيذاً لما ذهبنا إليه فيه . فإن تأثر مجموعة من الشعراء بموضوع واحد ، مع تماثلهم في الأحاسيس والمشاعر ، يجعل الجمع بين نتاجهم الشعري فيه ، ضرورياً لتوضيحه وفهمه . ونحن يكون عدة أدباء من بلد واحد وعصر واحد ، ينتسبون إلى مدرسة ، واحدة ، أو يعرف بعضهم بعضاً ، أو قرأ بعضهم لبعض ، أو أعجبوا جميعاً بنموذج واحد ، أو خضعوا جميعاً لنفس التأثيرات الفلسفية والأخلاقية والدينية والفنية ، بل والاجتماعية والسياسية ، أو عبروا جميعاً في عصر واحد عن أفكار واحدة ، أو استعملوا جميعاً أسلوباً واحداً ، فلا شك أن الواجب

في هذه الحالة أن يجمعهم الكتاب ، كما جمعتهم الحياة . (١)

واقعد بحثت عن شعر هذه الحقبة — العصر المملوكي — في كل مكان استطعت الوصول إليه . بحثت في دواوين شعرائه وكتب تراجم رجاله ، وكتب تاريخه العام ، وكتب خطه وغيرها .

وهكذا طفت في جوانب العصر ، واستغرقت في هذا الطواف — كما ترى — زمناً طويلاً ، وبذلت جهداً كبيراً فيه ، حتى دخلت إليه في أكثر زواياه ، وتجولت في أكثر نواحيه ، وتبينت أكثر أوضاعه ومعالمه . واستطعت أن أكشف كثيراً مما تردد خلاله من أفكار وخواطر ، وما جاش فيه من عواطف ومشاعر . وكان شعراء هذا الشعب ، فيما قرصوه ، ألسنته وتراجمته — كما أشرنا في المقدمة — .

واقعد كان الشعب يعشق طبيعة بلاده ، ويقدر نيلها المبارك ، فتغنى بهما شعراؤه . وقد أكدنا بمدارسنا من أشعارهم ، هذا العشق والتقديس ، وأضينا في حزم ، على تلك الأكذوبة المفتراة من بلاد حسهم نحو بلادهم ونحو نيلها ، وهو سبب حياتهم .

وقد كشفنا مبلغ اهتمامهم بسياسة بلادهم ، ومدى اشتراكهم في حوادثها بأحاسيسهم وعواطفهم ، على الرغم مما اقتضته ظروف الحكم من إبعادهم عن مسرحها عملياً .

ورأينا أن مصر كانت محوراً ومصدراً للثقافة الإسلامية والعربية ، وأن الشعر ترجم هذا بلغته وفي ميدانه ورأينا أن مصر كانت تحيا حياة حضارية ، قد تكون أرقى ألوان الحياة الحضارية في زمانها . وأن الشعر كان مرآة لها في ذلك ، بدت فيها محاسنها ومساوئها ، وسموها ومباذلها ، وحققها وزيفها . وأن السنة

الشعراء كانت وراء حواث المجتمع ، ووراء مظاهر حضارته ، تسير معها وتتابعها ، أو تصفها وتسجلها ، أو تنقدها وتحمل عليها .

وبذلك كله تعرفنا على بعض جوانب الشخصية المصرية حينذاك ، وعرفنا كيف كان الشعب يقضى في أموره ويعالج مشاكله ، ويتصل بصميم حياته ويزاولها ، وأنه - في الحق - لم يكن بعيدا عنها ، ولو بمشاعره .

هذه نتائج وصلنا إليها عن طريق دراسة الشعر ، وربطه بأسبابه البيئية ، بعد دراسة هذه الأسباب . وإذا كنا قد وصلنا إليها وكشفنا عنها ، فإن ننكر ما لاحظناه من أن الشعر كان يشتد صوته ويعلو ضجيجيه ، بل قد يلد لحنه ويروق نغمه ويطول نفسه وتنشط أوتاره ، في موضع ، ويهدأ أو يجنح في مواضع أخرى . وشأنه في ذلك شأن الشعر في عصور الأدب كافة . غير أن الهدأة لا يصعب تعليلها ولا يعسر بيان سببها .

لقد رأينا الشعر محتفلا على الصوت جميل اللحن ، إذا غنى بالطبيعة أو بالنيل أو بالرياض . ورأيناه وثيق الصلة ببيئة الثقافة والاجتماعية ، ورأيناه ذا اهتمام واسع بالسياسة وأحداثها وحروبها .

ولكن اهتمامه بالسياسة ، كان في أوائل العصر ، أكثر مما كان في أواخره . ولا يصعب تعليل ذلك ، فقد كانت أحداث السياسة في أوائله متجهة في أغلب أمرها ، إلى مكافحة العدو الخارجي ، وإلى حربه . وكان هذا الاتجاه وثيق الصلة بآمال الشعب وعواطفه ، فوجد صداه في الشعر . وكانت أحداث السياسة في أواخره متجهة في أغلب أمرها ، إلى مقاومة الفتن والمؤامرات في الداخل ، فكانت أشبه بالحروب الداخلية ، وكان الطرفان المتنازعان ، وهما من رجال الطبقة الحاكمة ، متساويين - غالبا - في المنزلة في نظر الشعب . وهو نزاع على حكمه ، فهو ضحية الغالب منهما على كل حال ، لذلك لم يشعر الشعب أن هذا النزاع نزاعه ، فلم يشترك فيه شعراؤه ، إلا لما .

وفي الحق أيضاً ، لم نظفر بين شعراء الطبيعة ، بشعر يصف الريف ومحاسنه ، ويمجد الفلاح ويحيى كفافه . والفلاح - كما نعلم - اليد العاملة ، والقوة المحركة المنتجة ، يحرق الأرض ويسقيها ، ويبذر الحب ويتعمده ، ويرعى النبات ويحصد ثمره . فالحقل والفلاح ، سبب النعمة لهذه الأمة ، بعد النيل . فلماذا لم يتغن بهما شعراؤها .

نقول - فضلا عن أن أكثر من عرفنا من الشعراء كانوا يعيشون في المدن ، بعيدين عن الريف والفلاح - إن الشاعر الذي قال :

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

قد صدق ، وبالحق نطق .

قل لي ، أين هو الحقل ، وأين هو الفلاح السعيد بحقله ، في ذلك الزمان ، حتى يحيمهما الشعراء ، ويمجدوهما ويهنجوا باسمهما ، ويترجموا عن سعادة الحقل بفلاحه ، وسعادة الفلاح بحقله

لقد كان الحقل إقطاعا يختاره سلطان أو أمير . وكان فلاح الحقل عبدا قنا الإقطاع الذي يعيش فيه ، وفقا على العمل به ، هو ومن يولد له . يعمل ويكدح ، ويسقى ويفلح ، ويحني ويحصد ، ويجمع ويحمل ، في سبيل صاحب الإقطاع ، وفي سبيل رفاهيته وسعادته . فماذا جنى الفلاح من الأرض غير الشقاء ، وماذا جنت الأرض غير الاغتراب والاعتصاب .

هكذا كان الريف مصدر شقاء للفلاح وبلاء . فكيف يحكى الشاعر أحاسيس هذا الفلاح ، ويعنى أهاليه ويرتل أناشيده

ولقد كانت الأمة غارقة في حياة إقطاع ، مرت عليها حقبتها ، وهي غافلة عن حقيقة غفلة دعمها تسلسل الأيام وأوضاعها . فلم يكن ثم شعور قوى يربط بينها وبين أرضها وحقولها .

وبعد ، فقد عانيت في هذا البحث ما عانيت ، وجاهدت فيه ما استطعت .
ورجوت أن يحقق الهدف الذى له سعييت ، وهو التدليل على أن الشعب المصرى
في العصر المملوكى ، كان يقظ الفكر والعاطفة . ودلت على ذلك عن طريق
دراسة شعره مرتباً بعوامل بيئاته . وأعتقد أنى حققت هذا الهدف .

ولا أستطيع أن أزعم أن هذا البحث هو آخر البحوث في موضوعه ، ولا
أنا بلغت به حد الكمال . بل أعتقد أنى فتحت به باب البحث ، ويسر سبيله
لمن يلج طريقه ، ويلج لحبه ، ويتبع نهجه .

وقد طفت - كما ذكرت - بكثير من الدواوين الشعرية وجماعها وكتب
التاريخ ونحوها ، مخطوطة ومطبوعة ، ولا أقول إننى حملت في ذلك مشقة ،
فالمشقة ضرورة مطردة من ضرورات البحث .

ولكن موضوع الشكاية حقاً ، فقدان كثير من المراجع ، التى كان من
المستطاع والمترب أن تمدنا بنصوص ووثائق قيمة في الموضوع ، تعين على دراسة
مكتملة ، وعلى حكم أكثر صحة .

ومنها على سبيل المثال - لا الاستقصاء - هذه الدواوين الشعرية :

١ - ديوان نور الدين الأسعدى ويسمى « سلافة الزرجون في الخلاعة
والمجون » .

٢ - ديوان أبى الحسين الجزار المصرى ويسمى « تقاطيف الجزار » .

٣ - ديوان ناصر الدين بن النقيب : وقيل إنه في مجلدين ملاحظهما بالمقطعات .

٤ - ديوان سراج الدين المحار : وقيل إنه ديوان موشحات مشهور .

٥ - ديوان صدر الدين بن المرحل : واسمه « طراز الدار » وهو مملوء
بالموشحات .

٦ - ديوان شمس الدين بن الصائغ : قيل إنه في مجلدين .

٧ - ديوان إبراهيم المعمار : قيل إنه كان مشهوراً .

بل قل : أين شعر ابن عبدالظاهر جميعه ، وكذلك شعر الشاب الظريف ،
والسراج الوراق ، وشمس الدين القادري ، والشهاب الحجازي ، والجمال
السلهوني ، وغيرهم .

إن هذه الدواوين ، وشعر هؤلاء الشعراء ، في حاجة إلى باحث يكشف عنها
ويبرزها أو يجمعها وينشرها . على أن شعر العصر في جملته ، لم تبذل له مصر من
العناية والاهتمام ، جزءا عما بذلته وتبذله لشعر العصور الأخرى . إنه في حاجة إلى
بذل وعناية ، لتحقيق المخطوط وضبطه وشرحه والتعليق عليه ، وطبعه ، وذلك
كديوان القيراطي وابن حجة وابن حجر ، ومثل مجاميع ألحان السواجع للصفدي ،
وتأهيل الغريب لابن حجة الجوى ، وروض الآداب للشهاب الحجازي ، ورياض
الآلباب للشمس النواجي ، وكوكب الروضة للجلال السيوطي - وهذه الدواوين
والمجاميع المخطوطة موجودة حاليا بدور المكتب .

وكذلك إنه في حاجة إلى إعادة طبع ماسبق طبعه ، بعد التحقيق والضبط
والشرح والتعليق ، ومنه ديوان ابن نباتة وصفي الدين الخلي والشهاب الظريف .

هذا كله عدا ضرورة جميع المتناثر من شعر العصر في كتب التاريخ العام
وتراجم الأعلام وكتب السير والمخطوط وغيرها .

وإذا كان لنا أن نضيف إلى ماتقدم ، موضوعات جديدة جديدة بالدراسة
والمعالجة والبحث ، فإننا نضيف مايلي إلى ماسبق أيضاً التنويه به خلال سطور
هذا البحث :

١ - المدائح النبوية في العصر المملوكي ، عواملها ، اتجاهاتها ، أنواعها ،
نتائجها الخ .

٢ - بردة البوصيري وأثرها في الأدب ، اتجاهها ، معارضاتها ومنها
البديعيات ، تشطيرها : تخميسها ، شروحا . . .

- ٣ - البديعيات ، منازلها وشروحها .
- ٤ - النكتة والفكاهة في الشعر المملوكي .
- ٥ - الشعر المملوكي بين الفكر والعاطفة ، وبين الطبع والصنعة . أو مدارس الشعراء في العصر المملوكي .
- ٦ - النيل في الأدب المملوكي شعره ونثره .
- ٧ - صدى الإسلام في الأدب المملوكي ، موضوعا وأسلوبا .
- ٨ - صوت العروبة ، في الأدب المملوكي .
- ٩ - العلاقات الإخوانية ونتائجها في الأدب المملوكي .
- ١٠ - دراسات مفصلة عن كل شاعر من شعراء العصر ، أمثال : الشاب الظريف . ابن عبد الظاهر . القيراطي ، ابن حجة . ابن حجر : الشمس النواجي الخ .

والله أعلم

بذلك انتهت هذه الموسوعة والحمد لله رب العالمين
رمضان المعظم عام ١٣٨٥ هـ - يناير عام ١٩٦٦

من مراجع المجلد الثامن

- ١ - ابن نباتة المصرى أمير شعراء المشرق الأستاذ عمر موسى .
- ٢ - ألحان السواجع لصالح الدين الصفدى - خط بدار السكتب المصرية .
- ٣ - الأصول الفنية للأدب للأستاذ الجليل عبد الحميد حسن .
- ٤ - الألفاظ الخفية فى سيرة الملك الأشرف خليل بن قلاوون لمحبي الدين ابن عبد الظاهر .
- ٥ - بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس الحنفى .
- ٦ - تأهيل الغريب لتقى الدين بن حجة الحموى - خط بمعهد الإسكندرية الدينى ودار السكتب المصرية .
- ٧ - تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور «قلاوون» لمحبي الدين ابن عبد الظاهر - نشر الدكتور مراد كامل .
- ٨ - الثمرات الشمية «جنى الجنتين» - ديوان ابن حجة الحموى - خط بدار السكتب المصرية .
- ٩ - جنان الجناس لصالح الدين الصفدى .
- ١٠ - حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح لشمس الدين بن القيم .
- ١١ - حسن التوسل بصناعة التوسل لشهاب الدين محمود الحلبي .
- ١٢ - حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة لجلال الدين السيوطى .
- ١٣ - خزائن الأدب «تقديم أبى بكر» لتقى الدين بن حجة الحموى .
- ١٤ - الخطط لتقى الدين المقرئ .
- ١٥ - خلع العذار فى وصف العذار لشهاب الدين عبد الوهاب الحنفى - خط بدار السكتب بالمندورة .

١٦ — الدر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لشهاب الدين بن حجر العسقلاني .

١٧ — الدر الفاخر لأبي بكر الدواداري .

١٨ — دمع الباكى ولوعة الشاكى لصالح الدين الصفدى .

١٩ — دولة المماليك البحرية للسير ولیم مویر - تعريب الاستاذين محمود عابدين وسليم حسن .

٢٠ — ديوان برهان الدين القيراطى ، مطلع النيرين ، - خط بالمكتبة الأزهرية .

٢١ — ديوان جمال الدين بن نباتة المصرى .

٢٢ — ديوان زين الدين بن الوردى ط الجوائب .

٢٣ — ديوان الشاب الظريف .

٢٤ — ديوان شرف الدين البوصيرى .

٢٥ — ديوان شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى — خط بدار الكتب المصرية .

٢٦ — ديوان شهاب الدين بن حجر العسقلاني - خط بالمكتبة الأزهرية .

٢٧ — ديوان الصبابة لشهاب الدين بن أبى حجلة المغربى .

٢٨ — ديوان صفى الدين الحلى - ط النجف .

٢٩ — ديوان نحر الدين بن مكائس — خط بدار الكتب المصرية .

٣٠ — روض الآداب لشهاب الدين الحجازى - خط بالمكتبة الأزهرية .

٣١ — رياض الالباب لشمس الدين النواجى - خط بالمكتبة الأزهرية .

٣٢ — زبدة الفكرة لبديرس الدوادارى - مصور بمكتبة جامعة القاهرة .

٣٣ - السلوك لتقى الدين المقرئى .

٣٤ — صبح الأعشى لشهاب الدين القلقشندى .

- ٣٥ — الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع لشمس الدين السخاوى .
٣٦ — الطالع السعيد لسكّال الدين الأدفوى .
٣٧ — طبقات الشافعية لتاج الدين السبكي .
٣٨ — العبر وديوان المبتدأ والخبر لولى الدين بن خلدون .
٣٩ — عقد الجمان لبدر الدين العيني ، مصور بدار السكتب المصرية .
٤٠ — الفتوة عند العرب للأستاذ عمر الدسوقي .
٤١ — فوات الوفيات لابن شاكر الكيفي .
٤٢ — كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام لتقى الدين بن حجة الحموى .
٤٣ — كنز الدرر وجامع الغرر لأبى بكر الدوادارى .
٤٤ — كوكب الروضة لجلال الدين السيوطى - خط بدار السكتب المصرية .
٤٥ — كيف يعمل العقل للسيرسرل برت - تعريب الأستاذ محمد خلف الله أحمد .
٤٦ — المدائح النبوية للدكتور زكى مبارك .
٤٧ — مسالك الأبصار لشهاب الدين بن فضل الله العمرى .
٤٨ — مصر فى العصور الوسطى للدكتور على إبراهيم حسن .
٤٩ — معجم البلدان لياقوت الحموى .
٥٠ — مطالع البدور فى منازل السرور ، للغزولى ، خط بالمكتبة الأزهرية .
٥١ — المنهل الصافى لأبى المحاسن بن تغرى بردى .
٥٢ — النابغة الذبياني للأستاذ عمر الدسوقي .
٥٣ — نسكت الهميان للصفدى .
٥٤ — نهاية الأرب لشهاب الدين النويرى .
٥٥ — الهامش على سلوك المقرئى للدكتور محمد مصطفى زيادة .

فهرس موضوعات المجلد الثامن

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
٣	المقدمة	٣١	تسجيل ابن عبد الظاهر
	الفصل الثاني	٣١	مع المنصور قلاوون
٦	في أثر البيئة السياسية في الشعر	٣٢	استيلاؤه على حمص ، يسجله
٦	الشعر بين دوافع البيئة وموانعها		ابن عبد الظاهر
٨	اتجاه ابن نباتة	٣٣	وصف فتح الدين بن عبد الظاهر
١٠	اتجاه صفي الدين الحلي		لمعركة حمص
١١	فرار بعض الشعراء	٣٤	وصف ناصر الدين بن النقيب
١٥	من نتاج البيئة السياسية		لفتح حمص
١٧	شجاعة بيبرس	٣٥	وصف بدر الدين ابن اياز المنبجي
١٨	فتح بلاد سويس يسجله ابن	٣٦	فتح قلاوون لحصن المرقب
	عبد الظاهر	٣٧	الشعر يسجل هذا الفتح
٢٤	الظاهر بيبرس يعبر الفرات -	٣٨	شعر ابن عبد الظاهر في وصفه
	وصف ابن عبد الظاهر	٣٩	قصيدة أخرى له في وصفه
٢٥	وصف بدر الدين بن يوسف	٤١	وفاة المنصور قلاوون
	المهمندار	٤٢	مرثية لمحبي الدين عبد الظاهر
٢٦	تسجيل شهاب الدين محمود الحلبي	٤٥	في عصر الأشرف خليل
٢٦	ناصر الدين محمود النقيب	٤٦	هدية سياسية للأشرف خليل
٣٠	موت بيبرس وراثا ابن عبد	٤٦	محبي الدين بن عبد الظاهر يصف
	الظاهر		الهدية
٣٠	وفد من التتار يلجأ إلى بيبرس	٤٧	لعبد الشواني

الموضوع	صفحة	الموضوع	صفحة
عين الشعر بين الناصر محمد والمظفر بيبرس	٧٧	وصف ابن عبد الظاهر لها	٤٧
موقف صدر الدين بن المرحل وغيره من الناصر محمد بن قلاوون	٧٧	الأشرف خليل يفتح عكا	٤٨
الشارح مساحي يهني الناصر بعودته إلى السلطنة	٧٨	تنبؤ البوصيرى بفتح عكا	٤٨
الزجل ينادى بعودة الناصر	٧٨	شعر ابن العنبري في استقبال الأشرف خليل	٤٩
الوداعي والصفدى وابن النقيب وغيرهم يرحبون بعودة الناصر ويهنئونه بها	٧٩	الشهاب الحلبي يسجل فتح عكا	٥١
الألغاز في ميدان السياسة	٨٠	شمس الدين بن الصائغ يهني بفتح عكا ويصفه	٥٧
أبيات ملغزة لصدر الدين بن المرحل في تحذير الأفرم نائب الشام من الناصر محمد	٨١	بدر الدين المنبجعي يهني بفتح عكا	٥٨
صفي الدين الحلبي والناصر بن قلاوون وعلاء الدين بن الأثير	٨١	الأشرف خليل يفتح قلعة الروم والشهاب الحلبي يصف الفتح ويمدح الأشرف	٥٨
نجنيس لصفي الدين الحلبي يعارض به الشاب الظريف	٨٢	عصر الناصر بن قلاوون	٦٢
صفي الدين الحلبي يمدح الناصر ابن قلاوون	٨٢	شعراء عصر الناصر بن قلاوون	٦٣
الناصر بن قلاوون في شعر ابن نباتة	٨٤	مبلغ صلة ابن نباتة بالناصر بن قلاوون	٦٤
خلفاء الناصر والشعر	٨٥	موقعة مرج راهط وانتصار الناصر فيها	٦٥
		علاء الدين بن عبد الظاهر يتغنى بموقعة مرج راهط	٦٦
		أبيات لنجم الدين بن العيني في وصف المعركة	٦٧
		مطولة فريدة في وصف المعركة	٦٩
		لابي بكر قاضي عجلون	٧٤
		أحسن ما قيل في هذه المعركة ، من نظم شمس الدين الطيبي	

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
٨٧	صلاح الدين الصفدى والمظفر حاجى	١٠٩	والامير دمرداش من الخاصكى ابن حجر العسقلانى والخليفة المستعين بالله .
٨٨	الزجل فى الميدان	١١٢	قصائد لابن حجر العسقلانى فى مدح ملوك اليمن وتونس .
٨٩	ابن نباتة و الناصر حسن	١١٥	تقى الدين بن حجة الحموى بمدح المؤيد شيخنا
٩٠	ابن نباتة يرثى تقى الدين السبكى ويدشوق إلى مصر	١١٨	تقى الدين بن حجة وصاحب تونس
٩١	ابن نباتة يمدح الناصر حسن بن الناصر محمد	١٢٠	زين الدين بن الخراط
٩٣	ابن أبى حجلة المغربى والناصر حسن ورجال عصره	١٢١	تأديب ملك قبرص ، وشعر ابن الخراط فى ذلك .
٩٤	ابن أبى حجلة المغربى والامير سعد الدين الجمدار	١٢٢	عودة الزجل وظهور بدر الدين الزيتونى .
٩٤	ابن أبى حجلة المغربى والامير يلبغا العمرى .	١٢٤	الشهاب المنصورى يسجل حادث سوار
٩٧	ابن أبى حجلة المغربى يمدح الناصر حسنا	١٢٤	الزيتونى يسجل رحلة قايتباى إلى الشام
٩٩	برهان الدين القيراطى يمدح الناصر حسنا	١٢٥	الزيتونى يرثى قايتباى
١٠٠	خلف الغبارى والأشرف شعبان	١٢٦	الزيتونى يسجل ثورة عرب عزالة
١٠٣	خلف الغبارى والظاهر برقوق	١٢٧	الزيتونى يرثى دولة الغورى
١٠٥	تقى الدين بن حجة الحموى والامير منطاش .	١٣١	الفصل الثالث
١٠٧	تقى الدين بن حجة الحموى		فى أثر البيئة الثقافية فى الشعر

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٣١	بين العلم والشعر	١٦٥	شروط العالم
١٣٢	شعراء علماء	١٦٥	أرجوزة السيوطي في التثبيت
١٣٤	أبيات لتقى الدين السبكي في		عند التثبيت ،
	الروافض	١٦٦	(ب) الأسئلة والأجوبة
١٣٤	أبيات لابن دقيق العيد في مدح	١٦٧	أبيات ابن الثقفى الزنديق ورد
	الرسول عليه الصلاة والسلام		العلماء عليه
١٣٤	أبيات لابن حجر في مدح	١٦٩	أبيات تتضمن أسئلة في النحو
	الرسول عليه الصلاة والسلام		وجواب ذلك
١٣٥	غزليات للسبكي وابن دقيق العيد	١٧٠	أبيات تتضمن أسئلة في الفقه
	وابن حجر		وجواب ذلك .
١٣٦	شعراء أميون	١٧١	(ج) الأغاز والأحاجي
١٣٩	ثقافة الشعراء	١٧٣	أحمد بن عبد الملك العزازي
١٤٦	من أسباب نشاط الشعراء		يلغز في شبابة
١٤٦	الرغبة في إظهار العلم	١٧٣	لغز في « من » للشهاب الحاي
١٤٨	حب المديح	١٧٤	لغز في دينار للصالح الصفدي
١٥١	النقد الأدبي	١٧٥	لغز في كوز لمحي الدين بن عبد
١٥٧	نتاج النشاط		الظاهر
١٥٧	(١) حقائق العلوم	١٧٥	لغز في باب له أيضاً
١٦٠	شعراء نظموا في العلوم	١٧٦	ألغاز أخرى
١٦٣	أبيات في الشجاعة لعلاء الدين	١٧٧	(د) البديعيات
	القونوي	١٧٨	أبيات بديعية لأمين الدين
١٦٤	أبيات لشهاب الدين بن فضل الله		السلجاني
	العمري في تاريخ الخلفاء	١٨٠	صفي الدين الحلي مخترع
	الفاطميين .		البديعيات
١٦٤	أبيات لعلاء الدين الباسجي في	١٨٢	أشهر البديعيات

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٨٤	أبيات من بديعية صفى الدين	١٩٨	(ز) الشعر القصصى والتشبيلى
١٨٥	الحلى أبيات من بديعية ابن حجة الحموى .	١٩٩	اللطائف والأشناف لفخر الدين ابن مكائس
١٨٦	(هـ) الحكمة والمثل والنصيحة	٢٠١	طيف الخيال لابن دانيال الموصلى
١٨٧	أبيات لآبى الحسين الجزار المصرى فى الكرم	٢٠٨	(ح) الاستجازه والإجازة
١٨٧	أبيات للقيسرانى فى طلب الرزق	٢٠٩	استجازه لمحمد بن جابر الأندلسى للصفدى .
١٨٨	أبيات لتقى الدين السبكى فى الدعوة إلى العلم والخلق	٢١٠	إجازة الصفدى له .
١٨٩	تقى الدين السبكى بوصى ولده	٢١١	إجازة لصفى الدين الحلى
١٩٠	أبيات لشافعى بن على ومجير الدين الدهلى	٢١٢	إجازة لزين الدين بن الوردى
١٩٠	ابن الوردى وشعر الحكمة والتنويه بلاميته	٢١٤	الفصل الرابع
١٩١	تحذيرات ووصايا لزين الدين بن الوردى ودعوة إلى اعتزال الناس	٢١٥	فى أثر البيئة الاجتماعية فى الشعر
١٩٢	أبيات أخرى فى المعنى نفسه	٢١٥	استبعاد الطبقة الحاكمة وأثره تنفس الجماهير عن طريق النكتة والحماسة الدينية وأثر ذلك فى الشعر
١٩٣	(و) الشعر الفلسفى والمذهبى	٢١٦	الشعراء وطالب الرزق
١٩٤	ابن الوردى وحياة الخنول	٢١٧	ابن الوردى وتمرين القرصمة
١٩٥	أبيات من شعره يدعو إلى الزهد والخنول	٢١٨	العلاقات الشخصية وأثرها فى الشعر
١٩٦	ابن نباتة يتحدث عن طلب اللذة		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢١٨	قصة عن السراج الوراق وأبي الحسين الجزار	٢٣٦	الاجتماعي
٢١٩	قصة عن نور الدين بن سعيد وجماعة من الأدباء	٢٣٨	تحليل للقصيدة الأولى وتلخيص لمعانيها .
٢٢٠	مفاكمة بين فخر الدين بن مكانس وبدر الدين البشتكي	٢٤١	تحليل للقصيدة الثانية وتلخيص لمعانيها
٢٢١	بين الأصفوني وفديه الدين .	٢٤٢	شهاب الدين الأعرج يحمل على القبط والترك والسلطان ، وينعى عليهم استئثارهم بالرزق
٢٢٢	معاقبة بين الصفي الحلبي وابن نباتة	٢٤٢	ابن إياس الحنفي ينقد الأتراك ابن أبي حجلة المغربي يتهكم على القبط .
٢٢٣	كتاب ألحان السواجم للصفدي	٢٤٣	بدر الدين الدمشقي ينقد وظائف الدواوين ويفضل عليها صناعة التعليم
٢٢٣	طائيات بين الصفدي والقيراطي	٢٤٣	ناصر الدين بن النقيب ينعى على بعض رؤساء زمانه
٢٢٤	الإيحاء	٢٤٤	ابن إياس يتهكم بشمس الدين ابن عوض
٢٢٤	الشطرنج بن تقي الدين السبكي وأبي حيان	٢٤٥	سيف الدين السامري يسخر بالأميرين : طوغان وإيدمر سيف الدين السامري ينقد أحد القضاة .
٢٢٦	العز بن عبد السلام يحـبـزه تلاميذه	٢٤٦	الغربة في النقد الاجتماعي
٢٢٧	ابن حجر العسقلاني يحكم بين ابن حجة وابن نباتة والقيراطي	٢٣٥	قصيدتان للبوصيري في النقد
٢٣١	ناصر الدين البارزي وبديعية ابن حجة الحموي		
٢٣٢	الغربة في النقد الاجتماعي		
٢٣٥	قصيدتان للبوصيري في النقد		

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
٢٤٧	ابن إياس الحنفي يصف جور الغورى	٢٥٩	صناعة الشعر سراج الدين الوراق يسخر بصناعة الشعر
٢٤٨	ابن إياس الحنفي يصف فرح الناس بموت الأمير طرا باى	٢٦٠	الهجاء الشاب الظريف يهجو ابن يعقوب
٢٤٨	ابن أبي حجلة المغربي يحمل على الجلبان ويصف عبثهم وظلمهم للناس .	٢٦١	من الخوافز إلى الشعر الرغبة فى التسلية
٢٤٩	الشار مساحى الشعاع يهجو القاضى بدر الدين بن جماعة .	٢٦٢	شهاب الدين بن فضل الله يصف دير بلوذان
٢٥١	شاعر يشكو القاضيين الهروى والبلقينى إلى الملك المؤيد	٢٦٣	السراج الوراق ودير شعران
٢٥٢	القاضى ابن النقيب بين نقد الشعراء	٢٦٤	المنافسات الأدبية
٢٥٢	السهروردى الشاعر يهجوناجرا جمال الدين السلمونى الشاعر	٢٦٥	المنافسة بين ابن نباتة والصفدى
١٥٣	يهجو معين الدين بن شمس	٢٦٦	أبياب من معانباتهما .
٢٥٣	جمال الدين السلمونى الشاعر يهجو القاضى عبد البر بن الشحنة .	٢٦٦	مداعبات بين ابن حجر والبدر العيني وبهاء الدين البرجى .
٢٥٦	القاضى ابن الحبال الحنبلى يتهكم بزواره المناققين .	٢٦٧	مجير الدين بن تميم وغيره يصف الروضة والدولاب
٢٥٧	فتح الدين بن سيد الناس يتهكم بالصوفية	٢٦٩	كثرة الشعراء وطبقاتهم
٢٥٨	كمال الدين الأدفوى ينقد التعليم والمتعلمين .	٢٦٩	شعراء عصر الناصر بن قلاوون
٢٥٩	زين الدين الوردى ينصح بترك	٢٧٠	شعراء التورية .
		٢٧٣	السبعة الشهب
		٢٧٤	الشاه إسماعيل يتهكم بالغورى ومصر ، فيرد عليه نحو مائتى شاعر .
		٢٧٥	امتزاج شعراء مصر والشام
		٢٧٥	حلبات الشعراء

الموضوع	صفحة	الموضوع	صفحة
(د) الشعر الإخواني	٣٠٤	فتاح هؤلاء الشعراء	٢٨٠
شوقيات بين علاء الدين بن غانم	٣٠٦	من أغراض الشعر	٢٨٢
والصفدى		(١) المديح النبوى	٢٨٢
معانيات بين الشهاب الحلبي وتقي	٣٠٧	شعراء المديح النبوى	٢٨٤
الدين الصالحى		بردة البوصيرى وأثرها	٢٨٥
ه - الاستدعاء	٣٠٩	مدحة نبوية للشاب الظريف	٢٨٧
استدعاء لفخر الدين بن مكانس	٣١١	مدحة نبوية لتقى الدين شبيب	٢٨٨
استدعاء للصفي الحلبي	٣١٢	ابن حمدان	
استدعاء آخر للصفي الحلبي	٣١٣	مديح نبوى لزبن الدين بن	٢٨٩
استدعاء للشاب الظريف .	٣١٣	الوردى	
عمدة الحرفاء وقدره الظرفاء .	٣١٤	رائية ابن نباتة فى مدح الرسول	٢٩٠
فى آداب المنادمة لفخر		عليه الصلاة والسلام .	
الدين بن مكانس		(ب) الزهد والتصوف	٢٩٢
و - المجون	٣١٦	من شعراء هذا الفن	٢٩٣
زين الدين بن الوردى يحذر من	٣١٧	حديث عن لامية ابن الوردى	٢٩٤
حب المرد .		أبيات لشمس الدين بن القيم فى	٢٩٦
من مجونيات محيى الدين بن	٣١٨	وصف الجنة	
عبد الظاهر .		صلاح الدين كبكلمدى والحياة	٢٩٧
الصفدى يصف غلاما	٣١٨	ابن نباتة والزهد	٢٩٧
نفر الدين بن مكانس يصف بعض	٣١٩	(ح) الشكوى :	٣٠٠
المجان		ابن الوردى يشكو الزمان وأهله	٣٠١
أبيات أخرى فى المعنى لبعض	٣١٩	الشاب الظريف يبت همهم ويشكو	٣٠٢
الشعراء .		الزمان	
ز - الخمرات	٣٢٠	ابن نباتة يعلل لتبكير شبيهه	٣٠٣
نور الدين الإسعردى يفضل	٣٢١	ابن دانيال الموصلى يشكو	٣٠٤
الحشيشة على الخمر .		زوجته	

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
٣٢٢	ثم يفضل الخمر على الحشيشة	٣٥١	وصف الخال
٣٢٢	خمرية لمحى الدين بن عبد الظاهر	٣٥٢	وصف مواضع أخرى من مواضع الجمال
٣٢٣	السراج الوراق وراهب دير شعران	٣٥٧	ي - تسجيل الحوادث والعادات
٣٢٤	أبيات خمرية في صدر مدحة لابن نباتة	٣٥٨	أبيات الدهمار وابن أبي حجلة في وصف الوباء
٣٢٥	خمرية لبرهان الدين القيراطي	٣٥٩	أبيات للبزاغي في نقص النيل
٣٢٦	صدر الدين بن الوكيل يصف الخمر	٣٦٠	شاعر يخاطب النيل ليزيد
٣٢٧	أبيات لابن دانيال الموصلی	٣٦١	شمس الدين النواجي ونقصان النيل
٣٢٨	ابن النقيب وابن المنير يسخران بإبليس وخمره	٣٦٣	شكوى السيوطي من وباء عام ٩١٠ هـ
٣٢٩	ح - الغزل	٣٦٣	شاعر يتغزل في الرغبة لارتفاع الأسعار
٣٣١	الصفدي وغلطان الأتراك	٣٦٤	بهاء الدين يعمل لسقوط منارات جامع السلطان حسن
٣٣١	ابن نباتة يصف العارض	٣٦٥	نماذج أخرى للوداع وغيره في ملابس الطوائف
٣٣١	غزل مذكر لبدر الدين بن يوسف المهندار	٣٦٦	رثاء الأعلام
٣٣٢	غزلية لابن خلكان	٣٦٨	رثاء بركة الرطلي لبدر الدين الزيتوني
٣٣٣	غزلية للشباب الطريف	٣٧٠	وصف ليلة من لياليها لابن إياس الحنفي
٣٣٣	أبيات في المعنى لتقى الدين السروجي وغيره	٣٧١	وصف ليلة بالمقياس لابن إياس الحنفي
٣٣٦	قصة غزلية لشرف الدين البوصيري	٣٧٢	ك - وصف أدوات البيئة
٣٣٨	وصف العيون		
٣٣٩	وصف اللحظ		
٣٤١	وصف الدمع		
٣٤٨	وصف العذار		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣٧٤	وصف إبريق اسراج الدين المجان	٤٢٠	الاكتفاء . حسن التعليل .
٣٧٤	وصف قنديل له أيضاً		لزوم ما لا يلزم
٣٧٤	وصف مبخرة لابن أبي حجلة	٤٢١	التورية بالمصطلحات
٣٧٥	وصف القلم للشباب الظريف	٤٢٢	٣ - الوضوح
	وابن حجة الحموى	٤٣٢	٤ - الوصف والتصوير
٣٧٦	وصف القلم لابن نباتة .		والتشخيص
٣٧٧	الفصل الخامس	٤٣٦	تحليل أبيات خمرية لابن نباتة
	في أثر البيئة بأنواعها في نواحي	٤٣٨	وصف الشمعة لشمس الدين المشد
	الشعر الفنية	٤٤٠	تحليل أبيات خمرية أخرى
٣٧٧	أساليب الشعر وطرق تعبيره		لابن نباتة
	وعرض معانيه	٤٤٢	نماذج أخرى للشباب الظريف
٣٧٨	١ - توخي السهولة		وغيره
٣٨٦	٢ - اصطناع البدع	٤٤٤	٥ - الفكاهة والنكتة
٣٨٦	أثر الدولة الحاكمة	٤٤٧	٦ - المعارضات والمناقضات
٣٨٨	مذهب القاضي الفاضل	٤٥٥	٧ - السرقات الشعرية
٣٩٠	أمثلة من شعر الفاضل	٤٦٥	التقليد والتجديد
٣٩٤	الدراسات القرآنية	٤٦٨	٨ - العبارات والأمثال السوقية
٣٩٥	براعة الاستهلال	٤٨٠	٩ - الخروج عن اللغة وكثرة
٣٩٩	الجناس		الضرورات الشعرية
٤٠٤	جناس التورية	٤٩٠	الأوزان والقوافي وما يتصل بها
٤٠٥	التورية	٤٩٠	المطولات والمقطوعات
٤٠٨	الاستخدام	٤٩٤	الأوزان القديمة
٤١١	التضمن	٤٩٧	القوافي
٤١٦	الاقتباس	٥٠٣	الموشحات
٤١٨	الطباق	٥٠٨	الزجل
٤١٩	المقابلة	٥١٩	خاتمة

فهرس أعلام المجلد الثامن

١٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ،
٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ،
٢٦٨ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ،
٢٨٠ ، ٣٢٨ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ،
٣٦٢ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ،
٣٧٢ .

ابن البقي المصري : ٤٥١ ، ٤٥٢ .
ابن تغري بردى « أبو المحاسن » :
١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ٢٧٩ ،
٢٨٠ .

ابن تقي : ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ .
ابن الثقي : ١٦٧ .
ابن جابر الأندلسي : ١٨٢ ، ١٨٣ ،
٢٠٩ ، ٤١٠ .

ابن حجاج : ١٤٤ .
ابن الحجار الشاعر : ٣٧٤ .
ابن حجر العسقلاني « شهاب الدين » :
١٢ ، ٩٥ ، ١٩ إلى ١١٤ ،
١٢١ ، ١٣٠ ، ١٣٤ إلى ١٣٧ ،
١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٦٢ ،
١٦٧ ، ١٧٦ ، ١٨٧ ، ٢٢١ ،
٢٢٢ ، ٢٢٧ إلى ٢٣٠ ، ٢٤٢ ،
٢٤٣ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ،
٢٦٧ ، ١٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨

(١)

الآثاري : ٢٧٨ ، ٢٨١ .
أبان بن عبد الحميد اللاحقي : ١٥٧ .
إبراهيم بن علي الحرائي الشهير بعين
بصل : ٤٢٨ .

إبراهيم المعمار : ٦٣ ، ١٣٦ ، ٢٧١ ،
٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٣٠٨ ، ٣٥٨ ،
٤٠٥ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٥١٧ ، ٥٢٣ .
الأبرقوهي : ١٤٣ .
أبغا التتري : ١٩ ، ٣٨ .

ابن أبي حجة المغربي « شهاب الدين » :
٩ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٣ إلى ١٠٠ ، ١٥٣ ،
١٥٦ ، ١٩٤ ، ٢٤٢ ، ٢٤٨ ، ٢٧١ ،
٧٨ ، ٢٨٤ ، ٣٥٨ ، ٣٧٣ ،
٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٤٥ ، ٤٥٦ ،
٤٦١ ، ٤٧٠ ، ٤٧٨ ، ٤٩٢ .
ابن أبي لوفاء « أبو الفضل » :
٢٧٩ ، ٢٧١ .

ابن الأثير « صاحب المثل السائر » :
٢٧١ ، ٢٧٩ .
ابن إياس الحنفى المؤرخ : ٢١ ، ٦٦ ،
٧٨ ، ١٠٠ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ،
١١٤ ، ١٢٤ إلى ١٢٨ ، ٣٠ ،

ابن خلصان « شمس الدين » : ٣٣٢ .

ابن دانيال الموصلی « شمس الدين » :

١٢ ، ١٥ ، ٦٣ ، ١٦١ ، ٢٠١ ،

٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ،

٢٧٧ ، ٢٠٤ ، ٣١٨ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ،

٤٧٢ ، ٤٧٧ ، ٥١٢ .

ابن دقيق العيد القشيري « تقي الدين »

١٢ ، ١٢٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٣ ،

١٦٧ ، ١٩٤ ، ٢٨٤ ، ٤٥٠ .

ابن الربيع « مجاهد بن سليمان » : ١٣٦

ابن زيدون الشاعر : ١

ابن سلام « أمير العرب » : ٥١٤

ابن سناء الملك : ٢٧٠

ابن سيد الناس اليعمری « فتح الدين » :

٦٣ ، ١٤٣ ، ٢٥٧ ، ٢٧٧ ،

٢٨٤ ، ٢٨٥ .

ابن سينا : ١٦٢

ابن شاكر الكنتي : ١٣٦ ، ١٣٧ ،

١٤٤ ، ١٩٠ ، ١٢٠ ، ٢٣٧ ،

٢٢٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ،

٢٥٧ ، ٢٨٠ ، ٣٠٤ ، ٣٠٨ ،

٣١٨ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٢٢٧ ،

٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٣٢٧ ، ٣٧٣ ،

٤٤٦ ، ٤٥٤ .

ابن شاهد الجيش : ١٤٥

ابن ضامن الضبع : ٥٠

ابن الطفال : ٥١٢

ابن العاقل الشاعر : ٢٧٤

٢٧٩ ، ٢٠ ، ٢٨٤ ، ٢٩٤ ،

٢٩٨ ، ٣٤٠ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ،

٣٧٤ ، ٤٠٤ ، ٤١٨ ، ٤٢٠ ،

٤٣٨ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٦٧ ،

٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ،

٥١٥ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ .

ابن حجة الجوى « تقي الدين » : ٩ .

١٢ ، ٨٩ ، ١٠٥ ، إلى ١٠٩ ، ١١٤ ،

١١٥ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،

١٢٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ،

١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٨٢ ،

إلى ٨٥ ، ٢٠٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،

٢٢٧ إلى ٢٣٢ ، ٢٤٩ ، ٢٥٩ ، ٢٦٦ ،

إلى ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ، ٣١١ ، إلى

٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ،

٣٢٦ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ،

٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ،

٣٥٦ ، ٣٦٦ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٨١ ،

٣٨٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ،

٣٩١ ، ٩٤ ، إلى ١٩٩ ، ٤٢٦ ، ٤٢٢ ،

٤٤٢ ، ٤٤٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ،

٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٧٠ ، ٤٨٢ ، ٤٨٥ ،

٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٥٠٢ ، ٥٠٩ ، ٥١٧ ،

٥٢٤ ، ٥٢٥ .

ابن حرمون : ٢٣٥ .

ابن الخراط : في زين الدين .

ابن خطيب داريا : ٢٧٨ .

ابن خطيب المزة : ١٤٣

ابن خلدون : ٦٦ ، ٥١٧ .

١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٧١
 ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٣١١ ، ٣١٤ ، ٣١٥
 ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٥
 ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤٦٢ ، ٤٦٥ ، ٤٩٢
 ابن مكانس « مجد الدين » : ٢٧١ ،
 ٢٧٩ ، ٤٠٤

ابن ميكال : ٣٩

ابن ناصر الدين الشاعر : ١٩٨

ابن نباتة المصري « جمال الدين محمد » :

٨ إلى ١٣ ، ١٩ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٨٢
 ٨٨ إلى ٩٠ ، ٩٥ إلى ١٤٣ ، ١٤٦ إلى
 ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٩٦ ، ١٩٧
 ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠
 ٢٢١ ، ٢٤٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨
 ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧
 ٢٨٠ ، ٢٨٤ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢
 ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤
 ٣١٨ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٣١ ، ٣٣٨
 ٣٢٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٥٠ إلى ٣٥٧
 ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٩
 ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩
 ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٦
 إلى ٤١٧ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤١٧ ، ٤٣٦
 ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٥ ، ٤٥٦ ، ٤٦٠ إلى
 ٤٦٣ ، ٤٦٦ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢ ، ٤٧٥
 ٤٧٨ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٥ ، ٤٨٨
 ٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥
 ٤٩٧ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤
 ٥٢٤ ، ٥٠٧

ابن عبد الظاهر « يحيى الدين » : ٩ ، ١٢

١٦ إلى ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٧ إلى ٤٨

٨٣ ، ١٢٩ ، ١٦٠ ، ١٧٥ ، ٢٧٠ ، ٢٨٤

٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٧٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦

٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٥٨ ، ٤٦١

٤٧٠ ، ٤٧٢ ، ٤٧٦ ، ٥١٢ ، ٥١٤

٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦

ابن عسا : ٢٤٢ ، ١٦

ابن العفري برهان الدين

ابن العماد : ١٤٥ ، ١٧٦

ابن العماد : ٢٢٨ ، ٢٧١ ، ٣٢٥

ابن العماد : ٤٠٩ ، ٤٠٩ ، ٥٠

ابن فضل الله العمري « شهاب الدين » :

٨٤ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٥

١٦٤ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣

٢٧٧ ، ٣٨١ ، ٣٩٤ ، ٤٠٦ ، ٤٧٠

٤٩٧

ابن فضل الله العمري « علاء الدين » :

٨٤ ، ٩٠ ، ٣٢٤ ، ٤٤٨

ابن قاضي شهاب : ١٤٠

ابن قزمان : ٥١٠

ابن الكازروني : ٣٢٧

ابن كثير : ٥٧

ابن مالك الأندلسي النحوي « جمال

الدين » : ١٥٨

ابن المطهر الرافضي : ١٣٤

ابن المعتز : ٣٩٥ ، ٣٩٦

ابن مقاتل : ٥٠٩ ، ٥١٢

ابن مكانس « فخر الدين » : ٨٨ ،

أبو الفداء إسماعيل « المؤيد صاحب
حياة » : ٩ ، ١٠ ، ٢٩ ، ٦٥ ، ٨٤ ،

٣٩٨ ، ٩٢ ، ٤٠٧ ، ٤٦٦ .

أبو الفضل العراقي : ودي جمال

أبو المحاسن بن تغري « كنداسي
الدين » : في ابن تغر : ٥٤

أثير الدين أبو حيان أيف
١٤٠ ، ٢١٤ ، إلى الح

أبو النجاة : ١٠ : نيد

أبو نواس : ٤٦ : ١١

أحمد بن عبد : ١١

أحمد بن الملك العزاري : ١١

أحمد الزيش البراسي : ٥١٢

أحمد بن : ٢٧٨

الأدري : ٤٦٥

ارغ شاه : ٩٦

أرس « أمير مجلس » : ١٢٩

أك بن ططخ « الأتابكي » : ١٧٣

اسكندر الأكبر : ٩١

أعد بن ماتي : ٤٩٩

أشرف إسماعيل « صاحب اليمن » : ١١٣

أشرف برسبای : في برسبای

أشرف خليل بن قلاوون : في قلاوون

أشرف شعبان حفيد قلاوون : في شعبان

أشرف طومان باي : في طومان باي

أشرف قانصوه الغوري : في قانصوه

أشرف قايتباي : في قايتباي

أشرف الشاعر : ٢٧٤

أعشى قيس : ٢٨٢

ابن النقيب « ناصر الدين » : ٢٧ ،

٢٧٠ ، ١٤٣ ، ١٧٣ ، ٧٩ ، ٣٤

٢٧٦ ، ٣٢٨ ، ٣٤٠ ، ٤٢١ ،

٤٨٤ ، ٤٧٧ ، ٤٨٥ ، ٤٩٢ ، ٤٩٧ ،

٥١٣ ، ٥١٢ ، ٥٠١

ابن الوردي « زين الدين » : ٦٣ ،

١٦٢ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، إلى ١٩٦ ،

٢٢ ، ٢٣ ، ٢١٧ ، ٢٥٩ ، ٢٧٠ ،

٢٠١ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٣٨٩ ، ٢٩٠ ،

٢٩٤ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١٧ ،

٣١٨ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٨٠ ، ٤٥٦ ،

٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٨٤ ، ٤٩٢

ابن وفاء السكندري : ٢٩٢ ، ٥٠٤

ابن هبة الله الاصفهاني : ٢٧٠

ابن هشام : ١٦٢

ابن اليزدي : ٤٩٥

أبو بكر بن دريس : ٢٩

أبو بكر بن اللبانة : ٢٧٠ ، ٢٧٧

أبو بكر الصديق : ٩١ ، ١٣٤

أبو بكر فاضل عجلون : ٦٩

أبو تمام « حبيب بن أوس الطائي » : في حبيب

أبو جليلك الحلبي : ١٧٧

أبو الحسين الجزار المصري : ١٢ ، ١٤

١٥ ، ٦٠ ، ١٨٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ،

٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٧٠٠ ، ٢٧٦ ، ٣١٨ ، ٣٤٣

٣٤٥ ، ٣٧٤ ، ٤٤٦ ، ٤٨٣ ، ٤٩٢ ، ٥٢٣

أبو الطيب المتنبي : في المتنبي

أبو العلاء المعري : ٢٩٨

(ل)

لاجين بن عبد الله الذهبي : ١٨٩
 لاجين ، الملك المنصور : ٨٠ ، ٦٣ ،
 ٣٢٠
 ليفون بن هيتوم «التسكفور» : ١٨ ،
 ٢٤ ، ٢٣ ، ١٩

(م)

المؤيد شيخ المحمودي «الملك» : في شيخ
 المازني الدهان الشاعر : ٢٧٠
 المتنبى أبو الطيب : ٩ ، ٨٣ ، ١٤٥ ،
 ٤٤٩
 المتنبى المصري « شهاب الدين » :
 ٢٧٩ ، ٢٧١
 المتوكل « الخليفة العباسي » : ٩
 مجد الدين بن الحياض : ١٣٧ ، ٢٧٠ ،
 ٢٧٧
 مجد الدين بن الظهير : ١٧٣
 مجد الدين بن مكانس : في ابن مكانس
 مجد الدين الأربلي : ٢٧٧
 مجد الدين إسماعيل السكناي : ٥٠٣
 مجير الدين بن تميم : ٢٦٧ ، ٢٧٠ ،
 ٢٧٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ،
 ٣٤٩ ، ٢٥٢ ، ٤٢٣ ، ٤١٨ ،
 ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٨٥
 مجير الدين اللطفي : ١٩٠
 محمد بن أبي بكر السكاكيني : ١٦٨ ،
 ٤٣٠

قطلو شاه التتري : ٦٥

تطنبة « شرف الدين الأصفوني » :
 ٢٧٠ ،
 ٢٠ ، ٩ ،
 ٢٠ ، ٣١ إلى ٤٦ ، ٨٠ ، ٧٨ ، ١٠٠ ،
 ٥١٢ ، ٥٩

قيت الرجبي : ٢٤٢

القيراطي « برهان الدين إبراهيم » :
 ٢٢٤ ، ٢٢٣ ، ١٤٥ ، ١٠٠ ، ٩٩
 ٢٧٧ ، ٢٧٦ ، ٢٧١ ، ٢٢٨ ، ٢٢٧
 ٣٤٠ ، ٣٢٥ ، ٣٢٤ ، ٢٨٤ ، ٢٨٠
 ٣٦٧ ، ٣٦٦ ، ٣٥٦ ، ٣٥٥ ، ٣٥١
 ٥٢٥ ، ٥٢٤ ، ٤٩٢ ، ٤٧٦
 القيسراني الشاعر « إسماعيل بن محمد »
 ٢٧٠ ، ٢٦٩

(ك)

كتبغا المنصوري « الملك » : ٦٣
 كجك « علام الدين الملك » : ٨٥
 كعب بن زهير : ٢٨٢
 كمال الدين بن الزملكاني : ٩٥ ، ٢٢٧ ،
 ٤٩١ ، ٤٥٠ ، ٣٢٤ ، ٢٣١
 كمال الدين بن العديم : ٢٢٠
 كمال الدين الأدفوي : ٢٥٢ ، ٢٥٨ ،
 ٢٧٩ ، ٣١١ ، ٣١٩
 كمال الدين الأعمى : ٤٤٦
 كمال الدين الشريشي : ٤٥٢
 كيخسرو : ٥٩
 كيقباز : ٥٩

محمود الحليلي الشاعر : ٢٧٤
 محي الدين بن النحاس : ٤٩١
 محي الدين بن عبد الظاهر : في ابن
 عبد الظاهر
 محي الدين بن قرناص : ٤٠٨ ، ٤٦٢ ،
 ٤٦٨ ، ٤٦٣
 محي الدين بن النقيب : ٢٥٢
 محي الدين النووي : ١
 مراد كامل : ٢٤
 المستعين بالله العباسي « الخليفة » :
 ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ،
 ١١٣ ، ١١٧
 المستكفي بالله العباسي : ٧٧ ، ٧٢
 المعتصم « الخليفة العباسي » : ٩
 معين الدين بن حشيش : ٣٦٠
 معين الدين بن شمس : ٢٥٣
 معين الدين بن أولو الفهرى : ٢٧٧
 المقرئ « تقي الدين » : ٢٢ ، ٢٤
 ٣٦ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٦٦
 ١٠٧ ، ١٤٠ ، ١٨٠
 المنصور الأرتقي : ١٠ ، ١١
 المنصور أبو بكر « الملك » : ١٥
 المنصور « صاحب حماة » : ١٩
 المنصور عبد العزيز « صاحب تونس » :
 ١١٣
 المنصور علي بن الأشرف : ١٠٠ ،
 ١٠٣
 المنصور قلاوون : في قلاوون

محمد بن أحمد بن عمر « بدر الدين البراز
 المنبجي » ٣٥ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ٧٩
 محمد بن الأحمر : ١١٨
 محمد بن البارزي « الناصري » : ١١٤
 ١٢٠ ، ١٨٣ ، ٢٣١ ، ٤٩١
 محمد بن حاجي « الملك المنصور » : ٨٩
 ٩٧ ، ١٠١ ، ١٠٢
 محمد بن قاصوه الغوري « الناصري » :
 ١٢٩
 محمد بن قايتباي « الملك الناصر » : ١٢٦
 محمد بن قلاوون « الملك الناصر » : ٨
 ٦٢ إلى ٦٧ ، ٧٤ ، ٧٦ إلى ٨٥ ،
 ٨٨ ، ٩٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧٧ ، ٣٦٠ ،
 ٣٦٥ ، ٢٧٩ ، ٤٤٩ ، ٥١٢ ، ٥١٣
 محمد بن قونصوه بن صادق الشاعر
 « الناصري » : ١٢٧ ، ١٣٥ ، ٢٧٩
 محمد بن موسى : ٧٩
 محمد بن يوسف المهندار « بدر الدين » :
 ٢٥ ، ٣٣١
 محمد جميل الشطبي : ١٦٢
 محمد دياب : ١٨٢ ، ٤٩٩
 محمد ناظم الملتقي : ١٨٦
 محمود الحلبي « شهاب الدين أبو الشناء » :
 ١٢ ، ٢٦ ، ٥١ إلى ٥٨ ، ٨٣ ،
 ١٥٢ ، ١٧٣ ، ٢٧٧ ، ٢٨٤ ،
 ٣٠٧ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ،
 ٣٦١ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٤٠٠ ،
 ٤٠٦ ، ٤٥٣ ، ٤٧٠

نصير الدين الحامى : ١٥٠١٢ ، ٢٦٩

٥٠٤٠٤٨٣٠٢٧٧٠٢٧٠

النواجى « شمس الدين » : ١٨٧٠١٥٣

٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، ٣٢٦

٥٠٥٠٥٢٤٠٥٠٥٠٣٥٩

نور الدين الإسعردى : ٣١٨٠٢٧٧

٥٢٣٠٤٨٨٠٣٢١

نور الدين الفيومى : ٢١٢

نور الدين على بن سعيد المغربى :

٢٧٨ ، ٢١٩

نور الدين على سبط ابن الفارض :

١٦٠

نور الدين المقرى : ١٦٢

نوروز الحافظى : ١٠٩ ، ١١٠

١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧

النويرى « شهاب الدين » : ٥٧ ، ٥٨

٢٨٠

(٥)

هلاون « هولاء كثر التترى » : ٣٧ ، ٣٨

(و)

الوراق « سراج الدين » : ١٢ ، ١٣

١٥ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢

٢٥٩ ، ٢٦٣ ، ٢٧٠ ، ٣١٨

٢٢٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٣ ، ٣٤٧

٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٤٠٧ ، ٤١٥

٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٤٦٧ ، ٤٧٦

٤٨٧ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٥٢٤

المنصور لاجين « الملك » : فى لاجين

منطاش « الأمير تمربغا الأفضلى » :

١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٤٤٠

موسى بن بقسمطة الشاعر : ٢٧

موسى الهادى ٤٩٩٠

(ن)

النايعة الذبياني : ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٢٤

ناصر الدين بن الطحان : ٣٧٤

ناصر الدين بن المنير الشاعر : ٢٣٨

ناصر الدين بن النقيب : فى ابن النقيب

ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر :

٧٩ ، ١٦٧ ، ١٦٨

ناصر الدين المنزلى : ٥٠٢

ناصر الدين الواسطى : ١٠١ ، ٥١٢

الناصر فرج بن برقوق « الملك » : فى

فرج

الناصر محمد بن قايتباى « الملك » : فى

محمد

الناصر محمد بن قلاوون « الملك » : فى

محمد

الناصرى محمد بن البارزى . فى محمد

ناصر الدين النشائى : ٤٢٠

الناصرى محمد بن قونصوة بن صادق :

فى محمد

نبيه الدين عبد المنعم : ٢٢١ ، ٢٢٢

نجم الدين بن العيني ٦٧٠

نجم الدين الخضر اوى : ١٦٣ ، ٢٦٤

نجم الدين الطوسى : ١٦٧

نجم الدين المرجانى : ١٤٦

يشبك الدوادار : ٣٠
يلبغا العمرى الناصرى
١٠٩٧، ٩٦، ٩٥
يوسف بن أيوب د
الأيوبى : ٣٦، ٥٥
يوسف بن سيف الدولة الش

ولى الدين أبو زرعة العراقى : ١٤٦

وليم موير : ٥٠

(ى)

يحيى بن سبع : ٢٥٤

يحيى بن على المنجم : ٤٩٩

يحيى الخباز الحموى : ٢٧١

انتهى والله أعلم . والحمد لله من قبل ومن بعد
